

د. حسين مؤنس

تاريخ قريش

دراسة فى تاريخ أصغر قبيلة عربية
جعلها الإسلام أعظم قبيلة فى تاريخ البشر

دار الرشاد



تاريخ قريش

دراسة فى تاريخ أصغر قبيلة عربية
جعلها الإسلام أعظم قبيلة فى تاريخ البشر

مؤنس ، حسين .

تاريخ قريش : دراسة فى تاريخ أصغر قبيلة عربية جعلها الإسلام أعظم قبيلة فى تاريخ البشر / حسين مؤنس . - ط ١ .
- القاهرة : دار الرشاد للنشر والتوزيع ، [٢٠٠٧]

٨٤٨ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم .

تدمك : ٤ - ٠٦٠ - ٣٦٤ - ٩٧٧

١ - قريش (قبيلة) ١, ٩٢٩

أ - العنوان

الناشــــــر : **دار الرشـــاد**

العنـــــوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة

تليفاكــــس : ٣٩٣٤٦٠٥

بريـد إلكترونى : **Der al rashad @ hot mil com**

رقــم الإيـداع : ٢٠٠٧/٨٩٧٤

الترقيـم الدولى : 4 - 060 - 364 - 977

طبــــع وجمع : **عربية للطباعة والنشر**

العنـــــوان : ٧ ، ١٠ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين

تليفـــــون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣

الطبعـة الثـالثة : ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م (والأولى للدار)

الغلاف للفنان : **عبادة الزهيرى**

مراجعة وفهارس : **عادل أبو المعاطى**

تاريخ قريش

دراسة فى تاريخ أصغر قبيلة عربية
جعلها الإسلام أعظم قبيلة فى تاريخ البشر

د . حسين مؤنس




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، الرحمة المهداة .

أما بعد ، فهذه دراسة لقريش وتاريخها ، أعان الله عليها ، ويسَّر أسبابها ، فتمت بمعونته ، وتيسرت بسابغ فضله ، فله - سبحانه - الفضل والمنة بداية ونهاية .

وفكرة القيام بدراسة لقبيلة قريش وتاريخها ، وأسباب قوتها وشفوفها على غيرها من قبائل الجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده ، وصراعها مع الإسلام رغم طلوع رسول الله ﷺ من بين أظهرها ، ثم دخولها فيه ووصولها إلى رياسة دولته ، وما جرى عليها بعد ذلك من تصاريف الزمان وما كان لذلك من آثار فى تاريخ أمة الإسلام ، هذه كلها موضوعات دارت فى ذهنى من زمن طويل ، لأن قريشاً كانت العمود الفقرى للتاريخ الإسلامى فى معظم عصوره ، ولا يتأتى فَهْم هذا التاريخ على وجهه إلا إذا درس الباحث شأن قريش - وهى كانت دائماً من أصغر قبائل العرب حجماً ، وكيف ظهرت فى التاريخ ؟ وكيف تمكنت من بناء نفسها وسيادة غيرها من قبائل الجزيرة ، وبينها قبائل ضخمة كالشعوب ، من أمثال تميم والأزد وقضاعة وعبد القيس وهوازن وغطفان ، وصمودها فى صراع القبائل فى بحر الرمال والصخور قبل ظهور الإسلام .

هذه كلها موضوعات مباحث شائقة وشاقة فى نفس الوقت ، ولكنها ضرورية لمن يريد أن يدرس السيرة النبوية الجميلة وموقف قريش منها وانقسامها إلى قريش الإيمان وقريش الكفر ، وما كان من صراع بين القريشين ، وانتصار قريش الإيمان ،

وهى الأقل عدداً وثروة . واندراج قريش الكفر فيها ، ثم كيف وصلت عدوة الإسلام التى دخلت الدين فى السنة الحادية عشرة كما يقولون ، واقتدرت رغم ذلك على الوصول إلى رياسة أمة الإسلام ، واستطاعت تحويل الأمة المجاهدة إلى دولة ذات ملك وسياسة وغايات دنيوية ، وما كان لذلك كله من آثار بعيدة المدى فى تاريخ أمة الإسلام .

ولم أكن لأُقْدم على ولوج هذا الباب وأنا منصرف بكليتى إلى إنجاز أطلس تاريخ الإسلام وكتابة السيرة النبوية ، وكل منهما مطلب يستنفد العمر الطويل ، ولكن الظروف شاءت أن أكون فى مدينة الرياض فى خريف ١٩٨٢ ويضمنى مجلس أدب وعلم مع الأخ الأستاذ علوى طه الصافى فى دار الفيصل ، ويقترح الصديق أن أكتب عن قريش دراسة خاصة لمجلته « فى نحو عشرين صفحة » وأمضى وأشرع فى العمل، وبعد حين أستأذن الأخ فى أن نجعل الدراسة كتاباً صغيراً فى نحو مائتى صفحة ، ولا يزال الموضوع يتفتح أمامى والدراسة تستدرجنى من مطلب إلى مطلب ، ومن مرجع إلى مرجع ، وخدعنى البحث عن نفسى وعن نفسه فأجد نفسى فى النهاية أمام مادة بلا نهاية ، ويكون شأنى معها شأن واضع أى قاموس أو معجم ، فإن المشكلة مع واضع القاموس ليست : ماذا يضع فيه ، بل ماذا لا يضع ؟

ثم يلقانى الأخ الصديق الأديب الناشر محمد بن على الوزير ويقول : ضع كل ما تحب وأنا بِنَشْر ذلك زعيم ، فأتشجع وأمضى حتى أصل بالبحث إلى ما ترى ، وقد حررته وعدت عليه بالمراجعة والتدقيق وإعادة الكتابة مرة بعد أخرى ، ودفعت به إلى المطبعة وأنا جِدُّ متخوف ، فإن الميدان واسع ، والموضوعات متعددة معظمها جديد على البحث ، والموضوع فى جملته بالغ العسر ، ولكنى أطمع دائماً فى كرم القارىء وإحسانه ، وهذه على أى حال أول محاولة لمؤرخ محدث فى التأريخ لقريش منذ ظهورها على مسرح التاريخ إلى يومنا هذا ، ومن هنا فإن احتمالات الخطأ كثيرة والقارىء مرجو أن يحسب حساب هذا كله وهو يقرأ هذا الكتاب ، وإذا شاء أن يعتبر هذا الكتاب كله مجرد بداية لدراسة تاريخ قريش فذلك فضل منه وأريحية . وهذه المطالب يحاولها الباحث مرة بعد مرة ، ويراجع ما يقوله الناس فيه طوراً بعد طور

والعلم لا يعرف شيئاً اسمه الكلمة الأخيرة وخاصة فى موضوع بهذا الاتساع والأهمية .

والكتاب فى ذاتـه ضخم ، ولا يحسن أن أزيده طولاً بالإسـراف فى التقديم ، وإنما لا يحسن بى أن أختم هذه الكلمة دون أن أتقدم بالشكر إلى الأخوين الكريمين : إبراهيم الوزير ، ومحمد الوزير ، والصديق الدكتور محمود على مكى الذى أعاننى فى مراجعة بعض تجارب الطبع ، وتلميذى محمد فخرى الوصيف الذى شاركنى فى مهمة مراجعة الكتاب وتصحيح تجارب الطبع والإشراف على المراحل الأخيرة للفراغ منه ، والله سبحانه من وراء القصد والنية .

القاهرة : رمضان ١٤٠٦هـ / يونيو ١٩٨٦م .

خادم العلم

حسين مؤنس

القسم الأول

قريش قبل الإسلام

ظهور قريش وأوّليّات تاريخها

مَـدخـَل

من مصاعبنا الكبيرة مع الأصول العربية التى نعتمد عليها فى إنشاء دراساتنا التاريخية أنها تقدم لك الكثير جداً مما لا تحتاجه ، والقليل جداً مما تحتاجه ، ومادتها فى ذاتها غنية ووافرة ، ولكن هذه المادة لا تعطيك إلا جانباً ضئيلاً من الإجابة على الأسئلة التى تبحث عن جواب لها ، لأن هذه الكتب لم تكتب على الحقيقة لنا بل لأبناء عصورها ، وإذا كان كل كتاب يعتبر إجابة على سؤال أو أسئلة ، فإن الأسئلة التى وُضِعت هذه الكتب للإجابة عليها ليست أسئلة عصرنا .

والمادة الكثيرة التى تحسبها أنت زائدة أو ذات غَنَاء قليل لك ، إنما هى فى الحقيقة مادة طيبة ونافعة وحافلة بالفوائد ، وفى استطاعة الباحث الدؤوب أن يعيد قراءتها مرة بعد أخرى ليظفر بطلبته ، وبعد الجهد الشديد والصبر الطويل تجد جواب بعض أسئلتك بين يديك أو تجد على الأقل بدايات هذه الأجوبة أو مفاتيحها ، وعلى أى حال فأنت مع مراجعك العربية فى غابة أو بستان ، فهنا كل الأشجار وعليك أن تبحث عما ينفعك منها ، وهنا معظم الزهور ، وعليك أن تبحث عما يروقك .

وعندما أحسست بالحاجة إلى جمع أكبر قدر من المعلومات عن قريش وأصولها وتركيبها وتاريخها كنت أحسب أن المادة عن كبرى القبائل العربية وأعظمها قدراً وأهمية فى تاريخ العرب على أطراف الأصابع ، ولكن بدايات البحث دلتنى على أن أمامى طريقاً أطول مما قدَّرت ، والأسئلة التى طرحها علىّ الموضوع يبدو أنها لم تخطر على بال مؤلفى الحشد الكبير من الأصول التى كنت أتوقع الجنى الوافر الميسر منها ، والغابة بدت لى بلا نهاية ولا نور ، فلم أحس أننى وضعت قدمى على بداية الطريق إلا بعد جهد شديد .

وقد وجدت هذه البداية فى كتب المتأخرين زماناً دون السابقين ، ويبدو أن الأسئلة التى تدور فى أذهاننا اليوم قريبة مما كان يدور فى ذهن رجال مثل : أبى محمد على بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ ، وأبى عمر يوسف بن عبد البر النمرى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، وأبى الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس الأندلسى المصرى المتوفى سنة ٦٧١هـ فى الغالب ، فهؤلاء والكثيرون من أمثالهم كانت لديهم الأصول كلها - ما وصل إلينا وما لم يصل - فكانوا فى سعة من المادة والوقت يبحثون ويختارون ، وابن حزم بالذات بعد أن أنفق من الجهد ما أنفق فى إنشاء كتاب « الفِصَل فى الملل والأهواء والنِّحَل » وعمد إلى تأليف كتاب « جمهرة أنساب العرب » كان قد جمع علماً واسعاً حقاً ، واتضحت الأمور فى ذهنه فيما يتصل بالسيرة النبوية وأنساب العرب على نحو مكن له من إنشاء كتبه الكثيرة التى جمع فيها ما أراد جمعه من كتب السيرة ، وما أراد البيان عنه من أنساب العرب ، وملاحظاته التاريخية الصغيرة التى يزين بها شجرات أنسابه تعطينا فى أحيان كثيرة جداً مفاتيح الإجابة على أسئلة كثيرة ، وبالمفاتيح تنفتح مغاليق الأبواب ويهون العسير ، ولولا هذا الكتاب العظيم وما يعطينا ابن حزم فى كتبه التاريخية الأخرى وخاصة كتاب « جوامع السيرة » لأنفقتُ فى هذا البحث أضعاف ما أنفقت .

والذى كتبه العرب عن قريش بحر بلا ساحل ، وما من كتاب عربى قديم أو نصف قديم أياً كان موضوعه إلا وفيه طرف عن قريش ، وليس ذلك بغريب فقريش - محور التاريخ العربى كله - وهى ذؤابة المجد العربى ومناطه ، والحشد المتهيل المتجمع لك من المعلومات بعد البحث الطويل هو فى الحقيقة ركام من قطع الفسيفساء عليك بعد ذلك أن تفحصها وتصنفها وتبوبها وتجمعها فى صورة لها شكل مفهوم ومعنى نافع ، ولا يستبعد بعد ذلك كله أن تتبين بعد العناء أن مساحات كبيرة من الصورة ظلت خلاء بلا رسم ، ولا بد من تركها على حالها لأن المنهج العلمى لا يأذن للمؤرخ فى أن يملأ الفراغات . والفراغات - أى النواحى التى تظل مجهولة من التاريخ الذى يُكتب - تكون فى الغالب دليلاً على أمانة المؤرخ وإحجامه عن اللجوء فى ملء الفراغات إلى الافتراضات وهباء الكلام الذى لا يُعتد به ولا غَنَاء فيه.

وفى محاولتنا لكتابة تاريخ لقريش تلقانا ظاهرة الفراغات هذه بصورة واضحة جداً

فيما يتعلق بأصل قريش وأوليات تاريخها ، لأننا هنا - فيما يتعلق بالأصول والأوليات - نتلمس طريقنا فى ليل التاريخ الذى تختفى فيه كل المعالم الصحيحة للطريق ، وتزيدنا حيرة معالم كثيرة وضعها وألقى عليها الضوء مؤلفون من الطراز الذى يصعب عليه أن يقول لا أدرى ، أو قُصّاص تغنوا للناس - وأصحاب السلطان خاصة - بما يشتهون ، ثم اندرجت قصصهم فى كتب التاريخ ، أو ناس كانت لهم أهواء سياسية وعصبية اصطنعوا لها ما يؤيدها من أحداث الماضى . وشيئاً فشيئاً نخرج من الظلام إلى منطقة ظل ، وعندما نقترب من أوان البعثة المحمدية نجد أنفسنا فى منطقة شبه ظل نبصر طريقنا فيها ، ولكن الرؤية تظل دائماً غير واضحة وغير كاملة، ولاضير فى هذا فإن المؤرخ يكتب على قدر ما تساعفه به أصوله التى يثق فيها ، ولا تثريب عليه إذا هو ترك النواحى على حالها دون اعتساف ما يملؤها ، فربما وجد مؤرخ لاحق مادة سليمة يكمل بها الصورة دون أن يضطر إلى إزالة ما وضعه غيره على غير أساس .

أوّليّات تاريخ العَرَب :

العَرَب البَائِدَة

ومن البداية نجد أنه لا بد لنا لكى نجد أول الخيط من أن ندخل غابة القبائل التى ظهرت قريش من بينها ، فقريش لم تكن شجرة مفردة فى برية وإنما كانت شجرة فى غابة من القبائل كباراً وصغاراً ، وهذه الغابة كانت كثيفة جداً فى العصر الذى بدأت قريش تتراءى لنا فيه فى فترة لا تبعد أكثر من قرنين قبل البعثة المحمدية ، وهى فترة الجاهلية الثانية ، أو ما يمكن أن نسميه قبل الهجرة ، فالقبائل كثيرة جداً تغطى سطح الجزيرة كله ومساحات واسعة من بلاد الشام وجنوب العراق وشبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية ، فلا يخف زحام الناس إلا فى مناطق الرمال السائلة التى لا ينبت فيها زرع لأن الرمال تبتلع كل قطرة ماء تسقط عليها من مثل صحارى النفود والصّمّان والربع الخالى الذى يسمى فى بعض أجزائه بالبحر الصافى ، لأن الصحراء عند العرب هى بحر الرمال ، ومواطن العمران فيها جزائر وهى لا تسمى واحات ،

لأن الواحات لا توجد إلا فى صحارى مصر ، لأن لفظ واح فى اللغة المصرية القديمة معناه الماء ، والبحر الصافى هو البحر الذى لا توجد فيه جزر .

وأصولنا تقدم لنا مادة وافرة عن القبائل العربية خلال عصر الجاهلية الثانية . وهذه المادة متفرقة فى معظم كتبنا القديمة ، فما فى العربية كتاب قبل العصر الحديث ليس فيه ذكر لقريش أو فائدة عنها ، ومن حسن الحظ أن جانباً عظيماً منها متشابه أو منقول بعضه عن بعض ولكن الخلافات بينها فيما يتصل ببدايات قريش قليلة مما يسهل المهمة أحياناً ويزيدها صعوبة فى أحيان أخرى . ونبدأ من البداية فنقول : إن كلّ مراجعنا متفقة على أن تاريخ العرب قبل الإسلام - باستثناء عرب اليمن - مر فى ثلاث مراحل أو طبقات : العرب البائدة والعرب العاربة والعرب المستعربة - ولا خلاف بينها حول العرب البائدة ، ولكن التفريق بين العاربة والمستعربة - بحسب كلامهم - غير واضح ، فالعارب لغوياً هو المستعرب على وجه التقريب ، وقريش نشأت - فى قولهم - من المستعربة وهم العدنانيون الإسماعيليون .

ونلقى نظرة على رأى العرب القدامى فى هذا الموضوع فنقول : إن آراءهم مجتمعة على أن العرب البائدة هم أقدم من سكن وسط الجزيرة وشمالها ، وأنهم انقرضوا ، وبعضهم باد تماماً مثل عاد وثمود ، فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) ﴾ [النجم] ، ويُفهم من نص الآية على بعض التفاسير أن هناك عاداً ثانية هى بقية الأولى . وباستثناء ثمود يمكن القول بأن بقايا تخلفت عمَّن باد من العرب البائدة مثل عاد وطسم وجديس وأميم وقطورا وإرم والمؤتفكة وأهل الرَّس وأصحاب الأيكة ، وهذه البقايا القليلة اختلطت بالعرب العاربة وذابت فيهم .

وقد قرأنا فيما كشفت عنه أبحاث الجيولوجيين ممن نقبوا عن بقايا ما قبل التاريخ فى جزيرة العرب ، أن الجزيرة كانت عامرة بالزروع والنباتات والشجر والوحش وحيوان الصيد فى بدايات العصر الرابع من عصور عمر الأرض المعروف باسم الكواتيرنارى Quaternary وهو الذى جاء بعد أحقاب الجليد المعروفة باسم

البلايستوسين Pleistocene الذى جاء بعد العصر الثالث أو الترسيارى Tertiary .
والبلايستوسين مصطلح علمى جيولوجى مركب من لفظين (Pleistos + Kainos)
ومعناهما معاً الأحدث أى العصر الأحدث ، ويراد بذلك أحدث عصور عمر
الأرض الطويل أو أقربها إلينا ، وقد دام نحو مليون سنة ، وقد تغطت فيه مساحات
شاسعة من النصف الشمالى من كرة الأرض بالثلوج مرة بعد أخرى حتى نصف آسيا
وأوروبا وأمريكا الشمالية ، فقد زحف الجليد من أماكنه الحالية فى القطبين الشمالى
والجنوبى حتى غطى المساحات التى ذكرناها . فثقلت طبقاته فى بعض الأحيان حتى
بلغ سمكها ثلاثين متراً ، وخفَّت طبقاته فى أحيان أخرى حتى ذابت الثلوج
وأصبحت المساحات المذكورة غامرة بالماء العذب ، ولهذا يعرف البلايستوسين
بالعصر الجليدى glacial epoch .

فأما الأحقاب التى ثقل فيها الجليد وجمد فتسمى بأحقاب الجليد glacial ages ،
وأما التى خف فيها فتعرف باسم أحقاب الجليد البينية Interglacial ages ، وآخر
هذه الأحقاب الثلجية البينية هى التى استمر ذوبان الجليد فيها ولم يعد إلى التجمد
مرة أخرى ، وقد استمر ذوبان الثلوج خلال تلك الحقبة الأخيرة بضعة مئات من
آلاف السنين ، ولم يكن الجليد فى عصر البلايستوسين ثابتاً ، بل كان يتحرك جنوباً فى
نصف الكرة الشمالى على هيئة ثلاجات أو وديان ثلج Glaciers تتحرك فى بطء شديد،
فصارت تلك الثلاجات سيولاً تنحدر إلى الجنوب أو قيعاناً هائلة الحجم مليئة بالماء .

أخذت هذه القيعان تصغر فى الحجم بعد انسحاب الجليد إلى الشمال شيئاً فشيئاً ،
وخلَّفت وراءها بحيرات شاسعة الحجم كما نرى فى البحيرات الواسعة شمالى
الولايات المتحدة وجنوب كندا وبحيرات شمال ووسط أوروبا ووسط آسيا ويدخل
فيها بحر الخزر (قزوين) وبحر خوارزم (آرال) وبحيرة بيكال وقد مَلُح ماء بعض
هذه البحيرات بالبخر وارتفعت نسب الأملاح فى الماء بل إن البحر الميِّت (بحيرة لوط
أو البُحيرة المُنْتِنة) بقية بحيرة من تلك البحيرات المتخلفة عن عصر ذوبان الجليد ،
وقد انغمرت كل بلاد أوروبا وآسيا بهذا الماء الذائب الذى سال وديانا وأنهاراً أو ظل

مكانه فى الوهاد ، وسالت منه أنهار ووديان أخرى غمرت جنوبى آسيا ومنه جزيرة العرب .

وكلما انقشع الماء وانحسر عن بقعة من الأرض نمت فيها النباتات وطلعت الأشجار وظهر الحيوان ، وبين هذا الحشد الكبير من الحيوان ظهرت لنا آثار الإنسان الذى لابد أن يكون قد عاش على الأرض من أحقاب سحيقة فى القِدَم ، وانسحب مع غيره من الحيوان والنبات إلى الجنوب ثم عاد إلى المواطن التى عمرت بالحياة بعد أن كانت خافية تحت الثلوج أو غامرة بالماء .

وقد دامت عصور انقشاع الماء عن بعض اليابس وازدهار الحياة بضع مئات الألوف من السنين حتى إذا كان ما بين ثلاثمائة ألف ومائتين وخمسين ألفاً من السنين من عصرنا الراهن هذا بدأنا نتعرف على معالم الأرض وملامحها وآثار الإنسان والنبات والحيوان والطير والأسماك والخلائق الأخرى التى نعرفها إلى اليوم .

وكانت تربة الأراضى التى انقشع عنها الماء شديدة الخصب لأن ركام الثلوج والأمواه خلَّفت عليها طباقاً من الطفل Clays والصلصال Silts والأملاح Salts ، ويؤرخ علماء طبقات الأرض والجيولوجيا لهذه الأحقاب بدراسة ما يعثرون عليه فيها من الكربون Carbon والكربون المشع Radio - carbons الذى يُعرف باسم كربون ١٣ وكلاهما أخشاب متفحمة ، ولهذا الكربون المشع وما يخرج منه من إيزوتوبات الكربون المشعة Radioisotopes of Carbon وما ينبعث منها فى الهواء من ثانى أوكسيد الكربون Carbon dioxide وقد جوَّد العلماء أساليب التأريخ بدراسة الكربون المشع حتى أصبحوا يؤرخون لقشرة الأرض والأحياء التى عاشت عليها وفى قشرتها خلال المائة ألف سنة الماضية ، وهذا هو أبعد تاريخ نستطيع أن نؤرخ فيه للحياة فى جزيرة العرب على وجه قريب من التأكيد .

ومن حسن الحظ أن نفراً من العلماء درسوا ما تيسر لهم دراسته من تاريخ تربة الجزيرة العربية خلال هذه المدة ، وقد تمت حفائرهم على السواحل وما قرب منها وفى أقصى الشمال والجنوب والشرق ، وجدير بالذكر أن أبا الريحان البيرونى تنبه إلى أن

مساحات شاسعة من شبه الجزيرة كانت غامرة بالماء ، وقد استنتج ذلك مما كان يصادفه فى تربة الجزيرة من أصداف وحفريات أحياء بحرية فى مواضع من الحجاز والطريق إليه .

ودون أن أخرج كثيراً عن السياق أقول : إن استخدام الكربون المشع فى التأريخ لطبقات الأرض يقوم على دراسة ما بقى من إشعاعه فيعرف بذلك قدر ما ضاع وتبدد ، وما داموا يعرفون سرعة تبدد الإشعاع فهم يعتمدون على هذا فى التأريخ ، وذلك أيضاً ينطبق على المعادن المشعة مثل اليورانيوم والأيونيوم والراديوم . وخلال أحقاب ثقل طبقات الجليد وخِفَّتها طوال عصر الجليد أو البلايستوسين هلك - حتى ندر - الكثير من صنوف الأحياء التى كانت تعيش فى تلك الأقاليم من حيوان الأرض ونباتها ، ومن بين ما هلك حتى ندر أو انسحب إلى الجنوب أمام طوفان الجليد ، الحصان والجمل .

فقبل عصر الجليد كان يعيش فى الجزيرة الحصان والجمل وبعض أصناف الوعول والثيران والأسود والزواحف ، قد نَدُرَت حتى اختفت حفائرها من طبقات الأرض فى جزيرة العرب والشمال الإفريقى إلى ما قبل ٢٥ ألف سنة ، لأن قرب الجليد وكثافة طبقاته وما كان يسيح منه وينحدر إلى الجنوب من الماء المثلوج بَرَد جو نصف الكرة الشمالى إلى درجة لم تستطع تلك الأحياء أن تعيش فيها ، فهلكت جماعاتها ولم يبق منها إلا ما اعتصم بها ارتفع من القمم حتى أفاد من الشمس وما انخفض وخفى من الوهاد ليعود مرة أخرى إلى الظهور والتكاثر عندما انقشع الماء وعاد دفء الأرض ، وهو عندما عاد إلى الظهور كان صغير الحجم دقيق العظم فأول ما عثرنا عليه من حفائر الجمال جنوبى العراق وشمالى اليمن كانت صغيرة الحجم فى حجم الجحش الصغير ، وينطبق هذا على الحصان الذى عاد إلى الظهور فى حجم الكبش الكبير فى صحراء جوبى شمال الصين ، وهناك كان موطن ذلك الحيوان الذى سيكون له ولاستئناسه أثر ثورى فى تاريخ البشر . أما الجمل فسنرى فيما يلى من هذا الحديث ما سيكون لاستئناسه من دور عظيم فى تاريخ الجزيرة العربية . وعاصر عودة ظهور الإبل والوعول والثيران على حفافى الجزيرة وكذلك الشياه والأعناز والوعول وبعض

الكواسر منها أسود أقرب إلى القطط البرية الكبار نشأ عنها الأسد الآسيوى وهو الغضنفر أو الرئبال الذى أدركه الشعر العربى وأورد ذكره .

ولم ينته عصر الجليد أو البلايستوسين دفعة واحدة ، بل إن الجليد توقف عن الذوبان وعاد إلى الثبات على جَمْده ، ثم سال وجَمد مرة بعد أخرى خلال مائتين أو ثلاثمائة ألف من السنين ، لأن الأحوال المناخية فى جو الأرض لم تستقر إلا بعد زمن طويل ، وكان باطن الأرض يتفجر بالبراكين فى كل مكان ، فما كانت البراكين تخمد ولا سطح الأرض يستقر ، والزلازل والهزات الأرضية لا تتوقف ، فهى إذا قرَّت فى مكان تحركت فى آخر ، وما كان من الممكن أن تستقر الأرض أو جوُّها على حال إذا كان هذا الغطاء الجليدى الثقيل يجثم على ما ذكرناه فى نصف الكرة الشمالى ، وقد أخذ وقتاً طويلاً جداً فى ذوبانه وانحساره إلى الشمال ، هذا كله كانت تصاحبه رعود وبروق وعواصف ثلجية وأعاصير ورياح عاتية ، وأعاصير دوارة Typhoons تدور وتنتقل من مكان لمكان ، وهذا كله كان يخرب ما عسى أن يكون قد نما من مظاهر الحياة على أى بقعة من الأرض تستقر فيها الأحوال زماناً .

وإذا كنا نتكلم عن أحقاب من عمر الأرض تطول مئات الألوف من السنين فإن فترات الاستقرار الطارئة هنا وهناك من الممكن أن تطول بضع ألوف من السنين ثم تعود القلقلة من جديد ، وخلال هذه الألوف من السنين من الاستقرار كانت تنشأ أجيال من المخلوقات من كل نوع ، وكلما بعدنا عن عصر الجليد طالت فترات الاستقرار واتصلت أجيال المخلوقات دون أن يمنع ذلك من عودة التجمد والقلقلة واشتداد هياج البراكين . وشيئاً فشيئاً تطول فترات الهدوء والاستقرار النسبى واتصال الحياة ، ولا يمنع ذلك من عودة التقلقل والاضطراب وهياج البراكين وانتشار الحرائق وموت الكثير من مظاهر الحياة .

ويقدر العلماء أن ذلك الحال القلق استمر إلى ما قبل ٥٥ ألف عام من أيامنا هذه ، وخلال العشرين أو الخمسة وعشرين ألف من السنين صاعدين مع الزمن نحو عصرنا هذا استقرت الأحوال فى وسط آسيا وجنوبها نسبياً فازدهرت الحياة واتصلت الأجيال قروناً متطاولة مع هبوب العواصف وثوران البراكين بين الحين والحين ، وقد

عانى وسط الجزيرة العرب وكل وسط وجنوب آسيا وشمال أفريقية من ذلك طويلاً ، وتحطمت الحياة مرة بعد أخرى ، ولكن الحياة كانت تعود إلى الإزهار بقوة كلما أتيحت لها الفرصة ، فالتربة بالغة الخصوبة والمياه وفيرة وحرارة الجو تميل إلى الاعتدال ، وإذا كانت البراكين والعواصف والسيول تقضى على الأحياء فهى كذلك تدفع الحياة فى كيان الأرض ، وتحمل بذور النبات وأصول الأشجار من مكان إلى مكان ، والبراكين بما تقذف من الحمم وتنشئ تربة بالغة الخصوبة ، وفى أيامنا هذه تثور بعض البراكين وتقذف الحمم ، فلا تكاد هذه تبرد حتى تنفجر الحياة من باطنها فى سنوات قلائل ، وقد شهدنا نحن ذلك بأنفسنا ورأيناه مُصوَّراً مرة بعد أخرى.

ولابد أن جماعات العرب البائدة عاشت فى وسط الجزيرة وشمالها خلال فترات من الاستقرار فيما بين خمسين وثلاثين ألف سنة من الآن ، ولابد أن طوفان نوح وقع خلال هذه الفترة ، فقضت المياه على الحياة وعادت بأمر الله ، ونوح عليه السلام قاد تجديد الخلق بما حمل معه فى الفُلْك . وبنوح بدأت رسالات السماء واتصلت إلى الخلق الجديد ، وتوالى ظهور الأنبياء بالبشارات والنُّذُر كما هو وارد فى القرآن الكريم ، وكلما اشتد عصيان قوم واستشرى كفرهم وفسادهم أبادهم الله أو أباد غالبهم بما رأينا من الزلازل والبراكين والصواعق والنيران والفيضانات ، وأطراف من أوصاف ذلك كله واردة - بأجلى بيان - فى القرآن ، فقوم نوح كذَّبوه وأسرفوا فى عصيانهم ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) ﴾ [الأعراف] . وقوم عاد كذبوا أخاهم هوداً ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) ﴾ [الأعراف] . وثمود كذبوا رسالة نبيهم صالح وهددوه وأنذروه واشتدوا فى غيِّهم وعقروا الناقة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) ﴾ [الأعراف] . وقوم لوط كذبوه وعصوه ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)﴾ [الأعراف] . وأهل مَديَن استكبروا ورفضوا ما قال لهم أخوهم شعيب ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) ﴾ [الأعراف] . وفى سورة الفرقان نقرأ ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ

تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) ﴾ [الفرقان] .

وفى سورة ص : ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥) ﴾ [ص] . وفى سورة فصلت نقرأ عن عاد وثمود : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) ﴾ [فصلت] .

وهكذا تتوارد الآيات مؤكدة ما انتهى إليه العلم بعد طول البحث والتحقيق، فمن الـمُجْمَع عليه بين العلماء أن هؤلاء الأقوام جميعاً كانوا يعيشون فى شمال الجزيرة العربية أو فى غربى نجد كما نرى فى حالة أهل الرَّس ، وكانت بين بعضهم قرون كثيرة كما رأينا من تعاقب الجليد والذوبان وازدهار الحياة ثم اندثارها خلال القرون التى أعقبت نهاية عصر البلايستوسين ، وهنا أمطار وسيول وصواعق ورياح وكلها من الظواهر الجوية فى تلك الأعصر ، ويكون العرب البائدة قد عاشوا فى شبه الجزيرة قبل خمسين ألف إلى ثلاثين ألف سنة ، ثم باد معظمهم بما رأينا وظل شمال الجزيرة ووسطها يباباً Wasteland لا يعمره إلا قليل من الناس والمخلوقات حتى دخلها العاربة .

العَرَب العَاربَة ؛ الجَمَل :

ويمكن القول إن العرب العاربة دخلوا جزيرة العرب مع الجمل . والجمل كما قلنا حيوان قديم جداً توجد حفائره فى أواخر عصر البلايستوسين وكان يعيش فى الجزيرة وجنوب الشام حيواناً وحشياً ، ثم نَدَرت حفرياته حتى لم تعد توجد فى الشمال الإفريقى . أما فى الجزيرة العربية فلم نعثر له على حفريات إلا من عصر العرب البائدة أى : قبل قرابة الثلاثين ألف سنة ثم ندر حتى لم نعد نجد له حفريات إلا فى جنوب العراق وشمال اليمن ، وقبل خمس وعشرين ألف سنة على وجه التقريب استؤنس الجمل جنوبى العراق وتبين للناس ميزاته وخصائصه ، وقد كان يعيش هناك وحشياً

بعيداً عن العمران ، وهو بطبعه حيوان نَفُور شديد الخوف شديد الحياء فيما يتصل بمخاضه وحمله وولادته .

وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون فى «المقدمة» فى كلامه عن أجيال العرب ، وكلامه هنا عظيم القيمة بالنسبة لأسلوب حياة العرب فى العصور التى نحن بصددها وإن كان هو لا يقصدها بالذات فى كلامه عن أجيال من أولئك البدو القدماء ظلت على حالها من الإيغال فى التوحش والبداوة إلى أيامه فى جزيرة العرب وبلاد المغرب . وسأورد كلامه وأقسمه إلى فقرات لكى نستطيع الإفادة منه بعد ذلك ، ونحن هنا مع قراءة جديدة لتاريخ العرب قبل الإسلام فيقتضى الأمر منا التوسع فى القراءة وإمعان النظر فيما نقرأ ، لعلنا بذلك نستطيع سَوْق الكلام مساقاً منطقياً متتداً نصل به إلى ما نريد من معرفة بدايات قريش وعالم العرب الذى ظهرت فيه.

قال ابن خلدون فى الفصل الثانى من الباب الثانى من «المقدمة» وعنوانه : فى «أن جيل العرب فى الخلقة طبيعى»:

١ - قد قدمنا فى الفصل قبلَه أن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعى من الفلح والقيام على الأنعام ، وأنهم مقتصرون على الضرورى من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ، ومقصرون عما فوق ذلك من حاجىّ أو كمالىّ ، يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير مُنَجَّدة ، وإنما هو قصد الاستظلال والكِنّ ، لا ما وراءه . وقد يأوون إلى الغيران والكهوف .

٢ - أما أقواتهم فيتناولون بها يسيراً بعلاج أو بغير علاج البتة إلا ما مسته النار . فمَن كان معاشه منهم فى الزراعة والقيام بالفَلح كان المقام به أَوْلَى من الظَّعن ، وهؤلاء سكان المدَر والقرى والجبال وهم عامة البربر والأعاجم .

٣ - ومن كان معاشُه فى السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظُعُن فى الأغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم، فالتقلب فى الأرض أصلح بهم ، ويسمون شاوِيَّة ، ومعناه: القائمون على الشاء والبقر ، ولا يُبْعِدُونَ فى القفرِ لفقدان المسارح الطيبة ، وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة .

٤ - وأما من كان معاشهم فى الإبل فهم أكثر ظَعناً وأبعد فى القفر مجالاً ، لأن مسارح التُّلول ونباتها وشجرها لا تستغنى بها الإبل فى قوام حياتها عن مراعى الشجر بالقفر وورود مياهه المِلْحَةِ والتقلب فصلَ الشتاء فى نواحيه فراراً من أذى البرد إلى دفء هوائه وطلباً لماخِضِ النتاج فى رماله ، إذ الإبل أصعب الحيوان فِصالاً ومخاضاً وأحوجها فى ذلك إلى الدفء ، فاضطروا إلى إبعاد النُّجعة . وربما ذادتهم الحامية عن التلول أيضاً [١]، فأوغلوا فى القفار نفرة عن الضَّعة منهم[٢] ، فكانوا لذلك أشد الناس توحشاً ، وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العُجم ، وهؤلاء هم العرب ، وفى معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب والأكراد والترك والتركمان بالمشرق إلا أن العرب أبعد نُجعة ، وأشد بداوة لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط ، وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشاء والبقر معها ، فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعى لابد منه فى العمران ، والله سبحانه وتعالى أعلم[٣].

وهذه الفقرة كلها عظيمة الأهمية بالنسبة لدراستنا كلها لا بالنسبة لهذه المرحلة منها فحسب ، لأن كل صور البداوة التى يصفها ابن خلدون هنا هى نفس صور الحياة العربية البدوية فى العصر الذى نتكلم عنه ، إذ أن البداوة ليست مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى كما قال ابن خلدون فى فقرات تالية لما نقلناه عنه هنا ، وإنما هى نوع من الحضارة مستقل بذاته . وهو نتيجة ظروف محددة من الحياة فى البيئة الصحراوية ، فبدو العرب الذين تخلفوا فى الجزيرة عن العرب البائدة لابد أنهم عاشوا فى مواطنهم فى الجزيرة على صورة أهل الفَلح والشاوية العرب الذين كانوا يعيشون على أطراف بلاد الحضارة والاستقرار فى بلاد العراق والشام ، ولابد أن هذا أيضاً كان أسلوب الحياة فى مواطن الماء فى الجزيرة .

فنحن نتكلم عن عصور كانت الجزيرة فيها غنية بمواطن العشب بل النبات والشجر وحيوان المرعى من الشاء والبقر قبل استئناس الجمل ، فكانت كل جماعة تعيش فى مواطنها حياة بدوية مقتصرة على الضرورى لحفظ الحياة كما قال ابن

---

(١) يريد أن حاميات الدول أى جنودها يذودون أولئك البدو عن الأراضى المزروعة الداخلة فى طاعتهم .
(٢) أى نفوراً من ضعة الخضوع لجنود الدول والأذى على أيديهم .
(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة دار الشعب بالقاهرة ص ١١١ (بدون تاريخ).

خلدون. وكانت تلك الجماعات تعيش حياة كاملة ، أى لا تعتمد على غيرها ، فهى فى مواطنها فى مواطن العشب فى الجزيرة قادرة على مواصلة حياتها مكتفية بالضرورى آمنة من العدوان لأنها قادرة على الدفع عن نفسها ، ثم إن جماعاتها كانت تعيش متباعدة بعضها عن بعض ، ولا مطمع لإحداها فى الأخرى ، فلا ثروة ولا إبل كثيرة تحمل الناس فى القفار ، ولا خيل يعتمدون عليها فى الغارة ، ولابد أن الذين عاشوا منهم قرب مواطن العمران كانوا يعيشون على النَّسق الذى وصفه ابن خلدون فيما يتعلق منهم بأهل الفلح القليل أو المرعى القريب .

ثم كان استئناس الجمل فأحدث انقلاباً شاملاً فى حياة الجماعات التى استأنسته على أطراف العراق والشام الجنوبية ، لأن الجمل حيوان فريد فى بابه متعدد الخصائص، فهو بحكم خوفه من غيره لقلة سلاحه الطبيعى الذى يُمكِّنه من الدفع عن نفسه يُبعِد فى القفر ولا يطمئن إلا فى الموطن الموحش الذى لا يستطيع الحياة فيه غيره ، فتعوّد الحياة على الحشائش والنباتات بها فى ذلك الشوك والصَّبار ، وآتاه الله القدرة على هضم ذلك ، فهو يأكل من ذلك ما يتيسر له على عجل ، ثم يمعن فى القفر حيث يجتره فى أمان ، وهو صبور على العطش قادر على الاستغناء عن الماء الأيام الطويلة بفضل ما ركَّبه الله فى خِلْقته من الخصائص ، وقدمه مهيأة للسير فى الرمال المسافات الطويلة ، لأنها تحولت إلى خُف لا يسوخ فى الرمال ، فالجمل إذا وجد الماء استطاع أن يشرب ما يقرب من ١٤٠ لتراً دفعة واحدة . وهذا الماء لا يستقر فى جوفه ماء زلالاً بل يتحول إلى مادة هلامية تُختزن فى جهاز خاص فى جسده من الأوعية والشراسيف ، وجسده يعيش على تلك المادة بعد ذلك شيئاً فشيئاً حتى إنه إذا شرب وارتوى استطاع أن يصبر دون ماء سبعة عشر يوماً ونصفاً متوالية .

والذين يتحدثون عن أن العرب كانوا إذا أرادوا عبور صحراء لا ماء فيها سقوا الإبل حتى ترتوى ثم ساروا بها ، فإذا احتاجوا إلى ماء ذبحوا منها حاجتهم وشربوا ما فى بطونها يتحدثون عن وهم لا عن واقع ، ونحن إذا ذبحنا الجمل وفتحنا بطنه لم نجد فيه من الماء إلا ما نجده فى بطن غيره من الحيوان . أما الماء الكثير الذى يشربه فيتحول كما قلنا ويستودع فى الجسد ، وخالد بن الوليد لم يَسُقْ الجمال التى عبر بها البيداء وصار

يذبح منها ويشرب هو ورجاله ، وإنما هو سار فى دروب يوجد الماء فيها على المراحل المعقولة ، وقد تتبع الباحثون هذه الدروب ووصفوها وأبطلوا تلك الأسطورة .

وقد تكوَّنت هذه الخصائص فى الجمل لأن تاريخه فى الخَلْق أشبه بالأسطورة فأصله البعيد فى أمريكا الجنوبية فى أعالى جبال الإنديز ، وهو من عائلة اللاما والالباكا ثم سار مع الجبال صاعداً حتى وصل إلى صحراوات أمريكا الشمالية وتبحبح فى صحراء الأريزونا ورمالها ، وهناك - وعلى مدى مئات الألوف من السنين تكوَّن له السنام والخُف وجهاز خزن الماء المتحول إلى مادة هلامية ، ثم عاود الرحالة حتى بلغ آلاسكا ومنها عبر مضيق بهرنج إلى كمانشكا ، ثم انحدر حتى صحراوات شمال الصين ، وهناك استقر وهدأ واكتمل تكوينه وانقسم إلى جمل ذى سنامين فى النواحى الباردة وجمل ذى سنام واحد . والأول غزير الشعر يسمى بالبختى bactrian نسبة إلى بكتريا ذات الجبال العالية ، والثانى هو جملنا المعروف dromedary ثم دخل الهند ومنها إلى فارس والعراق ، وعندما وصل إلى حافة الجزيرة العربية وجد طِلبته وهى الرمال التى يهرب إليها ويطمئن فيها ، وهناك استأنسه الإنسان وتبين فضائله .

والجمل كذلك يختزن الطعام دهناً فى سنامه ، فهو صبور على الطعام أيضاً ، فإذا حاجه الطعام اغتذى بما لا يقدر عليه غيره ، فقلَّتْ مئونته وأصبح رغم عظيم فوائده من أقل الحيوان كُلْفة وأكثره عطاء .

ثم إن الجمل يعطى الإنسان أضعاف ما يعطيه غيره ، فهو غزير اللبن تعطى اللبون منه قدر ما تعطيه البقرة الحلوب ، ولبنه دسم كثير الغذاء ، وأهل البادية يكتفون بشربة منه مع قليل من التمر فيكفيهم ذلك عامة اليوم .

ويعطى الجمل صوفاً وافراً يقدر بخمسة عشر إلى عشرين كيلو جراماً فى السنة ينفضه عن جسده نفضاً دون حاجة إلى جَزٍّ أو مع جَزٍّ قليل إذا حاج الأمر ، وهذا الصوف لين لطيف اللمس ، يُغزل ثم يُنسج فيكون منه نسيج صوف يصلح للبس وصنع الخيام والبُسُط ، فإذا كان لدى البيت البدوى عشرة من الإبل كان له منها نصف طعامه وعامة حاجته من بيوت الشعر ، وكل حاجته من الملبس وليس غريباً فى هذه الحالة أن يُسمَّى البدو بأهل الوَبَر ، والوبر هو صوف الإبل وغيرها .

فإذا احتاج البدوى إلى اللحم ذبح من الإبل وأكل ، وفى تفاصيل السيرة النبوية ما يفيد أن الجمل الواحد إذا ذُبح أعطى اللحم اللازم لمائة من الناس فى اليوم إلى جانب القليل من اللبن والتمر .

وإذن فالجمل فى ذاته ، بطبعه وخِلْقته وخصائصه - أسلوب حياة ، وهذا هو الذى اكتشفه الإنسان عندما استأنس الجمل فى الأرض المعشوشبة جنوب غربى العراق ، وعملية الاكتشاف والاستئناس هذه لابد قد استغرقت مئات السنين ، لأن الإنسان فى مثل هذه الحالات يعثر على حيوان صغير ضعيف لا يستطيع الهرب ، فيرقّ لحاله ويُعنى به وينشأ معه ويغلب أن يكون الذى يفعل ذلك امرأة ، فهى بطبعها تعطف على الحيوان الصغير كما تعطف على الطفل وتعتنى به وتغذوه حتى يكبر ثم تبدأ خصائصه فى الظهور، فإذا كانت أنثى درّتْ لبناً ، ثم يكتشف الناس وبر الجمل وفضائله ، ويبحثون عن حيوان آخر مثله ويربونه ليتم تكاثره ثم يصبح هذا الحيوان الكثير الفضائل جزءاً من حياة الناس شيئاً فشيئاً - ومع التكاثر - يزداد الاعتماد على الجمال ، ويتبين الإنسان أن هذه الحيوانات تستطيع الإيغال فى الصحراء ، ومن الممكن الدخول بها إلى موضع قفر ليس فيه إلا شىء من الماء قليل والعيش به وحده ، فإن الجمال ترعى الحشائش والنباتات الخشنة وتحيلها إلى لبن وصوف ولحم ، والإنسان يعيش على ذلك كله .

وعندما وصلت بعض الجماعات الإنسانية الصغيرة إلى ذلك أوغلت بجِمالها فى الصحراء ونزلت حيث لا يدركها أذى وعاشت مع جمالها وأعنازها وشائها ، وهكذا ينشأ طراز من الحياة جديد هو طراز البداوة الظاعنة المعتمدة على الجمل أساساً ، والتى تستكمل مطالب حياتها من قدر جانبى من النخيل والماعز والضأن . وهذا هو طراز الحياة الذى تحدث عنه ابن خلدون فى الفقرة الرابعة من الكلام الذى نقلناه عنه: طراز البداوة القائمة على الإبل أساساً ، وهى البداوة التى نشأت عنها أجيال العرب العاربة ، فإن الجماعات التى استأنست الجمل وعرفت خصائصه وأفادت منها وأوغلت فى القفر واستقرت فى بعض مواطن الماء القليل كانت طلائع العرب العاربة، فهم لم يكونوا جميعاً عرباً ، بل فيهم عرب وغير عرب ، وقد جمعتهم بعضهم

إلى بعض الإبل وأسلوب الحياة الذى ينشأ معها ومنها ، ودخلت الجزيرة التى كانت قفراً إلا من بقايا البائدة المتناثرين هنا وهناك فى الشمال ، وعندما تكتشف الجماعات الإنسانية شيئاً كهذا فإن العملية تسرع فى خطوها بعد طول بطء وينشأ منها طراز من الحياة جديد تتحدد معالمه وخصائصه مع الزمن.

كثرت الإبل إذن وزادت العناية بها ، وأخذت جماعات الناس تزحف إلى الجنوب داخلة الصحراء ، فقد تبينوا أن فيها مجالات واسعة للحياة اعتماداً على الإبل أساساً ثم على ما ينضاف إليها من أسباب الحياة بعد ذلك ، وإذا كانت الحياة فى الصحراء عسيرة قاسية فإن فيها ما يعوِّض الإنسان عن لين العيش ويُسره : فيها الأرض الواسعة دون مالك يتحكم فى الناس ، وفيها الفيافى الرحبة التى لاسلطان فيها لملك أو مستبد أو جامع ضرائب ، وفيها شعور الجماعة الصغيرة من الناس بعزتها وحريتها ، هنا - أى فى جزائر صغيرة تقوم على عيون ماء قليلة - تستطيع القبيلة المهاجرة أن تحط وتطلق إبلها وشياتها وأعنازها يتبعها راع أو غلام يتنقل وراءها ويحرسها ويوجهها ويعود بها آخر اليوم إلى منازل القبيلة .

فى أثناء ذلك ينعم رجال القبيلة بالجلوس فى الظل والسَّمَر وربما قول الشعر ، فالوقت واسع لا شغل ولا خطر من عدوان ولا حاجة للمال ، فالقبيلة تعيش على ما لديها ، وأما ما لا تملكه فهى فى غير حاجة إليه . أما النساء فيقضين وقتهن فى غزل الصوف ونسج القماش للملابس لبيوت الوبر أو الخيام ، وفى المساء يعود الرعاة بتلك الإبل الكريمة التى تعطى لبناً وافراً لذيذاً يُشرب دافئاً ساعة خروجه من الضرع أو بارداً إذا تُرِكَ إلى الليل. وشباب القبيلة طول النهار يتبارى فى المصارعة أو اللعب بالسيف ، وأسلوب الحياة الجديد يتسع نطاقه ويتكامل مع الزمن، ويزداد الناس علماً بشؤون الإبل من حمل ومخاض وولادة وتدفئة وحماية ورعاية ، بالولائد ، وهذه تطورات تأخذ كما قلنا مئات السنين ولكن أسلوب حياة البداوة أثبت أنه أسلوب مقبول وعملى ، والنظرية الأساسية التى يقوم عليها هى أن الإبل تعيش فى ظروف الحياة القاسية فى البرية ، تغتذى بالنبات القاسى مع القليل من الماء وتقطع المساحات البعيدة دون أن تشعر بكبير تعب .

وقد أثبتت الأبحاث اليوم أن الجمال أكثر الحيوان احتمالاً للألم الجسماني ، فالإبل تحتمل مضغ الشوك والقتاد وأعواد النبات الجافية ، لا لأنها لا تشعر بالألم بل لأنها تحتمله والرحل الخشبى يوضع على سنامها ويشد بالجلد ويركب الرجل والجمل يتألم ولكنه يتحمل لأن غدته النخامية التى تقوم بين فصى المخ فى قاع الرأس Pituitary gland تفرز شيئاً يساعد على احتمال الألم ، فالإجهاد يبلغ بالجمل أشد مبلغ ومع ذلك فهو يحتمل ويواصل السير ، وخُفُّه تتعاوره الصخور وتدميه وهو يسير ، ويدركه النوم وهو سائر بحمله يغفو وهو يسير، فإذا حط شرب الماء الأجاج ومَدَّ رأسه على الرمل وأخذ يجتر طعامه ونام ملء عينيه.

فإذا نحن فكرنا فى الإبل وخصائصها وأسلوب الحياة الذى تعيش به أدركنا بعضاً من مغازى قول الله تعالى فى سورة الغاشية : ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) ﴾ [الغاشية] . وأدركنا لماذا اختصها الله بالتساؤل فى هذه الآية الكريمة ، فإن خلقَ الله كله عجيب يدعو إلى التأمل وإطالة الفكرة ، ولكن الإبل بعد الذى بيناه من خصائصها من أعجب العجب ، فهى ليست مجرد حيوان بل هى أسلوب حياة كامل فى أقاليم شاسعة من أرض الله ، وهى الفيافى والقفار.

النَّخـــلة :

وما دمنا قد تحدثنا عن الجمال فلنقل كلمات عن النخلة وهى تالية للجِمال فى الأهمية بالنسبة لساكن الصحراء . فنخلة التمر - وهى التى تهمنا هنا - تشبه الجمل فى خصائصها وعظيم منفعتها وقلة مؤونتها . والنخل فى عالم النبات كثير ، وفصائله كثيرة جداً يدخل فيها نخيل الجوز أو النارجيل ونخيل الموز ونخيل الزيت وكلها أشجار استوائية لا تعيش إلا بالماء الكثير . أما نخلة التمر فشجرة قديمة جداً ترجع حفائرها إلى مئات الألوف من السنين وربما ملايينها ، وقد مرت بتطور طويل حتى وصلت إلى صورتها المعروفة . والنخيل كله يتميز بساق طويلة منسرحة لا فروع لها ، وإنما هى تنطلق فى الهواء حتى إذا استوفت طولها نشأت الغصون تحمل الأوراق ، والأوراق رفيعة طويلة ولكنها قوية سطحها شمعى متين ، والنخلة على هذه الصورة

أجمل الأشجار التى خلقها الله ، فإن أغصانها تتفرع فى صورة هندسية زخرفية متوازنة ، وبين الفروع التى تسمى بالسعف وعن أصولها يكون الطلع وهو مخ النخلة والجهاز الذى ينظم حياتها كلها ، وداخل هذا المخ يكون شراب لذيذ الطعم هو أشبه بالنخاع للنخلة .

ونخيل التمر متعدد الأنواع وأشكال التمور وأصنافها ، والتمور تخرج فى سبائط تتدلى تحت ثقل ما تحمل من البلح ، والبلح مرحلة من مراحل نمو الثمرة . ومهما اختلفت أنواع التمور وأشكالها فهى متشابهة بالنسبة لخصائصها البيولوجية ، ففيها نسبة عالية جداً من السكر ومعادن نافعة للجسد منها الكلسيوم والبوتاسيوم ، ولحم التمرة غنى بالبروتينات. وقد قدَّر الباحثون أن الإنسان يستطيع أن يحصل على معظم حاجته من الغذاء من ٤٠٠ جرام من التمر . والنخلة الكاملة النمو تعطى نحو طن من التمر ، والتمر يبدأ أخضر طرياً ثم يحمر أو يصفر حتى يسود أو يأخذ لوناً يشبه لون العسل الداكن، وهو إذا تُرِكَ على أمه جف نصف جفاف وبقى بعد ذلك طرياً بفضل ما يتبقى فيه من الماء ، وتفرز النخلة سائلاً شمعياً لا يلبث أن يتجمد ، وهو قشر الثمرة وغطاؤها . وقد تعود العربى أن يحمل معه قدراً من التمر ويعيش عليه أياماً على المعدل الذى ذكرناه . ولذلك قيل فى مأثور حديث العرب أن البدوى يعيش على الأسودين : التمر والماء . فأما الأسود الأول فهو التمر الذى يسود لونه عندما يطول مكثه ، ولكنه لا يتلف أو يفقد طاقته الغذائية إلا بعد عام من قطافه .

ونخلة التمر ذات جذر طويل يغوص فى الأرض باحثاً عن الماء إلى أعماق بعيدة ، وكما أن ساق النخلة منسرح طويل فكذلك جذورها ، وهى قادرة على الوصول إلى الماء بخاصية عجيبة ركَّبها الله فى خِلْقتها ، ولهذا فإن النخلة لا تُروى إلا وهى فسيل ، فإذا نمت وصَلُبَ عودها واخشوشب الساق تغطَّى بلحاء قاس صلب لا يستطيع أى حيوان أكله ، وحول اللحاء ينمو نسيج متين يحمى اللحاء . وتعيش النخلة ما بين ستين وثمانين سنة ثم تشيخ وتبدأ فى الموت ، ولكنها على طول حياتها تلد الولائد التى تطفر من الأرض قربها ، ولا تزال تنمو حتى إذا بلغت سن البلوغ فصلت عن الأم ونقلت إلى مكان قريب ، لأن النخلة الواحدة تحتاج إلى ثمانية أمتار مربعة مجالاً لحياتها.

فإذا تأملنا هذا كله فهمنا لماذا يقال إن النخلة هى ناقة الأشجار ، فهى صبور متينة شديدة الاحتمال تعيش على أقل الماء ، وهى تعطى رطَباً ثم تمراً جنياً فيه غذاء عظيم ، وكل ما فيها نافع ، فإن جريدها نصنع منه الأقفاص وأشياء أخرى وسعفها نصنع منه أدوات بيتية كثيرة وخشبها متين يصلح للبناء وعمل السقوف وأسافين البيوت. والعربى الذى يملك النخلات العشر يعد من المياسير. وكما أننا لا نستطيع تصور حياة عرب الصحراء بدون الجمل فإننا لا نستطيع تصورها بدون النخيل . ومن الإنسان والجمل والنخلة معاً تتكوَّن حياة كاملة ، فإذا أضيف إليها الحصان اجتمعت لنا عناصر حياة الصحراء بكل خصائصها ، وهى كما قلنا حياة كاملة وأسلوب معاش متكامل وطراز حضارة قائم بذاته .

البَدو والبَدَاوَة ؛ الجَمَل فى حَيَاةِ البَدو :

أما طراز الحياة الذى يقوم على الإبل فهو البدو والبداوة ، وهو طراز من الحياة كامل لا يحتاج إلى شىء من خارجه إلا ما لا يتيسر صنعه فى الصحراء مثل السلاح والآنية المعدنية أو الخشبية وأدوات ركوب الخيل ، وعندما تدخل الخيل حياة البدو تُدخل معها تطوراً حاسماً فى حياتهم ، وسنتكلم عن ذلك فى حينه من ذلك البحث .

فهذا الطراز من حياة البداوة طراز كامل يتصل أجيالاً بعد أجيال دون تطور يذكر لأن الحياة فى الصحراء لا تتطلب تطويراً ، فهى متكاملة بذاتها على النحو الذى ذكرناه ، ثم إنها من القسوة والشظف بحيث تستنفد جهد الإنسان كله ، فلا يستطيع ذهنه بعد ذلك إلا القعود والحديث والتفكير المطلق دون غاية محددة ، إنما هى الرمال الممتدة بلا نهاية والتلال والوهاد والصخور مختلفة الألوان والأشكال والسماء الزرقاء وهذه الإبل وما يلحق بها من صغار الأنعام ولا زيادة . وهذه الحياة تقوم أساساً على الإبل : هى تغتذى بنبات الصحراء القاسى ، والإنسان يعيش عليها ، ولهذا جعل آرنولد توينبى حضارة البداوة واحدة من الحضارات الموقوفة Arrested Civilisa-tions ، مثلها فى ذلك حياة الإسكيمو فى صحارى الجليد والثلج وحياة البولينيزيين polynesians فى بحار شرق آسيا الشرقية والمحيط الهادى .

ولكى نقدم هنا وصفاً لإطار حياة البداوة هذه فى أجمل صورها نردد قول الله سبحانه وتعالى فى نفس سورة الغاشية ، ومن آلاء إعجاز القرآن أن هذه الآيات سابقة على آية الإبل فتكون هنا ذات وقع ومعنى حضارى عظيمين . وسبحان الله ! ما يتفكر الإنسان فى آى القرآن وإحكام مساقها إلا تبينت له منها آلاء وآلاء . والآيات تعطينا مقابلة بين حياة طائفة من الناس هم البدو فى الجنة فى صورة يلمسونها ويحسونها ، فهى قريبة جداً لأجمل ما فى أذهانهم من صور نعيم الحياة ، فيكون ذلك أدعى إلى تعميق إيمانهم ، وفى القرآن صور أخرى من نعيم الجنة قريبة الفهم والتصور لجماعات أخرى ، والقرآن روض المعانى وجامع الصور كلها ، وهو للناس كافة ، ففيه لكل عقل وفهم أبلغ الخطاب . قال الله تعالى :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) ﴾ [الغاشية]

فكل ما فى هذه الآيات من جميل الصور ميسور للبدوى فى خبائه والقفر الذى يتأبد فيه ، ثم تجىء آية الإبل فى آخرها فتكون كالجواب المقنع على سؤال محير . ثم تكتمل الآيات بعد ذلك بصور من إطار الحياة البدوية المتكاملة هذه :

﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) ﴾ [الغاشية]

وإذن فقد أدى استئناس الجمل وكشف فضائله إلى دخول جماعات من الناس جديدة فى الجزيرة ، وقد بدأ الدخول بطيئاً ، ثم اتسع مداه ثم تدفق ، لأن الداخلين استكشفوا فى حياة الصحراء فضائل أخرى وميزات كبرى ، فهنا يعيشون أحراراً فى مسارح شاسعة بلا حدود ، وهنا الأرض طلقة فهى كلها أرض الله لا تباع ولا تشترى ، كل خيرها شىء من الحشائش وصغار الأشجار ترعاها الإبل والشياه والماعز . والإبل هنا تتكاثر دون خوف ، فالبيئة ملائمة لها ، والسباع التى تعيش فى الصحراء سباع صغار لا تخشاها الإبل كالذئاب والثعالب وبنات آوى مما يُطرد ويُذاد

بالكلاب ، وجزائر الصحراء فيها ماء يصل أحياناً إلى أن يكون عيوناً جارية أو وديانا غنية بالماء . وإمكانيات الزرع موجودة ولكنها قليلة ، وهنا نجد صورة أخرى من البداوة هى التى يصفها ابن خلدون فى الفقرة الثانية من كلامه الذى أتينا به ، فهنا ظعن محدود ، أى : أن النازلين هنا بدو ظُعَّن أيضاً ولكنهم لا يبعدون فى القفر لأنهم مرتبطون بالقرية الصغيرة التى يأوون إليها آخر النهار ، فهى نصف بداوة أو نصف استقرار Semi - sedentary.

وهؤلاء الداخلون الجدد فى الجزيرة هم العرب العاربة فيما نرى ، فقد دخلوها كما قلنا قبل خمسة وعشرين ألف سنة على التقريب كما قلناه ، وهذا توقيت مقبول يتفق مع ما ذكرناه من تطور الأرض وما عليها فى هذا الجزء من العالم . وهذا هو الزمن الذى دلت الحفائر على أن الجمل عاد فظهر فيه وتكاثر فى شبه الجزيرة . والحركة كما قلنا كانت حركة تاريخية سارت ببطء كما كان كل شىء على الأرض يسير فيما يتعلق بالتطورات الجيولوجية الوئيدة والتغيرات المناخية ، ثم إن التغيرات الاجتماعية البشرية كانت كذلك بطيئة جداً .

وهذا الطراز الجديد من البداوة المرتبط بالإبل عندما عرف الناس كيف يتحملون مضانكه ويتمتعون بميزاته اتسع مداه وأصبح تياراً من الهجرة من جنوبى العراق وبلاد الشام إلى الجزيرة . والذين دخلوا الجزيرة على من كان فيها من العرب القلائل من بقايا البائدة لم يكونوا عرباً خُلَّصاً عندما دخلوا ، ولكنهم عَرُبوا مع الزمن ، وجاوروا بقايا البائدة حيث وجدوهم وصاهروهم واختلطوا بهم ، وتغير طراز الحياة فى البدو على أيامهم ، وطال عهدهم بالجزيرة فكانوا عرباً عاربة.

وقد أورد اليعقوبى نصاً عظيم القيمة لنا وإن كان فيه خلط بشأن معظم الأخبار التى يرويها هو وأمثاله من مؤرخينا القدامى عن عرب الجاهلية فى عصورهم البعيدة وهم أهل الجاهلية الأولى وفيهم العرب العاربة . قال : «وانتمت قضاعة إلى مُلك حمير . وقضاعة – فيما يقال – وُلِد على فراش مَعَدّ ، وكان مَعَدّ أول من وضع رَحْلاً على جمل وناقة ، وأول من زَمَّها بالنِّسع »[1]. وسنعود إلى تحليل هذه الفقرة من تاريخ

(١) تاريخ اليعقوبى ١ / ٢٢٣.

اليعقوبى مرة أخرى فيها بعد ، ولكن الذى يعنينا منها الآن هو قوله : أن قضاعة من أبناء معد ، وسنرى فيها بعد أن العكس ربما كان هو الصحيح، أى أن معد بن عدنان وعدنان نفسه من سلالة قضاعة ، وسنرى بعد قليل أن أسلم الآراء فى أمر قضاعة أنها من العرب العاربة الذين نحن بصدد الكلام عنهم ، والربط بين معد واستئناس الجمل هنا ربط بين هذا الاستئناس وقضاعة أى العرب العاربة على ما سنراه بعد قليل وفى هذا تأييد لما قلناه واسْتَنْتَجناه من أن دخول العرب العاربة شبه الجزيرة مرتبط باستئناس الجمل واستخدامه .

مشكلة قضَاعَة :

ولكى نوضح هذا بعض الشىء نقول : إن مشكلة قضاعة وحيرة النسَّابين فى نسبتها إلى عدنان أو قحطان ربما كانت دليلاً على صحة ما يقوله ابن حزم من أن قضاعة قوم من العرب منفردون بأنفسهم ، لا فى قحطان أو عدنان ، وإليك نص كلامه : « وأما قضاعة فمُخْتلف فيه ، فقوم يقولون هو قضاعة بن معد بن عدنان ، وقوم يقولون : هو قضاعة بن مالك بن حِمْير ، فالله أعلم » . ووجدنا فى كتب بطليموس وفى كتب العجم القديمة ذِكْرَ القضاعيين ونبذة عن أخبارهم وحروبهم ، فالله أعلم : أهُم أوائل قضاعة هذه وأسلافهم أم هم غيرهم ؟ وبلاد قضاعة متصلة بالشام وببلاد يونان والأمم التى بادت ممالكها بغلبة الروم عليها ، وببلاد بنى عدنان ، ولا تتصل ببلاد اليمن أصلاً ، إلا أن الذى يُقطع به ويَثْبُت ويُحَقَّق ويوقَن هو أنه ليس على ظهر الأرض أحد يَصِلُ نسبُه بصلة قاطعة ونَقلٍ ثابت إلى إسماعيل ولا إلى إسحاق عليهما السلام . نعنى ابنى إبراهيم خليل الله ﷺ - فكيف إلى نوح ؟ فكيف إلى آدم ؟ عليهما السلام - هذا ما لا مرية فيه[1] .

أما انتماء قضاعة إلى اليمن فمن الثابت أنه كان فى أيام معاوية بن أبى سفيان وسياسة بنى أمية : السفيانيين أولاً ثم المروانيين بعد ذلك غيرت نظام الكثير من القبائل العربية فى الشام ، وقضاعة ولخم وطىء وكل القبائل التى نظن أنها تندرج تحت العرب العاربة من عرب الشام مسها هذا التغيير. فأُلحقت كلب بن وبرة (وهم

---

(١) ابن حزم ، الجمهرة ٨ - ٩ .

من قضاعة) باليمنيين، ودُوِّن منها فى الديوان ٢٠٠٠ مجند كل منهم يتقاضى ٢٠٠٠ درهم ، وهذا هو شَرَف العطاء أو أشرف العطاء وتزوج منهم معاوية وأنجبت له امرأته ميسون ابنه يزيد ، وأصبحت كلبٌ العمادَ الأقوى لمعاوية وآله وخاصة بعد أن كسبوا نصر مرج راهط . واستقر فى أذهان الناس أن كلب بن وبرة من اليمن ، وانسحب الحكم على قضاعة ، لأن بنى كلب بن وبرة كانوا من أكابر القضاعيين . وليس بين أيدينا أى دليل على نسبة قضاعة إلى اليمن إلا هذا ، ويدخل فى قضاعة مع كلب بن وبرة : جُهينة وَبِلِىّ وبهراء والقَيْن أو بالقَين وجَرْم وتَنوخ وخُشَين .

ولكن من المؤكد - كما رأينا عند ابن حزم - أن قضاعة قدماء فى بلاد الشام وأن مواطنهم الأولى كانت حول دومة الجندل ويمتدون إلى تبوك ووادى القرى . ودومة الجندل وتبوك مدينتان قديمتان جداً ، وهما فى الغالب من إنشاء القضاعيين وكذلك المواضع التى كانت عامرة ونرى آثارها باقية إلى اليوم فى وادى القرى . ومن المؤكد أن هذه المدن ليست من إنشاء قوم نعرفهم ، فهى أقدم من الأنباط ، فلم يبق إلا أنها من إنشاء أولئك العرب القضاعيين الذين نتحدث عنهم .

ومن الثابت أن قبيلتين من قبائل قضاعة كانتا فى بلاد الشام منذ زمن قديم يصعب تحديده ، الأولى كلب بن وَبَرة التى ذكرناها ، فاسمها وارد فى النصوص النبطية القديمة ، والثانية هى تنوخ وموطنها غرب العراق وجنوب غربه فى المنطقة التى قلنا إن الجمل استؤنس فيها ومن هنا بدأ زحف العرب العاربة إلى داخل الجزيرة ، وتكوَّن بعض بطون قضاعة من أولى القبائل الداخلة أى من أولى العاربة ، وهذا فى ذاته يحل لنا إشكال أوليات قضاعة ونسبتها ويعيننا على التعرف بعض الشىء على بعض قبائل العاربة ، وكُتَّاب العرب أنفسهم يقولون إن تنوخاً فرع من قضاعة - وإنها وُجدت فى مواطنها من زمن سحيق فى القديم . واسمها نفسه مستمد من التَنَوّخ وهو الاستقرار فى موضع فهى كانت مستقرة فى مواطنها فى بلاد الشام ، وفى مواطنها استؤنس الجمل، وكان الزحف إلى داخل الجزيرة .

ومن الثابت أن قضاعة وتنوخاً كانت فى مواطنها قبل أن تدخل عليها غَسّان ولخم وما إليها من القبائل التى يقال إنها يمنية أى هاجرت من اليمن ، ونحن نشك اليوم فى

كل ما يقال عن يمنية غسان ولخم وكندة والأوس والخزرج ، فليس لدينا دليل قاطع على الأصل اليمنى لهذه القبائل إلا أقوال النسابة وقدماء القُصَّاص . وجدير بالذكر أن العرب فى الجاهلية لم يعرفوا هذا الانقسام الكبير إلى مُضَر واليمن أو قيس وكلب ، واليمنية المحقَّقون عندنا هم السبئيّون ومن سبقهم من أصحاب الدول فى اليمن ، ثم كندة ثم حمير الأولى ، أما ما عدا ذلك فأقوال قصاص وتصنيفات نسابة ، والرأى عندنا أن العدنانية وهم سلائل العرب المسمَّوْن بالإسماعيلية وَجَدُوا فى الجزيرة على ما سنرى مجموعات من القبائل القديمة فظنوها يمنية لأنهم هم أنفسهم أتوا من الشمال ، والشام عند العرب القدامى معناه الشمال ، أما اليمن فمعناه الجنوب .

ولهذا قالوا : إن خثعم يمن ، والأوس والخزرج يمن ، والمعنى هنا أنهم كانوا فى الجزيرة قبل دخول الإسماعيلية وهم المستعربة ، وما دمنا نعرف أن القبائل التى نحن بصددها ليست من البائدة فهؤلاء هم العاربة ، أى العرب القدامى الذين كانوا هناك قبل المستعربة ، وجماعاتهم المعروفة لنا قليلة على أى حال ، أشهرها وأهمها قضاعة وتَنُوخ وطيىء وربما الأزد ، أما كِندة التى وُجِدت فى شمال الجزيرة فمن الثابت أنها يمنية وهى فرع من كِندة التى توجد مواطنها الأولى إلى غرب حضرموت .

وقد سبق أن قلنا : إن جماعات قبلية مثل قضاعة تكبر وتمتد أراضيها حتى تشمل مساحات واسعة ، ثم تنكمش بعد ذلك على ما رأيناه وما سنراه وتتفرق قطعاً ، وتبقى هذه القطع فى أماكن متباعدة وتظل تحمل اسم أمها الأول ، ومن هنا يقع الاختلاف والشك فى الأصول الجغرافية للقبائل ، ولكن المؤكد أن هذه القبائل التى نقول إنها من العاربة كانت بدواً جمَّالة، فتنوخ أهل جمال ، وربما كان أصل تسمية تنوخ أنها مناخ الجمال ، وقضاعة جمالة وكذلك طيىء وعلى أى حال فهذا فرض قائم على الاستنتاج فى البحث عن العرب العاربة .

فهم على الجملة عرب جمالة دخلوا الجزيرة مع الجمل ، وامتدوا فيها من مواطنهم فى الشام وجنوبى العراق ، وهناك اختلطوا ببقايا البائدة ، ونشأت عن ذلك جماعات قبلية كبيرة ، وهذه الجماعات عاشت فى شمال الجزيرة ووسطها فى عصور كان نبات المرعى فيه قليلاً لا تقدر على العيش عليه إلا الجمال والماعز وما إليها . ولما كانت

صادرة من بلاد استقرار أو نصف استقرار Semi- Sedentary فقد أقامت فى مواطنها مراكز عمران أصبحت مدناً صحراوية مثل دومة الجندل وتبوك وبعض مواضع وادى القرى .

وربما جاء القول بأن العمالقة يدخلون فى جملة العرب العاربة ، أو أنهم كانوا من بدو بادية الشام الذين عاشوا فيها منذ أزمان موغلة فى القدم ، أو من انحدر منهم إلى جزيرة العرب وأصبحوا فى الجزيرة عرباً عاربة لأن شمال جزيرة العرب كان يسمى فى القديم بلاد عريبى ومنه جاءت تسمية العرب ، فهم سكان بلاد عريبى . ولما كان تاريخ العمالقة فى بوادى الشام طويلاً فليس هناك ما يمنع من أن يكون الهكسوس الذين غزوا مصر فى أواخر عصر الدولة الوسطى منهم ، ولكنهم لم يكونوا ممن استأنس الجمل لأن المصريين القدماء لم يصفوا الهكسوس أو الرعاة بأنهم جمالة . ولا وجود لرسوم الجمال على الآثار المصرية . أما الذين تمكنوا من الإيغال فى جزيرة العرب من هؤلاء البدو فهم العرب العاربة على ما ذكرناه ، وهم على هذا الفرض أبناء عمومة العمالقة . وليس من الضرورى أن يكون زحف العاربة إلى داخل الجزيرة قد وقع فى نفس الوقت الذى تحرك فيه العمالقة إلى مصر ، فهذه شعوب ضخمة وأزمان متطاولة، ونحن نستكشف أمرها كما ينظر الإنسان إلى التلال والجبال البعيدة التى تتراءى فى الأفق ، ولا يمكن التمييز بين ما تقدم منها وما تأخر .

على أى حال ، فهذه مجرد محاولة لحل مشكلة العرب العاربة ، فعلى الرغم من أن كل مراجعنا تذكرهم إلا أن مرجعاً واحداً منها لا يذكر لنا قبيلة واحدة من قبائلهم ، ونحن عندما نقول إنهم دخلوا جزيرة العرب نتيجة لاستئناس الجمل والانتفاع به فإننا نحل فى نفس الوقت إشكالين لا إشكالاً واحداً : إشكال عودة الجمل إلى جزيرة العرب وإشكال العرب العاربة وأوجدنا شيئاً من الارتباط والتناسق بين نتائج الأبحاث الجيولوجية ونتائج استقراء نصوص أصولنا التى نعتمد عليها ، ومهما يكُنْ الرأى فيما قلنا فنحن قد فتحنا اتجاهاً جديداً من اتجاهات التفكير فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، ولنُضِفْ إلى ذلك أننا ألقينا ضوءاً على حقيقة قضاعة ، وقضاعة ليست مشكلة صغيرة من مشاكل تاريخ العرب والإسلام .

ويكفى أن نُعيد هنا ما ذكرناه من قبيلة كلب بن وبرة وهى كبرى القبائل التى تُوصف بأنها يمنية منذ خلافة معاوية بن أبى سفيان إنما هى قضاعية فى الأصل ، وما يصدق على كلب بن وبرة قد يصدق أيضاً على غيرها من القبائل التى تُوصف بأنها يمنية مثل غسان ولخم والأوس والخزرج وخزاعة ، وكل تلك القبائل التى لم يعرف النسابون أين يضعونها من شجرات الأنساب فألحقوها بقحطان بخيوط « هى أوهى من نسج العنكبوت » ، كما يقول ابن حزم ، وليس لدينا دليل واحد يُعتمد عليه على صلتها باليمن أو أصولها اليمنية .

والحكاية كلها فيما يبدو افتعلت من أيام معاوية بن أبى سفيان بعد ارتباطه الوثيق ببنى كلب بن وبرة وزواجه من ميسون ابنة بحدل الكلبى ثم ما كان من إنجاب ميسون ليزيد بن معاوية الذى صارت إليه الخلافة ، ووقوع الخلاف بين القيسية المضرية والكلبية التى وصفت بأنها يمنية بعد موت يزيد وتأييدها لمروان بن الحكم وإقامتها للبيت المروانى بعد انتصارها فى مرج راهط على الضحاك بن قيس الفهرى فى المحرم ٦٥ هـ . واتساع نطاق العداوة بعد ذلك بين العرب وقبل هذه الأحداث ما كان هناك وجود لخلاف واسع المدى بين شاميين ويمنيين ، أو كلب وقيس ، أو كلب ومضر ، أو قحطان وعدنان .

العَرب المستَعربة (الإسماعيلية) - الخَيْل :

وقبل أن نتكلم عن العرب المستعربة نقول : إن هناك اتجاهاً عند نفر من أعلام مؤرخى العرب المحدثين إلى القول بأن العرب العاربة جميعاً قحطانيون أى أن الذين عمروا الجزيرة بعد خلاء الكثير من نواحيها بسبب الجفاف جاءوا من الجنوب ، ومن هنا فإنهم لا يكتفون بالقول بأن لخماً وغسان وخزاعة والأوس والخزرج يمنيون ، بل إن قضاعة وتنوخاً يمنيون عندهم ، وأصل هذا الرأى عند مؤرخى اليمن وخاصة الهمدانى فقد قال به فى كتابه الإكليل ، ولكن يضعف من رجاحة هذا الرأى ما تقوله بينات الأثريين الذين كشفوا عن حفريات الجمال - وتتبعوا توغلها فى الجزيرة من الشمال : من المنطقة التى كانت تسكنها تنوخ أولاً ثم من منازل قضاعة ، ويؤيد الأثريين فى هذا أن قضاعة نفسها لم تكن يمنية أصلاً ، بل شامية ولم تدرج ضمن اليمنيين إلا لأسباب سياسية فى العصر الأموى .

ولما كانت حفريات أهل الآثار قد دلت على أن الجمل استؤنس فى شمال اليمن كما استؤنس فى جنوب غربى العراق ، فهنا يمكن القول - دون محاولة للتوفيق بين الاتجاهين - إن جانباً من العاربة زحفوا من الجنوب ، ومن هذه القبائل كندة وخزاعة والأوس والخزرج ثم حمير فيما بعد ، وبعضها زحف من الشمال مثل تنوخ وقضاعة ، وبعض بطونها ، وعامة المضرية وهذه كلها تدخل فى العاربة وإن كانت قد أُلحقت فيما بعد بشجرات الأنساب العدنانية أو القحطانية ، ولكن الذى نتوقف فيه ولا نستطيع تأييده - لأننا نملك عليه بيّنة - هو القول بأن لخماً وغسان مثلاً أصولها يمنية ، فليس لدينا دليل واحد على ذلك إلا ما يقوله النسابة ، وما انبنى على أقوال النسابة من أشعار وأخبار كلها مختلق مفتعل .

والآن ننتقل إلى المستعربة ، فنجد أن تحديد الأمر أيسر لأن معلوماتنا عنهم أوفر وأوضح ، فغالبية مؤرخينا مجمعون على أن المستعربة هم الإسماعيلية وهم العدنانية ، وإن كان هناك خلاف فى مساق النسب من إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام إلى عدنان .

وعند كلامنا عن العرب المستعربة والإسماعيلية ينبغى أن نلاحظ أن تقسيم العرب إلى قحطانية وعدنانية يرجع أصله إلى شيخ نسابة العرب وهو محمد بن هشام بن السائب الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ على اختلاف ، والكلبى فى كتاب «النسب الكبير» يذكر أن أصول العرب ترجع إلى أصلين : يقطان وقيدار ، ويقطان هو قحطان ، وأما قيدار فهو أصل العدنانية أو الإسماعيلية .

والإسماعيلية - أولاد قيدار هذا - يُربطون فى الروايات التى بين أيدينا بالعدنانية ، والخلاف فى مساق النسب من إسماعيل إلى عدنان ، فأما أهل الاحتياط من نسابة العرب فلا يتعدون فى خط الأنساب عدنان وهم يعولون فى ذلك على حديث نُسِبَ إلى رسول الله ﷺ خلاصته أنه كان لا يجاوز فى نسبه عدنان بن أُدد ويقول كذب النسابون ، قال الله عز وجل : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة الفرقان] والاستدلال بالآية الكريمة هنا فى غير موضعه ، مما يدل على أن الحديث كله ضعيف

بل مكذوب ، لأن تمام نص الآية ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) ﴾ [الفرقان] .

فالإشارة هنا إلى قوم نوح وبعض من جاء بعده وكلهم من العرب البائدة ولا علاقة له بإسماعيل وعدنان وما بينهما ، وربما يكون هذا هو الذى جعل ابن حزم فى كلامه عن العدنانيين لا يشير إلى ما بين عدنان وإسماعيل مع نصه على أن عدنان من نسل إسماعيل وقال : « وأما كل من تناسل من ولد إسماعيل عليه السلام فقد غبروا ودثروا ، ولا يُعرف أحد منهم على أديم الأرض أصلاً حاشا ما ذكرنا من أن بنى عدنان من ولده فقط »[1] أما المتأخرون الذين لا يحتاطون فيما يقولون فيتكلمون عما نقل هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن التوراة فيصلون بسياقة النسب إلى آدم عليه السلام[2]، ولكنهم فى سياقة النسب يذكرون أنه « ابن حمل بن قيدار بن إسماعيل الذبيح بن إبراهيم الخليل ... » أى أنهم يجعلون قيدار من أبناء إسماعيل ، ويوجز جرجى زيدان أقوال نسابة العرب فى ذلك الأمر بقوله : « وأقدم ما ذكره العرب من أخبار الإسماعيلية مأخوذ أكثره عن اليهود وعليه صبغة عربية خلاصته أن إسماعيل لما نزل مكة كان فيها بقية من جُرهم ، وآخرهم مضاض بن بشير فتزوج إسماعيل من بناتهم ، وتعلم العربية منهم وتناسل فيهم ، وأولاده هم العرب الإسماعيلية ، ويسمونهم المستعربة ، لأنهم دخلوا فى العرب وهم ليسوا منهم ، كما فعل القحطانية فى اليمن قبلهم . وأشهر أولاد إسماعيل قيدار توَّجَهُ أخواله وعقدوا له الملك عليهم بالحجاز ، واسمه وارد فى التوراة .وتناسل من قيدار أعقاب كثيرة حتى وُلِد عدنان... ومن عدنان تناسل العرب الإسماعيلية . فعندهم أن عدنان ولد عَكاً ومَعَداً ، ومَعَدٌ هو أبو القبائل العدنانية كما سنرى »[3].

وفى بقية كلام جرجى زيدان تفاصيل مما استخرجه من التوراة وكتب العهد القديم من ذكر العرب ، وأهم ما فيه :

---

(١) ابن حزم ، الجمهرة ٧ .
(٢) انظر النويرى . نهاية الأرب ١٦/ ٣ والمراجع التى يعتمد عليها .
(٣) جرجى زيدان ، تاريخ العرب قبل الإسلام . الطبعة الثانية مراجعة وتعليق صاحب هذا الكتاب . دار الهلال القاهرة .

- جاء فى سفر التكوين فى أثناء قصة يوسف عليه السلام بعد أن طرحه إخوته فى البئر قوله : ثم جلسوا يأكلون ، ورفعوا عيونهم، ونظروا فإذا بقافلة من الإسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالها محملة نكعة ، وبلساناً ولاذناً ، وهم سائرون لينزلوا مصر - (سفر التكوين ص ٣٧ عدد ٢٥) . وكان ذلك فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد وكان الإسماعيليون يحملون التجارة إلى مصر ، و هم الذين اشتروا يوسف وباعوه بمصر .

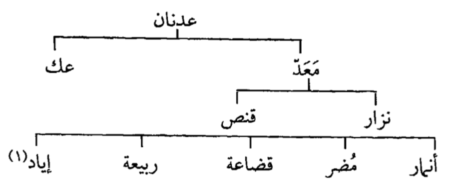
- ثم جاء ذكرهم فى سفر القضاة بعد ذلك الحين بخمسة قرون . وهم يحاربون الإسرائيليين ، ويسمون هناك تارة بنو المشرق وطوراً الإسماعيلية (القضاة ص ٦ عدد ٣٣ - و٧ عدد ١٢ - و ٨ عدد ٢٤ و٢٦) .

- وبعد ذلك بخمسة قرون أُخر ذُكر أولئك العرب فى سفر أَشعْيَا باسم قيدار ، وهو فى التوراة ابن إسماعيل ، فيراد باسمه قبيلة الإسماعيلية على الأقل . وهو يتنبأ بقرب زوال مجدهم (أشعيا . ص ٢١ عدد ١٦، ١٧) .

- وأصبح الإسماعيلية فى عرف التوراة من ذلك الحين قبيلتين : قيدار ونبيت. وظن بعضهم أن المراد بالنبيت والنبيط الأنباط ، أصحاب بِطْرا وعارضهم آخرون .

- وبعد أشعيا بنحو القرن وبعض القرن - فى القرن السادس قبل الميلاد - جاء نبوخَذْنَصَّر ، الذى يسميه العرب بُخْتَنَصَّر . واكتسح شمالى جزيرة العرب وغلب على الإسماعيلية أو بنى قيدار أو بنى المشرق فى البادية (يهوديت ص ٢ عدد ٣ ، نبوءة أرميا ص٤٩ عـ ٢٨ ، القضاة ٨ عدد ٢٤ ، ٢٦) .

وقد استخرج جرجى زيدان من نصوص العهد القديم أن الإسماعيلية كانوا إلى ما قبل ظهور المسيح عليه السلام بزمن طويل أهل خيام ورحلة ورعى وماشية وتجارة وثروة ، ثم يقول : إن ذكرهم خَفِىَ بعد أيام بختنصَّر « كان بختنصر أضعفهم ، فتفرقوا وذهبت شهرتهم أو خفيت أخبارهم ، ثم تكاثروا وعادوا إلى الظهور فى أوائل النصرانية أو قُبَيلها ، وهم قبائل أمم وأمم ذات شأن ، ملأوا تهامة وتفرقوا فيها إلى الحجاز ونجد وبادية الشام وغيرها فى أزمان متفاوتة ، القبيلة بعد القبيلة . وترجع كلها إلى خمسة أصول ، لكل أصل منها فروع عديدة . أما الفروع الخمسة المشار إليها فيتصل نسبها بعدنان على هذه الصورة :



وفى كلام جرجى زيدان فوائد كثيرة أهمها :

١ - إن الإسماعيلية الذين يعتبرون عرب الشمال أو أبناء عدنان شعب قديم من البدو عاش فى صحارى وسط الشام وجنوبه ، وكانوا رعاة ظاعنين وبعضهم كانوا يعملون بالتجارة يكسبون من ذلك مالاً وفيراً .

٢- إنهم كانوا أقوياء مرهوبين ، وإن العبرانيين كانوا يرهبونهم ويحذَرُون منهم .

٣- وإن هؤلاء الرعاة كانوا يذهبون فى متاجرهم ورعيهم إلى بعض نواحى شمالى جزيرة العرب ومصر . وكانوا يعيشون قبائل .

٤- إنهم كانوا يسمون أحياناً بنى المشرق ، والإسماعيلية أحياناً أخرى .

فأما بنو المشرق فهو تعريب خاطىء من جرجى زيدان للفظ Saracenos الموجود فى النقوش اليونانية ، وهو لفظ غير يونانى ومعناه غامض ، فمن قائلٍ إن أصله «شرقينوس » وهى التى جعلها جرجى زيدان بنى المشرق ، ومن قائلٍ إن أصله «سَرِقينوس » ويكون معناه فى زعمهم فى هذه الحالة : السُّراق ، لأنهم بدو مغيرون . وعلى أى حال فإن هذا اللفظ استُعْمِل زماناً طويلاً دلالة على العرب والمسلمين فى العصور الوسطى والعصر الحديث ، فقالوا فى الإنجليزية Saracens وفى الفرنسية Sarrasins وفى الإيطالية Saraceni . وأطلق هذا اللفظ على العرب والمسلمين .

ويستوقف نظرنا من كلام جرجى زيدان قوله : إن أول ذكر جاء للإسماعيلية فى العهد القديم جاء فى سفر التكوين بمناسبة ذكر يوسف عليه السلام ، وقوله : إن ذلك كان فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد .

---

(١) جرجى زيدان ، العرب قبل الإسلام : ١٨٩ - ١٩٠ .

وإذا رجعنا إلى تاريخ مصر القديمة نجد أن غزو الهكسوس لمصر كان حوالى سنة ١٦٧٥ قبل الميلاد . أى بعد ورود ذكر اسمهم فى العهد القديم بقرن وربع تقريباً. والهكسوس كانوا رعاة أى بدواً أغاروا على مصر من ناحية جنوب الشام وجزيرة العرب ، وقد دام سلطانهم عليها فوق القرنين حتى تجرد الملك أحمس منشىء الأسرة السادسة عشرة وطردهم من مصر .

ويستوقف نظرنا هنا أن هؤلاء الرعاة الذين عاصروا على وجه التقريب ظهور اسم الإسماعيلية فى العهد القديم هم الذين أدخلوا الخيل مصر ، وقبل ذلك لم يعرف المصريون الخيل ، وبعدهم أصبحت الخيل جزءاً من الحياة المصرية واستخدمها الفراعنة فى حروبهم ، وكان دخول الخيل والعجلة الحربية بلاد مصر سبباً من أسباب التوسع المصرى فى بلاد الشام وإنشاء ما يسمى فى تاريخ مصر القديمة بعصر الامبراطورية ، وسنرى بعد قليل أن العرب الإسماعيلية هم الذين جلبوا الحصان المستأنس من بلاد العراق . وكان قد أتاها من موطنه الأصلى فى صحارى وسط آسيا . والأشوريون أخذوا الخيل والعجلات الحربية مما يليهم من بلاد وسط آسيا ، وعنهم أخذ الرعاة الهكسوس الخيل والعجلات الحربية وأدخلوهما مصر . ولا تعارض بين هذا وما ذكرناه عن الهكسوس فى كلامنا عن العرب العاربة ، فإن الهكسوس هم الرعاة وقد طال مكثهم فى بلاد الشام قروناً متطاولة ، وفى بعض عصور قوتهم غزوا مصر واحتلوها ثم طردهم منها الملك أحمس .

فإذا رجعنا إلى حفريات الأثريين نجد أن هذا الوقت على وجه التقريب هو الذى ظهرت فيه حفائر الخيول فى نواح شتى من أطراف الجزيرة العربية الشمالية ، وقد انتشرت الخيول بين العرب الإسماعيلية من ذلك الحين وركبوها واشتد ساعدهم بها . وأصبحوا من ذلك الحين قوة يُخْشى بأسها فى بلاد الشام وما بين النهرين . ويمكن القول بأن غزوة الملك بختنصَّر لبلاد الشام كان غرضها القضاء على قوة أولئك العرب الرعاة الإسماعيلية الذين أصبحوا قوة مرهوبة فى بلاد الشام ، وكانت الحروب بينهم وبين العبرانيين متصلة. وامتدوا من ناحية أخرى فأغاروا على مصر ، واستقرت منهم جماعات فى شبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية التى تُعرف إلى الآن بصحراء العرب .

أما بالنسبة لبلاد العرب فإن استخدام الخيل أضاف إلى أولئك الإسماعيلية قوة فرسان كبيرة ، وعندما تكاثرت أعدادهم وحاولوا التغلب على ما جاورهم من البلاد فطاردهم – على أوقات متفرقة – الأشوريون من بلاد ما بين النهرين ، والمصريون من مصر .

ووجد أولئك البدو الرعاة – عندما تكاثرت أعدادهم مرة أخرى – الطرق مفتوحة أمامهم للامتداد فى وسط الجزيرة وجنوبها . إما بسبب مطاردة الملوك لهم ، أو لأنهم كانوا فى عصر قوة وكثرة عدد واتجاه إلى التوسع فى الأرضين .

ومن غريب ما يتفق لنا من النصوص العربية أن اليعقوبى يقول فى كلامه على «ولد إسماعيل بن إبراهيم » : ذكرت الرواة والعلماء أن إسماعيل بن إبراهيم أول من نطق بالعربية وعَمَّر بيت الله الحرام بعد أبيه إبراهيم ، وقام بالمناسك . وأنه كان أول من ركب الخيل العِتاق . وكانت قبل ذلك وحوشاً لا تُرْكَب . وقال بعضهم : إن إسماعيل أول من شق الله فاه باللسان العربى ، فلما شب أعطاه الله القوس العربية ، فرمى عنها فكان لا يرمى شيئاً إلا أصابه . فلما بلغَ أخرج الله من البحر مائة فرس ، فأقامت ترعى بمكة ما شاء الله . ثم ساقها الله إليه . فأصبح وهى على بابه ، فَرَسَنها وركبها ، وأنتجها : وكانت دواب الناس البراذين . وركبها إسماعيل وبنوه وولده . وفى إسماعيل يقول بعض شعراء مَعَدّ :

أبونا الذى لم تُركب الخيلُ قبلَه ولم يَدْرِ شَيْخ قبله كيفَ تُـرْكَبُ

ويقال : إنما سميت « أجياد » مكة لأن الخيل كانت فيها . فأوحى الله عز وجل إلى إسماعيل أن يأتى الخيل فأتاها فلم تبق فرس إلا أمكنته من ناصيتها ، فركبها ، وركبها ولده ، فكان إسماعيل أول من ركب الخيل ، وأول من نفى أهل المعاصى عن الحرم ، قال « أُعَرِّبه » فسميت « العربة » بذلك[1].

---

(١) نص اليعقوبى هنا لا يعين حقائق تاريخية محددة وإنما هى إشارة أسطورية الطابع نأخذ نحن بمعناها فى مجمله . أما التفاصيل فليس لدينا دليل على صحتها . فلا نعتقد بأن هناك علاقة بين اسم أجياد الموضع المعروف بجنوبى مكة ، والخيل أو الجياد ، وليس هناك كذلك ما يؤيد زعم اليعقوبى أن لفظ أعرِّبُه معناه أطهِّره بنفى المعاصى عنه . والمعروف أن لفظ العربة – اسماً لجزيرة العرب – له اشتقاقات أخرى . تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٢١.

وهذه أخبار أسطورية الطابع ، ونحن نأخذ هنا بمجملها أو دلالاتها ، فهنا إشارة إلى علاقة إسماعيل بالخيل ، ونحن لا نستنتج من هذا أن إسماعيل هو الذى استأنس الحصان كما يريد هذا النص أن يقول ، ولكننا نجد فيه توكيداً لما دلت عليه أبحاث الأثريين من أن دخول الخيل جزيرة العرب كان مرتبطاً بالإسماعيلية كما كانت عودة الجمل إلى داخل الجزيرة مرتبطة بالإبل .

وتُجمع الشواهد التاريخية على أن العرب الإسماعيلية أو المستعربة دخلوا الجزيرة من الشمال على أهلها من العرب العاربة ، وهم دخلوها معتمدين على سلاح جديد كان له أثر الانقلاب فى كل ناحية ظهر فيها وهو الحصان ، فقد كان استئناس الحصان فى صحارى منغوليا ووسط آسيا إيذاناً بميلاد امبراطوريات مناطق الأعشاب Les empires des steppes أو امبراطوريات قامت على ظهور الخيل Les empires à dos des chevaux والمصطلحان من ابتكار العالم الفرنسى جروسِّيْه Grousset وهو أول من كتب مُؤلَّفاً جامعاً عن دول البدو الآسيويين واعتمادها على الحصان . والحصان وصل إلى غرب آسيا من أيام الآشوريين وعنهم أخذه العرب الرعاة فى صحارى الشام ، واعتمد عليه الهكسوس فى غزوهم مصر على ما قلناه . ومن غربى آسيا الصغرى على الأغلب انتقل الحصان إلى اليونان والرومان وأصبح من القرن الرابع قبل المسيح حيواناً أوروبياً ، وقد تطور هناك بحسبه ظروف البيئة ومطالبها ، وظهر الحصان الأوروبى القوى الثقيل العظام الضخم الجسم الغليظ الأرجل .

وقد عرف أهل أوروبا منذ الزمن القديم نوعين من الخيل : خيل العمل الزراعى والحمل الثقيلة البطيئة الحركة الكثيرة الطعام المعروفة باسم Caballus ومنه لفظ Cheval الفرنسى ، وحصان القتال الخفيف بعض الشىء الذى يتميز بصفات قتالية عظيمة ، وهو المعروف باسم equus وهو أقوى وأمضى أداة حرب عرفها الرومان . والفرسان Equestri كانوا معدودين فى طبقة النبلاء بسبب قدرتهم على الحرب على ظهور الخيل ، وكلا هذين النوعين من الحصان يدخلان ضمن ما يسمى بالحصان الكبير The big horse نظراً لضخامة حجمه وثِقَل وزنه وقدرته على العمل فى الحقول والمدن وشجاعته فى ميادين الحروب . وعلى أى حال فإن الحصان كان دائماً

أكبر معين للإنسان على بناء الدول والحضارات تبعاً لذلك ، وليس هناك دولة كبرى أو صغرى أو حضارة كبيرة أو صغيرة إلا وللحصان فيها نصيب .

وهذا أيضاً ينطبق على العرب قبل الإسلام وبعده ، فإن الحصان الذى دخل صحارى الشام آتياً من بلاد وراء النهرين أو من آسيا الصغرى وجد فى فلوات بلاد الشام ومراعيها بيئة أنشأت نوعاً جديداً من الخيل ، فإن الحصان المغولى الأول والذى يُعتبر أباً للخيل كلها حيوان صغير الحجم نسبياً قصير الساقين غليظ العنق ، ولكنه حصان قوى متين العظام شديد الاحتمال ، فلما دخل مناطق الحشائش الطويلة فى شمال الشام وجزيرة العرب وجد بيئة جديدة تطور فيها مع الأحقاب ، فنشأ الجواد العربى الصغير الحجم نسبياً الطويل الرِّجْلين ، الطويل العنق ، القصير الشعر ، العصبى المزاج، السريع الحركة ، المتين العظام ، الصحيح البدن ، الواسع الصدر ، الصغير البطن ، المتين الظهر ، الخفيف العَجُز ، الطويل الرقبة مع انحناء جميل فيها ، ورأس صغير فى غاية الانسجام مع الرقبة الأنيقة وانسراح الجسم كله مع لمعان الشعر وزهاء اللون . وتميز ذلك الحصان إلى جانب ذلك فى معظم الحالات بالغُرَّة ، وهى الشارة البيضاء فى الجبهة التى تمتد حتى الأنف أحياناً ثم الحجل وهى المنطقة البيضاء عند رُسغ القوادم والخوافى ، وقد يقتصر التحجيل على ثلاث قوائم ، ويضاف إلى ذلك كله معرَفة جميلة تُكْمِل جمال العنق الصغير والرأس وذيل أنيق يتدلَّى من آخر ظهر الحصان كأنه شعر الحسناء .

وهذا هو الحصان العربى الذى يعتبر من أفضل صنوف الخيل وأكثرها امتيازاً. فهو إلى جمال هيئته يمتاز بذكاء لا بأس به . وإذا كانت الخيل تعتبر رابعة فى الذكاء فى عالم الحيوان بعد الفيلة والقرود والكلاب فإن الحصان العربى يختلف مستواه من الذكاء بحسب استعماله ، فهو إذا أُحسن استعماله وعومل برفق ومحبة واحترام شُحِذَ ذكاؤه وأصبح من أعون الحيوان للإنسان ، فهو يتعرف من تلقاء نفسه على مواقع الماء باطنه وظاهره بغريزة صافية ، وهو مطواع لصاحبه شديد التعلق به وإذا أُحسن تدريبه اقتحم النار والماء وقفز من حالق دون تردد .

وقد كان العربى الجاهلى من أحسن الناس معاملة للخيل ومحبة لها وحَدْبًا عليها

وعناية بها ، ولهذا وُصِف الحصان العربى فى الجاهلية بأرفع الصور ، لأنه كان صديق صاحبه ورفيقه وأكبر معين له فى الحياة ، ويتجلى ذلك فى الشعر العربى بأجلى بيان . وقد كانت عناية رسول الله ﷺ والعمرين بالخيل عظيمة ، ويكفى أن رسول الله ﷺ جعل نصيب الفارس من الغنيمة ثلاث مرات قدر الراجل: واحد للفارس نفسه ، وواحد لطعام الحصان ، وثالث للعناية به .

وهذا الحصان العربى شريك بحق النصف فى الفتوح العربية ، فمعظم انتصارات المسلمين يرجع الفضل فيها إلى أنهم كانوا ركباناً يحسنون معاملة الخيل وقيادتها والعناية بها . وقد ظهر اهتمام رسول الله ﷺ بالخيل بعد ما رأى من فتكها بالمسلمين فى يوم أُحُد ، وبعد انتصاره على بنى قريظة واستيلاء المسلمين على أموالهم استعمل الرسول معظم خُمس الله ورسوله فى شراء الخيل من نجد وتربيتها وإنتاجها فى أحماء المدينة .

وهذا الحصان العربى الذى قام بهذا الدور الكبير فى تاريخ العرب والإسلام هو الحصان الذى تربى وتتطور على أيدى العرب فى الشام ، وعلى صهوته دخلوا الجزيرة واستقروا فى شمال الجزيرة ووسطها . وقد تمكن العرب المستعربة الذين سميناهم بالإسماعيلية من التفوق على من وجدوه فيها من جماعات العاربة وانتشروا فى نواحيها وتبحبحوا فى مراعيها ، وكثرت فيها فروعهم وقبائلهم واستعربوا أى صاروا عرباً .

ولدينا نص لليعقوبى يؤيد هذا الذى قلناه وإن كان أسطورى الطابع . قال : «كان وَلَد جُرْهم بن عامر لما صار إخوتهم من بنى قحطان بن عامر إلى اليمن فملكوا ، صاروا هم إلى أرض تهامة فجاوروا إسماعيل بن إبراهيم ، فتزوج إسماعيل الحَنْفَاء بنت الحارث بن مُضاض الجُرْهُمى فولدت له اثنى عشر ذكراً هم : قيدار ونابت وأدبيل وميشام ومسمع ودوما ومسا وحداد وتيما ويطور ونافس وقيدما ، وهذه الأسماء تختلف فى الهجاء واللغة لأنها مترجمة من العبرانية ، فلما كملت لإسماعيل مائة وثلاثون سنة توفى فدُفِن فى الحِجر ، فلما توفى إسماعيل ولى البيت بعده نابت بن إسماعيل ، ويقال : وَليه قيدار ، وبعد قيدار نابت بن إسماعيل .

وافترق ولد إسماعيل يطلبون السعة فى البلاد ، وحبس قوم أنفسهم على الحرم.

فقالوا : لا نبرح من حرم الله! ولما توفى نابت - وقد تفرق ولد إسماعيل - وَلِىَ البيت المضاض بن عمرو الجُرهمى ، جد ولد إسماعيل .. وطغت جُرْهم وبغت وظلمت وفَسَقَت فى الحرم ، فسلط الله عليهم الذَّر ، فأُهْلِكوا به عن آخرهم . وكان ولد إسماعيل متشرين فى البلاد يقهرون من ناوأهم ، غير أنهم كانوا يسلمون بالمُلْك لجُرْهم للخئولة . وكانت جرهم تطيعهم فى أيامهم. ولم يكن أحد يقوم بأمر الكعبة فى أيام جُرهم غير ولد إسماعيل تعظيماً منهم لهم ومعرفة بقدرهم . فقام بأمر الكعبة بعد نابت : أَيْنَ ، ثم يشجب بن أَبين ثم الهميسع ، ثم أدد فعظُم شأنه فى قومه ، وَجَلَّ قدرُه. وأنكر على جرهم أفعالها وهلكت جرهم فى عصره . ثم وَلى عدنان بن أدد ثم مَعدّ بن عدنان . ثم افترق ولد عدنان فى البلاد ولحق قوم منهم باليمن منهم عك...»[١].

وقد أوردنا معظم هذه العبارة لأننا سنتناولها بالتحليل والدراسة على ضوء ما عرفنا وما نعرف الآن عن تاريخ العرب . وهى عبارة غنية بالفائدة حافلة بالمعانى ، وقد اختصرنا ما وجدناه مسرفاً فى القصصية والأسطورية. ونلاحظ قبل أن ندخل فى الدراسة أن هذا النص نموذج من طريقة معظم مؤرخى العرب فى سياقة تاريخ ما قبل الإسلام ، فهم يبدأون من النهاية ، أى يبدأون من الحقيقة الواضحة أمامهم وهى أن محمداً ﷺ هو القمة التى انتهى إليها تاريخ العرب قبل الإسلام ، ومن القمة يسيرون إلى بنى هاشم فبنى عبد مناف بن قصى فكنانة فعدنان فأولاد إسماعيل . ثم يصوغون التاريخ كله بادئين من إسماعيل وموجِّهين للحوادث فى الاتجاه الذى ينتهى بهم إلى الذروة المحمدية ، وتلك هى الصياغة العكسية للتاريخ. وإذا نحن قرأنا كتب التاريخ التى كتبها المسيحيون فى العصور الوسطى وجدنا التوجيه ينتهى منذ البداية عند عيسى عليه السلام ثم الحواريين وبولس خاصة ، وعندنا كتاب القديس أوغَسْطين المسمى مدينة الله Civitas Dei وهو المثال التقليدى الذى يضربه أساتذة علم التاريخ فى الغرب نموذجاً للرؤية التاريخية المنظورة من النهاية التى يريد أن ينتهى إليها صاحب التاريخ أو ما يسمى باسم Retraspective view of history .

---

(١) اليعقوبى تاريخ ١/ ٢٢١ - ٢٢٣.

ونعود إلى الفقرة التى نحن بصددها من كلام اليعقوبى لنحللها ونستخرج ما فيها من الدلائل التاريخية على ما نحن بصدده من تتبع تاريخ العرب المستعربة .

وإليك أهم ما نخرج به من هذا النص وما مررنا به من الظروف :

١ - أن أولئك العرب الإسماعيلية أو المستعربة دخلوا الجزيرة من بلاد الشام ، وليس من الضرورى أن يكونوا جميعاً من أولاد إسماعيل ، فإن هجرة إسماعيل كانت هجرة إلى داخل الجزيرة : تحرك قوم من عرب الشام إلى داخل الجزيرة فتبعتهم أقوام ، وكان منهم نفر من أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام . وليس من الثابت على أى حال أن إسماعيل أقام فى الحجاز بعد أن كبر ، وقد يكون القوم الذين دخلوا الجزيرة وسموا بالإسماعيلية نفراً من أولاده أو المنسوبين إليهم ، وعلى أى حال فقد غلب اسم الإسماعيلية على حركة هجرة العرب المستعربة من خارج الجزيرة إلى داخلها.

٢ - وهجرة أولئك الناس من الشام إلى الجزيرة مرتبطة باستخدامهم الخيل ، فقد ركبوها واعتزوا بها وغلبوا على غيرهم ، وانفسح أمامهم المجال للهجرة إلى الجزيرة معتزين بالخيل .

٣ - والواضح من النص أن أولئك المهاجرين لم يكونوا عرباً ولا كانت أسماؤهم عربية ، وليس من الضرورى أن يكونوا جميعاً عبرانيين بل كان فيهم من أهل الشام وجنوبى العراق من سُريان وأنباط وبقايا الكلدانيين . فأسماء الأعلام التى أوردناها فيها العبرى والسريانى والنبطى والكلدانى وفيها ما لا يمكن التعرف على هويته بسبب التحريف الشديد فى المخطوطات .

٤ - وقد مر أولئك المهاجرون فى هجرتهم بمن كان فى طريقهم من العرب العاربة ما بين قضاعة وتَنوخ ، وبعضهم كان من فروع هذه القبائل ، فاندفعوا مع المهاجرين إلى داخل الجزيرة ، وكانت قضاعة ممتدة إلى بلاد الحجاز ، فغلبهم أولئك المهاجرون الجُدد وتسلطوا عليهم .

٥ - وفريق من هؤلاء اتجهوا إلى الحجاز ، ومن هؤلاء العدنانيون الذين مروا فى

طريقهم بأرض جذام وجهينة وبلى وبقية فروع قضاعة فى الحجاز ، فاختلطوا بهم اختلاطاً متصلاً يتجلى فى أنساب العدنانيين الإسماعيليين ، وأولئك الإسماعيليون هبط نفر منهم غربى جبال السراة فى الحجاز وانتشروا كذلك فى شمال شبه الجزيرة ووسطها ، وبعضهم استقر فى شرقها ، وليس من الضرورى أن يكون كل أولئك الإسماعيلية المستعربة عدنانية ، أى منحدرين من عدنان ، فقد تكون هذه قراءة متأخرة لشجرة النسب ، أى محاولة من النسابة لربط جميع الإسماعيلية أو المستعربة إلى عدنان وإسماعيل عن طريق مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

وواضح أن هذه الأسماء كلها ليست لرجال انحدرت منهم قبائل، بل هى أسماء القبائل نفسها ، بل ليس من الضرورى أن تكون قد انحدر بعضها من بعض على الصورة التى يصورها لنا النسابة ويحكيها المؤرخون ، فهذا الذى نراه من التفرق والتجمع ثم التجمع ثم التفرق وجماعات تختفى وجماعات تظهر إنما هو نتيجة لما حكيناه من أسلوب تكوين المجموعات القبلية وتفرّقها تبعاً لقانون الحياة فى الصحراء، فالأغلب أن بنى إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان كانوا قبيلاً آخر يختلف عن قبيل قيس عيلان المنسوب إلى مضر وما تفرع منه ثم ارتبط بعضهم ببعض لدواعى البقاء فى الجزيرة أو لدواعٍ سياسية بعد الإسلام فقيل : إن أبناء مضر فرعان كبيران : قيس عيلان بن مضر ، وإلياس بن مضر ، والحقيقة أن البون بعيد بين بنى إلياس ومن تفرع منهم وبالذات « أولاد امرأته خندف » وبين قيس بن عيلان أو قيس عيلان ومن تفرع عنهم أو انتسب إليهم ، ولأول قيام الإسلام سنجد فروع قيس عيلان معادية لدعوته التى نادى بها رجل من قريش بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر .

والكلام هنا يتعلق - منطقياً - بوحدات قبلية يرتبط بعضها ببعض بعلاقات لا نعرف حقيقتها على وجه التحقيق ، فهى فى شجرات الأنساب روابط قرابة ودم ، ولكنها فى واقع الحياة ودلالات التاريخ علاقات مصالح ، وما دامت علاقات مصالح فهى ليست ثوابت بل متغيرات ، ومن هنا نفهم مثلاً كيف كان بنو قيس

عيلان بن مضر يقفون أنداداً وأعداء لقبائل قيس عيلان إلياس بن مضر قبل الإسلام، ثم انضموا إليهم وأيدوهم وصاروا معهم أوائل العصر الأموى ثم صاروا أعداءهم فى آخره .

وقد تكون بعض الأسماء الكثيرة الواردة فى شجرات الأنساب مجموعات من العرب العاربة انضمت إلى الداخلين الجُدد واختلطت بهم اختلاط أنساب فظهرت لنا فى شجرات الأنساب من جانب كنانة مع أن كل البينات تقول إنها ليست منها مثل عَضْل والهُوْن والقَارّة فهذه تبدو لنا وكأنها غريبة عن كنانة بن خزيمة وكان عداؤها لكنانة وقريش أوائل الدعوة الإسلامية عظيماً حتى إن رسول الله ﷺ دعا ربه أن يعينه عليها ، ومن مأثور قول رسول الله ﷺ فى بعض مغازيه : اللهم على مضر ، فَعَلى أىِّ مضر يستعين رسول الله ﷺ بالله سبحانه ؟ وهو نفسه ذؤابة مضر ؟ الجواب : على بنى قيس عيلان بن مضر وهو أخو إلياس بن مضر .

فَرع قَيس عيلانَ بن مُضَر :

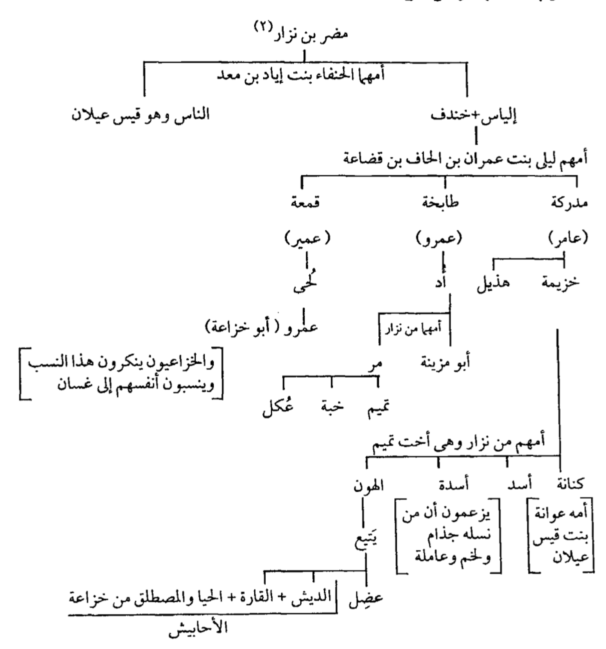
والذى يعنينا هنا هو أمر كنانة ، فإن قريشاً منها . وكنانة تنحدر من - أو تنسب نفسها إلى - خزيمة ، وخزيمة من مدركة ، ومدركة من إلياس ، وإلياس هو الفرع الثانى من مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

ويستوقف نظرنا أن إلياس وقيس عيلان أمهما فيما يقول النسابة أَسْمى بنت سَوْد ابن أسلَم بن الحارث من قضاعة ، فهما مضريان من ناحية الأب وقضاعيان من ناحية الأم .

وإلياس بن مضر يتزوج فيما يقولون امرأة من قضاعة هى خِنْدِف ذات الصيت البعيد فى شجرات الأنساب ، فكل أولاد إلياس مُضَريون أباً ، قضاعيون أُماً ، وكلهم خندفيون قضاعيون من ناحية الأم . وكل المضريين كانوا فخورين بهذا النسب الخندفى حتى إن نصر بن سيار آخر عمال بنى أمية على خراسان وهو من جُندع بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة يفتخر بنسبه إلى خندف :

أنا ابن خندف تنميني قبائلها للصالحات، وعمي قيس عيلانا[1]

ويزيدنا المصعب الزبيري معرفة بخندف القضاعية هذه، وسأورد كلامه في هذا الشأن في صورة جدول تتضح به خيوط النسب وتسلسله بأكثر مما تتضح في النص المكتوب (نسب قريش ص ٧-٨).



(١) ابن حزم، الجمهرة: ١٠.

(٢) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص ١٠ وانظر الجدول الكبير لأنساب عدنان الملحق بهذا الكتاب.

وإذن فخندف القضاعية هذه كانت جذع شجرة ضخمة أنجبت من قبائل إلياس ابن مضر عدداً كبيراً جداً من القبائل ، ونحن لا نأخذ بأقوال هؤلاء النسابة ، فمن الواضح أن كلامهم هنا تجميع وتصوير لحقائق جَدَّت بعد الإسلام ، سواء فى حياة الرسول ﷺ أم بعده ، فنحن نجد فى أحفاد خندف مزينة ، ومزينة ظهر أمرها فى مطلع خلافة أبى بكر ، فهم كانوا أول من وقفوا معه وأيدوه عند الردة ، ونجد من ولدها الهون وعضل والقارة والديش مع أن هؤلاء كانت لهم أعمال ومواقف غير محمودة فى معارضة الإسلام وأذى أهله حتى فتح مكة ، وكان لابد من تحسين صورتهم بعد انتصار الإسلام فَرُبِطوا إلى شجرة النسب النبوى عن طريق خندف القضاعية . وعضل وديش والقارة والحيا والمصطلق ، والاثنتان الأخريان من هذه القبائل تنتسبان إلى خزاعة وهم من الأحابيش الذين خرجوا مع قريش لقتال أمة الإسلام فى المدينة فى غزوة الأحزاب وهذه خطيئة تغطى عليها شجرة الأنساب بالربط بالشجرة النبوية عن طريق خندف .

أما بنو المصطلق الخزاعيون فهم أصحاب ماء المُرَيسيع وهم فرع خزاعة الذى خرج على إجماع خزاعة فى تأييد أمة الإسلام وأرادوا الإضرار بالتوازن القبلى الذى أقامه الرسول بالنسبة للقبائل النازلة على الطريق بين المدينة ومكة . وأقوى هذه القبائل خزاعة (وقد أخذت ناحية الإسلام) وبنو عبد مناة من كنانة بفروعهم العديدة وأهمهم بنو كعب الذين وقفوا إلى جانب قريش ضد الإسلام ، فيريد الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق الخزاعيين أن يخلخل هذا التوازن جهلاً منه وسوء تقدير ، فيسارع الرسول إلى توجيه ضربة بالغة العنف إلى هذا الرجل البدوى المغرور الجاهل بما يدور حوله وتكون غزوة المريسيع أو بنى المصطلق ، ويفيق الحارث بن ضرار وقومه من غفلتهم ويتحرج موقفهم فيبادر الرسول ببعد نظره واتجاهه العام إلى إخراج شيوخ البدو من عنادهم وغرورهم وكسبهم للإسلام بعد ذلك ، فيكون زواجه من جويرية بنت الحارث بن ضرار وإطلاق أسارى بنى المصطلق جميعاً لأنهم أصبحوا أصهار الرسول ، وينضم بنو المصطلق إلى إخوانهم من خزاعة ويقفون فى صف الإسلام ويحسن إسلامهم ، فهم حلفاء أصهار ، ويلحق بهم فى الحلف أبناء عمومتهم بنو الحيا بن المصطلق .

وهذا كله يُتَرْجَم تاريخياً على أيدى النسابة عن طريق خندف القضاعية ، وليس هذا بكثير - ولا مستغرب - بالنسبة لخزاعة . فإن دور خزاعة فى تاريخ الإسلام عظيم مستمر حتى الحركة العباسية . وخزاعة كانت عصباً قوياً جداً من العصبات التى شدت أزر الدعوة العباسية وخاصة عن طريق أولاد بُرَيْدة بن الحُصيب الأسلمى صاحب رسول الله ﷺ ، وصاحب راية أسامة بن زيد بن حارثة فى سريته إلى الشام للانتقام لمقتل أبيه فى مؤتة ، وهو كذلك من أكابر حلفاء علىّ بن أبى طالب.

والذى يهمنا ونحن نتتبع هنا خطوة خطوة - خط نسب كنانة أم قريش - هى تلك العلاقة الوثيقة بين كنانة وقضاعة ، وهى علاقة استمرت على طول تاريخ كنانة وقريش قبل الإسلام وبعده .

ونصل إلى كنانة بن خزيمة بن مدركة . وكنانة هى أم قريش وأم كل قرشى ورسول الله ﷺ يُنسب إلى كنانة . وكُتَّاب العرب يقولون إن كنانة كان رجلاً ، ولكننا بناء على ما بيناه فيما سلف نقول إنها قبيلة انحدرت عن قبيلة أخرى هى خُزيمة وتلك عن قبيلة أخرى هى مدركة أو عامر . والانحدار هنا معناه تفرُّق القبيلة الأم بعد تجمعها نتيجة لظروف العيش فى الصحراء على ما ذكرناه ، ثم تجمُّعها مرة أخرى تحت اسم جديد هو اسم فرع من فروعها قام بعملية التجميع ، وليس من الضرورى أن يتم التجميع فى مواطن القبيلة الأم ، بل قد يحدث فى مكان بعيد هو مواطن القبيلة التى قامت بالتجميع ، وليس من الضرورى كذلك أن تكون الفروع التى يتكون منها التجمع الجديد هى نفس فروع القبيلة الأم أو من بعض هذه الفروع ، بل تدخل هنا فروع جديدة لقبائل أخرى تفرقت .

وهذا ما يعبر عنه النسابون فى مصطلحهم بلفظ «الدخول» فيقولون : إن بنى فلان دخلوا فى بنى فلان ، والمراد به أن ذلك الفرع ترك جذع الأم وانضم إلى تكوين قبلى جديد ، لأن القبائل كانت تتكون من وحدات قبلية صغيرة ، ولا تزال تنمو حتى يصل حجمها إلى درجة يصعب معها المحافظة على الوحدة فتبدأ فى التفرق ، ثم تتجمع القبيلة المتفرقة تحت اسم جديد على يد أحد بطونها ، فتأخذ اسم البطن الذى قام بالتجميع الجديد ، وليس من الضرورى أن يكون التجمع الجديد من نفس بطون

المجموع الذى تفرق بل تدخل فى تكوينه وحدات أخرى من أصول شتى . وهذه الظاهرة تسمى التجمع والتفرق Integration and desintegration.

وقد طالما حيَّرتنا الأسماء المزدوجة لكثير من القبائل ، فيقال مثلاً : فولد إلياس بن مضر مدركة واسمه عامر ، وطابخة واسمه عمرو وقمعة واسمه عُمير [١] . فكيف يكون اسم الرجل مدركة ثم يقال إن مدركة هو عامر ، أو أن اسمه طابخة ثم يقال إن طابخة هو عمرو ، أو إن اسم الرجل قمعة ثم يقال إن قمعة هو عُمير ؟ لقد قرأت عند المصعب الزبيرى سطراً أظن أنه يحل لنا هذا الإشكال ، قال فى سياق كلامه عن فروع أنمار بن نزار «ومنهم خزيمة وهم يشكر ، وقد انتسبوا فى الأزد ، ومنهم خثعم وهو أقْيَل بن أنمار بن نزار ، وإنما خثعم جبل تحالفوا عنده فنُسبوا إليه ، وهم بالسراة على نسبهم إلى أنمار بن نزار .. [٢] » . وإذن : فقبيلة أقيل بن أنمار تسمى خزيمة ، لا لأن خزيمة هو أقيل ، بل لأن خثعم جبل تحالفوا عنده فسموا به .

ونسأل : من الذين تحالفوا ؟ والجواب : جماعة أقْيَل أو يشكر ، وربما كانت أقيل جماعة ويَشْكُر جماعة فتحالفوا عند جبل خثعم وأطلق على الحيين معاً خثعم ، وأصبحا بذلك حِلفاً جديداً هو الذى حمل الاسم الجديد ، وانطوت تحته الجماعات التى تحالفت عنده . ومثل هذا الكلام يقال عن مدركة مثلاً الذى يقال إن اسمه عامر بن إلياس بن مضر ، فهذه جماعة من حلفاء جماعة إلياس بن مضر تحالفوا وأصبح اسمهم جميعاً مدركة ، وقد يكون مدركة اسم جبل أو عين ماء أو سهل أو ما شئت ، ولكنه أصبح من ذلك الحين عَلَماً على الناس الذين تحالفوا عنده أو تحت اسمه وقد يكون مدركة اسم طوطم أو صنم تحالفوا عنده ، ومثل ذلك يقال فى طابخة الذى يقال إن اسمه عمرو ، وقمعة الذى يقال إن اسمه عمير ، فهذه كلها أحلاف أو جماعات لقبائل ممن انقسم إليهم بنو إلياس من مضر ، ثم تجمعوا فى وحدات جديدة ذات أسماء جديدة يربط بينها الانتساب إلى أصل واحد هو إلياس بن مضر بن نزار .

وهذا يؤيد ما قلناه من أن الأسماء التى لدينا فى شجرات الأنساب ليست كلها

---

(١) المصعب الزبيرى ، نسب قريش ٧ .
(٢) نفس المصدر : ٧ .

أعلام أشخاص أو أعيان رجال وإنما هى فى الغالب أعلام أحلاف قبلية ، أو أن كلاً منها جُماع نسب أى اسم تَتَجَمَّع تحته أنساب كثيرة كما سنرى فى حالة قريش ، وهذه الأحلاف القبلية التى تسمى عند النسابة قبائل هن تجمعات يخلف بعضها بعضاً على أساس التجمع ثم التفرق ثم عودة التجمع تحت اسم جديد وهكذا ، وهذا لا يعنى بالضرورة أن الأعمار بينها متطاولة ، أى أن التجمع الذى نسميه قبيلة يتجمع ويشتد أمره ثم يتفكك وتقوم مكانه أو من بين مفرداته جماعة أخرى يتم فى أمد قصير ، فقد تتجمع الوحدة القبلية وتتفرق ثم تتجمع فى ثلاثة أجيال ، فتكون أعمار الجماعات هنا فى مثل أعمار البشر ويكون حجمها صغيراً نتيجة لذلك ، وهذا يصدق على الجماعات الصغيرة ، أما الكبيرة مثل قضاعة فلابد أنها احتاجت فى تجمعها إلى أجيال متطاولة ، ثم تفرقت على أجيال أيضاً ، وظهرت الوحدات الجديدة المنسوبة إليها مثل جهينة وبلى وكلْب بن وبرة على أجيال .

وهذا يفسرلنا لماذا نجد القضاعيين لا يعرفون أصلهم معرفة الواثق ، وكذلك فرعاها جُهينة وبَلِى ، لأن هذه التطورات تتم على أجيال تُنسى معها - الأصول ، وخاصة بين أقوام من البدو يعيشون على الفطرة حياة هى فى الحقيقة مجرد محافظة على البقاء أو ما يسمى أو يعرف بلفظ Survival فإن قضاعة قامت فى بوادى الشام ، ثم امتدت إلى بوادى جزيرة العرب والحجاز ، وتفرقت وقامت على بقاياها وحدات جديدة فى الحجاز وشمالى الجزيرة . وبقيت من قضاعة بقية فى مواطنها الأولى التى ظلت تُعرف باسم ضاحية قضاعة عند دومة الجندل والقَرْيَات وما يليها شمالاً حتى بلاد كلب بن وبرة ، وهم أيضاً ممن نشأ عن تفرق حلف قضاعة.

وقد خصص أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر فصلاً لقضاعة فى كتابه «الإنباه على قبائل الرواة» بيَّن السبب فى حيرة هذا القبيل الضخم من العرب بين قيس واليمن ، وبعد كلام طويل عن أصول شتى يقول ابن عبد البر : «وقال محمد بن حبيب : إنما فسد نسب قضاعة بالحرب التى كانت بالشام أيام حُميد بن حريث (بن بحدل الكلبى) وعمير بن الحباب (السلمى)، وذلك أن خالد بن يزيد (بن معاوية بن أبى سفيان) قال لأخواله من كلب- وكان مطاعاً فيهم- وهم سادة قضاعة: أطيعونى

وحالفوا اليمن وانتسبوا إليها فإنكم تذلون بذلك بنى مروان ومن انحط فى أهوائهم من قيس وغيرها ، فأطاعه بعضهم وعصاه آخرون ، فكان بعضهم يقول : حالفنا اليمن ، وبعضهم يقول : بل نحن منهم [1].

وقبل أن ننتقل إلى كنانة ونركز الكلام عليها ، لابد أن نقول إن كل ما ذكره من ظواهر حياة القبائل وتطورها وحقائق أسمائها ينطبق على قيس عيلان بن مضر - أو من مضر - وهم الفرع الكبير الثانى من الإسماعيلية أو المستعربة الذى سار موازياً لأبناء إلياس بن مضر : فأبناء إلياس بن مضر دخلوا الحجاز ثم تهامة ، أما من انحدروا عن قيس عيلان فقد انتشروا شرقى السراة وعمَّروا وسط الجزيرة وشمالها فيما عدا عوالى نجد ، أى الأرض المرتفعة المؤدية إلى قلبها ، فهذه كانت بلاد كندة وبعض النسَّابين يقولون : إنهم كانوا من جملة الزاحفين من الجنوب وإن مواطنهم الأولى كانت عند حضرموت عند موضع يسمى كِندة ، وهذا فرض مقبول ، ولكن من الممكن كذلك أن يكونوا شماليين أصلاً بدلالات التاريخ ونوع الحضارة وانتشار النصرانية فيهم ، ربما من بلاد لخم ، فليس لدينا بينة من التاريخ تؤيد يمنية كِندة الشمالية تأييداً قاطعاً ، أما أن نستند فى ذلك إلى وجود موضع فى حضرموت يسمى كِندة ، فلا يمكن اعتباره حقيقة تاريخية مقطوعاً بها ، وقد لا يكون أصل اسم الموضوع الموجود فى حضرموت «كِندة» أصلاً بل شيئاً قريباً منه فحرَّف رسمه النسابون والمؤرخون . وسنعود إلى قيس عيلان وندرسها بالقدر الذى يعيننا على تتبع تاريخ قريش .

ولكننا لا نكتفى هنا بالإشارة إلى ما يقال : من أن قيس عيلان ليس اسم الجماعة ، وإنما نشير إلى قول ابن حزم فى الجمهرة تحت عنوان : هؤلاء بنو قيس بن عيلان بن مضر : «وقال قوم : إنما هو إلياس بن مضر ، وأنه ولد قيساً ودهمان ، وهم أهل بيت فى قيس والأصح أنه قيس بن مضر وأن عيلان عبد حَضَنَه فنُسِب قيس إليه فولد قيسٌ خَصفة ، وفيه العدد ، وسعد وفيه البيت ، وعمرو »[2].

---

(١) ابن عبد البر النمرى ، الإنباه على قبائل الرواة ، طبعة مكتبة المعارف الطائف (بدون تاريخ) ٦٨ - ٦٩ .

(٢) ابن حزم ، الجمهرة ص ٢٤٣ .

فهذه عبارة تثير أكثر من مشكلة ولا يمكن فهمها وتفسيرها بعض الشيء إلا على الوجه الذى ذكرناه . فهنا نرى أن قيس عيلان اسم عام أُطلق على فريقين من ولد مضر ، وهم إما أن يكونوا قد نشأوا متفرعين عن مضر بن نزار أو يكونوا أبناء إلياس ابن مضر بن نزار ، وهم على أى الحالين ليسوا جماعة واحدة ، بل جماعتان إحداهما تسمى قيس ، والثانية تسمى دهمان ، ثم تحالفتا أو انضمتا فى حلف قَبَلى واحد سمى قيس عيلان ، وقيس عيلان هذا ليس اسم قبيل بل اسم الحلف أو جماع نسب الحِلف ، واسم الحلف أتى من اسم عبد حضن قيساً ، وعلى هذا فيكون عيلان هو اسم العبد الحاضن ، وهذا غير مقبول على علاّته ، لأن الغالب أن اسم عيلان جاء من اسم المناطق التى انتشر فيها حلف قيس وهى فيما حسب المتأخرون من الرواة بلاد الجوع على اعتبار أن عيلان مشتق من العَيْلَة أو الجوع بدليل النص التالى ، وهو أيضاً عند ابن حزم : «وقال حُصين بن المنذر بن الحارث بن وعلة بِحَضْرة وجوه العرب وقتيبة بن مسلم فى حديث طويل : لو رآها قيس لَسُمِّى قيس شَبْعان ولم يسم قيس عيلان »[1] .

والغالب أن عيلان هذا اسم الموضع الذى تحالفوا عنده أو اسم الشارة التى اتخذوها للحِلف ولا علاقة لها بالشبع أو الجوع . وعند أبى العباس المبرد نص يدلنا على مقدار الشك فى صحة الأنساب والأسماء ، يقول : «وأما قيس فهو الناس – بالنون – بن مضر ويقال : إن عيلان كان عبداً لمضر حضن ابنه الناس فنسب إليه قيس فقيل : قيس بن عيلان بن مضر »[2] وإذن : فقيس هو فى نفس الوقت «الناس» ونحن لا نعرف كيف يُقرأ لفظ الناس هذا : هل هو إلْنَاس قياساً على إلياس أو النّاس ، وعلى أى حال فيمكن القول بأن الناس هذا – أياً كان نطقه – هو اسم القبيلة التى صنعت التجمع أو الحلف ، ويكون قيس عيلان هو اسم جماع النسب الذى أطلق على الحلف.

فرع إليَاس بن مُضر : كِنَانَة - أول ظهُور قريش :

عند النسَّابة أن كنانة هو ابن خزيمة بن عامر بن إلياس بن مضر ، وليس لدينا ما

---

(١) ابن حزم ، الجمهرة ١٠.

(٢) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، نسب عدنان وقحطان ، طبعة مكتبة المعارف – الطائف (بدون تاريخ) ص ٢٠.

يمنع من قبول هذا التسلسل فى النسب لأن الأصح أن يقال : إن كنانة قبيلة انحدرت عن قبيلة أخرى تفرعت عن قبيلة تسمى مدركة أو عمرو ، وأن هذه نشأت عن بنى إلياس بن مضر . وقد رأينا أن خندف أم إلياس قضاعية وكذلك كانت أم خزيمة فهى سلمى بنت أسلُم بن إلحاف بن قضاعة . وليس عندنا تفسير للفظ خزيمة ولكنه فى الغالب اسم تجمع قبلى ، أما اسم القبيلة التى صنعت الحلف فهو أسد لأن خزيمة تكنى أبا أسد . وبين خزيمة وقصى - وهو أول رجل نعرفه بعينه وصفته وعمله فى شجرة النسب - تسعة آباء - فإذا نحن جرينا على ما يقوله النسابة من أن شجرة النسب شجرة آباء فهذه تسعة أجيال تحتاج إلى ثلاثمائة سنة على حساب من يقولون إن الجيل ثلث قرن ، وثلاثمائة وستون سنة لمن يقولون إن الجيل ربع قرن ، وهذا أمد طويل يصعب معه تذكُّر الأسماء فضلاً عن صفاتها ، ولكن نسبة خُزيمة إلى أم قضاعة تميل بنا إلى القول بأن قبيلة خزيمة نشأت عن حلف من فرع من إلياس بن مضر وفرع من قضاعة . وقضاعة كانت أثناء هجرة الإسماعيلية قد بدأت تتفكك وتنتثر وبدأت بناتُها من الأحلاف القبلية التى نشأت عليها تظهر ، فظهرت كلب بن وبرة فى الشام وجُهينة وَبِلِىّ وغيرها فى شمال الحجاز . وقد سلك هذا القبيل من العدنانية المضرية طريقاً يمر بأرض انتشرت فيها القبائل القضاعية ، ومن هنا فإنه من الطبيعى أن نجد القبائل الواردة فى شجرة النسب ذات طابع قضاعى واضح ، وفى هذه الحالة تكون كنية أبى أسد التى تُطلق على خُزيمة خطوة نحو تعرُّب هذا القبيل من المستعربة.

وعندما نصل إلى كنانة نجد الأثر الكبير لصنعة النسابة فى تصوير شجرة النسب النبوى ، فكنانة عند النسابين رجل واضح العين ، ففى كتاب « الخبر عن البشر » للمقريزى ، وفى « شرح السيرة » للخشنى أن «أبا عمرو العدوانى - والمراد ذا الأصبع - قال لابنه فى وصيته : يا بُنى ! أدركتُ كنانة بن خزيمة ، وكان شيخاً مُسِناً عظيم القدر ، وكانت العرب تحج إليه لعلمه فقال - يريد كنانة - إنه قد آن خروج نبى بمكة يدعى أحمد يدعو إلى الله وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق، فاتبعوه تزدادوا شرفاً إلى شرفكم ، أو عِزًّا إلى عِزِّكُم ، وألا تتعدوا ما جاء به فهو الحق[1]» وإنه

(١) المقريزى ، الخبر عن البشر ، مخطوط دار الكتب المصرية جـ ٣/ ٣ قسم أول ، وشرح السيرة للخشنى ١/ ٣.

لعجيب أن يكون بين كنانة ورسول الله تسعة أجداد ، ثم يقول ذو الأصبع العدوانى هذا أنه رأى كنانة وأن كنانة قال : إنه آن خروج نبىّ بمكة ، فكيف يقول : إنه آن ظهوره وبينه وبينه تسعة أجيال ، أى : ثلاثمائة سنة أو أربعمائة ؟ وكيف يتنبأ بظهوره فى مكة ومكة كانت إذ ذاك قرية لم يسمع بها إلا قليل من العرب فضلاً عن القادمين من خارجها ! وهـذا كلام يقوله المقريزى وهـو معدود بين ذوى النظر والحس التاريخى بين المؤرخين . وأقرب إلى المنطق أن نقول : إن كنانة كانت قبيلة ، أو اسم تجمع ، أو حلف قبلى.

وكنانة كانت قبيلة طويلة العمر ، وقد عُمِّرت طويلاً بفضل فرعين من فروعها هما النَّضر وعبد مناة . والنضر حلقة هامة من حلقات شجرة نسب عدنان ، وأول ما نلقى كنانة نلقاها قرب مكة إلى غربها ، ولا نعلم كيف وصلت إلى هناك ولكننا نستنتج من مصاهراتها ومصاهرات أمها خزيمة أنها مرت فى هجرتها فى بلاد قضاعة وفروعها التى كانت منازلها تتصل من جنوبى الشام إلى الحجاز : جهينة وبلى وأسلُم وبَهْراء وخشين وسعد هذيم وما إليها من فروع قضاعة التى امتدت جنوباً بغرب ، ويبدو أن منازل القضاعيين لم تتجاوز منطقة مكة جنوباً ، لأننا بعد ذلك ندخل فى بلاد خزاعة ، وبقايا من جُرْهم من بقايا العاربة ، واستقرت كنانة بعد طول تجوال غربى مكة .

ولا ينبغى أن يصرفنا تتبع أصول قريش عن حقيقة هامة تغيب عن القدامى فى تتبعهم لخط النسب القرشى ، وهى أنه فى نفس الوقت الذى كانت فروع العدنانية الأخرى تنتقل فيه وهى فى طريقها الذى نجدها فيه عشية البعثة المحمدية ، كانت جموعها تنتقل وتتجمع وتتفرق على النحو الذى وصفناه حتى تستقر كلّ منها فى موضعها الذى سنجدها فيه أوائل القرن الخامس الميلادى ، وسنحاول أن نقدر لتاريخ استقرار كنانة فى الحجاز تاريخاً تقريبياً جداً عند كلامنا على قصى ، وتقدير التاريخ هذا أساسى فى بحثنا هذا ، فلا تأريخ بدون حساب زمنى ، ولو تقريبى ، ونحن إذا قدَّرنا أن بين كنانة وقصى ثمانية أجداد أو تسعة فمن الممكن جداً أن يكون سير كنانة فى الحجاز واستقرارها قرب مكة كان فى القرن المسيحى الثانى ، وفى ذلك

الوقت ربما لم يكن اسم مكة بتلك الصورة قد ظهر ، ربما كان اسمها إذ ذاك هو الذى أثبته بطليموس: ماكورابا أومَكُرابا أو مَقْرُبة وأن الموضع المحدد الذى كان موجودًا إذ ذاك هو «بَكّة» وهو اسم الموضع الذى رفع فيه إبراهيم عليه السلام قواعد البيت . والبيت أقدم من ذلك بكثير ولكن إبراهيم هو الذى رفع قواعده أى جدَّد بناءه على قول المفسرين . كانت هناك بَكّة وحولها محلة صغيرة هى ماكورابا ، وكانت تنزل بها بقايا من جُرهم من قبائل العرب العاربة ، ويسميها نسابة العرب جُرْهم الثانية ، لأن جُرْهم الأولى فى عُرْفهم من البائدة.

وفى موطنها الذى استقرت فيه استمرت كنانة تتجمع ، ثم أخذت تتفرق وتحل محلها وحدات قبلية جديدة يذكر منها النسابة ستاً ، ولكن أكبرها وأهمها النَّضْر ، وعبد مناة . ولابد أن نلاحظ هنا أن كل قبيلة تتفرق يبقى اسمها أمداً طويلاً أو قصيراً على قبيل من الناس ، وقد يختفى الاسم بعد ذلك ، فليس لدينا على خريطة النسب قبيلة تسمى كنانة ، لا ولا نجد اسم عبد مناة ، بل الذى لدينا فروع كثيرة منها ، أهمها من الناحية التاريخية بكر وكعب. وهذان الفرعان من بنى عبد مناة هما اللذان نصادفهما أيام قصى وما بعدها.

ونتتبع فرع النضر أى قبيلة النضر فى طريقنا إلى قريش ، فنجد أن المتأخرين من مؤرخينا يقولون لنا : إنه اسم رجل، بل يزعم أبو ذر الخشنى فى شرحه للسيرة [1] أنه يعرف لماذا سُمِّى النضر بهذا الاسم ، فهو يقول : «النضر الذهب الأحمر ، وهو النَّضار سُمِّى النضر بذلك لوضاءته وإشراق وجهه» وهذا انعكاس من أضواء النبوة وإشراقها على أجداده ﷺ . وهنا يعود النسابة إلى التسمية المزدوجة لنفس العَلَم فيقولون إن اسم النضر قيس ، وعلى هذا وتمشياً مع منهجنا يكون النضر هو اسم رئيس الجماعة وقيس هو اسم التجمع لها . ويقول النسابة : إن أمه برَّة بنت مُرّ بن أد ابن طابخة بن إلياس بن مضر ، وهى أخت تميم بن أد. وهذه أول مرة نسمع فيها عن صهر لخط النسب بهذا البُعد ، فإن جماعة طابخة التى ترأسها عمرو بن إلياس بن مضر قد اختفت عنا من زمن طويل ، وأخذت طريقاً آخر انتهى بها إلى مواضعها

(١) شرح السيرة لأبى ذر الخشنى ١/ ٣.

المعروفة جنوب وجنوب شرقى نجد فيما يعرف بأعالى نجد ، وهناك اندرجت بحكم ظروف البيئة - كما سنرى - فى جملة الأعراب أو الأعاريب ، ويقال : إن مواطن تميم امتدت فى وقت من الأوقات حتى شملت البحرين.

مشاكل تتَعلق بأصل قُريش :

وهنا تبدأ المشكلة الكبرى : مشكلة قريش .

فإن بعض نسَّابتنا يقولون لنا : إن النضر هو قريش ، وبعضهم الآخر يقول : إن ابنه فهْر هو قريش ، وهم أنفسهم فى حيرة من أمرهم بشأن النضر وفهر وقريش جميعاً والسبب واضح ، وهو أننا كلما اقتربنا من زمن النبى ﷺ خرجنا من ضباب التاريخ إلى نور الحقيقة ، وتحت النور ينقشع الضباب ويجد المؤرخون القدامى أنفسهم فى حرج ، فهم لا يستطيعون أن يقولوا إنهم لا يعرفون حقيقة أمر هام كهذا من أمور النسب النبوى فيمضون يتلمسون المادة فى القصص الشعبى ، إذ لابد أن هذه الأسماء كلها ظهرت أولاً على ألسنة القصاص ، فلم يكن عند العرب قبل قُصى خاصة سجلات أو دفاتر أو حتى نقوش، وفى هذه الحالة لابد أن ننبه إلى أن كل ما نحكيه فى هذا الصدد إنما هو ما يستطيع المؤرخ العثور عليه من معالم تمكنه من تتبع الطريق الذى يختفى فى ليل التاريخ ، وهو يتتبعه دون أن يقرر فيه شيئاً بصورة حاسمة . وقد حكينا ما حكينا إلى الآن مع الحذر الذى لا مفر منه ، وعندما نخطو على أرض صلبة يطمئن لها المؤرخ مع قصى بن كلاب سنغادر درجة من درجات هذا الشك المتعب الذى سِرْنا فيه إلى الآن.

مع النضر إذن يظهر اسم قريش أول ما يظهر . فقيس كما غلب على ظننا قَبِيل أو تجمع قبلى ، والنضر اسم رئيسه الذى رأس ذلك التجمع.

ويؤكد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد أن النضر هو قريش ويقول : «فمن قبائل خندف قريش، واسمه النضر بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر. وتفرعت قبائل قريش من بنى فهر بن مالك، فيقال لهم بنو فهر ، قال الحُطيئة :

وإن الذى أعطيتهم أو مَنعْتَهم لكالتمر أو أحلى لحلف بنى فهر[1]

---

(١) المبرد . نسب عدنان وقحطان ، ص ٢٢ .

وفى هذا الخبر نقرأ مرتين عبارة «بنى فهر» مما يدل على أن فهراً اسم قبيلة أو تجمع قبلى .

وعند ابن عبد البر نقرأ: « النضر بن كنانة كان يقال له القرشى»، وفى نفس الصفحة نقرأ «كان النضر بن كنانة يسمى القرشى» [1] ووَصْف وتسمية النضر بن كنانة بالقرشى يدل على أن الوصف كان موجوداً من قبل أو يكون قد وُجِد فى أيامه، وفى هذه الحالة يكون حلف قريش قد تكون من بعض فروع كنانة أيام النضر أو قبله بقليل.

ويقول ابن عبد البر : «وقد اخْتُلِف فى قريش ، فقال أكثر الناس : كل من كان من ولد النضر بن كنانة فهو قرشى ، وحجتهم فى ذلك حديث الأشعث بن قيس الكندى، قال : قَدِمت على رسول الله ﷺ فى وفد كِندة فقلت : ألستم مِنَّا يا رسول الله؟ قال: لا . نحن بنو النضر بن كنانة . لا نقفوا أمَّنَا ، ولا ننتفى من أبينا »[2].

وعندنا على أى حال أربعة أقوال فى أول من سمى بقريش من ولد عدنان.

الأول : يقول إن النضر أول من لقب بالقرشى، فهو على هذا قريش. وهذا القول يكرره ابن عبد البر مرتين إحداهما بسند من الواقدى ورواته: النضر بن كنانة كان يقال له القرشى [3].

والثانى : ينسب إلى المصعب الزبيرى ويكاد أن يكون أصل آراء معظم أصولنا وهو يقول : «كل من لم ينتسب إلى فهر فهو ليس بقرشى . وقال على بن كيسان : فهر هو أبو قريش ، ومن لم يكن من ولد فهر فهو ليس من قريش وهذا أصح الآراء فى النسبة لا فى المعنى الذى من أجله سُمِّيَت قريشٌ قريشاً . والدليل على صحة هذا القول أنه لا يُعلم اليوم قرشى فى شىء من كُتُب أهل النسب ينتسب إلى أب فوق فهر، دون لقاء فهر ، ولذلك قال مصعب وابن كيسان والزبير بن بكار ، وهم أعلم النُّساب بهذا الشأن وأوفق من ينسب علم ذلك إليه - أن فهر بن مالك جُماع قريش

---

(١) ابن عبد البر ، الإنباه ، ص ٧٦ .
(٢) ابن عبد البر ، الإنباه ، ص ٧٥ .
(٣) ابن عبد البر ، ص ٧٦ .

كلها بأسرها . وذكر أبو عبد الله أحمد بن محمد العدوى فى كتابه فى نسب قريش قال : جُماع قريش كلها فهر والحارث ابنا مالك بن النضر بن كنانة . وزعم أن الصلت بن النضر بن كنانة ليس من انتسب إليه بقرشى.

وقال على بن كيسان : وَلد النضرُ بن كنانة مالكاً والصلتَ ويخلدا ، أمهم امرأة من جُرْهم .

وقال ابن الكلبى : ولد كنانةُ بن خزيمة النضرَ ، وهم قريش ، ثم ذكر سائر بنى كنانة أكثر من عشرة[1].

وأصل هذا الكلام عند المصعب الزبيرى . قال : وقد قالوا : اسم فهر بن مالك قريش ، ومن لم يلد فهراً فليس من قريش ، فولد مالك بن النضر فهراً وهو قريش وأمُّهُ من جُرهم[2].

والثالث : ورد فى كتاب « الإنباه » لابن عبد البر ، وهو يقول : إن قصى بن كلاب هو أول من سمى بقريش ، وإليك الفقرات التى تهمنا من كلامه . وقال آخرون : قصى كان يقال له القرشى . وذكر الواقدى أن عبد الملك بن مروان سأل محمد بن جبير بن مُطعم : لِمَ سُمِّيت قريش قريشاً ؟ فقال : لتجمُّعها فى الحرم بعد تفرقها . فقال عبد الملك : ما سمعت بهذا ، ولكن سمعت أن قصياً يقال له القرشى ، ولم تُسَمَّ قريش قبله . وذكر الواقدى أيضاً بإسناد له عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : لما نزل قصى الحرم وغلب عليه فعل أفعالاً جميلة ، فقيل له : القرشى . فهو أول من سمّى بذلك[3].

والرابع : تردده معظم الأصول ، وإليك نص المصعب الزبيرى فيه : فأما يخلد (ابن النضر بن كنانة وهو أخو مالك بن النضر فهو عم فهر بن مالك بن النضر) فهم فى بنى عمرو بن الحارث بن مالك بن كنانة ، ومنهم قريش بن بدر بن يخلد بن النضر ، وكان دليلَ بنى مالك فى تجارتهم ، فكان يقال : قدمت عير قريش . فسميت قريش بذلك[4].

---

(١) ابن عبد البر ، الإنباه ص ٧٥ .
(٢) المصعب الزبيرى : نسب قريش ١٢ .
(٣) ابن عبد البر ، الإنباه ص ٧٦ .
(٤) المصعب الزبيرى : نسب قريش ص ١٢ .

بدايات ظهور قُريش وَانفصَالها عَن كِنانَة من بَنى إلياس بن مُضَر

وهذا الاختلاف كله يرجع إلى أن كنانة القبيلة بعد استقرارها فى الحجاز بدأت تتفرق وتتفكك أمام ضغط القبائل التى وجدتها فى منازلها الجديدة وأهمها خزاعة ، وخرجت من أبنائها فروع كثيرة أهمها النضر وعبد مناة ، وبنو النضر أخذوا يتحولون إلى قبيلة باسم قريش ، وهذا التحول بدأ يظهر فى فرع من فروع النضر هو فهر بن مالك ، واستمر التحول والتجمع حول فرع من فروع فهر هو عامر ثم فرع آخر هو لؤى بن غالب بن فهر وانقسمت القبيلة التى كانت فى دور التكوين إلى قسمين رئيسيين : لؤى بن غالب وعامر بن غالب ، ومن هذين القبيلين نشأت نواة قريش ، ولهذا فإن هذين الفرعين من فهر يقال لهما البطاح ، ثم استمرت عملية التجمع وبناء القبيلة أيام مُرَة بن كعب وكلاب بن مرة ، وجاء قصى ، وهو أول رئيس واضح الشخصية التاريخية من رؤساء قريش ، فجمع ما استطاع جمعه من فروع قريش ، وخاصة فرعا كعب بن لؤى وعامر بن لؤى ، ودعاهم إلى خوض معركة مع خُزاعة وانتزاع مكة منهم ، وتجمعوا حوله ودخلوا مكة واستقروا فيها ، وكانت نواة الداخلين كعباً أو عامراً فرعى لؤى بن غالب فنزلوا البطاح أى قلب مكة ، ثم تلاحق بها بنو فهر بن النضر بن مالك ، وهم بقية الفروع المنحدرة من النضر بن كنانة وهؤلاء الأخيرون ظلوا فى الغالب أعراباً حول مكة ، وأطلق عليهم اسم الفهريين ، وهم منسوبون إلى قريش .

أما قريش فكان اسم التجمع ، فربما كان موضعاً ، وربما كان اسم رمز لا نعرف كنهه ، وربما كان اسم حيوان أو شجرة أو أى شىء ، وربما كان أيضاً اسماً لمكان ، ولهذا فقد اختلط الأمر على رواتنا فقالوا : « إن قريشاً هو النضر أو هو فهر أو هو قصى . ويؤيد هذا قول محمد بن حبيب النسابة أن قريشاً ليس اسم أب ولا أم ولا حاضِن أو حاضنة ، وإنما هو جماع نسب » . وهذه هى حقيقة اسم قريش ويكون الكلام الكثير الذى نقرأه فى النصوص عن معنى قريش وعلى من أُطلق أول ما أُطلق

مجرد فروض أو محاولات للإجابة على سؤال ليس له مكان ، فليس هناك شخص اسمه قريش ، وإنما هناك قبيلة تسمى قريش .

وإذا رجعنا إلى الوراء قليلاً وجدنا النسابة يجعلون لكنانة أحد عشر ولداً منهم أربعة من أم واحدة هى بَرة أخت تميم بن مُر ، وستة من أم يمنية، وواحد من أم قضاعية ، وعلى رأس أبناء التميمية النضر الذى ينحدر منه القرشيون ، أما الستة أبناء اليمنية فلم يكن من بينهم واحد ذا شأن ، ولكن عبد مناة ابن القضاعية هو الذى كان صنو النضر ومنافسه ومنه انحدر بنو بكر وبنو كعب فرعا عبد مناة بن كنانة ، وقد ظلا يمثلان كنانة فى الحجاز فى وجه بنى النضر الذين أصبحوا قريشاً وسادوا أهل الحجاز .

وتفصيل أولئك الأبناء عند المصعب الزبيرى فى نسب قريش[1]. وفى كلامه عنهم يقول : « عن النضر بن كنانة وإخوانه أبناء التميمية وهم فرسان » ، وإذا جاز أن نستنتج شيئاً من هذه العبارة قلنا : إن فرع النضر وإخوته من أبناء كنانة – أو فروعها . بتعبير أصح – كانوا فرساناً ، ولهذا سادوا غيرهم وخاصة إخوتهم فى القضاعية ، وقضاعة كما رأينا من العرب العاربة ، وقد سادها المستعربة بقوة الخيل التى دخلوا بها وهذه الحقيقة الواحدة تؤيد ما قلناه من علاقة المستعربة بالخيل ، وتفسر لنا كيف أن فرع النضر ، ساد بقية فروع كنانة لأنه كان فرع فرسان .

والآن وقد وصلنا إلى قصى فلا بد أن نُلقى نظرة على خزاعة التى وجدها القرشيون الكنانيون تسود مكة وإقليمها ، وكان عليهم أن يخوضوا معركة معها لكى ينتزعوا مكة منهم ويتخذوها لهم قاعدة ومركز قوة .

خُزاعَة : أصُولُها وَمُورفولوجيتها :

فى دراستنا لتكوين قريش أو مُورْفُولُوجِيَّتها أخذنا فكرة عن تعقد تركيب القبائل العربية ، فنحن نحسب أننا نعرف كل شىء عن تركيب قريش لأنها رهط رسول الله ﷺ ، ولكننا ما كدنا نتفحص تركيبها عن قرب حتى تبينا أن فكرتنا التقليدية عن

---

(١) المصعب الزبيرى ، نسب قريش ص١٠ .

المورفولوجية الحقيقية لقريش يدخل فيها وَهْمٌ كبير ، وأن العوامل السياسية كان لها أثر بعيد فى عمل الصورة التى وصلتنا بها القبيلة عن طريق النسابة وأصحاب التاريخ.

وهذا الكلام ينطبق على معظم القبائل إن لم يكن جميعها ، وقد رأينا مثالاً معروفاً لنا جميعاً فى قضاعة واختلاف الآراء فى أصلها ونسبتها إلى اليمن أو معد . ولابد لنا فى هذه الدراسة من أن ندرس تكوين خُزاعة ، لأن خُزاعة وثيقة الصلة بقريش وببنى هاشم منها بصفة خاصة ، وهذه الصلة كانت تحالفاً قَبَلياً قبل الإسلام ، أما بعد الإسلام فقد تزايدت أهمية خزاعة لأنها ظلت على ولائها لفرع بنى هاشم وحلفائهم، ووقفت معادية لمن عادى بنى هاشم والإسلام من قريش ، وكان لها ولأحلافها نتيجة لذلك دور عظيم فى تطور الأحداث فى العصر النبوى وبعده .

ولن ندخل هنا فى مناقشات طويلة حول تعقُّد تركيب خزاعة ، وإنما ما يهمنا هى الأسباب التى أدت إلى ذلك التعقد ، لأن شجرات الأنساب كما وصلتنا إنما هى صورة لأحداث وظروف سياسية أحاطت بالقبائل قبل الإسلام وبعده ، وكان لها أثر فى تشكيل هذه الصور فى شجرات أنساب سياسية وإثنوجرافية فى نفس الوقت .

والذى نستطيع قوله هو أن النواة الأولى لخزاعة يمنية ، فإن أصلها فيما يقول النسابة من جماعة غَسَّان اليمنية التى هاجرت من الجنوب ، وفى الطريق إلى الشمال اختارت بعض بطون غسان أن تنزل بين مكة والمدينة فى موضع غَدير الأشطاط شمال مكة ، وهذه المجموعة عُرفت باسم خزاعة ، وهى مجموعة البطون الأساسية فى تكوين القبيلة وهم بنو كعب وبنو مليح وبنو سعد وبنو عوف وبنو عدى ، وهم أبناء عامر بن لُحَى بن حارثة بن عامر . ولُحَى المذكور هنا يسمى أيضاً ربيعة .

وبعد أن استقرت هذه البطون الخمس فى موطنها الذى ذكرناه انضمت إليها – فيما يقول النسابة – ثلاثة بطون من بنى أفصى بن إلياس بن مضر وهى أسلم ومالك وملكان . وتلك هى البطون التى يقال إنها انخزعت أى انفصلت عن بنى إلياس بن مضر ، ولسنا على يقين من أن انخزع معناه انفصل [1] ، ولكن هكذا يقول الرواة .

---

(١) فى لسان العرب لابن منظور (مادة خزع) : « خزع عن أصحابه : تخلَّف عنهم فى مسيرهم . وانخزع الحبل : انقطع» .

أما بقية البطون التى تراها فى شجرة نسب خزاعة فيقال : إنها من أبناء خِندِف وخندف هى امرأة إلياس بن مضر فيها يقول النسابة وأبناؤها هم بنو إلياس بن مضر ويُسمَّون لهذا خندِف أو الخندفيون .

وعلى هذا ، فتكون النواة الأساسية من خزاعة يمنية أضيف إليها نواة ثانية من بطون قمعة بن إلياس بن مضر بن نزار بن مَعَد بن عدنان ، ثم نواة ثالثة من مضر أيضاً ولكن عن طريق خندف امرأة مضر . وخزاعة إذن قبيلة ثلاثية النواة .

وقد بيَّنا ذلك كله على شجرة النسب التى رسمناها لأنساب تلك القبيلة وذكرنا مرجعنا فى كل قول ، وسنرى فى سياق هذا التاريخ الأسباب السياسية التى جعلت النسَّابة يُدخلون هذا التعقيد كله على نسب خزاعة[1].

خُزاعَة وَقُرَيش :

لا نستطيع أن نستكمل تاريخ قريش دون أن نُلِمَّ بتاريخ خزاعة فى إيجاز ، فتاريخ قريش شديد الاتصال بتاريخ خزاعة والتأثر به قبل الإسلام وبعده . وهذه العلاقة الوثيقة بين قريش وخزاعة كان لها الأثر الكبير فى تكوين شكل شجرة نسب خزاعة ، لأن قصى بن كلاب عندما عادى خزاعة واجتهد فى انتزاع مكة منها أذاع القرشيون عن خزاعة أخباراً لا يرضى عنها الخزاعيون مثل قولهم إن خزاعياً وهو حُلَيِّل بن حُبْشية باع الكعبة من قصى بزقٍّ خمر ، وبعد أن استقر قصى فى مكة عمل هو وابنه عبد مناف على استرضاء خزاعة واجتهد القرشيون فى ربط خزاعة إليهم ، ومن هنا

(1) ابن عبد البر : الإنباه ، ص ٩٨ .
وانظر عن خزاعة :
ابن هشام : سيرة رسول الله (القاهرة ١٩٣٣) ١/ ٧٨ .
البلاذرى ، أنساب الأشراف . الجزء الأول بتحقيق محمد حميد الله (القاهرة ١٩٥٩) ص ٣٤ .
الفاسى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (القاهرة ١٩٥٦) ٢/ ٤٤-٤٥.
المصعب الزبيرى : نسب قريش (القاهرة ١٩٥٣) ص ٧-٨ و ١١ .
ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، بتحقيق عبد السلام هارون ، الفهرس .
القلقشندى : نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب ، بتحقيق الإبيارى ص ٢٤٤ .
ابن الكلبى ، كتاب النسب الكبير ، الجزء الأول بتحقيق عبد الستار فراج ، الكويت (فى صفحات متفرقة) .
ابن دريد ، الاشتقاق ، بتحقيق عبد السلام هارون (١٩٥٨) ص ٤٦٨ .
الحازمى ، عجالة المبتدى بتحقيق عبد الله كنون (القاهرة ١٩٦٥) ص ٥٤ .
محمد بن حبيب النسابة : المنمق ، ٣٤٦- ٣٤٧ .
أما المراجع الخاصة بتاريخ خزاعة بعد الإسلام فسترد فيها بعد .

جاء ما يقوله ابن إسحاق والمصعب الزبيرى من أن خزاعة عدنانيون خندفيّون من أبناء مضر وامرأته خندف ، وهم على هذا فى جملة أبناء مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

ومن هذا أيضاً ما يقال من أن خزاعة ينحدرون من أفصى بن عامر بن قمعة بن إلياس بن مضر ، وهذا هو قول أبى عبيدة معمر بن المثنى ويتابعه فيه ابن حزم .

أما الخزاعيون فيرون أنفسهم من اليمن ، ويسوقون نسبهم من حارثة بن عمرو مزيقياء بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد . وابن الكلبى - وهو المسؤول الأول عن الشكل الهندسى الذى وصلت إلينا به أنساب العرب قبل الإسلام خاصة - ينكر أنه كان لقمعة وهو فى رأى النسابة عمير ابن مضر خندف - ابن يسمى ربيعة ، وأن ربيعة هذا هو لحىّ جد الخزاعيين ، وهو يقول : إن لُحىّ بن حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء ابن حارثة الغطريف ، ويسوق بقية النسب إلى مازن بن الأزد .

والمتأمل فى هذا الاختلاف الشديد فى مساق نسب خزاعة يرى بوضوح أن النسابة وجدوا أنفسهم أمام جماعات من خزاعة تسوق نسبها إلى قمعة بن مضر وخندف بن إلياس بن مضر ، وجماعات أخرى من خزاعة تقول إنهم ينحدرون من النسب اليمنى الصرف أى : من حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف ، بينما تقول جماعة منهم إنهم ينحدرون من أفصى بن عامر بن قمعة بن إلياس بن مضر.

وما دامت الأقوال كلها تتفق على أن جد خزاعة هو لُحى بن حارثة وأن لُحياً هذا اسمه عمرو وابنه المسمى بربيعة هو ربيعة بن عمرو فإننا نستطيع القول بأن لحى بن حارثة بن عمرو مزيقياء هو اسم جد الخزاعيين الذى انفصل بجماعة من الأزديين كانوا مهاجرين من اليمن مع جماعة هى التى سميت بجماعة غسان ، واستقرت هذه الجماعة - قرب مكة وهناك تحالفت مع فريقين من المضريين من فرع إلياس بن مضر ، جماعة تنحدر من أفصى بن عمرو بن قمعة ، وجماعة تنحدر من ربيعة بن قمعة بن مضر ، ومن هنا جاء القول بأن ربيعة بن قمعة هو نفسه لحى بن قمعة ، ومن هذه الأصول الثلاثة أو النوى الثلاث تكوَّن ذلك المجموع الكبير المسمى خزاعة .

وخزاعة هذا قد يكون اسم مكان أو جبل أو طوطم أو ماء أو شجرة . وقد سبق أن رأينا أن قريشاً نفسها تكونت من نواتين رئيسيتين إحداهما عدنانية ، والثانية قضاعية ، فهذه خزاعة قبيلة تتكون من ثلاث نويات .

وما دمنا قد وصلنا إلى هذه النتيجة ، فلنقص حكاية خزاعة كما يرويها النسابة على اختلاف بينهم فى مساق القصص فنقول : إن الجماعة اليمنية التى انفصلت عن غسان وانضمت إلى جماعات أخرى تحت اسم خزاعة استقرت إلى جوار مكة حيث كان السلطان لقبيل قديم جداً فى هذا الموضوع من العرب العاربة يسمى جُرْهم ، وجُرْهم هذه هى بقية من فريق من العرب البائدة حمل نفس الاسم ، ولهذا تسميها الروايات بجُرْهم الثانية.

وطلب آل لُحى من جُرْهم الثانية أن تأذن لهم فى الاستقرار إلى جوار مكة حتى يجدوا مرعى مناسباً ينتقلون إليه ، فرفضت جُرْهم ، ودارت حرب بين الحيين انتهت بانتصار لحى بن عمرو أو ربيعة بن عمرو ، وانضمت إليهم جماعات أخرى من العرب الذين كانوا تحت سلطان جُرْهم ، فنشأ جمع جديد هو الذى أخذ اسم خزاعة . وهناك رواية تقول : إنه لم تحدث حرب بين جُرْهم وتجمع لحى بن عمرو الذى أصبح يسمى فى صورته الجديدة باسم خزاعة وأن الذى حدث هو أن جرهم وخزاعة اتفقتا دون حرب على أن تتزوج فهيرة بنت الحارث بن مضاض الجرهمى من ربيعة بن عمرو (الذى هو لحى على قول النسابة) وابنهما عمرو بن ربيعة بن عمرو ورث سدانة الكعبة ، فهو عمرو بن ربيعة.

وهؤلاء الذين يقال لنا إنهم أبناء عمرو إنما هم أهم الوحدات القبلية التى تكوَّن منها التجمع الجديد تحت اسم خزاعة ، وكان تجمعهم عند مَرّ الظهران ، ولا معنى هنا للقول بأن خزاعة اسم اشتق من التخزع بمعنى الافتراق ، أى أن خزاعة قبيل انخزع عن جماعة غسان الأزديين . ودليلنا على ذلك قول ابن الكلبى: فولد عمرو بن ربيعة (يعنى عمرو بن لحى) كعباً ، بطن وعدياً بطن وعوفاً وسعداً ، فليس من المعقول أن ينجب رجل واحد أربعة رجال يصبح كل منهم بطناً وإنما الأقرب إلى المنطق التاريخى أن هذه البطون تجمعت وكوَّنت حلفاً يسمى خزاعة وهذا الحلف هو

الذى أخذ زعامة مكة وسدانة البيت من جرهم إما بالحرب أو سِلْماً عن طريق الصهر. وفى أثناء سلطان خزاعة فى مكة انفصلت قريش عن كنانة وظهرت فى صورة قبيل جديد متحالف مع خزاعة أو مع بنى كعب من خزاعة بتعبير أدق. وتقاربت لهجة الحيين حتى صارت لهجة عربية واحدة ، ولهذا يقول ابن عباس : نزل القرآن بلغة الكعبين: كعب بن لؤى وكعب بن عمرو بن لحى (من خزاعة). وذلك أن دارهم كانت واحدة.

الوَضع السّكانى فى الحجاز قبل البعثة :

ونتتهى من هذا الباب بنظرة عامة على الوضع السكانى فى منطقة الحجاز عندما ظهر قصى وبدأ عمله الكبير فى تجميع قريش واحتلال مكة وانتزاع سدانة الكعبة فنقول : إن خزاعة كانت القبيلة القوية فى الميدان. وأقوى الخزاعيين كانوا بنى كعب ابن عمرو بن عامر بن لحى ، وهؤلاء كانت مساكنهم ممتدة شمالى مكة وفى الطريق منها إلى المدينة المنورة ، ثم كانت هناك بقايا كنانة وهى أم قريش وكانت منازلها ممتدة غربى مكة وربما إلى جنوبها وأقوى بطونها بنو عبد مناة بن كنانة .

وبقية الحجاز من المدينة فصاعداً حتى بلاد الشام كانت تسكنها بطون قضاعة التى تفرعت عنها وهاجرت من بلادها جنوباً بغرب إلى الحجاز أو إلى شبه جزيرة سيناء بعد تفرُّق قضاعة . هناك كانت تنزل جُهَينة وبَلِيّ وأسلَم وسعد هذيم ، وبهراء ومهرة وما إليها ، وقد مرت كنانة بمنازل هذه القبائل فى طريقها إلى منازلها الجديدة قرب مكة وتأثرت بها تأثراً شديداً . فاختلطت الأنساب وتوالت المصاهرات حتى ليمكننا القول بأن كنانة كانت بسبب المصاهرات قضاعية – من ناحية الأمهات – بقدر ما كانت عدنانية من حيث الصلب أو الصليبية ، والوحدات الرئيسية فى هذه الفروع القضاعية هى من الشمال إلى الجنوب : بنو القَين وبَلى وجُهينة وبهراء وعَذرة . وقد تركتُ جانباً الكلام عن عرب منطقة المدينة حتى يجيء موضعها من هذه الدراسة .

وإلى شمال الحجاز وما يليه شرقاً أقبلت جماعات يهودية فاستقرت فى مواضع عيون ماء كانت صغيرة ولكنها نمت مع الزمن بفضل من استقر فيها من اليهود وما قامت به من جهد فى الزراعة والصناعة . ومن هنا نشأت مراكز عمرانية فى خيبر وأم

القرى ثم فى فدك إلى الشمال الشرقى من خيبر فى مداخل نجد . وتقدم بعضها فاستقر فى سهل المدينة ، وهذه الجماعات ظلت على يهوديتها فلم تندرج فى غمار الوثنية التى كانت هى ديانة القبائل الإسماعيلية المستعربة ، أما القبائل القضاعية فقد بدأ بعضها يدخل المسيحية منذ القرن المسيحى الثانى.

وإلى شرقى جبال السراة امتدت جماعات الإسماعيلية من فرع قيس عيلان بن مضر وسنتحدث عن أهم جماعاتها ، ولكن يكفى أن نقول الآن إن الأراضى الرملية المعشبة الواقعة جنوبى صحراء النفود القاحلة امتدت فيها جماعات كبيرة من قيس عيلان أهمها غطفان (حول خيبر) وعَبْس وذبيان ولحيان ومحارب وأسد وهوازن (فى محاذاة المسافة من المدينة إلى مكة) ، وشرق هوازن وجنوبها امتدت بلاد تميم. وهذه القبائل كانت فروعاً من قيس عيلان وكلها ظلت أعراباً بسبب البيئة الصحراوية التى تميل إلى الجدب وقلة المطر فى منازلها ، بل إن معظم ما كان ينزل من المطر كان يفيض فى الرمال: هنا بلاد الأعـراب أو أعاريب نجـد فيها يُعرف عند كُتَّابنا باسم عوالى نجـد أو العوالى .

وبعض أولئك الأعراب أو الأعاريب دخلوا الحجاز من منافذ الجبال مثل بنى سُليم بن منصور الذين استقروا عند معدن بنى سُليم ، وبنو هلال بن عامر بن صعصعة الذين جاوروا بنى سليم وانتشرت جماعات قوية منهم فى مواضع متباعدة من الصحراء ، ومن هؤلاء الأعاريب سعد بن بكر إلى الشرق من مكة ، وهم من هوازن.

وهؤلاء الأعاريب أنشأوا فيها بعد علاقات حلف وصهر مع بطون من قريش ممن لم يسكنوا بطن مكة مع قصى بن كلاب ، ولكنهم تأخروا وظلوا أعراباً أو أنصاف بدو يسكنون ظواهر مكة من بنى الحارث ومحارب من فروع فهر ، أما فرع غالب بن فهر ، فهم نواة قريش وهم الذين انحدر منهم قصى بن كلاب وفروع قريش البطاح وصلبهم كعب بن لؤى وعامر بن لؤى كما سنرى.

وبلاد هؤلاء الأعاريب كانت شديدة الفقر بطبيعتها ، وأهلها كانوا يعيشون فى فاقـة وجـوع دائمين تقريبـاً ، ولهذا فهم ينظرون بعين الطمع إلى جماعات المستقريـن

أو أنصاف المستقرين التى كانت تعيش فى الحجاز من خيبر وفدك ووادى القرى حتى المدينة المنورة وفى تهامة فى إقليم مكة . وهذه الجماعات كانت من أصول شتى وتكوين سكانى يختلف من موضع لموضع ، فهم يهود مهاجرة من الشمال فى منطقة خيبر وما يوازيها ، وهى المنطقة التى تتيسر فيها الخيرات ومادة الحجاز ، فقد كانت خيبر تسمى ريف الحجاز ، وإلى هذه الجماعات اليهودية انضمت جماعات عربية قليلة وتهودت أم لم تتهود ، وهى قضاعية ، فى المساحات الواقعة بين جنوب الشام والمدينة ، ويمنية الأصول كما نجد فى الأوس والخزرج أصحاب المدينة ، وهم لم ينفردوا بها بل نزلت قبلهم ومعهم جماعات من قضاعة وعذرة وغفار ويهود ، ثم جماعة خزاعة المتنوعة الأصل، وقاعدتها عند مَرِّ الظهران فى حين أن ينبع كانت أكبر مراكز الجهنيين . ثم جماعة قريش ومن استقر معها فى مكة من قضاعة وعذرة وخزاعة وبقايا جُرْهم . وحول مكة كانت منازل كنانة وخاصة بنى عبد مناف منها ، وإذا سرنا إلى الجنوب فى تهامة بدأنا نَلْقى طلائع القبائل اليمنية من حد بيشة ، وأول من نلقى من تلك القبائل فى ذلك العصر خثعم .

وإلى الجنوب الشرقى من مكة نجد الطائف وهى منزل قبيلة ثقيف وأحلافها ، وهى قبيلة مستقرة وإن لم تفقد خصائص البداوة ، وهى قبيلة قيسية يرتبط رجالها بالمكيين أشد الارتباط ، وثقيف كانوا أهل زرع وضرع وزروع وأشجار وفواكه ونخل وكروم ، وكانوا يتحصنون فى مدينتهم الطائف على جبل وج ، وهذا الجبل كان حصنهم وملاذهم . وقبل الإسلام لا نسمع كثيراً عن ثقيف ولكن أمرها ظهر بفضل الإسلام الذى قاومته طويلاً ، فلما دخلت فيه بدأت مواهب رجالها تظهر .

والخط الفاصل بين الحجاز وتهامة يمر شمال مكة بقليل ، والمتأمل لأحوال هذا الجزء من الجزيرة خلال القرن الذى سبق البعثة المحمدية - وهو القرن الذى تم فيه بناء قريش وبلغت أوج قوتها وانتظامها - يشعر أن الحجاز وتهامة معاً كانا عامرين بالسكان وإن لم تكن هناك كثافة سكانية ، ولكننا نشعر أن كل موضع هناك مسكون وأن القبائل شديدة الإحساس بما يجرى حولها ، وسنرى بعد أن ندخل فى العصر النبوى أنه لم يكن من الممكن أن يتحرك إنسان أو قبيل فى أى بقعة من الحجاز وتهامة

إلا أحست به قبائل الموضع ، والأخبار تنتقل فى سرعة تستلفت النظر وكأنما أرصدت هذه القبائل ناساً يرقبون الطريق ويتحسسون الأخبار ويطيرونها.

ويشعر الإنسان كذلك أن الاستقرار والأمن سائدان بصفة عامة ، وذلك بفضل النظام الذى وضعته قريش وسنتحدث عنه ، وإذا قارنا أحوال الحجاز وتهامة بأحوال بقية الجزيرة خلال الجاهلية الثانية أحسسنا أن المستوى الحضارى أرفع مما فى غيره من نواحى الجزيرة . وستزداد هذه الحقيقة اتضاحاً كلما سرنا فى هذا البحث ، وفيما عدا تسللات فروع صغيرة من قيس عيلان وأعاريب نجد من أمثال أسد ومحارب والهون والديش والقارة نجد أن الوضع الأمنى يشبه ما كان عليه الحال فى بلاد الدول القائمة ، بل هناك مناطق كانت غاية فى الأمن مثل منازل عذرة وهذيل شمالى مكة ، ولا غرابة والحالة هذه أن نجد أن تلك القبائل قالت أعذب الشعر العربى وأرقّه .

* * *

بناء قريش
سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ودينياً



تمهيد

والآن وقد تتبعنا خروج قريش من كنانة وانفرادها بوحدة قبلية قائمة بنفسها مستقلة عن كنانة ، نعود إلى الوراء قليلاً لكى نتتبع خط النسب المنحدر من لؤى بن غالب بن فهر . وقد سبق أن ذكرنا أن الأسماء الواردة فى خط النسب - قبل قصى - هى فى الغالب أسماء تجمعات قبلية اشتهرت فى التاريخ بالأسماء التى تراها فى خط النسب ، وهذا لا يُدخِل أى تغيير فى خط النسب ، فالأسماء تظل على حالها ولكن طبيعتها هى التى تتغير ، وقد سبق أن بيَّنا أن كنانة لا يمكن أن يكون اسم رجل بل هو اسم تجمع قبلى . ونفس الشىء ينطبق على النضر بن كنانة ، والنضر هذا فيما تقول النصوص اسمه قيس وكنيته أبو يخلد ويخلد اسم ابنه الثانى لا الأول ، وابن يخلد يسمى (بدر) ، وبدر هو قريش فكيف نفسر هذه الأحجية ؟ ولماذا يكون لكل عَلَم اسمان ؟ وقد حللنا ذلك الإشكال بقولنا إن قيساً هو اسم الرجل ، وإن النضر هو اسم التجمع القبلى ، وهذا لا يمنعنا من أن نقول مالك بن النضر ، فيكون مالك منحدراً من التجمع القبلى والمسمى بالنضر.

ولا حاجة بنا والحالة هذه إلى أن نبحث فى معنى «النضر» ، فما دام عَلَماً على تجمع قبلى أو جماع نسب فقد يكون أى شىء.

وبعد مالك بن النضر يجىء فهر بن مالك ، وهنا وقد اقتربنا من منطقة التاريخ وخرجنا من منطقة الظلام إلى منطقة شبه الظل لا يستطيع المؤرخون الاستمرار فى ذكر أسماء القبائل على أنها أسماء أشخاص ، ففهر ليس اسم رجل مفرد ولا قريش

كذلك ، ولكن فهراً هو جُماع قريش فى قول هشام الكلبى برواية الزبير بن بكار ، هنا لا نشك فى أننا أمام قبيلة انفصلت عن كنانة ، وفى ذلك يقول النسابة : «ومن جاوز فِهْراً فليس من قريش» أى : أن قريشاً ظهرت إلى الوجود قبيلة مستقلة أيام ظهور اسم فهر ، وربما كان هو الرئيس الذى ظهر التجمع فى أيامه . بعد ذلك يختفى اسم فهر وكذلك تختفى النسبة إليه فى عمود النسب ، فنحن لا نقول قصياً الفهرى أو عبد المطلب الفهرى ، وإنما انفردت باسم فهر جماعتا الحارث بن فهر ومحارب بن فهر ، ومن هذين الفرعين ومن انضم إليهما تكونت مجموعة قريش الظواهر ، وأما الذين لزمهم اسم قريش فهم أولاد لؤى بن غالب. وخاصة كعب بن لؤى وعامر بن لؤى ، وهذان الفرعان ومن انحدر منهما هم البطاح أى المجموعة التى تزعمها قصى وقام بها بعمله الكبير ، فكأننا فى الحقيقة من أيام لؤى بن غالب أمام مجموعتين انفصلتا عن كنانة وكلتاهما تنتسب إلى فهر ، ولكن واحدة منهما انفردت باسم قريش والنسبة إليها والأخرى احتفظت باسم فهر وانتسبت إليه ، وإذا نحن قلنا إن قريشاً ظهرت وتميزت بنفسها من ذلك التاريخ فى حين أن غالبية الكنانيين من فرع النضر أصبحوا هم الفهريين لم نجاوز الحقيقة بكثير بدليل أن الفهريين - رغم انضمام بعضهم إلى قصى فيما بعد ودخولهم مجموعة قريش تحت اسم الظواهر - ظلوا بدواً يحومون حول مكة ، وسنجد أن زعيماً من زعمائهم يسمى كرز بن جابر الفهرى يعتدى على سرح المدينة أيام الرسول ﷺ ويطارده الرسول حتى قرب موقع بدر ولا يدركه فيعود .

ونتابع سيرنا مع الفرع الذى أصبح الآن يسمى قريشاً ونقف عند غالب أو بنى غالب بن فهر، فنجد أن اسم قريش يلزم ابنه فرعاً منهم هو فرع بنى لؤى ، أما تيم الأدرم الذى يُذكر على أنه ابن - أو فرع - من بنى غالب فينفصل عن التيار ويقول عنه ابن قتيبة : بنو الأدرم من أعراب قريش ليس بمكة منهم أحد[1] ويقول الزبير بن بكار: «وبنو الأدرم هؤلاء هم أعراب مكة وهم من قريش الظواهر لا من قريش البطاح»[2].

وهكذا نرى أن قريشاً فى تكوُّنها كانت تُسقط من تكوينها من الفروع ما ينفصل

(١) المعارف ، ص ٣٢ - والروض الأنف للسهيلى ١/ ٧١.
(٢) انظر : ابن حبيب ، المحبر : ص ١٦٨ .

عنها ويرغب عن الدخول فى جماعها . وتُدخِل أيضاً فى حلفها - بل فى صُلبها - مَن رغب فى حلفها والانضمام إليها ، وذلك لأن انفصالها عن كنانة وقيامَها بأمر نفسها وزعامة حلفها الجديد ، كل ذلك أوقع النفور بينها وبين بعض أخواتها من فروع كنانة وأظهرُ مَثَل لذلك ما كان بينها وبين فرعين من فروع عبد مناة بن كنانة ، فقد حالفت قريش بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة على بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة . لأن القبيلة فى العصر الجاهلى لم تكن كياناً اجتماعياً تربط أفراده بعضهم إلى بعض روابط القرابة والدم وحدها ، بل كانت تكويناً سياسياً مرناً يقوم على المصالح ، فهى تضم إلى كيانها من يُحالفها وينفعها من القبائل والأفراد أو البطون ، وتعادى ، بل تفصل من كيانها مَنْ يضرها أو يخرج على إجماعها من أهل عَصَبَتِها أنفسهم ، وهى دائماً فى تجمُّع وتفرُّق ثم تجمع ، تحت نفس الأسماء أو تحت أسماء أخرى ، وسنرى أمثلة من ذلك كله فيما يلى من تاريخ قريش.

وعلى طول تاريخ قريش يستمر العنصر القضاعى نشيطاً فى كيانها ، فكعب بن لؤى مثلاً أمه قضاعية ، واسمها ماوية ، وحيثما ورد اسم ماوية تبادر إلى الذهن أنه تحريف لمارية ، كأنما أراد النسابون فيما يتعلق بتاريخ كنانة وقريش تخليص قبيلتى الرسول الكبرى وهى كنانة ، والصغرى وهى قريش من كل أثر مسيحى.

وكلاب بن مرة اسمه حكيم وكنيته أبو زهرة . مرة أخرى نعود إلى الاسم المزدوج ، ومن الواضح أن كلاباً اسم تجمع صغير نشأ داخل قريش واستمر خط النسب أما الباقون فقد احتفظوا باسم فهر، وكأنما ثقُل على النسابة أن يجدوا فى خط النسب لفظ كلاب ، فقالوا : إن اسم كلاب كان حكيماً أما كلاب فتسمية غلبت عليه لأنه كان كثير الصيد بالكلاب فكان إذا مر بكلابه قالوا : هذه كلاب بن مرة فغلب عليه . وهذا تكلف لا معنى له . وأم كلاب كانت من بنى الحارث بن فهر بن مالك ابن كنانة .

وقد تفرق الكثير من البطون التى تفرعت عن لؤى وانفصلت عن خط النسب الذى ميز قريشاً عن غيرها . فإن اسم قريش انحصر كما رأينا فى فرعين من لؤى هما

كعب وعامر ابنا لؤى بن غالب ، ومن هذين البطنين وفروعهما تكونت الكتلة الأساسية التى أيدت قُصياً وحملت اسم قريش ودخلت به مكة ، واحتلت قلبها أو بطحاءها ، وهؤلاء هم قريش البطاح أو الأبطحيون ، أما بقية بطون لؤى فبعضها انضم إلى مجموعة بنى الحارث وبنى محارب المتفرعين عن مالك - وهى مجموعة فهر - وبعضها دخل فى مجموعات قبلية أخرى ، فبنو سامة بن لؤى أصبح اسمهم بنى ناجية واستقروا بنواحى عمان [1] ، وبنو خزيمة بن لؤى أصبح اسمهم بنى عائذة ودخلوا فى بنى أبى ربيعة الشيبانيين ، وهذا إن دل على شىء فهو يدل على أن بطون كنانة التى تفرعت عنها قريش كانت تنتقل على مهل من الشام جنوباً ، وهذه القبائل لم تنتقل كلها إلى الحجاز دفعة واحدة بل كانت تسير فى بطء كأنها نهر الثلج ، وعلى طول الطريق كانت تنفصل عنها فروع وتستقر فى مواطن جديدة وتدخل فيها فروع ويتغير اسمها بحسب ما يجِدُّ من الظروف.

ومُرَة بن كلاب يمثل مرحلة حاسمة فى تاريخ قريش . وهو كما قلنا اسم تجمع ، وفى هذه المرحلة تحدد تكوين صُلب قريش من فرعى كعب بن لؤى وعامر بن لؤى وما تفرع عنهما ، وبدأت تظهر الوحدات الأساسية التى تكوَّن منها صلب قريش وهم الذين سيصبحون أيام قصى قريش البطاح ، ويدخل فى جماعة قريش بنو سهم وبنو جمح فَرْعَا هُصيص بن كعب ، وهو فرع معادل لفرع مُرَة . وهنا أيضاً يظهر فرع عدى - رهط عمر بن الخطاب - وهم فرع صغير .

ومعظم البيوت التى تفرعت عن مُرة ستكون من عَصَبة قريش الأساسية ، وهنا نلقى ثلاثة بيوت تستحق كل منها وقفة قصيرة منا ، فهنا يظهر بيت يقظة بن مرة ، وهو البيت الذى سيُعرف فيما بعد باسم مخزوم . أما بيت القَلَمُس أخى كلاب بن مرة فإنه يدعو للتأمل. ومن أغرب ما نقرأ عند المصعب الزبيرى أن القلمس هذا ابن أخى سُرير بن مرة ، وعلى هذا فلابد أن يكون اسمه القلَمُس بن فلان بن مُرة بن كعب بن لؤى وهكذا إلى كنانة ، ولكن المصعب الزبيرى يقول : إن اسم القلمس عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن كنانة ، وهذا أمر مُحَيِّر ، فليس لدينا بين أسماء أولاد كنانة

(١) فى الأصل عند المصعب الزبيرى : نزلوا بعمان بفتح العين وعدم تشديد الميم إلى عمان الشام.

أو الفروع التى تفرعت عنه ابن أو فرع يسمى الحارث ، والذى لدينا هو الحارث بن فهر بن مالك بن كنانة ، وهؤلاء دخلوا فى مجموعة فهر دون أن يكون أصلهم فى كنانة، ومن أين أتى عدى هذا وما نسبه ؟ وكيف يذكر المصعب الزبيرى هذا دون أن يستوقفه الأمر ؟ وكيف يكون الرجل اسمه القلمس بن فلان بن مرة بن كعب ثم يقال لنا : إنه عدى بن عامر وينتهى به إلى كنانة ؟

ثم إن القَلَمُس هذا لابد أن يستوقف نظرنا لأنه فَيْناً يقال لنا ابن أخى سرير بن مرة وهو أول من نسأ الشهور ، وقد انقرض سرير وورث ونسأ الشهور بعده ابن أخيه القَلَمُس واسمه عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن كنانة . والقلمس هذا هو الاسم الثانى لعدى ، ولا يمكن أن يكون اسماً ، خصوصاً إذا قيل لنا إنه ورث النسىء عن عمه سرير ، والنسىء هذا هو حساب الأيام والشهور والأموال والربوات ، والقرشيون كانوا أميين فى غالبيتهم ، فكان الذى يكتب ويحسب لهم فى البيع والشراء وحساب الأيام والربوات القلمس هذا .

ونظرة على هذا الاسم نرى أنه الصورة العربية للفظ Calamus اللاتينى ومعناه القلم، ومنه جاء لفظ القلم العربى وهو أداة الكتابة والحساب والنسىء . وسُرَير بن مرة ، وهو عم قصى كان هو الذى يحسب لقريش ، فلما مات ورث العملَ عنه ابنُ أخيه : عَدِى صاحب القلمس والقلمس الكاتب بالقلم ، ومن هنا فليس من الضرورى أن يكون ابن أخيه لحاً ، وإنما ابن أخيه فى صنعة الكتابة والحساب والنسىء. وفى أيام قصى بن كلاب بن مرة وبعد أن تستقر قريش فى مكة وتنتظم أمورها وتزدهر تجارتها ستزداد الحاجة إلى النَّسَأة القلامس، أى : أصحاب الأقلام ، وسيكون لهم دور كبير نعرفه جميعاً ، فهم الصيارفة الكَتَبَة الحَسَبَةُ المرابون .

قصى بن كلاب والبناء العسكرى والسياسى لقريش

أخبار قصى حتى توليه زعامة قريش

وأخيراً ، نصل إلى قصى بن كلاب ، وهو دون شك شخصية تاريخية واضحة المعالم .

ومعه نخرج من ضباب الأساطير والقصص الشعبى إلى حقائق التاريخ ، وليس من العسير أن نستبعد القصص الشعبى ونركز كلامنا على الشخصية التاريخية وما قامت به من دور تاريخى.

فالروايات التى بين أيدينا تقول إن قصياً ليس اسمه الحقيقى وإنما اسمه زيد ، وإن أباه كلاباً ، أنجب ولدين : زيداً هذا وزُهرة. وقصى كان الولد الأكبر ويليه زُهرة – وهو هنا اسم رجل أو قد يكون اسم البيت ، وزهرة نفسه غير معروف لنا مما يوحى فعلاً بأنه اسم بيت ، ولكن معظم أفراد بيت زُهرة معروفون لنا وهو على الجملة بيت سيكون دائماً حليفاً لبيت قصى قبل الإسلام ، أما بعده فإن بنى زهرة كانوا – إلا فيما يتعلق بعبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة وابنه الأسود بن عبد يغوث – من أكابر بيوت الإسلام فى عهد النبى ﷺ وبعده . ويكفى أن منهم آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة أم الرسول ﷺ وهالة بنت وُهيب بن عبد مناف وقد تزوجها عبد المطلب بن هاشم فى نفس الوقت الذى تزوجت فيه آمنةُ بنت وهب عبدَ الله ، وأنجبت هالة حمزة بن عبد المطلب عم الرسول وصاحبه ، بطل الإسلام المشهور .

ويبدو أن قصياً سُمِّى بهذا الاسم من مولده ، ولا داعى للقول بأنه سُمى كذلك لأنه تربى قَصِياً أى بعيداً عن آل أمه وهم من قضاعة ، أما اسم زيد فلا معنى له فى الحقيقة ، فعمرو وزيد وامرؤ كلها ألفاظ بمعنى شخص أو رجل والنحويون أنفسهم استعملوا لفظى زيد وعمرو فى أمثلتهم النحوية ، فهم يقولون : ضرب زيد عَمْراً يريدون ضرب رجل رجلاً ، وما الذى كان يَحُوجهم إلى اختيار اسم عمرو هنا ليكون مضرب المثل مع صعوبة رسمه فى حالة النصب مثلاً . ولكن الذى يعنينا أكثر هنا هو ما تقوله الروايات من أن قصياً تربى فى منازل فرع من فروع قضاعة هو فرع بنى عذرة بن سعد هُذَيم المشهورين فى عالم الشعر وإليهم ينسب الشعر العُذْرى ، ومنهم جَميل بن مَعْمَر صاحب بثينة ، وهذه حقيقة تهمنا هنا فلنقف عندها بعض الوقت .

فإن القصة تقول : إن كلاب بن مُرة والد قصى تزوج فاطمة بنت سعد بن سيل وهو خير بن حمالة بن عوف بن عثمان بن عامر (وهو الجادر) بن جُعثُمة وهو يشكر من الأزد ، فولدت له زيداً وزُهرة ، ثم توفى عنها فتزوجت فاطمة – أم قصى – ربيعة

ابن حرام بن ضنة بن عبد كبير بن عذرة بن سعد (هذيم) بن سعد بن زيد بن قضاعة. وهذا هو كلام السُّهيلى [1].

وعلى الرغم من أن بعض أئمة مؤرخينا مثل الطبرى وابن الأثير وابن عبد البر رووا هذه الحكاية وعدَّلوا بعض الشىء فى سياق نسب قصى إلا أننا لابد أن نقرر أن القصة كلها لا تستقيم ، وكلاب تزوج فاطمة القضاعية ومات عنها مُخَلِفاً ابنيه قُصياً وزهرة فتزوجت الأرملة رجلاً من بنى عذرة القضاعيين ، وكل هذا التعقيد لجأ إليه المؤرخون وأقروه ليبرروا تسمية قصى بأنه البعيد . أو الذى تربى بعيداً عن أهله قريش .

وأصحاب هذه القصة يفترضون أن كلاباً كان فى مكة وأن قصياً وُلِد ونشأ بعيداً عنها مع أن قريشاً لم تدخل مكة إلا على يدى قصى ، وقريش فى أيام كلاب كانت قد وصلت فى تنقلها فى الحجاز إلى قريب من منازل بنى سعد هذيم من قضاعة غير بعيد عن مكة.

والذى أوقع أولئك المؤرخين فى هذا الخطأ هو قولهم إن فاطمة أم قصى أزدية لأنها بنت سعد بن سيل – واسم سيل فى قولهم حمالة بن عوف بن عثمان بن عامر (وهو الجادر) بن جعثمة وهو يشكر من الأزد فى قولهم ، فإذا رجعنا إلى شجرة النسب وجدنا أن بنى عذرة أصلهم من قضاعة ، فهم بنو عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن إلحاف بن قضاعة ، ووجدنا أن عذرة نشأت عنها ثلاثة بطون : عامر وكبير ورفاعة بنو عذرة ، وهذه البطون كلها دخلت أى امتزجت ببنى يَشكُر الأزديين . يقول ابن حزم : «فمن بطون بنى كبير بن عذرة بنو رِزاح بن ربيعة ابن حَرام بن ضنة بن عبد بن كبير بن عذرة ، ورِزاح هذا هو أخو قصى بن كلاب لأمه» [2] لأن فاطمة أم قصى بعد وفاة زوجها تزوجت ربيعة بن حرام بن ضنة فولدت منه رزاحاً فكان رزاح أخاً لقصى لأمه ، ويورد لنا ابن حزم بعد ذلك عبارة فى الغاية من الأهمية بالنسبة لقصى وبنائه قريش ، قال : «ومن بطون بنى كبير بن

---

(١) السهيلى ، الروض الأنف ١/ ٨٤ ، وانظر ابن الأثير ٢/ ٨ ، والطبرى فى أخبار قصى.
(٢) ابن حزم ، الجمهرة ص ٤٤٨ .

عذرة رزاح بن ربيعة بن حرام بن ضنة بن عبد بن كبير بن عذرة ، ورزاح هذا هو أخو قصى بن كلاب لأمه ، وهو الذى نصر قصى بن كلاب على بنى بكر بن عبد مناة ، وهو الذى أخرج بنى نهد وبنى جَرْم وبنى حَوْتكة من بلاد قضاعة ، وهو الذى أخرج أيضاً بنى عمه رفاعة بن عذرة من جُملة بلاد بنى عذرة ، وبنو حُن بن ربيعة أخى رزاح بن ربيعة لأبيه وأمه وهما من قبيلة عُذْرة ، فبنو حُن هؤلاء أخوال قصى وهم عذريون قضاعيون ومنهم جَميل بن عبد الله بن مَعْمَر الشاعر وصاحبته بثينة أيضاً.

وهذا الكلام كله يعطينا حقائق جديدة عن أوليات قصى ، فإن قُصياً نشأ فى بلاد أمه فاطمة العذرية القضاعية ، ولابد أن بلاد بنى عذرة فى ذلك الحين لم تكن بعيدة عن مكة ، فهم أبناء عم جهينة القضاعيين ، وبنو جُهينة كانت منازلهم تصل إلى ذى خُشُب ، وعندما كبر قصى واشتد عوده وجمع قومه بنى كعب وبنى عامر أولاد لؤى الذين استمر فيهم اسم قريش دخل فى صراع مع بنى بكر بن عبد مناة الذين كانوا يمثلون كتلة كنانة ، فنصره أخوه لأمه رزاح بن ربيعة العذرى القضاعى وانضم بقومه إلى قريش وحارب الاثنان معاً بعض بطون قضاعة مثل بنى نهد وبنى جَرَم وبنى حوتكة ثم بنى رفاعة وأخرجوهم من بلاد عذرة وتوسع قصى وقومه وحليفه حرام ابن ربيعة بن جرم بن ضنة فى أرض بنى عبد مناة بن كنانة بعد أن انتصرا عليهم وازداد مركزه ومركز قريش ثباتاً.

لا معنى إذن للقول بأن قُصياً سُمِّى بذلك الاسم لأنه نشأ وتربى قَصِياً عن قومه . قصياً عن ماذا ؟ حقاً إنه نشأ وتربى فعلاً فى بلاد أمه العذرية ولكن عندما اشتد عوده وتنازع مع بقية كنانة استعان بأخيه لأمه وقومه القضاعيين على بنى بكر بن عبد مناة ابن كنانة ، واستقر بقومه فى موضع قريب من مكة ثم أخرج بعض بطون عذرة من مواطنها أثناء هذا الصراع الذى خاضه قصى لكى يبنى جاه قبيلته قريش ويسلخها نهائياً من بدن أمها كنانة ، ومن أمثلة قصور مؤرخينا قولهم : إن قصياً سمى بذلك لأنه كان قاصياً عن مواطن أهله.

قال النويرى ناقلاً عن الرُّشاطى - وهو من فقهاء الأندلس - أن قُصياً وقع بينه وبين أخيه ربيعة خلاف فعيَّره بالغربة ، وهم يفترضون أن أهله كانوا يسكنون مكة

مع أنهم لم يدخلوها إلا على يد قصى ! فلما قال ذلك لأمه قالت له : يا بنى ، أنت أكرم منه نفساً وأباً . أنت ابن كلاب بن مرة وقومك بمكة عند البيت الحرام ، فأجمع قصى على الخروج ، فقالت له أمه : أقم حتى يدخل الشهر الحرام ، فتخرج فى حاج العرب ، فلما دخل الشهر الحرام خرج مع حاج قضاعة إلى مكة ، فحج وأقام بمكة [1]، وهذه غفلة من الرُّشاطى والنويرى ، فإن قصياً وآله لم يستقروا فى مكة إلا على يد قصى نفسه . وعندما كان قصى صغيراً كان يعيش فى منازل قبيلته قريش إلى الشمال من مكة مجاورين لمنازل أبناء عمومتهم العذريين القضاعيين . ونلاحظ هنا أن النص يقول : إن قُصياً خرج مع ركب حجاج قضاعة مما يدلنا على أن الصلة كانت وثيقة بين فروع قريش التى انتسب إليها قصى وفروع قضاعة .

وندع هذه الأقاصيص كلها لنقول : إن قُصيَّ بن كلاب وُلِد ونشأ فى المنازل التى وصل إليها فرع كنانة الذى أصبح يسمى قريشاً فى رحلته الطويلة من بلاد قضاعة جنوبى الشام إلى الحجاز . وكانت منازل قريش هذه وهى بطون كعب بن لؤى وعامر ابن لؤى قد حالفت بعض بطون بنى عُذرة من قضاعة مثل ضِنَّة قبيلة أخيه لأمه حرام ابن ربيعة بن ضنة ، وتمكن الاثنان من إخراج بعض بطون قضاعة من منازلها ليتوسعا فيها ، وفى هذا الوقت انفصل قصى بن كلاب بقومه قريش عن كنانة وتوسع كذلك فى أراضى بنى عبد مناة بن كنانة ، واقترب بقومه من مكة .

الصِّراع بَين قصَى وَخُزاعة :

فى ذلك الحين ، كانت خزاعة سيدة مكة ، وقد سبق أن ذكرنا أن الخزاعيين تفرعوا فيما يقول الرواة عن أزد شنوءة أو أزد السَّراة ، وأن أصلهم من اليمن ، وقد رأينا فى الفقرة التى أدرناها على خزاعة أننا لا نستطيع أن نقطع بهذا الأصل اليمنى لخزاعة ولا نستطيع أن ننفيه أيضاً . والذى يهمنا على أى حال هنا ليس أصل خزاعة وإنما هو أمر سيطرتها على مكة ، فقد غلبت الجرهميين عليها وأخرجتهم منها . وسواء أكان استيلاء خزاعة على مكة قد تم بعد حرب أم تم سلماً باتفاق الحيين فإن النصوص تذكر أن رئيس خزاعة وهو ربيعة بن حارثة تزوج فُهيرة بنت الحارث بن مضاض

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ١٦/ ٢١ .

الجرهمى. وأنجب منها ولداً يسمى عمرو بن ربيعة وهو لُحَى بن قمعة بن مضر بن نزار على رأى أو ابن حارثة بن عمرو مزيقياء على رأى ثان أو عامر بن قمعة على رأى ثالث[1]، وكان ذلك قبل دخول خزاعة مكة وقد أصبح لعمرو بن عامر بن ربيعة (أى لُحَى) الحق فى أن يرث مفاتيح الكعبة من بيت الحارث بن مضاض الجرهمى ، ويبدو أن الحارث هذا لم ينجب من الأولاد إلا فُهيرة هذه ، وإلا فكيف صار إلى زوجها مفتاح الكعبة ؟

وتقول النصوص : إن جُرْهم كانت قد طغت وبغت . فأبادها الله سبحانه . وهذا طبعاً قصص فإن الله لا يعذب قوماً أو يبيدهم بآثامهم ما لم يبعث رسولاً ، وذلك بنص القرآن ولم نسمع عن رسول أرسل إلى جُرْهم فعصَتْه فحَقَّ عليها العذاب ، ولكن الحقيقة المنطقية التى يقبلها المؤرخ هى أن الخزاعيين قضوا على الجرهميين بعد أن انتزعوا منهم مكة . ولا نستطيع القول إن جرهم بادت تماماً كما يقول الرواة ، إنما المعقول أنها غُلبت على أمرها وحلَّتْ محلها خزاعة ، وذابت بقايا الجُرهميين فى الغالبين من خزاعة وأحلافهم ، وليس من الصواب أن نركز على أهمية مفتاح الكعبة وسدانتها من الآن ؛ لأن الحقيقة أن أهمية الكعبة وتنظيم العبادات حولها والحج المنظم إليها كل ذلك تم على يد قصى بن كلاب نفسه وخلفائه حتى عبد المطلب بن هاشم كما سنرى. والغالب أن الكعبة كانت إذ ذاك بناء غير مسقوف يحيط بالحجر الأسود . وكان بعض العرب يحجون إلى الكعبة وهى فى صورتها هذه ، ومن استولى على مكة كان عليه أن يُعنى ببكة وهى الموضع الذى تقوم الكعبة والحجر الأسود فى وسطه ، وسنتحدث عن الكعبة والحجر الأسود فيما بعد.

وهناك رواية يرويها الزبير بن بكار تقول : إن ولاية البيت قبل خزاعة كانت لمضر ابن إياد . والزبير بن بكار من القائلين بأن خزاعة ترجع فى نسبها إلى إياد بن مضر عن طريق عك بن معد بن عدنان . وهذه الرواية تقول إن أصحاب مكة الأولين كانوا من إياد بن نزار بن معد بن عدنان . ثم نازع إياداً مضر ابن أخيه نزار وغُلِبت إياد ، ورضيت إياد أن تخرج من مكة شريطة أن نساء مضر المتزوجات من إياديين لهن الحق

(١) انظر جدول أنساب خزاعة والفقرة التى أدرناها على خزاعة فى الفصل الأول.

فى أن يلحقن بمضر إذا أردن ، ومن بين المضريات اللائى عُدن لمضر امرأة من خزاعة تسمى قُدامة وكانت إياد قبل مغادرتها مكة قد دفنت الحجر الأسود فى موضع أَخْفَتْه عن الناس قبل رحيلها لأنها لم تستطع حمله معها وكانت قُدامة الخزاعية تعرف موضع الحجر ، فأبلغت به قومها وقالت لهم : قولوا لمضر إننا ندلهم على موضع الحجر إذا هم تركوا لنا - أى للخزاعيين - سدانة البيت ووافق المضريون ، وهكذا احتفظت خزاعة بسدانة البيت حتى دخول قصى مكة [1]. وهناك رواية ثالثة تقول : إن الذين أخرجوا خزاعة من مكة كانوا بنى عبد مناة بن كنانة وبنى غُبشان الخزاعيين .

قصَى يَستولى عَلى مكّة :

وصل قصى بقومه قريش إذن إلى قرب مكة متحالفاً مع بعض بطون بنى عذرة القضاعيين ومعادياً لبنى عبد مناة بن كنانة ، وكان قُصى رجلاً طموحاً تنبه إلى أهمية مكة والحرم فيها ، فاستقر رأيه على أن ينتزع مكة وبكة والبيت والحِجْر من خزاعة . وتذهب النصوص إلى أن خزاعة هى التى أفسدت ملة إبراهيم وأدخلت عبادة الأوثان إلى مكة ، ويقولون : إن عمرو بن ربيعة الخزاعى وهو لُحَى ، هو الذى أتى بِهُبَل ووضعه فى الكعبة . ولكن هناك كذلك من يقولون إن الذى أتى بِهبل كان خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وربما كانت هذه الرواية الأخيرة أقرب إلى القبول . لأن هُبَل إله أصله فينيقى (إلهُ بعل) وما دامت كنانة قد أتت من الشام فى جملة من أتى من أولاد مَعَد بن عدنان فتكون هى التى أتت معها بهذا المعبود الوثنى . ويؤيد ذلك أن ابن الكلبى يقول : إن هُبَلاً كان يسمى هبل خزيمة ، أما عمرو بن عامر بن ربيعة الخزاعى وهو لُحَى فالغالب أنه أتى من الجنوب ، ربما من اليمن أو من داخل الجزيرة حيث لا وجود لإله اسمه منسوب إلى بعل الفينيقى.

وتمكَّن قصى بمن اجتمع له من قريش وهم أبناء كعب وعامر بن لؤى بن غالب

(١) الفاسى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام جـ ٢ / ص ٢٦ . وما يليها ؛ وتاريخ اليعقوبى ١/ ٢٣٨ .
- محمد بن حبيب النسابة ، المنمق فى تاريخ قريش بتحقيق : خورشيد أحمد فاروق - حيدر أباد الدكن ١٩٦٤ ص ٣٤٤.
- القضاعى ، سِمْط النجوم العوالى . القاهرة ١٣٨٠ هـ ، جـ ١/ ١٨٣.

ومن انضم إليه من قوم أخيه رزاح بن ربيعة العذرى من احتلال مكة وإخراج خزاعة منها ، ودخلت بطون كعب وعامر مكة واستقرت بداخلها أى ببطائحها . فسموا الأبطحيون ، وانضم إليهم من حالفهم ودخل معهم من بنى عذرة القضاعيين . وبطون كعب وعامر بن لؤى كانت إذ ذاك كثيرة ، فهى تشمل بنى مرة وبنى هُصَيص وبنى عَدى أبناء كعب بن لؤى ، وبنى كلاب بن مرة (رهط قصى) بنى سُرير وبنى القلمس وبنى تيم بن مرة وبنى يقظة بن مرة وهم مخزوم.

ويضاف إليهم بنو زهرة بن كلاب أبناء عم قصى بن كلاب. وأراد قصى أن يُكَثِّر جَمْعه فاستدعى إلى مكة بنى فهر بن مالك بن النضر ، وهم فروع فهر بن مالك بن النضر التى احتفظت باسم فهر ، وهم :

بنو الحارث وبنو محارب بن فهر وفروعهم .

وبنو محارب وبنو الحارث هم أبناء فهر بن مالك بن النضر.

وبنو تيم بن غالب وهو تيم الأدرم ، وبنو خزيمة وبنو سعد وهم بُنانة ، وبنو الحارث بن لؤى .

وهؤلاء هم قريش الظواهر الذين يطلق عليهم فى مجموعهم اسم فهر.

وقد نزل هؤلاء حول مكة وظلوا بدواً فى مجموعهم وإن كانوا حلفاء لقريش وجزءاً منها ، فالفهريون جميعاً قرشيون ، ولكن القرشيين ليسوا فهريين إلاَّ من ناحية انحدارهم من فهر بن مالك. ولكن هذا الفريق من بنى النضر بن خزيمة بدأ انفصاله بنسبه وتسميته بقريش من أيام النضر بنفسه ، وإن كان الانفصال قد حدث فى أيام فهر بن مالك. ولزم اسم قريش لؤى بن غالب وخاصة فَرْعَاه كعب وعامر.

ويبدو أن الحرب بين قصى ومن معه من قريش ، ومن بنى عُذرة القضاعيين من ناحية والخزاعيين من ناحية أخرى كانت - طويلة عنيفة ، قال اليعقوبى : فاقتتلوا قتالاً شديداً بالأبطح (أى ببطحاء مكة) حتى كثرت القتلى فى الفريقين ثم تداعوا إلى الصلح ، وأن يَحْكُم بينهم رجل من العرب فيما اختلفوا فيه ، فحكَّموا يعمر بن كعب ابن ليث بن بكر بن كنانة فقضى بينهم بأن قصياً أولى بالبيت وأمْر مكة من خزاعة ،

وأنَّ كلّ دم أصابه قصى من خزاعة وبنى بكر موضوع يَشْدخه تحت قدميه ، وإن ما أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش ففيه الدية ، فودوا خمساً وعشرين بَدَنة وثلاثين خرجاً [1]. وأن يُخَلُّوا ما بين قصى والبيت ومكة ، فسمى يَعْمُر الشداخ [2].

وهذا حكم فى غاية القسوة على خزاعة ، مما يدل على أنها غُلِبت فى الحرب فكان عليها أن تترك مكة وتتحمل الغُرْم كله. والغريب أن يصدر هذا الحكم من كنانى من بنى كعب بن ليث بن بكر بن خزاعة ، لأننا سنرى بعد ، أن بنى كعب كانوا من ألدّ أعداء بنى هاشم بن عبد مناف وهم قادة قريش .

وكان قصى رجل سياسة وحرب ، فعرف بعد انتصاره كيف يستفيد منه فاحتل مكة بقومه واتخذها منزلاً وكان الخزاعيون ومَنْ قَبْلَهم لا يسكنون مكة بل يكونون فيها بالنهار فقط ، أما فى الليل فيكونون فى خيامهم . قال اليعقوبى : «ولم يكن بمكة بيت (كذا فى الأصل، والأصح: مبيت) ، وإنما كانوا يكونون بها نهاراً . فإذا أمسوا خرجوا ، فلما جمع قصى قريشاً – وكان أدهى مَنْ رُؤِى – من العرب – أنزل قريشاً الحَرم ، وجَمَعهم ليلاً ، وأصبح بهم حول الكعبة فمشت إليه أشراف كنانة وقالوا : إن هذا عظيم عند العرب ولو تركناك ما تَركتك العرب ، فقال : والله ما أُخرج منه فثبت» [3].

ومعنى هذه الرواية – إذا صدقت – أن قصياً وقومه كانوا أول من اتخذ بكة ومكة من حولها سكناً ومقاماً ، وليس ذلك بِمُستغرب لأن المكان لم يكن به من عيون الماء شىء ، وقُصى كما سنرى أوتى مَلَكة التعرُّف على مواقع الآبار ، وهى ملكة توجد فى بعض الناس ، وخاصة أهل المناطق الجافة . وسنرى أن قصياً كشف مواقع آبار فى موضع مكة ، ولكن حفيده عبد المطلب سيكون أكبر منه ملكة فى هذا الشأن فيكشف موقع زمزم وغيرها ، وجدير بالذكر هنا أن التعرف على مواضع الماء كان من الصفات التى تؤهل الرجل ليسود قومه إذا كان من طلاب السيادة والرياسة .

---

(١) فى الأصل : حرجاً وهو تصحيف والأصح : خرج كما أثبتناه ويراد به وعاء يوضع فيه الطعام.

(٢) اليعقوبى : تاريخ ١/ ٢٣٨.

(٣) اليعقوبى ، تاريخ : ١/ ٢٣٨ – ٢٣٩.

ثم يقول اليعقوبى – ونحن نتابع هنا روايته لأنها مختصرة جامعة للكثير مما يتفرق فى المطولات – : « وحضر الحج ، فقال لقريش : لقد حضر الحج ، وقد سَمِعَت العرب ما صنعتم وهم لكم مُعظِّمون ولا أعلم مَكرَمة عند العرب أعظم من الطعام فليُخرِج كل رجل من ماله خرجاً ، ففعلوا ، فجمع من ذلك شيئاً كثيراً . فلما جاء أوائل الحج نحر على كل طريق من طرق مكة[1] جَزوراً ، ونحر بمكة ، وجعل حظيرة ، فجعل فيها الطعام من الخبز واللحم وسقى الماء واللبن ، وغدا على البيت فجعل له مفتاحاً وحَجَبه وحال بين خزاعة وبينه ، فثبت البيت فى يد قصى ثم بنى داره بمكة ، وهى أول دار بُنِيت بمكة ، وهى دار الندوة »[2].

وهذه العبارة حافلة بالمعانى ، وهى تصور لنا الخطوات الكبيرة الحاسمة التى قام بها هذا الرجل الطموح البعيد النظر لبناء مجد قريش وعمران مكة ، فقد كان موضع مكة غير مسكون أو مسكوناً بقليل من الناس ، فعمَّره قصى بقومه ولا شك فى أنه كان هناك بعض السكان فى الموضع ، ولكن قصة هاجر بعد ميلاد ابنها إسماعيل هناك تدل على أن الموضع كان شبه مهجور ، وأن الناس كانوا لا يُلمون به إلاَّ نهاراً للتبرك بالحجر الأسود ، وكانوا لا يلمون به كل يوم بل فى بعض الأيام بدليل أن هاجر عندما سعت بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء لابنها إسماعيل لم تجد إنساناً يهب لِعَوْنِها .

وفى أول الأمر كانت بئر زمزم معروفة ، ولكننا سنرى فى تاريخ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى أن الجرهميين طَمُّوا البئر قبل خروجهم . ويُفهم من قولهم أن قصياً أطعم الطعام وسقى الماء للحجاج أنه وجد مواضع للآبار. وكانت فكرته فى تقديم الطعام للحاج فكرة ذكية اجتذبت الناس للحج إلى البيت ببكة ومكة .

وسنرى بعد قليل أن حاج البيت عندما يَكْثُرون سيقوم قصى بهدم بنائه القديم وبناء مبنى جديد . وعندما تمكن قصى من مكة حال بين خزاعة ودخولها إلا بإذنه وإذن قريش وبنى لنفسه فيها داراً وأنشأ دار الندوة لكى يتشاور فيها مع قومه فيها

(١) المراد على كل طريق من الطرق المؤدية إلى مكة .
(٢) اليعقوبى ، تاريخ :١/ ٢٣٩ .

أهمهم من الأمور ، وسنرى عند كلامنا على الأحابيش أن عبد مناف بن قصى سيخطو خطوة أخرى كبيرة لتدعيم مركز قريش فى مكة.

ويُفهم من رواية اليعقوبى أن قصياً بعد أن تمكن من أمر مكة اتجه إلى استئلاف خزاعة التى اتخذت مساكنها شمالى مكة وأخذت تمتد على الطريق منها إلى المدينة فتزوج حُبَّى بنت حُلَيل بن حُبْشية سيد خزاعة ، فكان هذا أول الارتباط بين قريش وخزاعة بعد الذى كان بينهم من الحرب . وقبل أن يموت حُلَيِّل أقر لقصى برياسة مكة وحجابة البيت ، وحُبَّى أنجبت لقصى أبناءه الأربعة الكبار عبد مناف وعبد الدار وعبد العُزَّى وعبد قصى .

ولبعض المؤرخين رواية أخرى قصصية الطابع ، نذكرها هنا لمجرد الإحاطة بها ، لا لأننا نفضلها على الرواية التاريخية التى نُتابعها الآن . وقد أوردها اليعقوبى أيضاً وقال: إن قصياً لما تزوج حُبَّى بنت حُلَيِّل بن حُبْشية الخزاعى وولدت له أولاده الأربعة الذين ذكرناهم « دفع حُلَيِّل بن حبشية المفتاح إلى أبى غبشان وهو سليمان بن عمرو بن بوَى بن ملكان بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر الخزاعى فاشتراه قُصى منه وولاية البيت بزقٍّ وقعود (ناقة عجوز) فقيل : أخسر (أو أخس) من صفقة أبى غبشان ، ووثبت خزاعة فقالت : لا نرضى بما صنع أبو غُبشان ، فوقعت بينهم الحرب ، فقال بعضهم :

أبو غُبْشانَ أظلَمُ من قُصَى وأظلمُ مِنْ بنى فِهْرٍ خُزَاعَه

فلا تُلْحوا قُصياً فى شِرَاهُ ولوموا شَيْخَكُم إذْ كَانَ بَاعَه[1]

ويوجز اليعقوبى بعد ذلك أهم أعمال قُصى ، وسنوجزها فيما يلى من كلامه :

١ - أن قُصياً ساد مكة وحكمها وتولى أمر البطون التى أيدته وأنزلها فى بطن مكة أو بطحائها فعُرفت هذه البطون بالأبطحيين أو قريش البطاح ، وكانوا متفرقين فى رؤوس الجبال ، فقسم بطن مكة على تلك البطون أرباعاً ، ولهذا سمى قصى بالمُجَمِّع . وقريش البطاح كما قلنا هى بطون كنانة التى استمر فيها نسب قريش ومعظمها بطون كعب بن لؤى ، وأهمها هنا :

(١) اليعقوبى ، تاريخ : ١/ ٣٤٠ .

١ - كعب بن لؤى

٢- عامر بن لؤى

٣- مرة بن كعب

٤- هُصَيْص بن كعب بفرعيهم

٥- سهم بن هُصَيْص

٦- وجمح بن هُصَيْص

٧- تَيْم بن مُرة

٨- يقظة بن مرة ، وهم مخزوم

البطون والبيوت التى انحدرت من قصى ، وهى :

٩- بنو عبد مناف بن قصى

١٠- بنو عبد الدار بن قصى

١١- بنو عبد العزى بن قصى

١٢- بنو عبد بن قصى

١٣- ثم بنو زُهرة بن قصى ومن تفرع عنهم ، وهم :

١٤- بنو عبد الحارث بن زهرة

١٥- بنو عبد مناف بن زهرة بفرعيهم : وهب بن عبد مناف بن زهرة ، ووهب بن عبد بنو مناف بن زهرة .

ومن عبد مناف بن قريش يتفرع :

١٦- بنو هاشم بن عبد مناف

١٧- بنو المطلب بن عبد مناف

١٨- بنو عبد شمس بن عبد مناف

١٩- بنو نوفل بن عبد مناف

وفى أيام قُصى اقتصرت قريش البطاح على البطون من ١ إلى ١٩ وانضمت إلى قريش البطاح بيوت بنى ضنّة من بنى عذرة ، وهم قوم حرام بن ربيعة بن ضِنّة أخى قصى لأمه .

ولكن هؤلاء ذابوا فى جماعة قريش البطاح ، ولا بد أنه اندرج فى قريش البطاح من بقى فى مكة من جُرهم ومن خزاعة ، وسنرى فيها بعد أن بقايا قوية من هؤلاء وأولئك ظلوا أقوياء فى مكة ، وسيكون لهم دور فى تاريخ قريش ومكة .

وعلى نداء قصى أقبلت بقية فروع كنانة التى انحدرت عن فهر وظلت تحمل النسبة الفهرية وهؤلاء هم :

١- بنو محارب بن فهر

٢- بنو الحارث بن فهر

٣- بنو تيم بن غالب وهو تيم الأدرم

٤- بعض بنى عامر بن لؤى

وهؤلاء هم قريش الظواهر ، وقد ظلوا بدواً فى حين أن قريش البطاح أصبحوا أنصاف بدو أو أنصاف حضر Semi - Sedentaries مع الزمن .

٢- أن قُصياً بعد أن استقر بقومه من قريش البطاح ببطن مكة . بنى لنفسه فى بطن مكة بيتاً وتبعه بقية بيوت قريش البطاح فبنوا البيوت ، فانتهى بذلك عصر البداوة فى تاريخهم .

وكان بطن مكة كثير الشجر القصير مثل العِضَاه والطّرفاء والإذخر ، وكان الناس يتحاشون قطعه ، فبدأ قُصى فقطع الشجر بيده ، وتبعه الناس فاتسع العمران بمكة . قال اليعقوبى : وكانت قريش قبلُ متفرقةَ الدار قليلةَ العز ذليلَة البقاع ، حتى جمع الله ألفتها وأكرم دارها وأعز مثواها وقسمها بين قريش .

٣ - فلما استقر السلطان لقصى فى مكة ، واستقامت له الأمور ونفى خزاعة ، هدم البيت ، ثم بناه بنياناً لم يبنه أحد قبله . وكان طول جدرانه تسعة أذرع ، فجعله ثمانية عشر ذراعاً ، وسَقفها بخشب الدَّوم وجريد النخل .

٤ - وبنى دار الندوة . وكان لا ينكِح رجل من قريش ولا يتشاورون فى أمر ، ولا يعقدون لِواء للحرب ، ولا يُعَزِّرون غلاماً إلا فى دار الندوة.

٥ - وكانت قريش فى حياته وبعد وفاته ، يرون أمره كالدين المتبع.

٦ - وكان أول من حفر بمكة بعد إسماعيل بن إبراهيم ، فحُفر «العجول» فى أيام حياته وبعد وفاته ، ويقال : إنها فى دار أم هانىء بنت أبى طالب.

٧ - وكان قصى أول من سمى الدابة الفرس ، وكانت له دابة يقال لها العقاب بالسوداء.

٨ - وكان لقصى من الولد :

عبد مناف ، وكان يُدْعى القَمَر أو هو السيد الفهر . واسمه المغيرة .

وعبد الدار

وعبد العُزَّى

وعبد قُصَى

ويقال : إن قصياً قال : سَمَّيْتُ اثنين بإلهى ، وآخر بدارى ، وآخر بنفسى.

٩ - وقسم قصى بين ولده :

فجعل السقاية والرئاسة لعبد مناف

والدار لعبد الدار

والرِّفادة لعبد العُزَّى

وحافتى الوادى لعبد قصى

١٠ - وقال قصى لولده : من عظَّم لئيماً شاركه فى لؤمه ، ومن استحسن مستقبحاً شركه فيه ، ومن لم تصلحه كرامتكم فداووه بهوانه ، فالدواء يحسم الداء .

١١ - ومات قصى فدُفِن بالحَجُون [١].

---

(١) اليعقوبى ، تاريخ : ١/ ٢٤٠ - ٢٤١.
وانظر نص الطبرى : ٢ / ٢٥٤ وما يليها .

وقد أتيت هنا برواية اليعقوبى عن أعمال قصى ، لأنها تجمع أهم أعماله فى إيجاز وسأضيف عند دراسة هذا النص أهم ما نجد فى مراجعنا الأخرى.

والحق أن الأعمال التى قام بها قُصى هى الأساس الذى قام عليه مجد قريش ومكة بعد ذلك ، فقد كان قائداً عسكرياً وسياسياً ومفكراً بعيد الغور، وكان إلى جانب ذلك يتميز بميزة اكتشاف مواضع الآبار ، وكان رجل تنظيم وإدارة.

وقد أشرنا إلى أن قُصَياً استعان ببعض بطون قضاعة ، وخاصة من بنى عذرة على ما طلب من الاستيلاء على مكة ، والطبرى يؤيد ذلك ولكنه يقول هنا : إن قصياً عندما أراد دخول مكة دخلها ببنى النضر جميعاً وأحياء من قضاعة (هم من بنى عذرة) والذى نعرفه أن الذين دخلوا مع قصى كانوا القرشيين من بنى النضر ، أما الفهريون فقد أتوا بعد ذلك وأصبحوا قريش الظواهر . ويكرر الطبرى حكاية بيع أبى غبشان لمفتاح الكعبة وهو سليم بن عمرو بن بُوى بن ملكان بن أفصى بن عامر ابن أفصى بن قمعة بن إلياس بن مضر . وسنرى فى كلامنا على خزاعة أن أبا غبشان خزاعى ، فالقول بأنه من بنى أفصى ربط مفتعل لخزاعة إلى شجرة نسب إلياس بن مضر ، وهى الشجرة التى انحدرت منها قريش . والحقيقة أن خزاعة مركبة الأصل كما رأينا ، وعامة النسَّابين يجعلونها من اليمن ، وواضح أن حكاية بيع أبى غبشان مفتاح البيت بزقٍّ خمر وقَعُود ، رواية فيها إزراء بخزاعة وإظهار لامتياز قريش عليها . ويردد الطبرى ذلك البيت الذى نجده فى كل المراجع فى تسمية قصى بالمُجَمِّع :

أبوكُم قُصَى كَانَ يُدْعى مُجَمِّعا به جمعَ اللهُ القبائلَ مِنْ فِهْرِ

والمراد بفهر هنا بقية بطون قريش من غير أبناء لؤى بن غالب .

ويذكر الطبرى هنا حكاية قبيلة صوفة التى كانت تشرف على مناسك الحج وتسىء معاملة الحجيج . وحكاية صوفة هذه كلها أسطورة ، لأن صوفة فيما يقول النسابة هم بنو مُرّ بن أُد بن طابخة ، وطابخة هو مر بن أُد بن إلياس بن مضر ، ومن بنى مر بن أُد قبائل كثيرة منها تميم ، ولا ندرى ما الذى أتى بطابخة أى مر بن أُد بن إلياس بن مضر هنا ، مع أن المضرية لم يعرفوا مكة إلا على يد قصى – من أبناء النضر

الذى نتحدث عنه . ومن الغريب أن كل مراجعنا تقبل هذه الأسطورة ، بل إن ابن حزم يضيف هنا : « وأما صوفة فإنهم كانوا يجيزون بالحاج ، لا يجوز أحد حتى يجوز والى ذلك منهم ثم انقرضوا عن آخرهم فى الجاهلية فورث ذلك آلُ صفوان بن شجنة من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم »[١] .

وهذه حكاية مخترعة أيضاً ، ويطول بنا الأمر لو مضينا نناقش أقوال النسابة ، ومن المؤكد أن مناسك الحج لم تنتظم على النحو الذى عرفه الجاهليون إلا على أيدى القرشيين ابتداء من قصى . بل إن عبد المطلب هو الذى سيحدد بصفة دقيقة مناسك الحج فى الجاهلية كما سنرى[٢] ، أما قبل قصى فلم يكن لأى قرشى أو كنانى أو عدنانى أيُّ دور فى تاريخ الحج.

ويقول الطبرى فى روايته : إن قصياً وأحلافه من كنانة وقضاعة تخيروا وقت الحج للهجوم ، فعندما اشتد تعسف رجال قبيلة صوفة فى تقديم أنفسهم على الناس فى النفر وبلغ ضيق الناس مداه انقض قصى ومن معه وغلب صوفة على المناسك وانتزعها لنفسه وعندما رأت خزاعة وبنو بكر بن عبد مناة (من كنانة) توجسوا أن يحول بينهم وبين الكعبة ، فبادؤوه الحرب التى انتهت بتحكيم يعمر بن عوف «من بنى كعب بن ليث بن بكر بن عبد مناة» الذى عُرِف بالشداخ ، فحكم لقصى على ما رويناه [٣].

بذلك أصبح قصى سيد مكة ودخل البلد فى ولاية قريش ، وكان قصى رجلاً ذكياً فاتجه بعد نصره إلى استئلاف القبائل الضاربة حول مكة . قال ابن إسحاق برواية الطبرى «فأقام قصى بمكة على شرفه ومنزلته فى قومه ، لا يُنازَع فى شىء من أمر مكة إلا أنه قد أقر للعرب فى شأن حِجِّهم ما كانوا عليه ، وذلك لأنه كان يراه ديناً على نفسه لا ينبغى تغييره .

---

(١) ابن حزم ، الجمهرة : ٢٠٦ .

(٢) J. Wellhausen, Reste arabische Heidentums, p. 68. Snouck Hurgronje, Net mekkanische Feest, Leiden 1880.

(٣) الطبرى ، تاريخ : ٢ / ٢٥٨.

- وكانت صوفة على ما كانت عليه حتى انقرضت صوفة ، فصار ذلك من أمرهم إلى صفوان بن الحارث بن شحنة وراثةً .

- وكانت عدوان على ما كانت عليه (وعدوان من قيس بن عيلان) .

- وكانت النسأة من بنى مالك بن كنانة على ما كانوا عليه.

- ومرة بن عوف على ما كانوا عليه .

- فلم يزالوا على ذلك حتى قام الإسلام ، فهدم الله به ذلك كله»[1].

ثم يذكر ابن إسحاق إنشاء قصى لدار الندوة ، ومن سياق الكلام نفهم أن دار الندوة والمشاركة فيها لم تكن قاصرة على أنصار قصى من القرشيين والقضاعيين وبنى كنانة ، بل اشترك فيها الجميع ، فكان شيوخ قبائل الموضع جميعاً يلتقون فيها للتشاور واتخاذ ما يرون من الرأى.

ويحكى ابن إسحاق عند الطبرى أيضاً كيف أن قصياً عندما كبرت سِنُّه رأى أن بِكْرَ ولده وهو عبد الدار لا يصلح لوراثة مركزه وأنه كان يفضل عليه ابنه عبد مناف فاختاره لوراثته ولكنه عوَّض عبد الدار خيراً فأعطاه مظاهر الديانة فجعل إليه مفتاح الكعبة وجعل له اللواء فى الحرب والسقاية والرفادة ، وجعله رئيس دار الندوة . ومعنى ذلك أن عبد الدار بن قصى أصبح بعد قصى شيخاً شرفياً للجماعة فى حين أن السلطان الفعلى صار لعبد مناف ، وهذا أيضاً دليل على ذكاء قصى وبُعْد نظره السياسى.

وإذن : فهذا الرجل قصى بن كلاب هو الذى وضع أساس نبوة قريش ومكانتها ، فهو الذى أقرها فى مكة ونقلها من البداوة إلى الحضارة والاستقرار ، ووضع لها من عنده نظاماً شورياً فيه إنصاف للقبائل جميعاً ، وهو كذلك صاحب الفضل فى تنظيم أمور مكة وتقسيمها رباعاً بين بيوت أبنائه وحلفائه ، ومن أكبر فضائله تلك الشورية التى سار عليها وانفرد بها من بين رؤساء العرب قبل الإسلام وتميزت بها قريش عن الكثير من زعماء العرب بعد الإسلام.

---

(١) الطبرى ، تاريخ : ٢ / ٢٥٩.

وسنرى أن كل عمل من أعمال قصى سيتممه ويكمله واحد من خلفائه ، وسنرى فى المهاية أن قريشاً أقام بناءها قبل رسول الله ﷺ أربعة رجال : رجل سياسة وحرب وتنظيم وهو قصى ، ورجل سياسة وتنظيم وسلام وهو عبد مناف ، ورجل تجارة ومال هو هاشم بن عبد مناف ، ورجل دين واتجاه روحى غالب هو عبد المطلب بن هاشم.

عَبد مناف بن قصَىّ

إكمال البنَاء السّياسى والاجتماعى لقريش

بعد أن توفى قصى خلفه فى الرياسة ابنه عبد مناف ، فسار فى طريقه وأكمل ما استطاع من عمله السياسى ، وكان عبد مناف رجل سياسة وتعمير ، فقد انتهت مرحلة الحرب وآن أن يُستكمل العمل عن طريق السياسة والاستئلاف . قال ابن سعد فى طبقاته : «أخبرنا محمد بن هشام بن السائب الكلبى عن أبيه قال : لما هلك قصى بن كلاب قام عبد مناف بن قصى على أمر قصى بعده ، وأمر قريش إليه واختط بمكة رباعاً بعد الذى كان قصى قطع لقومه » [(١)].

ونقرأ عند ابن هشام : « قال ابن إسحاق : ثم إن قصى بن كلاب هلك ، فأقام أمره فى قومه وفى غيرهم بنوه من بعده ، فاختطوا بمكة رباعاً – بعد الذى كان قطع لقومه بها ، فكانوا يُقَطّعونها فى غيرهم من حلفائهم ويبيعونها ، فأقامت على ذلك قريش معهم ، ليس بينهم اختلاف ولا تنازع ، ثم إن بنى عبد مناف بن قصى : عبد شمس وهاشماً والمطلب ونوفلاً أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار بن قُصى مما كان قصى جعل إلى عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، ورأوا أنهم أوْلَى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فى قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف على رأيهم ، يرون أنهم أحق به من بنى عبد الدار لمكانتهم من قومهم . وكانت طائفة مع بنى عبد الدار ، يرون ألا يُنزع منهم ما كان قصى جعل إليهم»[(٢)].

---

(١) طبقات ابن سعد ، القسم الأول ١/ ٤٢.

(٢) ابن هشام ، السيرة : ١ / ١٣٨ .

ويبدو أن قول محمد بن السائب الكلبى أن عبد مناف تولى أمر قريش ومكة بعد أبيه قصى أصح مما يقوله ابن إسحاق من أن أبناء قصى الأربعة تولوا أمر مكة معاً ؛ لأن اليعقوبى يقول إن عبد مناف كان يلقب بالقمر، وهو السيد النهر : وهذه تسميات تدل على أنه كان أعلى من بقية إخوته مكانة . ويؤيد ذلك قول اليعقوبى بعد ذلك: وقَسَّم قصى بين ولده فجعل الرفادة والرياسة (كذا فى الأصل المطبوع وهو تحريف إذ المراد السدانة) والدار لعبد الدار وحافتى الوادى لعبد قصى »[1] وهذه العبارة الأخيرة غير مفهومة فنحن لا نفهم المراد (بحافتى الوادى).

ثم يورد اليعقوبى بعد ذلك خبراً طويلاً نفهم منه كيف أن عبد مناف صار بالفعل رئيس مكة بعد أبيه قصى واجتهد فى إكمال عمله السياسى . قال : «ومات قصى فدفن بالحجون ، ورأس عبد مناف بن قصى، وجَلَّ قدرُه ، وعَظُم شرفُه . ولما كبر أمر عبد مناف ابنه جاءته خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناة (من كنانة) يسألونه الحلف ليعزوا به فعقد معهم الحلف الذى يقال له حلف الأحابيش . وكان مُدبر بنى كنانة الذى سأل عبد مناف عقد الحلف عمرو بن هَلَل بن معيص بن عامر. وكان تحالف الأحابيش على الركن : يقوم رجل من قريش وآخر من الأحابيش، فيضعان أيديهما على الركن، فيحلفان بالله القاتل[2] وحرمة هذا البيت والمقام والركن والشهر الحرام على النصر على الخلق جميعاً ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها[3] ، أو على التعاقد وعلى التعاون على كل من كادهم من الناس جميعاً ما بلَّ بحر صوفه وما قام حرى وتبير ، وما طلعت شمس من مشرقها إلى يوم القيامة[4] . فسمى حلف الأحابيش. فولد عبد مناف بن قصى هاشماً واسمه عمرو .. وعبد شمس والمطلب ونوفلاً وأبا عمرو وحيَّة وتماضِر وأم الأخثم وأم سفيان وهالة وقلاية ، وأمهم جميعاً (إلا نوفلاً وأبا عمرو) عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثة بن سليم، فولدت له هؤلاء ، وهى التى جَرَّت حِلف الأحابيش »[5].

---

(١) اليعقوبى : ١ / ٢٤١ .

(٢) كذا فى الأصل المطبوع ، وهو وصف غير مألوف أو مقبول حتى للآلهة فى الجاهلية .

(٣) هنا معنى إسلامى لم يعرفه الجاهليون ونظن أنه مدسوس.

(٤) اليعقوبى : ١/ ٢٤١.

(٥) اليعقوبى ، تاريخ ١ / ٢٤١ - ٢٤٢ .

وهذه صورة طريفة عن كيفية عقد الأحلاف بين العرب فى الجاهلية . وعن الأحابيش نقرأ عند المصعب الزبيرى فى نسب قريش : «فأما الهُون بن خُزيمة فهم عضل وديش والقارة ، بنو يَثَيع بن الهُون : وهم وبطنان من خزاعة يقال لهما الحيا والمصطلق حلفاء لبنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة وهم كلهم يقال لهم الأحابيش، أحابيش قريش لأن قريشاً حالفت بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة على بكر بن عبد مناة (بن كنانة) ، فهم وأحلافهم حلفاء قريش ، وإياهم عَنِى كعب بن مالك الأنصارى فى قوله فى وقعة أُحُد :

وجِئْنَا إلى مَوْجٍ من البَحْرِ وَسَطه ... أَحَابِيش منهُمْ حَاسِر ومقَنَّع [1]

وإذن : فيكون تكوين الأحابيش كما يلى :

من كنانة : عضل وديش والقارة من بنى الهون بن خزيمة وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة.

من خزاعة : الحيا والمصطلق حلفاء بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة .

وذلك هو بيان موضوع الأحابيش الذى أطال الكلام فيه المستشرق هنرى لامانس فى إحدى دراساته المقذعة المغرضة عن الإسلام والمسلمين ، فقد زعم هذا الرجل أن الأحابيش هم قوة من الأحباش أو السود كانت قريش تستعين بهم فى حربها لعجزها عن القتال وقد اسْحَنْفر[2] هذا الرجل الحاقد وبحث وفحص وخرج برأى دحضه بعد ذلك علماء كثيرون ما بين مسلمين وغير مسلمين . فالأحابيش ليسوا أحباشاً ، وإنما هم بعض قبائل من العرب ومعظمهم من كنانة وخزاعة انضم بعضها إلى بعض وتحالفت للدفاع عن نفسها ، وقد تنضم إليها بطون من بدو تهامة ممن انفصلوا عن قبائلهم ، وهذا تفسير وَصْفهم بأنهم « لا نسب لهم » .

وعندما استقر قُصى بمكة وأقام نظامه على ما بيَّنا ، تمكن ابنه عبد مناف من أن يعقد حلفاً مع أولئك الأحابيش الذين أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم تحبَّش بعضهم

(١) مصعب الزبيرى ، نسب قريش .

(٢) يقال : اسحنفر فى خطبته إذا مضى واتسع فى كلامه .

إلى بعض ، أى تجمعوا ، والأحبوش أو الأحبوشة هى الجماعة من البدو ينضم بعضهم إلى بعض ويكونون قوة واحدة للأمن والإغارة والتعاون ، ولا علاقة لهم بالأحباش أو الحبش أو السود أو الجند المرتزقة[1].

وقد استمر حلف الأحابيش مع قريش - فصار يطلق عليهم أحابيش قريش . وتقرأ فى أخبار الخندق مثلاً أن قريشاً أقبلت مع أحابيشها . وهذا لا يمنع من القول بأن مكة كان فيها أحباش أو حبشة أى سود يفدون إليها من أفريقية ويعيشون فيها ويخدمون أهلها فى أغراض الحرب والسلم . وقد اشتهروا بإجادة الرمى بالقناة أى الحربة الطويلة .

وقد كانت جماعة الأحابيش مكوَّنة قائمة عندما أقام قصى نظامه فى مكة ، ولكن حلف قريش مع الأحابيش على يد عبد مناف أعطى مجموعة الأحابيش شخصية وقيمة وكياناً سياسياً ، فمن الآن فصاعداً نجد الأحابيش يُذْكرون كوحدة سياسية عسكرية قائمة بذاتها ولها رئيس يتكلم باسمها . وسيكون الأحابيش على الجملة إلى جانب قريش لأنها اجتهدت دائماً فى ربط أولئك الأشتات من القبائل البدوية الصغيرة إليها حتى لا يضطرب الأمن فى منطقة مكة ، وسيظل الأحابيش إلى جانب قريش حتى صلح الحديبية فسيكون لرئيسهم شأن فى المحادثات بين رسول الله ﷺ وأهل مكة . ثم سيدخلون فى الإسلام بعد ذلك ويكون لهم دور محمود فى تأييد أبى بكر عند الردة ، وهم مذكورون فى النصوص إلى أيام خلافة معاوية بن أبى سفيان .

ونعود إلى عبارة اليعقوبى التى نناقشها منذ حين فنستنتج منها غير ما ذكرنا ما يلى :

- إن عبد مناف ورث أباه قصياً فى الرياسة وإنه اتجه إلى إكمال عمل أبيه ، فسمح لنفر آخر من بطون قريش الظواهر وغيرها بالاستقرار فى مكة وأعطاهم أحياء من مكة لكى يكثر بهم جمعه ، ومعظم أولئك الداخلين انضم إلى بنى قُصى واندرج مع الزمن فيهم .

---

(١) عن الأحابيش والمناقشة فى أمرهم انظر :

J. Wellhausen , Makka vor Mohammad

H. Lammens, Les Ahabish et L'organisation militaire de La Mecque au siècle de l'hégire . Journal Asiatique, 1916 , pp.425 - 482.

W.Montgameny Watt, Muhammad at Mekka , Excursus A . pp. 154-157 .

- واتجه بعد ذلك إلى استئلاف خزاعة بعد ما كان من حرب قصى معها وإخراجه إياها من مكة ، فاستعاد عبد مناف صداقتها وعقد معها ومع بعض بطون عبد مناة ابن كنانة - من فرع عمرو بن عبد مناة - حلفاً على التعاهد والتظاهر ، وهذا هو حلف الأحابيش .

- واستعان عبد مناف فى ذلك بأمه عاتكة بنت مرة ، وهى من بنى سُليم بن منصور ، مما نستنتج معه أن بعض بنى سليم بن منصور دخلوا فى حلف قريش .

- ووصف لنا اليعقوبى كيف كان العرب فى الجاهلية يعقدون أحلافهم عند الكعبة ، وقد سبق أن علقنا على ذلك .

وخلاصة ذلك أن عبد مناف كان رجل سياسة ، فعرف كيف يستألف من كان أبوه قد عاداه من القبائل ويكسب ودها وخاصة خزاعة وبعض بنى عبد مناة بن كنانة . وعندما مات عبد مناف وخلفه ابنه هاشم كان مركز قريش قد استقر فى مكة وما حولها وأصبحت صاحبة السيادة والرياسة فى تهامة . ولهذا نَعُدُّ عبد مناف من مؤسسى مجد قريش .

هَاشم بن عَبد مناف وَبناء التجَارة المكيّة :

وننتقل الآن إلى الرجل الثالث من بناة مجد قريش وقوتها وهو هاشم بن عبد مناف. ونلاحظ أننا نتابع الآن تطور قبيلة واحدة هى قريش لا كما كان الحال قبلاً عندما كنا نؤرخ للؤى بن غالب أو لغالب بن فهر ، فهناك الأسماء تشير إلى مجموعات قبلية وتفرعاتها والأسماء التى لدينا هى أسماء زعماء هذه المجموعات فنحن عندما نتكلم عن فهر مثلاً كنا نتكلم عن قبيل قديم لا نعرف زمانه على وجه التحديد ، ولهذا فنحن لا نعرف كم من الزمن استلزم بناء مجموعة بنى فهر واستقلالها بنفسها عن بقية كنانة وانفرادها باسم قريش تحت لواء غالب بن فهر ومن انضم إليه من الوحدات القبلية الكنانية مثل : الحارث بن فهر ، ومُحارب بن فهر ، وانفصالها عن بقية فروع مالك بن النضر التى انفردت باسم فهر .

وفى كلام اليعقوبى عن هاشم بن عبد مناف عبارة يمر بها القارىء دون أن يتفطن

إلى معناها ، ولكن قراءة ثانية لها ربما أعطتنا واحداً من الأسباب التى أدت إلى عقد حلف الأحابيش ، قال فى ذكر أولاد عبد مناف : فولد عبد مناف بن قصى هاشماً .... وعبد شمس والمطلب ونوفلاً وأبا عمرو وحَيَّة وتُماضر وأم الأخشم وأم سفيان وهالة وقلابة ، وأمهم جميعاً - إلا نوفلاً وأبا عمرو - عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثة بن سُلَيم ، فولدت له هؤلاء ، وهى التى جَرَّت حلف الأحابيش» [1] .

ومن أسف أن النسخة المطبوعة التى نعتمد عليها تجعل بعد ذلك بياضاً فى الأصل، ولو أن الكلام اكتمل لعرفنا شيئاً جديداً عن ذلك الحلف ، ولكن العبارة التى أوردناها ذات معنى بعيد إذا صح تأويلنا لها : فإن عاتكة المذكورة هنا تنتسب إلى بنى سُلَيم بن منصور من أكبر مجموعات قيس عيلان مضر ، وكانت قبائل قيس عيلان قد بدأت تنفس على بنى عمومتها المنحدرة من إلياس بن مضر ما وصلت إليه من قوة واستقرار فى الحجاز بعد استيلاء قصى على مكة ، فبدأت بعض فروعها تتسلل إلى الحجاز من الشرق ، وصاهر عبد مناف واحدة منها هى بنو سليم بن منصور ليكسبها إلى جانبه أو ليتقى أذاها ، ولكن بقية قبائل بدو الحجاز شعرت بالخطر وسعت لهذا إلى الارتباط بقريش فكان حلف الأحابيش وآمنت به تلك القبائل الصغيرة ، ولكن العداء والحسد بين عرب قيس عيلان على قريش ظل يتزايد حتى كان سبباً من أسباب حرب الفِجَار كما سنرى .

ولكننا الآن نخرج من عصر الأساطير والقصص الشعبى وندخل فى عصر التاريخ ونؤرخ لقبيلة واحدة هى قريش وزعماؤها وبُناة مجدها وقوتها ، وكل من سيرد ذكره من فروعها إنما هى بيوت أو عائلات لا قبائل كما يفهم البعض من النصوص ، فيقظة بن مرة وهى مجموعة مخزوم - بيت لا قبيلة ، وزُهرة بن كلاب بيت أو عائلة لا قبيلة ، وعبد شمس بن عبد مناف بيت لا قبيلة ، وكذلك هاشم بن عبد مناف ، وهاشم شخصية تاريخية محددة المعالم وكذلك عبد شمس ، وكل منهما رأس بيت أو عائلة من البيوت أو العائلات التى تكوَّنت منها قبيلة قريش التى نؤرخ لها ، ولا بد أن

(١) اليعقوبى ، تاريخ : ١/ ٢٤١ .

ننص على ذلك هنا منعاً للبس وتحاشياً للوقوع فى الخطأ فى فهم تاريخ قريش ، فلا زهرة ولا عبد مناف ولا مخزوم ولا عبد شمس كانت قبائل ، وإنما هى بيوت وعائلات من قريش . وهاشم عندما خلف عبد مناف فى رياسة قريش أصبح رئيساً لهذه البيوت كلها ، ولكن رياسته لم تكن رياسة مُلك أو سلطان أو قوة غالبة بل رياسة تفاهم وائتلاف على المعنى الخاص لرياسات القبائل كما سنحدد ذلك بتفصيل عند كلامنا على عبد المطلب بن هاشم .

ويبدو أن هاشماً لم يصل إلى رياسة قريش بعد عبد مناف دون معارضة بعض إخوته وبعض رؤساء البيوت القرشية الأخرى ، وذلك طبيعى لأن رياسات القبائل لم تكن حقاً لبيت بعينه ، ولا هى كانت تراثاً ، وإنما كان يصل إلى الرياسة من يثبت أنه أحق بها على أساس استعداده للتضحية فى سبيل القبيلة وقدرته على الوفاء بالتزامات الرياسة ومسئوليتها وينبغى أن نذكر هنا أننا نؤرخ لقبيلة لا لدولة ، فهنا مجموع قبلى لا يتميز فيه واحد على واحد إلا بالفضائل القبلية من شجاعة وكرم وعقل وبذل للمال وحكمة وتجربة ، فالرياسة هنا رياسة ترشيح وتأييد لهذا الترشيح ، فلا جيش ولا قوة عسكرية أو حق موروث يؤيد أى مرشح ، فكان الرئيس إذا مات تنافس من يرون أنفسهم جديرين بالرياسة فى إظهار فضائلهم التى أشرنا إلى بعضها ، والقبيلة فى مجموعها تؤيد ترشيح من تراه أهلاً للمسئولية ، ويكون القرار فى دار الندوة ، وليس من الضرورى هنا أن نفترض انتخاباً أو تصويتاً ، بل الذى يحدث هو أن واحداً من المرشحين أنفسهم يتفوق على أقرانه ويفوز بأكبر قدر من التأييد فى مكة كلها ، ثم يكون اجتماع رَأْى الرؤساء على الفائز فى دار الندوة ، وعلى الفائز بعد ذلك أن يستمر فى إظهار فضائله وإثبات أنه جدير بالرياسة فعلاً .

شىء من هذا حدث عندما مات عبد مناف ، إذ تطلع للرياسة عدد ممن رأوا أنفسهم أهلاً للمسئولية من رؤساء البيوت ، وهنا نجد اثنين من إخوة هاشم هما عبد شمس والمطلب يقفان مع أخيهما هاشم ويشدان من أزره فى وجه غيره من المنافسين . ومن هنا كانت رياسة هاشم قد تمت بتأييد قوى من أخويه المطلب وعبد شمس . فأما المطلب فقد وقف هو وبيته إلى جانب بيت هاشم إلى أن جاء الإسلام وبعده ، ورسول

الله ﷺ كان إذا جاء ذكر بيت المطلب شبَّك أصابعه وقال ما معناه : نحن - يقصد بنى هاشم وبنى المطلب - يد واحدة .

وأما عبد شمس فقد وقف بقوته كلها إلى جانب أخيه هاشم ، ولا صحة لما تزعمه المراجع من أن العداوة بين هاشم وعبد شمس بدأت منذ ميلادهما وصباهما ، بل قبل الميلاد ، فتذكر المراجع أن هاشماً وعبد شمس كانا توأمين وأنهما نزلا من بطن أمهما وأصبع أحدهما ملتصقة بجبهة الآخر أو بكعبه ، وكان لا بد من الفصل بينهما بالسيف أو السلاح . فكان هذا أول دم سال بين بنى هاشم وعبد شمس . فهذا نظر رجعى أى رجعة بشىء ظهر بعد الإسلام إلى ما قبله والتماس أصوله هناك . فالحقيقة أن العداوة بين هاشم وعبد شمس ظهرت بعض الشىء بعد بعثة محمد ﷺ ثم تأكدت فى وقعة بدر كما سنرى ؛ أما قبل ذلك فقد كان هاشم وأخواه عبد شمس والمطلب يداً واحدة. ويؤيد هذا الرأى قول الطبرى : وحُدِّثْتُ عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه قال : كان هاشم وعبد شمس - وهو أكبر ولد عبد مناف - والمطلب - وكان أصغرهم - أمهم عاتكة بنت مرة السُّلمية - ونوفل - وأمه واقدة - بنى عبد مناف - فسادوا بعد أبيهم جميعاً ، وكان يقال لهم المُجيرُون ، قال : ويُقال فيهم :

يَـا أيهـا الـرجُـلُ المحـوِّلُ رَحْـلَـهُ ألاَّ نَـزَلتَ بـــدارِ عبـدِ مَنَـاف[1]

أما الذى ميَّز هاشماً وقدَّمه على إخوته للرياسة ، فكان تفطُّنه إلى أهمية الناحية التجارية بالنسبة لمكة ، وقد فَصَّل أمر ذلك نفر من مؤرخينا أوضحهم فى هذا المعنى اليعقوبى ، وسأورد هنا عبارته على تواليها لأهميتها وأقسمها إلى فقرات حتى يسهل الاستدلال بفقراتها واستخراج كل مغازيها التاريخية ، قال :

١ - وشَرُف هاشم بعد أبيه ، وجلَّ أمره ، واصطلحت قريش على أن يتولى هاشم بن عبد مناف الرئاسة والسقاية والرفادة ، فكان إذا حضر الحج قام فى قريش خطيباً فقال : يا معشر قريش ، أنتم جيران الله وأهل بيته الحرام ، وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله معظِّمون حرمة بيته ، فهم أضياف الله ، وأحق الضيف بالكرامة

---

(١) هذا البيت هو الذى جعلنا نقرأ لفظ المجيرين الوارد فى العبارة السابقة على هذا النحو . وقد قرأها وشكلها أبو الفضل إبراهيم : المُجِبِّرين ، ولا يتفق هذا مع معنى البيت .

ضيفه[1]، وقد ميزكم (فى الأصل المطبوع خيركم) الله بذلك ، وأكرمكم به ، ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزواره ، فإنهم يأتون شُعثاً غُبراً من كل بلد على ضوامر كالقداح ، وقد أعيوا ونَفِلوا وقملوا وأرملوا ، فاقروهم واغنوهم » وكانت قريش تُرافِد على ذلك .

٢- وكان هاشم يُخرج مالاً كثيراً ، ويأمر بحياض من أدم ، فتُجعل فى موضع زمزم ثم يسقى فيها من الآبار التى بمكة ، فيشرب منها الحاج ، وكان يطعمهم بمكة ومنى وعَرفة وجَمْع . وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق ويحمل لهم المياه ، حتى يتفرق الناس إلى بلادهم ، فسمى هاشماً .

٣- وكان أول من سن الرحلتين : رحلة الشتاء إلى الشام ، ورحلة الصيف إلى الحبشة، إلى النجاشى . وذلك أن تجارة قريش [كانت] لا تعدو مكة ، فكانوا فى ضيق ، حتى ركب هاشم ، فنزل ببصرى ، فكان يذبح فى كل يوم شاة ، ويضع جفنة بين يديه ، ويدعو من حواليه .

وكان من أحسن الناس وأجملهم ، فذكر لقيصر ، فأرسل إليه ، فلما رآه وسمع كلامه أعجبه ، وجعل يرسل إليه ، فقام له هاشم ، فقال له : أيها الملك : إن لى قوماً ، وهم تجار العرب ، فتكتب لهم كتاباً يؤمّنهم ويؤمّن تجارتهم حتى يأتوا بها يستطرف من أدم الحجاز وثيابه . ففعل ذلك قيصر وانصرف هاشم ، فجعل كلما مر بحىٍّ من العرب أخذ من أشرافه الإيلاف أن يأمنوا عندهم وفى أرضهم ، فأخذوا الإيلاف من مكة والشام (الأصح : من مكة إلى الشام) .

٤- وخرج[2] هاشم بتجارات عظيمة يريد الشام ، فجعل يمر بأشراف العرب فيحمل لهم التجارات ، ولا يلزمها لها مؤونة حتى صار إلى غزة فمات بها .

٥- ولما هلك هاشم بن عبد مناف جزعت قريش وخافت أن تغلبها العرب ، فخرج عبد شمس إلى النجاشى ملك الحبشة ، فجدد بينه وبينه العهد ، ثم انصرف ، ولم يلبث أن مات بمكة ودُفِن بالحجون .

وخرج نوفل إلى العراق ، وأخذ عهداً من كسرى ، ثم أقبل بموضع يقال له سلمان.

---

(١) يريد ضيف الله .

(٢) تركت قبل ذلك فقرة طويلة من القصص الشعبى قليلة المحصلة التاريخية .

٦- وقام بأمر مكة المطلب بن عبد مناف[١].

فأما الفقرة الأولى من هذه العبارة ففيها إسراف فى تقدير هاشم ومبالغة فى تعظيم هيئته ، وهى مثال للنظرة الرجعية إلى التاريخ أى النظرة إلى ما مضى من الأحداث ومن الرجال على ضوء ما كان فيها بعد ، فاليعقوبى هنا يصور هاشماً على ضوء ما كان من ظهور محمد رسول الله ﷺ من أعقابه ، فهو يبالغ فى تجميله وتعظيم هيئته ، ولعله أراد بذلك أن يرضى غرور حلفاء بنى العباس - وهم هواشم - ولكننا نكتفى بخلاصتها ، وهى أن هاشماً تنبه إلى أهمية مكة ووُجود الكعبة فيها ، فحفز قومه على اجتذاب الناس إليها ، ولا يجتذب الناس فى تلك العصور شىء فى جزيرة العرب مثل الطعام والماء ، فحض قومه على بذل أقصى ما يستطيعون من الأموال وحسن اللقاء والضيافة لمن يفد على مكة من زوار الكعبة ، وليس معنى ذلك - بالضرورة - أنه فعل المكارم التى يذكرها اليعقوبى ، ولكن يكفى أن يعرف الناس أنهم إذا قدموا مكة وجدوا شيئاً من زاد وماء وقِرى حتى يتوافدوا عليها .

وقد سبقه أبوه عبد مناف وجدُّه قصى إلى ذلك ، ولكنه هو الذى وجه همه بصفة خاصة إلى اجتذاب الناس إلى مكة ، ومن الطبيعى ألا يفد الناس صفر اليدين ، بل كانت العادة أن يقبل كل وافد بما عنده من أدم أو تمر أو صوف أو ماشية أو خيل فيكون هناك تبادل وتقوم تجارة ويكون المكيون أصحاب السوق وأكبر المفيدين منه ، خاصة وأن تعظيم الكعبة كان يضفى على منطقة مكة أمناً يشجع الناس على الوفود إليها .

والفقرة الثانية تُفصِّل أمر ما كانت قريش - بتوجيه من هاشم - تقدمه للوافدين عليها ، ومن الممكن أن تكون أصناف الطعام التى يذكرها مثل الخبز واللحم والسمن والسويق وهو الدقيق تقدم لسادات العرب عند وفودهم أو حضورهم الطعام فى بيوت هاشم وغيره من القرشيين .

والفقرة الثالثة هى التى تهمنا هنا فى المكان الأول ، فهى تقول إن هاشماً اجتهد فى

---

(١) تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٤٣-٢٤٤ .

توسيع نطاق تجارة مكة والوصول بها إلى الشام ، فإن التجارات كانت تقف عند مكة، وهاشم هو الذى فكر فى الوصول بها إلى الشام ، ولا بد أنه كان قد ذهب إلى بلاد الشام قبل ذلك وعرفها ، ولا بد كذلك أنه أحس أن هناك طلباً على بضائع معينة يستطيع هو وقومه أن يأتوا بها إلى بلاد الشام ، وهذه البضائع لا تقتصر على ما يخرج من الجزيرة مثل الأدم أى : الجلود . والتمور ، والصوف ؛ فإن هذه الأصناف مهما عزت فإن لها بدائل فى بلاد دولة الروم ، فلا بد ، إذن أن تكون الحاجة مست إلى أنواع من البضائع يحتاج إليها الناس فى بلاد دولتى الرومان ثم الروم ولا بد أن تأتيها من بعيد .

وهذه البضائع هى التوابل والعطور والمسك والمُرّ واللبان والحرير مما لا تستغنى عنها الكنائس فى طقوس العبادة ولا يستغنى عنها الملوك وسروات الناس فى حياتهم كالحرير والقطن والأحجار الكريمة والعاج وهو سن الفيل واليشب وهو المعروف باسم Jade وهو يأتى من الصين ، والمرجان والزعفران وما إلى ذلك ، وبعض هذه الأصناف توجد فى بلاد العرب نفسها – فى اليمن خاصة – مثل اللبان والمر ، ولكن الحرير والتوابل والصندل والعود والعنبر والأحجار الكريمة واليشب تأتى من الهند والصين وبحارهما ، أما العاج وبعض التوابل وريش النعام وجلود بعض الحيوانات السمكية فتأتى من بلاد آسيا وإفريقية ، وكذلك العطور والدهون وبعض أصناف الزيوت .

وكان بعض هذه الأصناف يصل إلى مكة ، والباقى يمكن جلبه إليها إذا مست إليه الحاجة وهذه الحاجة هى التى لمسها هاشم فى بلاد الشام وعرف أنه يستطيع موافاة التجار أو رجال الدولة البيزنطية فى الشام بها ، ومن ثم فطن بحسِّه التجارى العملى إلى أنه يستطيع أن يسد هذه الحاجة ، ومن هنا فقد اجتهد فى مداخلة رجال الدولة وكبار التجار لكى يعرض عليهم تزويدهم بما هم بحاجة إليه من هذه البضائع ، فتكلف المظهر العظيم وجعل يذبح كل يوم شاة ويصنع طعاماً حتى يشتهر أمره ويجتذب أنظار رجال الدولة ويكسب احترامهم وثقتهم ، فإن التجارة التى كان يريد أن يعرضها غالية الثمن ، ونَقْلُها يضاعف قيمتها ، فلا بد أن يكون المتعهد بجلبها قادراً على ذلك .

ولا بد أن تكون الظروف قد واتت هاشماً أو دفعته إلى ذلك ، ومن قديم الزمان كان معظم هذه الأشياء يصل إلى بلاد الرومان ثم الروم عن طريق بلاد فارس ، إما عن طريق الطرق التجارية وسط آسيا أو عن طريق البحر وموانىء الخليج الذى كان إذ ذاك يُعرف باسم خليج فارس . وكانت الحروب بين دول الفرس والرومان ثم الروم هى السبب الأكبر فى انقطاع وصول هذه المتاجر إلى بلاد الشام ، وقد حدث هذا أثناء الحروب بين البارثيين والرومان ، ثم تجدد فى أيام الساسانيين ومن عاصرهم من قياصرة الروم البيزنطيين ، وموضع النزاع بين الأخيرين كان التنافس على سيادة بلاد أرمينية شمالى العراق ، وكانت قد دخلت المسيحية وأصبحت بذلك فى نطاق النفوذ البيزنطى ، ثم امتدت المسيحية فى شمالى الشام والعراق فزاد الاحتكاك بين الدولتين وتجددت فرص النزاع ، لأن الفرس لم يدخلوا المسيحية بل عادوها ، خاصة وقد استولى ملوك الساسانيين على أرمينية والموصل واضطهدوا المسيحيين ، وكان ذلك فى عصر الملك سابور الثانى (٣١٠-٣٧٠م) وبهرام الخامس(٤٢٠-٤٣٨م) .

ويزدجرد الثانى (٤٣٨-٤٥٧) وبلغ ذروته فى أيام جستنيان من أباطرة الدولة البيزنطية الذى تجرد لنصرة المسيحية وأنفق فى ذلك معظم أيام حكمه من ٥٢٧ إلى ٥٦٥ ميلادية .

فلا بد إذن أن توقف وصول متاجر الشرق إلى بلاد الدولة البيزنطية قد بدأ أيام سابور الثانى واشتد أيام بهرام الخامس ويزدجرد الثانى ، وخلال حكم هذين الملكين الساسانيين المتعاقبين امتدت الحروب ١٣٥ سنة ، وهنا لابد أن تكون الحاجة قد مست ، إلى بضائع الشرق ، ويمكن القول بأن تلك الحاجة ظهرت بشكل واضح أثناء حكم يزدجرد الثانى (٤٣٨-٤٥٧) ، وفى تلك الفترة يمكن القول بأن هاشماً وصل بلاد الشام وبدأ نشاطه الواسع فى النهوض بالتجارة الملكية .

وهذه الفترة تعدل من سنى حكم ملوك الروم البيزنطيين فترة حكم الامبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠م) ثم مَرْسيان أو مَرْقِيان (٤٥٠-٤٥٧م) وكانت بالفعل فترة اشتعال الحروب بين دولتى الروم والفرس ، فقد كانت هذه الحرب قد

سكنت قليلاً خلال حكم الامبراطور جوفيان الذى عاد إلى المسيحية بعد جوليان المرتد (٣٦٣ - ٣٦٤م) الذى ارتد عن المسيحية وعقد صلحاً مع الفُرس تنازل لهم فيه عن أرمينية .

ولكن الروم زعموا أن الفرس يضطهدون النصرانية فيما خضع لهم من أرمينية ، وثارت الحرب من جديد أيام ثيودوسيوس الثانى الذى ذكرناه . وأعقب ذلك قيام الدولة الأيسورية فى دولة الروم على يد القائد زينون (٤٧٤-٤٧٥ ثم ٤٧٦-٤٩١م) وهى دولة محاربة واصلت الحرب مع الجرمان فى الغرب والفرس فى الشرق ، واستمرت حتى قيام دولة هرقل بن هرقل سنة ٦١٠ ميلادية وهى المعروفة بصراعها الطويل مع الإسلام ، ومن أكبر أباطرة الدولة الأيسورية جستنيان الكبير الذى اشتهر بنصرة المسيحية والحرب الطويلة فى سبيلها على الجبهة الشرقية خاصة .

وإذن : فقد كان الانقطاع الطويل الحاسم للتجارة الشرقية عن الوصول إلى أسواق دولة الروم قد وقع فى الشام خلال النصف الأول من القرن الخامس الميلادى ، وخلال هذه الفترة نستطيع أن نضع حياة هاشم بن عبد مناف وعمله ، لأنه كما رأينا من نص اليعقوبى وجد عندهم قبولاً وترحيباً بما عرض عليهم من إتيانهم لتجارة المشرق : فقال هاشم : أيها الملك إن لى قوماً ، وهم تجار العرب فتكتب لهم كتاباً يُؤَمِّنهم ويُؤَمِّن تجارتهم حتى يأتوا بما يستطرَف من أُدُم الطائف وثيابه ، ففعل قيصر ذلك . وانصرف هاشم فجعل كلما مر بحىٍّ من العرب أخذ من أشرافهم الإيلاف ؛ أن يأمنوا عندهم وفى أرضهم ، فأخذوا الإيلاف من مكة إلى الشام .

وإذن : فقد وجد هاشم الفرصة مواتية ليوسع نطاق تجارة مكة ، فاتفق مع رجال الروم على أن يأتيهم بما تحتاج إليه أسواقهم من بضائع الهند والصين وأفريقية ، وقد ذكرناها فحصل منهم على كتاب يُؤَمِّنهم ويُؤَمِّن تجارتهم ما داموا فى بلاد الروم ،وهذا الكتاب هو فى ذاته إذن لهاشم ومن معه فى دخول أرض الروم وقتما شاءوا ، وهذا الكتاب أو الإذن المكتوب وهو ما يسمى بإذن المرور الآمن Sauf Conduit وإذن المرور Passe - port وتسميه بعض النصوص العربية بالعَصْمِ أو العاصم وجمعه عِصَم أى : ضمان السلامة ، فلما حصل على ذلك الإذن أكمل عمله فصار لا يمر بقبيلة فى الطريق إلا حصل من رجالها على إيلاف أو ضمان أمان وسلامة المرور .

وهذا هو ما تنص عليه الفقرة الرابعة من نص اليعقوبى الذى نحن بصدده : «وخرج هاشم بتجارات عظيمة يريد الشام ، فجعل يمر بأشراف العرب فيحمل لهم التجارات . ولا يُلزِمهم لها مؤونة حتى صار إلى غزة فتوفى بها » وإذن : فالإيلاف اتفاق يتكوَّن من شطرين :

الأول : المرور بأرض القبيلة آمناً من الأذى والمكروه بما معه من تجارة .

الثانى : حمل تجارات القبائل دون أن يلزمها مؤونة أى نفقة ، وهذا الجزء الثانى من الإيلاف أى اتفاق التآلف والمودة والأمن والإلف على أكبر جانب من الأهمية ، ذلك أن القبائل الضاربة فى الصحارى لا تستغنى قط عن الاتصال بالعالم الخارجى ، وإذا هى انقطعت عنه تدهورت وتوحشت ولم تلبث أن تتفكك وتتلاشى .

لأن القبائل البادية - مهما بلغ حجمها وقوتها - لا تستغنى عن أشياء وأدوات حيوية لها ولا يتيسر لها أن تصنعها فى مضاربها ، وأهم هذه الأدوات السيوف والآنية المعدنية وسروج الخيل وآلة ركوبها وماعون الطبخ . فهذه أشياء لا يمكن أن تعيش القبيلة بدونها ويستحيل عليها صنعها فى مضاربها ، ومن أين لها الحديد لصناعة السيوف ، وإذا تيسَّر لها الحديد فكيف تحمِّيه وتطرقه وتصوغه سيفاً باتراً يصلح للقتال ، والسيوف بطبعها بضاعة مستهلكة رغم ما يبدو من متانتها ، فالسيف ليس مجرد قطعة من حديد بل هو مقبض ونصل ذو شفرة أو شفرتين وذباب وهو طرف السيف المدبب ، وهذه كلها تصدأ وتثلم ، ولابد من سَنِّها بين الحين والحين ، ومع توالى السن يتآكل نصل السيف ويخف وزنه وتتناقص صرامته ، ومن هنا فللسيف المستعمل عُمر ، أضف إلى ذلك أن مقبض السيف لا يكون فى العادة من نفس قطعة الحديد ، بل هو يصنع على حدة ثم يثبت المقبض فى النصل . وهذه كلها صناعة ذات فنون لا تتيسر للقبيلة فى مضاربها .

وأما الآنية فإن أمرها ليس أقل شأناً وهى أصعب صناعة من السيوف ، فلا بد للقبيلة من أن تحصل على الآنية والقدور بشتى أنواعها من الخارج ، والآنية كذلك أدوات مستهلكة خصوصاً فى مضارب البدو حيث يوضع الإناء على أثافى الأحجار

ليصنع فيه الطعام ، ثم ينظف بعد ذلك بالحكِّ بالرمل أو الحجارة فيسرع استهلاكه ولا يسلم أن يثقب ، ورمال الصحراء لا تصلح فى الغالب لصنع جرار الفخار ، وآنية الفخار مع ذلك سريعة العطب ، فلا غنى للقبيلة عن الاتصال بالعالم الخارجى للحصول على الآنية .

وأما أدوات ركوب الخيل من قرابيس ومهاميز فعسيرة الصنع على مستوى كبير من الجودة فى الصحراء ، فهى صناعة تتكون من خشب متين ومعدن وأصناف من الجلد والحشو لا تتيسر بسهولة فى الصحراء . ولا ننسى هنا الدروع ، فإن البدو يستطيعون صنع دروع الجلد ، وهى الدرقات ، ولكن كيف يصنعون دروع الحديد وهى تحتاج إلى حدادين مهرة وحديد أو نحاس أو برونز كثير .

فإذا حُرِمت القبيلة من هذه الأشياء فليس هناك ما ينجيها من الهلاك ، قد تستطيع الاكتفاء بغزلها عن الوارد من الأقمشة ، وقد تستطيع العيش إلى ما لا نهاية فى خيام الصوف والجلد ، وقد تستطيع الاعتماد فى غذائها على التمر واللبن واللحم والماء وشىء من الدقيق ، ولكن الحياة فى الصحراء ليست مجرد غذاء وكساء ومأوى . إنها صراع متصل للبقاء ، فليست هناك حياة وإنما نجاة متصلة من الموت أو ما يسمى باسم سيرفايفال Survival وهذا لا يتأتى إلا بالدفاع عن النفس وخوض المعارك بالسيوف والدروع والخيل والحراب والنبال والبيضات ، وليس من الضرورى أن تخوض القبيلة معارك البقاء كل يوم ، ولكن يكفى أن تعرف القبائل الأخرى أن لديها سلاحاً وخيلاً وفرساناً ومقاتلين مستعدين أبداً للطيران إلى ميدان القتال فيتحاشوا العدوان عليها وتأمن على نفسها .

ويكفى أن تعرف القبيلة أن حِماها لا يمكن أن يُنتهك دون قصاص سريع وأن سيوف رجالها بواتر وسواعدهم قوية وضرباتهم مُصْمِية وأن فرسانها لا يُشق لهم غبار لفرط سرعتهم يكفى أن يعرف الناس ذلك حتى تضمن القبيلة سلامتها . ولهذا فإن القبيلة تكسب نصراً اليوم وتعيش عليه دهراً لأن شعراءها لا يزالون يُذكِّرون الناس بسيوف القبيلة وقوتها وانتصارها ، وهذا هو سلاح الفخر وهو امتداد كلامى للقوة العسكرية .

لهذا لا تستغنى القبيلة عن مدد متصل من السيوف والآنية وأدوات ركوب الخيل بما فيها حدوة الحصان ، فإذا انقطعت صلة القبيلة بالعالم الخارجى قَلَّ عتادها من السيوف وآلة الخيل وضعفت عن الدفاع عن نفسها ، ثم يهزل بنيان أبنائها الجسدى بطول الاعتماد على اللبن واللحم والتمر ، فلابد من شىء مطبوخ بين الحين والحين ، واللحم نفسه لا ينضج إلا فى آنية وإلا فإن الاستهلاك منه يصبح عظيم الكلفة إذا اقتصرت معالجة اللحم على الشى ، فلابد من غَلْيه للاستفادة بالمرق وثرد الخبز فيه أو طهو الشعير أو الجشيش أو الدقيق.

وتحصل القبيلة على المدد اللازم من السلاح والآنية من القوافل المارة بأراضيها أو من أى مركز عمران مستقر قريب منها ، وفى الغالب يكون هذا المركز قرية كبيرة أو صغيرة أو واحة ذات سوق دائم أو موسمى يلم به التجار أو طالبو السلع التى لا تصنع فى الصحراء ، ولهذا فلا غنى للقبيلة عن طريقة للاتصال المباشر بطريق من طرق التجارة مع الاعتماد على مركز مدنى قريب ، هذا إلى أن الاتصال بالعالم الخارجى فى ذاته ضرورى لمحافظة الإنسان على مستوى معقول من الحضارة وإلا استوحش وتدهور وطال شعره وتشعث واغبرت هيأته وغلبت عليه القذارة القاتلة مع الزمن كما ترى فى حال بعض قبائل الدواخل فى الصحارى والغابات الاستوائية أو المعتدلة أو الباردة واستمرار الحياة على مستوى معقول من التحضر مستحيل بدون الاتصال بالعالم الخارجى بواسطة الطرق ، إما بالوقوع عليها أو إمكانية الاتصال بها بأى سبيل. أضف إلى ذلك أن هذا الاتصال يعرِّفها بما يدور فى العالم من حولها ولو عن طريق السماع المتأخر والصدى البعيد ، وبدون ذلك تنقطع الجماعة عن مجرى الحياة وتنفصل عنها وتتدهور ثم تتفكك وتتلاشى أو تختفى فى غيرها.

ثم إن القبائل البادية لديها كذلك ما تعطيه أو تبيعه أو تبادل به : لديها فائض الصوف والتمر والكثير من الأدم أى الجلود ولديها أيضاً ماشية تباع من غنم أو أعناز أو جمال ، وأحياناً محصولات زراعية أو معادن مثل الملح أو الحديد أو التبر وما إليها مما يتحصل للقبيلة من موطنها بعلاج يسير.

ولهذا تهتم القبائل البادية - دون تفريط فى بداوتها وتمسكها بعزة العيش فى الصحراء مع شظفها وقسوتها وأخطارها - من الاتصال بطريق تجارى والاعتماد على مركز عمرانى ، ومن هنا فإن قبائل البدو تحرص أشد الحرص على تأمين القوافل المارة فى أراضيها بخفارة أو دون خفارة ، فإذا سمعنا عن بدو يقطعون الطرق ويعتدون على القوافل والتجار، فهؤلاء ليسوا رجال قبائل محترمة ذات كيان ، بل بقايا قبائل تدهورت وتوحشت أو خلعاء قبائل ومطاريد مجتمعات بدوية أو لصوص وسُرَّاق عاديون يشبهون اللصوص فى كل مجتمع، وهؤلاء جميعاً خوارج على نظام العيش المقرر فى الصحراء ولا يحسب لهم حساب ، والقبائل المحترمة الحريصة على سمعتها وبقائها تطارد هؤلاء السراق وتقضى عليهم كلما تيسر لها ذلك.

وهذا الذى نقوله حقيقة معروفة لكل من يعرفون حياة البداوة والصحارى. ورسول الله ﷺ عندما استولى على خيبر وفَدَكَ وتيماء قضى فى نفس الوقت على كل مقاومة لقبائل غَطَفان وأسد وطىء وذبيان وما إليها ، وعندما ضم مكة إلى أرض الإسلام أحست هوازن أن مصيرها فى الميزان ، فانبرت تحارب الإسلام لأن مكة كانت مركزها العمرانى، ومن هنا تبدو لنا موقعة حنين منطقية بل لم يكن منها مفر للقضاء على معارضة هوازن للإسلام ثم ضمها إليه أولاً ، ثم ثقيف بعد ذلك.

الأسوَاق والموَانى وَطُرق التجَارة :

وإذن فهذا الذى فعله هاشم من الحصول من دولة الروم على العصم وعلى الإيلاف من رجال القبائل الضاربة على الطريق إلى الشام كان عملاً بالغ الذكاء ، وهو كان حجر الزاوية فى بناء قريش اقتصادياً ، لأن الناحيتين السياسية والعسكرية - وهما بناء قصى وعبد مناف كانتا أساسيتين ، ولكن القاعدة الاقتصادية التى بناها هاشم ستصبح العمود الفقرى فى بناء قريش ، فإن المال كما هو معروف عصب القوة . وقريش انتقلت بعمل هاشم من قبيلة عادية الثروة إلى قبيلة غنية ، وبالمال ، تيسرت لقريش أمور السياسة واقتدرت على بناء قوتها العسكرية ، وبالمال كذلك استطاعت أن تقيم الركن الرابع من أركان قوتها بعد التفوق العسكرى والسياسى والمالى ، وهو

القيام بأمور الدين ، لأن الدين فى تلك العصور كان يُؤمِّن الحياة والاستقرار والانتظام والرخاء ولكنه غالى التكاليف يتطلب النفقة والبذل على ما سنراه .

وقد تحدث عن الإيلاف والعصم وتجارة العرب وأسواقهم فى الجاهلية بتفصيل الأستاذ محمد سعيد الأفغانى فى كتاب مشهور عنوانه « أسواق العرب » يعتبر منذ صدوره من الأصول التى لا يستغنى أحد عن الرجوع إليها فى دراسات جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده ، وقد اعتمدنا عليه اعتماداً رئيسياً (إلى جانب الأصول) فيما كتبنا عن عمل هاشم بن عبد مناف .

والفقرة الخامسة من كلام اليعقوبى الذى أتينا به تبين لنا كيف أن قريشاً كلها عرفت قدر ما فعل هاشم وحرصت على استمراره بل اشتركت فى إكماله .

قال اليعقوبى : « ولما هلك هاشم بن عبد مناف جزعت قريش وخافت أن تغلبها العرب ، فخرج عبد شمس إلى النجاشى ملك الحبشة ، فجدد بينه وبينه العهد . ثم انصرف فلم يلبث أن مات بمكة ودُفِن بالحجون . وخرج نوفل إلى العراق وأخذ عهداً من كسرى ، ثم أقبل فمات بموضع يقال له سلمان ، وقام بأمر مكة المطلب بن عبد مناف » [1].

ومعنى ذلك أن أبناء عبد مناف أكملوا شبكة العصم والإيلاف وقبضوا بمهارتهم وذكائهم ونشاطهم على ذلك المصدر العظيم من مصادر القوة ، وعلى أيديهم تفتحت واتسعت آفاق عصر جديد فى تاريخ التجارة فى جزيرة العرب ، فبينما كانت التجارة فى الجزيرة تقتصر على عدد من الأسواق الداخلية تبدأ عند هَجْر والمُشَقَّر على ساحل الخليج وتتوالى بعد ذلك فى نسق من موضع إلى موضع من شرقى الجزيرة إلى جنوبها حتى عدن ثم تصعد إلى مكة معتمدة فى ذلك على ملاحة غير منظمة مراكزها موانىء صغيرة مثل هَجَر وصُحار وعَدَن انتقلت فى الدور الجديد إلى طور عالمى فاتسعت موانى هجر وصحار - والمُكَلاَّ وعدن والحديدة والشعيبة ، وتسارع تجار البحر إلى شواطىء الجزيرة قادمين من آسيا وأفريقية حاملين المتاجر المطلوبة ومن الموانىء تنتقل إلى الأسواق ، ويخف إليها التجار وتتوالى الأسواق على نسق على مدار العام حتى

(١) اليعقوبى : ١/ ٢٤٤ .

تكون أسواق الحجاز فى ذى القعدة وذى الحجة فى آخر العام القمرى وهو نهاية سلسلة الأسواق وأكبرها وأهمها ، وفيها يتجمع التجار من كل مكان ليعقدوا الصفقات الكبيرة مع رجال قريش الذين أصبحوا رجال أعمال كبار ، لا يقتصر تعاملهم على المبادلة والمقايضة بل عرفوا الذهب والفضة والدينار والدرهم .

وفى أسواق الحجاز ومكة نشأت الصيرفة العربية ومهر فيها القرشيون وتجمعت فى مكة المتاجر والبضائع والأموال ، فأصبح القرشيون مياسير ، ونشأ فيهم تجار كبار أصحاب رؤوس أموال ضخمة ، ومع التجارة والمال تفتحت الأذهان واتسع العلم وزادت الخبرة ، واحتاج التجار إلى الكتابة والحساب فتطورت الكتابة على أيدى التجار وظهر الصيارفة المتخصصون فى تجارة المال وصرف الذهب والفضة ، ونشأ الكتبة والحَسَبة وهم أهل النسىء ، وهو حساب الزمن ومواعيد الديون ونسب الربوات ، وأخذ الكتاب أصحاب القلم (القلامس) أهمية كبرى على ما ذكرنا ، وأصبحت قريش قبيلة غنية وسط عالم من القبائل يعيش معظمه على الكفاف ، وثروات سادات القبائل الأخرى كانت نخيلاً وقطعان جمال وشياه وأعناز مع بعض البقر فى المواضع التى تصلح لحياة البقر فى الواحات الكبرى والصغرى وأراضى المرتفعات العالية مثل جبلى طىء (جبل شمر) حيث كانت منازل قبيلة طىء وجاراتها أسد وعَبْس وذُبْيان وكِندة وغطفان وهوازن ، وكلها قبائل رعاة وظعن أو نصف استقرار Semi - sedentaries ، وكل ذلك تم على مدى نصف قرن من أيام هاشم وإخوته ، لأن عجلة التقدم إذا سارت ووجدت ما يدفعها أصبحت كالسفينة هبت عليها ريح مواتية، ونفوس البشر إذا تفتحت على إمكانات الغنى واليسار والرخاء اشرأبت للمزيد وشحذت الهمم وتفتحت الأذهان وآفاق التقدم ، وتلك هى فترات القفزات الحضارية فى تواريخ الشعوب وقصة الحضارة ، فهنا ، ونحن نتكلم عن قفزة التجارة والعمران معها من أيام هاشم وإخوته ثم بنيه ، نحن نشهد عجلة الحضارة وقد انتظمت وسارت إلى الأمام على يد القرشيين وأصحاب الملكات التجارية من أهل الجزيرة وخاصة شعوب البحر على سواحل الخليج وجنوبى الجزيرة ، وانتقلت الجزيرة كلها من حال إلى حال على يد قريش تؤيدها وتشد أزرها كبار القبائل

ورجالاتها لأن التجارة حضارة ، فهى تبادل متاجر وخبرات ومهارات وصناعات وأفكار .

وإليك بياناً عن أسواق العرب ومواقيتها كما صارت وانتظمت فى النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى ، وهو الوقت الذى بدأت فيه قريش عصر الذروة فى تاريخها قبل الإسلام ، وهو عصر هاشم وإخوته ومعاصريه وحلفائهم من رجالات العرب ثم عصر عبد المطلب وستتكلم عليه .

وفيما يلى بيان الأسواق والموانى وخط مسير التجارة ومواقيت الأسواق ، والمواقيت هنا تقريبية ، لأنها وردت فى النصوص فى مواقيت مختلفة ، وقد قربناها على سبيل التيسير ، وأتينا بترتيب الأسواق هنا بحسب ما هو وارد فى أصولنا العربية وإن كنا نرى أن البداية المنطقية لدورة الأسواق تكون فى هجر فى ربيع الثانى ، أما سوق دومة الجندل (التى تقول الأصول العربية إنها أول سوق فى العام) فتكون فى ربيع الأول من العام التالى :

اسم السوق أو الميناء	تعريف به وموعده	القبيلة أو القبائل صاحبة السوق أو الدولة التى تأخذ العشور أو المكوس إن وجدت	ملاحظات
دومة الجندل	ربيع الأول وقد تمتد إلى آخره	بنو كلب بن وبرة من قضاعة وقبيل الإسلام استقل بها اكيد الكلبى	نظن أن ربيع الأول هذا يكون من العام الجديد بعد انتهاء أسواق الحجاز فى ذى الحجة .
هجر	ربيع الثانى	بنو عبد القيس	هنا نظن أن دورة الأسواق تبدأ كل عام
المُشَقَّر	ربيع الثانى أو جمادى الأول	بنو عبد القيس	
صُحار	ميناء على ساحل البحر فى عمان الأسبوع الأول من رجب	يشرف عليها الأزد وفى العصر النبوى كان متولى السوق الجلندى بن المستكبر	

اسم السوق أو الميناء	تعريف به وموعده	القبيلة أو القبائل صاحبة السوق أو الدولة التى تأخذ العشور أو المكوس إن وجدت	ملاحظات
دبَـا	ميناء على ساحل بحر العرب آخر رجب أو آخر يوم فيه	الأزد	
الشِّحْر	ميناء صغير فى حضر موت منتصف شعبان	أصحاب حضر موت	
عـــدن	أوائل رمضان أو اليوم الأول منه	أصحاب السلطان فى جنوب اليمن	
صنعاء	أول رمضان أو منتصف رمضان أو آخره	أصحاب السلطان على وسط اليمن وشماله	
حباشة	جنوبى تهامة فى شهر رجب	قبائل شمال اليمن	لم تذكرها
حجر اليمامة	من عاشوراء إلى آخر محرم	بنو حنيفة وتميم	معظم المراجع
ذو المجاز	موضع بمنى على فرسخ من عرفة أو ذى الحجة ومنها يتوجه الناس إلى الحج	هذه هى أسواق الحجاز الثلاثة وكلها تحت إشراف قريش	بهذه الأسواق ينتهى موسم الحج وتنتهى دورة الأسواق
عكاظ	بين مكة والطائف من أول ذى القعدة إلى ٢٠ منه		
مجَنَّة	بعد عكاظ		
النطاة	بخيبر آخر المحرم	يهود خيبر	

ومن الواضح أن هذا النظام لم يوضع وينتظم على هذه الصورة دفعة واحدة ، وإنما هو تكامل مع الزمن بعد أن نهضت قريش بأسواقها وجعلتها أكبر الأسواق فى الجزيرة وآخرها فى دورة الأسواق كل سنة . وربطتها بالحج أيام عبد المطلب ، حتى

يفرغ الناس من الأسواق ثم يتوجهون للحج فى مكة ومناسك الحج الأخرى ، وكلها تحت إشراف قريش وهى التى تفيد منها مادياً ومعنوياً .

وقد أبدى الأستاذ سعيد الأفغانى ملاحظات قيمة على أسواق العرب ، ولا بأس من إيرادها ملخصة هنا .

ونحب أن ننبه قبل هذا أن بياننا هنا الذى اعتمد أساساً على بيان الأستاذ سعيد الأفغانى أضاف أسواقاً ، لم ترد عند سعيد الأفغانى . وقد أتينا بالأسواق هنا على أساس ما بيناه فى خريطة التجارة فى جزيرة العرب قبل الإسلام فى أطلس تاريخ الإسلام الذى اعتمدنا فى عمله على أقصى ما استطعنا الاطلاع عليه من الأصول والمراجع العربية وغير العربية . وفيما يلى موجز لأهم ملاحظات الأستاذ سعيد الأفغانى :

نستطيع أن نقسم أسواق التجارة فى جزيرة العرب قبل الإسلام إلى الأقسام التالية :

أ- أسواق عربية تقع فى مناطق تسيطر عليها دول عربية ، أى عربية على أطراف الجزيرة . ويدخل فى هذه الأسواق أحياناً أسواق الحيرة وهجر البحرين وعُمان ، فهذه كانت فى كثير من الأحيان خاضعة لسلطان الفرس ، ووُلاتُهم على مواضع الأسواق كانوا يشرفون على السوق ويأخذون من الناس العشور والمكوس . وقبيل الإسلام كان سلطان فارس يمتد على أسواق العرب على الساحل الشرقى فيما عدا أسواق الحيرة التى كانت تشرف عليها دولة المناذرة ، وأشرفت على أسواق دومة الجندل قبائل قضاعة وخاصة كلب بن وبرة وقد انفرد بها آل أكيدر قبيل العصر النبوى . ويدخل سعيد الأفغانى هنا بُصرى وأذرعات وغزة وهى فى بلاد غسان ، وكلها خارج جزيرة العرب ، ولكنها متصلة بأسواق الجزيرة ، وكان العرب يترددون عليها . وكما أشرنا سابقاً يجعل الأفغانى دومة الجندل أول الدورة السنوية للأسواق كل عام . ولكننا نرجِّح أن سوق دومة الجندل يجىء بعد سوق النطاة فى ربيع الأول من العام التالى .

ب- أسواق أنشأها العرب فى بلادهم بحكم الحاجة ، فصارت - مع الزمن - تمثلهم

أصدق تمثيل فى عاداتهم فى البيع والشراء والمخاصمات وعقود الصلح وتحكيم الحكام وعقود الزواج التى تتم فيها وتقرير حقوق كل من الزوجين ، ويشرف على كل سوق منها رؤساء القبيلة أو القبائل الضاربة فى الإقليم . وهذه القبائل لا تعشر المتاجر أو تأخذ عليها مكساً ، ولكنها كانت تتقاضى خفارات وتفيد من الأسواق فوائد عظيمة . وهذه الأسواق واردة فى البيان السابق وفى خرائط أطلس التاريخ الإسلامى ومنها أسواق ذات طبيعة خاصة بسبب مواقعها الجغرافية ، وهى التى تكون على البحر كعدن وصُحار ودَبا . وفى هذه يجتمع تجار الحبشة والهند والصين وفارس « ويتضاءل فيها الطابع القومى بمقدار شأنها التجارى » .

وهذه الملاحظة أتى بها الأستاذ سعيد الأفغانى استنتاجاً ، ولكننا نعرف بحكم اطلاعنا على نظام أمثال هذه الموانى والثغور فى العالم كله فى تلك العصور أن الموانى تختلف فى نظامها من ناحية لناحية ، ففى بعضها تكون الضرائب مناصفة بين قبائل المنطقة وإحدى الدول ذات السلطان على المناطق المجاورة كما نرى فى ميناء عيذاب مثلاً حيث كانت المكوس تُؤدَّى لرئيس البُجاة ويتقاسمها مع سلطان مصر . وفى العادة يكون فى مثل هذه الموانى جماعة من التجار المحليين هم الذين يتولون تنظيم السوق وتأمينه وجباية المكوس أو الضرائب وأداء جزء منها إلى القبائل المسيطرة على المنطقة أو للدول صاحبة السلطان . وأكبر مثال لذلك البندقية وغيرها من الموانى الإيطالية التى تحولت إلى جمهوريات تجارية لأن تجارها اشتروا الحقوق على السوق من الدول الغالبة بمبالغ سنوية تؤدى لها ، ثم استقلت بنفسها وامتنعت عن أداء أموال لأحد ، بل تحولت إلى قوى بحرية ذات جيوش وأساطيل مسلحة كما نرى فى حالة البندقية .

وبالنسبة لموانى الجزيرة قبل الإسلام لم تتطور إلى هذا الحد ، ولكن كان فى كل ميناء منها جماعة من التجار المنظمين يرأسهم شيخ التجار أو الشاه بندر أى رئيس البندر ، وهذا الرئيس هو الذى يتولى أمر الميناء والسوق ويشرف على دور صناعة السفن بالاشتراك مع غيره من التجار ، هكذا كان الحال فى صحار ودَبَا والشِّحر والمكلا وعدن وما إليها ، وإن كانت التفاصيل لدينا عن ذلك قليلة جداً .

ويضيف الأستاذ الأفغانى أنه اقتصر على ذكر الأسواق العامة دون المحلية الخاصة

بكل قبيلة أو بمجموع من القبائل، فلا شك أنه كان لكل قبيلة سوقها المحلى الدورى فقد تكون السوق أسبوعية أو شهرية أو سنوية . ويضرب مثلاً بذلك سوق بدر فقد كانت سوقاً محلية يتجمع فيها تجار المنطقة كل عام فى موسم معين ، وهذا صحيح كما نرى فى تفاصيل غزوة بدر الكبرى وغزوة بدر الموعد بصورة خاصة .

ولم نذكر هنا المدن الكبرى أو مركز العمران ، فكل مدينة سوق كبيرة دائمة ومثال ذلك مكة وغزة ودومة الجندل وخيبر ، وهناك أسواق صغيرة محلية ، ولكنها دائمة اشتهرت بتجارات معينة ، مثل دارين فى منطقة الخليج ، وقد اشتهرت بأنها مجمع تجار العطور ، ومن أراد العطور ذهب إليها ، وقد اشتهرت سوق دارين بالمسك وعطور الهند التى كانت تجلب إليها ، وبلغ من ذلك أن نسبة الدارى أصبحت اسماً لتاجر العطور فى كل مكان ، وجاء فى الحديث الشريف : مثل الجليس الصالح مثل الدارى إن لم يحذك من عطره علقك من ريحه . ومثل هذه الأسواق يقصدها من يريد أصنافاً معينة . ومن أمثلة ذلك أيضاً رُدَينة وهى فُرضة على شط البحر فى شرقى الجزيرة . وقد خفى موضعها علينا الآن ، ولكنها كانت مركزاً لصقل وإعداد نوع من الرماح كان يؤتى بسنانها من الهند ، فقيل رماح ردينية ، وهناك أيضاً الرماح الخطية منسوبة إلى موضع يسمى الخط فى شرق الجزيرة أيضاً .

ومن البلاد التى اشتهرت بتجارة أصناف معينة فأصبحت سوقاً دائمة الطائف حيث جادت صناعة ودبغ الجلود واشتهر البلد بأدم أو أُهَب (جلود) الطائف واشتهر البلد كذلك بزبيبه وفواكهه .

وكان بعض أصحاب النفوذ من الدول المحيطة بشبه الجزيرة ينظمون قوافل تجارية خاصة بهم تسمى الواحدة منها لَطِيمة ، وهى لفظة غير عربية ، والغالب أنها سريانية أو نبطية ، وقد اختلف العرب فى معنى اللطيمة فيقال إنها القافلة أو التجارة التى تحملها القافلة .

وهذا يكفى عن أسواق العرب وتطور التجارة المكية فى هذا المقام[1].

---

(١)انظر :

- سعيد الأفغانى : أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام ، الطبعة الثالثة دار الفكر ، بيروت ١٩٧٤ .
الكتاب كله هام هنا ولكن انظر بصفة خاصة باب إيلاف قريش ص ١٤٦ وما بعدها .

- ظافر القاسمى : الإيلاف أو المعونات غير المشروطة . مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، نيسان (ابريل) ١٩٥٩ ونحن لا نوافق صاحب المقال على رأيه فى معنى الإيلاف - وانظر إلى جانب مراجعنا الواردة فى آخر الفصل ثبت المراجع الواق الذى أورده سعيد الأفغانى ص ٥١٥ وما بعدها .

وسنستكمل كلامنا عن تلك النهضة الكبيرة فى مكة على يد قريش وما اتصل بها من تطورات أخرى فى شرق الجزيرة فى سياق كلامنا عن عبد المطلب ، رابع مؤسسى مجد قريش قبل الإسلام .

كَلمة ختَاميّة عَن هَاشِم وَأعماله :

ونختم كلامنا عن هاشم وإخوته وأعمالهم بالفقرة الثالثة من الطبرى يسوقها عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى يتحدث عن هاشم وإخوته عبد شمس والمطلب ونوفل قال : « فسادوا بعد أبيهم (عبد مناف) جميعاً ، وكان يقال لهم المجبِّرون » قال: ولهم يقال : « فكانوا أول من أخذ لقريش العِصَم فانتشروا من الحرم : أخذ لهم هاشم حَبْلاً من ملوك الشام الروم وغسان .

وأخذ لهم عبد شمس حبلاً من النجاشى الأكبر ، فاختلفوا بهذا السبب إلى أرض الحبشة .

وأخذ لهم نوفل حبلاً من الأكاسرة ، فاختلفوا بذلك السبب إلى العراق وأرض فارس ، وأخذ لهم المطلب حبلاً من ملوك حمير ، فاختلفوا بذلك السبب إلى اليمن فجبَّر الله بهم قريشاً فسموا المجبِّرين .

وقيل : إن عبد شمس وهاشماً توأمان ، وإن أحدهما وُلِد قبل صاحبه وأصبع له ملتصقة بجبهة صاحبه ، فَنُحيت عنها فسال من ذلك دم ، فَتُطُيِّر من ذلك ، فقيل : تكون بينهما دماء . وولى هاشم بعد أبيه السقاية والرفادة »[1] .

ويلاحظ أن الطبرى يستعمل كلمة الحبال فى معنى العصم ، وأبو الفضل إبراهيم محقق نسخة الطبرى التى نعتمد عليها هنا يقول فى الهامش : العِصَم - بكسر ففتح . الحبال ويراد بها العهود ، والمفرد فى هذه الحالة هو العِصَم ومعناه الحبَل وهو العهد .

ولا نتعجب فى هذه الحالة من أن الله سبحانه وتعالى يقول فى سورة آل عمران : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران] لأن القرآن نزل بلسان عربى مبين أى : باللغة العربية التى يفهمها كل العرب ، فلا بد أن كلمة الحبل بمعنى

---

(١) الطبرى ، تاريخ : ١/ ٢٥٢ .

العهد كانت مفهومة تماماً لكل العرب . وكذلك فعل « اعتصم » بمعنى تمسك به كان واضحاً لكل العرب .، وهذا يدل على أن استعمال الحبال بمعنى العهود التى كان الناس يتفقون على عقدها فيما بين بعضهم وبعض كما فعل هاشم وإخوته مع الملوك كانت شائعة جداً عند العرب ، وكانت تجرى على كل لسان ، وقد استعمل كلمة الحبل بمعنى العهد رسول الله ﷺ فى الصحيفة التى كتبها بين المسلمين والمؤمنين من مهاجرين وأنصار فى يثرب ، ومن انضم إليهم وحالفهم أى : اعتصم وتمسك بالعهد من اليهود .

وننتقل الآن إلى الحديث عن عبد المطلب ودوره فى بناء قريش قبل الإسلام مرجئين بقية الكلام على نتائج عمل هاشم إلى ما بعد الفراغ من الكلام عن عبد المطلب وجهوده فى بناء الركن الرابع من أركان قوة قريش وهو الدين .

عَبد المطّلب بن هَاشِم وَدَوره فى بناء الركن الرّابع من أركان قوّة قريش قبْل الإسلام وَهو الدّين :

بعد موت هاشم تقول النصوص إن أخاه المطلب بن عبد مناف «قام بأمر مكة» وهى عبارة لا نفهم المراد منها على وجه الدقة ، فما كانت مكة بدولة حتى يقوم بأمرها رجل، وإنما كانت مستقر قبيلة، والقبيلة ترأسها جماعة ساداتها ، ورئيس القبيلة لايقوم بأمرها ، بل هو ليس رئيسها بالمعنى الدقيق ، ثم إن قريشاً لم تكن مالكة لمكة ولا منفردة بأمرها وإنما هى دخلتها وانتزعت السيادة عليها من خزاعة ، ولكنها لم تملكها إذ أن دخول قريش مكة لا يمنع من أنه كان بمكة ناس آخرون من قبائل أخرى ليخضعون للرياسة القرشية ، فالخزاعيون الذين بقوا بمكة والقضاعيون الذين دخلوها مع قصى لم يكونوا خاضعين لقريش . إنما رياسة قريش هنا كانت زعامة قبلية شرفية ، وصاحبها لا يقال فيه إنه قام بأمر مكة ، وسنرى أنه عندما يقترب أبرهة من مكة سيخلى له عبد المطلب الطريق قائلاً : إن للبيت رباً يحميه ، ولو كان يتولى أمر مكة فعلاً لحارب الأحباش أو لجمع قومه وتشاور معهم فى الأمر ، أو لتفاوض مع أبرهة على الأقل ، كما فعل زعماء المكيين عندما أراد الرسول ﷺ دخول مكة للعمرة عام الحديبية .

ومحمد رسول الله ﷺ عندما أزمع العمرة لم يكن يرى أنه يقتحم بلداً على أهله ، بل كان يريد العمرة ويطوف بالبيت فى بلد المفروض أنه مفتوح لكل العُمَّـار والحجاج - إنما هم القرشيون الذين اعترضوا واعتبروا دخوله مع المسلمين انتهاكاً لحرمة قبيلتهم، وعندما اعتمر رسول الله وأصحابه من قابل ترك البلد زعماء القرشيين ، ولكنهم لم يحاربوا ، لا ولا حاربوا يوم فتح مكة ، لأن حقيقة وضع قريش بالنسبة لمكة لم تكن حقيقة قبيلة تملك بلداً . وقريش قبل الإسلام لم تكن تدير مكة أو تتولى أمورها ، أو تعتبر نفسها مسئولة عن مرافقها أو حماية أهلها ، ولو قُتل رجل من أهل مكة من غير القرشيين فما كانت قريش لتقوم بدور ولى القتيل ، وما كانت لها رياسة أو سيادة على البلد بالمعنى الدقيق لهذه الألفاظ ، بل ليس لدينا دليل على أن قريشاً كانت تملك أرض مكة أو - الأرض من حولها - إنما ملك القرشيون دورهم ، وملك كل ساكن فى مكة داره ، والوظائف التى كان القرشيون يتولونها لم تكن وظائف سلطة وإنما مناصب شرف ومسئوليات قبلية بعيدة كل البعد عن الوظائف الإدارية أو وظائف أعضاء المجلس البلدى مثلاً ، كما كان الحال فى المدن والموانى الأوروبية أول ظهور المدن فى الغرب الأوروبى ، ولم تكن مشيخة قريش بمجلس بلدى أو مجلس حاكم كما ذهب بعض الباحثين الغربيين ، نعم إنها كانت قريبة من هذا المعنى ولكنها ليست به أصلاً .

وهذه كلها معانٍ ينبغى أن تكون فى ذهننا لنفهم على وجه الدقة حقيقة وضع قريش فى مكة وعلاقتها بها قبل الإسلام ، وهو وضع فريد فى بابه ، وعلاقات قريش بمدينة مكة تنبع من قريش بصفتها قبيلة لا بصفتها دولة أو تنظيماً إدارياً ، واليعقوبى عندما يقول إن عبد المطلب قام بأمر مكة ينظر إلى الموضوع نظرة رجعية ، أى أنه يرجع بصورة مكة الداخلة فى دولة الإسلام ويطبقها على مكة قبل الإسلام . وعبد المطلب فى الحقيقة إنما قام بأمر القبيلة وأحلافها لا بأمر المدينة . والفرق بين المعنيين كبير . والمطلب بن عبد مناف عندما قام بأمر القبيلة بعد أبيه لم يرث ملكاً ولا سيادة ولا إمارة ولا سلطاناً ، وإنما هو ورث مسئولية ، والمسئولية لا يتنازع عليها الناس ، حقاً إن حمل تلك المسئولية كان يجلب معه سُؤدداً أو شرفاً ، ولكن السؤدد هو المعنى

الروحى للسيادة ، والشرف يطلبه من يريده ويقوم بتكاليفه ، والتكاليف هنا واضحة معروفة ، فهى غرم مالى متجدد ، فهى تلزم صاحبها بالرفادة والسقاية وهما عملان كانا يجتذبان الناس إلى مكة ، ولكن صاحبهما كان يتحمل معظم الغرم ، أما الأرباح فكانت تتفرق فى أهل مكة كلها ، كل بحسب اجتهاده وملكاته ومساهمته فى التجارة وقدراته على الإفادة مادياً من الحجاج .

وهاشم وإخوته حوَّلوا مكة إلى مركز تجارى كبير ، وجمعوا من ذلك مالاً وفيراً ، ولكن غيرهم من القرشيين ممن نظروا إلى الناحيـة التجاريـة والمالية وحدها كسبوا أكثر ، وواحد من هؤلاء وهو جدعان بن عمرو بن كعب ثم ابنه عبد الله بن جدعان وهما من بيت تيم بن مرة جمعا من المال أضعاف ما جمع هاشم وإخوته دون أن يتحملا نفقات شرف أو تكاليف سؤدد ، وبيت عبد العزى بن قصى ضاهى بيت جدعان بن عمرو فى المال والغنى ، وكذلك كان الحال مع بيت المغيرة من بنى مخزوم بن يقظة بن مرة ونوفل بن عبد مناف ، وهو أخو هاشم كان أغنى وأكثر مالاً من المطلب ، ولكنه لم يتقدم للرياسة والمطلب نفسه لم يكد يأنس فى ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم استعداداً لحمل هـذا الشرف وذلك السؤدد حتى تنازل عنه له طواعيـة عن طيب خاطر ، وعبد المطلب نفسه عندما تولى هذا الشرف وجد نفسه وحيداً ، وكان عليه أن يحمل معظم العبء لا يساعده فى ذلك أول الأمر إلا ابنه الحارث ، وكان عليه أن يجدَّ ويجتهد حتى يحصل على المال الذى يعينه على حمل العبء ، وعندما تتقدم بنا الدراسة فى حياة عبد المطلب سنرى حكاية اجتهاده فى حفر بئر زمزم والبحث عما كانت جرهم قد ألقته فيها قبل طَمِّها على ضوء جديد .

قام المطلب بن عبد مناف إذن مقام أخيه هاشم ، وكان المطلب من أكثر إخوة هاشم اجتهاداً فى إتمام عمل أخيه مع أنه كان أصغرهم سناً - فيما يقول الطبرى - وهو الذى أخذ العِصم من الحميريين سادة اليمن . وغريب من الأمر أن عبد شمس أخا هاشم لم يتطلع للرياسة مع ما يقال من أن أمية ابنه حسد هاشماً على ما نال من سؤدد وشرف . وكان - أى ابنه - ذا مال فتكلف أن يصنع صنيع هاشم وعجز عنه ، فشمت به ناس من قريش فغضب ونال من هاشم ، ودعاه إلى المفاخرة ، فكره هاشم

ذلك لِسِنِّه وقدره ، ولم تدعه قريش وأحفظوه ، قال : فإنى أناظرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحرها ببطن مكة أو الجلاء عن مكة عشر سنين ، فرضى بذلك أمية وجعلا بينهما الكاهن الخزاعى ، فنفَّر هاشماً عليه أى حكم لهاشم على ابن أخيه ، فأخذ هاشم الإبـل فنحرها وأطعمها من حضره وخرج أميـة إلى الشام ، فأقام بها عشر سنين ، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية»[1] .

وإنما أخرت هذه الحكاية مع أن موضعها كان فى حياة هاشم لأننى غير مطمئن إلى صحتها لأن ابن الأخ لا ينازع عمه وأبوه موجود ، وإذا كان أمية بن عبد شمس على صِغَر سنه إذ ذاك ذا مال ، فلا بد أن أباه وهو الذى أخذ العِصم من النجاشى صاحب الحبشة أغنى من ابنه فلماذا لم يَرُدَّ ابنه أمية عن هذه الحماقة وكيف ترك الكاهن الخزاعى يستجيب لما طلبه هاشم من جلاء أمية عن مكة عشر سنين .

والحقيقة فيما يبدو أن أمية قد يكون قد نَفِس على عمه مكانه فوقعت بينهما مفاخرة أو تَحَدّ وتدخلت قريش للصلح ، وقد يكونون طلبوا رأى هذا الكاهن فأفتى بأنَّ من عليه الحق أو المخطىء يغرم خمسين ناقة سود الحدق تُنحر للناس ، وخسر أمية وغرم وترك مكة ليطلب المال والغنى عن طريق التجارة فى الشام ، وخرج إلى الشام وليس من الضرورى أن يكون قد نُفِى من البلد أو ظل بعيداً عنه عشر سنين ، لأن معظم أولاده ولدوا ونشأوا بمكة ، وعبد شمس فى هذا كله مع أخيه دون ابنه ، وسيظل معه وعندما يتوفى هاشم لن يطلب عبد شمس الرياسة ، بل تركها للمطلب ، ربما لأنه لم يشأ أن يتحمل مغارمها ، ثم جاء الرواة بعد الإسلام وبعد شبوب العداوة بين بنى أمية وبنى هاشم ، فنظروا فى الحكاية وصاغوها صياغة رجعية ، فجعلوا عبد شمس أولاً يولد مع هاشم وأصبع أحدهما لاصقة بجبهة الآخر فكان لا بد من الفصل بينهما بالسلاح ، فكانت تلك مما زعموا أول عداوة بين بنى أمية وبنى هاشم إذ ذاك ثم بالغوا فى تصوير ما كان بين هاشم وابن أخيه ووضعوا فى ذلك كلاماً مزوَّراً كثيراً .

والحق أن عداوة بنى هاشم وبنى أمية إنما أخذت صورتها الدموية يوم بدر ، وقد تولى اثنان من أبطال بنى هاشم علىّ بن أبى طالب وحمزة بن عبد المطلب تحطيم بيت

---

(١) الطبرى ١/ ٢٥٣ .

أميـة ، وهما معاً قضيا فى ذلك اليوم على نحـو خمسة عشر من كبراء بنى أميـة وأحلافهم ، فكانوا أحفل الناس بالمصيبة بعد بيت مخزوم الذى تحطم بصورة حاسمة يوم بدر . وعلىّ وحمزة لم يجتهدا هذا الاجتهاد فى ضرب بنى أمية لأنهما كانا يحملان ضغناً لبنى أمية وإنما كانا يحاربان فى سبيل الإسلام ويقضيان على خصومه ، وهما نظرا إلى ما فعلا يوم بدر على أنه جهاد فى سبيل الإسلام ونصر له ، وكذلك نظر إليه رسول الله ﷺ ، ولكن المصاب المكلوم ينطوى دائماً على الغيظ والحقد ، وأبو سفيان بن حرب الذى لم يحارب فى بدر سيتولى قيادة الجبهة المعادية للإسلام بدافع الرغبة فى الثأر لا غضباً لقريش وسيكون حقد بنى أمية على بنى هاشم ابتداء من يوم بدر نقطة من نقط الاختلاف الجوهرية بين طبيعة بيت بنى هاشم وطبيعة بيت بنى أمية وموقف كل منهم فى أمة الإسلام ، فالأولون أهل عقيدة ومبدأ ، والآخرون أهل عصبية وأحقاد قبلية تحولت بعد الإسلام إلى أحقاد سياسية .

قام المطلب بن عبد مناف بما كان يقوم به أخوه هاشم ، والمطلب وبنوه كانوا من أصغر بيوت قريش ، ولم يُعرف عنهم مال ولا ذُكروا بعلو المكانة فى قريش يوم ذاك . كان للمطلب أولاد كثيرون لم يظهر منهم إلا أبو الحارث عبيدة بن الحارث بن المطلب وهو من قدماء المسلمين ، أسلم قبل أن يدخل رسول الله دار الأرقم ويدعو فيها ، وكان أسن من رسول الله بعشر سنين ، ولم يكن فى المسلمين يومئذ من يكبر رسول الله فى السن إلا عبيدة هذا ، وقد أقامه الرسول على ثانى سرية أرسلها ، وهى السرية التى اتجهت إلى الطريق التجارى وتعرضت للعير التى كان فيها أبو سفيان . وتحاجز الحيان ولم يقع قتال إلا ما كان من رَمى سعد بن أبى وقاص بسهم يقال إنه أول سهم رُمِى فى الإسلام . وقد حضر عبيدة بن الحارث بدراً وجرح فيها ومات منصرفه منها . وقد أقطع الرسول بنى المطلب خطة فى المدينة بعد الهجرة واشتهر منهم ركانة بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطلب الذى صرعه رسول الله ﷺ والسائب بن عبد يزيد بن هشام مشهور عندنا لأنه الجد الأعلى للفقيه الكبير محمد بن إدريس الشافعى .

لا غرابة إذن أن يثقل عبء تراث هاشم بن عبد مناف على أخيه المطلب ، وغريب أن عبد شمس لم يتقدم ليحتل هذا المنصب الذى طلبه ابنه ، ومن الممكن أن يكون قد

مات بعد وفاة أخيه بقليل لأن سياق خبر موت هاشم يُفهم منه أن عبد شمس مات بعد موت هاشم مباشرة ، ولكن المطلب على أى حال تحمل هذا العبء حتى تنازل عنه لابن أخيه عبد المطلب بن هاشم . وهذا التنازل فى ذاته غريب لما نعلم من حرص العرب على المناصب مهما تواضعت ، فكيف بمركز كهذا هو أشبه برياسة - ولو شرفية مكلفة - لقريش كلها .

وليس هذا هو الأمر الغريب الوحيد فى سيرة عبد المطلب ، لأن قصته كلها أشبه بالأسطورة ، وخبره فى حفر بئر زمزم يُروى بالفعل فى صورة أسطورة من القصص الشعبى ، وعندما رواها د . طه حسين بأسلوبه البديع جعلها بالفعل على هامش السيرة كأنها - فى إحساسه - ليست من صلب السيرة .

ولكن جماعة رواتنا يروون القصة كلها وكأنها تاريخ صحيح ، ونحن هنا نتابعهم دون أن نعلّق على هذا القصص ، لأنه فى الحقيقة لا يمس لباب الموضوع لأن لبابه هو عبد المطلب نفسه وما فعل بعد أن صارت له الرفادة والسقاية ثم رياسة قريش بعد ذلك .

وأم عبد المطلب فيما يقال خزرجية من المدينة ، وهى سلمى بنت عمرو بن زيد من بنى غنم بن عدى بن النجار ، وهذا هو اسمها عند ابن حزم[1]، ويستوقف نظرنا أن ابن حزم عندما ذكر أنساب بنى عدى بن النجار لم يذكر سلمى فيهم ، كأنها كانت مذكورة فى أنساب قريش ولا ذكر لها فى أنساب الخزرج . وقد تزوج هاشم من خزرجية أخرى هى هند بنت عمرو بن ثعلبة من بنى غنم بن عوف بن الخزرج . ولم يجمع رجل من العرب فى نسائه التنوع الذى نجده فى نساء هاشم ، فها هو قد تزوج اثنتين من الخزرج ، وواحدة من بنى المصطلق من خزاعة ، وواحدة من بنى سعد من قضاعة ، وواحدة من بنى مازن بن صعصعة من قيس عيلان ، وواحدة من ثقيف ، فهؤلاء ست نساء أنجبن له أربعة ذكور وخمس إناث ، ولم يكن لهاشم من سلمى بنت عمرو الخزرجية هذه إلا ولد واحد هو شيبة (الذى سيصبح عبد المطلب) وجارية تسمى رقية ماتت صغيرة ، ولم يكن شيبة أكبر أبناء هاشم ، بل كان أكبرهم عَمْراً وأمه

---

(١) ابن حزم - جمهرة ص ١٤ .

هند بنت عمرو ، وهى الخزرجية الأولى ، وسلمى هى الثانية[1].

فكأن هاشماً التاجر السفار ، كان فى نفس الوقت مزواجاً يتزوج فى القبائل التى يتاجر معها ، ولا نجد بين نسائه قرشية .

وكان هاشم قد رأى سلمى فى السوق فى المدينة وهى تبيع وتشترى ، فأعجب بها وبجمالها ، وكانت - فيما يقول ابن هشام - « لا تنكح الرجال لشرفها فى قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، إذا كرهت رجلاً فارقته[2]، فأنجبت منه ولداً هو شيبة ، وابنة هى رقية التى ذكرناها ، فتركه هاشم عندها فنشأ وكبر فى بنى عدى بن النجار الخزرجيين فى المدينة . وهذا هو السبب فيما يُذكر عادة فى كتب السيرة من أن بنى عدى بن النجار أخوال النبى ﷺ ، وهم ليسوا أخوالاً مباشرين له على الحقيقة ، وإنما هم أخوال جده عبد المطلب ، ولكن الأمر انسحب عليه ﷺ تجوزاً ، وأصبحت له أهمية خاصة فيما بعد ، أى بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ونزوله فى منازل بنى النجار ، ويبدو أن العلاقة اتصلت بين بنى النجار وبنى هاشم ، لأن عبد الله والد الرسول ﷺ أَلَمَّ بِهِم فى رحلته ، وعندهم توفى فى المدينة .

ونشأ شيبة فى المدينة فى كَنَف أمه ، فلما أصبح وصيفاً أى فى حوالى الثانية عشرة من عمره ، ظهرت منه نجابة وشفوف على إخوانه ، وكان يعرف أن أباه هاشم بن عبد مناف ، فلما بلغ المطلب ذلك قرر الخروج إلى المدينة ليأتى بابن أخيه حتى لا يشب بعيداً عن قوم أبيه ، وللقصاصين فى ذلك قصص وشعر كثير ، والمهم أن المطلب ذهب بنفسه وأتى بابن أخيه إما بموافقة أمه أو خلسة منها ، فلما عاد به إلى مكة أردفه خلفه على الناقة ، وصار إذا سأله الناس : من هذا معك ؟ قال . هذا عبدى يريد هذا مِلْكى ، ويقال إنه كان يقول : هذا عبد ابتعته بيثرب ، ومن هنا غلب عليه اسم عبد المطلب ، مع أنه لم يلبث أن صارحهم بأنه شيبة ابن أخيه عمرو - وهو هاشم - نشأ عند أخواله وذهب هو فأتى به حتى لا يشب غريباً عن قوم أبيه وهم قريش .

وشبَّ عبد المطلب ودخل مداخل الرجال وأصبح من شباب قريش الذين تتعلق بهم الآمال ، والنصوص لا تذكر لنا هنا كيف ولى عبد المطلب السقاية والرفادة بعد

(١) ابن الكلبى ، برواية ابن هشام فى السيرة ١/ ١٢ وبرواية النويرى فى نهاية الأرب ١٦/ ٣٨- ٣٩ .
(٢) ابن هشام ، السيرة ١/ ١٤٥ .

هاشم ، وكل ما تقوله هو أن عبد المطلب كان جسيماً وسيماً ، طوالاً فصيحاً ، ما رآه أحد إلا أحبه . قال الواقدى : وأقام عبد المطلب بمكة حتى أدرك ، وخرج المطلب بن عبد مناف تاجراً إلى أرض اليمن ، فهلك بردمان من أرض اليمن ، فولى عبد المطلب بعده الرفادة والسقاية ، فلم يزل ذلك بيده وهو يطعم الحاج ويسقيهم فى حياض الأدم (الجلد) حتى حفر زمزم ، فترك السقى فى الحياض وسقاهم من زمزم ، فكان يحمل الماء من زمزم إلى عَرَفة ، فيسقيهم والله أعلم»[1] .

ومن الآن فصاعداً سنلاحظ انعكاس صورة رسول الله ﷺ وخلاله - كما تخيلها الرواة - على جده عبد المطلب ، ومن هنا أيضاً إلى وفاة عبد المطلب سنجد صعوبة فى العثور على خيط التاريخ وسط فيض القصص والشعر الشعبيين ، وابن إسحاق هنا يفقد حاسته التاريخية ، فهو يحفن من القصص والشعر الشعبيين بكلتا يديه ويضع فى جعبة سيرته ، وقد تعرض بسبب ذلك لنقد كثير من خصومه ، ونقل عنه معظم ذلك ابن هشام، وربما زاد فيه، والنقاد هنا على حق، لأن هذا الفيض من القصص أضر فى الحقيقة بصلب التاريخ ، ومن أمثلة ذلك أن ابن إسحاق - برواية ابن هشام - يورد قصيدة فى رثاء المطلب بن هاشم يصوره وكأنه كان أغنى الناس وأنه كان ينفق من ماله العريض فى إطعام الحجيج وسقيهم ، ولم يكتف بذلك بل أضاف أن الشاعر الذى قال هذا الشعر بعد أن فرغ من شعره قيل له - واسمه مطرود - دون اسم أو كنية أو نسب غير هذا - لقد قلت فأحسنت ، ولو كان أفحل مما قلت كان أحسن ، فقال : انظرانى ليالى فمكث أياماً ثم قال ... ثم يورد نص قصيدة تتخطى الصفحات الثلاث[2].

والحقيقة أن عبد المطلب كان شاباً طموحاً وكانت له مواهب كثيرة أهمها بالنسبة لنا الآن هى قدرته على التعرف على مواضع الماء تحت الأرض وهى موهبة توجد عند قليل من الناس إلى يومنا هذا فى بعض رجال مناطق الصحارى، وفى النواحى المصابة بالجفاف ، وفى جنوب فرنسا وشمال أسبانيا إلى يومنا هذا رجال - معروفون بذلك يستدعيهم الناس للبحث عن مواقع الماء ليحفروا فيها ويجدوا الماء ، وقد اشتهر بذلك

(١) النويرى ، نهاية ١٦/ ٤٣ .
(٢) ابن هشام ، السيرة : ١/ ١٤٧ - ١٥٠ .

ناس فى إقليم أرتوا فى جنوب غرب فرنسا حيث تسمى الآبار بالارتوازية ، وعند العرب الجاهليين كان الناس يرون شيئاً من الكهانة والعلم فى الرجال الذين توجد فيهم هذه الملكة وكانوا عندهم موضع تبجيل وتقدير .

وعبد المطلب كان يتمتع بنصيب كبير من هذه الموهبة ، وإليه تنسب آبار كثيرة فى مكة وفى الطرق إليها ، تعرف على مواضعها وحفرها بنفسه ووهبها لقومه ، فكان ذلك من ممهدات رياسته .

غير أن عمله الأكبر فى ذلك المجال هو حفر زمزم ، والنصوص تقول هنا إنه رأى فى منامه طائفاً يأمره بحفر زمزم ويحدد له مكانها فى الحِجْر بين صنمين لإساف ونائلة ، فذهب مع ابنه الوحيد إذ ذاك وهو الحارث - وهذا يدل على أن عبد المطلب كان شاباً فى ذلك الحين ولم يكد يحفر إلا قليلاً حتى ظهر «الطى» وهو كنز فيه تمثالا غزالين من ذهب وسيوف - كانت فيما يقال لـجُرْهم ، فلما اضطرت جُـرْهم لمغادرة مكة رموا هذا الكنز فى بئر زمزم وطموها . ونحن نقول : إن أخبار ما فعلته جرهم لابد قد وصلت عبد المطلب فقرر الحفر عنها ، وكان من قبله يتهيبون ذلك ، لأن موضع زمزم كان بين صنمين لإلهين من آلهة العرب ، ولكن عبد المطلب كان شاباً واسع الذهن باسلاً لا يخاف ، فتحدى قريشاً كلها وحفر موضع الطى، ووجد الكنز ثم استمر يحفر حتى كشف عن ماء زمزم .

وهذا العمل كان كبير الأثر فى تاريخ عبد المطلب ، فقد رأوا حسن طالعه بكشف الكنز ودقة علمه بالعثور على أكبر آبار مكة ، فَعَلت مكانته بين الناس، وأحسن هو التصرف ، فضرب بعض الذهب صفائح حَلًّى بها أبواب الكعبة ، ونازعته قريش فى ملكية بئر زمزم ، فأثبت لهم سعة علمه وحُسن طالعه وحفر بئراً أخرى فى موضع مفازة معطشة كانت قوافلهم تسير فيها [1] فثبت لهم امتيازه، فاعترفوا له بحقه فى ماء زمزم ، فلما اطمأن إلى ذلك جعل ماءها مشاعاً بين الناس ، وأخذ يسقى الحجيج منها ، وكانت زمزم أكبر عين فى مكة وأحسنها ماء ، فلم يبق فى مكة من ينازع عبد

---

(١) ابن هشام ، السيرة : ١/ ١٥٢ - ١٥٣ .

المطلب الشرف والرياسة ، وتولى الرفادة والسقاية وأصبحت له فى مكة مكانة تشبه مكانة أبيه هاشم وجده قصى .

وكانت معرفة عبد المطلب بمواضع المياه جانباً مما امتاز به من الميل إلى الدين والكهانة ، فلما فتح الله عليه هذا الفتح اتجه ببعد نظره إلى الحج واهتم بمناسكه فنظمها بالاشتراك مع بقية القرشيين ووضع نظم الحج التى أعطت بيت عبد المطلب مكانة رفيعة بين قريش وانتفع القرشيون بملكاتهم التجارية فى تحويل مناسك الحج إلى مَصْدَر قوة ورزق عظيم وكسب لهم .

وقد كانت فى مكة آبار قليلة حفر بعضها رجال قريش بعد استقرارهم فيها ، ولكنها كانت آباراً صغيرة تختص بالواحد منها القبيلة الواحدة وتملكها ، فكانت لبنى عبد شمس بئر تسمى الطَّوِىّ ، وكانت بأعلى مكة عند البيضاء ، وحفر هاشم بن عبد مناف بئر بدر على فم شِعب بنى طالب ، وكان هاشم قد جعلها للناس كلهم ، وحفر أمية بن عبد شمس لنفسه بئراً تسمى الحفر ، وحفر بنو أسد بن عبد العُزَّى بئر سُقَيَّة ، وحفر بنو عبد الدار بئر أحراد ، وسيحفر المطعم بن عدى بئر سجله. ولابد أنه كانت فى الموضع قبل ذلك آبار أخرى ، وإلا فكيف كان موضع مكة مسكوناً منذ الزمن القديم؟ ولكن هـذه الآبار كلها كانت صغيرة لا تكفى الواحدة منها إلا النفر القليلين ، فلما اكتشف عبد المطلب موضع زمزم وأعاد حفرها حظى البلد بمصدر ماء غزير فاتسعت أمام أهلها سبل العمران ، واستطاعوا أن يمدوا باعهم فى العناية بالحجاج بسقيهم الماء الوفير ، ولهذا تعد إعادة حفر زمزم على يد عبد المطلب خطوة كبيرة نحو نهوض مكة فى ظل قريش .

وكذلك كان القرشيون قبل دخولهم مكة قد احتفروا آباراً بمنازلهم خارج البلد منها بئر ترجع إلى أيام مرة بن كعب وكلاب بن مرة ، وإلى كلاب بن مرة أيضاً تنسب بئر خم ، وهى المشهورة باسم غدير خُم ، وحفروا بئراً أخرى تسمى الحَفر، وكان ذلك قبل دخولهم مكة كما قلنا[١].

ونسترسل بعض الشىء مع القصص الشعبى فنقول : إن عبد المطلب نذر لله أنه

(١) ابن هشام ، السيرة : ١/١٥٧ - ١٥٨ .

إذا أعطاه عشراً من البنين يقفون معه ويعز بهم أمره لينْحَرن آخرهم للكعبة ، وبالفعل رُزِق تسعة أبناء آخرين غير الحارث ، وكان آخرهم عبد الله والد الرسول ﷺ، وكان هو وأخوه الزبير شقيقين ، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ من بنى مخزوم بن يقظة، فلما أراد تقريبه لهبل إله قريش - وكان صنمه فى جوف الكعبة - قامت قريش تعترض عليه مخافة أن يصبح نحر الولد وفاء بنذر عادة جديدة يجرى عليها القرشيون ، وكان أشد الناس اعتراضاً بنو مخزوم ، لأن عبد الله ابن أختهم ، واتفق أمرهم على أن يسألوا فى الأمر امرأة عرَّافة بالحجاز كانت نسكن بالمدينة ، لأن مكة فى تهامة ، فذهبوا إليها فوجدوها فى خيبر لبعض شأنها ، فذهبوا إليها واستشاروها فطلبت إليهم أن يُنظروها يوماً حتى يأتيها تابعها .

فلما جاءوها من الغد قالت لهم إن تابعها قد أتاها وأفتى بأن يضرب عبد المطلب بالقداح ، فإذا خرج القدح على ابنه عبد الله زاد فى دية الدم عشرة من الإبل ، وكانت الدية عشرة من الإبل حتى ذلك الحين ، ففعل عبد المطلب وما زال يزيد الإبل عشراً كل مرة حتى بلغت الدية مائة من الإبل، ثم خرج قدح الإبل ففرح عبد المطلب بنجاة ولده وأصبحت دية الرجل من ذلك الحين - فيما تزعم القصة - مائة من الإبل، وإنما استرسلنا مع هذه القصة لنرى كيف كان القرشيون فى ذلك الحين يلجأون إلى الكواهن والعرافين والعرافات فى كل ما أهمهم من الأمر، وقد ذكر محمد بن حبيب النسابة فى كتاب « المنمَّق فى أخبار قريش » أمثلة كثيرة من هذا النوع .

ونظر عبد المطلب بعد أن صارت له الرفادة والسقاية والندوة فى أمر الكعبة فوجد أنها محج العرب ، يجتمعون فيها للحج والتجارة بعد الأسواق ، ولاحظ أن العرب حريصون على الحج إلى هذا البيت ، ثم إن مناسك الحج كانت موزعة بين أيدى قبائل مختلفة ، فهناك قبيلة تسمى صوفة كانت تنزل بناحية عرفات وتشرف على إقامة الحج من هناك ، ويقال : إن صوفة من فروع إلياس بن مضر ويقال أيضاً : إن صوفة من بقايا جُرْهم ، ولكن الغالب أنها من قيس عيلان بن مضر، وكانت جماعة من بنى عَدْوان من قيس عيلان ضاربة بناحية مُزْدَلِفة ، فكانت تشرف على أمور الحجيج عند مزدلفة . ثم إن صوفة كانت تأخذ بمخرج الحجيج من مِنى بعد انتهاء الحج فلا ينطلق

أحد إلا بإذنها ، فضاق الناس بأمرها ، فرأى عبد المطلب أن يجمع ذلك كله فى يده ، فاتفق مع خزاعة وغيرها من القبائل هناك على أن يتولى هو وبنوه بالاشتراك مع خزاعة الإشراف على شئون الحج كلها .

وقد ذكرنا أنه كان قد ساد منطقة الحرم بمكة بما كان ينفق على الحجيج من ماله فى الرفادة والسقاية وراحة الحجاج ، هذا بالإضافة إلى ما كان له من رياسة دار الندوة ، وهى مجمع القرشيين ودار شوراهم ، لا يقررون أمراً من أمورهم إلا فيها ، بل كانوا يعلنون فيها بلوغ البنات أى وصولهن إلى سن الزواج، وفيها كانت تعقد الأنكحة، وإذا أرادت قريش أن تتخذ قراراً بالحرب كان ذلك فى دار الندوة ، وفيها يعقد اللواء ، أى لواء الحرب ، وذلك كله كان يكلف عبد المطلب مالاً كثيراً ، فلما عرض عليهم أمر تنظيم الحج وافقوه ، وقام بتنظيم أمر المناسك والمواقف فى عرفات ومزدلفة ومِنَى وحراسة الطريق من العقبة وهى الجمرة الصغرى حتى مكة .

وفى هذا الموضع كانت تنزل بعض بطون كنانة فى المساحة المعروفة بالمُحَصَّب وتعرف أيضاً بخيف كنانة أو بطحاء مكة، فنظم عبد المطلب أمر ذلك كله بالاشتراك مع القبائل الضاربة فى كل موضع، وكان عبد المطلب ذكياً فكان لا يدخل فى نزاع مع قبيلة ما دام يصل فى النهاية إلى ما يريد وهو الإشراف الأعلى ، فتم له ما أراد - وضبط أمور الحج وقدم للحجاج الماء فى عرفات ومزدلفة ومنى على النحو الذى كان عليه الحج قبل الإسلام ، وهو قريب مما صار عليه بعد الإسلام كما نرى فى كتاب الأصنام للكلبى ، والفرق الجسيم هنا هو أن الحج قبل الإسلام كان إلى الكعبة والأوثان التى وضعتها القبائل حول الكعبة ويقال : إن عددها كان ثلاثمائة وستين صنماً ، أما بعد الإسلام فقد أصبح الحج لبيت الله .

والغالب أن عبد المطلب هو الذى جعل كل قبيلة تضع عند الكعبة صورة من وثنها أو معبودها حتى تحج إليه عند إلمامها بمكة فى الموسم ، وكانت كل قبيلة لها صنمها فى منازلها أو قريباً منها ، وكانت تطوف به وتقوم بطقوس معينة خاصة بها كما نرى فى كتاب الأصنام للكلبى ، فكانت فكرة عبد المطلب فى وضع صور من تلك

الأوثان أو رموز لها حول الكعبة فكرة صائبة ، فصار الحج إلى الكعبة حجاً لقبائل العرب جميعاً بعد انتهاء الأسواق فى ذى الحجة من كل عام ، وإن كان هناك ما يدل على أن بعض القبائل كانت تحج فى ذى القعدة ، فعلا أمر عبد المطلب وازداد جاه قريش نتيجة لذلك ، وانضاف إلى عناصر قوتها عنصر الدين بالإضافة إلى التجارة وحسن السياسة والاجتهاد فى كسب ود القبائل مما كان قصى وابنه عبد مناف قد حققاه على ما ذكرناه ، وبذلك يكون عبد المطلب قد خطا الخطوة الحاسمة فى بناء مجد مكة وجاهها بين القبائل .

وأظن أن هذا هو الذى أراده ابن إسحاق عندما قال بعد كلامه عن إنشاء عبد المطلب لدار الندوة قرب بيته وإشرافه على ما كان يتقرر أو يعمل فيها ، «فكان أمره فى قومه من قريش فى حياته ومن بعده كالدين المتبع لا يعمل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة ، ففيها كانت قريش تقضى أمورها» [١]. وفى موضع آخر يقول ابن إسحاق : «ثم ولى عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب ، فأقامها للناس ، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم، وشرف فى قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم »[٢] .

ولكن قريشاً – كما سنرى – أدخلت شيئاً من التغيير فى هذا النظام – ربما فى أواخر أيام عبد المطلب وكان ذلك لأسباب تجارية فى الغالب ، والمهم لدينا أن عبد المطلب أكمل بناء قوة قريش بما نظمه من أمور الحج ، فازداد إقبال الناس على مكة فى الموسم. وعرفت قريش كيف تفيد أعظم الفائدة من التجارة ومن الدين معاً ، هذا بالإضافة إلى ما كان القرشيون قد أضافوا إلى قوة بلدهم ، كل بحسب ما استطاع .

وقد عُمِّر عبد المطلب طويلاً ، فيقال إنه توفى عن اثنتين وثمانين سنة ، وكانت سن رسول الله ﷺ إذ ذاك ثمانى سنوات ، إذ أن عبد المطلب حضنه أى أخذه فى رعايته بعد وفاة أمه السيدة آمنة بنت وهب ، قال ابن إسحاق: «وكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب بن هاشم فى كلاءة الله وحفظه ينبته نباتاً حسناً لما يريد

(١) ابن إسحاق ، برواية ابن هشام ١ / ١٣٢.
(٢) ابن إسحاق ، برواية ابن هشام ١ / ١٥٠.

به من كرامته ، فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب بالأبواء، بين مكة والمدينة ، وكانت قد قدمت به على أخواله بنى عدى بن النجار تزيره إياهم، فماتت وهى راجعة به إلى مكة. قال ابن هشام : «أم عبد المطلب بن هاشم سلمى بنت عمرو النجَّارية ، فهذه الخئولة التى ذكرها ابن إسحاق لرسول الله ﷺ[1]» فانفرد عبد المطلب برعاية رسول الله ﷺ . وظل الرسول برعاية عبد المطلب سنتين حتى توفى عبد المطلب، جاء فى النويرى : «وكانت وفاة عبد المطلب بن هاشم لثمان سنين من عمر رسول الله ﷺ بالحَجون وهو يومئذ ابن اثنتين وثمانين سنة ، وقيل ابن مائة وعشر سنين ، حكاه السهيلى قال : وهو أول من خضب بالسواد من العرب[2]» وقد رجعنا إلى نص السهيلى فوجدناه يقول إن عبد المطلب توفى عن مائة وأربعين سنة ، ولم نجده يعتمد على شىء يعول عليه وقد نقل ذلك الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية ولا سند له كذلك ، وفى السيرة الحلبية أقوال أخرى .

فإذا أخذنا بأقرب هذه الأقوال إلى الاحتمال قلنا إن عبد المطلب إذا كان قد توفى وَسِنُّه ٨٢ سنة ، فتكون وفاته قد وقعت سنة ٥٧٩م . لأن رسول الله وُلد سنة ٥٧١ م وكانت سنة ثمانى سنوات عند وفاة عبد المطلب ، ويكون عبدالمطلب قد ولد سنة ٤٨٧ ميلادية على وجه التقريب . وتولى رياسة قريش فى الغالب بعد ذلك بحوالى ٢٥ سنة ، لأنه لم يكن له من الولد عندما حفر زمزم إلا الحارث ، أى أنه -أى عبد المطلب- كان إذ ذاك شاباً وابنه الحارث كان يعاونه وهو بعد غلام فى العاشرة مثلاً، ومعنى ذلك أن عبد المطلب عندما حفر زمزم كان فى الثلاثين من عمره إذا سرنا مع أقرب التصورات إلى الاحتمال ومن الممكن أن نقول إنه تزوج فى السادسة عشرة لكى ينجب ويصبح ابنه فى العاشرة وهو فى السادسة والعشرين من عمره والفرق قليل على أى حال .

تحقيق فى تاريخ عَام الفِيل :

وهذا الذى نقوله يدعونا إلى أن نحاول تحديد عام الفيل ، والرأى عند مؤرخينا أن عام الفيل كان عام ولادة الرسول ﷺ ، وهو مستبعد لأن عام الفيل على هذا القول

---

(١) ابن إسحاق ، برواية ابن هشام ١ / ١٧٨ .
(٢) انظر السهيلى ، الروض الأنف ١/ ٥ . وشرح المواهب اللدنية للزرقانى ١/ ١٨٩ . والسيرة الحلبية ١/ ١١٢ .

كان وسِنّ عبد المطلب ٧٤ سنة على الأقل ، وإذا تابعنا قول الزرقانى فى المواهب من أن عبد المطلب توفى وسِنُّه ١٠ سنوات فأكثر فيكون عام الفيل كان وسن عبد المطلب ١٠٢ سنة ، لأن عبد المطلب مات وسِنُّ رسول الله ثمان سنوات أى سنة ٥٧٨ ميلادية.

وقد استبعدنا أن يكون عام الفيل هو عام مولد رسول الله لأن عبد المطلب لابد أن تكون سنه فى هذه الحالة إما ٧٤ عاماً أو١٠٢ من الأعوام، وسنرى بعد قليل أن غزو أبرهة للحجاز لابد أن يكون قد وقع وسِنّ عبد المطلب أقل من ذلك بكثير وواقع الحال أن غزو أبرهة – وهو ابراهام – للحجاز كان وعبد المطلب شاب .

وأراجع مع القارىء تفاصيل ما وقع لأبرهة فى الحجاز لعلنا نستطيع تقدير سن عبد المطلب على وجه التقريب إذ ذاك ، فإن أبرهة عندما أزمع المسير إلى الحجاز لهدم الكعبة بعد أن بنى القليس[1] وهى كنيسة نجران. وكان رجل من أهل اليمن يسمى ذا نعز قد تعرض لجيش أبرهة فانهزم وأُسِر وحمله أبرهة معه ، وقصد أبرهة الطائف ليهدم صنم مناة بها حاسباً أنه الكعبة ، ولكن الثقفيين يرشدونه إلى كعبة مكة ، ويتطوع رجل يسمى أبا رعال أو أبا رغال ليكون دليل الأحباش ، وقد مات أبو رعال قرب مكة فرجمت العرب قبره .

والأخبار التى لدينا عما كان بين أبرهة وعبد المطلب وكذلك ما دار بينهما من الحديث لا تدل على أن عبد المطلب كان شيخاً مسناً فى السبعينات أو الثمانينات من عمره ، ونحن نتكلم هنا عن عصور بعيدة كان الرجل فيها إذا بلغ الخمسين أصبح شيخاً .

يقول الخبر الذى يرويه ابن إسحاق عن هذه الغزوة : إن أبرهة عندما اقترب من

---

(١) تركت لفظ القليس دون شكل ونصوصنا تشكله هكذا : القُلَيْس وهو فيها نظن خطأ لأن القليس كان كنيسة ، والكنيسة فى اللاتينية واليونانية Ecclesia (اكليسيا) وهذا قريب من رسم قِلِيس إذا نحن شكلناه هكذا وهو المعقول هنا . وفى بلاد الشام يذكر العرب أماكن كثيرة اسمها القِلِيس أو القلس، وكلها تعريبات للفظ اكليسيا ، ومن هذا القبيل أيضاً ما تقوله النصوص من أن اسم الفيل الذى كان مع أبرهة محمود وهذا مستغرب لأن أبرهة لم يكن ليعطى فيله الذى أتى به من الحبشة اسم محمود . ولكن هذا اللفظ قريب من اسم لاتينى للفيل الكبير momoth وهو الفيل الوحشى الكبير ، أما الاسم الذى عرف به اليونان الفيل المستأنس الذى نعرفه فهو el-ephant وهو اسمه فى اللغة المصرية القديمة ، ومن المعروف أن اليونان أول ما عرفوا الفيلة كان فى جنوب مصر عند جزيرة الفيلة وهى إلفانتاين .

مكة وصل موضعاً يسمى المغمِّس ، ومن هناك بعث رجلاً من قواده يسمى الأسود ابن مقصود فاجتاح نواحى مكة بخيله ، وساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدهم ، فهمَّتْ قريش وكنانة وهذيل ومن كان بهذا الجزء من سائر الناس بقتاله ، ثم عرفوا ألا طاقة لهم به فتركوا ذلك. ثم أرسل أبرهة رسولاً يسمى حناطة الحميرى إلى مكة وكلفه بأن يسأل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ويقول له : إن أبرهة لا يريد قتالهم ويأتيه بكبير القوم ، وتحدث حناطة الحميرى إلى عبد المطلب ، فقال له عبد المطلب : «والله ما نريد حربه وما لنا بذلك طاقة . هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام - أو كما قال - فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يُخل بينه فوالله ما عندنا دفع عنه - فقال له حناطة : فانطلق معى إليه ، فإنه أمرنى أن آتيه بك».

وانطلق عبد المطلب مع حناطة للقاء أبرهة ، وكان معه بعض بنيه مما يدل على أن ذلك وقع فى منتصف حياته بعد أن أصبح له من الأبناء عدة ، ولو كان عبد المطلب طاعناً فى السن كما يفهم من النصوص التى تقول إن غزو أبرهة للحجاز كان عام مولد رسول الله ﷺ لما سار معه ليكلمه فى أمر مائتين من الإبل ، واكتفى بإرسال بعض بنيه .

ووصل عبد المطلب إلى معسكر أبرهة وسأل عن ذى نَعْز اليمنى الذى كان أسيراً فى جيش أبرهة وسأله إن كان يستطيع معاونته ، فقال ذو نَعْز : إنه أسير لا يستطيع شيئاً ، ولكن له صلة بسائق فيل أبرهة واسمه أُنَيْس ، وأنه يستطيع سؤال أنيس أن يتوسط لدى أبرهة ليأذن لعبد المطلب فى لقائه ليكلمه فى أمر المائتى ناقة التى استاقها جيش أبرهة فوعده أنيس بذلك وأدخله على أبرهة . وهذا الموقف المتطامن جداً من عبد المطلب لا يدل على أنه كان على قدرٍ عظيم من المكانة ، ثم إنه عندما لقى أبرهة لم يطلب منه إلا المائتى بعير التى استاقها جنوده ، وهو لم يطلب من أبرهة مثلاً أن يرد ما استاق جنده من إبل غيره من القرشيين وأموالهم ، وهو يتكلم عن نفسه لا عن قريش أو مكة ، بل هو لا يسأل أبرهة أن يرد أموال حلفاء قريش من خزاعة والأحابيش ولو

أن عبد المطلب كان إذ ذاك سيد قريش كلها وأكبر شخصيات مكة لطالب بأموال قومه وحلفائهم ، هذا فضلاً عن أنه لم يقل شيئاً عن الكعبة وحرمها والمفروض أن عبد المطلب كان سادنها والقائم بأمرها ، وكان المفروض أن يذكرها ولو مجرد ذكر ويجتهد فى دفع الضرر عنها.

ولكن الذى ذكر البيت كان أبرهة ، فقد أدهشه أن يقال له إن عبد المطلب كبير قريش وسيد البطحاء وسادن الكعبة ثم نجده يتخلى عن مسئوليته ولا يكون له هَمّ إلا نُوقه التى غنمتها قوات أبرهة ، وسأله فى ذلك، فكان رده «إنى أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه» ويقول أبرهة : «ما كان ليمتنع منى» ويرد عبد المطلب : «أنت وذاك».

ويستوقف النظر أنه فى حين أن عبد المطلب تخلى عن البيت لأن له - فيما قال - رباً سيحميه . تقدم رئيسان عربيان آخران هما معمر بن نفاقة بن عدى سيد بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وخويلد بن واثلة الهذلى سيد هذيل «فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت ، فأبى عليهم». يقول ابن إسحاق : والله أعلم أكان ذلك أم لا . فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التى أصاب له. فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شعب الجبال[1] تخوفاً عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ، ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لا هُمَّ إنَّ العبد يَمْـ ـنَعُ رَحْلَهُ فَامنَعْ حَلالَكْ

لا يغلبنَّ صَلِيبهُمْ وَمِحالُهُم غَدْرًا مِحَالَكْ

وأصحاب السيرة يسوقون الخبر هذا المساق تمهيداً لما كان من هلاك جيش أبرهة بالطير الأبابيل التى ترمى بحجارة من سجيل كما قال الله سبحانه فى سورة الفيل . والقرآن هو الحق فيما قال ، ولكن أصحاب السير ليسوا على حق أو منطق فيما ذهبوا إليه.

---

(١) أى : فى رؤوس الجبال وأطوائها.

لأن عبد المطلب لم يكن نبياً أو رسولاً أو يعلم الغيب حتى يكون على ثقة مما سيحدث لجيش أبرهة ، بل هو كان رجلاً وثنياً يقف فى مواجهة رجل مسيحى هو أبرهة أو أبراهام ، وأبرهة لم يكن يريد هدم البيت لأنه بيت الله الحرام الذى بناه إبراهيم عليه السلام فما كان له بذلك علم ، ولو علمه وأيقن به لما فكر فى هدمه وهو المسيحى الذى يعرف عن إبراهيم عليه السلام أحسن مما يعرف عبد المطلب - وفى العهد القديم - ولابد أن يكون أبرهة على علم به إذا كان مسيحياً تقياً يبنى الكنائس كما تقول النصوص . وليس من المعقول أن رجلاً يبلغ به الإخلاص للمسيحية أن يبنى كنيساً فى نجران ثم يُقْدم على هدم بيت بناه نبى الله إبراهيم الخليل ، ولكن أبرهة أتى ليهدم بيتاً قيل له إنه رمز الوثنية ومجمع الأوثان .

ولكن رواتنا يسوقون الأخبار ويريدون منا أن نفهمها على طريقتهم ، وروايتهم للأخبار كما رأينا سقيمة لا تستقيم مع المنطق وتفسيرهم لها ساذج.

والذى نستطيع قوله - متمشين فى ذلك مع ما جاء فى القرآن الكريم - وهو قول الحق الوحيد فى هذا المقام - هو أن أبرهة كان ملكاً يوسع ملكه ، ويريد أن يدخل الناس جميعاً فى دينه ويصلوا فى الكنائس فأحب أن يقضى على ذلك المحج الوثنى فى رأيه دون أن يعلم أنه بيت الله الذى بناه إبراهيم عليه السلام ، فرده الله سبحانه عن ذلك بما أرسل على جيشه حفاظاً على بيته المكرم .

والمهم لدينا هنا أن عبد المطلب أوان هذه الغزوة لم يكن قد أصبح سيد قريش أو سيد البطحاء أو أكبر رجل فى تهامة ، إنما كان سيداً من سادات قريش إذ كان فى تهامة إذ ذاك سادات عرب آخرون أكبر منه وأقوى ، منهم سيد بنى بكر بن عبد مناة ابن كنانة وسيد هذيل ، وهما اللذان تقدما لإنقاذ البيت من التدمير فعرضا ثلث أموال - تهامة ، وهو أمر لم يستطع عرضه - ولا عرض جزء منه - عبد المطلب لأنه بحسب استنتاجنا من النصوص كان لا يزال يبنى مركزه ومكانته . وقد وصل إلى الرفادة والسقاية وسدانة الكعبة بعد ذلك وإنشاء دار الندوة لكى يشترك مع بقية رؤساء قريش فى إكمال عمل قُصى وعبد مناف وهاشم مما جعل مكة أكبر مركز مالى دينى حضارى فى الحجاز أولاً ، ثم الجزيرة كلها بعد ذلك.

وهذا كله وصل إليه عبد المطلب فيما بعد ، وعندما أتم عمله هذا كان قد وصل إلى الشيخوخة وأصبح بمواهبه التى ذكرنا بعضها سيد قريش وصاحب المكانة الرئيسية فى مكة ، وهنا - وهو يقترب من الثمانين - وُلِد رسول الله ﷺ ، وكانت قد مضت على عام الفيل سنوات طوال.

وقد تتبعنا هنا الأخبار كما يرويها أوثق مؤرخينا فيما يتصل بهذا الحادث والسيرة النبوية وتاريخ قريش قبل الإسلام ، أما ما يرد بعد ذلك فى تاريخ مكة للأزرقى وفى تفاسير المفسرين فقد جاء كله بعد ذلك وهو قد أوغل فى القصص الشعبى من بعض تفاصيل ابن إسحاق . وقد تتبعنا رواية هذا الأخير والتزمناها بغاية الدقة والتزمنا كذلك المنهج التاريخى الدقيق فى تفسيرها والاستخراج منها ، فخرجنا بغير النتيجة التى قدروها . ولا تعارض مع عاطفة أى مسلم - فيما أظن - أن يقال إن رسول الله ﷺ لم يُولد فى عام الفيل ، وإنما بعده بثلاثين سنة على أقل تقدير[1].

قُريش فى أوج قوتها قبل الإسلام :

نجت مكة وحرمها من التخريب على أيدى أبرهة بفضل الله سبحانه وعادت قريش تواصل صعودها ، لأن أبرهة بن الصباح عاد إلى اليمن ببقايا جيشه ولم يحاول غزو الحجاز مرة أخرى ، واستتم حكمه ٢٣ سنة وخلفه ابنه يكسوم أو يقسوم فحكم ١٩ سنة ثم خلفه مسروق فحكم ١٢ سنة .

وفى نهاية حكم مسروق نهض من أمراء حمير رجل يسمى سيف بن ذى يزن واستطاع أن يتغلب على الأحباش بمعاونة كسرى فارس الذى أرسل إلى اليمن قائداً من قواده يسمى وهذر عاون سيف بن ذى يزن على التخلص من سلطان الأحباش ،

---

(١) ابن إسحاق ، السيرة برواية ابن هشام ١/ ٤٤ وما بعدها - الأزرقى ، أخبار مكة ، وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسى بتحقيق فستنفلد فى كتابى : Wüstenfeld, Chroniken der Stadt mekka الجزءان الأول والثانى . وقد فضلت الرجوع إلى هذه الطبعة على طبعتى القاهرة للكتابين لأنها أصح وأدق ، وسيرة ابن هشام فى المواضع المشار إليها آنفاً ، وانظر فهارس الأغانى طبعة بولاق الذى عمله المستشرق جويدى - وترجمه محمد مسعود ، لأن الطبعات المصرية للأغانى لا فهارس لها ، والعقد الفريد . طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بتحقيق أحمد أمين وأحمد الزين - وآخرين ، وأنساب الأشراف للبلاذرى ، الجزء الأول بتحقيق محمد حميد الله ، طبعة دار المعارف ، وتاريخ اليعقوبى طبعة بيروت ، والبكرى معجم ما استعجم بتحقيق مصطفى السقا : المقدمة ومواد مكة والحجاز وتهامة ، وانظر كذلك : Henri Lammens , La Mécque à la veille de l'Hégire Beyrouth 1910 .

ثم عاد إلى بلاده بعد أن اطمأن كسرى إلى أنه أبعد الأحباش حلفاء الروم عن اليمن .

وبعد أن استتب الأمر لسيف بن ذى يزن قضى على بقية الأحباش وأعاد سلطان حمير ولكن الحميريين لم يعودوا إلى سابق قوتهم قبل أن يغزو الأحباش بلادهم واقتصر سلطانهم على صنعاء ، أما بقية نواحى اليمن ومحافدها فقد استبد بالأمر فى كل منها رجل من الأذواء جمع « ذو » وهو السيد أو صاحب السلطان وتلك هى نهاية الطبقة الثانية من ملوك حمير التى يذهب المؤرخون أنها انتهت فى حدود ٥٣٣ ميلادية أى فى نحو العصر الذى نتكلم عنه [١] . وكل هذه الأحداث وقعت قبل ميلاد الرسول ! ثم يصرون بعد ذلك على أن الرسول وُلِد عام الفيل !

وقد كانت دولة سبأ القديمة فى اليمن دولة حضارة وتجارة ، وإليها يرجع الفضل فى فتح طرق التجارة مع الهند والصين وشرق أفريقية وإنشاء أسواقها ، أما دولة حمير التى جاءت بعدها وبدأت حكمها سنة ١٢٥ ق . م . فقد كانت دولة حروب وفتوح ، وقد طالت أيامها وابتُلِيَتْ اليمن فى عصر الطبقة الثانية من ملوكها بالتدخل الحبشى الذى أشرنا إليه ودخول المسيحية ، وما أدى إليه ذلك من محاولة أبرهة بن الصباح غزو الحجاز لهدم الكعبة . وفى ذلك العصر تراخت أمور التجارة اليمنية ، ثم توقفت طرق التجارة من آسيا إلى بلاد الدولة البيزنطية عن طريق وسط آسيا ، فاشتدت حاجة الأسواق فى بلاد الشام وبقية بلاد دولة الروم وهى الدولة البيزنطية إلى بضائع آسيا وأفريقية وما كانت - نواحى جنوب جزيرة العرب تخرجه من حاصلات مطلوبة فى الأسواق مثل الصمغ واللبان والمرّ والزباد وهو عطر يستخرج من نوع من القطط البرية لا زال بعضها يعيش إلى اليوم فى جزيرة سُقُطرى .

وتلك هى الظروف التى انتفع بها هاشم بن عبد مناف وإخوته فى الدخول بالتجارة المكية فى عصرها الزاهر ، فذهب اثنان من إخوة هاشم إلى الحبشة واليمن وعقدا العصم مع ملوك الحبشة والحميريين فى اليمن والإيلاف مع القبائل العربية على الطريق من اليمن إلى مكة ، فاكتمل بذلك طريق التجارة من اليمن إلى الشام ، وانتظمت رحلتا الشتاء والصيف المذكورتان فى القرآن الكريم ، ومما يستلفت النظر

---

(١) انظر : موجز تاريخ اليمن فى كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجرجى زيدان وتعليقنا عليه ص ١٣٦ - ١٤٤ .

إلى معجزات ما فى القرآن الكريم أن سياق سورة قريش يدل على أن مرحلة تنظيم الأمور الدينية كان بعد الإيلاف أى تنظيم التجارة ، ومن المعروف أن وثنية قريش كانت لا تنكر أن الكعبة بيت الله وأنه سبحانه خالق السماوات والأرض ولكنهم أشركوا آلهتهم مع الله سبحانه فى العبادة ، فقالوا : إن آلهتهم بنات الله وإنها وسطاء بينهم وبين الله وأنهم يعبدونها زلفى . وإليك سورة قريش لنقرأها ونفهمها على ضوء الحقائق التاريخية :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش] فإيلاف قريش سابق هنا على رحلتى الشتاء والصيف وهما مصدر الخير الذى أطعمهم بعد جوع وآمنهم من خوف وكان عليهم أن يعبدوا رب هذا البيت سبب تلك النعمة التى جاءتهم ولكنهم لم يعبدوه خالصاً وأشركوا به ، وهذا هو التنظيم للوثنية العربية الذى أدخله عبد المطلب وسماه ابن إسحاق دين عبد المطلب ، ثم جاء محمد ﷺ ليُظهر دين الله الذى أدخله إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز ثم تناساه العرب - وأدخلوا فيه وثنيتهم وآلهتهم فصار شركاً بالله ، جاء محمد صلوات الله عليه ليزيل دين عبد المطلب ويُحل دين الله محله .

وجدير بالتأمل أن محمداً الذى بعثه الله ليزيل دين عبد المطلب كان حفيده وأحب الناس إليه وتربى فى كنفه وقضى السنتين الأخيرتين من حياة عبد المطلب فى حجره ، وكان عبد المطلب لا يحب أحداً من بنيه وحفدته حبه لمحمد ﷺ ، وكأنما كان رسول الله وهو يَعْدُ بين الطفولة والصبا يشعر بذلك . قال ابن إسحق : « وكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه هذا حتى يخرج إليه ، لايجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له . وكان رسول الله ﷺ يأتى وهو غلام حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابنى فوالله إن له لشأناً ثم يجلسه معه عليه ، فيمسح ظهره ويسره ما يراه يصنع »[١] .

(١) ابن إسحاق ، برواية النويرى ، نهاية الأرب ١٦/ ٨٨ .

ويريد ربك سبحانه أن يكون هذا « الشأن » هو إزالة دين عبد المطلب وإحياء دين جده إبراهيم أبى الأنبياء وأول المسلمين ، وفى نشأة رسول الله ﷺ فى كنف عبد المطلب ملامح من نشأة موسى فى كنف فرعون ، وتلك آيات من إعجاز الله فى خلقه وقرآنه وتعريفه لشئون عباده ، سبحانه لا رب سواه .

ونعود إلى ما وقفنا عنده من تاريخ عبد المطلب فنقول إنه واصل عمله بعد انصراف أبرهة ونجاة مكة من مَعَرة الجيش كما يقول ابن إسحاق ، ولا شك أن مَهَابة البيت زادت فى قلبه بعد الذى رأى من عظيم صنع الله ، ولكنه استمر وثنياً مشركاً على ما كان عليه هو وقومه ، يعرفون أن الله خالق الكون ولكنهم يشركون معه سبحانه آلهتهم وأكبرهم هبل ، وفيهم إناث مثل نائلة ومناة والعُزَّى يسمونهن بنات الله ويستشفعون بهم وبهن عند الله ، ولا شفاعة لأحد عند الله إلا بإذنه وبمشيئته ورضاه كما ورد فى الآية ٢٦ من سورة النجم .

ولا يتسع المجال هنا للكلام على وثنية العرب التى نظمها عبد المطلب وجعل أمرها كالدين المتبع ، فهذا لا يدخل فى نطاق بحثنا هذا ، والدراسات عنها كثيرة جداً، ولكننا نجتزىء من الكلام عنها بآيتين من كلام الله سبحانه فيهما غناء . وهما قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾ [العنكبوت] - وقوله سبحانه فى سورة الزمر : ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) ﴾ [الزمر] .

كان عبد المطلب هو الذى نظم تلك العبادات الدينية ، وأكمل بتنظيمه هذا بناء قوة قريش السياسية والاقتصادية والدينية فزادت مهابة قريش فى أعين العرب ، فقد توالى على رياستها أربعة من الموهوبين على نسق من عمود نسب واحد : قصى وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب ، وكانت الظروف مواتية لقريش ، فالحرب بين الفرس والروم على أَشُدِّها والتجارة بين الشرق والغرب منقطعة إلا عن الطريق من اليمن إلى الشام ومكة مركزها الأكبر ، والقرشيون أذكياء مهرة عرفوا كيف ينظمون أمر هذه التجارة ويربطون بينها وبين العبادات الوثنية ، فلم تعد مكة سوق الجزيرة الأكبر

فحسب بل محجها الأكبر أيضاً ، وقد أحسنوا سياسة أمورهم فزاد توافد الناس على بلدهم للحج والتجارة والاستمتاع وتناشد الأشعار والتعارف وتقارب الألسنة والأفكار كما سنرى بعد قليل .

وقد كان الجانب الأكبر من التجارة المكية تجارة مرور أى نقل التجارة من اليمن والحبشة إلى مكة وأسواقها ، ومنها إلى الشام حسب نظام الرحلتين الدقيق ، وإلى جانب الأسواق الموسمية فى ذى المجاز ومجنة وعكاظ كانت مكة سوقاً دائماً لكل أصناف هذه المتاجر ، وكانت تجارتهم فى مكة تجارة تخصص لا تجارة دكاكين ومخازن ، أى : أن كل مشتغل بالتجارة فى مكة كان له تخصصه والبضاعة فى بيته ، فهذا متخصص فى العطور وذلك فى الجلود أو العود أو الصندل أو العاج أو الأبنوس أو الحرير أو القطن أو السيوف أو الذهب أو الفضة وما إلى ذلك ، فإذا وفد التاجر الغريب على مكة قصد المتخصص فيها فى بيته فباع منه أو اشترى ، وعندما نقول إن رسول الله كان يشتغل بالتجارة فهذه صورة ممارسته لها ، ولم يكن صلى الله عليه وسلم بصاحب دكان كما جاء فى المادة التى أداروها عليه فى إحدى طبعات دائرة المعارف البريطانية وكما يزعم المستشرق مكسيم رودانسون فى كتابه المعروف عن الإسلام والرأسمالية .

وكان عبد المطلب وبنو هاشم وحلفاؤهم معهم يُلْزِمون التجار بسلوك أخلاقى دقيق من حسن المعاملة والأمانة وإحسان لقاء التاجر واستضافته وتأمينه وأدائه حقه . وعلى هذا انتظمت أمورهم وزادت ثرواتهم واتسعت تجارتهم . وكان المشرفون على التجارة ونظمها وسلوكياتها بيت عبد المطلب وبنيه وخاصة بنى هاشم والمطلب ابنى عبد مناف وبيت زهرة بن كلاب وبيت تيم بن مرة وبيت الحارث بن فهر وبيت أسد ابن عبد العزى . ويضيف بعض الرواة بيت عَدىّ بن كعب ، ولكن وجود بنى عدى فى هذه الجماعة مختلف فيه ، ويبدو أن الرواة أضافوه فيما بعد إكراماً لعمر بن الخطاب حتى يجتمع بيت رسول الله وبيتا أبى بكر وعمر فى جانب واحد .

وعندما كبرت سِنُّ عبد المطلب وشاخ وهَطَلَ عن العمل انتقلت الرياسة الاسمية إلى ابنه الزبير ، ولم يكن بالزبير بن عبد المطلب بأس ، فقد كان رجلاً ذا كفاية ولكن

بيوت قريش الأخرى أنجبت رجالاً غلب عليهم الطمع فى مكاسب التجارة والجشع فى خيراتها وخاصة بنوعبد شمس بن عبد مناف وبيت نوفل بن عبد مناف وبيت مخزوم وهم بنو يقظة بن مرة وبيت سهم وجمح ابنى عمرو بن هُصيص بن كعب .

ورجال هذه البيوت شرهت نفوسهم إلى المكاسب وجَمع بعض رجالها ثروات ضخمة وبهذه الثروات ازداد جاههم واستبدادهم وفسادهم ، فتخلوا عن أخلاقيات عبد المطلب وظلموا صغار التجار وغرباءهم ، وعندما مات عبد المطلب فى حدود ٥٧٩ ميلادية (لأنه توفى ورسول الله ابن ثمان سنين) انتقلت الرياسة فعلاً إلى الزبير ابنه ، وهو شقيق عبد الله والد رسول الله ﷺ ، ولا نظن أنه كان أكبر ولده بعد الحارث، وعجز الزبير عن كبح جماح هذا النفر من القرشيين الذين سيطروا على مكة بأموالهم وأتباعهم وخالفوا كل قاعدة كان وضعها عبد المطلب وأبوه هاشم وجدُّه عبد مناف . والبلاذرى يعطينا فى جزء من أجزاء أنساب الأشراف ، نُشِر حديثاً ، كلاماً طويلاً عن الزبير ولكنه لا يجيبنا عن سؤال واحد مما يهمنا من أمره ، ولكنه يقول إنه أول من تكلم فى حلف الفضول ودعا إليه .

ثم يعطينا البلاذرى أسباب عقد هذا الحلف فيقول : « إن الرجل من العرب أو العجم كان يقدم بالتجارة فربما ظُلِم بمكة فقدم رجل من زبيد (من بنى سعد العشرة) بسلعة فباعها من العاص بن وائل السهمى فظلمه فيها وجحده ثمنها فناشده الله فلم ينفعه ذلك عنده ، فنادى ذات يوم عند طلوع الشمس وقريش فى أنديتها :

يَا آلَ فِهْرٍ لمظْلُومٌ بِضَاعَته ... ببطْنِ مَكَّة نَائِى الحَىّ والنَّفَر

ومُحرِمٌ أشْعَثُ لم يَقْضِ عُمْرته ... يَا آلَ فِهْرٍ بيْنَ الحِجْر والحَجَر

فقال الزبير : ما لهذا مَتْرك ، فجمع إخوته ، واجتمعت :

بنو هاشم

وبنو المطلب بن عبد مناف

وبنو أسد بن عبد العزى بن قصى

وبنو زهرة بن كلاب

فى دار أبى زهير عبد الله بن جدعان القرشى ثم التيمى فتحالفوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً إلا نصروه ورفدوه وأعانوه حتى يؤدَّى إليه حقه ويُنْصِفَه ظالمه من مظلمته وعادوا عليه بفضول أموالهم ما بَلَّ بحرٌ صوفه ، وأكدوا ذلك وتعاهدوا عليه وتماسحوا قياماً ، وشهد رسول الله ﷺ ذلك الحلف فكان يقول :ما سرنى بحلف شَهدته فى دار ابن جدعان حُمر النعم ، فسمى الحلف حلف الفضول لبذلهم فضول أموالهم»[١] .

ثم يعطى البلاذرى تفسيراً آخر لاسم الفضول قال : لِتَكَلُّفِهم فضولاً لا يجب عليهم وتفسيراً ثالثاً ظاهر الافتعال .

ثم يضيف أنهم قاموا على العاص بن وائل السهمى حتى رد على الرجل ماله ، وقال الزبير فى ذلك شعراً .

ثم يضيف مثالاً آخر من ظلم صغار التجار بمكة ، والضحية فيه تاجر من بارق ، وبارق هم بنو سعد بن عدى بن حارثة من اليمن ، والمعتدى أبىّ بن خلف الجُمحى - جمح أبناء عم بنى سهم - وهنا أيضاً نجد أهل حلف الفضول يأخذون للرجل حقه .

وحادثة ثالثة ضحيتها رجل من خثعم (من اليمن) والمعتدى من بنى سهم بن عمرو هصيص فقد غصب الرجل ابنته فقام أصحاب حلف الفضول بإرغام السهمى على إعادة البنت لأبيها . فالعدوان فى تلك الحالات الثلاث التى يذكرها البلاذرى جاء من ناحية فرعى هصيص بن كعب ، وهم فى حساب المسعودى من قريش الظواهر[٢] ، وقريش الظواهر هم فى الغالب أولئك الذين لزمهم اسم فهر فيما قلناه ، ويؤيد ذلك أن الزّبيدى الذى ظُلم أولاً عندما استجار بآل فهر ، قوم العاص بن وائل السهمى ، فلما لم يجد نصفةً استجار بآل قصى ، وهم صلب قريش فأنصفه أهل حلف الفضول ، وكلهم من صميم قريش وقال :

(١) نشر هذا الجزء من الأنساب الشيخ محمد باقر المحمودى دون أن يحدد أى جزء يكون من الكتاب ، ولكنه يقع فى الجزء الأول من تقسيم أجزاء أنساب الأشراف الذى أورده د . محمد حميد الله فى الجزء الأول من أنساب الأشراف الذى نشرته له دار المعارف فى القاهرة ١٩٥٩ .

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، طبعة القاهرة ١٩٦٤ . ٢/ ٥٩ .

يآل قُصَى ! كيفَ هَذَا فى الحرم وحُـرْمة البيتِ وأخلاق الكَرم

أُظْلَم لا يمنع منى مَنْ ظَلِم !

فكان هذا الرَّجَز هو الذى حرك الزبير بن عبد المطلب إلى عقد حلف الفضول على ما قلناه .

ولكن يبدو أن قيام حلف الفضول ، والحلف المناهض له - وهو حلف الأحلاف - كانت لهما أسباب أعمق وأبعد ، فإن قريشاً فى طريقها إلى التَّكَوُّن ، وقع فيها الصدع الذى فرق بين جماعة قريش وجماعة فهر ، ثم عمل قصى على لم الشعث عند دخوله مكة فآوى بيوت فهر المنفصلة عن قريش وجمعها وأسكنها ظاهر مكة ، فكانت قريش الظواهر . فإن المسعودى يذكر حِلفاً يسميه بالمطيبين يتكون من :

بنى عبد مناف بن قصى

وبنى أسد بن عبد العزى بن قصى

وبنى زهرة بن كلاب أخى قصى

وبنى تيم بن مرة بن أخى كلاب والد قصى

وبنى الحارث بن لؤى من قريش الظواهر

والظاهر أن كتلة المطيبين هنا هى كتلة ترتبط أشد الارتباط بقُصىّ ، ولنا على ذلك دليل وهو انضمام بنى الحارث بن لؤى إليهم ، فبنو الحارث هؤلاء كانوا بيتاً مخلخلاً انضم فريق منه يسمى جشم إلى بنى هزان من ربيعة . والبقية فيما يبدو انضمت إلى جماعة قصى . والمطيبون أخذوا اسمهم من جَفنة طِيب غمسوا أيديهم فيها تأكيداً للحلف . وأقرب ما يقال فى هذا الحلف أن قصياً عندما استقر له الأمر فى مكة وجمع قريشاً فيها عقد هو وخاصة قومه حلف المطيبين فكانوا نواة قريش وصميم قوتها . فلما حدث التخلخل أيام الزبير بن عبد المطلب وأحس أنصاره بالخطر على مجتمعهم المكى وتقاليده قام الزبير بتوكيده فى صورة حلف الفضول وهو فى أحسن التفسيرات حلف أهل الفضل أو الأفاضل ، ولا غرابة والحالة هذه من أن يذكر رسول الله هذا

الحلف الجاهلى بالخير ، مع أنه ﷺ ألغى الأحلاف والتكتلات داخل الجماعة الإسلامية بحديثه المأثور : لا حلف فى الإسلام . أى : لا تحالفات فرعية داخل أمة الإسلام الواحدة .

والتصدع داخل قريش بدأ بعد موت قصى ، فإن كبير أولاده عبد الدار أراد أن يخلفه فى الرياسة ، ولكن أخاه عبد مناف تمكن من انتزاع الرياسة منه ، واعتز فى ذلك بعصبة أبيه قصى وهم حلف المطيبين التى ذكرناها ، واعتز عبد الدار بجماعة أخرى من قريش هم :

بنو يقظة بن مرة بن كعب وهم مخزوم

بنو سهم بن هصيص بن كعب

بنو جمح بن هصيص بن كعب

وهذا هو حلف الأحلاف أو لعقة الدم الذى انضم إليه بنوعبد شمس فيما بعد ، وقد تمكن عبد مناف من رأب هذا الصدع وجمع قريشاً كلها إلى جانبه . ولكن الصدع عاد فظهر أيام هاشم عندما تحداه أمية ابن أخيه عبد شمس ونافره ، فانتصر عليه هاشم وتمكن من جمع الشمل وخلفه عبد المطلب فعرف كيف يُقَوِّى وحدة قريش ويرفع شأنها ويزيد جاهها بما أضافه من عنصر الدين، فأصبح أمر قريش كلها معقوداً - بلواء بنى عبد المطلب بن هاشم ، ولكن جماعة حلف الأحلاف رفعت لواء التحدى بعد عبد المطلب وقيام الزبير بالأمر فكان هذا دافعاً له لإحياء حلف المطيبين فعقد حلف الفضول ، وهو توكيد لحلف المطيبين .

ولكن الانكسار الحاسم فى وحدة قريش كان قد تجسد وأصبح حقيقة ، وقبيل مبعث رسول الله ﷺ كانت قريش فعلاً قد انقسمت إلى جماعتين : جماعة بنى هاشم وأحلافهم يمثلون تقاليد عبد المطلب وقواعده الأخلاقية والدينية ، وجماعة بنى عبد شمس وأحلافهم ممن ذهبوا مع الإفادة من مكاسب التجارة إلى أقصى مداها مما كاد يفسد المجتمع المكى ويُعرِّضه للخطر ، وهاتان الجماعتان تتركبان كما يلى :

حلف الفضول وهم أصلاً حلف المطيبين	الأحلاف أو لعقة الدم
بنو هاشم بن عبد مناف	بنو عبد شمس بن عبد مناف
بن المطلب	بنو مخزوم بن يقظة
بنو زهرة	بنو سهم بن هصيص
بنو تيم بن مرة	بنو جمح بن هصيص
بنو الحارث بن فهر	بنو عبد الدار بن قصى

والغالب أن حلف المطيبين عُقِد فى أيام هاشم بعد أن استقر له الأمر وتخلص من تحدى ابن أخيه أمية بن عبد شمس إياه ، وفى أيام الزبير بن عبد المطلب دعت الضرورة إلى إحياء هذا الحلف لمواجهة حلف الأحلاف أو لعقة الدم ، فعقد حلف الفضول من أنصار بنى هاشم ، وظلت جبهة الأحلاف قائمة يتزعمها بنو عبد شمس وبنو مخزوم ومن انضم إليهم . وقد اختلط أمر الحلفين - المطيبين والفضول على البلاذرى فقال : «وكان هاشم بن عبد المطلب حاضراً حلف المطيبين فكيف يحضره رسول الله ﷺ إلا أن بطون المطيبين هم الذين تعاقدوا أيضاً على حلف الفضول، فأحسب هذا الحلف نُسِب إليهم أيضاً»[1] وقد وضحنا حقيقة ذلك.

انقسام قريش إلىَ مُعسكرَين وَدخول الفسَاد إليهَا :

وقد ضربنا أمثلة لما نال البناء الأخلاقى والمعنوى لقريش فى أواخر أيام عبد المطلب وعجزه فى شيخوخته عن ضبط الأمور فى مكة . وقد رأينا أن الأمر استشرى بعد عبد المطلب وعجز الزبير ابنه عن الحفاظ على سلامة البناء ، فاضطر إلى عقد حلف الفضول للوقوف فى وجه التدهور وتخطى القواعد التى رسمها بناة قريش الذين ذكرناهم ، ومن هذه الناحية استشرى الوهن فى المجتمع القرشى ، ولم تعد مكة بقيادة قريش ذلك المركز التجارى العمرانى القائم الذى رأيناه أيام عبد المطلب .

والأمثلة التى ذكرناها كلها ترجع إلى أيام الزبير ، فلما انتهت رياسة الزبير بوفاته فى الغالب - انتقل الأمر إلى أخيه أبى طالب ، ولم يكن بأقوى من أخيه الزبير ، بل زاد الفساد وكثر التعدى على صغار التجار الغرباء ، وتجمعت ثروات ضخمة فى أيدى

---

(١) أنساب الأشراف ، ٢ / ١٥ .

أولئك الذين قبضوا على زمام التجارة ، ومعظمهم من حلف الأحلاف أو لعقة الدم ، وهم حزب بنى عبد شمس ومخزوم ومن انضم إليهم . وقد وقع ذلك فى سنوات شباب رسول الله ﷺ، وقد حضر بنفسه حلف الفضول فى دار عبد الله بن جدعان شيخ بنى تيم بن مرة قبيل أبى بكر الصديق. ولم يكن بنو تيم بن مرة من كبار بيوت قريش بل ربما كانوا فى الأصل من قريش الظواهر، ولكن عبد الله بن جدعان كان رجلاً ماهراً تجمعت له ثروة كبيرة جداً تأتَّت فيما قيل من كنز عثر عليه ولكن ذلك مستبعد ، والغالب أن الرجل جمع تلك الثروة من التجارة ، وسنرى بعد قليل أن الكثيرين ممن استغلوا الناحية التجارية إلى أقصى حد استطاعوا أن يجمعوا ثروات تزيد على ما جمعه عبد الله بن جدعان .

ونلاحظ أن قيادة القوافل انتقلت من بنى هاشم إلى رجال آخرين من بنى عبد شمس ومخزوم وحلفائهما ، ولما كان بنو هاشم يضطلعون بالمسئوليات المكلِّفة مثل الرفادة والسقاية والحجابة والندوة فإن ثرواتهم كانت فى تناقص فى حين أن ثروات خصومهم ازدادت ضخامة عن طريق الاستبداد بأمر التجارة أولاً ثم عن طريق المظالم والقهر والعدوان على الضعفاء وأموالهم ، وسترد أمثلة كثيرة على ذلك فى الفصل التالى الذى سنتكلم فيه عن موقف قريش من الإسلام.

ولكننا نقف هنا عند مظهر آخر من مظاهر الوهن والفساد الذى دب فى كيان النظام القرشى ، وهذا المظهر سيتجلى فى ناحية التنظيم الدينى. وكان عبد المطلب قد جمع العقائد الوثنية وغيرها ووضع أصنامها جميعاً حول الكعبة وجعلها على قدم المساواة بين الأوثان وأصحابها ، وأسقط الامتيازات التى كانت تتمتع بها بعض القبائل فى بعض نواحى مناسك الحج مثل عرفات ومنى. وقد اعتبر عبد المطلب مواقف الحج ومواقعه كلها داخلة فى الحرم حتى عرفات ، أى أن أراضيها وسكانها يتمتعون بحرمة الأراضى المقدسة وأمانها ، فاتجهت هذه الفئة المستبدة بأمر مكة إلى تمييز نفسها على غيرها وقصر منطقة الحرم على بطن مكة ، وما عدا ذلك فقد جعلوه من الحل أى المناطق التى لا يـُحُرم فيها القتال أو العدوان أو الصيد وما إلى ذلك .

ونقول : إن هذا الانحراف جاء على أيدى الجبهة المعارضة لبنى هاشم ، لأننا

سنرى أن بنى هاشم ويمثلهم أبو طالب كانوا دائماً إلى جانب العودة بمناسك الحج إلى ما كانت عليه فى الزمن القديم ، وسنرى أن رسول الله فى حجة الوداع التى ثُبتت فيها مناسك الحج الإسلامى بصورة دائمة أعاد لكل مواقع المناسك حتى عرفات حرمتها فيما عدا وادى عُرنة ووادى مُحَسِّر ، ونص على هذه المناسك فى عمله وفى خطبة الوداع وشدد فى تحريم الربا والنسىء والتفرقة بين مواقف الحج .

وفى صفة حجة الوداع عند الواقدى نقرأ الخبر التالى عن ابن عباس : «إن رسول الله ﷺ وقف بالهِضاب من عرفة فقال : كل عرفة موقف إلا بطن عُرَنة، وكل المُـزْدَلفة موقف إلا بطن مُحَسِّر ، وكل منى مَنْحَر إلا خلف العقبة . قالوا : وبعث رسول الله ﷺ إلى من هو بأقصى عرفة فقال : الزموا مشاعركم ، فإنكم على إرث من إرث إبراهيم»[١] وهذا يدل على أن هذا الموضع من عرفة كان من بين مواقف الحج الأصيلة أيام إبراهيم عليه السلام ، ولكن قريشاً غيَّرت ذلك فى الجاهلية ، فقد روى الواقدى عن أحد رواته أنه رأى رسول الله «وقد دفع من عرفة إلى جمع (المزدلفة). والنار توقد بالمزدلفة وهو - أى رسول الله ﷺ - يؤمها حتى نزل قريباً منها» ، وأضاف «أن سليمان بن عبد الملك رأى تلك النار عند المزدلفة فى حَجِّهِ فسأل رجلاً يسمى خارجة بن زيد عنها قائلاً : متى كانت هذه النار يا أبا زيد ؟ قال : كانت فى الجاهلية ، وضعتها قريش (وقالت): لا تخرج من الحرم إلى عرفة [٢]. تقول : نحن أهل الله ! ولقد أخبرنى حسان بن ثابت وغيره فى نفر من قومى أنهم كانوا يحجون فى الجاهلية فيرون هذه النار » [٣].

وقال الواقدى بشأن ذهاب رسول الله إلى عرفة فى حجة الوداع : «قالوا : وكانت قريش لا تشك أن رسول الله ﷺ لا يجاوز المزدلفة يقف بها . فقال له نوفل بن معاوية الدِّيلى، وهو يسير إلى جنبه : يا رسول الله ، ظن قومك أنك تقف بجَمْع (المزدلفة) ، فقال رسول الله ﷺ : لقد كنت بعرفة قبل النبوة خلافاً لهم . وقال جبير بن مطعم :

---

(١) الواقدى ، مغازى ٣/ ١١٠٣ - ١١٠٤.

(٢) أضاف الناشر المستر مارسدن جونز لفظ (الا) بين معقوفتين قبل لفظ تقول ، ولا مجال لهذه الزيادة بل هى تفسد المعنى انظر جـ٣/ ١١٠٥.

(٣) الواقدى، مغازى : ٣/ ١١٠٥.

رأيت رسول الله يقف بعرفة قبل النبوة ، وكانت قريش كلها تقف بجمع إلا شيبة بن ربيعة ، وأن موسى بن عقبة حدثنى عن عمه عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان ، عن أسماء بنت أبى بكر ، قالت : كان شيبة بن ربيعة من بنى قريش يقف بعرفة عليه ثوبان أسودان ، وزمام بعيره من شعر بين غرزين أسودين حتى يقف مع الناس بعرفة ، ثم يدفع بِدَفْعِهم ، وكانت قريش تقول : نحن لا نتكلم مع الناس - يعنى العرب - فقد كانت العرب تقف بعرفة ، وقريش بجمع تقول : نحن أهل الله »[1] .

ومعنى ذلك أن قريشاً فى الجاهلية ميزت نفسها بالوقوف بجَمع فى حين أن بقية الناس يقفون بعرفة ، وهذا التمييز لابد أن يكون قد تم بعد عبد المطلب ، بدليل أن رسول الله كان إذا حج فى الجاهلية وقف بعرفة مع بقية الناس، ويدفع منها مع الناس إلى جمع وهى المزدلفة ، والمراد بقريش هنا هى جماعة الذين أدخلوا التغيير على دين عبد المطلب بدليل أن الخبر يستثنى من ذلك التغيير شيبة بن ربيعة بن عبد شمس وهو من كبار رجال الأحلاف ، وفيهم عبد شمس.

وتفصيل هذا الخبر وارد عند ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق وهو وارد فى المحبر لمحمد بن حبيب النسابة ، وفى كتاب الأصنام للكلبى ، وفى أخبار مكة للأزرقى ، ولكن نص ابن إسحاق هنا أوضح وأكثر تفصيلاً ، وهو وارد تحت عنوان حديث الحُمُس ، وهو يعطينا فكرة عما أحدث نفر من القرشيين من التغيير فى القواعد التى ضبطها عبد المطلب ، والمراد بقريش هنا جماعة المعارضين الخارجين على بنى عبد المطلب ، ومن هنا فإن هذا التغيير وابتداع أمر الحُمُس حدث بعد عبد المطلب.

قال ابن إسحاق تحت عنوان حديث الحُمُس :

١ - وقد كانت قريش - لا أدرى أقبل الفيل أم بعده - ابتدعت رأى الحمس، رأياً رأوه وأداروه . فقالوا : نحن آل إبراهيم وولاة الحرم، وولاة البيت قُطَّان مكة ومساكنها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف .

---

(١) الواقدى ، مغازى ٣/ ١١٠١ - ١١٠٢(انظر جـ٣ ص ١١٠٥).

٢ - فلا تعظمون شيئاً من الحِلّ كما تعظمون الحرم ، فإنكم إن فعلتم ذلك استخَفَّت العرب بحرمتكم ، وقالوا : قد عظموا من الحل مثلما عظموا من الحرم .

٣ - فتركوا الوقوف على عرفة ، والإفاضة منها ، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ﷺ ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها .

٤ - إلا أنهم قد قالوا : نحن أهل الحرم ، فليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرم ولا نعظم غيرها كما نعظمها . نحن الحُمس والحمْس أهل الحرم.

٥ - ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذى لهم بولادتهم إياهم يَحِلُّ لهم ما يحل لهم ، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم.

٦ - وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم فى ذلك ، قال ابن هشام : وحَدَّثنى أبو عبيدة النحوى قال : إن بنى عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن دخلوا معهم فى ذلك ، وأنشدنى لعمرو بن معد يكرب :

أَعبَّاسُ لَوْ كَانَتْ شِيَاراً جيادُنَا

بِتَثْلِيثِ ما نَاصَيْتَ بعدى الأَحَامِسَا

قال ابن هشام : تَثليثُ موضع من بلادهم ، والشيارُ الحسان . ويعنى بالأحامس بنى عامر بن صعصعة. وبعباس عباس بن مرداس السُّلَمى ، وكان أغار على بنى زبيد بتثليث .

وأنشدنى اللقيط بن زرارة الدارمى فى يوم جبلة :

اجْذِم إليكَ إنها بَنُو عَبْسٍ المعشَرِ الحلّة فى القَوْم الحُمسِ

لأن بنى عبس كانوا يوم جَبَلَة حلفاء فى بنى عامر بن صعصعة .

٧ - ثم ابتدعوا فى ذلك أموراً لم تكن لهم حتى قالوا : لا ينبغى للحمس أن يأتقطوا الأقط ولا يسلئوا السَّمن وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتاً من شعر ، ولا يستظلوا إذا استظلوا إلا فى بيوت الأدم ما كانوا حرماً.

٨ - ثم رفعوا فى ذلك فقالوا : لاينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم ، إذا جاءوا حجاجاً أو عُمّاراً.

٩ - ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا شيئاً طافوا بالبيت عراة ، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس، فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولا يمسها هو ولا أحد من قومه أياماً ، فكانت العرب تسمى تلك الثياب اللَّقى.

١٠ - فحملوا على ذلك العرب فدانت به ، ووقفوا على عرفات وأفاضوا منها ، وطافوا بالبيت عراة ، أما الرجال فيطوفون عراة ، أما النساء فتضع إحداهن ثيابها إلا درعاً مُفْرجاً عليها ثم تطوف فيه.

ومن طاف منهم فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها فلم ينتفع بها لا هو ولا غيره. فقال قائل من العرب يذكر شيئاً تركه من ثيابه فلا يقربه ، وهو يحبه :

كَفَى حُزْناً كَرِّى عَلَيْهِ كَأَنَّهُ   لقى بين أيدِى الطائِفين حَرِيمُ

يقول : حريم أى لا تمس .

١١ - فكانوا كذلك حتى بعث الله محمداً ﷺ فأنزل عليه حين أحكم له دينه وشرع له سُنَن حَجِّه ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩) ﴾ [البقرة] يعنى قريشاً ، والناس العرب، فرفعهم (كذا فى الأصل والأصوب هنا : فَرَجَعهم) فى سنة الحج إلى عرفات والوقوف عليها والإفاضة منها.

١٢ - وأنزل الله فيما كانوا حرَّموا على الناس من طعامهم ولباسهم عند البيت حين طافوا عراة ، وحرموا ما جاءوا به من الحل من الطعام: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) ﴾ [الأعراف] .

فوضع الله تعالى أمر الحُمُس ، وما كانت قريش ابتدعت منه على الناس بالإسلام حين بعث الله به رسوله ﷺ .

١٣ - قال ابن إسحاق: حدثنى ... ... لقد رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى، وإنه لواقف على بعير له بعرفات مع الناس من بنى قومه حتى يدفع معهم منها ، توفيقاً من الله له ﷺ [١] .

والآن نُفصِّل ما فى هذه الفقرة الطويلة على ضوء ما ذكرنا من الحقائق فنجد فيها تفصيلاً وتوضيحاً لبعض الذى قلناه فى أمر اتجاه فريق من قريش - هم الذين يعادون الفضول وحلفهم - إلى تحقيق منافع خاصة بهم من وراء الحج.

وينبغى أن نلاحظ أن شراح سيرة ابن هشام - القدامى منهم مثل السهيلى ف الروض الأنف ، والمحدثون ومنهم من نشروا سيرة ابن هشام وحققوها - ذلك التحقيق الجيد المتداول بين الناس - لم يفطنوا إلى ما وراء هذه التفاصيل حاسبين أن قريشاً فعلت ما فعلت كفراً منها بدين إبراهيم وجهلاً وطغياناً حتى أعاد الله الأمر إلى نصابه وعاد بالحج ومناسكه إلى سنة الله التى كان عليها إبراهيم الخليل.

وهؤلاء جميعاً يضعون قريشاً كلها فى الحُمُس مع أن رسول الله ﷺ وبعض قومه من بنى هاشم وحلفائهم رفضوا الانسياق مع جبهة المبتدعين لهذه الأمور المخالفين لسنة الحج الأولى ، وهى التى التزمها رسول الله ﷺ وقومه قبل الإسلام وكان التزامهم إياها جزءاً من المحافظة على التقاليد الدينية التقليدية التى ضبطها وأحكم أمرها عبد المطلب بن هاشم (انظر الفقرة ١٣) من النص الذى أتينا به.

١ - فأما الفقرة الأولى فتنص على أن قريشاً ابتدعت الحُمُس هذا من عند نفسها بدافع الأنانية والغرور، فقد زعموا أنهم سكان مكة وسادتها ، ولهذا فهم أفضل من بقية العرب وأنهم أعرف الناس بشئون المناسك . فأما ما ورد فى هذه الفقرة من النص من أنهم قالوا إنهم بنو إبراهيم وأهل حرمه ، فإضافة من الرواة لأن قريشاً قبل الإسلام لم تكن تقول بأنهم أبناء إبراهيم. إنما وجد هذا الإحساس عند عبد

(١) ابن هشام ، السيرة ١/ ٢١١ - ٢٢١.

المطلب ومن كان على دينه وهم المطيبون ثم الفضول ومع ذلك فما كانت فكرة الله الواحد واضحة عند عبد المطلب ، ولا كانت فكرة الانتساب إلى إبراهيم واضحة عنده . وقريش المذكورة فى هذه الفقرة هم فريق قريش المبتدع - المباعد لقواعد الخلق الفاضل والمساواة بين الناس ، هم المناهضون لرأى الفضول الذين أثنى رسول الله على حلفهم وقال إنه لا يعدل به حمر النعم ، فكيف يقول ذلك إلا وهو يرى فيه تأييداً لما كان هو وقومه يقومون به من الالتزام - بمكارم الأخلاق والتزام سنة عبد المطلب فى الحج وغيره ، وهذا المعنى للفظ قريش جديد هنا وهو أثر من النظرة الرجعية من جانب المؤرخين على عادتهم من العودة بما كان قبل الإسلام إلى ما كان بعده ، وقد نبهنا إلى هذا المعنى مرة بعد أخرى .

وإذن فقريش التى ابتدعت نظام الحمس بتفاصيله ليست قريش حلف الفضول ، فإن الفضول - أى الأفاضل - لا يقولون إنهم خير من سواهم من العرب ، وأنهم ينبغى أن يميزوا أنفسهم بأشياء وأنهم إذا ساروا فى ركاب غيرهم وفعلوا فعلهم استخفت بهم العرب.

٢ - ولهذا فقد قصروا الحرمة كلها على مكة ، ورفضوا أن يمتد نطاق حرمة مكة وكعبتها حتى عرفات . وإذا خرجوا للحج لم يتجاوزوا جمعاً وهى مزدلفة كما رأينا فى كلام الواقدى الذى أوردناه عن حجة الوداع .

ثم أطلقوا على أنفسهم اسم الحُمس أو الأحامس ، وهو لفظ لا نعرف معناه على وجه التحديد وإن كان شراح السيرة من القدامى والمحدثين يزعمون أنهم يعرفون هذا المعنى حق المعرفة وتفسيره على وجه التقريب لا التحديد فى رأينا أنهم زعموا أنهم أفضل العرب وأهل الحرم والحرمة وأعرف الناس بمناسك الحج ، أو أن لهم فيه مناسك أخرى يتميزون بها عن الناس (انظر الفقرتين ٣ ، ٤).

وفى الفقرة الخامسة نجد هذا الفريق من القرشيين الذين قالوا بامتياز أنفسهم على غيرهم وقصر الحرمة على مكة ، وما رأوا من الاقتصار من مناسك الحج على جمع دون

عرفات ، فإذا وصلنا إلى الفقرة الخامسة بدأنا نرى بعض الدوافع لابتداع فكرة الحمس أو الأحامس . وقد قررنا فيما سلف أن الذين ابتدعوا ذلك لم يكونوا أصحاب حلف المطيبين أو الفضول فإن محمداً ﷺ كان من هؤلاء ، وقد حضر حلف الفضول وأثنى عليه .

وهذا الحلف مناهض لاتجاه الانحراف عن القواعد الأساسية التى وضعها قصى وخلفاؤه لقريش فى مكة وأقاموا بها مجد القبيلة بأسرها ، فأدت الغيرة بنفر من خصوم هاشم وبنيه إلى تحديهم ومحاولة التقليل من شأن ما كانوا يعملون من الرفادة والسقاية ورعاية الحاج وإكرام ضيوف مكة ومعاملتهم بالحسنى دون تفرقة اجتذاباً لهم واستئلافاً لقلوبهم فقوى مركز قريش كلها ، فلما نزعت الجماعة المناهضة لبنى هاشم وجماعتهم نزوع التحدى والتطاول بالمال وجدوا أنهم لا يثبتون لبنى هاشم فسعوا إلى تكثير عددهم بأن يضموا إلى صفوفهم ناساً من غير قريش، وأدخلوهم معهم فيما زعموا لأنفسهم من تميُّز عن غيرهم ، ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذى لهم ، فبولادتهم إياهم يحل لهم ما يحل لهم ، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم فدخلت معهم فى ذلك بعض كنانة وخزاعة وبنى عامر بن صعصعة (وهؤلاء جميعاً يسكنون الحجاز) وهذه كلها حقائق تنفعنا فى فهم مواقف العرب من أهل الحجاز من الدعوة الإسلامية ، فإن كفار قريش ومن لف لفهم نظروا إلى الدعوة الإسلامية على أنها دعوة هاشمية أراد بها بنو هاشم استعادة مركزهم والوقوف فى وجه منافسيهم من الأحلاف أو لعقة الدم .

وفى الفقرتين ٧ و ٨ نرى جوانب من الدوافع الاقتصادية وراء القول برأى الحمس ، فهم يريدون أن يستغلوا الحجاج وزوار مكة إلى أقصى حد ، ويستخرجوا منهم أقصى ما يستطيعون من مال :

أ - فهم يحرمون على أنفسهم الزبد وهو الأقط هنا ، وذلك لكى يبيعوه من الحجاج كما سنرى ، وكذلك لا يُصَفُّون السمن من أوشابه لكى يبيعوه بكل ما فيه ويزداد ربحهم منه ، ولهذا فقد حرموا على زوار مكة القادمين من خارجها وهم الحل أن يدخلوا مكة بطعام أتوا به معهم من خارج مكة وفرضوا عليهم ألا يطوفوا إلا فى

ثياب يأخذونها – أى يشترونها أو يكترونها من الحمس أى هذا الفريق القرشى ، ومن لم يشتر من غير المكيين ثياباً أو يكتريها ليطوف بها طاف عرياناً ، فإذا هو لبس ثياباً من مكانه أثناء الطواف كان عليه أن يلقيها بعد الطواف فلا يستعملها هو أو غيره بعد ذلك ، والناس فى هذه الحالة مضطرون إلى شراء الثياب من القرشيين كما كانوا ملتزمين بشراء الطعام منهم وبلغ من تشددهم فى ذلك أن بعض الناس ممن اضطروا إلى إلقاء ثيابهم العزيزة عليهم قالوا شعراً يشكون به من هذا الاستبداد.

ب – ولهذا كله ، وعندما جاء الله بالإسلام ألغى ذلك كله فألغيت حكاية الاقتصار فى الحرم على مكة وامتدادها إلى جمع وهى مزدلفة وأمر القرشيين بأن يفيضوا من حيث أفاض الناس ، وكان محمد ﷺ وقومه لم يغيروا السُّنة الأولى .

ثم ألغى القرآن الكريم تلك القيود التى وضعها هذا النفر من القرشيين ، وأطلق للناس حرية المطعم والمشرب بلا قيود إلا الاعتدال لأن الله لا يحب المسرفين ، ثم يسأل القرآن الكريم – فى معرض البيان – ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف] ويجيب الله سبحانه – مزيداً فى البيان فيقول : ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف] أى : يريدون أن يعلموا الحقائق ، ويؤكد ابن إسحاق ذلك كله فيقول فى ختام هذه الفقرة : «فوضع الله تعالى أمر الحُمُس ، وما كانت قريش ابتدعت منه على الناس بالإسلام . حين بعث الله به رسوله ﷺ[1]». فرأى الحمس أو مذهبه هذا كله كان ابتداعاً من هذا النفر من القرشيين الذى ذهب بهم الجشع كل مذهب فلم يقنعوا بالرزق الحلال بل استبد بهم الجشع ، فأرادوا من الناس ألا يأكلوا ولا يلبسوا أثناء مقامهم بمكة فى أثناء الموسم إلا ما يشترونه من قريش فى مكة وذهبوا مع الربا إلى غايات بعيدة ظلموا فيها الناس ظلماً بيناً ، ضللوا الناس بالنسيء أى فى التغيير فى تواريخ الشهور وتواريخ استحقاق الديون مبالغة منهم فى استغلالهم ، وغالطوا الناس فى حساب الشهور ليطيلوا أمد الحج أو يقدموه أو يؤخروه كيف شاءت مطامعهم .

---

(١) ابن هشام ، السيرة ١/ ٢١٦.

وهذا كله بالإضافة إلى مناكر أخرى زادت فى ثروات المستغلين والمرابين والمغالطين فى الحساب والمطففين فى الكيل ، ويراد بذلك الغش فى أمر القياس عامة ، فكان هذا النفر المناهض للفضل وأهله وهم الفضول هم الذين أفسدوا أمر المجتمع القرشى الذى أنشأه قصى وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب . وأراد المطيبون أو الفضول أن يتمسكوا به فناهضهم الآخرون ، وقد رأينا أن النسىء كان فى بنى القَلَمُس أى أصحاب القلم ، وكان هؤلاء جميعاً فى جانب المفسدين للنظام المكى القويم.

وهذا التفسير من جانبنا لكلام ابن إسحاق وما يتضمنه من معلومات عن استبداد جماعة المال فى المجتمع المكى يفسر لنا اتجاه ذلك المجتمع إلى التدهور والفساد بعد أيام عبد المطلب . فأما الفساد وتزايده حقيقة يقول بها القرآن الكريم وتؤيدها كل المعلومات التى لدينا عن المجتمع المكى خلال الخمسين سنة التى سبقت البعثة النبوية، فقد لاحظنا أن الأحوال اتجهت إلى السوء عندما كبرت سن عبد المطلب وهَطِل عن العمل ولم يعد قادراً على كبح جماح جماعة القبائل التى تَسَارَعَ فى كيانها الفساد فدفعت المجتمع المكى كله فى طريق التدهور ، وقد كان ذلك المجتمع أول أمره سليماً يتميز بعلامات واضحة من الصحة والسلامة ، وقد رأينا خطوات بناء ذلك المجتمع وخصائصه الأخلاقية التى نبعت من إيجابيات الخلق العربى الجاهلى من ناحية ، ومن اتجاه عبد المطلب بالمجتمع المكى كله نحو الدين . ثم رأينا كيف أن تجمع مكاسب التجارة بين أيدى فريق المال مال بهم إلى الجشع فانطلقوا فى طريق جمع المال ولم يعرفوا لذلك حدوداً وطوَّعوا كل شىء لمصالحهم المادية ، ولما كثر المال بين أيديهم اتجهوا إلى القول بأنهم أفضل من غيرهم زاعمين أنهم حماة الحرم وسدنة الكعبة.

ومن المعروف أن المجتمع عندما يسوده الاتجاه إلى الثراء وجمع المال تتداعى فيه النواحى الإنسانية وتضعف فيه نوازع الخير والفضل ويتزايد فيه الجشع إلى المال وما يستتبعه المال من امتيازات ، ويهون فيه أمر الفقراء والضعفاء ويكثر العدوان عليهم ويضعف سلطان القانون ويغلب النزوع إلى جمع المال والاستمتاع به على كل شىء آخر. ولسنا فى حاجة إلى الإتيان ببراهين على ذلك ولا نتابع كذلك كلام غالبية

مؤرخينا فيما يذهبون إليه من الإسراف فى تشويه صورة الجاهليين ومجتمعهم ظناً منهم أن ذلك يزيد قدر الإسلام والبعثة المحمدية . وهم مخطئون فى ذلك ؛ لأن المجتمع المكى إذا كان بهذا الفساد البالغ الذى يصورونه به وذلك الجهل البيِّن الذى يجعل أئمة الشرك من الكفار فى درجة من الغباء تجعلهم أشبه بالعجماوات ، فإن ذلك يقلل من فضل الإسلام فى الانتصار عليهم.

ولكننا نأتى هنا بآيات من القرآن فيها سور مُبينات عمن يسميهم فى سورة المزمل بـ ﴿ أُوْلِي النَّعْمَةِ ﴾ (آية ١١).

يقول الله تعالى فى تصوير أشكال هؤلاء المتبطرين المفسدين فى سورة المدثر : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً (١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) ﴾ [المدثر] .

والمفسرون يُجمعون على أن المراد بهذا الوصف الوليد بن المغيرة المخزومى ويقصُّون فى ذلك قصصاً[1] ، وليس من الضرورى أن يكون المراد هنا ذلك الرجل وحده ، ولكنه مثال من هذا الطراز المتعالى المتكبر المغرور بماله ومركزه من القرشيين .

واقرأ الآيات التالية عن موقف هذا النفر من الضعفاء والمساكين :

﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) ﴾ [الفجر] .

وعن معاملتهم للناس وغِشِّهم فى الكيل والبيع والشراء :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُوْلَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) ﴾ [المطففين] .

وفى سورة الـهُمَزة نقرأ :

---

(١) انظر ابن كثير ٨/ ٢٩٢.

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ ﴾ [الهمزة] .

وعن النسيء والنسأة وما كانوا يفعلون :

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝١٧ ﴾ [التوبة] .

وهنا وعلى ضوء ما قلناه نفهم لماذا سأل رسول الله ﷺ الناس فى أول خطبة الوداع الثانية فى منى يوم النحر عن الشهر والبلد واليوم لكى يثبت مواقيت الحج والوقوف بالمواقف[1] فلا يعود أحد إلى المغالطة فى ذلك . ويؤكد هذا قوله « إن الزمان قد استدار حتى عاد كهيئته الأولى» . والمراد بذلك أن عصراً جديداً من عصور تاريخ الإنسانية – وهو عصر الإسلام – قد بدأ ، وأن الزمان عاد كما كان يوم خلق الله السماوات والأرض ليبدأ من جديد .

والآن وقد أعطينا فكرة عن ذلك الفريق من القرشيين فَلْنُلْقِ نظرة على أحوالهم ومعيشتهم ، فمن المعروف أن التجارة فى ذاتها من أكبر أبواب الرزق ، فما بالك إذا لجأ التاجر إلى الغش والتزوير وغالط فى الحساب وغيَّر فى المُدد وفسد ضميره فلم يتورع عن أكل أموال الناس وإنكارها ! لا غرابة أن ثروات أولئك الناس بلغت مبالغ وأرقاماً عسيرة على التصديق لولا أن البيان عنها جاءنا من رواة يُستبعد منهم الكذب ، ثم إن كلاً منهم يؤيد كلام الآخر .

وانظر مثلاً ما يقوله محمد بن حبيب النسابة فى كتاب المحبر تحت عنوان « أزواد الركب » أى : أولئك الذين يقومون بتزويد القوافل من مالهم ، من أمثال عثمان بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة الذى كان يلقب بشارب الذهب وأبيه عمرو بن كعب الذى كان يلقب بالسيال ، وعبد الله بن جدعان الذى بلغ من غناه أن الناس زعموا أنه عثر على كنز ، والوليد بن المغيرة وأبى جهل عمرو بن هشام . وابن حبيب يلقى

---

(١) الواقدى ، مغازى ٣ / ١١١ .

علينا قصة تعطينا فكرة عن سعة ماله وكرمه على الناس لا من جانب الإنسانية ، بل من باب التعالى والغرور والتباهى بالغنى[1].

حُروب الفِجَار وآثارهَا على قريش :

قلنا فيما سبق من كلامنا على الإسماعيليـة العدنانيـة - وهم العرب المستعربـة أنهم انتشروا فى الحجاز وشمال الجزيرة ووسطها من الخليج إلى البحر الأحمر ، وهناك خضعوا لسلطان حِمير ، وكان لملوك حِمْير سلطان ضعيف رمزى على عرب وسط شبه الجزيرة ، وكان هذا السلطان يتناقص مع الزمن حتى إذا كانت أواخر القرن السادس الميلادى تاقت نفوسهم إلى التخلص من بقايا هذا السلطان الحميرى الذى كان يتمثل فى تأمين قوافل التجارة الذاهبة من ساحل الخليج إلى الحبشة وخفارتها . وكان ملك اليمن قد ولَّى على بكر وتغلب زهير بن جناب بن هبل الحميرى المشهور فى أيام العرب ، والمراد بتولية ملك حمير إياه أنه اعتبره ممثلاً له ، لأن زهير بن جناب كان فى الحقيقة قضاعياً ولم يكن حميرياً ، وكان من أشراف العرب فى عصره - وهو أواخر القرن السادس الميلادى - وقد تميز فيما يقول الإخباريون بعشر خصال من اجتمعت فيه لُقِّب بالكامل وهى السيادة والشرف والخطابة والشعر والوفادة على الملوك والطب والكهانة والفروسية وكثرة الولد وشرف البيت ، وقد طال عمره وأُثِرَتْ عنه حِكَم كثيرة وأشعار أكثر ، وتوفى فى أواخر القرن السادس الميلادى بعد مولد رسول الله ﷺ وقبل بعثه ﷺ[2].

وعاصر زهير بن جناب هذا كليب بن وائل الفارس المشهور ، وكان سيد بكر ووائل أكبر قبائل ربيعة الضاربة فى شرقى الجزيرة ، وكانت لزهير بن جناب أرض مراع واسعة فكان يتقاضى إتاوة من القبائل التى ترعى فى أرض قضاعة (المراد بعض أرض قضاعة وكانت فى منطقة نفوذه) فى مقابل النجعة والكلأ والمرعى، وأصابهم فى بعض السنين ضيق وجدب ومحل فشكوا إلى زهير عجزهم وأبانوا عذرهم فلم يصغ إليهم ومنعهم النجعة والمرعى أو يؤدوا ما عليهم ، فصبروا حتى كادت ماشيتهم

---

(١) انظر المحبر ، ص ١٣٧ وما يليها .

(٢) الألوسى ، بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٢٤ جـ ٢ ص ١٥٩ - ١٦٠ .

تهلك ، وكانت هيبة الدولة قد ذهبت من نفوسهم ، فلما أصابهم ذلك الظلم - الذى يتنافى مع ما يزعمه له الإخباريون عنه من شرف وشهامة وفروسية - ونقموا على زهير ورجاله فدسوا رجلاً منهم اسمه زبابة من بنى تيم الله وكان فاتكاً وأوعزوا إليه أن يقتل زهيراً . (الفاتك فى مصطلح الجاهليين هو القاتل المحترف الذى يقتل لقاء أجر) وأوصوه أن يقتله غيلة ويتحين فرصة بُعْده عن جنده ، فأتاه زبابة وهو نائم فطعنه ورجع إلى قومه وأخبرهم أنه قتله ، والحقيقة أن السيف مر بجانب البطن ولم يُصِب من زهير مقتلاً .

فلما انصرف زبابة أوعز زهير إلى قومه أن يُظْهِروا موته ويستأذنوا بكراً وتغلب فى دفنه لأن الحادث وقع فى أرضهم ، فلما أذنوا لهم فى دفنه دفنوا ثياباً ملفوفة وفرُّوا به إلى قومهم ، فجمع زهير جموعه وأزمع عقاب بكر وتغلب وسار إليهم وهزم بكراً ثم تغلب ووقع فى أسره كليب ومهلهل ابنا ربيعة ، وولوا على أنفسهم ربيعة والد كليب ومهلهل وهاجموا رجاله واستنقذوا الأسيرين ، لكن زهيراً عاد فانتصر عليهم وألزمهم الأتاوة.

وفى أواخر القرن السادس الميلادى توفى ربيعة بن كلاب وقام بأمر القوم ابنه كليب بن وائل وقد أزمع الانتقام من زهير بن جناب واليمن الذين يناصرونه ، فجمع من استطاع جمعهم من قبائل معد وربيعة وقضاعة ومضر وإياد ونزار ولاقى اليمن وأنصارها فى يوم خزاز وانتصر عليهم ، وكانت هذه نهاية سلطان حمير الاسمى على قبائل شبه الجزيرة .

ولكن العدنانيين لم يستتم استقلالهم بعد ذلك لأن غلبة البداوة عليهم حالت دون اتحاد صفوفهم ، فظلوا بعد ذلك يدينون بالطاعة لمن جاورهم من الدول وذلك لحاجتهم إلى بلاد الحضارة وما لا بد لهم الحصول عليه من الأدوات والآنية والسيوف وسرج الخيل ، ومن هنا فقد طاعوا لكندة أو لخم أو غسان حسب الظروف ، وكانت تلك الطاعة اسمية لا تكلفهم إلا شيئاً قليلاً ، وأهم ما كانت تكلفهم إياه خفارة قوافل تلك الدول أو لطائمها دون مقابل ، وخاصة القوافل الذاهبة إلى أسواق الحجاز والصادرة منها .

ومن هنا نفهم لماذا رحبت تلك القبائل بما عرضه عليها هاشم من الإيلاف ، فقد ربح وربحوا ، والإيلاف كان مرتبطاً بالعصم ، وهى الاتفاقات مع الدول خارج الجزيرة لتيسير التبادل التجارى وفتح الأبواب أمام التجارة المكية إلى الشام حيناً ، وإلى العراق حيناً ثانياً ، وإلى اليمن والحبشة حيناً ثالثاً .

وقد اعتمدنا فى هذا التلخيص المترابط على ما أورده جرجى زيدان فى كتابه القيم : العرب قبل الإسلام [1]. وهو يجعل معركة خزاز أو البيضاء فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، ولكننا نرى أن الأوفق لتسلسل الحوادث أن تكون فى بداية النصف الثانى من القرن السادس أى بعد أيام قصى بقليل وقبل أيام هاشم ، لأن القول أنها كانت قبل سنة ٥٠٠ ميلادية يجعل العهد بعيداً جداً بينها وبين العصر الإسلامى ، وهنا يكون من العسير أن تحفظ ذاكرة العرب أخبار حروب وقعت قبل قرن ونصف من الزمان ، ولهذا عدّلنا التاريخ على هذا النحو .

ويتصل بيوم خزاز يوم يسمى يوم البيضاء ، والغالب أنه جاء بعد عام الفيل ، فهو فى وقت قريب من يوم خزاز ، لأن يوم البيضاء كان يوماً انتصرت فيه جماعات من المعدية بقيادة عامر بن الظرب العدوانى على مجموعة من القبائل اليمنية أكبرها مذحج كانت تحاول الانتجاع فى أراضى العدنانيين فاجتمعوا ووقفوا فى وجهها ، وفى وجه أى تقدم للقبائل اليمنية من الجنوب .

وإنما استطردنا مع هذه التفاصيل لننتهى إلى حرب الفجار وهى مدار هذه الفقرة من بحثنا لنقول إن حروب الفجار كانت جزءاً من حركة وعى عام وشعور بالذات شمل العدنانية جميعاً نتيجة لتكاثر عددها وازدياد قوتها وتحسن أحوالها نسبياً ، وكان لانتظام التجارة واستقرار أسواقها أثر بعيد فى ذلك فإن دبيب الحياة فى الطرق الرئيسية التى نظم أمرها القرشيون كان حرياً أن يبعث الحياة فى الطرق التجارية الثانوية التى تمر بمنازل القبائل فى داخل الجزيرة ، ومن المعروف أن التجارة ليست مجرد تبادل تجارة بل تبادل أفكار ومظاهر حضارية وثقافية ، وانتظامها وازدهارها

---

(١) جرجى زيدان ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، طبعة جديدة بمراجعتنا وتعليقاتنا (بدون تاريخ مكتوب عليها ولكنها كانت سنة ١٩٥٧) ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

يؤدى إلى وعى بشرى ونهوض حضارى يصل إلى آفاق لا تُصدَّق ، ومن أكبر العوامل التى أدت إلى النهضة الأوروبية كان انتظام التجارة ونهوضها ونشاطها فى البحر المتوسط ، وانتظام تجارة هذا البحر زاد فى ثروات الجمهوريات والممالك الإيطالية وفرنسا وإسبانيا والبرتغال والجزر البريطانية وتقدم صناعة السفن وفنون الملاحة البحرية وعمل الخرائط ، وهذا كله أدى فى النهاية إلى كشف العالم الجديد وما أعقبه من تغير حاسم فى تاريخ البشر.

ومعظم ما تذكره الكتب من أيام العرب راجع إلى تلك الفترة الزمانية ، وهى فى ذاتها فترة وعى القبائل وإحساسها بنفسها ، وإذا نحن تأملنا تفاصيلها نجد أنها من الناحية العسكرية لا تكاد تذكر ، فحرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان وهى الحرب الطويلة التى ظهر فيها أمر عنترة العبسى لم تسفر إلا عن خسائر لا تزيد على أصابع اليدين فى الجانبين ، وفى النهاية ملَّتْ القبيلتان القتال وتصالحتا ، وتولى الصلح بين الجانبين رجل من الحكماء ودُفِعت ديات قليلة وانتهى الأمر .

وحروب الفِجَار التى نحن بصددها جزء من ذلك الوعى العربى الهام ، وأسبابها - كما ترويها المراجع - تبدو نزاعات صبيانية ولكن الحقيقة أن السبب الرئيسى هو غيرة قبائل قيس عيلان من قريش لما بلغت من الثروة والازدهار بفضل التجارة ، وكان شريان رئيسى من طرق التجارة ، وهو الطريق من مكة إلى العراق يمر بمنازل قيس عيلان ، فأرادت بعض بطونها (من هوازن) إيقاف تجارة قريش ، وتعمدت حادثاً صغيراً لإثارة الحرب ، فاستعانت قريش بكنانة (أمها) وأمكن فى النهاية حصر القتال وإيقاف أعمال العداوة ، وتلك هى حرب الفِجَار الأولى ، وإنما سميت بحرب الفِجَار لأنها وقعت فى الأشهر الحرم ، فكانت إما فى رجب ، أو فى ذى القعدة، أو ذى الحجة ، أو المحرم .

وحرب الفِجَار الثانية أيضاً كانت بين قريش وكنانة فى جانب وبعض قبائل قيس عيلان فى جانب يتزعمهم عروة بن عامر الكلابى وهذه الحرب مؤرخة ، لأنها كانت ورسول الله ﷺ شاب فى العشرين وقد حضرها وقال إنه كان يجمع السهام التى

يطلقها العدو ولا تصيب ويناولها لأعمامه ، وتقول الأخبار : إن رجلاً خليعاً فاتكاً يسمى البراض الكنانى عرض على النعمان بن المنذر بن قابوس سيد بنى لخم أو ملك المناذرة كما كان يسمى أن يقود لطيمة له كانت ذاهبة إلى سوقى عكاظ وذى المجاز فَكَبُر ذلك على عروة الكلابى سيد بنى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وأَنِف أن يجيز هذا الكنانى الخليع القتال لطيمة النعمان ، وتواعد البراض ، ولكن البراض غدره وقتله فثارت الحرب بين بطون بنى قيس عيلان من ناحية وقريش وكنانة من ناحية أخرى ، وكان يرأس قريشاً فى ذلك الحين - كما تقول النصوص - حرب بن أمية سيد بنى عبد شمس وهو والد أبى سفيان وكادت كنانة وقريش أن تُهزما حتى هرب رجالها واقتحموا الحرم طلباً للنجاة ، ولكن حرب بن أمية نادى رجال قريش فبرز منهم عمرو وسفيان وأبو سفيان وأبو حرب وعتبة بنو أمية الأكبر بن عبد شمس وهم المسمَّوْن بالعنابس لأنهم ثبتوا ثبات الجبال فى ذلك اليوم ، وانضم إليهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص والعويص، وهم المسمون بالأعياص أى الذين يستعصون على أن يقودهم أو يسودهم أحد ، وقد تمكن هؤلاء من كسب النصر لقريش وكنانة وارتد بنو كلاب ومن معهم من قيس عيلان منهزمين .

وفى فرار كنانة وقريش فى أول هذه الحرب ولجوئهما إلى الحرم يقول شاعر يسمى خداش بن زهير ، وكان اللقاء أولاً فى نخلة :

يَا شِدَّةً مَـا شَدَدْنَـا غَيْرَ كَاذِبـةٍ   عَلى سَخِينَةٍ لَوْلَا الليلُ والحَرَمُ

(ويشكل اللفظ الأخير الحُرَم) وكانت العرب تسخر من قريش وتسميها سخينة ، والسخينة لون من العصائد يُعمل من الدقيق ويُؤكل ساخناً ، وكان العرب نادراً ما يأكلون طعاماً ساخناً ، فأنكروا على قريش كثرة أكل السخينة ، مع أن السخينة لم تكن طعاماً ممتازاً ، إنما كان يؤكل ساخناً .

وفى هذه الفجار الثانية أيضاً ظهر أمر عبد الله بن جدعان فقد زود مائة مقاتل بالخيل والسلاح من ماله سوى من ألبس من قومه وانضمّت الأحابيش إلى قريش وعلى رأسهم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وكان اللقاء الأخير فى موضع يسمى شَمَطة قرب عكاظ وكذلك غير بعيد عن نخلة الشامية موضع اللقاء الأول ،

واجتمعت من قيس عيلان بنو سليم بن منصور وبنو عامر بن صعصعة وبقية هوازن ، وكان اللقاء عنيفاً دامياً خسر فيه القيسيون ما بين مائة وثمانين قتيلاً ولم يُقتل من قريش وكنانة والأحابيش أحد ، ويبدو أن هذا النصر لم يتم إلا بعد لقاءات أخرى فى موضع يسمى العبلاء وموضع يسمى الحريرة ، وفى هذه اللقاءات قتل أبو سفيان ابن أمية الأكبر وهو غير أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية الذى سيكون له دور كبير فى تاريخ قريش فى الإسلام ، وفقدت كنانة ثمانية من رجالها ، وقد استقرت قدم قريش فى ذلك اليوم وثبت أمر بنى أمية الأكبر ، وكان لبنى المغيرة وهم مخزوم دور كبير أشاد به ابن الزبعرى شاعر قريش [١].

وقد اكتفيت هنا بموجز الأحداث دون استطراد مع التفاصيل لأن غالب ما لدينا منها مبالغات وقصص وأشياء وُضِعت بعد الإسلام ، ثم إن جرجى زيدان فصَّل أمرها تفصيلاً جيداً وزدنا عليه فى تحقيقنا له تعليقات نافعة . والمهم لدينا هى النتيجة : فقد استقرت قريش وثبتت أقدامها وازداد جاهها ، وظهرت من بين بيوتها بيوت الأحلاف المناهضين لبنى هاشم ، وجدير بالذكر أن بنى هاشم كانت لهم الرياسة الشرفية متمثلة فى الزبير ثم أبى طالب ابنى عبد المطلب ، ولكن الآخرين تخطوهم وظهروا عليهم وأصبحت لهم الرياسة الفعلية فى مكة وإن لم يتعرضوا لبنى هاشم فى رفادتهم وسقايتهم .

استبد إذن أهل القوة والمال بأمور مكة والحرم والحج ، ولم يجدوا أمامهم قوة تردعهم فبسطوا سلطانهم على كل شىء وبسطوا أيديهم على الناس ، فازدادوا ثراء وقوة وازداد الضعفاء بؤساً وفقراً ، وسادت مكة حالة من عدم الرضا والتذمر أو عدم الرضا الاجتماعى أو ما يسمى باسم Malaise وتزايدت أعداد المستضعفين وهم الذين يعيشون دون حماية من قانون أو أخلاق أو عرف اجتماعى محترم . والزعامة الفعلية القرشية لم تعد زعامة النشاط والاجتهاد والعمل لما فيه صالح الجماعة ورعاية التجارة والحج وخدمة المجتمع العربى كما كان الحال من قصى إلى عبد المطلب ، بل

---

(١) انظر النويرى ، نهاية الأرب جـ ١٥ ص ٤٢٣ وما بعدها . وجرجى زيدان ، تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٢٧١ وما بعدها .

أصبح المجتمع كله فى خدمة جماعة بعينها من الناس من أصحاب المال والجاه وأهملت القواعد الأخلاقية والأسس المعنوية التى قام عليها ذلك المجتمع المكى القرشى والحجازى عامة . وسنتعرض لهذه الحالة فى الفصل التالى الذى ندرس فيه موقف قريش من الإسلام .

والآن نلقى نظرة على المجتمع المكى تحت قيادة قريش وهو فى ذروته غِنىً وازدهاراً ، ونلم بما كان للتجارة والأسواق والحج من أثر بعيد فى تطور اللغة العربية والفكر العربى عامة.

المجتمع القُرشى فى أوجِهِ قبل الإسْلام :

لا تصرفنا النواحى السلبية لذلك المجتمع المكى القرشى عن الالتفات إلى نواحيه الإيجابية ، فإن الغِنَى الذى وصلت إليه بيوت بنى عبد شمس ومخزوم وسهم وجُمَح وناس أفراد من بيوت قرشية أخرى كانت له نواحٍ إيجابية لا بد من الإلمام بها حتى تكتمل لنا صورة قريش فى أَوْجِها قبل الإسلام .

ذلك أن وفرة المال فى أيدى هذا النفر من القرشيين جعلت مكة ، ذلك البلد الذى يقوم بوادٍ غير ذى زرع فعلاً ملتقى تجارات العالم وصناعته كلها ، وإذا كان - كبار المكيين قد ظلوا من ناحية المظهر قريبين من البدو فى مظهر حياتهم ، فإن خيرات الدنيا كانت عندهم . حقاً إنهم لم يتخذوا القصور أو مظاهر الترف المفسد الفاسد الذى كان شائعاً فى عواصم الدولتين الكبيرتين اللتين سادتا تاريخ ما يُعرف بالشرقين الأوسط والأدنى وبقية أوروبا خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، ولكن كل شىء كان فى بيوتهم : كانوا يملكون مبالغ ضخمة من دنانير الذهب ودراهم الفضة ، وكانت لديهم أقبية الحرير والصوف والخز وكانت لهم الضِّياع والبيوت فى مكة نفسها وفى الطائف وتبالة ونجران وتيماء وحوران حتى بصرى وغزة .

وقد حرص كبار المكيين على أن يكون لكل منهم حائط أو بستان فى الطائف حيث يقضون الصيف وما شاءوا من شهور السنة فى حياة رخية يسودها الكسل والشعور بالامتياز عن الناس ، وكان العباس بن عبد المطلب وهو من الهاشميين القلائل الذين

دخلوا عالم التجارة وجمعوا أموالاً طائلة ويملك ضيعة فى جنوب الشام تسمى بقبش أو بقيش ، وكان تجار العطور من المكيين يعرفون أغلى عطور العصر وأنفسها من المسك والذُّريرة والغالية .

ويعطينا محمد بن حبيب فى المحبر صورة دقيقة لأبى جهل عمرو بن هشام وهو فى فسطاطه يطعم الناس ، وقد بسط أنطاعاً على الأرض وُضِعت عليها جفان الثريد مع اللحم ودُعِى الناس للأكل فدخلوا دون هرج وأصابوا ما شاءوا من الطعام[1]، وقد عاصر أولئك الأجواد القرشيين أجوادٌ من قبائل عربية غير قريش، ويلاحظ أن الكثيرين من الأجواد غير القرشيين هؤلاء كان فى بعضهم ميل إلى الخير، فمثلاً كان هناك رجل من بنى مجاشع يسمى صعصعة بن ناجية يشترى البنات من آبائهن ليحميهن من الوأد ، وفى فصل أجواد قريش من كتاب المحبر الذى أشرنا إليه أمثلة من هذا الطراز .

ورغم تميُّز الكثيرين من رؤساء العرب على القرشيين فى فضائل الجود والكرم فإن قريشاً كانت تزعم لنفسها امتيازاً على بقية العرب بفضل وجود الكعبة فى ديارهم وقيامهم بأمرها . ويحاول بعض مؤرخينا تمييز القرشيين على غيرهم بخصائص الحلم والجود والذكاء وبُعْد النظر ، ولكن هذه كلها مبالغات سببها النظرة الرجعية التى أشرنا إليها ، فكأنهم يأخذون من مجد قريش بعد الإسلام ويضيفون إليها قبل الإسلام حاسبين أن ذلك تأصيل لمجد قريش بعد الإسلام . يرون فى ذلك تصديقاً لما قال به - فى زعمهم - الرسول أن قريشاً أفضل العرب ، أو أن القرشى يعدل غيره من العرب مرتين ، أو أن قريشاً أَوْلَى الناس بإمامة المسلمين ، وما إلى ذلك مما لم يقله الرسول ولا يمكن أن يقوله ، لأن أى قول يصدر عن الرسول ينبغى أن يكون له أصل فى القرآن ، والقرآن لا يفضل إنساناً على إنسان إلا بالتقوى .

ولكن القرشيين فعلاً تميزوا بالبديهة الحاضرة وسرعة الجواب وحسن التصرف فى الخطاب ، وهذه بالذات هى الخصائص الذهنية التى تتأتى من التجارة فإن التاجر بحكم صنعته لبق متصرف فى الكلام يحسن تزيين ما يبيع ، وهذا شىء يختلف تماماً

---

(١) المحبر لمحمد بن حبيب ص ١٤٢ - ١٤٣ ، وانظر باب أجواد العرب فى الجاهلية كله ابتداء من ص ١٣٧ .

عما زعمه بعض الكُتَّاب المسلمين من أن قريشاً أرجح العرب أحلاماً أو أنهم كانوا أحلم الناس ، لأن الحقيقة أن عرباً آخرين كثيرين كانوا يرجحون القرشيين فى الحلم .

وتميز القرشيون كذلك فى نظر الأعراب فى شبه الجزيرة بأنهم كانوا أصحاب نظام سياسى قائم يقارب ما عرف بعضهم من أحوال الدول خارج شبه الجزيرة ونظمها ، ورغم الخصومات التى كانت قائمة بين بيوت المكيين إلا أنهم تميزوا فعلاً بالوقوف جبهة واحدة أمام غيرهم ، وهذا شعور بالتساند لم يعرفه أى قبيل آخر من العرب فقد كان القرشيون يبدون للناس قبيلاً واحداً ويهبُّون جميعاً للدفاع عن مصالح قبيلهم إذا دهمهم خطر ، وقد رأينا ذلك فى حروب الفِجَار .

ولكن الامتياز الذى اعترف به العرب جميعاً لقريش كان امتياز الغنى والمال ، وقد كان بعض رؤساء العرب يملكون من الإبل والخيل والماشية فوق ما ملك كبراء قريش ولكن ثروة القرشيين كانت ذهباً وفضة وعروضاً أى أشياء ذات قيمة مالية فعلية كالأقمشة والعطور والصمغ واللبان والقرفة والتوابل وما إلى هذا من الأشياء التى كانت فى تلك العصور تعدل الذهب والفضة ، وثروة الإبل والنخيل والماشية لا تعطى صاحبها قوة على غيره ، لأنه - أولاً - لا يستطيع حمايتها من البدو إلا بالسماح لهم بأن يصيبوا منها ما تمس إليه حاجتهم عند الضرورة ، وإلا فكيف يستطيع رجل أو قبيلة - حراسة ألف ناقة ترعى فى منازل القبيلة ؟ وكيف يمكن حماية ألف نخلة مثلاً تمتد على مسافة تتراوح بين ثلاثة كيلو مترات وخمسة ؟

ولهذا فقد كانت ثروة الإبل والماشية والنخيل ثروة جاه وسؤدد ومجد ولكنها ليست ثروة قوة يستطيع صاحبها أن يستخدم بها الناس أو يرغمهم على طاعته ، فى حين أن ثروة المال ثروة « مركَّزة » فى صورة ذهب وفضة وما يشابهها من حيث قلة المساحة التى تحتلها ، فهى ثروة يمكن حمايتها والتصرف فيها واستعمالها فى استخدام الناس مثلاً أو سيادتهم . وهنا حيث يوجد الذهب والفضة يوجد الظلم والاستبداد والاستغلال ، ولهذا وُجِد الظلم فى بلاد الرومان والفرس نتيجة لوجود ثروات الذهب والفضة عند الملوك والأمراء ورجال الدول والأغنياء وذوى الجاه . ولم يوجد الظلم فى جزيرة العرب لعدم وجود الثروة المركزة التى يمكن خزنها وحفظها واستخدامها فى استئجار الجند مثلاً .

وقد كانت قريش تملك المال ، فقد قُدِّرت ثروة الوليد بن المغيرة بما يقرب من مائة ألف دينار وثروة هشام بن المغيرة والد أبى جهل بما يقارب ذلك ، وثروة أبى أحيحة سعيد بن العاص كانت تصل إلى حوالى مائتى ألف دينار إذا أضيف إليها ما كان لديه من عروض . وكانت القافلة الواحدة من كبار قوافل المكيين وواحدتها العير - تتكون - من ألف جمل محملة بالبضائع ، ورأس المال المستخدم فيها يقرب من خمسين ألف دينار فى زمان كان الدينار يشترى زوجاً من الإبل ، وكان الرجل وأهل بيته يحتاجون إلى ما بين درهم ودرهمين فى اليوم ليعيشوا فى سعة . حقاً كان كثيرون من أوساط القرشيين يشاركون فى العير بالدنانير العشرة وربما الخمسة ، ولكن الرجل الذى كان يملك عشرة دنانير يستخدمها فى التجارة خارج مطالب حاجته كان يُعَد فى المياسير فما بالنا بمن كان يملك الألوف إلى جانب الحوائط (البساتين) فى الطائف وغيرها ؟

كان القرشيون متميزين على غيرهم من العرب بالغنى من هذه الناحية ، وتميزوا كذلك بكل ما يجره المال من سلبيات مثل الجشع والطمع والرغبة فى زيادة المال وتثميره ولو على حساب الآخرين . من هنا عُرِف القرشيون بالربا والمغالطة والتطفيف والإخسار فى الكيل والميزان والقياس ، وكان هذا يثير غضب الأعراب الذين لم تكن تنقصهم الحوافز لكراهة الأغنياء فضلاً عن المرابين والمستغلين ، وهذا كان شعوراً عاماً عند كثير من العرب نحو القرشيين وجَمَّاعة المال بصفة خاصة .

والبيتان التاليان مثال على ما كان يقال عن قريش :

أَلْهى قريشاً عن المجدِ الأساطِيرُ ... ورشـوةٌ مثلما تُـرْشَـى السَّفَافِيرُ

وأكلها اللحمَ مَحْضاً لا خليطَ لـهُ ... وقولُهـا ذهبـتْ عِيـرٌ أتتْ عِيـرُ

والرشوة عند الجاهليين هى كل مال حرام سواء أكان إتاوة زائدة أو رباً أو مالاً مسروقاً ، أو مالاً مقدماً لإفساد الخلق .

بل زعم بعض العرب أن قريشاً تتحدى الآلهة بمالها غير مُقَدِّرة لها حرمة :

زَعَمتْ سَخِينةٌ أنْ سَتغلِب ربَّها ... ليغْلِبـنّ مُغَـالِـبُ الغُـلّاب

ولكن مركز قريش بين العرب ظل على ما هو عليه ودون تغيُّر ؛ لأن التدهور الذى

أشرنا إليه كان داخلياً لم يظهر للناس على حقيقته إلا عندما جاء الإسلام وتهددت قريش بسبب الدعوة المحمدية بالتصدع ، لأن الدعوة الإسلامية أظهرت وجوه التدهور فى المجتمع المكى ، وعندما كثر المسلمون أصبحت فى مكة جبهة معارضة قوية ضمت المستضعفين ونفراً من الساخطين على سيطرة قريش . ووقف بنو عبد المطلب وبنو المطلب عمه إلى جانب محمد والإسلام لا إيماناً بالإسلام بل حملتهم على ذلك العصبية فى الغالب ، وظن أصحاب حلف الأحلاف أن الدعوة المحمدية دعوة هاشمية هدفها إعادة ميزان القوى لصالحهم فازدادوا عناداً للإسلام كما سنرى فى الفصل التالى ، ولكن مركز قريش داخل مكة انتابه الوهن ، وكان هذا من الأسباب التى حفزت خصوم الإسلام على مزيد من التماسك ، فاشتدت المعارضة للإسلام وتزايدت حتى تمكن القرشيون من إيقاف تقدم الإسلام داخل مدينتهم واطمأنوا إلى ذلك ، وظلت لقريش فى مكة مكانتها فى عالم العرب ، ومضت قريش فى طريقها زعيمة لقبائل العرب فى مسائل التجارة والدين ، ولم يتغير هذا الوضع تغيراً محسوساً حتى الهجرة النبوية إلى المدينة .

ونتابع دراسة بقية نتائج الزعامة القرشية بين القبائل العربية فنقول : إن قريشاً عندما وصلت إلى هذه المكانة وأصبحت أغنى قبائل شبه الجزيرة وأكثرها سلطاناً فى مسائل التجارة والدين أظهر رجالها كياسة ومهارة ضمنت لهم استمرار هذا التميز ، فهم مثلاً لم يفخروا بمالهم على غيرهم من القبائل ، ولا هم استخدموا المال أو الإشراف على شئون الكعبة والحج مجالاً للفخر على غيرهم ، وإنما هم استمروا يحسنون معاملة الوافدين على بلادهم من كبار أهل القبائل وإكرامهم والاحتفال بهم، وفى مكة فى موسم الحج وفى أسواق الحجاز كان زعماء القرشيين يجتمعون بكبار أهل القبائل على بساط المودة ، وهذا مظهر من مظاهر مهارتهم التجارية .

ومن أظهر الأمثلة على كياسة القرشيين أنهم عندما احتفظوا لأنفسهم بولاية الكعبة وموسم الحج تركوا ولاية سوق عكاظ والقضاء فيه لتميم ، ويسمى هذا عند محمد بن حبيب فى المحبر : «عكاظ على حدة والموسم على حدة» [1] والبيان الذى

---

(١) محمد بن حبيب ، المحبر ١٨٢ .

يعطينا إياه محمد بن حبيب عمن تولى سوق عكاظ والقضاء فيه يلاحظ منه أنهم لم يكونوا جميعاً من تميم بل اشترك فيه ناس من مجاشع ، والظاهر أن المراد بالموسم فى عكاظ هو رياسة الذاهبين للحج من عكاظ ، وكانت قريش - كما رأينا - قد اقتصرت فى الحج على مزدلفة لا تتعداها إلى عرفات ، فى حين أن بقية العرب كانوا يقفون عند عرفات ، ولهذا فقد كان الناس من غير قريش فى حاجة إلى رئيس للموسم يفيض بالناس من عرفات ، فإذا وصل الناس إلى المزدلفة واستمروا إلى بقية مناسك الحج دخلوا الحرم ، وهنا تكون الرياسة لقريش.

أثر انتِظَام التّجارَة وَالحَجّ
فى النموّ الحَضارى لقريش وتطوّر اللّغة العَربيّة :

خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين - وهما اللذان شهدا معظم الحوادث التى نتناولها فى هذه الدراسة ظهرت اللغة العربية فى صورتها النهائية التى ثبتت عليها بعد ذلك دون تغيير يُذكر عبر القرون ، وذلك بفضل القرآن الكريم الذى نزل بها ، فكان نزوله بها بركة عليها ، فإن المسلمين حرصاً منهم على المحافظة على القرآن بألفاظه ومعانيه جعلهم يحرصون على المحافظة على اللغة العربية فى صورتها التى كانت عليها أيام نزل فيها القرآن الكريم .

ومن الواضح أن اللغة العربية لكى تصل إلى تركيبها الكامل لفظاً وتركيباً ونَحْوًا، لابد أن تكون قد خلَّفت وراءها قروناً طويلة من التطور والتنقل من موطن لموطن حتى اكتمل نضوجها وتكوينها فى الحجاز منذ بدايات القرن الخامس الميلادى، إذ أن أقدم شواهد هذه اللغة الباقية إلى اليوم لا يمكن أن ترجع إلى ما قبل القرن الخامس الميلادى.

ونظراً لأن أصول اللغة العربية وتكوينها وتطورها تمت كلها فى مناطق صحراوية ونصف صحراوية لا يعرف أهلها التدوين ، ولا تعمر فيها المدوَّنات طويلاً بسبب جفاف الجو ، فإن تاريخ اللغة العربية ظل إلى يومنا هذا سراً مغيباً فى تضاعيف الزمن ورمال الصحارى وصخورها. وقد بذل العلماء جهوداً مضنية فى تتبع أصول العربية،

وفى وقت ما من القرن التاسع عشر الميلادى اجتمعت جهود عشرات من أعاظم الأثريين وعلماء الكتابات على الأحجار وغيرها (paleographers, epigraphers) من بلاد الغرب كله وتضافرت للكشف عن سر اللغة العربية ، وخلفوا لنا مؤلفات ذات قيمة علمية كبرى ، ولكن النتائج التى وصلوا إليها جِدّ قليلة ولا تتناسب قط مع الجهد المبذول فيها ، وفى نهاية هذه الفقرة من بحثنا سنورد ثبتاً بأهم تلك الأعمال .

وأقدم ما عثرنا عليه من معالم العربية حوالى ٤٠ اسم علم وردت فى نص سريانى يتكلم عن قتال دار بين الأشوريين والعرب على الحدود الشمالية لشبه الجزيرة ، ويُذكر العرب فى هذا النص باسم عريبى أو عروبو أو عُرْبى ، وقد نشر هذا النص كالاغان :
. O'Callaghan, Aram Nahrain, 95

ويرجع تاريخ هذا النص إلى الفترة بين ٨٥٣ و ٦٢٦ قبل الميلاد ، ثم عُثر بعد ذلك على نصوص أخرى ترجع إلى نفس الفترة ونشرها T. Weiss Rosmarin فى مجلة مدرسة الأبحاث الشرقية فى لندن JSOR سنة ١٩٣٢ ص ١-٣٧ وأعاد نشرها وتحقيقها فريتز هومل F. Hommel : Ethnologie und Geographie des Alten Orients, 1926, pp . 578-589. وقد ذهب Landsberger وBauer فى بحث نشراه فى مجلة الدراسات السريانية Zeits- chrift der Assyriologie سنة ١٩٢٧ إلى أن أسماء الأعلام الواردة فى النص آرامية ، وقد نقض هذا الرأى B. Moritz وPaul Haupt فذهبا إلى أن المراد بلفظ أرمو فى النص هم العرب . ومن أمثلة هذه الأسماء حَمْدَان وزبيد وخَزَعِلُ ، وهى صور قديمة لأسماء عربية معروفة ، وهذا أول ذِكْر لعرب فى نصوص التاريخ .

وقد عثرنا فى نصوص ترجع إلى فترة قريبة من هذه على أسماء أعلام عربية فى نصوص وُجِدت فى ناحية دِدان قرب مدينة العلا الحالية ، وفى نصوص لحيانية من بينها اسم مسعود . وقد جمع هذه النصوص وحققها وترجمها وعلّق عليها علماء آخرون منهم :

Jaussen et Savignac, Mission archéologique en Arabic, 1904 -

Winnett, Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions .

. 1914,pp.363-634 مجلة Museon سنة ١٩٣٧ ص ٢٣٩ وغيرها .

وإنما أشرنا إلى هذه النصوص لأنها تتضمن أول ذكر مكتوب ومنقوش للعرب ، ومن الواضح أن العرب وُجِدوا منذ الزمن القديم فى جزيرتهم ، ولكن اتصالهم بالعالم الخارجى كان قليلاً ، وهذه بعض شواهده .

ومنذ القرن الرابع قبل الميلاد يكثر ذكر أسماء الأعلام العربية فى النصوص النبطية وترد الأسماء كذلك فى النصوص التدمرية التى ترجع إلى القرن الأول قبل الميلاد وتتوالى بعد ذلك النصوص التى يرد فيها ذكر لأسماء أعلام عربية وهى أشورية وأكادية وعبرانية وسريانية ويونانية ولاتينية ، ويستوقف النظر فى ألوف أسماء العرب التى وُجِدت فى هذه النصوص أنها تدل على ثبات صور تلك الأسماء على مر العصور.

وقد استنتج الباحثون من تلك النصوص أن اللغة العربية القديمة كانت لغة جُرْهُم ، وهى إحدى قبائل العرب البائدة التى تخلفت عنها قبيلة اندرجت فى عداد العرب المستعربة وكان لها ذكر فى تاريخ العرب قبل الإسلام هى المسماة بِجُرهُم الثانية ، وقد ورد ذكرها فى هذا البحث . وقد أورد أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٣هـ/ ٨٣٨م . نحو ثلاثين شاهداً من لهجة جرهم هذه فى كلامه عما دخل القرآن من الألفاظ بلهجات القبائل العربية .

وقد كانت للعرب البائدة لغة ولا شك ، وقد أورد الرواة بعض ألفاظ تخلفت عن قبائل العرب البائدة تعطينا فكرة عنها ، وهذه الألفاظ قريبة فى مبناها من أسماء الأعلام التى وردت فى النقوش الآنفة الذكر ، وهذه وتلك هى كل ما بقى لنا من العربية العتيقة ، أو ما سماه الباحثون باسم Ur-Arabish .

وعندما دخل العاربة اتخذوا هذه اللغة وتكلموها بلهجات مختلفة ، وبعض هؤلاء العاربة أوغلوا فى الصحراء من الجنوب حاملين معهم لهجاتهم ، وهى لهجات من العربية القديمة أو السبئية أو القتبانية ، وكلها متقاربة لأنها كلها من أسرة لغوية

واحدة، وفى كلام ياقوت عن جبلى أجأ وسَلمى يقول (١/١٣٧ من الطبعة الأوروبية): إن طيئاً عندما هاجرت من الجنوب استقرت فى الجبلين المنسوبين إليها وإن جد هذه القبيلة المسمى طىء وُجِد فى جبل أجأ شيخاً هرماً قال له : « نحن من بقايا صحار ، غنينا بهذين الجبلين عصراً بعد عصر ، أفنانا كر الليل والنهار » . وطيىء كما ذكرنا من جماعات العرب العاربة التى انتشرت فى شبه الجزيرة بعد خلائها بفناء معظم البائدة وقد أخذوا ما وجدوه من بقايا لهجات البائدة وبنوا عليه .

ويؤخذ من كلام اللغويين العرب أن العربية القديمة كانت لها لهجتان رئيستان ، لهجة أهل غرب الجزيرة ولهجة أهل شرقها . ولدينا شواهد من لغة قضاعة - وقضاعة كما انتهينا إليه فى هذا البحث هى إحدى جماعات العرب العاربة - وهى وطيىء والأزد أكبر جماعات أولئك العرب العاربة وكانوا أقرب إلى الشعوب ، لأن البلاد كانت لا تزال تحتفظ بشىء من خضرتها ، فالسهول كانت أراضى استبب أى حشائش قصيرة ، أما نواحى الجبال والمرتفعات من مثل جبلَى طىء وبلاد السراة والجبل الأخضر فى عمان فكانت غنية بالزروع والمياه والأشجار .

ويقول ياقوت فى كلامه عن جبلى طىء: « ونظر عمرو بن طيىء - والمفروض هنا أنه رجل - إلى بلاد واسعة كثيرة المياه والشجر والنخل والريف ، فرجع إلى أبيه وأخبره ، فسار طىء بإبله وولده حتى نزل الجبلين فرآهما أرضاً لها شأن » .(ياقوت مادة أجا) وهذا الكلام يمكن أن يقال عن جبال السراة أو سراة غامد فى منطقة عسير الحالية والجبل الأخضر فى عمان وجبلى طىء وهما اليوم جبال شمَّر ، فهذه وأمثالها كانت دائماً مواطن عامرة بالناس وما يقول ياقوت من أن طيئاً وجد جبلى أجأ وسلمى خاليين من السكان مستبعد ، والغالب أن طيئاً أقامت فى الجبلين من زمن طويل لأنها من جيل العرب العاربة كما قلنا ، شأنها فى ذلك شأن قضاعة والأزد .

وقد سبق أن نبهنا إلى أن كُتَّاب العرب تركوا مسألة العرب العاربة مبهمة لأنهم لم يعرفوا التطور الجغرافى والسكانى لشبه الجزيرة ، فقالوا دون اتفاق بينهم أو دليل : إن العاربة هم مهاجرة اليمن من الجنوب وأهل اليمن عرب منذ البداية : عاصروا البائدة

والعاربة وكانت لهم هجرات وامتدادات بعد استئناس الجمل وعودة العمران إلى وسط الجزيرة وشمالها ، ولكن ليس إلى الحد الواسع المدى الذى يريدون أن يقنعونا به، فلا قضاعة كانت يمنية ، ولا طىء ولا لخم ولا غسان ولا كل خزاعة كما رأينا ، وقد آن الأوان فيما نعتقد لأن نتخلص من الكثير من أوهام ابن الكلبى وأمثاله فيما يتعلق بأصول القبائل العربية .

وأصول العربية ترجع بلا شك إلى اليمن . وقبائل البائدة والعاربة أخذوا بقايا العربية عند انتشارهم فى الجزيرة العربية وساروا بها إلى الأمام ، وقضاعة بالذات كان لها الأثر البعيد فى ذلك التاريخ ، فقضاعة كانت وتداً عربياً فى بلاد الشام وعلى مشارف الجزيرة الشمالية ، وفى بلاد قضاعة أخذت العربية ألفاظاً كبيرة من العبرية والآرامية وقد أثبت أ . كوهين فى بحث نشره فى الدورية اليهودية سنة ١٩١٢ أى قبل أن تقع الواقعة بيننا وبين الصهيونية بحثاً له قيمته حافلاً بتلك الشواهد .

A. Cohen, Aramaic Influence on Arabic, Jewish Quarterly Review, 1912.

حيث نجد الأصول الآرامية لبعض العبارات التى أوردها اللغويون العرب من لهجات قضاعة وطىء وعبد القيس وغيرها ، وانظر :

S.Fraenkel , Aramaische Fremdwörter im Arabisch, 1886.

وقد أيدت بحوث علماء آخرين من أمثال H.Mueller وكارل بروكلمان ونولدكه الآراء التى تقول بأن اللهجة العربية التى تكونت وانتشرت بين عرب الشمال والوسط هى اللهجة الرئيسية التى نمت وازدهرت فى نجد وأصبحت الأصل البعيد للعربية الفصحى ، وهذه اللهجة أخذت الكثير من الألفاظ اللاتينية والسريانية والفارسية واليونانية - بالإضافة إلى الحبشية ، وأدخلته فى صميم اللغة الفصحى ومن أمثلة ذلك ألفاظ قنطار (فى السريانية قنطيرة ، وهذه من اللاتينية Centenarius أى وزن مائة رطل) ومنديل (من السريانية منديلة) وهذا من اليونانية Uasndn (منديل) ، ولفظ صراط من اللاتينية Strada (الطريق ومنه الإيطالية Strade

والألمانية Strasse والإنجليزية Street) ، وقصر (من اللاتينية Castra وهى الحصن ثم أطلق على كل بناء بالحجارة) ، وغير ذلك كثير . وكل هذه دلائل على حيوية اللغة وقوتها ، فإن اللغة الحية القوية تأخذ من غيرها وتعطى ما دامت جارية على الألسن مستعملة ، (وانظر فى ذلك كتاب المعرب للجواليقى ، بتحقيق إدوارد سخاو فى ليدن ، وانظر فى ذلك كله كتاب فوك Fück المشهور عن العربية ، وقد تُرجِم إلى العربية لتتبع هذا التاريخ) .

وقد جمع د. ناصر الدين الأسد فى كتابه: «مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية» (الطبعة الأولى - دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٦) وهو من أمهات الأبحاث الحديثة فى تاريخ اللغة والأدب العربيين التى يمكن أن نسميها بكلاسيكيات الدراسات العربية الحديثة التى ينبغى أن نعطيها نفس الأهمية التى نعطيها لكلاسيكيات الأصول العربية مثلها فى ذلك مثل : « الاشتقاق » لابن دريد ، و «المعرب» للجواليقى ، و«المصاحف» لأبى داود السجستانى وما إليها ، ومثل كتاب ناصر الأسد هذا كتاب « أسواق العرب » لسعيد الأفغانى ، و « بلوغ الأرب » لمحمود شكرى الألوسى ، و « تاريخ العرب قبل الإسلام » و « تاريخ الأدب العربى » لجرجى زيدان و « تاريخ الأدب العربى » لشوقى ضيف بمجلداته العظيمة القيمة ، وأبحاث عالم الجزيرة للشيخ حمد الجاسر وتحقيقاته الكثيرة الرصينة فى جغرافية الجزيرة وتاريخها ، وكتاب « تاريخ العرب قبل الإسلام الحفيل » لجواد على ، وتلك كلها وأمثالها أصول لا نزال نرجع إليها ونستنير بما فيها على طول هذا البحث .

وقد احتفظ لنا القدماء بأمثلة قيمة من لهجات القبائل التى صبت فى النهاية فى نهر العربية الفصحى فلدينا نماذج من لهجات عرب نجد وتميم وأسد وطىء وعبد القيس وقبائل الحجاز مثل جهينة وبلى وبهراء ، وهذه الثلاثة فروع من قضاعة بالإضافة إلى ألفاظ من لهجات الأزد وهذيل . وهذه البقايا تتجمع فى مجموعة لهجات قبائل الشرق من أمثال عبد القيس وبكر وتغلب ، وقبائل الوسط مثل تميم ومجموعة قبائل غرب الجزيرة . فأما لهجات الشرق فصبَّتْ فى لهجة نجد ، ولهجات الغرب صبت فى لهجة كنانة ثم قريش .

ويذهب علماء اللغة إلى أن لهجات الغرب والوسط تقاربت حتى صارت فى أصفى صورها عند قبائل أعاريب نجد ، وقد كان علماء العربية يلتمسون النطق الصحيح للألفاظ عند النجديين ، وليس المراد بذلك بالضرورة كبار القبائل ، بل إن اللهجة العربية التى يفهمها أكبر عدد من العرب وُجِدت عند بطون من غطفان وهوازن وتميم ، وجدير بالذكر أن السيدة آمنة أم رسول الله ﷺ اختارت أن تبعث بولدها الرضيع إلى منازل بنى سعد بن بكر وهم من هوازن حتى تتعود أذنه النطق السليم .

ومن بطون القبائل النجدية تلك كانت غالبية الوافدين على أسواق الحجاز وأعدادهم الكثيرة هى التى جعلت اللهجة النجدية أشيع اللهجات على الألسن فى سوق عكاظ وإذا كانت نصوص القصائد والمعلقات الجاهلية التى وصلت إلينا أصيلة لم يدخلها تحريف كثير ، فإن اللغة الفصيحة التى يفهمها كل العرب لابد أن تكون قد تطورت هناك من أصول نجدية ومؤثرات حجازية ، وقد اشتهرت قبيلة هذيل – وهى من قبائل شمال الحجاز وهم مُضَريون من بنى مدركة بن الياس – بسلاسة اللغة وحسن النطق وشاعرية الأسلوب ، وديوان الهذليين حاضر بين أيدينا شاهد على ذلك . وأبو الأسود الدؤلى واضع علم النحو كان من بنى عبد القيس اختار رجلاً عبقسياً من بنى عبد القيس وقال : إن لهجته أصفى ما أعجبه من ثلاثين رجلاً .

وتلك اللهجة النجدية من العربية أصبحت شيئاً فشيئاً لغة عامة يفهمها الناس من كل القبائل أو ما يسمى باسم الكوينى Koiné وهذا المصطلح يطلق على كل لهجة أو لغة تستعمل بين الناس من أصول شتى فى منطقة معينة ، وهذه اللهجة أصبحت شيئاً فشيئاً تسمى قرشية ، لأن قريشاً كانوا أصحاب السوق ، وهم الذين كانوا ينظمونه ويتفاهمون مع أهله .

وهذه اللهجة النجدية الحجازية أصبحت بفضل الشعراء لساناً مفهوماً من العرب جميعاً ، فقد يكون الشاعر تميمياً أو أسدياً أو هذلياً ، فإذا نظم ففى تلك اللغة العامة التى أصبحت لغة تفاهم بين العرب جميعاً واستحقت أن يصفها القرآن الكريم بأنها

لسان عربى مبين نزل به كلام الله حتى يكون حجة على العرب جميعاً ، والقرآن رفع شأن هذه اللهجة وجعلها هى العربية الصافية ولا يعرف العرب أصفى منها .

وإذن فالقرشيون : أولئك التجار الأذكياء العمليون عرفوا كيف ينتزعون من أعاريب نجد شرف وضع اسمهم على هذه اللهجة التى نشأت فى بلاد غيرهم فنسبت إليهم العربية الفصحى ، ولم يقل القرآن إنها لسان قريش ، بل قال إنها لسان عربى مبين ولكن القرشيين بسيطرتهم السياسية على أمة الإسلام نسبوها إلى أنفسهم ، وظهر الكثيرون من المؤلفين ممن يؤيدون هذا القول . ومن المعروف أن كل قبيلة من قبائل العرب تدَّعى جانباً من الفخر فى بناء لغة القرآن ، وربما كانت قريش أقل من غيرها نصيباً فى صنع هذه اللغة ، ولكن هذا هو التاريخ وتصاريفه ، بل إن الكُتَّاب الموالين لقريش أشركوا حلفاء قريش من خزاعة فى هذا الشرف ، فزعم أبو عمرو بن العلاء أن القرآن نزل بلغة الكعبين : كعب بن لؤى بن غالب بن قريش ، وكعب بن عمرو بن عامر من خزاعة .

ولكن قريشاً فازت فى النهاية بكل الثمرات ، فإن نصيبها فى تطوير اللغة العربية لا يرجع إلى امتيازها على غيرها من القبائل فى اللغة والشعر ، ولكنه يرجع إلى التجارة التى جذبت العرب جميعاً إلى أسواق الحجاز وإلى الدين الذى جعل العرب جميعاً يتصورون أن القرشيين كهنة العرب وسدنة أوثانها وأهل الإشراف على كل ما يتصل بأديانهم ، وعندما نزل القرآن أنكر ما فيه معظم القرشيين ، وكان الأوس والخزرج وخزاعة وبطون كثيرة من قضاعة أكثر تقبلاً للإسلام من قريش .

ومع ذلك فعندما تم نصر الإسلام وتقبلت قريش المكية القرآن زعمت قريش أن القرآن نزل بلغتها أو بلهجتها ، وهذا غير صحيح فى جملته إذ الحقيقة أنه نزل بلسان عربى مبين يفهمه كل العرب ، ورسول الله ﷺ عندما كان يكتب كتبه لشيوخ القبائل وسادة الناس من العرب يدعوهم لدخول الإسلام أو يُقرهم على ما طلبوا من الأمان لدخول أمة الإسلام كان يكتب لهم مستعملاً المصطلح الذى يفهمونه فى لهجتهم لأن المهم هو الوضوح ، والوضوح هو البيان والبيان هو البلاغة ، ولهذا فإن رسول الله ﷺ فى حديثه وكتبه يبلغ أعلى مستوى من البلاغة .

وقد جرى الباحثون على أن يعتبروا الشعر الجاهلى هو أكبر شاهد على لغة العرب قبل الإسلام وفى العصر النبوى ، ولكن تبين لنا الآن أن الشاهد الأكبر هى كتب الرسول ﷺ وهى كثيرة ومتنوعة ودراستها تعطينا فكرة أصدق عن تلك اللغة لأنها كُتِبت بلغة تعامل ، وفيها من مصطلح الحياة والمال والتعاون أكثر مما نجد فى الشعر الجاهلى الذى يشوبه الانتحال والوضع . وقد درسنا لغة كتب الرسول فى بحث آخر واستخرجنا منها الشواهد والبينات التى تؤيد ذلك . وقد درس معظمها قبلنا محمد حميد الله فى كتابه عن وثائق العصر النبوى والعصر الراشدى ، ولكننا الآن أضفنا كتباً أخرى كثيرة وواصلنا ما قام به من جهد مشكور .

ومهما يكن من الأمر فإن قريشاً ذهبت بالمجد كله لأن الاتجاه العام بعد الإسلام كان يتجه إلى تعظيم قريش من باب المحبة لرسول الله والبر بأهله ، فقال الناس : إن قريشاً أبلغ العرب وخلطوا بذلك بين محمد ﷺ وقبيله ، فإنه كان فعلاً أبلغ العرب ، ولكن قريشاً لم تكن أبلغها ولا أشعرها ولا أعلمها ، فلم يكن لقريش شاعر ذو قدر يُقارن بشعراء غيرها من القبائل حتى نجم فيها عمر بن أبى ربيعة وهو شاعر كبير ولكنه فى النهاية لا يعد فى الفحول . وقد أجملنا فى هذه السطور آراء عشرات الكُتَّاب والباحثين الذين بذلوا جهوداً ضخمة فى دراسة أصول اللغة العربية ، وقد أوردنا الكثير منها فى موارد هذا الكتاب .

قُريش وَالكِتابة العَربيّة :

أحصى الدكتور ناصر الأسد فى كتاب « مصادر الشعر الجاهلى » النصوص العربية التى وُجِدت فى كتابات على الأحجار وصورها . فالنصوص الثلاثة الأولى وجدت فى سيناء وهى مؤرخة بين سنتى ٢١٠و٢٥٣ للميلاد ، والنص الرابع وُجِد فى الحِجْر وهى مدائن صالح وتاريخه ٢٦٧م . وذكر كذلك نقشاً خامساً فى حوران غير مؤرخ ولكن المستشرقيْنِ إينو ليتمان والكونت دى فوج يرجحان أن تاريخه يرجع إلى ٢٧٠م. هذه كلها نصوص ترجع إلى القرن الثالث الميلادى ، وهى نصوص عسيرة القراءة ولكن أشكالها تقترب من هيئة الخط العربى وكلها دون نقط أو إعجام .

أما نقوش القرن الرابع الميلادى فأولها نقش وُجِد على قبر امرىء القيس بن عمرو

الذى يوصف بأنه ملك العرب فى النمارة فى إقليم حوران بجنوب فلسطين وهو مؤرخ سنة ٣٢٨ م . وهيئة الكتابة فى هذا النص قريبة من هيئات الحروف والكلمات فى الكتابات الإسلامية الأولى . وهذا النص يمثل مرحلة واضحة من مراحل تطور نشوء الخط العربى لأن الكلمات عربية وأشكال الحروف عربية تقريباً .

ومن نصوص القرن السادس الميلادى أورد د . ناصر الأسد نص خربة زبد بين قنسرين (حلب) ونهر الفرات وتاريخه ٥١٠م ، وعليه ثلاث كتابات : يونانية وسريانية وعربية ، والعربية قريبة من رسم الخط العربى الكوفى .

والنص الأخير الذى يورد تاريخه ٥٦٨م . وقد وُجِد فى اللجأ من حوران فى المنطقة الشمالية من جبل الدروز ، وهذا النص يضم كتابة عربية واضحة .

وقد ذكر البكرى نصاً عربياً آخر مؤرخاً سنة ٥٦٠ للميلاد وقد وُجِد فى كنيسة هند فى الحيرة . وتذهب المستشرقة نبية عبود الأمريكية[١] إلى أن الكتابة العربية الأولى اخترعها الرهبان النصارى الذين كانوا يعملون على نشر المسيحية فى الحيرة والشام بين العرب كما فعل غيرهم الذين اخترعوا كتابات أخرى ليكتبوا بها ما يترجمونه من نصوص الكتاب المقدس إلى لغة القوم الذين يعيشون بينهم ، وهى تذهب إلى أن أول مكان كُتِبت فيه تلك النصوص العربية كان فى الحيرة أو الأنبار ، وقد عثر الباحثون على قطع من مزامير داود مترجمة إلى العربية ولكنها مكتوبة بحروف يونانية ، ومن هذا النوع نصان آخران عثر عليهما وفَكّ رموزهما المستشرق Baumstarck وكل هذه النصوص عربية قريبة جداً من اللغة العربية الفصحى أو ما يسميه المستشرقون بالعربية القديمة Classical Arabic وهى نفس اللغة التى تجدها فى نصوص أوراق البردى الأولى . انظر :

Graf, Sprachgebrauch der älteren Christlischen Arabische Literatur,1905 .

ويذهب يوليوس فلهاوزن فى كتابه القيم عن « الحج قبل الإسلام وعلاقته بالحج

---

(١) Nabia Abbot , Rise of North Arabian Schrift , 1939.

الإسلامى ، J. Welhausen, Reste Arabische Heidenlums,2 ed .1927 إلى أن العربية القديمة ظهرت أول الأمر بعد تطور طويل فى الحيرة ويؤيد هذا القول ما يذكره أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى من أن أول شعر عربى فصيح ظهر وكتب كان فى الحيرة وأول من قال هذا الشعر وكتبه زيد بن حماد العبادى وهو والد الشاعر العِبادى المشهور عدى بن زيد . ويقول الأصفهانى : إن شعر عدى بن زيد لا يعد فى الفصيح تماماً ، ومعنى هذا أن العربية الفصيحة القديمة كانت لا تزال فى دور التطور ، ويذهب المرزبانى فى شرح المفضليات المعروف باسم الموشح (القاهرة ١٣٤٣ص٧٣) إلى أن عدى بن زيد كان يختار ألفاظه من بين لهجات قبائل شتى ، وأنه كان فى ذلك شبيهاً بالقرشيين الذين كانوا يستعملون فى لهجتهم ألفاظاً وعبارات من لهجات القبائل ، وأن قريشاً كانت تفعل هذا ليستطيع رجالها التفاهم مع رجال القبائل الوافدين على مكة ، وبهذا تكون قريش قد أسهمت بنصيب كبير فى بناء العربية القديمة انظر : K.Vollers, Volksprache und Schriftsprache in alten Arabien , 1906.

ومن الواضح أن معظم النصوص الشعرية التى وصلت إلينا قد أُدخِل عليها تعديل بعد الإسلام لتكون قريبة من الفصحى التى ثبَّتَ القرآن الكريم صورتها ومستواها . وهنا تتجلى لنا أهمية الرواة ودورهم فى تطوير اللغة العربية ، فإن الراوى كان رجلاً من قبيلة الشاعر يفهم شعره لأنه يعرف لهجته ، وهو عندما يروى شعر صاحبه يجتهد فى تقريبه من اللغة المشتركة التى قلنا إنها تسمى الكوينى Koiné العربية. وهذا واضح فيما نعرف عن حماد عجرد الراوية وأبى الأسود الدؤلى فقد كانا راويتين للأشعار من شتى القبائل لإلمامهما باللهجات ، وتلك التعديلات التى أدخلها الرواة على شعر الشعراء ليكون مفهوماً لأكبر عدد من العرب هو الذى فتح باب الوضع والإضافة ، وما دام الراوى يعدل ويغير ويبدل فهو يضيف أيضاً ويضع من عنده .

ولكن هذا الوضع لم يصل قط إلى الدرجة التى ذهب إليها طه حسين فى الطبعة الأولى من الشعر الجاهلى حينما قال إن معظم الشعر الجاهلى موضوع ، وهى نظرية

قال بها من المستشرقين مارجوليوث ، وقد عدل طه حسين نظريته وآراءه فيها بعد ، ولكن الذى نخرج به هو أن ما وصل إلينا من شواهد الشعر الجاهلى وبعض العبارات التى نجدها فى تفاصيل حرب البسوس مثلاً يحمل الطابع اللغوى القرشى أو المكى أو الحجازى الذى أصبح الميزة الكبرى للعربية القديمة أو الفصحى .

وفى اللغة المكتوبة قام الكتبة أو الكُتَّاب بدور الرواة ، فإن الكتابة العربية التى ولدت فى الحيرة دخلت الجزيرة على أيدى دعاة المسيحية ، وكانت تلك الديانة منتشرة بين عباد الحيرة واللخميين والقضاعيين والغساسنة وعرب طىء ومعظم النصوص المكتوبة التى ذكرناها وُجِدت فى بلاد انتشرت فيها المسيحية أى فى بلاد من تسميهم النصوص بنصارى العرب أو عرب الروم ، وعدى بن زيد وأبوه زيد بن حماد وابنه زيد بن عدى كانوا نصارى ، وكانت المسيحية تزحف ببطء فى شمال شبه الجزيرة ، وكانت المسيحية منتشرة بين كثير من بطون قضاعة وخاصة كلب بن وبرة وبهراء وبلى وسليح ، وكذلك انتشرت المسيحية بين الجذاميين وبعض الجهنيين وهذيل فى شمال الحجاز ، وفى منازل هذه القبائل كتب رجال الدين العربية بالخط العربى البدائى الذى أشرنا إليه ، وقد ذكرنا أن بعض نصوصه وردت فى الحِجْر من مدائن صالح ، وكانت تقع فى بلاد جهينة أى : أنها أوغلت فى الحجاز حتى قرب المدينة .

ومن تلك النواحى أخذ القرشيون الكتابة العربية وكانوا فى أشد الحاجة إليها لشئون تجارتهم ، وقد اهتمت بعض بطون قريش بالكتابة حتى سُمِّى بيت من بيوت مُرَة باسم القلمس ومَعْناه القلم كما ذكرنا . ومن بين الكُتَّاب ظهر النسأة وهم الحاسبون الذين يحسبون الشهور والأيام والمواقيت ويكتبون ذلك كله ، وقد أساء النسأة استخدام الكتابة والحساب فزوَّروا ودلسوا دون أن يخشوا بأساً ، فقد كانوا يكتبون لقوم أميين لا يقرأون ولا يكتبون . ولكن الكتابة انتشرت فى قريش وخاصة بين البطون التى اشتهرت بالمساهمة فى الأعمال التجارية بنصيب أكبر من غيرها مثل بنى هاشم وبنى عبد شمس وبنى مخزوم وبنى سهم وجمح من بنى هصيص . وقد اشتهر بيت أسد بن عبد العزى بكثرة من عرف القراءة والكتابة من أبنائه .

وليست لدينا فكرة واضحة عن شكل الكتابة العربية قبيل الإسلام وإن كان من الثابت أن قريشاً كانت أكثر قبائل العرب كُتَّاباً وقراءً وستلحق بمكة المدينةُ فى هذا

المجال ، ولكن ذلك سيكون بعد الإسلام وبفضله ولكن إذا كنا سنقبل من حيث الشكل - بعض صور كتب الرسول ﷺ إلى الملوك والرؤساء العرب فإن هذه الكتب يمكن أن تعتبر نماذج للخط العربى كما كان القرشيون يكتبونه وإن كنا نلاحظ فروقاً جسيمة بين خط كتاب الرسول ﷺ إلى المنذر بن ساوى وكتابه إلى المقوقس فالثانى أقرب إلى الرسم الجارى للكتابة الذى نجده فى أقدم المخطوطات العربية ، أما الأول فهو أقرب إلى نقش القاهرة الذى أورد د . ناصر الأسد رسمه فى ص ٣١ من كتابه الآنف الذكر ، وهذا النص الأخير يرجع إلى سنة ٣١ هـ فى عهد الخليفة عثمان بن عفان .

ونضيف إلى ذلك عدداً من النصوص نشرها الأستاذ محمد حميد الله صاحب الأبحاث والدراسات القيمة عن العصر النبوى وناشر مجموعة وثائق العصر النبوى والعصر الأموى . وقد وجد تلك النصوص على قمة الطرف الجنوبى لجبل سلع فى المدينة المنورة خارج سورها الشمالى ، ورجح أنها ترجع إلى العام الخامس الهجرى أيام معركة الخندق وخط هذه النصوص يشبه خط كتاب الرسول ﷺ إلى المنذر بن ساوى[١] .

ونقف عند هذا الحد من تتبعنا لتاريخ اللغة العربية والخط العربى الذى كُتِبت به ، وحَسْبنا النتائج التى وصلنا إليها فيما يتعلق بقبيلة قريش ودورها فى تاريخ الجاهلية .

وخلاصة كلامنا فيما يتعلق بدور قريش فى تطوير العربية وكتابتها أن هذه القبيلة التى تعتبر من أصغر القبائل العربية حجماً استطاعت بفضل دورها الكبير فى التجارة وديانات الجاهليين أن تكون صاحبة دور حاسم فى تطور اللغة والخط ، حقاً إنها لم تخترع هذه ولا ذاك ولكن مقدرتها التجارية وسيطرة رجالها على طرق التجارة والأسواق مكَّنتها من جمع ثروات طائلة وتحويل مدينتهم الصغيرة فى ذلك الحين إلى واحدة من أكبر أسواق الدنيا . ففى مكة كانت توجد فى العصر الجاهلى - وخصوصاً

---

(١) انظر د . ناصر الدين الأسد . مصادر الشعر الجاهلى القاهرة ١٩٥٦ ص ٣٢ . وانظر :
M. Hamidullah, Some Arabic Inscriptions of Madinah of the Early Years of the Hijra, in Islamic Culture Quarterly, vol XIII, n . 4, October . 1939, p.423.

فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى - بضائع لا توجد فى غيرها من كبريات المدن فى الدنيا .

وقد كانت أرباح هذه التجارة عظيمة وبفضل ثروات المكيين وما تيسر لهم من سبل الاتصال بالناس خارج الجزيرة وفى شتى نواحيها اتسعت معارف القرشيين وزاد هذا العلم المتجمع لهم عن طريق قنوات عملية قائمة من الاحتكاك المباشر بالناس واقتباس العلم بالدنيا وأهلها منهم ، هذا العلم زاد ذكاء القرشيين حدة ، وعندما تطلع شمس الإسلام ويسطع نورها سنجد قريشاً فى مستوى ثقافى وفكرى وحضارى أعلى بكثير من قبائل أكبر حجماً وأوسع منازل وأقرب إلى مواطن الثقافة فى العالم القديم .

ومما تجدر ملاحظته أن أمة الإسلام عندما قامت فى المدينة وجدت الكُتَّاب ومعظمهم من قريش بل كان القرشيون المهاجرون هم الذين وسعوا نطاق الكتابة والقراءة بين اليثربيين ، فعلى أيدى القرشيين تعلم كتاب يثرب من أمثال زيد بن ثابت وأُبى بن كعب وأنس بن مالك الكتابة والقراءة وأصبحوا من نوابغ كتاب الرسول ﷺ ، وعلى يد القرشيين سيتعلم مهاجرة المسلمين إلى المدينة من أمثال أبى ذر الغفارى وأبى هريرة الدوسى ، وبعد معركة بدر نجد أن رسول الله ﷺ يكلف أسرى بدر غير القادرين على أداء الدية بأن يقوم كل منهم بتعليم عشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة فى مقابل فديته .

بل إن الرسول ﷺ وجد فى مكة ناساً يسفرون له عند الروم والفرس وقبط مصر والأحباش . والقول بأن رسل النبى أصبح كل منهم وهو يعرف لغة القوم الذين ندبهم الرسول ليحملوا رسالته إليهم قول بعيد عن التصديق ، وأقرب إلى المنطق منه أن نقول إن أولئك النفر كانوا يعرفون لغات الأقوام ولهذا اختارهم الرسول ﷺ لحمل رسائله .

وسنرى عند دراستنا لموقف قريش من الإسلام نواحى أخرى كثيرة تكشف عن جوانب من قوة قريش أو العوامل التى وضعتها فى هذا الموضع من الصدارة ، ومع أن

جمهرة القرشيين لم تحسن استقبال الإسلام ولا هى أقبلت عليه إلا أن قريشاً كانت - من كل ناحية - أكثر قبائل العرب استعداداً لتلقى الرسالـة ، وكان فيها - على الأقل - جماعة أثبتت أنها أهل لحمل الرسالة . حقاً إنهم كانوا أقلية ضئيلة جداً ، ولكن مستواهم العقلى والخلقى والإنسانى كان عالياً جداً . وصدق الله سبحانه وتعالى فى كلامه عن المكيين وعنادهم فقد كان بعضهم يرى أنه حقيق بأن تنزل عليه آيات كتلك التى كانت تتنزل على رسول الله ﷺ ، وهذا غرور من أولئك المكيين ولكنه كذلك إحساس بالامتياز ، واقرأ قوله سبحانه فى سورة الأنعام :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام] .

والمراد من الجملة الأخيرة من الآية ١٢٤ هو أن أولئك الذين يتعاظمون ويرون أنهم أهل لأن تنزل عليهم الآيات سيعرفون أنهم أصغر من أن يحملوا الرسالة ، والله تعالى أعلم بحالهم وما كانت قلوبهم تنطوى عليه من الشر ، وسيعذبهم الله بذلك كله.

مُورفولوجيّة قبيلة قريش قبل البعثة النَّبويّة :

بعد أن ألممنا بتاريخ قريش قبل الإسلام نقف لحظات فى نهاية هذا الباب لنلقى نظرة خاصة على دواخل قريش ، على تركيبها الداخلى والطريقة التى كانت تعمل بها وتحافظ على قوتها ، أى : أننا سنتحدث فى هذه الفقرة عن ديناميكية هذه القبيلة وكيف كان نظامها الذى ذكرناه يعمل بنجاح إلى حد كبير . بل سنرى أن تركيب هذه القبيلة وطريقة العمل والحركة بداخلها سيهبها قوة وصلابة تُمكِّنها من الثبات لصدمة الإسلام خلال الفترة المكية من حياة رسول الله ﷺ وستمكن لها من المحافظة على كيانها كتلة واحدة أثناء السنوات الثمان الأولى من التاريخ الهجرى ، فقد صمدت كتلتها بقوة تستلفت النظر وتمسكت بموروثها ، وعندما دخلت مكة فى نطاق أمة المدينة دخل معظم القرشيين الإسلام بنظام يستوقف النظر كما سنرى .

وقد أكثر العرب من الكتابة فى الأنساب ، وما من عالم جليل من علماء العرب إلاّ وله فى الأنساب كلام كثير أو قليل ، ولكن كلامهم الكثير هذا يعرفنا بتفرع قبائل العرب بعضها عن بعض ، ثم أقسام القبائل ثم أفراد الأقسام ثم أنساب الأفراد وهو التعريف بآبائهم وإخوتهم وأمهاتهم أحياناً .

والمصعب الزبيرى فى نسب قريش فى كلامه عن أنساب قريش يتتبع فى أحيان كثيرة أنساب النساء فيقول إن فلانة أمها فلانة وأم فلانة فلانة .

ولكن كل اهتمام مؤرخينا موجه نحو الشكل الخارجى للقبيلة وتقسيماتها السطحية ، ونادراً ما نجد عندهم لمحات تفيدنا فى معرفة التركيب الداخلى للقبيلة : ما هى أساساً ؟ وكيف تتكون ؟ وممّ تتكون ؟ وكيف تعيش القبيلة وتعمل بصفتها كياناً اجتماعياً وسياسياً مستقلاً بذاته إلى حد ما ؟ سنحاول هنا أن ندرس باختصار تحليل القبيلة وتشريحها أو أناتوميتها Anatomy of the tribe ووصف تركيبها الداخلى وأجهزتها التى تمسك بعضها ببعض أو مورفولوجيتها Tribe Morphology ونرى كيف تعمل الأعضاء الداخلية للقبيلة أو فيزيولوجيتها Tribe phisiology متخذين قريشاً مثالاً ، لأنها موضوع دراستنا فى هذا الكتاب ، ولأنها القبيلة العربية التى نعرف عنها أكثر مما نعرف عن غيرها .

وكتابات العرب هنا وصفية خارجية ومعظمها يتعلق بالأنساب أى تسلسل أفراد القبيلة ، بعضهم من بعض مع التركيز المطلق تقريباً على العَصَبات أى أنساب الذكور ، ومعظم ما لدينا من المعلومات هنا يرجع إلى أصول قليلة جداً ، وإليك فيما يتصل بتلك الأصول كلام أبى عمر يوسف بن عبد الله بن عبد الله النمرى الأندلسى القرطبى (المتوفى سنة ٤٦٣هـ عن خمس وتسعين سنة) فى كتاب « الإنباه عن قبائل الرواة » فمن ذلك كتاب أبى بكر محمد بن إسحاق ، وكتاب أبى المنذر هشام بن محمد ابن الكلبى ، وكتاب أبى عبيدة معمر بن المثنى ، وكتاب محمد بن عبدة بن سليمان ، وكتاب محمد بن حبيب ، وكتاب أبى عبد الله أحمد بن محمد بن عبيد العدوى فى نسب قريش ، وكتاب الزبير بن بكار فى نسب قريش ، وكتاب عمه مصعب بن عبد الله الزبيرى فى ذلك ، وكتاب على بن كيسان الكوفى فى أنساب العرب قاطبة ، وكتاب

على بن عبد العزيز الجرجانى ، وكتاب عبد الملك بن حبيب الأندلسى ، إلى فِقَرٍ قيدْتُّها من الحديث والآثار ونوادر اقتطفتها من كتب أهل الأخبار[1]» وهذه - بالإضافة إلى كتاب جمهرة أنساب العرب - هى أهم الأصول التى نعتمد عليها فى الأنساب .

أما تحليل تركيب القبيلة وتقسيمها فمن أحسن ما يصور كلام هؤلاء النسابة فيه فهو قول ابن عبد البر النمرى :

« وقال أهل النسب :

الشعوب الجماهير والجراثيم التى تفرقت منها العرب

ثم تفرقت القبائل من الشعوب

ثم تفرقت العمائر من القبائل

ثم تفرقت البطون من العمائر

ثم تفرقت الأفخاذ من البطون

ثم تفرقت الفصائل من الأفخاذ

وليس دون الفصائل شىء : فصيلة الرجل رهطه الأدنى وبنو أبيه » (الإنباه ص ٥٦-٥٧) .

ويكمل هذه العبارة مثلها للزمخشرى تقول : « والشعب الطبقة الأولى من الطبقات الست التى عليها العرب وهى الشعب والقبيلة والعمارة والبطن ، فالشعب يجمع القبيلة ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن تجمع الأفخاذ ، والفخذ تجمع الفصائل : خزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصى بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة ، وسميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها» [2].

وهذا كله كلام سطحى وصفى لغوى ، فكل الذى فيه هو إيجاد اسم لكل فرع من الفروع التى تتشعب إليها الجماعات القبلية ومع ذلك فالكلام ليس دقيقاً ولا كاملاً ، فماذا - مثلاً فوق الشعب ؟ أو ماذا نقول فى عدنان وقحطان ؟ والمعروف أن عدنان

(١) أبو عمر يوسف بن عبد البر ، الإنباه على قبائل الرواة . طبعة دار الشعب بالقاهرة ص ٥٧ .
(٢) هامش الإنباه ص ٥٦ .

وقحطان جذمان ، فالجذم إذن فوق الشعب ، ثم إن أحداً لم يقل إن قريشاً عمارة لأنها قبيلة . ثم ماذا تحت الفصيلة ؟ ألا يوجد هناك البيت أو « أهل بيت » ، وذلك ما نسميه العائلة أو الأسرة .

ثم إن ابن حزم يستعمل مصطلحي البيت والعدد ويقول : « نعني بالبيت حيثما ذكرناه الشرف وبالعدد الكثرة » وإذن ففي كل قبيلة بيت أي أسرة أو فرع فيه الشرف أي الرياسة وفرع آخر - أو فروع - تتميز بالكثرة ، فقريش مثلاً بيتها في هاشم وعددها في عبد شمس .

وكما هي العادة نجد كُتَّابنا القدامى ونَسَّابتهم يقفون دائماً عند السطوح ولا يدخلون في الأعماق إلا نادراً ، وكتاباتهم في الغالب أفقية ونادراً ما تكون رأسية . والبلاذري أراد أن يؤرخ لدولة الإسلام أفقياً فكتب « فتوح البلدان » درس فيه اتساع الدولة أفقياً ، ثم خطر له أن يؤرخ لها رأسياً فكتب « أنساب الأشراف » .

وفي قواميس اللغة أن القبائل لا توجد إلا في العرب . جاء في لسان العرب والقبيلة من الناس بنو أب واحد . التهذيب : أما القبيلة فمن قبائل العرب وسائرهم من الناس . ابن الكلبي : الشعب أكبر من القبيلة ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ . قال الزجاج : القبيلة من ولد إسماعيل عليه السلام ، كالسِّبْط من ولد إسحاق عليه السلام ، سموا بذلك ليفرق بينهما ومعنى القبيلة من ولد إسماعيل معنى الجماعة، يقال لكل جماعة من واحد قبيلة ، ويقال لكل جمع من شيء واحد قبيل .

قال الله تعالى : ﴿ إنَّهُ يراكُمْ هُوَ وقبِيلُهُ من حيثُ لا ترونهم ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف :] ي هو ومن كان من نسله ، واشتق الزجاج « معنى لفظ قبيلة » من قبائل الشجرة . وهي أغصانها ، وقال أبو العباس المبرد : أُخذت قبائل العرب من قبائل الرأس لاجتماعها وجماعتها : الشعب والقبائل دونها . ويقال : رأيت قبائل من الطير أي أصنافاً ، وكل صنف منها قبيلة ، فالغربان قبيلة ، والحمام قبيلة ، قال الراعي .

رأيتُ رُدافَى فَوْقَهَا مِنْ قَبِيلَةٍ مِنَ الطَّيرِ يدْعُوهَا أَحمّ شَحوجُ

يعني : الغربان فوق الناقة . وكل جيل من الجن والناس قبيل .

ويقول قبل ذلك : « القبيلة واحدة قبائل الرأس ، وهى القطع المشعوب بعضها إلى بعض تصل بينها الشئون ، وبه سميت قبائل العرب ، الواحدة قبيلة ، وكذلك قبائل القدح والجفنة إذا كانت على قطعتين أو ثلاث قطع وقبائل الرحل أحناؤه المشعوب بعضها إلى بعض وقبائل الشجرة أغصانها وكل قطعة من الجلد قبيلة ، والقبيلة صخرة تكون على رأس البئر » (اللسان ٢/ ١٢) .

وهذا كل ما نجده فى معاجم العربية عن القبيلة ، ومهما تبحث فى أصولنا العربية فما أنت بواجد تعريفاً أوسع من هذا للقبيلة ، وأنت لا تعرف علام تطلق القبيلة: هل على الناس الذين تربطهم رابطة الدم ، أم على جماعة من الناس ينضم بعضهم إلى بعض ويتكاملون فيما بينهم كما تتكامل أعضاء الرأس هى وشئونها أو الجماعة من الناس الذين يتفرع أفرادها بعضهم عن بعض كما تتفرع أغصان الشجرة وهل كل صنف من الطير والحيوان قبيلة ، وما هو الرابط بينها .

وهذا الإجمال فى ذكر القبيلة وتعريفها يدل على أن القدماء لم يجدوا ما يدعوهم إلى الوقوف فى نظام جنسهم وأصوله ونظامه ، وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام هذا الطراز من الغموض الذى يكتنف التاريخ البعيد للعرب ولغتهم وكتابتهم وكان علينا أن نتقبل كل شىء عن الأصول والجذور على أنه بداية كلام لا آخر ما يقال فى الموضوع لأن كل شىء يتصل بأصول العرب يهمنا ، ولا نستطيع الوقوف فيه عند السطوح . وكما فعلنا فى بحثنا عن أصول اللغة والكتابة كان علينا أن نستنتج كل شىء من النصوص استنتاجاً ، وإن كان يستوقف نظرنا ما يقوله الزجاج من أن فروع العرب سميت قبائل فى مقابل الأسباط وهم أبناء إسحاق .

حتى ابن خلدون وهو المَعْنِىُّ بشئون الاجتماع لا يفيدنا فى هذا المجال فهو فى كلامه عن العمران البدوى يضع عنواناً هو : « فى العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض من ذلك من الأحوال وفيه فصول وتمهيدات » (ص ١١٠) وكلامه فى هذا الباب بفصوله الكثيرة قائم على أننا نعرف سلفاً ما هى القبيلة وكيف تتكوَّن والأنساب وتفرعها وبقاءها صريحة سليمة واختلاطها وما إلى ذلك . أما إذا

ذهبت تسأل عما وراء ذلك فأنت لا تجد جواباً : هل تسلسل الناس فى القبيلة يكون بالعصبات فقط أى بالنسل من الذكور أو أن النسل من البنات أيضاً يدخل ضمن ما يُعرف عادة بالرحم ؟ وما الفرق بين الأرحام الناشئة عن خط الذكور والأرحام الناشئة عن الزوجات والبنات والأخوات البنات ؟ وهل مر العرب بدور سيادة الأم فى الجماعة وما يسمى باسم Matriarct ثم غلب الرجال بعد ذلك ودخلت الجماعة فى طور سيادة الرجال المعروف باسم patriarct كما هو الحال مع كل من نعرف من الجماعات القبلية .

والظاهر الذى يمكن التعويل عليه فى هذا المجال هو أن العرب الذين يعرفهم التاريخ يظهرون فجأة فى صورة جماعات قبلية رجالية أو باترياركية ، وهذا هو المعقول لأن أصول العرب البعيدة تلك لا بد أن تكون قد وُجِدت فى عصور البائدة الذين لا نعرف عنهم شيئاً ، أما العاربة والمستعربة فقد رأينا أنهم دخلوا الجزيرة قبائل باترياركية ذات ماض بعيد خلفته وراءها فى أوطانها الأولى ، وقد رأينا الزجَّاج يقول إن القبائل مصطلح لا يكون إلا فى العرب وإن هذا المصطلح يقابل الأسباط عند أولاد إسحاق . وفى كلامنا عن دخول المستعربة رأينا اليعقوبى يقول : إن قبائل العرب الذين انحدرت منهم قريش أى الاسماعيلية دخلوا الجزيرة بأسمائهم العبرية أو السريانية ثم عُرِّبت بعد ذلك .

وقد قلَّتْ أهمية كل النظم الاجتماعية العربية التقليدية بمجىء الإسلام وحلول شريعته وأخلاقياته محل النظام الاجتماعى الذى كان سائداً قبل ذلك . وفى أطواء الكتب نعثر على بعض العادات القديمة مثل زواج الولد من امرأة أبيه مما يترتب عليه أن يكون له إخوة وأولاد من نفس المرأة ، ووراثة الأخ لكل ما يتركه أخوه المتوفى دون أولاد أو عن أولاد صغار ، وكأن الأخ كان هو الوريث الشرعى فى تلك الحالة . وقد نص القرآن نصاً صريحاً جداً على ترتيب القرابات وما هو محرم منها وما ليس بمحرم ، ومن الذى يعتبر جزءاً من العائلة يؤذن له الدخول على نسائها دون أن يتحجبن دونه ومن لا يجوز . وكذلك فصَّل القرآن والسنة أمر الميراث ونظامه وحصصه ، وقضى بذلك على كل ما كان قائماً قبلاً .

ومن أكثر من مائة سنة كتب روبرتسون سميث كتابه المشهور عن تطور النظام

الاجتماعى للعرب ، فقال بوجود الطوطمية عند العرب القدماء أى ارتباط الناس بعضهم ببعض برابطة عبادة شىء أو حيوان أو نبات يسمى طوطما . والطوطمية لا تتعارض مع خطوط النسب ، فإن القبيل من القبائل الأفريقية أو الاسترالية والهندية الحمراء أو المغولية كانت تترابط بروابط الدم والنسب ثم يتضخم القبيل بعد ذلك بانضمام جماعات أخرى إليه تعبد نفس معبود القبيل ، ومع الزمن تصير الجماعة الطوطمية قبيلاً واحداً .

ولا بد أن العرب الموغلين فى القِدَم عرفوا الأسرة الماترياركية التى تتكون حول الأم دون الأب وتكون السيادة فيها للأم ، وهذا ظاهر فى أسماء القبائل المؤنثة الاسم مثل خزاعة وكندة وقمعة وخزيمة ، ومن أمثلة بقايا الطوطمية أسد وثعلب وثعلبة وكلب وما إليها . وقد أنكر الباحثون العرب آراء روبرتسون سميث من زمن بعيد غيرةً على أنفسهم وترفعاً عن أن تكون أصولهم مشابهة لأصول القبائل البدائية ذات المستوى الحضارى الخفيض ، ولكننا لا نرى الآن ما يدعو إلى ذلك ، لأن العرب بَشَرٌ كغيرهم لا بد أنهم ساروا فى تطورهم السحيق فى نفس الخطوط العامة لكل الجماعات البشرية ، وإن كان ذلك أيام البائدة أو حتى قبلها ، وربما تكون مراحل هذا التطور قد تمت قبل دخول موجات الوافدين من طبقات العرب كالعاربة والمستعربة .

وقد تكلم مونتجومرى واط فى أحد ملحقات الجزء الثانى من حياة محمد ﷺ التى كتبها عن بعض ممارسات العرب الجاهليين فى مسائل الزواج والعصبات والأرحام وبقايا ذلك فى الإسلام ، وقد تحامى الكثير من آراء روبرتسون سميث ، وكلامه مفيد ولكنه لا ينفعنا فى مطلبنا هنا ، وقد رأينا أن نركز الكلام هنا على ما يعيننا على معرفة التركيب الداخلى لقريش وكيف كان نظام القرابات والولاء والتبنى والإلحاق يعمل ، وكذلك سنتناول بالكلام علاقات الناس بعضهم ببعض داخل القبيلة وخارجها . ولن نذكر من ذلك إلا ما يفيد بحثنا تاركين بقية ذلك لمن يريد أن يصرف إليه جهده ، ولكننا نشير هنا إلى المراجع التالية التى تنفع القارىء فى هذا المطلب[1] ، وهذا مع

---

(1) Robert son Smeth . Kion ship and Marraige in pre -islamic Arabia - London 1906 G.M. Stern . Marraige in Early Islam - Leiden 1945.

W. Montgamer Watt, Muhammad at Medina . Oxford 1956.

Exewrous J . Marraige and Family in pre- islamic times pp . 377

العلم بأن مؤلفى تلك الكتب يعتمدون أساساً على مراجع عربية ، ولكن الخطأ يدخل عليهم من ناحية التفسير وسوء القصد وكلاهما متوفر عندهم .

وقبل أن أدخل فى صميم ما يهمنا هنا من كلام ابن خلدون فى الفصل الثامن من الباب الثانى من مقدمته وعنوانه : « فى أن العصبية إما تكون من الالتحام بالنسب أو ما فى معناه » (ص ١١٧ وما بعدها) قال :

« وذلك أن صلة الرحم (أمر) طبيعى فى البشر إلا فى الأقل . ومن صلتها النُّعَرة (= الغيرة) على ذوى القربة وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة ، فإن القريب يجد فى نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه ، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك ، نزعة طبيعية فى البشر مذ كانوا ، فإذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريباً جداً بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة ، فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها . وإذا بَعُدَ النسب بعض الشىء فربما تُنوسِى بعضها ، ويبقى منها شهرة ، فتحمل على النصرة لذوى نسبه بالأمر المشهور منه فراراً من الغضاضة التى يتوهمها فى نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه . ومن هذا الباب الولاء والحلف ، إذ نعرة كل أحد على أهل ولائه وحلفه ، للألفة التى تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب ، وذلك لأجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريباً منها .

ومن هنا نفهم معنى قوله ﷺ : « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم » . بمعنى أن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذى يُوجِب صلة الأرحام ، حتى تقع المناصرة والنعرة ، وما فوق ذلك مستغنى عنه إذ النسب أمرٌ وهمى لا حقيقة له . ونفعه إنما فى هذه الوصلة والالتحام فإذا كان ظاهراً واضحاً حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قلنا وإذا كان إنما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته .وصار الشغل به مجاناً (أى بدون فائدة) ومن أعمال اللهو المنهى عنه. ومن هذا الاعتبار معنى قولهم : « النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر » بمعنى أن النسب إذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن

النفس ، وانتفت النعرة التى تحمل عليها العصبية ، فلا منفعة فيه حينئذ ، والله سبحانه وتعالى أعلم » .

وفى الفصل التالى لهذا وهو التاسع (ص ١١٨) حيث يتكلم على سلامة الأنساب وصحتها وصراحتها عند العرب الساكنين داخل الصحراء فى حياة الشظف والجوع حيث لا يرغب غريب فى اللحاق بهم : « واعتبر ذلك فى مضر من قريش وكنانة وثقيف وبنى أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة ، لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع . وبعدوا من أرياف الشام والعراق ، ومعادن الأُدَم (مصادر ما يؤتدم به من الطعام) والحبوب ، كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة ، لم يدخلها اختلاط ولا عُرِف فيها شوب . وأما العرب الذين كانوا بالتلول وفى معادن الخصب للمراعى والعيش من حمير وكهلان ، مثل لخم وجذام وغسان وطىء وقضاعة وإياد ، فاختلطت أنسابهم ، وتداخلت شعوبهم ، ففى كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما نعرف ، وإنما جاءهم ذلك من قِبَل العجم »[1] .

وهذا الكلام من ابن خلدون مبنى على المنطق والاستنتاج ، فهو لم يعرف من تاريخ قريش القديم ما يؤكد عنده أن تكوينها كله كان من صميم مضر من فرع إلياس ، وهو الفرع الذى سكن الحجاز ، فقد رأينا أن كنانة أم قريش قد مرت فى طريقها إلى الحجاز ببلاد قضاعة واختلطت بها وأخذت منها ، ورأينا كذلك أن مضر كلها بفرعيها قيس عيلان وإلياس كانوا فى الزمن السالف وقبل دخول الجزيرة يعيشون فى صحارى بلاد الشام والعراق فيما يسميه ابن خلدون بالأرياف ولهذا لم يكونوا بدواً خالصين ولو كانوا بدواً خلصاً لما تطلعوا إلى دخول مدينة –هى مكة – والاستقرار فيها وهم لم ينشأوا فى الصحراء من الأصل ولا كانوا فى بداية أمرهم بادية ظاعنة متوحشين فى القفار ، وإنما هم دخلوا الصحراء فأنفوا بأنفسهم من الخضوع للدول الكبيرة التى كانت تحرص على بسط سلطانها عليهم وفرض الإتاوات والمغارم عليهم . وهذا الأصل الحضرى البعيد للعرب الإسماعيلية جميعاً كان له أبعد الأثر فى أسلوب حياتهم ، فأما من أبعد فى القفر منهم وسكن البوادى بعيداً عن مهاد الحضارة

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة . طبعة دار الشعب ص ١١٨ .

فهم أهل البدو حقاً لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم فى الضواحى وبُعْدهم عن الحامية وانتباذهم عن الأسوار[1] وهؤلاء هم العرب أو الأعاريب .

ولهذا فإن قريشاً وكنانة وكل قضاعة من فرع إلياس بن مضر بدو حضر أو أنصاف حضر Semi-nomads ، فهم بدو بنظامهم الاجتماعى أى بانتظامهم فى صورة قبائل مترابط أفرادها بالأنساب lineages وعلاقات الرحم Consanguinal Kin واعتمادهم على النظام القبلى فى ضمان أمنهم وسلامة أفرادهم ، وهذا الطراز من القبائل يدخل ضمن ما يسمى باسم Clans لا tribes وحتى قبل انفصال قريش من كنانة ودخولها مكة كانت قريش مستقرة فى موضعها إلى حد ما ، ولا بد أنها قضت وقتاً طويلاً فى جوار بنى عذرة من بنى سعد هذيم القضاعيين . ولا بد كذلك أن مقامهم طال قرب مكة وخارجها حتى استقر رأى قصى على اقتحام المدينة على خزاعة وانتزاع السلطان على المدينة منها ، ولهذا فقد كانت قريش وكل كنانة من طراز الكلانات التى يطلق عليها اسم local clans أى : ذات المنازل المحددة الموضع .

ومنذ البداية نلاحظ أن قريشاً لم تكن ذات نظام معين متبع فى الزواج والمصاهرات ، فمن القبائل ما يكون فيه الزواج من داخل القبيلة فقط ، فيكون خط النسب مزدوجاً bilateral lineage ومنها ما يكون الزواج فيه مطلقاً ، أى أن أفرادها يستطيعون الزواج من داخل القبيلة أو خارجها exogamous وهنا يكون النسب فى خط واحد هو خط الذكور unilateral agnate lineage.

وقد تتبعنا بالدراسة خط نسب قريش وانحدارها من كنانة حتى انفصالها عنها وقد رأينا صعوبة الأخذ بما يقوله النسابة من أن كل الأسماء التى ترد فى خط النسب هى لرجال بل معظمها لقبائل أو كلانات ، فهى أسماء جماعات أو جُماعات أنساب ، وقد يكون الاسم الذى لدينا اسم الموضع الذى تم فيه الحلف وقد أوردنا فيما سبق أمثلة من ذلك ، وقد عثرت عند ابن عبد البر فى الإنباه على مثل آخر فى آخر كلامه عن بجيلة وخثعم ، فبعد أن يورد قول ابن إسحاق والمصعب الزبيرى : وعن جبير بن مطعم أن خثعم وبجيلة ابنا أنمار بن نزار بن معد بن عدنان ، يقول فى نهاية الكلام : «تحالفا لقتل ابن أنمار وجماعة معه على جبل يقال له خثعم فسموا خثعم»[2].

---

(١) ابن خلدون . المقدمة ص ١١٤ .

(٢) ابن عبد البر : الإنباه على قبائل الرواة ، ص ١٠٥.

وبهذه المناسبة نسوق إليك مثالاً يدلك على فوضى شجرات الأنساب وقلة الجدية فيها أحياناً ، فمن المعروف أن خثعم تدخل ضمن القبائل المسماة باليمنية ولكن بعض النسابة مثل ابن إسحاق والمصعب الزبيرى أرادا أن يلحقاها بالعدنانية فقالا : « وأكثر أهل النسب يقولون إنهما ابنا أنمار بن نزار بن معد بن عدنان وإنهما لحقا باليمن وانتسبا عن جهل منهما إلى أنمار بن أراش بن عمرو .. بن كهلان بن سبأ »[1].

وعلى هذا الأساس قلنا إنه لا يمكن قبول ما يزعمه النسابة من أن خزيمة كان رجلاً تزوج امرأتين واحدة من قيس عيلان أنجب منها كنانة وأخرى من بنى تميم أنجب منها أسداً وأسدة والهون وأن هؤلاء الأربعة أصبحوا قبائل وخثعم نفسه أصبح قبيلة (وحده منفصلاً عن أبنائه !) والهون وحده أنجب خمس قبائل هى ديش وعضل والقارة وهؤلاء الثلاثة بالإضافة إلى الحيا والمصطلق من بنى سعد الخزاعيين يتكون منهم حلف الأحابيش الذى ذكرناه .

ولكننا إذا صعب علينا قبول هذا القول من الرواة فإننا على الأقل نستطيع أن نفيد من الزيجات التى يذكرها الرواة فى سياق النسب فنقول : إن حلف خزيمة قبل أن تتفرع عنه على مر سنوات طويلة أربع قبائل هى كنانة وأسد وأسدة والهون صاهروا أبناء عمومتهم قيس عيلان ، وأن بنى كنانة صاهروا قضاعة من ناحية وبنى تميم من قيس عيلان من ناحية أخرى ، ولهم كذلك بنو ساعدة الخزرجيون رهط سعد بن عبادة والخزرج عند النسابة يمنيون .

وفى دور النضر بن كنانة - من أدوار تسلسل فرع قريش من كيانه الأم كنانة ، وهو الدور الذى بدأ اسم قريش يظهر فيه نجد أن لدينا صهراً مع عدوان من قيس عيلان وآخر مع هذيل بن مدركة وهم الهذليون وصهراً مع جرهم ، وكانت جرهم (الثانية) إذ ذاك فى طريقها إلى التلاشى .

وفى دور فهر يبدأ انقسام خط مالك بن النضر إلى فرعى غالب وفهر ، فغالب هم

---

(١) ابن عبد البر ، الإنباه ، ص ١٠٣ . وسبأ المذكور فى النص هو أخو الأزد . (جمهرة ابن حزم ص ٣٨٧) وخثعم هى قبيلة أسماء بنت عميس الصحابية (ص ٣٩١) ولعل هذا هو الذى حدا بالنسابة إلى نقل قبيلتها إلى عدنان ، وابن حزم نفسه يجعل خثعم مرة فى أنمار من سبأ (ص ٣٩٠) ومرة فى الأزد (ص ٣٣٠) .

الذين يستقر فيهم اسم قريش ، أما فروع الحارث ومحارب وجندلة فيستمر فيهم اسم فهر ، وفروعهم هى التى ستعود إلى الحلف مع فرع قريش بعد دخول قصى مكة ، وهؤلاء هم قريش الظواهر .

وفى طور لؤى بن غالب نجد أن الصهر مع قضاعة ، فيذكر النسابة أن لؤياً تزوج امرأة تسمى مارية بنت كعب من بنى القين ، واسمها يدل على أنها كانت نصرانية ، وبنو القيم من فروع قضاعة المتنصرين الذين يدخلون فيمن يُعرفون بنصارى العرب ، وهم غير عرب الروم وكانوا متنصِّرة أيضاً وأكبرهم غسان وهم معدودون فى اليمن .

وفى هذا الطور تنفصل أربعة فروع من لؤى وتخرج من قريش وكنانة جملة ، وهم الحارث بن لؤى (يدخلون فى همدان اليمنيين) وسامة بن لؤى وهم بنو ناجية وهؤلاء يستقرون فى عمان - والأرجح أن المراد هنا عَمّان الشام بالفتح لا عُمَان الجنوب بضم العين - وبنو سعد بن لؤى وهم بُنَانة يدخلون فى بنى شيبان (بن محارب بن فهر فى الغالب) وبنو خزيمة بن لؤى ، وهؤلاء أيضاً يدخلون فى بنى شيبان. ويبدو أن بنى شيبان بن محارب بن فهر - وهم من قريش الظواهر - كانوا قريبين جداً من بنى لؤى بن غالب لأن كعب بن لؤى يتزوج منهم ، وكلاب بن مرة الذى يستمر فيه عمود النسب يصهرون فى بنى سرير بن الحارث من كنانة ويصهرون إلى بنى سعد وهم بارق (لا نعرف من المرادون هنا) ، ويصهرون كذلك إلى بعض فروع الأزد .

وعندما نصل إلى طور قريش نجد أن المصعب الزبيرى لا يذكر له إلا امرأة واحدة هى حُبىَّ بنت حليل بن حبشية وهى خزاعية كما نعرف ، وعلى الرغم من الصلة الوثيقة بين قصى وبنى عذرة فإن المراجع لا تذكر له صهراً فيهم .

وابتداءً من عبد مناف بن قصى يتعدد الصهر وتكثر الزوجات ونجد القرشيين يتوسعون فى الصهر ربما لأسباب سياسية فنجد عبد مناف يتزوج امرأة من بنى هلال ابن عامر بن صعصعة من قيس عيلان ، تسمى عاتكة وأمها تسمى مارية ، فهى نصرانية فى الغالب ، وهذه هى ثانى امرأة بهذا الاسم فى صهر كنانة وقريش ، ومارية

هذه ينتهى نسبها إلى سلول من بنى معاوية بن بكر بن هوازن إخوة بنى سعد بن بكر الذين استرضع الرسول فيهم .

والخلاصة هنا أن كنانة وقريشاً حتى عبد مناف كانوا يتزوجون من خارج قبائلهم فى الغالب ، ليكثر جمعهم وأنصارهم ، وبعد استقرار قريش فى مكة نجد أن الصهر يتوسع ، فهم يتزوجون فى كل القبائل المحيطة بهم وخاصة خزاعة وفروع القضاعيين وبنى هلال بن عامر بن صعصعة ، وهاشم يتزوج امرأة خزرجية هى سلمى من بنى عدى بن النجار . وعند هاشم نجد أول مثال من زيجات القرشيين يمكن أن يوصف بأن العصمة فيه للزوجة Uxorical فسلمى النجارية تشترط أن تظل فى أهلها فى المدينة وهى تحتفظ بابنها منه وهو شيبة الذى سيسمى عبد المطلب حتى يبلغ السنوات العشر فيذهب عمه ويأتى به ، ولكن هذا النوع من الزواج كان نادراً بين القرشيين .

وهذا التعدد فى الصهر والإكثار من الزيجات طلباً للإكثار من الأولاد زاد قريشاً قوة ، فإن الصهر واشجة رحم وهو فى نفس الوقت رابطة سياسية بين الناس فى النظم القبليـة . فلا شك أن آل الزوجـات كانوا يترددون على مكة لزيـارة بنـاتهم وأبنـاء البنات ، وبخلاف ذلك نجد أن أخبار زواج القرشيات خارج مكة أو خارج نطاق القبيلة كانت قليلة ، لأن ذلك كان يستدعى انتقال الزوجة إلى منازل قبيلة زوجها ، والقرشيات – بعد أن استقر بهن المقام فى مكـة وتعوَّدْنَ الحياة فيها – لم يعد من السهل عليهن أن يرتددن إلى حياة الظعن والبداوة .

ومع أن المجتمع القرشـى المكى كان مجتمع رجـال فهم سادته وأصحـاب الكلمة فيه ، فإن القرشيات كن يتمتعن بمكانة محترمة ، وكثير من الرجال كانوا لا يستنكرون من أن يُنسبوا إلى أمهاتهم ، فأبو جهل كان يسمى أيضاً ابن الحنظلية ، ونوفل بن خويلد وهو المعروف بأسد قريش وأسد المطيبين كان يسمى بابن العدوية ، وعمر بن الخطاب كان لا يأنف من أن يقال له ابن حنتمة . (والحنظلية أم أبى جهل هى أسماء التميمية وكانت تاجرة عطور معروفة) ، واشتغال النساء بالتجارة كان أمراً معروفاً فى مكة ، والمثال الأكبر لذلك هى خديجة بنت خويلد أم المؤمنين .

وأم الجلوس بنت مخربة خالة أبى جهل لا بد أنها كانت امرأة ذات مكانة بين كفار

قريش لأنهم أودعوا صحيفة مقاطعة بنى هاشم عندها . وفى الصراع بين الإسلام وكفار قريش ، نجد النساء يقمن بدور كبير على الجانبين ، فبنات عبد المطلب وخاصة صفية وأَرْوَى وعاتكة يَقُمْن بدور ظاهر فى مناصرة الإسلام ونشره وفى ناحية أخرى نجد نساء يَقُدْنَ الحرب ضد الإسلام ، والمثل الكبير لذلك هى هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان ، وهناك كذلك أم مصعب بن عمير وأم عثمان بن طلحة فقد حاولت كل منهما عقاب ابنها على دخول الإسلام . والأمثلة هنا كثيرة جداً .

والذى يعنينا من ذلك كله هو أن المجتمع المكى فى ظل سيادة قريش كان مجتمعاً مفتوحاً مطلقاً من كثير من القيود التى خضعت لها قبائل عربية أخرى معاصرة لها فقيَّدت حريتها وضيقت أفقها ، فتميم مثلاً كانت تعيش فى مساحاتها الشاسعة مقفلة على نفسها لا يصلها بالعالم الخارجى إلا التجارة التى كان يتولى القرشيون الجانب الأكبر منها ، ومعظم تزاوج التميميين كان فيما بين بطونهم بعضهم وبعض لا يكادون يجاوزونها . وبينما كانت مكة بلداً مفتوحاً يفد عليه الناس من كل ناحية للحج أو للتجارة فيجدون هناك نظاماً موضوعاً لاستقبال الغرباء وإيوائهم وتقديم الطعام والماء لهم نجد أن دخول الغرباء بلاد تميم كان قليلاً جداً ، وكذلك رحلاتهم إلى خارج منازلهم ، وعندما يجىء الإسلام ويدخل بلادهم نجد التميميين يعيشون فى شبه عزلة فى منازلهم يحسبون أنهم أذكى الناس وأبلغهم وأشهرهم . وقد دهش وفدهم عندما قدم على رسول الله ﷺ من مستوى التحضر والبلاغة شعراً ونثراً فى المدينة . ومعظم القائمين عليه كانوا قرشيين ، بل إن أهل يثرب أنفسهم كانوا يعيشون فى مدينتهم شبه منعزلين ، حتى دخل القرشيون يثرب مع رسول الله فتحرك كل شىء وتفتحت الأبواب وترقى اليثربيون فى مدارج التحضر بفضل الإسلام .

ومع أن رسول الله ﷺ ساوى بين أصحابه ولم يفضل مهاجرياً على أنصارى إلا أننا نلاحظ أن القيادة الاجتماعية والحضارية كانت فى يد القلة القرشية ، وما ذاك إلا لأن أولئك القرشيين كانوا أحسن نظاماً وأوسع آفاقاً وأعرف بأحوال الدنيا والناس منهم . وبعد وفاة الرسول ﷺ وما حدث فى اجتماع السقيفة نرى بكل وضوح تفوق القرشيين فى التقدير والتدبير والكلام على الأنصار ، وهم الذين فازوا بقيادة الجماعة

بعد الرسول وأحسنوا القيام عليها فى أيام أبى بكر وعمر وجزء من خلافة عثمان على الأقل .

أما الفرق بين المستوى الحضارى بين قريش ومجموعات قبلية مثل غطفان وهوازن وأسد وما إليها فظاهر لا يحتاج إلى شرح طويل ، والفرق فى العقلية والنظرة إلى الأمور بين زعماء مكة حتى فى أيام الكفر من أمثال عيينة بن حصن سيد فزارة ورخيلة بن عائذ بن مالك شيخ أشجع من ريث بن غطفان كان عظيماً جداً حتى ليحسب الإنسان أن هذا شعب وذاك شعب آخر ، وأن فرقاً زمنياً شاسعاً يفصل بين الاثنين . وفى أثناء المغازى والسرايا حينما يتنقل المسلمون بين رجال القبائل فى منازل أقوامهم نحس أن القرشيين كانوا بالفعل أعلى حضارياً من مستوى نظرائهم ومعاصريهم درجات ، وكل ذلك من آثار التجارة والاتصال بالعالم ، ووعى القرشيين بأنفسهم وإحساسهم بمكانهم وحسن إدراكهم لمصالحهم وما يريدون ، هذا إلى تميُّز ظاهر فى الذكاء هو نتيجة الاتصال بالدنيا والحركة والتنقل وما يؤدى إليه ذلك من حركة الأفكار .

ويستوقف النظر فى مكة قبل الإسلام استقرار الأمر وانتظام سير الأمور ، فالبلد آمن من خارج ومن داخل وحوادث العدوان على الأنفس والأموال قليلة والسلام مستقر بين الوحدات القبلية أو البيوت رغم المنافسات السياسية التى لا بد منها بين تلك البيوت ، يحس الإنسان دائماً أن هناك نظاماً مستقراً وأن سكان مكة ومن حولها من القبائل يتمتعون بسلام ورخاء نسبيين كأن النظام الإدارى البسيط الذى ذكرناه وهو نظام تقاسم المسئوليات المدنية والجماعة مثل الرفادة والسقاية والندوة واللواء وما إليها كان فى مجموعه نظاماً صالحاً وكافياً إلى حد ما للقيام بشئون مدينة مكة وما حولها .

والسبب فى ذلك فيما نرى هو أن قريشاً فى انتقالها من البداوة وحياة الظعن إلى الاستقرار فى مدينة لم تتحول إلى مجتمع مدنى بل حافظت على نظامها القبلى . والنظام القبلى العربى - رغم بساطة تركيبه - نظام اجتماعى وسياسى متكامل ووافٍ بحاجات الجماعة التى يقوم فيها . إنه نظام بسيط ولكنه ليس بدائياً وحاجات القبيلة

فى ذاتها قليلة والعصبية القبلية تكفى لحماية الإنسان داخل القبيلة ولحماية القبيلة كلها بين القبائل ، لأن كل بيت داخل القبيلة مترابط متماسك وكاف لإيقاف العدوان على أى فرد من أفراده ، فإذا عجز البيت عن تسيير أموره أو تعرض للعدوان من بيت آخر تدخلت القبيلة كلها للحماية وإيقاف العدوان وإقرار السلام .

والقانون البدوى عرفى ولكنه قانون كاف لحماية الناس وأموالهم ، والأفراد والجماعات الصغيرة داخل القبيلة تطيعه وتنفذه بأمانة ، والغش والخداع والخيانة لا تترك دون عقوبة أبداً ، وثروات البيوت قليلة فهى لا تخرج عن أذواد من الماشية وبعض النخيل وشىء قليل من الزراعة السَّريعة فى بعض الأحيان ، ويراد بتلك الزراعة شىء من الشعير والمحاصيل السريعة النمو والحصاد ، والقبيلة كلها مسئولة عن ثروتها الجماعية من ذلك كله ، وكل ملكية معروفة ، وكل حق ظاهر ، والقبيلة كلها تعيش فى حالة تأهب مستمر للدفاع عن النفس أو الرحلة وشيوخ القبيلة مطاعون والخلافات بينهم تُسوَّى دائماً على عجل ولا تترك لتعمق . وأى فرد من أفراد القبيلة يرفض النظام ويتكرر خروجه عليه يقتل أو يخلع ويعلن أمر خلعه للقبائل المجاورة للقبيلة إعفاء لمسئولية القبيلة عنه ، ويصبح دمه مهدوراً إلا إذا لجأ إلى قبيلة أخرى وقبلت جواره . والمحالفات والعهود بين القبائل المتجاورة مرعية بعناية والبدوى العادى متعود على حياة الشظف قانع بما يقدر له من الرزق . ومعظم العمل تقوم به النساء ، وإذا كان الرجال أو الصبيان هم رعاة الإبل والماشية خارج مضارب القبيلة فإن كل شىء عدا ذلك تقوم به النساء . والنساء يرثن المهارات الفنية البسيطة من غزل ونسج وحلب الماشية وصنع الخبز أو اختزان المئونة من التمر والزبيب وهُنَّ محفوظات محميات من العدوان .

وقريش عندما استقرت فى مكة لم تتخل عن هذا النظام فاستمر يعمل بنظام فلكل عشيرة من عشائر القبائل شعبها أو حَيُّها ، وشعاب العشائر تجمعها شعاب الفصائل وهكذا . والدُّور كلها من اللبن فلا نسمع عن بنيان بالحجر إلا فيما يتصل بالكعبة ، وإلى جانب البيوت القرشية عاشت فى مكة بيوت من الأغراب عنها ولكنها حليفة ، وبديل بن ورقاء الخزاعى كانت له دار بمكة ، والدار هنا معناه القسم من البلد يعيش

فيه الخزاعيون من أصحاب بديل وكلهم حلفاء المكيين وجيرانهم ، وكان فى المدينة أيضاً ثقفيون وهذليون وعذريون وكل جماعة تعيش حياتها فى أمان نظام الحلف والإجارة والعرف القبلى العام .

ومهما كانت أقوال كُتّاب العرب فإن رجال مكة قبل الإسلام كانوا فى جملتهم عقلاء أكْفاء لأن نظام القبيلة وحياة الخطر التى يعيشها الناس دون حكومة لم تكن تأذن بولاية عاجز . وقد رأينا قصياً يوصى برياسة مكة قبل موته لابنه عبد مناف ولم يكن أكبر ولده إنما كان الأكبر عبد الدار ، وأمثال هذه الأمور لا تتم إلا باتفاق بين الشيوخ ، ولهذا نجد عبد الدار يسلم برياسة أخيه والقبيلة تعوضه عن ذلك ببعض المستويات الشرفية مثل اللواء . وبعد وفاة هاشم تصير الرياسة لأخيه المطلب ولكننا لا نلبث أن نراه يتنازل عن هذه الرياسة لابن أخيه عبد المطلب وكان شاباً ولكن الأمر هنا أمر سلامة القبيلة ، والسلامة تحتاج إلى كفاية ، ولهذا فإننا نجد بقية بيوت مكة تسلم برياسة عبد المطلب بعد معارضات طفيفة .

وعندما ظهر عجز أبى طالب عن سياسة أمور مكة وأهملته بيوت أصحاب المال من مخزوم وعبد شمس وهصيص نجده يسلم بالأمر ويقنع بالرياسة الشرفية السقاية والرفادة تاركاً شئون التجارة لمن هو أقدر منه ، وخصومة بنى عبد شمس لبنى هاشم لم تصل قط إلى العدوان السافر وحلف الفضول لم يدخل قط فى صراع فعلى مع حلف الأحلاف لأن الحيين نظرا أولاً لخير قريش كلها . ورغم كل شىء فإننا نرى أن قريشاً تحرص أشد الحرص على علاقات حسن الجوار والمصلحة المشتركة بين قريش وخزاعة والأحابيش وثقيف فى الطائف سارت دائماً سيراً طيباً ، وإن كان بنو كعب الخزاعيون ظلوا دائماً على علاقات ود متينة مع بنى هاشم الذين ينحدرون من كعب بن لؤى ، والاثنان معاً كانا يُعرفان بالكعبين . أما حلف الأحلاف فقد اعتز دائماً بتأييد بنى بكر بن عبد مناة الكنانيين ، وسيظل الوضع على تلك الحال بعد مجىء الإسلام وحتى فتح مكة على ما سنراه .

وسنرى عند اصطدام قريش مع دعوة الإسلام أن القبيلة كلها تتصرف فى عقل

وبنظام ، فكبار الشيوخ يتولون الأمر ولكنهم يدعون التصرف للجيل الذى يليهم من كهول القبائل ، ولكن عندما يعجز الكهول ويتفاقم الأمر وتتهدد وحدة القبيلة ومصالح قريش سنرى أن الشيوخ يتولون الأمر بأنفسهم ويحاولون التفاهم فى كثير من الروية مع محمد ﷺ وأبى طالب ، وتكون لقاءات طويلة ستتحدث عنها فى حينها. وعلى الرغم من اجتهاد المؤرخين بعد الإسلام فى تشويه صورة قريش الوثنية ظناً منهم أن ذلك يزيد من قدر الإسلام علواً فإن حقيقة الصورة عندنا واضحة ، فالنظام مستتب وهناك قانون عرفى عام متبع ، ولعله يبدو غريباً أن ساكن مكة كان آمناً على نفسه وماله قبل الإسلام مما أصبح عليه فى العصر الأموى .

وإذا أردنا أن نصور كفاية النظام المكى قبل الإسلام نقارنه بالنظام فى يثرب فبينما كانت مكة بالفعل تتمتع بنظام مستقر متماسك نجد أن يثرب كانت مسرحاً لنزاعات وصدامات قبلية خطيرة ، وواقعة بُعَاث الدامية وقعت قبل هجرة الرسول إلى المدينة وهى تصور قلق المجتمع اليثربى بالمقارنة مع المجتمع المكى ، ثم إن وجود الجماعات اليهودية القوية فى يثرب وسيطرتها على الحياة الاقتصادية للمدينة يدل على أن الأوس والخزرج كانت تنقصهما الكفاية والحكمة والنظام ، وأكبر دليل على ذلك أن الوحدات القبلية داخل يثرب كانت تعيش فى أمن آطامها أى حصونها وكل قبيلة تعتصم من الهيعات والاشتباكات داخل أطمها . ويبدو كذلك أن القبيلة كانت تضع ذخائرها وربما نساءها وولدانها فى الأطم بالليل . ومن هذا كله لا نجد شيئاً فى مكة ، لأن المكيين عرفوا كيف يسيطرون على العدوان داخل بلدهم واجتهدوا فى حل مشاكلهم فيما بين بعضهم وبعض ، وكذلك وثقوا العلاقات مع القبائل حول مكة فأمنوا فى بلدهم ، ولم يعودوا يحتاجون إلى الحصون .

وقد لاحظنا فى كلامنا على حرب الفِجَار كيف أن قريشاً عرفت كيف تنظم أمورها ، وعندما تحرج الأمر اختارت للقيادة بنى أمية الأكبر فقاموا بواجبهم خير قيام ، وقد أظهرت هذه الحرب قدر بنى أمية بجماعتهم الأعياص والعنابس ، وبعد هذا النصر أصبح بنو أمية بالفعل أنداداً لبنى هاشم ، وسيكون لذلك كله أثر فى موقف المكيين من الإسلام .

والخلاصة ، وقبل الدخول فى مجىء الإسلام وموقف قريش منه نقول : إن قريشاً فى مجموعها كانت قبيلة ناجحة وسط القبائل : عرفت كيف تهيىء لنفسها مكاناً صدراً بين القبائل فى الجزيرة كلها قبل الإسلام ، وكان نظامها الداخلى يجمع بين النظام القبلى وبعض خصائص الحضر ، وقد أفاد القرشيون من النظام القبلى وما تأتَّى عن استقرارهم فى مكة من خصائص الحضر ، وعرفوا كيف يسوسون بلدهم ويقومون بمسئولياتهم تجاه التجارة وتجاه الكعبة ، وأفادوا من الوجهين أكبر الفائدة .



القسم الثانى

قريش بَعْد الإسلام

قُرَيش والإسْلام فى مَكّة

الفترة المكّيّة الأولى :

مِن نُزول الوَحى إلى الخُروج مِن دَار الأرقَم :

تعودنا أن نتتبع تاريخ الإسلام من داخل الجماعة الإسلامية ، وتعودنا أن ندرس تطور الجماعة الإسلامية ونحن وقوف إلى جانب رسول الله ﷺ ومن معه ، ونحاول الآن أن ندرس هذا التطور فى المعسكر الآخر أى من ناحية المكيين ، ونتتبع تطور نظرة القرشيين إلى الإسلام وجماعته .

خلال الشهور الأولى من البعثة وبعد انتهاء فترة الوحى وتتابعه استوثق محمد من أنه رسول الله إلى الناس ، وتوالت آيات القرآن تفصل له أمر رسالته وفحواها . والقطع العشر الأولى من القرآن الكريم ، وهى التى نظن أنها أُوحِيت إلى رسول الله ﷺ خلال الأشهر الأولى للبعثة بما فى ذلك « الفترة » هى :

١) الآيات الخمس الأولى من سورة العلق:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق] .

٢) والآيات السبع الأولى من سورة المدثر ، وهى رقم (٧٤) :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ﴾ [المدثر] .

وتلك هى الآيات التى نقلت محمداً ﷺ من النبوة إلى الرسالة . أصبح نبياً رسولاً . أصبح الآن مكلفاً بحمل رسالة إلى البشر ، فعليه من الآن أن ينذر ، ولكى ينذر لا بد

أن يتطهر ويهجر الرجز ولا يتعجل الوحى أو يستكثر منه ، فكل كلام الله سيأتيه بحسب تقدير الله ، وعليه الآن أن يصبر على أمر الله سبحانه .

٣) سورة قريش ، وهى رقم ١٠٦ فى المصحف :

وفيها يُذَكِّر الله سبحانه قريشاً بنعمة الإيلاف التى مهدت الطريق لرحلتى الشتاء والصيف ، وهى أساس رخاء قريش ونعمتهم ، وعليهم لذلك أن يعبدوا الله رب هذا البيت وهو الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

وتلك هى المرة الأولى التى يذكر فيها القرآن قريشاً دون أن يمسَّ ديانتها ، ولكنه يأمرها بأن تعبد الله رب البيت .

٤) سورة والضحى ، وهى الثالثة والتسعون فى ترتيب المصحف :

وكلها موجهة نحو محمد ﷺ والمسلمين تبعاً لذلك ، وهى تُذكِّرهم بنعمة الله عليهم بالهدى وما تولى به محمداً من العناية ، وتأمره بالرفق باليتيم والسائل والتحدث بنعمة الله .

٥) سورة « الشرح » أو « ألم نشرح لك صدرك » وهى الرابعة والتسعون فى ترتيب المصحف :

وهى تُذكِّر الرسول بما شرح الله به صدره من القرآن والهدى وكيف وضع الله عن رسوله أوزار الجاهلية وأزال من نفسه الخوف الذى اعتراه أول الرسالة ، ورفع بذلك كله ذكره ويعده بأن بعد العسر يسراً ، وعليه لهذا أن يرغب إلى الله سبحانه .

٦) سورة العصر ، وهى الثالثة بعد المائة فى ترتيب المصحف :

وهى من قصار السور وهى سورة تذكير من الله للإنسان بصورة عامة بأنه خاسر إلا إذا آمن وعمل صالحاً وتواصى بالحق والصبر .

٧) سورة الشمس ، وهى الحادية والتسعون من سور القرآن :

وهى تلفت نظر الإنسان إلى بديع خلق الله وآيات الخلق من الشمس وضحاها

والقمر الذى يطلع بعد تغيبها والنهار والليل والسماء ومن بناها والأرض ومن بسطها ، ثم نفس الإنسان وكيف خلقها الله خلقاً سوياً ووضع أمامها طريق الشر وطريق الخير ، وكيف أن الذى يزكى نفسه أى يطهرها يصلح ، ومن يدنس نفسه يخيب ، ثم يُذكِّر الله الناس بما أصاب ثمود وكيف أساء إليها أشقياؤها ، ويشير الله إلى الناقة التى عقروها فنزل بهم من الله عقاب شديد .

٨) سورة الماعون ، وهى السابعة بعد المائة فى ترتيب المصحف :

وفى أول هذه الآية أول ذكر لخصوم الدعوة وبعض ضعفائها ، فهناك من يكذِّب بالدين ، وهذا هو الجافى القلب الذى يسىء إلى اليتيم ولا يدعو إلى إطعام المسكين ، وفى المؤمنين من يسهون عن الصلاة ويراءون الناس ويمنعون تقديم العون للمحتاج.

٩) سورة الطارق ، وهى السادسة والثمانون فى ترتيب المصحف :

وهى من أولى سور التذكير بعجيب خلق الله سواء فى الكون المادى : خلق الكون والإنسان . أو سر النفس الإنسانية وما خصها به الله من الإيمان ، وإشارة إلى قدرة الله على بعث الناس يوم البعث والنشور يوم يمتحن الله الناس بما فى سرائرهم وما تنطوى عليه نفوسهم ، وفى الآيات الأواخر من السورة تذكير بالسماء ذات الرجع والأرض التى تتصدع إذا شاء الله وتوكيد بأن كلام الله هذا فَصْل بين الضلالة والهدى وهو جِدٌّ صارم وليس موضع هزل ، وفى نهاية السورة إشارة إلى أن هناك من يكيدون للإسلام والمسلمين وتذكير بأن الله يكيد لهم كيداً ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الطارق] وهذه السورة من سور عجائب الخلق ، وقد أكد القدامى القول فى تفسير أسرارها ومعانيها ، وجاء المحدثون يرون فيها إشارات بينات إلى عجائب ما يكشف عنه العلم من أسرار الكون والنفس .

١٠) سورة التين ، وهى الخامسة والتسعون فى ترتيب المصحف :

وهى من السور التى كثر اختلاف المفسرين حولها ، فهل الله سبحانه يقسم هنا بالتين أم بجبل يسمى جبل التين ، وبالزيتون أم بجبل الزيتون ثم يقسم بطور سيناء ،

أى جبل سيناء وكل هذه تمهيدات ذات معان وأسرار تخلص منها السورة إلى البلد الأمين ، ويختلف المفسرون هنا مرة أخرى ، فهل المراد مكة أم غيرها . ثم حقيقة كبرى تتصل بالعقيدة الإسلامية وخصائصها ، فإن الله سبحانه خلق الإنسان فى أحسن صورة فى الجنة ثم أهبطه إلى أسفل سافلين أى الأرض حيث ضل ضلالاً بعيداً إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات واجتهدوا فى عمارة الأرض ، فهؤلاء لهم عند الله أجر عظيم ، وما شأن أولئك الذين يُكذِّبون بالدين إلا يعرفون أن الله سبحانه أحكم الحاكمين ؟

١١) سورة الزلزلة ، وهى التاسعة والتسعون فى ترتيب المصحف :

وهى من السور المنذرة التى تدعو الناس إلى الإيمان بالله عن طريق تصوير أهوال يوم القيامة مع التوكيد الواضح على أن الله سبحانه هو الذى يزلزل الأرض فتُخرِج أثقالها فيتساءل الإنسان عما جرى لها فيعرف أن الله سبحانه هو الذى أوحى لها . وهنا يبعث الناس ويخرجون جماعات ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة من الخير خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة من الشر شراً يره ويحاسب عليه .

١٢) سورة القارعة ، وهى الأولى بعد المائة فى ترتيب المصحف :

وهى شبيهة بالسابقة من حيث المضمون والغاية ، فهى تصور جوانب أخرى من القيامة والبعث والحساب . وفى نهايتها ذكر للنار الحامية مصير الكافرين والمكذبين .

١٣) سورة العاديات ، وهى المائة من سور القرآن بحسب ترتيب المصحف :

وهى تسير فى نفس اتجاه القارعة من حيث تنبيه القلوب والعقول إلى مرور الأيام بالإنسان سريعة دون أن ينتبه ، والصور التى تفتتح بها السورة تشير إلى عَدْو الخيل أو الجمال فى الطريق إلى مناسك الحج حتى « جمع » وهى مزدلفة ثم تنبه الإنسان إلى جحوده ، وهو يعلم أنه جحود وهو شديد الحب للمال ، وهو لا يعلم أنه إذا جاء البعث - كان مصيره إلى الله الذى يعرف عنه كل شىء .

وهذه السور جميعاً بكل ما فيها من تنبيه إلى الحق يهز القلوب ويبعث فيها الخوف لا تثير عند الجاهلين أى انتباه جاد ، فمحمد فى رأيهم إلى الآن رجل لا يدرون ماذا

أصابه ولا حقيقة ما يقول ، فهو يتحدث إلى من يصغى إليه ، إلى الفئة القليلة التى التفت حوله ، وليس عليهم فى ذلك بأس ، فإن الكلام الذى يتلوه محمد كلام وعظ تصوروا أنهم يسمعون مثله من الكهان ، وهم لم يفكروا فيه ولماذا يفكرون ؟ إن محمداً وجماعته قليلون وهو يقول إنه يدعو إلى الخير ومكارم الأخلاق ، وهم يحسبون أنهم أخيار وأنهم على مكارم أخلاق وهو رجل كريم حسن المعشر طيب القلب لا يضيرهم فى شىء وهم منصرفون إلى تجاراتهم وأموالهم ، فماذا يعنيهم من أمره ؟

وربما شعر بعض كبرائهم بعدم الارتياح لرؤية نفر من الفقراء والرقيق يجلسون حول محمد إلى جوارهم فى الكعبة ، ولكنهم كانوا مستعدين لاحتمال ذلك ، ولكن سورة الليل ، وهى الرابعة عشرة فى ترتيب النزول والثانية والتسعون فى ترتيب المصحف حملت شيئاً جديداً ، ففيها إشارة وتحذير وإنذار لمن بخلوا واستخفوا وكذَّبوا بالحسنى ، وهى من هنا كانت جديرة بأن تجبر القرشيين على إعادة النظر فى الكلام الذى يقول محمد إنه يتلقاه من السماء ، فهو ليس كلام كهان أو سحرة وإنما كلام له معان بعيدة ومرام حقيقية تستحوذ على القلب والذين دخلوا فى دعوة محمد متأثرون به تأثراً عميقاً ، وقد تبدل فيهم كل شىء وأخذتهم الدعوة أَخْذاً ، وهذا أمر لا يمكن أن يكون هيِّناً ولا هزلاً .

ولنقرأ سورة الليل هذه لنرى مصاديق ذلك :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١) ﴾ [الليل] .

فهنا إشارات واضحات إلى أن هناك ناساً بخلوا واستغنوا وكذَّبوا بالحسنى ، وهؤلاء سيلقون من الله عذاباً ويعانون عسراً ، والغنى منهم لن ينفعه ماله إذا تعرض لغضب الله ، وهنا إنذار بنار تتلظى لا يصلاها إلا الأشقى .

فلا بد أن الاحتكاك والتذامر بدأ بين المسلمين والكفار ، بين الفقراء إلى الله - وهم الأغنياء بالإيمان - والأغنياء بالمال - الفقراء من الإيمان - فالأولون سَيُجْزون أحسن الجزاء ، والآخرون سيلقوْنَ شر العقاب .

هنا نرى بدايات التفات كفار قريش إلى هذه الدعوة وما تعنيه وما تنذر به ، وقد كانوا كما حكمنا أذكياء ذوى فهم وكانوا أغنياء والغنى شديد الحساسية بماله ولماله ، والذين يتلون هذا الكلام بعد محمد كان فيهم الكثيرون من الفقراء والضعفاء ممن كان المكيون لا يكادون يحفلون بهم أو يرون لهم قدراً .

وهكذا ، شيئاً فشيئاً وخطوة فخطوة تثور الشكوك والمخاوف فى نفوس القرشيين، فهذا الكلام الذى يتلوه محمد وأصحابه موجه إلى الناس أجمعين ، ولكنه يعنيهم بصورة خاصة ولا بد أن بعضهم كذَّب الدعوة وبخل بماله واستغنى ، فهذا ولا شك مقصود بالإنذار ، والنار التى ترد فيما يتلوه محمد تنتظرهم مع أمثالهم وتتأكد هذه المعانى وتزداد المخاوف عندما تتنزل سورة الانشقاق وهى الخامسة عشرة من حيث التنزيل والرابعة والثمانون فى ترتيب المصحف ، فنجد فيها نذيراً يرهب القلب لكل من صم أذنيه عن هذه الدعوة ، وخاتمتها تقول :

﴿ فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥) ﴾ [الانشقاق] .

فها هنا ذِكْر لبدايات الصراع بين القرشيين والإسلام ، فبعضهم يُكذِّب ، وبعضهم يزرى بالمؤمنين ، وبعضهم يستصغر الدعوة وأهلها .

ثم تجىء سورة الأعلى وهى التاسعة عشرة من ترتيب التنزيل ، والسابعة والثمانون من ترتيب المصحف وهى تستهل بالدعوة إلى تسبيح الله الأعلى الذى خلق كل شىء وقدَّر فهدى وأطلع النبات ثم جعله هشيماً ، وكل هذا يقرئه الله سبحانه لرسوله ، وتنتهى السورة بآيتين تكشفان عن جانب من حقائق الدعوة :

﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾ [الأعلى] .

فهنا تتأكد الصلة بين دعوة إبراهيم وما يتلوه محمد فقد ورد بعضه فى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ، ومحمد ليس بساحر ولا كاهن ولا مجرد واعظ ، بل هو نبى رسول وما يقوله كلام سماوى عظيم كمثل الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى . ومثل هذا الكلام لا يمكن أن يؤخذ مأخذاً هيناً ، ومحمد لا يمكن أن يقف عند مجرد القراءة بين أصحابه ، ومن ثم فلا بد من اتخاذ موقف منه ومن دعوته .

إن معظم مؤرخى السيرة وعلماء القرآن يقولون إن بداية العداوة بين المسلمين والمشركين كانت عندما أمر الله محمداً بأن ينذر عشيرته الأقربين :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) ﴾ [الشعراء] .

ولكننا فى دراستنا لموقف قريش من الدعوة لا زلنا بعيدين جداً عن آيات سورة الشعراء تلك ، حقاً إن تلك الآيات وبعض ما سبقها ولحق بها من سورة الشعراء تعتبر السورة السادسة والعشرين فى ترتيب التنزيل ، ولكنها تعين مرحلة بعيدة من مراحل تطور الدعوة ، ففيها إشارات إلى أشياء كثيرة وقعت بين المسلمين وخصومهم وهى إذن كانت بعد أن بدأ الصراع الصريح بين الجانبين ، وبعد أن استقر الخوف من الدعوة فعلاً فى قلوب نفر كبير من القرشيين .

فبعد سورة الأعلى التى ذكرناها وهى السادسة عشرة من حيث التنزيل تجىء «عبس وتولى» وهى السابعة عشرة فى التنزيل والثمانون فى ترتيب المصحف ، ثم تكون سورة التكوير وهى الثامنة عشرة فى التنزيل والحادية والثمانون فى ترتيب المصحف ، ثم الانشقاق وهى التاسعة عشرة فى التنزيل والرابعة والثمانون فى ترتيب المصحف ، ثم النازعات وهى العشرون فى التنزيل ، والتاسعة والسبعون فى ترتيب المصحف ، ثم الغاشية وهى الحادية والعشرون فى النزول حتى نصل إلى الآيات التى ذكرناها من سورة الشعراء ، وفى هذه السور كلها آيات تتحدى وأخرى تنذر وثالثة تدل على أننا قد أوغلنا بالفعل فى الصراع وتحددت المواقف .

ويصعب تحديد الآيات التى يمكن اعتبارها إنذاراً بتغير حاسم فى موقف غلاة

القرشيين ، لأن المتتبع لآيات القرآن على النحو الذى ذكرناه يحس أن ثوران العواطف جاء شيئاً فشيئاً ، فالقرآن يتنزل ورسول الله يقرئه أصحابه ، وأصحابه يزدادون إحساساً بأنفسهم ووعياً بدينهم . وهم يجلسون إلى نبيهم حول الكعبة خاصة فيقرأون قرآنهم ملتفين حول نبيهم وهم يزدادون عدداً وجرأة يوماً بعد يوم ، والقرشيون الذين نظروا إلى تلك المشاهد أول الأمر فى غير اكتراث بدأوا يضيقون الآن بهذه الجماعة التى لا تكتفى بقراءة ما تقرأ فى صمت ، بل يتجمع بعضها إلى بعض ويقرأون جماعة وفى صوت عال ، وكان القرشيون يظنون أول الأمر أنه سجع لكهان أو نجوى جماعة من الباحثين عن الحق أو الحنفاء ، ولكنهم عندما أصغوا إلى لفظ القرآن ومعانيه المنبثة فى السور والآيات التى ذكرنا بعضها أحسوا أن هذا الكلام يتضمن تحدياً وتهديداً لهم وإزراء بهم ، فجعلوا يسخرون من المسلمين وما يقرأون ، وأخذ بعضهم يُكذِّب ما يسمع ويستصغر شأنه ، وربما دخل فى مناقشات مع المسلمين .

وعندما أنزل الله آيات سورة الكافرون وهى الخامسة والأربعون مما أنزل من القرآن والتاسعة بعد المائة فى ترتيب المصحف نجد أننا قد قطعنا بالفعل مرحلة طويلة من مراحل مسيرة الدعوة وأن الموقف قد انحسم بين الإسلام وخصومه بشكل واضح ، خاصة وقد سبقتها سورة الإخلاص (الرابعة والأربعون فى التنزيل ، الثانية عشرة بعد المائة فى ترتيب المصحف) وهى سورة التوحيد الخالص الجامع المانع . وسور أخرى مثل الهمزة والمسد والكوثر ، والمدثر وأخواتها وكلها سور واضحة المعانى بينة الإشارات تدل على أن المعركة كان يحمى وطيسها يوماً بعد يوم . ثم تجىء سورة الكافرون لتحدد أن هناك دينين متعارضين غير متصالحين وهما دين الله الحق ودين الكفر ، والمسلمون يرفضون رفضاً باتاً عبادة ما يعبد الكافرون وهؤلاء من ناحيتهم لن يعبدوا ما يعبد المسلمون ما دام الكافرون على موقفهم من العناد . وكل من الجانبين له دينه. هنا نشعر أن السورة فاصلة فى مسار تطور انتشار الدعوة وموقف القرشيين منها ، وهم يوصفون الآن بأنهم الكافرون ، وهى كلمة دامغة لا يرضى عنها القرشيون .

وهـذه الآيـات والسـور كلها - السابقـة علـى - « الكافـرون » يبدو من أسلوبها وسياقها ومعناها أنها نزلت متلاحقة فى وضع متقارب لكى يبنى عليها إيمان المؤمنين ويتبين لهم منها حقيقة ما يؤمنون به - وفيها كذلك نذر وتحذيرات وإشارات إلى بعض الممارسات الجاهلية الخارجة عن الأخلاق مثل سورة المطففين .وكلها تنزلت فى الدور الأول من الفترة المكية ، التى تشمل سنتين سابقتين على دار الأرقم وثلاث سنوات فى دار الأرقم ، لأن الخروج منها كان - كما سنرى - فى الشهور الأخيرة من السنة الخامسة للبعثة(١).

وبعد هذا التتبع لنزول السور والآيات الأولى ووَقْعها عند المسلمين من ناحية والكافرين من ناحية أخرى ، نعود إلى القرشيين لنتتبع تطور موقفهم من الإسلام .

---

(١) رجعت فى عمل هذا الترتيب إلى أمهات ما كتب المسلمون فى أسباب النزول وتوضيحه ، وأهمها بحسب اعتمادنا عليها :

النسفى : مدارك التنزيل وحقائق التأويل . القاهرة ١٣٤٤ هـ .

القمى : التفسير . طهران ١٣١٣ هـ .

الرازى : مفاتيح الغيب . القاهرة ١٣٢١ هـ .

السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن . القاهرة ١٢٧٣ هـ .

الطبرى : جامع البيان فى تفسير القرآن . القاهرة ١٣٢٢-١٣٣٠ هـ .

طنطاوى الجوهرى : الجواهر فى تفسير القرآن . القاهرة ١٩١٣ هـ .

الواحدى : أسباب النزول . القاهرة ١٩٤٥ م .

وكتاب تاريخ القرآن الذى ألفه بالألمانية نولدكه وشفالى واشترك معهما فيه علماء ألمان آخرون مثل برجستريسر ونشروه فى ثلاثة أجزاء بيانها كما يلى :

الاسم العام للكتاب :

Theodor Noeldeck, F. Sckwally Geschichte des Qorans.

وتفصيل الأجزاء كما يلى :

المجلد الأول عن أصول القرآن

1. Noeldecke u. Schwally, Verber den Ursprung des Qorans , Leipzig 1919.

والمجلد الثانى عن جمع القرآن

2. Schwally , Die Sammlung des Qorans Leipzig 1919 .

والجزء الثالث هو الذى يتضمن ترتيب آيات القرآن من حيث النزول

3- g. Brgstraesser und O.Praezel , Die Geschichte des Qoran Texts.Leipzig . 1939 .

وهذا المجلد الثالث يقع فى ثلاثة مجلدات صغار .

ويضاف إلى هذه الكتب الاستشراقية كتاب يعتبر من أهلها فى ذلك الموضوع هو :

Regis Blachère, Le Coran . traduction selon un Essai d'arrangement des Sourates . Paris 1947-1951 .

ويقع فى ثلاثة أجزاء . والجزء الأول منها مقدمة .

وغنى عن البيان أننى لم أعتمد على مؤلفات المستشرقين إلا للإفادة والاستئناس والاستطلاع ، وآراؤهم فى الموضوع مغرضـة صادرة عن سوء نية . وهذا هو رأينا كذلك فى كتاب يحتفل به المستشرقون ويولونه اهتماماً كبيراً رغم ما فيه من التعسف الظاهر والإسفاف الواضح وهو :

Richard Bell , The Quran , With a Ciritical rearrangement of the Suras .

يذهب مؤرخو السيرة إلى أن القرشيين لم يكترثوا للدعوة الإسلامية إلا عندما تناول الرسول آلهتهم بما لا يرضيهم ، وقال عنها إنها أحجار لا تنفع ولا تضر وأن عبادتها هباء يدل على غباء. ولكن الحقيقة هى أن كبار القرشيين كانوا قد بلغوا درجة من الغنى والغرور بالنفس بلغت بهم كل مبلغ ، ولم يكن كبرياؤهم ليسمح لهم بأن يتحملوا من محمد ﷺ أى نقد لهم أو لآلهتهم ، وهم لم ينتظروا حتى يسب محمد آلهتهم بل كان تحركهم لأذاه وأذى أصحابه قبل ذلك بكثير .

وقد رأينا أن أبا جهل وجماعته من أتراب محمد ﷺ فى السن لم يُوفَّقوا فى تصديهم له وكادت تقع فتنة فأسرع كبار القرشيين لتلافيها ، وكانوا يصطافون فى ضياعهم فى الطائف ، فروَّعتهم أخبار الفتنة بين المسلمين وخصومهم فأقبلوا وحاولوا استرضاء رسول الله وكسبه إلى جانبهم ظناً منهم أنه طالب سلطان أو مال أو طامع فى لعاعة من لعاعات الدنيا ، فوجدوه شيئاً آخر لم يخطر على بال ، وجدوا أنفسهم أمام رجل يقول إنه نبى مرسل لإصلاح الدنيا وأهلها ، وسمعوه يتلو القرآن ، فَراقَهم معناه ومبناه وأحسوا أنه لا يمكن أن يكون كلام بشر . فقالوا إنه ساحر ومضوا يدبرون أمرهم ليحموا أنفسهم من دعوته ، وقد مس شعورهم ونال من كرامتهم الكلام الذى يقوله ولم يطيقوا عليه صبراً .

ذلك أن أولئك الناس ذهبوا مع الغنى وقوة الحياة مبلغاً بعيداً بسبب ما تحصَّل لهم من الأموال وما أوصلتهم إليه الأموال من سيادة على الناس . وقد تحدثنا عن التجارة المكية وما وصلت إليه من الانتظام بفضل ما وضع لها هاشم بن عبد مناف من نظم مكنت لهم مع الزمن من أن يجمعوا من ورائها ثروات طائلة ازدادت قوتها على الناس نتيجة فقر المجتمع من حولهم . ولما كان أولئك السروات هم فى نفس الوقت أصحاب السلطان فى ذلك المجتمع المكى فإنهم لم يجدوا من يوقفهم عند حدودهم إذا هم ظلموا أو تجبروا .

ومن هنا فقد غلبت عصبة الأحلاف أو لعقة الدم على جماعة بنى هاشم وأصحاب الفضول ، فازدادت كبرياؤهم ولم يعودوا يحتملون من أحد نقداً ، ومن هنا

فإن الإشارات القرآنية التى نقدت مسلكهم ووصفتهم بالكفر والقسوة والظلم والتطفيف فى الكيل وغش الناس كانت كافية لأن تثير غضبهم وتجعلهم ينظرون إلى محمد ﷺ على أنه عدو وإلى الذى يدعو به على أنه حركة معادية .

وقلنا : إن أولئك الناس وضعوا لهذه التجارة نظاماً محكماً فكان كل قرشى أو قرشية يريد المساهمة يسهم بما يريد ويدون ذلك فى سجل ، فإذا عاد رئيس القافلة - وكانت تسمى العير أو اللطيمة - كان أول ما يفعله هو التوجه إلى دار الندوة حيث يعطى - إذا استقام هذا التعبير الحديث هنا - بياناً عن نتائج رحلته وخاصة مقدار الربح الذى تحصَّل . وفى بعض الأحيان كانت الأرباح تصل إلى قدر رأس المال ، أى مائة فى المائة كما نقول ، فمن دفع عشرة دنانير استردها عشرين ، وكان ذلك ربحاً عظيماً جداً ، يدل على ذكاء ومهارة وكان معظم التعامل بالدنانير الذهبية المسماة بالهرقلية ووزنها نصف وزن الجنيه الإنجليزى الاسترلينى الذهبى الحالى ، وكذلك بالدراهم الفارسية وكانت من الفضة . وكان الدينار الذهبى يعدل أربعة عشر درهماً من الفضة ، وكان التعامل يتم أحياناً بالمقايضة أو بالعروض كالأقمشة والآنية والأسلحة وما إليها مما يمكن تقييمه مالياً أو ما يمكن اتخاذه قاعدة للتبادل التجارى .

وقد درس موضوع التجارة المكية الويس سبرنجر فى كتابه عن محمد ﷺ ، وهو كتاب سيء فيه تعصب بالغ من الناحية الدينية ، ولكنه فيما خلا ذلك لا يخلو من حقائق ذات أهمية وقد قدر أن قيمة التجارة والأموال التى كانت تُتداول فى مكة على طول العام بربع مليون دينار من الذهب ، وقد بلغ من ثقة أولئك الناس بأنفسهم أن أحدهم رُوى عنه أنه قال : لقد حسبت أننى لو رفعت حجراً وجدت تحته مالاً ، وكان يقال : من ليس بتاجر فليس بشىء ، وعير أبى سفيان التى كانت تمهيداً لموقعة بدر كان فيها ألف جمل موسوقة بضاعة ، وهذه الجمال نفسها كانت قد صدرت من قريش قبل قليل محملة ببضائع الهند والصين واليمن وحققت ربحاً عظيماً ، ثم عادت مرة أخرى لتقوم بعملية تجارية مماثلة .

وتظهر مستويات الأرباح التى كانت تحققها تلك التجارة فى حكاية عبد الله بن

جدعان شيخ بنى تيم بن مرة ، فقد بدأ حياته فقيراً ، فلما اكتهل كان قد أصبح من أغنى أغنياء مكة ، وقد زعم الناس أنه وجد كنزاً ، وهـذا الكنز فى حقيقته كان التجارة ، وعبد الله بن جدعان كان من كبار رجالها وكان حليفاً لبنى عبد شمس ، وخصماً بالتالى لبنى هاشم ، وكان كبار القرشيين ينفقون عن سخاء لكى يظهروا بمظهر التاجر الموسر الناجح الذى يوثق فيه ، فكان ابن جدعان يقدم للناس الجفان المترعة ثريداً ولحماً فيأكل منها من يريد ، وكذلك كان يفعل أبو جهل .

وهذا الثراء الضخم الذى وصل إليه أولئك الناس كان يغريهم بالاستزادة من الربح بأى ثمن ، ومن هنا كانوا يقرضون المال دون وازع ، فقد روى عن بعضهم أنه كان يقرض المائة دينار لمدة ثلاثة أو أربعة شهور ويتقاضاها مائتين أو ثلاثمائة دينار ، وانتشر ذلك حتى عم الربا وتفاقم وأصبح هو القاعدة ، فشقى الفقراء والمحتاجون . وكان أولئك التجار إما يكتبون بأنفسهم أو يستخدمون كتاباً حاسبين يسمون النسأة وكان الربح فى هذه الحالة يسمى نسيئاً أو نسيئة ، وكان النسأة يغالطون الضعفاء وخاصة الأميين فيزوِّرون فى حساب المال وحساب الشهور أو المدد ويبيحون اليوم ما يحرمونه غداً حسب هواهم . ولهذا وحماية لإنسانية الإنسان حرم الله الربا ، بل أعلن الحرب على المرابين ﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (٢٧٩) ﴾ [البقرة] ولم يرد فى حق أى من الكبائر مثل تلك اللعنة على المرابين ، لأن الجرائم كلها لها حدود . فالقاتل يُقتل والسارق تقطع يده أو يعاقب ، أما المرابى فإنه يعتدى على كرامة الإنسان ويقتله حياً .

وهذا الجشع فى جمع المال هو الذى أثار فى مكة روحاً من التذمر والإنكار ، فإن معظم الناس كانوا مساكين أو فقراء ، ولا يخلو إنسان من الحاجة إلى المال فى وقت ما ، وهنا يقع تحت رحمة أولئك الطغاة ، خاصة وأنهم - أى كبار التجار - يستهينون بالتاجر الصغير الغريب ، فكانوا يأكلون أمواله أو يُسوِّفون فى أداء الرجل حقه حتى يجوع ويعرى ، وقد يؤدى الدَّيْن ببعض الناس إلى أن يصبحوا أرقاء للدائنين حتى يؤدوا ما عليهم . وكان أكثر الناس إقداماً على سوء معاملة الفقراء وصغار الأغراب رجال مثل الوليد بن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، وأبى الحكم عمرو بن هشام(أبى جهل) .

وفى الناحية الأخرى وقف بنو هاشم - ربما فيما عدا العباس - وحلفاؤهم يمثلون تقاليد عبد المطلب فى الإحسان إلى الفقراء برعاية صغار التجار الغرباء ، ولكن توفيقهم فى ذلك كان قليلاً نظراً لقوة خصومهم أولاً ثم لحاجة الجبهة الهاشمية إلى شخصيات تستطيع استرداد القيادة فى مكة ، وهذا يفسر لنا موقف بنى عبد شمس وبنى مخزوم وحلفائهم من الدعوة إلى الإسلام ، فقد ظنوا محمداً ﷺ يرمى فى النهاية إلى إعادة القوة إلى بنى هاشم ، وهذا كان مفهوم أبى جهل للإسلام ، ولم يستطع أبو جهل تغيير هذا الموقف إلى أن مات .

وبلغ من جشع أولئك الناس وحرصهم على أن يفيدوا من الحج أعظم فائدة مالية ممكنة ، أنهم ابتدعوا ما عرف بالُحمس والحلة ، وكلام مؤرخينا القدامى مهم جداً فيما يتعلق بالحمس والحلة ، فهم اعتبروا هذين المصطلحين وما جرى مجراهما مثل الطَّلَس تدخل ضمن شئون الدين والوثنية الجاهلية ، والحقيقة كما تتجلى لمن يقرأ بإمعان أنها من تنظيمات قريش للإفادة من الحج ، فمن المعروف أن الناس كانوا يحجون بعد نهاية الموسم فى عكاظ ، فيقصدون بما معهم من مال إلى مكة للحج ، فكان همُّ القرشيين استخراج أكبر قدر من المكاسب من الحجاج .

فالحمس فيما يروى ابن سعد عن الواقدى وفيما يقول الأزرقى عن ابن إسحاق عن الكلبى عن ابن عباس : هم قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش من سائر العرب ، ويؤكد ذلك السكرى فيقول : إن الحمس هم قبائل قريش كلها وخزاعة لنزولها مكة ومجاورتها قريشاً وكل من نزل مكة من قبائل العرب ، وأما الحلة فهم بقية قبائل العرب ، والطلس هم أهل اليمن وأهل حضرموت .

فماذا كان الحمس يفعلون فى موسم الحج ؟ فيما يقول الأزرقى عن ابن إسحاق عن الكلبى أنهم كانوا « لا يمخضون اللبن ولا يأكلون الزبد ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حُرُماً ، ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه وإنما يستظلون بالأُدم ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم ، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها ، ويطوفون فى البيت وعليهم ثيابهم ...» ومعنى ذلك أنهم كانوا لا يتمتعون بشىء من الخيرات ، بل يدخرون ذلك ليبيعوه من

الحجاج ، وكانوا يزعمون ذلك نسكاً . أما الحلة وهم بقية العرب الوافدين على مكة فكانوا فى قول السكرى « يحرمون الصيد فى النسك ولا يحرمونه فى غير الحرم ، ويتواصلون فى النسك ويمنح الغنى ماله أو أكثره فى نسكه ولا يدخلون من باب بيت ولا يؤويهم ظل ما داموا محرمين ، وكانوا يدهنون ويأكلون اللحم وأخصب ما يكونون أيام نسكهم ، فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ، ثم اشتركوا فى ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا فى ثياب جدد ، ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء ، يباشرونها بأقدامهم ، فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراة ، وكان لكل رجل من الحلة حرس من الحمس يأخذ ثيابه ، فإن لم يجد ثوباً طاف عرياناً ، وإنما كانت الحلة تستكرى الثياب للطواف فى رجوعهم إلى البيت ...» .

وخلاصة هذا الكلام أن القرشيين رتبوا أنفسهم على ألا ينفقوا من أموالهم ولا يستعملوا من أطعمتهم ولا يلبسوا من الثياب الجدد إلا القليل جداً لكى يبيعوه من الحجاج ، أما الحلة وهم الأعراب – وهم معظم الحجاج فكانوا يشجَّعون على الإنفاق ، حتى الطواف كان القرشيون يحفزونهم على أن يكون الطواف فى ثياب جدد ، ومن لا يستطيع شراء ثوب جديد اكترى ثوباً ، وإلا طاف عرياناً . وهذا هو التفسير الذى يقبله العقل بالنسبة لهذه النظم التى كانت سائدة فى مكة قبل الإسلام . أما ذكرها بالصورة المبهمة التى تخلو من المعنى والتى نجدها فى الأصول فأمر لا يقبله العقل ، خاصة وأن القرشيين كانوا ناساً عمليين وماديين فى تفكيرهم ، فكل شىء كان عندهم بمنطق وحساب . وبينما كان قصى وهاشم وعبد المطلب يفرضون على القرشيين مالاً ينفق على الحجاج تقديراً منهم لجلال الحج وما يضفيه على مكة من الاحترام والتبجيل أصبح سادة مكة الجدد يبذلون أقصى وسعهم فى استخراج أكبر كسب من الحجاج ، مما أساء إلى مكة وقريش . وكان الفقراء فيما مضى يفيدون من الحج فيأكل الجائع منهم ويحصل المحتاج على ما تيسر له من حاجاته ، فساء حال الفقراء أيام سيادة بنى عبد شمس ومخزوم وأحلافها ، وذلك كله واضح فى التفاصيل التى يوردها المؤرخون فى مقدمات البعثة المحمدية .

ونتج عن ذلك أن كثيراً من العرب كرهوا قريشاً وعيَّروها بالبخل والقعود عن

الكرم ، بل رماها بعضهم بالجبن ، وعيَّـرُوا قريشاً بكثرة الطعام فسموها سخينة لأن السخينة كانت من أحسن ما يأكل الناس قبل الإسلام وأغلاه ثمناً ، وكان القرشيون يكثرون من أكل أطايب الطعام من اللحوم والثرائد والعصائد والسخينة بسبب وفرة أموالهم فى حين كانت غالبية العرب تتضور جوعاً .

ولكن كتلة قريش ظلت سليمة ، ومحور هذه الكتلة كان بنى هاشم وبنى عبد المطلب وأحلافهم ، وهؤلاء هم الذين حافظوا لقريش على أحسن خصائصها الخلقية والمعنوية ، وعندما ضاقت بقية العرب باستغلال قريش وانفرادها بشئون المال وتجمعت بقية قبائل قيس عيلان لتكسر بالقوة احتكار المكيين ، وقامت حروب الفِجَار ، كان الذين تصدوا للقيادة هم الذين تمسكوا باللواء والقبة والأعنة وما إليها من مسئوليات الحرب ، وهم بنو عبد شمس وأحلافهم ، وكان هؤلاء كذلك هم المسيطرون على شئون التجارة والمال ، وأبلوا فى هذه الحروب بلاءً عظيماً فظهر أمر الأعياص وهم أبناء أبى أحيحة العاص بن أمية والعنابس وهم أبناء حرب بن أمية ، وهنا انتقلت القوة فعلاً إلى بنى عبد شمس وأحلافهم ، بل أصبح لفظ الأعياص يطلق على أهل الملك والقوة بصفة عامة ، وابن خلدون يستخدم دائماً مصطلح «أعياص الملك » وأما العنابس - أى الأُسود - فهم حرب بن أمية وأولاده وأهمهم أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية .

وقد أصبح هؤلاء جميعاً سادة أغنياء وأقوياء إلى درجة كبيرة ، وزاد استبدادهم بالفقراء والضعفاء وصغار الأغراب ، وكثرت مخالفتهم للأصول الأخلاقية التى وضعها الذين أسسوا مجد قريش وأسرفوا فى الربا وغالطوا الناس فى الحساب وظلموهم ظلماً بيناً ، وعندما جاء الإسلام ليقضى على ذلك كله وقفوا من الإسلام صفاً واحداً كأنهم البنيان المرصوص. وقد أنكر الإسلام ذلك كله إنكاراً بالغاً ، فدعا إلى إطعام المسكين ورعاية اليتيم وإكرام ابن السبيل (وهو الغريب المار أو الوافد) وقال بالمساواة بين الناس ، فالغنى والفقير متساويان ، وكذلك القرشى وغير القرشى والعربى والعجمى (أى غير العربى) ، وأنكر الوثنية وتقديس الأوثان والنُّصُب وكل ما كانت تلك الطائفة قد جعلته اختصاصاً لها وامتيازاً وسبيلاً لجمع المال ، ولهذا

كانت مقاومة كتلة قريش للإسلام عنيفة وبغضهم له عظيماً ، لأنه دعا إلى هدم كل تلك النظم والقيم التى كانت كلها تدور حول الأغنياء والأقوياء وتخدم مصالحهم وتؤيد الوثنية لأنها مورد مال وكسب.

وعندما جاء الإسلام وجد نواة بناء قريش سليمة قوية ، فلا زال فى القرشيين من يؤمن بالمبادىء الأخلاقية ويتمسك بالبنيان المحكم السليم الذى وضعه قصى وعبدمناف وهاشم وعبد المطلب وحلفاؤهم ، ولهذا نجد أن الله سبحانه وتعالى يأمر نبيه كخطوة أساسية من خطوات نشر الدعوة بأن ينذر عشيرته الأقربين ، وهنا لابد أن نذكر الآية وما قبلها وبعدها مباشرة حتى يتضح لنا معناها ومغزاها ، إذ إن تقطيع الآيات لا يعين قط على فهمها الفهم الكامل الصحيح : ﴿ فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) ﴾ [الشعراء] .

فهنا نجد الدعوة موجهة إلى رسول الله بالاعتماد أولاً على عشيرته الأقربين ، لا لأنهم أقاربه بل لأنهم هم الذين ظلوا متمسكين بالقواعد الأخلاقية الأولى التى وضعها قصى وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب ومن أيدوهم ، لأن هؤلاء يكونون بهذا الوصف أقرب إلى فهم الإسلام والدخول فيه . والآيات تأمره فى نفس الوقت بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين فقد كان هؤلاء قلة ، ولكنهم كانوا قلة قوية بإيمانهم رغم أن الكثيرين من أفرادها كانوا فقراء لا حول لهم فى حياتهم.

وقبل أن ننتقل إلى دراسة موقف قريش من الإسلام لا بد أن نقول شيئاً عن الدور العظيم الذى قامت به أسواق الحجاز فى توكيد مركز قريش ، ويستتبع ذلك الكلام على دور قريش فى تطوير اللغة العربية ، وقد سبق أن قلنا بعض هذا الكلام فيما تقدم من فصول هذا الكتاب ، ولكن لا بد من ذكره الآن معدلاً بحسب ما يقتضيه تطور الأفكار فى هذا البحث .

* * *

كانت أسواق العرب كما ذكرنا آنفاً نظاماً محكماً تكامل مع الزمن ، وعمل على

ترتيبه التجار والقبائل معاً ، فكل قبيلة أو مجموعة من القبائل المتجاورة أو المتحالفة نظمت لنفسها سوقاً سنوية فى منازلها ، ولما كان التجار من أقدم العصور إلى يومنا هذا أكثر الطوائف تفاهماً فيما بينهم لضمان مصالحهم - دون أن يمنع ذلك روح المنافسة الطبيعية بينهم - فإنهم اجتهدوا فى إقناع القبائل بجعل موعد السوق مناسباً لهم ، لأنهم حريصون على أن يحضروا أكبر عدد ممكن منها ، إما بصفتهم الشخصية أو عن طريق زملائهم فى شتى النواحى ، وإذا كانت قريش فى مجموعها هى أعظم تجار مكة أو أعظم الهيئات المشتغلة بالتجارة ، فقد عرفت كيف تجعل آخر أسواق العام فى منطقتها حتى تربط بين التجارة والحج (فى ذى الحجة - ومن هنا جاء اسمه ، والاسم سابق على الإسلام) ، فقد حرصت على أن تكون أسواقها الثلاثة عكاظ وذو المجاز ومجنة أعظمَ هذه الأسواق وأحفلها بالبضائع والناس .

وقد اتجهت العناية بصورة خاصة إلى سوق عكاظ بسبب قربها من مكة ، فجعلتها قريش أكبر أسواق الجزيرة وأكثر الأسواق اجتذاباً للناس ، فلما وُفِّقت فى ذلك أصبحت عكاظ كذلك ملتقى العرب ، ولم تعد مجرد سوق تجار ، بل أصبحت مناسبة للتسلية واللهو والتفريج عن النفس ، وهذا هو الذى اجتذب الشعراء إليها ، وهذا يفسر لنا كيف أصبحت عكاظ سوقاً سنوية للأدب والشعر وقد نتجت عن ذلك نتيجة لم تقصد إليها قريش قطعاً ، ولكنها كانت نتيجة طبيعية لظروف أسواق قريش ولمكانة مكة الدينية والتجارية ثم لمهارة القرشيين فى الحصول لأنفسهم ولمدينتهم مكة على أعظم المكاسب والمغانم من كل شىء .

وقد تيسر ذلك لقريش لأنها عندما استقرت فى مكة وسيطرت عليها لم تفقد طبيعتها القبلية قط ، فقد ظلت فى حياتها وتنظيمها واتجاهات أفرادها قبيلة واحدة محفوظة الأنساب تحكمها قواعد الحياة القبلية وعاداتها وتقاليدها وأخلاقياتها ، وقد كان فريق من قريش وهم قريش البطاح أو الأبطحيون - يسكنون المدينة وينزلون الدُّور فى أحياء خصصت لهم عرفت بالرباع وعرفت امتداداتها خارج البلد بالشعاب ، وظل فريق آخر من القرشيين يعيش فى الخيام خارج البلد أو فى ظاهرها وهؤلاء هم قريش الظواهر، وظلت قريش تستوعب فى كيانها من تريد استلحاقه من

قبائل العرب الصغيرة التى رأت أن مصلحتها تقضى باستلحاقها ، فإما تصاهرت معها وأدخلتها فى كيانها أو اكتفت بالحلف معها ، وكان معظم المستلحقين من قضاعة وكنانة ، وكانت العادة أن تربط القبيلة المستلحقة نفسها بنسب قريش عن طريق فهر .

وهذا يفسر لنا : لماذا نجد وضع بطون مثل محارب بن فهر ولؤى بن غالب بن فهر غير واضحة العلاقة بقريش ، وهذه القبائل المستلحقة نجدها مفردة بدون تسلسل نسبى لأن قريشاً مثلها فى ذلك مثل غيرها من القبائل القوية كانت تمتص القبيلة المستلحقة فلا يبقى منها إلا اسمها ، ويقول النسابة فى هذا إن محارباً مثلاً انقرضت فلا عقب لها أو أن بنى عامر دخلوا فى لؤى ، وهكذا كانت قريش تزداد قوة عن طريق قريش الظواهر ، ومن قبائل قريش الظواهر كانت قريش تعوض ما يصيب أعدادها من نقص ، وأما القبائل المتحالفة التى أصبحت تبعاً لقريش فمثلها معظم خزاعة والكثير من بطون قضاعة وخاصة أسلم .

عن طريق هذا الباب المفتوح على القبيلة حافظت قريش - رغم استقرار معظم بيوتها - على خصائصها القبلية ، فكان أولاد القرشيين يدربون على القتال وركوب الخيل ، وكانوا يرسلون إلى البادية وهم صغار ليشبوا أقوياء أصحاء على طبيعة البدو وعن طريق هذا الباب المفتوح أيضاً ظلت أعين القرشيين مفتوحة على من حولها من القبائل ، فكان القرشيون يعرفون كل كبيرة وصغيرة عما يجرى فى خيام هذه القبائل ، وكان شيوخ القبائل معروفين للقرشيين ، يستقبلهم القرشيون ويصاهرونهم ، ومنهم من كان له بيت فى مكة إلى جانب خيامه فى الصحراء ، مثل بُدَيل بن ورقاء شيخ بنى كعب من خزاعة فقد كان له بيت كبير فى مكة ، وقد عُرف هؤلاء الرؤساء المقربون بلفظ الندماء أى الأصدقاء المقربين ، فيقال إن فلاناً كان نديماً لهاشم أو لعبد المطلب ، وقد عقد محمد بن حبيب النسابة فصلاً خاصاً فى كتابه المحبَّر عن الندماء ، ونظرة على أسماء الندماء وقبائلهم تؤكد للقارىء ما نقول .

وهكذا ظل أولئك القرشيون قبليين مدنيين فى نفس الوقت ، وبينما كان رؤساء قريش يحسبون الأموال والأرباح والربوات ويسجلون ذلك فى سجلات حفظوها ، وأتقن الكثيرون منهم القراءة والكتابة والحساب لهذا الغرض نجدهم لم يفقدوا قط

خصائص البدو ولا هم قطعوا علاقاتهم بهم ولا أهملوا أحلافهم مع القبائل ، فكان رجال الأعمال هؤلاء بدواً محاربين فى نفس الوقت وعندما ندقق فى أخبار السيرة النبوية وهى المناسبة الكبرى التى أتاحت لنا أكبر قدر من المعلومات عن قريش مكة ، والعرب عامة نجد أن كبار السن من القرشيين من أمثال الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وأبى أحيحة بن العاص كانوا يمسكون بزمام القبيلة ويكتفون بالإشراف من بيوتهم أو مواضع راحتهم فى بيوتهم التى اشتروها فى الطائف تاركين الجيل التالى لهم يُصرِّف الأعمال .

وعندما ظهر رسول الله ودعا بدعوته كان أنداده فى السن من أبناء زعماء القرشيين هم الذين تصدوا له أول الأمر من أمثال : أبى جهل ، وأبى سفيان ، وعقبة بن أبى معيط ، وأمية بن خلف ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن قيس بن عدى ، والنضر بن الحارث بن كلدة ومن إليهم ، أما كبار القوم فلم يتدخلوا إلا فيها بعد عندما بلغ الصدام بين محمد ﷺ وأولئك المعاندين من نظرائه فى السن أو أبناء جيله مبلغاً أصبح يهدد بالفتنة . هنا يتدخل الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وأبو أحيحة العاص بن سعيد بن العاص والعاص بن هاشم وعبد الله بن جدعان ومن فى طبقتهم من سادات قريش الذين كانوا إذ ذاك فى مصطافهم فى الطائف فأسرعوا ليتداركوا الموقف ، وقد تصرفوا بذكاء .

وأكثر ما يستوقف النظر فى قريش هى روح الجماعة Ésprit de corps التى كانت تتصرف بها ، فهم كتلة واحدة أمام أى عدو وأمام أى خطر ، وقد أشرت فيما سبق إلى أن أكثر ما أخافَ قريشاً من دعوة رسول الله هو أنها فرَّقت جماعتهم ، ويتجلى لنا إحساس كبار القرشيين بوحدة قريش وحرصهم على صالحها فى خبر عتبة بن ربيعة عندما ذهب يفاوض رسول الله ليفهم منه ما يريد ، وكان بصفته تاجراً قد ذهب يساوم محمداً ظناً منه أنه مستعد للمساومة ، فلما سمع القرآن وجده كلاماً جديداً جداً عليه ، وأحس بأنه كلام له عمق ومعنى وأثر فى النفوس ، فلما سألزه ما وراءه « قال : ورائى أنى قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين

ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم ، وإن ظهر على العرب فمُلْكه مُلككم وعِزُّه عِزُّكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى فيه...» .

فهذه عبارة إن صدقت فإنها تدل على حرص قريش على وحدتها وتماسكها لخدمة مصالحها ، فهذا الرجل لا ينصح القرشيين بقبول دعوة محمد ﷺ ، ولكنه يقول لهم إنه يتوقع لهذه الدعوة النجاح ، ويقول إنه من صالح قريش أن تخلى بين محمد وما يدعو إليه ، فإذا غلبته العرب لم يصب قريشاً ضرر ، وإذا انتصر محمد سارعت قريش إلى المشاركة فى الثمرات بل جنتها كلها ، وهذه العبارة تبدو لى وكأنها تصوير لما فعلته قريش مع الإسلام فى الواقع ، فقد خَلَّتْ بين محمد والعرب ، فلما انتصر عرف رجالها كيف يفوزون بمعظم ثمرات النصر .

الوليد بن المغيرة هنا يمثل العقلية القرشية أصدق تمثيل ، فهى عقلية واقعية ، فهذا الرجل أعجب بالقرآن دون أن يفكر فى الدخول فى الإسلام ، لأن الإسلام بدا له مغامرة وهو لا يشك فى أن القرآن الذى سمعه من محمد سيكون له أثر بعيد ، لكنه - أى الوليد بن المغيرة - غير واثق من أن الدعوة ستنجح ، ولهذا فقد آثر الوقوف بعيداً ونصح قومه بعدم التعرض لمحمد فلعلَّ دعوته تنجح وتجلب على قريش خيراً كثيراً .

ذلك أن قريشاً كانت عند أولئك القرشيين أهم من أى شيء آخر ، فقد عاشوا فى مكة ولكنهم ظلوا قرشيين قبليين فى تفكيرهم وأسلوبهم فى العمل، وإذا كنا لا نستطيع القول بأن قريشاً بعد سيطرتها على مكة لم تعد قبيلة بدوية خالصة مثل غطفان وهوازن ، فكذلك مكة فى أيدى القرشيين لم تكن مدينة بمعنى الكلمة ، فقد كان القرشيون يعرفون المدن وما تتميز به من منشآت وعمائر وقصور ، فقد كانوا يزورون مدن العالم القريبة منهم من طيشفون - وهى المدائن - إلى الإسكندرية ، ولكنهم لم ينشئوا فى بلدهم مبنى فخماً ولا اتخذ واحد منهم قصراً ، وإنما ظل شيخاً بدوياً يعيش فى مدينة ، وقد كانت هذه هى الصفة التى غلبت القرشيين حتى بعد الإسلام ، فقد أصبح معاوية مثلاً خليفة ولكنه لم ينشىء قصراً عظيماً ولا اقتنى رياشاً

رفيعاً أو اتخذ مطبخاً ملوكيًّا ، بل ظل يعيش بدوياً ، لا يزيد طعامه على طعام قريش فى الجاهلية : الثرائد والعصائد .

بهذا المزاج من القبلية والمدنية نجح القرشيون ، فهم من قبائل الجزيرة شيوخ بدو يعيشون عيشة شيوخ بدو يتخلقون بأخلاقهم ويتعاملون بقواعد التعامل السائدة فى الجزيرة ، فإذا دخلوا بلاد الروم أو الفرس عرفوا كيف يجالسون الرؤساء والكبراء من القادة والإداريين والحكام ويكسبون احترامهم ، وفيما يتعلق بفارس كان العرب يعرفون كسرى وله من بين رؤسائهم أصدقاء - وبدويتهم تلك هى التى حمتهم من الخضوع لفارس أو لدولة الروم وقد حكينا ما حدث لعثمان بن الحويرث عندما أراد أن يسود قريشاً باسم القيصر ، أما إباء العرب للخضوع للفرس فيصوره يوم ذى قار، ولم يكن لقريش نصيب فى يوم ذى قار ولكن القرشيين بنشاطهم التجارى الواسع وبما كان فى أيديهم من عهود القبائل التى تضمن لهم سلامة المرور وما حازوه من الإيلاف الذى فتح لهم أبواب بلاد الفرس والروم والحبشة قد عاونوا معاونة فعالة فى تقريب أفكار العرب بعضهم من بعض وتقريب لهجات العرب والوصول فى النهاية إلى اللسان العربى المبين ... الذى يفهمه العرب كافة ، وبه نزل القرآن .

ذلك أن أسواق قريش كانت أعظم أسواق العرب ، وعكاظ كانت ذروة لقاءاتهم وإلى جانب البضائع والتجارات كان يخف إليها الشعراء ليلقوا قصائدهم ، وبطبيعة الحال كانت هذه عملية طويلة وإن كنا نحن لا نعرف إلا نهايتها فقبيل الإسلام كان أعاظم شعراء العرب يَخِفُّون إلى عكاظ بقصائدهم ينشدونها أمام حكام أو نقاد ليزنوها وليختاروا أحسنها ، وهذا يقتضى أن أولئك الشعراء كانوا يقولون قصائدهم بلغة عربية واحدة حتى يمكن الموازنة بينها ، وهذه هى الصورة الأخيرة التى أشرنا إليها ، ولكن لا بد أنه قد سبقت هذه الصورة تمهيدات طويلة ، ذلك أن لهجة قريش ، وهى سيدة السوق وسادنة الكعبة كان لا بد أن تكون هى اللغة المشتركة بين الوافدين على السوق ، وإذا أمكن القول بأن لغة الأسواق سهلة لا تخرج عن عبارات البيع والشراء والتعامل اليومى .

وتلك هى البداية أى أن قبائل العرب الوافدين إلى عكاظ ثم على مكة كانت

تتفاهم بينها بلغة مشتركة ، أى ما يسمى فى اليونانية بالكوينى koiné أو هى اللغة المشتركة التى كان اليونان يتفاهمون بها أول الأمر إذا تلاقوا عند نصب دلف أو فى ميادين الألعاب فى سهل أوليمبيا ، وهذه اللغة المشتركة التى يفهمها اليونان جميعاً سواء فى ذلك الأثينيون والإسبرطيون والميجاريون كانت لغة أثينا ، وشيئاً فشيئاً أصبحت لغة أثينا هى اللغة اليونانية .

مثل ذلك حدث بالنسبة للهجة قريش ، فقد فرضت قريش لهجتها العربية على السوق وزواره ، ثم تطورت هذه الكوينى التجارية السوقية حتى أصبحت لغة تعبير أدبى كان لابد أن ينشىء الشعراء فيها شعرهم لكى يفهمه النقاد والناس وينقدوه ، وتنشر هذه القصائد بين العرب ويحملها العائدون من الأسواق إلى منازل قبائلهم ، وعاماً بعد عام تعوَّد الناس فى نواحى الجزيرة كلها سماع هذه اللغة وفهمها ، وأصبحت لغة الشعر بعد لغة الأسواق - لغة المثقفين وأهل الشعر ، وشيئاً فشيئاً نشأت بين العرب لغة عربية مشتركة واحدة مفهومة مبينة لهم جميعاً ، وذلك هو اللسان العربى المبين الذى نزل به القرآن ووصل به إلى ذروته بلاغة وسهولة وضبطاً .

وذلك فضل كبير لقريش ، وهو كان أول سبب من أسباب قوتها حتى أصبح من أكبر عناصر قوة العرب . فقد قربت اللغة المشتركة بين أفهامهم وأذواقهم ، وإذا كانت تميم مثلاً تتحدث لهجتها فى منازلها فإن شعراء تميم ما كانوا لينظموا إلا فى لهجة قريش ، والتميميون أنفسهم ما كانوا يتفاهمون مع غيرهم من قبائل العرب إلا بلغة قريش ، تلك الفصحى المبينة . ويكفى أن نلفت النظر هنا إلى مراثى الخنساء بنت عمرو بن الشريد فى أخويها ، فقد كانت المراثى تُلْقى بلغة قريش فى عكاظ ، ومن هنا تنتقل إلى نواحى الجزيرة العربية حيث يتناشدها الناس ويفهمها منهم من يستطيع هذا الفهم ويحاوله من لا يستطيعه ، وفى النهاية أصبح العرب جميعاً يفهمون لهجة واحدة من العربية وإن تكلموا بلهجات شتى ، ثم جاء القرآن الكريم ونزل بلغة قريش فأصبحت لغة العرب جميعاً .

* * *

وكان لقريش كذلك فضل عظيم فى إنشاء الكتابة العربية ، لقد كان القرشيون

بطبيعة معاملاتهم المالية والتجارية من أحوج الناس إلى الكتابة وأصل الكتابة العربية نبطى ، أى أن قريشاً - أو غيرها من القبائل العربية التى احتاجت إلى كتابة شىء - كتبت ما تريد كتابته بحروف نبطية وبالفعل لدينا نقش كتابة يعرف بنقش وادى المكتب فى سيناء وتاريخه سنة ٢١٠ ميلادية ، وفى هذا النص نقرأ ألفاظاً عربية صريحة والنص كله مكتوب بحروف نبطية قريبة بعض الشىء من حروف اللغة العربية ، وبعد ذلك اكتشف الباحثون نصاً آخر فى وادى تيران فى برية سيناء أيضاً ، ثم اكتشف نقش النمارة فى إقليم حوران ، وتاريخه سنة ٣٢٨ ميلادية ومعظمه ألفاظ عربية مكتوبة بحروف نبطية معدلة وقريبة من حروف لغتنا العربية ، ثم نجد بعد ذلك نقشاً عظيم الأهمية فى قرية زَبَد قرب قنسرين إلى جنوبى حلب ، وتاريخه سنة ٥١١ ميلادية وحروفه عربية وقريبة من الخط الكوفى بالفعل ، ثم يجىء النقش المعروف بنقش القاهرة لأنه محفوظ فى متحف الفن الإسلامى فيها وتاريخه سنة ٦٥٥ ميلادية وهو أول نص عربى متميز بشخصيته وجدناه ، وأخيراً تجىء نقوش جبل سلع فى المدينة وهى مكتوبة بحروف عربية كوفية واضحة قد كشفها محمد حميد الله ، وهكذا نرى أن الكتابة العربية التى نبعت فى الأصل من النبطية تطورت شيئاً فشيئاً حتى وقفت على بداية الكتابة العربية فى الحجاز .

ولا شك فى أن الجاحظ أخطأ حين قال إن الذين كانوا يعرفون الكتابة من العرب قبل الإسلام لم يزد عددهم على عشرة أو عشرين ، وكذلك لم يوفق ابن عبد ربه عندما قال فى « العِقْد » : إن العرب كانوا فى الجاهلية يستعملون الحصا فى العد ، لأنهم كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، فكانوا يحسبون الأعداد بالحصا أى قطع الحجر الصغيرة ، فهذا كلام يقال فى مجال تفسير لفظ « الأميين » الوارد فى القرآن بمعنى من لا يكتبون ولا يقرأون فحسب ، واللفظ يحمل هذا المعنى ، ولكن له معانٍ أخرى . والعرب الذين كانوا يقومون بعمليات تجارية تقدر بآلاف الدنانير لا يمكن أن يكون قصارى معرفتهم بالحساب هو استعمال الحصا كما يعد البعض الأرقام على أصابعه ، والحقيقة أنه كان فى العرب كثيرون يقرأون ويكتبون ويحسبون .

والحق أن معانى كلمة « أمى وأميون » فى حاجة إلى مزيد من البحث ، وإلا فكيف

نفسر قول الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ [البقرة] ، فمن الواضح هنا أن تفسير الأميين بأنهم هم الذين لا يقرأون ولا يكتبون لا يعين كثيراً على تفسير هاتين الآيتين تفسيراً تطمئن إليه النفس ، ولا يكون المراد بلفظ « أمى » من لا يقرأ ولا يكتب فحسب إلا فيما يتصل برسول الله ﷺ.

فإذا كانت بين العرب قبيل الإسلام جماعة تحتاج فعلاً إلى القراءة والكتابة فهى قريش بسبب اتساع أعمالها التجارية وعلاقاتها ونشاطها المتعدد النواحى الذى ذكرناه ، وحتى فيما يتعلق بالناحية الأدبية ، فإن لفظ المعلقات مهما كان تفسيره ومعناه ، فهو يدل على أنه كانت هناك قصائد تكتب وتعلق ولن ندخل هنا فى الإجابة على أسئلة مثل : تكتب على ماذا ؟ وتعلق أين ؟ لأن المهم عندنا الآن أن هناك شعراً كان يكتب ويعلق ، وما دام يكتب ويعلق فلا بد أنه كان هناك من يكتبه ومن يقرأه ، ولا بد أن القراء كانوا كثيرين ، وإلا فلماذا تعلق ؟ وكيف يقول الجاحظ مع هذا إن عدد من يقرأ ويكتب من العرب قبل الإسلام لا يزيد على عشرة أو عشرين ، وكيف يستقيم هذا وأول آيات أوحيت لرسول الله ﷺ لتكون فتحاً لباب الدعوة للدين الجديد واستلفاتاً لأسماع الناس تقول :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق] .

كانت قريش إذن قبيلة فريدة فى بابها بين القبائل التى نعرفها فى التاريخ ، فهى جماعة قبلية مدنية فى آن معاً ، وهى جماعة سياسية متماسكة نشيطة متفتحة الذهن واعية لنفسها مدركة لما تريد وما لا تريد ، وهى - اجتماعياً وسياسياً -مكونة تكويناً قوياً متيناً ، ورجالها يعرف بعضهم بعضاً بقدرته ومكانته وخصاله وهى منظمة تنظيماً اجتماعياً وسياسياً واضح السمات والخطوط ، وهى قبيلة غنية تولى أمرها قبيل الإسلام رجال أعمال ذوو إدراك وفهم وإحساس واضح بمصالحهم وتمسك شديد بها ، وهى واسعة الاتصال بالدنيا من حولها ، سواء فى جزيرة العرب أم خارجها ،

ورؤساؤها يعرفون كيف يسوسون أمورهم ، وأفرادها محترمون لهم أقدار محفوظة ، يشترك فى هذا صغيرهم وكبيرهم وهم ماديون أنانيون يغلب عليهم حب المال ، وهم فى معاملاتهم المالية لا يعرفون رحمة ولا إنسانية ، وهذا هو جانب الضعف الأكبر الذى جعل المجتمع المكى يتدهور تدهوراً خطيراً قبيل انبلاج نور الإسلام وهو أيضاً جانب من جوانب القوة والتماسك ، ولا يعرف التاريخ قبيلة ذات ثروة ومال ومعاملات وحسابات إلا قريش .

قُريش وَدَورهَا فى النهُوض :

هذا ما كان من أمر أسواق الحجاز ودورها فى تطوير اللغة العربية ، فما الذى حدث لقريش عندما جاء الإسلام ؟

الذى حدث أن عوامل قوة قريش نفعت القرشيين كأفراد ولكنها لم تنفعهم كقبيلة لقد نجح القرشيون كأفراد فى قيادة الجماعة الوثنية ، ولكن الصدام بين قريش والإسلام حطم عناد قريش ولكنه لم يحطم قوتها القبلية ولا اعتزاز أهلها بأنفسهم ومن أكبر أسباب تحطمها صلابة ومتانة تكوينها ، فلكى ينتصر الإسلام كان لا بد من تحطيم عصبية قريش مع الإبقاء على شخصية القبيلة أو عزة أفرادها . وليس من الصحيح أن محمداً ﷺ قصد إلى تحطيم قريش بل العكس هو الصحيح ، فقد اجتهد فى الحفاظ عليها ، وقد كان يتمنى لو دخلت الإسلام كتلة واحدة ، ولكن القبيلة كانت صلبة التكوين جداً ، وفى تصادمها مع الإسلام تحطمت وانتثرت بيوتاً وأفراداً.

وقبل أن نختم الكلام على الفترة الأولى من الفترة المكية وندخل فى الكلام على الثانية لا بد من وقفة عند دار الأرقم التى انتهت بها تلك الفترة الأولى لنرى أثرها فى تطور الجماعة الإسلامية وعلاقتها بكفار قريش .

فَترة دَار الأرقَم :

نَدُرَ من بين مؤرخينا الأوائل من تنبه إلى أهمية الفترة التى قضاها رسول الله ﷺ فى دار الأرقم مع عظيم أهميتها فى تكوين الجماعة الإسلامية الأولى فى مكة . وهذه النواة ظلت على طول القرن الهجرى الأول عماد الدعوة وقيادتها الدينية . والسبب هو أن

أصحاب السير يكتبون السيرة على أساس ما كان من نصر الإسلام الحاسم عندما انتقلت الجماعة الإسلامية إلى المدينة واتخذتها قاعدة لأمة الإسلام ومجتمعها ونظامها ونشاطها وجهادها ، وتندفع صاعدة فى معارج القوة والنصر ، ولهذا تصغر فى نظرهم تفاصيل جهاد الرسول الأولى وما أبدى من ذكاء وحسن تصرف حتى ينشىء النواة الأولى من المؤمنين .

وأسباب تفكير رسول الله ﷺ فى دخول دار الأرقم ترجع إلى أن الدعوة الإسلامية لقيت لأول علم الناس بها نجاحاً عظيماً إذا عرفنا أن الداعين إلى الإسلام لم يزيدوا على أفراد قلائل من المؤمنين أكبرهم أبو بكر الصديق الذى وهبه الله إيماناً عميقاً شاملاً برسول الله ورسالته ، وكان الرجل إذ ذاك فى الأربعين من عمره أو دونها ، وكان نشيطاً ذكياً واسع العلاقات بقريش محبوباً من جماعتها ، وكان مثله فى ذلك مثل رسول الله ﷺ تاجراً أميناً مأموناً يحبه الناس ويثقون فى سلامة نفسه وسريرته .

هذا إلى أن رسول الله ﷺ كان موضع محبة وثقة واحترام من أهل مكة كلها ، وعلى أساس من هذه الثقة فيه وأسلوبه الرقيق فى الدعوة دخل فى الدعوة رجال من جلة القوم من أمثال أبى سلمة بن عبد الأسد (مخزوم) وأبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح (الحارث بن فهر) وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وسعيد بن عمرو بن زيد بن نفيل (عدى بن كعب بن لؤى) ومن فى طبقتهم .

وخلال السنة الأولى للبعثة اجتمع حول رسول الله ﷺ من المؤمنين ما لا يقل عن خمسين أو ستين رجلاً وامرأة من أهل مكة ، وكانوا يلقون رسول الله عند المسجد أو فى بيته أو خارج مكة ، ولدينا أخبار تدل على أن رسول الله كان يلقى بعض أصحابه أحياناً عند غار حراء ، فقد كان يلم به أحياناً أثناء تجواله خارج مكة حيث يشعر أنه بعيد عن أعين الكارهين لدعوته . وهنا ينفرد أبو الفتح محمد بن سيد الناس فى «عيون الأثر » بتفصيل عظيم القيمة فيما يتعلق بإسلام عبد الله بن مسعود المعروف بابن أم عبد . وخبر إسلام هذا الرجل - وكان شاباً راعى غنم لأم عبد عندما دخل الإسلام - وارد عند قدماء رواتنا ، ولكن ابن سيد الناس يقول - راوياً عن عبد الله بن مسعود

- « فبينا نحن عنده على حراء إذ نزلت عليه سورة المرسلات . فأخذتها وإنها لرطبة بفيه ، أو إن فَاهُ لرطب بها ، فلا أدرى بأى الآيتين ختم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ ﴾أو ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الآيتان ٤٨و ٥٠ من سورة المرسلات وهى السابعة والسبعون) ... ثم يقول ابن مسعود : فبينا نحن نيام على حراء أو على الجبل ، فما نبهنا إلا صوت النبى ﷺ (يقول) : منعها منكم الذى منعكم منها ! قلت : يا رسول الله وما ذاك ؟ قال : حية خرجت من ناحية الجبل[1]وهذه صورة أخاذة تعطينا مثالاً من حياة الجماعة الإسلامية الأولى خلال فترة ميلاد الأمة الإسلامية قبل دخول دار الأرقم .

وشاب مثل عبد الله بن مسعود دخل الدعوة وهو خارج مكة، وكان يرعى الغنم لسيدة مكية . ولو كان بداخلها لما استمتع بتلك الحرية التى نراه عليها بعد أن آمن ، ومثله فى ذلك مثل الكثيرين من الضعفاء الذين دخلوا الدعوة خفية عن سادتهم أو أقاربهم من كبار المكيين ، ومع أن هؤلاء المكيين لم يكونوا قد اتخذوا بعد موقف العداء من الدعوة إلا أنهم - بداهة - لم يكونوا ليرضون أن يدخل أتباعهم أو أولادهم فى تلك الدعوة الناشئة .

ومحمد ﷺ كان رجلاً مفكراً واسع الذكاء ، ولم يكن يرضيه أن تسير الدعوة على هذا النحو ، فهو يريد لأصحابه أن يكونوا أحراراً من الخوف أو الحرج سواء فى دخولهم الإسلام أم اجتماعهم برسولهم ، خاصة وأن المكيين كانوا يتجمعون معظم الوقت فى فناء الكعبة يتسامرون ويتحادثون ويضايقهم أن يروا محمداً ﷺ جالساً ناحية ومن حوله أصحابه ، وهو يقرأ عليهم القرآن ويملى آياته عليهم ويشرحها لهم ، وكانت الصلاة إذ ذاك صلاتين : صلاة الفجر (دلوك الشمس) وغروبها (غسق الليل) ، فإذا جاء وقت صلاة المغرب اصطف المؤمنون حول رسول الله ، فصلى وكان هذا أثقل شىء على نفوس المكيين . فكانوا أحياناً يتفوهون بما لا يليق ، وأحياناً يحاول بعض سفهائهم تقليد الرسول فى كلامه تقليداً مشوهاً .

---

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس ، طبعة القدسى بالقاهرة منقولة كما هى بالتصوير ومنسوبة إلى ما يسمى بدار الجيل فى بيروت . الطبعة الثانية ١٩٧٤جـ١ ص٩٨.

وقد بيَّنا في الفقرة السابقة أن تصدى القرشيين للمسلمين بالأذى وإنكارهم على رسول الله ما كان يقول لم يبدأ إلا عندما ذكر آباءهم وسفَّه أحلامهم ، بل المعارضة بدأت قبل ذلك ، فإن الجماعة المكية كانت بدناً اجتماعياً وفنياً جاهلياً متماسكاً ، وهذه الجماعة الجديدة التي التفت حول رسول الله كانت جسداً غريباً يريد أن يعيش داخل البدن القرشي المكي ، فكان لا بد أن يواجه ظاهرة الطرد الاجتماعي Social rejection وهي عملية متبادلة .

إن الجسد الكبير يتحرك من تلقاء نفسه للتخلص من الجسم الغريب ، وفي نفس الوقت يحاول الجسم الدخيل أن يتخلص من الجسد الكبير ، ونحن إذا زرعنا كلية خارجية بدل كلية تالفة في جسم ، فإن الجسم يبدأ في الحال في طرد الكلية الجديدة - وفيها نجاته - وفي نفس الوقت تبدأ الكلية المزروعة في طرد الجسم الكبير نفسه ، وهذا يفسر لنا بعض أسباب نفور المكيين من الجماعة الإسلامية الأولى وتفكير رسول الله ﷺ في تأمين جماعته من عوامل الطرد المتبادل هذه .

وعندما أسلم الأرقم بن أبي الأرقم واسمه عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم بدأت فكرة اختيار مكان مقفل آمن يكون مركزاً للدعوة ومأمناً للداخلين فيها ، فيها يجتمعون بنبيهم ويقرأون القرآن دون حرج . ولم يكن الأرقم بن أبي الأرقم موسراً ، ولكنه كان يعيش مع أبيه الأرقم في بيت كبير على الطريق بين الصفا والمروة ، ولم يكن في البيت إلا الأرقم وأبوه ، وأبوه هذا شيخ ضرير ، والأرقم الابن متحمس للدعوة يريد أن يقدم لها شيئاً ، ولا ندري كيف تم الاتفاق بينه وبين رسول الله على أن تكون داره الموضع المختار للجماعة .

وعلى أي حال فقد دخل رسول الله دار الأرقم في أواخر السنة الثانية للبعثة ، وهناك وجد الرسول وصحابته حريتهم التي يتوقون إليها. ومن الواضح - عن تفاصيل إسلام عمر بن الخطاب أن رسول الله كان يقضي هناك معظم ساعات النهار ، فقد تكاثر المقبلون على الدعوة بعد أن وجدت مأمنها ، وأصبحت الجماعة تستريح إلى التجمع في تلك الدار حيث يلقون رسولهم ويسمعون منه القرآن

أو يكتبون آياته ويستمعون إلى تفسير الرسول لها فى جلسات حرة آمنة فى دار واسعة شبه خالية من السكان .

هنا دخلت الإسلام جماعات بعد جماعات . وتحدثنا النصوص عمن أسلموا بعد «دخول الرسول دار الأرقم ودعائه بها » بحسب تعبير ابن سعد الذى يتردد فى سِيَر الكثيرين من أوائل المسلمين . وهنا فى هذه الدار أتى أبو بكر الرسول بنفر من أعاظم أفراد الجماعة فيهم سعد بن أبى وقاص وعثمان بن مظعون وخباب بن الأرت بن جندلة وأصله من بلاد ما وراء النهر وهو إذ ذاك مولى لبنى زيد مناة بن تميم الخزاعيين. وعمير بن أبى وقاص أخو سعد وعياش بن أبى ربيعة (مخزوم) والزبير ابن العوام بن خويلد (عبد العزى بن قصى) وعبد الرحمن بن عوف (زهرة بن كلاب) وغيرهم من قدماء المسلمين أعمدة الإسلام الأولى .

فى هذه الدار نمت الجماعة الإسلامية الأولى نمواً عظيماً ، وقارب عددها الثلاثمائة ، ومع نمو حجمها ازداد شعور أفرادها بالقوة والعزة وزادت جرأتها على المشركين ، فكان لابد أن يتزايد رد فعل المكيين ، فبدأوا فى اضطهاد من قدروا على اضطهاده من المسلمين ، وساورتهم الشكوك فى أمر هذه الجماعة ، فبدأوا يحومون حولها ليتعرفوا أخبارها .

وعندما نقرأ فى خبر إسلام حمزة بن عبد المطلب أن « أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله ﷺ وجارية لعبد الله بن جدعان فى مسكن لها تسمع ذلك ... » إلى آخر الخبر . ينبغى أن نفهم من ذلك أن أبا جهل كان يترصد محمداً ﷺ على الطريق إلى دار الأرقم وقلبه يغلى بالكراهة والحقد ، وحفزه حقداً على أن يمضى يتجسس أخبار الجماعة ، فلما بصر بمحمد انفجر مرجل حقده وخرج عن طوره فقال ما قال . ثم مضى أبو جهل إلى مجلس قريش عند الكعبة وملك رسول الله زمام نفسه فلم يرد على أبى جهل بكلمة ومضى إلى دار الأرقم فى الغالب .

وبلغ الخبر حمزة على ما نعرف فأخذته الحمية لابن أخيه ، فمضى إلى حيث كان أبو

جهل فى مجلس قريش فضربه بالقوس على رأسه فشجّه ، وقال : « أتشتمه ! فأنا على دينه أقول ما يقول فردّ ذلك إن استطعت » وتدخل بينهما نفر من القرشيين واعترف أبو جهل أنه تعدى على رسول الله وسَبَّه سباً قبيحاً ، ومضى حمزة إلى دار الأرقم فتم إسلامه .

كان هذا فى نهاية العام الأول لدار الأرقم ، الثالث للبعثة ، وشعر المسلمون بعد انضمام حمزة إليهم أنهم يستطيعون الآن مغادرة دار الأرقم والتجمع عند الكعبة دون حرج ، وكان صاحب الفكرة هو أبو جهل ، فخرج المسلمون فى شبه مظاهرة إسلامية وانتهوا إلى مجلس قريش فكبَّروا وهللوا وأخذوا ينشدون القرآن ، فثارت ثورة المكيين فنهضوا للرد على تلك الجماعة ، ووقع شجار عنيف وأحاط المسلمون برسول الله ﷺ وأخذوه إلى داره ، أما أبو بكر فقد احتمل الصدمة وبرك عليه نفر من المشركين وضربوه ضرباً شديداً حتى فقد الوعى ، وأسرعت أم جميل فاطمة زوج سعيد بن زيد بن نفيل تداويه حتى عاد إلى نفسه ، فكان أول ما سأل : كيف حال رسول الله ﷺ فطمأنته بأنه بخير ، فلم يكد يستطيع المشى حتى مضى إلى رسول الله ﷺ فى داره .

وهكذا فشلت المحاولة الأولى للخروج من دار الأرقم ، وعاد المسلمون إلى ما كانوا عليه من الاجتماع فى دار الأرقم حول رسول الله ، ووجد رسول الله أن ينصح المستضعفين من أصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة فبدأت الهجرة إلى هناك ، وكانت على دفعتين كبيرتين ، ولكن تيار الهجرة كان مستمراً من ذلك الحين حتى هجرة الرسول إلى المدينة .

واستمر الرسول وأصحابه يجتمعون فى دار الأرقم بعد نحو سنتين ، وكان الشيخ أبو الأرقم قد ضاق ذرعاً بجماعة المسلمين التى كانت تملأ داره ، وكان هو مشركاً لا يطيق سماع القرآن أو أحاديث المسلمين .

وفى حديث إسلام عمر بن الخطاب فى آخر السنة الخامسة للهجرة - بخلاف ما يقوله بعض الرواة من أنه أسلم فى السنة الثالثة للهجرة - معلومات طيبة عن دار الأرقم وحياة المسلمين فيها ، فإنه لما بلغه إسلام أخته فاطمة وهى زوجة سعيد بن زيد بن نفيل اتجه إلى بيتها فوجدها هناك تقرأ القرآن فشتمها وضربها حتى جرحها

وسال دمها فطفقت تبكى ، فرقّ لأخته ، وطلب منها أن تناوله الصحيفة التى كانت تقرأ فيها مع خباب بن الأرت ، فطلبت إليه أن يغتسل ففعل ووعدها بألا يمسها بسوء فلما جلس يطالع ما فيها وهدأت نفسه أخذ القرآن بمجامع نفسه ، وكانت الآيات التى قرأها على بعض الآراء ، أول سورة طه ، وسورة الحشر على بعض الآراء الأخرى .

وهنا تحرك قلب عمر ومالت نفسه للإسلام وخاصة عندما قالت له أخته فاطمة أن رسول الله ﷺ كان يدعو بأن يُعِز الإسلام بأحد العمرين : أبى الحكم عمرو بن هشام (أبى جهل) وعمر بن الخطاب ، فسأل أين يكون محمد ليذهب إليه ويسلم ، قالت : هو فى بيت فى أسفل الصفا - تريد دار الأرقم - ووصفوه له فاتجه إليه ودقّ الباب ، ونظر بعض المجتمعين هناك وقالوا لرسول الله إنه عمر بن الخطاب ، ولم يكن رسول الله قد عرف أنه جاء ليسلم ، فأمر أصحابه أن يفتحوا له ، فدخل ، وكان فى الدار (على قول ابن إسحاق ، ابن هشام ١/ ٣٦٨) ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم ممن أقام مع رسول الله بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فقال حمزة بن عبد المطلب ، فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله ﷺ ائذن له ، فأذن له الرجل ، وقام إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ بحجزته أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه جبذة شديدة ، وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ، فو الله ما أرى أن تنتهى حتى يُنزل الله بك قارعة ، قال عمر : يا رسول الله ، جئت لأومن بالله ورسوله ، وبما جاء من عند الله فكبَّر رسول الله تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم وقد عَزُّوا فى أنفسهم بإسلام عمر .

وفى رواية ابن كثير أن عمر عندما أسلم بعد حمزة كلم رسول الله فى الخروج من دار الأرقم ، فلم يعد الاجتماع فيها ضرورة ، وقد عزت الآن وقويت ، ثم إن الشيخ أبا الأرقم أساء إلى المسلمين مرة وغُصَّ بهم وطلب إليهم أن يخرجوا من بيته ولعن ابنه ، فخرج المسلمون جملة واحدة يتقدمهم رسول الله وأبو بكر وعمر واتجهوا إلى

الكعبة وأخذوا مكانهم عندها فلم يجرؤ المشركون على التعرض لهم ، وقد كثر وعزوا ولم يعودوا يخشون المشركين . وهنا تنتهى فترة دار الأرقم التى كانت ذات أ حاسم فى تأسيس نواة أمة الإسلام فى المدينة . وبعد خروج المسلمين من دار الأر بدأت الفترة الثانية فى الحقبة المكية التى ستستمر حتى وفاة خديجة رضى الله عن وأبى طالب ثم الخروج إلى الطائف . وبعودة الرسول ﷺ إلى مكة تبدأ الفترة المك الثالثة من سنة ١٠ إلى سنة ١٣ هـ .

الفَترة المكّيّة الثانية :

الصراع بين الإسلام وقريش حتى موت السيدة خديجة أم المؤمنين وأب طالب :

لدينا فيما يتصل بتطور العلاقات بين قريش والإسلام بضعة أخبار أو فقرات ع أعظم جانب من الأهمية توضح لنا تطور موقف قريش ، لأن مواجهة قريش للإسلا لم تأخذ من أول الأمر شكلاً واحداً جامداً ، بل تغير هذا الموقف وتطور تطوراً منطق تمشى مع اتساع نطاق الدعوة أفقياً ورأسياً . أى : اتساع مداها من حيث الانتشا وامتداد عمقها من حيث تكامل جوانبها .

والخبر الأول يرويه ابن سعد فى طبقاته عن الزهرى يقول : « دعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام سراً وجهراً ، فاستجاب لله تعالى من شاء من أحداث الرجال وضعف الناس حتى كثر من آمن بالله ، وكفار قريش غير منكرين لما يقول ، فكانوا إذا م عليهم فى مجالسهم يشيرون إليه : أن غلام بنى عبد المطلب لَيُكلَّم من السماء ، فكا ذلك حتى عاب الله آلهتهم التى يعبدونها دونه ، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر ، فعند ذلك عادوا رسول الله ﷺ وناكروه وأجمعوا خلافه »[1].

ومعنى ذلك أن القرشيين لم ينكروا دعوة رسول الله أول ما علموا بأمرها ، فكانت فى نظرهم شيئاً غريباً ، فهذا رجل يقول إن السماء تكلمه وهو أمر غير مفهوم عنده ولا هو يهمهم ، فتركوه يدعو . ولم يحفلوا لانضمام بعضهم إليه ، واستمر عد

---

(١) الطبقات لابن سعد : ١/ ١٣٣ . النويرى ١٦/ ١٩٦ .

الاكتراث هذا حتى نزلت الآيات التى تنقد أخلاقهم ومسالكهم فى الحياة وتعيب آلهتهم وتمس آباءهم فأنكروا عليه وبدأوا يتحركون لمعارضته .

والخبر الثانى يرويه ابن إسحاق ، وهو يقول : « فلما نادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام ، وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه - فيما بلغنى - حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل مستخفون » .

« وحدب على رسول الله عمه أبو طالب ، ومنعه وقام دونه ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله ، مظهراً لأمره لا يرده عنه شيء ، فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يُعْتِبُهُمْ من شيء أنكروا عليه من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب : عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ، وأبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر»[1] .

وهذا الخبر نستنتج منه النتائج التالية المتعلقة بموقف قريش من الإسلام :

١- أن قريشاً لم تنفر من دعوة الإسلام طالما كانت دعوة دينية خالصة لا تمس مصالح القرشيين ، فقد كان القرشيون لا يعنيهم من أمر الدين عامة إلا ما مس مصالحهم، والدين عندهم كان مصلحة وجزءاً من أعمالهم الكثيرة التى تدر عليهم المال وتقوى مركزهم السياسى فى جزيرة العرب ، فهم لم يكن يعنيهم أن يكون الإنسان على مذهبهم فى الوثنية أو كان نصرانياً أو يهودياً ما دام ذلك لا يضر بمصالحهم المادية الملموسة المباشرة .

٢- ولكن محمداً ﷺ عندما ذكر آلهتهم وعابها ، وعندما نزلت آيات القرآن تبين فساد رأى القرشيين وسوء رأيهم وهباء ديانتهم وانحطاطها وسخفها تحركوا للدفاع عن ديانتهم وآلهتهم لأنها جزء من رأس مالهم وعماد من أعمدة قوتهم .

---

(١) رواه الطبرى جـ ٢/ ٣٢٣ .

٣- ويستثنى من ذلك من عصم الله منهم بالإسلام ، أى من دخل فيه ، وهم قليلون ، وجدير بالذكر هنا أننا نريد بقريش رياستهم وأصحاب الرأى فيهم وزعماء بيوتهم وهؤلاء لم يدخل منهم فى الإسلام أحد ، ولا يستغرب هذا على من يعرف طبيعة رؤساء القرشيين كما وصفناهم واتجاهات فكرهم ، أو ما كان يعنيهم وما كان لا يعنيهم .

ولنأخذ مثالاً لذلك أبا الحكم عمرو بن هشام ، وهو أبو جهل ، فهذا الرجل كان يمثل الكهول من سادة القرشيين بعد جيل الشيوخ من أمثال الوليد بن المغيرة وعتبة ابن ربيعة وأبى أحيحة العاصى بن سعيد بن العاص . وأبو جهل كما يُفهم من كلام محمد بن حبيب النسابة فى المحبر كان فعلاً من سادات قريش ، كان كريماً وسيداً كبيراً ، ولولا ذلك لما تمنى رسول الله أن يفتح الله قلبه للإسلام ، فقد أُثِر عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين » ، والأول منهما هو ابن الخطاب أما الثانى فأبو الحكم عمرو بن هشام .

وقد كان أبو جهل لا يحب محمداً وينفر من دعوته ولكنه فى عدائه له لم يَتَدَنَّ قط إلى مثل ما كان يتدنى إليه رجال مثل عُقبة بن أبى معيط والأسود بن عبد يغوث ، وإنما كان خصماً صريحاً ، لقد كان فيه حمق وحِدَّة ولكن ذلك لا يمنع من القول بأنه كان سيداً شريفاً ، وأنه كان إذا تروى فى أمر نفسه اعترف بخطئه ، ودليلنا على ذلك أنه بعد أن تجرأ بالعدوان على رسول الله عندما لقيه على الصفا فى الطريق إلى دار الأرقم مما أدى إلى إسلام حمزة وذهاب حمزة إلى أبى جهل - قال محمد بن إسحاق : « فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه به فشجَّه شجة منكرة ثم قال : أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فَرُدَّ على ذلك إن استطعت » ، فقام رجال بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : «دعوا أبا عمارة ، فإنى والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً » وهذا كلام رجل يأسف على ما بدر منه ويعتذر عنه .

أما لماذا وقف أبو جهل من الإسلام هذا الموقف فلأن أبا جهل كان يمثل المجتمع الجاهلى الذى حكم القرآنُ بفساده ، ودعا إلى تغييره ، ومهما كان من مساوىء هذا النظام فقد كان أبو جهل من عُمده وكان من أكبر المفيدين منه ، وما دام الله يفتح عليه

أو يُنِرْ بصيرته فقد ظل يؤمن بأن نظامه الجاهلى خير نظام ، ولماذا يتخلى عنه وهو أساس قوته وغِنَاه ؟ وماذا يبقى له إذا هو أسلم وتخلى عن جاهه وثروته ومكانته وجالس أمثال : عبد الله بن مسعود ، وبلال بن رباح ، وخباب بن الأرَتِّ ، وعمار بن ياسر ؟

٤- ولكن أبا طالب عم رسول الله ﷺ وقف إلى جانبه وأيّده . وأبو طالب لم يفعل ذلك عن إيمان بالإسلام أو فَهْم له ، ولكنه تولى حماية محمد ﷺ بدافع العصبية ، فهو رأس بنى هاشم ومحمد من بنى هاشم ، ويستبعد أن يكون أبو طالب قد تنبأ بانتصار الإسلام ، ولكن المؤكد أن دعوة محمد قد أعجبته من حيث إنها دعوة تولاها هاشمى هو ابن أخيه ، فهى مهما كانت حقيقتها ترفع من شأن بنى هاشم وتقويهم فى صراعهم الذى ذكرناه مع خصومهم من القرشيين ، وإذا كان أبو جهل قد ظل عمره كله لا يرى فى دعوة محمد إلا دعوة هاشمية قبلية ، فإن أبا طالب لم يبعد عن ذلك كثيراً وإن اختلفت النظرة باختلاف الموقف الذى ينظر منه صاحبه ، ثم إن أبا طالب رغم كراهته لرؤساء مكة الجدد . كان جزءاً من التنظيم الجاهلى لقريش ومكة ، فهو من سادات قريش ، وهو رئيس بيت بنى هاشم ، وهو صاحب الرفادة والسقاية أى المتولى شئون الدين وهو غير مستعد للتخلى عن شيء من ذلك فى سبيل دعوة لم يرزقه الله الفهم لها ولا البصيرة لإدراك غاياتها .

٥- فلما رأى رؤساء قريش أن محمداً مستمر فى دعوته ، وأنه لا يكترث بموقفهم منها ، ساروا إلى عمه أبى طالب .

أما الخبر الثالث فيرويه الطبرى ، وهو خبر حافل بالمعانى والحقائق لمن يريد أن يفهم نظام قريش ، ومن يريد أن يفهم الفترة المكية من السيرة النبوية الشريفة ، قال الطبرى راوياً عن « هشام بن عروة عن عروة (ابن الزبير) أنه كتب إلى عبد الملك ابن مروان[1] :

١- أما بعد ، فإنه - يعنى رسول الله ﷺ - لما دعا قومه إلى ما بعثه الله له من الهدى والنور الذى أُنزِل عليه لم يبعدوا عنه أول ما دعاهم وكادوا يسمعون له .

---

(١) سأقسم العبارة إلى فقرات حتى يسهل علينا تحليلها والخروج منها بالنتائج التى تهم بحثنا هذا .

٢- حتى ذكر طواغيتهم .

٣- وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال أنكروا ذلك عليه .

٤- واشتدوا عليه وكرهوا ما قال .

٥- وأغروا به من أطاعهم .

٦- فانصفق عنه عامة الناس ، فتركوه إلا من حفظه الله منهم ، وهم قليل .

٧- فمكث كذلك ما قدر الله له أن يمكث .

٨- ثم ائتمرت به رؤوسهم أن يفتنوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم .

٩- فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام .

١٠- فافتتن من افتتن ، وعصم الله من شاء .

١١- فلما فُعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة .

١٢-وكان فى الحبشة رجل صالح يقال له النجاشى لا يُظْلَمُ أحدٌ بأرضه وكان يثنى عليه مع ذلك بصلاح .

١٣- وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش ، يتجرون فيها ، يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً .

١٤ - فأمرهم رسول الله ﷺ فذهب إليها عامتهم لما قُهِروا بمكة وخاف عليهم الفتن.

١٥ - ومكث هو فلم يبرح ، فمكث على ذلك سنوات .

١٦ - يشتدون على من أسلم منهم .

١٧ - ثم فشا الإسلام فيها ودخل فيه رجال من أشرافهم[1].

ففى الفقرة الأولى نرى قريشاً لم تنفر أول الأمر من دعوة الإسلام لأنها لم تر

---

(١) الطبرى ، تاريخ ، (المطبعة المنيرية) جـ ٢ ص ٣٢٨-٣٢٩ .

فيها خطراً على كيانها أو مساً بمصالحها وتجارتها ، بل إنهم - أى من كتلة قريش - كادوا يسمعون له .

وفى الفقرة الثانية نرى أن محمداً ﷺ ذكر طواغيتهم أى هاجم معبوداتهم ، وبهذا يكون قد مس مصالحهم وهددها . وقد تصدى له فى هذه المرحلة أنداده فى السن والمركز الاجتماعى فى المجتمع المكى واشتدت الخصومة بينهم من ناحية ومحمد وأتباعه من ناحية أخرى .

وفى الفقرة الثالثة نرى تطوراً حاسمًا يدخل على الموقف ، فقد دخل فيه عنصر جديد ، هذا العنصر يتمثل فى أولئك الناس الذين قدموا من الطائف لهم أموال أنكروا عليه واشتدوا عليه وكرهوا ما قال .

واضح أن أولئك الناس يختلفون عمن كانوا يعادون رسول الله ﷺ فى مكة قبل ذلك ، فهؤلاء القادمون ناس لهم أموال ، وكانوا فى ذلك الحين فى الطائف (يصطافون فى الغالب). وبمجرد وصول أولئك الناس فقد دخل الصراع بين الإسلام وخصومه من القرشيين فى دور جديد ، فإنهم أنكروا واشتدوا عليه وكرهوا ما قال . وهؤلاء الناس هم بالفعل سادة قريش الحقيقيون ، والمراد بهم كبار رجال القبيلة وسادة مكة ، ودليل ذلك أنه بمجرد أن أنكروا عليه وكرهوا ما قال انصفق أى (انفضَّ) عنه معظم أهل مكة لأنهم أغروا به من أطاعهم ، فلا بد أن يكون أولئك الناس هم رؤساء القوم ولهذا أطاعهم الناس .

وتلك هى الحقيقة الرئيسية التى تهمنا هنا ، فهؤلاء هم أصحاب الأموال فى مدينة يحكمها المال وأهله والناس طاعة لهم ، فخافهم عامة المكيين وانصفقوا عن محمد ؛ إلا من حفظه الله منهم وهم قليل . ومثل تلك السيطرة التى كانت لأولئك الناس على مكة تدل على أنهم كانوا يمارسون سلطاناً منظماً على المدينة وأهلها ، فإنهم بمجرد أن أغروا بمحمد ﷺ من أطاعهم انصفق عنه معظم الناس ولم يبق معه منهم إلا القليل .

وبعد ذلك بفترة ائتمروا فيما بينهم واتفقوا على أن يفتنوا عن الإسلام من تبعه من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم (الفقرة الخامسة) ، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من

تبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام فافتتن من افتتن ، وعصم الله من شاء . مما يدل على أن الإجراء الذى اتخذه أولئك الرؤساء كان إجراءً حاسماً وخطراً على جماعة الإسلام مما اضطر الرسول إلى أن يقرر إنقاذ دين من بقى على الدين بإرسالهم إلى الحبشة (الفقرة ١١) أى : أن رؤساء مكة هؤلاء استطاعوا أن يُخرِجوا من بلدهم معظم الجماعة التى خرجت عن طاعتهم واتبعت ديناً لم يرضوا عنه دون أن يؤدى ذلك إلى انشقاق فى رياسة القبيلة أى الجماعة التى كانت تملك المال والقوة .

وانصياع الناس لما يأمر به هذا النفر يدل على أنهم كانوا سلطة حاكمة فعلاً تمارس سلطاناً قوياً جداً على الناس إذا تعلق الأمر بالأموال والمصالح الرئيسية للجماعة المكية وقد رأوا بذكائهم أن دعوة محمد لم تكن بالدعوة اليسيرة التى يسهل التغلب عليها ، فقد كانت دعوة رفيعة إنسانية تستهوى القلوب يؤيدها قرآن محكم إذا استمع له الإنسان تأثر به ووصل إلى أعماق نفسه ولم يملك إلا أن يقتنع به ، ويتصور لنا هذا فى صورة مفصلة فى حديث إسلام عمر بن الخطاب ، فإذا كانت هذه الرياسة قد تمكنت من أن ترغم معظم من أقنع محمدٌ من أهلهم ورجال قبائلهم على الانصراف عن الإسلام فإن هذا دليل على أن رياسة قريش كانت رياسة فعلية ، فلم يبق مع الرسول إلا القليل ، وحتى هذا القليل خاف عليه رسول الله ولم يأمن عليه من البقاء فى مكة ، فقرر إخراجهم منها لكى يسلموا من الفتنة .

وقد أتيت بهذه الفقرة وقمت بتحليلها لكى أصور بالنص الناطق نوع السلطان الذى كان القرشيون يمارسونه على مكة ، وقوة تماسكهم بعضهم مع بعض ، فلم تنشق صفوفهم أمام هذه الفتنة ، ولم يتزلزلوا بها وإنما الذين زلزلوا كانوا جماعة الإسلام ، ولو كان السبب فيما حدث أمراً يسيراً لكان من المفهوم أن يستطيعوا التغلب عليه والمحافظة على وحدتهم أو جبهتهم ولكن السبب هنا كان قوياً جداً وهو تلك الدعوة الإسلامية الغلابة . وقد ثبتوا لها واستخدموا العنف مع أتباعها كأنهم سلطة حقيقية تستطيع أن تضغط وتعاقب وتُخرج من البلد من لا تريده فيها.

وقد أتيت ببقية نص خطاب عروة إلى عبد الملك بن مروان حتى يرى القارىء كيف كانت الحبشة مجال تجارة واسعة رابحة للقرشيين . يجدون فيها رفاغاً (سعة)

من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً . والحبشة كانت الميدان الذى يحصل منه القرشيون على بضائع أفريقية من زيوت وعاج وجلود وآبنوس وتوابل ورقيق ، فإذا كانت تجارة مكة مع الحبشة بهذا الاتساع فكيف كانت إذن تجارتهم مع اليمن والشام والعراق ؟

والآن وقبل أن نمضى فى تتبع نمو الدعوة وتطور موقف قريش منها نلقى نظرة على سير الدعوة نفسها وتكوين جماعتها الأولى فى هذا الدور من أدوار سيرها .

* * *

رأينا من كلام الزهرى الذى رواه ابن سعد فى طبقاته أن أوائل الذين دخلوا الإسلام كانوا من « أحداث الرجال وضعفاء الناس » وهذه ملاحظة لها أهميتها ، فقد كان أوائل الذين آمنوا بدعوة رسول الله ﷺ يتكونون من ثلاثة أصناف من الناس :

١ - فهناك جماعة ممن يسميهم الزهرى أحداث الرجال ، والمراد الشباب وغالبية هؤلاء كانوا بين الخامسة أو السادسة عشرة والخامسة والعشرين (فيما عدا على بن أبى طالب الذى كان فى العاشرة عندما دخل الإسلام) ومعظم هؤلاء كانوا من أفراد بيوت مكية كريمة ولكنهم كانوا لصغر سنهم يعيشون فى فراغ ، لأن التقاليد المكية كانت تجعل الأهمية كلها للولد الأكبر ، فهو الذى يرث أباه فى المكانة ومعظم المال إذا مات ، أما الابن الثانى ومن يليه فكان يعيش فى سعة وفراغ معاً ، ومن أمثلة هؤلاء الزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعمر بن الخطاب نفسه ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، فكل هؤلاء وغيرهم كثيرون كان لهم إخوة كبار يحجبونهم ، فكان عليهم أن يعيشوا حياة فراغ ، ومعظمهم كانوا ينفقون وقتهم فى الصيد أو ركوب الخيل وما إلى ذلك ، فلما تسامعوا بدعوة الإسلام أعجبتهم ووجدوا فيها ميداناً جديداً ينفقون فيه نشاطهم المعطل ، ولهذا فقد كانت الحركة الإسلامية فى مجموعها حركة شباب أو حركة شابة كما نقول ، ولم يكن فى الجماعة الإسلامية الأولى من يكبر الرسول فى السن إلا عبيدة بن الحارث بن المطلب ، فكان يكبر الرسول بنحو ست سنوات . وكان من بيت المطلب حلفاء بنى عبد المطلب فى كل موقف .

وأما ضعفاء الناس فيراد بهم بعض الأرقاء الموالى وحلفاء بيوت قريش وهؤلاء نعرفهم جيداً ، وأمثلتهم المعروفة لنا : بلال بن رباح الحبشى ، وخباب بن الأرت ، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق .

ويضاف إلى هذين الصنفين صنف الباحثين عن الحق ممن يمكن أن نسميهم «الحنفاء» وإن لم يكونوا جميعاً منهم وأمثلتهم عثمان بن مظعون ، وزيد بن نفيل ، فهؤلاء كان من الطبيعى أن يجدوا فى الدعوة الإسلامية طلبتهم ، فما كادوا يسمعون بها حتى دخلوا فيها ، وبعضهم أراد الإسراف على نفسه بالتبتل ، ولكن الرسول نهاهم عن ذلك ، لأن الإسلام دين اعتدال .

ونلاحظ أن معظم هؤلاء دخلوا الإسلام مع نسائهم ، فزاد بذلك حجم الجماعة الإسلامية وأصبح أعضاؤها طرازاً خاصاً من أهل مكة ما بين قرشيين وغير قرشيين . وفى جماعتهم الجديدة أو حركتهم الجديدة تميزوا بالابتعاد عن الأوثان والتزام الطهارة والصدق والأخوة ومكارم الأخلاق ، وكل هذه أشياء كانت لا تعجب المكيين وبدت لهم غريبة غير مستحبة ، خاصة وأنهم كانوا من كل بيوت قريش ، فما بقى منها بيت إلا وفيه من دخل فى دعوة محمد وانفصل - روحياً على الأقل - عن قومه وأصبح غريباً بينهم ينظر فى إنكار لكل ما كانوا يعيشون عليه وبه ، وهذا أيضاً كان يثير غضب المكيين ، فلم يكن من المريح لأى قرشى وثنى أن يرى ابنه (أو ابنته) يتجه اتجاهاً جديداً فى حياته ويباين قومه ويألف أصحابه الجدد ويجالسهم ويتبع محمداً .

وهذا بالذات كان يغيظ المكيين وخاصة أنداد محمد فى السن والمكانة ، فهؤلاء كان من الطبيعى أن يكونوا أشد الناس إنكاراً له . فهذا ابن عم لهم كان واحداً منهم وقريناً لهم وصاحباً إلى الأمس فما باله يزعم اليوم أن الله اصطفاه واختاره لرسالة تجعله - على الأقل - طرازاً من الناس يختلف عنهم ، إن لم يحسوا أنه يرى نفسه أحسن منهم ، فهو لا يشاركهم أسلوب حياتهم أو لهوهم وينأى بنفسه عنهم ، ويجمع حوله طائفة من الشبان والضعفاء والحلفاء والغرباء ، وقد تصوروا لجهلهم بالدعوة ورفضهم أن يصغوا لها أنه يطلب بذلك مكانة أعلى من مكانتهم ، ولهذا فقد كان

إنكارهم له عداوة فى حين أن ذوى الأسنان من القرشيين من أمثال الوليد بن المغيرة وعتبة وشيبة ابنى ربيعة وأمية بن خلف كانوا أكبر من محمد سناً ، فهم ليسوا جلساءه ولا أنداده .

ولا يتسع المقام هنا لإحصاء من دخلوا الدعوة ومن عادوها فى دورها الأول هذا فالأولون قريبون من الستين أو السبعين رجلاً وامرأة ، وبيانهم نجده - مثلاً - عند النويرى فى نهاية الأرب (١٦/ ١٨٧وما بعدها) وقد ذكرت هذا المرجع المتأخر - زمانـاً - لأنه جماع يحصى مـا وجـده فى الكتب الأولى والتى كتبت بعدهـا ، ومع أننا لا نثق فى أمثال هذه البيانات لأن المسلمين غيَّروا وبدلوا فى أسماء هؤلاء المسلمين الأول التماساً للمكانة والجاه عند الناس ، ولكنك إذا تأملت البيان وجدت أنهم يمثلون كل بيوت قريش ، فليس هناك بيت من قريش البطاح أو قريش الظواهر إلا وكان منه مسلمون ، فكأن الإسلام لم يغادر بيتاً من بيوت المكيين إلا دخله ، مما يدل على أن الدعوة وجدت قبولاً كبيراً عند الناس ، ولم يكن على أحد ضير فى ذلك ، فهى دعوة نبيلة يفوز الإنسان منها بخير كثير دون أن يتعرض لأى ضرر .

ومن كبريات ميزاتها إذ ذاك أنها تجعل للإنسان مكاناً فى جماعة خيرة طاهرة تلتف حول نبى كريم كله فضل وخير ومحبة وحنو على البشر أجمعين وخاصة من استجاب لدعوته . وفى مجتمع مادى تغلب عليه الأنانية مثل المجتمع المكى الذى وصفناه كان الدخول فى الإسلام يرفع الإنسان فى نظر نفسه درجات ويشعره بشخصيته وقيمته ويربطه بخالق الكون سبحانه ويجعله من قراء القرآن وكلامه عذب جميل ومعانيه رفيعة فوق مستوى ما عرفه الناس بكثير ، أى أن الدخول فى الإسلام كان دخولاً إلى عالم جديد أو قل هو هجرة إلى دنيا جديدة ، هجرة إلى الله ورسوله ، وهذا هو سر حماس المسلمين الأُوَل لما دخلوا فيه وتمسكهم واعتزازهم به .

ولم يكن الإسلام قد سُمِّى باسمه بعد ، فكان الناس يدخلون فى دعوة محمد أو فى دين محمد ، أو يتابعونه أو يقولون قوله ، أما القرشيون فكانوا يقولون إن فلاناً قد صبأ أو دخل فى أمر محمد . وإذا أخذنا بما كان محمد ﷺ يجيب به من كانوا يريدون الدخول فى دين الله مثل عتبة بن غزوان المازنى السلمى وجدنا أن الإسلام كان يقتصر على

التصديق بالوحدانية ورسالة محمد ﷺ وترك الأوثان وحقن الدماء وصلة الأرحام[1]. وكانت الصلاة صلاتين ، واحدة فى الصباح والثانية بعد مغيب الشمس يسبق كلاً منهما وضوء أو طهارة.

أما من تصدى لدعوة محمد وعاداه دون داع فهم أنداده فى السن من معظم بطون قريش وعلى رأس هؤلاء أبو الحكم عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى وهو أبو جهل وأبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب والأسود بن عبد يغوث (من بنى زهرة) والحارث بن قيس (من بنى عدى بن كعب بن لؤى وهم رهط عمر بن الخطاب) وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة (من مخزوم) والعاصى بن وائل السهمى والنضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف والعاص بن سعيد بن العاص (من بنى عبد شمس) وعتبة بن أبى معيط (من بنى عبد شمس) ، ويضيف أصحاب السيرة أن معظم هؤلاء لم يكونوا أنداد رسول الله ﷺ فى السن فحسب ، بل كان الكثيرون منهم جيرانه.

وهؤلاء وأمثالهم تصدوا لمحمد والمسلمين بمجرد أن أحسوا أن القرآن يقصد ديانتهم وآباءهم وما كانوا يعبدون ، هؤلاء جعلت عداوتهم للرسول وأصحابه تتزايد حتى لجأ الرسول وجماعته إلى دار الأرقم ، وفى دار الأرقم أسلم مسلمون كثيرون منهم حمزة بن عبد المطلب ، وكان إسلامه فى آخر العام الثالث للبعثة ، وعقب إسلامه تشجع المسلمون وخرجوا من دار ابن الأرقم وأسرعوا إلى منتدى قريش حول الكعبة حيث كبَّروا ودعوا بإسلامهم ، فتجمع عليهم المشركون وضربوهم ضرباً مبرحاً كاد أبو بكر يهلك منه . وعادوا إلى دار الأرقم حتى أسلم عمر أواخر السنة الخامسة للبعثة ، وبإسلام عمر ترك المسلمون دار الأرقم نهائياً وبدأت المواجهة الحاسمة بينهم وبين القرشيين وتحرج الموقف ، وهنا كان مجيء شيوخ قريش من ذوى الأسنان من الطائف ، ويمثلهم الوليد بن المغيرة وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف السهمى ، وهؤلاء هم الذين يشير إليهم خطاب عروة بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان الذى

---

(١) انظر الاستيعاب لابن عبد البر النمرى ١/ ٤٤٣ وأسد الغابة لابن الأثير ٤/ ١٢٠ والنويرى ١٦/ ١٩٢-١٩٣.

عرضنا له بالدراسة والتحليل ، وفيه إشارة إلى نصح الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، فبدأت حركة الهجرة .

وبقى رسول الله فى نفر قليل من المؤمنين وثبت للمحنة ، وهم لم يستطيعوا إيذاءه أو إيذاء حمزة أو أبى بكر أو عمر ومن إليهم لأنهم كانوا ينتمون إلى بطون كبيرة من بطون مكة ذات السلطان والعزوة . وقد أدرك أولئك القرشيون أنهم لو آذوا رسول الله أو واحداً من كبار المسلمين من حوله لحدث صدع فى بنيان قريش ، وهى صاحبة السيادة على البلد ، وكانوا أكيس وأبعد نظراً من أن يحدثوا ذلك الصدع .

ومع أنهم كانوا يستطيعون ترك الأمور على ما هى عليه بعد اضطرار هذا العدد العظيم من المسلمين إلى الخروج من بلدهم ، إلا أن خوفهم على سلطانهم دفعهم إلى محاولة التخلص من ذلك الخطر .

وهكذا يتجلى لنا جانب جديد من سياسات أولئك القرشيين ، فقد وجدوا فى رسول الله ودعوته خطراً حقيقياً لابد من تلافيه فبدأ كبارهم وشيوخهم يتصلون بأبى طالب للتفاهم معه ، فهذا رجل من كبارهم وقد تصوروا أنهم يستطيعون التأثير على محمد عن طريقه بعد أن فشلوا فى محاولتهم الأولى إيقاف دعوة محمد بالعنف لجأوا إلى المفاوضة مع أبى طالب وقد تعودنا أن ننظر إلى أولئك القرشيين على أنهم حفنة من الأغبياء أو الحمقى ، وما أظن أن ذلك يكفى لتفسير أسلوبهم فى العمل ، فإن القرآن نفسه لا يعطيهم هذا الوصف ، وهو لا ينكر عليهم الذكاء أو القدرة ولكنه عزا عنادهم فى المكان الأول إلى أن قلوبهم كانت غلفاً مغلقة دون الدعوة ، لأن الله طبع على قلوبهم وأبصارهم لا ترى الحق لأن عليها غشاوة .

وهذه الغشاوة التى حالت بينهم وبين النظر السليم إلى الإسلام هى النظام العام الذى كانوا هم سادته والمنفردين بكل خيراته وميزاته ، ومادام هذا هو وضعهم فيه فكيف يُسلِّمون بأنه نظام فاسد ينبغى استبدال غيره به ، وإذا كانوا يعتقدون أنهم سادة الناس وأفضل الناس ، فكيف يؤيدون دعوة تقول إن خير الناس هم أتقى الناس لا أغناهم وإن أبا الحكم عمرو بن هشام يتساوى مع خباب بن الأرت ذلك القين الفقير الطارىء على مكة ومجتمعها ، والذى كان إلى دخوله الإسلام يعتبر فى مراتب العبيد والأرقاء .

عندما ننظر إلى الموقف من هذه الزاوية نفهم لماذا نفر أبو جهل ومن معه من دعوة الإسلام ، لقد كان الثمن الذى يتعين عليهم أن يدفعوه أكثر مما يستطيعون أداءه ، نعم أسلم رجال مثل حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ومصعب بن عمير ، ولكن هؤلاء لم يكونوا سادة قومهم ، إنما كانوا سادة فى قومهم والفرق كبير بين الوضعين ، ويتجلى لنا ذلك فى موقف أبى طالب ، فقد كان هذا الرجل يحمى رسول الله ﷺ ويحدب عليه ولكنه كان سيد قومه فلم يستطع التضحية بهذه السيادة ، والسيادة فى هذه الحالة كانت غشاوة على عينيه ، وإذا كان قد رأى شيئاً فى الدعوة المحمدية فهى أنها كانت فى آماله سبيلاً يستعيد لبنى هاشم وبنى عبد المطلب مكانتهم فى المجتمع المكى ويعيد إليهم قوتهم وسلطانهم ، وهنا نجد أن أبا طالب يقف فى نفس الصف مع أبى جهل ، فقد كان أبو جهل لا يشك فى أن الإسلام حيلة من محمد لكى يستعيد بنو هاشم مكانتهم عن طريقها وله فى ذلك كلمة مشهورة ، قال : « تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الرُّكَب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ».

وربما جاز لنا أن نقول هنا إن قريشاً هى التى حالت بين أولئك الناس ودخول الإسلام ، لقد كانت قريش بناء ضخماً عريقاً بناه القرشيون جيلاً بعد جيل ووصلوا بقبيلتهم إلى أن تكون أغنى قبائل الجزيرة وأكثرها تماسكاً وأحسنها بقعة وموطناً ، وبينما كان رؤساء كبريات القبائل من أمثال تميم وغطفان وهوازن شيوخ جماعات بدوية فقيرة إلى حد كبير كان سادات قريش رجالاً على مستوى رفيع من الغنى والمكانة والقوة كانوا يداخلون بطارقة قيصر وأساورة كسرى ونجاشى الحبشة ويتعاملون بألوف الدنانير ثم يطالبهم محمد بأن يتركوا ذلك كله ويدخلوا عقيدة جديدة تنزع عنهم هذا العز كله وتدخلهم فى مغامرة لم يستطيعوا قط أن يدركوا معناها أو مغزاها ، وحتى عندما بسط لهم القرآن الأمر وقرَّبه إلى أفهامهم وخاطبهم بلغة التجار ، وقال على لسان نبيه :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) ﴾ [الصف].

وهذه اللغة الواضحة المنطقية لم يفهموها أو يقبلوها بالذات لأنهم تجار أغنياء وأصحاب سلطان ، فإن تجاراً من طراز تجار قريش فى ذلك العصر لا يبادلون شيئاً مادياً ملموساً هو فى أيديهم بوعد معنوى غير ملموس ليس فى أيديهم ، وأما أهل السياسة والسلطان فلا يتنازلون قط عن سلطان يتمتعون به ، وليست هناك شهوة هى أقوى فى نفوس الرجال من شهوة السلطان والقوة والتسلط على الآخرين .

يئس إذن رسول الله ﷺ من قريش ، ويئست منه قريش ولكن القلق أخذ يساور القرشيين لأن دعوة الإسلام كانت تتسع يوماً بعد يوم ، لأن مكة كانت حافلة بأقوام كانوا فى أشد الحاجة إلى هذه الدعوة فهم مظلومون يطلبون العدل ، وهم ممتهنون يطلبون الكرامة ، وهم فقراء فى حاجة إلى باب من أبواب الأمل يُفتح لهم ، وفيهم الكثيرون ممن كانوا لا يطمئنون إلى الوثنية الغالبة ، فوجدوا فى دعوة الإسلام عقيدة رفيعة تملأ القلب والنفس وتريح قلب الحائر ، وكان فيهم كذلك شباب متطلع يبحث عن طريق للعمل وإظهار المواهب .

ولم يكن أمامهم طريق لذلك فى ظل النظام القائم الذى يجعل للابن الأكبر معظم ميراث أبيه من المال وكل ميراث أبيه من المكانة والأهمية الاجتماعية أو السياسية فى ذلك المجتمع القبلى الروح والنظام كما ذكرنا ، وأمثلتهم عندنا كثيرة أظهرها حمزة بن عبد المطلب وكان من أصغر أولاد عبد المطلب ولا سبيل له إلى مكانة أو قيادة مع عظيم مواهبه ، وعمر بن الخطاب ، كان يحجبه أخوه الأكبر زيد ، فهؤلاء عندما فتح الله قلوبهم للإسلام دخلوا فيه وما لبثوا أن وجدوا فيه المكانة والرسالة التى تجعل لحياتهم معنى وقيمة .

ورأى القرشيون أنهم لو تركوا الأمور تسير على ما كانت تسير عليه فإن الإسلام

سيبتلعهم ابتلاعاً ، فإن الاستعداد للإقبال عليه عظيم ، وأنا أعنى بالقرشيين هنا رؤساء قريش وأصحاب الثروة والسلطان فيها ، وهنا نجدهم يتصرفون تصرفاً قبلياً ، فهم ليسوا حكومة ولا دولة ، وهم لا يملكون - تبعاً لذلك - أدوات للسلطة من مثل شرطة أو أداة تنفيذية أو عسكر قائم ، وإنما كانت قوتهم فى تسيير أمورهم الداخلية فى النظام القبلى وما له من تقاليد هى فى ذاتها تقوم مقام الهيئات التنفيذية القائمة فى نظم الدول ، وكان هذا النظام - مثله فى ذلك مثل الدستور الإنجليزى - يقوم على ضوابط وموازنات Checks and balances تعمل بطريقة عرفية فى ذلك المجتمع القبلى تحافظ على سلامته وأمنه .

فلننظر هنا كيف واجه الرؤساء المكيون مشكلة خطر الدعوة المحمدية ، فهم من ناحية ضغطوا على من استطاعوا الضغط عليه من أفراد الجماعة الإسلامية حتى أخافوهم أو « زلزلوهم » كما تقول النصوص ، فافتتن منهم من افتتن وبقى من عصم الله وهم قليل ، وبعد أن «أخرجوا » من بلدهم عدداً من المسلمين وهم الذين هاجروا إلى الحبشة اتجهوا إلى معالجة موضوع محمد نفسه عن طريق عمه ورئيس قبيلته وحاميه أبى طالب ، وهنا نجد تصرفهم يسير وفق منطق واضح يقوم على تفكير سليم .

وهنا نورد نصاً عظيم القيمة لابن إسحاق ، ونلاحظ هنا أنه أخذ فقرات من خطاب عروة بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان دون أن يشير إليه قال :

١-« فلما نادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه - فيما بلغنى - حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته ، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل مستَخْفُون » .

٢- وحدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه .

٣- ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله ، مظهراً لأمره لا يرده عنه شىء .

٤- فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يُعْتِبُهم (يستمع لعتبهم ويستجيب له) من شىء أنكروا عليه من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب

عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب : عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ، وأبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر .

قال ابن إسحق ، وأبو البخترى واسمه العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى . قال ابن هشام : أبو البخترى : العاص بن هشام .

قال ابن إسحق : والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى .

وأبو جهل واسمه عمرو ، وكان يكنى أبا الحكم بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى ، والوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى .

ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب بن لؤى .

والعاص بن وائل .

قال ابن هشام : العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى .

قال ابن إسحاق : أو من مشى منهم .

ثم يأتينا ابن إسحق بحديث اللقاء الأول بين ممثلى قريش هؤلاء - وليس فيهم من الهاشميين إلا أبو لهب - وبين أبى طالب ، وستكون لهم معه ثلاثة لقاءات أخرى قبل أن تقع القطيعة بينهم وبينه . وكل لقاء من هذه الأربعة يعنى مرحلة من مراحل الحوار بين قريش وأبى طالب له محور يدور حوله ، أى أن قريشاً كانت تتقدم إلى أبى طالب بعرض وتناقشه فيه ، فإذا لم تفلح انصرفت وفكرت فى محور آخر أو عرض جديد تعرضه على أبى طالب ، وهكذا حتى أصبحت اللقاءات والعروض أربعة ،

فلما يئست قريش من أبى طالب لجأت إلى العنف ، وهذا مسلك ناس عقلاء يواجهون مشكلة ويحاولون أن يجدوا لها حلاً . وهذا الأسلوب فى البحث عن حل عن طريق التفاهم والحوار يكشف لنا عن عقلية القرشيين وطريقتهم فى العمل ، وهى طريقة بعيدة جداً عن الحمق والغباء .

وقد أوردت أسماء الرجال الذين مشوا إلى أبى طالب يكلمونه ليتبين القارىء خلفياتهم القبلية ومراكزهم الاجتماعية ، والآن ننظر فى هذا اللقاء الأول لنرى ماذا كان فيه .

٥ - « فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سَبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه . فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردَّهم رداً جميلاً . فانصرفوا عنه »

ونلاحظ هنا أن وفد قريش الذى ذهب للقاء أبى طالب يمثل طبقاتهم جميعاً : الشيوخ والكهول والشباب ، ولكن ليس فيهم واحد من السفهاء من أمثال عقبة بن أبى معيط أو النضر بن الحارث بن كلدة ومن إليهم . وابن إسحاق يحرص على أن يرينا أنهم كلهم يرجعون إلى لؤى بن غالب بن فهر أى : من صميم عمود قريش ، وهو عمود النسب النبوى .

وهم فى كلامهم مع أبى طالب يتحدثون فى رزانة وحكمة ، وهم يخيرونه بين أن يكفه عنهم أو يتولوا هم الأمر بأنفسهم ، ويُذكّرونه بأنه مثلهم : « فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه » .

ولا شك فى أن هذا اللقاء سَرَّ أبا طالب ، فقد رأى نفسه موضع اهتمام كل القرشيين وخاصة زعماء البيوت المنافسة التى كانت قد غصبت الرياسة القبلية فى مكة وما دام أبو طالب على مثل موقفهم من الإسلام أى لم يتابع محمداً فيما يدعو إليه فهو حرى بأن يستجيب لهم .

ولم يفعل أبو طالب شيئاً ، وفى نفس الوقت زادت دعوة الإسلام انتشاراً ووضح

الخلاف بين أهل مكة حول دعوة محمد ﷺ وأصبحت المشكلة تهدد وحدة قريش ، قال ابن إسحاق : « ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه . ثم سرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا وأكثرت قريش من ذكر رسول الله ﷺ بينها ، فتذامروا فيه ، وحض بعضهم بعضاً عليه » .

وهنا وأمام هذه الفتنة نجد زعماء قريش يقصدون أبا طالب مرة أخرى ، وهذا هو اللقاء الثانى بينه وبينهم ولكنهم الآن لا يحدثونه على أنه واحد منهم بل هم يخاطبونه مخاطبتهم لرجل يوشك أن يصبح خصماً لهم ، فهم يهددونه وينذرونه ولكنهم مع ذلك يَدَعون له التصرف قبل أن يقدموا على شىء : « يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو تنازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ، أو كما قالوا له ، ثم انصرفوا عنه ، فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يَطِبْ نفساً بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه » .

وهنا نرى أبا طالب فى موقف عسير ، فهو من ناحية يرى أن قومه يهددونه ويخيرونه بين أن يستعمل سلطانه على محمد فيكفه عنهم أو يحاربون حتى يهلك أحد الفريقين .

وأبو طالب يرى أنه إذا أصر على تأييد محمد فإن قريشاً ستعلن عليه الحرب ، وهو يشعر أنه لا يستطيع الثبات لهم ، ثم إنه لا يريد أن يفقد مكانته فى قريش أو فى بنى هاشم ، ومعظمهم متعاطفون مع محمد ، ويتجلى موقفه من الكلام الذى قاله لمحمد ﷺ عندما استدعاه ليتحدث معه بعد أن هددته قريش : « إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا ، للذى كانوا قالوا له ، فأبق علىّ وعلى نفسك ، لا تحملنى من الأمر ما لا أطيق » . وإلى هنا ولم يكن أبو طالب يدرك معنى الرسالة المحمدية ولا هو أدرك أن ابن أخيه يبشر بدين جديد ، وأنه مستعد للتضحية بنفسه فى سبيل رسالته ، وهذا هو الذى قاله محمد ﷺ فى رده المشهور على عمه : «يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» ثم يقول ابن إسحاق : «فاستعبر رسول الله ﷺ ، فبكى ، ثم قام ،

فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا ابن أخى، فأقبل عليه، فقال : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً » .

وهنا أدرك أبو طالب أن الأمر وصل بينه وبين بقية قريش إلى حد ليس بعده إلا المواجهة بالعنف ، وبالفعل بدأ خصوم محمد فى إيذاء من يستطيعون إيذاءه ممن بقى فى مكة من أصحاب محمد ، قال ابن إسحاق : « فحقب الأمر وتنابذ القوم وعادى بعضهم بعضاً ، قال : ثم إن قريشاً تذمروا بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يضربونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله تعالى منهم رسوله بعمه أبى طالب » .

ووجد أبو طالب أنه فى حاجة إلى عون عشيرته من بنى هاشم وأراد أن يستوثق من نصرهم إياه ، قال ابن إسحاق : « وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً يصنعون فى بنى هاشم وبنى المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه إلا ما كان من أبى لهب » .

وإذن فقد حدث ما كانت قريش تخشاه ووقع شرخ خطير فى بنائها وقيادتها ووقف بنو هاشم وبنو المطلب ، وهم من سادتهم - بقيادة واحد من كبار قادتهم وهو أبو طالب ، وقفوا معادين لبقية قريش وقادتها .

وآرنولد توينبى يقول : إن الجماعات والدول تأخذ فى التصدع عندما يقع كسر فى الرأس أى فى الصفوة القائدة أو بحسب تعبير a breach in the leadership وهو يضرب الأمثلة لذلك من تاريخ الرومان مثلاً عندما انقسمت الصفوة القائدة على نفسها ووقع الصراع بين الأخوين جراكوس وبقية قيادة الرومان ، ووقعت الحروب بين ماريوس وسولا ، وبين قيصر وبومبى وبين أوكتافيوس وأنطونيوس . هنا حدث الصدع العميق الذى وضع حداً للجمهورية الرومانية وقيام الامبراطورية الرومانية وتحكّم الفرد الواحد imperator فى شئون الدولة ، وهذه هى البداية الحقيقية لتصدع دولة الرومان وتدهورها .

وهذا هو ما أحست به قريش وأرادت أن تتلافاه بهذه اللقاءات ، وقد فصّلنا

الكلام فى واحد منها ، فلنكمل الكلام عن اللقاءين الباقيين . ماذا تم فيهما ؟ ونقرأ من خلالهما أفكار قريش ونتعرف موقفها من الإسلام وكيف كانت نظرتها إليه .

واللقاء الثالث لم يكن بين أبى طالب وقريش بل بينها وبين محمد نفسه ، ويبدو أن قريشاً عندما وجدت أن أبا طالب لا يستطيع عمل شىء أو هو لا يريد أن يعمل . فكر الوليد بن المغيرة المخزومى - وكان من أجلاء القرشيين وأصحاب السن والرأى منهم - أن يخلو بمحمد ﷺ ويكلمه فى رفق لعله ينتهى معه إلى حل يتراضى عليه الناس . وكان الوليد شيخاً ذا مكانة عالية وكان لا يخلو من خبث . وكان يرجو أن يجد طريقاً ينفذ به إلى نفس محمد ، وهو لم يفكر قبل ذلك فى أن يروى أمر محمد فيما بينه وبين نفسه أو يصغى إلى القرآن ويسمع من محمد ما يقول ، فلعل ذلك يعينه على الاقتراب منه ودعوته وفهمها ، فإن هى أعجبته دخل فيها وإلا كان له شأن آخر ، ولكنه ذهب ليكلم محمداً بعقليته الجاهلية وبمنطق أمثاله من سروات المكيين الذين يحسبون أن كل شىء تجارة أو مال أو أشياء مادية .

وخبر هذا اللقاء يرويه ابن إسحاق ويجعله بعد إسلام حمزة ، أى أنه كان على حسابنا - خلال السنة الثالثة للبعثة وقبل هجرة المسلمين إلى الحبشة، وكان محمد إلى الحين يدعو فى دار الأرقم - وفترة دار الأرقم على قِصَرها ، فهى لم تزد على ثلاث سنوات - كانت من أبرك أدوار الفترة المكية ، لأن دخول الرسول إياها ودعوته ولقاءه أصحابه فيها شجع الكثيرين على الدخول فى الدعوة ، فقد كانت أمامهم الفرصة ليجتمعوا برسول الله ﷺ آمنين خالين به فيسمعون منه القرآن ويصغون إلى كلامه ويستفسرون منه عما يريدون ويحسون بذلك المناخ العائلى الإنسانى الذى كان يشمل هذه الجماعة ورسول الله فى وسطها أباً حانياً ورسولاً هادياً وقلباً كبيراً عظيماً يُحدِّث الناس جميعاً فى رفق وأناة ، وكان من أجمل الناس هيئة وأبهاهم طلعة وأحرصهم على حسن مظهره ونظافة ثيابه ، هذا إلى لين جانب ومودة وحدب على الناس ورغبة فى مساعدتهم على حل مشاكلهم ، وهذا طراز من حياة اجتماعية لم يألفها العرب أو يعرفوها ، فازداد الناس إقبالاً على الإسلام ليصبحوا أعضاء فى تلك الحياة الجديدة ثم للدخول فى الإسلام والفوز بنعمته .

ولم يحاول الوليد بن المغيرة وأضرابه قط أن يعرفوا الدين الذى يدعو إليه محمد والمجتمع الذى ينشأ عن الإيمان بهذا الدين ، وإنما هو صم أذنيه عن القرآن وأغلق عينيه عما كان يستطيع أن يرى ، ولهذا فقد كان مدخله فى الحديث مع محمد مدخلاً جاهلياً يعارض كل المعارضة ما يدعو إليه رسول الله .

فقد وجد الوليد بن المغيرة هذا محمداً فى مجلس قريش متنحياً بنفسه عن الكعبة فاقترح على من كان حوله من القرشيين أن يقوم إلى محمد فيعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضاً منها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا . فأقروه على رأيه ومضى ليكلم محمداً ، فلما جلس إليه كان كلامه معه جاهلياً أو قل قرشياً صرفاً فهو لا يحاول أن يفهم شيئاً مما يدعو إليه ، وإنما بدأ – فى رفق طبعاً – فذكَّره بما فعل بقومه – فى رأيه – « وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم : فرَّقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفَّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضاً ، قال : قل يا أبا الوليد ، أسمع » .

وهنا يبدأ فيعرض على محمد السيادة فيهم « حتى لا نقطع أمراً دونك » أو المال حتى يكون أكثرهم مالاً . والنص يقول إنه عرض عليه الملك ، وهذا مستبعد فإن قريشاً لم تكن تقبل الملك أو ترضاه وبعد ذلك يعرض عليه أمراً مهيناً حقاً يدل على أنه كان أبعد الناس عن فهم محمد : «وإن كان هذا الذى يأتيك رئيّاً تراه لا تستطيع ردَّه من نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نعالجك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . أو كما قال[1]. فاستمع له رسول الله هادئاً مستجمعاً نفسه ثم قال له : فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : افعل » ثم قرأ رسول الله ﷺ أول سورة فُصِّلَت وهى الثانية والسبعون فى ترتيب النزول والحادية والأربعون فى ترتيب المصحف : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ ﴾ [فصلت] .

ومع أننا نعلم أن مطلع هذه السورة كان نزوله فيما بعد الفترة التى نؤرخ لها الآن

(١) ابن إسحاق برواية ابن هشام ١/ ٣١٤ .

إلا أنها تصور تماماً المعانى التى لابد أن يكون رسـول الله قـد ألقاها إلى الوليد بن المغيرة ، ذلك السيد القرشى الذى كان ينتمى إلى ذروة ما كان العرب يسمونه بالشرف أى علو المنزلة فى الجماعة ، وهذه المعانى كانت غائبة تماماً عن ذهنه ، وعندما تلا عليه رسول الله ﷺ ماثلاً من الآيات كانت تلك فيها نرى من النص أول مرة يستمع فيها الرجل إلى آيات من القرآن ملياً فأدرك معناها ومغزاها وأثّرت فى نفسه ، وأدرك أنه لا يُحدِّث رجلاً طالب مال أو سيادة أو نساء أو متاع أو رجلاً مريضاً ، وإنما هو رجل فى الغاية من العقل وسلامة الحواس واستجماع الرأى ، والمعانى التى فهمها مـن معانى القـرآن – وهى لا تخرج عن معانى فاتحـة سورة فصلت التى أتينا بها – كان لها وقع عظيم فى نفسـه . فلم يـرد على محمـد كلامـاً ، وعاد إلى قومـه متغير الوجه ، ولاحظ قومه ذلك .

ولكن نتيجة لقائه مع محمد ﷺ تدل دلالة واضحة على أن هذا الرجل وأضرابه لم يكن لديهم أى استعداد للدخول فى دعوة محمد ، وأقصى ما كانوا مستعدين له هو مهادنة الحركة الإسلاميـة أو عدم التعرض لها ، قال : « ورائى أنى سمعت قـولاً والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ! أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه . فاعتزلوه فو الله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم . فإن تصبه العرب فقد كُفيتُمُوه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعِزُّه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به !».

فقالوا : سحرك والله يا أبا الوليد ، قال: « هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم[1]».

وهذه مقالة رجل أنانى مادى جامد القلب ، فهو قد عرف الآن أن محمداً ليس بساحر ولا كاهن ولا مسحور ولا طالب مُلْك أو جاه أو متاع . وإنما هو رجل يطلب ما هو أرفع من ذلك وأسمى : إنه صاحب رسالة عظمى . وبدلاً من أن يحاول أن يزداد علماً بها وربما دخل فيها فهو ينصح قومه بأن يدعوا محمداً وشأنه فإذا دخل العرب فى دعوته أفادوا هم من ذلك لأنهم قومه ، وإذا قضى العرب عليه كفاهم ذلك مشقة الصراع معه .

---

(١)ابن إسحاق برواية ابن هشام ١/ ٣١٤ .

وخبر هذا اللقاء الثالث بين قيادة قريش المعارضة للإسلام والإسلام إما مباشرة مع محمد ﷺ أو غير مباشرة عن طريق أبى طالب ، تكشف لنا عن طبيعة القرشيين وخبثهم والأنانية والحرص على أنفسهم وقبيلتهم ومراكزهم فيها بالتالى ، فهم لا يريدون أن يتنازلوا عن شىء ولكنهم يريدون كسب كل شىء بل نفهم من كلام هذا الرجل أنه لا يريد أن يستغل محمداً والإسلام لما فيه خيره وخير نظامه الاجتماعى . والغريب أن شيئاً من هذا سيحدث بعد الإسلام عندما استعملت قريش أمة الإسلام لخيرهم .

والاجتماع الرابع كان بين محمد ﷺ وملأ قريش . وهو فيما يبدو اللقاء الأخير بين الجانبين قبل أن تكون القطيعة . وقد روى لنا خبر هذا اللقاء ابن إسحاق ورواه لنا ابن هشام فى السيرة[1].

وقبل أن يروى لنا ابن إسحاق نبأ هذا اللقاء يقول إن الإسلام « جعل يفشو بمكة فى قبائل قريش فى الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين ثم اجتمعت أشراف قريش من كل قبيلة كما روى عن سعيد بن جبير وابن عباس ، قالا ... » .

ويُفهم من هذا الكلام أن محمداً والإسلام أصبحا محور الاهتمام والكلام كله فى مكة ، فقد كانت اللقاءات التى ذكرناها تزيد من تنبيه الناس للإسلام فلا يكاد الواحد منهم يستمع لكلام رسول الله حتى يدخل فيه ، وقد كان الأمر أولاً أمر جماعة صغيرة تمارس عباداتها واجتماعاتها فيما بينها ، أما الآن فقد اتسع النطاق وتحول الأمر بالنسبة للقرشيين من مجرد حركة محدودة لا يستريح إليها القرشيون ولكنهم لا يخشونها إلى حركة واسعة النطاق تشمل الآن مئات الناس . فمعظم بيوت مكة فيها إسلام وفيها قرآن ، والدعوة التى ينادى بها محمد يتسع مداها وتصل إلى معظم الناس فيجدون فيها جاذبية ويحسون نحوها بميل ، والكثيرون منهم يدخلون فى الدعوة وسادات قريش يرون هذا كله بعين الجزع والخوف ، فالحركة الجديدة تزرى بهم وبأديانهم وآلهتهم وآرائهم وتسفه أحلامهم وأحلام آبائهم ، ومعنى هذا أن الزمام يفلت من أيديهم .

---

(١) ابن هشام ، السيرة ١/ ٣١٥ وما بعدها .

ثم إن الأمر الآن يتعلق بأديانهم وبيوتهم وأحسابهم ، وتحول بذلك إلى خطر حقيقى عليهم ، وعلى ثرواتهم ومراكزهم وقد بذلوا ما استطاعوا مع أبى طالب ثم مع محمد ، ولم يبق أمامهم إلا القيام بعمل حاسم ، ولكنهم بعد أن تشاوروا فى الأمر رأوا أن يتصلوا جماعة بمحمد ويتحدثوا معه فى الأمر ملياً ، فيحاولوا أن يعرضوا عليه الصلح ، فى مقابل عرض مادى فإذا لم يسمع تحدَّوْه - فى ظنهم - فى صميم الرسالة الإلهية والدعوة التى يبشر وينذر بها وأعجزوه وقامت عليه بذلك الحجة الفاصلة . وأحسن القوم التدبير فيما ظنوا ، ودعوا محمداً إلى المناقشة بعد غروب يوم من تلك الأيام غير بعيد من الكعبة .

وكان المجتمعون يمثلون كل طوائف الجبهة القرشية ، ففيهم المعتدل الذكى البعيد النظر عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابن عمهما أبو سفيان تِرْب محمد وابن جيله - وكان إلى الآن يقف فى الصفوف الخلفية للمعارضة إذ إن دوره لم يكن قد حان بعد - وكان فيهم الخصم الصريح العنيد أبو جهل ، وكان هناك نفر من الجماعة التى يسميها أصحاب السيرة « المؤذين » ومثالهم زمعة بن الأسود ونُبيه ومنبِّه ابنا الحجاج السهميان ، وحضر محمد ﷺ مبادراً فما كان يحيد عن أى لقاء ، وهنا تحدوه وقالوا له ما معناه إن كنت نبياً حقاً فإننا مستعدون بالتسليم لك إذا أتيتنا بدليل مما كان الله يؤيد به الأنبياء قبلك. نريدك أن تأتينا الساعة بمعجزة ، بشىء يؤكد ما تقول من أن الله معك ومؤيدك وناصرك ، والذى طلبوه منه وارد بأبلغ بيان فى الآيات ٨١ - ٩٣ من سورة الإسراء التى أنزلت بعد ذلك بسنوات ، ومعظم آيات هذه السورة تصوير للجدل المجهد والتعبير السيىء والتهديد الخطر الذى كان يواجه الرسول صلوات الله عليه وهو صامد وحيد تقريباً أمام تلك العصبية العنيدة القوية من كفار قريش الذين تصدوا - فى تصورهم - لحماية مجتمعهم من الخطر الذى تمثَّل لهم فى محمد ﷺ ودعوته .

قال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٨٩) وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ

لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾ [الإسراء] .

وقد تصوروا أنهم بهذا التحدى المتوالى والمتصاعد فى تعجيز محمد ﷺ أنهم واضعوه فى حرج لا مخرج له منه ، وهم فى موقفهم هذا ومن قاعدتهم الوثنية على حق ، فإن النبى تؤيده معجزات ربه لكى يرى خصومه أن ربه ميَّزه وأيده ومنحه من قدرته شيئاً يقنع المكابر . وغاب عنهم أن عصر رسل المعجزات قد انتهى بمعجزات عيسى ، وإذا كانت معجزات عيسى بن مريم لم تفلح فى دفع الناس جميعاً فى طريق الهداية فلماذا تتكرر ؟ لأن المعجزة ربما أقنعت من يراها تحدث أمام عينيه فما بال من لم يرها ؟ أيظل الله سبحانه يرسل أنبياء بمعجزات لإقناع كل إنسان على وجه الأرض وكل جيل من أجيال البشر ؟

لقد فعلت الكاثوليكية هذا واضطرهم الأمر فى النهاية إلى القول بعقيدة استمرار المعجزات ، زعموا أن القديسين يأتون بمعجزات وأن الكنيسة هى التى ينبغى أن تحكم فى أمر ما يُدَّعى من معجزات فإذا أقرت مجالسها ذلك فالمعجزة قد وقعت وصاحبها قديس ولو كان صبية ساذجة مثل برناديت التى قالت إن مريم العذراء ظهرت لها وهى عند نبع الماء عند قرية لورد فى جنوب فرنسا . والمجلس الكنسى أيد صحة ما قالته الصبية وجعلوها قديسة ، وقرية لورد أصبحت مزاراً مسيحياً ، أما الإسلام فقد وقف الموقف الحاسم المعقول من هذا الأمر كله ، وإذا كان لابد من معجزة لإقناع البشر فهذا هو القرآن معجزة محمد ومعجزة الإسلام المتجدد على مر العصور ، فإن كان هناك من يريد أن يُكذِّب بها فليأت بمثلها ، ومحمد لن يأتى بمعجزة مما طلبوا وفى يده بينة القرآن ، ولهذا فإن تمام هذه الآيات يقرر هذا المعنى :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ

خَبِيراً بَصِيراً ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِه وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴿٩٧﴾ ﴾ [الإسراء] .

ورواية ابن إسحاق تقول إن ملأ قريش هذا طلبوا إلى محمد معجزات وبينات أخرى ، وليس من الضرورى أن يكون هذا كله قد وقع فى هذا المجلس لأن التحدى والجدل لم يسكن قط بين محمد وخصومه خلال تلك المرحلة فقد طلبوا منه مثلاً أن يسأل ربه أن يبعث من الموت رجلاً من كبار أجدادهم مثل قصى بن كلاب «فإن كان شيخ صِدق ، فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل ، فإن صدقوك وصنعت لنا ما سألناك عرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول ! فقال رسول الله ﷺ ، ما بهذا بعثتُ إليكم. وإنما جئتكم من الله بما بعثنى به ، وقد بلغتكم ما أُرسِلْت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عَلَيّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم ... »[1] .

وهذا الكلام من رسول الله وضع نهاية للحديث ، لأنه لم يأتهم بما طلبوا منه فهو إذن بمنطقهم الوثنى ليس بنبى . فهو كما قالوا لا يفضلهم فى شىء ، فهو يقوم بالأسواق كما يقومون ويلتمس المعاش كما يلتمسون ، فكيف يعرفون منزلته من ربه إن كان رسولاً كما يزعم ؟ ويقوم محمد آسفاً فيتبعه عبد الله بن أمية بن المغيرة بن خلف الجمحى وهو من أترابه فى السن ويقول له إن قومه أنصفوه فلم ينصفهم ، وطلبوا إليه أن يأتيهم ببينة على أنه نبى فلم يأتهم وهم لهذا لن يصدقوه أبداً وهذا فصل الخطاب بينهم، وقد قال هذا الكلام لرسول الله فى لهجة بالغة الكراهة والحقد كأن قلبه كان بالفعل يتلظى غيظاً من محمد وكراهة له ، ولو أنه أتاهم بكل معجزات الدنيا لما صدَّقوا.

وانتهى كل حوار بين محمد ﷺ وخصومه ، فقد أيقنوا - فيما بدا لهم - أنهم على حق فى رفضهم دعوته وإبائهم الدخول فيها ، ولم يبق بعد هذا إلا الخصومة الصريحة والعداء فى غير هوادة.

---

(١) انظر خبر ابن إسحاق كله عند ابن هشام . السيرة ١/ ٣١٥ وما بعدها .

والمتأمل لكل هذا الحوار الطويل الذى تم على أربع مراحل ولابد أنه استغرق شهوراً يرى أن أولئك المكيين كانوا بالفعل جبهة واحدة فيما يتصل بالدفاع عن مصالحهم .

وهم يتصرفون فى عقل وروية وفى نظام أيضاً ، فهم يجتهدون فى تلافى الصراع الصريح بالحوار والأخذ والرد ، وهم ينتقلون من مرحلة من مراحل الحوار إلى الأخرى انتقالاً منطقياً متمسكين برأيهم مثابرين عليه كأنهم رجال دولة يدافعون عن مصالحهم . وفى أثناء كلامهم مع محمد ﷺ كان اضطهادهم للأصاغر والمستضعفين من أصحابه مستمراً ، وهم بهذا يمارسون ضغطاً على محمد حتى يلين معهم ، وأهل الصَّغار والحمق منهم وفيهم رجال مثل عقبة بن أبى معيط والأسود بن عبد يغوث يؤذون النبى بدنىء الأفاعيل من مثل إلقاء الوقر أمام بيته أو إلقاء سلاء الشاة عليه وهو يصلى فى حين أن المستهزئين من أمثال النضر بن الحارث بن كلدة يستهزئون به ويمسك النضر بعظم بالٍ ويفركه ويقول ساخراً : يزعم محمد أن ربه يحيى العظام وهى رميم ، وكل هذه أساليب من الضغط والتيئيس والتهوين لا تخفى أهميتها وآثارها على رجل غير محمد .

فكأن قريشاً جندت كل قواها لمحاربة هذه الدعوة التى رفضتها تماماً ، وهى فى هذا تعطينا مثالاً من ظاهرة الرفض الاجتماعى Social rejection وهى رفض المجتمع لكل ما تحس أنه غريب عليها ضار بنسيجه ، وليس من الضرورى أن يرفض الجسم ما يضره مما يحس أنه غريب عن كيانه فقط بل هو يرفض ما ينفعه أيضاً ، كما يرفض الجسم الكلية السليمة التى تُزرع فيه ويهاجمها ويقتلها وفيها حياته . وهذا ما كانت قريش تفعله الآن : كانت تهاجم الإسلام وتلفظه وهو حياة لها، ولكن الإسلام فى نفس الوقت كان لا يقنع بأقل من تغيير نظامها كله وعقليتها كلها ويبنى مكان ذلك نظاماً جديداً وعقلية جديدة . وهذا كان عند القرشيين مستحيل القبول .

حصَار بنى هَاشِم وَبَنى المطّلب فى الشِّعب :

يئست قريش إذن من التأثير على محمد ﷺ وكفِّه عما كان سادراً فيه بالمناقشة فلم يبق أمامها إلا العنف . وقد لاحظنا أن أهم ما كانت تحرص عليه قريش هو ألا

يتصدع بنيانها بحرب دامية بين بنى هاشم وأنصارهم وهم المطيبون وبقية قريش ، ولهذا فقد رأوا أن خطوة جديدة هى دون الحرب ولكنها خطوة خطيرة : مقاطعة بنى هاشم ومحاصرتهم فى شِعْبهم أى حَيِّهم .

فقد اجتمع رؤساء قريش فى ناديهم وقرروا حصر بنى هاشم وبنى المطلب فى شِعْبهم أى حيهم من مكة ، وقرروا مقاطعتهم اجتماعياً واقتصادياً ، وقاموا هم بأنفسهم بتنفيذ ذلك القرار ، ونفذوه بالفعل بإحكام وفاعلية هما أقوى وأفعل من المحاكمة والسجن والبطش ، والخبر مشهور نعرفه برواية ابن إسحاق ولكن ابن سيد الناس فى (عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسِّير) يرويه بصورة أكمل برواية ابن إسحاق وموسى بن عقبة معاً[1]، قال :

١- ثم إن كفار قريش أجمعوا أمرهم واتفق رأيهم على قتل رسول الله ﷺ وقالوا : قد أفسد أبناءنا ونساءنا فقالوا لقومه : خذوا منا دية مضاعفة ويقتله رجل من غير قريش أو تريحوننا وتريحون أنفسكم ، فأبى قومه بنو هاشم ذلك ، فظاهرهم بنو عبد المطلب بن هاشم .

٢- فأجمع المشركون من قريش على منابذتهم ، وإخراجهم من مكة إلى الشِّعْب .

٣- فلما دخلوا إلى الشعب أمر رسول الله ﷺ من كان بمكة من المؤمنين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة . وكان (كذا) متجراً لقريش فكان يثنى على النجاشى بأنه لا يُظلم عنده أحد .

فانطلق إليها عامة من آمن بالله ورسوله .

٤- ودخل بنو هاشم وبنو المطلب شِعْبهم مؤمنهم وكافرهم ، فالمؤمن ديناً ، والكافر حمية .

٥- فلما عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد منعه قومه أجمعوا على ألا يبايعوهم ، ولا

---

(١) كان محمد بن إسحاق بن يسار المسيبى المطلبى يرى نفسه أصدق رواة السيرة ويقول : أنا بيطار السيرة ولكن مالك بن أنس ومن تبعه من الفقهاء كذبوه واتهموه بالتدليس وقالوا إن موسى بن عقبة هوشيخ المغازى . أما ابن سيد الناس فهو فقيه أندلسى الأصل مصرى المولد و السكن والحياة واسمه محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس . توفى فى القاهرة سنة ٧٣٤ هجرية وهو من أعاظم علماء القرن الثامن الهجرى فى العالم الإسلامى كله .

يُدْخِلوا إليهم شيئاً من الرَّفق ، وقطعوا عنهم الأسواق ، ولم يتركوا لا طعاماً ولا إداماً ولا بيعاً إلا بادروا إليه واشتروه دونهم .

٦- ولا يناكحوهم .

٧- ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل .

٨- وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها على الكعبة .

٩- وتمادوا على العمل بما فيها من ذلك ثلاث سنين .

١٠- فاشتد البلاء على بنى هاشم فى شِعْبهم وعلى كل من معهم .

١١ - فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم قوم من قصى مِمَّن ولدتهم بنو هاشم ومن سواهم ، فأجمعوا أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة (منه) .

١٢- وبعث الله على صحيفتهم الأرضة فأكلت ولحست ما فى الصحيفة من ميثاق وعهد .

١٣- وكان أبو طالب فى طول مدتهم فى الشِّعْب يأتى رسول الله ﷺ فيأتى فراشه كل ليلة حتى يراه كل من أراد به شراً أو غائلة ، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بنى عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ ، وأمر رسول الله ﷺ أن يأتى بعض فرشهم فيرقد عليها .

١٤- فلم يزالوا فى الشِّعْب على ذلك إلى تمام ثلاث سنين .

١٥- ولم تترك الأرضة فى الصحيفة اسماً لله عز وجل إلا لحسته ، وبقى ما فيها من شرك أو ظلم أو قطيعة رحم .

١٦- فأطلع الله رسوله على ذلك ، فذكر رسول الله ﷺذلك لأبى طالب ، فقال أبو طالب : لا والثواقب ما كذبتنى .

١٧- فانطلق فى عصابة من بنى عبد المطلب حتى أتوا المسجد وهم خائفون لقريش .

١٨- فلما رأتهم قريش فى جماعة أنكروا ذلك ، وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ليسلموا رسول الله ﷺ برمته إلى قريش .

١٩- فتكلم أبو طالب فقال : قد جرت أمور بيننا وبينكم نذكرها لكم ، فأتوا بصحيفتكم التى فيها مواقفكم فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح .

٢٠- وإنما قال ذلك أبو طالب خشية أن ينظروا فى الصحيفة قبل أن يأتوا بها .

٢١- فأتوا بصحيفتهم معجبين ، لا يشكون أن رسول الله ﷺ يُدفع إليهم فوضعوها بينهم ، وقالوا لأبى طالب : قد آن لكم أن ترجعوا عما أحدثتم علينا وعلى أنفسكم .

٢٢- فقال أبو طالب : إنما أتيتكم فى أمر هو نَصَفٌ بيننا وبينكم: إن ابن أخى أخبرنى - ولم يكذبنى -أن هذه الصحيفة التى فى أيديكم قد بعث الله عليها دابة فلم تترك له فيها اسماً إلا لحسته ، وتركت فيها غَدْرَكم وتظاهركم علينا بالظلم ، فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا : فلا والله لا نموت حتى نسلمه من عند آخرنا ، وإن كان الذى يقول باطلاً دفعنا إليكم صاحبنا فقتلتم أو استحييتم .

٢٣- فقالوا : قد رضينا بالذى تقول . ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق والمصدوق ﷺ قد أَخْبَر بخَبَرِها قبل أن تُفتَح .

٢٤- فلما رأت قريش صدق ما جاء به أبو طالب عن النبى ﷺ قالوا : هذا سحر ابن أخيك . وزادهم ذلك بغياً وعدواناً » .

وتلى هذا الخبر رواية أخرى للجزء الأخير منها لا يختلف عما أوردناه إلا فى قليل . وإنما أوردت هذا الخبر مقسماً إلى فقرات ليسهل علينا تحليله واستخراج كل ما فيه من الحقائق والمعانى التاريخية . وهذا التقسيم فى ذاته جزء من التحليل أو هو الخطوة الأولى منه . والنصوص التى بين أيدينا مادة خامة - وقدرة المؤرخ تتبين من قدر ما يستخرج منها من الحقائق بعد أن يستوثق من أنها نصوص صحيحة تحتوى على مادة علمية يمكن الإفادة منها .

وأهم ما يعنينا فى دراسة هذه الفقرات هو أن نعرف الطريقة التى كان نظام قريش

يعمل بها أو ما يسمى بميكانيكية النظام أو ما يسمى باسم System Mechanism وكيف أن هذا النظام الذى يبدو لنا من أسماء وظائفه مثل الرفادة والسقاية واللواء أنه نظام شكلى أو ما يسمى فى الانجليزية باسم decorum وأن تلك الوظائف كانت شكلية يحوزها أصحابها للشرف والمظهر ، بل كانت وظائف أو أجهزة ذات عمل حقيقى functional . حقاً إنها لم تكن وظائف بمعنى الكلمة ولكنها كانت أجهزة Organisms تقوم بعملها بفاعلية حقيقية ، وهدفها الأخير هو حماية قريش وتمكين سلطانها على مكة ، وهو سلطان عام كما رأينا أى : أنه لا يتركز فى أشخاص معينين ، بل فى أن أهل مكة كلهم مشتركون فيه مسارعون إلى تنفيذه بأسلوب قبلى لا إدارى ، فالناس هنا يعملون لحماية كيانهم الفردى والجماعى طواعية وعن إحساس بأنهم يخدمون أنفسهم لا سادة قريش فحسب ، فإذا أخطأ واحد منهم أو قصَّر حوسب على تقصيره أو إهماله أو مخالفته .

وسنرى فى النهاية أنه لم يكن نظاماً جامداً خالياً من النوازع الإنسانية ، لأن قريشاً كانت مترابطة الأوشاج والأرحام ، وكانت علاقات الصهر شاملة متشابكة لا دخل فيها لطبقية أو تفاضل ، فقريش يصاهر أفخاذها بعضها بعضاً دون حرج ، والقرشيون يصاهرون غير القرشيين دون شكليات ، والجار يصاهر المجير والسيد يتزوج الأمة ، وسنرى مصاديق ذلك بعد تحليلنا لهذا النص الطويل الحافل بالمعانى والحقائق التاريخية وقد تعوَّد الناس أن يمروا به مسرعين ناظرين إلى نهايته أى إلى انفراج أزمة المسلمين ونهاية الحصار .

وهذه النظرة الأخيرة لا تعين على إدراك قوة الإسلام وما وضعه الله سبحانه فيه من الحيوية والنضائل بحيث استطاع أن يقوض دعائم نظام قوى متماسك مثل النظام المكى القرشى ، وما تميز به رسول الله ﷺ من خلال وشمائل وعقل راجح وخلق متين وعزيمة تزلزل الجبال ، فهذا الرجل – رسول الله ﷺ أقصد – وقف معظم هذه الفترة وحده تقريباً أمام هذا النظام المتأصل ، يحمل القرآن العظيم والإيمان الثابت فى قلبه ويعمل فى صبر ودأب على إزاحة هذه الصخرة من طريقه دون أن يحطمها ، لأنه ﷺ كان يعرف قدر القرشيين وما يمكن أن يقدموه من الخدمات للإسلام ، وكان يدرك

حقيقة كبرى غابت عن معظم مؤرخينا القدامى والمحدثين أيضاً ، وهى أن ذلك النظام الذى كان الإسلام يواجهه كان يقوم على رجال لا على وظائف ، فالرفادة هنا ليست وظيفة الرفادة ، بل هى شخصية من يقوم بها ، وكذلك السقاية واللواء ، فالقوة الحقيقية فى هذا التنظيم كانت فى رجاله وصواب اختيار الناس لهم اعتماداً على ما يعرفون من مواهبهم .

ويكفى أن نلاحظ أن رسول الله ﷺ احتفظ لأصحاب هذه الوظائف - بما لا يتعارض مع الإسلام - بوظائفهم حتى بعد إسلامهم ، فهو فى صراعه مع قريش بعد الهجرة يحتفظ لبنى عبد الدار باللواء ، ففى موقعة بدر كان حامل لواء المسلمين من بنى عبد الدار ، ويبدو أن رسول الله قد أخذ عليهم يومذاك شيئاً ، فلما كان يوم أُحُد أراد أن يعطى اللواء لغيرهم فغضبوا وتمسكوا بهذه الوظيفة تمسكاً شديداً ، فسلم لهم الرسول بحقهم وأعطى اللواء مصعب بن عمير ، ومن غريب ما نلاحظ أن حامل اللواء فى معسكر المشركين يوم أحد كان من بنى عبد الدار أيضاً ، وكذلك كان فيهم لواء المسلمين ، مما يدل على أن اللواء لم يكن مجرد شىء شرفى ، بل وظيفة حقيقية لها دورها فى تنظيم قريش ، ودورها يعتمد على أصحابها ، لأن النظام المكى كان نظام رجال ، لا نظام وظائف كما قلنا ، فالوظيفة بالرجل لا الرجل بالوظيفة .

ومما يدل على عمق نظرة الرسول ﷺ أنه بعد أن عاد من معركة بدر ودخل المدينة ظافراً سمع سلمة بن سلامة بن وقش يقلل من أهمية النصر العظيم ويقول فى سذاجة: إن لقينا إلا رجالاً صُلْعاً ! . فقال له رسول الله ﷺ : يا ابن أخى ، أولئك هم « أعلى » أى أولئك هم الرؤوس المفكرة المدبرة ، أولئك هم مستقر القوة القرشية بل هم القوة نفسها ، وبالفعل لقد كانت معركة بدر معركة أولئك الرجال ، وكان القرشيون يدركون ذلك تماماً ، فالدور الثالث كله من معركة بدر كان معركة أبى جهل ، وقد أدرك المخزوميون ذلك فقاموا دون ذلك الرجل يدفعون عنه وكأن « بيضتهم» حتى قتل منهم أكثر من سبعة عشر رجلاً قبل أن يصل المسلمون إليه ويقضوا عليه .

ولم تغب هذه الحقيقة عن المسلمين قط ، فقد كان كل منهم يريد قتل أبى جهل

حتى إننا لا نعرف فى النهاية من الذى قتله منهم ، فإذا قلتَ إن أبا جهل لم يقتله فلان أو فلان بل قتله الإسلام لم تَعْدُ الحقيقة ، وبالفعل كان مصرع أبى جهل هو مصرع العصر الجاهلى كله ، فلم يكن أبو جهل مجرد رجل ، بل كان رمزاً لنظام أو روحاً له ، فلما قُتِل انتهى النظام كله .

وهذا يبين لنا جانباً من جوانب عبقرية الإسلام وعبقرية محمد معاً ، فإن الإسلام بتنظيمه الاجتماعى وقوامه القانونى وتركيزه على الفضائل الإسلامية والقوى الكبرى التى أودعها الله فيه هو الذى هدم النظام القرشى كله . ومعركة الإسلام مع النظام الجاهلى كانت أعنف وأطول مدى من معركته مع نظامى الروم والفرس ، لأن نظم الفرس والروم كانت تقوم على وظائف يملؤها رئيس الدولة ، وفى عصور تدهور النظم يجرى شغل الوظائف على أساس الهوى أو القرابة أو الوراثة أو ربما الرُّشى ، فيضعف النظام كله رغم ضخامة هيكله ، ولا يصمد فى الدفاع عنه إلا أصحابه والمفيدون منه ، وما أقلهم فى عصور التدهور .

أما النظام المكى القرشى فكان نظاماً جماعياً يفيد منه معظم أفراد القبيلة . ومعظم خصومه كانوا من نزلاء مكة والطارئين عليها والملحقين بالقرشيين ما بين عبد وحليف أو أسير أو تاجر ضعيف . ولهذا طالت المعركة ، وكلما زاد ضغط الإسلام زاد إحساس قريش بالخطر وزاد تماسكها ، وانتهى الأمر قبيل خروج الرسول ﷺ إلى الطائف إلى تجمد النظام القرشى فى مكانه بدافع الخوف . وهنا أدرك الرسول أنه لم تعد هناك فائدة تُرجى من ذلك النظام ، لأن الخوف يشل التفكير ، والحقد يوقف الذهن عن التصرف .

وهذا هو الذى عناه الله سبحانه وتعالى بآيات بينات مثل قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الكهف] و ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الإسراء] فهذه صورة أناس شلَّ الخوف قواهم الفكرية فوقفوا مذعورين متماسكين : ﴿ وَقَالُوا : قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا

تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [فصلت] أى : أننا لن نغير من موقفنا هذا مهما فعلت ، وكان كل ما بقى لهم أن يقولوه للرد على القرآن ورسول الله أن تصوروا أنه ساحر أو مسحور : ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء] وفى سورة المدثر آيات تصور هذا الموقف ببلاغة يعجز عنها الوصف ، وذلك حين يقول الله سبحانه : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [المدثر] .

والقسورة - أى الأسد - هنا هو الإسلام .

وعسى من يحسب أن فى هذا الكلام زيادة لقدر القرشيين أعداء الإسلام ، وليس أبعد عن الصواب من هذا الظن ، فإننا عندما نقلل من أهمية القرشيين ونجعلهم جماعة من الحمقى ، فإننا فى نفس الوقت نقلل من قيمة نصر الإسلام وتفوق محمد ﷺ عليهم ، وما قيمة التغلب على خصم حقير لا يساوى شيئاً ؟ حقاً إن الرجل بأنصاره ، ولكن الرجل أيضاً بخصومه ، وما جعل الناس بعيدين عن إدراك قدر الفترة المكية من حياة الرسول - صلوات الله عليه - إلا مثل هذا التصوير البعيد عن الحقيقة ، فما معنى هذا الدأب على محاورة نفر من الأغبياء والحمقى ؟

لقد ظل رسول الله ﷺ يشد عليهم وحده حتى ضاقت عليهم الأرض ، وأوقع فى قلوبهم بشخصيته وخلقه وتصرفه هيبة كبرى ، وتلك الهيبة هى الحماية التى أضفاها الله على رسوله فلم يجرؤ خصومه عليه ، أو هل تحسب أنهم لم يقتلوه خوفاً من أبى طالب وبنى هاشم ؟ إن أقصى ما كان عليهم أن يؤدوه إذا هم عدوا عليه هى الدية أو الدية المضاعفة وقد عرضوها فعلاً ، وما كان بنو هاشم وبنو عبد المطلب وأنصارهم بقادرين على الثبات لخصومهم الأقوياء طويلاً ، ومهما كان الأمر فقد كانوا سيقبلون الدية مهما حاربوا . كان ذلك واضحاً فى كل مراحل الصراع ، فما الذى أوقفهم عن أن يُقْدِموا على تلك الجناية ؟ هيبة محمد ورسالته فى قلوبهم .

حقاً إن الله عصمه من الناس ، ولكنه عصمه بالهيبة التى كانت له فى النفوس ، وهى جانب من عصمة الله إياه ، مرة أخرى نرى أنهم كانوا حمراً مستنفرة فرت من

قسورة ، والقسورة هنا هذه المرة هو رسول الله ﷺ الذى أوتى من الشجاعة والثقة فى الله وفى نفسه ما جعله يظل رابضاً فى مواجهة أولئك القوم يطاردهم فعلاً ، حقاً لقد قال الله سبحانه وتعالى له : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (٦٧) ﴾ [المائدة] ولم يكن هو يشك فى أن الله سبحانه عاصمه ، ولكن إليك خبراً يسوقه ابن كثير يوضح لك جانباً من معنى هذه العصمة ، فقد كان رسول الله لا ييأس أبداً من استجابة المكيين لما كان يدعو إليه . كان أبو جهل يتجنب لقاءه وهو يلاحقه طمعاً فى هدايته وقبل الهجرة بقليل لقى أبا جهل فقال له : أما آن لك أن تشهد ألا إله إلا الله وأنّى رسول الله ؟ فردَّ عليه أبو جهل قائلاً: « أما تريد أن تقول إنك بَلَّغْت . فقد بلغت !»

وهذه مقالة رجل يريد أن يتخلص من موقف يشعر فيه بضعف أو حرج ، فهو لا يكابر ولا يناقش ولا يعنف ، وإنما يريد أن يتخلص ، إنه حمار مستنفر يفر من قسورة . وقد عبَّر ابن إسحاق عن هذه الهيبة المحمدية تعبيراً بليغاً حين قال : «وقد كان عدو الله أبو جهل بن هشام مع عداوته لرسول الله ﷺ وبغضه إياه وشدته عليه يذله الله إذا رآه» [1] .

ونعود إلى تحليل رواية ابن إسحاق عن حصار قريش لبنى هاشم وبنى عبد المطلب فى شِعْبهم ومقاطعتهم إياهم .

ففى الفقرة الأولى نرى القرشيين من أعداء الإسلام يعرضون على بنى هاشم اقتراحاً يرون أنه معقول من وجهة النظر الجاهلية ، وهى أن يوعزوا إلى رجل غير قرشى بقتل رسول الله ﷺ حتى لا تكون هناك عداوات وثارات ، وفى نفس الوقت يقومون هم بدفع الدية إلى بنى هاشم ، وهم براء منهم أو منهم الدم .

ولم يكن من الممكن أن يقبل أبو طالب وبنو هاشم وبنو المطلب معه اقتراحاً مثل هذا ، لأن معناه أنهم يبيعون رجلاً من أبناء قبيلتهم بطريقة خسيسة مهينة ، ثم إن بنى هاشم وبنى عبد المطلب أدركوا أهمية الدعوة المحمدية بالنسبة لهم ، وخاصة أولئك الذين لم يؤمنوا ، فقد تصوروا كما قلنا أن تلك الدعوة تعيد إليهم هيبتهم ومكانتهم ،

(١) ابن إسحاق برواية ابن هشام ، جـ ١ ص ٣٨٨ .

ومن ثم فإنهم لم يكونوا مستعدين للمساومة عليه ، هذا فى حدود المنطق العادى ، ولكننا ينبغى أن ندخل هنا فى حسابنا هيبة محمد فى قومه ، وقد أشرنا إليها فيما سبق ، لقد كان أبو طالب شيخهم ، ولكن شخصية أبى طالب تضاءلت جداً أمام شخصية محمد ، فالذين آمنوا به منهم تمسكوا به لأنه رسول الله ﷺ ، والذين لم يؤمنوا تمسكو ا به لأنه بدا لهم قوة كبرى تزيد قدرهم ، وقد كانت هيبته فى قلوبهم أجمعين عظيمة .

وتتحدث الفقرة الثانية عن اتفاق قريش علىٰ منابذة بنى هاشم أى حصرهم فى الشِّعْب ، ولا يظن ظان أن دخول الشِّعْب أنه كان محظوراً عليهم الخروج منه فإن منعهم من الخروج والدخول غير متصور . ولكن القرشيين كانوا يستطيعون منع غير الهاشميين وغير المطلبيين من دخول الشِّعْب ، لا بقوة حراسة أو شرطة بل باستنكار ذلك واعتباره عملاً لا ترضى عنه القبيلة . وكان لقريش من القوة المعنوية ما يمكنها من جَعْل القرشيين من غير بنى هاشم يتجنبون دخول الشِّعْب تفادياً للمتاعب . أما بنو هاشم وبنو المطلب فإن الذين يخرجون منهم من الشعب لا يجدون من يكلمهم أو يعاملهم أو يبيعهم أو يشترى منهم شيئاً ، فهم مُقَاطَعون مقاطعة فعلية ، ومن هنا فمن الطبيعى أن نجدهم يقيمون فى شِعْبهم أى حَيِّهم لا يخرجون منه .

وقد نجح الحصار فعلاً وآتت المقاطعة ثمراتها بعد شهور ، فندر الطعام فى بيوت بنى هاشم حتى جاع الأطفال والضعاف وتأذى الشيوخ ، وأسوأ من ذلك أن المقاطعة أكلت أموال بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، فهؤلاء كانوا جميعاً تجاراً يعيشون من البيع والشراء . ولم يكونوا فى جملتهم من الأثرياء ذوى رؤوس الأموال الكبيرة فبان عليهم الفقر وجاع الناس حتى كان يُسْمع بكاء الأطفال ، مما يدل على أن الحصار والمقاطعة كانا محكمين أى : أن قريشاً دون شرطة أو سجون استطاعت أن تسجن جِذْمين كبيرين من أجذامها سجناً فعلياً وتكبدهم خسائر جسيمة هى أشبه بالمغارم المالية التى توقعها المحاكم على الناس ، ومعنى ذلك أن قريشاً كانت لها بالفعل سلطة تنفيذية حقيقية تستطيع بها أن تعاقب وتؤدب من تريد عقابه وتأديبه ، وإذا كان العقاب قد وقع هذه المرة بالفئة الصالحة التى كانت تريد لقريش خيراً عظيماً لم تتبينه بصائر رجالها ، فإنه لا بد أنه كان كفيلاً بحماية قريش مما يرى رجالها وملؤها أنه خطر يهددها .

وفى الفقرة الثالثة نرى حديثاً عن هجرة من بقى من المسلمين الذين خاف عليهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى الحبشة ، ونظن أن المراد بذلك الهجرة الكبيرة الثانية إلى الحبشة التى ذكرها المؤرخون ، وقد تبين لنا من الدراسة أن الهجرة إلى الحبشة بدأت بعدد كبير من المسلمين بعد وقوع المواجهة الصريحة بين المسلمين والمكيين عقب خروج المسلمين من دار الأرقم بعد إسلام عمر وتحديهم لقريش بالمجاهرة بالإيمان والصلاة وقراءة القرآن فى الكعبة ، ثم استمرت فى صورة تيار صغير متصل ، فقد انفتح باب الهجرة وعرف المسلمون إلى أين يتجهون للنجاة بدينهم بعد أن أذن لهم رسول الله ﷺ فى ذلك ، ثم كانت هذه الهجرة الكبيرة الثانية عندما اشتدت المقاطعة وخاف رسول الله على من بقى من أصحابه مكشوفاً لعدوان القرشيين ، وتلك هى الموجة الثانية الكبيرة من المهاجرين إلى الحبشة ، وعددهم ٨٣ رجلاً وإحدى عشرة امرأة من قريش وسبع « غرائب » أى : غريبات عن قريش ، وقد أورد لنا ابن هشام بياناً وافياً بهن نقله عن ابن إسحاق[1] .

والفقرة الرابعة تدل على تماسك بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، فقد دخلوا جميعاً الشِّعْب وتمسكوا بقومهم ، فالمؤمن منهم تمسك ديناً وغير المؤمن تمسك حمية ، ومن الممكن تعميم ذلك على بقية بطون قريش ، فإن الجانب الآخر - أقصد المشركين - وقف متماسكاً مُصراً على ما قدره من إرغام المخالفين على طاعة القبيلة والتخلى عن محمد وإسلامه ، وأغلبيتهم فعلت ذلك اقتناعاً ، والبقية نفذته اتباعاً على سبيل التمسك بالعصبية القبلية .

وفى الفقرة الخامسة نرى كيف كانت عملية الحصار والمقاطعة تتم ، فالفقرة تتحدث هنا عن تشديد قريش لإجراءات الحصر والمقاطعة ، ونرى هنا كيف فعلت قريش ذلك ، فهى لم تصدر إلى أفرادها قراراً بمقاطعة الهاشميين والمطلبيين بل تفاهم رجالها على ذلك ضمناً : قرره الملأ ونفذه الباقون ، وبدلاً من أن يحرموا التعامل مع من اعتبروهم خصومهم ، فلم تكن لديهم الأداة التنفيذية لذلك ، بل كانوا إذا أراد الهاشميون شراء شىء من الطعام والميرة (الرِّفَق) بادروا إلى شرائه من دونهم ، وإذا

(١) انظر سيرة ابن هشام ١ / ٣٤٤ وما يليها . والنويرى ، نهاية الأرب ٦ / ٢٤٣ وما بعدها .

أراد الهاشميون بيع شيء لم يجدوا من يشتريه منهم ، فركدت سوقهم وتوقف التعامل معهم ، وحرَّموا دخول الطعام إلى المحصورين لا بإيقاع عقوبة عليهم ، وإنما بتذكير من يقدم على ذلك بأنه يفعل شيئاً معادياً للجماعة ويُعَرِّضُ نفسه تبعاً لذلك للعقوبة بالمقاطعة وربما أشد .

والفقرة السادسة ترينا نوعاً آخر من أنواع العقوبات التى قررت قريش إنزالها بتلك الفئة التى اعتبرتها خارجة على نظامها مهددة لسلامتها وأمنها وسمعتها وهو إيقاف المعاهدات بين بنى هاشم وبنى عبد المطلب وبين بقية قريش وسكان مكة وتلك عقوبة قاسية ومهينة ، لأنها تعتبر بنى هاشم وبنى المطلب أعداء ألداء لبقية قريش وتهينهم لأنها تعتبرهم أدنى مقاماً من بقية القبيلة ، ولا ندرى إن كانت تلك العقوبة قد نُفِّذت أم لم تنفذ ، ولكن وَقْعها لا بد أنه كان أليماً على المقاطَعِينَ على أيِّ حال .

والفقرة السابعة تبين الشروط التى وضعتها قريش لرفع هذه العقوبات القاسية عن بنى هاشم وبنى المطلب ، فهى لن تصالحهم ولن تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل ، وهذا الشرط يبين لنا مقدار ثقة قريش فى نفسها وإصرارها على إذلال بنى هاشم وبنى المطلب إلى أقصى درك يمكن تصوره بالنسبة لبطنين رفيعى القدر فى أنفسهم مثل بنى هاشم وبنى المطلب ، ومن الواضح أن هذين الحيين ما كان من الممكن أو حتى من المتصوَّر أن يلقيا مثل هذا الهوان ، فإنهما كانا فريقين قويين لهما قوة وحسب وجلال ومكانة ، ولهذا فإن هذا الشرط من جانب قريش كان شرطاً أملاه السفه والغرور ، وما كان من الممكن أن يرضخ المحاصَرُون لهذا العَنَتِ والشطط .

والفقرة الثامنة تقرر أن قريشاً كتبت بهذا القرار أو العهد كتاباً علقوه على الكعبة ، وهذا هو الغالب ، ولا معنى لإنكار إمكانية كتابته وتعليقه فى الكعبة بحجة أن قريشاً كانت قبيلة أمية فى الغالب ، والواقع أن قريشاً كانت غالبيتها العظمى من الأميين ، فما كانت هناك حاجة لهذه الغالبية إلى أن تكتب ، ويكفى أنه كان من القرشيين من يكفيهم حاجتهم من القراءة والكتابة .

أما ما يرد فى الفقرة التاسعة من أن العمل بها فى هذه الصحيفة استمر ثلاث سنوات فجائز ، وإن كان الأقرب إلى المنطق وحساب توقيت الفترة المكية أن مدتها كانت سنتين كما ورد فى بعض الروايات .

والفقرة العاشرة تقرر أن البلاء اشتد على بنى هاشم ومن كان معهم فى شِعْبهم ، أى : أن سلاح الحصر والمقاطعة بلغ ذروة تأثيره وسريانه .

وإنه لما يدعو إلى التأمل كيف أن قريشاً استطاعت دون عنف ودون وجود قوة تنفيذية ظاهرة من أن تُنزِل عقاباً شديداً بجماعتين من جماعات قريش القوية هما بنو هاشم وبنو المطلب ، فقد نال الجماعتين أذى شديد ، وأثبتت العقوبة فاعليتها ، فإلى جانب ما ذكرناه من أسباب الجماعتين من فقر ومقاطعة كاملة توقف دخول الناس فى الإسلام خوفاً من أن يصيبهم ما أصاب من لا يرضى عنهم ملأ قريش ، ومع أن المحَاصَرين والمقاطَعين لم يكونوا سجناء فى حَيِّهم فقد كانوا يستطيعون الخروج والدخول إلا أنهم إذا خرجوا لم يجدوا من يبيعهم أو يشترى منهم أو حتى يكلمهم مما أدى بهم فى النهاية إلى لزوم شِعْبهم والشِّعْب هو الحى كما قلنا . وهذا يدل على أن سلطان قريش فى مكة لم يكن مجرد رمز ، وهذه حقيقة ينبغى أن ننبه عليها .

وهنا يتحرك عصب آخر من عصبات تكوين قريش ويبدأ فى العمل ، فقريش لم تكن دولة وإنما هى قبيلة ، والقبيلة تكوين اجتماعى أولاً وسياسى ثانياً ، وروابط القرابة بين الأفراد ووشائج الرحم والصهر بينهم هى أساس تكوينه وقوته ، فالناس يعملون فيه بالولاء للقبيلة فى مجموعها أولاً أو فى اتجاه الخارج ، ثم بعواطف القرابة والولاء للعواطف والعلاقات الفردية ثانياً ونحو الداخل . وهذا الولاء هو فى نفس الوقت الولاء للقبيلة وهما أساس قوتها كوحدة سياسية واجتماعية ، والقرار الذى اتخذته قريش حيال بنى هاشم وبنى المطلب قرار سياسى يتعارض أساساً مع العواطف القبلية العصبية الفردية أى : أنه يتعارض مع التكوين الداخلى للقبيلة وتنظيمها .

ثم إنه كان قراراً ضد اثنين من أكبر البطون المكوِّنة لقريش ، هما بنو هاشم وبنو المطلب ، وعلاقات الصهر والقرابة بين هذين البيتين وبقية بيوت قريش كانت وثيقة

فأم محمد ﷺ من بنى زهرة كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، وزوجته أم المؤمنين خديجة من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، وحمزة بن عبد المطلب وهو أخ أصغر لأبى طالب كان ابناً لابنة عم آمنة وهى هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وعمر ابن الخطاب هو ابن حنتمة بنت مقبل من بنى عدى بن كعب بن لؤى ، وهو أخو فاطمة زوج سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى من بنى كعب بن لؤى ، وأبو سلمة بن عبد الأسد كان ابن عم لأبى جهل ، فهو عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة ، وأبو جهل هو أبو الحكم عمرو بن هشام ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة ، وعثمان بن عفان هو ابن أبى العاصى بن أمية الأكبر بن عبد شمس ، فهو ابن عم لأبى سفيان بن حرب . والأرقم بن أبى الأرقم كان ابن عم لأبى جهل ، يجتمع نسبهما فى عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وهكذا . فلم يكن أحد من أولئك المحصورين المقاطَعين إلا قريباً لواحد أو أكثر من المقاطِعين المحاصرين .

وكان طبيعياً والحالة هذه أن يتحرك نفر من القرشيين لعون بنى هاشم وبنى المطلب وأقاربهم من المحصورين بشىء من الطعام ، وكان أكثر الناس إقداماً على ذلك هشام بن عمرو بن الحارث العامرى وكان قريباً لخديجة ، فقد كان يغافل قريشاً ويُدخِل أحمال الطعام إلى بنى هاشم فى الشِّعب ، فعرف القرشيون ذلك وكلَّموه فيه ، وكان قد حمل فى ليلة واحدة ثلاثة أحمال طعاماً ، فلما كلموه فى الصباح قال : إنى غير عائد إلى شىء خالفكم ! ثم عاد يغافل قريشاً حتى حمل إلى المحصورين فى ليلة حملاً أو حملين من الطعام ، يريد القمح فغالظوه وهموا به فتدخل أبو سفيان وقال : دعوه ، رجل وصل رحمه ، أما والله إنى أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن .

وجرؤ على تخطِّى قرار المقاطعة - بدافع الرحم - حكيم بن حزام . وكان ابن أخٍ لخديجة فهى عمته ، فحمل إليها فى الليل طعاماً ، فعاتبه فى ذلك أبو جهل ، فتدخل أبو البخترى العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى وهو ابن عم لخديجة ، وقال لأبى جهل : طعام كان لعمته عنده أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خَلِّ عن الرجل.

فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ البخترى لحى بعير ، فضربه به فشَجَّه ، ووطئه وَطْئاً شديداً[1].

وشيئاً فشيئاً ، بدأ القرشيون من ذوى المروءة والإحساس الإنسانى يتحركون لإيقاف هذا العقاب الأليم لنفر من أبنائهم وبناتهم وأبناء عمومتهم بسبب متابعتهم لمحمد رسول الله على ما كان يدعو إليه ، وكان أكبر المتحمسين لذلك المطعم بن عدى وكان كذلك قريباً لخديجة ، وأبو البخترى العاص بن هشام الذى ذكرناه ، وزهير بن أبى أمية بن المغيرة المخزومى ، وزمعة بن الأسود بن المطلب وهو ابن عم لرسول الله ﷺ وكان عضواً ظاهراً من بيت المطلب بن عبد مناف المحاصَر المقاطَع .

وهنا يأتى تعليقنا على الفقرات الحادية عشرة وما يليها ، وكلها تتعلق بنقض الصحيفة فيما عدا الفقرة الثالثة عشرة التى تدور حول خوف أبى طالب على ابن أخيه محمد من أن يناله أذى أثناء الحصار ، فكان يطلب إليه أن يغير مكان نومه كل ليلة ، وهو خوف مفهوم ، لأن محمداً ﷺ قد أصبح بدعوته فخر بنى هاشم ورمز عزتها ، فمن آمن به من بنى هاشم كان يتبعه ويصدقه فيما قال ويعتبر نفسه من رجاله ، ومن لم يؤمن به بَعْدُ منهم كان يتحمس له حَمِيَّة واعتزازاً بالقرابة والعصبية ، ولا شك فى أن أبا طالب كان يحرص على سلامة محمد بدافع العصبية أولاً ، ثم بدافع من الإحساس بأهمية ما كان يدعو إليه ابن أخيه بعد ذلك ، فهؤلاء عددٌ كبير من بنى هاشم رجالاً ونساءً يؤمنون به ، ثم إن الدعوة فى ذاتها أعطت بنى هاشم أهمية كبرى بعد أن أخملهم غيرهم بعد موت عبد المطلب ، وقد سبق أن قلنا : إن تحمس أبى طالب لمحمد كان تحمساً عصبياً سياسياً ، فهو لم يؤمن بالإسلام وهو مَسَّ قلبه ، ولكنه ظن أن الدعوة الإسلامية طريق لبنى هاشم للانتصاف من خصومه واستعادة مكانتهم .

ويروى ابن سيد الناس خبر نقض الصحيفة فى أسلوب له طعم القصص ، وقد مهدنا لنقض الصحيفة تمهيداً تاريخياً منطقياً بعيداً عن حديث الأرَضَة وأكلها لكل شىء كتبته قريش فى الصحيفة إلا اسم الله سبحانه وتعالى أو أكلها لاسم الله سبحانه

(١) ابن سيد الناس ، عيون الأثر ١/ ١٣٠ . والخبر هنا عن محمد بن إسحاق برواية أبى عمر بن عبد البر النمرى بسند متين يختلف عن سند البكائى فى روايته لنص ابن إسحاق ، وهى الرواية السائدة عند الناس ، وهى التى اعتمد عليها ابن هشام .

وتعالى ؛ لأننا فى معرض التاريخ الصرف لا نحتاج إلى هذا القصص ، ولكننا لا نرى إنكار هذه الأخبار التى تعطى لبعض فقرات السيرة طابع المعجزات أو تصورها بصورة خارجة عن المألوف ، ولا ضير على من يريد أن يرددها فهى على أى حال لا تدخل فى صميم التاريخ .

ثم إننا هنا نتحدث عن نبوة ورسالة وسيرة نبى مرسل كريم اختصه الله برسالته السماوية ، والإيمان بها عقل وعاطفة ، وليس من الضرورى إذن أن نستبعد الأخبار الصادرة عن فيض العاطفة وإن كانت قصصية الطابع ، والقصص الذى يصدر عن العاطفة الصادقة مثل هذا الخبر يضيف إلى التاريخ عنصراً عاطفياً إنسانياً لا غنى له عنه ، فمن أراد أن يأخذ بحديث الأَرَضَة ودورها فى نقض الصحيفة فهو وذاك . وأنا أجد فى هذا الحديث وأمثاله طلاوة وتعبيراً عن عاطفة كريمة . وأنا إذ أقول ذلك لا أنكره ولكنى أقول : إن السياق التاريخى للحوادث لا يحتاج إليه دون أن يشكك فيه من يريدون الأخذ به . ولا محل للتشكك فى تفاصيل تتصل بالنبوة ، ومقامها عندنا وعند غالبية المسلمين وإنكارها على أساس أنها لا تجرى مع المنطق إنكار لامعنى له . وما بال أقوام يقرأون خبر شَقِّ صدر النبى وتطهيره على يد مَلَكين مثلاً فينكرونه ويحتكمون فيه إلى المنطق مع أن التسليم بذلك لا يخرج فى طبيعته ومعناه ومغزاه عن التسليم بنزول الوحى ، وحديث جبريل وإقرائه القرآن .

إن أصحابنا هنا ينسون أن الموضوع كله يتعلق برسالة سماوية وبرسول اختاره الله لحمل هذه الرسالة وقرآن كريم لا يشك مؤمن فى أنه كلام الله سبحانه الذى تنزَّل على محمد صلوات الله عليه بالصورة التى وصفها لنا ﷺ دون أن يكون لدينا دليل على ذلك إلا إيماننا برسول الله ﷺ وصدقه وأمانته وتبيُّننا من النظر فى القرآن الكريم وتأمل آياته وما فيها من الحق والحكمة والإعجاز والخير العميم للبشر أجمعين . هذا مع علمنا بأننا إذا أنكرنا الوحى والرسالة وألوهية القرآن فقد خرجنا عن نطاق الإيمان جملة ولم يعد لنا سبيل إلى الكلام فى الإسلام والرسالة والرسول .

أما حديث شق الصدر وتطهير القلب فهو تأكيد أن الله اصطفى محمداً وطهره قبل أن ينزل عليه الرسالة ، فإذا كانت الأحاديث الصحيحة المسندة ترينا كيف طهر الله

نبيه بشقِّ صدره على يد ملكين وإخراج الشر من صدره ، فما وجه العجب فى ذلك ؟ ولماذا نستنكر أن يكون تطهير الله لنبيه عليه الصلاة والسلام قد تم على الصورة التى تُجمع عليها الأحاديث الصحيحة التى رواها البخارى ومسلم وبقية أصحاب الصحاح والمسانيد وأصحاب كتب السنن . وقد روينا أخبار نقض الصحيفة رواية تاريخية منطقية ، فإذا أراد بعض مؤرخى السيرة أن يضيفوا إلى ذلك حديث القلب والعاطفة والقصص ، فأىُّ بأس فى ذلك ؟!

إن من أجمل خصائص سيرة المصطفى ﷺ أن رسول الله لم يعتمد فى إدخال الناس فى الدين على معجزات أو كرامات مع تيسرُّ إجرائها على يديه إذا شاء ذلك رب العالمين ، والقرآن نفسه يؤكد ذلك مرة بعد أخرى ، لأن المعجزة أو الكرامة قد تذهل من يراها وتدفعه إلى التسليم دفعاً ، فماذا يكون الحال مع من لم يروا وقوع المعجزة ؟ وماذا يكون حال الأجيال التالية لمن لم يروا المعجزة أو الكرامة ؟ هنا تقول المسيحية الكاثوليكية باستمرار المعجزات والكرامات بعد عيسى صلوات الله عليه ، ومن هنا جاءت ظاهرة القديسين عندهم ، وهى ظاهرة برَّأ الله الإسلامَ منها وحماه بها اكتفاء بمعجزة واحدة كبرى هى القرآن الثابت المتواتر بصحة وسلامة إلى يومنا هذا ، فمن لم يؤمن بإعجاز القرآن الخارق فهو لن يؤمن بأى شىء آخر ، فأىُّ فعل خارق يعدل القرآن فى القوة والإقناع ؟ وكل معجزة قام بها نبى قبل محمد هى أدنى بكثير من معجزة القرآن نفسه ، بما فى ذلك إحياء الموتى وشفاء المرضى وما إلى ذلك وتحوُّل العصا إلى حية وجَمْع أشلاء الطير الممزق وبعثه حياً بإذن الله مما يحدثنا القرآن به عن غير محمد ﷺ من الأنبياء والمرسلين ، وفى القرآن فى ذلك آيات بينات ، لعل أقربها إلى الذهن قوله تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٨٩) وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ

﴿ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾ [الإسراء] .

فهنا نرى كيف كان القرشيون يتحدَّوْن محمداً ﷺ طالبين إليه أن يأتيهم بمعجزة لكى يصدقوه ، وهم يشتطون فى مطالبهم ، بل ينصون على نوع المعجزة التى يطلبونها حتى يطلبوا إليه أن يرقى إلى السماء ، وحتى لو رقى إلى السماء أمام أعينهم فهم لن يصدقوه حتى ينزل إليهم بكتاب من السماء يقرأونه ، ويكون رد القرآن على هذا التحدى كله إعجازاً فى ذاته ، فهو يأمر محمداً بأن يقول لهم ذلك القول الذى يعتبر وحده معجزة محمدية ينفرد بها الإسلام : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً(٩٣) ﴾ [الإسراء] فما هو بصانع معجزات ، وإنما هو نبى ، لأن معجزته الكبرى هى هذا القرآن .

ولهذا فقد بدأت الآيات بقوله تعالى :﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء] أى : معيناً وهو لهذا معجزة مستمرة الحدوث والتأثير يتبينها الإنسان كلما قرأ القرآن ، ومن هنا فلا حاجة لمحمد إلى معجزة أخرى . وهذا كله لا يمنع من القول بأن من يريد أن يُدخِل المعجزات فى صميم السيرة فهو وما يريد ، ومذهبه فى هذا لا يتعارض مع صميم المنهج التاريخى .

إن الأمر هنا يتعلق بنبوة ورسالة ، فالتصديق بها يكون بالإيمان أولاً ثم بالمنطق ، وفى الآيات السابقات نرى مثالاً لذلك . فالقرآن هنا يقول لمحمد صلوات الله عليه أن يرد على المُتَحَدِّين له بأنه بشر رسول ، فإذا لم يؤمنوا بالرسالة اعتماداً على ما يرون من إعجاز القرآن وصدق الرسول فلا معنى لإقناعهم بإجراء معجزة ، وعبارة : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾ [الإسراء] فيها بلاغ ، فمن صدقه فى قوله هذا فقد آمن ، وبدون هذا التصديق فلا إيمان ، وما دمنا قد صدَّقنا بالرسالة والوحى فهذا هو المهم والأساس ، والبخارى ومسلم عندما يرويان حديث شق الصدر فهما يصدران فى تصديقه عن إيمانهما بصحة الرسالة ، ونحن نروى السيرة النبوية دون حاجة إلى الاستشهاد بمعجزات .

وليس من الضرورى فى هذه الحالة أن نقول : إن شق الصدر مستحيل ، لأن شق الصدر وإخراج العلقة للتطهير لا يختلف فى طبيعته عن نزول القرآن ووحيه إلى محمد ، وهذا من ذاك ، وفى إمكانك أن تروى السيرة رواية سليمة دون أن تعرض لحديث شق الصدر ؛ لأن الدعوة تعتمد أساساً على القرآن الكريم ، وعلى شخصية محمد صلوات الله عليه وخلاله وشمائله ومنهجه فى الدعوة وذكائه البعيد وخلقه العظيم وبسالته فى أداء رسالته وقدرته على اجتذاب الناس وإقناع من يهديه الله منهم بالكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة وحُنوه البالغ على المسلمين وحرصه الشديد على المحافظة عليهم فى ثباته فى مواجهة الخصوم مع الحلم والشجاعة ، ولا شك فى أن اجتماع هذه الخلال كلها فى رجل واحد أمر عجيب ، وحسن استخدام محمد لهذه الخلال كلها أمر معجز حقاً وخارق لما نعرفه من خلال الناس .

ونعود إلى ما استطردنا عنه لنقول : إن الحصر فى الشِّعب والمقاطعة انتهيا بعوامل تتصل بنفس عوامل قيامها وهى العصبية القبلية ، فإذا كان القرشيون قد قرروا المقاطعة فقد دفعهم إلى ذلك الخوف على مصير قريش ، وإذا كان بعض رؤسائهم قد قرروا إيقاف المقاطعة والحصار فإن دافعهم إلى ذلك كان الخوف على مصير فريق من قريش أشرفوا على الهلاك وكان أسلوبهم فى تنفيذ قرار المقاطعة قبلياً عصبياً يعتمد على الطاعة الواعية لرياسة القبيلة وهى الملأ . ولهذا كان للقرار قوة تنفيذية وفاعلية ، فقد قوطع بنو هاشم وبنو المطلب مقاطعة فعلية وسُجِنوا فى شِعبهم سجناً أفعل من السجن وراء القضبان .

وكان الذين نادوا بنقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة من صميم ملأ قريش ، أى : من كبار القوم ممن لهم قوة إبداء الرأى ، وقد استندوا فى ذلك إلى حجج قبلية أيضاً وإن كانت لها خلفية إنسانية . فهشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث (من بنى عامر بن لؤى) كان ابن أخى نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه « فكان هشام لبنى هاشم واصلاً ، وكان ذا شرف فى قومه » وزهير بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم كانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فهو ابن عمة رسول الله ﷺ وكانت عاتكة هذه قد أسلمت سراً ، وهى صاحبة الرؤيا المشهورة التى أخافت قريشاً من الهزيمة

قبل بدر ، وكانت أختها صفية بنت عبد المطلب مسلمة فى السر كذلك ، وكانت من الشخصيات ذوات المكانة الكبيرة فى مكة ، ولها دور كبير فى نشر الإسلام بين المكيين. وكان زوجها الأول فى الجاهلية الحارث بن حرب بن أمية أخا أبى سفيان وله منها أولاد ، ومات عنها ، فتزوجها العوام بن خويلد وأنجبت منه الزبير بن العوام صاحب رسول الله ﷺ .

أما المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، وهو ثالث من قاموا فى نقض الصحيفة فقد كان أبوه نوفل أخاً لهاشم جد النبى ، وقد دفعه إلى التحرك خوفه على بنى هاشم وهم قومه ، فقد قال له هاشم بن عمرو زعيم المنكرين لأمر الصحيفة : «فقد، رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف ، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه، أما والله لو أمكنتم وهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً »[1] وإذن فقد اعتمد هشام بن عمرو فى تحريك المطعم بن عدى على عنصر العصب ، وخوَّفه من مغبة التهاون فى أمر بنى هاشم لأنه لو سكت على هذه لأسرع أعداء بنى هاشم إلى القضاء على بنى نوفل بن عبد مناف ، وهم أبناء عم بنى هاشم .

وبالفعل تحرك هشام بن عمرو (من بنى عامر بن لؤى) وزهير بن أمية (من بنى مخزوم وأمه عاتكة بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ) والمطعم بن عدى (من بنى نوفل بن عبد مناف) والبخترى بن هشام ، ثم انضم إليهم زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، تحركوا لنقض الصحيفة أى لكسر قرار قريش وطالبوا بشق الصحيفة ، فتعرضت لهم قريش فى شخص أبى جهل ممثل قريش كلها والجاهلية ، «قال أبو جهل ، وكان فى ناحية المسجد : كذبت والله لا نشقّ (والكلام هنا موجّه إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد الذى تصدى للكلام باسم المعترضين) ، قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب . ما رضينا كتابتها حيث كُتِبت . وقال البخترى : صدق زمعة ، لا نرضى ما كُتِب فيها ولا نُقِرُّ به . وقال المطعم بن عدى : صدقتما ، وكذب أبو جهل ، فما كان محمد ليرضى بأن يوقف الدعوة ، وما كان على أى حال مستعداً لقبول حماية من أبى جهل ، إذا كان هذا يتطلب منه التوقف عن الدعوة .

(١) ابن هشام : ١/ ٣٧٥ .

ولكنه يعود إلى مكة الآن ويريد أن يستمر فى دعوته ، ولهذا فقد فكر فى أن يدخلها فى جوار واحد من كبار أهلها ، قال ابن إسحاق : إن رسول الله ﷺ بعث إلى الأخنس ابن شرِيق ليجيره ، فقال : أنا حليف والحليف لا يجير ، فبعث إلى سُهيل بن عمرو فقال : إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب ، فبعث إلى المطعم بن عدى فأجابه[1].

والخبر على هذه الصورة يبعث على كثير من التساؤل ، فإن رسول الله ما كان يطلب الجوار من الأخنس بن شريق ، وهو يعرف أنه حليف ، أو من سهيل بن عمرو وهو من حسل بن عارم بن لؤى ، وهم يدخلون فى قريش الظواهر ، وقريش الظواهر لا يجيرون على قريش البطاح ، ولكن طلب الجوار من المطعم بن عدى معقول لأن عدياً والد المطعم هو نوفل بن عبد مناف ، فهو ابن عم لرسول الله ﷺ ، وكان من أهل الشهامة والشرف ، قال فيه ابن حزم : وكان شريفاً ، وهو الذى أجار رسول الله ﷺ منصرفه من الطائف[2]. والذى يعنينا هنا فى تنظيم قريش أن سلطانها على مكة بلغ من القوة بحيث لم يكن أحد ليستطيع أن يدخلها إلا فى جوار رجل منها أى : فى حمايته ، فكأن مكة كانت فعلاً مدينة قريش وهى صاحبة السلطان الأعلى فيها ، بل إن بطون قريش البطاح هى نواة قريش وهى الأصل ، وقريش الظواهر تجىء فى المرتبة الثانية .

على أى حال ، لم يكن رسول الله فى حاجة إلى جوار أحد ، وقد كانت له من الثقة فى ربه وفى نفسه ما لا يحوجه إلى حماية بشر ، ثم إنه وقد نفض يده من قريش ما كان ليدعو أحداً منها إلى الإسلام كى لا يزيدها خوفاً ، فاتجه ببصره نحو الأعراب حول مكة وإلى الواردين عليها من الغرباء ، ولم تكن قريش لتخشى شيئاً من هذه الناحية لأنه لا يمس كيانها أو يهدد وحدتها ومصالحها .

وقد أحست قريش أنها انتصرت على محمد بذلك وأمنت على وحدتها وديانتها ونظامها الاجتماعى من دعوته ، فاطمأن بال رجال قريش من هذه الناحية ، وتركوا محمداً يخرج من مكة إلى الأسواق وإلى منازل القبائل يدعوها ثم يعود ، وقد يخرج

(١) ابن إسحاق فى نهاية الأرب للنويرى ، جـ ١٦/ ص ٢٨٢ .
(٢) جمهرة أنساب العرب : ص ١١٥.

وحده أو قد يخرج معه أبو بكر ، وقد بذل أبو بكر فى ذلك الوجه جهداً عظيماً ، وخفف عن محمد بعض ما يلقى من رفض الأعراب وقلة اكتراثهم لما يقول أو عدم استجابتهم له .

ومن الواضح أنهم كانوا فى ذلك تبعاً لقريش فى الرأى ، فقريش تتزعمهم فكرياً ودينياً واقتصادياً ، ثم إنهم أوغل فى القبلية من قريش ، وما دامت قريش وهى قبيلة محمد ﷺ قد أنكرت دعوته ، فالأعراب أيضاً ينكرونها . وظل محمد يخرج إلى القبائل البدوية ويدعو بينها بلا نتيجة تذكر فيعود إلى مكة ويدعو من يطرأ عليها من الغرباء والحجاج ، لأن الله سبحانه وتعالى ادخر الإسلام ونعمته الكبرى لقوم من أولئك الطارئين على مكة ، وهم أهل يثرب من الخزرج فيهم أسعد بن زرارة بن عدس ، وعوف بن الحارث بن عفراء ، ورافع بن مالك ، وقطبة بن عامر بن حديدة ومن إليهم من أهل العقبة الأولى ممن استمعوا إلى الرسول ﷺ وصدَّقوه ووعدوه بأن يُحدِّثوا قومهم بأمره ثم يعودوا وهم بهذا اللقاء الحسن الذى هداهم الله به إلى الإسلام قد فتحوا لأنفسهم ولقومهم أبواب الخير والهداية وباب التاريخ أيضاً .

وإذا كان تماسك قريش وحرصها على مصالحها قد حرمها من أن تكون حاملة راية الإسلام هذه المرة ، فإن اختلاف أمر أهل المدينة كان الباب الذى فتح للإسلام أبواب المدينة ليدخلها ويستقر فيها ؛ لأن صالح أهل يثرب وصالح الإسلام اتفقا بسبب هذا الخلاف القبلى الداخلى . فقد كانت المدينة فى حاجة إلى من يلم شعثها ، وكان الإسلام فى حاجة إلى قوم يلتمسون راية تجمعهم وقيادة توحدهم وطريقاً جديداً يسيرون فيه ، فكانت المدينة وأهلها حلاً لمشكلة الإسلام ، وكان الإسلام حلاً لمشكلة المدينة . ومن هنا كان هذا اللقاء السعيد الذى يعتبر من أسعد لقاءات التاريخ ، وبينما كانت قريش تشكر لآلهتها نصرها على محمد ودعوته كانت لا تعلم أن هذه الآلهة نفسها أو قل تمسُّك قريش بها قد حال بينهم وبين أن تكون قبيلتُهم السابقةَ الأولى إلى الإسلام وحاملة نعمته وبركته .

نساء قريش وَالدّعوة الإسلاميّة :

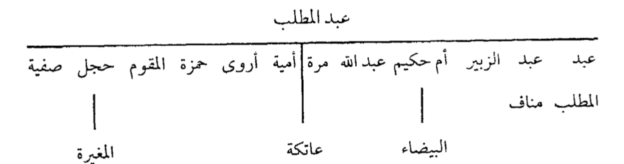
استراحت قريش إذن من ناحية محمد ، ولكن عيون رجالها ظلت عليه ، فإذا كان

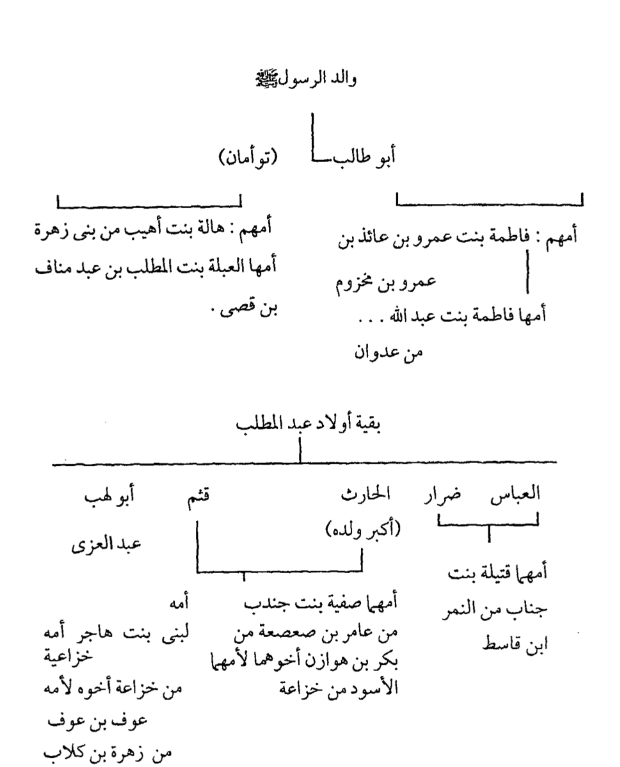
هو قد اتجه بالدعوة إلى غير القرشيين أو غير المكيين ، فإن الدعوة كانت تدب دبيباً رفيقاً إلى قلوب من لم تكن لديهم دوافع خاصة أو مصالح مادية تربطهم إلى النظام القديم أو تجعلهم يحرصون على بقائه ، فكان الكثيرون من القرشيين يسلمون بقلوبهم ، وربما اتصلوا بمحمد وأعلنوا إليه إسلامهم أو أسرُّوه فى نفوسهم مخافة القرشيين حتى تحين الفرصة لإعلانه ، وقد كان لعلاقات القرابة هنا دور كبير ، لأن الأقارب يتلاقون ويترابطون بوشائج الرحم ، ومن وشائج الرحم تنشأ مصالح وارتباطات .

وهنا نتبين أن نساء قريش كان لهن دور كبير جداً فى نشر الإسلام بين القرشيين فى هذه الفترة ، وهى السنوات الثلاث الأخيرة من الدور المكى ، لأن الدعوة الإسلامية لم تجد عند هؤلاء النسوة ما يمنعهن من اعتناقها ، ففيها رحمة ومودة ، وفيها أمل فى حياة أسعد من الحياة الدنيا ، وفيها مثالية تجتذب القلوب الرقيقة ، وفيها - أخيراً - حقوق للمرأة وأبواب لحرية نفسها وملك زمامها لا وجود لها فى النظام القرشى القائم .

وسنأخذ هنا مثالاً من بيت عبد المطلب الذى ينحدر منه رسول الله ﷺ ، لنرى كيف أن نساء قريش قُمْنَ بدور واسع المدى فى نشر الإسلام بين قريش وأحلافها من أهل مكة .

ونبدأ فنعطى هنا بياناً بأولاد عبد المطلب بن هاشم وبناته وأمهاتهن ، ونظراً لكثرة الأولاد فسنوردهم فى جدولين :





فعبد المطلب جد الرسول ﷺ تزوج ستاً من النساء : واحدة من بنى مخزوم ، وواحدة من بنى زهرة بن كلاب ، وواحدة من بنى عبد مناف بن قصى ، وواحدة من بنى زهرة بن كلاب ، وثلاث خزاعيات، وواحدة من النمر بن قاسط من قيس عيلان.

وهؤلاء النسوة أنجبن له ثمانية عشر منهم أحد عشر ولداً وسبع بنات . فأما الرجال فلم يسلم منهم حتى نهاية الفترة المكية إلا واحد هو حمزة . وأما النسوة فلدينا ما يدل على أنهن جميعاً أسلمن إما قبل هجرة الرسول إلى المدينة أو قبل فتح مكة على أى حال ، بل لدينا ما يدل على أن بعضهن مثل صفية وعاتكة كن عاملات نشيطات فى نشر الدعوة داخل قريش نفسها . وصفية بالذات كانت تحب رسول الله ﷺ وتفخر به ، وكانت سيدة قوية باسلة وثيقة الإيمان وكان أحب إخوانها إليها حمزة رضى الله عنه ، وكتب السيرة كلها تذكر حزنها عليه وإصرارها على رؤيته بعد استشهاده والتمثيل بجسده فى أُحُد . وهى أم الزبير بن العوام حوارى رسول الله ﷺ. وأسلمت بعدها أختها أروى وهى أم طُلَيْب بن عمير ، وفى طبقات ابن سعد أنها كانت بعد إسلامها : تعضُد النبى ﷺ وتعينه بلسانها وتحض ابنها على نصرته والقيام بأمره [١] . وأما عاتكة فهى صاحبة الرؤيا التى أرعدت القرشيين وتنبأت بمصارعهم فى بدر.

وكتب الصحابة حافلة بأخبار الصحابيات من بنى هاشم وبنى عبد المطلب بل من بنى عبد شمس ومخزوم ممن أسلمن قديماً ، كما يقول أصحاب كتب السيرة . وما كن يقمن به من الجهد فى الدعوة بين النساء والرجال من قرابتهن . وقد زاد إقبال أولئك القرشيات على الإسلام بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وانتشار دعوته وارتفاع شأن المدينة وأمة الإسلام بها ، كأنهن كُنَّ يرين أنهن القرشيات أَوْلَى بهذه الرتبة وعلو المكانة من غيرهن ، وبعد الحديبية بالذات وانفتاح الطريق بين مكة والمدينة اندفعت أولئك القرشيات فى طريق الدعوة وكثرت وفودهن على المدينة وما منهن إلا أدخلت فى الإسلام أولادها وزوجها وأهل قرابتها ، وقد كان رسول الله يعرف ذلك ويتوقعه عندما قبل صلح الحديبية ، فقد كان يعرف أن تفتُّح الأبواب سيقوض قوى المكيين المكابرين دون أن يشعروا ، وبالفعل ما كاد الرسول صلوات الله عليه يدخل مكة فاتحاً حتى نجد الغالبية العظمى من قريش قد دخلوا فى الإسلام ، لأن الدعوة كانت ماشية فى طريقها على طريق القرشيات ما بين هاشميات وغير هاشميات .

---

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٨ .

وهذا الانتشار المستمر للإسلام لم يدع لقريش أمناً ، وزاد من يقظتهم ، وكان رسول الله ﷺ يحس بهذه اليقظة ويعمل على حماية أصحابه من جرائرها ويتجلى لنا ذلك فى حرص رسول الله على أن يتم لقاء العقبة الثانية فى خفية من قريش ، قال محمد ابن سعد : إن وفد المدينة الذين أتوا لهذه البيعة سلَّموا على رسول الله ، ثم وعدهم مِنًى وسط أيام التشريق ليلة النَّفْر الأول إذا هدأت الرِّجْل أن يوافوه فى الشِّعب الأيمن إذا انحدروا من منى بأسفل العقبة وأمرهم ألا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً قال : فخرج القوم بعد هَدْأةٍ يتسللون : الرجل والرجلان ، وقد سبقهم رسول الله ﷺ إلى الموضع معه العباس بن عبد المطلب ليس معه غيره [1] ولا يكون هذا الحذر كله إلا إذا كانت هناك يقظة من قريش ، فكأن هذه القبيلة كانت بالفعل شديدة اليقظة دائمة الحرص على سلامتها ، وكانت تمارس على بلدها سلطاناً ورقابة لا تَقِلَّان عن سلطان الدول القائمة ورقابتها .

ولكن يبدو أن تفاصيل ما تم فى لقاء العقبة الثانية غاب عن قريش ، ولكن السبب فى ذلك لم يكن قلة يقظة من قريش بقدر ما يرجع إلى بُعْد نظر محمد صلوات الله عليه. أما كبار أصحابه ممن لم يحضروا العقبة فإن رسول الله أبلغهم خبرها ، ويتجلى لنا هذا فيما يقال على لسان العباس فى هذا اللقاء ، وقد سبق أن شككنا فى خروج العباس مع رسول الله ﷺ فى هذا اللقاء ، والغالب أن قائل هذا هو رسول الله ، فهو وحده فى هذا المقام كان صاحب الأمر والتوجيه ، وإذا نحن تأملنا الكلام فى اجتماع العقبة تبينا أن العباس لم يكن له أى سلطان فى قومه ليقول للمسلمين ، وهو مشرك : «أخفوا جَرْسكم فإن علينا عيوناً ، وقدِّموا ذوى أسنانكم فيكونون هم الذين يلون كلامنا منكم ، فإنا نخاف قومكم عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى مَحَالِّكم» فهذا حرص بالغ على المسلمين من جانب رجل ليس مسلماً .

أما من أقحم العباس هنا فهم الذين حرصوا فى ظل الحكم العباسى على أن يجعلوا للعباس سابقة فى الإسلام ، فأشركوه مع رسول الله فى مثل هذه المشاهد الجليلة ، ومثال ذلك قولهم إن رسول الله عندما أصلح بين بطون قريش التى كانت تختصم

---

(١) طبقات ابن سعد ١/ ١٤٩ .

فيمن يضع الحجر الأسود مكانه ، فكان رسول الله صاحب الفكرة الحصيفة فى خلع ثوبه وطلبه إلى القرشيين أن يضعوا عليه الحجر ويرفعوا الثوب جميعاً ، ثم تجىء تلك الدعاية العباسية فتقول : إن الحجر عندما وازى موضعه من ركن الكعبة كان العباس هو الذى حمله من الثوب ووضعه فى مكانه وكان ذلك أيام عبد المطلب ، والأرجح أن عبد المطلب هو الذى فعل ذلك ولكن دعاة العباسيين هم الذين أعادوا صياغة الخبر على هذه الصورة . ومثل هذا كثير.

المهم لدينا أنه كان هنا إحساس بأن على المجتمعين عيوناً ، والعبارة هنا مقصودة بمعناها الكامل والعيون هنا هى عيون قريش . فكأن هذه القبيلة كان لها من التنظيم ما يجعل لها عيوناً على الناس ، يوافونها بالأخبار لتكون دائماً على بينة من أمرها فى كل حين .

ولابد أن نذكر هنا أن هذا الخبر الذى أُقحِم فيه ذكر العباس أصبح نتيجة لذلك مضطرباً لا تستقيم فقراته بعضها مع بعض ، مثال ذلك : « فلما أصبح القوم غدت عليهم جلة قريش وأشرافهم حتى دخلوا شِعْبَ الأنصار، فقالوا : يا معشر الخزرج، إنَّا بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة وواعدتموه على أن تبايعوه على حربنا ، وأيم الله ما حَىٌّ من العرب أبغض إلينا إن شبَّت بيننا وبينه الحرب منكم ، قال : فانبعث من هناك من الخزرج من المشركين يحلفون لهم : ما كان هذا وما علمنا .. » وسياق الخبر هنا وبقيته يدل على أن ذلك كان فى المدينة ، وهو لا يصح ، لأن الكلام ينص على أن هذا كان غداة ليلة العقبة ، فكيف ينام قوم فى مكة ويصبحون فى المدينة ؟

ثم إن بقية الخبر تقص كيف تتبعت قريش رجال المدينة فى عودتهم إلى بلدهم بل إننا نقرأ هنا أن أهل مكة أدركوا سعد بن عبادة وضربوه ، وجعلوا يده إلى عنقه بِنسْعَة، أى برباط من سعف النخل أو الخوص ، وكيف يجوز لقريش أن تقيد يدى سعد بن عبادة وتضربه ؟ وفى النهاية نقرأ « فرحل القوم جميعاً إلى المدينة » [1] ومثل هذا الاضطراب فى نسق الخبر قولهم « نبرأ إلى الله منها ومما كُتِب فيها . قال هشام بن عمرو نحواً من ذلك » .

---

(١) طبقات ابن سعد ١/ ١٤٩ - ١٥٠ .

ومعنى ذلك أن قريشاً عندما قررت المقاطعة والحصر استعملت الضغط على المعارضين من مَلَئِها ، فوافقوا على رغمهم ، وها هم الآن يقررون ذلك.

وكان رد أبى جهل عظيم المعنى بالنسبة لتنظيم قريش، قال : «هذا أمر قُضى بليل، تُشوور فيه بغير هذا المكان» أى أن قرارات قريش كانت تُتخذ وتتم الموافقة عليها علناً ، وفى مكان معين هو دار الندوة فى الغالب ، وقوله «تشوور فيه بغير هذا المكان» يعنى أن هذا المكان مكان المشاورة والقرارات فإذا بحث أمر خارج هذا المكان -دار الندوة - أو موضع آخر حول الكعبة ، فهو أمر غير قانونى مخالف لما ينبغى أن تكون عليه الأمور .

المستَهزئون - الخُروج إلى الطّائف :

نُقضت الصحيفة إذن فكان ذلك نصراً لبنى هاشم وبنى المطلب ، ولكنه لم يكن نصراً للإسلام فقد ظلت قريش على موقفها وازداد أمر المسلمين ضيقاً ، فإن قريشاً شددت من موقفها ، وظلت رغم نتيجة الحصار محتفظة بوحدتها وموقفها المعادى للإسلام ، ولكن رجالها أيقنوا أنهم لا يستطيعون شيئاً حيال محمد ﷺ ، فلجأوا إلى أساليب جديدة فقد استعملوا العنف والاضطهاد والحصار وَوُفِّقوا فيما أرادوا ولكنهم كما قلنا ظلوا يخافون محمداً والإسلام ، فأرادوا أن يزيدوا أنفسهم حصانة فلجأوا إلى الاستهزاء بالإسلام وأهله ، وكانت السخرية من أساليب العرب المعروفة فى صراع القبائل بعضها مع بعض ، وفى صراع الناس بعضهم مع بعض ، ومن هنا جاء الهجاء وشعره ، والنقائض وكلها أسلحة صراع تقوم على السخرية والاستهزاء لها أثرها الفعال .

وكان الاستهزاء بالدعوة وصاحبها سلاحاً ظنت قريش أنه ينال من الإسلام ، لأنه يجعله هزواً وسخرية ويجعل كلام محمد مدعاة للتقليل من شأنه ، وكلنا نعرف فعل الرسوم الهزلية المعروفة بالكاريكاتورية فى الصراع السياسى اليوم ، وبطبيعة الحال كان الساخرون الذين تصدوا لذلك من أهل الفكاهة والنادرة واللسان اللاذع ، وكان بعضهم من سادات قريش ومن يحسبون أنفسهم أذكياء.

وعندما نقرأ كلام أولئك الذين يسميهم القرآن الكريم بالمستهزئين يستوقف نظرنا

إيغالهم فى الرفض والعناد وما يجرى على لسانهم من كلام ، كأن المعركة مع الإسلام زادتهم تمسكاً بآرائهم ، وهنا تتجلى لنا خاصية من خصائص الحياة القبلية وهى تشترك فى تلك الخاصية مع الحياة القروية ، وهى خاصية طرد أى غريب يطرأ عليها ، مثلها فى ذلك مثل الأجساد ، وكلنا نعرف هذه الظاهرة البيولوجية التى تُعرف فى الإنجليزية باسم Rejection وجسد الكائن الحى يرفض أو يطرد أو ينفى كل كيان يحس أنه غريب عنه ، وهو فى هذه الحالة يطرد كل ما يحس أنه غريب ولو كان مفيداً له ، فإن الجسم يطرد القلب السليم الذى يُزرع فى مكان قلب المريض ، ويرفض الكلية السليمة مع أنها تُزرع فيه لحمايته وشفائه .

وقريش كانت قبيلة تعيش فى - وحَوْلَ - مدينة صغيرة كأنها قرية ، والقرآن الكريم سماها أم القرى أى أكبر القرى ، ولم يقل أنها مدينة ، والقرآن دقيق الدقة كلها فى استعمالاته ، فقد سمى المدينة باسمها ، وهو اسم ووصف فى آن واحد ، وسمى مكة والطائف بالقريتين لأن الطائف أيضاً كانت قرية وقبيلة ، وهذا مبحث آخر لانريد أن نستطرد فيه هنا ، والمهم لدينا أن ظاهرة الطرد هذه كانت قوية جداً فى مكة لأنها قرية وقبيلة ، وكانت أقوى وأظهر فى الطائف ، لأنها كانت قرية أصغر من مكة .

وهذا يفسر لنا رفض أهل الطائف وهم قبيلة ثقيف - رفضوا مجرد الاستماع لرسول الله ﷺ ، لأن الإسلام الذى أتى يبشر به بدا للثقفيين عنصراً غريباً جداً عن طبيعة تكوين قريتهم ، فكانت ميكانيكية الطرد أشد وأقوى ، ومن ثم فإن أهل الطائف رفضوا مجرد الاستماع ومارسوا الطرد حرفياً ، فلم يستريحوا حتى أخرجوا رسول الله من مدينتهم بالقوة ، قال ابن إسحاق: «وأَغْرَوا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبُّونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة ، وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى حَبَلَة من عنب ، فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف..»[1] .

وهنا ، رسول الله يجد نفسه خارج الطائف - وخارج مكة أيضاً ، فكلا المجتمعين

(١) سيرة النبى لابن هشام : ٢/ ٦١، والحبلة شجرة العنب أو قضبانها.

المكى والطائفى قد خاف منه – أو بتعبير أدق من الدعوة الإسلامية التى يقول بها – هنا نفهم الدعاء الذى دعا به رسول الله ﷺ ربه فى ضوء جديد ، فنحن نقرأ هنا الدعاء بإعجاب وتأثر بالغين لما فيه من صدق الإيمان والإخلاص التام لله سبحانه ، وما ينطوى عليه من تمسكه بأداء رسالة لنبى مرسل من الله سبحانه ، وكنا نحسب أن هذا قصارى ما يكون من إدراكنا لمعانى هذا الدعاء ، والآن تعطينا دراستنا هذه معنى ومغزى آخرين له فهو هنا سؤال (فى صورة دعاء) من الرسول إلى من أرسله (الله سبحانه وتعالى) خلاصته : الآن يا ربى قد بذلت غاية جهدى مع أهل مكة (الذين أرسلت فيهم) وأهل الطائف (الذين أردت أن أذهب بالدعوة إليهم) فماذا أعمل؟. إننى مخلص لك الإخلاص كله ، مؤمن بك الإيمان كله. وقد وصلت من أولئك الناس إلى أقصى ما استطعت الوصول إليه فماذا أعمل الآن ؟ وإلى أين أتجه؟ إننى لاأبالى إلا بك ، فما دمت راضياً عنى غير غاضب علىَّ فما أبالى بشىء وأنت سبحانك بقوتك وحولك تستطيع أن تفتح لى سبيلاً جديداً ، وأنا يا ربى طوع أمرك ، ورهن مشيئتك ولن أدع هذا الأمر ما حييت ، فماذا أعمل الآن؟ وإليك نص هذا الدعاء الذى يُعتبر أجمل وأصدق وأخلص دعاء توجه به نبى مرسل إلى الله الذى أرسله ، وسأقسمه إلى فقرات لكى تستبين المعانى التاريخية والدلالات الاجتماعية التى أشرت إليها آنفاً :

١ – اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقِلَّة حيلتى ، وهوانى على الناس.

٢ – يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى .

٣ – إلى من تكلنى ؟

٤ – إلى بعيد يتجهمنى (يريد أهل الطائف) .

٥ – أم إلى عدو ملكته أمرى (يريد قريشاً) .

٦ – إن لم يكن بك غضب عَلَىَّ فلا أبالى .

٧ – ولكن عافيتك هى أوسع لى.

٨ – أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا

والآخرة من أن تُنزِل بى غضبك ، أو يحل عَلَىَّ سخطك ، لك العُتْبَى حتى ترضى ، ولا حولَ ولا قوة إلا بك [1].

المفروض فى ترتيب حوادث السيرة أن الخروج إلى الطائف كان بعد وفاة أبى طالب وخديجة ، ووقوف محمد صلوات الله عليه وحده بعد هذه المرحلة الثانية الطويلة من مراحل كفاحه لنشر دعوته وقوله : «أم إلى عدو ملَّكته أمرى؟».

ويكون جواب الله سبحانه وتعالى على هذا الدعاء الذى توجه به إليه عبده الصادق ورسوله الأمين أبلغ برهان على صدق الرسالة ومجيئها من عند الله وتأييده لها سبحانه : الإسراء والمعراج ، وكأن الله سبحانه أراد أن يقول لنبيه: هؤلاء كذبوك ورفضوا دعوتك ووقفوا صفاً واحداً من دونك؟ لا عليك امْضِ فى رسالتك وأنا عاصِمك من الناس ، أنا أسرى بك ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴿الَّذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [2] والإسراء ثابت بنص القرآن الكريم ، وأما المعراج فثابت أيضاً من حديث ثابت البنانى بإسناد متصل عن مسلم بن الحجاج ، وهو مُؤيَّد ضمناً بما ورد فى سورة النجم من الآية الأولى إلى الثامنة عشرة ، وقد اجتمع رأى المفسرين على أنها تأييد وتفصيل لخبر العروج برسول الله ﷺ إلى السماء ، وليرجع من يشاء الاستزادة من ذلك إلى كتاب الشفاء للقاضى عياض بن موسى اليحصبى ، ففيه غَنَاء للمستزيد .

وهكذا تكون أدنى درجات اليأس من الناس هى بداية أرفع درجات التكريم والتأييد من الحق سبحانه وتعالى ، ويكون بأس رسول الله ﷺ من قريش فتحاً عليه من البارى ، فقد وجَّهه ربه إلى غير القرشيين فسعى واجتهد وسعى واجتهد ، ثم كانت بداية النصر هى اللقاء الأول مع أهل يثرب وبيعة العقبة الأولى وما أعقب ذلك من آلاء كرم الله سبحانه ، وتأييده للإسلام وأهله. ولكن هذه هى السيرة ونخشى أن تصرفنا فتنتها عن حديث قريش ، فلنعد إلى ما كنا فيه .

* * *

(١) ابن هشام ، السيرة ٢ / ٦٢ .
(٢) سورة الإسراء : آية ١ .

يستوقف نظرنا فى خبر عودة رسول الله ﷺ إلى مكة بعد ما لقى من إعراض أهل الطائف عن دعوته وإخراجهم إياه من بلدهم ، قول ابن إسحاق إن رسول الله فى طريق عودته توقف بنخلة والمراد هنا نخلة اليمانية ، فهى التى يمكن المرور بها للوارد من الطائف ، وهنا يسأله زيد بن حارثة ، وهو كان رفيقه الوحيد فى تلك الرحلة القاسية: كيف تدخل عليهم وهم أخرجوك؟ والسؤال هنا لا وجه له إذا أخذناه على ظاهره ، لأن الذى نعرفه إلى الآن هو أن محمداً ﷺ لم يخرجه أحد ، وإنما كان هو الذى خرج من تلقاء نفسه باحثاً عن ميدان آخر لنشر الدعوة ، بعد أن وقفت قريش منه هذا الموقف الرافض المعاند ولم تتحرك منه خوفاً على نفسها .

ولكن يبدو أنه بعد وفاة أبى طالب وانتقال رياسة بنى هاشم إلى عبد العزى بن عبد المطلب وهو عم رسول الله ، لم يكن عبد العزى وهو أبو لهب وموقفه من الرسالة والرسول معروف مستعداً لحماية محمد إذا هو استمر فى دعوته التى تثير مخاوف المشركين ، وهو منهم . وتذكر بعض النصوص أن أبا لهب عندما انتقلت إليه الرياسة أعلن لمحمد أنه يحميه إذا هو ترك الدعوة فى مكة ، فخرج رسول الله يحاول مع أهل الطائف ، والآن هو لم يصل إلى شىء مع الثقفيين فهو مضطر إلى الرجوع إلى مكة . وكأنه وقد خرج قد تخلى عن حماية أبى لهب وهذا هو المعقول ، وفى الأخبار كثير عند ابن سعد .

وقد شهدت هذه الفترة تطوراً حاسماً فى تاريخ قريش ، وهو صعود أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية إلى الرياسة الفعلية لقريش ، أو بتعبير أدق إلى قيادة المقاومة للإسلام . وقد قلنا هنا «صعد» .. ولم نقل « وَلِى » أو وُلِّى لأن نظام قريش كان نظاماً قبلياً لا وظائف فيه ولا رياسة ، وإنما كانت الملكات هى التى تقدم أصحابها ، وفى معظم القبائل كان التنافس على الرياسات مشكلة دائمة بسبب نفور الأنداد من الاعتراف بالتفوق بعضهم على بعض ، ولكن الأمر كان ينتهى دائماً بالتسليم للأوفق والأقدر ؛ لأن المسئولية فى الحياة القبلية مسئولية مباشرة وواضحة ، وغير الكفؤ لا بد أن يفسح الطريق لغيره . وفى قريش خاصة ، حيث كان الشعور بالصالح العام مرهفاً ، كان الملأ يسلم بالمسئولية لمن يستحقها دون مشاحنة ، وقد رأينا كيف تراجع

أبو طالب عملياً - وحَلَّ محله فى رياسة قريش رجال أكفأ منه فى سياسة أمور القبيلة فى شتى الميادين ، وهؤلاء الرجال هم الذين تولوا حماية قريش مما توهموا أنه خطر الإسلام على القبيلة .

وفى أُسْد الغابة لابن الأثير إشارة ذات معنى ترد فى ترجمة أبى سفيان بن حرب تقول: «وقيل : كان أفضل قريش رأياً فى الجاهلية عتبة وأبو جهل وأبو سفيان ، فلما أتى الله بالإسلام أدبروا فى الرأى» [1]. وعتبة هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وقد كان ذا رأى حسن فعلاً ، ولكنه كان ينتمى إلى جيل ذوى الأسنان من القرشيين ، مثله فى ذلك مثل الوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وعبد الله بن جدعان ، وهؤلاء وأهل طبقتهم هم الذين كانوا يتولون أمر قريش فعلاً حتى ظهرت دعوة الإسلام ، ونشأت الأزمة واحتاج الأمر إلى رياسة شابة تواجه الموقف ، جيل محمد ﷺ أى أنداده فى السن وبرز من بينهم أبو جهل ، ولكنه لم يستطع قيادة المعارضة بالهدوء والرزانة المطلوبتين ، مما جعل أصحاب الأسنان والأموال يسرعون من مصطافهم فى الطائف كما ذكرنا ، فتولوا الأمر وحاولوا التفاهم مع محمد ﷺ أولاً ثم مع أبى طالب ثم مع محمد مرة ثانية ، ثم قادوا قريشاً فى مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب .

وعندما انتهت المقاطعة بدأ أمر أبى سفيان بن حرب يقوى ، وكان أول ظهوره ما كان من تميزه فى شئون التجارة ، فكان هو الذى ينظم القوافل ويجمع الأموال ، وقد يخرج بها ، وقد لا يخرج. وقد أبدى فى هذا الباب مهارة كبيرة ، فأصبح المسئول عن هذه الناحية الهامة من نواحى الحياة المكية ، وخلال الحقبة الأخيرة من الفترة المكية من البعثة النبوية نجد أن أبا سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس يتولى قيادة قريش فى صراعها مع الإسلام ، وسيظل فى هذه المكانة حتى معركة الخندق فى السنة الخامسة للهجرة .

المرحلة الثالثة الأخيرة من الفترة المكية :

بعد انتهاء مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب وخروجهم من الشِّعْب بقليل ، توفى أبو طالب ، وبعد قليل توفيت خديجة رضى الله عنها أم المؤمنين. وكان ذلك بإجماع

(١) أسد الغابة ، ترجمة أبى سفيان ٢ / ٤٤٨ وما بعدها .

المؤرخين قبل الهجرة بثلاث سنوات ، أى فى سنة ١٠ من البعثة وبقى رسول الله ﷺ وحيداً وإن أحاطت به قلة من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلىٌّ وزيد بن حارثة ، وبدأت الحقبة الثالثة من الفترة المكية ومدتها ثلاث سنوات .

وواضح أن خديجة رضى الله عنها ماتت من أثر الجهد الذى عانته أيام الحصر والمقاطعة . وقد كانت سنها يوم تزوجت رسول الله أربعين سنة بإجماع الروايات ، ومكثت معه قبل البعثة خمس عشرة سنة هى أهنأ سنوات عمرها ، فقد كان ﷺ نِعْم الزوج ونِعْم السكن لزوجه ، وخلال هذه الفترة أنجبت له أولاده : القاسم (وقد درج صغيراً وبه كان يكنى) ثم زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وهى صغرى بناته ، ويقال إنه أنجب غلاماً ثانياً يسمى الطاهر، درج أيضاً ، ولم ينجب لرسول الله إلا خديجة ثم مارية القبطية .

ثم جاء الوحى ويجيء دور خديجة رضى الله عنها ، ووقوفها معه وتثبيتها له . ومن عجب أن بعض مؤرخينا يتساءل إن كان أبو بكر أول المسلمين مع أن خديجة آمنت به قبل أن يعرف أنه نبى ، فبمجرد أن أبلغها نبأ الوحى ، عرفت أنه بشرى خير فوقفت إلى جانبه وشجعته وعملت على تثبيت فؤاده وأخذت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فطمأنه ، ولازمته بعد ذلك خلال الفترة مؤيدة حانية ، فلما نزلت الآيات الأولى من المدثر وبها أصبح رسول الله نبياً رسولاً ازداد إيمانها به ، وكانت أولى المصليات خلفه ، وهنا كان دخول أبى بكر وعلى بن أبى طالب فى الإسلام.

وكانت سن خديجة إذ ذاك خمساً وخمسين سنة ، ثم قضت معه بعد البعثة تسع سنوات وثمانية أشهر ، عانت فيها معه متاعب الدعوة كلها وكانت له خير الزوجة وأحسن الأمن والسكن ، وتجرعت معه رعب الحصر والمقاطعة ، فلما انتهت المقاطعة كانت سن خديجة أربعاً وستين سنة وثمانية أشهر، وقد هاضها التعب والإجهاد ، فماتت بعد نهاية الحَصْرِ بقليل وسِنُّها أربع وستون سنة وتسعة أشهر .

وأما أبو طالب فقد مات عند سن عالية ، ربما كانت الثمانين ، وفقد رسول الله بموته صديقاً كريماً وحامياً ثابتاً ، ظل إلى جواره وإن لم تحمله نفسه على الإيمان فمات كافراً .

وبموت أبى طالب بقى رسول الله ﷺ وحده تقريباً كما قلنا ، وتولى رياسة بنى هاشم عبد العزى أبو لهب بن عبد المطلب ، وقد تحدثنا عن موقفه من رسول الله ﷺ والإسلام.

وما بقى لرسول الله ﷺ فى مكة ، مدته ثلاث سنوات من ١٠ إلى ١٣ للبعثة وهى الحقبة الرابعة والأخيرة من الفترة المكية التى تُقسَّم كما يلى :

من سنة ١ إلى نهاية ٢ للبعثة : الحقبة الأولى، الدعوة السرية ثم العلنية حتى دخول دار الأرقم من سنة ٣ إلى نهاية ٥ للبعثة : ومدتها ثلاث سنوات انتهت آخر سنة ٥ للبعثة بعد إسلام عمر بن الخطاب وخروج المسلمين من دار الأرقم والدعوة العلنية والصراع مع قريش.

من بداية سنة ٦ إلى ثمانية أشهر من السنة التاسعة للبعثة أى سنتان وثمانية أشهر هى مدة الحصر والمقاطعة .

من ١٠ إلى ربيع الأول هجرية وهى الحقبة الأخيرة التى نحن بصددها ومدتها ثلاث سنوات وشهران و١٢ يوماً ، وهى الحقبة التى بلغ فيها اضطهاد قريش لرسول الله ذروته ، وفيها كان الخروج إلى الطائف والعودة منها ، ثم الإسراء والمعراج ، ثم الدعوة للأغراب داخل مكة وللأعراب خارجها حتى كان الاتصال الأول بوفد الخزرج من أهل يثرب وبيعة العقبة الأولى ، وكانت قبل الهجرة بسنتين ، ثم لقاء وفد اليثربيين من الأوس والخزرج ونفر من الجهنيين وبيعة العقبة الثانية قبل الهجرة بسنتين ، ثم إرسال رسول الله ﷺ مصعب بن عمير إلى مكة وانتشار الإسلام فى يثرب ثم هجرة رسول الله ﷺ إلى قباء فى ١٢ ربيع الأول سنة ١ للهجرة / ٢٤ سبتمبر ٦٢٣م .

أبو سفيان صخر بن حَرب وَبنو عَبد شمس يتولّون قيَادة قريش فى صرَاعها مع الإسْلام :

بعد ذلك الفشل فى مواجهة دعوة الإسلام ، كان لا بد لقريش من سياسة جديدة حياله ، وتلك السياسة كان لابد لها من زعيم جديد يسير فيها . ولم يكن قد بقى

لقريش إذ ذاك من الزعماء من يصلح لهذا الأمر إلا أبو سفيان صخر بن حرب .

وكان أبو سفيان رجلاً ذا مواهب واضحة فى شئون المال ، لأنه بطبعه كان رجلاً هادىء المزاج عملى التفكير واقعى النظرة ، ولم يتصف قط بخصائص إنسانية أو روحية أو فكرية . ومن تصرفاته ترى أنه كان رجلاً بارد العواطف ذا طموح إلى السلطة والمال . ونظراً لموقفه المناهض للإسلام وللشك فى صحة إسلامه بعد فتح مكة ، فإن المراجع لا تطيل الحديث عنه ، وإن كنا نحمد لأصحابها أنهم أعطوه جانباً لا بأس به من العناية ، واقتصدوا فى تشويه صورته على مذهبهم فى الكلام عن الصحابة ممن لا يرضون عنه ، إذا كان فى صحة ضمائرهم شك ، والاكتفاء بذكر محاسنهم ، وكان من حسن حظ أبى سفيان أنه أسلم وإن ظل إسلامه سطحياً إلى آخر حياته ، ولم تفعل المراجع شيئاً لصقل صورته كما فعلت مع العباس بن عبد المطلب ، لأن سلطان بنى حرب بن أمية سرعان ما انتهى بعد وفاة يزيد بن معاوية ، واتجهت العناية إلى بنى مروان بن الحكم بن أبى العاص ، والدولة السفيانية حل محلها الدولة المروانية ، فلم يعد هناك ما يدعو إلى تجميل صورة السفيانيين ، أو قل لم يعد هناك من يدفع أجر ذلك ، وإلا فإننا إذا تأملنا واقع الأحداث نجد أن العباس لم يكن خيراً من أبى سفيان فيما يتصل بالموقف من الإسلام ، وفى السطور التالية ستتكشف لنا حقائق أخرى تتعلق بهذا الموضوع وهو فى أنساب الأشراف للبلاذرى .

فى أكثر كتب التراجم تفصيلاً لا نجد شيئاً يشفى الغُلَّة عن أبى سفيان ومروان بن الحكم ، أكثر مما نجد فى الكتب التى أُلِّفَتْ فى الصحابة ، وكلها مختصرات ، وخلاصتها كلها أن أبا سفيان أسلم يوم الفتح وأن إسلامه حَسُنَ بعد ذلك ، وإن كان هناك الكثيرون ممن يشككون فى صحة هذا الإسلام ، وشهد بعد إسلامه بعض المشاهد مع رسول الله ، وفقد إحدى عينيه فى حصار الطائف ، واستمر يحارب فى صفوف المسلمين فى أيام الراشدين ، حتى فقد عينه الأخرى فى موقعة اليرموك ، وتوفى سنة ٣٢ أو ٣٤ هـ . فى خلافة عثمان عن ثمان وثمانين سنة أو نحوها ، وإذا نحن حسبنا عمره على هذا الأساس وجدنا أن سِنَّه كانت عند بعثة محمد ﷺ فى الحادية والأربعين ، أو الثالثة والأربعين من العمر ، فهو إذن من جيل رسول الله مثله فى ذلك ، مثل أبى جهل وأبى لهب عبد العزى .

ولكن الذى يهمنا هنا هو أبو سفيان قبل إسلامه ، فهو إلى هذه المرحلة من دراستنا يقف فى صفوف أعداء الإسلام ، ولكن المراجع لا تنسب إليه خبراً واحداً عن أعمال السفاهة التى كان يرتكبها غيره من أبناء جيله ، مثل عقبة بن أبى معيط وهو ابن عم أبى سفيان وشيبة بن ربيعة وهو الأخ الأصغر لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وهو أيضاً ابن عم أبى سفيان ، فكأن الرجل كان ينأى بنفسه عن هذه الصغائر رغم كفره ، بل كان أهدأ من أبى جهل طبعاً وأذكى فؤاداً ، ويتجلى ذلك فى مقدمات موقعة بدر .

وهذا الاتزان إلى جانب الانصراف إلى المال وحسن تدبيره له ومهارته فى الشئون التجارية ، هى التى وصلت بأبى سفيان إلى قيادة قريش بعد هجرة رسول الله ﷺ وقيام أمة المدينة ، وبداية الصراع المسلح حيناً والسياسى حيناً آخر بين الجانبين.

وسبب وصول أبى سفيان إلى القيادة - إلى جانب خصاله التى ذكرنا بعضها ، ويأتى الباقى فى سياق الكلام - ذلك أن رسول الله ﷺ بعد استقراره فى المدينة وقيام أمة الإسلام ، لجأ إلى الضغط على قريش عن طريق إيقاف تجارتها مع الشام ، أى حرمانها من مورد الرزق الأساسى لها ، وذلك بالسيطرة على طريق التجارة إلى الشام أولاً ثم إلى العراق ثانياً ، لأنه كان يتحاشى تحطيم قريش عسكرياً ، ولو أراد لفعل ، ولكنه ﷺ كان يعرف قدر قريش وملكات رجالها ، بل كان يعرف سبب عنادها ، فاتجه بصره إلى حربها حرباً اقتصادية ، ولما كان أبو سفيان هو رجل المال ومنظم القوافل وقائد معظمها ، فقد أصبحت المشكلة مشكلته ، أى أنه أصبح الزعيم القرشى الذى تعيَّن عليه الخروج بقريش من تلك الأزمة ، فحاول حلها بالحرب (بدر ثم أُحُد) ثم بالسياسة والحرب (الخندق) ثم اتجه لحلها عن طريق السياسة ، وهو طريق التاجر فنجح وأنقذ قريشاً ، وتفطن إلى ما كان الرسول ﷺ يسعى إليه من كسب قريش إلى الإسلام دون تحطيمها أو إذلالها أو كسر أنفها ، فسار فى ذلك الطريق ونجح فيه كما قلنا ، كما سنرى .

ويبدو أن أبا سفيان كان منصرفاً باهتمامه كله إلى شئون المال ، فلا نلاحظ أن له دوراً واضحاً فى صراع التضييق على المسلمين وربما كان السبب فى ذلك أن إحساسه بخطر الإسلام على قريش كان أقل من إحساس غيره ، نظراً لضخامة بيته وكثرة

أفراده وانصرافهم التام إلى مصالحهم ومصالح بيتهم . وقد كاد أبناء أمية الأكبر وأمية الأصغر وعبد أمية من أبناء عبد شمس وحدهم أن يكونوا قبيلاً قائماً بذاته . وفى الجداول الملحقة بذلك الكتاب شجرة نسب أو جدول نسب عبد شمس بن عبد مناف بن هاشم ، وهو يوضح لك هذه الصورة .

وإنما أوردنا هذا البيان عن بنى عبد شمس وفروعهم الكثيرة ، لأننا وصلنا فى هذا التاريخ ، إلى دخول أبى سفيان ميدان الحوادث التى قدمته ورشحته للقيادة ، وبتقدُّمه هذا يبدأ تطور بعيد المدى فى تاريخ قريش ، لأن قيادة أبى سفيان لقريش لم تكن أمراً خاصاً به ، بل ببنى عبد شمس جميعاً . ومن ذلك الحين سيظل بنو عبد شمس قوة من القوى المحرِّكة لتاريخ قريش ، فإن بنى عبد شمس بن عبد مناف يدخلون الآن ميدان الزعامة فى قريش ممثلين للوثنية العربية فى مواجهة الإسلام ، ودخولهم هذا يفتح أبواب القوة لعنصرين رئيسيين من عناصر القوة والقيادة : عنصر المال وعنصر السياسة .

لقد كان المال دائماً عاملاً أساسياً فى الحياة القرشية ، ولكن بنى هاشم وعبد الله ابن جدعان سيد بنى تميم بن مرة والمطعم بن عدى شيخ بنى نوفل بن عبد مناف ، وبقية الجيل القديم من بنى عبد شمس ومخزوم وبيوت قريش التى ذكرناها كانوا يستخدمون المال للفخر والشرف والسؤدد ، والسؤدد هو السيادة الشرفية المعنوية التى تستخدم المال لاجتذاب القلوب واجتلاب المحامد ، فكل زعماء قريش إلى الآن كانوا أغنياء ولكنهم لم يحوِّلوا المال إلى قوة أو يترجموه إلى سيطرة على الآخرين . وأبو سفيان أيضاً كان غنياً وهو لم يصل إلى الزعامة بالمال وحده ، بل بالعقل كذلك والرزانة وطول الفكرة ، ولكنه لم يكن يحفل كثيراً للسؤدد أو الفخر ، وهو لهذا كان يدخر ماله لأنه يعرف قدر المال .

وفى كنفه نشأ ابنه معاوية وعرف - عندما قام النزاع على السلطان - كيف يستخدم ماله فى الوصول إلى السلطان أى كيف يُترجم المال إلى قوة ، وهى حقيقة لم ينبه عليها أحد من مؤرخينا ، فالذى لا شك فيه هو أن يزيد بن أبى سفيان وأخاه معاوية بن أبى سفيان ، عندما ذهبا إلى الشام أثناء الفتح الإسلامى وبعده كانا غنيين ، وقد استثمرا

مالها استثماراً طيباً فى كسب الناس وجمعهم حولهم ، وعندما مات يزيد عامل الشام لعمر بن الخطاب ، ورث مكانه وشيئاً من ماله أخوه معاوية ، وكان بنو أمية بفرعيهم قد أوعبوا فى الهجرة إلى الشام والمشاركة فى فتحها ، فجمعهم معاوية حوله ومضى يصطنع الأنصار بالمال ، ولم يقل أحد إن معاوية عدا على مال الجباية ، وما كان عمر ليتهاون معه فى ذلك ، ولكن معاوية كان ينظر إلى ما بعد المال : إلى القوة السياسية ، وقد أنفق فى ذلك جانباً عظيماً من ماله فى تأثيل سلطانه على بلاد الشام .

وفى أيام عمر نفسه كان معاوية يتصرف فى بلاد الشام تصرُّف الأمير المستقل العظيم المظهر ، وفى أيام عثمان أصبح يتصرف تصرف الملوك ، ولو أن رجلاً آخر غير على بن أبى طالب خلف عثمان فى الخلافة فإن النزاع كان لا بد واقعاً بينه وبين ملك الشام هذا ، لأن بنى عبد شمس بن عبد مناف بأعدادهم الكثيرة كانوا قد ضربوا فى أرض الشام جذوراً عميقة ، ذهبت كل مذهب ، بحيث أصبح اقتلاعهم من السلطان فى الشام اقتلاعاً للأرض نفسها ، والمطالبة بدم عثمان لم تكن إلا ستاراً ، والاعتراض على عزل علىٍّ إياه عن الشام كان مجرد ذريعة وتكأة ، أما الحقيقة فهى أن آل عبد شمس كانوا قد ذهبوا بالشام ، ولم يكن هناك سبيل لاسترجاعه منهم إلا بالحرب .

وفى هذه الحرب استشهد على بن أبى طالب الذى تمسك بالإسلام وتولى الخلافة للإسلام ، وأراد أن يزيل أولئك الملوك الذين تربعوا فى قلب الدولة الإسلامية . وفى الحرب أيضاً ضاع أمر عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب ، ولم يكن عبد الله بن الزبير فى مستوى علىٍّ من حيث الالتزام بالخط الإسلامى الخالص ، وإنما هو رجل من رجال الجيل الثانى من الصحابة ، طلب الخلافة لذاتها ولنفسه ، ولم يوهب موهبة استخدام المال لاجتلاب القوة ، بل كان مُقَتِّراً شديد الحرص ، فسهل على عبد الملك بن مروان إزاحته عن الطريق رغم أن غالبية المسلمين ، كانوا يفضلون آل الزبير على آل مروان .

وهذا التطور البعيد المدى فى مصائر قريش وأمة الإسلام معها ، بدأ قبل ظهور أبى سفيان على مسرح السياسة القرشية،لأن بداياته كانت مع نشوب النزاع والتنافس بين هاشم وعبد شمس ابنى عبد مناف بن قصى ، وقد ذكرنا ذلك وحكينا أن أمية بن

عبد شمس هو الذى تصدى لعمه هاشم وتحداه ، ثم خسر أمامه فنفى نفسه إلى الشام فيما يقول الرواة . أما أبوه عبد شمس فقد وقف إلى جوار هاشم وأيّده لأن هذا الجيل القديم من القرشيين كان يؤمن بوحدة قريش . وأبناء عبد مناف كانوا يداً واحدة على من عداهم ، أما أمية بن عبد شمس فلم يكن لديه هذا الإحساس .

ولا نستطيع أن نؤكد أنه نفى نفسه إلى الشام فعلاً ، فقد يكون الذى حدث هو أنه انصرف بكليته إلى التجارة مع الشام فكثرت أسفاره إليه ، ولكن مكة كانت مستقره الدائم ، بدليل أنه لم يتزوج امرأة واحدة من نساء الشام ، ولكن المهم أنه جمع مالاً كثيراً وأصبح بذلك من أهل القوة فى مكة ، واعتماداً على هذه القوة زادت قدرته وقدرة بنى بيته ، على التنافس مع بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، ولم يكن أحد من بنى أمية الأكبر نداً لعبد المطلب ولهذا لا نسمع عن بنى أمية فى أيامه . ولكننا نجد بنى عبد شمس بين الجماعة الذين أساءوا التصرف وتعدوا الحدود ، مما أدى ببنى هاشم إلى تكوين حلف الفضول ، ثم نجدهم بعد عبد المطلب فى حلف الأحلاف أو حلف لعقة الدم مناهضين للمطيبين وعلى رأسهم بنو هاشم ، وفى أيام أبى طالب استمر تقدُّم هذه الجماعة وهى جماعة بنى عبد شمس ، ومخزوم وبنى سهم ، وبنى جمح ، وبنى عبد الدار ، وبنى تيم بن عبد مناة ، أى : جماعة المال .

والآن وقد اتضح أن أبا الحكم عمرو بن هشام وهو أبو جهل لم يستطع قيادة المعارضة للإسلام ومحمد صلوات الله عليه ، يدخل الميدان أبو سفيان رجل المال والتجارة .

ولو نظرنا إلى جدول نسب بنى عبد شمس لوجدنا أن أبا سفيان كان فعلاً واسطة هذه الوحدة القبلية الكبيرة ، وأمه صفية بنت حَزن وكانت من بنى هلال بن عامر بن صعصعة ، ومن أولادهم سيكون الهلاليون المشهورون فى تاريخ المغرب الإسلامى ، وغريب أمر بنى هلال هؤلاء ، فهاهم أصهار أبى سفيان بن حرب ، وسيصاهرهم رسول الله ﷺ مرتين ، فهم قوم أم المؤمنين زينب بنت خزيمة من عقب عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال ، وهم رهط أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث بن حزن

من بنى عبد الله بن هلال ، وإذن : فصفية بنت حزن أم أبى سفيان صخر بن حرب هى عمة أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث .

والحارث بن حرب هو أخو أبى سفيان ، والحارث هذا كان زوج صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ، ثم تزوجها بعده العوام بن خويلد والد الزبير ، وخويلد هذا هو أبو خديجة أم المؤمنين ، وهذا التداخل فى الأرحام والأوشاج يعطينا فكرة ترابط القرشيين جميعاً بواسطة الصهر وترابطهم مع من حولهم من قبائل العرب ، وخاصة النَّمِر بن قاسط وهلال بن صعصعة وخزاعة بالصهر أيضاً ، وهذا التداخل يُرينا أيضاً كيف أن أبا سفيان هذا كان وسطاً فى قريش كلها ، فهو قريب كل قرشى ذى مكانة ، وفى الوقت الذى نتحدث عنه ربما يكون أبو سفيان قد أصبح صهر رسول الله ﷺ ، فلسنا نعلم على وجه التحديد متى كان ارتداد عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة بنت أبى سفيان عن الإسلام ، ومتى كان زواج رسول الله ﷺ منها ، ولكنه لا بد أن يكون قد حدث فى الوقت الذى نتحدث عنه أى قبيل الهجرة بقليل ، ولكن الذى نعرفه أن أبا سفيان عندما قيل له إن محمداً قد نكح ابنتك قال : « ذلك الفحل الذى لا يُجدع (أو يُقرع) أنفه » . مما يدل على عظيم تقدير أبى سفيان لمحمد على ما كان بينهما من الاختلاف والتعارض .

صارت رياسة قريش إذن لأبى سفيان قبل الهجرة بقليل ، ولا نعنى بذلك رياسة سياسية ، فذلك أمر لم تعرفه القبائل العربية فى الجاهلية إذ إن الرياسة كانت اعتبارية أو عرفية ، بمعنى أن أبا سفيان أصبح صاحب الرأى أو منفذ ما يستقر عليه رأى الملأ فى الندوة ، والأمور هنا كانت تجرى طواعية شبه العفو ، فنحن لا نحس بأن أبا سفيان أصبح رجل قريش إلا قبيل الهجرة ، ومع ذلك فنحن نعرف - وسنرى - أن أبا جهل سيتدخل فى الأمور تدخلاً يفسد تدبير أبى سفيان بعد هجرة الرسول ، وسيفرض مزاجه الغاضب الجلف على الأمور ، مما سيؤدى بذلك إلى معركة بدر وفيها كان حتفه ونهاية الجاهلية ، وسبحانه جل وعلا يُصرِّف الأمور بتدبير لا تحيط به البصائر ، وهو سبحانه غالب على أمره .

قريش تلجأ إلى سِلاح القول بأن محمداً ساحرٌ :

وخلال الحقبة الأخيرة من الدور المكى للبعثة المحمدية بلغت قريش أكثر ما بلغت من أذاها لرسول الله ﷺ وكان ذلك فى الغالب بعد موت أبى طالب وخديجة رضى الله عنها ، ولا نعرف إن كان ذلك قبل خروجه إلى الطائف أو بعد عوده منها ، وجدير بالذكر أن مراجعنا لا تعيننا قط على ترتيب الحوادث ، فإنهم لم يدققوا بالقدر الكافى فى توقيت الحوادث مع أهمية ذلك بالنسبة لنا . إنما هى تذكر الحوادث بعضها فى إثر بعض ، دون نظر إلى منطق التاريخ أو منطق الحوادث . ونحن هنا نبذل أقصى وسعنا فى ترتيب الحوادث على نسق تاريخى مقبول . والخبران اللذان سنرويهما فيما يلى مُؤرَّخين إلى حد ما ، فإن بعض الروايات تقول إن الترمذى يجعل هذين الخبرين بعد وفاة أبى طالب ، وتلك هى الرواية التى نقول بها هنا .

يقول الترمذى : إن قريشاً اجتمعت بعد وفاة أبى طالب بثلاث ، فأرادوا قتل رسول الله ﷺ فأقبل هذا يجأه وهذا يَتَلَبَّبه[1]، فاستغاث النبى ﷺ فلم يغثه أحد إلا أبو بكر وله ضفيرتان ، فأقبل يجأ هذا ويتلتل ذا ، ويقول بأعلى صوته : ويلكم ! أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ! والله إنه لرسول الله ! فقطعت إحدى ضفيرتى أبى بكر يومئذ ، فقال على : والله ليومُ أبى بكر خير من مؤمن آل فرعون ، ذلك رجل كتم إيمانه ، فأثنى الله عليه فى كتابه ، وهذا أبو بكر أظهر إيمانه وبذل دمه وماله لله عز وجل[2].

وظاهر أن هذا الموقف من قريش كان نتيجة لموت أبى طالب ، فقد جرؤ القرشيون عليه حتى آذوه كل الأذى . ويبدو أنهم وجدوها فرصة ليتخلصوا منه وهم آمنون من غضب بنى هاشم ، فإن رئيسهم وهو أبو لهب من أشد الناس عداوة لرسول الله . ويستوقف نظرنا أننا لا نسمع عن موقف هنا لعمر أو لحمزة مع أن هذا هو الوقت الذى احتاج الرسول إلى وقوف أصحابه معه ، ولم يُعرِّض نفسه للأذى إلا أبو بكر كما رأينا . وكان على بن أبى طالب إذ ذاك فى حوالى العشرين من عمره . فلم

---

(١) هذه إحدى مفارقات النص الذى يرويه النويرى ، وهى أصح مما فى المتن بثلثه .
(٢) النويرى ، نهاية الأرب ١٦/ ٢٠٧ .

يكن يُنتظَر منه الكثير فى مواجهة شيوخ قريش ، ولكنه اقتدر على أن يشهد هذه الشهادة الكبيرة فى حق أبى بكر .

ويضيف ابن هشام رواية تقول : إن أشد ما لقى رسول الله ﷺ من قريش أنه خرج يوماً فلم يلقه أحد من الناس إلا كذَّبه وآذاه ، لا حُرٌّ ولا عبد ، فرجع ﷺ إلى منزله فتدثر من شدة ما أصابه ، فأنزل الله عليه ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② ﴾ [المدثر] وواضح ان أول سورة المدثر لم ينزل على رسول الله ﷺ فى هذه المرحلة من الفترة المكية ، أى بعد وفاة أبى طالب وخديجة ، لأننا نعرف أنها ثانية ما أنزل عليه من قطع القرآن على ما ذكرناه آنفاً ، فقد قلنا إن (اقرأ) جعلته نبياً ، ثم جاءت الآيات الأولى من المدثر فجعلته رسولاً .

ولكننا نرى هنا أن قريشاً نجحت فى أن تحصر رسول الله ﷺ وتوقف انتشار الدعوة ، فهاهم الناس يجرؤون عليه ويؤذونه ، وفى هذه الظروف لا يجرؤ أحد آخر على الدخول فى الدعوة ، وخاصة بعد حَصْر بنى هاشم ومقاطعتهم وما أصابهم نتيجة لذلك ، وهذه الظروف القاسية هى التى جعلت رسول الله يفكر فى الخروج إلى الطائف .

ولكن قريشاً لم تطمئن ، فقد كانت تحس أن كلام رسول الله وما يتلوه من القرآن يؤثر فى قلوب الناس تأثيراً عميقاً ، وكانت مكة قبلة لألوف من الحجاج والأعراب ، وكان محمد واسع النشاط لا يدع وفداً إلا قصده وتلا عليه القرآن ودعاه ، فكيف يوقفون أثر كلامه ويطمئنون إلى أن أحداً لن يقبل منه ما يقول ؟

وسر هذا الخوف من جانب قريش ، هو أن مواسم الحج والتجارة إلى مكة كانت لا تزال عامرة بالناس ، وكان رخاء مكة كله وثراء شيوخها معتمداً على هذه الجماعات التى تفد على المدينة من كل نواحى الجزيرة ، وقريش لا تأمن أن يستمع بعض أهل هذه الوفود إلى محمد ﷺ ويتأثر بكلامه ، ويكون لذلك أثره ، إذ إن الكثير من القبائل كانت تكره قريشاً وتحسدها ، ولا يستبعد أن يدفعها الحسد إلى الانضمام إلى الدعوة المحمدية ، فتكون من وراء ذلك متاعب لقريش وهم يريدون أن يقفلوا

هذا الباب ويطمئنوا ، فأخذوا يفكرون فى وسيلة يحاربون بها محمداً ويوقفون تأثيره على الناس .

قال ابن إسحاق : « وصدرت العرب من ذلك الموسم[1] بأمر رسول الله ﷺ (والمراد هنا بخبر نبوته ، وما يتلوه من القرآن ، وهو خبر حَرِىٌّ بأن يستثير تطلُّع الناس ورغبتهم فى رؤية صاحب هذه الدعوة والاستماع إليه) ، فانتشر ذكره فى جزيرة العرب كلها . قال - ابن إسحاق - ثم ابتدأت قريش فى عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم ، فأغروا به ﷺ سفهاءهم ، فكذبوه وآذوه ، ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله لا يستخفى به مبادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم»[2] وابن إسحاق هنا غير دقيق فى قوله « ثم ابتدأت قريش» لأنها لم تبدأ أذاه منذ الآن فقط ، ولكن المراد أن القرشيين عندما رأوا كثرة الوفود وكلامها فى أمر محمد ﷺ وما جاء به ، زادت فى أذاه ، ولما كانوا لا يستطيعون العدوان عليه مراعاة لحماية المطعم بن عدى إياه فقد أغروا به سفهاءهم ، ففعلوا به ما ذكره وهو صابر على الأذى ماضٍ فيما كان فيه من نقد دينهم وعيبه وتسفيه أحلامهم .

وفى إثر ذلك يروى ابن إسحاق خبراً هاماً - وهو بيت القصيد من هذه الفقرة من دراستنا - يقول فيه رواية عن يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه عن أبى عروة وهو الزبير بن العوام عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن أبيه قال : قلت : ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يظهرونه من عداوته ؟

فقال : إنه حضر مجلساً لقريش فى الحِجر عند الكعبة فذكروا رسول الله وما نالهم من أذاه وقالوا : ما رأينا مثلما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط : سفَّه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرَّق جماعتنا وسَبَّ آلهتنا ؛ لقد صبرنا منه على أمر عظيم .. ثم أهلَّ عليهم رسول الله ومرّ بهم فغمزوه بالقول وهو يطوف بالبيت ، ثم مر بهم فى طوافه ثانية فغمزوه كما فعلوا أولاً ، ثم فعلوا به ذلك ثالثة ، فوقف بهم وقال : « أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح !» وفى رواية أبى نعيم فى

---

(١) لم يحدد النص فى أى موسم كان هذا ، ولكن السياق يدل على أنه كان بعد موت السيدة خديجة وأبى طالب .

(٢) ابن إسحاق برواية ابن هشام ١/ ٣٠٩-٣١٠ ، وابن سيد الناس ، عيون الأثر : ١/ ١٠١ .

دلائل النبوة أنه ﷺ أشار بيده إلى حلقه . قال : قال ابن إسحاق : فأخذت كلمته القوم حتى ما منهم رجل إلا على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة - أى شـدة فى الأذى - ليرفؤه - أى يهدئـه - بأحسن ما يجـد من القول . حتى إنـه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فو الله ما كنت جهولاً (أى غضوباً) فانصرف رسول الله إلى بيته ، فنهض رجل منهم يُعَيِّرهم بجبنهم عندما واجههم الرسول بالحزم المرهب خافوا منه ومضوا يترضونه ، فأدركهم من ذلك خجل .

فلما كان اليوم التالى ورأوه عند الكعبة نهضوا وأرادوا أذاه بأيديهم ليُرُوه أنهم لايخافونه ، وبلغ الأمر بهم أن نهض أحدهم وأخذ يجمع رداءه أى بمخنقه وجعل يقول له : أنت الذى تقول كذا وكذا ... ورسول الله يجيب : نعم ، أنا الذى أقول ذلك . فأسرع أبو بكر وحال بين الرجل ورسول الله وبكى وهو يقول : « **أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله** » ثم انصرفوا عنه . وهذا فى رأى راوى الخبر كان أشد ما رأى قريشاً نالوا من رسول الله قط[1].

ودلالة هذا الخبر هى أن قريشاً كانت فعلاً فى حالة خوف دائم من محمد ودعوته فقد بذلوا أقصى ما استطاعوا فى مطاردة أصحابه واضطهاد من استطاعوا اضطهاده منهم ، وأوقفوا تقدم الدعوة فى مكة ذاتها ولكنهم رغم ذلك ظلوا يخشون دعوته ، ذلك مع عِظَم هيبته فى نفوسهم وعجزهم عن مواجهته وأنه كان على استعداد لمواجهتهم بأقصى مما يواجهونه به ، فهو لا يعرف الخوف ويمضى فى طريقه غير هياب ، وهو على استعداد لأن يخوض معهم المعركة واثقاً من أن ذلك سيكون فيه هلاكهم ، وهذا ما عناه رسول الله بالذبح ، وهم لا يُقْدِمون على العدوان الخطير عليه خشية ما يمكن أن يقع من الصراع والحرب والفوضى داخل مكة نفسها ، وهم حريصون على ألا يحدث ذلك حتى لا تتأثر مصالحهم .

ثم اجتمعوا بعد ذلك وأخذوا يفكرون فى طريقة يُنَفِّرون بها الناس منه دون اللجوء إلى العنف الدموى ، فجعلوا يقلِّبون الأمر على وجوهه فاستبعدوا أن يشيعوا عنه أنه كاهن أو مجنون أو شاعر ، وأخيراً قال لهم الوليد بن المغيرة : والله إن لِقولِه

(١) ابن هشام : السيرة ١/ ٣٠٩ وشرح المواهب للزرقانى ص ١/ ٢٥١ ، ونهاية الأرب للنويرى ١٦/ ٢١٨ .

لحلاوة وإن أصله لعَذِق - أو غَدِق ، أى غنى بالمعنى ، وإن فرعه لجناة - أى بالغ التأثير لحلاوته - وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً - أى اتهامه بالكهانة أو الجنون أو الشعر - إلا عُرف أنه باطل . وإن أقرب القول فيه أن تقولوا إنه ساحر . جاء بقول هو سحر يُفرِّق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبيل الناس حين قدموا الموسم . لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا له أمره ، فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴿١٢﴾ .. ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المدثر] .

وقد استراح القرشيون لهذا الرأى ووجدوا فيه سلاحاً فعالاً فى صراعهم مع محمد ﷺ لأن كل الناس فى الجزيرة كانوا يعرفون أن السحر مهارة يكتسبها بعض الناس فى التأثير على عقولهم وحواسهم ، فيجعلون الناس يحسون ويرون ويسمعون ما لا حقيقة له ، فهى قوة تخييل مؤقتة ، فإذا أحس إنسان أنه يتأثر من كلام محدِّثه فإن ذلك ليس بصحيح ، والإحساس لا يرجع إلى أن الكلام آت من السماء أو من قوة علوية ، بل إن الإحساس وهم أو توهم يحدثه الساحر فى عقل سامعه أو إحساسه لما يسمع من القرآن الذى لا يلبث أن يزول .

ويصور القرآن طبيعة السحر فى سورة الأعراف فى مجال المباراة بين موسى عليه السلام وسحرة فرعون : ﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الأعراف] . وإذن : فسحرة فرعون سحروا أعين الناس أى جعلوا عيونهم ترى ما لا حقيقة له ، واسترهبوهم ، أى جعلوهم يشعرون برهبة شديدة دون أن يكون معنى ذلك أنهم بالفعل عندما ألقوا عصيهم تحولت إلى أفاع ، أما موسى فعندما ألقى عصاه تحولت فعلاً إلى أفعى بأمر الله فلقفت ما ألقوا فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون .

وقد حرصوا على أن يقولوا لكل من يجالس محمداً أنه ساحر يؤثر بكلامه فى

مشاعر سامعيه دون أن يكون هذا الكلام حقيقة من الله ، وكان لهذا الكلام أثر فعال فى زوار مكة ، وتأثر سير الدعوة فى مكة بذلك كثيراً .

وقد رُوِّعت قريش كما رأينا لما كان من الاتفاق بين محمد ﷺ وأهل يثرب ، ولكن الأمر لم يَفُتْها ، فقد علمت بأمره ولكنها لم تفعل إلا القليل . وما كان بيدها أن تفعل أكثر من ذلك ، فإن بقية جماعة المسلمين قد أخذت تهاجر إلى المدينة كما هاجرت جماعات إلى الحبشة ، ولم يكن هناك ما يدل على أن هذه الجماعة المهاجرة سيكون لها شأن كبير فى مهجرها الجديد ، ولعل الكثيرين من القرشيين استراحوا لذلك ، ولكن شيئاً ما فى نفوس أهل الفطنة من أولئك التجار الحاسبين المهرة ألقى فى روعهم أن شيئاً ما سيحدث ، فتركز اهتمامهم على مراقبة محمد ، فما دام هو تحت أعينهم فى المدينة فلن يحدث أى شىء ، أما إذا انتقل إلى يثرب فهنا قد يكون الخطر ، لأن اليثربيين قد يتجمعون حوله ، وهم - أى القرشيين - بعقليتهم البدوية لم يستبعدوا أن يلتف اليثربيون حوله ويؤيدوه ويدخلوا فى دعوته وتنشأ عن ذلك متاعب ، ولكن أحداً منهم ما كان ليتوقع شيئاً كبيراً ، ولكنهم بطبعهم البدوى متخوفون ، شأن صاحب المال ، ويتجلى لنا هذا التخوف من جانب قريش من تفاصيل ما حدث بعد اجتماع العقبة الثانية فى خبر رواه ابن سعد ، وقد سبق أن أشرنا إليه وشككنا فى صحته ولكننا قد نشك فى الخبر بنصِّه وتفاصيله أحياناً ، ولكننا نقبله بمغزاه ومجمله وهنا - فى ذلك الخبر الذى يسوقه ابن إسحاق رواية أخرى له تختلف عن رواية ابن سعد .

فى هذا الخبر نقرأ أن معبد بن كعب بن مالك (الأنصارى) يقول : « فلما أصبحنا غدت علينا جلَّة قريش حتى جاءونا فى منازلنا فقالوا : يا معشر الخزرج : إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم ، منكم» وواضح أن الخبر وصل إلى قريش محرَّفاً ، فإن القوم لم يبايعوا محمداً على حرب قريش، بل كانت المبايعة على الحماية فقط والنصرة على من يعتدى على محمد وأصحابه فى يثرب ، ولكن وساوس قريش ذهبت بها هذا المذهب ، وهو أمر معقول فى تلك الظروف .

وعلى أى حال فما نظن أن حركة هجرة كهذه من مكة إلى المدينة كان يمكن أن تخفى على قريش ، ولكن قريشاً كما قلنا لم يكن يهمها أن يهاجر من بلدتهم من يشاء الهجرة ما دام محمد نفسه باقياً فى مكة . حتى خبر احتيال أبى جهل وأخيه هشام على عَيَّاش بن ربيعة (وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما) واسترجاعه إلى المدينة والضغط عليه حتى افتتن عن دينه ، حتى مثل هذا الخبر يمكن الشك فيه ، بل إن سياقه مضطرب ، وسنده عن نافع عن ابن عمر .

ونلاحظ هنا أن كل رجال قريش من أعداء الإسلام كان لهم عدوان باللسان على الأقل على رسول الله ﷺ ، إلا أبا سفيان صخر بن حرب فليس لدينا خبر يتضمن عدواناً منه بالفعل أو القول على رسول الله أو الإسلام ، ومردُّ ذلك فيما نحسب هو الرجل كان عملياً لا ينصرف إلى ما لا طائل وراءه ، نعم إنه سيقود قريشاً فى أُحُد وسيقودها فى الخندق ، ولكن ذلك شىء آخر ، فهذه حرب حقيقية بين جبهتين متعاديتين : جبهة مكة وجبهة الإسلام فى المدينة ، فأما فى أُحُد فقد كانت مكة قد انكسرت فى بدر انكساراً خطراً على مصيرها ، وكان لا بد من الرد ، ثم إن قيادة أبى سفيان هنا لم تكن سيئة بحال ، وأما فى الخندق فقد أعد أبو سفيان العدة وخرج ومعه أحلاف أقوياء ، ولم يكن فى حسبانه أنه سيلقى عَبقريةً تفوق كل ما كان يتوقع .

وقد عبَّر أبو سفيان عن ذلك تعبيراً صريحاً كما سنرى . وبعد الخندق وتأكُّد أبى سفيان أن جماعة المدينة قوة معنوية ومادية لا تقاس إليها كل قوى الجزيرة بحال ، وأن على رأسها قائداً هو الغاية فى الإيمان بقضيته والتفانى واليقظة والذكاء والبسالة ، بعد ذلك نجد أن أبا سفيان يتجه فى مواجهته لأمة الإسلام اتجاهاً عاقلاً يدل على ذكاء وحسن تصرف ، وهو فى تصرفه هذا كان يسير فى الطريق الذى رسمه رسول الله ﷺ طريق استسلام مكة دون حرب حتى تدخل بقية قريش الإسلام بقواها كاملة عزيزة الجانب محفوظة الكرامة ، فتكون قوة للإسلام .

حتى فيما يتعلق بهجرة الرسول ﷺ وأبى بكر إلى المدينة ، وهى هجرة أشبه بالهروب المدبَّر المحسوب ، لا نجد لأبى سفيان فيها أى تدخُّل يذكر ، كأن الأمر لم يكن يعنيه . كانت قريش قد تبينت بتوالى هجرات الصحابة أن هناك شيئاً خطيراً

يجرى وأن محمداً يدبر بإحكام ، فاستيقظت فيها كل ملكات الحذر والترقب ، وأذكت العيون على رسول الله حتى لا يفلت من يديها . وهنا وقريش ترى أن حركة الإسلام تأخذ شكلاً من الممكن أن يصيبها منه شر ، هنا يكون تفكير رؤسائها فى قتله والخلاص منه جملة .

وهنا نجد أن ملأ قريش - بما فيهم أبو سفيان - يجتمعون ويتشاورون ، فقد أدركوا بفراستهم أن ما يجرى فى المدينة من الممكن أن يأتيهم منه ضرر، ولا شك فى أنهم علموا بما أدركه مصعب بن عمير من نجاح فى عمله داعيةً للإسلام فى يثرب ، ولا نزاع فى أن مصعباً يعتبر - بعد رسول الله ﷺ - أكبر داعية للإسلام ، فقد ذهب ليدعو للإسلام فى بلد غريب عليه ، ولكنه كان رجلاً عميق الإيمان ، إذ هو من أولئك الشبان الذين أنشأهم الإسلام نشأة أخرى ، فقد كان قبل الإسلام من أكثر شباب قريش تنعُّماً بالحياة .

قال فيه محمد بن إسحاق : بلسان سعد بن أبى وقاص : « وكان مصعب بن عمير أنْعَمَ غلام بمكة وأجملهم صلةً مع أبويه ، ثم رأيته جهد فى الإسلام جهداً شديداً حتى لقد رأيت جلده يتحشف كما يتحشف جلد الحية[1] » وكانت أمه - وهى خناس بنت مالك بن المُطَرِّف من بنى عامر - من الموسرات ، وكذلك كان أبوه هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، فلما ندبه الرسول ﷺ بعد بيعة العقبة الثانية ليذهب إلى المدينة ليُعَلِّم أهلها الإسلام اجتهد فى ذلك اجتهاداً شديداً حتى لُقِّب بالمقرىء ، وبلغ من نجاحه أنه لم يعد هناك بيت فى المدينة إلا وفيه إسلام . ثم تبعه فى الهجرة بقية المهاجرين وفيهم عمر وحمزة ومن فى طبقتهم .

وأخذت جماعة الإسلام فى المدينة هيئة وكياناً قبل هجرة الرسول إليها ، فكان ذلك قميناً بأن يثير مخاوف قريش فاشتدت رقابتهم على رسول الله ﷺ مخافة أن يفلت منهم ، ثم رأوا أن يحسموا الأمر بقتله ، وكان صاحب الرأى فى ذلك أبو جهل ، وكان من رأيه أن تنتخب كل قبيلة شاباً ليضربوا محمداً بسيوفهم ضربة واحدة مجتمعين ، ليتفرق دمه فى القبائل ولا يستطيع بنو هاشم حربهم جميعاً ويرضون بالعقل ، فيعقلوه جميعاً .

---

(١) ابن الأثير فى أسد الغابة ٥/ ١٨٢ .

وكان ذلك ممكناً لا فى هذه المناسبة فقط ، بل فى أى وقت مضى منذ بدأت العداوة بين رسول الله ﷺ وقريش ، ولكن الله أنجى رسوله وخرج به من مكة على النحو الذى نعرفه ووصل به إلى المدينة على النحو الذى ترويه كتب السيرة لكى يقوم ببناء أمة الإسلام فى المدينة .

وبقيام أمة الإسلام فى المدينة تغيَّر الموقف بالنسبة لقريش ، وكان عليها أن تواجه تحدياً لم يكن ليخطر لأحد من رجالها على بال ، ومن حسن حظ مكة أن كان على رأسها فى ذلك الحين أبو سفيان صخر بن حرب .

* * *

قُرَيش وَأُمَّة الإسْلام فى المدِينةِ

الدَّورُ الأوّل مِن الصِّراع بَينَ قريش وَالإسْلام

مِن الهجْرة إلى مَوقعة بَدر :

من بداية استقراره فى المدينة وشروعه فى إقامة أمة الإسلام ، كان رسول الله يعرف أن قضية جزيرة العرب وإدخالها فى الإسلام كانت قضية قريش وإدخالها فى الإسلام. لقد كانت الجزيرة تعج بالقبائل ما بين كبيرة وصغيرة ، كانت هناك قبائل كبرى تسكن مساحات شاسعة من الأرض وتتعدد بطونها وأفخاذها ، حتى لتكاد تكون شعوباً : هناك إلى شرقى الحجاز كانت غطفان وهوازن ، وكل منهما تعدل قريشاً عشرات المرات حجماً وعدداً ، وإلى شرقيهما كانت منازل تميم ، وهم البدو الخُلَّص ، وكانوا قبائل وبطوناً شتى ، ويصفهم ابن حزم بأنهم « قاعدة من أكبر قواعد العرب » . وإلى شمالهم على أطراف نجد الغربية كندة وغيرها من قبائل العالية ، ومنهم باهلة وسُلَيم ابن منصور ، وليث بن بكر بن عبد مناة ، وهلال بن عامر بن صعصعة ومن إليهم من بطون قيس عيلان ، وكانت تميم فى البداية تمتد حتى البحر ، ولكنها انحسرت إلى الداخل وحلَّ محلها عبد القيس وبكر وتغلب وغيرها ، وهم بدو أعراب ينتشرون على طول الطريق من الحجاز إلى العراق ، وإلى الشرق كانت منازل بكر وتغلب ثم عبد القيس .

وهذه القبائل التى ذكرناها كانت جماعات قوية فيها بيوت وأعداد ورجال سيغيِّرون وجه التاريخ بعد الإسلام . وكانت هناك كذلك طيء ولخم وجذام فى شمال وسط الجزيرة ، وبعضها من المجموعة التى تسمى باليمنية الأصل . وكانت قبائل قوية ذات خطر ، وهناك قبائل أخرى صغيرة الحجم ولكنها مرهوبة الجانب مثل عبس وذبيان ولحيان وغيرها كثير ، أما شمالى المدينة فكانت هناك جهينة وبقية

بطون قضاعة مثل بلى والقن وعذرة وخشين ، وكانت بطون قضاعة تمتد من الحجاز إلى الشام جماعاتٍ متوالية .

ووسط هذا البحر من قبائل وسط الجزيرة ، وشمالها ، عاشت قريش فى قاعدتها مكة ، وهى من أصغر قبائل الجزيرة ولكنها كما رأينا كانت أظهرها وأبعدها صيتاً وأكثرها صلة بمعظم القبائل وبالعالم الخارجى ، ومن هنا فقد كان رجالها أوسع العرب علماً وأبعدهم تأثيراً ، ولهذا فقد كان رسول الله ﷺ يعرف أن قريشاً إذا انضمت لأمة الإسلام تبعتها فى ذلك معظم قبائل شبه الجزيرة .

وبحلول رسول الله ﷺ فى المدينة تحولت جماعة المسلمين شيئاً فشيئاً وبسرعة لم يكن أحد يتصورها ، إلى أمة واحدة ذات عقيدة واحدة . ومثل أعلى واحد ، فأصبحت خلال العام الأول من الهجرة وحدةً دينية فكرية واجتماعية لم تعرف لها جزيرة العرب مثيلاً من قبل . وليس هنا مكان تفصيل كيف تم ذلك ، ولكن الذى يهمنا هنا هو النتيجة . كان هناك اليهود ومن لم يدخلوا الإسلام من أهل المدينة ، ولكن كتلة البلد وخِيرة رجالها دخلوا فى الإسلام ونهضوا بأمر أمته ، وتوالى نزول آيات القرآن تهديهم وتعلمهم وتنوِّر بصائرهم فأصبحوا فى أيسر الزمن أعلى أهل الجزيرة ثقافة وفكراً وأرفعهم روحاً معنوية .

ولم تكن المدينة قبل الإسلام مدينة واحدة ، بل كانت قرى منتشرة فى سهل المدينة مثل قُباء ويثرب وراتج والسُّنح وحُسَيكة ، فربط الإسلام بينها ودفع الناس إلى تعمير الغامر من الأرض وهو كان أغلب أرض سهل المدينة ، فتزايد عمران البلد وتزايد سكانها بالهجرة إليها . وأدخل الرسول صلوات الله عليه المؤاخاة بين المهاجرين من قريش وغيرهم وأهل المدينة ، وشرع معهم فى إنشاء الصحيفة ، وهى الكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ومن شاء الدخول فى حلف أمة الإسلام من يهود ومن كان نازلاً بالمدينة من قبائل جهينة وبطون قضاعة ، يبين فيه قواعد التعامل والتعاون بين الوحدات القبلية التى تؤلف الأمة ، ثم إن رسول الله كان يقوم فيها هادياً ومعلِّماً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه ، فكان بالفعل سراجاً منيراً ، خرج بهم من ظلمات الجاهلية وأنشأهم الإسلام نشأة أخرى . وفى نهاية العام الأول

للهجرة كانت المدينة قد أصبحت أقوى وحدة دينية وسياسية وفكرية واجتماعية فى شبه الجزيرة ، واتجهت إلى احتواء بقية الحجاز ومكة وقريش .

وقد أكدت معركة بدر (١٩ رمضان ٢ هـ - ١٥ مارس ٦٢٤م) مكانة المدينة فى الحجاز ، واتجهت أبصار قبائل شبه الجزيرة جميعاً نحو القوة الجديدة الصاعدة ، ولم تؤثر معركة أُحُد (١٠ رجب سنة ٣هـ / ٢٣ مارس ٦٢٤م) أثراً بعيداً فى صعود المدينة ، ولكن فشل الأحزاب فى دخول المدينة وارتدادهم عنها منهزمين فى (ذى القعدة سنة ٥هـ / إبريل ٦٢٧ م) حسم الأمور وأثبت أن أمة الإسلام فى المدينة أقوى قوة فى الجزيرة كلها ، وهبطت مكانة قريش وتدهورت مكانتها الاقتصادية نتيجة للحصار المضروب عليها .

ومن الواضح أن رسول الله ﷺ - عندما قامت أمة المدينة - رسم خطته كاملة للتغلب على قريش ، بمعنى أننا لا ينبغى أن ننظر إلى غزواته وسراياه واتفاقاته مع القبائل فى الحجاز وخارجه على أنها أعمال مفردة منفصل بعضها عن بعض ، بل كانت كلها حلقات من سلسلة واحدة أو سياسة واحدة وُضعت بإحكام حتى تنتهى حتماً بوضع قريش فى موضع لا تستطيع معه إلا التسليم أو الاستسلام . حقاً إنه يبدو لنا أن موقعة بدر قد نتجت عن تهور أبى جهل وأمثاله من القرشيين المبغضين للإسلام ورسوله وإصرارهم على تحدى المدينة ، والاحتفال بنجاة العير وتنبيه الأذهان إلى أن طريق التجارة مفتوح ، ولكن ذلك الاحتفال وخروج قريش بالقيان والدفوف وضربها خيامها خارج سهل بدر ، ونحرها الجُزر ، كل ذلك لم يَغْنِ أن طريق التجارة قد فُتِح ، وأن مكة تستطيع أن تواصل تجارتها كما كانت قبلاً ، لأن عير أبى سفيان إذا كانت قد أفلتت فإن الطريق ظل مقفلاً ، والعير التالية كان لا بد أن تقع فى أيدى المسلمين إلا إذا رافقها جيش كبير ، وفى هذه الحالة كان لابد من وقوع صدام مسلح بين الجانبين ، وموقعة بدر كان لا بد أن تقع على أى حال ، إما فى التاريخ والمكان اللذين وقعت فيهما أو فى مكان وزمان آخرين . كانت لقاء محتوماً ولا مفر منه .

وكان لا بد أن تنتصر فيه أمة الإسلام لأنها خرجت إلى تلك الواقعة بسلاح جديد لم يكن يدخل فى حسبان قريش ، هو سلاح الإيمان والتفانى ووحدة الإيمان

والاستعداد وبيع النفس فى ميدان العقيدة والشرف ، وأساطين قريش الذين خرجوا إلى الميدان يختالون كبراً وثقة فى أنفسهم لم يكن لديهم شك فى أن النصر فى أيديهم ، ويتجلى لنا هذا مما يذكر على لسان عمير بن وهب الجُمَحى وأبى أسامة الجشمى ، وكانا فى جيش المشركين ، وكانا من أهل المعرفة بالحرب واحتمالاتها ، وكلام أبى أسامة الجشمى هنا أبلغ وأدل على طبيعة قوة المدينة التى كان على القرشيين لقاؤها ، قال بعد أن طاف حول جيش المسلمين من بعيد واستوثق من أنه لا كمين لهم ولا مدد.

قال يصف المسلمين : « والله ما رأيت جَلَداً ولا عدداً ، ولا حلْقة (سلاح كثير) ولا كراعاً ، لكن والله رأيت قوماً لا يريدون أن يؤبوا إلى أهليهم ، قوماً مستميتين ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، زرق العيون كأنهم الحصى تحت الحجف (= التروس)[1] وتلك هى الناحية التى لم يرها أبو جهل بنظرته الجاهلية الصرفة ، ولكن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس رآها ، وتوقع الهزيمة ونصح قريشاً بالعودة إلى المدينة ، ولكن أبا جهل أصر على اللقاء . والذى فات قريشاً ولم ينبه عليه مؤرخ ، هو أن قريشاً القبيلة الجاهلية سارت إلى بدر على طريقة الجاهليين : جحفل من الناس يسير بغير نظام معتمداً على المبارزات الفردية عند اللقاء . ففوجئت بأنها تلاقى جيشاً مدرباً نظامياً يقف رجاله صفوفاً متراصّة يلى بعضها بعضاً . وقد دَرّب الرسول أمته على هذا الطراز الجديد من الحرب خلال المغازى والسرايا الثمانية التى سبقت معركة بدر .

وكل الغزوات والسرايا الثمانية السابقة على بدر من سَرِية سيف البحر ، إلى سرية نَخلة كانت كلها تؤدى إلى بدر ، ونَخلة بالذات كانت على أبواب مكة ومدخل حرمها ، وقد قصد رسول الله ﷺ من بعث عبد الله بن جحش وأصحابه إليها إلى إشعار قريش بأن مكة نفسها فى متناول المدينة ، وهو صلوات الله عليه لم يأمر عبد الله ابن جحش أميرها بالقتال ، ولكن القتال كان احتمالاً كبيراً جداً ، وواقد بن عبد الله ، أحد رجال سرية نخلة ، عندما فوّق سهمه إلى عمرو الحضرمى وقتله فى بداية الشهر الحرام مخالفاً بذلك أمر الرسول ، كان يشعر أنه لا يخالف بعمله هذا حتمية الظروف ،

(١) الواقدى ، مغازى ١/ ٦٢ .

فالقتال بين أمة الإسلام وقريش كان واقعاً لا محالة ، والمسألة مسألة وقت وظروف .

وكان رسول الله ﷺ يعرف ذلك معرفة تامة ، ثم لم تلبث أن نزلت الآيات التى أحلت القتال فى الشهر الحرام دفاعاً عن النفس ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) ﴾[1] والآية تدل على أن هناك حالة حرب قائمة دائمة بين المسلمين وبين من يصدون عن سبيل الله ويكفرون به ويصدون عن المسجد الحرام ويحولون بين المؤمنين وبينه .

الدَّور الثانى من الصِّراع بَين قريش وَالإسْلام

مِنْ بَدر إلى أحُد :

الذى يهمنا هنا هو أن قريشاً وجدت نفسها فى ظرف لم تكن تتوقعه قط : فطريق تجارتها مقطوعة ، ثم إن الكثير من قبائل الحجاز مالت إلى حلف المدينة أو وقفت على الحياد . وللمرة الأولى منذ أيام قُصى وقفت قريش وحدها ، فبمجرد استقراره فى المدينة عرف رسول الله كيف يجتذب جهينة إلى صفه ويجعلها من حلفائه فى الحجاز ، فقد كانت منازلها تمتد من ينبع إلى قرب تيماء ، واستشعرت قريش الخوف ، وبعد هزيمتها فى بدر وقَتْل الكثير من رؤسائها وكبار مَلئها ، وفى مقدمتهم أبو جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، أحست قريش أن الدنيا من حولها تغيرت ، وفى هذه الظروف صار مصير قريش كله بين يدى أبى سفيان بن حرب .

وقد أحب أبو سفيان أن تشعر قريش بأن مِلاَك الأمر بيده فقام بغارة السَّوِيق (٥ذو الحجة سنة ٢هـ / ٣٠ مايو ٦٢٥) وهى غارة سريعة قُتِل فيها اثنان من الزراع خارج المدينة وعاد سريعاً ، وبلغ من سرعته فى العودة ، أن كان أصحابه يلقون جُرُب السَّويق (أى غرارات الدقيق) ليتخففوا منها ويستطيعوا العودة إلى مكة قبل أن

---

(١) البقرة ٢/ ٢١٧ .

يدركهم أهل المدينة ، وما نحسب أن أبا سفيان إلا أراد بهذه الغارة أن يؤكد بها رياسته ، مخافة أن يصير الأمر إلى رجل غيره من زعماء قريش ، فلا يستطيع قيادة الأمور فى الاتجاه الذى كان يتصور أنه الصحيح .

وبعد ذلك كانت سرية القَرَدَة ، والقردة على الطريق من مكة إلى العراق ، وكان هدفها قطع طريق التجارة العراقية على قريش ، وكان الذى فكر فى سلوك طريق العراق ثم الانحراف إلى الشام بعد خيبر ، لكى يتخلص من سيطرة المدينة على طريق الشام صفوان بن أمية ، ونص الواقدى هنا عظيم الأهمية والدلالة فنورده هنا بنصه ، وسنقسمه إلى فقرات على عادتنا فى مناقشة مثل هذا النص الذى نرى أنه جدير بالدراسة المتئدة :

١- حدثنى محمد بن الحسن بن أسامة بن زيد عن أهله قالوا : كانت قريش قد حَذِرت طريق الشام أن يسلكوها .

٢- وخافوا من رسول الله ﷺ وأصحابه ، وكانوا قوماً تجاراً .

٣- فقال صفوان بن أمية : إن محمداً وأصحابه قد عَوَّروا علينا متجرنا ، فما نرى كيف نصنع بأصحابه لا يبرحون الساحل .

٤- وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسلك .

٥- وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ، ونحن فى دارنا هذه ، ما لنا بها من نَفَاق (يريد ما لنا من سوق تَنْفَق فيه متاجرنا) إنما نزلناها على التجارة ، إلى الشام فى الصيف ، وفى الشتاء إلى أرض الحبشة .

٦- قال له الأسود بن عبد المطلب : فَنَكِّب عن الساحل ، وخُذ طريق العراق .

٧- قال صفوان : لست بها عارفاً .

٨- قال أبو زمعة (الأسود بن عبد المطلب) : فأنا أدلك على أخبر دليل بها يسلكها وهو مغمض العينين إن شاء الله[1].

---

(١) عبارة إن شاء الله على لسان أبى زمعة بن عبد المطلب تبدو غريبة هنا : الواقدى ١/ ١٩٨ .

وكان هذا الدليل هو فرات بن حِبَّان العجلى . فاتفق صفوان مع هذا الرجل على أن يكون دليله على قافلة يخرج بها إلى الشام ، فيسلك طريق العراق حتى يخرج من منطقة المدينة فينثنى غرباً حتى يلقى أحد طرق الشام ويسلكه . وبالفعل أعد صفوان قافلة فيها فضة كثيرة . ويبدو أن قريشاً أرادت أن تشترى بذلك المال أزواداً تستعين بها على الحصار . وسلكت القافلة طريق ذات عِرق . فنُمى الخبر إلى محمد صلوات الله عليه فأسرع بانتداب زيد بن حارثة وإرساله فى مائة فارس أدركوا القافلة عند ذات قَرَد أو القَرَدَة على ذلك الطريق « وأفلت أعيان القوم ، ولكن المسلمين استولوا على البضائع وأسروا رجلين وقدموا بالعير على النبى ﷺ . فخمَّسها ، فكان الخمس يومئذ عشرين ألف درهم ، وقَسَّم ما بقى على أهل السرية ، وكان فى الأسرى فُرات بن حِبان (الدليل) فأتى به ، فقيل له : أسلم . إن تسلم نتركك من القتل . فأسلم فتركه من القتل » [1] .

وهذه السرية تغير الكثير من مفهوماتنا التقليدية عن مغازى رسول الله وسراياه ، فها نحن نرى أنها أدت فى مجموعها إلى ذلك الحين (قبل أُحُد) إلى سيطرة المسلمين تماماً على طريق التجارة المكية إلى الشام ثم العراق . ولولا أن رسول الله ﷺ سار فى مغازيه على خطة محكمة مرسومة مقدماً لما وصل فى الزمن القصير إلى إيقاف التجارة المكية ، فإن الأمر لم يكن مجرد إيقاف التجارة ، بل رمت الخطة كذلك إلى كسب قبائل الساحل إلى جانب المدينة وإخراجها من حلف مكة ، مما انتهى إلى حصرها على بلدها على النحو الذى وصفه صفوان بن أمية . وعندما أرادت قريش أن تتسلل إلى الشام عن طريق العراق بادر الرسول بإيقاف هذه الطريق أيضاً ، مما يدل على أن أمة المدينة كانت لها الأرصاد والعيون من أصدقائها والداخلين فى حلفها ، فكانت الأخبار تصل إلى رسول الله فى أقصر وقت فيبادر إلى العمل ، ويكون عمله حاسماً يوفى على الغاية المطلوبة .

وسرية القَرَدة وما وقع فيها تُرينا كيف أن غزوة أُحُد لم يكن منها مفر ، فقد كانت قريش أمام أحد خيارين ولا ثالث لهما : إما الاستسلام (ولم يكن أوانه قد آن بعد) أو خوض معركة أخرى هدفها تحطيم قوة المدينة وفتح طريق التجارة .

---

(١) الواقدى ، المغازى : ١/ ١٩٨ .

فلما عجزت قريش عن فتح طريق آخر للتجارة إلى الشمال والشمال الشرقى ، أدرك أبو سفيان أنه قد جاء وقت العمل . وكان هذا الرجل قد احتبس أموال العير التى نجا بها قبيل معركة بدر وجعلها فى دار الندوة لا يحركها ، وكان الكثير من أصحابها ممن قُتِل أو أُسِر فى بدر . فلما فشلت محاولة الذهاب إلى الشام اجتمع الباقون من ملأ قريش إلى أبى سفيان وطلبوا إليه التصرف فى تلك الأموال وعرضوا عليه أن يُعَد بها جيش يسير إلى المدينة ، وكان هذا ما يريده أبو سفيان ، ويشهد بذلك قوله :

« - وقد طابت أنفس قريش بذلك قالوا : نعم ، قال : فأنا أول من أجاب إلى ذلك ، وبنو عبد مناف معى ، فأنا والله الموتور الثائر . قد قُتِل ابنى حنظلة ببدر وأشراف قومى » . واتفق رأيهم على أن تباع المتاجر التى كانت فى العير وترد رؤوس الأموال إلى أصحابها وتستخدم الأرباح فى تجهيز الجيش . ولم تكن الأرباح قليلة فقد كان المكيون يربحون للدينار ديناراً ، فإذا كانت هذه العير ثمنها خمسون ألفاً كما تقول النصوص فإن أرباحها كانت خمسين ألفاً من الذهب العين « بحسب نص الواقدى » ، وأخذ أقوام من أهل مكة أهل ضعف لا عشائر لهم ولا متعة كل ما كان لهم في العير . فهذا يبين أن القوم ردوا رؤوس الأموال إلى أصحابها من الضعفاء واستخدموا الباقى مع الربح في تجهيز العير ، وفيهم نزلت : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[1] الآية .

وهذا التصرف من أبى سفيان يدل على فكر سليم وتدبير صحيح ، فقد كان الرجل يعرف أنه مقبل على معركة حاسمة وأنه محتاج فيها إلى أموال ، فتحصلت له الأموال للسلاح والعدة . فلما استوثق أبو سفيان من عزيمة قريش على المسير واطمأن إلى أن الرياسة له ، أخذ يشاور ملأ قريش فى أمر الحملة ، ولدينا بيان بمن كان مع أبى سفيان فى هذا التدبير ، وهم يمثلون معظم بيوت قريش ، وانضم إليهم بنو عبد مناة ابن كنانة بن خُزيمة والأحابيش وثقيف . وبعثت قريش ناساً إلى قبائل العرب لدعوتها إلى الاشتراك فى حرب المدينة ، وتحمس رجالها حتى قرروا أن يخرجوا بنسائهم لِيُحفِظنهم ويذكِّرنهم قتلى بدر وقال : « فإن العهد حديث ونحن قوم

(١) الأنفال : ٣٦ .

مستميتون لا نريد أن نرجع إلى دارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه »[1].

وهذا كلام صفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حُذافة بن جُمح ، وكان هو الشخصية الثانية فى قريش يومذاك ... وخرجت قريش وأحلافها فى ثلاثة آلاف مقاتل معهم ٣٠٠٠ بعير وفيهم ٧٠٠ دارع و٢٠٠ فارس ، وهذا جيش ضخم نظن أنه أكبر قوة عسكرية عرفها العرب حتى ذلك الحين ، ومثل ذلك الجيش الضخم يحتاج إلى قيادة وإدارة ، وكانت للجيش ثلاثة ألوية .. لواء لقريش ولواء للأحابيش ولواء لبقية من انضم إلى قريش غير هؤلاء ، وحدث خلاف بشأن لواء قريش ، « فإن أبا سفيان تردد فى إعطائه لبنى عبد الدار فغضبوا وأغلظوا لأبى سفيان بعض الإغلاظ » فترك لهم اللواء .

وقد عرف أبو سفيان كيف يقود هذا الجيش الكبير حتى وصل به إلى ظاهر المدينة يوم الخميس لخمس ليال خلون من شوال ، وكانت الوقعة لسبع خلون من شوال (سنة ٣هـ/ ٢٣ مارس ٦٢٥م) وكان أهل المدينة قد زرعوا العِرض شعيراً ، والعرض أرض مزروعة تمتد من الجُرف شمال المدينة حتى الوطاء أسفل أُحُد ، فرعَتْ جِمَال القرشيين الشعير كله فى يومين ، وفى يوم اللقاء ، لم يكن فى العرض عود واحد أخضر.

وقبل أن يصل المشركون كان النبى ﷺ قد نذِر بهم ، فأسرع إلى العمل على عادته ، ومشاورة أصحابه وقتاً طويلاً فيما إذا كانوا يقاتلون فى المدينة أو يخرجون للقائهم خارجها . وكان هو أول الأمر يرى تحصين المدينة ورفع النساء والولدان فى الآطام والقتال فى شوارع البلد ، وقد رأى ذلك حرصاً منه على ألا يتعرض المسلمون لقتال ذلك العدد الضخم فى لقاء مكشوف ، ولكن شباب الأنصار من أمثال : محمد بن مسلمة ، وأسيد بن الحضير ، وسعد بن الربيع ، وسعد بن خيثمة ، أصروا على الخروج للقاء العدو فى الميدان ، وأنفوا أن تُدْخَل عليهم المدينة ، ووجد الرسول فيهم حماساً عظيماً فقرر ألا يخذلهم واستعد استعداداً تاماً ، فأحسن تنظيم رجاله بعد

(١) الواقدى ، المغازى : ١/ ٢٠٢ .

التشاور معهم ، ورسم لهم خطة العمل فقرر أن يخرج بمن يريد الخروج معه ويجعل ظهره إلى أُحُد ويجعل تل عينين القليل الارتفاع بينه وبين المشركين ، ويقف بالمسلمين إلى غَربيٍّ عينين متأخرين عنه قليلاً ويجعل الرماة على التل حتى يردوا خيل المشركين . وكانت الخيل إذ ذاك تُقابل الدبابات التى تهاجم بمدافعها اليوم ، والسهام التى يرمى بها الرماة للدبابات كانت تقوم مقام المدافع المضادة اليوم .

وقد لجأ الرسول إلى ذلك الحل ليبطل ميزة المشركين الكبرى وهى الخيل ، فقد كان لديهم مائتان من الفرسان عليهم مقاتلون ذوو خبرة وبسالة وقوة ، مثل خالد بن الوليد وضرار بن الخطاب وعكرمة بن أبى جهل . وبالفعل لم يستطع المشركون اقتحام صفوف المسلمين خلال الدور الأول من المعركة ، بل انهزم المشركون وأخذوا يتهاربون وكاد أبو سفيان يخسر المعركة ، وهنا وقع المسلمون فى الخطأ الذى حذر منه الرسول أشد التحذير ، إذ إن الرماة غرَّهم النصر الأول فخالفوا أمر قائدهم عبد الله ابن جُبير ، واندفعوا يطمعون فى نصيب من الغنائم ، ولم تَفُتْ هذه الفرصة خالد بن الوليد القائد المطبوع ، فاندفع بخيله فاجتاح بقية الرماة وانصب بخيله على من بقوا فى مواقعهم منهم ، دون أن ينطلقوا فى إثر الهاربين من رجال العدو ، فاضطربت صفوف المسلمين وداخلتهم خيل العدو وتفرقوا وضاع الحزم .

وتبين الرسول خطورة الموقف فثبت مكانه ثباتاً يروع النفس ، وفى وقت من الأوقات من هذا الدور الثانى من المعركة كان يقاتل وحده حتى ثاب إليه قليل من المسلمين ، وجعلوا ينادون المسلمين فعادوا إليه وتجمعوا حوله وأصيبت شفته ودخل زرد المِغفر فى وجنتيه وشُجَّ فى رأسه ، فلم يبال بذلك وثبت لا يتزعزع . وما أسرع ما تلاحق به المسلمون وأحاطوا به ودفعوا عنه وهو يقاتل ، فلما استطاع بثباته إعادة المسلمين إلى الثبات ، بعد أن قُتِل منهم من قُتِل ، لم يفكر لحظة فى العودة إلى المدينة والقتال فيها (كما كان الرأى أولاً) ولو غيره لفعل ذلك ، ولكن رسول الله أدرك ببصيرته أن أحسن ما يفعله الآن هو السير بالمسلمين إلى لِحْف جبل أُحُد ، ويجعلوه وراء ظهورهم والاعتصام به والثبات هناك إلى آخر النهار حتى لا يعطى المشركين فرصة للتفكير فى دخول المدينة ، ولو دخلوها فى تلك الظروف لما اقتصر الأمر على

القتال فى الأزقة ، كما كان سيحدث لو أن المسلمين رسموا خطتهم على هذا الأساس، فإن أهل المدينة الآن غير مستعدين للقتال بداخلها ولا هم أعدوها لذلك ، ومعظم مقاتلى المسلمين فى خارج البلد . ثم إن النساء والولدان كانوا دون حماية ، فلو دخل المشركون لاجتثوا المسلمين اجتثاثاً واحتلوا البلد وأرغموهم على التسليم بما يريدون، وهذا هو الذى حذره الرسول ﷺ ، فقرر أن يثبت بمن معه محتمين بأُحُد فيمسكوا المشركين هناك إلى آخر النهار ، وقد نجح الرسول فى ذلك ، وفوَّت على المشركين الفرصة وجعل الدور الثالث من المعركة نصراً للمسلمين بعد أن كانوا أشرفوا على الهزيمة .

وبينما كان رسول الله ﷺ ينظر هذا النظر البعيد ويعمل على المحافظة على قوة الإسلام فى المدينة سليمة لا تمس ، ويحرص أشد الحرص على تلافى الخطأ الذى وقع فيه بعض المسلمين عندما خالفوا أوامره ، فاستطاع بسرعة بديهته وبُعْد نظره تحويل الهزيمة إلى نصر . كان أبو سفيان – وهو هنا أذكى من كان فى قريش من الرجال – لا يفكر إلا فى الثأر لبدر ويحرص أشد الحرص على قتل رسول الله ﷺ ظناً منه أن ذلك ميسور له ، وحسباناً منه أن مصير الإسلام كله مرهون بحياة محمد ، غافلاً أشد الغفلة عن أنه يحارب عقيدة قُدِّر لها بفضائلها الذاتية وصدقها وحتمية نصرها ، أن تغير صورة الحياة والمجتمع فى جزيرة العرب كلها أولاً ، ثم فيما يستطيع المسلمون إدخاله فى دين الله من أرض الله .

وعندما ترددت فى ميدان المعركة صيحة تقول : إن رسول الله ﷺ قد قُتِل ، نجد أبا سفيان يستطيره الفرح ويمضى يسأل : « يا معشر قريش ، أيكم قتل محمداً ؟ قال ابن قميئة : أنا قتلته ، قال : نُسَوِّرك [١] كما تفعل الأعاجم بأبطالها ، وجعل أبو سفيان يطوف بأبى عامر الفاسق فى المعارك / ويسأل / هل يرى محمداً / بين القتلى / ، فمر بخارجة بن زيد بن أبى زهير الخزرجى ، فقال : يا أبا سفيان ، هل تدرى من هذا القتيل ؟ قال : لا ، قال : هذا خارجة بن زيد بن أبى زهير الخزرجى ، هذا سيد بلحارث بن الخزرج ...» [٢] ولم يلبث أن استبان خطأ ظنه وأن محمداً لم يقتل ، وقال

---

(١) أى : نلبسك سواراً من ذهب فى ذراعك .
(٢) الواقدى ، المغازى ، ١/ ٢٣٦- ٢٣٧ .

له خالد بن الوليد : « رأيته أقبل فى نفر من أصحابه مصعدين فى الجبل » . « قال أبو سفيان : هذا حق ، كذب ابن قميئة . زعم أنه قتله »[1].

وإلى آخر يوم أُحُد كان المشركون ما يزالون يرجون قتل رسول الله ﷺ واحداً بعد واحد فيخيبون ، ويلقون منهم في هذه المحاولة مصرعه من حان حيْنه ، وقد دل الرسول يوم ذلك على بسالة وثبات وهدوء جنان وثقة فى الله وفى النفس لا ندرى كيف لم يتفطن إليها أولئك الذين يزعمون أنهم يسيرون على سنته ويتبعون غَرْزَه ، وقد استهلك فى الذود عن رسول الله من المسلمين نفر يمكن اعتبار حكاياتهم مُثُلاً تُحتذى فى البسالة والفداء ، ويهمنا هنا أن نذكر مشهداً واحداً من عشرات ، نرويه هنا لندل على أن كفار قريش لم يفطنوا إلى وجهِ العبرة فى استبسال أصحاب محمد ﷺ فغابت عنهم بذلك عبرة الإسلام كله ، وقتل الكثيرون منهم على الشرك بعد ذلك ودخل الإسلام منهم كثيرون ، بعد أن انتصر الإسلام وتجلى نوره .

قال الواقدى : « وكان عباس بن عبادة بن نضلة ، وخارجة بن زيد بن أبى زهير ، وأوس بن أرقم بن زيد . وعباس رافع صوته يقول : يا معشر المسلمين ! الله ونبيكم ! هذا الذى أصابكم بمعصية نبيكم ! فيُوعدكم النصر فما صبرتم ! . ثم نزع مِغفره عن رأسه وخلع درعه فقال لخارجة بن زيد : هل لك فى درعى ومَغْفَرى ؟ قال خارجة : لا ! أنا أريد الذى تريد ، فخالطوا القوم جميعاً ، وعباس يقول : ما عُذْرنا عند ربنا إن أصيب رسول الله ومنا عين تطرف ؟ يقول خارجة : لا عذر لنا عند ربنا ولا حجة ، فأما عباس فقتله سفيان بن عبد شمس السُّلمى ، ولقد ضربه عباس ضربتين فجرحه جُرْحَين عظيمين ، فارتَثَّ يومئذٍ جريحاً ، فمكث جريحاً سنة ثم استبل ، وأخذت خارجةَ بن زيد الرماحُ ، فجرح بضعة عشر جرحاً ، فَمَر به صفوان بن أمية ، فعرفه ، فقال : هذا من أكابر أصحاب محمد وبه رمق . فأجهز عليه ، وقتل أوس بن أرقم»[2].

تتمة الخبر تدل على تفكير القرشيين خلال ذلك الثلث الأخير من المعركة : « وقال

---

(١) الواقدى ، مغازى ، ١/ ٢٣٧.
(٢) الواقدى ، مغازى ١/ ٢٥٨ .

صفوان بن أمية : من رأى خبيب بن يساف ؟ وهو يطلبه ولا يقدر عليه ، ومَثَّل يومئذ بخارجة وقال : هذا ممن أغرى بأبى يوم بدر - يعنى أمية بن خلف - الآن شَفَيت نفسى حين قَتَلت الأماثل من أصحاب محمد ، قتلت ابن قوقل وقتلت أبا أزيهر وقتلت أوس بن أرقم[1].

وهكذا انجرف القرشيون فى الاتجاه الذى وضعهم فيه رسول الله ﷺ ، طريق محاولة القضاء على قوة المسلمين العسكرية وقتل أكثر ما يستطيعون قتله منهم . وكان رسول الله يعرف أنه بعد أن نجح فى تجميع المسلمين ، والثبات بهم أسفل أُحُد ، لم يعد من الممكن للمشركين أن يصلوا إلى ما يريدون . فقد تجمع المسلمون بعضهم إلى بعض ، وشملتهم روح الفداء فمضوا يضربون ضرب المستبسل ، ولم يعد المشركون يبلغون منهم مبلغاً يُذكر ، وإذا كان المشركون قد أصابوا منهم عدداً فى فوضى الدور الثانى من المعركة ، عندما ترك الرماة مواقعهم واندفعت خيل المشركين تكر على المسلمين ، فإن الموقف تغير الآن ، فثبت المسلمون وتحصنوا . وفى وسطهم رسول الله لا يستطيع أحد الوصول إليه ، فظل المشركون يكرون على المسلمين مرة بعد مرة أخرى دون جدوى حتى انتهى النهار .

وغريب فى الأمر أن رغبة المشركين فى الوصول إلى رسول الله للقضاء عليه ، كانت من أكبر أسباب هزيمتهم ، فإنهم تدافعوا يبحثون عنه وقد أعماهم ذلك عن كل شىء غيره واستمروا فى هذا المطلب الوعر ، حتى انقضى الوقت دون أن يفكروا فى دخول المدينة وتخريبها ، ولو فعلوا لكان ذلك عملاً منهم شديد الخطورة على المسلمين ، ولكن مواهب الرسول ﷺ فعلت الأعاجيب وغيَّرت اتجاه التاريخ ، فلم يزد المشركون على أن قتلوا نحو سبعين من المسلمين . وما سبعون رجلاً بالنسبة إلى جماعة كان عددها إذ ذاك يقترب من المائة ألف ؟

ولدينا خبران عند الواقدى ، أولهما يدل دلالة بينة على أن محمداً صلوات الله عليه قصد بالفعل إلى إمساك المشركين عند الجبل حتى لا يدخلوا المدينة ، فانصرفوا بذلك إلى قتال أهل الجاهلية ، وهو قتال مبارزة رجل برجل لا قتال معارك ، تتلاقى فيها

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

صفوف الرجال على تعبئة ولها غاية وخطة ونظام ، وذلك القتال النظامى أمر لم يعرفه الجاهليون ، وقد عرفناه عند محمد ﷺ فى بدر ونحن نراه الآن فى أُحُد ، وسيتجلى بأنصع صورة فى الخندق ، فكأن رسول الله ﷺ هو أول من أدخل العرب حرب المعارك المنظمة ، وأول من صَفّ الصفوف وعَدَّلها وسواها وقسمها وأعطى لكل قسم منها أمراً يقوم به حتى يكون النصر ، وهذا من توجيه الله إياه ، فما دخل رسول الله قبل ذلك قتالاً ، ولا علَّمه أحد قتال المعارك ولا يجوز لنا - أحسب - أن نصف رسول الله ﷺ بأنه قائد عسكرى ، لأن القيادة العسكرية هدفها النصر على العدو وتحطيمه وتخريب دياره ، وما كان هكذا قتال الرسول صلوات الله عليه ، إنما هو قتال لنصر الدعوة ... فهو جزء من رسالته كنبى مرسل ، والله سبحانه وتعالى وجَّهه فى أداء رسالته بحسب ما يرى .

وفى أحيان كثيرة أخذ الرسول برأى أصحابه فى خطط المعارك لأنهم أعرف بها .

وقد أجمل الله سبحانه وتعالى طبيعة قتال محمد ، عندما قال له فى سورة الأنفال : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [1] وفى هذه الآية كما نرى فصل الخطاب فى هذا الموضوع . ونتذكر فى مجال ما أدخله محمد ﷺ من صف الناس للقتال وتسوية صفوفهم قول الله تعالى فى سورة الصف : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[2] وفى ثبات المسلمين عند اللقاء وأنفتهم من الفرار نذكر قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) ﴾ [3] .

ثم نقرأ الفقرة التالية من كلام الواقدى فى تفاصيل وقعة أُحُد ، والكلام هنا على لسان ضرار بن الخطاب وهو من كبار فرسان قريش الذين كَرُّوا على المسلمين عندما لمحوا خُلُوَّ جبل عينين من الرماة قال : « فانتهينا إلى الجبل (عينين) فلم نجد عليه

---

(١) الأنفال ٨/ ١٧ .
(٢) الصف ٦١/ ٤ .
(٣) الأنفال : ٨/ ١٥-١٦ .

أحداً له بال ، وجدنا نُفَيراً فأصبناهم ، ثم دخلنا العسكر ، والقوم غارون ينتهبون العسكر ، فأقحمنا الخيل عليهم فتطايروا فى كل وجه ، ووضعنا السيوف فيهم حيث شئنا ، وجعلت أطلب الأكابر من الأوس والخزرج قَتَلة الأحبة فلا أرى أحداً . قد هربوا . فما كان حلب ناقة حتى تداعت الأنصار بينها ، فأقبلت فخالطونا ونحن فرسان (وهم رَجَّالة) فصبروا لنا ، وبذلوا أنفسهم حتى عقروا فرسى وترجلت . فقتلت منهم عشرة[1]، ولقيت من رجل منهم الموت الفاقع حتى وجدت ريح الدم ، وهو معانقى ، ما يفارقنى حتى أخذته الرماح من كل ناحية ووقع. فالحمد لله الذى أكرمهم بيدى ولم يُهنِّى بأيديهم »[2] .

فهذا تصرُّف ناس يبيعون أنفسهم فى سبيل الله ويترامون على الموت فى مشهد تذهل منه العقول : فرسان كروا على رجَّالة فأذهلوهم فهربوا لأول وهلة ، ثم ثابت إليهم نفوسهم وذكروا ما أمرهم به ربهم فعادوا يترامون على الموت . فهذا إذن توجيه من الله ، وروح بثها القرآن فى ناس عرفوا كيف يتمثلونه وائتسوا برسولهم فى ذلك فكان خُلُقُهم القرآن . فلا يتحدثن أحد هنا عن محمد القائد العسكرى ، لأن القائد هو القرآن ، والموجه للرسول هو الله سبحانه ، أما الدافع لبقية المؤمنين فهو القرآن والإيمان بالله ورسوله إيماناً شاملاً عميقاً لا يثبت أمامه شيء .

وكذلك لا يصح أن يقال « محمد الدبلوماسى » أو محمد السياسى ، لأن كلا الدبلوماسية والسياسة من مطالب إقامة الملك الدنيوى الخالص ، وهما تأذنان لصاحبهما فى الكذب والالتواء والخداع والغدر ، ما دام ذلك يؤدى إلى كسب القضية، وما عرفنا أن محمداً أجاز لنفسه أن يأتى من ذلك كله شيئاً ، وخلاصة القول فى ذلك أن محمداً صلوات الله عليه ، كان نبياً ورسولاً ، فهو يتصرف فى حدود النبوة وأداء الرسالة بأسلوب المجاهدين فى سبيل الله ، ولا يصح أن يُوصف لهذا إلا بما وصفه به ربه فى الآيات ٤٥-٤٧ من سورة الأحزاب : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً (٤٧) ﴾ [الأحزاب] .

---

(١) الواقدى ، مغازى ١/ ٢٨٣ .

(٢) والثابت من روايات الثقات أن ضرار بن الخطاب قتل ثلاثة من المسلمين فقط ، انظر الواقدى : ١/ ٢٨٢ .

ولقد قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الأعراف]
ومن ثَمَّ فلا يجوز أن يسمى بغيرها ، ولا يجوز أن يقال : الله الفنان مع أن خلقه سبحانه وتعالى كله فن ، ولا يجوز أن يقال إن الله المهندس مع أن الكون كله هندسة ، وقد أمر الله بألا يُدْعى إلا بأسمائه التى سمى نفسه بها فى القرآن ، حتى لا يختلط الأمر ويتخطى الناس الحدود فى الكلام عنه سبحانه ، وكذلك الحال مع نبيه صلوات الله عليه ، لا يصح أن يوصف بأوصاف الساسة والملوك وأصحاب الدول وقادة الحروب ، حتى لا يشوب ذلك شخصه الكريم ويلتبس الأمر على الناس فى هذا المقام. هذا كله مع إمكان الناس الاقتداء به والعمل بعمله فى كل مطلب ، فهو كان يتصرف فى شئون البشر تصرف الرجال ويسمو به مع ذلك ، ويرتفع بأسلوبه وطريقته وروحه والله من ورائه لهذا ينصره ، ولو فعل أى مسلم فعله لكان نصر الله من ورائه ، وما هُزِم المسلمون أبداً ، ولكنهم لسوء حظهم أخذوا من السنة - أحياناً كثيرة - ظاهرها ، وموَّهوا الأمر على أنفسهم فخدعوها ، وخادعوا الله وهو خادعهم ، والله سبحانه ينصر من ينصره ولا يخذله أبداً .

وقد استطردنا مع هذه المعانى بمناسبة معركة أُحُدٍ وما جرى فيها لأنها معركة توالى فيها النصر والهزيمة ، وتعاقبت فيها المواقف بعضها وراء بعض على شكل تتبين لنا منه أحوال الجانبين من مسلمين ومشركين ، وما كان من تصرف محمد ﷺ حتى انتهى ذلك اليوم العسير لصالح الإسلام وأهله ، بفضل إيمان محمد وأصحابه وحسن بصيرته وثابت عزيمته ولا يحسبن أحد أننا إذ نقول إن هُدى الله هو الذى كان يوجه محمداً ﷺ فى حروبه أن ذلك كان مقصوراً عليه فإننا لا ينبغى أن ننسى أن تَقَبُّل الهدى فى ذاته مَلَكة ، فإن المهتدى يرى الهدى ويختاره ويتحمل مسئولياته ، فلم يكن أيسر على محمد عندما انقضَّت على قوته خيل المشركين من أن يعود مسرعاً بقومه إلى المدينة ليحاربوا فى أزقتها ، ولكن قوة إيمانه كشفت له عما ينبغى عليه عمله فى ساعة العسرة ، فثبت هذا الثبات العظيم ثم قرر - دون دهش أو ذهول - أن يتجه نحو الجبل ليحمى ظهره به ويثبت هناك ليمسك المشركين عند الجبل ويحول بينهم وبين دخول المدينة .

وتلك هى ملكة القيادة التى أوتيها محمد ، وهى نابعة من إيمانه لا من المهارة

العسكرية ، وهو هنا لم يتحيل أو يتظاهر كما قد يفعل القائد العسكرى الصرف الذى لا أرب له إلا النصر فى النهاية مهما كانت الوسيلة ، وهو لم يجبن أو يفر أو يتقهقر شأن من يطلب نجاة نفسه ، وليس كل فرار هزيمة ، ولا كل فرار انكساراً ، ولا كل تقهقر خوفاً ، والقائد العسكرى يختار من المسالك ما يشاء لكى يصل إلى النصر فى النهاية ، وما هذا شأن محمد ولا ينبغى له فهو شاهد (أى نموذج وقدوة) ومبشر (للمؤمنين) ونذير (للمشركين) وداعٍ إلى الله بإذنه فى كل حال ، وهو فى هذا كله سراج منير ، أى نور يهتدى به الناس ، وبفضل هذا النور يبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ، وهذا جانب من تفسير هذه الآيات العظيمة نستخرجه من عبرة التاريخ .

والآن لننظر كيف انتهى يوم أُحُد لنرى كيف تبين المشركون أن هدى محمد وبصيرته كسبت له اليوم وضيَّعت عليهم ثمرة النصر ، فلم يخرجوا من قوتهم الضخمة إلا بقتل عدد من المؤمنين ، وسنأتى هنا ببضع روايات ساقها الواقدى على علاتها ، ونرتبها نحن على النحو الذى يتفق مع نسق التاريخ ، فقد سئل عمرو بن العاص : كيف كان افتراق المسلمين والمشركين يوم أُحُد ، فقال : « لما كَرَرنا عليهم أصبنا من أصبنا منهم ، وتفرقوا فى كل وجه وفاءت لهم فئة بَعْدُ ، فتشاورت قريش فقالوا : لنا الغلبة ، فلو انصرفنا ! فإنه بلغنا أن ابن أُبَىّ انصرف بثلث الناس ، وقد تخلف ناس من الأوس والخزرج ، ولا نأمن أن يكروا علينا وفينا جراح ، وخيلنا عامتها قد عُقِرت من النبل . فمضوا ، فما بلغنا الرَّوْحَاء حتى قام علينا عدة منها ، ومضينا[1].

وفى رواية أخرى تلى هذه فى الأهمية من ناحية سياق الحوادث : نقرأ عند الواقدى « لما تحاجزوا أراد أبو سفيان الانصراف ، وأقبل يسير على فرس له حواء[2] أنثى ، فأشرف على أصحاب النبى ﷺ فى عرض الجبل ، فنادى بأعلى صوته : أُعلُ هُبل ! ثم يصيح أين ابن أبى كبشة (يريد رسول الله ﷺ) أين ابن أبى قحافة ؟ أين ابن الخطاب؟ يوم بيوم بدر ألا إن الأيام دُوَل ، وإن الحرب سجال ، وحنظلة

---

(١) الواقدى / مغازى ١/ ٢٩٩ .

(٢) حواء أى : لونها بنى يضرب إلى السواد .

بحنظلة[1] ... (ثم قال بعد ذلك أبو سفيان مخاطباً عمر) : أنشدك بدينك هل قتلنا محمداً ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال : أنت عندى أصدق من ابن قُميئة – وكان ابن قُميئة أخبرهم أنه قتل النبى ﷺ – ثم قال أبو سفيان ورفع صوته : إنكم واجدون فى قتلاكم عيثاً ومثلاً ، ألا إن ذلك لم يكن عن رأى سراتنا . ثم أدركته حمية الجاهلية فقال : أما إذا كان ذلك فلك فلم نكْرَهه . ثم نادى : ألا إن موعدكم بدر الصفراء على رأس الحول ! »[2].

وبقية هذه الرواية تعطينا وصف الحالة فى معسكر المسلمين بعد نهاية المعركة : « قد انصرف أبو سفيان إلى أصحابه وأخذوا فى الرحيل ، فأشفق رسول الله ﷺ والمسلمون ، فاشتدت شفقتهم من أن يُغير المشركون على المدينة فتهلك الذرارى والنساء ، فقال رسول الله ﷺ لسعد بن أبى وقاص : ائتنا بخبر القوم ، فإن ركبوا الإبل وجَنّبوا الخيل فهو الظعن (الرحيل) وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهى الغارة على المدينة ، والذى نفسى بيده ، لئن ساروا إليها لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم !» وتبعهم سعد حتى وصلوا العقيق ، فرآهم يركبون الإبل ويتركون الخيل جانباً فعرف أنهم ظاعنون إلى مكة ، ثم يسترسل سعد بن أبى وقاص فيقول : « فوقفوا وقفة بالعقيق وتشاوروا فى دخول المدينة ، فقال صفوان بن أمية : قد أصبتم القوم ، فانصرفوا فلا تدخلوا عليهم وأنتم كالُّون ، ولكم الظفر ، فإنكم لا تدرون ما يغشاكم. قد وليتم يوم بدر ، والله ما تبعوكم والظفر لهم ، فقال رسول الله ﷺ : نهاهم صفوان »[3].

وإذن فقد أفلح رسول الله ﷺ فى صرف قريش عن محاولة دخول المدينة ، ورجع القوم دون أن يبلغوا أرباً عسكرياً ذا بال . فلا زالت المدينة سليمة لم تمس وهى قوية متماسكة ملتفة حول رسولها لم يُفقد من كبار رجالها إلا حمزة بن عبد المطلب ومُصعب ابن عمير ، وكانت عدة القتلى كلهم ٧٤ ، منهم أربعة من قريش والباقى من الأنصار،

(١) حنظلة الأول هو ابن أبى سفيان وقد قتله المسلمون فى بدر ، وأما حنظلة الثانى فهو حنظلة بن عبد عمرو وكان من أصدق المؤمنين وقد استشهد فى أحد وهو ابن أبى عامر بن صيفى من بنى ضبيعة ، من بنى مالك بن الأوس ، وكان من أعداء الإسلام ولهذا لقبه المسلمون بأبى عامر الفاسق . وكان يلقب نفسه بأبى عامر الراهب .

(٢) الواقدى ، مغازى : ١/ ٢٩٦-٢٩٧ .

(٣) الواقدى ، مغازى : ١/ ٢٩٨ .

وكانت أحفل بطون الأنصار بالشهداء هم بنو عبد الأشهل من الخزرج ، فقد استشهد منهم اثنا عشر رجلاً .

وقد تبينت قريش أنها لم تُصِبْ من المدينة شيئاً كثيراً ، ورأى رسول الله ﷺ أن يطمئن اطمئناناً تاماً إلى أن القرشيين لن يعودوا إلى المدينة . وكان على الحق فى حذره هذا ، وعلى عهدنا به كان سباقاً إلى العمل ، ففى صبيحة اليوم التالى ليوم أُحُد ، وعلى رغم الجراحات البالغة التى كان أصحابه(وهو نفسه) يعانون منها ، شرع فى اتباع الكفار مطارداً لهم بعيداً عن المدينة ، وتلك هى غزوة حمراء الأسد . وقد عانى صلوات الله عليه وأصحابه من ذلك وصباً شديداً ، ولكن لا بد مما ليس منه بُدٌّ ، فدعا أصحابه للخروج رغم جراحاتهم ، وقَصَر الخروج على من اشترك فى أُحُد ، ومضوا يلاحقون العدو ، ومر وهو فى طريقه فى أعقابهم بنفر من خزاعة على رأسهم مَعبِد بن أبى معبد الخزاعى .

وكانت خزاعة حِلْفاً دائماً لرسول الله ﷺ ، عيناً لأمة الإسلام على عداتها أينما كانوا، فذهب معبد وتسمع على القوم « ثم مضى معبد حتى يجد أبا سفيان وقريشاً بالروحاء وهم يقولون : لا محمداً أصبتم ولا الكواعب أردفتم ، فبئس ما صنعتم ! فهم مجمعون على الرجوع ، ويقول قائلهم فيما بينهم : ما صنعنا شيئاً ! أصبنا أشرافهم ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم ، قبل أن يكون لهم وفر - والمتكلم بهذا عكرمة بن أبى جهل - فلما جاء معبد إلى أبى سفيان قال : هذا معبد وعنده الخبر ، ما وراءك يا معبد ؟ قال : تركت محمداً وأصحابه خلفى يتحرقون عليكم بمثل النيران ، وقد أجمع معه من تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج ، وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم ، وغضبوا لقومهم غضباً شديداً ، ولمن أصبتم من أشرافهم . قالوا : ويلك ! ما تقول ؟ قال : والله ما نرى أن نرتحل حتى نرى نواصى الخيل !»[1] .

ومازال معبد حتى ألقى فى قلوبهم الخوف ، فعاد صفوان ينصحهم بالعودة إلى مكة بما قدر لهم من الظفر ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : «أرشدهم صفوان ، وما كان برشيد ، والذى نفسى بيده لقد سَوَّمْتُ لهم الحجارة ، ولو رجعوا لكانوا كأمس

---

(١) الواقدى ، مغازى : ١/ ٣٣٨-٣٣٩ .

الذاهب ! فانصرف القوم سراعاً خائفين من الطلب لهم »[1] وكان رسول الله على الحق فى تقديره ، وكان قد وصل بأصحابه إلى موضع حمراء الأسد فى خلف القوم ، فلكى يستوثق من أن القرشيين لن يعودوا جعل أصحابه يجمعون حطباً كثيراً ، وعندما جن الليل أوقدت النيران فكانت أكثر من خمسمائة أضاء لها الليل ، وانتشر الخبر فى كل اتجاه ، فرهبت القبائل وأسرع القرشيون عائدين إلى مكة ، وقد بلغ خوفهم من المسلمين كل مبلغ ، وقد بدأت غزوة حمراء الأسد فى الثامن من شوال ٣ هـ/ ٢٤ مارس ٦٢٥م . واستمرت خمسة أيام وعاد رسول الله إلى المدينة .

وجدير بالملاحظة أن أربعاً من غزوات الرسول الكبرى كانت فى عام ميلادى وثلاثة شهور من يناير ٦٢٤إلى مارس ٦٢٥م . فكانت نخلة فى يناير ٦٢٤م وبدر فى مارس من نفس السنة ثم كانت أُحُد وحمراء الأسد فى مارس ٦٢٥م. وهذا جهد فى الغزوات لم يعرفه العرب إلا مع الإسلام ، فكان رسول الله فى ذلك صاحب القدوة الرفيعة فى الجهاد وبذل النفس ، فلا عجب والحالة هذه أننا نرى أهل الجيل الأول من أمة الإسلام يأتسون بنبيهم فى ذلك النشاط الواسع ، والإقبال على الجهاد فى غير تراخٍ أو خوف ، فكانت معجزة الفتوح الكبرى الأولى .

وأما قريش فلم يكن لها بهذا النشاط العسكرى عهد ، فقد كانوا – وظلوا حتى فتح مكة – على أسلوب الجاهلية فى الحرب : أسلوب فرسان لا ينهضون للحرب إلا مختالين مغرورين بأنفسهم أو طالبين ثأراً ، أما ترى أبا سفيان يتواعد مع المسلمين على اللقاء بعد أُحُد فى عام . وحتى حان موعد العام من بدر كان الرسول قد خرج أو أرسل خمس غزوات وسرايا هى حمراء الأسد وقَطَن وبئر معونة والنضير والرجيع ؟ ثم خرج الرسول مبادراً إلى بدر الموعد فى ذى القعدة سنة أربع / أبريل ٦٢٦ م .

وهكذا تكون موقعة أُحُد التى يقال إنها هزيمة للمسلمين قد مضت بغير كسب يُذكر لقريش ، فلا هم أصابوا محمداً ﷺ ، ولا هم أذلوا المسلمين باقتحام بلدهم وسبى نسائهم ، ولا هم فكُّوا حصار مدينتهم ، فظلت متاجرهم معطلة وازدادت

(١) الواقدى ، مغازى : ١/ ٣٣٩ .

حالتهم الاقتصادية سوءاً ، وأقاموا منجحرين فى مدينتهم لا يدرون ما يصنعون ، وقد انصرفت عنهم معظم القبائل فى حين تابع رسول الله ﷺ غزواته وسراياه . لا ليضرب القبائل ويصيب المغانم كما يظن الكثيرون من المستشرقين ، ولا ليتلافى تجمع بعض الأعداء عليه كما تذهب مراجعنا التقليدية ، ومعظم مؤرخينا القدامى لم يزد إدراكهم لمرامى رسول الله وغاياته البعيدة غير ذلك ، وهو فى رأينا كلال منهم عن إدراك حركة تاريخية كبرى غيَّرت مصائر البشر .

الدّور الثالث من الصِّراع بَين قريش وَ الإسْلام

مِن حَمراء الأسد إلى الخندق :

قبل أن يعود القرشيون إلى مكة كانوا قد تبينوا أنهم لم يكسبوا غير نصر محدود يتلخص فى إدراك بعض الثأر لما أصابهم يوم بدر ، وإذا كان إدراك الثأر بالمفهوم الجاهلى هو أن تقتل من الخصم نظير من قُتِل أو من يعادله ، فإن القرشيين أحسُّوا أنهم حتى فى موضوع الثأر لم يشفوا غليلهم ، فهم لم يصيبوا محمداً ﷺ ولا أبا بكر ولا عمر ولا علياً ، وهم لم يصيبوا من يعتبرونهم خصومهم الحقيقيين وأندادهم إلا حمزة ابن عبد المطلب ومصعب بن عمير وهنا أيضاً نجد أن ختام الحساب لم يكن ليرضى قريشاً ، فإن مصعب بن عمير من بني عبد الدار ، وبنو عبد الدار بالذات كانوا أحفل بطون قريش الكافرة بالخسارة فى أُحُد ، فقد قتل منهم أحد عشر رجلاً كانوا فى معسكر المشركين ، وهم يتناوبون على لواء قريش أو يدافعون عنه ، وكانوا أصحاب اللواء فى الجانبين .

وإذا نحن أخذنا حمراء الأسد وما وقع فيها فى الحساب ، فإن النتيجة تكون أن القرشيين عادوا إلى مكة مسرعين خائفين ، فى حين أن المسلمين طاردوهم وضربوا معسكرهم فى الطريق إلى مكة ، وأشعلوا نيرانهم فى ظلام الليل ، فكان لهذا العمل رهبة فى قلوب الأعداء ، ثم عاد المسلمون بعد ذلك إلى مكة رافعى الرؤوس ظاهرين على عدوهم ، ثم لم يلبثوا أن ضربوا بنى النضير ضربتهم القاصمة فتخلصوا من عدو خطير كامن معهم داخل معقلهم ، وأخافوا بذلك كل من كانت تحدثه نفسه بخيانة أمة المدينة أو نقض ميثاقه معها أو مخالفة أعدائها عليها ، ثم إن المسلمين أصابوا من بنى النَّضير أموالاً وأراضى وسلاحاً انتفعوا بها كلها فى مواصلة الجهاد .

وكان ما فعله رسول الله ﷺ فى حمراء الأسد قد ألقى الرهبة فى قلوب أعداء أمة الإسلام ، فزاد أمن المسلمين فى بلدهم وازدادت مخاوف قريش ، وقد عبَّر عن ذلك أحد المسلمين بقوله: « فإذا أمسوا أمرنا (رسول الله) أن نوقد النيران ، فيوقد كل رجل ناراً ، فلقد كنا تلك الليالى نوقد خمسمائة نار حتى تُرى من المكان البعيد ، وذهب ذكر معسكرنا ونيراننا فى كل وجه ، حتى كان مما كبت الله تعالى عدونا»[1].

أما قريش فقد تبينت بعد قليل أنها لم تحسن الانتفاع بحملتها الكبيرة التى اشترك فيها ٣٠٠٠ مقاتـل من بينهم ٧٠٠ دارع ومائتـا فارس من قريش وحلفائها . ويصور لنا ذلك ما قاله رئيس من رؤساء خزاعة - وكان حليفاً لأمة المدينة ، فقد مر بالقرشيين وهم عائدون من حمراء الأسد فوجدهم يقول بعضهم لبعض : « لا محمداً أصبتم ولا الكواعب أردفتم ، فبئس ما صنعتم » ، وإرداف الكواعب هنا لا يراد به مجرد سبى النساء ، بل المراد به الإذلال والإشعار بالمهانة ، وكان سبى النساء أسوأ ما يمكن أن يصيب قوماً من العرب .

وهنا نفهم ما أراده رسول الله ﷺ عندما تزوج جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق الخزاعيين بعد أن انهزم قومها وسَبَى المسلمون نساءهم ، فلم يشأ رسول الله أن يُشْعِر بنى المصطلق بالمهانة ، فلما تزوج جويرية أم المؤمنين ، أسرع المسلمون فأطلقوا سراح من كانوا سَبُوهُنَّ من نساء بنى المصطلق ، لأن كل الذى أراده رسول الله من غزوهم هو أن يُشْعرهم أن منطقتهم تقع فى دائرة سلطان أمة المدينة ، ولا معنى لهذا لأن يدبروا عليه أو يحالفوا عدواً ، فلما انتهت الوقعة دون أن ينال بنى المصطلق هوان وصاهرهم رسول الله ، تمهد الطريق لدخول بنى المصطلق فى الإسلام . وبنو المصطلق من خزاعة ، وكان أكبر قبيل من خزاعة - هو قبيل كعب - حلفاء للرسول ﷺ وأمة الإسلام ، وقد خرج رئيسهم الحارث بن أبى ضرار والد جويرية أم المؤمنين عن إجماع قومه ، فرأى الرسول أن يعيده إلى صف خزاعة بغزوه غزوة بنى المصطلق التى تسمى المريسيع باسم ماء كان فى مواطن بنى المصطلق على شاطىء البحر بين المدينة ومكة .

---

(١) الواقدى : المغازى ، ٣٣٨/١ .

وإذن فقد عرف رسول الله كيف يجعل هذا الفريق من خزاعة عبرة لمن يعتبر ، وكان أكثر ما حبب الناس فى رسول الله ﷺ وفخر عامة القرشيين به - دون الرؤساء - هى معاملته الكريمة لبنى المصطلق بعد هزيمتهم . وتزايد شعور عامة أهل مكة من القرشيين بالميل إلى رسول الله والإسلام بعدها . وكان أبو سفيان رغم ما تظاهر به من النصر قد رأى يوم أُحُد أن قريشاً ليست نداً لأمة الإسلام ، وإذا كان قومه قد قتلوا أربعة وسبعين من المسلمين فقد قُتِل منهم - رغم ما حدث - فوق الأربعة والعشرين ، ثم توالت غزوات المسلمين وانتصاراتهم وزادت قوتهم ، واشتروا خيلاً وركب الكثيرون منهم ، ولهذا تردد أبو سفيان فى الخروج للقاء المسلمين عند بدر الصفراء كما كان وعدهم يوم أُحُد .

وكان موضع بدر الصفراء مكان سوق « مجتمعاً يجتمع فيه العرب وسوقاً تقوم لهلال ذى القعدة إلى ثمانى ليال خلون منه ، فإذا مضت ثمانى ليال منه تفرق الناس إلى بلادهم»[1]. ويضيف الواقدى هنا : « فلما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج إلى رسول الله ﷺ ، وجعل يحب أن يقيم رسول الله ﷺ وأصحابه فى الموعد ، ولايوافقون الموعد» [2] ، وجعل يظهر للوافدين على المدينة أنه ينوى الخروج للقاء المسلمين فى جمع كثيف على أمل أن يثبط ذلك من همة المسلمين .

ولكن رسول الله لم يقعد بل خرج بأصحابه إلى موضع بدر الصفراء ، وقد أيد فكرة الخروج أبو بكر وعمر ، بل خرج المسلمون ببضائع لهم ليتجروا فيها فى سوق بدر الصفراء ، « فانتهوا إلى بدر ليلة هلال ذى القعدة ، وقام السوق صبيحة الهلال (سنة ٤هـ/ ابريل ٦٢٦م) فأقاموا ثمانية أيام والسوق قائمة ، وكان رسول الله ﷺ قد خرج فى ١٥٠٠ رجل من أصحابه ، وكانت الخيل ١٠ أفراس : فرس لرسول الله ﷺ، وفرس لأبى بكر ، وفرس لعمر ، وفرس لأبى قتادة ، وفرس لسعيد بن زيد ، وفرس للمقداد ، وفرس للحباب بن المنذر ، وفرس للزبير ، وفرس لعَباد بن بشر » . وكان أبو سفيان يظن أن المسلمين لن يخرجوا ، فاقترح على أصحابه أن يخرجوا مسافة ليلة أو ليلتين من مكة حتى يقال إن قريشاً قد خرجت وأن المسلمين خافوا من اللقاء

(١) الواقدى : مغازى ١/ ٣٨٥ .
(٢) الواقدى : مغازى ١/ ٣٨٥-٣٨٦ .

«فيكون هذا لفاعليه . وإن كان قد خرج أظهرنا أن هذا عام جدب ، ولا يُصْلِحنا إلا عام عشب » فوافقوه على ذلك وخرجوا فى ألفين وخمسين خروجاً كاذباً انتهوا فيه إلى مَجِنَة ثم عادوا ، وكان العام عام جدب ، فكان طعامهم الدقيق (السويق) يذيبونه فى الماء ، فسمى جيشهم جيش السويق .

وفى تفاصيل سرية بئر معونة درس عظيم من دروس السيرة ، فقد خرجت جماعة المسلمين فى المحرم سنة ٤هـ / يوليو ٦٢٧م . ولم تعد فقد استشهد رجالها جميعاً ونحن نقرأ عند الواقدى وغيره ، « وكان من الأنصار سبعون رجلاً شَبَبَة يُسمَّون القراء . كانوا إذا أمسوا انتحوا ناحية من المدينة فتدارسوا وصَلّوا . حتى إذا كان وجه الصبح استعذبوا من الماء وحطبوا من الحطب ، فجاءوا به إلى حُجَر رسول الله ﷺ ، وكان أهلوهم يظنون أنهم فى المسجد ، وكان أهل المسجد يظنون أنهم فى أهليهم ، فبعثهم رسول الله ﷺ فخرجوا فأصيبوا فى بئر معونة»[١] .

ويقال : إنهم كانوا سبعين ولكن الثابت أنهم كانوا أربعين ، غدرهم بنو عُصَيَّة بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة من بنى مازن بن منصور من قيس عَيْلان وأبناء عمهم بنوكلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة يقودهم رجل منهم يسمى عامر بن الطفيل ، وهؤلاء كانوا جيران بنى أسد ، وكلهم من أعراب مضر الذين كانوا يرعون فى مرتفعات غربى نجد ، وكان رسول الله لا يثق فيهم ويخاف غدراتهم على المسلمين، وهم يدخلون فى جملة أعاريب نجد . ومصيبة كهذه – أى استشهاد أربعين من رجال أمة المدينة دفعة واحدة – لو وقعت فى أى جماعة كان لا بد أن تهز كيانها ، ولكننا نقرأ أخبار أمة المدينة فنجد أنها لم تتأثر شعرة بما حدث لأهل بئر معونة ، فقد كان بنيانها صلباً متيناً ، وما كان الموت فى سبيل الله إلا إحدى الحسنيين اللتين يشتاق إليهما كل أهل الجماعة ، ولكن رسول الله وجد عليهم وجداً شديداً ، وظل يذكرهم ويترحم عليهم .

ولم يكن الشباب الذين خرجوا لنشر الإسلام فى سرية بئر معونة قد تعلموا شيئاً من نظم الحرب عند السابقين من أهل الأمم ، ولكننا نجد أفرادها يتصرفون تصرفاً

---

(١) الواقدى ، مغازى ١/ ٣٤٧ .

عسكرياً بالغ النظام والضبط . فقد ثبتوا وانتخبوا منهم رئيساً وتشاوروا فيما بينهم حين أحيط بهم ، وأحسوا ألا مفر لهم من الاستشهاد ، واستقبلوا الموت فى جلال يروع النفس ، لأنهم كانوا ينتسبون إلى أمة جعلها رسول الله ﷺ أمة جيشاً أو جيشاً أمة ، (وهكذا كان ينبغى أن تكون أمة الإسلام أبد الدهر حتى تؤدى رسالتها كاملة).

ثم انظر إلى روح التضحية والفداء والمبادرة إلى ما يرضاه رسول الله ﷺ (إيماناً بأنه الواجب) ، فى خبر مما حدث بعد إخراج الرسول لبنى النضير من المدينة ، وإفاءة الله سبحانه أموالهم لرسول الله . فقد رأى الرسول ﷺ أن أموال بنى النضير فى إفاءة الله عليه ، فهى له من دون بقية المؤمنين ، فلم يُبْدِ واحد من المسلمين معارضة وتركوا الأموال لرسول الله يتصرف فيها لصالح الأمة ، فاشترى بمعظمها سلاحاً وخيلاً .

وهكذا رأى الناس أن أمة الإسلام هى الأقوى ، فها هى تبادر إلى الموعد على أهبة القتال ، فى حين خرج القرشيون خروجاً مشيناً لم يخف على أحد . وقد أحست قريش بالخجل مما فعلت ، وخافت على اسمها بين الناس ، ثم إن بقاء طريق التجارة مقفلاً كان يضطرهم إلى الخروج ، وهذه كلها كانت أسباب خروج المشركين وحلفائهم للغارة على المدينة فى غزوة الأحزاب .

وفى أثناء خروج رسول الله ﷺ وقع حادث صغير يدل على مدى ما وصلت إليه المدينة من القوة بعد أُحُد ، فإن المسلمين قابلوا فى طريقهم جمعاً من بنى ضمرة (بن بكر بن عبد مناة من كنانة) على رأسهم شيخ يسمى مخشى بن عمرو ، وكان هذا الرجل قد حجز بين المسلمين وجماعة من تجار قريش ، فيهم أبو سفيان قبل بدر ، وتوسط بين الفريقين وصرفهما عن القتال ، وذلك فى غزوة الأبواء أو وَدَّان فى ربيع الأول سنة ٢هـ / سبتمبر ٦٢٣م . ووادع الرسول يومئذ بنى ضمرة ، ثم التوت بنو ضمرة مع بقية بنى بكر بن عبد مناة وأصبحوا أحلافاً لقريش على أمة المدينة ، وسيظهر ذلك جلياً بعد الحُديبية ، عندما نجد بنى بكر بن عبد مناة يعلنون أنهم يدخلون فى حلف قريش عندما دخلت خزاعة فى حلف أمة الإسلام ، وكان عدوان بنى بكر هؤلاء على بنى كعب من خزاعة ، هو الذى أخرج رسول الله ﷺ من المدينة لفتح مكة عام الفتح .

وكان رسول الله يعرف ما تنطوى عليه ضمرة وشيخها عندما لقيهم مَخْرَجَه إلى بدر الموعد ، فقال مخشى بن عمرو الضمرى وكأنه دهش لرؤية رسول الله ومن معه من المؤمنين : « لقد أُخبرنا أنه لم يبق منكم أحد ! فما أعلمكم إلا أهل الموسم ، فقال رسول الله ﷺ ليُرْفَع ذلك إلى عدوه من قريش [(١)] : ما أخرجنا إلا موعد أبى سفيان وقتال عدونا ، وإن شئت - مع ذلك - نَبَذْنَا إليك وإلى قومك العهد [(٢)] ثم جالدناكم قبل أن نبرح من منزلنا هذا . (فخاف) الضمرى (وقال) بل نكف أيدينا عنكم ونتمسك بحلفك[(٣)] » ويلغ هذا الكلام معبد بن أبى معبد الخزاعى حليف أمة المدينة، مثله فى ذلك مثل بقية بنى كعب الخزاعيين فأسرع به إلى مكة .

ويبدو أن شيوخ البدو هؤلاء من بنى بكر بن عبد مناة وخزاعة وبنى أسد ولحيان وضمرة وزغبة ورعل ، وبقية بطون مضر قد سرهم هذا الصراع بين مكة والمدينة فأصبحوا يجوسون الفيافى طلباً للأخبار ليطيروا بها أسرع من الطير إلى مكة أو المدينة يؤججون النار بين الجانبين ، فأما قريش فكانت تنخدع بكلامهم ، بل كانت تهبط إلى مستواهم فكانت تؤجرهم على ذلك ، وقد كانت قريش دائماً تؤدى إلى هذه القبائل إتاوات وأموالاً لتضمن سلامها وسلامة متاجرها ، وكانت تستخدم هذه القبائل فى تحقيق مآربها ، وقد رأينا أمثلة لذلك فيما مر، وهنا فى غزوة بدر الموعد نرى أبا سفيان يقول لشيخ من شيوخ أولئك الأعراب وهو نُعَيم بن مسعود الأشجعى « الأرض مثل ظهر الترس ليس فيها لبعير شىء ، وإنما يصلحنا عام خصب غَيداق ترعى فيه الظهر والخيل ونشرب اللبن ، وأنا أكره أن يخرج محمد وأصحابه ولا أخرج فيجترئون علينا ، ويكون الخُلْف من جانبهم أحب إلىّ ، [فاذهب إلى محمد وأصحابه وخذِّلهم عن الخروج] ، ونجعل لك عشرين فريضة ، عشراً جذاعاً وعشراً حِقاقاً [(٤)] وتوضع لك على يدى سهيل بن عمرو ويضمنها لك ، قال نعيم : رضيت[(٥)] ... » .

(١) أى : أن رسول الله قال ما قال لكى تبلغ مقالته قريشاً ، وكان مَخشى بن عمرو الضمرى من حلفائها وعيونها فى السر . وكلام النص فى المتن للواقدى .

(٢) أى : أنهينا حلفنا معك ومع قومك .

(٣) الواقدى ، مغازى ، ٢ / ٣٨٨ وما بين أقواس ألفاظ أضفتها للتوضيح والبقية لمحمد بن عمر بن واقد .

(٤) الإبل الجذاع التى دخلت السنة الخامسة من عمرها ، والحقاق ما دخلت الرابعة .

(٥) الواقدى ، مغازى ١/ ٣٨٥-٣٨٦ .

أما رسول الله ﷺ فكان لا يدفع لهؤلاء البدو شيئاً ولا يؤدى إليهم إتاوة ، وإنما هو كان يدعوهم للإسلام ، فإن قبلوا كانوا من أمة الإسلام يخدمونها ويصدقون معها مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من المؤمنين ، فإذا أبوا إلا الإقامة على الشرك عرض عليهم الحلف أن يَصْدُقُوه ولا يُخفوا عنه شيئاً ولا يعينوا عليه عدواً ، فكانوا يقبلون ذلك ، فإذا نقضوا العهد كان لا بد من تأديبهم كما فعل مع بنى المصطلق ، وكان إذا تحدث مع أولئك الأعراب تكلم فى حزم ووضوح ، وكان فى العادة يزن كل كلمة يقولها ويعرف أين تذهب ، وقد رأينا كيف كان كلامه لمخشى بن عمرو الضمرى .

وهذا الموقف من محمد رسول الله ﷺ من الأعراب هو السبب فى مأساتى بئر معونة والرجيع ، وهما سريتان قُتل فى الأولى أربعون من أتقياء شباب الأنصار ، وكان أبو البراء عامر بن مالك مُلاعب الأسنة قد طلب إلى الرسول أن يبعث نفراً من المسلمين ليدعوا بنى سُلَيم بن منصور إلى الإسلام وضَمِن له جوارهم ، فخرجوا إلى بنى سُليم حيث غدروا بهم وقتلوهم . وبعد ذلك بقليل ، وقبل أن يُقتل أصحاب بئر معونة ، أرسل بنو لحيان إلى عَضَل والقارة يعرضون عليهم أن يبعثوا إلى رسول الله رسلاً فيكلموه ، فيخرج إليهم نفراً من أصحابه يدعونهم إلى الإسلام « فنقتل من قتل صاحبنا ، ونخرج بسائرهم إلى قريش بمكة فنصيب بهم ثمناً ، فإنهم ليسوا لشىء أحب إليهم من أن يؤتوا بأحد من أصحاب محمد يُمثِّلون به ويقتلونه بمن قتل منهم فى بدر » ، وتم هذا بالفعل ، وأرسل إليهم رسول الله جماعة من الدعاة على رأسهم مَرْثَد بن أبى مَرْثَد الغنوى فغدروهم وأسروا بعضهم وباعوهم لأهل مكة فقتلوا منهم اثنين ، وقد غضب رسول الله ﷺ على أولئك الأعراب من أهل أطراف نجد ، وقال: « اللهم اشدد وطأتك على مضر! اللهم عليك ببنى لحيان وَزِغْب ورِعْل وذكوان وعُصَيَّة ، فإنهم عصوا الله ورسوله ، اللهم عليك ببنى لحيان وعضل والقارة»[1] ومُضر التى دعا عليها رسول الله هنا هى مضر قيس عيلان لا مضر الياس.

ومن هذه الأخبار يتجلى كيف كان رسول الله ﷺ يعامل هؤلاء الأعراب ، فهو

(١) مغازى الواقدى : ١/ ص ٣٤٩ وما بعدها .

لا يصانعهم ولا يتعامل معهم إلا على شرط الإسلام ، بل كان لا يقبل من أحد منهم هدية إلا إذا أسلم ، وقد عرض عليه أبو البراء مُلاعب الأسِنَّة هدية فرسين وراحلتين فردَّها وقال : « لا أقبل هدية مشرك » ثم عرض عليه الإسلام ، فلم يسلم ولم يبعُد [1] أما قريش فقد كانت تسايرهم وتفعل فعلهم وتهبط إلى مستواهم حتى لقد اشتروا منهم اثنين ممن أسروهم غدراً من رجال سرية الرجيع هما : خبيب بن عدى ، وزيد ابن الدثنة ، فقتلوهما فى خبر طويل .

ولهذا فقد كان الأعراب لا يُوقِّرون قريشاً ويسخرون منها ، وعندما خاف القرشيون لقاء المسلمين فى بدر الصفراء وبعثوا يستعينون بالأعراب زاد استخفافهم بهم ، فقد رأوا خوف قريش وثبات أمة الإسلام ، ولهذا فعندما قررت قريش أن تخرج لغزوة الخندق ، قال صفوان بن أمية لأبى سفيان : « قد والله نهيتك يومئذ أن تَعِد القوم ، وقد اجترأوا علينا ورأوا أننا قد أخلفناهم ، وإنما خَلَّفَنَا الضعف عنهم ، فأخذوا (أى القرشيون) فى الكيد والنفقة فى قتال رسول الله ﷺ ، واستجلبوا مَنْ حولهم من العرب وجمعوا الأموال العظام، وضربوا البعث على أهل مكة فلم يترك أحد منهم إلا أن يأتى بها قل أو كثر ، فلم يُقبل من أحد منهم أقل من أوقية لغزوة الخندق ، وقال معبد بن أبى معبد الخزاعى وقد سبق أن ذكرناه ، وهو شيخ بنى كعب من خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ ، قال ساخراً من قريش يتوقع لها الهزيمة :

تَهْوِى على دين أبيها الأتْلَد إذْ جعلَتْ ماءَ قُدَيْد[2] مَوعِد

وماءَ ضَجْنَان لها ضُحَى الغَدِ إذ نَفَرتِ من رُفْقَتى مُحمد

وعَجوة موضوعةٍ كالعَنْجد

الدّور الرابع من الصّراع بين قريش والإسلام :

من بدر الموعد إلى غزوة الأحزاب أو الخندق :

كانت غزوة بدر الموعد فى ذى القعدة ٤هـ / أبريل ٦٢٦ م ، وكانت الخندق فى

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٥٠ .

(٢) قديد : بليدة على الطريق من مكة إلى المدينة ، وهى غير بعيدة عن بدر الصفراء .

ذى القعدة سنة ٥ للهجرة / أبريل ٦٢٧م . فبينهما عام هجرى ، وهو عام ميلادى إلا أياماً ، وفى خلال هذا العام خطت المدينة خطوات واسعة نحو القوة واتساع الرقعة والهيبة فى شمال الجزيرة ووسطها جميعاً ، فإن مأساتى بئر معونة والرجيع ، كانتا دافعتين لرسول الله ﷺ لتمكين قبضة المدينة على الحجاز حتى أحواز مكة وعلى قبائل العرب فيما بين الحجاز ونجد ، فأرسل رسول الله عبد الله بن عتيك وأصحابه ليقضى على أبى رافع اليهودى ، وكان عدواً لدوداً للإسلام ، يؤلب عليه ويثير الناس على أمة المدينة ، وكان يسكن خيبر فَقُتِل فى خيبر وبين أهله (ذو الحجة ٣هـ / مارس ٦٢٦ م) .

ثم خرج رسول الله ﷺ بنفسه فى غزوة ذات الرقاع ، وهو جبل فى مطالع نجد على نحو خمس عشرة ليلة من المدينة كانت تنزل عنده بطون من أنمار وثعلبة وكانوا أعراباً يُغيرون على الناس فى نواح سادها الأمن والهدوء بعد أن دخلت حلف المدينة وانتشر فيها الإسلام ، فأراد رسول الله ﷺ أن يطمئن من ناحيتها ، وكان رسول الله حريصاً على أن يخرج فى هذه الغزوات بنفسه فيكون لمسيره من الهيبة ما يجذب الناس للإسلام فيدخلوا فيه ، ثم إن قريشاً كانت تسمع بأخبار مسيره فتعلم أنها قِبلَ رجل دائم الحركة والنشاط فى سبيل دعوته ، فيزداد خوف رؤسائها منه ويتزايد حب غير الرؤساء وإعجابهم به ، فإنهم كانوا يشعرون أن رسول الله واحد منهم ، عِزّه عزهم وقوته قوتهم ، وكان الكثيرون جداً منهم تواقين إلى الانضمام إلى محمد ﷺ ، ودخول الإسلام لولا هذا النفر العنيد من شيوخهم ، ولم يقتصر ذلك الميل إلى الإسلام على القرشيين ، بل كان هناك عرب كثيرون بلغتهم أنباء رسول الله وما هو عليه من كريم السجايا ، وما تتمتع به أمته من رخاء وقوة وأمان ، فكانوا ينتظرون الفرصة ليدخلوا فى دينه رغباً والتماساً للبركة .

وكان رسول الله فى هذه المغازى يزيد إيمان أصحابه عمقاً ، ويؤكد شعورهم بالولاء للدين والقوة وخلوص النية له والتضحية بالنفس فى سبيله ، ومن دلائل ذلك ما حدث فى غزوة ذات الرقاع تلك : فإن عباد بن بشر كان يَحْرُس المسلمين مع عمار ابن ياسر ذات ليلة ، فاقترب من المعسكر رجل من الأعداء يطلب امرأته وقد كان

المسلمون قد أسروها ، وكان عباد بن بشر يصلى فرماه الرجل بسهم أصابه فلم يقطع صلاته ، ورماه بثانٍ أصابه أيضاً واستمر يصلى ، ثم رماه بالسهم الثالث فأرداه وقد ختم صلاته ، وأدركه عمار بن ياسر وهو ينزع فقال له : « أى أخى : ما منعك أن توقظنى به (أى تنبهنى إليه) فى أول سهم رمى به ؟ قال : كنت فى سورة أقرؤها وهى سورة الكهف ، فكرهت أن أقطعها حتى أفرغ منها ، ولولا أن خشيت أن أضيِّع ثَغْراً أمرنى به رسول الله ﷺ ما انصرفت ولو أُتِى على نفسى »[1]. ولم يمت عباد ، فقد مدَّ الله فى أجله وعاش بعد ذلك .

وكذلك كان ﷺ يرى فى تلك المغازى مناسبة للتبسط فى الحديث مع من لا تتاح له فرص الحديث معه من أصحابه فى المدينة والاسترسال معهم فى بسائط شئونهم ونصحهم ، فهنا فى ذات الرقاع يروى جابر بن عبد الله أحاديث جرت بينه وبين الرسول منها : « إنَّا لمع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من أصحابه بفرخ طائر ، ورسول الله ﷺ ينظر إليه ، فأقبل أبواه أو أحدهما حتى طرح نفسه فى أيدى الذى أخذ فرخه ، فرأيت الناس عجبوا من ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : أتعجبون من هذا الطائر؟ أخذتم فرخه فطرح نفسه رحمة لفرخه ، والله لَرَبُّكُم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه»[2].

ثم تكون غزوة دومة الجندل ، وهى الجوف اليوم ، وهى على نحو ٦٠٠ كيلو متر عن المدينة ، فخرج إليها ﷺ وتجشَّم مشقة الذهاب والإياب (ربيع أول - ربيع ثان ٥هـ / أغسطس - سبتمبر ٦٢٦م) . قال الواقدى : « قالوا : أراد رسول الله ﷺ أن يدنو إلى أدنى الشام ، وقيل له : إنها طرف من أفواه الشام ، فلو دنوتَ منها كان ذلك مما يُفزع قيصر » ، ثم قيل للرسول إن بدومة الجندل جمعاً كثيراً وإنهم يظلمون من مَرّ بهم من الصنافطة (الذين يجلبون الميرة والمتاع إلى المدينة) وكان بها سوق عظيم وتجار، وضوى إليهم قوم من العرب كثير وهم يريدون أن يدنوا من المدينة فقرر الرسول الخروج إلى دومة الجندل ، مما يدل على الآفاق التى كان الرسول يتطلع إليها

---

(١) الواقدى . مغازى : ١/ ٣٩٧ ، وقد قيل : إن الأنصارى الشهيد عمارة بن حزم .
(٢) الواقدى ، مغازى : ١/ ٣٩٨ .

وهو بعد لم يفرغ من أمر مكة ، والقارىء لهذه التفاصيل يشعر أن أمر مكة ومشركيها لم يكن ليشغل اهتمامه كله.

ثم تكون غزوة المريسيع إلى بنى المصطلق ، وهى غزاة طويلة حافلة بالأحداث والنوازل التى تُستخرج منها الأحكام . ولم تكن منازل بنى المصطلق أو بَلْمُصطلق بالبعيدة عن المدينة ، ولكنها كانت على إحدى الطرق الرئيسية من مكة إلى الشام ، فقد كانوا ينزلون بناحية من ناحية الفُرُع الغنية بالماء ومسايل الماء غير بعيدة عن الصفراء والمسيجيد ، وكان بنو المصطلق بطناً من خزاعة وكانوا حلفاء لبنى مَدْلج ، وكانت خزاعة فى جملتها فى حلف رسول الله ﷺ ، فشذ عنهم سيد بنى المصطلق الحارث بن ضرار وأراد أن يخرج عن الحلف ، ولو تُرك على حاله لخرج جزء من الطريق بين مكة والشام عن سيطرة المدينة ، وهذا ما لم يكن الرسول يريده ، فعجل بالمسير إلى المريسيع ، وكان الحارث بن ضرار رجلاً مغروراً بنفسه ، حَرَّضَ قومه على الخروج فاستجابوا له ، وما نظن أن الحارث كان يجرؤ على المسير إلى المدينة ، فهو وقومه لا يبلغون هذا المبلغ ، ولكن مجرد خروجه عن إجماع قومه كان انحرافاً عن الطريق لا بد أن يُقوَّم .

وجدير بالذكر أن رسول الله عندما أراد أن يستعلم عن أمور خزاعة بعث بُرَيْدة ابن الحُصيب الأسلمى الخزاعى ، وكان هؤلاء الأسالمة أحلافاً لرسول الله ﷺ ، حيث كانوا مثلهم فى ذلك مثل بنى أسلَم (بفتح اللام) ، وكانوا بطناً من بلى بن إلحاف بن قضاعة القديمة ، تفرقوا فى نواح كثيرة من الحجاز حيث استضعفهم الأوس والخزرج فى سهل المدينة . وأساءت استخدامهم قريش ، فلما قامت أمة المدينة سارعوا بالانضمام إليها ، ووجدوا فى ذلك العزة والمنعة إلى جانب الدين ، وقد كان لبنى أسلَم الخزاعيين وبنى أسلَم القضاعيين فى ظل الإسلام دور عظيم .

وكانت غزوة المريسيع فى شعبان سنة ٥ هـ / يناير ٦٢٧ م ، قبل الخندق بثلاثة شهور ، وقد ضرب المسلمون بنى المصطلق ضربة حاسمة بالغة الشدة ، ولم يكن من ذلك بُدٌّ لأن الظروف كلها كانت تنبىء بأن قريشاً لا بد مدبرة أمراً ، وكان لا بد أن يظل أحلاف المدينة فى سلام معها وولاء لها ، وإلا وجدت قريش فى ذلك مجالاً

وسيعاً للإضرار بأمة الإسلام والإفلات من الحصار ، ولكن الرسول بعد أن تحققت له الغاية من ضربة بنى المصطلق بادر إلى التخفيف عنهم ، فأصهر إليهم باصطفاء جويرية بنت الحارث وأداء كتابتها عنها وتزوجها ، فأطلق المسلمون ما كانوا قد أحرزوه من سبى بنى المصطلق .

وقد أفادت المدينة من وراء ذلك النشاط الواسع قوة كبرى ، فاستقر نفوذها فى شمال شبه الجزيرة ووسطها كله ، وهابتها القبائل هيبة شديدة ودخل فى حلفها منها من دخل ، وأسلم من أسلم .

وفى أثناء ذلك كانت قريش فى ضيقها وحيرتها من أمرها ، فإن الحصار عليها شديد ، وهى لم تكسب من معركة أُحُدٍ شيئاً ذا بال ، ثم جاءت حمراء الأسد ثم بدر الموعد فَخَنِسَت وانكمشت فى عقر دارها وساورها الخوف على مصيرها ، ربما للمرة الأولى منذ حرب الفِجَار الثالثة ولكنها لم تكن تستطيع المقام على هذه الحال ، فهى قبيلة كبيرة غنية ذات صيت بعيد وجاه عظيم ، ورجالها أعلام لهم مكانتهم وتجارتهم ، وقد قضت قريش فوق القرن والنصف فى بناء نفسها وبلوغ ذلك المبلغ .

وكان لها نظام قوى صلب وتماسك يقوم على تقاليد وقواعد وعقل وحكمة وتدبير ، وكل ذلك جعل لها جاهاً عظيماً عند العرب وهيبة بالغة فى قلوبهم ، والآن يجدون ذلك كله مهدداً بالزوال ، بل هو يتلاشى يوماً بعد يوم ، وما كان القرشيون بالجبناء ولا قليلى الحيلة ، فما زالت قريش مجتمعة القوة وهى تستطيع الآن أن تضرب ، وفى التأخر مزيد من المضرة بها ولا ريب ، ولا بد لها أن تضرب قبل أن يضيق عليها الخناق وتصبح الحركة عسيرة عليها .

تلك هى مقدمات غزوة الأحزاب التى حوَّلتها حكمة الرسول إلى غزوة الخندق ، وهى آخر محاولة لقريش للوقوف فى وجه أمة المدينة الناهضة ، ولم تكن قريش بالمغامرة فيها ولا المتهورة ، فقد أعدت نفسها أحسن استعداد أمكنها ، وأحكمت أمرها وجمعت أحلافاً أقوياء لهم صالح مباشر فى القضاء على أمة المدينة وأحكمت خطة المسير والتوقيت ، وقاد قواتها مع حلفائها أبو سفيان صخر بن حرب قيادة فيها حزم ومعرفة وذكاء ، ولكن فاتها أن القوة التى خرجت قريش لتقيس نفسها إليها

كانت تفوقها من كل ناحية ، بل كانت قوة من طراز جديد لم تعرفه قريش ولم تكن تتوقعه ، فسواء أكان ذلك متصلاً بطبيعة بناء قوة الإسلام التى خرجت قريش وأحلافها للقضاء عليها ، أم كان متصلاً بنظامها الداخلى لأن العقيدة التى تُوَجِّه رجالها ، والقانون الأخلاقى الذى كان يحكم تصرفات أفرادها ، والأهدافَ التى كانت المدينة تحارب فى سبِيلها وطريقة القتال التى دربت نفسها عليها ، فى ذلك كله كانت المدينة تفوق مكة بمراحل كثيرة .

وفوق ذلك كله كانت شخصية قائد جماعة المدينة ومُوجِّه الأمر فيها واتجاهات فكره وأسلوبه فى العمل ، والغايات التى كان يرمى إليها ومستوى العلاقات بين محمد رسول الله وصحابته كباراً وصغاراً ، ثم الولاء المطلق للعقيدة والرسول صلوات الله عليه وسلامه ، فى كل ذلك كانت المدينة تختلف اختلافاً بيناً عن قريش وأحلافها . فهؤلاء يمثلون عصر الجاهلية بكل عقليته وأسلوبه فى العمل وأهدافه ونظرته إلى الحياة ، والمدينة تمثل الإسلام وهو بناء عقيدى حضارى وإنسانى جديد ، وبعبارة واحدة نقول : أمامنا فى معركة الخندق عصر عتيق كان كل ما فيه قد وهن واهترأ وفقد حيويته يحاول أن يقف أمام عصر جديد كل ما فيه جديد ، وهو قوى شاب صلب متماسك قام ينشىء لأهل الدنيا كلهم نظاماً جديداً .

هذا عن الصورة العامة للصراع الذى دار بين الجبهتين فى موقعة الأحزاب التى تحولت إلى معركة خندق أو معركة الحصار بتعبير عملى دقيق .

ويتجلى لنا طابع القوة فى تنظيم أمة الإسلام فى ثلاث نواح : الأولى تماسك الجماعة والتفافها حول قائدها وطاعتها له وثقتها فيه . ومن جانبه أيضاً نجد الثقة فى الأمة كاملة ، فهو يصدر الأمر ناظراً دائماً لما فيه صالح الجماعة . ففى سرية أبى سلمة بن عبد الأسد إلى قَطَن (وقد جاءت بعد حمراء الأسد فى المحرم ٤ هـ/ يونيو ٦٢٥م) يستدعى رسول الله ﷺ أبا سلمة بن عبد الأسد وكان قد أَبَلَّ من حين قريب من جراح أصابته فى أُحُـد ويقول : « اخرج فى هذه السرية ، فقد استعملتك عليها» وعقد له لواء وقال : « سِرْ حتى تَرِدَ أرض بنى أسد ، فأغِرْ عليهم قبل أن تلاقى جموعهم عليك » فأذعن للأمر وخرج معه طواعية مائة وخمسون من المسلمين فيهم من

المهاجرين من صميم قريش ومن بنى فهر ومن الأنصار ، كلهم أعلام من الصحابة من أهل الدين والورع والبسالة والإيمان المتين .

وأبو سلمة يمضى معهم قائداً مطاعاً ومقاتلاً عارفاً بشئون الحرب ، فهو يصل إلى حيث وجهه الرسول ، فيفرق رجاله ثلاث فرق لتغير على كل أرض بنى أسد : وأوعز إليهم ألا يمضوا فى طلب وألا يبيتوا إلا عنده إن سَلِموا ، وأمرهم ألا يفترقوا ، واستعمل على كل فرقة عاملاً منهم » ، ويقوم كل فريق منهم بما ذهب لأجله ويعودون بالمغنم ، فيمضى بهم أبو سلمة عائداً وبعد سير ليلة يقول : « اقتسموا غنائمكم ، فأعطى أبو سلمة الطائىَّ الدليل (أى الذى دل المسلمين على أرض بنى أسد) رِضاهُ من المغنم ، ثم أخرج صَفِياً لرسول الله ﷺ عبداً ، ثم أخرج الخمس ، ثم قسم ما بقى بين أصحابه فَوُفُوا سُهمانهم ، ثم أقبلوا بالنَّعَم والشاه يسوقونها حتى دخلوا المدينة» وقد نَفر على أبى سلمة جرحُه القديم بعد العودة إلى المدينة ، ومات منه لثلاث من جمادى الآخر سنة ٤ هـ .

فهذا نظام تام لا يصدر إلا عن رجال لهم ثقة كاملة فى أنفسهم وفى قيادتهم . ورسول الله ﷺ يثق تماماً فى أنهم سيقومون بالمطلوب منهم دون وصاة . ولو كانت دولة عريقة ذات تقاليد عسكرية عتيقة لما سار الأمر فيها بهذا النظام ، فما بالك ونحن فى جماعة حديثة التكوين حرة يحكم أمرها الإيمان الكامل والقدرة الحسنة والتضحية بالنفس فى سبيل الجماعة وعقيدتها .

دُروسٌ وَعِبَر :

ويسأل عمر رسول الله عما سيفعل بأموال بنى النضير ، فيشير رسول الله ﷺ إلى الآيتين السادسة والسابعة من سورة الحشر : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[1] وبناء على ذلك كان عمر بن الخطاب

(١) سورة الحشر ٥٩/٦-٧ .

يقول : كان لرسول الله ﷺ ثلاث صفايا ، فكانت بنو النضير حبساً لنوائبه ، وكانت فدك لابن السبيل ، وكانت خيبر قد جزأها ثلاثة أجزاء ، فجزآن للمهاجرين وجزء كان ينفق منه على أهله ، فإذا فضل رده على فقراء المهاجرين .

ومع ذلك يعرض رسول الله هذا الأمر - أمر مصير أموال بنى النضير - على المهاجرين والأنصار وكان حريصاً دائماً على أن يتصرف فى شئون الدنيا برأى الأمة ، وكانت الأمة فى نفس الوقت تسترشد بهديه وصدقه وإخلاصه ، ويخير الأنصار بين أمرين : إما أن يشتركوا مع المهاجرين فى نصيب من هذا الغنى ويظل المهاجرون نازلين بمساكنهم التى نزلوا فيها على الأنصار عند هجرتهم ، أو يقسم هذا المال على المهاجرين ويتركوا ما نزلوا فيه من مساكن الأنصار وأموالهم ، فيكون رد الأنصار بل يقسم المال عليهم ويظلوا معنا فى مساكننا ، وذلك أقصى الإيثار ، وهذا دليل على المستوى الأخلاقى الرفيع الذى وصل إليه أهل أمة الإسلام .

وسنرى بعد كلامنا على ما وقع فى غزوة الخندق ، الكثير من دلائل التطور العسكرى ، ولكن نقرأ معاً هذا الخبر التالى عما حدث قبل أن يصدر سعد بن معاذ حكمه فيما يُعمل ببنى قريظة ، قال الواقدى : « وأقبل سعد إلى رسول الله ﷺ والناس حول رسول الله ﷺ جلوس ، فلما طلع سعد قال رسول الله ﷺ : قوموا إلى سيدكم ، فكان رجال من بنى عبد الأشهل يقولون : فقمنا له على أرجلنا صفين ، يحييه كل رجل منا حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ » .

وهذا مظهر عظيم من مظاهر تبجيل القضاء : أن يأمر رسول الله الحاضرين بأن يقفوا جميعاً لسيدهم ، والقاضى عندما يسير لمجلس قضاته ويجلس فيه يكون سيد الحاضرين فى موضع الحكم . ثم يتقدم سعد (وهو مريض) وينظر إلى بنى قريظة ويؤكد لهم أنه سيحكم بما يُرضى ضميره . (وكان بنو قريظة حلفاءه ، وله ولأبيه تعامل وصداقة معهم قبل الإسلام) ثم ينظر إلى رسول الله ويقول: وعلى مَنْ ها هنا مثل ذلك ؟ أى : هل تقبلون حكمى بنفس راضية كما أقر بنو قريظة بأنهم يقبلونه ، فقال رسول الله ﷺ ومن معه : نعم . وهذا من أجمل مشاهد احترام القضاة والقضاء :

رسول الله ومن بعده يَعِدون بأن يرضوا بحكم القاضي ويسلموا به ، ثم يكون الحكم فى بنى قريظة بعد ذلك بما نعرفه جميعاً .

وهذه هى الجماعة التى أنشأها رسول الله ﷺ بهدى من ربه ، فهى جماعة جديدة من كل ناحية ، جماعة منظمة متماسكة متآخية تسير على هدى من عقيدة سامية وتمضى فى آثار أصلح قدوة عرفها التاريخ .

هنا يتجلى لنا كيف كانت الهوة شاسعة بين قريش وأمة المدينة ، وقريش إلى ذلك الحين كانت أعلى من الجزيرة ، حضارة وعلماً ونظاماً وفهماً وترابطاً وإدراكاً لروح الجماعة ومسئوليتها ، فجاءت هذه الأمة على ذلك المستوى الرفيع الذى يفوق كل ما عرفته الإنسانية من تنظيم إلى ذلك الحين ، بل إلى يومنا هذا ، وإذا كان بعض الناس يرون أن الشورى أو ما يسمونه بالديمقراطية هى ميزة العصر ، فقد عرفنا أن الشورى كانت بنص القرآن قاعدة من قواعد التنظيم فى أمة المدينة .

وأضيف إلى ما يعرف الناس من آى القرآن الكريم فى هذا المعنى ذلك الشاهد الجديد آتى به من كلام الواقدى عن غزوة الخندق : فبعد أن خطب رسول الله ﷺ الناسَ عندما سمع بخبر مسير الأحزاب نحو المدينة يقول الواقدى : « وشاورهم رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله يكثر مشاورتهم فى الحرب ، فقال : أنبرز لهم من المدينة أم نكون فيها ونخندقها علينا ، أم نكون قريباً ونجعل ظهورنا إلى هذا الجبل ؟ فاختلفوا . فقالت طائفة : نكون مما يلى بُعاث إلى ثَنية الوداع إلى الجُرف . فقال قائل : ندع المدينة خلوفاً ؟ (أى : خلف ظهورنا) فقال سَلْمان : يا رسول الله ، إنَّا إذا كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل خندقنا علينا ، فهل لك يا رسول الله فى أن نُخندق؟ فأعجب رأى سلمان المسلمين ، وذكروا حين دعاهم النبى ﷺ يوم أُحُد أن يقيموا ولا يخرجوا ، فكره المسلمون الخروج وأحبُّوا الثبات فى المدينة »[1] .

وهذا مثال من مشاورة الرسول لأصحابه ، فهو هنا يطرح الأمر عليهم ويدعهم يتبادلون الرأى فى حرية تامة ، وعندما اقترح سلمان الخندق - وقد سبق أن ذكره رسول الله - « أعجب رأى سلمان المسلمين » فلم يقتصر الإعجاب هنا على رسول الله

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٤٤٤-٤٤٥ .

بل شمل المسلمين ، أى : أن الرأى كان لما تقرره الجماعة . والحرب كانت أخطر شئون المدينة فى هذه المرحلة من تاريخها ، فإذا كان رسول الله ﷺ يشاور المسلمين فى أهم شىء فما بالك بالعادى من شئون الدنيا ؟ وإذا كان يأخذ برأى أصحابه الذى أجمعوا عليه واتفقوا على تنفيذه معاً ، فكيف يقول ناس اليوم : إن الشورى ليست ملزمة للإمام ؟ . وإذن : فنحن فعلاً أمام أمة جديدة من كل ناحية .

أما قريش فقد ظلت مكانها ، وعندما قررت أن تتصرف وتعمل شيئاً تخرج به من الحصار المضروب عليها وتستعيد به مكانتها فى شبه الجزيرة ، تصرفت على النحو الجاهلى الذى خلَّفته أمة الإسلام وراءها بمراحل شاسعة ، وهو تصرف التظاهر والخداع والكسل مع العجز الظاهر عن معرفة قيمة الوقت ، وكيف يتم الانتفاع به على أحسن الوجوه ؟

انقضى بين أُحُد والخندق أكثر من سنتين هجريتين ، فقد كانت أُحُد فى ١٠ رجب سنة ٣هـ وكانت الخندق فى ذى القعدة سنة ٥هـ ، وكان أمام قريش متسع من الوقت لإحكام أمرها إذا كانت تريد أن تحارب أمة الإسلام فى المدينة وتنتصر عليها ، وكانت تعرف أن هناك قبائل كثيرة حاقدة على المدينة راغبة فى إيذائها ، لأن المدينة كانت قد أصبحت مركزاً عمرانياً زاهراً يفيض بالخيرات ، وإلى جنوبها من ناحية العقيق يمتد حمىً واسع ترعى فيه سوائم الأمة مما يصير لها من الأخماس ، وقد أنشأ هذا الحمى رسول الله ﷺ فى عودة الناس من المريسيع واستعمل عليه بلال بن الحارث ، وحرم الرعى فى حمى النقع على عامة المسلمين إلا المرأة الضعيفة والرجل الضعيف أى الفقير.

وكانت المدينة لا تؤدى إلى أحد من الأعراب إتاوة ، ولا يجرؤ واحد منهم أن يعترض لها عيراً أو يصيب لها شيئاً إلا وجد رجال المسلمين فى إثره ، ولم يتعود الأعراب ذلك وخاف بعضهم خوفاً شديداً ، ثم إن توقف قوافل التجارة ؛ أصابهم بضرر كبير ، ومع ذلك فقد كانوا عاجزين عن المساس بأى شىء للمدينة ، بل كانت تُوجِس خيفة من أن تلقى العقاب الشديد إذا هى فكرت فى القيام بما لا ترضى عنه المدينة ، بما فى ذلك مؤازرة قريش أو الدخول فى حلفها .

يهود المدينة والإسلام :

ويستوقف نظرنا أن قريشاً لم تتحرك للعمل إلا بعد أن حرَّكها إلى ذلك المهاجرون من بنى النَّضير إلى خيبر ، عندما نفاهم رسول الله من المدينة حين خانوا العهد بينهم وبينه ودبر واحد منهم اغتياله . فلما استقر المخرَجون من بنى النضير فى خيبر جعل رؤساؤهم دأبهم التدبير على الرسول ﷺ وأمة المدينة ، ثم كوَّنوا وفداً من رؤسائهم وبعض الأوس ممن كان مُعادِياً للإسلام ، ورجال هذا الوفد هم : حُيى بن أخطب ، وكنانة بن أبى الحُقَيق ، وهوذَة بن قيس الوائلى من بنى خطمة ، وأبو عامر الراهب وهو أبو عامر بن عبد عمرو بن صَيفىّ ، الذى سماه المسلمون بالفاسق وكان من بنى ضُبيعة من الأوس ، وذهب رجال هذا الوفد إلى مكة وجالسوا رؤساء قريش وحرضوهم على قتال محمد رسول الله ، وتحالفوا معهم على النصرة فتحمست قريش وقررت الخروج ، ثم ذهب ذلك النفر إلى غَطَفان ودعوهم إلى قتال المسلمين ، «فجعلوا لهم تمر خيبر سنة وينصرونهم ويسيرون مع قريش إلى محمد إذا ساروا ، فأنعمت بذلك غطفان ، ولم يكن أحد أسرع إلى ذلك من عيينة بن حصن »[1] .

والخبر على هذه الصورة غير مقنع ، ويبدو وكأنه مفتعل ، وإن الإنسان ليتعجب كيف أساغ الواقدى هذا التفسير لخروج قريش مع حلفاء لها للحرب مع المدينة ، فإن الذين خرجوا إلى الحرب بناء على هذا الخبر كانوا بنى النضير من اليهود ، فهم الذين حركوا قريشاً ثم غطفان ، ولكننا لا نجد لبنى النضير أو لغطفان بعد ذلك أثراً فى القتال ، حتى ما وعدوا به غطفان من إعطائها تمر المدينة لمدة سنة غير معقول قطعاً ، لأن بنى النضير لا يملكون خيبر إنما هم كانوا لاجئين إليها بعد إخراجهم من المدينة ، ثم إننا لا نعرف إن كانوا قد وفوا بذلك لغطفان بعد الخندق .

وإنما الحقيقة أن قريشاً كان لا بد لها من أن تتحرك لإنقاذ نفسها من الضياع ، فإن تجارتها واقفة وعلاقاتها بالقبائل تضعف وتنقطع وما بنته قريش خلال قرن ونصف يوشك أن يتقوَّض كله ، فلم يكن لقريش بُدٌّ من العمل السريع ، وهى لا زالت تحتفظ بالجانب الأكبر من قوتها وثروتها ، ثم إن ما وهن وَرَثَّ من علاقاتها بالقبائل

---

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٤٤٣ .

كان من الممكن أن يعود إذا هى خرجت عن ركودها وحزمت أمرها وقررت أن تتفق مع مَنْ يريد من القبائل ، للتصدى لأمة الإسلام .

لا يمكن أن يكون لبنى النضير من دور فى تحرك قريش وأحلافها للخروج لحرب المدينة إلا دور التحريض ، وهذا يستطيعه أى أحد ، وقد فعله قبل ذلك كعب بن الأشرف وأبو رافع وكلاهما من اليهود فلقيا جزاءهما العاجل العادل من أمة الإسلام ، والآن يتحرك بنوالنضير من منفاهم فى خيبر للتحريض على المدينة ويكون لتحركهم أثر بعيد ، وإن كنا لا نستطيع القول أن ذلك التحرك كان هو الدافع المباشر لخروج قريش وأحلافها ، وتجمُّعهم لمهاجمة المدينة فى ذلك الوقت بالذات .

ولكن الواقدى يورد هنا ملاحظة تكشف لنا عن حقيقة هامة من حقائق حياة يهود الجزيرة ، لم يُشِر إليها أحد ممن أنفقوا جهوداً كبيرة فى دراسة موضوع يهود الجزيرة وموقفهم من الإسلام وموقف الإسلام منهم (كما يتجلى من القرآن الكريم) ، ثم موقف أمة المدينة كما يتجلى فيما كان بينها وبين هؤلاء اليهود منذ أن كانت أمة الإسلام فى المدينة .

قال الواقدى راوياً عن رواته : « لما أجلى رسول الله ﷺ بنى النضير ساروا إلى خيبر ، وكان بها من اليهود قوم أهلُ عَدد وجَلَد ، وليست لهم من البيوت والأحساب ما لبنى النضير ، كان بنو النضير سِرَّهم ، وقريظة من ولد الكاهن من بنى هارون ، فلما قدموا أخرج حُيَىّ بن أَخْطَب ، وكنانة بن أبى الحقيق ، وهوذة بن الحقيق وهوذة ابن قيس الوائلى من الأوس من بنى خطمة ، وأبو عامر الراهب فى بضعة عشر رجلاً إلى مكة يدعون قريشاً وأتباعها إلى حرب محمد ﷺ ، فقالوا لقريش : نحن معكم حتى نستأصل محمداً . قال أبو سفيان : هذا الذى أقدمكم ونَزَعكم ؟ قالوا : نعم ، جئنا لنحالفكم على عداوة محمد وقتاله . قال أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، أحبُّ الناس إلينا مَنْ أعاننا على عداوة محمد .. » [1].

وإذن : فقد كان بنو النضير أعلى يهود الجزيرة مركزاً وأكبرهم مقاماً ، ويليهم بنو قريظة فهم من ولد الكاهن (كوهين) من بنى هارون ، فهم على ذلك من أبناء

---

(١) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٤٤١ - ٤٤٢ .

الأسباط ، فسبط هارون واحد من الأسباط الاثنى عشر ، فهو هارون والد لوط . ومن المعروف أن يهود المدينة كانوا على نوعين : نوع عبرانيون من بنى إسرائيل أى من بنى الأسباط ونوع عرب تهوَّدوا . وأقوى أولئك الذين تهودوا وأصبحوا فى مستوى اليهود الأصلاء المهاجرين ، بنو ثعلبة بن حارثة بن عمرو بن امرىء القيس وهم ينحدرون من عمرو مزيقياء رأساً ، فلا هم أوس ولا هم خزرج ، وهؤلاء كانوا سادة المدينة قبل أن يدخلها الأوس والخزرج مقبلين من اليمن .

والأوس والخزرج عندما قدموا دخلوا فى حلف يهود المدينة ، وهم كانوا سادة السهل أولاً ، وكان رئيس ثعلبة هؤلاء الفِطْيَونْ وهو عامر بن ثعلبة .. وكان سيد السهل ، وكان يفرض على كل من نزل فى السهل ما يسمى فى التاريخ القديم باسم ، قانون الليلة الأولى Jus primae noctis ، ومعناه أنه لرئيس الجماعة أن يقضى الليلة الأولى مع كل عروس قبل زوجها إذا أراد ذلك ، وكان هذا عرفاً قديماً جداً عند بعض الجماعات ، ومع أننا نستبعد أن يكون الفِطْيَون عامر بن ثعلبة كان يمارس هذا الحق مع الأوس والخزرج ، إلا أن القصص الشعبى يزعم ذلك ، وينسب إلى مالك بن العجلان شيخ بنى عوف بن الخزرج بن الحارث أنه هو الذى ثار بالأوس والخزرج على سلطان اليهود وحاربهم وانتزع لهم السيادة على السهل ، وأنزل اليهود إلى مرتبة الحلفاء فى السهل . ومالك هذا هو الذى قاد الخزرج ضد الأوس فى حرب بُعاث ، فانضمت اليهود إلى الأوس ، وبفضلهم انتصر الأوس على الخزرج فى بعاث .

ومن ذلك الحين انعقد الحلف بين الأوس واليهود ، وهو حلف سيكون له أثره فى سير الحوادث فى المدينة ، إلا فيما يتعلق بحلف عبد الله بن أُبى بن سلول مع بنى قينقاع أولاً ثم ببنى النضير ، وأخيراً ببنى قريظة ، فلما انتهى أمر هؤلاء انتهى أمر عبد الله بن أُبىّ بن سلول ، ولم يكن فى الخزرج أحد يؤيد اليهود كما كان يؤيدهم عبد الله بن أُبىّ ابن سلول ، وكان اليهود يعتزون بتأييد عبد الله بن أُبىّ حتى خذلهم مرة بعد أخرى وتبين لهم أنه لا ينفع فى وقت شدة . وقد كان موقف ابن سلول هذا منفراً لكل أحلاف اليهود من الأنصار ، فنجدهم جميعاً يتبرأون من حلفهم وخاصة بعد الخندق عندما دخلت فى الإسلام مجموعة البطون المسماة بأوس مناة قبل الإسلام ، ثم

أصبحت تسمى أوس الله بعد الخندق ، وهم أمية ووائل وعطية وخطمة وواقف .

ولكننا لا نجد بنى ثعلبة على حال من القوة بعد الهجرة ، فقد دخلوا فى الخزرج ، ثم إننا نلاحظ أن واحداً من كبارهم كان يسمى أبا زيد بن عزرة (أو عزرا) بن عمرو ابن أخطب بن محمود ، وهو من أحفاد الفِطْيون . وآل أخطب كانوا من رؤساء بنى النَّضير ورئيسهم حُيى بن أخطب ، وهو والد صفية أم المؤمنين .

وهذا كله يلقى ضوءاً جديداً على ما كان بين الرسول ﷺ وبنى النضير بعد موقعة أُحُد ، فقد كانوا شديدى العداوة للإسلام والغيرة منه ، وبعد أن انصرف المشركون بعد أُحد أراد الرسول أن يستعين بشىء من المال منهم ، فقد دفع عنهم وحمى لهم منازلهم وأموالهم ، ولكنهم تنكروا له ودبروا قتله مما انتهى بإخراجهم من المدينة ، وقد خرجوا تاركين أموالهم وبيوتهم ونخلهم ولكنهم تكلفوا تجلداً غريباً : « وحملوا النساء والصبيان ، فخرجوا على منازل بلحارث بن الخزرج ، ثم على الجبلية (موضع بالمدينة) ثم على الجسر ، ثم مروا بالمصلى ، ثم شقوا سوق المدينة ، والنساء فى الهوادج عليهن الحرير والديباج ، وقُطُف الخز الخُضْر والحُمر ، وقد صَفَّ [1] لهم الناس ، فجعلوا يمرون قطاراً فى إثر قطار فحُمِلوا على ستمائة بعير . يقول رسول الله ﷺ : هؤلاء فى قومهم بمنزلة بنى المغيرة [2] فى قريش » [3] .

وجعل بعض المسلمين من أمثال حسان بن ثابت ، يتحسرون على ذهابهم ويذكرون مآثره لهم ، ووقف الضحاك بن خليفة يشهدهم ، ثم قال وهو يراهم خارجين : « واصباحاه ، نفسى فداؤكم ! ماذا تحملتم به من السؤدد والبهاء والنجدة والسخاء ؟ » [4] ونُعيم بن مسعود الأشجعى قال فى نفس الموقف : « فِدَى لهذه الوجوه التى كأنها المصابيح ظاعنين من يثرب ! مَنْ للمُجْتَدى الملهوف ؟ ومن للطارق السَّغْبان ؟ ومن يسقى العُقَار ؟ ومن يطعم الشحم فوق اللحم ؟ ما لنا بيثرب بعدكم مقام ! » [5] فيرد عليه أبو عبس بن جبر : « نعم . فالحقهم حتى تدخل معهم

---

(١) أى : اصطفوا .

(٢) بنو المغيرة هم بنو مخزوم .

(٣) الواقدى ، مغازى : ١/ ٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٤) الواقدى ، مغازى : ٣٧٥ .

(٥) الواقدى ، مغازى : ٣٧٥ .

النـار »[1] ثم يقول الواقـدى : « مـروا يضربون بالدفـوف ويزمـرون بالمزامير ، وعلى النساء المعصفرات وحُلى الذهب ، مظهرين ذلك تَجَلُّداً . قال : يقول جبار بن صخر : ما رأيت زَهَاءهم لقوم زالوا من دار إلى دار ، ونادى أبو رافع سلام بن أبى الحقيق ، ورفع مسك الجمل وقال : هذا مما نُعِده لخفْض الأرض ورفعها ، فإن يكُنْ النخل قد تركناها ، فَإنَّا نَقْدُم على نخل بخيبر »[2] ...

من هنا نفهم ولو جانباً من جوانب اعتداد بنى النضير بأنفسهم واستعدادتهم بعض قوتهم بعد أن استقروا فى خيبر ، ثم اجتهادهم فى تأليب الناس على أمة المدينة ، فإن أبا رافع سلام بن أبى الحُقيق الذى زعم أنه يعتد بها خرج به قومه من ذهب وفضة وخَزٍّ ويقول : إنه يعد ذلك لخفْض الأرض ورفعها ، هو ابن عم كنانة بن أبى الحُقيق أحد الساعين فى تأليب القرشيين ثم غطفان على رسول الله ﷺ ، فبنو النضير كانوا منذ خرجوا مزمعين الانتقام من أمة المدينة حاسبين أنهم سيعودون إلى الانتصار بفضل ماهم الذى أطلقه لهم رسول الله ﷺ ، وظنوا أنهم يُخْفِضُون الأرض ويرفعونها به .

وكان معهم فى ذلك التأليب هوذة بن قيس الوائلى من الأوس من بنى خطمة ، والغالب أنه كان يهودياً ، فإن هوذة تعريب يهوذا وخطمة وهم بنو جُشم بن مالك بن الأوس ، كانوا من أوس مناة الذين لم يسلموا إلا بعد الخندق ، وكان رئيس أوس مناة أبا قيس بن الأسلت الشاعر وهو من بنى وائل ، ولم يسلم إلا بعد الخندق فأسلم بقية أوس مناة بإسلامه وأصبحوا يسمون أوس الله كما ذكرنا .

وكان مع أولئك المؤلبين على المسلمين ، أبو عامر عبد عمرو أو عمرو من بنى عمرو بن عوف بن قيس الذى يقال إنه كان قد تنصر وسُمِّى بالراهب ، وقد سماه المسلمون بأبى عامر الفاسق ، وهو شخصية كأنها الشَّبح معادية للإسلام أشد العداوة فى غير طائل ، فقد أكل قلبه الحسد من محمد صلوات الله عليه عند الهجرة وانتشار الإسلام ، فخرج إلى مكة وانضم إلى الكفار ، وكان له أثر سيء فى أُحُد ، ثم يختفى ليظهر الآن بين المؤلبين على رسول الله ، ثم يختفى بعد ذلك كأنه غرق فى ليل التاريخ ،

(١) الواقدى ، مغازى : ٣٧٥ .
(٢) الواقدى ، مغازى : ٣٧٥ .

وإن كان ذِكْره قد بقى فى ابنه حنظلة بن أبى عامر من شهداء أُحُد وهو حنظلة الغسيل الذى غسّلته الملائكة ، وهو الذى عناه أبو سفيان فى خطابه لرسول الله ﷺ « حنظلة بحنظلة » ، فهو الأول ، أما الثانى فحنظلة بن أبى سفيان نفسه وكان قد قُتِل فى بدر .

ولكن الذى يستوقف النظر هو أن هؤلاء المؤلبين جميعاً - بما فيهم رجال بنى النضير - يختفون بعد ما كان منهم من التحريض والتأليب ، فلا نجد لهم فى قتال الخندق اسماً ولا ذكراً .

قُريش وَأحلافها يَسيرونَ إلى المدينَة :

وإذن فقد تحركت قريش بعد طول انتظار ، ولكنها إذ تحركت لم يظهر عليها ما يدل على أنها تعلمت من الماضى شيئاً ، فبينما كانت أمة الإسلام قد دخلت فى عصر جديد من الانتظام والتماسك وإحسان التدبير والإعداد لكل شىء ، ظلت قريش قبيلة جاهلية تخرج للقتال بالإبل والخيل والأموال وتجمع الحلفاء والأنصار وتسير بغير نظام ، ولو أن رجال قريش تعلموا من رسول الله شيئاً لاستدعوا حلفاءهم وتدارسوا خطة العمل ، ورتبوا صفوفهم وقسموا مسئولياتهم وعرفوا كيف سيهاجمون المدينة . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، ولم يكن من الممكن فيما نعتقد أن يحدث ، فهذه جماعة تَخَشَّبت أو تحجرت على ما هى عليه ، وقد سبق أن عرضنا لذلك التحجر ، ونضيف الآن أن من أسبابه الخيلاء والكبرياء ، فهؤلاء سادة بدو ، يخرجون للقتال سادة ويلاقون الموت سادة ، وتلك هى خيلاء الجاهلية وكبرياؤها ، وقد كانت مقبولة مستحسنة بمقاييس الجاهليين قبل الإسلام كما نرى فى تفاصيل أيام العرب ، ولكن الإسلام جاء بفكر جديد وقيم ومقاييس جديدة بهتت إلى جانبها كل صور الجاهلية حتى ما كان منها مستحسناً قبل ذلك .

ولكننا نحس شكاً وتخوفاً فى قول أبى سفيان لمن جاءوا يعرضون الحلف عليه لقتال الإسلام : « هذا الذى أقدمكم ونزعكم ! » وفيه كذلك شىء من السخرية بأولئك القوم ، وهى سخرية معقولة من رجل مثل أبى سفيان الذى كان يختلف اختلافاً كبيراً عن بقية رؤساء قريش ، فهذا الرجل كان وثنياً ولكنه كان بارد المزاج

لا يكاد يؤمن بشيء ، وهو واقعى مادى ، يحسن النظر لنفسه ولمصالحه دون نظر إلى حماس أصحابه من زعماء القرشيين وغرورهم ، وهو دون شك كان أوسع ذكاء من كل زملائه ، وذكاؤه هذا هو الذى أنقذ قريشاً وجنَّبها تصادماً لم يكن محمد ﷺ راغباً فيه .

وسياق الأخبار بعد ذلك يترك فى النفس أشياء كثيرة ، فالنصوص تقول : إن قريشاً أخرجت لحلفائها خمسين من رجالها ودخلوا جميعاً تحت أستار الكعبة وألصقوا أكبادهم بها وتعاهدوا على قتال محمد ﷺ حتى الموت ، وانظر مثلاً إلى الفقرة التالية : على لسان بعض زعماء قريش « قد جاءكم رؤساء يثرب وأهل العلم والكتاب الأول ، فسلوهم عما نحن عليه ومحمداً ... » فأما أن اليهود الذين جاءوا وكلهم من بنى النضير كانوا أهل العلم بالكتاب فى نظر القرشيين فمعقول ، ولكن أكان هوذة بن قيس الوائلى وأبو عامر الراهب رؤساء أهل يثرب ؟ .. ربما إذا قلنا إن هؤلاء هم الذين بقوا على الكفر من أهل يثرب ، وسنلاحظ فيما بعد أن بطون أوس الله جميعاً لن تحرك ساكناً ، بل لن يُسمع لها صوت طوال قتال الخندق .

وبعد ذلك نجد القرشيين يسألون اليهود وكأنهم فى حيرة من أمر الإسلام ، أو كأنهم لم يتأملوا مرة فى آية واحدة من القرآن ، وإلا فانظر الحجج التى يدلون بها ليعرفوا إذا كانوا هم على الدين الصحيح أم الدين الذى يدعو إليه محمد هو الصحيح: فهم يسألون من أتاهم من اليهود « أنتم أهل الكتاب الأول والعلم ، أخبرونا عما أصبحنا نحن فيه ومحمد ، فنحن عمار البيت ، وننحر الكلوم ونسقى الحجيج ، ونعبد الأصنام » وهذا الوصف لديانتهم سواء أكانوا قد قالوه حقاً أم لم يقولوه فهو يصور واقعهم ومفهومهم للدين ، وهذا المفهوم كله مظاهر عبادات لا عبادات . اسم الدين ولا دين ، فهم يعمرون البيت أى يعتنون بالكعبة وما حولها ، وينحرون الذبائح ويسقون الحجيج ، ويعبدون أصنامهم عبادة زائفة لا قلب فيها ولا إيمان ، كلها ظواهر ومظاهر يقومون بها تأييداً لجاههم مرة ووسيلة لكسب المال تارة أخرى ، وهنا يكمن الفارق الشاسع بين ما كانوا يحسبون أنه دين ودين محمد ، فدين محمد إيمان كامن فى القلب وصادر عنه ، وعبادات هى الشكل المنظور لفضائل ومكارم وقانون

أخلاقى يتجه إلى خير الناس أجمعين ، فهو يسوى بينهم ويعطف غنيهم على فقيرهم ويجعل منهم أمة واحدة ، متآخية متعاونة تؤمن بالله سبحانه ورسوله ﷺ ، هذا هو الذى لم يفهمه هذا النفر من زعماء قريش قط ، وهو سبب شقوتهم وسبب هذه الأزمة التى كانوا يعانونها .

وانظر إلى أولئك اليهود والمفروض أنهم أصحاب دين سماوى ويعرفون أن الدين الحقيق بهذا الاسم ، يبدأ قبل كل شىء بالإيمان بالله الواحد سبحانه ، وهم فى إجابتهم على أسئلة القرشيين يكذبون على أنفسهم ويخدعون غيرهم ويصدق عليهم قول الله تعالى فى القرآن الكريم فى سورة البقرة (آية ٩ وما بعدها) ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ⁽٩⁾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ⁽١٠⁾ ﴾ [البقرة] والخط الذى وضعناه تحت الآية العاشرة من سورة البقرة هو أوضح تفصيل لحالة يهود بنى النضير وما كانوا يفعلون .

ويذكر علماء أسباب النزول أن هذه هى المناسبة التى أنزل الله فيها الآية ٥١ من سورة النساء : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾ [النساء] وفى هذا الموقف نجد صفوان بن أمية معارضاً بعض الشىء لزعامة أبى سفيان ، وذلك طبيعى ، فصفوان بن أمية بن خلف مقروح ، فقد قُتِل أبوه أمية بن خلف سيد قومه بنى جمح المعروف بالغطريف فى موقعة بدر ، وفى نفس اليوم قُتِل أخوه على بن أمية بن خلف ، وفى موقعة أحد قُتِل عمه أُبَى بن خلف .

وبعد مقتل أبى جهل كان صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو يمثلان الجبهة الجامدة الحاقدة من قريش ، فى حين كان أبو سفيان صخر بن حرب يمثل ناحية الخبث والمكر والدهاء والواقعية والبرود . وصفوان يقول فى هذه المناسبة : « يا معشر قريش ، إنكم قد وعدتم هؤلاء القوم لهذا الوقت وفارقوكم عليه ، فَفُوا لهم به لا يكون هذا كما كان: وعدنا محمداً بدر الصفراء فلم نَفِ بموعده ، واجترأ علينا بذلك ، وقد كنت كارهاً لميعاد أبى سفيان يومئذ » .

نجحت إذن جماعة بنى النضير ومن معها فى تشجيع القرشيين على الخروج ،

وليست لدينا تفاصيل عن استعدادهم وتعبئتهم كيف كانت ، ولكنهم على أى حال أوعبوا وخرجوا هم وأحابيشهم بأقصى ما يستطيعون من قوة ، فكان جمعهم أربعة آلاف سيرد تفصيلهم فيما بعد .

ومن مكة وقريش اتجه نفر المؤلبين إلى بنى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة ابن قيس عيلان . وهؤلاء بنو سليم كانوا من صميم البدو وأكثرهم جفوة ، وإن لم يعدلوا فى ذلك غطفان أو هوازن . وكانت منازل بنى سليم فى مواضع متفرقة شرقى جبل السراة ، ولكن كتلة كبيرة منهم كانت تنزل على طريق التجارة من مكة إلى العراق ، وكان بنو سليم هؤلاء إحدى بطون البدو الضاربة فيما بين جبل السراة ، ومطالع نجد ، وكانوا يروحون ويجيئون فى نواحى الحجاز ، فيما بين مكة والمدينة شمال المدينة يرون ذلك حقاً لهم ، فلما قامت أمة الإسلام عمل رسول الله ﷺ على إخضاع الداخلين منهم فى أرض الحجاز لسلطان الأمة ، فغزاهم مرتين ، مرة فى غزوة قرقرة الكدر ، وهى موضع معدن أى موضع كانت فيه بعض خامات معدن أى حديد ، على ثمانية برد من المدينة ، والبريد فرسخان [1] والفرسخ ثلاثة أميال ، فالمسافة إذن ٤٨ ميلاً عربياً ، والميل العربى طوله نحو ١٨٠٠ متر ، فالمسافة على ذلك ٨٥ أو ٨٦ كيلو متراً ، وكانت غزاة الكدر بعد بدر بقليل فى المحرم ٣هـ/ يوليو ٦٢٤م .

وقد هرب بنو سليم أمام المسلمين تاركين جانباً كبيراً من نَعَمهم ، فغنم المسلمون ٥٠٠ بعير ، فآلمت هذه الضربة بنى سليم ومن كان معهم من غطفان ، ثم قصد المسلمون منزلاً آخر من منازلهم فى بحران وهو موضع بناحية الفرع على الطريق الجانبى من مكة إلى المدينة ، وهذه المرة أسرعوا بالهرب فلم يؤخذ منهم شىء ، ولكن بنى سليم أدركوا أن الحجاز وما بين مكة والمدينة بصفة خاصة ، لم يعد كلأً مباحاً لهم يلجونه كيف شاءوا ، وهذا شىء جديد بالنسبة لأولئك البدو ، فحقدوا على المدينة ، وما كادت جماعة المؤلبين تؤكد لهم أن قريشاً خارجة لقتال محمد رسول الله حتى انضم إلى ذلك الحِلْف غير المقدس .

---

(١)هذا كان طول البريد فى شرق الدولة الإسلامية ، أما فى غربها الشام ومصر وما يليها غرباً أربعة فراسخ . والمعروف أن البريد مقياس قبسه العرب من الرومان ولفظه عندهم Veredus وطوله محطتان من محطات الطريق .

وانضم إليهم عيينة بن حصن وقومه من فزارة وهى بطن من ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان ، وكان رسول الله ﷺ يلقبه بالأحمق المطاع ، وكان عماده الحقيقى على خيبر ويهودها ، فلما غزا رسول الله خيبر واستولى عليها ، انكسر عيينة وأصبح أحمق فقط ، إذ لم يعد له سلطان ولا طاعة على أحد ، ومع ذلك فقد كان الرسول يتجافى عن أخطائه ويفتح له باب العودة إلى حلف المدينة ، ثم استعمله أخيراً فى كسر غرور أعراب آخرين أقوى منه وأعنف وهم بنو تميم ، أضخم جماعات الأعراب الضاربين حول نجد ، وكان عيينة قبل الخندق شديد الخوف من رسول الله ﷺ ، مع أنه لم يغز غطفان إلا مرة واحدة فى غزوة ذى أمر ، ولم يكن الفزاريون هم المقصودين فى هذه الغزاة ، بل ذهبت الغزوة لتأديب بنى ثعلبة ومحارب (ربيع الأول ٣هـ/ ٦٢٤م) .

وكان بيان جماعة قريش ومن خرجوا بها إلى الأحزاب كما يلى :

– قريش وأحابيشها	٤٠٠٠ مقاتل ، منهم ٣٠٠ فارس. قائدهم أبو سفيان ، و ١٠٠٠ بعير.
– سليم بن منصور	٧٠٠ مقاتل يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب.
– أسد بن ربيعة بن نزار	يقودهم طلحة بن خويلد الأسدى ، ولم تحدد النصوص عددهم.
– فزارة	١٠٠٠ مقاتل يقودهم عيينة بن حصن .
– أشجع بن ريث بن غطفان	٤٠٠ مقاتل يقودهم ابن رخيلة أو رجيلة

فمجموع من خرجوا للهجوم على المدينة يقاربون العشرة آلاف إذا افترضنا أنه لا بد أن يكون قد انضم إلى هذا الجمع نفر من الأعراب وشذاذ البوادى ، ومهما كان الرأى فى تكوينها فهذه قوة ضخمة بالنسبة لجزيرة العرب فى تلك المدة . ومن هذه القوة عدد لا بأس به من الفرسان ، فقريش وحدها كان معها ٣٠٠ فرس وفارس ، ولا بُدَّ أن الأعراب الآخرين كان لهم فرسان ، بل إن معظم محاربى الأعراب كانوا من

الفرسان ، لأن حربهم هى الضربات السريعة ثم الفرار ، وهذا لا يتيسر إلا بخيل . أضف إلى ذلك أن بلاد أولئك الأعراب هى بلاد الخيل : بلاد الأعالى والرمال والدهاس والعشب الكافى للخيل ، فهنا أعالى نجد وهى من نوع من أعظم خيول الدنيا ، وهنا تجود الأفراس فى أكثر البيئات الطبيعية مناسبة لها .

وسنرى أن رسول الله ﷺ بعد الخندق وقريظة يرسل جماعة ليشتروا للمدينة خيلاً من نجد يطلقها فى الأحياء ، وهنا يحدث التطور العسكرى الحاسم فى التاريخ الحربى للمدينة ، إذ إنها ستصبح بهذه الخيل قوة ضاربة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الجزيرة ، وسيُحدث فرسان أمة الإسلام مع الفتوح الإسلامية الكبرى أعظم تطور فى تاريخ العسكرية فى الدنيا : قوة الخيل العربية الصغيرة الحجم نسبياً ، البالغة القوة ، السريعة الجرى ، الطيعة فى يد الفارس الشجاع التى تتحول مع فارسها إلى كائن حى واحد له ذكاء الإنسان وقوته وإيمانه - فى حالتنا هذه - وقوة الحصان وسرعته وعصبيته واندفاعه ، « كجلمود صخر حَطَّه السيل من عَلِ » كما يقول امرؤ القيس فى وصفه فرسه ، وامرؤ القيس كِنْدى من أطراف نجد ، وكذلك حصانه ، هنا نصل إلى عمق جديد فى إدراك معانى الشعر الجاهلى ، ونصل فى نفس الوقت إلى شأو بعيد فى فهم الفتوح الإسلامية الكبرى.

وقوة كهذه كان لا بد لها من تنظيم وترتيب وخاصة فى السلاح والأزواد والماء للناس والخيل ، وكان لا بد كذلك من إنشاء قيادة أو هيئة مشتركة من أولئك الرؤساء ورجالهم حتى يمكن تحويل تلك الوحدات العسكرية إلى جيش واحد له قيادة وخطة وتزويد منظم وكافٍ بالطعام والماء ، وكان لا بد من ترتيب أمر الخيام والخدم والآنية والأسلحة الاحتياطية وما إلى ذلك مما لا تستغنى عنها جيوش بهذا الحجم . ولم يفكر أحد من القرشيين وحلفائهم فى شىء من ذلك فيما نعلم ، فكانت النتيجة أن هذه القوة كلها لم تكوِّن جيشاً واحداً أو قوة ضاربة واحدة كما تقول . بل ظلت جماعات من المغيرين تتحرك وتعمل بلا خطة ولا نظام ، وقاست من قلة الطعام ومن صعوبة الحصول على الماء ، وقضت على ما بقى من عزم رجالها فى النهاية أعاصير هبت ودامت أياماً ، والأعاصير فى ناحية مثل العقيق والغابة وزغابة شمال غربى المدينة -

حيث نزلت تلك القوات - وكانت أقل عنفاً وخطورة من الرياح فى الرمال السافية ، ومع ذلك فإن الرياح عندما هبت واستمرت أياماً ، أسرع حلفاء قريش بالرحيل ثم رحل القرشيون أنفسهم منهزمين فكان انهزامهم هذا إعلاناً بعجز قريش وتفوق أمة المدينة عليها فى كل ناحية ، وفى معركة الخندق تحدد مصير قريش ومصير أمة الإسلام أيضاً .

أما فى أمة المدينة فقد كان الأمر على خلاف ذلك من كل ناحية ، فهنا جماعة من المؤمنين أصحاب إيمان واحد وفكر واحد ، وهم لا يقاتلون دفاعاً عن حشاشات أنفسهم أو عن حرمهم فحسب بل يقاتلون فى سبيل عقيدة ، وأقصى أمانى الواحد منهم أن يستشهد فى سبيل عقيدته وأمته .

وهنا رياسة حكيمة بعيدة النظر لا يخيفها شيء ، والقائد هنا هو رسول الله ﷺ ، وهو ليس قائد جيش بل قائد إيمان وهو هَادٍ إذا استعملنا اللفظ القرآنى فى وصفه ، ثم إنه لا ينفرد برأيه بل هو يشاور أصحابه ، ويحب أن يشاورهم ويأخذ بالرأى السليم إذا جاء من أحدهم . وفكرة الخندق بالذات التى يسَّرت على المسلمين دفع الكفار ، خطرت ببال رسول الله ولكن الذى وضعها موضع الشورى مسلم كان حديث العهد بالإسلام إذ ذاك ، وهو سلمان الفارسى . ومن دلائل تقدير الرسول ﷺ لأصحابه وآرائهم أنه قَبِل الفكرة وقام على تنفيذها بأسلوبه الرفيع فى التوجيه والتنظيم، فعرف كيف يجعل أصحابه ينفذون فكرة الخندق على نحوٍ أعجز المهاجمين أمامه وأدى فى النهاية إلى فشلهم وارتدادهم منهزمين .

والخطوة الأولى فى تنفيذ فكرة الخندق كذلك تدارسها مع أصحابه ، فعرفوا فى أناة وحزم ، كيف يحفرون الخندق ويحددون اتساعه وعمقه على نحو يحول بين الخيل وبين القفز فوقه ، والخطوة الثانية كانت تحديد مكان الخندق وامتداده ، فإن الخندق لم يكن يدور حول سهل المدينة كله . فهذا لم يكن ميسوراً ، وإنما جمع الرسول ﷺ بين حفر الخندق فى الجبهات المفتوحة المكشوفة من المدينة وتحصين البيوت وتشبيكها بعضها ببعض فى بقية المواضع ، ثم جعل لنفسه قيادة مركزية فى لحف جبل سلع أو ربما إلى شماله ، وأنشأ مركز رقابة فوق الجبل جعل فيه أبا بكر الصديق ، ثم نظم أصحابه فِرَقاً

مقاتلة من الفرسان والرجالة ، بعضها ثابت وبعضها متنقل ، وتخير من رجاله نفراً من أهل اليقظة والسرعة والبسالة والمعرفة بشئون الحرب وجعلهم على رأس فرق سريعة التنقل flying units أو فرق تقوم بالمهام الشاقة Task forces، وقد أحسن إعداد هذه الفرق وأدارها بحساب وحزم وتدبير محكم ، وجعل عليها شباباً من خيرة المسلمين من أمثال : عباد بن بشر ، ومحمد بن مسلمة ، وأُسيد بن حضير ، وجابر بن عبد الله وأشباههم من شبان المسلمين وأنجادهم .

ولكن أكثر ما دفع الناس إلى العمل والاستبسال فيه والحرص على سلامة الخندق هو عمل رسول الله ﷺ مع الناس فى كل مرحلة من مراحل العمل ، ومبادرته إلى القتال والحراسة وتنبيه الناس وتوجيههم فى كل حين ، حتى كان يستغرق فى النوم إذا مس جسده الأرض أو اتكأ على حجر . قال ابن أبى سبرة عن بعض رواته ممن رأوا النبى ﷺ أثناء هذه المعركة الطويلة التى استمرت عشرة أيام وربما أكثر : وكان رسول الله ﷺ يدع الغلمان والصغار يعملون مع المسلمين قال : و « لما لَحَمَ الأمر ، أَمَرَ من لم يبلغ أن يرجع إلى أهله إلى الآطام مع الذرارى ، وكان المسلمون يومئذٍ ثلاثة آلاف . فقد كنت أرى رسول الله ﷺ وإنه ليضرب مرة بالمعول ومرة يغرف بالمسحاة التراب ، ومرة يحمل التراب فى المكتل ، وقد رأيته يوماً بُلغ منه ، فجلس رسول الله ﷺ ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر ، فذهب به النوم . فرأيت أبا بكر وعمر واقفين على رأسه يُنحِّيان الناس أن يمروا به فينبهوه وأنا قربت منه ففزع ووثب فقال : ألا أفزعتمونى ! فأخذ الكرزن يضرب به وإنه ليقول ... »[1] .

بل كان يستريح فى خيمته لحظة من الوقت ثم يسمع هيعة فينهض ويضع درعه وسلاحه ويمضى للقتال ، فإذا زال الخطر عاد إلى راحته حتى يسمع صوتاً فينهض مرة أخرى ، وفى مرة يعود إلى قبته راضى النفس وهو يقول : « رجعوا مغلولين ، قد كثرت فيهم الجراحة ، ثم صلى بأصحابه الصبح وجلس . فكانت أم سلمة تقول : قد شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف – المريسيع وخيبر ، وكنا بالحديبية ، وفى الفتح وحنين – وذلك أن – لم يكن من ذلك شىء أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٤٥٣.

من الخندق . وذلك أن المسلمين كانوا فى مثل الحَرَجة ، وأن قريظة لا نأمنها على الذرارى ، والمدينة تُحرس حتى الصباح ، يُسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفاً ، حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا منهم [وكفى الله المؤمنين القتال]»[1].

وكانت لدى المسلمين خيل ربما بلغت العشرة ، ولكن طعامها كان قليلاً ، ثم إن القتال دون الخندق يحتاج إلى نَبْلٍ ورماة ، وكان النبل قليلاً فاستعان المسلمون بالحجارة ، جمعوها وسوَّموها حتى صارت تلالاً ، وصاروا يرمون بها فى توفيق كبير .

هذا عن جبهة المسلمين ، تلك القوة التى كان على المكيين وحلفائهم أن يتغلبوا عليها ، فماذا فعلوا ؟

نلاحظ بادى ذى بدء أن جماعة ممن كانوا قد اتفقوا مع قريش على المسير لم يواصلوا السعى إلى النهاية ، وعادوا إلى ديارهم بعد أن قال لهم رئيسهم قولاً عظيم المعنى بالنسبة لنا فى هذا المقام « وخرج الحارث بن عوف يقود قومه بنى مرة (بن الحارث بن عوف) ، وهم أربعمائة . لما أجمعت غطفان السير أَبى الحارث بن عوف المسير وقال لقومه : تفرقوا فى بلادكم ولا تسيروا إلى محمد ، فإنى أرى أن محمداً أمره ظاهر لو ناوأه من بين المشرق والمغرب لكانت له العاقبة ، فتفرقوا فى بلادهم ولم يحضر واحد منهم ، وهكذا روى الزهرى وروت بنو مرة »[2] وقد رجح الرواة أن بنى مرة لم يرتدوا ، وإنما اشتركوا مع الأحزاب .

بَنو قريظة يَنقضُون العَهْد :

ولا ندرى على وجه التحديد متى كان نقض بنى قريظة للعهد مع رسول الله ﷺ ، والغالب أن ذلك كان بعد تمام الخندق ، ومعرفة الأحزاب أن الخندق يحرز دور بنى قريظة ، ولو أحرزها ووقف حرس المسلمين دون الخندق من ناحيتهم ، وهى الركن الجنوبى الشرقى من سهل المدينة فيما بين وادى مهزور لما فكر اليهود فى الانقلاب على المسلمين كانت بقية هذا الركن قد صارت لأمة المدينة بعد إجلاء بنى قينقاع وبنى النضير .

---

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٤٦٧- ٤٦٨ .
(٢) الواقدى ، مغازى ٢/ ٤٤٣ .

ويُفهم من النصوص أن انقلاب بنى قريظة جاء مفاجأة للمسلمين وأن رسول الله ﷺ عندما بلغه الأمر أرسل السعدين : سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ ، وأُسيد بن الحضير إلى بنى النضير لإقناعهم بالبقاء على العهد ، فأبى بنو قريظة من ذلك ، وكان حُيى بن أخطب رئيس بنى النضير وأكبر المؤلِّبين على المسلمين ، قد استطاع أن يقنع كعب بن أسد القرظى رئيس بنى قريظة بقطع العهد مع المسلمين . فأما سعد بن عبادة فكان من بنى بلحارث من الخزرج ، وأما سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير فمن بنى عبد الأشهل من الأوس ، فلم يُوفّق هذا الوفد فى إقناع كعب بن أسد القرظى بتغيير موقفه ، وهذا غريب لأن ذلك الرجل كان شديد التمسك بالعقد مع المسلمين أول الأمر ، وكان يشعر بالرهبة والخوف من المسلمين ، بعد ما رأى من استعدادهم وإقبالهم على حفر الخندق والاجتهاد فى الحراسة والاستعداد للحرب ، فقد قال بعد أن بذل حيى بن أخطب أقصى ما استطاع فى إقناعه ، وأكد له أن عشرة آلاف من قريش وكنانة « (بنى أسد بن خزيمة بن مدركة) وغطفان قدموا لمهاجمة المدينة ولكن كعب بن أسد القرظى كان خائفاً ، ولهذا فقد كان رده الأول عندما دعاه حيى بن أخطب : ويحك ، جئتنى والله بِذُلِّ الدهر وبسحاب يرعد ويبرق وليس فيه شىء ، وأنا فى بحر لُجِىٍّ ، لا أقدر على أن أريم دارى ، ومالى معى والصبيان والنساء فارجع عنى » ولكن يبدو أن زعماء اليهود الآخرين فيما عدا الزبير بن باطا كانوا ميالين إلى الانضمام إلى الأحزاب وفعلاً صارحوا حُيياً بهذا ، والغريب أن هذا الرجل بعد أن قرر نقض العهد كشف وجهه عن عداوة شديدة ، فدعا بالكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ بينهم فشقه حُيى » وقد توقع الزبير بن باطا الشر وأنذر بهلاك اليهود ولكنه بقى مع قومه .

تلك كانت فرصة كبيرة لقريش وحلفائها لو أنها وقفت بالفعل كما تقول النصوص إلى جانب قريظة ، فمن الواضح أن بنى قريظة نقضوا العهد – وما كان رسول الله لينقضه دون داع وهو فى حاجة إلى سكون اليهود ووفائهم بعهدهم .

وما كان الرسول صلوات الله عليه وسلامه لينقض عهداً بينه وبين قوم ما داموا يقيمون عليه ، ثم إن وجود الأحزاب حول المدينة لم يكن يؤدى إلى أى تغيير فى

العلاقات بين أمة المدينة ويهود بنى قريظة ، خاصة وأن ناحيتهم لم تكن محمية بخندق، وقد بلغ الرسول أن حُيياً بعد أن نقض العهد أرسل إلى قريش يطلب إليهم أن يبعثوا بألف رجل يغيرون على المدينة ، وكذلك إلى غطفان ، ورسم أن تكون الغارة ليلاً ، فجاء رسول الله ﷺ الخبر بذلك فعظم البلاء فكان رسول الله ﷺ يبعث سلمة بن أسلم بن قريش الأشهلى فى مائتى رجل ، وزيد بن حارثة فى ثلاثمائة يحرسون المدينة ويُظهِرون التكبير ومعهم خيل المسلمين فإذا أصبحوا أمنوا ، فكان أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يقول : لقد خفنا على الذرارى بالمدينة من بنى قريظة أشد من خوفنا من قريش وغطفان . ولقد كنت أوفى على سَلْع فأنظر على بيوت المدينة فإذا رأيتهم هادين حمدت الله عز وجل ، فكان مما رد الله به قريظة عما أرادوا أن المدينة كانت تُحرس .

ولكن يبدو أن حُيَياً لم يبعث إلى قريش أو إلى غطفان بشىء ، وإنما هو قطع الحلف وبادى بالعداوة ليجد نفسه فى أشد الخوف من المسلمين . وقد حاول رئيس من رؤسائهم وهو نَبّاش بن قيس أن ينوش أطراف المسلمين ، فخرج بالليل فى جماعة من قومه ، فاصطدموا بقوة من قوات الحراسة تحت قيادة سلمة بن أسلم بن حُرَيش ، فردَّهم على أعقابهم فانجحروا فى حصنهم وجعل المسلمون يطوفون حول الحصن ورعب اليهود وخافوا البيات ، «وهدموا قَرْنى بئر لهم وهوّروها (هدموها) عليهم ، فلم يقدروا أن يطلعوا من حصنهم وخافوا خوفاً شديداً »[1] .

الأحزاب أمَام الخَندق :

وضاعت على قريش هذه الفرصة كما ضاع غيرها ، لأن القرشيين لم يجتمعوا مع حلفائهم ويرسموا خطة للعمل ، بل إنهم لم يحسنوا توقيت قدومهم ، فقد كان الوقت ربيعاً (أبريل ٦٢٧) وكانت زروع المدنيين وكلها شعير وتبن على وشك النضج ، فسارعوا وحصدوها وأدخلوها مدينتهم دون خسارة ، وتركوا الأرض خارج المدينة بلقعاً ليس فيه غَنَاء كبير ، ثم إنهم إذا جاءوا هم وحلفاؤهم عسكروا كلهم عند مدخل المدينة الشمالى الغربى من طريق التجارة ، وهو المدخل التقليدى ، وضربوا

---

(١) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٤٦٢ .

معسكراتهم بعضها إلى جوار بعض من الغابة إلى العقيق ، معوِّلين على أن تكون حربهم حرب غارات ، وعندما وجدوا الخندق بُهتوا ولم يعرفوا ماذا يصنعون ، ولم يكونوا إلى ذلك الحين يعرفون كيف يرسمون خطة قتال ، إنما هى المبارزات والغارات والكر والفر .

ومن الواضح أن الخندق أفسد عليهم كل شىء ، فوقفوا بعيداً عنه يحاولون اقتحامه فى محاولات فردية أو فى جماعات صغيرة ، وتلاشت القيادة وضاع الحزم ، وأصبحت الحملة الضخمة مجرد مظاهرة لا طائل وراءها ، وفيما يلى نص أورده الواقدى صوَّر لنا حالة قريش وأحلافها أثناء هذه الحملة ، وهو وصف يدل على أن القرشيين إلى ذلك الحين لم يكونوا يعرفون من شئون الحرب فوق ما يعرف غيرهم من بدو الصحراء ، وتلك فى الحقيقة هى صورة قريش وقوتها العسكرية ، وقد كانت كافية ومعقولة لو أن قريشاً خرجت لتلقى جماعة من البدو أمثالها ، كما كانت الحالة فى أيام العرب السالفة ، ولو لم تكن القوة التى ذهبت قريش وأحلافها للقضاء عليها قوة المدينة بعقليتها الجديدة ، ونظرتها الجادَّة إلى الحياة ، وقيادتها الحكيمة السليمة ، وإيمانها القوى ، ونظامها الذى لم تعرفه الجزيرة قبلاً .

لو لم يكن هذا كله لخرجت قريش وأحلافها بالنصر الذى أرادوا ، وقوة قوامها ١٠٠٠٠ مقاتل منهم نيف وألف فرس ومعهم نحو الألفى بعير لم تكن بالقوة الهينة بمقاييس العصر الجاهلى ولكنها كانت أهون شىء عندما واجهت المدينة ، وهذه وحدها ملاحظة تدل على أن الصراع لم يكن بين الأحزاب وخصوم لهم ، بل كان فى حقيقته صراعاً بين عصر ولَّى وفات بكل نظمه وقيمه ومنابعه وعقليته وعصر جديد يختلف عنه من كل ناحية .

وهذا الذى تبيَّنه القرشيون وسيُعبِّر عنه أبو سفيان فى خطاب أخير يوجهه إلى رسول الله ﷺ قبل الانسحاب بذيول الهزيمة ، وخطاب أبى سفيان هذا إرهاص بما سيتبينه هرقل بن هرقل عندما يواجه العرب بقوات الروم التى حطم بها قوى الساسانيين مرة بعد أخرى ، ولكنه وقف عاجزاً أمام المسلمين ، فقد انسحب هزيماً حطيماً من الشام وهو يقول : وداعاً يا بلاد الشام ، وداعاً لا لقاء بعده .

أما النص الذى أشرنا إليه فهو كما يلى نقلاً عن الواقدى ، وسنقسمه إلى فقرات بحسب موضوع كل فقرة منه :

١- « قالوا : وكان القوم جميعاً وافوا الخندق من قريش وسليم وغطفان وأسد[١] عشرة آلاف ، فهى عساكر ثلاثة ، ويحتاج الأمر إلى أبى سفيان .

٢- فنزلت قريش برومة ووادى العقيق فى أحابيشها ومن ضوى إليها من العرب .
وأقبلت غطفان فى قادتها حتى نزلوا بالزغابة إلى جانب أُحُد[٢].

٣- وجعلت قريش تسرّح ركابها فى وادى العقيق فى عِضاهِه ، وليس هناك شىء للخيل إلا ما حملوه معهم من علف ، وكان علفهم الذرة .

٤- وسرَّحت غطفان إبلها إلى الغابة فى أثلها وطرفائها فى عضاه الجُرف .

٥- وقدموا فى زمان ليس فى العِرْض [٣] زرع ، فقد حصد الناس قبل ذلك بشهر . فأدخلوا حصادهم وأتبانهم . وكانت غطفان ترسل خيلها فى أثر الحصاد - وكان خيل غطفان ثلاثمائة - بالعِرض ، فيمسك [٤] ذلك من خيلهم ، وكادت إبلهم تهلك من الهزال . وكانت المدينة ليالى قدموا جديبة »[٥] .

وغالب الأمر أن قريشاً وأحلافها قدّروا على سنن الجاهليين فى حروبهم أنها غارة يوم أو يومين على الأكثر ، فلما وصلوا فوجئوا بالخندق ، ووجدوا أنفسهم أمام مشكلة عسكرية لا عهد لهم بها ، ولو أن قيادتهم كانت حكيمة لكانت لها من أول الأمر عيونها التى تُبلِّغها بأحوال المدينة وما يجرى فيها ، وكان لديهم متسع من الوقت

---

(١) أسقط الواقدى هنا بنى مرة الذين ذكرناهم مع أنه سبق ورجح أنهم حفروا الخندق مع الأحزاب وإن كان رجال بنى مرة يزعمون أن قائدهم الحارث بن عوف المرى رجع بقومه إيماناً منه بأن العرب لن تغلب محمداً ﷺ على ما ذكرناه ويذكر الواقدى تأييداً لحضور بنى مرة أن حسان بن ثابت هجاه بشعر ثم أضاف مؤيداً حضورهم . « فكان هذا أثبت عندنا أنه شهد الخندق فى قومه ، ولكنه كان أمثل تقية من عيينة » (مغازى : ٢/ ٤٤٤) .

(٢) رومة هى بئر رومة وإلى شمالها زغابة وإلى جنوبها الغابة ووادى العقيق ، وكل هذه مواضع شمال غربى سهل المدينة فيما يلى المدخل من الطريق التجارى إلى السهل .

(٣) الجرف هى الأرض الممتدة من مخرج سهل المدينة إلى أُحُد ، ويلى ذلك العِرْض وهى المساحة المزروعة حتى قرب جبل أحد ، وسطح أحد يسمى الوطاء .

(٤) أى : يسد من رمق الخيل ويمسكها من الموت .

(٥) الواقدى : مغازى ٢/ ٤٤٤ .

لذلك ، فإن المسافة من مكة إلى المدينة لم تكن لتُقطع فى تلك الأيام - بالنسبة لجيش كبير كهذا - فى أقل من عشرة أيام ، فكان فى إمكانهم أن يستعلموا عن أمر الخندق فى أى مرحلة من مراحل الطريق .

وحتى لو أنهم وصلوا ووجدوا الخندق ودرسوا الموقف ، لم يكن بهم بأس بالعودة والتريث للتدبير والاحتشاد للوضع الجديد ، ولكن كبرياءهم وغرورهم وجهلهم كل هذه أضلّتهم ، فوقفوا أمام الخندق حائرين ثم حاولوا اقتحامه فرادى مرة بعد مرة، ومضت الأيام ونفدت الأقوات على غير طائل .

والمسألة لم تكن فى الحقيقة مسألة الخندق ، فإن عرض الخندق كان - كما تقول النصوص - بسطة ، والبسطة طول قامة رجل ، ومهما قلنا فيه فهو متران ، وقد كانت فيه فى أول الأمر أجزاء أقل من ذلك عرضاً ، فعاد عليها المسلمون يوسعونها ، وإنما المسألة هنا كانت مسألة القيادة واليقظة والبديهة وروح القتال والفداء . فبينما نظم المسلمون أنفسهم تنظيماً محكماً : فهناك قوة رئيسية عند قبة الرسول فى لحف جبل سلع من شماله - وهى مركز قيادة المسلمين - يقودها رسول الله ﷺ يساعده عباد بن بشر فى الغالب وسعد بن أبى وقاص أحياناً ، وهناك فِرَق يقودها رجال ذوو بسالة وصدق من أمثال : محمد بن مسلمة ، وزيد بن ثابت ، وأسيد بن حضير ، وسعد بن معاذ ، وهناك فرقة إنجاد سريعة دائمة مستعدة للتدخل فى أى وقت وأى موضع ، يقودها سلمة بن أسلم بن حريش .

وهناك شباب مستعد للفداء يبعثه الرسول ﷺ فى عاجل أمره ، مثل خوات بن جبير الذى كلفه الرسول بأن يستطلع أمر بنى قريظة ليلاً بعد أن نافقوا ، فلم يكتف بما أمره به الرسول ، بل يقتل الحارس الذى لقيه على حال من الفجاءة والغِرَّة حتى يصبح الرجل وقد وُجِىء جنبه فى الليل ويصيح : السبع ! يحسب أن وحشاً نهش كبده . ويظفر المشركون مرة بموضع متضايق من الخندق تطفره خيلهم ويحاولون ذلك فيرميهم أسيد بن حضير وأصحابه بالنبل والحجارة حتى يجهضوهم ، ثم يستدعى الرسول سلمان الفارسى ويوسعون ذلك الموضع حتى يستوى مع بقية الخندق ولا تعود خيل المشركين تستطيع أن تطفره أى تعبره قفزاً .

وفى إحدى مناسبات المراماة يصاب سعد بن معاذ بسهم فى أكحله ، رماه به رامٍ نابه من رماة قريش هو حبان بن العرقة فما يبالى سعد بن معاذ ، ويمضى فى القتال ، وتلك هى الإصابة التى أودت بحياته بعد القضاء على بنى النضير .

وتطفر خيل للمشركين فوق الخندق فلا يراع المسلمون قط ، ويبرز على بن أبى طالب فيقتل عمرو بن عبد ودّ فارس قريش ، ويفر الباقون فزعين حتى ليسقط نوفل ابن عبد الله فى الخندق فيقتله المسلمون رمياً بالحجارة . هذا وكان فى العابرين فرسان مثل عكرمة بن أبى جهل وضرار بن الخطاب فلا يثبتون للمسلمين ساعة حتى يُولُّوا الأدبار غير مصدِّقين بالنجاة .

وهناك رواية يرويها الواقدى ويرددها كاتبه محمد بن سعد ، يُفهم منها أن قادة المشركين كانوا يتناوبون قتال المسلمين . كل واحد يوماً ، ورواية ابن سعد هنا « وكان المشركون يتناوبون بينهم ، فيغدو أبو سفيان بن حرب فى أصحابه يوماً ، ويغدو خالد ابن الوليد يوماً ويغدو عمرو بن العاص يوماً ، ويغدو هبيرة بن أبى وهب يوماً ، ويغدو عكرمة بن أبى جهل يوماً ، ويغدو ضرار بن الخطاب الفهرى يوماً ، فلا يزالون يُجيلون خيلهم ويتفرقون مرة ويجتمعون أخرى ويناوشون أصحاب رسول الله ﷺ ، ويقدمون رماتهم فيرمون » .

وبقية هذه الرواية عند الواقدى : « حتى عظم البلاء ، وخاف الناس خوفاً شديداً، ويقدمون رماتهم وكان معهم رماة : حبان بن العرقة ، وأبو أسامة الجشمى »[1] ، ولم يحدث أن أجمعوا أمرهم وهجموا هجمة واحدة فطفروا الخندق وقاتلوا المسلمين بالسيف إلا فى المرة التى ذكرناها والتى قُتِل فيها عمرو بن عبد ود ، قتله على بن أبى طالب . وكان عمرو فارساً لا يُشَق له غبار كان يستصغر علياً يطلب لقاء أبى بكر أو عمر ويسميهما شيخى قريش ، وهى تسمية غريبة نسمع بها أول مرة ، فيأبى علىٌّ إلا أن يلقاه ويقول له الفارس المشرك إنه يكره أن يقتله فيكون رد علىٌّ : ولكننى أنا أحب أن أقتلك ! ويقتله .

وفى هذه الحالات كلها ترى رسول الله ﷺ دائماً فى مواجهة العدو على فرسه وعليه

(١) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٤٦٨ .

الدرع والمغفر آية فى البسالة وثبات الجنان ، فلا يجرؤ واحد من الكفار أن يُصوِّب إليه سهماً لعظيم هيبته ، ويراه أصحابه على هذه الهيبة التى تروع النفس فيزدادون استبسالاً .

ويريد رسول الله ﷺ أن يقصر فترة الحصار ، فهو يرى أن قريشاً قد انخذلت وما هى بصانعة شيئاً ، ولكنها تطاول تحاشياً للارتداد دون نتيجة ، ولكن غطفان بدو وهم لا يكترثون للبقاء تجاه الخندق فى خيامهم ، فهم هكذا فى بلادهم ، ويعرف الرسول أن رجلاً مثل عيينة بن حصن يقاتل فى سبيل المال ، إذ لا إيمان عنده ولا مأرب فى نفسه غير المغنم ، ويريد الرسول أن يشترى راحة أصحابه بشىء من عَرَض الدنيا ، فقد تعبوا من طول القتال والسهر والحراسة والجوع والبرد .

ويذهب الواقدى إلى أن الرسول بعث من يأتيه بعيينة بن حصن ، فيأتى ذلك الأعرابى المراوغ (دون أن يبلغ حلفاءه وربما كان معه الحارث بن عوف شيخ بنى مرة) ، فعرض عليهما ثلث ثمر المدينة على أن ينصرفوا عن الحصار تاركين قريشاً ومن معها . ولكننا عندما نمعن النظر فى الخبر نستبين من سياقه أن محمداً ﷺ لم يرسل إلى هذين الأعرابيين ، ولكن كانا هما اللذين سعيا إليه يعرضان عليه الانصراف عن الحصار إذا أعطاهما الرسول ثلث تمر المدينة (لهذه السنة) .

والخبر كما يرويه الواقدى غير مقبول لأن عادة رسول الله ﷺ لم تَجْر بمساومة عدو على الانصراف مقابل مال أو طعام ، ثم إنه لم يكن ليقوم بشىء من ذلك إلا بعد مشاورة أصحابه ، وخاصة الأنصار ، لأنهم أصحاب زروع المدينة ونخلها وتمرها ، والذين يوردون مثل هذا الخبر يقولون فى رواياتهم عن أن رسول الله ﷺ كان رئيساً مطلقاً للمدينة يتصرف فى شئونها وأموالها كما يرى ، وذلك غير صحيح ؛ لأنه لم يتصرف فى أى أمر من أمور الجماعة إلا فى حدود أنه نبيها ورسولها وهاديها ، ولا يتصرف فى أمر من أمورها إلا بحسب ما يرتضيه أهلها بعد مشاورة وتراضٍ ، وبقية الخبر - حتى برواية الواقدى - تؤيد ما نقول .

والذى نراه ويتفق مع سير الحوادث هو أن يكون عيينة بن حصن هو الذى سعى للقاء رسول الله ﷺ ليفوز منه بشىء بعد أن رأى أن حلفاءه من الأعراب لم يصلوا

ولن يصلوا إلى شيء ، وأنهم لابد منصرفون عن قريب ، وكان عيينة عمره كله بدوياً خفيفاً سريع التصرف لا يكاد يفكر إلا فى مغنم مادى سريع يصل إليه ، وما كان رسول الله ليستدعى هذا الرجل ويعرض عليه شيئاً خاصاً ، وقد رأينا أن غطفان لم يكن لها إلى الآن دور يُذكر فى الحصار أو القتال ، وقد أدَّتْ حكمة رسول الله ﷺ وتماسك أهل المدينة إلى الكشف عن حقيقة غطفان ووزنها فى مثل هذا الصراع الدائر، ربما كانت غطفان تستطيع أن تفعل شيئاً فى ظروف الصراع القبلى فى شبه الجزيرة العربية ، ولكن الموقف الراهن كان يتخطى كل شىء عرفته غطفان أو عيينة بن حصن والحارث بن عوف . وسنرى بعد قليل أن غطفان أقبلت ثم انصرفت ، وكأنها لا أقبلت ولا انصرفت .

نقول إذن - إذا كان ولابد أن نضع هذا الخبر موضع الاعتبار - ذلك الشيخ القبلى عندما أحس أن الهجوم على المدينة لم يؤد إلى شىء ، سارع إلى المدينة أملاً فى أن يحصل من أهلها على شىء فى مقابل انصرافه ، وقد رأى رسول الله ﷺ أن يكون كلامه أمام أنصاره جميعاً وكان ذلك . ورفض أهل المدينة بلسان أسيد بن حضير وعباد بن بشر وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، وعلى أيديهم لقى عيينة ما يكره وعاد أدراجه بأقل من خُفَّى حنين ، لأن حنيناً لم يجر عليه أكثر من العودة بلا جدوى ، أما عيينة فقد عرف قدر نفسه وعاد إلى قومه يتمطى يجر أذيال المهانة والشعور بالصَّغَار .

وفى بقية الخبر ملاحظات ولمحات تزيدنا بصراً بما نحن بصدده من التعريف بموقف قريش من الإسلام ، ووضع قريش بين الأعراب بعد خمس سنوات من صراعها مع أمة المدينة . قال الحارث بن عوف يخاطب صاحبه عيينة : « ما حضرتُ إلا كرهاً لقوم غلبونى وما مقامنا بشىء ، مع أن قريشاً إن علمت بما عرضنا [(1)] على محمد عرفتْ أنَّا قد خذلناها ولم ننصرها ! » قال عيينة : « هو والله ذلك ! » ، وفى سياق الحديث يقول عيينة : « إنَّا والله ما جئنا ننصر قريشاً ، ولو استنصرنا قريشاً ما نصرتنا ، ولا خرجت معنا من حَرَمِها ، لكن كنت أطمع أن نأخذ تمر المدينة فيكون لنا به ذِكْر ،

---

(1) هذا يؤيد ما قلناه من أن عيينة هو الذى قصد رسول الله ﷺ ليعرض عليه أن ينصرف مقابل شىء من تمر المدينة .

مع ما لنا فيه من منفعة الغنيمة ، مع أننا ننصر حلفاءنا من اليهود فهم جلبونا إلى ما ها هنا » .

قال الحارث : « قد والله أبت الأوس والخزرج إلا السيف . والله لتقاتِلُنَّ عن هذا السعف ما بَقى منها رجل مقيم . وقد أجدب الجَنابُ وهلك الخف والكُراع » ، قال عيينة : « لا شيء » فلما أتيا منزلهما جاءتهما غطفان فقالوا : « ما وراءكم ؟ قالوا : لم يتم الأمر . رأينا قوماً على بصيرة وبَذْل أنفسهم دون صاحبهم ، وقد هلكنا وهلكت قريش ، وقريش تنصرف ولا تكلم محمداً ، وإنما يقع حَرُّ محمد ببنى قريظة . إذا ولّينا جثم عليهم فحصرهم جمعه حتى يعطوا بأيديهم ، قال الحارث : بُعْداً وسُحْقاً ، محمد أحب إلينا من اليهود » (١) .

وهذه المقتبسات تكشف لنا عن كثير من حقائق الموقف خارج المدينة بما لا يحتاج منا إلى تعليق أو زيادة ، ولا معنى هنا لأن نشير إلى الخبر الطويل الذى تورده المراجع عن نعيم بن مسعود الأشجعى وما كان له من دور قصصى فى حرب الأحزاب عن المدينة ، فما كانت المدينة بحاجة إلى توسط هذا الرجل ، فقد كانت قريش استبانت ألّا فائدة فى استمرار الحصار ، واستقر عزمها على العودة أدراجها ، وكانت غطفان قد سبقتها إلى ذلك كما رأينا .

ولكننا نخرج من الخبر بأن قريشاً وحلفاءها خسروا المعركة حتى قبل أن تهب الرياح . ولقد اشتد بهم البرد مع أن الوقت كان فى شهر أبريل ، ولكن ذلك كثير الحدوث فى الليل ، ثم هبت رياح جعلت تقتلع خيامهم وتطفىء نيرانهم حتى صعب عليهم إيقاد النيران ، وتلفتت قريش ذات صباح فإذا غطفان وبنو سليم قد انصرفوا ، ويبدو أن الأعراب تفاهموا على ذلك دون علم قريش ، وكان الرسول ﷺ قد توقع رحيل الأعراب بعد أن رفض أن يجيب عيينة بن حصن إلى ما سأل ، فأرسل رجلاً من أصحابه هو حذيفة بن اليمان ليستطلع أمرهم ، وانصرف هو إلى الصلاة ودخل حذيفة معسكر الأحزاب : « وإن الريح تفعل بهم ما تفعل ، لا تُقِر لهم قراراً ولا بناء » ثم رأى حذيفة كيف أقلعت الأعراب من السَّحَر « ثم مضوا فلحقوا الأنفال والعسكر مع ارتفاع النهار بملَّل ، فغدوا إلى السيالة » .

---

(١) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٤٧٩ - ٤٨٠ .

وكانت غطفان لما ارتحلت «وقف مسعود بن رخيلة فى خيل من أصحابه ، ووقف الحارث بن عوف فى خيل من أصحابه ، ووقف فرسان من بنى سليم فى أصحابهم ، ثم تحملوا جميعاً فى طريق واحدة وكرهوا أن يتفرقوا حتى أتوا على المِرَاض ، ثم تفرقت كل قبيلة إلى محالها - رملل والسيالة قرب المدينة فى الطريق منها إلى مكة ، أما المراض فليست على الطريق وهى تقع على ستة وثلاثين ميلاً بناحية الطرف ، وهى على الطريق إلى نجد - ، فكأن أولئك الأعراب ساروا معاً حتى أصبحوا بمبعدة من المدينة ودخلوا فى رمالهم فتفرقوا ، وقد فعلوا ذلك خوفاً من قريش فى الغالب ، ولعلهم خافوا أن يكون بينهم وبين القرشيين مشادة وتلاحٍ ، وربما ما هو أسوأ فانصرفوا متسللين .

وعلى أثر ذلك قرر أبو سفيان الرحيل ، فدعا أصحابه بالرحيل ، وقال لهم إنهم لم يجدوا عوناً من قريظة ، ووقع بينهم شر ، « وقد لقينا من الريح ما ترون ، والله ما يثبت لنا بناء ، ولا تطمئنُّ لنا قِدْر ، فارتحلوا فإننى مرتحل » ولم يعجب ذلك عكرمة بن أبى جهل فقال له : « إنك رأس القوم وقائدهم ، تقشع وتترك الناس ؟ فاستحى أبو سفيان ، فأناخ جمله ونزل عنه . وأخذ بزمامه وهو يقوده وقال : ارحلوا ! قال : فجعل الناس يرتحلون وهو قائم حتى خَفَّ العسكر ، ثم قال لعمرو بن العاص : يا أبا عبد الله ، لابد لى ولك أن نُقيم فى جريدة من خيل بإزاء محمد وأصحابه ، فإنَّا لا نأمن أن نُطْلَبَ حتى ينفذ العسكر فقال عمرو : أنا أقيم ، وقال لخالد بن الوليد : ما ترى يا أبا سليمان ، فقال : أنا أيضاً أقيم ، فأقام عمرو وخالد فى مائتى فارس ، وسار العسكر إلا هذه الجريدة على متون الخيل » [1] وكانت غطفان وبنو سليم وبنو مرة قد رحلوا .

وقبل أن ينصرف أبو سفيان مع جماعة الفرسان التى بقيت معه لتحمى ظهور المشركين ، رأى أن يكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً . وقد أورد لنا الواقدى نص الكتاب ، ثم أورد بعد ذلك زيادة فى كتاب أبى سفيان إلى رسول الله نسبها إلى رجل يسمى إبراهيم بن جعفر ، وهذا أسندها إلى أبيه ، ولسنا نجزم بصحة النصَّين ، ولكنهما أياً كان موقعهما من الصحة يصوران حالة الحيرة والغيظ والشعور بالهزيمة

---

(١) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٤٩٠ .

الذى استولى على رئيس قريش عندما تبين أن الفرصة التى طالما عوَّل عليها قد أفلتت من بين يديه ، وأنه يعود إلى مكة بغير شىء .

أما ما كتب به إليه رسول الله ﷺ فلا نرى أن يصح وهو لا يشبه ما يصدر عنه فى مثل هذه الظروف ، فما كان رسول الله بالذى يتشفى أو يهدد ، وإنما كان رأيه فى مثل هذا الظرف أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإذا كان هناك موضع للإشعار بالقوة فيكون النص على قوة الله سبحانه ، فهو الذى يكتب لدينه ولرسوله النصر ، ويقضى بحوله على الأوثان .

وإليك ما كتب به أبو سفيان وأرسله مع أبى أسامة الجُشَمِى . قال الواقدى : حدثنا موسى بن محمد بن إبراهيم ، عن أبى وجزة ، قال : لَـمَّـا مَلَّت قريش المقام ، وأجدب الجناب ، وضاقوا بالخندق ، وكان أبو سفيان على طمع أن يُغير على بيضة المدينة ، كتب كتاباً فيه :

« باسمك اللهم .

فإنى أحلف باللات والعُزّى ، لقد سِرْتُ إليك فى جمعنا وإنَّا لا نريد ألَّا نعود عنك أبداً حتى نستأصلك ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعرى ، مَنْ علَّمك هذا ؟ فإنْ نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أُحُد تُبقر فيه النساء»[1] .

ويعث بالكتاب مع أبى أسامة الجشمى .

وأما رد رسول الله ﷺ وهو رد نستبعد صدوره عن الرسول ، فهو بحسب رواية الواقدى :

« من محمد رسول الله إلى أبى سفيان بن حرب ، أما بعد ، فقديماً غرَّك بالله الغَرُور أمَّا ما ذكرت أنك سرت إلينا فى جمعكم ، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمرٌ ، الله يحول بينك وبينه ويجعل لنا العافية حتى لا تذكر اللات والعزى . وأما قولك : من علَّمك الذى صنعنا من الخندق ، فإن الله تعالى ألهمنى ذلك لما أراد من

(١) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٤٩٢ .

غيظك به وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم تُدافعنى بالراح ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهُبل ، حتى أذكِّرك ذلك »[1] .

ويضيف الواقدى بعد ذلك زيادة لا معنى لها منسوبة إلى من يسمى إبراهيم بن جعفر عن أبيه ، وسياقها يدل على أنها إكمال لخطاب أبى سفيان إلى رسول الله ﷺ : «ولقد علمت أنى لقيت أصحابك بأحياء وأنا فى عير لقريش فما حصَّ أصحابك منا شعرة ورضوا بمدافعتنا بالراح ، ثم أقبلت فى عير قريش حتى لقيت قومى ، فلم تلقنا، فأوقعت بقومى ولم أشهدها من وقعة ، ثم غزوتكم فى عقر داركم فقتلتُ وحرقت - يعنى : غزوة السويق - ثم غزوتك فى جمعنا يوم أُحُد ، فكانت وقعتنا فيكم مثل وقعتكم بنا ببدر ، ثم سِرْنا إليكم فى جمعنا ومَنْ تألب إلينا يوم الخندق فلزمتم الصياصى وخندقتم الخنادق »[2] .

وهذه الزيادة بادية الافتعال ، فإن عيراً لقريش لقيت المسلمين عند موضع يسمى أحياء وعلى المشركين أبو سفيان ، وكان ذلك فى سرية عبيدة بن الحارث إلى رابغ وكانت فى شوال سنة ١هـ/ أبريل ٦٢٣م . وقد كانت اليد العليا فيها للمسلمين ، فهى السرية التى رمى فيها سعد بن أبى وقاص بقوسه فأصاب كثيراً من أصحاب أبى سفيان ، ولم يكن بين الجانبين إلا ذلك ، وموضع أحياء قريب من بطن رابغ ، ثم يشير أبو سفيان بعد ذلك إلى بدر ثم إلى أُحُد ، وغريب منه أن يشير إلى الخندق بقوله : ثم سرنا إليكم فى جمعنا ومن تألب إلينا يوم الخندق ، لأن تسمية يوم الخندق لم تكن إلا بعد ذلك بزمن .

على أى حال ، انتهت محاولة قريش حشد أكبر قوة تستطيعها وجمع من يتيسر لها جمعه من أحلافها إلى فشل ذريع ، ولم يكن سبب الفشل كما قلنا هو الخندق ، فإن الخندق فى ذاته لا يمنع العدو منعاً حاسماً ، إنما هو كان عاملاً معطِّلاً فحسب ، ولقد عبرته خيل المشركين أكثر من مرة فما استطاعت أن تفعل شيئاً ورُدَّت على أعقابها بخسائر ، إنما الأهم من الخندق هى تلك الروح التى كانت أمة المسلمين تقاتل بها عن

(١) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٤٩٢ - ٤٩٣ .
(٢) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٤٩٣ .

نفسها ثم حكمة القيادة ويقظتها ، ففى أثناء مدة الحصار ما بين عشرة أيام وعشرين – لم نشهد لأبى سفيان أيَّ أثـر ، بينما نرى رسـول الله ﷺ فى كل حين ، فهو يقظ مبـادر لا تغفل عينه لحظة ، وهو لا ينام ساعة حتى ينهض ويبرز إلى الميدان وعينه على كل طرف من أطراف المدينة وخندقها ، وما من مرة شد المشركون على الخندق وبدا الخطر إلا كان الرسول بنفسه مسارعاً إلى الموقف يتلافاه خيفة ولا يعود ليصيب شيئاً من الراحة إلا بعد أن يرد المهاجمين على أعقابهم .

والخندق هنا ما كان إلا عقبة أفسدت خطط المشركين ولكنهم لو كانوا على عزم صادق لعبروه ، ولعلهم لو عبروه لهلكوا على أيدى المسلمين فى أزقة المدينة ، فقد رأينا بذلهم وسرعتهم إلى القتال وبسالتهم فيه ، ولقد انقلبت بنو قريظة على المسلمين وليس بينهم وبين المسلمين خندق فهم يستطيعون أن يتحركوا ، حتى كان المسلمون هم الذين ساروا إليهم وأخذوهم باليد .

إنما يهمنا أمر الخندق هنا لأنه تجديد فى فن القتال عند العرب تقبَّلته أمة المدينة من عضو من أعضائها ونفذته على أحسن ما يكون التنفيذ ، وسلمان الفارسى الذى نقل هذه الفكرة إلى المسلمين أتى بها من تجارب قومه الفرس ، وكانت قريش متصلة بالفرس فكيف لم تعرف الخنادق ؟ لم تعرفها لأنها كانت جماعة جمد تفكيرها وتوقف عندما ابتكر لها المؤسسون الكبار الذين أقامـوا صرحها وآخرهـم عبد المطلب بن هاشم ، وعندما أتاهم رسول الله ﷺ بالدين الجديد والفكر الجديد والعصر الجديد جمدوا مكانهم ولم يستطيعوا حراكاً .

ويصدق عليهم هنا قول الله سبحانه وتعالى فى سورة الشعراء مُصوِّراً جمود الجامدين والتزامهم ما وجدوا عليه آباءهم : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) ﴾ [الشعراء] .

إن القرآن الكريم يتحدث هنا عن الجمود الدينى ، عن وقوف الجماعة عند مستوى فكرى لا تتعداه لأنها تعجز عن ذلك ، وهذا هو الجمود الحضارى أو التحجر petrif-icotion الذى يتحدث عنه المؤرخون ، وآرنولد توينبى يتحدث حيناً عن الحضارات

المتحجرة petrified civilizationes وهى غير الحضارات البائدة extinct civiliza-tiones لأن الحضارات البائدة لا تعود إلى الحياة ، أما المتحجرة فهى تعانى مما يسمى بالركود الثقافى cultural lag ، وهو جمود يصيب الجماعات لتوقُّف فكرها عن التطور ووقوفه عند وضع تتحجر عنده ولا تتعداه ، وهذا لا يمنع أن يتفكك التحجر وتدب الحياة فى الذهن المتبلد ، وهو ما كان رسول الله ﷺ يحاوله ، وقد صبر صبراً جميلاً على القرشيين حتى تمكن فى النهاية من إيقاظ أذهانهم وقلوبهم من السبات الذى استراحوا إليه .

وغريب فى الأمر أن يكون أبو سفيان هو من أوغل رجال قومه فى الوثنية الجاهلية، كان هو أول من تحرك ذهنه وصحا فرأى بصيصاً من النور الجديد ، ولكنه لم يره بعين القلب الواعى ، بل بعين الذهن الصاحى . وكان أبو سفيان أذكى رجال قومه دون شك ، لأنه أدرك وهو عائد يجر أذيال الخيبة من حملته الكبرى على الخندق ألا سبيل إلى التغلب على محمد وأمة الإسلام ، وأن نجاة قريش من الهلاك مرهون بقدرتها على التفاهم مع أمة المدينة ، وقد قلنا هنا ، محمداً دون أن نشفعه بالتصلية ؛ لأننا أردنا أن نصور فكر أبى سفيان من ناحية محمد ، فإن أبا سفيان استسلم فى النهاية لمحمد ولكنه لم يستسلم لرسول الله حتى بعد الفتح ، ومن المفكرين المسلمين من يرى أن أبا سفيان أسلم ولم يؤمن قط ، وبعضهم يدفع عنه البقاء على الوثنية من جانب التقى ، احتراماً لصحابته للرسول على مذهب الداعين إلى التوقف عن الحكم على الصحابة لِعظَم مقامهم عند الله سبحانه وتعالى ، فهذا التوقف عندهم عاصمة من قاصمة ، وقد كتب فى هذا المعنى نفر من جلة علمائنا منهم ابن حزم فى رسالة التفضيل بين الصحابة، وأبو بكر بن العربى فى العواصم من القواصم .

لقد كتب واحد من كبار المستشرقين وهو فلهاوزن كتاباً مشهوراً عندهم عنوانه : « محمد واليهود فى المدينة » ، تحسر فى ختامه على مصيرهم وقال : « إنهم لو وجدوا زعيماً من بينهم يقوم لهم بالدور الذى قام به أبو سفيان لقريش لنجوا من الهلاك ، أى لتصالحوا مع الرسول صلوات الله عليه ودخلوا فى جماعته وكتبوا لأنفسهم بذلك

حياة جديدة كما فعلت قريش »[1] ، فلننظر ما الذى فعله أبو سفيان للنجاة بقريش من مصير شبيه بمصير يهود المدينة .

* * *

(١) A. J. Wensinck, Mohammed en de Joden te Medina : Leiden 1928. وهو بالهولندية ، ولكن أجزاء كثيرة منه تُرجمت إلى الفرنسية والإنجليزية .

قُرَيش فى الطّريق إلى الإسْلاَم



حتى مسير قريش وأحلافها إلى المدينة فى ذى قعدة سنة ٥هـ أبريل ٦٢٧م . كان رجالها يأملون فى إحراز نصر نهائى حاسم على الإسلام والمسلمين وجماعات البدو التى سارت معهم ، وخاصة من غطفان وسليم بن منصور كانت تُمَنِّى نفسها بفوز عظيم وغنيمة وافرة ، فإن الأمل فى اقتحام المدينة ونهبها وسلب خيراتها كان عظيماً ، وكان كل المشتركين فى هذا الهجوم يعرفون أنهم يقومون بعمل خطير يقضى على ما توهموا أنه فتنة وقلب للأوضاع ، ولكنهم جميعاً كما رأينا لم يُقَدِّروا الظروف الجديدة حَقَّ قدرها ، وساروا فى جحفل لجب ولكن دون استعداد كامل وتقدير محكم ، وهنا كانوا كما قلنا جاهليين يعيشون فى عصر مضى ، كانت الحروب فيه ضربات يقوم بها فرسان ذوو خيلاء وكبر وغرور ، وكان أقصى ما يهمهم قتل كبار الرجال لكسر الشوكة ونهب العدو وسلب سلاحه إظهاراً للقوة ثم سبى نسائه والتصرف فيهن بالتسرى أو البيع ، رمزاً للمهانة وثلم الشرف وفضيحة العدو حتى يشتهر الأمر فى العرب ويمضى فى تصويره الشعراء ، حتى تكون هزيمة الخصم مادية ومعنوية.

ولكن الأسبوع الأول لمعركة الخندق دل القرشيين وحلفاءهم على أن مثل هذا النوع من الصراع انتهى عصره . وخطاب أبى سفيان الذى أتينا به دون أن نقطع بأصالة نصه - يفصح عن شعور الحيرة واليأس وخيبة الأمل (وجعلتَ مضايق وخنادق . مَنْ علَّمك هذا) وقد قلنا : إن المسألة لم تكن مسألة خندق أو شق فى الأرض حفره المسلمون ، بل هى مسألة عقل جديد وفكر جديد ، فإن المسلمين لو شاءوا أن يخوضوا مع المشركين معركة قتل ودماء لخاضوها وكسبوها ، ولكن المسلمين تخطوا فى هذه الحرب مرحلة عصر ظواهر الكبرياء والوحشية والجشع والإذلال ، ودخلوا عصر القوة المعنوية والتفوق الفكرى والصراع من أجل المبادىء لا من أجل الأحساب والأعراق .

وهذا الطراز من الصراع سنراه من الآن فصاعداً : سنراه فى الحديبية وفى فتح مكة وفى المحاولة الأولى لفتح الطائف . وفى الأخبار التى يقصها الواقدى فى تفاصيل الخندق حكاية هى أشبه بالرمز على ما نقول ، فقد « حمل الزبير بن العوام على نوفل ابن عبد الله بن المغيرة بالسيف حتى شقه باثنين وقطع أندوج سرجه - والأندوج اللِّبد الذى يكون تحت السرج - ويقال إلى كاهل الفرس ، فقيل له : يا أبا عبد الله ما رأينا سيفاً مثل سيفك ! فيقول : والله ما هو بالسيف ولكنها الساعد »[1] وهنا أيضاً نستطيع أن نقول : والله ما هو بالخندق ولكن بالروح التى وراء الخندق ، وما كان الخندق إلا شقاً عرضه بسطة أى قامة رجل ، ولكن هذا الشق كان يفصل عالمين ، وفارقاً بين روح التشفى والانتقام والفروسية الفارغة والجشع والاختلاف والفوضى وعدم الاستعداد خارج الخندق ، والإيمان والوحدة والروح والعقيدة الرفيعة والنظام والاستعداد وروح البذل وحكمة القيادة داخله .

ومؤرخونا القدامى - وما أكثر ما يفوتهم لباب الحوادث - ويتابعهم فى ذلك الكثيرون من المحدثين - وما أكثر ما يفوتهم إدراك صميم الهدى المحمدى - يصورون نصر الخندق وكأنه مجرد نصر قوة على قوة ، ويقتصر تصويرهم على صورة الرسول القائد ، الذى يروح ويغدو ويصدر الأوامر ، ويفوتهم أن الذى كان يقود هنا ، والذى انتصر هنا هو الهَدْىُ الرفيع الذى كان محمد صلوات الله عليه يسير بأمته فى طريقه ، وهل كان لدى الرسول سجن يعاقب فيه المخالفين ؟ ولكن القرآن والهدى النبوى والمثال المحمدى ، أيقظت فى الناس ضميراً هو أقوى من أى سلطان ، وانظر إلى حديث أبى لبابة بن عبد المنذر فى خبر بنى قريظة تخرج منه بجانب كبير من المعانى التى نشير إليها فى سياقنا هذا .

والخبر بتمامه يعطينا مثالاً من طريقة محمد ﷺ فى تربية أمته : فنرى فى الجزء الأول منه كيف أنه لم يكن يجبر أحداً من أصحابه على شىء ، مادام الصحابى يتصرف فى حدود حقه ، حتى لو رفض لرسول الله طلباً ، وفى الجزء الثانى من الخبر نرى نفس الصحابى عندما أحس أنه وقع فى خطأ فى حق الرسول والجماعة بادر بعقاب نفسه

---

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٤٧٢ .

بنفسه ، بل إنه عندما نزلت آية قرآنية تبشر الصحابى بعفو الله من العقاب الذى فرضه على نفسه ، أبى أبو لبابة إلا أن يكون رسول الله ﷺ هو الذى يفك وثاقه استبلاغاً منه فى إظهار الندم لما بدر منه ، وإليك نص الخبر بتمامه كما يرويه الواقدى ، ومساق الخبر عنده أَوْفَى منه عند غيره :

« حدثنى مَعْمَر بن راشد عن الزهرى ، عن ابن المسيب قال : كان أول شىء عتب فيه رسول الله ﷺ على أبى لبابة بن عبد المنذر أنه خاصم يتيماً له فى عذق . فقضى رسول الله ﷺ بالعذق لأبى لبابة ، فصيّح اليتيم واشتكى إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ لأبى لبابة : هب لى العذق يا أبا لبابة – لكى يرده رسول الله ﷺ إلى اليتيم – فأبى أبو لبابة أن يهبه لرسول الله ﷺ فقال : يا أبا لبابة ، أعطه اليتيم ولك مثله فى الجنة ، فأبى أبو لبابة أن يعطيه .

قال الزهرى : فحدثنى رجل من الأنصار قال : لما أبى أن يعطيه قال ابن الدحداحة – وهو رجل من الأنصار : أرأيت يا رسول الله إن ابتعتُ هذا العَذْق فأعطيته هذا اليتيم ، أَلِى مثله فى الجنة ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم . فانطلق ابن الدحداحة حتى لَقِىَ أبا لبابة فقال : أبتاع منك عَذْقَك بحديقتى ، وكانت له حديقة نخل ، قال أبو لبابة : نعم ، فابتاع ابن الدحداحة العذق بحديقة من نخل ، فأعطاه اليتيم ، فلم يلبث ابن الدحداحة أن جاء كفار قريش إلى أُحُد ، فخرج ابن الدحداحة، فقُتل شهيداً ، فقال رسول الله ﷺ : رُب عَذْقٍ مذلَّلٍ لابن الدحداحة فى الجنة »[1].

فهذا رجل يحكم له الرسول بشىء يجد أن له فيه حقاً ، ثم يرق رسول الله لليتيم صاحب العذق عندما بكى لفقدان ما كان يظن أن له فيه حقاً ، فيطلب الرسول إلى أبى لبابة أن يهب له العذق ، فيرفض أبو لبابة فلا يغضب الرسول ، فيعود ويسأل أبا لبابة أن يتنازل عن العذق ويكون له مثله فى الجنة ، فيرفض ، ويدعو الرسول حتى يتقدم ابن الدحداحة فيستبدل العذق بحديقة له ، يأخذها أبو لبابة بعد أن يرد العذق على اليتيم .

وعندما حاصر رسول الله ﷺ بنى قريظة وكان أبو لبابة حليفاً لهم ، وتبين لليهود

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٠٥ .

أنهم لن يستطيعوا الثبات ، يطلبون إلى رسول الله أن يكون أبو لبابة هو رسول التفاوض بينهم وبين المسلمين ، ويذهب أبو لبابة فينصح اليهود بالاستسلام لرسول الله ، ويشير بيده إشارة معناها أنهم إذا لم يستسلموا فسيكون القتل مصيرهم ، ولم يكن الرسول قد قال له من ذلك شيئاً ولا هو عوّل عليه ، إنما هو سيحكم فيه سعد بن معاذ وسعد يقضى بما يرى إذا ارتضاه اليهود ، ثم أحس أبو لبابة أنه بفعله هذا قد خان الرسول ونسب إليه ما لم يكن ، وتخطى حدود مهمته ، وأدركه الندم وسالت دموعه ، وأسرع إلى المسجد من طريق لا يراه فيه أحد ، فربط نفسه إلى أسطوانة فيه عُرِفت فيما بعد بأسطوانة التوبة .

وبلغ ذلك الرسول ﷺ فقال : « دعوه حتى يحدث الله فيه ما يشاء ، لو كان جاءنى استغفرت له ، فأما إذ لم يأتنى وذهب فدعوه ! قال أبو لبابة : فكنت فى أمر عظيم خمس عشرة ليلة »[1] وكان رَبْطه نفسه فى وقت حر شديد وانقطع خلال خمس عشرة ليلة عن الطعام ، ويقال وعن الشراب أيضاً ، ولكن هذا متعذر ، فلا يصبر الإنسان على العطش هذه المدة ، وقال للناس : « لا أزال هكذا حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله علىّ . فلم يزل كذلك حتى ما يسمع الصوت من الجهد ، ورسول الله ﷺ ينظر إليه بُكْرة وعشية ، ثم تاب الله عليه ، فنودى : إن الله قد تاب عليك ! وأرسل النبى ﷺ ليطلق عن رباطه ، فأبى أن يطلقه عنه أحد غير رسول الله ﷺ ، فجاء رسول الله ﷺ بنفسه فأطلقه »[2] .

فهذا المَثَل يُريك قوة الضمير الذى أيقظه الإسلام فى المسلمين ، وهذا الضمير هو الذى بث فى المسلمين القوة والنظام والطاعة والإقدام وروح التضحية والتماسك فأصبحوا قوة لا قِبَل لقريش أو لغيرها بها ، فكأن قوة الإسلام كلها انبثت فى قلب كل مسلم على حدة ، فأين تطيق قريش أو غيرها الثبات لهذه القوة ؟

وليست لدينا أخبار عما فعلت قريش حتى نصل إلى حديث الحديبية ولكن الأخبار عن المسلمين كثيرة ، ومن هذه الأخبار نتبين أن قريشاً قبعت فى دارها بعد

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٠٧ .
(٢) الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٠٧ - ٥٠٨ .

فشل محاولة الخندق مستكينة لا يدرى رؤساؤها ماذا يفعلون . لقد انتقلت القيادة والمبادرة منها إلى أمة المدينة ، وفى العادة عندما تحس جماعة أثناء صراع أنها فقدت الأمل فى النصر ، فإنها تقبع فى دارها وتتحصن فى عقرها وتقصر عن الأفعال وتكتفى بردود الأفعال ، وتحملها الأحداث معها كأنها سفينة تحطمت أشرعتها وتكسرت مجاديفها وكَلَّتْ قواها وتركت نفسها للتيار .

وفى نفس الوقت نجد المدينة وقد تحولت إلى مركز نشاط واسع المدى ، فقد أحست بقوتها وأدرك أهلها أن ما وعدهم به الله ورسوله كان حقاً ، وأن الله سبحانه منَّ عليهم فجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين .

فلا يكاد المشركون ينصرفون حتى يسير الرسول ﷺ إلى بنى قريظة ليحاسبهم على ما كان منهم من خيانة المسلمين ونقض الحلف والانضمام إلى الأعداء فى وقت الشدة ، ولم يكن هناك مفر من ذلك وينتهى الأمر باستسلامهم ، ويقبلون أن يحكم فيهم حليفهم القديم سعد بن معاذ بن النعمان نقيب بنى عبد الأشهل وسيد الأوس جميعاً ، وطالما اعتزت اليهود بالأوس قبل الإسلام ، ويقضى سعد بن معاذ فيهم بقتل الرجال وسبى النساء والذرية واقتسام الأموال بحسب ما يرى رسول الله ﷺ ، وبذلك تكون أمة الإسلام قد خلصت من جماعات اليهود الخطرة الثلاث الكبرى المعاندة الحاقدة المتخونة (ذو القعدة - ذو الحجة ٥هـ/ مايو ٦٢٧م) ، وقد كسبت أمة الإسلام من ذلك إلى جانب الأمن مالاً استخدمه الرسول فى شراء خيل وسلاح للمسلمين [١] حتى يتلافى ناحية النقص فى القوة العسكرية للمسلمين ، وتنتهى بذلك الميزة التى ظلت قريش تعتز بها على المسلمين حتى الخندق ، أما بعد الخندق فستكون خيل المسلمين أقوى خيل فى شبه الجزيرة .

ولم يكن تصرف رسول الله ﷺ فى هذا الباب نابعاً من اعتبارات عسكرية ، بل كان صادراً عن تفكير نبى مرسل وشاهد ومبشر ونذير وداع إلى الله بإذنه وسراج منير . فهذه القوة العسكرية لن تستعمل فى الغزو أو العقاب أو مد السلطان أو الغارة والسلب وفرض الطاعة أو الإتاوات ، بل ستستخدم للإنذار والتحذير وسيكون

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٢٣ .

تصرف النبى بقوة جماعته العسكرية تصرف الشاهد ، والشاهد هنا هو النموذج والمثال والقدوة ، وانظر إلى هذا المعنى القرآنى فى قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[1] و﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[2] و﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [3] ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ [4] و﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ [5] .

والسرايا والغزوات بعد الخندق تنطق بذلك ، فعندما سمع رسول الله ﷺ أن أعرابياً جلفاً يسمى خالد بن نبيج من هذيل ثم من لحيان ، تحدِّثه نفسه بالعدوان على المدينة وإثارة الشغب فى المنطقة الواقعة بينها وبين مكة ، عرف أنه أمام بدوى جاهلى إذا هو تُرِك وشأنه لتأتَّى منه أذى كبير ، خاصة وهو يقيم فى نواحى عُرَنَة جنوبى عَسْفان قريباً من أبواب مكة ، ولا يستبعد أن يستثير قريشاً ، ويدفعها إلى مغامرة حمقاء ، وكان رسول الله قادراً على أن يبعث نحوه سرية ضخمة تنزل ببنى لحيان ضربة قاصمة ، خاصة وأن لحيان كان لها عدوان سابق على المسلمين ، ولكن لحيان وغيرها من قبائل الأعراب كانت قد غفلت وأدركت أنها لا تستطيع ممارسة أعمال الأعراب مع أمة المدينة ، فيجىء هذا الجاهل الذى كان يقول : « لم يلق محمد أحداً يشبهنى » فيكون علاج مثل هذا الرجل أن يقضى عليه وحده ، فيرسل رسول الله إليه سرية من رجل واحد هو عبد الله بن أنيس ، يخرج بسيفه ليس معه شىء غيره ، فيذهب الرجل فيقضى على هذا المشاغب ويعود (ذو الحجة ٥هـ/ مايو ٦٢٥م) .

ويبلغ الرسولَ شىءٌ مثل ذلك عن بنى بكر بن كلاب وبنى محارب وموطنهم بالربذة ، أنهم يمارسون أعمال البدو فى منطقة داخلة فى نطاق أم المدينة ، فيندب بعثاً صغيراً من نحو ثلاثين رجلاً ، فيه رجال صناديد منهم عباد بن بشر ، وسلمة بن

(١) النساء ٤ / ٤١ .
(٢) البقرة ٢/ ١٤٣ والمراد لتكونوا نماذج ومُثُلاً للناس وليكون الرسول نموذجاً ومثلاً لكم .
(٣) الحج ٢٢/ ٧٨ .
(٤) آل عمران ٣/ ١٤٠ .
(٥) المائدة : ٥/ ٨ .

سلامة بن وقش ، والحارث بن خَزَمَة وعليهم محمد بن مسلمة ، وكلهم من فرسان المدينة الذين تربوا على يد محمد ﷺ ، أخذوا عنه دروس النظام والطاعة والدقة فى التنفيذ والحزم ، وهم يخرجون هذه المرة فوارس ، فيضربون ضربة موجعة سريعة هى فى ذاتها نذير ، ويعودون بخمسين ومائة بعير وثلاثة آلاف شاة . ولم تكن المدينة بحاجة إلى ذلك المغنم اليسير ، ولكن فقدانه موجع لهؤلاء الأعراب وكافٍ لردِّهم إلى السكون والتعقل (المحرم ٦ هـ/ يونيو ٦٢٧م) .

وفى غزوة بنى لحيان (ربيع الأول ٦هـ/ يوليو ٦٢٧م) نحس إحساساً عميقاً بحيوية المدينة وقدرتها على القيام بما تريد دون أن تحسب لقريش أى حساب . فقد كان رسول الله ﷺ قد وجد وجداً شديداً على عاصم بن ثابت وأصحابه ، وهم الذين استشهد معظمهم وأُسِر بعضهم فى سرية الرجيع (صفر سنة ٤هـ/ يوليو ٦٢٥م) وهم جماعة مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، فخرج فى مائتى رجل من أصحابه معهم عشرون فرساً - وخرج بهم حتى وصل إلى بطن غران حيث كانت مصارع أصحابه فترحم عليهم ، وكان خبيب بن عدى وزيد بن الدَّثِنَّة من جماعة بعث الرجيع أسيرين فى مكة ؛ لأن اللحيانيين الذين غدروا بالبعث باعوهما من أهل مكة فابتاع خبيباً حيى ابن إهاب بثمانين مثقالاً ، وأما زيد بن الدثنة فقد اشتراه صفوَان بن خلف من قتلى بدر .

فأما خبيب بن عدى فقد حُبِس فى بيت امرأة يقال لها ماوية مولاة لبنى عبد مناف ، وأما زيد بن الدثنة فقد حُبِس عند ناس من جمح ، وتلك ظاهرة جديدة علينا من ظواهر تنظيم مكة ، فها هم المكيون يشترون اثنين من أعدائهم ليقتلوهما ببعض من قُتِل منهم فى بدر ، وقد اشتروهما من بدو بنى لحيان الذين غدروهم ، وكان أولئك الأعراب قد دبروا خداع رسول الله ﷺ ، فبعثوا إليه من يعلن حاجتهم إلى من يعلمهم الدين ، وكان غرضهم الحقيقى أن يأسروا من يستطيعون أسره من صحابة رسول الله ﷺ فيصيبوا بهم ثمناً . وهذا هو الذى حدث : غُرِّر المسلمون وقُتِل عامتهم إلا خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة فاشترتها قريش ، وكان الذى تولى ذلك صفوان ابن أمية .

وهذا الخبر نخرج منه بحقيقتين تتعلقان بأحوال قريش فى الفترة بعد أُحُد ، فهى تشعر أنها لم تصل إلى ما تريد من الانتقام من المسلمين ، وبدلاً من أن تواجه المسلمين فى معركة صريحة ، تتواطأ مع الأعراب لتنال بالغدر ما لم تنل بالقتال لأنها كانت تشعر أنها أضعف من المسلمين ولا تثبت لهم فى لقاء .

والحقيقة الثانية هى احتجاز الأسرى عند قوم من المجاهيل حتى يحين موعد قتلهم ، فلماذا لم يحتجز صفوان خبيباً فى داره مقيداً بالأغلال ؟ ولماذا يدعه فى بيت ماوية التى ذكرناها ؟ ومن الممكن تفسير حجز عبد الله بن الدثنة عند ناس من جمح بأن جمحاً قوم صفوان وهو كان إذ ذاك رئيسهم .

وقد تجمعت قريش لشهود قتل خبيب ، والمشهد نفسه ينم عن نفسية قريش إذ ذاك ، قال الواقدى : « فأخرجوه (خبيب بن عدى) بالحديد حتى انتهوا به إلى التنعيم، وخرج معه النساء والصبيان والعبيد وجماعة من أهل مكة ، فلم يتخلف أحد : إما موتور فهو يريد أن يتشافى بالنظر من وتره ، وإما غير موتور فهو مخالف للإسلام وأهله . فلما انتهوا به إلى التنعيم ، ومعه زيد بن الدثنة ، فأمروا بخشبة طويلة ، فحفر لها ، فلما انتهوا بخبيب إلى خشبته قال : هل أنتم تاركىَّ فأصلى ركعتين ؟ قالوا : نعم ، فركع ركعتين أتمهما من غير أن يُطوِّل فيهما »[1] ..

وهذا المشهد فى ذاته ينطق بتهافت همم القرشيين ، فكل الذى استطاعوه هو أن يشتروا من الأعراب اثنين من المسلمين ويقتلوهما على هذه الصورة الأليمة . وموقف خبيب بن عدى يوم استشهاده كان رمزاً على القوة المعنوية الرفيعة التى كان عليها المسلمون إذ ذاك ، فقد استقبل الموت مستبشراً حتى إنه لم يُطِلْ صلاته خشية أن تظن قريش أنه جزع من الموت ، وقد أرادت قريش أن تفتنه عن دينه فأبى فى عزة وإيمان . والحوار بين القرشيين وبينه يتجلى لنا حروفاً من نور ينبىء عن روعة الإسلام .

قال الواقدى : « قالوا (يريد رواته) : فلما صلى الركعتين حملوه إلى الخشبة ، ثم وجَّهوه إلى المدينة وأوثقوه رباطاً ثم قالوا : ارجع عن الإسلام نُخَلِّ سبيلك .

(١) الواقدى ، مغازى : ١/ ٣٥٨ .

قال : لا والله وما أحب أنى رجعت عن الإسلام ، وأن لى ما فى الأرض جميعاً !

قالوا : أفتحب أن يكون محمد فى مكانك وأنت جالس فى بيتك ؟

قال : والله ما أحب أن يُشَاكَ محمد بشوكة ، وأنا جالس فى بيتى .

فجعلوا يقولون : ارجع يا خبيب !

قال : لا أرجع أبداً !

قالوا : أما واللات والعزى ، لئن لم تفعل لنقتلنك !

فقال : إن قَتْلى فى الله لقليل » [(١)] .

وقد أعطى القرشيون غلماناً من أبناء من قُتِل ببدر حراباً وأمروهم أن يطعنوا خبيباً ففعلوا . ولم يقتلوه بطعناتهم وإنما زادوا ألمه ، وقد حكى واحد من الغلمان وهو عقبة ابن الحارث بن عامر ، وكان من أولئك الغلمان ، فقال فيما بعد : « والله ما أنا قتلت خبيباً ، إن كنت يومئذ لغلاماً صغيراً ، ولكن رجلاً من بنى عبد الدار ، يقال له أبو ميسرة عوف بن السباق أخذ بيدى فوضعها على الحربة ، ثم أمسك بيدى ، ثم جعل يطعن بيده حتى قتله » [(٢)] .

والمشهد نفسه يدل على تردِّى قريش ونسيانها تقاليدها القديمة ، فهذه ليست قريشاً العزيزة التى عرفناها قبل الإسلام ، ولكن الحقد وعمى البصيرة والشعور بالضعف هبط بالقرشيين إلى ذلك المستوى ، ويتأكد لنا هذا المعنى إذا قرأنا الواقدى : وكان الذين أجلبوا على قتل خبيب ، عكرمة بن أبى جهل ، وسعيد بن عبد الله بن قيس ، والأخنس بن شريق .

وأما زيد بن الدثنة ، فقد جعل صفوان بن أمية غلامه نسطاس يقتله ، وكان قد ثبت ثبات صاحبه وأذهل القرشيين بثباته وإخلاصه لدينه وحبه لنبيه ، وفى ذلك يقول الأخنس بن شريق: « ما رأينا والداً قط يجد بولده ما يجد أصحاب محمد بمحمد ﷺ» .

(١) الواقدى ، مغازى : ١/ ٣٦٠ .
(٢) الواقدى ، مغازى : ١/ ٣٦١ .

ورغم الشرك والحقد فقد تأثر الكثيرون من القرشيين بمشهد استشهاد خبيب وابن الدثنة ، ويرد الكثيرون منهم ذلك إلى خوفهم من دعوة خبيب بن عدى ، لأن خبيباً قبل أن يموت دعا على قريش فقال : اللهم احصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحداً ! فأرعبتهم فيما زعموا تلك الدعوة ، ولكننا نقول : إنها رهبة هذا المشهد . ويهمنا هنا أن نذكر ما قاله معاوية بن أبى سفيان ، وكان قد حضر المشهد وهو صبى ، قال : لقد حضرت دعوته (دعوة خبيب) ولقد جبذنى يومئذ أبو سفيان جبذة ، فسقطت على عَجُب ذنبى (آخر عموده الفقرى) فلم أزل أشتكى السقطة زماناً ، فكأن أبا سفيان روّعه المشهد فلم يحب أن يشهده ابنه فجبذه وألقاه على الأرض . وكان أبو سفيان لا يشارك قريشاً فى تلك العداوة العمياء .

وستسترد قريش شعور الإنسانية بعد أن تسلم ، فعكرمة بن أبى جهل مثلاً ، الذى كان من أكبر الداعين إلى هذه البشاعة ، سيحارب فى سبيل الإسلام فى بسالة وطلباً للشهادة حتى ينالها ، وصفوان بن أمية أسلم وهاجر إلى المدينة وحَسُن إسلامه .

ونعود إلى غزوة بنى لحيان التى استطردنا عنها ، فنقول : إن تفاصيلها تدل على ضعف لقريش بالغ ، وعجز منها عن مواجهة الإسلام بَيِّن . وهذه الغزاة كان قد دفع إليها وجد رسول الله ﷺ لما أصاب أصحاب الرجيع وخاصة من أُسِر منهم فى مكة ، فأراد - وخبيب وزيد بن الدثنة لا زالا فى الأسر - أن يعاقب أعراب لحيان الذين فعلوا بأصحابه ذلك ، فخرج فى مائتين من أصحابه فيهم عشرون فارساً ، وأغذَّ السير حتى بلغ إلى بطن غران حيث استشهد أصحاب بئر معونة ، ثم مضى حتى بلغ عسفان على أبواب مكة ليرى القرشيون أنهم وبلدهم فى متناول يده ، وكان ذلك فى الشهر الحرام ولم يكن رسول الله ليفتح مكة على أهلها فيه ، ولكنه وقف عند عسفان ، ثم نادى أبا بكر فأرسله فى جماعة حتى أتى كراع الغميم فلم يجد من قريش حركة ، وقد أمسكهم الخوف من الخروج إليه ، وقال رسول الله ﷺ : إن ذلك يبلغ قريشاً فيذعرهم ويخافون أن نكون نريدهم ، وما كان الرسول ليتجاوز هذا فى الشهر الحرام ، ولو أراد أن يرهب قريشاً حتى تفرج عن صاحبيه لفعل ، ولكنه ﷺ كان يرى أن وقت مكة لم يَحِنْ بعد ، وأنه لو تهددهم فربما وقعت حرب ومات فيها كثيرون ونال

مكة ضرر بالغ ، وما كان يريد ذلك ، ثم إنه ﷺ كان لا يفعل شيئاً إلا وفق خطة مرسومة ، فاكتفى بذلك وعاد ، وإن كان القرشيون قد خافوا فعلاً ، ولكنهم سكتوا حتى انصرف عنهم إلى المدينة ، وهنا تحركوا وقتلوا خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة .

وقد حدثت بعد ذلك غزوة الغابة (ربيع ثانٍ سنة ٦ هـ/ أغسطس ٦٢٧م) . وكان الدافع إليها أن عيينة بن حصن وقد رأى أنه اشترك فى الخندق وعاد بصفقة الخاسر - يستطيع أن يمارس مع المدينة غارات البدو ، فأغار على سرح المدينة من ناحية الشمال وسرق هو وأربعون من أصحابه عدداً من لقاح رسول الله ﷺ ، بلغ عشرين لقحة ، واللقحة الناقة الحامل ذات اللبن ، وكان ذلك يوم ثلاثاء وفى يوم الأربعاء التالى كان الرسول ﷺ على صهوة جواده فى إثر الغزاة ، وكان أبو ذر الغفارى وابنه ينامان مع إبل الحمى وحذره الرسول من ذلك ، فلما كانت غارة عيينة قتل ابن أبى ذر ، ويستوقف نظرنا هنا حسن استعداد المدينة لمثل هذه الطارئة ومبادرتها لإدراك السُّرَّاق.

وكان عيينة ينوى أن ينهب إبلاً لعبد الرحمن بن عوف فأخطأ وأغار على لقاح الرسول فى الليل ، فما كاد يفوز بمغنمه حتى وجد رجال المدينة فى أعقابه ، وقد عقد الرسول لواء للمقداد بن عمرو وأمره بطلب الغزاة حتى يلحق به فى أصحابه ، وفى تفاصيل هذه الغارة من نجدة المسلمين واستبلاغهم فى الجهد ما يدعو إلى العجب . فهذا المقداد بن عمرو يعدو حتى يدرك مؤخرة اللصوص ويقتل منهم رجلاً يسمى مسعدة ، ولا يريد أن يشغل نفسه فيغطيه ببُرْده ليعرف أن سلبه له ثم يواصل الطرد ، ويلحق به أبو قتادة ثم سلمة بن الأكوع هذا العدَّاء الرامى الذى يسبق الخيل ويرمى فلا يخطىء ، ثم يلحق بهم الرسول ﷺ فى الناس ، ويحسُّ عيينة بن حصن أنه تعرض لما لا يستطيعه فيجدّ فى الهرب وهو يرجو أن ينجو من أيدى المسلمين ، ويقتل ابنه فى الطرد ، ويرى من نجدة المسلمين ما لا يجعله يفكر فى أن يفعل مثل هذه الفعلة أبداً ، فهذا المقداد بن عمرو وذاك محرز بن نضلة وثالث هو عكاشة بن محصن ومن الأنصار سعد بن زيد وهو أميرهم فى هذه الغزاة ، وينجو عيينة بجلده ولكنه يفقد ولده ويقتل ثلاثة من رجاله ويستعيد المسلمون من اللقاح عشرة ، وهذا أمر لم تكن الأعراب

تعرفه : أن يلحقهم من يُغيرون عليه ويطردهم هذا الطرد ويستعيد منهم نصف المسروق ويلجئهم إلى الإسراع إلى عقر منازلهم .

وكان هذا آخر ما حاوله ذلك الإعرابى الجلف عيينة قبل خيبر ، بل إن هذا الدرس الذى تلقاه فى غزوة الغابة هو الذى أوقفه وشَلَّ حركته فى خيبر ، فلم يجرؤ على إنجاد أحلافه من يهود خيبر ، وسقطت خيبر وهو ينظر ، وعندما سقطت انتهت فى نفس الوقت قوة غطفان وكُسِرت شوكتها ، فإن خيبر كانت مركزها العمرانى ، وبدون مركز عمرانى لا تعمر جماعة بدوية طويلاً ، وهذا هو الذى جعل عيينة بعد خيبر يتجه إلى المدينة طائعاً صاغراً هذه المرة لأن رسول الله عرف كيف يذعره ثم يقص جناحيه ، وسيسلم هذا الرجل إسلاماً سطحياً ولكن الرسول يقبله ، لأنه لم يكن ينظر إلى عيينة بذاته بل إلى غطفان وهى قبيل من العرب عظيم .

فإذا كان عيينة قد أسلم على حرف ، فإن معظم غطفان أسلموا عن قلب ، وهذا هو لباب الأمر ، وإن الإنسان لا يملك وهو يتأمل تصرف الرسول ﷺ إلا أن يقضى عجباً من رجاحة عقله وحسن تقديره العجيب ، فإنه يرسل عيينة هذا مع قومه من غطفان لإدخال أعراب تميم فى الإسلام ، والإعرابى لا يفله إلا أعرابى مثله ، وعلى يد عيينة وغطفان كان دخول تميم وغطريف تميم الإسلام ، وكانوا يحسبون أن ربك لم يخلق فى أرضه أعز منهم ولا أبلغ خطاباً ولا أحسن شعراً ، فانقادوا للإسلام وطاعوا وقد بهرتهم المعجزة من كل جانب!

وسبحان من اصطفى محمداً لأعظم رسالاته فنهض بها نهوضاً يفوق المأمول فى أنظارنا ، ولكن الله سبحانه وتعالى أعرف حيث يضع رسالاته ، تعالى جَدُّه وجل جلاله ، ولا معبود سواه .

فَتح خَيبَر :

تعتبر الفترة القصيرة الممتدة من غزوة الخندق أو الأحزاب (ذو القعدة سنة ٥هـ/ أبريل ٦٢٧م) وفتح خيبر (سنة ٧هـ/ يونيو ٦٢٨م) من أحفل فترات السيرة بالتوفيقات للإسلام وأهله والتغيرات الحاسمة فى الحجاز ونجد وشمال شبه الجزيرة

كله . فإن رسول الله ﷺ رأى أن انكسار الأحزاب وانصرافهم عن مكة نهاية القوة الفعلية لقريش ، وأن خير ما يفعله معها هو أن يدعها وشأنها دون أن يزيد فى التضييق عليها حتى تُلقى بيدها طائعة ، فقد توقفت تجارتها أو كادت ، وتوقفت كذلك ركبان الحجيج إلى الكعبة وتعطلت الأسواق فلم يعد يرتاد عكاظ وذا المجاز ومجنة إلا جماعات قلائل من أعراب الحيرة يمتازون فيها بما يتيسر لهم ، وتوقفت النجدية وركدت رياح مراكز كانت عامرة بالحركة والنشاط مثل قرن منازل وغمر ذى كندة وذات عرق وغيرها مما كان من قبل عامراً بالحركة ، ويتوقف نشاط الطريق النجدية بعد توقف الجادة ، وهى طريق التجارة الرئيسية من اليمن إلى مكة إلى الحيرة ، وأحست قبائل شمال الحجاز ووسط شبه الجزيرة بأنها تختنق ، فهذه الطرق كانت الشرايين التى تصلها بالدنيا خارج منازلها وكانت كذلك مصدر السلاح والماعون لها، فبدأ ينتابها ذلك القلق الذى ينتاب جماعات البشر عندما تستشعر خطراً على المصير .

وكانت أكثر القبائل قلقاً هى قبائل أعراب أطراف نجد من أمثال سليم ومحارب ولحيان وعضل والقارة ، وكلها من أصاغر قبائل مضر بن قيس عيلان ، وأما كبار قبائل الأعراب من مثل غطفان وهوازن فقد زاد اضطرابها وقلقها ، لأن إحساسها بالخطر كان أكبر ، وغطفان بالذات أحست أنها ضُرِبت ضربة أليمة بانهزام الأحزاب ، وقد كانت هى منها ، ولكنها تصرفت أثناءها تصرفاً ضعيفاً بدائياً مخادعاً ، وظنت أنها تكسب بأساليب الأعاريب ، ولكنها عندما عادت إلى منازلها أحست بأن خسارتها أفدح من خسارة قريش ، وهذا فى الغالب هو الذى دفع بعيينة بن حصن إلى اقتراف حماقة الإغارة على سرح المدينة وسرقة عشرين لقحة من لقاح حمى رسول الله ﷺ ، فعرف الرسول كيف يعاقبه على تلك الجناية التى اقترفها فى أرض الإسلام ، وذلك فى غزوة الغابة وقد ذكرناها ، وقد رأى عيينة أثناءها من عزم المدينة ومبادرتها وإحكام قيادتها ، وإخلاص رجالها ما أفزعه ففرَّ من منازل قبيلته محتمياً بتأييد خيبر وأهلها لا يكاد يريم من فرط الفزع .

ورأى الرسول أن يمهد أمر نواحى الشمال والشمال الشرقى ويزيل العقبات والأعداء من هناك ، وأحسب أن أمر خيبر تقرر فى خطة الرسول صلوات الله عليه ووضعها فى حيث تكون من توقيت التنفيذ .

وبدأ الرسول فأرسل عكاشة بن محصن فى سرية الغمر أو غمر ذى كندة ، وكانت من منازل الطريق النجدية الكبرى وحولها أعاريب شتى من محارب ولحيان فأزعجتهم الغارة عن منازلهم وأزاحتهم عن الطريق (ربيع الأول سنة ٦هـ/ أغسطس سبتمبر ٦٢٧م) ، ثم أرسل محمد بن مسلمة فى عشرة أنفار إلى بنى ثعلبة وبنى عوال عند ذى القصة على شاطىء البحر فتجمع عليهم الأعراب وقتلوا منهم ثلاثة ، وكادوا يقتلون محمد بن مسلمة (ربيع الآخر سنة ٦هـ/ أغسطس - سبتمبر ٦٢٧م) وبادر الرسول فى نفس الشهر فأرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح ليؤدب بنى ثعلبة وأخلافهم من أنمار ، ففروا أمامه واستاق المسلمون ماظفروا به من نعمهم .

وفى الشهر التالى ، (جمادى الأول سنة ٦هـ / سبتمبر ٦٢٧م) حاولت قريش أن تسير عيراً لها إلى الشام عن طريق النجدية فبادر الرسول ﷺ وبعث زيد بن حارثة فى سبعين ومائة راكب لانتظارها عند العيص فى طريق العودة . وتلك أول مرة نسمع فيها أن القوة العسكرية للمدينة ضمَّت هذا العدد الكبير من الفرسان، فأخذ المسلمون العير بما فيها « وأخذوا يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية ، وأسروا ناساً ممن كان فى العير معهم ، منهم أبو العاصى بن الربيع »[1] وتلك هى المناسبة التى أعلن فيها أبو العاصى بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ إسلامه فى خبر معروف ، فقد ذهب إلى مكة فأدى ما عليه من الحقوق وأعلن إسلامه ، ثم لحق بالمدينة حيث رده رسول الله على زوجه .

والذى يهمنا هنا هى يقظة الرسول ﷺ وحرصه على أن يضيق الحصار على قريش تعجيلاً لانضمامها للإسلام . وجدير بالملاحظة أن الواقدى يقول : « ويقال إن هذه العير أخذت طريق العراق ودليلها فرات بن حيان العجلى »[2] وهو الخبير بطريق العراق وهو كان الذى قاد سرية ذى قرد التى أقفلت طريق العراق دون المكيين على ما ذكرناه .. ثم إن قريشاً تلقت هذه الضربة ولم تتحرك مما يدل على بالغ ضعفها وعجزها أمام المدينة .

---

(١) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٥٥٣ .

(٢) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٥٥٤ .

وعقب ذلك أرسل الرسول زيدَ بن حارثة فى بعثة إلى الطرف وهو ماء على نحو ٣٦ ميلاً (حوالى ٦٥ك.م) شمالى المدينة ، ليزيد فى أدب بنى ثعلبة ولا تحدد المراجع من بنو ثعلبة المرادون هنا ، والغالب أن المراد بنو ثعلبة بن دودان بن أسد ، وهم أبناء عمومة بنى الهون بن خزيمة وهو القارة وبنى أسد بن خزيمة ، وكانوا جميعاً من أعراب أطراف نجد وكان معظمهم يدخلون ضمن أحابيش قريش وكان الرسول ﷺ حريصاً على أن يردهم إلى النظام والسكون بين الحين والحين ، فهؤلاء هم أعاريب مضر الذين كانوا يعيشون على النهب والغارة ، وكان لا بد من إدخالهم فى العصر الجديد ونظامه ، وبنو ثعلبة هؤلاء هم أصحاب الثعلبية ، وهى واحة صغيرة على الطريق بين مكة والكوفة فى مداخل نجد .

ثم تكون سرية زيد بن حارثة إلى حِسْمَى فى جمادى الآخرة سنة ٦هـ/ أكتوبر – نوفمبر ٦٢٧م . وهى سرية حافلة بالأحداث والمعانى ، وقد أشبعنا الكلام فيها فى سيرة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه . والذى يهمنا منها هنا أن أهل هذا الإقليم حِسْمَى ، ويقع شرقى خليج العقبة ، دخلوا الإسلام وطاع كل من فيه للمدينة بعد ضربة موجعة قام بها زيد بن حارثة ، وعندما أعلن القوم إسلامهم واختبرهم زيد بن حارثة بقراءة أم الكتاب ، أمر الرسول بأن يرد عليهم ما أخذ من سبيهم عدا القتلى الذين تنازلت القبائل الضاربة هناك عن حقها فى دياتهم ، وفيها من غطفان وبنى عذرة ووائل وسلامان وبهراء . وكان الذى أعلن هذا التنازل أبو زيد رفاعة بن زيد الذى أخذ كتاب أمان من رسول الله ﷺ ، وقد كانت الغنيمة وافرة فى هذه السرية : ألف بعير وخمسمائة شاة ، ولم تكن المدينة بحاجة إلى ذلك ، ولكن الأعراب لا يرجعون إلى رشدهم إلا بمثل هذه الضربات .

وفى سياق هذه البعوث التى كان الرسول يبعث بها إلى الشمال ، نجد رسول الله يبعث عبد الرحمن بن عوف فى بعث عدته ٧٠٠ رجل إلى دومة الجندل (شعبان سنة ٦هـ / ديسمبر ٦٢٧-يناير ٦٢٨م) وهذا جيش كبير ، وقد سبقته سرية مماثلة إلى وادى القرى مكَّنت للمسلمين من ذلك الموقع الرئيسى على الطريق إلى الشمال .

فأما سرية عبد الرحمن بن عوف هذه إلى دومة الجندل فتدلنا على بُعْد نظر الرسول ﷺ وترابط خطواته ومراحل أعماله ، فهو إلى الآن لم يستول على خيبر ، أم مراكز شمال وسط الجزيرة ، ولكنه يريد أن تكون دومة الجندل فى يده حتى إذا اتجه إلى خيبر كان واثقاً من أن أحداً لن يعينها أو يعين أهلها . ولا ننسى كذلك أن مكة كانت على خريطة أعمال الرسول ، ولكنه الآن يستوثق من الأقاصى لتتيسر الأدانى ، كانت دومة كأنها إمارة ، وكان فى أهلها نصارى كثيرون ممن يدخلون فيمن يُعرفون فى نصوصنا بعرب الضاحية ، والمراد ضاحية قضاعة وهم عرب الأطراف ، وهم غير عرب الروم من أمثال غسان وأهل البلقاء .

والطريقة التى أرسل بها الرسول صلوات الله عليه هذه السرية تستوقف النظر ، فهو يستدعى عبد الرحمن بن عوف ويقول له : وتجهز فإننى باعثك فى سرية من يومك هذا أو من غد إن شاء الله ، ويصدع عبد الرحمن بالأمر ، ولكنه يحب قبل أن يخرج أن يصلى مع الرسول فى المسجد ، وكان أصحابه قد سبقوه إلى الخروج وانتظروه عند الجرف من شمالى المدينة . ويقول له الرسول : ما خلفك عن أصحابك ؟ قال ابن عمر : وقد مضى أصحابه فى السحر فهم معسكرون بالجرف ، وكانوا سبعمائة نفر فقال : « أحببتُ يا رسول الله أن يكون آخر عهدى بك وعلىّ ثياب سفرى » وتسأل الآن : من الذى أمر أولئك الرجال وهم سبعمائة بالخروج من السَّحَر ، مع أن الرسول لم يأمر عبد الرحمن بن عوف إلا الأمس ؟ لا بد أنه كان هناك تنظيم وينفذ أوامر الرسول ، فهؤلاء الرجال لا بد أن يكونوا قد خرجوا على أمر ، ولا بد أن الرسول قبل أن يختار الأمر أمر من رآه من أصحابه ليعد – أو ليعدوا – الناس ، وهذه نواحٍ من التنظيم النبوى تغيب عن أنظار الكثيرين ، فهم يرون كل شىء يسير بنظام ودقة وحُسْن استعداد فيأخذون ذلك على أنه يتم من تلقاء نفسه دون أن يكون وراءه إعداد وتنظيم . وهل يخرج جيش كهذا إلا على استعداد وتعبئة ؟ وهل يترك واحد منهم بيته وأهله إلا إذا كان وراءه من قادة الأمة من يرعاهم أثناء غيابه .

ثم انظر إلى رسول الله ﷺ يعمم بيده عبد الرحمن بن عوف قبل خروجه : « وعلى عبد الرحمن بن عوف عمامة قد لَفَّها على رأسه . قال ابن عمر : فدعاه النبى ﷺ فأقعده

بين يديه ، فنقض عمامته بيده ، ثم عممه بعمامة سوداء ، فأرخى بين كتفيه منها ، ثم قال : هكذا فاعتم يا ابن عوف »[1] .

ثم تأمل التوجيه الرفيع الذى يكشف عن لباب دعوة الإسلام ، فإن رسول الله ﷺ يقول لعبد الرحمن بن عوف : اغز باسم الله ، وفى سبيل الله فقاتل من كفر بالله ، لا تغُلَّ ولا تغدر ولا تقتل وليداً[2] فالرسول هنا يعد قادته شكلاً وموضوعاً ، لباساً وروحاً ، وحتى لو قلنا : إن حكاية العمامة السوداء إضافة عباسية أتت فيما بعد فيبقى هذا الأسلوب الرفيع فى إعداد الرسول لأمته وقادتها .

وقد تركنا وراءنا قريشاً فى مكة محصورة مُضيَّقاً عليها مأخوذة عليها الطريق كأن زمانها ولَّى وفات ، ولكننا ننسى فى هذا السياق أن الرسول ﷺ من قريش ، وعبد الرحمن بن عوف من قريش ، وكذلك أبو بكر وعمر وبقية معظم قادة أمة الإسلام ، فهذه إذن قريش الجديدة تُولد فى ظل الإسلام بينما قريش الكافرة تموت فى شعاب مكة ، وهذا أروع شىء فى تاريخ قريش : لقد ماتت وولدت فى آن معاً ، وسبحان ربك بارىء الكون يُخرِج الحى من الميت ، ويُخرِج الميت من الحى .

إن قريشاً الابنة التى وُلِدَتْ فى نور الإسلام ونمت فى دفئه تتخطى أمها طولاً وعرضاً ، وتحنو عليها وتأسى لحالها ، ورسول الله ﷺ يرعى قريشاً الوليدة بهذه الروح الرفيعة وينظر إلى الغد ، يوم تفتح البنت العفية ذراعيها لتتلقى فى ذراعيها الأم المريضة المتعبة التى أعياها الخوف وشلل الذهن وتوقف الفكر ووَقْر السمع وعمى البصر ، وتهدهدها فى رفق وتسجيها وتفتح ذراعيها المنضامتين المتخشبتين على صدرها ، لينطلق أبناؤها الصغار الذين كادت تقتلهم فى حضنها ، لينطلقوا ويقفوا إلى جوار إخوانهم الذين سبقوهم وتبوأوا الدار والإيمان ، تُرى هل يكون هذا معنى جديد نستنبطه من قول الرسول صلوات الله عليه يوم فتح مكة : اذهبوا فأنتم الطلقاء؟

ولكننا لا نريد أن ننقل من الآن إلى تتبع تاريخ قريش الوليدة ، قريش الإسلام

(١) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٥٦٠-٥٦١.
(٢) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٥٦١ .

مخافة أن تأخذنا السيرة النبوية بفتنتها فننسى قريشاً الأم ، قريشاً الوثنية ، فلنعد إليها ولنمضِ معها حتى تلتقى القريشان عند فتح مكة .

ونستكمل خبر سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل لنتابع شهود التحول العام فى جزيرة العرب أثناء صراع القرشيين ، فنجد ابن عوف يصل إلى دومة الجندل وعلى رأسها رجل يسمى الأصبغ بن عمرو الكلبى ، وكان نصرانياً ، وقد فكر أول الأمر أن يقاوم المسلمين بالسيف ثم عاد إلى رشده فدخل الإسلام وطاع لأُمَّته وكتب عبد الرحمن إلى رسول الله ﷺ بذلك . وقال إنه يرغب فى الزواج منهم ، فكتب رسول الله إليه : إذا استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم أو سيدهم ، ففعل وتزوج تماضر بنت الأصبغ بن عمرو ملكهم ، وواضح أن رسول الله أراد بذلك أن يرتبط رئيس دومة الجندل بواحد من كبار المسلمين برابطة العهد ، فيكون ذلك مؤيداً لإسلامه وإسلام قومه . وقد أنجب عبد الرحمن من تماضر ابنه أبا سلمة ، وأصبح هذا الموقع المتطرف إلى الشمال من شبه الجزيرة من دار الإسلام ، وانقطع أمل قريش فى أن يكون لها فيه حلف أو قوة أو عون .

ويبدو أن أوان دخول خيبر فى دار الإسلام كان قد اقترب فى تقدير رسول الله ﷺ. وقد سبق أن أشرنا إلى أن خطواته كلها كانت مقدرة بحساب على أساس خطة عامة تؤدى إلى دخول شبه الجزيرة كله فى الإسلام ، لتكون بعد ذلك قاعدة لنشر الإسلام فى الخافقين ، ويبدو أن بعض زعماء العرب شعروا بذلك فقد كان أولئك الزعماء نتيجة لحياة التحدى الدائم الذى كانت قبائلهم تعيشه فى شبه الجزيرة ، كان عندهم حس موهف برياح الأحداث المقبلة قبل أن تعصف ، ويتجلى لنا ذلك فى حديث السرية التى بعثها رسول الله ﷺ يقودها على بن أبى طالب إلى بنى سعد بفدك فى (شعبان سنة ٦هـ/ ديسمبر ٦٢٧ -يناير ٦٢٨م) .

والأغلب أن بنى سعد المقصودين هنا هم بنو سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن كنانة ، فهؤلاء أبناء عمومة بنى ثعلبة بن دودان بن أسد أصحاب الثعلبية الواقعة إلى جنوب فدك فى الطريق من مكة إلى الكوفة ، وتلك هى الجهة التى توجَّه إليها على فى هذه السرية بأمر الرسول ﷺ ، وهم كذلك أبناء عمومة الهون بن خزيمة

ابن كنانة وهم القَارَة من كبار أعاريب نجد الذين تكلفت أمة الإسلام جهداً شاقاً فى ترويضهم وإدخالهم الإسلام ، وكان على رأس بنى سعد هؤلاء رجل يسمى وبر بن عليم .

وكان الرسول يتوقع أن يقوم بنو سعد بإمداد يهود خيبر فتعجل بإرسال علىّ إليهم ، وقد صدق تقدير الرسول لأن سرية على – وعِدَّتها مائة رجل – صادفت عند موضع يسمى الهَمَج (ماء بين خيبر وفدك) عيناً ليهود خيبر كانوا قد أرسلوه إلى بنى سعد فأرسل بنو سعد « يعرضون عليهم نصرهم على أن يجعلوا لهم من تمرهم كما جعلوا لغيرهم ويقدمون عليهم » ، وغيرهم المقصودون هنا هم غطفان ، وعندما ضغط المسلمون على هذا الجاسوس أو الرسول أقر بحقيقة مهمته ، فأمَّنه المسلمون على أن يدلَّهم على منازل بنى سعد ففعل ، ونُذِر بنو سعد بالمسلمين ففروا على وجوههم تاركين نَعَمهم فأصاب منها المسلمون خمسمائة بعير وألف شاة .

وها هنا حكاية صغيرة تدل على ما بلغ إليه أمر أمة المدينة من القوة والهيبة فى شبه الجزيرة قبيل الحديبية وفتح خيبر . قال الواقدى فى المغازى : « حدثنى أُبير بن العلاء ، عن عيسى بن عُلَيْلة عن أبيه عن جده قال : إنى لبوادى الهمج إلى بديع[1] ما شعرت إلا ببنى سعد يحملون الظعن وهم هاربون ، فقلت : ما دهاهم اليوم ؟ فدنوت إليهم ، فلقيت رأسهم وبر بن عُليم ، فقلت : ما هذا المسير ؟ قال : الشر . سارت إلينا جموع محمد وما لا طاقة لنا به قبل أن نأخذ للحرب أُهبتها ، وقد أخذوا رسولاً لنا بعثناه إلى خيبر ، فأخبرهم خبرنا ، وهو صنع بنا ما صنع ! قلت : ومن هو ؟ قال : ابن أخى ، وما كنا نعد فى العرب فتى واحداً أجمع قلباً منه فقلت : إنى أرى أمر محمد أمراً قد أمن وغلظ : أوقع بقريش فصنع بهم ما صنع ، ثم أوقع بأهل الحصون بيثرب[2] ، قينقاع وبنى النضير وقريظة ، وهو سائر إلى هؤلاء بخيبر ، فقال لى وبر : لا تخش ذلك . إن بها (بخيبر) رجالاً وحصوناً منيعة وماء واتِناً (دائماً) لا دنا منهم محمد أبداً ، وما أحراهم أن يغزوه فى عقر داره ! فقلت : وترى ذلك ؟ قال : هو الرأى لهم فمكث على

(١) بديع : أرض من فدك .

(٢) أهل الحصون بيثرب هم يهود بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة كما يتضح من النص . وقد ذكر السمهودى فى وفاء الوفاء ٣٠ أطماً للأوس والخزرج و ٥٩ أطماً لهؤلاء اليهود .

عليه السلام ثلاثاً ، ثم قسم الغنائم ، وعزل الخمس وصَفَّى النبى ﷺ لقوحاً تدعى الحِفِدَة قدم بها »[1].

وفى حديث سرية أُمِّ قِرْفةِ التى كانت فى رمضان سنة ٦هـ/ يناير - فبراير ٦٢٨م . نرى شيئاً جديداً وهو أن المدينة الآن هى التى تتولى أمر تجارة نفسها دون أن تلقى بالاً إلى مكة ، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير ، لأن القبائل على الطريق وخاصة غطفان وبطونها تعودت أن تتولى مكة هذه التجارة ، وتمنح القبائل إتاوات وخفارات . أما المدينة فلا تعطى شيئاً ، إنما هى تريد أن تسير تجارتها آمنة بين القبائل بالهيبة والحق ، لأن أداء الإتاوات للبدو الكفار غير جائز ، ولو كانوا مسلمين فربما لم يكن فى ذلك بأس ، ففيه معايش لأعراب فقراء فى حاجة إلى المعونة ، أما أن يظلوا كفاراً وحلفاء كفار فلا سبيل إلى أن ينالوا شيئاً ، وما دامت المدينة لا تؤدى شيئاً فلا بد من الغارة على متاجرها وتجارها .

وقد سبق أن اعتدى نفر من جذام ضاربون بناحية حِسْمَى على دحية الكلبى صاحب رسول الله ﷺ وهو عائد من بلاد الروم فى شعبان سنة ٦ هـ . وخلَّصه منهم نفر من بنى الضبيب كانوا أحلافاً للمدينة ، وقد خاف الجذاميون من مغبَّة ذلك فوفد منهم على رسول الله ﷺ وفد على رأسه رفاعة بن زيد الجذامى فأسلموا وكتب لهم النبى كتاباً أورد لنا الواقدى نصه وهوَ : « بسم الله الرحمن الرحيم . لرفاعة بن زيد إلى قومه عامة وَمَنْ دخل معهم يدعوهم إلى الله ورسوله ، فمن أقبل منهم فهو من حزب الله وحزب رسوله ، ومن ارتد فله أمان شهرين » ثم يستطرد الواقدى فيقول : « فلما قدم رفاعة على قومه بكتاب النبى ﷺ قرأه عليهم ، فأجابوه وأسرعوا . ونفذوا إلى مصاب دحية الكلبى ، فوجدوا أصحابه قد تفرقوا »[2] .

وما دام الإسلام قد كسب ركيزة فى حِسْمَى فقد بادر الرسول ﷺ إلى إتمام العمل بتأديب من اعتدوا على المسلمين - متمثلين فى شخص دحية - وهم قوم من جذام ومن انضم إليهم من فزارة وبطون أخرى من غطفان ، كان لا يرضيهم أن تمر تجارة

---

(١) المغازى : ٢/ ٥٦٣ .

(٢) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٥٥٧ والمراد بمصاب دحية المكان الذى أصيب فيه .

المسلمين ورجالهم دون إتاوة يؤدونها لهم غير عالمين أن نظاماً جديداً قد قام ، وأن عهد الإتاوات قد انتهى وحل محله عهد سلام الإسلام pox islamica وعماده الدخول فى الإسلام ، ومن لم يدخل فيه فأمامه شهران مهلة ليروى الأمر كما جاء فى كتاب رسول الله ﷺ لرفاعة بن زيد الجذامى .

وكان رسول الله قد أراد أن يكمل العمل بالسيطرة على بقية الأعراب الذين ينزلون فى أطراف نجد على الطريق إلى العراق ، فأرسل زيد بن حارثة فى خمسمائة رجل قبل ذلك فى جمادى الآخرة سنة ٦ ، لكى ينظروا فى أمر غطفان ووائل ومن جاورهم من سلامان [١] وبهراء بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، فاستعان زيد بدليل من بنى عذرة أخرجه على منازل القوم من خلف ، فأغار زيد وأصحابه عليهم وقتلوا نفراً من بنى سعد هُذيم وقتلوا الهنيد وابنه اللذين قادا العدوان على المسلمين وأغاروا على نَعَمهم وغنموا ألف بعير وخمسة آلاف شاة ومن النساء مائة من النساء والصبيان، فرجع بقية القوم ممن كانوا دخلوا فى الإسلام مع رفاعة بن زيد الجذامى يقودهم حيان بن ملة ، فقالوا لزيد إنهم أسلموا ، فامتحن زيد رئيسهم حيان بقراءة أم الكتاب فلما قرأها صدق زيد إسلامه ، ثم أسرع نفر آخر من زعمائهم فيهم أبو زيد بن عمرو ، وأبو أسماء (وهو أيضاً أبو شماس) بن عمرو ، وسويد بن زيد وأخوه ، وبرذع بن زيد إلى رفاعة بن زيد يستغيثون به ، لأنه هو الذى أخذ أمان رسول الله ودخل هو وقومه فى الإسلام ، فسار معهم رفاعة حتى دخلوا المدينة ، ولقوا النبى ﷺ وقالوا إنهم أسلموا ، وطاعوا ، فقال رسول الله ﷺ : فما أصنع بالقتلى ؟ فطلب رفاعة أن يطلق لهم الرسول الأحياء ويتنازلون عن ديات القتلى ، ويرد عليهم ما غنم زيد بن حارثة منهم ، فقبل الرسول ونادى علىَّ بن أبى طالب رضى الله عنه لكى يبعثه إلى زيد بن حارثة .

وهاهنا ملاحظة ، فإن علياً قال لرسول الله : « يا رسول الله لا يطيعن زيد » وتلك عبارة تدل على أن زيداً لم يكن على وئام مع على ، وسنرى قرب وفاة الرسول ﷺ أن بقية كبار القرشيين من أصحاب رسول الله ، كانوا غير راضين عن زيد بن حارثة ،

---

(١) الغالب أن المراد هنا سلامان بن سعد هذيم من بنى أسلم بن الحاف بن قضاعة .

لا يعجبهم أن يقود السرايا من دونهم ، وكان الرسول كما سنرى يعلم ذلك بدليل أنه لم ينكر ما قال على ، بل أعطاه سيفه علامة . فلما وصل على إلى زيد وأبلغه رسالة رسول الله قال زيد : علامة من رسول الله ؟ قال علىّ : هذا سيف رسول الله فعرفه زيد وأمر بإطلاق أسرى القوم وسَبْيهم . فردَّ المسلمون من المغنم ما لم يكونوا قد تصرفوا فيه .

التمهيد للحُدَيبية :

من الواضح أن رسول الله ﷺ كان يمهد لخطوة حاسمة مع قريش بمكة ، وكان يرى أن يمهد لذلك بأن يُدخِل كل شمال شبه الجزيرة فى أمان الإسلام ، فمن دخل فيه راضياً فقد كرمه الله ، ومن أصر على الخلاف فلا بد من فتح بصيرته أو تنحيته عن طريق الإسلام أو أخذه بالعنف إن كان من أهل العنف والعدوان ، وكل السرايا والغزوات السابقة على عمرة الحديبية ، لم تخرج غاياتها عن هذه . وكان من البيِّن أن الأعراب لن يكفُّوا عن الغدر والعدوان إلا إذا أُخِذوا بعنف ، والأمر معهم لم يكن تأديباً أو انتقاماً أو عقاباً ، بل كان نقلة اجتماعية حضارية من البداوة والفوضى والعدوان على المسافرين أو القوافل واهتبال غِرَّة الحضر وحواشيهم ، مما كان أسلوبَ حياة وعُرْفاً جارياً عند الأعراب يقدمون عليه دون تفكير فى عقاب أو خوف من مغبة قصاص ، فعلى ذلك جُبِلوا وبه عاشوا ، وقبلهم الناس على هذا الوضع فصانعوهم بالأحلاف والإتاوات والخفارات والضربات العنيفة ما تيسر .

ولم تكن شريعة الإسلام أو أخلاقياته تسمح بالمصانعة على الباطل أو تشجيع أهل الغارة بالخوف منهم ومصانعتهم ، إنما هو تخييرهم بين الإسلام أو الكفّ عن العدوان ، فإذا لم يسلكوا هذا المسلك أو ذاك ، فهناك الضربات الموجعات التى ترد الجاهل إلى رشاده ، ويستمر الأمر على ذلك حتى يكون فتح مكة وتنزل سورة براءة ، ولا يقبل من الكفار بعد ذلك إلا الإسلام ويُعْطى المعارضين مهلة أربعة أشهر فى شبه الجزيرة ، فإما دخلوا فى الإسلام أو يأذنوا بحرب من الله ورسوله .

وكانت خيبر تعتبر عقبة كبيرة فى هذا السبيل ، ولم يكن هناك أمل فى أن يدخل يهودها فى الإسلام أو يكفوا عن الأذى ، فلم يبق إلا أن يقضى على مقاومتها وعنادها

وتدخل فى أمان أمة الإسلام ، وكان ذلك واضحاً لأهل المدينة وللأعراب من أحلاف خيبر ومصانعيها ولأهل خيبر أنفسهم ، وكان هؤلاء يجدون فى أنفسهم قوة تستعصى على الإسلام وأهله ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى لقوا أهل المدينة فى القتال ، فَفُلَّتْ مقاومتهم وخارت قواهم وألقوا بيد وهم صاغرون ، كما فعل بنو قريظة من قبل. وبسقوط خيبر ينكسر ظهر جماعة البدو الكبرى وهى غطفان ومن انضوى إليها. وتأمن المدينة من ناحية الشمال كله وتستطيع توجيه قواها كلها نحو مكة ، وهذا هو ملخص التطور السياسى والعسكرى والاجتماعى والدينى فى شمال شبه الجزيرة من نهاية معركة الخندق أو الأحزاب فى ذى القعدة سنة ٥هـ/ أبريل ٦٢٧ م حتى فتح مكة فى رمضان سنة ٨هـ/ يناير ٦٣٠ م .

وقد أتينا بأمثلة تؤيد ذلك كله فيما روينا من أخبار الغزوات والسرايا إلى الأعراب فى نجد وشمال شبه الجزيرة والحجاز ، وليس هنا موضع إحصاء هذه الغزوات والسرايا واحدة واحدة ، فهذا موضعه السيرة النبوية الشريفة ، وإنما أشرنا إلى ما أهمنا منها . ورأينا كيف توالت السرايا والغزوات : بعد بنى قريظة ذهبت سرية محمد بن مسلمة إلى القُرَطَاء وهم بطن من بنى بكر بن كلاب من هوازن ، وكانوا ينزلون البَكْرات فى نواحى ضَرِيَّة على بعد سبع ليال (= حوالى ٢١٠ كيلو مترات) من المدينة وعادت بغنيمة وافرة من الإبل والشياه ، ثم كانت سرية عبد الله بن عتيك بن قيس للقضاء على عدو لدود للإسلام والمسلمين من يهود بنى النضير الذين لجأوا إلى خيبر ، وهو أبو رافع سلام بن أبى الحقيق .

وقد أتت فكرة القضاء عليه من ناحية الخزرج ، فقد رأوا أن إخوانهم الأوس قد أزالوا من الطريق كعب بن الأشرف ، وكان عدواً للإسلام يهودياً ، فأرادوا أن يضاهوا إخوانهم فى خدمة الإسلام وأمته بالقضاء على أبى رافع سلام ، وكان معتصماً فى خيبر وكان واسع النشاط فى إيذاء الإسلام وأمته ، مجتهداً فى التحريض عليها ، فاستأذن نفر من الخزرج على رأسهم عبد الله بن عتيك بن قيس ، النبىَّ ﷺ فى القضاء على أبى رافع فى عقر بيته ، وكانوا خمسة نفر : أربعة من الخزرج وواحداً من موالى الخزرج وهو خزاعى بن أسود وهو من بنى أسلم الخزاعيين: والخزاعيون أبناء عمومة

الأوس والخزرج ، وإن كان ابن حزم ونفر آخر من النسَّابة قد جهدوا فى ربط خزاعة إلى شجرة عدنان عن طريق عك بن عدنان .

وفى أيام الرسول ﷺ كانت خزاعة كلها إلى جانب الأوس والخزرج ، وقد دخلت خزاعة فى الإسلام وأوعبت ، وكان لذلك فيها بعد أثر بعيد فى سير الحوادث فى تاريخ المسلمين. وقد استطاع أولئك النفر القليلون من الخزرج أن يقتحموا على أبى الحقيق داره داخل خيبر ويقضوا عليه فى بيته وبين أهله ، وكان الذى تولى قتله عبد الله بن أنيس رغم أنه كان ضعيف البصر جداً لا يكاد يرى فى الليل ، وقد قتله ليلاً وقد كُسِرت ساقه وهو ينزل السلم بعد أن قام بعمله ، وكان السلم عجلة أى جذعاً منقوراً على هيئة درجات السلم .

ثم تلا ذلك غزوة بنى لحيان ، وهم من الأعراب من مُضَر نجد ، وقد نُذِروا بمسير الرسول إليهم فتفرقوا فى الجبال . وفى هذه الغزاة نقرأ أن رسول الله ﷺ عندما أخطأه من غِرَّتِهم – بنى لحيان – ما أراد قال : لو أننا هبطنا عُسفان لرأى أهل مكة أنَّا قد جئنا مكة ، فخرج فى مائتى راكب من أصحابه حتى نزل عسفان ، ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كُرَاع الغميم ثم كرا ، وراح رسول الله ﷺ قافلاً ، فكان جابر بن عبد الله يقول : «سمعت رسول الله ﷺ يقول حين وجَّه أهل هذه السرية يدعو قائلاً : آيبون تائبون إن شاء الله ، لربنا حامدون . أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال »[1] . والحديث عن غزوة بنى لحيان عن عاصم بن عمر ابن قتادة وعبد الله بن أبى بكر بن مالك . وقال ابن سعد : « فبعث أبا بكر فى عشرة فوارس لتسمع به قريش ، فيذعرونهم ، فأتوا الغميم ثم رجعوا ولم يلقوا أحداً »[2] .

وقد روى الواقدى الخبر ببعض خلاف ، فقال : إن سبب خروج رسول الله لغزو بنى لحيان أنه وجد وجداً شديداً على عاصم بن ثابت وأصحابه ، وكانوا لا يزالون أسرى بيد القرشيين ، وكان الشهر شهر محرم ، فكانوا ينتظرون انسلاخ الشهر ليقتلوهم » ورواية الخبر على هذه الصورة لا تصح ، لأن رسول الله لو كان خرج

(١) هذه السرية لم تؤرخ وقد أسقطها بعض أصحاب المغازى .
(٢) رواه عن ابن سعد ابن سيد الناس فى عيون الأثر ٢/ ٨٣ .

ليستنقذ عاصم بن ثابت وخبيب بن عدى لفعل ، أما أن يجد وجداً شديداً عليهما ثم يكتفى بالوقوف عند عسفان وإرسال بعث صغير إلى كرام الغمام لمجرد إرهاب أهل مكة فتصرف لا يشبه تصرف رسول الله ﷺ ، وإنما الأصح ما يقوله ابن سعد ، وهو أن الغارة كانت وجهتها بنى لحيان ، فلما هربوا أراد رسول الله أن يختبر قوة قريش على رد الفعل ؛ لأنه كان يُقدِّر أنه خارج للعمرة عن قريب .

ويستوقف نظرنا هنا أن قريشاً لم تتحرك ، قعد بها الخوف عن التحرك ، ولا تحرك أحد من أحلافها ، وهذا يفسر لنا كل تصرف الرسول ﷺ فى غزوة الحديبية .. فقد خرج رسول الله وهو يعرف يقيناً أنه يذهب إلى بلد لا حول له ولا طول ، بلد فَقَدَ قوته ووقف عاجزاً لا يملك إلا بقية من عزة النفس ، ولهذا فقد خرج الرسول معتمراً بلا سلاح ، وحتى لو أنه أراد دخول مكة بالقوة فى هذه الحالة لدخل ، بل دهش بعض أصحابه لعدم دخوله ومنهم عمر بن الخطاب ، فلجَّ فى الكلام والاحتجاج حتى كاد يقع فى الخطأ ، والرسول صلوات الله عليه يصبر على ما يقول ولا يزيد على أن يقول : « إنى رسول الله والله لن يضيعنى » . وعندما أخذ الرسول بيعة الرضوان أخذها عندما سمع أن عثمان قد قُتِل ، ولو قتل عثمان لكانت الحرب ، ولكن عثمان لم يُقتل ، فانقضى التفكير فى الحرب ، ثم كانت المفاوضات ، وكان رسول الله فيها كريماً الكرم كله ، حليماً الحلم كله ، وكان أحرص على الحفاظ على كرامة قريش وماء وجهها من زعمائها ، فسلَّم لهم بكل ما رأوا أنه يحفظ لهم احترامهم وسط الناس ، واتفق معهم على أن يعود للعمرة من قابل .

وإذن : فقد كان لابد من هذا الاقتراب من مكة فى المحرم سنة ٦هـ/ يونيو ٦٢٧م. لكى تتم غزوة الحديبية كما تمت فى ذى القعدة من نفس العام / مارس ٦٢٨م. وإن القارىء للسيرة النبوية ليقرأ أن رسول الله قال بعد أن هرب بنو لحيان : لو أنَّا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أنَّا قد جئنا مكة « وكان قد اقترب منها فى مائتين فحسب من أصحابه ومن عسفان يبعث فارسين أو أبا بكر فى عشرة من أصحابه إلى كراع الغميم فلا يلقوا كيداً ، فيأمر بالعودة إلى المدينة وهو يقول : آيبون تائبون ... الخ» .

إن من يقرأ هذه الأخبار دون بصر بالسيرة فى جملتها ودون فهم للشخصية المحمدية لن يرى فى مثل هذا الخبر شيئاً ، وهو كما رأينا تصرُّف من الرسول محسوب مقصود ، إذ ما كان محمد ﷺ ليتحرك حركة مثل هذه دون حساب وتقدير ، وما كان ليقول شيئاً إلا وله معنى فى الصميم ، وهنا فقط نفهم نحن على ضوء التاريخ لماذا دعا محمد فى هذه المناسبة بالذات دعاءه المشهور آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون ، اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل ، اللهم أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى الأهل والمال ، اللهم بلِّغنا بلاغاً صالحاً يبلغ إلى خير ، مغفرة منك ورضواناً » .

هذا الدعاء الذى لم يعرف الواقدى وأصحابه كلهم عنه إلا أن محمداً قاله هنا أول مرة ، إنما قاله محمد ﷺ وبصيرته ترى ماذا يحدث فى عمرة القضية وهى الخروج إلى الحديبية وأداء العمرة ، والأهل والمال هنا هم أهل محمد من قريش ومالهم فى مكة . وكان محمد حريصاً على سلامتهم لأنه يدخرهم للإسلام بعد فتح مكة . فتصور والله نفاذ البصيرة وبُعْد مطارح التفكير والتدبير !

ونعود إلى حديث المواجهة بين القرشيين لنقول : إن تلك الأمثلة الثلاثة التى ضربناها ، تبين لنا الاتجاهات الثلاثة التى سار فيها نشاط المدينة قبل الحديبية ، وهى :

١ - التمهيد للقضاء على مهد العداوة اليهودى الباقى فى خيبر .

٢ - كسر شوكة قبائل الأعراب فى وسط الجزيرة العربية وشمالها ، حتى إذا توجه نحو مكة فعل ذلك دون أن يشغله عن ذلك شاغل أو يهدد المدينة شىء .

٣ - إدخال قبائل الطرق التجارية فى أمة المدينة : إسلاماً أو حلفاً أو موادعة حتى تنفتح طرق المدينة كلها إلى الشمال والشمال الشرقى .

وسنرى مصاديق أخرى على ذلك عند كلامنا على مواجهة القرشيين الحاسمة فى الحديبية .

ونقف هنا لحظة عند سريتى عبد الله بن رواحة للقضاء على أسير بن رزام فى خيبر فى رمضان سنة ٦هـ/ يناير - فبراير ٦٢٨م والثانية فى الشهر التالى وهو شوال . الأولى

كانت لاستطلاع أحوال خيبر ودرس أحوال أسير بن رزام فيها ، وأسير كان خليفة أبى رافع بن أبى الحقيق فى زعامة خيبر ، وكان رجلاً شجاعاً جريئاً ، وكان يتحدث فى أن يخرج إلى غطفان فيجمعها ويسير بها لغزو المدينة ، فيصل الخبر إلى رسول الله ﷺ بواسطة خارجة بن حسيل الأشجعى ، وأشجع كانت من صغار قبائل الحجاز التى انضوت تحت ذراع المدينة دون مشقة ، مثلها فى ذلك مثل غفار ومُزَيْنَة ، أما خزاعة فلها شأن آخر نتحدث عنه إن شاء الله فى الفقرة التالية ، فيندب الرسول عبد الله بن رواحة فى نفر قليل مستطلعاً ، ثم يرده مرة أخرى فى ثلاثين رجلاً فيقضون عليه .

وأُسَيرُ يُكْتَب فى بعض نصوصنا (اليُسَيْر) وإذن فهو اليعازر وهو اسم يهودى يتردد فى العهد القديم وحوليات اليهود ولا زال مستعملاً إلى اليوم .

والآن ننتقل إلى الحديبية أو عمرة القضية أى عمرة الاتفاق أو المعاهدة كما نقول بلغة اليوم .

غَزوَة الحُدَيبِيّة

بَنو عَامِر بن لؤَى يَتولوّن قيَادة مَكّة :

خرج رسول الله ﷺ للعمرة فى ذى القعدة سنة ٦ هـ/ مارس ٦٢٨م . بناء على تقدير سابق دقيق ، وقد رأينا كيف مهد رسول الله لذلك أثناء غزوته لبنى لحيان ، فاختبر قوة رد فعل قريش ، إذا هى علمت أن المسلمين وصلوا بخيلهم إلى كراع الغميم على أميال شمال مكة ، فلم ير أن قريشاً تحركت أو صدر عنها أىُّ رد فعل فأيقن بضعفها وعجزها عن المقاومة ، ومن ثَمَّ فقد آن أوان أداء العمرة تمهيداً للحج . وسنرى فيما بعد حديثاً لرسول الله ﷺ يؤيد هذا المعنى .

والذى يستوقف نظرنا ، ونحن ندرس قريشاً أن هذه القبيلة التى كانت تقف على رأس قبائل شبه الجزيرة وترتبط مع معظمها بأحلاف واتفاقات ، وقفت الآن وحيدة لا يؤيدها أحد ، ولا تفكر قبيلة مهما بلغ حجمها فى تأييدها ومناصرتها كأنها قد سقطت فجأة من الحساب . وإذا كان المسلمون قد قطعوا خيوطها مع الشمال والشمال الشرقى ، فما بال قبائل الشرق والجنوب : ما بال هوازن وتميم وحنيفة وعبد القيس

وقبائل اليمن وحضر موت وعُمان وكلها كانت تحضر الأسواق ومواسم الحج . بل ما بال الحج قد تضاءل إلى درجة لا تسمع معها عنه ؟ أكانت أسواق مكة تُعقد ؟ أكان موسم الحج يحفل بالناس ؟

هنا لا تنبئنا مراجعنا بشيء ، لأن نظر المؤرخين كله ، اتجه الآن إلى أمة المدينة وأصحاب السيرة على الخصوص ، سقطت قريش من اعتبارهم فلم تعد تُذكر إلا فى مناسبات احتكاك أمة الإسلام بها ، وسيعود ذكر قريش إلى الظهور مع الحديبية ، وهى ميدان المواجهة الكبيرة الأولى بين قريش والإسلام بعد أن انحسم الأمر بينهما أثناء الخندق وبان للناس أجمعين ، أن قريش الإسلام غلبت قريش الجاهلية ، وأن مهاجرى قريش إلى المدينة على قِلَّتهم العددية قد أصبحوا اليوم بفضل الإسلام ومحمد صلوات الله عليه ، قادة الجزيرة وأصحاب الكلمة فيها ، ودامت لهم السبل حتى كان القرشى الواحد من المهاجرين إلى المدينة يمضى إلى الشام بما معه من تجارة ، فإذا اعتدت عليه إحدى القبائل لم يلبث أن ينال المعتدى العقاب الرادع كما حدث فى خروج زيد بن حارثة إلى الشام ومعه تجارة لأصحاب النبى ﷺ فى رجب سنة ٦هـ/ ديسمبر ٦٢٧م ، فلما كان فى منازل بنى فزارة من بنى بدر من غطفان أخذوه فضربوه وضربوا أصحابه حتى ظنوا أنهم قد قُتِلوا ، ولكن زيداً أبَلَّ مما أصابه ولحق بالنبى ﷺ ، فعجل الرسول بإرساله فى سرية إلى هؤلاء القوم ، فأوقع بهم وقعة شديدة وغنم منهم وأسر ، وتلك هى السرية المعروفة بسرية بنى أم قرفة، وكان من أسراهم بنت أم قرفة ، وهى امرأة من فزارة عجوز كانت تسب النبى ﷺ ويبلغه ذلك ، فأخذ سلمة ابن الأكوع ابنتها سبية وقبض المسلمون على العجوز السليطة وقتلوها ، وعندما وصل الجمع المظفر إلى المدينة أخذ الرسول ابنة أم قرفة وأهداها لصاحبه حزن بن أبى وهب فأنجب منها بنتاً ليس له منها ولد غيرها .

حتى ثقيف حليفة قريش وصاحبة الصهر الوثيق معها ، سنرى بعد قليل أنها تراخت عن نصر قريش ، فلم يأت منها لنصر قريش أثناء الحديبية إلا واحد من صغار رجالها هو عروة بن مسعود الثقفى ، وكان حليفاً لقريش ينزل مكة فى جوار

سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف وهى تعد فى عماته [1] ، وقد أتى مع من أطاعه من قومه وهم قليل ، بل إن زعيم الأحابيش ، وهم أوثق أحلاف قريش وأقربهم منزلاً ، وقفوا موقف الحياد بين محمد رسول الله وقريش ، بل إنه طلب إليها أن تأذن لرسول الله ولأصحابه بدخول مكة للاعتمار .

ولكن استجابة الأعراب أو عدم استجابتهم ليست بقياس سليم للتأييد وعدمه ، فالأعراب ، وخاصة صغار قبائلهم معنيون بأمر أنفسهم لا يُعرِّضون أنفسهم لأى مغامرة غير محمودة العواقب ، ومن دلائل ذلك ما يرويه الواقدى من أن الأعراب القريبين من المدينة المعروفين بدخولهم فى حلفها ، عندما رأوا رسول الله ﷺ يخرج إلى مكة معتمراً هو وأصحابه دون سلاح ارتابوا فى الأمر وأيقنوا بأن قريشاً ستقضى عليه وعلى أصحابه ، قال الواقدى : « فجعل رسول الله ﷺ يمر بالأعراب فيما بين مكة والمدينة فيستنفرهم ، فيتشاغلون له بأموالهم وأبنائهم وذراريهم - وهم بنو بكر (بن عبد مناة بن كنانة) ومزينة وجهينة - فيقولون فيما بينهم : أيريد محمد أن يغزو بنا إلى قوم مُعَدين مؤيّدين فى الكراع والسلاح ، وإنما محمد وأصحابه أكلة جزور لن يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبداً ! قوم لا سلاح معهم ولا عدد وإنما يقدم على قوم حديث عهدهم بمن أصيب منهم ببدر »[2] .

وهذا التراخى من جانب بعض الأعراب جعل محمداً ﷺ يحذر البدو طول طريقه، ولقد كان آمناً لخزاعة وبطونها لأنهم حلفاؤه وحلفاء أمة الإسلام ، ثم إن خزاعة - وخاصة بنو كعب - أسلمت ودخلت الإسلام ، وكان بنو المصطلق من خزاعة قد اعوجُّوا على رسول الله ﷺ فكانت غزوة المريسيع ، وبها استقام أمر خزاعة كلها للإسلام وأمته . وما عدا خزاعة فكان الرسول فى ريب منهم . وعندما وصل رسول الله إلى الروحاء ، وهى قريبة جداً من المدينة وفى منطقتها لقى جماعة من بنى نهد بن زيد بن ليث بن عبد مناة (بنى خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر) وبنو عبد مناة جميعاً وخاصة بنو بكر منهم كانوا مباعدين للإسلام وأهله مقاربين لقريش وأهل

---

(١) ابن حزم ، الجمهرة : ٢٦٦ .
(٢) الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٧٤ - ٥٧٥ .

الكفر – فدعاهم إلى الإسلام « فلم يستجيبوا له وانقطعوا من الإسلام » (١) .

ثم أرادوا مع ذلك استرضاء الرسول ﷺ فبعثوا عند مرور الرسول قرب ديارهم برجل منهم ، معه لبن هدية ، فأبى قبوله وقال : « لا أقبل هدية مشرك » (٢) ، ولكنه أذن لأصحابه فى شراء اللبن فاشتروه وشربوا منه ، ثم أتوا المسلمين بثلاثة أضبّ (جمع ضب) ليبيعوها منهم ، فسأل المسلمون الرسول ﷺ إن كان يحل لهم أن يشتروا ما صاده غيرهم وهم حُرُم ، فقال : « صيد البَرِّ لكم حلال وأنتم حُرُم ما لم تصيدوه أو يُصَد لكم »(٣) .

وكان بعض المسلمين قد انتظر بالإحرام حتى يقرب من مكة ، فصاد بعضهم حماراً وحشياً وطبخوه ، ولحقوا برسول الله فعرضوا عليه منه ، وقدموا له ذراعاً فأكلها «حتى أتى على آخرها وهو مُحرِم » لأن المسلمين المحرمين لم يصيدوه ولا صِيدَ لهم ، فأكْله ليس حراماً على المحرِمين .

وكان ذلك عند الأبواء ، مما يدل على أن رسول الله ﷺ سلك بمن معه الطريق الفرعى ناحية البحر ، وكان يستحبها فى روحاته إلى مكة وعودته إلى المدينة .

وعند ودان – وهى قريبة من الأبواء – أهديت لرسول الله ﷺ هدية أخرى من قوم لم تحددهم المراجع ، ولكن لا شك أنهم من أهل الإسلام لأن الرسول كما رأينا كان لا يقبل هدية مشرك ، والهدية كانت جزراً ومائة شاة وبعيرين يحملان لبناً .

ونحن نقرأ أخبار هذا المسير ونشعر أن رسول الله والمسلمين يسيرون فى أمن وهدأة ، كأنهم لم يعودوا يخشون أحداً فى الحجاز فهم بغير سلاح ، ولكن أحداً لا يعرض لهم أو يجافيهم ، بل إن الهدايا تأتيهم فى كل موضع فيقبلون أو لا يقبلون ، ولا أحد يذكر قريشاً أو يحسب لها حساباً ، ففى ودان هذه أهدى لرسول الله إلى جانب هدية إيماء بن رحضة التى ذكرناها « ثلاثة أشياء : معيشا وعترا وضغابيس ، وجعل رسول الله ﷺ يأكل من الضغابيس والعتر وأعجبه وأمر به فأدخل على أم

---

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٧٥ .
(٢) الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٧٥ .
(٣) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٥٧٥ .

سلمة زوجته ، وجعل رسول الله ﷺ يعجبه هذه الهدية ويرى صاحبها أنها طريفة » ، والمعيش هو الخبز فى الغالب ، والعتر نبات يؤكل ، فإذا طال وقُطِع أصله خرج منه شبه اللبن ، والضغابيس كما فى القاموس جمع ضغبوس وهى صغار القثاء أى أنها الخيار ، واللطيف هنا هو إقبال النبى عليها وحرصه على أن يُرِى صاحبها أنها طريفة .

وعندما يصل رسول الله والذين معه إلى الجُحفة ، قرب رابغ البحر الحالية يحدث شىء غريب ، وهو أنه ﷺ يبعث رجلاً ليأتى بالماء من وادى الخرار غير بعيد من الجحفة . فلا يكاد الرجل يسير قليلاً حتى يدركه الخوف فلا يستطيع أن يتقدم . ويعود إلى رسول الله ويبلِّغه ذلك ، فيبعث غيره فيحدث له مثل ذلك ، فأرسل الرسول رجلاً من أصحابه « وخرج السُّقَّاء معه ، وهم لا يشكون فى الرجوع لما رأوا من رجوع النفر ، فوردوا الخرّار فاستقوا ثم أقبلوا بالماء ، ثم أمر رسول الله بشجرة ، فَقُمَّ (كُنِس) ما تحتها فخطب الناس فقال : أيها الناس إنى كائن لكم فَرَطاً ، وقد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وسنته بين أيديكم ، ويقال : تركت فيكم كتاب الله وسنة نبيه[1]..» والفرط هو السابق أى المتقدم وقد ورد اللفظ فى حديث رسول الله ﷺ [2]. وحديثه هنا فى موضعه ، لأنه عندما رأى الخوف يستولى على بعض الناس طمأنهم إلى أن لديهم ما إن تمسكوا به لم يخافوا شيئاً : الكتاب والسنة.

والآن والمسلمون فى طريقهم إلى مكة ، أى وقريش المسلمة فى طريقها إلى قريش الكافرة ننتقل إلى معسكر هذه لنرى ماذا صار إليه أمرها .

قُريش قبل الحُدَيبيّة :

من الواضح أن مسير محمد ﷺ والمسلمين نحو مكة أفزع أهلها ، وأحس زعماء القرشيين وخاصة رؤساء كعب بن لؤى وعامر بن لؤى (وفيهما تتمثل المقاومة للإسلام) أن مصيرهم فى الميزان ، فاجتمع زعماؤهم للتشاور فى أمرهم ، وكان زعماؤهم فى ذلك التحرك صفوان بن أمية بن خلف (جمح) وسهيل بن عمرو (عبد

---

(١) الواقدى ، مغازى ، ٢ / ٥٧٨-٥٧٩.
(٢) انظر مادة فرط فى لسان العرب ، جـ٢/ ١٠٧٩ .

شمس) وعكرمة بن أبى جهل (مخزوم) ، واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش وانضم إليهم نفر من الثقفيين . واستقر رأيهم على إرسال فرقة استطلاع من الفرسان تقف عند كراع الغميم ، وجعلوا مركز قيادتهم فى بلدح ، وهو وادٍ يبعد عن مكة بنحو الخمسين كيلومتراً ، والمسافة بين وادى بلدح وكراع الغميم لا تزيد على خمسة عشر كيلومتراً .

وبلغ من اهتمام قريش للأمر أن وضعت نظاماً يضمن وصول الأخبار إليها فى أقصر وقت . وقد وصفه لنا الواقدى بقوله : « ووضعوا العيون على الجبال حتى انتهوا إلى جبل يقال له وزر وزع ، كانت عيونهم عشرة رجال قام عليهم الحكم بن عبد مناف ، يوحى بعضهم إلى بعض بالصوت الخفى : فعل محمد كذا وكذا ! حتى ينتهى ذلك إلى قريش ببلدح . وخرجت قريش إلى بلدح فضربوا بها القباب والأبنية ، وخرجوا بالنساء والصبيان فعسكروا هناك »[1] ، وهذا تنظيم يدل على أن قريشاً لا زالت لها قيادة ذات تنظيم وترتيب وعقل ، وقد قدروا أن يوقفوا محمداً وأصحابه عن هذا الموضع ليكون بينهم حوار وتفاوض بعيداً عن مكة ، ولكن رسول الله ﷺ - لحكمة ارتآها - رأى أن يتخطى هذا الحد وينحدر حتى الحديبية - وهى ليست على الجادة ، أى الطريق الرئيسى إلى مكة ، وإنما هى موضع إلى غربى الطريق إلى الشمال قليلاً من مكة .

ومن الواضح أن قريشاً كانت قد اجتمعت وتشاورت ، فيما ستعمل وهى تشعر تماماً أنها غير قادرة على مقاومة المسلمين. وكان كل غرض هذه القيادة هو الحفاظ على كرامة قريش ومكة وكيانها ، وقد نجحت فى ذلك لأن محمداً ﷺ كان يريد ذلك .

وكان رسول الله ﷺ قد اصطحب معه رجلاً من خزاعة يسمى بُسر بن سفيان الكعبى ، تقول المراجع إنه وفد على المدينة وأسلم على يد الرسول ، ثم أراد الرجوع إلى أهله بمكة فى الغالب فقال له رسول الله : يا بسر ، لا تبرح حتى تخرج معنا ، فإنَّا إن شاء الله معتمرون ، فأقام بسر ، وأمر رسول الله بسر بن سفيان أن يبتاع له بُدْناً ، فكان بُسر يبتاع البُدْن ويبعث بها إلى ذى الجدر ، حتى حضر خروجُه ، فأمر بها

---

(١) الواقدى ، مغازى ، ١/ ٥٧٩ .

فجلبت إلى المدينة ، ثم أمر بها ناجية بن جُندب الأسلمى أن يُقَدِّمها إلى ذى الحُلَيْفة ، واستعمل على هديه ناجية بن جندب ، وخرج أصحاب رسول الله ﷺ معه لا يشكّون فى الفتح ، للرؤيا التى رأى رسول الله ﷺ ونلاحظ هنا أن صاحب هدى رسول الله كان خزاعياً ، وأن عينه على كفار قريش كان أسلمياً من بنى الحاف بن قضاعة مما يؤيد ما ذهبنا إليه من ارتباط هذه القبائل بالإسلام ورسوله .

ويختفى بسر بن سفيان الكعبى هذا ثم يظهر مرة أخرى ورسول الله يقترب بمن معه من كراع الغميم ، حيث كانت طليعة قريش وعليها خالد بن الوليد ، وإن كان تدخُّل المزيفين فى النصوص الأصلية يحاول أن يشكك فى أن خالداً كان على رأس خيل المشركين فى ذلك الحين ، بل هناك من يزعمون أنه أسلم مع عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة قبل الحديبية ، وهذا غير صحيح ، وها هنا مثال من تزييف الأخبار أو التدليس فيها ، الذى لا نزال نعانى منه فى كل خطوة من خطوات هذه الدراسة وغيرها مما نتولاه من أبحاث تاريخ الإسلام والمسلمين .

ثم يظهر بُسر بن سفيان الكعبى مرة أخرى بعد أن ضربت قريش خيامها ببلدح . وبعثت طليعتها إلى كراع الغميم . ظهر بسر الكعبى ليقدم لرسول الله صورة الأعداء ومعسكرهم ، فلا يكون ظهوره هنا مجرد مصادفة ، بل هو حساب وتدبير .

وكان رسول الله ترك الكُديد وراءه ووصل إلى غدير الأشطاط فسأله : يا بُسْر ما وراءك ؟ قال : يا رسول الله ، تركتُ قومك ، كعب بن لؤى وعامر بن لؤى ، قد سمعوا بمسيرك ففزعوا وهابوا أن تدخل عليهم عنوة ، وقد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم ، معهم العوذ المطافيل [1] قد لبسوا لك جلد النمور ليصدوك عن المسجد الحرام ، وقد خرجوا إلى بلدح وضربوا بها الأبنية ، وتركت عُمَّارَهم يطعمون الجزر أحابيشهم ومن ضوى إليهم فى دُورهم ، وقدَّموا الخيل عليها خالد بن الوليد ، مائتى فرس ، وهذه خيلهم بالغميم ، وقد وضعوا العيون على الجبال ووضعوا الأرصاد ».

(١) العوذ من الإبل جمع عائذ ، وهى التى ولدت ، والمطافيل جمع مطفل وهى التى لها طفل ، وهذا كله كناية عن النساء والصبيان .

وهنا يبلغ الرسول ﷺ أصحابه بموقف قريش وإرسالها خالد بن الوليد فى مائتى فارس لمواجهة المسلمين ، ثم يخيِّر المسلمين بين أن يمضوا لوجههم ، فإذا اعترضهم المشركون نازلوهم ، أو يسلكوا طريقاً آخر ويتخطوا القوة القرشية ، فإذا تبعهم من المشركين أحد قضوا عليه . ويأخذ الرسول فى مناقشة أصحابه ، وهنا يضيف أبو هريرة : « فلم أر أحداً كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ . وكانت مشاورته لأصحابه فى الحرب فقط » . والذى يعنينا هنا هو حرص رسول الله على مشاورة أصحابه فى كل ما يعرض لهم من شئون الدنيا ، ولا معنى لقصر المشورة على الحرب فحسب ، لأن شئون الدنيا تشمل الحرب وغير الحرب .

ومن باب الاحتياط ينادى الرسول عباد بن بشر ، ولم تكن خيل المسلمين لتزيد على عشرين ، وكان فيهم فرسان كثيرون ولكن رسول الله ﷺ جعل عبَّاداً على خيل المسلمين ، وكان عبَّاد من فرسان بنى عبد الأشهل الأوسيين ، وكان فارساً مجاهداً من المعدودين من فرسان المسلمين ، وكان أول ثلاثة من كبار فرسان الأنصار ، والثلاثة كلهم من بنى عبد الأشهل ، وهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وعباد بن بشر ، وقد ظهر أمره وسطع أثناء الخندق ، فقد كان قائد الفرقة الطيارة التى وقفت تحت تصرف الرسول ﷺ يبعث بها فى كل مهمة فلا تعود إلا بخير ، وقد استشهد رضى الله عنه فى اليمامة .

ثم صلى رسول الله بأصحابه صلاة الخوف ، وكانت تلك ثانى مرة يصليها فى مغازيه ، فقد صلاها قبل ذلك فى ذات الرقاع وكانت هذه الصلاة الثانية بعسفان .

وكان رسول الله بعد أن شاور أصحابه قد استقر رأيه على أن يتخطى هذه الطليعة من الفرسان التى أرسلتها قريش دون أن يصدمها فيقضى عليها ، فهو لم يخرج لقتال وإنما للعمرة ، وقرر أن يسير بالليل ويكمن للراحة بالنهار ، وتبدر منه هنا بادرة تدل على أنه ﷺ كان يعرف طرق الحجاز معرفة وثيقة ، وقارىء السيرة ودارسها لا يزال يتعجب من معرفة الرسول للأرض والناس . قال لأصحابه : « تيامنوا فى هذا العصل (أى : الرمل المتموج الملتوى) ، فإن عيون قريش بِمَرِّ الظَّهْران أو بِضَجْنان ، فأيكم يعرف ثنية ذات الحنظل ؟ » .

ومن الواضح أن هذه الثنية كانت تقع فى طريق صغير يتخطى مخرجُه كُراع الغميم ووادى بَلْدَح ، فيخرج الرسول بمن معه فى الصباح عند موضع الحديبية الذى كان رأيه قد استقر على الوقوف عنده ، والحديبية بُعَيد سرف غرباً إلى الجنوب ، وهى ليست على طريق الجادة وإنما إلى غربها ، ومقابلها من ناحية الشرق التنعيم وهى ميقات حاج الشام . وتطوع بُرَيْـدَة بن الحُصَيب الأسلمىُّ (الخزاعى) ليدل الركب على طريق ثنية ذات الحنظل ، وحاول فلم يستطع ، ودهش لأنه كان يسلك طريقها مراراً فى الجمعة الواحدة ، وتطوع أسلُمىٌّ آخر فوقع له ما وقع للأول ، وأخيراً تقدم أسلُمى خزاعى ثالث هو عمرو بن فُهم فسلك بالناس طريقها فى غير عُسْر .

ويستوقف نظرنا هنا معرفة خزاعة بطرق الحجاز ، وهو أمر على أكبر جانب من الأهمية ، ويستوقف نظرنا بعد ذلك ثقة رسول الله فى نفسه وإيمانه الثابت بأنه واصل إلى ما يريد بعون الله إياه . وفى أثناء الطريق - والركب على وشك الوصول إلى حيث يريد رسول الله ، يندس بينهم أعرابى يبحث عن بعير له أضله ودخل العسكر فيما زعم ، وكان رسول الله قد حَذَّر رجاله من مثل هذا الدسيس ، ويدخل الرجل العسكر يبحث عن بعيره فلا يجده ، ونفهم أن البعير الضائع حجة تعلل بها ليدخل العسكر ، وينصرف عنه فيتردى من الجبل ويموت ، وعندما نعلم أنه من ضمرة من بنى بكر بن عبد مناة يتضح لنا أمره ، فهو دسيس جاسوس من بنى بكر بن عبد مناة يَتَنَطَّس أخبار العسكر لحساب قريش فى الغالب ، وهكذا نرى كيف كانت خزاعة دائماً فى جانب الإسلام ورسوله ، وبنو بكر بن عبد مناة بن كنانة دائماً فى جانب قريش وأهل الكفر ، وسيتضح لنا ذلك جلياً فى بقية أخبار الحديبية .

وهنا وقبل أن يصل ركب المسلمين إلى الحديبية ، تبدر من رسول الله بادرتان تزيدان الناس تعلقاً به وإيماناً ، الأولى كشفه الماء الوفير فى موضع بئر جافة لم يكن فيها إلا وَشَل ، فناول الرسول رجلاً من أصحابه يسمى ناجية بن الأعجم سهماً فنزل به وأثار الماء وحفر الأرض فجاش الماء ورَوِىَ الناس ، وشهد ذلك اثنان من المنافقين ، هما عبد الله بن أُبىّ بن سلول والجَد بن قيس ، والأول من بنى الحُبْلَى من الخزرج ، والثانى من بنى سَلمة من الخزرج وحاولا التقليل من شأن ما أجراه الله على يد

رسوله ، وقال ابن أُبَىّ : قد رأيت مثل هذا ! وبلغت الرسول ، فلم يزد على أن قال لابن أُبىٍّ : يا أبا الحباب ، أين رأيت مثل ما رأيت اليوم ؟ فقال : ما رأيت مثل هذا قط. قال رسول الله ﷺ : فَلِمَ قلتَ ما قلت ؟ فقال ابن أُبَى : أستغفر الله ! قال ابنه : يا رسول الله استغفر له ، فاستغفر له رسول الله ﷺ . وهذا العفو من رسول الله عن ابن أُبَىّ هو البادرة الثانية .

ووصل رسول الله ﷺ إلى حيث كان يريد وهو موضع الحديبية ، وقد تغيرت الآن ملامح الموضع حتى نزوره لنستوثق من صلاحيته للنزول والإقامة فترة طويلة ، ولكننا لا نحس أثناء مقام المسلمين فى الحديبية أنهم فى نقص من ماء أو طعام أو أنهم فى خطر من هجوم أو بيات . حقاً لقد خرج الرسول ومن معه معتمرين بغير سلاح ، ولكن السلاح كان معهم فى مؤخرة الجيش ، حتى إذا دعت إليه الحاجة وجده المسلمون حين يطلبونه ، وكان الذى أشار بذلك سعد بن عبادة بن دُلَيم سيد بنى كعب بن الخزرج بن حارثة الغِطريف ، وهو فى مكان سيد الخزرج جميعاً وإلى الحديبية بل إلى انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان هذا الرجل من أعاظم أصحاب رسول الله وأوثقهم إيماناً به وأجودهم رأياً وأسخاهم بماله ، حتى أحس عمر بن الخطاب أنه نِدٌّ له منافس فى الجماعة ، وكان لهذا أثره فيما حدث يوم السقيفة . وفى يوم السقيفة ضاعت جهوده وتضحياته سدى دون ذنب جناه ، وسيكون لذلك بالغ الأثر فى بقية الخزرج جميعاً والأنصار بعد ذلك كما سنرى .

ومن الواضح أن الرسول صلوات الله عليه كان يعتد هنا بتأييد خزاعة جميعها ، قال عنهم الواقدى : (.. وهذا أيضاً رأى كل مؤرخينا الذين نعتمد عليهم) : « وهم عيبة نصح رسول الله ﷺ بتهامة ، منهم المسلم ومنهم المُوَادع ، لا يخفون عليه بتهامة شيئاً : فأناخوا رواحلهم عند رسول الله ﷺ » .

وهنا تبدأ المواجهة بين القريشين : قريش الكفار المسيطرين على مكة وقريش المؤمنين الذين يشتركون فى قيادة أمة الإسلام فى المدينة بتوجيه من رسول الله ﷺ ، بالاشتراك مع الأنصار ما بين أوس وخزرج . وغَنَاء الأنصار هنا عظيم فهم متفانون فى سبيل الدعوة فعلاً ، وأسماء مثل : سعد بن عبادة ، وأُسَيد بن الحضير ، وعبَّاد بن

بشر ، والحُباب بن المنذر ، ومحمد بن مسلمة ، وأخيه محمود ، أسماء كبيرة فى تاريخ الإسلام فى عصر الرسول ﷺ ، ولكن المهاجرين يشفون عليهم - رغم قلة عددهم - فى القيادات - ربما لأنهم أكثر خبرة فى شئون العمل العام ، وربما رجع ذلك أيضاً إلى أنهم كانوا متفرغين للدعوة ، فى حين أن الأنصار كانت لهم إلى جانبها مطالبهم العائلية والقَبَلية فى مدينتهم ، ولهذا كان المهاجرون حريصين على الصدارة مبادرين إلى القيادات ، وخاصة أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وعلى بن أبى طالب وسعد بن وقاص ، وقد كان رسول الله ﷺ منصفاً كل الإنصاف فى تصرفه مع الفريقين ، ولكننا نلحظ هنا بين القرشيين أنفسهم تيارات جانبية ، فأبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد بن أبى وقاص جماعة واحدة ، وعلى بن أبى طالب يكاد أن يكون وحده يؤيده نفر من الأنصار ، وتخفيفاً للمنافسة بين الفريقين كان يتولى قيادة السرايا أحياناً زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، فهو يقود ثلاث سرايا متوالية ، ثم يقود عبد الرحمن بن عوف سرية دومة الجندل ويعقبه على بن أبى طالب فى سرية إلى فدك ، ثم تعود القيادة إلى زيد بن حارثة فيقود سرية إلى بنى فزارة بن بدر من غطفان ليؤدبهم ، وفى هذه السرية يكون قتل أم قرفة وقد ذكرناها .

ويُسَرُّ الرسول بنصر زيد فهو شديد الحب له ، قالت عائشة رضى الله عنها : «فأتى زيد فقرع الباب ، فقام إليه رسول الله ﷺ يجر ثوبه عرياناً ، ما رأيته عرياناً قبلها ، حتى اعتنقه وقبَّله ثم سأله فأخبره بما ظفره الله به »[1] ولعل كبار الصحابة وجدوا من ذلك شيئاً ، وسنرى مظاهر لذلك فيما سنروى مما وقع أثناء المراحل الأخيرة لمرض الرسول ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى ، وسنشهد بعد قليل أول خزاعى يظهر ويقوم بدوره فى مجرى الحوادث ، وربما لمحنا هنا أول ظواهر التساند بين خزاعة والأنصار ، وهو تساند سيكون له أبعد الأثر فى تاريخ الإسلام ، عندما تنتقل الخلافة انتقالاً حاسماً من بنى أمية إلى بنى العباس ويكون لخزاعة ومواليها ومَنْ أيَّدهم من الأنصار والهاشميين دور حاسم .

هذا الخزاعى هو بُدَيْل بن ورقاء سيد بنى عامر بن لُحَىّ من خزاعة فيما يقول ابن

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٦٥ .

حزم ، وهو غير مصيب هنا ، لأن صميم خزاعة أو نواتها الأولى على ما ذكرناه فى الحقيقة يمنى، مثلهم فى ذلك مثل الأنصار ، أما القول بأن خزاعة هم بنو ملكان وبنو مالك وبنو أسلم بن أفصى بن لحى بن عامر بن قمعة بن الياس بن مضر «ولكنهم تخزعوا » أى انفصلوا عن قومهم وصاروا خزاعة فأمر مفتعل . وقد سبق أن فصَّلنا الكلام فى ذلك فى كلامنا على خزاعة : وقد رجحنا أن نواة خزاعة الأولى من اليمن وأنهم أبناء عم الأوس والخزرج ، لأن الأوس والخزرج هم أولاد ثعلبة العنقاء بن مزيقياء الذى ذكرناه ، فميل خزاعة إلى الأوس والخزرج طبيعى يقويه أن قريش مكة ، قريش التى عادَت الإسلام وأخرجت رسوله وأصحابه من مكة لم تكن قريش بنى هاشم ، وإنما هى قريش بنى عبد شمس ومخزوم وتيم بن عبد مناة وجمح وهصيص ، أى قريش الأحلاف لا قريش حلف الفضول التى هى قريش بنى هاشم وأحلافهم من زهرة بن الحارث بن فهم وتيم بن مرة (قبيلة أبى بكر) وعدى (قبيل عمر بن الخطاب) ، وقريش الأخيرة هذه هى التى هاجر رجالها إلى المدينة وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، وهذه الهجرة قرَّبت بين قريش بنى هاشم وخزاعة التى سبق أن طردت من مكة مثلهم ، فكأن قريشاً الوثنية التى بقيت فى مكة ورثت كل عداوة خزاعة لقريش التى أخرجتها من مكة ، لا عجب إذن أن نجد خزاعة إلى جانب رسول الله ﷺ والمهاجرين والأنصار أى أهل أمة الإسلام .

ومن ذلك الحين أصبحت خزاعة هاشمية الميول بالضبط ، كما سيصبح الأنصار هاشميين فى عواطفهم وميولهم ، وفى الصراع بين قِسْمَى قريش : قريش التى عادت الإسلام أولاً ثم أسلمت عند الفتح متمثلة فى بنى أمية الأكبر وبنى مخزوم وسهم وجمح وقريش الهاشمية التى آمنت وهاجرت وحملت عبء الإسلام مع الأنصار وخزاعة ، وستنتصر فى أيام الرسول ﷺ وإلى آخر خلافة عمر ، ثم تميل الكفة إلى جانب قريش بنى عبد شمس وأحلافهم من بداية خلافة عثمان ، ثم تكون الدولة الأموية ، ثم تعتدل الكفة مرة أخرى بقيام الدولة العباسية ، وهى ثمرة ثورة هاشمية اشترك فيها الهاشميون وأنصارهم من خزاعة والأنصار ، ثم ستنقسم هذه الجهة المظفرة إلى قسمين : عباسى ينفرد بالسلطة نتيجة لنجاح إبراهيم الإمام بن محمد بن

عبد الله بن عباس فى الانفراد بالأمر دون بقية الهواشم ، ثم بقية بنى هاشم التى خسرت هذه المعركة فستتحول إلى حركة شيعية عامة تضم مذاهب شتى ، وستحوز السلطان فى عصور وأقاليم شتى من بلاد الإسلام ، ولا زالت باقية إلى اليوم .

نعود إلى الحديبية حيث نزل رسول الله ﷺ والمسلمون ، ويقبل عليهم سيد خزاعة بديل بن ورقاء ، فلننظر كيف سيكون موقف هذا الخزاعى بين القُرَيْشَيْن ، ولا ننسى أن نضيف هنا أن رسول الله لم يكد يستقر فى الحديبية حتى أهدى إليه عمرو بن سالم وبُسر بن سفيان الخزاعيان غنماً وجزوراً ، وأهدى عمر بن سالم لسعد بن عبادة جُزُراً « وكان صديقاً له » وقد قسمت الهدية على المسلمين . ونفهم من هذا أن محمداً ﷺ عندما اختار موضع الحديبية لنزوله عرض مقدماً أن ينزل بين أصدقاء وحلفاء ، وفى هذا الموضع لا تستطيع قريش أو حلفاؤها مهاجمة المسلمين .

دخل بديل بن ورقاء الكعبى الخزاعى على رسول الله ، وبديل هذا يصفه ابن حزم بأنه كان أدهى العرب ، وهو ليس من بنى كعب بن عمرو بن عامر بن لحى أحلاف النبى ولكنه من بنى عدى بن عمرو بن عامر بن لحى [1] وكان حليفاً لقريش مقيماً فى مكة وله دار كبيرة فيها ، فأبلغه أنه يتجه من عند قومه بنى كعب بن لؤى وبنى عامر ابن لؤى وأنهم قد استنفروا الأحابيش ومن أطاعهم ، معهم العُوذُ المطافيل [2] النساء والصبيان - يقسمون بالله لا يُخَلُّون بينك وبين البيت حتى تبيد خضراؤهم » [3] وغريب هنا ذكر عامر بن لؤى ، لأن عمود قريش الذى فيه البيت والعدد ، وتتفرع منه فروعها الكبار هو عمود كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن كنانة بن النضر بن خزيمة ، أما عامر بن لؤى أخوه فلا ذكر له بين فروع قريش ذات العدد والأهمية ، وكل ما يقال هنا هو أن كعباً وعامراً هما البطاح فى رأى المصعب الزبيرى ، أما ابن حزم فيقول : إنهما الصريحان من ولد لؤى بن غالب ، ولكنه يجعل البيت والعدد (أى: القوة والكثرة) فى بنى كعب ، وكلا النسابين لا يذكر لعامر ولداً .

وكان رسول الله يعلم من أمر قريش ما فيه الكفاية ، فقد قال فى رده على بديل -

---

(١) ابن حزم ، الجمهرة ٢٣٩ .
(٢) تعبير يراد به النساء والأطفال .
(٣) الواقدى ، مغازى :٥٩٣ .

على رواية الواقدى : «إنَّا لم نأت لقتال أحد ، إنما جئنا لنطوف بهذا البيت ، فمن صدَّنا عنه قاتلناه ، وقريش قوم قد أضرَّت بهم الحرب ونَهَكَتْهم فإن شاءوا مادَدْتُهم مدة [1] يأمنون فيها ، ويُخَلُّون فيما بيننا وبين الناس ، والناس أكثر منهم ، فإن ظهر أمرى على الناس كانوا بين أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس : أو يقاتلون وقد جُمِعوا جمعاً ، والله لأجهدن على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى أو ينفذ الله أمره» [2] .وهذا القول من رسول الله يدل على معرفة تامة بأحوال قريش ورغبته فى رد زعمائها إلى الرشد ، وكأنهم هم الآخرون أحسوا منه هذا الرفق بهم فتماسكوا وتشددوا فى موقفهم وإن لم يصلوا إلى المواجهة الكاملة .

وعندما انقلب بديل بن ورقاء عائداً برسالته إلى قريش صَحِبه عمرو بن سالم الخزاعى صديق سعد بن عُبادة ، ومضى يؤكد أن رسول الله على حق ، وأن قريشاً لن تفلح فى موقفها من محمد ما دام هو لا يريد إلا العمرة ويبدى الاستعداد لعقد صلح يُمكِّنه من أداء العمرة بسلام .

ولكن موقف قريش من بديل بن ورقاء وهو صديق لهم وله فى مكة دار كان غريباً يدل على إدراكهم لحقيقة شعور بديل نحوهم ، وإسرافهم فى التظاهر بالثبات : « فقال ناس منهم : هذا بديل وأصحابه ، إنما جاءوا يرون أن يستخيروكم ، فلا تسألوهم عن حرف واحد » كأن الأمر لا يهمهم . « وضاق بديل بعدم سؤالهم إياه عن محمد ﷺ وما يريد فقال : إنَّا جئنا من عند محمد ، أتحبون أن نخبركم ؟ قال عِكرمة بن أبى جهل والحكم بن العاص : لا والله ما لنا حاجة بأن تخبرنا عنه ، ولكن أخبروه عنا أنه لا يدخلها علينا عامه هذا أبداً حتى لا يبقى منا رجل ، فقال عروة بن مسعود ، وهو رجل من ثقيف كان حليفاً للقرشيين وصاحباً لهم : والله ما رأيت كاليوم رأياً أعجب وما تكرهون أن تسمعوا من بديل وأصحابه ؟ فإن أعجبكم أمر قبلتموه ، وإن كرهتم شيئاً تركتموه . لا يفلح قوم فعلوا هذا أبداً » .

---

(١) أى : عقدت معهم عقداً أو عهداً أو اتفاقاً أو هدنة لمدة معينة .

(٢) هذه رواية الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٩٣ ؛ أما ابن إسحاق ومن نقل عنه كابن هشام ٣/ ٣٢٣ ، وابن كثير ، البداية والنهاية : ٤/ ١٦٥ فيجعلون هذه الكلمة فى عسفان وأنه قالها لبسر بن سفيان الكعبى الذى ذكرناه . ورواية الواقدى أكثر انسجاماً ودقة .

قال رجال من ذوى رأيهم وأشرافهم : صفوان بن أمية والحارث بن هشام (بن المغيرة المخزومى) أخبرونا بالذى رأيتم وسمعتم فأخبروهم بمقالة النبى ﷺ التى قال ، وما عرض على قريش من المدة (الهدنة الموقوتة) .. فعاد عمرو بن مسعود يقول : يا معشر قريش تتهموننى؟ ألستم الوالد وأنا الولد ؟ وقد استنفرت أهل عكاظ لنصركم فلما بلحوا (امتنعوا) علىَّ نفرت إليكم بنفسى وولدى ومن أطاعنى ، فقالوا : قد فعلت . قال : إنى ناصح لكم شفيق عليكم ولا أدخر عنكم نصحاً . وإن بديلاً قد جاءكم بخطة رشد لا يردها أحد أبداً إلا أخذ شراً منها ... فاقبلوها منه وابعثونى حتى آتيكم بمصداقها من عنده ، فبعثته قريش إلى رسول الله ﷺ .

والتفاصيل القبلية التى لدينا عن سفارة عروة بن مسعود الثقفى لا توحى بالثقة ، وشخصية عمرو هذا - كما لاحظنا - فى خطابه لقريش لا تبدو شخصية لها وزن كبير، إنما هو رجل من عامة ثقيف ممن ضوى إلى مكة ، ثم إنه عندما عرض وساطته وعد قريشاً بأن يكون لها عيناً على رسول الله وأصحابه ، وفى الخبر تفاصيل كثيرة عن المغيرة بن شعبة لمجرد أنه كان - فيما يزعم الرواة - كان «قائماً على رأس رسول الله ﷺ » والمغيرة لم يبلغ قط عند رسول الله مثل هذا المبلغ ، وأين هو ممن كان مع رسول الله من أفذاذ الرجال وكبار الصحابة ، وإنما هم الرواة الذين لا يزالون يدفعون بمثل المغيرة فى الأخبار بمناسبة وغير مناسبة حتى ذهبوا إلى أنه كان من بين مَنْ نزل قبر الرسول الأكرم ، بل حاول - فى بعض الأخبار - أن يكون آخر من رأى رسول الله مسجى فى قبره ، وهذا كله انعكاس قصصى نتيجة لما بلغه هذا الرجل من شهرة بالدهاء والقدرة أيام خلافة معاوية بن أبى سفيان .

ويستوقف نظرنا أن الذين يقولون الكلام باسم المشركين فى الحديبية ليسوا من بنى عبد مناف ، أى : ليسوا من عمود نسب قريش الذى فيه البيت والعدد : عمود عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة ، بل عمود عامر بن لؤى : يمثلهم سهيل بن عمرو ابن معيص بن عامر ، وأحلافهم بنى جمح بن هصيص بن كعب بن لؤى يمثلهم صفوان بن أمية بن خلف الجمحى ، وجمح خارجة عن عمود النسب القرشى مثلها فى ذلك مثل أختها سهم بن هصيص رهط عمرو بن العاص - فأين بنو عبد شمس وأحلافهم ممن كانوا إلى الآن يقولون الكلام باسم قريش ؟

نلاحظ هنا أن أبا سفيان صخر بن حرب بن أمية زعيم قريش بعد أبى جهل يختفى ، فلا يكون له أثر فى الحديبية ولن تكون له يد فيما فعلته قريش من كسر الهدنة مع المدينة بمعاونة بنى بكر بن عبد مناة أحلافهم فى عُدوانهم على بنى كعب الخزاعيين أحلاف الرسول ﷺ ، وبنو عامر بن لؤى كانوا قبيلة صغيرة من قريش ويَعُدُّهم المصعب الزبيرى من بيوتات قريش . ويفرد لأنسابهم باباً [1] ولكننا وعندما نقرأ هذا الباب نجد أن بنى عامر بن لؤى بعيدون بُعْداً واضحاً عن عمود نسب قريش ، فمعظم أصهارهم من قبائل فهر وجذيمة بن مالك بن حسل والعَضْل (أو عَضَل) ابن الديش بن الهون ، وهذه ثلاث بطون من الأحابيش يضاف إليها الحيا والمصطلق من خزاعة . ونسب بنى عامر بن لؤى مع خزاعة كبير ، فكأن بنى عامر بن لؤى كانوا يقفون بعيداً عن صميم قريش يؤيدهم بعض فروع قريش من غير عمود النسب الرئيسى مثل : جمح بن عمرة بن هصيص ، وزعيماهم صفوان بن أمية بن خلف وسهيل بن عمرو زعيم عامر بن لؤى ، وهما اللذان سيتوليان الكلام باسم مكة فى الحديبية .

وستبدر منهما بوادر الجلافة والنعرة القرشية التى سيتغاضى عنها الرسول ، لأنه كان يقصد إلى عقد العهد لكى يُتم عُمرَته من قابل ، ويبدو بوضوح أن أبا سفيان وقومَه من بنى عبد شمس تركوا هذا الفريق من قريش يجربون حظهم فى الرياسة ، فعقدوا صلح الحديبية ، بفضل الرسول وحلمه لا بفضلهم ، ثم عجزوا عن الوفاء بالعهد ، فكان أن قرر الرسول فتح مكة ، ومن ذلك الحين يعود أبو سفيان إلى قيادة قريش ، فيقودها بحذر ويجنِّبُها الصدام مع أمة الإسلام فتظل لها وحدتها وشخصيتها، وتدخل الإسلام دون هزيمة أو مهانة كما سنرى ، فكانت قيادة بنى عامر بن لؤى قصيرة غير مُوفَّقة كما سنرى .

وتذهب الرواية إلى أن عمرو بن مسعود الثقفى بدأ كلامه مع رسول الله بمثل ما بدأ به بديل بن ورقاء ، ثم يقول عبارة نجدها بالمعنى عند معظم رواتنا وإن اختلفت لفظاً . ونتابع رواية الواقدى فهى أكثر تفصيلاً ، قال عروة بن مسعود الثقفى مخاطباً

(١) نسب قريش للمصعب الزبيرى ، ص ٤١٢ وما بعدها .

الرسول : « يا محمد إني تركت قومك ، كعب بن لؤى وعامر بن لؤى على أعداد[1] ماء الحديبية معهم العُوَّذ المطافيل ، قد استنفروا لك أحابيشهم ومن أطاعهم ، وهم يُقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم . وإنما أنت من قتالهم بين أحد أمرين : أن تجتاح قومك ، ولم نسمع برجل اجتاح أصله قبلك ، أو بين أن يخذِلك من نرى معك ، فإني لا أرى معك إلا أوباشاً من الناس لا أعرفهم من وجوههم ولا أنسابهم » ، فغضب أبو بكر الصديق رضى الله عنه وقال : امصص بظر اللات ! أنحن نخذله ! وفى عبارة ابن هشام عن ابن إسحاق جملة تفسر لنا لماذا قال أبو بكر : «أنحن نخذله ! » وهى قول عروة بن مسعود : « وأيم الله ، لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً » [2] وهذا كله كلام نتوقف عن قبوله لأننا نقرأ بعد ذلك أن أبا بكر الصديق سبق له أن أعان عروة بن مسعود فى حمل دية ، فأعانه الرجل بالفريضتين والثلاث وأعانه أبو بكر بعشر فرائض ، والفريضة هنا هى الناقة أو الجمل فى الدية ، فكيف يكون هذا صنيع أبى بكر مع عروة ثم يضعه فى الأوباش أو الأوشاب الذين لا يعرف وجوههم ولا أنسابهم ؟

ولم يعلق رسول الله على هذا بشىء ، وإنما هو قال لعروة نفس ما قاله لبُديل : أى أنه معتمرٌ غير مقاتل ، وأنه قد أتى بالهدى لينحره ، وكل ما سيفعله هو أنه سيدخل مع أصحابه ويطوفون بالبيت ثم ينحرون الهَدْىَ ويعودون وقد قضوا عمرتهم . وفى العرف الذى كان جارياً بين قريش وعامة العرب أنهم لا يمنعون عن البيت حاجاً أو معتمراً أياً كانت ظروف السياسة بينهم وبينه .

وعندما يعود عروة إلى قريش يتحدث إلى رجالها حديث رجل قد بَهَرَه ما رأى من هيبة رسول الله ﷺ بين أصحابه ، وطاعتهم له ومحبتهم فيه ثم انتظامهم وحسن سَمْتهم ، وهذا هو الذى ذكرناه آنفاً من أن رسول الله أدخل فى جماعته نظاماً عظيماً وسمتاً جليلاً وروحاً من اتحاد الصف والتآخى والتفانى لم يعرفه العرب من قبل ، وهذا ما بهر نظر عروة وجعله يغيّر رأيه وينصح قريشاً بالاستجابة إلى ما يطلبه

(1) الأعداد جمع عد ، بكسر العين ، وهو الماء الذى له مادة لا تنقطع كماء العين والبئر ، وهذا يؤكد ما قلناه عن حسن اختيار رسول الله لمكان نزوله عند الحديبية .

(2) ابن هشام ، السيرة ٣/ ٢٧ .

الرسول ، قال : « يا قوم ، إني قد وفدت على الملوك ، على كسرى وهرقل والنجاشى ، وإنى والله ما رأيت ملكاً قط أطوع فيمن هو بين ظهرانيه من محمد فى أصحابه . والله ما يَشدُّون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت ، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمر فيُفْعل ... »[1] .

وختم كلامه قائلاً : « والله لقد رأيتُ نُسَيَّات معه إن كن ليسلمنه أبداً على أى حال، فَرَوْا رأيكم ، وإياكم واضْجاع الرأى [2] ، وقد عرض عليكم خطة فمادّوه [3] ! ياقوم : اقبلوا ما عَرَض فإننى لكم ناصح ، مع أنى أخاف ألا تُنْصَروا عليه ! رجل أتى هذا البيت معظماً له ، معه الهدىُ ينحره وينصرف . فقالت قريش : لا تكلّم بهذا يا أبا يعفور ! لو غَيْرُك تكلم بهذا لَلُمْناه ، ولكن نرده عن البيت فى عامنا هذا ، ويرجع إلى قابل »[4] .

وواضح من نهاية هذا النص أن القرشيين هم الذين اخترعوا ذلك الحل الوسط فقد كان الرسول ﷺ يريد أن يدخل مكة معتمراً ذلك العام ، وكانت قريش تقول لا يدخل قط ، وعندما أخذوا فكرة واضحة عن موقفهم ، وتبيَّنوا صدق عزيمة محمد وأصحابه وقُدْرَتهم على دخول مكة بالقوة إذا أرادوا اخترعوا هذا الرأى الوسط الذى يُرضى الطرفين : إنهم يُظهرون بهذا أمام الناس أنهم لم يرضخوا لما أراد المسلمون ولم يخافوا أمامهم ، وكذلك المسلمون يعودون هذا العام إلى المدينة ثم يعتمرون فى العام القادم ، وسيرفض المسلمون هذا الحل لأنهم خرجوا للعمرة ولا بد أن يدخلوا مكة ليعتمروا ، ولكن الرسول رأى ببُعد نظره أن الرأى الذى تعرضه قريش لا بأس به إذا ارتبط باتفاق هدنة توقف أثناءها الحرب وتنفتح الطرق بين مكة والمدينة ، فيقبل أهل مكة على الإسلام ويصغر حجم أعداء الإسلام من زعماء القرشيين ، ويتمهد الطريق لفتح مكة دون قتال ، وهذا - آخر الأمر - ما كان رسول الله ﷺ يرجوه ، وإن لم يتفطن إليه المسلمون وغير المسلمين إلا فيما بعد .

---

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٥٩٨ .

(٢) أى : التلكؤ فيه .

(٣) أى : اعقدوا معه هدنة أو صلحاً لمدة معينة .

(٤) الواقدى ، مغازى : ٥٩٨ - ٥٩٩ .

ثم يظهر على المسرح مكرز بن حفص بن الأخيَف ، وهو من سادات بنى عامر بن لؤى ، من بنى معيص ، وكان رسول الله يعرفه كما يعرف كل قرشى فقال عندما رآه : إن هذا رجل غادر ! وقال له مثل ما قال لصاحبيه ، ثم يختفى مكرز دون أن يفعل شيئاً كأنه لم يجىء ، ومن الواضح أنه وفد عيناً أو جاسوساً لقريش . وتفطن الرسول لأمره ، ثم جاء الحُليس بن علقمة بن عمرو بن الأوقح وهو يومئذ سيد الأحابيش أكبر حلفاء قريش ، ومن الواضح أن قريشاً رغم تظاهرها بالثبات كان ينتابها القلق من هذه القوة التى استقرت على أبواب دارها ، وهى لا تعلم ما تريدُ بها ، ولا تملك من القوة ما تدفعها بها إذا أرادت شيئاً ، فهى ترسل الرجل تلو الرجل ليستوضح لها الأمر ، وهؤلاء الذين يذكرهم الرواة هم الظاهرون المعروفون ، ولا بد أنه كان هناك جواسيس أُخَر طافوا بالمسلمين وحذروهم ونقلوا ما استطاعوا نقله إلى قريش من المعلومات عنهم ، والحليس كان من بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وكان الرسول يعرفه ، فقد كان سيد الأحابيش، وهم مجموعة قبائل صغيرة من بنى الحارث ابن عبد مناة من كنانة بن قيس عيلان بن مضر مثل الديش والقارة والهون .

وكان بنو عبد مناة بن كنانة منهم يخدمون الحجاج ويحرسونهم لقاء جُعْل ، ولهذا قال الرسول ﷺ عن الحليس حين رآه قادماً إنه فى قوم يعظمون الهدى ويتألهون ومعناه هنا يحترمون الحجاج والمعتمرين ، ولهذا طلب إلى أصحابه أن يبعثوا فى وجهه الهدى أى الجمال والشياه والأعناز التى تخصص للتضحية بها إتماماً للعمرة ففعلوا ، وكانت تلك الحيوانات قد هزلت وساء حالها لطول بقائها مقيدة محبوسة وتساقط شعرها ، فلما رأى الحليس ذلك عزَّ عليه لأنه هو وقومه يتكسبون من خدمة الحاج والمعتمر ، وهم الذين يصيبون معظم لحوم الأضاحى ، ثم إنه سمع المسلمين يضجون بالتلبية مما يؤكد أنهم عمار البيت ، ولم تعد له حاجة بعد ذلك للحديث مع رسول الله فقد أصبحت القضية قضيته ، خاصة والأحابيش كانوا على علاقة صهر وثيقة مع بنى عامر بن لؤى وأحلافهم الذين يتزعمون قريشاً الآن .

فهؤلاء فيما رأى عمار من حقهم أن يطوفوا بالبيت ، ومن حقه وحق جماعته أن يصيبوا منهم ما يتيسر لهم من الرزق ، أما منعهم من الاعتمار فيضر بمصالح

الأحابيش ، فعاد مسرعاً إلى قريش ليقول لرجالها إنهم لا ينصفون إذ يصدون الناس عن البيت ويقطعون أرزاق الحجاج والعمار ، وهذا يخالف ما عاهَدَت قريش الأحابيش عليه ، وهكذا نرى كيف كان رسول الله بالغ الفطنة والصدق وسَعَة الأفق فهو يجرد قريشاً من حججها وأنصارها ، كل ذلك وهو يعلم ما يعلم من ضَعفِها وقلة حيلة رجالها إذ ذاك .

وقد خاطب الحليس القرشيين خطابَ رجل يدافع عن مصالح قومه ، وقال فى نهاية كلامه : « والله الذى نفسى بيده لَتُخَلُّن بينه وبين ما جاء له أو لأنْفِرن بالأحابيش نفرةَ رجل واحد » . فردوا عليه قائلين : « إنما كل ما رأيت مكيدة من محمد وأصحابه، فاكفف عنا حتى نأخذ لأنفسنا بعض ما نرضى به » .

فلما استوثق رسول الله من أن قريشاً قد جُرِّدت من آخر من بقى لها من أنصارها ، تحرك للاتصال برجالها مباشرة وهو يعلم تماماً علام استقر رأيهم ، ولم يكن عنده مانع من قبوله ، ولكن كان لا بد لتثبيت ذلك من أن تقر به قريش صراحة وترتبط به على رؤوس الأشهاد ، لا يتم ذلك إلا عن طريق مفاوضات مفتوحة .

وبدأ رسول الله ﷺ فأرسل رجلاً من خزاعة يسمى خراش بن أمية الكعبى على جمل لرسول الله ﷺ ، فما كاد يُبَلِّغُهم الرسالة حتى نفروا فى وجهه وعقروا جمله وكادوا يقتلونه ، فعاد الخزاعى وهو لا يصدق بالنجاة ، وطلب إلى رسول الله أن يبعث رجلاً « أمنع منه » فكلم الرسول فى ذلك عمر ، ولكن عمر قدَّر أن قريشاً لا بد معتدية عليه ، فاعتذر عن عدم القدرة على القيام بالمهمة ورشح عثمان بن عفان ، وكان عثمان رجلاً محترماً من القرشيين وله فيهم قرابة قوية تمنعه ، وهذا يدلنا على أن قريش الكفار فى مكة كان فيهم عصب ينزع إلى بنى عبد شمس ، ولا يزال عرق العصبية ينزع بكتلة قريش - فيما عدا بنى هاشم - حتى ألقى الخلافة كلها بين يديها فى ردة قبلية عصبية هى بلا شك نتيجة هذا الموقف المتشدد المعادى لبنى هاشم ، وهم عترة الإسلام وأهله وبيته .

ولا نستغرب والحالة هذه أن قريشاً تتشدد فى موقفها كأنها أَنِسَتْ فى عثمان عطفا

عليها : عرض عليهم عثمان أن يدخلوا فى الإسلام فرفضوا ذلك ، ثم ردد عليهم ما قاله رسول الله ﷺ آنفاً من أن تدع قريش عداءها لمحمد وتدع ذلك لمن هو أقوى منها من قبائل العرب ، فإذا انتصر محمد كان هذا نصراً لهم ، إذ هم قرشيون مثله ودخلوا فيها يدخل فيه الناس أو يقاتلون إذا أحبوا ، وهم وافرون جامُّون - أى مستريحون - « وأضاف إن الحرب نهكتكم وأذهبت بالأماثل منكم ، وأخرى : إن رسول الله ﷺ يخبركم أنه لم يأت لقتال أحد ، إنما جاء معتمراً معه الهَدْى عليه القلائد ، ينحره وينصرف »[1] وأعاد عثمان هذا الكلام على كل من لقى من كبار القرشيين دون جدوى . وجدير بالملاحظة هنا أن عثمان يتكلم هنا بلسانه لا باسم المسلمين - وكان هذا هو الأمثل ، فهو من كبار أعلام أمة الإسلام ، أما أن يقول لهم أن رسول الله يقول لكم كذا وكذا - كما تزعم بعض المراجع - فحيدة لا ندرى ماذا نقول فيها ، والذى يهمنا هنا أن وساطة عثمان انتهت عند ذلك ، وأجاره ابن عمه أبان بن سعيد ابن العاص .

ولكن عثمان لقى فى مكة جماعات من المسلمين مستضعفين تحت سطوة زعماء قريش ، وقد بعث نزول رسول الله بالحديبية الأمل فى نفوسهم ، وقال بعضهم : « اقرأ على رسول الله منا السلام ، إن الذى أنزله بالحديبية لقادر أن يدخله بطن مكة !» وكان على عثمان أن يعود إلى رسول الله فيبلغه نتيجة مسعاه ، ولكنه لم يفعل، فكان ذلك باعثاً للمسلمين على إساءة الظن فيه ، فحسبوا أنه انفرد بالطواف والعمرة وحده، ولكن تبين بعد ذلك أنه لم يفعل .

وأحس رسول الله ﷺ أن الموقف يتطور وأن قريشاً عندما رأت الحسنى واللين طمعت وتشددت ، فأخذ فى الاستعداد للموقف بما يناسبه ، وقد عرفنا رسول الله فى حياته كلها مبادراً إلى العمل ، لا يدع الظروف تقود جماعته أبداً ، بل هو الذى يقود الأحداث ويجعل جماعته سيدة الموقف أبداً ، وأمثال هذه الخصال المحمدية ورثها عنه رجاله الأماثل من طبقة أبى بكر وعمر وعلى وأبى عبيدة ، وانظر مثلاً إلى أبى عبيدة فى فتوح الشام ، وكيف لم يدع المبادرة تفوته أبداً ، وكأنه رضى الله عنه شهاب

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٦٠١ .

لا يهمد ، فمن حمص إلى بُصْرى إلى فِحْل وبَيْسَان ثم إلى اليرموك حيث يتمم النصر على ما نعلم ، فإذا لم يكن الرسول صلوات الله عليه قد لقبه بأمين هذه الأمة ، فهو والله أمينها بإيمانه وتفانيه وما تعلَّم على يدى رسوله الكريم ، وهذا هو ما يفوتنا اليوم فى صراعنا للأمم : لا نستقتل قط دون خروج زمام أمورنا فى بلادنا من أيدينا ، بل ندع الزمام يفلت ونعود على الناس بالمَلاَمة ، وقد كانت أجيالنا السالفة فى عصور الهزيمة تلقى كل اللوم على الدهر لأنهم كانوا أقلَّ من تحمل المسئولية .

وكان رسول الله يأمر أصحابه بأن يتحارسوا بالحديبية ، فلما اشتد الأمر أقام ثلاثة من أصحاب البأس والإيمان واليقظة من أصحابه على الحراسة ، وهم أوس بن خَوْلى وعباد بن بشر ومحمد بن مسلمة ، والثلاثة من أفذاذ الرجال وقد مررنا بهم فى أطواء هذه الدراسة مرة بعد أخرى ، فحدث أن قريشاً أرسلت خمسين رجلاً ذات ليلة ليطوفوا بالمسلمين لعلهم يجدون فرصة ، وكان على رأسهم مِكْرَز بن أبى حفص بن الأخيف بن علقمة من سادة بنى عامر بن لـؤى الذى سبق أن حاول التجسس لقريش ، فما كان من محمد بن مسلمة إلا أن أخذ الخمسين رجلاً كلهم أسرى ، فكان هذا العمل الرائع من محمد بن مسلمة عملاً حاسماً رد قريشاً إلى رشدها وأرغمها على أن تفتح عينيها وترى الموقف على حقيقته .

ذلك أن المكيين كانوا قد ظنوا أنهم يمسكون عثمان رهينة ، وكان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ قد استأذنوا رسول الله فى زيارة مكة فى أمان قبائلهم ، فأذن لهم فأمسكت بهم قريش وحسبت أنها تساوم عليهم ، ويستوقف نظرنا أن معظم هذا النفر كانوا من بيوت حلف لَعَقَة الدم المُنَاهِضِين لبنى هاشم ، كأنهم كانوا يشعرون أن تلك العصبية المناهضة لبنى هاشم تنفعهم حتى فى موقف كهذا . وهؤلاء النفر هم : كُرز بن جابر الفهرى (من فهر) وعبد الله بن سهيل بن عمرو (عبد شمس) ، وعياش بن أبى ربيعة (مخزوم) وهشام بن العاص بن وائل (سهم بن عمرو بن هصيص) وحاطب بن أبى بلتعة (من لخم هو حليف بنى أسد بن عبد العُزَّى وهو صاحب الحادث المعروف قبيل بدر) وأبو حاطب عمرو بن عبد شمس (من بنى عامر بن لؤى) وعبد الله بن حذافة (بنو سهم) وأبو الروم بن عمير (من بنى عبد

الدار بن قصى) وعمير بن وهب الجمحى وعبد الله بن أبى أمية بن وهب حليف سهيل بن عمرو .

أليس هذا أمراً يستوقف النظر ؟ أن تظل رابطة المنفعة التى ربطت هذه البيوت من قريش المعادية لبنى هاشم والإسلام ، قائمة يخفت صوتها عندما يجيء الإسلام فيصبح صوتها لا يكاد يُسمع إلى جانب جهارة صوت الإسلام ، لترتفع مرة أخرى عندما يتولى واحد منها الخلافة (هو عثمان) تجد طريقها إلى الظهور ، وتدب دبيب الأفعى مخادعة للناس دون علم الخليفة الشهيد ذى النورين .

ونعود إلى الجماعة الذين أسرهم ذلك الصحابى الهمام الذى لم نقدره قدره وهو محمد بن مسلمة ، فنقول : إن وقوع الخمسين قرشياً أسرى بأيدى رسول الله وأصحابه ردَّ قريشاً إلى عقلها فسعت إلى التفاهم مع رسول الله لتجنب نفسها وقومها أذى كان رسول الله يرجو أن يتداركها الله منه برحمته ومحكم تدبيره ، وقد فعل !

وهنا وقد وقع خمسون رجلاً من قريش فى يد المسلمين تُبْدِى قريش رغبة فى التفاهم ، وترسل رسولاً يقول إنهم مستعدون لإطلاق سراح مَنْ عندهم من أصحاب رسول الله فى مقابل إطلاق رسول الله لمن وقعوا فى أسره . ويكون رسول الله إذ ذاك قد بادر إلى أخذ بيعة أصحابه على القتال . وهنا يتجلى لنا حرص رسول الله على أن يكون تصرفه فى كل ما يتصل بأمور الجماعة الدنيوية قائماً على مشورتها وصادراً عن رأيها ، وكان الرسول صلوات الله عليه يستطيع أن يفترض - وهو محقٌّ لو فعل ذلك - أن المسلمين موافقون على ما يفعل ، ولكن الرسول هنا يقر مبدأ ويسير على قاعدة أساسية ، وهو أن الرأى فيما أهمَّ المسلمين من أمور دنياهم شورى بينهم ، وهو يتمسك بذلك لأنه ﷺ كان يعرف أنه قدوة لأصحابه ولمن يجيء من المسلمين من بعده ، فهو هنا يقرر قاعدة الشورى .

لقد خرج من المدينة للعمرة ، وقال لأصحابه ذلك ، والآن تغير الموقف وأصبح هناك احتمال حرب ، فلا بد أن يؤخذ رأى المسلمين ، فمن يريد أن يحارب حارب ومن لم يرد يستطيع أن يفعل ما يريد ، وهذا هو المعنى العظيم الذى تتضمنه بيعة الرضوان ، فهى ليست مجرد أخذ موافقة المسلمين على حرب محتملة ، وإنما هى إقرار

لمبدأ أراد الرسول أن يكون قاعدة من قواعد العمل فى أمته ، وهو مبدأ شورى الجماعة ، وقد سبق لرسول الله أن فعل ذلك عندما خرج إلى بدر ، فقد خرج وخرج الناس معه على أنهم يستولون على عير لقريش.

وعندما وصل الرسول إلى قرب سهل بدر ، وبدا له الشر من ناحية القرشيين وجد أن الموقف تغير ، فعقد مجلس شورى وطلب للناس أن يقولوا رأيهم بكامل حريتهم ، وكان عهد بيعة العقبة الثانية يلزم المسلمين جميعاً بالقتال فى حالة الدفاع عن المدينة فحسب ، وتأكد هذا فى الصحيفة التى عاهد الرسول فيها المهاجرين والأنصار ، أما الآن ومعه نفر من الأنصار فلا بد أن يُسْتَفْتَوا ما دام الأمر يتضمن تغييراً فى شروط اتفاق وقاعدة جارية للعمل ، وقد أدرك أهل المدينة من أصحاب الرسول الذين خرجوا معه إلى بدر أنهم المعنيون بذلك ، وردّ الرسول بأنه بالفعل يعنيهم ويسألهم رأيهم فى تغيير نصوص الاتفاق والقتال معه خارج المدينة وفى موقف ليس موقف دفاع وإنما هو موقف إعزاز لدين الله وكسر لشوكة الكفر وأهله ، فلما أيد الأنصار هذا المبدأ وأبدوا عظيم رغبتهم فى نصرة الدين ، قرر الرسول القتال برأى الجماعة .

ونحن نسجل هنا هذا الموقف ونقرر هذه الحقائق ليرى المسلمون أنهم يزعمون لأنفسهم أنهم يقتدون برسولهم حق القدوة ، ولكنهم فى الحقيقة لا يطبقونها ، فلم نر أحداً من فقهائنا السابقين درس موضوع الشورى وقرر أنه سنة ثابتة وواجبة ، فهذه هى الشورى يطبقها الرسول ﷺ تطبيقاً سليماً مرة بعد أخرى ، ثم يزعم بعض الناس أننا تعلمناها من الغرب وها هى منصوص عليها فى القرآن الكريم ومطبّقة أحسن التطبيق على يد رسوله ، ولو أننا التزمنا قرآننا وسنة نبينا لما سبقنا على وجه هذه الأرض أحد إلى علم أو فضل أو وجه من وجوه السَّبْق والقوة والتقدم ، ولكننا التزمنا بالسنة فى صغار الأمور فى الغالب ونسيناها فى عظائمها .

وجلس رسول الله تحت شجرة الرضوان المشهورة فى السيرة يتلقى بيعة الناس ، وكانوا قد أقبلوا عليها فرحين مستبشرين ، فلما رأى ذلك رجال قريش من أمثال سهيل بن عمرو بن عبد ود بن عبد شمس سيد بنى عامر بن لؤى وحويطب بن عبد العزى من بنى عامر بن لؤى أيضاً «اشتد رعبهم وخوفهم وأسرعوا إلى القضية»[1] .

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٦٠٤ .

ويستلفت النظر من أخبار استعداد المسلمين للفداء استجابة لما طلبه إليهم رسول الله ﷺ خبرٌ ترويه أم عمار الأنصارية عن نفسها ، وهي نسيبة بنت كعب بن عمرو من بني مازن بن النجار ، وهي صحابية صادقة باسلة لها مواقف كثيرة في الدفاع عن الإسلام وكان لها موقف مشهور في معركة أُحُد ، بل ستشترك في حروب الردة وتخوض معركة اليمامة وتصاب يومئذ باثنى عشر جرحاً ، قالت عن حماس المسلمين للقتال يومئذ : « فكأنى أنظر إلى المسلمين قد تلبسوا السلاح ، وهو معنا قليل إنما خرجنا عُمَّاراً ، فأنا أنظر إلى غُزَيَّة بن عمرو وقد توشح بالسيف فقمت إلى عمود كنا نستظل به فأخذته في يدى ومعى سكين قد شددته في وسطى ، فقلت : إن دنا منى أحد رجوتُ أن أقتله » .

فلما رأت قريش ذلك أطلقت مَنْ عندها من المسلمين وفيهم عثمان ، وأطلق الرسول مَن عنده من أسراهم ، ورأت قريش أنها لن تستطيع شيئاً حيال المسلمين ، وأنَّ الأمر إذا استمر على ذلك لم تُحْمَد مَغَبَّته ، فإن المسلمين لن يصبروا على ذلك الموقف طويلاً فسارعت واجتمعت وتشاورت . وانتهى رأى رجالها في دار الندوة إلى قبول ما عرضه عليها رسول الله ويقول هنا الواقدى : « فقال أهل الرأى منهم : ليس خير من أن نصالح محمداً على أن ينصرف عنا عامه هذا ويرجع من قابل ، فيقيم ثلاثة وينحر هَدْيه وينصرف ويقيم ببلدنا ولا يدخل علينا . فأجمعوا على ذلك» .

وقد أشرنا إلى أن زعماء قريش كانوا على هذا الرأى منذ حين ، ولكنهم الآن وقد أحسوا فعلاً أن المسلمين سيجتاحونهم إذا شاءوا وأنه لا يمنعهم من ذلك إلا حلم رسول الله ورغبته في تجنيب مكة - وفيها قومه - هذا المصير بادروا ، إلى الإجابة ، وكان اجتماعهم وتشاورهم واتخاذهم هذا القرار دون أن يقع بينهم خلاف يُذكر ، مما يدل على أن زعامة قريش لا زالت حتى ذلك الحين زعامة حقيقية حازمة منظمة ، فلم يَحْدُث مثل هذا التعقل والتفكير والتدبير عندما قرر الرسول إدخال ثقيف والطائف في الإسلام ، إنما كانت حرب وحصار ، ثم رأت ثقيف أن الهزيمة تحل بها فاستسلمت.

أما ما فعلت قبائل مثل غطفان وتميم فليس فيه أى تدبير أو إجماع رأى ، ففى حالة

غطفان لا نسمع بزعيم منهم له رأى إلا عُيَينة بن حصن الفزارى ، ومع ذلك فقد كان رجلاً قلقاً طائشاً لا يثبت على حال ، وكان إلى جانب ذلك منافقاً متقلباً يلقى الرسول يوماً ويحاربه بعد ذلك ، ولم يحسب الرسول له كبير حساب ، لأن رسول الله كان ينظر إلى بقية غطفان ويريد كسبها إلى الإسلام ولم ير أن يأخذها بجريرة شيخها الطائش ، فتغاضى عنه حتى لا يغضب قومه ويسهل دخولهم الإسلام بعد ذلك ، وهو لم يستخدم القوة مع غطفان ، إنما هو قضى على مركز قوتها الحضارى وهو خيبر ، فانفرط عقد غطفان ، ودخلت فى الإسلام أرسالاً ودخل عيينة فى عداد من يأتمرون بأمر الرسول دون أن تكون له فيه كبير ثقة ، وأما تميم فلم تكن لها جماعة موحدة أو رؤساء متحدون ولا رأى يُعتز به ، إنما هم كانوا قبيلاً ضخماً من الأعراب لا يملكون إلا غروراً ناشئاً عن جهل ، فلما جاء دورهم أرسل عليهم الرسول مثيلهم عيينة بن حصن وقومه فأخافوهم فعادوا إلى الرشد ودخلوا إلى الإسلام .

أما قريش التى بقيت على الكفر فلا زالت تحتفظ بنظامها وقيادتها ، لقد صَغُر حجمها وتضاءلت قوتها ومَلَكَها الخوف فمنعها من إدراك كُنْه الإسلام وفضائله وما يمكن أن يعود عليها من خير إذا دخلت فيه ، فوقفت مكانها جامدة الذهن من هذه الناحية واستمسكت قيادتها بصلف العنيد ، الذى لم يبق له إلا الكبرياء وقد أحس زعماء قريش أن رسول الله لا يريد أن يحطم كبرياءهم فهو يعاملهم برفق وأناة ، واطمأنوا إلى أنه لن يأذن لأصحابه فى اجتياحهم ، فأقبلوا على المفاوضة وهم عارفون بالمدى الذى يمكن أن يصلوا إليه ، وندبوا للمفاوضة ثلاثة من رجالهم هم سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص .

ويستلفت النظر أن ثلاثتهم من عامر بن لؤى دون كعب بن لؤى ، فسهيل بن عمرو هو ابن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى ، وأما حويطب فهو ابن عبد العزى بن أبى قيس الذى ينتهى نسبه إلى مالك بن حسل ابن عامر بن لـؤى ، وأما مكرز فهو من بنى منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤى ، فكأن الرياسة انتقلت كما قلنا من بنى كعب بن لؤى - وفيهم عمود النسب النبوى ، ويمثلهم فى جهة كفار قريش أبو سفيان صخر بن حرب - إلى بنى عامر بن لؤى ، ولم يستلفت ذلك نظر مؤرخينا القدامى .

ولكننا نلاحظ أن هذا القبيل من قريش بدأ يظهر أمره فى قريش منذ أيام صحيفة مقاطعة بنى هاشم ، فهشام بن عمرو بن ربيعة كان أول من نهض لنقض صحيفة المقاطعة وواجه أبا جهل وأنداده من المتشددين وتمكّن من نقض الصحيفة بمعاونة نفر من القرشيين . والآن نرى بنى عامر بن لؤى يتصدرون للزعامة ، فأين إذن أبو سفيان بن حرب بن أمية الأكبر من بنى عبد شمس بن عبد مناف ؟ نعتقد أن أبا سفيان وقومه من بنى عبد مناف الذين كانوا يمثلون بنى كعب بن لؤى كانوا منذ حين أمْيل إلى التفاهم مع محمد ﷺ وأمة الإسلام . لقد كانت الرياسة لهم حتى الخندق ، وبعد الخندق ، وعندما تبينوا ألاَّ قِبَل لقريش ومكة بأمة الإسلام فى المدينة مالوا إلى الموادعة ، ولم يرض عن ذلك بنو عامر بن لؤى وتصدوا للرياسة فتركهم أبو سفيان وقومه يفعلون ما يستطيعون .

وسيظل هذا القبيل فى قيادة قريش حتى ينتهى الأمر إلى نقض صلح الحديبية مع رسول الله ويقرر الرسول فتح مكة ، وهنا تعود القيادة إلى بنى كعب بن لؤى ، فيكون المتصدر للتفاهم مع رسول الله ﷺ أبو سفيان بن حرب ، ويحسن التصرف فيما أراد ، وسنرى أنه سيتفق مع الرسول ﷺ بصورة غير مباشرة على أن تسلِّم قريشٌ مكةَ دون قتال ، ويكون ذلك فعلاً ، ويكون فى ذلك إنقاذاً لقريش ، بل بداية لعصر جديد من تاريخها فى ظل الإسلام ؛ لأن قريش مكة عرفت كيف تنضم إلى قريش المدينة ، فاتحد القريشان من جديد تحت راية الإسلام ، وفى ظل محمد صلوات الله عليه ، وستحافظ قريش على هذه الوحدة فى ظل أبى بكر وعمر ، ويجتهد بنو عبد شمس فى بناء أنفسهم فى ظل دولة الإسلام دون أن ينسوا حسدهم ومنافستهم لبنى هاشم .

وما تكاد الخلافة تصير إلى عثمان بن عفان - وهو من عبد شمس - حتى يبذل العبشميون كل ما يستطيعون لوضع أيديهم على أكبر نصيب من عَصَبَات القوة فى دولة الإسلام ، فإذا استوثقوا من ذلك بقيادة معاوية بن أبى سفيان نهضوا لمنازلة بنى هاشم بعد مقتل عثمان ، ولا يزالون يعملون حتى لا يستطيع على بن أبى طالب رابع الخلفاء الراشدين السيطرة على قريش كلها وعلى دولة الإسلام جميعها ، معتمدين فى ذلك على روابط العصبية التى ربطتهم إلى مخزوم وسهم وجُمَح ومرة بن عبد مناة ، لأن

بنى هاشم وعلى رأسهم على بن أبى طالب نسوا موضوع العصبية اتباعاً لما يقضى به الإسلام ، فأحياه بنو عبد شمس وعادوا بدولة الإسلام إلى عصبية الجاهلية وحكموا الأمة بحد السيف ، ولكن الإسلام غلاب ، فلا زالت دعوة الهاشمية تستجمع القلوب حتى نهضت بعبء الدولة الهاشمية التى تحولت - بمؤامرة معروفة - إلى دولة عباسية غاصبة غاشمة . وتتحول الهاشمية الموتورة إلى شيعية بشتى مذاهبها ، فيكون بنو عبد شمس مسئولين عن ذلك الانكسار البعيد المدى ، الوخيم العواقب بالنسبة للقوة السياسية للمسلمين ، أما قوتهم العقيدية المتمثلة فى الأمة فظلت كتلتها باقية صلبة حتى يحدث الكسر الخطير الذى يُحدثه الصفويون فى جبهة الإسلام فى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى .

المفَاوَضَة وَالصُّلح :

لم يكن رجال عامر بن لؤى موفَّقين فى قيادتهم لقريش ، وكان انتدابهم أنفسهم للتفاوض مع رسول الله ﷺ مسيئاً إليهم ، ولولا كرم الرسول وسعة قلبه واتساع ذهنه لما نجحت المفاوضة ، ولكننا نعرف ما كان من أمر سُهيل بن عمرو وسوء حديثه للرسول وإصراره على عدم ذكر أنه رسول الله فى نص القضية أو نص الصلح ، ونحن نعرف أن رسول الله ﷺ كان طويل الأناة هادىء الطبع لا يرفع صوته فى حديث ، فانظر كيف يصف الواقدى شكل هذه المفاوضة : « فأتى سهيل إلى النبى ﷺ حين طلع قال : أراد القوم الصلح ! فتكلم رسول الله ﷺ فأطال الكلام : وتراجعوا ، وترافعت الأصوات وانخفضت » .

« فحدثنى يعقوب بن محمد عن عبد الرحمن بن عبد الله ، عن الحارث بن عبد الله ابن كعب قال : سمعت أم عمارة تقول : « إنى لأنظر إلى رسول الله ﷺ جالساً يومئذ متربعاً ، وإنَّ عَبَّاد بنَ بشر وسلمة بن أسلم بن حريش مُقنعان بالحديد قائمان على رأس النبى ﷺ ، إذا رفع سهيل بن عمرو صوته قالا : اخفض من صوتك عند رسول الله ، وسهيل باركٌ على ركبتيه رافعٌ صوته كأنِّى أنظر إلى عَلَم فى شفته [1] وإلى أنيابه ، وأنَّ المسلمين حول رسول الله ﷺ جلوس » .

---

(١) العلم : الشق فى الشفة العليا ، وذلك ما يُعرف بفم الأرنب .

وعندما تم الاتفاق والمسلمون يسمعون ، لم يُطِق عمر صبراً على ما يرى من حلم الرسول وطول أناته مع هذا الرجل ، فقفز من مكانه واتجه إلى رسول الله ، وقال : يا رسول الله ! ألسنا بالمسلمين ؟ قال رسول الله ﷺ : بلى ! قال : فعلام نُعطى الدنية فى ديننا ؟ ففهم رسول الله ما يقصد إليه عمر فقال : « أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ولن يُضَيِّعنى » والحق أن جلافة عمرو بن سهيل تجاوزت المدى ، وهو يطلب ويشتط معتمداً على كرم الرسول ورِفْقِه وطول أناته . وذهب عمر إلى أبى بكر وأراد أن يستثيره فكان رد أبى بكر : « إلزم غرزه (يريد طريقه) فإنى أشهد أنه رسول الله ، وأن الحق ما أُمِر به ، ولن يخالف أمر الله ولن يضيعه » وبمثل هذه العبارات والمواقف استحق أبو بكر لقب الصِّدِّيق ، وبمثل تلك المواقف أيضاً استحق عمر لقبه : الفاروق ، فقد كان كالسيف يفرق الحق من الباطل .

وها هنا موقف يُرينا الفارق بين القُرَيشيْـن . فمحمد وصحبه ومنهم الكثيرون من قريش الإسلام ، قريش الهدى والإيمان آية فى الفضل والكرم والبعد عن البغضاء والأحقاد ، ورسول الله فى هذا المشهد لا يزال يكرر : « أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ولن يضيعنى » ولو أنصف أولو الأمر فى تاريخ الإسلام لجعل كلٌّ منهم منهج حياته قوله : « أنا عبد الله ، ولن أخالف أمره ولن يضيعنى » .

وقد رأينا عمر وأبا بكر . فاستمع إلى ثالث الثلاثة الذين جمعهم الإيمان والخير والحب لرسول الله وهو أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح من بنى الحارث من فهر وغريب أمر بنى الحارث بن فهر بن مالك هؤلاء ! فقد اطّلَع هذا البيت من قريش من أعلام الإيمان والإسلام رجالاً لا يُقَارنون إلا ببنى هاشم ، فمنهم بعد أبى عبيدة – وهو أعظمهم – عمـرو بن الحارث بن زهير وهو بدرى ، وسهل بن ربيعـة بن عامـر وهو ممن مشى فى نقض الصحيفة ، ثم أسلم وكان بدريًّا ، وعياض بن غَنْم الفاتح المشهور الذى فتح الجزيرة العراقية وأرمينية ، وهو أول من جاز الدرب إلى الروم ، ومنهم هند بنت جابر زوج أبى عبيدة ، ومنهم نافع بن عبد القيس من رجال فتح مصر، وهو فاتح النوبة ، وابنه عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهرى أعظم فاتحى المغرب ، ومن ولد هذا الأخير حبيب بن أبى عبيدة وابنه عبد الرحمن أول من حاول الاستقلال بأفريقية وإقامة دولة محلية إسلامية فيها .

ويردد عمر على أبى عبيدة ما قاله لأبى بكر ، فيقول له أبو عبيدة : « ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله يقول ما يقول ؟ تعوَّذ بالله من الشيطان واتَّهم رأيك ! » قال عمر : « فجعلت أتعوذ بالله من الشيطان الرجيم حياءً ، فما أصابنى شىء قط مثل ذلك اليوم، وما زلت أصوم وأتصدق من الذى صنعتُ مخافة كلامى الذى تكلمت يومئذ » .

هذا فى جانب قريش الإيمان والإسلام ، فماذا فى جانب قريش الكفر والطغيان ؟

هذا سهيل بن عمرو يتجنى ويتصلف معتمداً على كرم رسول الله ، فقبل أن يكتب الكتاب اعتقد أن الأمر قد تم ومضى يشتط ويتطاول ويرفض أن يكتب أن محمداً رسول الله ، وعندما يُقبل ابنه أبو جندل ، وكان من المسلمين عند قريش ثم هرب من مكة ويُقبل إلى رسول الله مستجيراً أثناء مفاوضة الحديبية وكان متوشحاً سيفه « فرفع سهيل رأسه فإذا بابنه أبى جندل فقام إليه سهيل فضرب وجهه بغصن شوك ، وأخذ بَلِبَّته . وصاح أبو جندل بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أُرَدُّ إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ فزاد ذلك المسلمين شراً إلى ما بهم (وكانوا جميعاً قلقين بسبب كرم الرسول وطول أناته يتمنون لو أذن لهم فاجتاحوا مكة وقريشاً جميعاً) وجعلوا يبكون لكلام أبى جندل .

قال حويطب بن عبد العزى لمكرز بن حفص (وكلاهما من المشركين وهما زميلا سهيل بن عمرو ولكنهما أقلُّ جلافة منه) : ما رأيت قوماً قط أشد حباً لمن دخل معهم من أصحاب محمد لمحمد ، وبعضهم لبعض ، أما إنى أقول لك : لا نأخذ من محمد نَصفاً أبداً بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة . فقال مكرز : أنا أرى ذلك» . فكأن هذين الكافرين أحسَّا بقوة الإسلام والمسلمين بفضل إيمانهم وكرم نبيهم وطول أناته وبُعْد نظره ، فهما يريان أن هذا المشهد كله لا بد أن ينتهى بنصر محمد والمسلمين معه ، أما سهيل بن عمرو فلم يفتح عينيه بعد ، فهو يريد أن يأخذ ابنه ليرده إلى الكفر، ويصيح مخاطباً رسول الله ﷺ : هذا أول ما قاضيتُك عليه ، ردُّوه ! فقال رسول الله : إنَّا لم نقض الكتاب بعد ! فقال سهيل : والله لا أكاتبك على شىء حتى ترده إلىَّ ! فردَّه رسول الله ﷺ ، فكلَّم رسول الله ﷺ سهيلاً أن يتركه ويأبى سهيل ، فقال مكرز بن

حفص وحويطب : يا محمد ، نحن نُجيره لك ، فأدخلاه فسطاطاً فأجاراه ، وكَفَّ أبوه عنه ، ثم رفع رسول الله ﷺ صوته فقال : يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك فرجاً ومخرجاً . إنَّا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً وإنَّا لا نغدر » .

وهنا لم يُطق عمر صبراً ، للمرة الثانية ، فعاد يكرر على رسول الله مقالته الأولى وقد غُمَّ عليه ، وهو هنا يُعَبِّر عن شعور الكثيرين من المسلمين الذين لم يدركوا مرمى رسول الله ﷺ من وراء الصبر وضبط النفس مع هذا الكافر والمكابر اللجوج ، فهو يتحدث إلى أبى بكر : فيقول أبو بكر : إنه رسول الله ولن يعصيه ، ولن يضيعه ، فدع عنك ما ترى يا عمر ، قال عمر : فوثبت إلى أبى جندل أمشى إلى جنبه ، وسهيل بن عمرو يدفعه ، وعمر يقول : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، وإنما هو رجل وأنت رجل ومعك السيف ! فرأيت أن يأخذ السيف ويضرب أباه ، فضنَّ الرجل بأبيه فقال : يا أبا جندل ، إن الرجل يقتل أباه فى الله ، والله لو أدركنا آباءنا لقتلناهم فى الله ! فرجل برجل ! قال : وأقبل أبو جندل على عمر فقال: ما لك لا تقتله أنت ؟ قال عمر : نهانى رسول الله ﷺ عن قتله وقتل غيره ، قال أبو جندل : ما أنت بأحقّ بطاعة رسول الله منِّى !

وقال عمر ورجال معه من أصحاب النبى ﷺ : يا رسول الله ، ألم تكُنْ حدَّثتنا أنك تدخل المسجد الحرام وتأخذ مفتاح الكعبة ، وتُعَرِّف مع المعرفين (أى : تقف بعرفات)؟ وهَدْيُنا لم يصل إلى البيت ولا نحن ! قال رسول الله ﷺ : « قلت لكم فى سفركم هذا ؟ قال عمر : لا ! قال رسول الله ﷺ : أما إنكم ستدخلونه وآخذ مفتاح الكعبة وأحلق رأسى ورؤوسكم ببطن مكة ، وأُعَرِّف مع المعرِّفين » .

قال الواقدى : «ثم أقبل رسول الله على عمر ، فقال : أنسيتم يوم أُحُد إذ تُصْعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ (١٠) ﴾ - [الأحزاب] أنسيتم يوم كذا ؟ وجعل رسول الله ﷺ يُذكِّرهم أموراً : أنسيتم يوم كذا ؟ فقال المسلمون : صدق الله ورسوله يا نبى الله ، ما فكرنا فيما فكرت فيه. لأنت أعلم بالله

وبأمره منا ! فلما دخل رسول الله ﷺ (مكة) عام القضية[1]، وحلق رأسه قال : هذا الذى وعدتكم ، فلما كان يوم الفتح أخذ المفتاح فقال: ادعوا إلىَّ عمر بن الخطاب ! فقال : هذا الذى قلت لكم ! فلما كان فى حجة الوداع بِعَرَفة فقال : أى عُمَر ! هذا الذى قلت لكم ! قال : أى رسول الله ! ما كان فتح فى الإسلام أعظم من صلح الحديبية ! وكان أبو بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه يقول: ما كان فتح فى الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس يومئذ قَصُر رأيهم عما كان بين محمد ورَبّه . والعِباد يَعْجَلون ، والله تبارك وتعالى لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد الله . لقد نظرت إلى سُهيل بن عمرو فى حجه (فى حجة الوداع) قائماً عند المنحر يُقرِّب إلى رسول الله ﷺ بُدُنَه ورسول الله ﷺ ينحرها بيده ، ودعا الحلاق فحلق رأسه ، وأنظرُ إلى سهيل يلقط من شعره ، وأراه يضعه على عينيه ، وأذكر إباءه يوم الحديبية بأن يكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، ويأبى أن يكتب أن محمداً رسول الله ، فحمدت الله الذى هداه للإسلام ، وصلوات الله وبركاته على نبى الرحمة هدانا به وأنقذنا من الهلَكة»[2].

ولقد تابعت فى هذا الحديث نص الواقدى ، فإنه أبلغ من كل مقال فى تصوير حال قريش المؤمنة تجاه قريش الكافرة ، وأستطرد فى حديث الحديبية حتى أفرغ منه ، فأقول : إن سهيل بن عمرو هذا عند كتابة نص الاتفاق ، وبعد أن استدعى الرسول على بن أبى طالب ليكتب توقف سهيل فى أن يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم » وأصر على أن يكتب باسمك اللهم ، والمسلمون يضيق صدرهم بما يرون ويسمعون ، ويتغاضى له الرسول عن ذلك ويأمر علياً بأن يكتب باسمك اللهم ! ثم يتوقف سهيل بن عمرو فى أن يكتب: محمداً رسول الله ، ويقول فى جرأة الجاهل : لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك واتبعتك ، أفترغب عن اسمك واسم أبيك : محمد بن عبد الله ؟ فضج المسلمون منها ضجة هى أشد من الأولى ، حتى ارتفعت الأصوات وقام رجال من أصحاب رسول الله يقولون : لا نكتب إلا محمد رسول الله!

ثم اقرأ بقية الخبر عند الواقدى ، لتعرف إلى أىّ مدى كان رسول الله ﷺ يفهم

(١) عندما اعتمر بعد ذلك بسنة بناء على صلح الحديبية.
(٢) الواقدى ، مغازى ، ٢/ ٦٠٩ - ٦١٠ .

أصحابه ويحترم مشاعرهم ويجتهد فى إقناعهم باللين والصبر ، بأن ما سيبلغونه بالأناة والملاينة يزيد أضعافاً على ما يمكن أن يبلغوه بالعنف ، وما داموا قد ارتضوه هادياً ورئيساً وبايعوه على الحرب والسلم وفوَّضوه فى الأمر كله بعد المشاورة فى بيعة الرضوان ، فليتركوه يُسيِّر الأمور كما يرى .

قال الواقدى : فحدثنى ابن أبى سبرة ، عن إسحاق بن عبد الله عن أبى فروة عن واقد بن عمرو ، قال : حدثنى من نظر إلى أُسَيْد بن حُضير وسعد بن عُبادة قد أخذا بيد الكاتب فأمسكاها وقالا : لا تكتب إلا محمد رسول الله وإلا فالسيف بيننا ! علام نُعطى هذه الدنية فى ديننا ؟ فجعل رسول الله ﷺ يُخفِّفهم ويومىء بيده إليهم : اسكتوا! وجعل حويطب يتعجب مما يصنعون . ويقبل على مكرز بن أبى حفص ويقول : ما رأيت قوماً أحوط لدينهم من أولئك القوم ! فقال رسول الله ﷺ : اكتب باسمك اللهم . فنزلت هذه الآية فى سهيل حين أَبَى أن يُقِرَّ بالرحمن : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء] ، فقال رسول الله ﷺ : أنا محمد بن عبد الله ، فاكتب فكتب : باسمك اللهم ، هذا ما اصطلح عليه محمد ابن عبد الله وسهيل بن عمرو ، اصطلحا على وَضْع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه لا إسلال ولا إغلال [1] ، وإن بيننا عيبة مكفوفة [2] ، وأن من أحب أن يدخل فى عهد محمد فعل ، وأنه من أحب أن يدخل فى عهد قريش وعقدها فعل . وأنه من أتى إلى محمد منهم بغير إذن وليِّه رده إليه ، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم ترده ، وأن محمداً يرجع عنا عامه هذا بأصحابه ويدخل علينا قابل فى أصحابه فيقيم ثلاثاً لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر السيوف فى القُرُب » شهد أبو بكر بن أبى قحافة ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ومحمد ابن مسلمة ، وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص بن الأخيف .

ونقف هنا لحظة لنتأمل فيما أشرنا إليه من إطلاق الرسول ﷺ الحرية لأصحابه ليقول كل منهم رأيه كما يريد : فهذا عمر يعترض ورسول الله يجتهد فى أن يهدىء من

(١) الإسلال : السرقة الخفية ، والمعنى المراد لا تدبير فى الخفاء ، والإغلال : الخيانة .
(٢) أى : يكف بعضنا عن بعض .

روعه ويطمئنه إلى أنه لا يرضى بِدنيَّة فى دينه ، وإنما هو يُحَكِّم العقل وينظر إلى بعيد ، وهو يثق فى الله سبحانه وتوجيهه إياه ، وهو سبحانه لن يضيعه . وهذان أُسيد بن الحضير وسعد بن عبادة يريدان أن يمنعا الكاتب (وهو على بن أبى طالب) من أن يكتب إلا ما يقولون ، ورسول الله يطيل معهم الأناة لأنه يعرف أنه يحقق بما يرى ويفعل للإسلام فوق ما يؤملان ، وهو لا يغضب ولا يعبس ولا يأمر ولا ينهى ، إنما هو يدع من يريد أن يقول رأيه أن يقوله ثم بعد ذلك يكون رأى الأغلبية ، والأغلبية قد فوَّضت رسول الله فهى راضية بما يرى : لا استبداد فى جماعة الإسلام ولا رأى مفروض ، وإنما هو الاقتناع والثقة بين الرسول والمسلمين .

وقد رأينا أن رسول الله بعد أن اعتمر ثم حج بعد ذلك ، حرص على أن يستدعى الذين كانوا يعارضون ليريهم أنهم لم يكونوا على صواب فيما رأوا ، وأنه حقق كل ما وعد وكل ما يريدون فى وقته وأوانه على أحسن وجه ، فأين هذا مما ستراه أمة الإسلام من عسف الأموية وطغيان العباسية ؟ أين هذا من معاوية بن أبى سفيان الذى قتل رجالاً لأنهم اعترضوا على سَبِّ على بن أبى طالب رضى الله عنه على المنابر ؟ وأين هذا من أبى عبد الله السفاح وأخيه وأعمامه الذين افتتحوا عصرهم العباسى بمذابح شائنة لخصومهم السياسيين جميعاً ، المسىء منهم وغير المسىء ، بل قتلوا فى الطريق رجالاً من أوليائهم وبناة دولتهم منهم أبو سلمة الخلال الذى عُرِف بوزير آل محمد ، لمجرد أنه ظن أن الدعوة هاشمية حقاً ، فكتب من تلقاء نفسه إلى الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر وآخرين من آل على يعرض عليهم الخلافة غير عالم بما ائتمر عليه إبراهيم الإمام مع أبى مسلم الخراسانى .

وما أكثر ما نبتعد عن خط الرسول ﷺ ثم نشكو ! إن معظم مصائبنا آتية من أننا ندرس السنة درساً بالغاً ونؤلف فيها المجلدات ، فإذا جئنا إلى التطبيق انحرفنا عنها ، ثم نطلب التوفيق من الله بعد ذلك ! وهيهات !

ونلاحظ هنا أنه لم يوقع على هذه الوثيقة من الأنصار إلا واحد وذلك مفهوم ، فإن الأنصار كانوا يرون أنها فرصة ضاعت عليهم ، فرصة اجتياح مكة والقضاء على الأعداء بضربة واحدة ، ولكن رَأْى الرسول وبصيرته وبُعْد نظره غلبت ، فَقَبِل الأنصار وإن غالبيتهم لغاضبون .

وبعد أن فرغوا من الكتاب احتفظ رسول الله بالأصل وأخذ سهيل نسخة . وما كاد العقد يتم حتى وثب مَن هناك من خزاعة وقالوا : نحن ندخل فى عهد محمد وعقده ، ونحن على من وراءنا من قومنا ، ووثب بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة فقالوا: نحن ندخل مع قريش فى عهدها وعقدها ، ونحن على من وراءنا من قومنا !

وكان هذا متوقعاً ، فنحن نعرف ارتباط خزاعة بالفرع الهاشمى من قريش ، وهو الذى انتقلت رياسته إلى المدينة متمثلة فى محمد رسول الله ﷺ ثم المهاجرين ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك ، وأشرنا كذلك إلى ميل بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة إلى بنى عبد شمس بن عبد مناف منذ أيام حرب الفِجَار الثالثة .

ولكن حويطب بن عبد العزى استوقف نظره الأمر ، فقال لسهيل بن عَمْرو : بادَأَنا أخوالُك بالعداوة ، وقد كانوا يستترون منا ، قد دخلوا فى عهد محمد وعقده . وكان حويطب هنا يُعيِّر سهيلاً بأن أمه من خزاعة وهى حُبَّى بنت قيس بن ضبيش من بنى عمرو بن خزاعة ، وكذلك كان ثلاثة من أبناء عامر بن لؤى ، وهم معيص وعويص ونعيم من أم خزاعية ، أما أن خزاعة كانت تستتر من قريش أى تخفى ميلها لمحمد والإسلام فليس ذلك بصحيح ، فالخزاعيون جميعاً كانوا مع محمد ظاهراً وباطناً ومعظمهم كان قد أسلم .

فردَّ عليه سهيل قائلاً : « ما هم إلا كغيرهم ، هؤلاء أقاربنا ولَحْمَتُنا قد دخلوا مع محمد . قوم اختاروا لأنفسهم أمراً فما نصنع بهم ؟ قال حويطب : نصنع بهم أن ننصر عليهم حلفاءنا بنى بكر (بن عبد مناة بن كنانة) قال سهيل : إياك أن تسمع منك هذا بنو بكر ، فإنهم أهل شؤم ، فيثبوا بخزاعة ، فيغضب محمد لحلفائه ، فينقض العهد بيننا وبينه . قال حويطب : جظوت [1] والله أخوالك بكل وجه » . فقال سهيل : « ترى [2] أخوالى أعز علىّ من بنى بكر ؟ ولكن ، والله لا تفعل قريش شيئاً إلا فَعَلْتُه ، فإذا أعانت بنى بكر على خزاعة فإنما أنا رجل من قريش ، وبنو بكر أقرب إلىّ فى قِدَم النسب وإن كانت لهؤلاء لَخُؤولة ، وبنو بكر مَنْ قد عرفت ، لنا منهم مَوَاطن كلها ليست بحسنة ، منها يوم عكاظ » .

---

(١) يريد : أيدتهم ودافعت عنهم .
(٢) يريد : أتحسب أن أخوالى ... الخ .

وهذا الحديث بين الرجلين يدل على عمق الروابط القبلية عند أولئك القرشيين وتعلُّقهم بالأنساب ، فسهيل يدفع أول الأمر عن أخواله من خزاعة، ثم يقول إنه مع ذلك رجل من قريش يميل حيث تميل قريش ، وأن قريشاً لو نصرت بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة فإنه مع قريش على أى حال ، رغم أن كنانة كانت لهم مواقف سيئة من قريش كما فعلت فى يوم عكاظ ، وهو يوم من أيام الفِجَار ، ويُعرف بيوم عكاظ ، وفيه تخلت بنو عبد مناة من كنانة عن أبناء عمومتها قريش وأيدت هوازن ، فقتل فى ذلك اليوم وفى يوم العبلاء الذى تلاه كثيرون من قريش ولم تَنْجُ قريش إلا بفضل العنابس من بنى أمية الأكبر ، وأحلافهم من بنى مخزوم وتيم بن مرة ، وتلك هى الأصول البعيدة لانقسام قريش إلى فرعين من بنى كعب بن لؤى ، هما بنو هاشم بن عبد مناف، وبنو شمس بن عبد مناف ، وانضم إلى كل من الجانبين فريق من القرشيين .

وأعجب من هذا أن عِرْق العصبية هذا ظل ينبض فى هذا الفريق من بنى قصى بن كلاب حتى أقاموا عليه دولة بنى أمية ، أما بنو هاشم فقد غلب عليهم الإسلام وأغناهم نسب رسول الله عن كل نسب ، فكان هذا حسبَهم عند الله ، أما عند الناس فقد نبض عرق الهاشمية فى جمهور المسلمين غَضَباً لبنى هاشم وما أصابهم من أعدائهم ، ولم تعد الهاشمية عصبية قبلية بل محبة فى محمد ﷺ وأَنَفَةً من أن يصيبهم هذا المكروه كله على أيدى فريق من قريش غلبت الدنيا عندهم على الدين ، فاختاروا الدنيا وما كان أقصرها من دنيا ! فإنْ هى إلا نيف وسبعون سنة هجرية حتى ذهبت بهم الدنيا التى تكالبوا عليها وصاروا حصيد السيوف ، وقامت دولة الهاشمية التى انقلبت إلى عباسية طمعاً فى الدنيا ، فانتصر بنو العباس وما سعدوا ، ودخلوا دولتهم يخوضون فى بحر الدماء ، ونادى مناديهم : لا عصبية بعد اليوم ولا نسب إلا فى الإسلام ، يريدون أن ينسى الناس بنى هاشم ، فصار العرب جميعاً من ذلك الحين يُنسبون إلى آبائهم ولا يقال البكرى أو الكعبى أو الثقفى ، إلا عند الباحثين عن الأنساب من أهل العلم والمتمسكين بالأنساب من أهل البداوة والظعن ، ولم يبق على التاريخ من نسب يذكره الناس جميعاً ويتبركون به غير نسب بنى هاشم وعترة محمد صلوات الله عليه . وسبحان من خلق نبيه الأكرم عندما بدأ الخلق ، وتبقى رايته ملاذاً للناس عندما يُطوى الخلق كله ويُدعى للحساب .

هكذا انتهى هذا التواجه بين القُرَيْشَيْن بنصر مؤزر لقريش الإسلام على قريش الكفر ، فإن الطريق عندما فُتِحت بين مكة والمدينة وتلاقى الناس ، دخل فى الإسلام جمهور من أهل مكة ممن كانوا يطوون أنفسهم على إيمانهم خوفاً من عصبية سادات الشرك فى بلدهم ، ويُجمع الرواة على أن من أسلم فيما بين الحديبية وفتح مكة - على قِصَر المدة بينهما - زادوا أضعافاً على من أسلم قبلها . قال ابن إسحاق فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح] : صلح الحديبية . قال الزهرى : فما فُتِح فى الإسلام فَتْح قبله كان أعظم منه . إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأَمِن الناس كلهم بعضهم بعضاً والتقوا ، فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة فلم يكلَّم أحد فى الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه . ولقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان دخل فى الإسلام قبل ذلك وأكثر. قال ابن هشام : والدليل على ما قاله الزُّهرى ، أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية فى ألف وأربعمائة رجل فى قول جابر ، ثم دخل عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف »[1] .

ومن جميل مذاهب أهل السيرة أنهم يتبعون حديث غزوة الحديبية بتفسير آيات من سورة الفتح ، وهذه السورة الكريمة وما تضمنته من المعانى هى أبلغ تعبير عن نصر الإسلام ورسوله فى غزوة الحديبية هذه . وقد رأينا أن ما أبداه رسول الله أثناءها من الصبر والحلم مع الكفار والمؤمنين على السواء ، يؤكد لنا بُعْد نظره وصادق تقديره ، فقد كان يعرف أن جعجعة سهيل بن عمرو وتمسكه بالكلمة والحرف وإصراره على الصغائر ، إنما كان ستراً لما كان يشعر به هو وقومه من ضعف وخوف ، حتى ما تمسك به صفوان من ضرورة رد من أتى محمداً ﷺ من المسلمين هارباً من الكفار رده عليهم ، حتى هذا الشرط الذى أغضب الكثيرين من المسلمين تبين بعد قليل أن رسول الله كان بالغ الفطنة عندما سلَّم لصفوان الذى يبدو وكأنه تسليم لقريش بشىء هو ضرر للمسلمين .

فقد روينا خبر أبى جندل بن صفوان بن أمية وكيف تمسك أبوه بردِّه - وكان

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٤/ ١٧٠ .

مسلماً – فرده الرسول ووعده بأن يجعل الله له مخرجاً وفرجاً قريباً ، فيريد ربك أن يكون هذا الفرج أقرب مما تصور الناس ، ذلك أن رجلاً يُكْنى أبا بصير واسمه عُتبة ابن أُسيد بن جارية كان حليفاً لبنى زُهرة القرشيين ، وكان قد أسلم ، فهرب إلى المدينة لاجئاً إلى رسول الله وأمة الإسلام ، وأرسلت بنو زُهرة فى طلبه وفاءً بالشرط ، فطلب رسول الله إلى أبى بصير أن يعوّد ، فرضخ الرجل ، واقتاده رجال قريش عائدين إلى مكة ، فلما كان فى بعض الطريق تمكن أبو بصير من قتل أحد آسريه ، وأخذ سلاحه وسلبه وذهب إلى المدينة ليجد الباقين من آسريه يشكون أمره إلى الرسول ، وأقبل أبو بصير فى أثناء ذلك فقال لرسول الله : وَفَت ذِمتُك وأدَّى الله عنك ، وقد أسلمتنى بيد العدو ، وقد امتنعت بدينى من أن أُفْتن أو يُعْبَث بى أن أكذِّب بالحق ، فقال رسول الله ﷺ : ويلُ أمِّه ، محش حرب لو كان معه رجال !

ثم خرج أبو بصير إلى العيص على ساحل البحر ، وثبت فى موضع قرب طريق التجارة ، وتأشب إليه جمع من المسلمين ممن هربوا من مكة عندما بلغهم أن رسول الله قال : ويل أمه ، مِحَش حرب لو كان معه رجال وخرج الرجل إلى ساحل البحر وتلاحق به من أحب من المسلمين فأصبحوا قرابة سبعين رجلاً ضيقوا على قريش ، لا يتركون عيراً لها تمر إلا سطوا عليها ، ولا يقع فى يدهم قرشى كافر إلا قتلوه ، حتى ضجت قريش وضاقت بأولئك الرجال ، فأتوا إلى رسول الله يرجونه أن يضم أبا بصير ومن معه إليه وهم متنازلون عن المطالبة به.

وقد ثارت بهذه المناسبة مناقشات بين القرشيين ، لأن الرجل الذى قتله أبو بصير وأخذ سلاحه وعاد إلى المدينة كان من عامر بن لؤى ، فرأى صفوان بن أمية أن ديته على رسول الله وقال : «والله ما صالحنا محمداً على هذا . قالت قريش : قد برىء محمد منه ، قد أمكن منكم صاحبكم فقتله بالطريق ، فما على محمد فى هذا ؟ فقال سهيل : قد والله عرفتُ أن محمداً قد أوفى ، وما أوتينا إلا من قِبَل الرسولين . قال : فأسند (سهيل بن عمرو) ظهره إلى الكعبة وقال : والله لا أؤخر ظهرى حتى يُودَى هذا الرجل. قال أبو سفيان : إن هذا لهو السفه ، والله لا يُودى ! ثلاثاً (أى : قالها ثلاثاً) وأنى (أقول) قريش تديَه ، وإنما بعثته (أى : بعثت الرسول الذى قتل) بنو زهرة (لأن

أبا بصير كان حليفها) . فقال سهيل : قد والله صدقت ! ما ديته إلا على بني زهرة ، وهم بعثوه ولا يخرج ديته غيرُهم قَصْرَةً (أى : أن ذلك الواجب مقصور عليهم) لأن القاتل (أبا بصير) منهم ، فهم أولى مَنْ عَقَلَه . فقال الأخنس (بن شَريق - من بنى زهرة) : والله لا نديه ، ما قَتَلْناه ولا أمرنا بقتله . قتله رجل مخالف لديننا متبع لمحمد ، فأرسلوا لمحمد يَدِيَه . قال أبو سفيان : لا ! ما على محمد دية ولا غُرم ، قد بَرِئَ محمد، ما كان على محمد أكثر مما صنع ، لقد أمكن الرسولين منه . فقال الأخنس: إن وَدَته قريش كلها كانت زُهرة بَطْناً من قريش تَدِيه معهم ، وإن لم تَدِه قريش فلا نديه أبداً . فلم تُـخْرَج له دية حتى قدم رسول الله ﷺ عام الفتح ...»[1] .

وهكذا نرى أن قريشاً لا زالت رغم ما نزل بها من الهزائم وما ساء من حالها متماسكة فيما يتعلق بإقامة التقاليد القبلية والعرف القبلى فى مجتمعها ، فهذه المناقشة كلها تدور حول من يتحمل دية رجلٍ منهم قتل ، ولا سبيل لهم إلى القاتل . بل إن بنى زهرة عرضت أن تشارك قريشاً فى أداء الدية مجتمعة ، فأبى ذلك القرشيون ، فلما فُتِحت مكة ودخل رسول الله البلد مظفراً ، كان هو الذى ودى الرجل إحساناً منه وفضلاً .

ونلاحظ أثناء المناقشة أنَّ رَأْى أبى سفيان هو الذى غلب، وأبو سفيان وبيته من بنى عبد شمس جميعاً تركوا بنى عامر بن لؤى يتصرفون حتى يُنْقَض العهد بسوء رأيهم ، وهنا يعود بنو أمية للقيادة لكى يَخْرجوا بقريش الكافرة منَ الهلاك أو هكذا رجوا ، لأن الذى أنقذ قريشاً ومكة كان رسول الله بأمر الله سبحانه ، ولا يمنع ذلك من القول بأن أبا سفيان كان له فى ذلك دور كبير كما سنرى .

وقبل أن ننتقل من هذه النقطة نقول إن أبا بصير ومن معه بالغوا فى أذى قريش حتى ضَجَّتْ منهم وعجزت أمامهم ، فذهب رجالها إلى محمد ﷺ وسألوه بأرحامهم أن يضم أبا بصير وأصحابه إليه ، لكى يقلعوا من مكانهم الذى استقروا فيه بالساحل. وفعل رسول الله ، وأمر بالكتابة إلى أبى بصير ، فوصله الخطاب وهو يجود بنفسه. مات فى مكانه فى العِيص على ساحل بحر القلزم مجاهداً أعداء الله ، ودفنه أصحابه

---

(١) الواقدى ، مغازى ٢ / ٦٢٧ .

وأقاموا عند قبره مسجداً ، وعادوا إلى المدينة ، ومنهم الوليد بن الوليد بن المغيرة ، وكان من خيرة المسلمين فلما مات استأذنت أم سلمة أم المؤمنين رسول الله فى أن تبكيه فأذن لها ، لأنها ابنة عمه فهى بنت مهشَّم بن أبى حذيفة بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وهى ابنة أخيه الوليد بن هشام ، والوليد بن الوليد بن المغيرة هذا هو أخو سيف الله خالد بن الوليد . فانظر إلى تشابك أنساب قريش هذه ، وأعجب كذلك عندما تَذْكُر أنَّ حَنْتَمَة أم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ابنة عم بعيدة لأم سلمة وخالد بن الوليد والوليد بن المغيرة الذى طلبت أم سلمة أم المؤمنين من رسول الله الإذن فى أن تبكيه .

ولا يستتم كلامنا عن الحديبية ونصر الله فيها لقريش المؤمنة على قريش الكافرة ، إلا بأن نشير إلى سورة الفتح وهى الثامنة والأربعون من سور القرآن الكريم نزلت ورسول الله عائد فى الطريق من الحديبية إلى المدينة ، وأول آياتها ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ ﴾[١] . وعندك بقية السورة فى كتاب الله العزيز فاقرأها ليفتح الله عليك وعلينا من معانى الإيمان ما يملأ القلوب هدى وبصيرة .

الوَضع فى الحجاز وشمال الجزيرة وَوَسطها بعدَ الحُدَيبيّة :

ترك رسول الله ﷺ قريشاً لشأنها ، فقد أصبحت فى حسابه ثمرة تينع ثم تسقط من تلقاء نفسها عندما يحين حَيْنها ، ومضى الإسلام ينتشر بين أهلها ، وتضاءل أمر الشرك ورجاله حتى أصبحوا رمزاً بلا معنى . وقد شعروا هم بذلك ورأوا ضياع أمرهم ، فلا سبيل لهم الآن إلى تتبع المسلمين فى بلدهم أو فيما حولهم ، وضاعت من أيديهم تجارة مكة بتوالى المحن والحروب وانقطاع الطريق ، وتقطعت الأسباب التى كانت تضمن لهم سلامة متاجرهم فى نواحى الجزيرة ، وأخذت قبائل شبه الجزيرة تتطلع إلى النجم الجديد الصاعد فى سماء جزيرتهم ، نجم الإسلام ورسوله ﷺ .

---

(١) الفتح ، آيات ١ - ٤ .

ولم يبق لقريش من حلفاء إلا بنو بكر بن عبد مناة الكنانيون ، وسنرى أنهم كانوا قبيلاً ضعيفاً لا يغنى عن قريش شيئاً إذا جَدَّ الجِدُّ ، ثم هوازن وكانت قبيلاً ضخماً من البدو متعدد البطون والأفخاذ والبيوت ، يعيش فى الرمال التى تلى جبال السراة شرقاً وتمتد منهم فروع إلى غربها قرب مكة. وكانت مكة مدينتهم ومركزهم المدنى ، وعليها كان عمادهم فيما لا غنى لهم عنه من آنية وسلاح وماعون وما إلى ذلك مما لا يُصنع فى الصحراء ، ولكنهم كانوا كغيرهم من الأعراب يعيشون من يوم ليوم ، فهم إلى هذه الساعة لم يحسوا بحرج مركز حلفائهم وأنصارهم القرشيين .

وما داموا يلمون بمكة فيجدوا فيها ما هم بحاجة إليه من السيوف والآنية وآلة ركوب الخيل ، وما دامت أمة الإسلام فى المدينة لم تعرض لهم ، فقد مضوا فى حياتهم على عهدهم على الزمن الطويل ، وسيظلون على هذه الحالة حتى تُفتح مكة وتدخل أمة الإسلام فيحسون أنهم حُرِموا من مركزهم المدنى، وهنا يتحركون .

وبقيت للقرشيين كذلك ثقيف ، وثقيف كانت قبيلاً قوياً غنياً معتزاً بالطائف معتصماً بها ، يحسبون أن أحداً على وجه الأرض لا يملك لهم ضراً ما داموا متأشبين بجبالهم ، ثم إنهم كانوا قبيلاً مقفلاً على نفسه إلى حد بعيد ، فإن علاقات الصهر بينهم وبين غيرهم من العرب اقتصرت فى الغالب على قريش ومكة . وهؤلاء أيضاً لم يعرض لهم الإسلام بعد ، فإن الخط الذى رسمه رسول الله ﷺ جعل كل شىء بأوانه ، فما دامت مكة قائمة على حالها فلا سبيل إلى ثقيف والطائف . وستفاجأ ثقيف بفتح مكة وضياع ذلك الحليف القوى إلى جانبها ، ويومها ستشعر بأن يومها قد قرب وستأخذ فى التفكير فى شأن أمة المدينة وما يكون لها معها من شأن.

فإذا كان هذا هو الوضع فى الحجاز وشمال شبه الجزيرة ووسطها ، أوائل القرن السابع للهجرة (منعطف سنة ٦٢٨ ميلادية) فقد توجه الرسول صلوات الله عليه نحو خيبر ومن لاذ بها من غطفان وأسَد وقبائل صغرى ، ورأى أن يُدْخِلها أمة الإسلام حتى يحين موعد مكة ، ورمى رسول الله ببصره إلى ما وراء جزيرة العرب شمالاً حيث الفرس والروم وعرب كثيرون ، منهم عرب الضاحية وعرب الروم

وعرب الحيرة وعرب كثيرون آخرون فى بلاد الشام والعراق ، فوالى سراياه بعد خيبر على شمال الجزيرة حتى مهده ، ثم بعث فى نفس الوقت برسله إلى من رأى البدء بهم من الملوك والرؤساء خارج الجزيرة يدعوهم إلى الإسلام.

فتحُ خيبَر وَنَتائجه :

كان فتح خيبر فى صفر أو ربيع الأول سنة ٧ للهجرة / يونيو ٦٢٨ م . تمهيداً لأمر شمال شبه الجزيرة ، وقضاءً على قوة مجموعات قبائل الأعراب وأنصاف الأعراب الذين يسدون طريق المدينة إلى الشام ، وتوسيعاً لرقعة أمة الإسلام حتى تكون فى يدها تلك المجموعة من الواحات التى كانت إلى ذلك الحين أوسع منطقة زراعية فى شمال شبه الجزيرة ووسطها ، حتى إنها كانت تسمى «ريف الحجاز» طعاماً وودكاً ، والودك دهن اللحم ، حقاً إن المدينة تقدمت تقدماً باهراً فى ظل محمد ﷺ لأمة الإسلام من ناحية الزراعة والإنتاج ، ولكن هنا فى خيبر كانت وديان غنية واسعة تُزرع من عشرات السنين وربما مئاتها ، هنا كان يُزرع قمح كثير وشعير كثير ونخيل كثير ، وهنا أيضاً ثلاث تلال حصينة كلها مسلحة بالحصون والقلاع ومخازن السلاح والمؤن ، وهنا كذلك ماء كثير ، وتحيط بذلك تلال أخرى هى حافات حَرَّة خيبر وهى لا تُرام من جنوبها ، والمدخل إليها من الشمال أو الشمال الشرقى ، وفى خيبر ألوف اليهود من أهل المال والثروة والجاه العريض والقوة وجاه المال .

ومن حول خيبر قبائل من عتاة أعراب قيس عيلان : هوازن بحجمها الضخم ، ثم أسد بشراستها وإيغالها فى التوحش ، وطيء المتحصنة بجبليها أجأ وسلمى، وهذه كلها كانت دروعاً لخيبر وخيبر ردءاً لها ، وهى لهذا كله كانت فيها يرى أهلها وفيها يرى الناس لا تُرام . وعندما تسامع الناس بأن محمداً ﷺ يقصدها ، عجب الناس وسخر اليهود فى خيبر وخارجها فى الجزيرة من أمة الإسلام سُخْراً بالغاً ، قال الواقدى : « وكان يهود خيبر يظنون أن رسول الله لا يغزوهم لمنعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم . كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً ، ثم يقولون : محمد يغزونا ؟ هيهات هيهات! وكان من بمكة من اليهود حين تجهز النبى ﷺ إلى خيبر يقولون : ما أمنع والله خيبر منكم ! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها

لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم : حصون شامخات فى ذرى الجبال ، والماء فيها وانن. إن بخيبر لألف دارع. ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب جميعاً إلا بهم ، فأنتم تطيقون خيبر !» .

وهذه العبارة الأخيرة تؤكد ما قلناه هنا مرة بعد مرة من أن البدو يستمدون القوة دائماً من الحاضرة التى تكون فى منازلهم أو قريبة منها ، لأن الصناعة لا تكون إلا فى مدينة أو مركز حضرى ، والبدو لا يستغنون عن المصنوعات وخاصة السيوف والدروع وآلة ركوب الخيل وآنية الطعام ، فإذا حُرِموا من حاضرتهم لم يلبثوا أن تدهوروا واضمحل أمرهم بِقِلَّة السلاح أو فقدانه ، وهذا هو ما أراده الواقدى بقوله : «ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم » ومن الواضح أن اليهود لم يكونوا يقاتلون مع أولئك الأعراب ، بل المقصود أن هؤلاء البدو يحصلون من خيبر على السلاح الذى يمتنعون من العرب قاطبة به .

وشُغِل الناس فى الجزيرة بخبر مسير محمد ﷺ إلى خيبر وانقسم الناس فى ذلك ، فقال ناس : إن محمداً يغلِب وقال آخرون : إن خيبر تغلب ، بل تراهن الناس فى ذلك ، واقرأ هذا الكلام الذى يسوقه الواقدى على لسان جاسوس يهودى قُبِض عليه وأُتِى به إلى النبى ، فكذب على المسلمين عندما سألوه ، فلما شددوا عليه قال الحق . قال : «القوم (اليهود) مرعوبون منكم خائفون وَجِلون لما قد صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود ، وأن يهود يثرب بعثوا ابن عم لى وجدوه بالمدينة ، قد قدم بسلعة يبيعها ، فبعثوه إلى كنانة بن أبى الحقيق يخبرونه بقلتكم وقلة حيلتكم وسلاحكم ، ويقولون لهم فاصدقوهم الضرب ينصرفوا عنكم ، فإنه (يريد رسول الله) لم يلق قوماً يحسنون القتال . وقريش والعرب قد سُرُّوا بمسيره إليكم لِما يعلمون من مَوَادِّكم وكثرة عددكم وسلاحكم وجودة حصونكم ، وقد تنافست قريش وغيرها ممن يهوى هوى محمد . تقول قريش : إن خيبر تظهر ، ويقول آخرون : يظهر محمد ، فإن ظفر محمد فهو ذل الدهر »[1] .

وهكذا يهبط قدر قريش مكة فلا يكون لها من دور فى هذه المعركة الفاصلة ، إلا

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٦٤١ .

أن تُسَرَّ بمسير محمد إلى خيبر أملاً فى أن تنتصر عليه خيبر واليهود ، وهذا الموقف وحده يدلُّنا على المدى الذى وصل به الحقد بقريش مكة ، فقد أنساهم أنهم عرب . ومن هذه الوهدة سيستنقذهم الهادى المبارك محمد ﷺ .

وتنتهى غزاة خيبر بنصر مؤزر لله ورسوله والمؤمنين ، ومكان التفصيل فيها فى السيرة التى أعاننا الله على إتمامها وله الحمد والمنة . ولكن أصدق ما يصور لنا جلال النصر الذى بلغه الإسلام بعد خيبر ، هذه السطور التى ننقلها من الواقدى ، وهى حديث جرى بين عيينة بن حصن الفزارى سيد غطفان ، والحارث بن عوف من سادة غطفان أيضاً ، وكان عيينة بن حصن قد ضيَّع حلفاءه من يهود وخان عهده مع رسول الله ، ثم ندم على ذلك بعد أن وجد نفسه فى النهاية صفر اليدين « فلما رجع إلى أهله جاءه الحارث بن عوف قال : ألم أقل لك إنك تُوضِع فى غير شىء ! والله ليظهرن محمد على ما بين المشرق والمغرب ، اليهود كانوا يخبروننا هذا . أشهد لَسَمِعتُ أبا رافع سلام بن أبى الحُقَيق يقول : إنَّا نحسِد محمداً على النبوة حيث خرجت من بنى هارون ، وهو نبى مرسل ، واليهود لا تطاوعنى على هذا ، ولنا منه ذِبْحَان ، واحد بيثرب وآخر بخيبر . قال الحارث : قلت لِسَلاَّم : يملك الأرض جميعاً ؟ قال : نعم والتوراة التى أُنزلت على موسى ، وما أحب أن تعلم اليهود بقولى فيه »[1] .

مُلاحظات عَلى عمرة القضيّة :

أمن رسول الله ﷺ من خطر اليهود وأحلافهم فى الشمال وأصبح يستطيع أن يوجه جهده كله نحو مكة للفراغ من أمرها خاصة ، وقد استسلمت فدك والرسول صلوات الله عليه فى آخر مراحل معركة خيبر .

وعاد الرسول بعد ذلك إلى المدينة مظفراً ، وقد اتسعت رقعة أمة المدينة حتى شملت كل منطقة خيبر وما حاذاها إلى بحر القلزم ، ومع خضوع خيبر خضعت غطفان وأسَدٌ وطيىء بالإضافة إلى قبائل شمالى الحجاز : عُذْرة وجُذام وغِفَار وقِطَع من قضاعة وقبائل أخرى أصغر ، وهذه كلها كانت دخلت فى حلف المدينة ، أسلم منها مَنْ أسلم ، وبقى على شركه أو نصرانيته من أهلها من بقى ، ولكنها أصبحت

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٦٧٧ .

داخلة فى نطاق أمة المدينة على أى حال ، وفى أثناء ذلك استمر رسول الله يبعث بالسرايا لاستكمال أمر الإسلام ، فبعث عمر بن الخطاب فى سرية إلى تُربَة شرقى الطائف (شعبان ٧ هجرية) للتوثق من أمر بعض قبائل هوازن مثل بنى نصر بن معاوية وبنى جُشم بن بكر ، وفى نفس الوقت تقريباً ذهبت سرية يقودها أبو بكر إلى هوازن أيضاً ، وهذه كلها أعمال كان لا بد منها لإحكام القبضة على قريش مكة ، ثم أرسل بَشير بن سعد إلى فَدَك لضمان طاعة قوم من ذُبيان هم بنو مرة بن عوف بن سعد فلم يوفق بشير ، ثم أراد رسول الله أن يبعث الزبير بن العوام فى سرية لتأديب بنى مرة هؤلاء ، ثم استبدل به غالب بن عبد الله الليثى ، وكان قائداً ذا تجربة وطالع ميمون ، وبعث معه نفراً من كبراء الصحابة منهم أبو مسعود عقبة بن عمرو وكعب ابن عُجْرَة وأُسامة بن زيد وعُلبة بن زيد ، وقد أبدى غالب خلال هذه السرية من دلائل القدرة على القيادة ما يدل على أن الرسول أخرج من تحت يده قادة للرجال حقاً .

وفى هذه السرية وقع أُسامة بن زيد فى خطأين : الأول إنه خالف أمر قائده ، وكان قد آخى بين كل اثنين من رجاله وحذرهم الافتراق ، فخالفه أسامة وتبع رجلاً وقتله بعد أن قال لا إله إلا الله ، وهذا هو الخطأ الثانى ، فلم يعجب ذلك رسول الله من عمل أسامة ، فقال أسامة يلتمس لنفسه العذر : إنما قالها تعوذاً من القتل ، فقال له رسول الله ﷺ عبارته البالغة العمق والحكمة والإعلام بروح الإسلام : « ألا شققت قلبه فتعلم أصادقٌ هو أم كاذب » . وكان أسامة إذ ذاك فى مداخل شبابه وعمره ستة عشر عاماً أو نحوها ، وبمثل هذا التوجيه كان رسول الله يربى ويُعلِّم ويكوِّن ، وأسامة هذا سيصبح عَشية مرض الرسول من أحب شباب الإسلام إلى رسول الله .

وكان توفيق غالب بن عبد الله هذا داعياً إلى إرسال الرسول إياه فى سرية إلى مَيْفَعة من نواحى غربى نجد ينزلها قوم من بنى عبد بن ثعلبة أهل قلق وغارة ، فَوُفِّقَ غالب فيما أرسله الرسول له ، وقد أظهر المسلمون فى هذه السرية من حسن السمت والنظام وصدق الإيمان ما ينبىء حقاً بأنهم نبت جديد ظهر فى رياض الإسلام . وغالب بن عبد الله الكنانى الليثى من عظماء أهل الفتوح أيام الرسول ﷺ ، فإلى جانب مهارته

وحزامته وحسن تصرفه وبسالته ، كان رجلاً قائداً ذا إيمان وثيق ، وقد قاد ثلاث سرايا تعد من أحسن ما قـام به المسلمون فى العصر النبوى نظاماً وضبطاً وبلاغاً للغاية ، ثم إن رسول الله ﷺ أرسله طليعة عند فتح مكة ليسهل لهم الطريق كما يقول الرواة . وقد استوقف نظرى اختفاء اسم هذا الصحابى العظيم بعد فتح مكة ، وهناك من يزعمون أنه قُتل فى سريةٍ على بنى مرة قرب فَدَك ، وليس لدينا ما يؤيد ذلك ، ثم إن غالباً كان موجوداً ومشاركاً فى فتح مكة .

ثم تكون عمرة القضاء أى عمرة قضاء ما تم الاتفاق عليه فى الحديبية وتسمى لهذا عمرة القضية أى عمرة الصلح ، والواقدى يسميها غزوة القضية ، وكانت فى ذى القعدة سنة سبع هـ/ مارس ٦٢٩ م .

وعمرة القضاء لم يكن فيها قتال ، وهذا مفهوم ، ولكن كان فيها تلاقى الخصوم : قريش الكفر وقريش الإيمان ، والدراسة الملية هنا تكشف عن الكثير . والناس يتلاقون فى الحرب ويتلاقون أيضاً فى ميدان العقل والفكر ، وهنا نشعر أننا أمام عقل وفكر وإيمان فى ناحية ، وضيق أفق وغرور وغضب فى الناحية الأخرى ، ولم تَعدَم قريشُ الكفر العقل والحكمة ، ولكنها كما ترى عقل جاهلى وحكمة جاهلية .

ونبدأ من البداية فنقول : إن رسول الله حَثَّ على الإنفاق ، أى أن من عنده مال ينفق على من ليس عنده والقادر يعين غير القادر ، ويستوقف نظرنا هنا أن أمة المدينة لا تزال تعانى الفقر والحاجة وقلة السلاح رغم التوفيق الكبير الذى نالته والتنظيم واتساع الرقعة . ولكن أمة المدينة إلى يومها ذاك فى معركة ، والرجال يقاتلون جميعاً وليس يبقى من الجهد ما يكفى للتوسع فى زرع وضرع أو صناعة شىء كثير . ولقد زرع أهل المدينة كل الأرض الغامرة فى سهلهم ، ولكن زرعهم كان زرعاً قليلاً ، فهو الشعير فى الغالب لسهولة زرعه وقرب مجتناه ، أما القمح فقليل والنخل لا يؤتى إلا بعد سنين ، والأعناب فى ذلك الحين لم تكن بغذاء ، إنما كان قوام حياة الناس على الماشية واللبن والتمر وشىء من الدقيق ، وكان المسلمون يبذلون أقصى جهد فى رعاية الماشية . ولا نزال ونحن نقرأ السيرة نصادف أخبار الجوع وقلة الطعام ، ورسول الله يبعث فى القليل من بركته فيكثر .

ويسمع الناس دعاء الرسول بالإنفاق والتصدق ، ويسألون نبيهم . بم نتصدق ، فيقول : ولو بشق تمرة ، ولو بِمِشْقَصٍ (وهو نصل السهم دون سِنِّه) أى : قطعة خشب . وآيات القرآن تتنزل تُقَوِّى نفوس الناس وتبشرهم بالنصر وتحثهم على البذل مثل قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ (١٩٥) ﴾ [البقرة] . ويسوق رسول الله معه الهدى فى عمرة الحديبية ، ستين بدنة وهى هنا عن نفسه وعن غير القادر من المسلمين ، وعلى الهدى ذلك الأسلمى الذى نعرفه ولا نزال نلقاه ونحبه ، ناجية بن جُندُب الأسلمى ، ومعه أربعة من فتيان أسلم يرعون هدى الرسول ، وصدق المصطفى : أَسلَم سلَّمها الله .

وخرج الرسول من المدينة فى هيئة ما أجملها ، قاد مائة فرس فلما وصل ذا الحُليفة ، قدَّمها أمامه وحمل معه السلاح والبِيض والدروع يسير بها بَشير بن سعد ، فقيل له : يا رسول الله ، حملت السلاح وقد شرطوا علينا ألا ندخل عليهم إلا بسلاح المسافر ، السيوف فى القُرُب ، فقال رسول الله ﷺ : إنه لا نُدْخِلَها عليهم الحرم ، ولكن تكون قريبة منا ، فإنْ هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريباً منا ، قيل : يا رسول الله ، نخاف قريشاً على ذلك ، فاسكت (أى سكت) الرسول وقدّم البُدْن .

وكان رسول الله ﷺ قد أحرم من مسجد المدينة لأنه أزمع السير عن طريق الفُرُع ، وكان يحبه لأنه يمر فيه على الأبواء وفيها قبر أمه ، ولو أزمع السير عن طريق البيداء وهى الجادة لأهَلَّ من البيداء.

وكان محمد بن مسلمة قد سبق بالخيل حتى أدرك مَرَّ الظَّهران ومعه بشير بن سعد بالسلاح ، وهناك كانت طلائع قريش تنتظر ، ويعلن محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ يصبح بمَرِّ الظهران من غد ، وتسرع طلائع قريش إلى مكة بالخبر ، وهنا ينكشف الغطاء ويبدو على قريش الفزع من أن يكون محمد ﷺ قد أزمع ليدخلنها بالسلاح ، «ففزعت قريش فقالوا : والله ما أحدثنا حَدَثاً ، ونحن على كتابِنا ومُدَّتِنَا (صلحنا إلى عشر سنين) ففيم يغزونا محمد فى أصحابه » ؟

وينزل رسول الله مَرَّ الظهران ويقدِّم السلاح إلى بطن يأْجَج على مقربة من أنصاب الحرم عند التنعيم قبالة موضع الحُدَيبية . وتبعث قريش مِكرز بن حفص بن الأخيف

فى نفر من قريش ، حتى لقوه ببطن يأجَج «ورسول الله ﷺ فى أصحابه والهدى والسلاح قد تلاحقوا فقالوا : يا محمد ! والله ما عُرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر ! تدخل بالسلاح الحرم على قومك ، وقد شرطت ألا تدخل إلا بسلاح المسافر ، السيوف فى القرب ! فقال رسول الله ﷺ : لا ندخلها إلا كذلك» [١] وهنا فقط اطمأنت قلوب القرشيين ، فمحمد لن يستعمل السلاح . وهذه درجة من الخوف ما وصلت إليها قريش قط منذ عرفناها إلى ذلك الحين.

ودخل محمد ﷺ ومن حوله أصحابه مكة وهو يلبى وهم يلبون من حوله والسيوف فى أيديهم ، واستمرت التلبية حتى استلم الركن. ولم يفته الحذر قط ، فقد جعل أوس بن خَوْلِىّ مع مائتى رجل على السلاح ، وأوس بن خولى وجه جميل رأيناه مراراً ، ونحن نعرفه فهو من سادات بنى سالم الحُبلى من الخزرج (وهم قوم عبد الله بن أُبَى!). وهو كان آخر من نزل قبر الرسول من الأنصار .

ويقول رواتنا: إن قريشاً خرجت إلى رؤوس الجبال. ولكن من قريش؟ كل البلد ؟ تعتقد أن هذا الخروج اقتصر على رؤوس الكفر من أعداء محمد والإسلام ، وهم نفر ليس بالكبير ، من أمثال عِكْرِمة بن أبى جهل الذى نظر إلى المسلمين يطوفون بالبيت وهو معتصم بالجبل يحمد الله على أن أباه أبا جهل قضى قبل أن يرى هذا المشهد العسير عليه ، وبلالٌ على ظهر الكعبة يؤذن . وكذلك كان صفوان بن أمية وخالد بن أسيد بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ، أما سهيل بن عمرو ورجال معه فحين سمعوا بلالاً « ينهق فوق الكعبة » كما قالوا ، فقد غطوا وجوههم حتى لا يروا هزيمة أنفسهم بأعينهم .

وطاف رسول الله ﷺ بالبيت ، وسعى بين الصفا والمروة على راحلته ، فقد كان مجهداً متعباً ، ونحر هَدْيَه بيده عند المروة ، وتقدم خراش بن أمية فحلق رأس الرسول هناك .

وبعد قضاء المناسك حدث حادث لطيف لا بأس من إيراده هنا ، لأنه يدل على خلق القرشيين الذين أسلموا وهاجروا مع محمد ﷺ وأيدوه وشهدوا معه المشاهد

---

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٧٣٤ .

ليتجلى بذلك الفرق بين قريش الكفر وقريش الإسلام . ذلك أن عُمارة بنت حمزة بن عبد المطلب ، كانت قد تُركت فى مكة عند بعض عَمّاتها . وكانت أمها سلمى بنت عُمَيس وهى خثعمية يمنية من بنى عمرو بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ ، من الأزد .

فلما فرغ الرسول من عمرته أتاه علىّ بن أبى طالب فقال له : علام تترك بنت عمنا يتيمةً بين ظَهْرَى المشركين ؟ وعلى بن أبى طالب كان ابن عمها لأن حمزة بن عبد المطلب أبوها ، وحمزة استشهد فأصبحت الولاية عليها لأحد أعمامها ، وأقربهم هنا على بن أبى طالب ، فلم ينهه الرسول عن إخراجها ، فذهب فأتى بها ، وهنا تكلم فيها زيد بن حارثة ، وكان أخاً لحمزة فى الإسلام ، إذ آخى الرسول بينه وبين حمزة وقال : أنا أحق بها فهى ابنة أخى ، وسمع بذلك جعفر بن أبى طالب ، وكان قد عاد من الحبشة ولقى الرسول فى خيبر ، وجعفر كان زوج أسماء بنت عميس أخت سلمى ، فعمارة إذن ابنة أخت امرأته ، ورأى أنه أحق برعايتها من زيد بن حارثة ، وكأنه خاف أن يتزوجها زيد ، وكان زيد مزواجاً مطلاقاً ، وكان شديد السمرة قصيراً أفطس الأنف ، وكان هذا بعض ما نَفَّر منه امرأته زينب بنت جحش فى حديث طويل رويناه فى سيرة المصطفى صلوات الله عليه فى كلامنا عن زواج نبى الله من زينب بنت جحش .

وعاد على بن أبى طالب يعجب من ادعائها الحق فى هذه البنية وهى ابنة عمه وهو الذى أخرجها من بين أظهر المشركين ، فقال رسول الله : أنا أحكم بينكم ، ثم حكم بها لجعفر لأن خالتها امرأته « ولا تنكح امرأة على خالتها ولا على عمتها » ، ثم عرضوا على رسول الله أن يتزوجها فأبى ذلك ، لأن عمارة ابنة أخيه فى الرضاعة وهو حمزة ثم زوَّجها سلمة بن أبى سلمة بن عبد الأسد ، وكان يقول : هل جزيت سلمة؟ إشارة إلى أن سلمة هو الذى زوجه أمه أم سلمة وهو ﷺ زوَّجه عمارة . وهذه بتلك.

وكأنما أراد رسول الله أن يفسح المجال لنفسه فى مكة ، فلعل أهل العناد من القرشيين يرون سوء رأيهم فى هذا الموقف الجامد المتحجر من الإسلام ورسوله ، فخطب ميمونة بنت الحارث بن حَزْن الهلالية وهى أخت أسماء بنت عميس وسلمى

وسلامة بنتا عميس لأمهن ، وأمهن جميعاً هند بنت عوف بن الحارث الحميرية ، فالأم واحدة والبنات كثيرات ، وقد رزقت هند الحميرية هذه تسعاً أو عشراً من البنات كلهن تزوجن أكرم زيجات ، ومن بنات هند هذه لبابة بنت الحارث وهى أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب وهى لبابة الكبرى ، ولهن أخت أخرى تسمى لبابة الصغرى هى أم خالد بن الوليد ، فانظر والله إلى تشابك أنساب هؤلاء العرب واشتباك قريش بالصهر مع القبائل فى كل صقع من أصقاع الجزيرة . وكأن رسول الله عندما خطب ميمونة - وهى خالة خالد بن الوليد - قد أدناه من نفسه بذلك ، فكأنه ﷺ قد أصهر إليه فكان ذلك من أسباب تعجيل إسلامه .

نقول : إن رسول الله ﷺ خطب ميمونة ، فلما انقضت الأيام الثلاثة التى كان القرشيون قد أذنوا للمسلمين بالبقاء فى مكة خلالها أتاه عند ظهر اليوم الرابع سهيل ابن عمرو وحويطب بن عبد العزى ، «ورسول الله ﷺ فى مجلس من مجالس الأنصار يتحدث معه سعد بن عبادة ، فقال (سهيل) : قد انقضى أجلك فاخرج عنا . فقال النبى ﷺ : وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم ، فصنعت لكم طعاماً ؟ فقالا : لا حاجة لنا فى طعامك ، اخرج عنا ، ننشدك الله يا محمد والعهدَ الذى بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا ، فهذه الثلاث قد مضت »[1] وكان رسول الله توكيداً لحسن النية قد أقام فى خيمة ضربت له ، ولم ينزل فى بيت من بيوت بنى هاشم فغضب سعد بن عبادة من غلظة سهيل وحويطب « فقال لسهيل : كذبت لا أُمَّ لك ، ليست بأرضك ولا أرض أبيك ، والله لا يبرح منها إلا طائعاً راضياً »[2] .

وأراد الرسول أن يحسم الخلاف ، وكأنه أَنِفَ المقام بعد كلام هذين الغليظين ، فقال لسعد بن عبادة : يا سعد لا تؤذ قوماً زارونا فى رحالنا ، وأُسكت الرجلين عن سعد ، وأمر مولاه أبا رافع أن يؤذن بالرحيل ، وقال : لا يبيتن بها أحد من المسلمين ، وخرج ﷺ سريعاً إلى سَرِف وترك أبا رافع ليحمل إليه ميمونة ، فاستطال المشركون على أبى رافع ، وكظم أبو رافع غيظه ، ولكنه أزمع إذا بطش به أحدهم أن يبطش به . ولكن أحداً لم يفعل وقال أبو رافع : « ما شئتم . هذه والله الخيل والسلاح ببطن

(١) الواقدى ، مغازى ٧٣٩-٧٤٠ .
(٢) المصدر السابق : ٧٤٠ .

يَأْجَج» وكانت تلك هى الأسلحة التى أعدها رسول الله ﷺ مخافة غدر المشركين .

ولحق أبو رافع برسول الله ومعه ميمونة ، فبنى بها رسول الله ﷺ فى سَرِف ، ومن الفجر أدلج إلى المدينة . ومن غرائب الاتفاق أن ميمونة ماتت كذلك فى سرف سنة إحدى وخمسين (٦٧١م) أو سنة ٦٣ هـ / ٦٨٣م . وهى سنة موقعة الحرة وهى مأساة من مآسى تاريخ صدر الإسلام .

وبعد عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة أقبل إليه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وصاحبهما عثمان بن طلحة فأسلموا ، وكان إسلامهم فى المحرم سنة ٨ هـ / مايو ٦٢٩م . ولأصحاب السيرة والتاريخ فى الإسلام عمرو وخالد كلام طويل فيه طعم القصص ويستوقف نظرنا فى حديث إسلام خالد وعمرو أنه جاء من ناحية العقل أكثر مما جاء فى البداية من ناحية القلب ، فأما عمرو فقد ضاقت به الدنيا وهو يرى نصر الإسلام حتى ذهب إلى الحبشة ، وهذا قصص فيما نحسب . ولكن الرجل وجد بذكائه بعد عمرة القضية أنه لا مفر له من الإسلام إن كان يرجو لنفسه صلاحاً ، ويصور دافع الرجلين إلى دخول الإسلام فى تلك المرحلة الأولى من تاريخهما الطويل ذلك الحديث بين عمرو وخالد وهما فى الطريق إلى محمد ، « قال عمرو عندما لقى خالداً : أبا سليمان ؟ قال : نعم . قال : أين تريد ؟ قال : محمداً ، دخل الناس فى الإسلام فلم يبق أحد به طمع ، والله لو أقمنا لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع فى مغارتها ، وقال عمرو : وأنا والله أردت محمداً وأردت الإسلام » .

وقد أتيت بهذه القطعة من حديث أظنه من كلام القُصَّاص لأننى تنسَّمت فيه معنيين : الأول أنه يمثل يأس قريش أمام الإسلام ، وأنه لم يبق أمام أى قرشى طامح سبيل إلى الحياة إلا به ، والثانى هو أن هذين الرجلين اللذين سيدخلان الإسلام وكأنهما مضطران لن يلقيا محمداً حتى تتغير دنياهما ، فأما خالد فيصبح سيف الله وسيف رسوله ، ويتجلى عن واحد من أعاظم العسكريين فى تاريخ الدنيا ويرفع راية الإسلام إلى شأو بعيد ويلحقه بأعاظم الجيل الأول من أجيال المسلمين ، وأما الثانى - عمرو بن العاص - فسيسفر عن فاتح سياسى لا يُشق له غبار ، وأما خالد فسيودع الدنيا وعلى رأسه نور اليرموك . وأما عمرو فقد أرادت له تصاريف السياسة أن يكون

من حزب بنى أمية بعد مجد أجنادين ومجد فتح مصر وبرقة ، وتلك هى بركة المدرسة المحمدية التى لو بقيت روحها فينا لحلت بنا - نحن المسلمين - البركة والنعمة ، ولما بقيت نفس فى هذا الكوكب إلا وَحَّدَت ودخلت دين الله وصَلَّتْ على محمد .

وينبئنا عما كان ينتظر خالداً فى الإسلام إصراره عندما وقف بين يدى محمد ليدخل فى الإسلام ، أن يوعَد بالمغفرة عما سلف من أمره فى عناد الإسلام ، فقال ﷺ : «اللهم اغفر لخالد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك ! » وأمثال هذه المواقف تُرينا حجم الشخصية المحمدية ، فهذا خالد كله وهو ملء التاريخ يقف بين يدى الرسول يلتمس الدعاء له بالمغفرة ، ورسول الله يدعو بها له فى هدوء النفس المطمئنة وجلال الرسول الهادى البشير النذير .

وكان كل من الرجلين فى مطالع حياته ، وكان تَرْكُهما قريشاً نذيراً بما هى صائرة إليه ، وعلامة على ما وصل إليه حالها بعد صلح الحديبية .

وأما عثمان بن طلحة فقد اندرج فى غمار المسلمين ، وهو يكمل هذه الكوكبة الرفيعة من بنى عبد الدار الذين زانوا تاريخ الإسلام الأول ، وحسبك منهم مصعب ابن عمير . لقد قتل أبوه طلحة وعماه أبو سعد وكلاب كافرين فى أُحُد ، وأما هو فقد أكرمه الله بالإسلام وعاش حتى يشهد فتح مكة مع رسول الله ﷺ ويتسلم من يده الكريمة مفتاح الكعبة ، أعطاه الرسول إياه التزاماً بشيمة الوفاء لبنى عبد الدار أصحاب ولاية الكعبة بعد أن أباها الرسول على عمه العباس ، وكان فيها طامعاً .

وهنا موضع خبر وقع بُعَيد عودة الرسول ﷺ إلى المدينة من عمرة القضية ، ذلك أن نفراً من بنى كلاب بن عامر بن صعصعة ، وهم أبناء عمومة بنى هلال بن عامر بن صعصعة من قيس عيلان ، وفدوا على النبى وأسلموا وهاجروا إلى المدينة ، وكانت هناك عداوة بين بنى كلاب وخزاعة ، فخاف الخزاعيون من أن يكون إسلام بنى كلاب بن عامر بن صعصعة وهجرتهم مُبْعِداً لهم عن رسول الله ، لأن الكثيرين منهم لم يكونوا أسلموا ، وكذلك الكثيرون من الخزاعيين كانوا مقيمين فى مواضعهم من البدو بين مكة والمدينة ، فكلموا الرسول فى ذلك فكتب لهم كتاباً فى جمادى الآخر سنة ثمان .

قال الواقدى : «وذلك أنه أسلم من العرب كثير ،.ومنهم من هو بَعْدُ مقيم على شركِه ، ولما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية لم يبق من خزاعة ، إلا مسلم مصدِّق بالله قد أتوا بالإسلام (أى دخلوا فيه) وهو فيمن حولهم قليل، حتى قدم علقمة بن علاثة وابنا هوذة[1] وهاجروا ، فذلك حيث كتب رسول الله ﷺ إلى خزاعة : بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى بُديل وبِشر وسَرَوات بنى عمرو[2] . سلام عليكم ، فإنى أحمد الله إليكم . الله لا إله إلا هو ، أما بعد فإنى لم آثم بإلِّكُم ولم أَضَع فى جنبكم . وإن أكرم تهامة علىّ أنتم ، وأقربهم رحماً ، أنتم ومن تبعكم من المُطيِّبين ، فإنى قد أخذت لمن قد هاجر منكم مثل ما أخذت لنفسى - ولو هاجر بأرضه - غير ساكن مكة إلا معتمراً أو حاجاً ، وإنى لم أضع فيكم إذ سالمت ، وأنكم غير خائفين من قِبَلى ولا محصورين . أما بعد ، فإنه أسلم علقمة بن عُلاثة وابناه وتابعا وهاجرا على من تبعهما من عكرمة أخذت لمن تبعنى منكم ما أخذت لنفسى، وإنَّ بعضَنا من بعض أبداً فى الحل والحرم ، وإننى والله ما كَذَبتكم ، ولَيُحِبَّكم ربكم»[3].

وقد قال الرسول ذلك فى كتابه لتطمئن خزاعة على مكانتها من رسول الله وأمة الإسلام ، وكانت خزاعة قبل ظهور الإسلام ضياعاً بين أعراب الحجاز وتهامة ، لأنها كانت من أنصار عبد المطلب وبنيه ، وكانت كما رأينا مما انضم إلى حلف المطيبين، وهو حلف بنى عبد المطلب ومن معه ، المناهضين للأحلاف أو لعقة الدم وهم عبد شمس ومن والاهم ، وقد أخذهم رسول الله تحت جناحه فصاروا أحلاف أمة الإسلام . وأنت تراهم هنا قد أسلموا جميعاً ، ولكنهم لم يستطيعوا الهجرة بجمعهم إلى المدينة فمنحهم رسول الله رتبة المهاجرين سواء هاجروا أم بقوا فى مكانهم ، مما يُفهم منه أن الهجرة لم تكن فى عصر النبى مجرد الهجرة إلى المدينة المنورة ، بل الهجرة إلى الله ورسوله بالقلب والإيمان كذلك ، ويستتبع هذا ترك البداوة وأخلاقها والاستقرار والتحضر وأخلاقها ، وهذا معنى بعيد من معانى الهجرة سنزيده إن شاء الله بياناً فى كتابنا التالى

(١) هما خالد وحرملة ابنا هوذة بن خالد بن الخَيْسَر بن ربيعة بن عمرو فارس الضحياء ، وسادة بنى عمرو فارس الضحياء بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة أبناء عمومة بنى هلال الذين ذكرناهم آنفاً ، انظر ابن حزم ص ٢٨١.

(٢) بديل بن ورقاء من سادات بنى كعب بن عمرو الخزاعيين وبسر أخوه . أما عمرو فهم أبناء عمرو بن عامر بن ربيعة. فارس الضحياء من سادات بنى عمرو بن كعب الخزاعيين .

(٣) الواقدى ، مغازى : ٧٤٩ - ٧٥٠ .

عن قيام أمة الإسلام أعاننا الله على كتابته ، وهو سبحانه من وراء القصد والنية .

وقبل أن أنتقل إلى فتح مكة وهى الخطوة الحاسمة التى خطاها الرسول ﷺ فى طريقه إلى توحيد شبه الجزيرة تحت راية الإسلام وتحويلها إلى قاعدة انتشار الإسلام فى العالمين ، أقف هنا وقفة قصيرة عند حادث صغير له مغزاه وقع فى سرية الخَبْط . وهى سرية بعث فيها رسول الله ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح فى نفر من خيرة المهاجرين والأنصار لتوكيد دخول جُهَينة فى الإسلام ، وجهينة كانت منازلها إلى الشمال من المدينة على ساحل البحر الأحمر حتى قرب وادى القرى ، وكان رسول الله قد أرسل قبلها عمرو بن العاص فى سرية أخرى فى نفس الاتجاه لكى يدخل قبيلة جُذام فى الإسلام أو فى حلف المدينة وأمانها ، وكلا السريتين نتيجتان لما لقى المسلمون فى مؤتة حيث اجتمعت قبائل من عرب الروم أو نصارى العرب مع الروم أنفسهم وأنزلوا بالمسلمين هزيمة مؤتة . وكأنما رأى الرسول أنه لا يمكن لقاء الروم فى صراع فاصل إلا بعد أن تدخل مجموعة القبائل المحالفة لهم مثل غسان أو الضالعة معهم مثل لخم وجذام وهى من القبائل العربية الضاربة فى الشمال وبَلِىّ وعُذرة وبَلقين (بنو القين) .

وتسمى هذه القبائل فى العادة باسم عرب الروم أو نصارى العرب ، وربما كانت النصرانية منتشرة فى بلاد غسان ، أما عند سواها ممن ذكرنا من العرب فقد كانت هناك نصرانية قليلة . ودليل ذلك أننا نجد كنائس فى البلاد التى سادها الغساسنة ، أما بقية القبائل فلا نجد فيها كنائس إلا فى بلاد طىء حيث نجد كنيسة ، ولكننا لا نجد هناك أحباراً أو قسيسين ، وأقصى ما نستطيع أن نقوله إنهم كانوا نصارى بالاسم والميل لا بالإيمان ، أو ربما كانت نصرانيتهم سياسية ، أى : أن قولهم أو قول بعضهم بالنصرانية كان جزءاً من التأثر بالروم أو القوم بما يقولون .

فى هذه السرية نشهد ظاهرة ستبدو لنا جلية عند وفاة الرسول ﷺ فى ٨ هـ / سبتمبر ٦٣٢م وهى أن عمر بن الخطاب - وكانت له فى جماعة المهاجرين مكانة إلى جانب أبى بكر - لم يكن على وفاق مع سعد بن عبادة وجماعة كبيرة من الأنصار . ولقد كان رسول الله ﷺ رأس أمة الإسلام كلها حريصاً على القضاء على بقايا

العصبيات فى أمة الإسلام . وكانت هناك بالفعل بقايا استطاع ﷺ معالجتها بحكمته وفطانته وإيمانه ولكنها ظلت نائمة ولم تظهر إلا بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى . ولم يسلم من هذه النزعات من كبار أصحاب الرسول ﷺ إلا ناس من أمثال : أبى بكر ، وأبى عبيدة ، وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه .

والحادث الذى نشير إليه يتلخص فى أن الطعام عند أهل السرية كان قليلاً حتى اضطروا إلى أكل الخَبْط ، وهو نبات حريف تتورم منه الشفاه . فلما اشتد بهم الأمر تقدم قيس بن سعد بن عبادة ، وكان من رجال السرية ، وعرض على أحد الجهنيين أن يشترى منه جُزُراً أى إبلاً للذبح بتمْر من تمر المدينة ، ولم يكن مع قيس تمر وإنما هو اشترى الجزر دَيْناً ، أى : أنه وعد الجهنى بأن يعطيه حقه عندما يعود إلى المدينة ، وسقين من التمر من مقابل كل جزور والوسق حِمل الجمل . فاعترض عمر على الصفقة لأن قيساً فى رأيه لا يملك المال وإنما يملكه أبوه . ولا يستطيع الرجل أن يشترى شيئاً بمال أبيه دون إذن الأب وضمانه ، وقال عمر : واعجباً لهذا الغلام ! لا مال له يَدَّان فى مال غيره ، ولكن الجهنى عندما عرف نسب قيس أمضى الصفقة واشترط أن يشهد عليها شهود فشهد نفر من كبار الأنصار والمهاجرين ، وقَبِل الناس ذلك إلا عمر فقد امتنع من الشهادة لأن الصفقة فى اعتباره لم تكن مشروعة ، ووقعت بين الاثنين ملاحاة أغلظ فيها قيس لعمر فى الكلام .

والحقيقة أن عمر لم يكن له أن يدخل فى هذا الأمر ، إنما أمره إلى أبى عبيدة أمير السرية وله مكانته الكبرى فى الدين والورع زيادة على إمارته ، وقد تدخل أبو عبيدة فى الأمر عندما بلغت الجُزُر التى نحرها قيس ثلاثاً ، لأنه لم ير أن يتمادى قيس فى الإنفاق من مال أبيه دون إذن .

فلما عادت السرية إلى المدينة وأبلغ قيس أباه ما فعل ، استحسنه الأب وأمضاه ، وكان قيس قد قال لأبى عبيدة قبل عودتهم : أترى أن أبا ثابت (والد قيس وهو سعد ابن عبادة) وهو يقضى دين الناس ويحمل الكَلَّ ويطعم فى المجاعة ، لا يقضى سقة (أى وسق) تمر لقوم مجاهدين فى سبيل الله ؟ وقد مال أبو عبيدة إلى رأيه ولكنه انضم فى النهاية إلى عمر . وقد أيد سعد ابنه وأعطاه أربع حوائط (حدائق) لكى يكون له

مال ينفق منه كما يريد . وأراد قيس أن يثبت لأبى عبيدة وبقية أهل السرية كيف أنه كان صادقاً فيما توقع من إقرار أبيه لعمله فطلب إلى أبى عبيدة أن يشهد على عقد تنازل أبيه له عن الحدائق .فشهد ، أما عمر فرفض ، مما يدل على أنه كان بين عمر وسعد شيء من عدم التراضى ، وهو أمر سيتجلى فيما جرى فى سقيفة بنى ساعدة ، فانظر فى مقابل ذلك ما قاله الرسول تعليقاً على الحادث كله : إنه (بيت سعد بن عبادة) بيت جود وهذا مقال من إنصاف الرسول للناس ، ودقة حكمه على الأمور فهو لم يثبط همة الغنى فيما فعل ، ولم ينظر إليه على أنه تصرُّف فيه غرور ، وإنما امتدح البيت كله فى كلمة قصيرة أسعدت الأب والابن وأجازت ما فعلاه جميعاً .

* * *

فتْحُ مَكّة
ودُخول قُرَيش فى الإسْلاَم
ووصُولها إلى قيادَة أمّة الإسْلام

فتح مكّة :

كان فتح مكة فى رمضان سنة ٨هـ/ يناير سنة ٦٣٠م . حادثاً فاصلاً فى السيرة النبوية وتاريخ العرب جميعاً ، إذ به انتهت تلك الحرب الطويلة المدى بين الإسلام وقريش . وبدخول مكة وقريش أمة الإسلام انحسم الخلاف فى أمر الإسلام بين العرب ، فأقبلوا يدخلون فى الإسلام جماعات ووفوداً وأفراداً ، فأما من كان ذا إيمان من العرب فقد دخل الإسلام عن إيمان ، وأما من لم يكن ذا إيمان فقد اقتنع بالأمر الواقع واستسلم ودخل الإسلام وانضم إلى أمية . وهذه قريش كلها تنضوى تحت لواء محمد صلوات الله عليه وسلامه . فأىُّ برهان هو فى نظر أولئك الأعراب أكبر من هذا على صدق محمد فيما كان يقول ويدعو له ؟

وكان رسول الله ﷺ واثقاً فى أن ما وقع فى الحديبية كان آخر مظهر لمقاومة قريش مكة للإسلام ، فقد وجد فى ذلك اللقاء أمامه رجالاً أنهكتهم الحرب وأفقرهم خوف التجارة وهاضت جناحهم قلة النصير فلم يبق من المكابرين منهم إلا العداوة وشقشقة اللسان والحرص على ماء الوجه . وكان رسول الله حريصاً أشد الحرص على ألاَّ يجردهم من ذلك ، وفى قرارة نفسه كان يحس أن معظمهم سيدخلون الإسلام إذا أتيحت لهم فرصة لدخوله دون الشعور بالهوان ، فكان حريصاً على أن يعطيهم هذه الفرصة حتى إذا دخلوا الإسلام لم يدخلوه حطاماً ، بل ناساً كرماء ينتفعون بالإسلام وينتفع بهم الإسلام ، ولهذا فسنجده حليماً معهم الحلم كله ، كريماً معهم الكرم كله .

وقد رأينا أنه عندما عقد الرسول ﷺ صلح الحديبية مع قريش دخلت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة فى حلف قريش وعقدها . ودخلت خزاعة كلها فى عهد رسول الله ﷺ وعقده ، وكانت خزاعة كما ذكرنا مرة بعد أخرى مع رسول الله ﷺ منذ استقر فى

المدينة وأخذ يبنى جماعته بها . ويذهب المؤرخون إلى أن خزاعة أسلمت منذ مر الرسول الكريم بمنازلها وهو فى طريقه إلى يثرب مهاجراً . وهو تزيُّد لا معنى له ، بل يذهب المؤرخون إلى أن خزاعة كانت فى حلف عبد المطلب بن هاشم ، ولقد أورد الواقدى نص كتاب الحلف الذى عُقد بين عبد المطلب بن هاشم والخزاعيين ، وهو كتاب منتحل دون أدنى شك وضعه الخزاعيون بعد أن أسلموا فى عقد رسول الله وأمة المدينة . فلم يكن الجاهليون يكتبون أحلافهم فى صحائف أو على العظام أو لحاء الشجر ، إنما كانت هناك طقوس لعقد الأحلاف تتم عند أصنام المعبودات ويقسم الحيَّان على ما يريدون أن يتحالفوا عليه ثم يقدموا ذبائح عند النُّصُب أو يغمسوا أيديهم فى دم أو طيب . وأبسط ما يدل على زيف هذا الكتاب هو أن فيه نص الكتاب الذى سيعطيه رسول الله (الآن) لخزاعة وهو فى طريقه لفتح مكة .

ولكن الكتاب بين عبد المطلب وخزاعة إذا كان زيفاً ، فإن الحلف بين خزاعة ورسول الله حقيقة دفعت إليها تصاريف السياسة . وما قدره الله فى عمله من الخير للخزاعيين . وقد تحدثنا عن خزاعة فى القسم الأول من هذا الكتاب وحققنا أمر نسبها إلى حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد ، وإذا كنا نشك فى مساق هذا النسب الذى يربط نواة خزاعة إلى الأزد فقد بيَّنا أنه انضافت إلى نواتهم جماعات من إلياس بن مضر ، إما مباشرة عن طريق أفصى بن عامر ، أم غير مباشرة عن طريق خندف امرأة مضر ، ولكن عداد خزاعة فى النهاية فى عرب اليمن وهم كذلك أبناء عمومة الأوس والخزرج ، فهؤلاء فيما يقول النسابة أولاد عمرو بن ثعلبة العنقاء أخى حارثة بن عمرو جد خزاعة فيما يقول الرواة .

وقد بيَّنا فى القسم الأول بطلان ما زعمه ابن حزم فى الجمهرة من أنهم – قطعاً – من أبناء لُحَىّ بن عامر بن قمعة بن إلياس بن مضر ، وهو زعم أوقعه فى أخطاء كثيرة فى مساقات أنسابه ، ونحن لا نأخذ بصحة معظم الأسماء الواردة فى شجرات الأنساب هذه ، فكلها رسوم هندسية نسقها الرواة لتأييد علاقات عصبية ومصالح سياسية أو لنقض مصالح أخرى ظهرت بعد الإسلام ، وإنما نحن نأخذ بمعناها

جملة ، فليس من الضرورى أن نقول إن خزاعة من الأزد ، ولكن لابد أن نقرر أن أصلهم من اليمن شأنهم فى ذلك شأن كندة وشأن غسان وشأن الأوس والخزرج وقد نصر الله رسوله الأكرم بالأوس والخزرج ونصره بخزاعة ، ومن هنا جاء الحديث النبوى الذى يقول « إن الإسلام يمان » وهو حديث موضوع أيضاً [1] ، ولكن فى معناه ومغزاه حقيقة تاريخية .

والحقيقة التاريخية هنا هى أن خزاعة أصبحت بفضل الحلف مع رسول الله وأمة الإسلام بالمدينة أقوى قبائل المنطقة الممتدة من مكة إلى المدينة ، ولم تأت هذه القوة من التأييد المستمر الذى قدمته أمة الإسلام إلى خزاعة ، بل نتجت أيضاً من إلحاح المسلمين على توجيه الضربات إلى القبائل الموالية لقريش ، أو التى كانت مناوئة للإسلام ولخزاعة أيضاً فى تلك المنطقة مثل لحيان ومحارب والدئل وعَضَل والقَارَة ، وكلها كانت قبائل بدوية . ومثال ذلك بعض بنى سليم بن منصور وكانت منازلهم عند معدن بنى سليم بين مكة والمدينة عند ما يُعرف اليوم بمهد الذهب ، وكذلك بعض بنى هلال بن عامر بن صعصعة من أعراب أطراف نجد الغربية ، وتدخل مع هؤلاء جماعات من قيس عيلان عاشت بعض فروعها فى الحجاز ، وكانت هذه كلها تنسب نفسها إلى مُضَر ، وتدخل فى هذه القبائل غطفان بفروعها العديدة . وكانت لاتكف عن الغارة والتدبير على المسلمين .

وخلال الفترة من واقعة الخندق فى ذى القعدة سنة ٥هـ/ أبريل ٦٢٧م . إلى الحديبية فى ذى القعدة سنة ٦هـ/ مارس ٦٢٨م. لم توقف أمة المدينة ضرباتها على أولئك البدو حتى انكسرت شوكتهم وضعفت قواهم ولم تعد منافسة لخزاعة ، وذلك كله زاد الخزاعيين تعلُّقاً بالإسلام ورسوله ، فقد وجدوا فى ظل الإسلام من العزة والمنعة ما لم يعرفوه من قبل ، وتحققت تحت سمعهم وأبصارهم كل كلمة قالها الله فى قرآنه والرسول فى حديثه وزالت عن خزاعة وصمة أو مِسْحة الذل والضعف التى

---

(١) صحة لفظ الحديث « الإيمان يمان » وهو حديث صحيح أخرجه البخارى فى صحيحه (٨/ ٩٩) (١٣/ ٧٨) وكذا مسلم فى صحيحه (كتاب الإيمان ٨٩ ، ٩٠) والله تعالى أعلم . وما ذكره الدكتور حسين مؤنس جاء فى إطار التأصيل السياسى للأحداث وارتكازها على أسس دينية وأثر هذا على التطور السياسى فى تاريخ المسلمين ، وهى وجهة نظر معتبرة عبر عنها المؤلف (المراجع) .

كانت قد لصقت بهم بعد أيام عبد المطلب وعلو نجم خصوم بنى هاشم من بنى عبد شمس وأحلافهم ، وكان الخزاعيون - كما سبق أن ذكرنا - أنصاف حضر- Semi nmads أو متنقلين بين الاستقرار إذا وجدوا الماء الوافر أو المطر المتصل والظعن إذا عَزَّ الماء واضطرتهم ظروف المناخ وتصاريف صراع القبائل إلى الظعن والتنقل ، وهم فى هذا كله يشبهون بقية العرب الراجعين إلى أصول يمانية : الأزد فى عمان وفى جبال السراة وكندة على أطراف نجد والأوس والخزرج فى المدينة وبنو غسان وبنو لخم فى الشام . فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه واستظلوا بأمانه هاجر منهم إلى المدينة واستقر فيها من هاجر واستقر ، وظل الباقون فى مواضعهم فيما بين مكة والمدينة مستقرين آمنين فى بلادهم مستمسكين بالعروة الوثقى ، وهى عروة الإسلام .

ولم يعز بالإسلام قوم من خزاعة كما عَزَّ بنو أسلم بن لحى الذين ينسبهم ابن حزم فى شطحة من شطحاته القليلة إلى عامر بن قمعة بن إلياس بن مضر ، وهم فى الحقيقة أزد يمانيون قد ربط النسابون نسبهم بنسب مضر من باب التبرك والتشرف بالانتساب إلى قوم محمد ﷺ على ما قلناه ، وقد رأينا من بنى عدى الخزاعيين هؤلاء بديل بن ورقاء وعرفنا صدق إسلامه وولائه لرسوله فى محادثات الحديبية ، ويصفه ابن حزم بأنه كان أدهى العرب وابنه عبد الله وهو صحابى سينضم إلى شيعة على ويُقتل فى معارك صفين ، وأخوه نافع بن بديل صحابى من شهداء بئر معونة ، ومن أكابر الخزاعيين وصحابة الرسول بريدة بن الحصيب الأسلمى الخزاعى ، وكان فارساً نجداً شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وآخر مشاهده فى حياة الرسول أنه كان صاحب لواء أسامة بن زيد فى سريته التى أمر بها رسول الله وأنفذها أبو بكر بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى .

وكان بريدة عندما سمع بوفاة الرسول قد عاد بلواء أسامة وجعله على باب أسامة ابن زيد ، حتى إذا نفذ البعث أخذه وقَالَ تحته فى أُبْنَى من قرى البلقاء وعاد بعد ذلك إلى المدينة وأخمل أمره كما أخمل أمر أسامة بن زيد بعد بعثة هذا ويقال : إن بريدة هذا أسلم على يد الرسول ﷺ وهو مهاجر من مكة إلى المدينة مع أبى بكر ، هذا مستبعد وإنما أتت هذه الجلالة كلها لبريدة بن الحصيب من أولاده وأحفاده الذين هاجروا مع

مواليهم إلى البصرة ، ثم إلى خراسان واستقروا بمرو ، وكانوا من أعيان العرب بها وأنكروا ظلم بنى أمية ودخلوا فى شيعة الهاشميين وكان فيهم ثلاثة من نقباء الدعوة الهاشمية التى تحولت إلى دعوة عباسية ، ومن هنا ازداد ذكر بريدة طيباً بفضل صحبته للنبى وبفضل ما قسم لأحفاده وموالى بيته من القدر العظيم فى مرو ، ومن هنا لا نتعجب عندما نقرأ أن رسول الله ﷺ قال لبريدة بن الحصيب وللحكم بن عمرو الغفارى : أنتما عينان لأهل المشرق .

وقد تأكدت مكانة الخزاعيين عندما اعتدت بنو بكر بن عبد مناة على بنى كعب وهم بيت كبير من أسلم ، فكان ذلك كما سنرى بعد قليل السبب المباشر فى مسير الرسول إلى مكة فاتحاً ، وفى طريق محمد ﷺ إلى مكة يمر بمنازل خزاعة وهم أنصاره وأولياؤه ، ويلقاه بريدة بن الحصيب عند غدير الأشطاط وهى منزل كان على الطريق الرئيسية من مكة إلى المدينة وتسمى بالجادة أو الطريق طريق البيداء ، وتقع على ثلاثة أميال شمالى عسفان أى على خمسة كيلو مترات منها على وجه التقريب ويقول له : يا رسول الله ، هذه أسلم وهذه محالها وقد هاجر إليك من هاجر منها ، وبقى قوم منهم فى مواشيهم ومعاشهم فقال رسول الله ﷺ : وأنتم مهاجرون حيث كنتم ، ويدعو العلاء بن الحضرمى (كاتبه) ويأمره بأن يكتب من إملاء الرسول كتاب إقرار لخزاعة فى منازلها وتأمين لهم فيها على مثال ما سيكتبه الرسول لكل من جاءه مبايعاً مسلماً منيباً من وفود العرب فى عام الوفود ، ورسول الله فى هذه الكتب أراد أن يقر كل قوم فى أرضهم ومرابعهم ويؤمنهم فيها ليقيم السلام بينهم ، وهو لم يعط فى كتبه كلها أحداً أرضاً إلا أن تكون أرضاً غامرة لا يطلبها أحد فهو يريد عمارها ، لأن رسول الله لم يكن ليتصرف إلا فيما ملكت يمينه ، لأنه صلوات الله عليه رمز الحق والشرع ، والشرع لا يجيز للرجل أن يتصرف إلا فيما يمتلك فعلاً وشرعاً ، أما ما يقال من أن الرسول أعطى بنى تميم الداريين أرضاً فى فلسطين ولم تكن قد فُتِحَتْ بعد ، وأعطى الرهاويين أرضاً فى الجزيرة فأحاديث لا تصح ، ولكن مؤرخينا يرددونها دون تفكير ، بل ذكرها بعض الفقهاء وحاولوا أن يجدوا لها تبريراً .

ونص الكتاب الذى كتبه العلاء بن الحضرمى عن رسول الله لبنى أسلم

الخزاعيين : « هـذا كتاب من محمد رسول الله لأسلم ، لمن آمن منهم بالله أو شهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فإنه آمن بأمان الله وله ذمة الله وذمة رسوله ، وأن أمرنا وأمركم واحد على من وهمنا من الناس بظلم ، اليد واحدة والنصر واحد ، ولأهل باديهم مثل ما لأهل قرارهم ، وهم مهاجرون حيث كانوا » .

ويبدو أن التحمس للإسلام ورسوله والولاء لهما كان قد أصبح أمراً عاماً مشتركاً بين الخزاعيين كباراً وصغاراً . فقد حكى الواقدى فى كلامه عن فتح مكة أن رجلاً من كنانة يسمى أنسَ بن زنيم الديلى هجا أو سبَّ رسول الله ﷺ فسمعه غلام من خزاعة فوقع به فشجه ، فكان ذلك من أسباب وقوع القتال بين بنى بكر وخزاعة .

وتذهب النصوص إلى أن بنى بكر بن عبد مناة - عدا مدلج - عندما قرروا الإيقاع بخزاعة وأيَّدهم جماعة من قريش فى ذلك فيهم صفوان بن أمية بن خلف ومكرز بن حفص بن الأخيف ، وحويطب بن عبد العزى ، ونفر آخر من بنى عامر ابن لؤى ومن لَفَّ لَفَّهم ، قد وافقوا على أن يشتركوا فى الغارة متنقبين حتى لا يُعرف أمرهم ، وهذا مستغرب لأن أولئك الرجال كانوا كفاراً وأعداء للإسلام فعلاً ، ولكنهم لم يكونوا حمقى إلى الحد الذى يجعلهم يقعون فى خطأ فاحش كهذا ، ومثلهم - مهما تنقب - لا يخفى أمره إذا اشتركوا فى قتال ، ولكن من الثابت أن أبا سفيان لم يشترك فى تلك الحماقة ، فمن قائل إنه لم يعلم بها ، ومن قائل إنهم حدثوه فى أمرها فنصحهم بألاَّ يقدموا عليها .

ومن الواضح أن ذلك الرجل كان قد أيقن الآن وأكد ألا قِبَل له ولا لقومه بمحمد أو أمة المدينة واتجه تفكيره إلى موادعة المسلمين ، وإن لم يدخل الإيمان قلبه . أما محاربة المسلمين فأمر لم يكن يخطر له على بال . على هذا الرأى كانت بقية بنى كعب ابن لؤى وهم قلب قريش البطاح وبيتها وعددها . ثم كان ما كان من عدوان بنى بكر ابن كنانة على الخزاعيين ، ذلك الاعتداء البشع الذى يتجلى فيه الحقد العميق الذى كانت بنو بكر تحمله لخزاعة التى أصبحت سيدة الحجاز وتهامة من دون بنى بكر وبقية كنانة وكانوا يحسبون أنفسهم قبل الإسلام أعز من خزاعة وأكرم وأمنع فوجدوا أنفسهم يتضاءلون إلى جانب خزاعة التى عزَّتْ بالإسلام . وحقد هذا القبيل من

كنانة على خزاعة يعدل حقد قريش الكفر على الإسلام الذى أنزلها من صدارة الجزيرة العربية وانتزع منها الفضل والشرف والثروة والمكانة الدينية ، وقديماً قالوا : إن الحقد أسوأ دليل وأشأم ناصح .

لقد انقضَّ نوفل بن معاوية الدؤلى وقومه من بنى بكر بن عبد مناة على الخزاعيين وهم فى منازلهم غارُّون مطمئنون لا يتوقعون شراً من أحد فى ظل صلح الحديبية ومدته عشر سنين . لم ينقضِ منها إلا سنة وثمانية شهور أو تسعة فنحن الآن فى شعبان سنة ثمان فى الغالب ، وربما يكون الذى أجج حقد زعماء القرشيين المقيمين على كفرهم، هو التوفيق الذى لا يكاد يصدق الذى حققته أمة الإسلام خلال هذه الفترة القصيرة. ويكفى فتحها لخيبر وضم أراضيها وما بينها وبين المدينة من أراضٍ إلى أمة الإسلام وما استتبعه ذلك من كسر شوكة غطفان وأسد وبنى طيء وامتداد نطاق أمة الإسلام إلى فدك شمال شرقى خيبر ، وإلى تيماء ووادى القرى شمالى الحجاز .

وهذا يفسر لنا كيف أن نوفل بن معاوية الدؤلى وقومه من بنى بكر بن عبد مناة انقضوا على الخزاعيين وأنزلوا بهم مذبحة بشعة ، وكان الهجوم فى موضع من منازل خزاعة قريب من مكة . ونحن نعرف أن المركز الكبير لخزاعة كان عند غدير الأشطاط ، على نحو يومين شمالى مكة أى سبعين كيلو متراً على وجه التقريب ، وقد أسرع الناجون من تلك المذبحة إلى مكة ليحتموا بدار شيخهم بديل بن ورقاء ، وكان له فى مكة دار واسعة ، وكان من أصحاب المكانة هناك ، وكانت هناك دار رجل آخر من سراة خزاعة يسمى رافعاً الخزاعى ، ولم نستطع التعرف على رافع هذا فيما بين أيدينا من المراجع ، وتسلل زعماء القرشيين من بنى عامر بن لؤى إلى منازلهم « يظنون ألا يُعرفوا وألا يبلغ هذا محمداً ﷺ » كما يقول الواقدى [1] وعندما بلغ الناجون مكة وتخطوا الحرم ظنوا أن ذلك يوقف نوفلاً فصاحوا : يا نوفل إلهك ! إلهك ! قد دخلت الحرم ، قال : لا إله اليوم يا بنى بكر (يخاطب قومه) قد كنتم تسرقون الحاج ، أفلا تدركون ثأركم من عدوكم ! لا يريد أحدكم أن يأتى امرأته حتى يستأذننى ، لا يؤخر أحد منكم بعد يومه هذا ثأره .

---

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٧٨٤ .

ولم يكد القرشيون يفرغون من فعلتهم هذه حتى أدركوا جسيم خطئهم فيما فعلوا، فإذا صدق الرواة فى كل ما قالوا عن نقض النفر الذين ذكرناهم من قريش للعهد ، فإن ذلك يدل على أن القبيلة كانت قد فقدت وحدتها الأولى وقدرتها على تسيير أمورها كلها فى الطريق الذى ترتئيه أغلبية أهل الرأى منها كما كان عهدنا بها دائماً ، والذى يدعونا إلى الشك فى صحة بعض ما تقصه علينا المراجع من أمر نقض قريش للعهد بالطريقة الجافة القصيرة النظر التى تصرَّف بها من يقال إنهم اشتركوا فى عدوان بنى بكر بن عبد مناة على خزاعة ، هو تبرؤ أبى سفيان من جريرة هذا العمل وقوله إنه تم بدون علمه ، وهو بالفعل لم تكن له يد فيه ، فكيف يفعل بنو عامر بن لؤى ذلك ويُعَرِّضون أمن قريش كلها للخطر دون أن يكون هناك اعتراض قوى من جانب الفريق الأعقل من القرشيين ، وفيهم أبو سفيان رأس بنى أمية وأحلافهم .

ثم إن الواقدى يأتينا بخبر يدعونا إلى مراجعة أنفسنا فى التسليم بأن هذا الفريق من قريش قد شارك فى العدوان على خزاعة بالطريقة التى تذكرها الروايات ، وهى طريقة بعيدة كل البعد عما نعرفه من تصرف القرشيين ، والخبر يقول : حدثنى عبد الله بن عامر الأسلمى عن عطاء بن أبى مروان ، قال : قال رسول الله ﷺ لعائشة : قد حِرْتُ فى أمر خزاعة . قال ابن واقد : فقالت عائشة : يا رسول الله ، أترى قريشاً تجترىء على نقض العهد بينكم وبينهم وقد أفناهم السيف ؟ فقال رسول الله ﷺ : ينقضون العهد لأمر يريده الله تعالى بهم . قالت عائشة : خير أو شر يا رسول الله ؟ قال : خير ! [(١)] .

ومعنى ذلك أن رسول الله لم يكن متأكداً مما قاله له الخزاعيون . ولكن القرشيين إذا كانوا قد نقضوا العهد مع قريش ، فيكون ذلك لخير أراده الله بهم . وهذا صحيح وذلك كله لا يمنع من القول بأن عدواناً ما من بنى بكر بن عبد مناة قد وقع على نفر من خزاعة وهم مسلمون ، وما دام هذا العدوان قد حدث ، وما دام الخزاعيون قد طلبوا النصرة من رسول الله ﷺ وهو رأس أمة الإسلام ومن ضوى إليها واستظل بعهدها وآمن ، فقد كان لابد أن يسير المسلمون لنصرة المؤمنين على الكفار المعتدين ، وما دام المعتدون فى عقد قريش وعهدها فإن القصاص يشمل قريشاً ومكة ، خاصة

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٧٨٨ .

وأن رسول الله ﷺ لم يزمع من بادىء الأمر قصاصاً ، بل علاجاً حاسماً لداء قريش وشفاء لها من الأزمة الخانقة التى كانت تعانيها .

فقد كان الرسول يعرف أن معظم المكيين قد أسلموا أو يريدون الدخول فى الإسلام ولم تبق على العناد منهم إلا طائفة من الزعماء ، وليس من حق أولئك الزعماء أن يمنعوا الخير عن بقية الناس ، ومكة كانت ضرورية للإسلام كما كان الإسلام ضرورياً لها ، وقرار رسول الله ﷺ بفتح مكة كان قرارَ خير ورحمة ورفق . وكان فى نفس الوقت إكمالاً لجانب كبير من الرسالة المحمدية ، وفيه الخير كل الخير لكل مكى بمن فيهم أولئك المعاندون .

وكان طبيعياً أن يحس المكيون أنهم كسروا العهد مع محمد ، وأن خزاعة لابد مستجيرة به ، وأنه لن يتأخر عن نصر خزاعة ، ويتصدى لعلاج الموقف أبو سفيان صخر بن حرب ، وينتهى دور بنى عامر بن لؤى فى قيادة قريش بعد أن جرُّوا قريشاً معهم إلى هذا المأزق العسير .

وهنا نجد أنفسنا أمام معضلة من معضلات السيرة ، فإن رواتنا يقصون علينا أخبار ذهاب أبى سفيان إلى المدينة ، وما لقيه هناك من إعراض الناس أجمعين ، حتى رسول الله ﷺ يقول له بعد أن أجار بين الناس : أنت تقول ذلك يا أبا سفيان أى : أنك أجرت نفسك . وما دام رسول الله لم ينكر الجوار ، فمعنى ذلك أنه لن يقصد أبا سفيان وقومه بأذى .

ويروى الواقدى رواية نستطيع أن نستنتج منها أشياء قليلة ، ولكننا فى حاجة إليها ، لأننا فى الحقيقة لا نرى شيئاً واضحاً من خلال الضباب الكثيف الذى يلف الحوادث السابقة على فتح مكة .

يقول الواقدى : « لما صاح (أبو سفيان يجير بين الناس) لم يقرب النبى ﷺ ، وركب راحلته وانطلق إلى مكة ، وكان قد حُبِس وطالت غَيْبَته ، وكانت قريش قد اتهمته حين أبطأ أشد التهمة ، وقالوا : والله إنَّا لنراه قد صبأ واتبع محمداً سراً وكتم إسلامه ، فلما دخل على هند ليلاً (يريد زوجته) قالت : لقد حُبِست حتى اتهمك

قومك ، فإن كنت مع طول الإقامة قد جئتهم بحجج فأنت الرجل ، ثم دنا منها فجلس مجلس الرجل من المرأة ، فجعلت تقول : ما صنعتَ ؟ فأخبرها الخبر ، وقال : لم أجد إلا ما قال لى عَلِىّ ، فضربت برِجْليها فى صدره ، وقالت : قُبِّحتَ من رسول قوم» (١) .

ونسأل الآن : من هى قريش التى كانت ترجو أن يُوفَّق أبو سفيان فى الحصول على موافقة رسول الله على موالاته ؟ والجواب أنه لا يصدق أن كل قريش كانت تخشى مسير الرسول إلى مكة ، فالكثيرون جداً من المكيين كانوا قد أسلموا ، فهم يحبون مجىء رسول الله والإسلام .

وهذا الخبر غير مقبول لأن أبا سفيان ذهب إلى المدينة فى سفارة عامة تتصل بمصير مكة كلها ، فإن الصلح بين مكة والمدينة قد انتقض وأبو سفيان ذهب إلى المدينة لينظر فى إمكان إصلاح ما فسد ومد المدة . وقد عاد من المدينة فكان لابد أن يجتمع بأهل مكة بمجرد عودته ويطلعهم على ما وصل إليه وينتشر الخبر ويعرفه الناس ، لأن الأمر كان خطيراً يتصل بمصير مكة كلها ، فلا معنى إذن للقول بأن هنداً امرأة أبى سفيان لم تعرف الخبر إلا من زوجها وهما فى حال خلوة . والحقيقة أن أبا سفيان أخبر أهل مكة بما فعل فى المدينة ، وما نصحه به على بن أبى طالب فسألوه إن كان رسول الله قد أجاز إجارة أبى سفيان بين الناس . فقال : لا . قالوا : ويلك ، والله إن زاد الرجل على أن لعب بك ! قال : لا والله ما وجدت غير ذلك .

لم يطمئن القرشيون إذن إلى أن أبا سفيان أتى بنتيجة ، ولكن مجرى الأخبار يدل على أنهم لم يتوقعوا سوءًا ، ولا هم جزعوا عندما علموا أن رسول الله سائر إليهم بالجيش ، وإنما هم سكنوا واستكانوا حتى دخل المسلمون مكة سِلْماً بدون قتال .

إذا ذكرنا خوف القرشيين عندما سار إليهم الرسول فى غزوة الحديبية وكيف أرسلوا طلائع تستكشف الأخبار ، وخرجت لهم طليعة بقيادة خالد بن الوليد ، ووقفت قوة منهم عند كراع الغميم وكيف كانوا يقسمون ألا يدخلها عليهم

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٧٩٥ .

المسلمون أبداً ، وكيف كان تشددهم فى مفاوضات الحديبية . إذا ذكرنا ذلك كله كيف وقفت قريش ساكنة ورسول الله ﷺ يسير نحوهم فى عشرة آلاف رجل نصفهم تقريباً من قبائل لا يستطيع القرشيون أن يطمئنوا إليها ، هذا بالإضافة إلى المهاجرين والأنصار ورجال أمة المدينة . فكيف سكن القرشيون واطمأنوا وهم يعرفون أن هذا الجيش اللَّجب فى الطريق إليهم ؟ وأكثر من ذلك : لقد تم للمسلمين دخول مكة بسلام تام تقريباً لم تَشُبْه إلا مناوشة صغيرة لقيتها قوة خالد بن الوليد وهى داخلة مكة من الجنوب . وإنه لمن غرائب الأمور أن تكون قوة خالد بن الوليد بالذات هى التى استخدمت القوة ، وخالد قبل عامين اثنين كان رئيس الطليعة التى خرجت لتستطلع أمر المسلمين فى غزوة الحديبية .

لا يسع المؤرخ فى هذه الحالة إلا أن يفترض أن شيئاً ما قد حدث ، وأن اتفاقاً قد تم على أن تعتبر مكة مدينة مفتوحة ليدخلها المسلمون دون قتال ، هنا لابد أن ننظر إلى سفارة أبى سفيان إلى المدينة نظرة أخرى ، فإن سياق الخبر عند مؤرخينا يدل على أنها لم توفق إلى شىء ، وأنِ أبا سفيان ذهب وعاد دون نتيجة . ولكن واقع الحوادث يدل على أنه عاد بنتيجة هى أفضل مما ذهب من أجله فقد ذهب ليفاوض رسول الله ﷺ فى أمر مد المدة أى تجديد الهدنة وانتهى الأمر بدخول المسلمين مكة دون قتال ، ثم دخولها فى الإسلام .

هنا لابد أن نفسر ما جرى لأبى سفيان فى المدينة تفسيراً جديداً ، فإن الرجل لم يجد من أحد ممن لقيه هناك عداوة . حقاً لقد رفض كل من أراد التحدث إليهم أو التشفع بهم لدى رسول الله ، أن يقدم إليه أى خدمة ، ولكن أحداً كذلك لم يَلْقَه بعداوة أو سوء مقال وعلى بن أبى طالب نصحه بأن يجير بين الناس « فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس ! ثم ركب بعيره فانطلق » .

ونلاحظ هنا أنه أجار بين الناس ثم انطلق راجعاً إلى مكة ، ومعنى ذلك أن الإجارة لم تكن للإقامة فى مكة ، بل لشىء آخر أى أنه بذلك جعل نفسه جاراً لأمة المدينة ، أى أنه عصم نفسه وأصبح له حق الجوار ، ورسول الله لم ينكر ذلك ، إنما كان كل ما قاله له : « أنت تقول ذلك يا أبا سفيان ؟ » وهذا قول لا يعنى الرفض أو القبول ، ولكن أبا سفيان فسَّـره على أنه إقرار للإجارة .

والسؤال الآن : ما معنى هذه الإجارة ؟ لقد بارح الرجل المدينة ومضى فانتهى بذلك حقه فى الجوار فى المدينة ، ولكن الذى نستنتجه هو أن أبا سفيان طلب الإجارة لنفسه بصفته سفيراً لأهل مكة ، وإجارة السفير معناها إجارة أهل مكة جميعاً ، وهذا هو الذى نفهمه من واقع الأحداث ، فإن أهل مكة اعتبروا أنفسهم فى جوار رسول الله أى فى حمايته ولهذا قروا مكانهم آمنين ساكنين عندما بلغهم أن رسول الله والمسلمين فى الطريق إليهم ، وكذلك اعتبروا إجارة أبى سفيان لنفسه إجارة لأهل مكة جميعاً ، فهو سفيرهم والمتحدث باسمهم ، وقد كان أبو سفيان قد وفد إلى المدينة لتجديد الصلح بعد أن أهدرته قريش ولم يوافق الرسول ﷺ على ذلك وقرر المسير إلى مكة ، ولكنه اعتبر طلب أبى سفيان إجارة أمة المدينة إعلاناً لاستسلامه واستسلام قومه معه ، فهو سفيرهم والمتحدث باسمهم .

وعندما عاد أبو سفيان إلى مكة واجتمع بأصحابه وأعلن إليهم نتيجة ما وصل إليه أنكر بعض المتطرفين منهم ذلك وحاولوا الاعتراض . ولابد أن نتصور هنا أن أبا سفيان أفهمهم بأن الاستسلام هو الحل الوحيد الباقى أمامهم لأنهم لا يستطيعون الوقوف فى وجه المدينة ، وإذا هم حاولوا التعرض لجيش المسلمين فإن النتيجة ستكون القضاء عليهم وإلحاق الضرر البالغ ببلدتهم ، ورسول الله لا يريد ذلك ولو صفاءً ، ولكنه قَبِل - ضمناً - أن تكون مكة وأهلها فى جواره وجوار أمة الإسلام .

وليس لدينا نص صريح يؤيد هذا التصور ، ولكن الذى يؤيده ، هو الواقع التاريخى الذى كان ، فقد وقف أهل مكة ساكنين وقد فتحوا أبواب مدينتهم ودخل المسلمون دخولاً سِلْمياً منظماً . وعندما دخلوا نادى مناديهم أن من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل بيته وألقى سلاحه فهو آمن . أما إعلان الرسول أن من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن ، فهو ليس تكريماً خاصاً لأبى سفيان كما يظن ، وإنما هو توكيد للحقيقة التى ذكرناها ، وهى أن أبا سفيان فى جوار أمة الإسلام وجواره ، هذا ينسحب على مكة بما فيها ومن فيها إلا من أقدم على نقض الجوار .

وقد دخل الرسول ﷺ مكة سلماً فلم يقع إلا القتال اليسير فى ناحية الجنوب . وبذلك تكون سفارة أبى سفيان هى التى هيأت الطريق لدخول مكة ، وأهلها فى أمة

الإسلام . وقد سبق أن لاحظنا أن هذا ما كان الرسول يرجوه . فقد ظل يضيق على مكة ويقطع تجارتها وأواصر صداقاتها وأحلافها حتى افتقرت وضعفت ولم تعد تستطيع المقاومة . فلما أحس الرسول بذلك اختبر قوة المكيين فى غزوة الحديبية ، ثم قام بالعمرة . وفى الفترة بين صلح الحديبية والعمرة انفتح الباب بين مكة والمدينة وزال الحرج عن أهل مكة فى دخول الإسلام فدخلوه أفواجاً ، وحقت كلمة الله سبحانه . والمسلمون عندما ساروا إلى مكة كانوا يعرفون أنهم يسيرون نحو بلد أسلم معظم أهله واشرأبت نفوسهم لدخول أمة الإسلام ، ولابد أن قادة أمة الإسلام أفهموا رجالهم ذلك ، فتم الفتح على الصورة الكريمة الحاسمة التى تم بها .

والآن وقد قدَّمنا تصورنا العام لهذا الحدث العظيم ، فلنقف بعض الوقت عند التفاصيل :

١ - عندما أزمع رسول الله فتح مكة لم يعلن حتى عن خروجه ، وأبو بكر لم يعرف ذلك إلا عن طريق عائشة ، وكل ما علمه هو أن الرسول خارج للغزو ، أما وجهته فلم يعلمها إلا فيما بعد .

٢ - ومع ذلك فإن النصوص تقول إن الرسول دعا ربه قبل خروجه فقال : اللهم خذ على قريش أبصارهم فلا يرونى إلا بغتة ، ولا يسمعون بى إلا بغتة .

٣ - وأخذ الرسول بالأثقاب أى أمر بحراسة مخارج الطرق من المدينة إلى كل وجه ، وعهد إلى عمر بن الخطاب فى ذلك الأمر ، فلا يخرج رجل من المدينة قط ، ومعنى ذلك أن الخبر كان معروفاً بالمدينة ، والذى قصد إليه الرسول هو ألاَّ يخرج أحد بالخبر إلى أهل مكة .

وهذا كله يعنى ضمناً أن رسول الله أعلن نيته على الفتح لكبار أصحابه الموكلين بالتنظيم والحاملين للمسئولية من بعده .

٤ - وفى هذه المناسبة وقعت حادثة حاطب بن أبى بلتعة الذى كتب رسالة إلى قريش جعلها مع امرأة من مزينة ، ويُفهم من هذا الخبر أنه كان من المعروف فى المدينة كلها أن رسول الله يريد مكة ولم يلبث الرسول - بناء على ما يقوله رواتنا

- أن أعلن نيته إلى أبى بكر وطلب إليه أن يكتمها . وسِرُّ الحرص على الكتمان هنا هو ألا يتسرع أحد .

٥ - ولكى تظل وجهتـه سراً أرسل جماعـة يقودها أبو قتادة بن ربعى إلى بطن إضم - ماء على الطريق بين مكة واليمامة - ليظن الناس أنه ذاهب فى ذلك الوجه . وتقول النصوص : إن ظنون الناس ذهبت إلى أن الرسول خارج إما إلى قريش أو إلى هوازن أو إلى ثقيف ، ولكن معرفة حاطب بالأمر تدل على أن الرسول لم يكتم الخبر إلا ريثما استقر عزمه ، وهنا أعلنه ولكنه أراد أن يظل الأمر فى المدينة فقط فلا يخرج الخبر منها إلا فى وقت متأخر ، ويؤيد ذلك قول الواقدى لَمَّا أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى قريش وعلم بذلك الناس كتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله ﷺ .

٦ - وتقول النصوص : إن حاطبـاً كتب إلى ثلاثـة نفر من قـريش : صفـوان بن أمية، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل ، فلماذا لم يكتب إلى أبى سفيان بن حرب ، وهو الذى كان إذ ذاك رأس قريش ؟

٧ - وتقول النصوص إن الخـروج كان يوم الأربعـاء ١٠ رمضان سنة ٨هـ ، والعاشر من رمضان هنا يقابل ١ يناير ٦٢٨م ، وهو يوم اثنين ، لا يوم أربعاء .

٨ - ويروى الواقدى أن الرسول قال عند خروجه : إنى لأرى السحاب تستهل بنصر بنى كعب ، وهذا تصريح لا لبس فيه ، فبنو كعب الخزاعيون هم ضحية عدوان بنى بكر بن عبد مناة ومن أيَّدهم من قريش .

٩ - وكان رسـول الله قد بعث إلى كل من أسلم ومن كان فى حلف الأمـة من القبائل رسلاً يُعْلِمونهم أنه خارج للغزو ، والنصوص تقول إن الرسل لم يصرحوا بوجهة الغزو ولكن ذلك مستبعد ، فإن القبائل لا تشترك فى غزو إلا إذا عرفت الوجهة .

١٠ - ونخرج من ذلك أن الكتمان والتعميـة لم تستمر إلا قليلاً ، ثم لم يلبث الأمـر أن شاع ، وهذا هو البيت الأساس فى أن رسول الله ﷺ لم يشتد غضبه على حاطب

ابن أبى بلتعة . ومنذ خروج الرسول من المدينة على الأقل عرف الناس أجمعون إلى أين يقصد ، بدليل أن بعض جماعات القبائل انضمت إلى الجيش على الطريق والقبائل التى أرسل إليها الرسول واستجابت هى : أسلم من خزاعة - جهينة - غفار - ضمرة - أشجع - مزينة - سليم بن منصور - بنو كعب بن عمرة (من بنى كعب بن خزاعة وهم المعتدى عليهم) .

١١ - عسكر الرسول عند بئر أبى عنبة خارج المدينة وهناك فرق الرايات والألوية ، وإليك بيان الألوية والرايات وأسماء حامليها :

المهاجرون : ٣ رايات مع الزبير وعلى وسعد بن أبى وقاص :

الأوس :

	بنو عبد الأشهل	راية مع أبى نائلة
	بنو ظفر	راية مع قتادة بن النعمان
	بنو ظفر	راية مع أبى بردة بن نيار
	بنو معاوية	راية مع جبر بن عتيك
	بنو خطمة	راية مع أبى لبابة بن عبد المنذر
	بنو أمية	راية مع مبيض أو نُبَيْض
	بنو ساعدة	راية مع أبى أسيد الساعدى
الخزرج :	بنو الحارث بن الخزرج	راية مع عبد الله بن زيد
	بنو سلمة	راية مع قطبة بن عامر بن حديدة
	بنو مالك بن النجار	راية مع عمارة بن حزم
	بنو مازن بن النجار	راية مع سليط بن قيس
	بنو دينار بن النجار	راية يحملها ؟

وهذا بيان ناقص جداً فيما يتصل بالمشتركين فى الفتح من الخزرج ، فلا شك أنهم كانوا أكثر من ذلك بكثير ، خاصة وأن عدد الأنصار المشاركين فى الفتح كانوا ٤٠٠٠

أى خُمس رجال الفتح ، فى حين أن المهاجرين بلغوا سبعمائة أى أقل من العُشْر ، فيهم ٣٠٠ فارس . أما فرسان الأنصار فكانوا ٥٠٠ فارس .

ويبدو أن هذا التقدير لأعداد المهاجرين مبالغ فيه بعض الشىء ، فمهما تصورنا زيادة أعداد المهاجرين إلى المدينة فإن عدد الرجال المقاتلين منهم لا يمكن أن يصل إلى هذا العدد ، ويمكن قبول هذا الرقم إذا تصورنا أنه يضم كل من هاجر إلى المدينة من المسلمين ، لا من قريش فحسب .

أما مساهمات القبائل الأخرى فكانت تشمل نصف الجيش الإسلامى على وجه التقريب . ومن المفيد هنا أن نذكر أسماء القبائل التى اشتركت وأعداد من اشترك منها وقادة قواتها ، لأن ذلك يدل على أن كفة المدينة كانت قد ثَقُلَت فعلاً فى الحجاز وشالت كفة قريش ، وكانت هى الراجحة فيما مضى ، وهذا يفسر لنا من بعض الوجوه لماذا وجد القرشيون الكفار أن أسلم الحلول لهم ولمدينتهم هو أن يعلنوها مدينة مفتوحة ، ويدعوا المسلمين ليدخلوها دون قتال كما دعاهم إلى ذلك أبو سفيان.

وإليك بيان المشتركين من القبائل من غير قريش والأنصار :

مُزَينة ١٠٠٠ مقاتل منهم ١٠٠ دارع فى ٣ ألوية :

لواء مع النعمان بن مقرَّن

لواء مع بلال بن الحارث

لواء مع عبد الله بن عمرو

أسلَم (من خزاعة) ٤٠٠ منهم ٣٠ فارساً فى لواءين :

لواء يحمله بريدة بن الحُصيب

لواء يحمله ناجية بن الأعجم

جهينة ٨٠٠ معهم ٥٠ فارساً فى أربعة ألوية :

لواء مع سُوَيْد بن صخر

لواء مع ابن مكيث

لواء مع أبى زرعة

لواء مع عبد الله بن بدر

كعب بن عمرو (من خزاعة) ٥٠٠ فيهم ٣ ألوية :

لواء مع بشر بن سفيان

لواء مع ابن شريح

لواء مع ابن عمرو بن سالم ولم يكن خرج معه من المدينة ، لقيه قومه بقديد

وهذا أيضاً بيان ناقص ، فهؤلاء جميعاً لا يُكوِّنون الخمسة آلاف الذين تكوَّن منهم الجيش بالإضافة إلى المهاجرين والأنصار ، ولكن هذا لا ينقض الحقيقة القائلة بأن جيش الأمة الإسلامية الذى سار لفتح مكة كان مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل خُمْسهم من الأنصار وأقل من العُشْر كانوا من المهاجرين ، والمهاجرون والأنصار كانوا يُكوِّنون القوة الحقيقية لجيش الإسلام ، وما سوى هؤلاء (باستثناء الخزاعيين) لم يكن الرسول ﷺ يعول عليهم كثيراً ولكنه دعاهم وسمح لهم بالانضمام إلى الجيش لكى يُشعرهم بالاشتراك فى قوة الإسلام . وشيئاً فشيئاً سيصبحون من جند الأمة الإسلامية ، ورسول الله ﷺ كان وثيق الإيمان فى قوة الإسلام على غزو قلوب الناس. وكان بعيد النظر طويل الأناة جداً فى معاملة الناس ؟ وسنرى كيف أنه سيسلك مع القرشيين المكيين وسواهم ممن دخل أمة الإسلام عام الفتح وبعده أكرم المسالك وخاصة خلال عام الوفود ، وهو عام ٩ للهجرة .

١٢ - ولم يقف أحد إلى جانب قريش حتى بنو بكر بن عبد مناة وهم الذين نقضوا العهد ، لم يحركوا ساكناً والرسول فى طريقه إلى مكة ، مما يدل على أن قريشاً كانت قد جُرِّدت من كل نصير لها . وسيكون بعد فتح مكة قتال ، بين الإسلام وهوازن ثم ثقيف ، ولكن لا هؤلاء ولا أولئك تحركوا لنصرة قريش وإن كانت المصادر تشير إلى حديث لبعض سادة القبائل فى هذا المعنى ولكنها مجرد إشارات أشبه بالشائعات . والثابت على أى حال أن هوازن عندما سمعت بتحرك الرسول ﷺ ملكها الخوف واهتمت بأن تعرف ما إذا كان هذا المسير مُوجَّهاً إليها .

والذى يستوقف النظر ويهز المشاعر هو تلك الرياسة المهابة به التى كانت لرسول الله ﷺ ، فهذا أضخم جيش عرفته الجزيرة فى تاريخها ولكنه يسير فى نظام وهَيْبة ، ويمر الجيش اللجب بالمنزل بعد المنزل وبمنازل القبائل ، فلا عدوان ولا نهب ولا حتى مفاخرة ، بل بلغ من حرص الرسول على النظام وتمكُّنه من فرضه أن الجيش عندما مر بين العرج والطلوب « نظر (النبى) إلى كلبة تهر على أولادها وهم حولها يرضعون ، فأمر رجلاً من أصحابه يقال له جعيل بن سراقة أن يقوم حذاءها كى لا يعرض لها أحد من الجيش ولا لأولادها »[1] . وهذا فى ذاته دليل على حنو الرسول ﷺ وإنسانيته ويدعو إلى التفكير فى أولئك الذين يزعمون أن الرسول ﷺ كان يكره الكلاب أو ينفر منها ويفضل عليها القطط .

١٣ - وكان النبى قد رأى أن الحزامة تقضى بأن يدعو الأعراب من أحلاف الأمة حتى يكونوا فى عداد المقاتلين النظاميين فلا يتصرفون على هواهم ، ولهذا فقد طلب إلى من يريد المشاركة منهم أن يفد إلى المدينة أوائل رمضان . وعندما خرج بالناس من المدينة ترك الناس على علاتهم حتى وصل الصلصل على سبعة أميال (حوالى ١٢ ك) من المدينة ، وهنا أراح ونظم الناس وركب الإبل والخيل من معهم إبل وخيل ، وأرسل الزبير بن العوام طليعة فى مائتى فارس ، وبعد قليل عندما وصل إلى البيداء لَمَّح إلى وجهته تلميحاً فقال : « إن السحاب تستهل بنصر بنى كعب » (من خزاعة) وهم الذين وقع عليهم عدوان بنى بكر بن عبد مناة وحلفائهم من القرشيين ونادى مناديه : « من أحب أن يصوم فليصم ، ومن أحب أن يفطر فليفطر » وتلك رخصة منه سيجعلها عزيمة عندما يقترب من مكة للتخفيف من جهد الناس وهم مقبلون على فتح ، فمع أن الوقت كان شتاء إلا أن السير فى الشمس مجهد ، وعند العرج « يصب الماء على رأسه ووجهه ليخفف من العطش »[2] .

١٤ - ومع وضوح التلميح الذى صدر عن رسول الله ، إلا أن هوازن ملكها الفزع

---

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٠٤ .

(٢) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٠١ .

وخافت أن يكون المسير إليها فترسل عيناً يتبع المسلمين ، ويكتشفه بعض المسلمين والجيش يمضى بين العرج والطلوب ، ويمسكون به فيزعم أنه عابر سبيل من غفار ، فلا يزال المسلمون يستجوبونه حتى يفصح عن حقيقة نفسه بعد أن رأى العزم من المسلمين على استخراج الحقيقة ، فأقرَّ بحقيقة نفسه ، وكان الذى استجوبه هنا رسول الله ﷺ نفسه وقد كشف الرجل الكثير ، فعرف الرسول أن هوازن كانت تخشى أن يكون مسيره إليها وأن جاسوسها هذا كان عليه أن يراقب الجيش من بعيد ، فإذا سلك وادى سرف كان معنى ذلك أن رسول الله يفضى إلى بلاد هوازن ويهاجمها ، وإذا تابع طريق الجادة فتكون وجهته مكة وقريش ، وعلم الرسول كذلك أن هوازن هى التى انتابها الخوف فبعثت تحرض العرب و « أجلبوا فى العرب ، وبعثوا إلى ثقيف ، فأجابتهم فتركت ثقيفاً على ساق قد جمعت الجموع ، وبعثوا إلى الجرش (من أقصى مخاليف اليمن إلى الشمال) فى عمل الدبابات والمنجنيق وهم سائرون إلى جمع هوازن فيكونون جمعاً » .

قال رسول الله ﷺ : وإلى من جعلوا أمرهم .

قال : إلى فتاهم مالك بن عوف (شيخ هوازن وقائدها فى حنين) .

قال رسول الله ﷺ : وكل هوازن قد أجابت إلى ما دعا إليه مالك .

قال : قد أبطأ من بنى عامر أهل الجِدِّ والجَلَد .

قال : من ؟

قال : كعب وهلال .

قال رسول الله ﷺ : ما فعلت هلال ؟

قال : ما أقل من ضوى إليه منهم . وقد مررت أمس بمكة ، وقد قدم عليهم سفيان بن حرب ، فرأيتهم ساخطين لما جاء به ، وهم خائفون وجلون .

فقال رسول الله ﷺ : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ما أراه إلا صَدَقَنى (يقصد الجاسوس) .

قال الرجل : فينفعنى ذلك ؟فأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يحبسه ، وقد حاول الرجل الفرار ولكن خالداً قبض عليه واستبقاه ، ثم أسلم بعد ذلك واستشهد فى حنين .

المهم أن رسول الله هنا سأل عن ثقيف وهوازن وهلال ، ولكنه لم يسأل عن قريش كأنه كان يعرف حقيقة موقفها . وكان الرجل هو الذى تطوع فقال له إنه مر بمكة ووجد قريشاً ساخطة على ما جاءهم به أبو سفيان . ومع أن النصوص تقول هنا إن أبا سفيان عاد إلى مكة صفر اليدين إلا أننا نرى هنا أنه عاد بشىء ، وهم لم يطمئنوا إلى ما قال لهم ، ولهذا فقد كانوا خائفين وجلين ، والذى جاءهم به هو الاتفاق على التسليم وعدم القتال أى اعتبار مكة مدينة مفتوحة بحسب التعبير الحديث ، ومن الطبيعى أن يكونوا ساخطين لذلك ، ولكنهم راضون به ، ومن الطبيعى أن يكونوا ساخطين وَجِلين ، فإن أىَّ مدينة فى الدنيا لا تكون خائفة وجلة وجيش عدته عشرة آلاف مقاتل فى الطريق إليها . حقاً إنها استسلمت ولكن من يطمئن إلى الجنود وفيهم من الأعراب ألوف ؟

وإذن فالأدلة كلها تدل على أن أبا سفيان حصل لمكة وقريش من رسول الله على أمان ، وعندما نادى فى الناس أنه يجير بين الناس فلم تكن الإجارة له شخصياً ، بل كانت إجارة لمكة وقريش ، ويكون على بن أبى طالب عندما نصح أبا سفيان بأن يجير بين الناس قد فعل ذلك برأى الرسول ﷺ ، لأنه لم يكن يريد تحطيم قريش ولا إيذاء مكة ، وكان إدخال مكة فى جوار أمة الإسلام يوافق رأى الرسول ، وعندما قال الرسول لأبى سفيان : أنت تقول ذلك يا أبا سفيان أراد أن يقول له : إنك طلبت الإجارة ، ولكنك أنت لست كل قريش ، فعليك أن تضم القرشيين إلى رأيك ، ويكون أبو سفيان عندما عاد قد جاءهم بهذا الجوار ، الجوار يسخطهم وإن كان يُؤمِّنهم ، وقوم مثل القرشيين لا يستسلمون دون سخط بعد العزة والكبرياء وشموخ الأنف ، يقفون ساكنين .

ومن نيف وعام فحسب عندما سار الرسول إليهم معتمراً فى ١٤٠٠ رجل غير مسلمين أخذتهم العزة وأقسموا ألا يدخلونها عليهم قط ، وخرجوا للقائه معهم

النساء والأطفال (العوذ المطافيل) : ويومها قال الرسول : ويح قريش ، أكلتهم الحرب إذ لو خلوا بينى وبين العرب إلى آخر حديثه الذى رويناه آنفاً ، أما الآن فإن تعليقه : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ومعناه حسبى الله فى قريش ، حتى هذا لا يرضيهم، والمراد سادتهم المعاندون .

١٥ - وإذن فيكون أبو سفيان بن حرب قد أنقذ قريشاً بذهابه إلى مكة . حقاً إن الرسول ما كان ليأذن بأن يصيب مكة بأذى ، ولكن استسلام قريش سهَّل له هذه المهمة وطمأنه على مصير القرشيين ممن أسلم وآمن وطوى إسلامه . وفى سورة الفتح آيات (٢٢ - ٢٥) تشير إلى ذلك صراحة ونصها : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾. حقاً إن الآيات تشير إلى ما كان فى الحديبية ، ولكن المؤمنين الذين كانوا فى مكة ولا يعلم المؤمنون بأمرهم كانوا لا يزالون موجودين عند فتح مكة .

١٦ - وعندما مر رسول الله ﷺ بقديد لقيه بنو سليم بن منصور وهم بين التسعمائة والألف ، مع كل منهم رمحه وسلاحه ، ومن كان فارساً فمعه فرسه ، فشكوا إليه أنه يقصيهم ويستغشهم مع أنهم أخواله ، وغريب منهم أن يمتُّوا إليه هنا بالخئولة ، فيذكرون أن أم هاشم بن عبد مناف هى عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان من بنى سليم ، وبنو هلال بن فالج هؤلاء غير بنى هلال بن عامر بن صعصعة الذين تزوج الرسول منهم امرأتين ، هما زينب بنت خزيمة ابن الحارث ، وميمونة بنت الحارث ، وكلتاهما من أمهات المؤمنين . وسألوه أن يقبلهم فى صفوف رجاله ليرى حُسْن بلائهم ، فقبلهم الرسول وجعلهم فى المقدمة مع خالد بن الوليد ، ولم يكن بنو سُليم من قبل بأهل إيمان صحيح ،

وقد طالما آذوا أهل الإسلام ، ولكن هذه كانت ساعة الرضى والعفو والتصافى، وما داموا قد أظهروا حسن النية فلماذا يرفضون ؟

وقد غاظ قبول رسول الله لبنى سليم عيينة بن حصن شيخ فزارة وغطفان ، وكان عندما سمع بخروج رسول الله إلى مكة قد عمل للحاق به مع نفر من قومه وسار فى المؤخرة ، وكان رسول الله يسير مع أبى بكر وعمر ، وكان العباس بن مرداس شيخ بنى سليم قد لقى الرسول عندما هبط من المشلل فى طريقه إلى قديد ومعه آلة الحرب ، والحديد ظاهر علينا والخيل تنازعنا الأعنة ، فصففنا لرسول الله ﷺ - والمتكلم هنا هو العباس بن مرداس - (فقال العباس) : يا عيينة « هذه بنو سليم قد حضرت بما ترى من العُدَّة والسلاح ، وإنهم لأحْلاس الخيل ورجال الحرب ورعاة الحدق فقال عيينة بن حصن [1] : أقصر أيها الرجل فإنك تعلم لنحن أفرس على متون الخيل وأطعن بالقنا وأضرب بالمشرفية منك ومن قومك » . وقد حسم الرسول هذا التنازع بين الشيخين القبليين بإشارة بيده ، وهكذا نرى هؤلاء الأعراب يتنافسون على المكانة عند رسول الله والمؤمنين ، والرسول يهذب من طباعهم ويؤدبهم بأدبه ، ويكفُّهم عن ذلك التنافس الجاهلى .

١٧ - وبعد هذا يظهر فى النصوص تحريف الأخبار الذى يُقصد منه إلى تعظيم أمر العباس بن عبد المطلب ، والغض من شأن أبى سفيان . والأخبار تقول : إن العباس لقى رسول الله ﷺ عند الجحفة . قال ابن هشام (لا ابن إسحاق) «لقيه بالجحفة مهاجراً بعياله وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته ، ورسول الله ﷺ راض فيما ذكر ابن شهاب الزهرى » [2] . ولسنا نعلم كيف يكون الرسول راضياً عنه وهو يعلم أنه إلى ذلك الحين كان مقيماً على حاله فى مكة مرابياً ، وكان أول ربا وضعه رسول الله ﷺ فى خطبة الوداع ربا العباس ، ولو كان أقلع عنه من زمن لما كانت بالرسول حاجة إلى أن يسقطه فى خطاب خطير مثل حجة الوداع . وسنستطرد مع الأخبار لنرى كيف أن سلطان بنى

---

(١) فى الأصل المطبوع : العباس بن مرداس ولا يستقيم به الكلام ، والغالب أنه وهم من الناسخ فصوبناه على ما ترى فى المتن وقد اختلط الأمر على المحقق الأريب هنا ، والعبارة فى الأصل قلقة على أى حال .

(٢) سيرة النبى لابن هشام ٤ / ٤٢ .

العباس قد عمل عمله فى إظهار العباس بأنه كان من أقرب الناس إلى رسول الله ، وأنه أفضل من أبى سفيان مع أنهما من حيث السابقة إلى الإسلام سواء ، كلاهما أسلم عند الفتح ، بل قد رأينا أن أبا سفيان بسياسته وحُسْن تصرفه كان صاحب الفضل فى تمام فتح مكة على الصورة الكريمة التى تم بها ، دون أن تكون هناك حرب أو مهانة لقريش .

١٨ - ويقول الواقدى : « واجتمع المسلمون بمرِّ الظهران ولم يبلغ قريشاً حرف عن مسير رسول الله ﷺ إليهم فقد اغتموا وهم يخافون بغزوهم رسول الله ﷺ ، فلما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران عشاء ، أمر أصحابه أن يوقدوا النيران فأوقدوا عشرة آلاف نار . فأجمعت قريش بعثة أبى سفيان بن حرب يتحسب الأخبار فقالوا : إن لقيتَ محمداً فخذ لنا منه جواراً إلا أن ترى رقة من أصحابه فأذنه بالحرب ، فخرج أبو سفيان وحكيم بن حزام ، فلقيا بديل بن ورقاء فاستتبعاه فخرج معهما ، فلما بلغوا الاراك من مر الظهران رأوا الأبنية والعسكر والنيران وسمعوا صهيل الخيل ورغاء الإبل ، فأفزعهم ذلك فزعاً شديداً وقالوا : هؤلاء بنو كعب جاشتها الحرب (أى جمعتها وساقتها) ، فقال بديل : هؤلاء أكثر من بنى كعب ! فتنجّعت هوازن على أرضنا (أى دخلتها) والله ما نعرف هذا ، أن هذا العسكر مثل حاج الناس » .

وهذا كلام لا يُساق إلا على افتراض الغفلة فى القارىء ، فكيف يصدق أن قريشاً على ما نعلم من يقظتها وفطنة رجالها يخفى عليها أمر مسير رسول الله وجيشه الضخم حتى بلغ مر الظهران ، مع أن هوازن وهى دون قريش يقظة وتنظيماً أحست بذلك وأرسلت عيناً لها ليتبع جيش الإسلام ويعرف إلى أين يمضى ، حتى غطفان وسليم ابن منصور عرفتا بالأمر وقد رأينا إسراعهما للانضمام إلى جيش الإسلام وتنافسهما فى ذلك ، ثم إن ابن إسحاق قرر صراحة أن رسول الله أعلم الناس بأنه سائر إلى مكة قبل فصوله عن المدينة ، فقد قال برواية ابن هشام : « ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس بأنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ . وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش

حتى نبغتها »[1] وكان من الطبيعى أن ينتشر الخبر بعد ذلك ويعلمه كل الناس .

وأما حكيم بن حزام فهو ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى وهو ابن أخى خديجة أم المؤمنين وقد تأخر إسلامه فعلاً ، إلا أن إسلامه صح بعد ذلك . أما القول بأن أبا سفيان وحكيم اصطحبا بديل بن ورقاء فأمر لا يصح ، فبديل كان من زعماء خزاعة وهو من بنى عمرو الخزاعيين وهم أبناء عمومة بنى كعب الخزاعيين المعتدى عليهم وهو كان صاحب البيت الذى لجأ إليه الخزاعيون فى مكة عندما اعتدى عليهم ، وكان فى الذين ذهبوا يبلغون النبى خبر العدوان وهو مسلم صحيح الإسلام من زمن طويل ، فكيف يصطحبه أبو سفيان كأنه كان من حزبه من المشركين ؟

وأما أن قريشاً قالت لأبى سفيان عند خروجه أن يأخذ لها جواراً من رسول الله ، فنحن نعرف أنه غير معقول ، لأن أبا سفيان - كما رأينا - كان قد أخذ بالفعل الجوار لقريش عندما ذهب إلى المدينة ، وبقية الخبر التى تقول إن قريشاً قالت له إنه إذا آنس رقة أى ضعفاً من أصحاب الرسول أن يؤذنه بالحرب فأبعد عن الصواب من أى شىء سواه ، وقد سبق أن رأى رجالُ قريش بأنفسهم أثناء مفاوضات الحديبية حبَّ أصحاب محمد لمحمد وتفانيهم فى سبيله واستعدادهم لخوض المعارك بإشارة منه .

١٩ - وكل هذا التمويه تمهيداً لما يأتى بعد ذلك مما يرويه الواقدى وغيره ، فكلهم يقولون : إن العباس بن عبد المطلب بعد أن لحق بالرسول وأسلم وأصبح فى جملة رجاله : « ركب بغلة رسول الله الدل » (!) وخرج فى ظلام الليل « عسى أن يصيب رسولاً إلى قريش يخبرهم أن رسول الله داخل عليهم فى عشرة آلاف، فسمع صوت أبى سفيان فقال : أبا حنظلة ! فقال أبو سفيان : يا لبيك أبا الفضل ! قال العباس : نعم ! قال أبو سفيان : فما وراءك ؟ قال العباس : هذا رسول الله فى عشرة آلاف من المسلمين فأسلم ثكلتك أمك وعشيرتك ! ثم أقبل على حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء فقال : أسلما ، فإنى لكما جار حتى تنتهوا إلى رسول الله فإنى أخشى أن تقتطعوا دون النبى ﷺ قالوا : فنحن معك . فخرج بهم العباس حتى أتى رسول الله ﷺ فدخل عليه وقال : يا

---

(١) ابن هشام ، سيرة النبى ٤/ ٣٩ .

رسول الله ، أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء قد أجرْتهم وهم يدخلون عليك. قال رسول الله ﷺ : أدخلهم فدخلوا عليه فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام ، وقال : تشهدون أن لا إله إلا الله وأنّى رسول الله ! فأما حكيم وبديل فشهدا ، وأما أبو سفيان فقد شهد أن لا إله إلا الله فلما قال : وأنّى رسول الله قال : والله يا محمد ، إن فى النفس من هذا لشيئاً يسيراً بعد ، فأرجئها . ثم قال للعباس : قد أجرناهم اذهب بهم إلى منزلك »[1] .

وهكذا يصبح العباس الذى أسلم بالأمس ، وكان إلى قبل الأمس كافراً مرابياً داعية للإسلام وصاحب سلطان فيه ، وأبو سفيان وهو إلى هذه الساعة كان أهم من العباس وله فى توجيه الحوادث يد أصبح تابعاً يسير ذليلاً وراء العباس ! أما حكاية أن أبا سفيان توقف عن أن يشهد أن محمداً رسول الله فأشبه بالفكاهة ، فما دام الرجل قد شهد أن لا إله إلا الله فإن ذلك يستتبع الشهادة بأنه رسول الله ، فهو الذى حمل إلى الناس رسالة الوحدانية ومن غير المعقول أن أبا سفيان يرى رسول الله فى هذا الموضع الجليل ثم يعتذر عن عدم الإيمان بأنه رسول الله ، وحتى لو سلّمنا بأن الإسلام لم يكن دخل قلبه فإن هيبة رسول الله وصحابته وجيشه لابد أن تكون قد أخذت ببصره وعقله ، ولا يمكن فى هذه الحالة أن يتأخر عن الشهادة فقد كان أفطن من هذا وأحصف ، ولكنها « وكالة الأنباء العباسية » تُوجِّه الأخبار هذا التوجيه إعلاءً لشأن بنى العباس على بنى أمية .

وإذا كان أمثال الواقدى [2] قد سلَّموا بذلك خوفاً من خليفة بنى العباس ، فما عذرنا نحن وقد أعفانا الله من ذلك الخوف ؟ ولكن أخانا الدكتور هيكل فى حياة محمد يأخذ به ويرويه بل يقول : « وتدخَّل العباس موجِّهاً القول إلى أبى سفيان أن يسلم ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقه ، ولم يجد أبو سفيان أمام هذا إلا أن يسلم فتوجه العباس بالقول إلى النبى عليه السلام وقال : يا

---

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨١٥ .
(٢) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨١٥ .

رسول الله ، إن أبا سفيان يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئاً . قال رسول الله : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ... »[1] .

والدكتور هيكل يروى هذا الكلام ثم يقول : إن هذه الوقائع وارد عليها اتفاق المؤرخين دون أن يسأل نفسه ، هل كان من المعقول أن يأمر الرسول بضرب عنق أبى سفيان إذا لم يسلم فى التو واللحظة ، والإسلام كان يمهل الناس ليفكروا ويتدبروا ورسول الله لم يكن يقهر أحداً على الإسلام وفى القرآن آية تقول ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴿٢٥٦﴾ ﴾[2] وبعد عامين من فتح مكة ستنزل سورة براءة التى تُنهى الكفر والشرك فى جزيرة العرب ، ولكنها تمهل الكافرين أربعة أشهر يحقُّ عليهم بعدها العقاب .

ولكن هيكلاً وطه حسين والعقاد ليسوا بمؤرخين ، إنهم رجال أدب ومفكرون نقرؤهم للأسلوب وقوة العارضة وحسن السياق ، ولكننا قط لا نقرؤهم للتاريخ ، فإن التاريخ علم له أصول ومناهج لا نتطلبها إلا من المؤرخ المتخصص لهذا الفن ، وهذا كذلك هو موقف أهل الغرب من الأدباء الذين كتبوا فى التاريخ ، هذا موقف الإنجليز من ماكولى ، والفرنسيين من فولتير ، والألمان من فردريش شيلر .

والذى يهمنا هنا هو أن سياق الأخبار على هذا النحو يؤخذ على أنه محاولة من بنى العباس لتبييض وجه العباس والغض من شأن بنى أمية ، وقد ذهبوا فى ذلك إلى حد القول بأن أبا سفيان عندما لقى الرسول فى هذه المرة كان فى جوار العباس لا جوار الرسول ﷺ ، وهذا تجوُّز فى الكلام غير محمود حتى لو لم نعلم علم اليقين ، كما رأينا أن أبا سفيان كان فى جوار الرسول ﷺ وأمة الإسلام منذ أعلن أنه فى جوارهم ورسول الله لم يردّ هذا الجوار ، وقد شمل مكة ومن فيها .

وطريف من الأمر أن العباس - كما تقول الأخبار - طلب من رسول الله أن يخلع على أبى سفيان شرفاً ، فقال : إن من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، وكان أَوْلَى

---

(١) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ص٤٢٣ .
(٢) سورة البقرة - آية ٢٥٦ .

بالعباس أن يطلب هذا الشرف لنفسه ، فيقول الرسول مثلاً : ومن دخل دار العباس فهو آمن ، ولا نحسب أن العباس كان يكون سعيداً بذلك ، لأن ذلك كان يفترض أنه كان على العباس بناء على ذلك أن يطعم ويسقى ويؤوى من دخل داره ، وما كان العباس الضنين بماله أن يرضى بذلك قط ، أما أبو سفيان فمهما قلنا فيه فقد كان سيداً جاهلياً يطعم ويسقى ويقوم بمطالب الرياسة مثله فى ذلك مثل أبى جهل رغم موقفه من الإسلام ، واقرأ « المحبر » و« المنمق » لمحمد بن حبيب النسابة تجد فيه عن العباس وأبى سفيان كلاماً يؤيد ما نقول .

٢٠ - ثم يروى الواقدى رواية أخرى نجدها أيضاً عند ابن سعد والطبرى وابن هشام فى الحط من شأن أبى سفيان وتجعل العباس ينقذه من القتل على يد عمر، وتصوره مسكيناً ذليلاً يرتجف فَرَقاً من الموت لا يحميه إلا العباس الذى أصبح بين عشية وضحاها فى مقدمة أصحاب رسول الله ﷺ .

٢١ - وبقية الخبر بعد ذلك لا تخلو من سذاجة وهى تدل على انعدام مَلَكة النقد عند مؤرخينا القدامى ، فهم يرددونها جميعاً على عواهنها ، وخلاصتها أن رسول الله ﷺ أمر العباس أن يأخذ أبا سفيان ويحبسه « بمضيق الوادى إلى خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها » ، ونحن لا نعرف أين هو ذلك المضيق ، ولا ما هو خطم الجبل المقصود هنا ، ولكن الزرقانى صاحب الشرح المعروف على المواهب اللدنية للقسطلانى يقول : إن خطم الجبل هو أنف الجبل ، وهذا هو تفسير الماء بعد الجهد بالماء كما يقولون ، فإننا نعرف أن الخطم عامة هو الأنف ولكن الذى لا نعرفه ولا نفهمه هو أنف الجبل ، والقسطلانى كتب شرحاً للسيرة يسمى المواهب اللدنية ، ثم جاء الزرقانى فكتب شرحاً للشرح ، فهو شرح على شرح على صياغة معدلة محرفة لسيرة ابن إسحق وقد ضاع نص المواهب اللدنية ، فنحن لا نعرفه إلا من شرح الزرقانى له ، وكل من الرجلين يعرف كل كبيرة وصغيرة ولا يقول : لا أعرف قط ، فإذا غُمَّ عليه اسم موضع قال لك : موضع بين مكة والبصرة ! واذهب أنت وليعنك الله سبحانه على العثور على ذلك المويضع فى مسافة تزيد على الألفى كيلو متر .

والخبر يقول إن العباس (العظيم) وقف على مرتفع فى المضيق وإلى جانبه أبو سفيان ضئيلاً متخوفاً ، وكلما مرت فرقة من فرق الجيش كبَّرت ثلاثاً ، وسأل أبو سفيان : من هؤلاء ؟ فيجيب العباس هؤلاء بنو فلان ، هؤلاء بنو علان كأن العباس الذى أسلم ولحق بالرسول قبل أبى سفيان ربما بساعات قد أحاط بتكوين جيش الإسلام قطعة قطعة ، وجماعة جماعة بمجرد إسلامه ، كأنه هو صاحب هذا الجيش ومُرتِّبه وصاحب قياده ، وهذا فى النهاية هو ما يرمى إليه أصحاب هذه التحريفات .

٢٢ - وندع هذا كله لنقول : إن رسول الله ﷺ دخل مكة دخولاً سِلْمياً هادئاً منظماً على نحو ربما كان فريداً فى بابه فى التاريخ ، فضلاً عن العصور القديمة والوسيطة ، فأما فى العصرين القديم والوسيط فلم يحدث قط أن دخل جيش - أياً كان - مدينة إلا نهبها وعصف بأهلها حتى الجيوش العائدة إلى بلادها كانت تنهب بلادها نفسها ، وفى مواكب الملوك والسلاطين كان الناس يقفلون البيوت خوفاً من معرة الجند ، وأما فى العصر الحديث فلم تسلم مدينة قط دخلها جيش مهما كان نظامياً من سلب ونهب وقتل وانتهاك أعراض . ولكن جيش الإسلام دخل مكة دخولاً هادئاً منظماً لأنه لم يكن جيش دولة ، إنما كانت أمة مؤمنة تحولت إلى جيش إيمان ومحبة وسلام ، ورسول الله دخل مكة دخول نبى الإسلام يحمل معه السلام .

وإن الإنسان ليعجب من هذا النظام الجليل الذى دخلت به الجيوش الأربعة وعليها : الزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وسعد بن عبادة ، وقد جعله الرسول صاحب راية الجيش الذى هو فيه إعزازاً للأنصار ، ثم بدرت من سعد بن عبادة بادرة زهو ربما لم يكن وراءها شر ، فقد قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، وخافها المسلمون وأبلغوا الرسول فأخذ منه الراية وأعطاها لابنه قيس ، ولم يغضب سعد فإن الراية إذا كانت فى يد ابنه فهى لم تخرج من يده ، ولم يحدث قتال إلا فى جيش خالد الذى دخل من الجنوب أى من الليط ، لأن الخائفين المفزَّعين الذين سنشير إليهم تجمعوا هناك .

وهذا التنظيم كله وضعه النبى ﷺ عندما وقف الجيش بذى طوى موضع بشمال

مكة ، ثم تقدم بمن معه إلى أَذَاخِر ، ومن ثَمَّ سارت الجيوش فى نظام تام . وكان أبو سفيان وحكيم بن حزام قد سارا فى طرق مكة يصيحان فى الناس ألا يخافوا ، فمن دخل داره فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، فعجل الناس بدخول بيوتهم ، ودخلت الجيوش دخولاً سهلاً لا عنف فيه .

وقبل أن يدخل الرسول فى نفر من أصحابه فى آخر الجيش وقف بذى طوى وتوسط الناس وإن عثنونه (لحيته) ليمس واسطة الرحل أو يقرب منه تواضعاً لله سبحانه وتعالى حين رأى ما رأى من فتح الله وكثرة المسلمين ، ثم قال : العيش عيش الآخرة ثم تحرك ودخل مكة حتى وصل الحجون حيث كان الزبير بن العوام قد عزز راية الرسول وضرب له قبة ، ومر الرسول فى طريقه بشِعْب بنى هاشم أى حَيِّهم ، وكانت فيه داره ، ودُعى إلى دخول الشِّعْب والنزول فى أحد دور بنى هاشم فقال قوله المشهور : وهل أبقى لنا عقيل من دار ، وعقيل كان أخاً لعلى بن أبى طالب وكان قد بقى فى مكة وباع ديار بنى هاشم داراً داراً ، وأبى رسول الله أن ينزل فى أى بيت وإنما استقر فى قبته فكانت هى منزله أثناء مقامه عند الفتح ولم يكن رفض الرسول النزول فى أحد بيوت بنى هاشم راجعاً إلى أن عقيلاً باعها ، وإنما كانت للرسول من وراء ذلك حكمة أبعد ، فقد خشى إن هو نزل فى بيت من بيوت بنى هاشم أن يدخل المسلمون بيوت الناس ، فآثر النزول فى القبة التى ضُرِبت له محافظة على بيوت المكية من معرة نزول المقاتلين فيها .

٢٣ – وأما البقية الباقية من قريش الكفر فكانت قد تجمعت جنوبى مكة تريد أن تقاوم الفتح وأمر الله ، وكانوا على أى حال قلة تستوقف النظر بقِلَّتها . مدينة كبيرة لم يكن أهلها ليقلون عن خمسين أو ستين ألفاً تدخل فى الإسلام أو تستظل بأمان الإسلام وتظل ثابتة مكانها حتى يأذن الله بإسلامها ، فلا يشذ عن إجماع ملئها إلا نحو عشرين إنساناً يذكرهم المؤرخون بالاسم ويتتبعون مصائرهم حتى أسلموا إلا اثنين أو ثلاثة اختفوا أو ماتوا على الشرك وتواروا فى ظلام التاريخ . مدينة كاملة كانت بالأمس معقل العداء للإسلام تقف ساكنة هادئة وجيوش الإسلام – عدوها بالأمس فيما كان أهلها يتصورون – تدخل البلد

وتسير فيه آمنة كأنه بلد إسلامى منذ الأمد الطويل ، فى جنوبى المدينة فقط وفى ركن صغير منها وقف نفر من أهل العداوة والإسلام هم مَنْ ذكرنا من بنى عامر بن لؤى ، وواحد فقط من غالب بن لؤى هو عكرمة بن أبى جهل ومعهم أحابيشهم أى أنصارهم ، تترسوا هناك يقولون لخالد بن الوليد وهو كان المكلف بالدخول من الجنوب ، لا تدخلها علينا أبداً !

ويشاء حظهم أن يكون الداخل عليهم من هذه الناحية هو خالد بن الوليد وهو قائد موهوب لا يتردد فى إبادة العدو إبادة إذا اقتضى نظره العسكرى ، لأنه كان يرى دائماً أنه قائد عسكرى ، ورسالة القائد العسكرى عنده هى النصر وتحطيم العدو ، فما قالوها حتى ذهبوا بدداً ، وفى برهة من الزمان يهلك منهم ٢٤ رجلاً من قريش وأربعة من هذيل « وانهزموا أقبح الانهزام حتى قُتِلوا بالحزورة وهى كانت سوق مكة إلى جوار الحرم ، وقد دخلت فيه من زمن بعيد - وهم مولون فى كل وجه وانطلقت منهم جماعة فوق رؤوس الجبال واتبعهم المسلمون ، فجعل أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام يصيحان : يا معشر قريش ، علام تقتلون أنفسكم ؟ من دخل داره فهو آمن ومن وضع السلاح فهو آمن ، فجعل الناس يقتحمون الدُّور ويغلقونها عليهم ويطرحون السلاح فى الطرق حتى يأخذها المسلمون » ومن أذاخر يرى رسول الله ﷺ لمعان السيوف فيقول « ما هذه البارقة ؟ ألم أَنْهَ عن القتال ؟ قيل : يا رسول الله خالد بن الوليد قُوتِل . ولو لم يُقاتَل ما قاتل ، فقال رسول الله ﷺ : قضاء الله خير »(١).

ويمر رسول الله - وهو داخل - ببنات سعيد بن العاص وهو أبو أحيحة بن أمية ابن عبد شمس رأس الكفر والعداوة لرسول الله ، وقد مات كافراً ، وقد نشرن رؤوسهن يضربن بخمرهن رؤوس الخيل ، كأنهن يندبن حظهن ويحسبن أن هذه نهاية الدنيا فيأسى رسول الله لحالهن وتأخذه بهن رقة ، وبعد قليل يسلمون ويصلح إسلامهن ويجدن فى ظل الإسلام من الكرامة ما لم يكن يخطر لهن على بال .

وينتهى رسول الله ﷺ إلى الكعبة ويراها ومعه المسلمون ، ولقد كان قد رآها بعد

---

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٢٦ .

هجرته فى عمرة القضية ، ولكنها اليوم تحت راية الإسلام ويستلم الركن بِمِحْجنه ويكبِّر فيكبِّر المسلمون وراءه تكبيراً ترتج له أركان مكة ، حتى يشير إليهم الرسول بيده أن اسكتوا فيسكتون « والمشركون فوق الجبال ينظرون » ثم يطوف بالبيت على راحلته وقد أخذ بزمامها محمد بن مسلمة ويأمر بالأصنام حول مكة فتُهدم ويكمل الرسول طوافه ، ثم يُؤتى له بماء من زمزم فيشرب ، ثم ينظر إلى هُبل يهدم ، ثم يطلب مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة فيأتيه به فيأمره أن يدخل ويزيل كل ما بداخلها من تصاوير ، وفيها صورة لعيسى بن مريم وأمه السيدة مريم ، وصورة لإبراهيم يستقسم بالأزلام فتُزال هذه الصور ثم يدخل الرسول فيصلى ركعتين ثم يخرج وقد تطهرت الكعبة وأصبحت كعبة الإسلام حقاً ، ثم يخرج فيقف على باب الكعبة ويقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ! ماذا تظنون ؟ وماذا تقولون ؟ قالوا : نظن خيراً ونقول خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرتَ ! فيقول رسول الله ﷺ : أقول كما قال أخى يوسف ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[1] ألا إن كل رِبا فى الجاهلية أو دم أو مال أو مأثُرةٍ، فهو تحت قدمىّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وفى قتيل العصا والسوط الخطأ شبه العمد ، الدِّية مُغَلَّظة مائة ناقة ، منها أربعون فى بطونها أولادها .

إن الله قد أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها ، كلكم من آدم وآدم من تراب ، وأكرمكم عند الله أتقاكم . ألا إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام بحرمة الله لم تحل لأحد قبلى ولا تحل لأحد كائن بعدى ، ولم تحل لى إلا ساعة من النهار يقصرها رسول الله ﷺ بيده هكذا[2] ، ولا يُنفَّر صيدها ولا يُعضد عضاها[3] ولا تحل لقطتها إلا لمنشد ولا يختلى خلاها ... إلا الأذخِر فإنه حلال ، ولا وصية لوارث ، وأن الولد للفراش وللعاهر الحجر ، ولا يحل لامرأة تعطى من مالها إلا بإذن زوجها ، والمسلم أخو المسلم والمسلمون إخوة ، والمسلمون يد واحدة على من سواهم ، تتكافأ دماؤهم ، يرد عليهم أقصاهم ويعقد عليهم أدناهم ومُشِدُّهم على مضعفهم[4] ، ومسرتهم على قاعدهم ، ولا يُقتل مسلمٌ بكافر ، ولا ذو عهد فى

(١) سورة يوسف :٩٢ .
(٢) أى : يشير بأصبعه أنها ساعة قصيرة .
(٣) أى : لا يقطع نباتها الصغير .
(٤) شدّ على العدو : هجم عليه ، وضعف أى صار ضعيفاً .

عهده ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا جلب ولا جنب [١] ولا تؤخذ من صدقات المسلمين إلا فى بيوتهم وبأفنيتهم ، ولا تُنكح المرأة على عمتها وخالتها[٢]...» إلى آخر هذا الخطاب القصير الذى يبين بعض حدود الإسلام ويضع حداً لبعض ممارسات الجاهلية التى تخالف الإسلام .

وهكذا تطهرت الكعبة وعادت إلى الإسلام ملة إبراهيم وأذَّن من فوقها بلال وآمن الناس وسعدوا بأن مدينتهم دخلت عالم الإسلام هذا الدخول السلمى الآمن ، ولا شك أن ألوفاً بعد ألوف أسلمت فى هذه المناسبة لأن الذين ظاهروا الإسلام بالعداء ورفضوا الدخول فى أمته ، كانوا نفراً يُعَدُّون على أصابع اليدين ، وهم معروفون لنا بأعيانهم ، وقد قصَّ علينا المؤرخون قصة كل منهم وما جرى له ومعظمهم لم يلبث أن أسلم أو استأمن وأسلم وحَسُنَ إسلامهم ، ورجال مثل : عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية بن خلف ، وسهيل بن عمرو أصبحوا من خيرة المسلمين ، وسنلم بذكرهم فى الفصل التالى .

لقد أبى رسول الله ﷺ إلا أن يرد مفتاح الكعبة لبنى عبد الدار أصحاب ذلك المفتاح من قديم ، وقد مثَّلهم هنا عثمان بن طلحة بن أبى طلحة وهو مسلم قديم ، كان قد هاجر إلى المدينة مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وظل المفتاح فى يدهم بعد ذلك قروناً متطاولة ، وأقر الرسول العباس بن عبد المطلب على السقاية كما كانت قبل الفتح .

وقد جعل رسول الله مكة حراماً لا يحل فيها القتل أو العدوان لأحد ، وكان ذلك فى يوم الفتح وبعد خطاب رسول الله الأول ، وقد ذكرنا معظمه ، ثم اعتدى الخزاعيون على رجل كان لهم عنده ثأر ثانى يوم من أيام الفتح فأعاد رسول الله توكيد حرمة مكة إلى يوم القيامة والمدينة أيضاً كان جوفها حراماً منذ العام الثانى للهجرة ، الذى كُتِب فيه جزء من الصحيفة ، وبذلك أصبح للأمة الإسلامية مدينتان محرمتان ، هما مكة والمدينة ، ولم يغير رسول الله ﷺ مقامه من المدينة إلى مكة وفاء منه لأهلها ،

---

(١) أى : أن المصدق وهو الذى يراقب إخراج الصدقات ويأخذ نصيب الله ورسوله منها ، لا يبقى مكانه ويطلب إلى الناس أن يأتوه بالصدقة كأنه جامع ضرائب ، بل يذهب إليهم بنفسه .

(٢) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٨٣٥ - ٨٣٧ .

ولكن مكة كانت أحب بلاد الله إليه فهى مهده وفيها الكعبة والحرم وهى مقصد الحجاج .

وقد جدد رسول الله أنصاب الحرم يوم الفتح على يد رجل من العارفين بمواضع مكة هو تميم بن أسد الخزاعى . وقد جدد هذه الأنصاب عمر بن الخطاب ، ثم عثمان، ثم معاوية عندما حج . ونص الخطبة التى ألقاها رسول الله ﷺ يوم دخوله مكة وتطهيره الحرم لا يتضمن عبارة « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، فإن الذى قاله بحسب رواية الواقدى ، « ماذا تقولون وماذا تظنون ؟ قالوا : نظن خيراً ونقول خيراً : أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرتَ ! فقال رسول الله ﷺ : فإنى أقول كما قال أخى يوسف ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[1] ألا إن كل ربا فى الجاهلية وكل دم أو مال أو مأثرة فهو تحت قدمى إلا سدانة الكعبة الخ »[2] .

فمتى قال رسول الله عبارة اذهبوا فأنتم الطلقاء قالها بعد ذلك لأنه كان يريد - وقد دخل - مكة أن ينتصف بنو كعب الخزاعيون من بنى بكر بن عبد مناة للذى فعلوه بهم[3] . وقد نص الواقدى على ذلك صراحة فقال « يا معشر المسلمين ، كفوا السلاح إلا خزاعة عن بنى بكر إلى صلاة العصر فخبطوهم ساعة وهى الساعة التى أُحِلَّت لرسول الله ﷺ لم تحل لأحد قبله ، وكان رسول الله ﷺ نهى أن يُقتل من خزاعة أحد[4] ويضيف ابن سيد الناس عن ابن إسحاق ، أن نفراً من أوباش قريش حاولوا التصدى للمسلمين فسلط الرسول عليهم الأنصار ، فعصفوا بهم ، فقال أبو سفيان لرسول الله : أبيحت خضراء قريش لا قريش بعد اليوم فكرر رسول الله عليه مقالته وهو داخل مكة : من دخل داره فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، قال: فغلّق الناس أبوابهم »[5] .

وتؤكد رواية الواقدى هذا المعنى فتقول : إن هذا القتال هو الذى كان من ناحية

---

(١) سورة يوسف - آية ٩٢ .
(٢) الواقدى ٢/ ٨٣٥ - ٨٣٦ .
(٣) الواقدى ٢/ ٨٣٥ - ٨٣٦ .
(٤) الواقدى ٢/ ٨٣٦ .
(٥) ابن سيد الناس ، عيون الأثر ٢/ ١٧٤ .

الليط حيث دخل خالد ، وقد ذكر الواقدى أن الذين تجمعوا هناك كانوا نفراً من الحاقدين الخائفين من أمثال سهيل بن عمرو ، فبدرهم خالد وتبعهم حتى الحزورة وهو سوق مكة « وانطلقت طائفة منهم فوق رؤوس الجبال واتبعهم المسلمون ، فجعل أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام يصيحان : يا معشر قريش : علام تقتلون أنفسكم ، من دخل داره فهو آمن ، ومن وضع السلاح فهو آمن ، فجعل الناس يقتحمون الدُّور ويلقون السلاح حتى يأخذها المسلمون »[1]. وهنا وبعد أن يهدأ الحال ويطمئن الخائفون ويقتنع أهل مكة بأن ما أتاهم به أبو سفيان يكون الأمان هو أوان إعلان الرسول لأهل مكة أنهم طلقاء .

قال ابن سيد الناس راوياً عن ابن إسحاق : « ولما نزل رسول الله مكة واطمأن الناس ، خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده ، فلما خف طوافه دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففُتحت له فدخلها ، فوجد بها حمامة من عيدان « من خشب » فكسرها بيده ثم طرحها ، ووقف على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدَّعى فهو تحت قدمىَّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج . ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ، ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل ، أربعون منها فى بطونها أولادها ، ألا يا معشر قريش إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ (١٣) ﴾ [الحجرات] الآية ثم قال : يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل فيكم ، قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، ثم قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء »[2] .

وهذه كلمة تَرُوعُ النفس حقاً ، وهى دليل على ما وهب الله رسوله من سمو النفس وسماحة الخلق ، ولكن لها فى هذا الظرف بالذات معنى آخر لو تفطن إليه الناس لزاد إعجابهم بمحمد صلوات الله عليه . ذلك أن قواعد الحرب فى الجاهلية ،

---

(١) الواقدى ٢/ ٨٢٦ .

(٢) ابن سيد الناس ، عيون الأثر : ٢/ ١٧٨ .

أى قبل الإسلام فى جزيرة العرب وخارجها كانت تجعل أهل أى بلد يُفتح فى موضع الأسرى بيد القائد الفاتح ورجاله ، فالقائد الرومانى مثلاً كان إذا فتح بلداً أصبح البلد ملكه أو مِلْك أمة الرومان وكل من فيها أسرى ، وعندما غـزا الرومـان مصر أو الشام أو آسية الصغرى أو بلاد اليونان أصبحت هذه البلاد كلها بما فيها ومن فيها مِلْكاً لدولة الرومان ، وفرضوا عليها إتاوة ، وسخروا أهلها لخدمة الرومان وأصبح الجندى الرومانى سيداً وأصبح للحاكم الرومانى حق السلب والنهب والقتل حتى يصدر القائد الأمر للجنود بالتوقف عن النهب ، والرومان هنا أفضل من غيرهم لأنه كان لهم قانون ، وأما الفرس والأشوريون والبابليون فكانوا ينهبون ويقتلون قدر ما استطاعوا ، وحتى القبائل العربية كانت إذا أغارت إحداها على الأخرى أسرت من وقع فى أيديها من خصومها ، ويمسكون البلد رهينة بين أيديهم وأهلها أسرى .

فلما فتح رسول الله مكة أراد تطبيقاً لشرع الإسلام وإنسانيته أن يقول لأهل مكة : إنكم لستم أسرى ولا عبيد غالب ، وبلدكم ليس ملكاً لى أو لأى واحد من قوادى ورجالى. وهذا هو الذى أراد رسول الله أن يتفاداه عندما عزل سعد بن عبادة عن حمل راية واحد من جيوش الفتح ، عندما بلغه أنه قال : اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة ، فقد حسب هذا الرجل رغم إسلامه أن الأمر هنا أمر فتح وغلب واستحلال حرمات ، وهذا هو المعنى التاريخى لقول محمد - عليه ألف صلاة وسلام - لأهل مكة : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، أى : أنه ليس غزواً ولا ملكاً ولا غلباً ولا سيادة غالب على مغلوب ، إنما هو فتح أى فتح القلوب للإسلام .

والآية القرآنية تقول ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) ﴾ [النصر] أى : أن الإسلام ينتصر أولاً ثم لا تكون غلبة أو سيادة وإنما فتح للقلوب لينفذ إليها الإسلام ، وهذا الفتح الإلهى لا يكون بين يوم وليلة ، فمن الناس من يفتح الله عليه ويهديه ساعة الفتح ، ومن الناس من يحتاج إلى وقت حتى يناله الهدى ، ومنهم من لا يهتدى أبداً ، فكُلّ وما قُدر له وما كتب له عليه ، ولكل إنسان وضع وتقنين فى شرع الله ، فأما من اهتدى وأسلم راضياً مختاراً فهو أخ مسلم ومواطن فى الأمة ، وأما من أراد مهلة فيمهله الرسول ، ثم تجىء صورة براءة فيجعل المهلة للكافر الوثنى أربعة أشهر ،

وبعدها يجوز عليه القتل ، أما الرجل من أهل الكتاب فعليه الجزية والطاعة حتى يهتدى إن أراد الله به الخير .

وقد طبق الرسول هذا المعنى الذى ذكرناه فى الطليق والطلقاء مع أكثر من واحد ممن لم يشأ أن يسلم عند الفتح ، منهم سهيل بن عمرو بن عبد ود شيخ بنى عامر بن لؤى الذى حاول أن يقود قريشاً فى آخر محاولاتها للوقوف فى وجه الإسلام ، وتصرف على النحو الجافى مع رسول الله ﷺ فى محادثات الحديبية ، وكان من الطبيعى أن يخاف هذا الرجل على نفسه خوفاً شديداً بعد الفتح وتوقع أن يعاقبه الرسول على ما بدا منه ، خاصة وأنه لم يسلم ، ولم يكن الرجل بالضعيف أو المنافق ليعلن إسلاماً كاذباً فاختفى .

قال الواقدى على لسان سهيل : « وأرسلت إلى ابنى عبد الله بن سهيل أن اطلب لى جواراً من محمد ، وأنى لا آمن أن أُقتل ، وجعلت أتذكر أثرى عند محمد وأصحابه ، فليس أحد أسوأ أثراً منى ، وإنى لقيت رسول الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلقه أحد ، وكنت الذى كاتبته ، مع حضورى بدراً واحداً ، وكلما تحركت قريش كنت فيها ، فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله تؤمنه فقال : نعم، هو آمن بأمان الله ، فليظهر ! ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله : من لقى سُهَيل بن عمرو فلا يُشِد النظر إليه ، فليخرج ، فلعمرى إن سهيلاً له عقل وشرف ، وما مثل سُهَيلٍ جهل الإسلام ، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن بنافع ! فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره بمقالة رسول الله ﷺ فقال سهيل : كان والله براً صغيراً وكبيراً ؛ فكان سهيل يقبل ويدبر وخرج إلى حُنين مع رسول الله ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجِعرَّانة »[1] .

ولقد ترك رسول الله ﷺ سهيلاً لنفسه ، فإن شاء أسلم وإن لم يشأ فهَذا مصيره ، بل امتدحه وقال : إن سهيلاً له عقل وشرف وما مثل سهيل جهل الإسلام . وأثَّرت الكلمات فى نفس الرجل ، وأحس أن من يقول مثل هذا الكلام لابد أن يكون صادقاً وما دام صادقاً فهو نبى ، وما دام نبياً فلابد من الإيمان به ، ومن هنا فإن سهيلاً عندما

---

(١) الواقدى ، مغازى ٢/٨٤٦ - ٨٤٧ .

أسلم كان من أحسن الناس إسلاماً ، وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وبدت على بعض القرشيين بوادر الشك والارتداد ، قام هذا الرجل فيهم خطيباً وقال: يا معشر قريش ، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد ، والله إن هذا الدين ليمتد امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما .

وفى أيام عمر أقبل فوجد الناس ينتظرون أدوارهم ليدخلوا على عمر ، وعمر يبدأ بالمسلمين الأولين وأصحاب السابقة فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط ، إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يُلتفت إلينا ! فقال لهم سهيل بن عمرو : أيها القوم ، إنى والله قد أرى ما فى وجوهكم ، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم ، دُعِى القوم ودُعِيتم ، فأسرعوا وأبطأتم ، أما والله لَمَا سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فوتاً من بابكم هذا الذى تتنافسون عليه ! ثم قال : أيها الناس ، إن هؤلاء سبقوكم بما ترون ، فلا سبيل والله إلى ما سبقوكم إليه ، فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله أن يرزقكم الشهادة ، ثم نهض، فقام ، فلحق بالشام » .

وهذه هى الغاية التى رمى إليها رسول الله ﷺ بهدى من ربه عندما قال للقرشيين: اذهبوا فأنتم الطلقاء أى : اذهبوا فأنتم أحرار ولا إسار لى عليكم ولا بأس عليكم فى أنفسكم وفى أموالكم ، فلينظر كل منكم ما هو فاعل ، أى : أنه رد الناس إلى أنفسهم فالذين اهتدوا منهم مثل : سهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل ، فقد كانوا من أعاظم الناس إسلاماً ، أما من أسلم على حرف وبقيت فى قلبه غلواء الجاهلية كما رأينا من كلام أبى سفيان ، فلم يسعدوا بقلوبهم هذه الجافية قط ، ومن هؤلاء القرشيين الذين أسلموا عند الفتح ، من ظل جاهلياً فى تصرفه وطريقته فى الكلام والعمل وإن أسلم وآمن فعلاً ، ومثال هؤلاء حويطب بن عبد العزى ، وكان إلى حين الفتح من ألد أعداء الإسلام ، ولكنه أسلم وآمن .

قال المصعب الزبيرى « وكان أحد من دفن عثمان بن عفان رحمة الله عليه ، وباع من معاوية داراً بالمدينة بأربعين ألف دينار فاستشرف الناس لذلك (أى : تعجبوا منه) فقال : وما أربعون ألف دينار لرجل له أربعة عيال ! »[1] ومثاله أو قريب منه عبد الله

---

(١) المصعب الزبيرى ، نسب قريش ، ص٤٢٧ .

ابن مخرمة فقد ظل على جلافته ، وكان له ابن يسمى نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة ، قال المصعب الزبيرى « وكان من أشراف قريش ، وكانت له ناحية من الوليد ابن عبد الملك وكان الوليد يعجبه الحمام ويتخذ له ويطيره ، فأدخل نوفل بن مساحق عليه وهو عند الحمام فقال له الوليد : إنى خصصتك بهذا المدخل لأنسى بك». فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنك والله ما خصصتنى ولكن خسستنى إنما هذه عورة ، وليس مثلى يدخل على مثل هذا » ، فسيّره إلى المدينة وغضب عليه وكان يلى المساعى « أى الصدقات » فأخذه بعض الأمراء بالحساب ، فقال له : أين الغنم ؟ قال : أكلناها بالخبز . وقال : فأين الإبل ؟ قال : حملنا عليها الرجال ، قال : وكان لا يعرف إلى الأمراء من المساعى شيئاً : يقسمها ويطعمها[1] ، فهذا رجل أسلم وظل جاهلياً وحُرِم بشاشة الإيمان فلم تمس قلبه قط .

ومن القرشيين من خاف على نفسه فهرب وأبعد فى الهرب ، ومن هؤلاء هبيرة بن أبى وهب وهو يومئذ زوج أم هانى بنت أبى طالب (أخت على كرم الله وجهه) ، فقد هرب مع عبد الله بن الزبعرى حتى أتيا نجران ، ودخلا فيها حصناً من شدة الخوف وجعلا يقولان : إن قريشاً قد قُتلت وإن محمداً سائر بجيوشه إلى نجران ، وبعث حسان بن ثابت إلى ابن الزبعرى بِشِعْرٍ يخوِّفه به ، ورأى ابن الزبعرى الذى طالما هجا الإسلام ورسوله ألا مهرب له من أمر الله فأزمع العودة ، وعجب من أمره هبيرة ابن أبى وهب ، فما كان يحسبه يدخل الإسلام قط بعد الذى فعل وقال له : يا ليت أنى رافقت غيرك . والله ما ظننت أنك تتبع محمداً ، وعاد ابن الزبعرى وأسلم وأكرم الرسول مثواه ، أما هبيرة فقد ظل على كفره حتى مات بنجران ، وأما أم هانى امرأته فأسلمت عند الفتح وغريب من الأمر أن هذه السيدة الكريمة التى طالما أمن الرسول إليها واطمأن فى بيتها بعد موت السيدة خديجة رضى الله عنها ، وفى بيتها كان رسول الله ليلة أُسْرِى به ، ومع هذا فهى لم تسلم إلا عند الفتح ، والله سبحانه يهدى من يشاء متى يشاء .

بل أسلمت هند بنت عتبة ، أليست هند هذه صاحبة الأفاعيل بجثمان حمزة، وهى زوج أبى سفيان ؟ فأكرمها الرسول وقَبِل إسلامها .

---

(١) نفس المصدر ص٤٢٧ .

أما عكرمة بن أبى جهل فقد هرب إلى البحر يريد أن يركب سفينة ليهرب من رسول الله ، وكانت امرأته أم حكيم قد أسلمت فطلبت الأمان لزوجها من رسول الله ﷺ فأمَّنها فخرجت فى طلب زوجها وعادت به فأسلم ولقى من رسول الله كرامة عظيمةً ، وبلغ من إكرام الرسول إياه حين أهلَّ عليه ليسلم أن قام إليه واعتنقه وأمر أصحابه ألا ينادوه بعكرمة بن أبى جهل ، بل بعكرمة بن أبى الحكم وأمرهم ألا يسبوا أبا جهل ، وقال كلمة بليغة : فلا تسبوا أباه ، فإن سب الميت يؤذى الحى ، ولا يبلغ الميت !

فلا عجب إن كان إسلام عكرمة عميقاً خالصاً ، حتى قال : يا رسول الله ، لا أدع مالاً أنفقت عليك إلا أنفقت مثله فى سبيل الله ، وقد كان من أمراء جيوش أبى بكر فى حرب الردة ، وخرج فى بعض تلك الجيوش ومعه خباء عظيم وثمانية أفراس ورماح وعدة ظاهرة ، فانتهى إليه فإذا بخباء عكرمة ، فسلَّم عليه أبو بكر وجزاه خيراً وعرض عليه المعونة فقال : لا حاجة لى فيها ، معى ألفا دينار فدعا له بخير ، فسار إلى الشام ، واستشهد فى أجنادين وقيل : فى اليرموك أو فى يوم الصفر ، وحضر يوم فِحْل فكان من أعظم الناس بلاء ، وأنه كان يركب الأسنة حتى جرحت صدره ووجهه ، فقيل له : اتق الله وارفق بنفسك فقال : كنت أجاهد بنفسى عن اللات والعزى ، فأبذلها لها أفأستبقيها الآن عن الله ورسوله لا والله أبداً ، فلم يزود إلا إيماناً حتى قُتِل رحمه الله تعالى »[1] .

وكان رسول الله ﷺ بعد أن دخل مكة فاتحاً يعامل الناس وكأنه إلى جانب نبوته حكيم يداوى النفوس ، فهو يخاطب كل واحد على قدر عقله وبالطريقة التى يفهمها. ذكر الواقدى فى خبر إسلام صفوان بن أمية بن خلف بعد أن حكى قصة تأمين عمير ابن وهب إياه وعوده من الشعيبة إلى مكة فى أمانه قال : « يا محمد ، إن عمير بن وهب جاءنى ببُردك وزعم أنك دعوتنى إلى القدوم عليك فإن رضيت أمراً وإلا سيَّرتنى شهرين . قال : انزل أبا وهب ، قال : لا والله حتى تبين لى ، قال : بل تسير أربعة أشهر. فنزل صفوان ، وخرج رسول الله قِبل هوازن ، وخرج معه صفوان وهو كافر

(١) ابن الأثير : أسد الغابة : ٤/ ٧٠ - ٧٢ .

وأرسل إليه يستعيره سلاحه ، فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها فقال : طوعاً أم كرهاً ؟ قال رسول الله ﷺ : عارية مُؤدَّاة ! فأعاره فأمره رسول الله فحملها إلى حنين ، فشهد حنيناً والطائف ، ثم رجع رسول الله إلى الجِعرانة ، فبينا رسول الله ﷺ يسير فى الغنائم ينظر إليها ومعه صفوان بن أمية ، جعل صفوان ينظر إلى شِعْب « مساحة مُسوَّرة بسياج » مُلِء نَعَماً وشاء ورعاء ، فأدام إليه النظر ، ورسول الله ﷺ يرمقه فقال : أبا وهب ، يعجبك هذا الشِّعْب ؟ قال : نعم . قال : هو لك وما فيه ، فقال صفوان عند ذلك : ما طابت نفسُ أحدٍ بمثل هذا إلا نفس نبى : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأسلم مكانه »[1] .

وهكذا عرف الرسول كيف يقنع هذا القرشى الجافى بمنطقه ، فإن صفوان إلى ذلك الحين كان بعيداً عن أن يتأثر أو يقتنع بالقرآن وإلا فقد كان دخل فى الإسلام وإنما هو يقتنع بأن محمداً نبى لأنه يجود دون تردد بذود نَعَمٍ وشاءٍ . ولقد أعطاه الرسول من غنائم حنين حتى قال : أعطانى رسول الله يوم حنين ، فما زال يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلىّ . وقد حسن إسلام صفوان بن أمية بعد ذلك وعندما سمع أن الهجرة إلى رسول الله واجبة ، تحمَّل على نفسه وهاجر إلى المدينة ، ووجد الرسول أن الهجرة تشق عليه ، فقال له : لا هجرة بعد الفتح ثم قال : ارجع أبا وهب إلى أباطح مكة فَقَروا على سكناكم « مواضعكم » ، فرجع إلى مكة وأقام بها حتى مات .

ومن صفوان هذا واثنين آخرين من مسلمى الفتح استقرض رسول الله مالاً بعد تمام الفتح ليعطى أهل الضعف والحاجة من المسلمين ، وقد رأينا أن الرسول استقرض سلاحاً من صفوان بن أمية عند الخروج إلى حنين ، وفى ذلك قال الواقدى ، بعد السنة استقرض رسول الله ﷺ من ثلاثة نفر من قريش : من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم ، فأقرضه ، واستقرض من عبد الله بن أبى ربيعة أربعين ألف درهم ، واستقرض من حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم فكانت ثلاثين ومائة ألف فقسمها رسول الله ﷺ بين أصحابه من أهل الضعف [2] قال « فأخبرنى رجل من بنى كنانة : كانوا مع رسول الله ﷺ فى الفتح إنه قسم فيهم دراهم ، فيصيب

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٥٤ – ٨٥٥ .
(٢) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٦٣ .

الرجل خمسين درهماً أو أقل أو أكثر ، ومن هذا المال بعث إلى بنى جذيمة » .

وهذه الأخبار تدل على أن سراة القرشيين المكيين كانوا لا يزالون إلى الفتح فى سعة من المال ، بل كانوا أغنى من أثرياء أهل المدينة ، فلم نعلم أن رسول الله ﷺ استقرض مالاً بهذا الحجم من سعد بن عبادة أو غيره ، وكان سعد بن عبادة من أكثر الناس بذلاً فى سبيل الله ، وقد روينا ، كثيراً من أمثلة عطائه فى سبيل الله ومن سماحة يده ما جعل رسول الله ﷺ يقول : خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام ، وسعد بن عبادة كان فيما نعلم أغنى الأنصار ومع ذلك فإنه لم يملك من المال السائل هذا المبلغ وهذا المال وما اتصف به القرشيون من الجود به ، كان من الوسائل التى استعادت به قريش مركزها فى الإسلام بعد أن كادت تفقده بعد فتح مكة . وقد رأينا مثلاً من ذلك فيما حكيناه عن عكرمة بن أبى جهل بعد إسلامه .

حتى هَبّار بن الأسود ووحشى قاتل حمزة عفا رسول الله عنهما بعد إسلامهما ، فأما هبار فهو الذى عَسَّ « تتبع » بابنة النبى ﷺ زينب وضرب ظهرها بالرمح وكانت حبلى فسقطت . فأهدر النبى ﷺ دمه ، ومثل هذه الجريمة لا تُنسى ولكن رسول الله غفرها لصاحبها بالإسلام عندما دخل عليه هبار وأسلم ، وكذلك كان الحال مع وحشى ، وقد كان غضب النبى عليه غضباً شديداً لما صنع بحمزة رضى الله عنه . ولكن رسول الله تناسى له جرمه وعافاه بالإسلام وعاش حتى يستشهد فى قتال مسيلمة فى اليمامة .

أما الذين قُتِلوا يوم الفتح بأمر الرسول ﷺ فكانوا الأراذل حقاً ممن عظمت جرائمهم دون أمل لهم فى صلاح حال ، من أمثال ابن خطل الذى ارتد وقتل مسلماً غدراً بعد إسلامه ، وجاريتيه فَرْتنا [1] وأرنب وكانتا فاسقتين وكانتا تنشدان الشعر وتغنياه فى ذم الإسلام ورسوله ، وسارة مولاة عمرو بن هاشم وكانت مغنية نوَّاحة فى مكة ووفدت على الرسول فى المدينة ، فلم يعنف معها وأعطاها وِقْر بعير طعاماً ، فعادت إلى مكة واستمرت على ما هى عليه فقُتِلَت عند الفتح ، ومقيس بن صُبَابة

(١) اسمها فى النصوص هكذا فرتنى وهى جارية رومية أو من بلاد الروم فى الغالب ، والراجح أن أصل اسمها Fortuna أى حظ أو نصيب ، وهو اسم للنساء معروف عند الروم .

وكان امرءاً خليعاً سكيراً وقد غشته نفسه بعد الفتح ، فخرج سكران يهذى بشعر فيه عدوان على الإسلام ، فانقضَّ الناس عليه وهبروه بالسيوف وهذا الرجل كان قد اعتبط مسلماً غدراً بعد أن أخذ الدية عن أخ له قتله المسلم خطأ .

وعندما رأى الرسول إقبال القرشيين رجالاً ونساء على الإسلام عند الفتح ، طابت نفسه عن قومه ونسى لهم ما كانوا فعلوه به وبالمسلمين بل استمر فى إعزازهم ، وذلك دليل أصالته وكرم نفسه . روى الواقدى بسنده أن رسول الله لما فتح مكة جلس عبد الرحمن بن عوف فى مجلس فيه جماعة منهم سعد بن عبادة ، فمر نسوة من قريش على هذا المجلس ، فقال سعد بن عبادة : قد كان يُذكر لنا عن نساء قريش حسن وجمال ، ما رأيناهن كذلك . فغضب عبد الرحمن حتى كاد أن يقع بسعد وأغلظ عليه ، ففر منه سعد حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ماذا لقيت من عبد الرحمن فقال رسول الله ﷺ : وما له ؟ فأخبره بما كان قال ، فغضب النبى ﷺ حتى كأن وجهه ليتوقد ، ثم قال : رأيتهن وقد أُصِبْنَ بآبائهن وأبنائهن وإخوانهن وأزواجهن . خير نساء ركبن الإبل نساء قريش : أحناهن على ولد ، وأبذلهن لزوج بما ملكت يد .

وبهذه المناسبة نذكر أشياء مما وقع لنا فى الكتب من أوصاف رسول الله ﷺ فى هذا المعنى ، وهو يعيننا على تصور هيئته ﷺ عند هذا الفتح العظيم المبارك . قال الواقدى: « وكان أبو الطفيل عامر بن واثلة يقول : رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة ، فما أنسى شدة بياضه وسواد شعره ، وإن من الرجال لمن هو أطول منه ، ومنهم من هو أقصر منه ، يمشى ويمشون حوله قال : فقلت لأمى : من هذا ؟ فقالت : رسول الله . قيل له: ما ثيابه ؟ قال : لا أدرى » .

قال : « وحدثنى عبد الله بن يزيد عن ربيعة بن عباد قال : دخلنا بعد فتحها بأيام ننظر ونرتاد وأنا مع أبى ، فنظرت إلى رسول الله ﷺ ، فساعة رأيته عرفته وذكرت رؤيتى إياه بذى المجاز ، وأبو لهب يتبع أثره يومئذ ، ورسول الله ﷺ يقول : لا حلف فى الإسلام ولن يزيد حلف الجاهلية الإسلام إلا شدة . وكانت أم هانىء تحدث

تقول : ما رأيت أحداً كان أحسن ثغراً من رسول الله ﷺ ، وما رأيت بطن رسول الله ﷺ إلا ذكرت القراطيس المثنية بعضها على بعض تعنى عكنه [1] وقد رأيته قد دخل يوم الفتح ، قد ضفر رأسه بضفائر أربع[2] . ثم أضاف عن أم سلمة بعد السند : «ضفرت رأس النبى ﷺ بذى الحليفة أربع ضفائر ، فلم يحله حتى فتح مكة ومقامه بمكة ، حتى حين أراد أن يخرج إلى حنين حله وغسلتُ رأسه بسدر »[3] .

وبهدى الله وحكمة نبيه وبُعْد نظره كان فتح مكة خيراً على الإسلام وعلى أهل مكة ممن عادوه وأبغضوه ، وقد كانوا يحسبون أن ذلك الفتح هو نهاية عزهم ومجدهم، فأراد الله سبحانه أن يكون ذلك بداية عز لهم جديد ، ويتجلى لنا ذلك من خبر جليل المعنى يرويه الواقدى بمناسبة إعطاء رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة بن أبى طلحة من بنى عبد الدار ، قال : وكان رسول الله ﷺ قال لعثمان يوماً ، وهو يدعوه إلى الإسلام (أيام كان بمكة قبل الهجرة) ومع عثمان المفتاح : لعلك سترى هذا المفتاح بيدى أضعه حيث شئت ! فقال عثمان : لقد هلكت إذاً قريش وذلّت ؟ فقال رسول الله ﷺ : بل عمرت وَعَزّت يومئذٍ »[4] .

وهذا الخبر الذى أختم به هذا الفصل هو بداية الفصل التالى من هذه الدراسة عن قريش والإسلام .

مَوقف كبَار القرشيّين مِن الإسلام بعد الفَتح :

دخلت مكة نطاق أمة الإسلام ، ولكن معظم أئمة الكفر فيها ظلوا على موقفهم من الإسلام زماناً ، وبعضهم ظل على مكانه من الكفر إلى أن مات لأن الأمر عندهم كان معقداً ، فهم نفروا من الإسلام لأنه هدد مكانتهم فى مجتمعهم الجاهلى وأنذرهم بالحرمان مما كانوا يتمتعون به من سيادة وسلطان وصدارة فى المجتمع ورياسة بين الناس ، وكانوا يرون فى جاهليتهم رخصة فى العدوان على الضعفاء وتعدِّى الحدود ، ونفروا من محمد لأنه كان إلى ما قبل النبوة واحداً من أترابهم وأندادهم ، بل كان

---

(١) العكن : هو ما انطوى وتثنى من لحم البطن . القاموس المحيط ١/ ٣٢٥ .
(٢) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٦٧ - ٨٦٨ .
(٣) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٦٨ .
(٤) نفس المصدر ، ٢/ ٨٣٧ - ٨٣٨ .

بعضهم ممن أُوتِى مالاً ، يرى أنه أعز منه مكاناً ، وقد وقع فى خاطرهم أن النبوة التى ينادى بها محمد ، إنما هى حيلة منه لكى يعلو عليهم ويجعلهم من أتباعه .

ومن هذا الطراز كان سهيل بن عمرو الذى أبى أن يكتب فى وثيقة الحديبية أن محمداً رسول الله ، وتمسك بأن يكون محمد بن عبد الله فحسب ، وفى إحساسه أنه عندما يتمسك بذلك يتمسك بعلو كعبه على محمد ، وأن عبد الله بن عبد المطلب فى زعمه وتصوره أقل من عمرو بن عبد شمس بن عبد وَد وصفوان بن أمية لم ينس قط أنه ابن أمية بن خلف بن وهب سيد جمح ، وكان محمد يعرف ذلك ولكنه كان يملى لهم ويعرف أن فى نفوس بعضهم جوانب من الخير سيزكيها الإسلام عندما يدخلون فيه ويتعرفون على فضائله ومزاياه وشمائل رسول الله الكريم ، ومعظمهم هداه الله وأسلم وصلح إسلامه ، وبعضهم أسلم بشفتيه ولم يتعد الإسلام شفتيه ، وسنرى نماذج من هؤلاء جميعاً فيما يلى من الكلام .

وحجة أخرى ظل نفر من القرشيين متشبثين بها لأن عقولهم لم تستطع أن تتجاوزها ، وهى القول بأن محمداً ساحر ، وكل ما يأتى به فهو من عمل السحر ، وما دام أولئك النفر قد تحصنوا فى ذلك الكهف الأسود فلم يعد هناك شىء يستطيع إقناعهم بالخروج منه : فالقرآن سحر وحديث الرسول سحر وما يصل إليه الإسلام من توفيق ، إنما هو من عمل السحر وقد ضاعت هذه الجماعة بلا أمل وإن نطقت بكلمة الإيمان ، بالضبط كما ظل نفر من أهل المدينة متشبثين بعداواتهم للإسلام وإن تعوَّذوا بالنفاق ، وحديث عبد الله بن أُبىّ وعناده للإسلام وموته كافر القلب معروف ، والجد بن قيس بن صخر بن خنساء بن سنان من بنى عدى من بنى سلمة كان أوغل من ابن أُبىٍّ فى الإنكار والعداوة وإن تعوذ بالإسلام ، وقد أوجز ابن حزم كل الإيجاز فى الكلام عنه ولم يزد على أن قال « تُكُلِّمَ فيه » . وقد روى الواقدى فى المغازى من دلائل دَغَلِه وسوء نيته الكثير .

وقد أطال رسول الله المكث بمكة عند الفتح ، فقد قضى فيها خمس عشرة ليلة على قول ، وعشرين على قول آخر . وقد استخدم هذه المدة خير استخدام ، فأمر بتكسير كل الأصنام التى كانت فى البيوت ، وبعد تحطيم أصنام الكعبة أرسل سرايا لهدم

أصنام الآلهة خارج مكة مثل العزى وسواع ومناة . وأتم القضاء على معارضة بنى جذيمة من كنانة ، وكانوا ينزلون قريباً من معدن بنى سليم بن منصور ومنازلهم إلى الجنوب الشرقى من المدينة ، وفى أثناء مقامه بمكة كان نصر حنين وهزيمة هوازن ثم حصار الطائف فلم يخرج إلى الجِعِرَّانة ويريح بها ليقسم الفىء إلا بعد أن استقبل وفد هوازن ودخلوا الإسلام على يديه ، فردَّ عليهم سبيهم ، وفى مسيره إلى الجعرانة تهافت عليه الأعراب يطلبون عطاءه لما رأوا من كرمه وسخاء يده ، يقول الواقدى : «وجعلت الأعراب فى طريقه يسألونه وكَثَّروا عليه حتى اضطروه إلى سَمُرَة فخطفت رداءه فنزعته عن مثل شِقة القمر (يريد جسده الكريم) فوقف رسول الله ﷺ يقول : أعطونى ردائى ، أعطونى ردائى ! لو كان عدد هذه العضاة نَعَماً لقسمته بينكم ، ثم لا تجدونى بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً » . فردوا عليه رداءه .

وكانت معركة حنين أول اختبار لقريش بعد الإسلام ، وعندنا أخبار عن بعض من أسلم من زعماء قريش ولكننا لا نعلم موقف البقية من الإسلام وكانت أمامهم على أى حال مهلة أربعة أشهر منحهم إياها الله سبحانه وتعالى (فى أول سورة براءة) ليهديهم ، وتوكيداً لخلق الرسول الكريم معهم وأملاً فى أن يدخلوا الإسلام أذِنَ لبعض من بقى على الكفر منهم أن يخرجوا مع المسلمين .

وقد أضفى رسول الله ﷺ فضله على زعماء كفار قريش وتغاضى لهم عن الكثير ، ولم يكن يضير أمة الإسلام فى شىء أن يتأخر بعض كبار القرشيين فى دخول الإسلام ما داموا قد أصبحوا داخل نطاق الأمة ، ولا يستطيعون أن يضروها دون أن يتعرضوا للعقاب ، ثم إن خروجهم على الأمة كان محدوداً بالمهلة التى أعطاهم إياها رسول الله ﷺ خاصة ، وأن غالبية أهل مكة من قريش وغيرها قد دخلوا الإسلام وصدقوا فى إسلامهم .

وليس لدينا إلا النزر اليسير من المعلومات عن أولئك النفر من أهل العناد من القرشيين وما كان يجرى بينهم من كلام يكشف عن حقيقة دخائلهم ، والأغلب أنه كانت هناك أخبار كافية ، ولكنها اندرست وأهملها أصحاب التاريخ إكراماً لأبناء

أولئك المعاندين وأحفادهم ، ومعظمهم كان قد حسن إسلامه وأصبح ذا مكانة فى الجماعة الإسلامية فى العصر الراشدى وما تلاه من عصرى بنى أمية وبنى العباس .

فلم يعد من المستحسن جرح إحساس الأولاد والأحفاد بترديد ما يسىء إلى إحساسهم ، وقد رأينا أن ابن حزم مثلاً عندما جاء ذكر الجد بن قيس بن خنساء بن سنان ، وكان من كبار المنافقين من بنى عدى بن غنم بن كعب بن سلمة من الخزرج اكتفى بأن قال « تكلم فيه » وذلك مراعاة لذكرى ابنه محمد بن الجد بن قيس وابن أخيه الطفيل بن مالك بن خنساء وهو بدرى عَقَبىٌّ ومن شهداء الخندق ونفر آخر كثير من بنى سلمة ، كانوا بدريين وأولادهم وأحفادهم كانوا من كبار أهل التقوى والإيمان والعلم ، ولرسول الله ﷺ فى ذلك مذهب جميل ، فقد رأى أن الكثيرين من المسلمين يسبُّون أبا جهل بعد أن أسلم ابنه عكرمة وحسن إسلامه ، فقال لهم ﷺ كلمة هى من جماع كلمه وحِكَمه وآدابه ﷺ « لا تسبوا الميت ، فإن سَبَّ الميت يؤذى الحى ولا يصل إلى الميت » .

ومن مذاهبه الجميلة فى ذلك ما يرويه الواقدى من أن المسلمين اشتد حنقهم على الهوازنيين والثقفيين الذين كادوا أن يلحقوا بالمسلمين أشد الضرر فى أول يوم من حنين ، فلما تغير الحال وصارت الكَرَّة للمسلمين حنقوا عليهم ، فانقضوا عليهم «فقتلوهم حتى أسرع المسلمون فى قتل الذرية فبلغ ذلك رسول الله ﷺ (وهو فى المعركة بعد)، فقال : ما بال أقوام بلغ بهم القتل حتى بلغ الذرية ! ألا لا تُقتل الذرية ! ثلاثاً ، قال أسيد بن حضير : يا رسول الله ، أليس إنما هم أولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ : أو ليس خياركم أولاد المشركين كل نسمة تُولد على الفطرة حتى يُعرِب عنها لسانها ، فأبواها يُهوِّدانها أو يُنصِّرانها »[1] .

ولكن تفاصيل أخبار كبار القرشيين هؤلاء إذا كانت قد أخفت عنا حقيقة ما كان يجرى داخل نفوسهم ، فإن لدينا من أخبار غيرهم ما يغنى فى هذا الموطن من رؤساء غطفان وبنى مرة وقشير من غير القرشيين . فقد روى هنا الواقدى ويا له من كنز حافل بالأخبار والحقائق خبراً يصور لنا السبب فى الموقف العجيب الذى وقفه عيينة

(١) الواقدى ، مغازى ٣/ ٩٠٥ .

ابن حصن وصاحبه الأقرع بن حابس التميمى من الإسلام ، فدخل فيه على حرف ، ثم حاربه دون أن يخرج عن الإسلام صراحة ، ولم يزل على خلقه هذا حتى كان فتح مكة فدخل فى جملة أصحاب محمد ﷺ ولكن قلبه ظل وثنياً حتى ضجر به أبو بكر .

فقد روى الواقدى فى أخبار سرية الجِنَاب التى قادها بشير بن سعد على أرض غطفان سنة سبع للهجرة ، والجِنَاب فى أرض غطفان من أدنى عوالى نجد ، فقد اشتدت وطأة بشير بن سعد وأصحابه على فزارة من غطفان ، (وعيينة فزارى) حتى أدركه الهلع فانكفأ هارباً ، فإذا هو فى ذلك إذ مر بمنازل بنى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ، وكان شيخها الحارث بن عوف المرى - وكان له حليفاً - قد دخل الإسلام فمر به عيينة بن حصن يركض ، فقال له الحارث « أما لَكَ بَعْدُ أن تُبصر ما أنت عليه ، إن محمداً قد وطىء البلاد وأنت مُوضع فى غير شىء ، قال الحارث : فتنحيت عن سَنَن (طريق) خيل محمد حتى أراهم ولا يرونى ، فأقمت من حين زالت الشمس إلى الليل ما أرى أحداً ولا طلبوه إلا الرعب الذى دخله ، قال (الحارث) : فلقيته بعد ذلك فقال الحارث : فلقد أقمت فى موضع حتى الليل ما رأيت من طلب ، قال عيينة: هو ذاك أنى خفت الإسار ، وكان أثرى عند محمد ما تعلم فى غير موطن .

قال الحارث : أيها الرجل ، قد رأيت ورأينا معك أمراً بيناً فى بنى النضير ويوم الخندق وقريظة وقبل ذلك قينقاع وفى خيبر أنهم كانوا أعز يهود الحجاز كله ، يقرون لهم بالشجاعة والسخاء ... ثم قد رأيت حيث نزل بهم (محمد) كيف ذهبت تلك النجدة وكيف أديل عليهم ؟ فقال عيينة : هو والله ذاك ولكن نفسى لا تقرنى . فقال الحارث : فادخل مع محمد ! قال : أصير تابعاً ، قد سبق قوم إليه فهم يُزرون ممن جاء بعدهم يقولون : شهدنا بدراً وغيرها ! قال الحارث : وإنما هو ما ترى فلو تقدمنا إليه لَكُنَّا من عِلية أصحابه . قد بقى قومه (أهل مكة) على بُعْدهم منه فى موادعة (يشير إلى صلح الحديبية) وهو مُوقِع بهم وقعة ما وطىء له الأمر ، قال عيينة : أرى والله »[1] !

والحديث بين الرجلين يصور لنا « العقدة التى تكونت فى نفوس أولئك المعاندين

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٧٣٠ .

من ناحية محمد ﷺ ، فهم جميعاً مثل عيينة خائفون منه يترقبون ، والإيمان بعيد جداً من قلوبهم لأن الخوف من محمد والكراهة له والحسد لما وفق إليه ، كان يأخذ عليهم طرق التفكير جميعاً ، فهذا الرجل – عيينة – يركض بفرسه خائفاً من بشير بن سعد وثلاثون فرساً معهم ، ثم إنهم لم يكونوا فى طلبه ولكنه يجرى خوف الإسار ، ومع أن الحارث بن عوف المرى كان يرى الدخول فى أمر محمد ، إلا أنه كان يتردد وينتظر ما يكون بينه وبين قريش (وكان ذلك قبل فتح مكة) ولعله كان يرجو أن تنتصر قريش على أمة الإسلام وبقية الخبر – ولم نأت بها هنا لطولها وإنما نكتفى بالقول بأنهم جميعاً كانوا حتى فتح مكة يفكرون فى السير إلى المدينة مجتمعين ومهاجمة الإسلام فى عقر داره .

وعيينة فى كلامه يفصح عن نفس الشعور الذى كان يملأ نفوس زعماء المكيين الذين أقاموا على الكفر ، فهم يحسبون أنهم إذا دخلوا الإسلام كانوا تابعين لغيرهم ، وهـذا أمـر لا يريدونـه ، فهم ما يزالـون سـادة فى مجتمعهم رغم تدهـوره ، ثم إنهم لا يريدون الدخول فى الإسلام لأن أوان ذلك قد تأخر فى ظنهم وأصبحت لهم فى أمته مكانة وسابقة ، فإذا دخل هؤلاء الرؤساء الإسلام لم يكن لهم مفر من أن يكونوا بعد هؤلاء السابقين وهو أمر لا تقبله نفوسهم .

وكان رسول الله ﷺ يدرك هذا من دواخل نفوسهم فقد منحه الله سبحانه من سعة الإدراك ، ونفاذ البصيرة ما يبعث على العجب . وما نقول هذا لمجرد التمدح فى المصطفى ، فما هو بحاجة إلى مدحنا أو مدح أحد من العالمين بعد أن امتدحه ربه سبحانه وتعالى ، وهذه بينات الواقع التاريخى بين أيدينا أبلغ من كل مقال .

فانظر إلى تصرف الرسول الكريم مع كبار القرشيين الذين طاعوا لأمة الإسلام عند فتح مكة دون أن يدخلوا فى الدين ، فقد أذن لهم فى أن يشتركوا فى القتال مع المسلمين فى حُنَيْن ، وما كان قبل ذلك يسمح قط لغير المسلم بأن يشترك فى جيوش الإسلام ، ولكنه فتح أمامهم بهذه السماحة الباب ليحضروا مشاهد الإسلام إلى جانب أهل السابقة إلى الإسلام لكى يريهم أن الباب لا زال مفتوحاً أمامهم ، ليكسبوا شرف الاشتراك فى الجهاد . ومع أن هؤلاء القرشيين جميعاً – وكان عدد من اشترك

منهم فى حنين ألفين - خيبوا ظن الرسول وكانوا فى مقدمة الفارّين للصدمة الأولى لأنهم لم يعرفوا بعد ضراوة جهاد المؤمنين ، وكادوا يجرُّون الهزيمة على المسلمين، مع ذلك فإن رسول الله لم يغضب عليهم ولا وجَّه إليهم كلمة عتب . بل هذا هو يعطيهم بسخاء من مغانم حنين . وَحَبَس فى نفس الوقت العطايا عن كبار الأنصار لا ضَنّاً بها عليهم بل لكى يُشعِرَ أولئك المعاندين بأنهم قد امتازوا بشىء ويتخلصوا من شعور المهانة الذى كان يملأ نفوسهم ، وشعور المهانة هذا أوجد فى نفوسهم شعوراً من النفور من الإسلام ، فأراد الرسول أن يزيل هذا النفور ، ولم يدرك الأنصار أول الأمر مغزى ما رمى إليه الرسول ، ووَجِد بعضهم فى نفسه حتى بَيَّنَ لهم الرسول ما رمى إليه فى خطابه المشهور إلى الأنصار ، وهو متداول فى أيدى الناس .

وأوفى صورة له نجدها فى مغازى الواقدى (٣/ ٩٥٨) ولا يمنعنا من إيراده إلا الخوف من التطويل . ولكننا نقف عند العبارة التى تعنينا فى موقفنا هنا : « وجدْتم فى أنفسكم يا معشرَ الأنصار فى شىء من الدنيا تألّفت به قوماً ليُسْلِموا ووَكِلْتكم إلى إسلامكم .. » فهذا كان غرض رسول الله : استئلاف قلوب المشركين بالمال . فهم لا زالوا بَعْدُ جفاة تقنعهم الدنيا . أما الأنصار فإيمانهم وحب رسول الله إياهم أغلى عندهم من كل شىء . وقد بلغ رسول الله ما أراد من صواب القول والتصرف فى هذه المناسبة ، فقد رقق المال قلوب المشركين ومسَّتْ كلمات الرسول قلوب الأنصار وخرج الإسلام ورسوله فائزين فى الحالين .

والحق أن رسول الله ﷺ عندما كان يكرم صفوان بن أمية ، أو سهيل بن عمرو ، أو حُويطِب بن عبد العزى وغيرهم من أئمة الكفر ، كان يعرف أنهم سيدخلون الإسلام ، بعضهم عن إيمان ، وبعضهم عن استسلام أو تسليم لأمر واقع ولا حيلة لهم فى دفعه . وكان الرسول يرجو أن تمس بشاشة الإيمان قلوبهم ، وقد حدث هذا وخاصة مع رجل له حسب ومحتد مثل عكرمة بن أبى جهل ، والإيمان فيما يقولون حسب ونسب ، وعكرمة بن أبى جهل ، رأس مخزوم بعد أبيه ، أما صفوان بن أمية بن خلف فكان من جُمَح، وسهيل بن عمرو كان سيد بنى عامر بن لؤى وكذلك كان حويطب بن عبد العزى من عامر بن لؤى فلا عجب أن أحداً من هؤلاء لم يحسن

إسلامه كما حَسُن إسلام عكرمة بن أبى الحكم عمرو بن هشام و« خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام » كما قال الرسول الصادق ﷺ .

ولكن الرسول عندما كان يغض الطرف عن هَفَوات صفوان بن أمية وفعاله ، لم يكن ينظر إليهم بل إلى قريش من ورائهم ، فأولئك أفراد أما قريش فقبيلة رفيعة المكانة ولها قدرها . وغالبية قريش كانت قد دخلت الإسلام عن نية صادقة واعتزاز بأن رسول الله ﷺ من شجرة قريش ومن أبناء مكة . فالمراعاة هنا لم يكن يقصد منها فى النهاية إلا قريش القبيلة ، وكان لها فى نفس النبى مكان أى مكان كما سنرى . وإكرام السادة القدامى ثم إسلامهم من شأنه أن يعطى إيمان بقية القرشيين بُعداً وعُمقاً جديدين . وهذا كان له فيما بعد أثر حاسم ، وقريش التى عاملها رسول الله ﷺ بهذه الإنسانية الإسلامية ستحمل عن جدارة لواء الإسلام ، ففى قريش هذه أخلاق سيادة وتقاليد جاه وحسب وسؤدد ، والجماعة الإسلامية فى حاجة إلى رؤوس ورجال من هذا الطراز . وما كان شىء من ذلك كله بخَافٍ على رسول الله .

ولدينا خبر طريف يرويه الواقدى عن إسلام صفوان بن أمية يقول : « ويقال إنه (أى صفوان) طاف مع النبى ﷺ والنبى يتفحص الغنائم (غنائم هوازن) إذ مر بشِعْب (قطيع ماشية) مما أفاء الله عليه فيه غنم وإبل ورعاؤها مملوء فأعجب صفوان ، وجعل ينظر إليه ، فقال رسول الله ﷺ : أعجبك يا أبا وهب هـذا الشِّعْب ؟ قال : نعم! قال : هو لك وما فيه . فقال صفوان : أشهد ما طابت بهذا نفسُ أحدٍ قط إلا نبى، أشهد أنك رسول الله ! »[1] وهكذا اقتنع الرجل فى لحظة بشىء من النَّعم أو بلُعاعة من لُعاعات الدنيا كما قال الرسول ﷺ فى خطابه إلى الأنصار . ولم يقتنع هذا الرجل بالقرآن الكريم عشرين سنة ! وسبحان من خلق الناس معادن ! وصلوات الله على من أجرى الله الإيمان والحكمة على فؤاده وعقله ولسانه .

ومثل هذا يقال عن صبر الرسول على أعراب أجلاف مثل عُيَيْنَة بن حصن والأقرع بن حابس وعامر بن عوف النصرى . فقد طالما صبر الرسول على عيينة وأغضى عن أفاعيله ولكنه كان ينظر إلى مَن ورائه من غطفان . ومن وراء الأقرع بن

(١) الواقدى ، مغازى ٣/ ٩٤٦ .

حابس كان رسول الله ينظر إلى تميم ، ومن وراء عامر بن عوف النصرى كان ينظر إلى هوازن ، ومن وراء أبى مِحْجَن الثقفى كان ينظر إلى ثقيف ، وهؤلاء الأفراد زوائل ، أما القبائل فهى الباقيات . ومنها ومن أمثالها ومن قريش ستكون النواة العربية لأمة الإسلام .

وإليك حكاية يرويها ابن إسحاق والواقدى قالا : إن وفد هوازن عندما أتى إلى الجِعِرَّانة يطلب إلى رسول الله إطلاق سَبْيهم أيقن الرسول أن قريشاً والمهاجرين والأنصار سيستجيبون إلى ما كان يرجو من إطلاق السبى ، وأما الأقرع بن حابس فقد قال : أما أنا وبنو تميم فلا! وقال عيينة بن حصن : أما أنا وفزارة فلا ! وقال عباس ابن مرداس السُّلَمى : أما أنا وبنو سُلَيم فلا ! قالت بنو سُليم : ما كان لنا فهو لرسول الله . فقال العباس : وَهَّنتُمونى ! ثم قام رسول الله ﷺ خطيباً فى الناس فقال لهم : إن وفد هوازن أتاه يطلب إطلاق السَّبْى فخيَّرهم الرسول بين الغنائم والسبى . قال الواقدى : فلم يعدلوا بالنساء والأبناء شيئاً ، فمن كان عنده منهن شىء فطابت نفسه أن يرده فليرسل إلىَّ ومَنْ أبى منكم وتمسك بحقه فليرد عليهم ، وليكن علينا (أى على الرسول) ست فرائض من أول ما يفيض الله علينا ! « قالوا : يا رسول الله رضينا وسلمنا ! »

وهكذا تمسك الزعماء بالجاهلية ، وتمسكت الجموع بالإسلام ! ومع ذلك فلم يشأ الرسول أن يفرض عليهم شيئاً إلا بعد أن جعل الناس جميعاً على الجلية ووكلهم إلى نفوسهم ، وطلب إلى الناس أن يردوا السبى طواعية ، ولكل من رَدّ سِتٌّ ناقات عن كل سبية أطلقها . وهنا أيضاً أكدت الجموع أنها تختار الإسلام . وردَّت السبايا دون مقابل ، ودخلت هوازن الإسلام عن حب وإيمان ، فكأنها لم تُهزم فى حنين أو أوطاس، وإنما نصرها الله من عنده بفضل نبيه ورسوله بعد الهزيمة .

وأما مالك بن عوف النصرى قائد هوازن فقد لقى من الرسول كرامة لم يكن ينتظرها ، فإن الرسول أوقف من أسر من أهله وما أخذ من ماله ، وقال : إنه يطلق سراحهم إذا أسلم مالك ، وقال : إنه يرد عليه ماله ويعطيه مائة من الخيل . فلما عرف مالك ذلك هرب من ملجئه فى الطائف ووفد على الرسول ﷺ وأسلم واستعاد ماله

وأهله وتولى مغازاة ثقيف ، ونهب سَرْحهم فيغنم ما يستطيع ويرسل خُمْس مغنمه إلى رسول الله : مرة مائة ، ومرة ألفاً . وقد استاق لهم ألفى شاة فى غزاة واحدة ، فكان عمل مالك بن عوف هذا من آكد الأسباب فى إسلام ثقيف والطائف ، فهم كانوا يعتصمون من أمة الإسلام بقريش من ناحية وببعض القبائل ممن كان على رأيهم من هوازن وبعض بنى سليم بن منصور من ناحية أخرى . فهذه مكة قد دخلت الإسلام وانتهت مقاومة قريش ، وها هى هوازن ومَنْ لَفَّ لَفَّها قد دخلوا الإسلام وناصبوا ثقيفاً العداء ، فلم تستطع الصبر على هذه الحال ، ولم يبق لها عن الإسلام والاستسلام مندوحة .

وكان عروة بن مسعود شيخ ثقيف أسرع أهل قبيله إلى إدراك الحقيقة ، وكان بطبعه رجلاً ميالاً إلى الدين ، وقد قال فيه رسول الله ﷺ عندما أهلَّ عليه فى قضية الحديبية: هذا رجل يتألَّه وكان رئيس الأحلاف من ثقيف ، فلما رفع رسول الله الحصار عن الطائف ومضى إلى الجعرانة خرج عروة بن مسعود وذهب إلى اليمن ليتعلم صنع العرادات والمنجنيقات وأدوات حرب الحصار ، فلما عاد وسمع عن صنع رسول الله ﷺ مع هوازن وكفار مكة ، وقع الإسلام فى قلبه فخرج إلى رسول الله ﷺ ، واستأذن الرسول فى أن يعود إلى الطائف ليدعو أهله للإسلام .

وكان الرسول يعرف أن وقت الهدى للثقفيين لم يكن قد حل بعد ، فقد كان تعلُّقهم بربتهم اللات شديداً ، وكان خوفهم من الإسلام قد زادهم استمساكاً بها ، وحسبوا أنهم إذا فرطوا فى ذلك ضاعوا ، فلما أتاهم عروة بالإسلام وقال لهم فى كلام كثير : فما حملنى على الإسلام أنى رأيت أمراً لا يذهب عنه ذاهب ، فاقبلوا نُصحى ولا تستعصونى فوالله ما وفد وافد على قوم بمثل ما وفدت به عليكم ! فاتهموه واستَغشوه وقتلوه ، فما راعهم بعد ذلك إلا ومالك بن عوف النصرى شيخ هوازن ينحى عليهم بالمغازاة والنهب ووجدوا أنفسهم فى أضيق من سَمِّ الخياط .

وكان أبو مُلَيح بن عروة وابن أخيه قارب بن الأسود قد غضبا لمقتل عروة بن مسعود الثقفى فلحقا بمحمد ﷺ وأسلما ، ثم لم يلبث رجال الأحلاف ورجال عبد ياليل أن وجدوا ألاَّ مهرب لهم من أمر الله ، فسار منهم وفد إلى رسول الله وأسلموا

ودخلت ثقيف فى أمة الإسلام وكان ذلك فى عام ٩ للهجرة ، وهو عام الوفود ، عام إسلام بقية شبه الجزيرة .

وكان رسول الله ﷺ قد أقام على مكة قبل مغادرته إياها رجلاً من بنى عبد شمس هو عتاب بن أسيد وكان اختياراً موفقاً لأن عتابا كان من ذؤابة آل عبد شمس ، فلا يقال إنه جعل على مكة رجلاً من بنى هاشم . وكان عتاب قد أسلم عند الفتح ، فلا فضل له على أحد من مسلمى الفتح فلا يخشى المكيون أن يمتن عليهم بأنه من أهل السابقة والصدارة فى الإسلام . ورزقه الرسول عن عمله درهمين فى اليوم وقد سعد بها الرجل وقال : فلا أشبع الله بطناً لا يشبعه كل يوم درهمان ! ولم يكن الأمر فى هذه المرحلة مِنْ تطور أمة الإسلام أمر ولاية ورياسة ، وإنما هو إشعار لأهل مكة بأنهم قد صاروا جزءاً من أمة الإسلام ، ولهذا لم يعلق أحد من القرشيين على ذلك بكلمة ، وظل عتاب على أمره حتى توفى يوم توفى أبو بكر الصديق رضى الله عنه . ولما كان عتاب حديث العهد بالإسلام فقد أقام الرسول معه أبا موسى الأشعرى ليعلم الناس الدين.

وكان رسول الله يدعو أهل الإسلام إلى الهجرة إلى دار الهجرة ، فهاجر من أهل مكة إلى المدينة بشر كثير . ولكن نفراً من كبار المكيين استحبوا أن يقيموا بمكة وصعبت عليهم الهجرة ، فأَذِن لهم رسول الله فى ذلك . ومن هؤلاء صفوان بن أمية وكان قد حضر مع رسول الله ﷺ معركة حنين وهو على دينه ، لأن رسول الله أمهله مدة أربعة أشهر ، وكان فى هذه الوقعة أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو وغيرهما من أئمة الكفر ، ولم يكن قد أسلم منهم غير أبى سفيان .

وقد روى الواقدى خبراً ينم عن طبيعة إسلام أولئك النفر فى تلك المرحلة الأولى من حياتهم مع الإسلام قال : « فلما كانت الهزيمة حيث كانت (يريد أول معركة حنين) والدائرة على المسلمين فتكلموا بما فى أنفسهم من الكفر والضّغن والغش . قال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ! قال : يقول رجل من أسلم يقال له أبا مقيت : أما والله لولا أنى سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن قتلك لقتلتك ! وقال : صرخ كَلَدَة بن الحَنبل وهو كلدة بن الحنبل أخو صفوان لأمه ، أسود من

سودان مكة : ألا بَطُل السحر اليوم ! فقال صفوان : اسكت فضَّ الله فاك ، لأن يربَّنى رَبّ من قريش أحب إلىَّ من أن يَرُبَّنى رب من هوازن . قال : وقال سهيل بن عمرو : لا يجتبرها محمد وأصحابه . قال يقول له عكرمة : هذا ليس بقول وإنما الأمر بيد الله وليس إلى محمد من الأمر شىء . إن أديل عليه اليوم فإن له العاقبة غداً . قال : يقول سهيل : إن عهدك بخلافه لحديث ! قال : يا أبا يزيد ، إنَّا كُنَّا والله نُوضِع فى غير شىء ، وعُقولنا عقول تعبد حجرًا لا ينفع ولا يضر !

فهذا كلام ناس كانوا إلى ذلك الحين بعيدين جداً عن الإسلام والإيمان ، وربما كان أقربهم إلى الإسلام عكرمة . فهذا أسلم لله ولم يسلِّم بعد لمحمد ، وقد فقد ثقته فى الأحجار لأنها لا تنفع ولا تضر ، ونقل الثقة إلى الله فهو الخالق الذى ينفع ويضر ، ومحمد عنده ليس له من الأمر شىء . وبعد قليل سيريد الله بعكرمة مزيداً من الخير ، فيرى أن محمداً أعظم مما قدَّر ، ولا يزال الأمر به حتى إذا أصيب فى أجنادين وحضره الموت نظر إلى أبى عبيدة وهو يجود بنفسه شهيداً ، ويقول : أليست هذه ميتة يرضى عنها رسول الله ؟! وأما أبو سفيان فقد كان لا يزال حاقداً على محمد ﷺ يتمنى قلبه أن يتشفى فيه ، ومثله فى ذلك صفوان بن أمية بن خلف . وأما كلدة بن الحنبل أخو صفوان لأمه ، فكان متعلقاً بعد بحكاية السحر ، وهو يحس أن محمداً ﷺ قد انهزم وبَطُل سحره ، فأكذبه الله بعد ذلك بنصر محمد النصر المؤزر بقية اليوم . ولا ندرى ماذا قال بعد .

ورغم ذلك كله فقد حرص رسول الله على الحفاظ على قريش ما أمكنه ذلك ، فبعد فتح مكة يُؤْثَر عنه أنه قال : « لا تُغْزَى قريش بعد اليوم إلى يوم القيامة »[1] .

وكان رسول الله ﷺ يعلم أن أئمة الكفر عندهم مال فلم يمسه ، ولما كان قد منع أصحابه من أن يمسوا شيئاً من أموال أهل مكة ، وكان فيهم الكثير من الضعفاء أى الفقراء ، فاستسلف أو استقرض ﷺ لهم مالاً من سراة قريش . استقرض من صفوان ابن أمية ٥٠,٠٠٠ درهم فأقرضه ، ومن عبد الله بن أبى ربيعة ٤٠,٠٠٠ درهم ، ومن حويطب بن عبد العزى ٤٠,٠٠٠ درهم . فكانت (جملة ما استسلف)

---

(١) الخبر رواه الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٦٢ والتعليق على الحديث من الواقدى .

۰۰۰ , ۱۳۰ درهم فقسمها ﷺ بين أصحابه من أهل الضعف [١] وردها بعد ذلك . وقبل أن يخرج إلى حنين كان صفوان بن أمية قد استأذنه وطلب منه أن يمهله حتى يدخل الإسلام ، فأمهله أربعة أشهر ، وعندما أزمع الخروج إلى حنين خرج معه صفوان وهو كافر وأرسل إليه يستعيره سلاحاً ، فأعاره سلاحاً : مائة درع بأداتها فقال : طوعاً أو كرهاً ؟ فقال رسول الله ﷺ « عارية مؤداة » ، فأعاره فأمره ﷺ فحملها إلى حنين فشهد حنيناً والطائف ، ثم رجع رسول الله إلى الجعرانة [٢] .

ولنلاحظ هنا أن صفوان كان عدواً مغلوباً مستأمِناً ، وكل قوانين الحرب فى الدنيا إلى يومنا هذا تجعل سلاح المغلوب ملكاً للغالب ، وأن الأمان فى هذه الحالة لا يشمل السلاح ، وكان من حق رسول الله ﷺ - بكل مقياس - أن يأخذ هذا السلاح للمسلمين بل كان لابد أن يأخذه إذ كيف يجوز لرجل ممن غُلبوا واستسلموا من الكفار - الذين ظلوا على كفرهم - أن يملكوا سلاحاً قد يستخدمونه ضد المسلمين؟ ولكن كرم الرسول تجاوز ذلك أيضاً رغبة منه فى الحفاظ على كرامة القرشيين ، وقد أثبتت الأيام أنه على حق .

فصفوان هذا عندما تقوم حركة الرِّدة يقوم فى أهل مكة مقاماً عظيماً ويطلب إليهم أن يظلوا مع الأمة والجماعة ، فظلوا إلى جانب أبى بكر . وعكرمة بن أبى جهل يخرج لحرب الردة وينفق على نفسه ورجاله من ماله ، ويسأله أبو بكر إن كان يريد عوناً فيقول إنه لا حاجة به إلى عون ، فقد جهز نفسه بماله ومعه فوق ذلك ألفا دينار لنفقته، وهذا كله لأن رسول الله ﷺ احتفظ لهؤلاء الرجال بشرفهم وكرامتهم ، فدخلوا الإسلام كرماء شرفاء ، وثبتوا معه شرفاء كرماء . فتصور لو أن رسول الله لم يكن هذا من فعله ، فكيف كان ينتظر الكرامة والشهامة والشرف من قوم أذل نفوسهم وكسر شرفهم ؟

رَسُول الله وَقُريش :

وطبيعى أن يظل رسول الله يحب قومه قريشاً ، فهم آله ولا يتنكر الكريم لأهله

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٦٣ وأهل الضعف أو الضعفاء هنا هم الفقراء .
(٢) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٥٤ .

قط. وإذا كان قد حاربهم فللدين وعلى الدين ، وعندما انتصر عليهم وطاعوا للدين بقى الحب فى نفسه فهو قرشى ولدينا دلائل على هذه القرشية الكريمة بلا عصب وإنما هو اعتزاز الرجل الشريف بأهله الأشراف ، وهذه مسألة لا وجود فيها للعصب أو العصبية ، وإنما هى مظهر لكرامة الإنسان عند الرجل الكريم .

روى الواقدى بسنده قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة جلس عبد الرحمن بن عوف فى مجلس فيه جماعة ، منهم سعد بن عبادة ، فمر نسوة من قريش على ذلك المجلس ، فقال سعد بن عبادة : قد كان يُذكر لنا عن نساء قريش حُسْن وجمال ، وما رأيناهن كذلك ، قال : فغضب عبد الرحمن بن عوف حتى كاد أن يقع بسعد وأغلظ له ، ففرَّ منه سعد حتى أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! ماذا لقيتُ من عبد الرحمن ! فقال رسول الله ﷺ : وما له ؟ فأخبره بما كان قال : فغضب رسول الله ﷺ حتى كأن وجهه ليتوقد ، ثم قال : رأيتَهُن وقد أُصِبْنَ بآبائهن وأبنائهن وأخواتهن وأزواجهن . خير نساء ركبن الإبل نساء قريش ! أحناهن على ولد ، وأبذلهن لزوج بما ملكت يد [(1)] .

وليس أدل على ما كان عليه رسول الله ﷺ من رأى كريم فى قريش من وصاته لعتاب بن أسيد عندما ولاه على مكة ، فقد خلف معه معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرى يُعلِّمان الناس القرآن والفقه فى الدين ، وقال له : « أتدرى على من استعملتك ؟ قال : الله ورسوله أعلم ! قال : استعملتك على أهل الله » يريد أهل بيت الله ، وفى ذلك من التكريم لقريش ما فيه .

ومن دلائل الذكاء المفرط عند رسول الله ﷺ أن قال بعد ذلك يوصى عتاباً : « بلِّغ عنى أربعاً : لا يصلح شرطان فى بيع ، ولا بيع وَسَلف ، ولا بيع ما لم يُضمن ، ولا تأكل ربح ما ليس عندك »[(2)] وقد اهتم رسول الله بهذه التوصيات من المعاملات لأن عتاباً تولى بلداً أهله تجار ، ومن ثَمَّ فقد رسم له منهجاً فى تنظيم البيوع على أساس الإسلام ، فقد كانت الأمور التى حذره رسول الله منها من أساليب القرشيين فى

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٦٧ .
(٢) الواقدى ، مغازى ٣/ ٩٥٩ .

البيوع فى الجاهلية ، وكلها أساليب تؤدى إلى الربح غير الحلال ، وهذه أنواع من البيوع والتعامل فى المال يعرفها فقهاؤنا ويعرفون حكم الإسلام فيها وعلَّة ذلك الحكم ، والذى يهمنا هنا هو أن الرسول يعرف أن القرشيين تجار وأن تجارتهم قد أصابها ضرر ، وأنه لابد من تشجيعهم لكى يعودوا إلى تجارتهم حتى لا يحتاجوا ، ولكنه أراد لهم أن يتاجروا ويتبايعوا على حكم الإسلام حتى لا يقعوا فى الجاهلية مرة أخرى .

وهذا العطف كله نابع من إنسانية محمد ﷺ ، فلم يكن رفقه قاصراً على قريش بل على أصحابه أجمعين ، فقد سار ﷺ إلى الجِعِرَّانَة بعد أن رفع الحصار عن الطائف وإلى جواره أبو رُهْم الغفارى « وفى رجليه نعلان له غليظتان ، إذ زحمت ناقته ناقة رسول الله ﷺ ويقع حرف نعله على ساقه فأوجعه ، فقال رسول الله ﷺ : أوجعتنى ، أَخِّر رِجْلك ! وقرع رِجْله بالسوط ، قال (أبو رهم) : فأخذنى من أمرى ما تقدم وما تأخر ، ووصل الرسول إلى الجِعِرَّانة وانصرف أبو رُهم إلى شأنه وخاف أن يعتب عليه رسول الله فخرج يرعى غنم المسلمين ، فإذا بمن يقول له : طلبك رسول الله ! فذهب إليه الرجل وهو خائف يترقب ، فقال له الرسول : « إنك أوجعتنى برِجُلك فقرعتك بالسوط ، فخذ هذه الغنم عوضاً من ضربتى » قال أبو رهم : فرِضَاه عني كان أحب إلىّ من الدنيا وما فيها »[1] .

ومثله حدث لأبى حَدْرَد الأَسلمى مع رسول الله : فقد زحم للرسول فى المُراكبة ، فدفع الرسول رِجْله بِمْحجَن . ثم روَّى الرسول الأمر فى الليل فبعث إلى أبى حدرد يسترضيه عن دفعه إياه بالمحجن وعوَّضه بثمانين شاة حقائقة أى : كثيرة الصوف ، ومثل ذلك وقع لأبى زرعة الجهنى مما رواه الواقدى وأهل السِّيَر [2] .

وكانت هذه وأشباهها مظاهر من ذلك الأدب المحمدى الرفيع والرفق الذى يشمل هوازن كلها ، وثقيفاً كلها ويألم لضربة أو دفعة بمحجن أصاب بها أحداً من أصحابه ، وهذه كلها شمائل محمدية لو وعاها حكام الإسلام لما كان فى الدنيا مثلهم

---

(١) الواقدى ، مغازى ٣/ ٩٣٩ .
(٢) نفس المصدر ٣/ ٩٤٠ - ٩٤١ .

حكام ! ولظلت أمة الإسلام فى مثل العزة التى كانت عليها فى خلال حياة محمد ، ولو كان هذا المثال المحمدى قائماً فى خلد معاوية لما أمر بقتل حجر بن عدىّ عقاباً له على الشهامة وإنكاره سب رجل من أكرم الناس على الله ورسول الله ، هو على بن أبى طالب ؟ وهل دار شىء من ذلك بخلد أبى العباس السفاح - وهو يزعم أنه ابن عم رسول الله ﷺ ، وهو يأمر بقتل أبى سلمة الخلال عقاباً له على الإخلاص لآل محمد وهو الذى كان أبو العباس نفسه يسميه وزير آل محمد ؟

لا هذا كان ولا ذاك ، إنما هى النفوس ارتدت إلى الجهالة والبصائر عَشِيت فلم تر النور المحمدى وتحجرت القلوب وحق عليها الخزى والعذاب ولو غيَّروا ما بأنفسهم لتغير تاريخ الإسلام ، وصدق الله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ⑪ ﴾ [الرعد] ولو أن المسلمين ذكروا المثال المحمدى فى كل عمل يعملونه، ولو أنهم لزموا غرز رسول الله فعلاً لكانوا أبد الدهر أعز الناس ، وأكرم الناس ، وأعلم وأقوى الناس .

ضعف مَركز القرشيين فى الأمة عَقب فتح مَكّة :

الآية الخامسة من سورة القصص (٢٨) من مشهورات آيات الكتاب الكريم التى تجرى بها ألسنة الناس فى كل حين ، لأنها من آيات القدرة الإلهية ذات الصدى والرجع على مدى التاريخ : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ⑤ ﴾ [القصص] وما من جماعة مستضعفة نظر الله إليها ونصرها على الجبابرة إلا جعلها بنصره على رأس الناس ، ومن أظهر الأمثلة على ذلك فى تاريخنا أن جماعة الموحدين أصحاب الدولة المشهورة فى المغرب الإسلامى كُتِب تاريخ نصرها بقلم مؤرخها عبد الملك بن صاحب الصلاة وجعل عنوان التاريخ : «المنُّ بالإمامة على المستضعفين فى الأرض » .

ولابد أن هذه الآية ترددت فى قلوب المؤمنين وهم عائدون إلى المدينة بعد أن نصرهم الله نصره المؤزر وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين ، ولكن زعماء قريش الذين أسلم بعضهم واستسلم بعضهم الآخر كانوا جِدَّ بعيدين عن هذه المعانى . ورغم حرص الرسول صلوات الله عليه على جبر ما انكسر من عزة نفوسهم لم يكن فى

خاطر معظمهم إلا أنه نصر الأوس والخزرج على قريش أو نصر اليمن على مضر ، فقد كان إحساس أولئك الناس بالعصبية القبلية قوياً جداً .

وفى موقعة حنين تأكد هذا الشعور بالانغلاب فى نفوس القرشيين ، وكذلك تأكد الشعور بالغَلب والنصر فى نفوس بعض الأوس والخزرج وقد اشترك فى حنين ألفان من قريش فيهم سراتهم « على غير دين ركباناً ومشاة ينظرون لمن تكون الدائرة فيصيبون من الغنائم ولا يكرهون أن تكون الصدمة - أى المصيبة - لمحمد ﷺ وأصحابه . وخرج أبو سفيان بن حرب فى أثر العسكر ، كلما مر بترس ساقط أو رمح أو متاع من متاع النبى ﷺ حمله ، والأزلام فى كنانته حتى أوقر جمله . وخرج صفوان ولم يسلم وهو فى المدة التى جعل له رسول الله ﷺ فاضطرب خلف الناس ومعه حكيم بن حزام وحويطب بن عبد العُزَّى ، وسُهَيْل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب والحارث بن هشام ، وعبد الله بن أبى ربيعة ، ينتظرون لمن تكون الدائرة ، واضطربوا خلف الناس والناس يقتتلون فمر به (صفوان) رجل فقال : أبشر أبا وهب ! هُزِم محمد وأصحابه ! فقال له صفوان : إنَّ ربّاً من قريش أحبّ إلىّ من رب من هوازن إن كنت مربوباً »[1] . والرب هنا هو السيد .

وكان العهد بقريش والقتال قد بَعُد ، وأين هم من رجال أمة المدينة الذين قضوا السنوات العشر الماضية فى ميادين القتال حتى كسبوا دربة فى القتال النظامى ، وموقعة حنين هى الثالثة والسبعون فى سجل مغازى رسول الله ، فليس غريباً أن يكون المسلمون يوم هوازن أصحاب خبرة وتجربة مكَّنتهم من احتمال صدمة هوازن التى هبت إعصاراً ، ثم عادوا فتجمعوا وحملوا على عدوهم ففازوا بنصر لا كفاء له ، وأكبر دليل عليه أن كل الذين قُتِلوا من المسلمين فى هذه المعركة الهائلة التى بدأت فى خوانق وادى حنين وانتهت فى بسائط سهل أوطاس كانوا أربعة ، فقد ذكرهم الواقدى بالاسم . وفى حنين استحر القتل فى بنى نصر والرباب - من هوازن - وصاح صائح : « يا رسول الله ، هلكت بنو رباب ، ويقول رسول الله ﷺ: اللهم اجبر مصيبتهم»[2].

(١) الواقدى ، مغازى ٣/ ٨٩٤ - ٨٩٥ .
(٢) الواقدى ، مغازى : ٣/ ٩١٦ .

والذى حدث فى حنين أنه كان قتالَ جيش نظامى مع جيش قبلى من الأعراب ، فإن أمة المدينة كانت كلها جيشاً من المواطنين والراغبات من المواطنات ولا إعفاء من فرض القتال إلا للصغير غير القادر على حمل السلاح ، والمريض البادى المرض ، وغزوة تبوك التى وقعت بعد حنين كانت الاختبار الحاسم . وسورة براءة التى نزلت بعد تبوك مباشرة ، وكانت كذلك آخر ما نزل من القرآن حسمت الموضوع : لا تخلُّف عن القتال إلا بعذر يقبله الله ورسوله ، فقد كانت أمة الإسلام فى أيام غزوة تبوك قد قضت الأعوام العشرة السابقة عليها فى ميدان القتال واكتسبت خبرة وتجربة وأصبحت أمة مقاتلة أو ما يسمى فى مصطلحنا المعاصر جماعة مناضلة Militant group ومحمد صلوات الله عليه علَّم أفراد الأمة النظام والطاعة ، ودربهم على الحرب النظامية .

واستمع لما يقوله الواقدى عن موقعة حنين تفهم حقيقة الوضع . قال : «ولما كان من الليل ، عمد مالك بن عوف إلى أصحابه فعبأهم فى وادى حنين وهو وادٍ أجوف ذو شعاب ومضايق . وفرَّق الناس فيه ، وأوعز إلى الناس أن يحملوا على محمد وأصحابه حملة واحدة . وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه وصفَّهم صفوفاً فى السَّحر ووضع الألوية والرايات فى أهلها : مع المهاجرين لواء يحمله علىّ عليه السلام ، وراية يحملها سعد بن أبى وقاص ، وراية يحملها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وفى الأنصار رايات مع الخزرج لواء يحمله الحباب بن المنذر ، ويقال : لواء الخزرج الأكبر مع سعد بن عبادة ، ولواء الأوس مع أسيد بن حضير ، وفى كل بطن من الأوس والخزرج لواء وراية .. »[1] .

فهذا إذن جيش فيه قواد ، وتحت القواد قواد ، ولكنه ليس جيشاً محترفاً ، إنها أمة جيش ، أو جيش أمة ، فالذى يحمل اللواء قائد ، وهو بمثابة الضابط العظيم الذى لا تظل له هذه الدرجة إلا أثناء المعركة ، وبعدها يعود مواطناً عادياً . والجيش على هذه الصورة وحدة عسكرية ذات قيادة واحدة ووجهة واحدة ونظام محكم ، أما مالك بن عوف النصرى فسيّد قَبَلى يقود قومه على أسلوب الجاهليين يخبئهم فى بطن الوادى

(١) الواقدى ، مغازى ٣/ ٨٩٥ .

ويوصيهم بأن يكروا على المسلمين كَرَّةَ رجل واحدة وقد كروا فعلاً وزعزعوا بعض الصفوف عند الصدمة الأولى ، ولكن الذين زُعْزعوا كانوا خيل بنى سليم بن منصور فولوّا وتبعهم أهل مكة وبعض الناس منهزمين لا يلوون على شيء .

« قال أنس : فسمعت رسول الله ﷺ والتفت عن يمينه ويساره والناس منهزمون وهو يقول : يا أنصار الله وأنصار رسوله ! أنا عبد الله ورسوله صابر ! قال : ثم تقدم بحربته أمام الناس فو الذى بعثه بالحق ، ما ضربنا بسيف ولا طَعَنّا برمح حتى هزمهم الله ، ثم رجع النبى ﷺ إلى العسكر وأمر أن يُقتل من قُدِر عليه منهم وجعلت هوازن تُوَلى وثاب من انهزم من المسلمين »[1].

والذى حدث أن هوازن هجمت فى عنف ولكن دون وزن عام ، أما المسلمون فكانوا جيشاً نظامياً ، ولكن الجانب الذى كان فيه بنو سليم وأهل مكة كان قبلياً جاهلياً فولوا منهزمين ، وفى هزيمتهم كادوا يلحقون الفزع فى قلوب المسلمين ، فولَّت منهم جماعة فى إثر المنهزمين ، ولكن رسول الله ثبت ، ونادى رجال جيشه المؤمنين النظاميين فانتبهوا إليه وعادوا . وكان رسول الله يعرف رجاله ، فأمر العباس ابن عبد المطلب بأن ينادى : « يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السَّمُرَة ، قال : فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنَّت إلى أولادها يقولون : يا لبيك يا لبيك فيذهب الرجل منهم فيثنى بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقدِّمها فى عنقه ، ويأخذ ترسه ودرعه ثم يقتحم عن بعيره فيخلى سبيله فى الناس ، ويؤُمّ الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ»[2] .

وهكذا عاد جيش المسلمين النظاميين فَتَراصَّ رجاله وثبتوا للعدو ، ولم يلبثوا أن مزقوه إرباً . وهذا هو المنتظر عند لقاء قوة من البدو وغير النظاميين لا يجمعهم إلا العصب ، وجيش من المؤمنين المدربين النظاميين . والمهم عندنا أن قريش الكفر التى أسلم منها من أسلم ، وبقى على شركه من بقى قد تفرقت بدداً ولم يَغْدُ منها إلى الميدان أحد ، وبذلك كانت نهاية قريش الجاهلية ، فقد عرف رجالها أين يكونون من أهل

---

(١) الواقدى ، مغازى ٣/ ٨٩٧-٨٩٨ .

(٢) الواقدى ، مغازى ٣/ ٨٩٨ - ٨٩٩ .

الإسلام ، وقد ذكرنا أن نفراً من زعمائهم لم يدخلوا المعركة قط ، إنما وقفوا يتفرجون بين الجاهلي الشامت أو الساخر أو الحاقد . وكل تلك لمحات نرى فيها قريشَ الجاهلية وهى تختفى مع الجاهلية ، لتُولد من جديد فى ظل الإسلام وتحت راية محمد .

حتى خالد بن الوليد على عظيم شأنه لا نجد له أثراً فى هذه الواقعة ، ولقد كان الرسول ﷺ قد جعله على رأس أحد الجيوش التى دخلت مكة عند الفتح ، وكان مدخله من الجنوب من ناحية الخندمة والليط ، وتلك هى الناحية الوحيدة التى وقع فيها قتال ، لقد قال المؤرخون فى ذلك وأكثروا ، ولكن تفسيره عندنا أن خالداً لم يكن قد تعلم القتال على شرط الإسلام : قتال فتح لا قتال نصر بأى سبيل ، فهو قد وجد معارضة أمامه فاكتسحها ، وقد أنكر الرسول ذلك ولكنه لم يفعل أكثر من الإنكار لأنه فى الحقيقة كان يرجو أن يطوِّع مَلَكة خالد العسكرية للإسلام ، ولهذا فقد جعله على مقدمته عندما سار لحصار الطائف .

وكان رسول الله ﷺ قد خبر خالداً عندما بعثه إلى بنى جذيمة من كنانة أسفل مكة ، فقد تصرف خالد عند ذلك تصرفاً لم يعرفه المسلمون إلى ذلك الحين : قتل قوماً على الظن وهم يُظهرون الإسلام ، وقد رفض مَنْ تحت إمرته من الأنصار أن يقتلوا الناس ، ولكن بنى سليم - وعهدهم بالإسلام قريب - قتلوا أسراهم استجابة لخالد ، وقد أنكر رسول الله فِعْلَ خالد ، وأرسل على بن أبى طالب - وهو فارس الإسلام قلباً ولساناً وعلماً - فأصلح الخطأ . ولكن الرسول مع ذلك لم يَطُلْ غضبه على خالد بل صبر عليه ، لأنه كان يعلم ما عنده ويريد أن يطوع ملكاته للإسلام ، وما فعله رسول الله ﷺ مع خالد يعطينا صورة واضحة عن أسلوبه ﷺ فى تطويع قريش وملكاتها للإسلام لأنه بُعِثَ حقاً ليتمم مكارم الأخلاق ، ولقد أدَّبه ربه فأحسن تأديبه وتصدى هو لتأديب الناس فأحسن أيما إحسان .

قريش تتّجه إلى الاشتراك فى قيادة أمّة الإسلام :

وقد حسب ناس من رؤوس مكة أن قبيلتهم قريشاً قد انحدر مقامها بين القبائل ، وظنوا أن بلدتهم مكة انحدرت درجات بعد أن أصبحت تابعة وكانت متبوعة ، وما ذلك إلا لأنهم كانوا لا يزالون ينظرون إلى الدنيا والناس بعيون الجاهليين ولم يدر أحد

منهم أن الله سبحانه عندما سمى مكة فى القرآن الكريم أم القرى فهى عنده سبحانه أم بلاد الدنيا ، ولن تزال كذلك أبد الدهر ، وما أراده الله بقريش من الكرامة يخالف الذى كانوا يظنون ، لأن قريش الكفر إذا كانت قد ماتت فإن الله سبحانه أخرج من صلبها قريش الإيمان ، ومن يكون محمد رسول الله إلا ذؤابة قريش وخياراً من خيار ؟ ومن أولئك الذين يقودون أمة الإسلام فى معارج العز والسيادة بعد رسول الله ﷺ إلا القرشيين ؟ ولله سبحانه فى خلقه شئون ، وله فى تصاريفه عجب يَخْفى على البصائر والأبصار .

ولقد وجد القرشيون المكيون صعوبة كبيرة فى الاندراج فى المجتمع الإسلامى ، وبعضهم لم يحاول الاندراج ، وباستثناء خالد بن الوليد الذى اختاره الرسول للقيادات مرة بعد مرة ، أو عمرو بن العاص الذى قاد سرية ذات السلاسل وبدرت منه أثناءها بوادر لم يحمدها المسلمون مثل إصراره على الإمارة على أبى عبيدة وصلاته دون اغتسال مخافة البرد، لولا هذان فإننا لا نكاد نقرأ عن كبار المكيين الذين فُتِحت عليهم مكة شيئاً ذا بال .

ولقد كانت غزوة تبوك عسيرة على أمة الإسلام ، عانى المسلمون فيها الكثير ، ووقعت فيها من الأحداث ما أراده الله ليكون بعدها موضوع موعظة وتوجيه وبعضها الآخر موضع تشريع كما نجد فى سورة التوبة . ولقد قصد الله فيها إلى لوم مَنْ تخلَّفوا وإنذار آخرين ممن أخذت عليهم فى إيمانهم وسلوكهم مآخذ . ولكننا لا نجد للقرشيين غير المهاجرين فيها ذكراً ، وقد كان المأمول بعدما أسبغ الله ﷺ عليهم من الكرامة بعد حنين أن يكون لهم مقام ولو قليل فى تبوك وما تلاها من سرايا ، وكان فى بعضها مجال عظيم للقرشيين لو أرادوا ، فقد بعث الرسول ﷺ بعد تبوك إلى شمال الحجاز وشمال الجزيرة جملة من السرايا وقد قصد فى بعض سراياه فى هذه الحقبة الأخيرة جماعات من نصارى العرب وعرب الروم وعرب الضاحية من تيماء إلى الشمال ، وهنا كان مجال عمل عظيم للقرشيين الذين كانوا أهل معرفة بهذه النواحى ورجال مثل : أبى سفيان صخر بن حرب ، وصفوان بن أمية بن خلف ، وسهيل بن عمرو وكانوا يعرفون هذه النواحى أكثر مما يعرفها من قصدها وقاد السرايا إليها من

المسلمين ، ولكن كبار المكيين سكنوا فلا نسمع لهم ذكراً فى ذلك كله ، وإذا حدث وكان لبعضهم ذكر من مثل خالد بن الوليد الذى قاد السرية إلى نجران ، فإن الأمر لايتعدى الذكر ، ولا نسبة قط بين ما فعله خالد فى هذه السرية ، وهى بداية الاتجاه المركز إلى اليمن وبين ما فعله على بن أبى طالب وهو مثال القرشى المهاجر قديم الإسلام .

ولكن عندما ينتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى وترتج المدينة ، وتنتقل الرجة إلى مكة ، عندما اختفى عتاب بن أُسَيْد الذى أقامه النبى على مكة ، هنا يقوم سهيل بن عمرو خطيباً فيقول : يا معشر قريش ، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد ، والله إن هذا الدين ليمتد امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما ، فاستمعت له قريش وثبتت على الإسلام ، وواضح أن الرجل قام هذا المقام عن اقتناع وعقل معاً ، فأما الاقتناع فقد رأى بعينه قوة المسلمين يوم حنين ، ثم إن إكرام الرسول إياه ، كان له فى نفسه عميق الأثر ، وأما العقل فلأن مكة كانت مدينة غير حصينة ، ولو ارتدت قريش ومال عليها المسلمون ميلة لأصابوها بقاصمة الظهر . ومع ذلك فقد قلنا : إن سواد قريش وأهل مكة كانوا قد أسلموا وثبتوا على الإسلام .

وهذا الموقف من سهيل بن عمرو كان بداية عودة قريش إلى الصدارة والرياسة فى جماعة الإسلام ، وهذه العودة كانت خيراً على قريش أفراداً وخيراً على الإسلام ، ولكنها كانت نهاية قريش القبيلة كما سنرى .

القرشيّون يُخرِجُون الأنصَار مِن الريَاسة وَالقيَادة :

تعودنا على أن ننظر إلى ما وقع فى يوم السقيفة على أنه أمر طبيعى ، وأن مبايعة أبى بكر كانت النتيجة المنطقية التى كان ينبغى أن ينتهى إليها الاجتماع مع أن الاجتماع كله.. على الصورة التى وصل بها إلينا تم على نحو هو أشبه بالمصادفة ، فإن الأنصار عندما رأوا أن رسول الله ﷺ قد توفى اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ، ومعهم كبيرهم سعد بن عبادة للنظر فيما يمكن أن يصير إليه أمرهم ، فالمدينة مدينتهم والبلد بلدهم ، ولهم فيه الغالبية لكنها كانت فى نفس الوقت مركز أمة الإسلام التى شملت الآن شبه الجزيرة كلها ، وكانوا يعيشون فى ظل رسول الله وفى أمان الإسلام ، فماذا يكون

موقفهم اليوم وقد مضى الرسول إلى ربه ؟ هل يتفرق أمر الجماعة فيقرُّوا هم فى مدينتهم ، ويعود القرشيون المهاجرون إليهم إلى مدينتهم مكة ، ويتفرق غيرهم من المهاجرين إلى قبائلهم ومنازلهم ، وينفرط بذلك أمر الأمة مع بقاء الجماعات الداخلة فى تكوينها على الإسلام ؟

وهذا يتجلى لنا من أقدم ما لدينا من أخبار هذا الاجتماع ، فقد رواه ابن سعد بسنده وأتانا به البلاذرى فى أنساب الأشراف . قال ابن سعد : « بينا المهاجرون فى حجرة رسول الله ﷺ وقد قبضه الله إليه وعلى بن أبى طالب والعباس متشاغلان به ، إذ جاء معن بن عدى وعويم بن ساعدة فقالا لأبى بكر : « باب فتنة إنْ لم يغلقه الله بك فلن يُغلق أبداً . هذا سعد بن عبادة الأنصارى فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يبايعوه » ، فمضى أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح حتى جاءوا السقيفة ، وإذا سعد على طُنْفُسه متكئاً على وسادة وعليه الحمى فقال له أبو بكر: ما ترى يا أبا ثابت ؟ فقال : أنا رجل منكم . فقال الحباب بن المنذر : منا أمير ومنكم أمير ، فإن عمل المهاجرى شيئاً فى الأنصار رد عليه الأنصارى . وإن عمل الأنصارى شيئاً فى المهاجرين رد عليه المهاجرى ، وأنا جذيلها المحكّك وعُذيقها المرجَّب ، إنْ شئتم فَرَزْنا، فرددناها جذعة ، من ينازعنى ؟ » .

فأراد عمر أن يتكلم فقال له أبو بكر : على رسلك . ثم قال أبو بكر : نحن أول الناس إسلاماً ، وأوسطهم داراً ، وأكرمهم انساباً ، وأمسُّهم برسول الله ﷺ رحماً ، وأنتم إخواننا فى الإسلام وشركاؤنا فى الدين نصرتم وآويتم وآسيتم فجزاكم الله خيراً. فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، ولن تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ، فقد يعلم ملأ منكم أن رسول الله ﷺ قال : « الأئمة من قريش » فأنتم أحقاء ألا تنفسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم » (البلاذرى : ١/ ٥٨١ - ٥٨٢) .

وهنا يطمئن خاطر الحباب بن المنذر الذى كان الخوف على مصير الأنصار قد استبد به ، وجعله يقول ما قال . فيطامن من غلوائه ويقول : « ما نحسدك ولا أصحابك ، ولكننا نخشى أن يكون الأمر فى أيدى قوم قتلناهم ، فحقدوا علينا » (البلاذرى ١/ ٥٨٢) ويزيده أبو بكر اطمئناناً فيقول : فليس بعد المهاجرين الأُوَل

عندنا أحدٌ بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا تُقْضى دونكم الأمور » .

وتكلم النعمان بن بشير وهو من خيرة الأنصار من بنى الحارث من الخزرج فيكشف عن حقيقة إيمان الأنصار وجميل مذهبهم ، فيقول : « يا معشر الأنصار ، إنَّا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضى ربنا وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا ، فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغى به من الدنيا عرضاً ، فإن الله ولىّ المنة بذلك . إلا أن محمداً ﷺ من قريش وقومه أحق به وأَوْلَى ، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبداً ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم »(١) .

وانتهى اجتماع السقيفة بمبايعة أبى بكر بما يشبه الإجماع ، وانصرف الأنصار وهم يحسبون أن الأمر سيكون على ما قال أبو بكر ، قسمة بين المهاجرين والأنصار ، فالمهاجرون هم الأمراء أى : أصحاب الرياسة ، والأنصار هم الوزراء والشركاء : « لا يُتركون فى مشورة ، ولا تُقْضى دونهم الأمور » .

والذى نلاحظه هو أن الأنصار عندما اجتمعوا إلى سعد بن عبادة لم تكن فكرة رياسة أمة الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ فى أذهانهم ، إنما هم اجتمعوا بدافع الخوف على مصيرهم بعد رسول الله ، وكان محباً لهم كثير الحدب عليهم منصفاً إياهم فى كثير من الحالات التى وقع عليهم فيها اعتداء من المهاجرين ، وخاصة من عمر بن الخطاب ، الذى كانت تبدر منه بدرات تدل على تحامل على بعض كبار الأنصار ، وخاصة سعد بن عبادة وابنه قيس . وقد كان عمر حريصاً أشد الحرص على أن يكون هو وأبو بكر وأبو عبيدة أقرب الناس إلى رسول الله ولم يقتصر موقفه هذا على الأنصار بل شمل كل من كان يخشى تقدمهم عليه من غير الأنصار من أمثال : على بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة .

ومن هنا ، فإننا نرى أن عمر وأبا بكر عندما قصدا السقيفة قصداها وفى ذهنهما تصميم على أن تكون لهما السيطرة على مصائر الأمة بعد وفاة الرسول . والنصوص

---

(١) الطبرى : تاريخ ٣/ ٢٢١ .

تقول : إن عمر عندما كان يسرع إلى السقيفة كان يُزوِّر كلاماً يقوله أى يرتب فى نفسه كلاماً يقوله ، وعندما تكلم أبو بكر رضى عمر لأن أبا بكر قال بأسلوبه الذكى الإنسانى ما كان يمكن أن يقوله هو بطريقة أخرى ، وخلاصة ما قاله هذا وما كان يريد أن يقوله ذاك أن السيادة فى الأمة ينبغى أن تبقى فى يد القرشيين .

أما الزعم بأن رسول الله ﷺ قال إن الإمامة فى قريش فغير صحيح[1] ، ولا يمكن أن يكون أبو بكر قد قال هذا القول فهو رجل صادق بل صدِّيق ، ولكنها وُضِعت فيما بعد لتأكيد ما كانت قريش تتمسك به من السلطة فى أمة الإسلام وكان ذلك من خير الإسلام ولكنه فى النهاية لم يكن من خير قريش . فإن القرشيين كانت فيهم ملكات سياسة وقيادة ، وقد نفعوا أمة الإسلام بذلك ولكنهم استهلكوا أنفسهم ودفعوا بأنفسهم فى منازعات وحروب مهلكة انتهت آخر الأمر بضياع معظم قريش وبزوال فروعها التى ظلت فى ميدان السياسة ، لم يبق من قريش فى النهاية إلا بيت على بن أبى طالب ، وهو قسم من الهاشميين .

وقد انفض اجتماع السقيفة على أن يكون الأنصار شركاء القرشيين فى تسيير أمور الأمة ، فالقرشيون أمراء ، والأنصار وزراء ، ولا يُفتاتون بمشورة ، ولا تُقضى دونهم الأمور .

ولكن الذى حدث بعد ذلك هو أن الأنصار أُسقِطوا من الحساب إسقاطاً لا يمكن إلا أن يكون مقصوداً ، فقد بعث أبو بكر أحد عشر قائداً للقضاء على حركة الردة وليس بينهم من الأنصار واحد ، ثم أرسل أربعة جيوش إلى الشام لم يوضع على رأس واحد منها أنصارى ، وبدلاً من أن تكون قيادة الدولة شورية جماعية كما كانت أيام الرسول ﷺ أصبحت فى الحقيقة وواقع الأمر فردية ، وأبو بكر وعمر سارا على قاعدة الشورى ، وفى أيام عثمان انتهت فعلاً الشورى وتمهد الطريق للملك معاوية والأمويين .

---

(١) حديث « الأئمة من قريش » حديث أخرجه الحاكم فى مستدركه والبيهقى فى سننه ، وقد جمع ابن حجر طرقه عن ٤٠ صحابياً ، فالحديث صحيح ، ورميه الحديث بالوضع يدخل فى نفس النطاق وهو التأصيل الدينى للأحداث السياسية . [المراجع] .

وقد تنبه إلى هذه الحقيقة واحد من أهل الرعيل الأول من المؤرخين ، وهو أحمد بن أبى يعقوب بن واضح اليعقوبى فأتانا بأخبار سكت عنها غيره ، فقال : إن الأنصار غضبوا لبيتين من الشعر استشهد بهما أبو بكر ، قال :

« فاعتزلت الأنصار عن أبى بكر ، فغضبت قريش وأحفظها ذلك فتكلم خطباؤها ، وقدم عمرو بن العاص فقالت له قريش : قم فتكلم بكلام تنال فيه من الأنصار ، ففعل ، فقام الفضل بن العباس فردَّ عليهم ، ثم صار إلى على فأخبره وأنشده شعراً قاله ، فخرج على مغضباً حتى دخل المسجد ، فذكر الأنصار بخير ، وردَّ على عمرو بن العاص قوله ، فلما علمت الأنصار ذلك سرَّها وقالت : ما نبالى بقول من قال مع حُسن قول على ، واجتمعت إلى حسان بن ثابت ، فقالوا : أجب الفضل . فقال : إن عارضتُه بقوافيه فضحنى ، فقالوا : فاذكر علياً فقط فقال :

جَزَى اللهُ خيراً - والجَزَاء بكفِّه ... أبا حَسنٍ عَنَّا ومَنْ كأبِى حَسَن

سَبقتَ قريشاً بالذى أنتَ أهلُهُ ... فَصَدْرُكَ مشروح ، وقلبُكَ ممتحَن

تمنَّتْ رجَالٌ من قُريشٍ أعزة ... مكانكَ . هيهاتَ الهزَالُ من السِّمَن [1]

وفى خبر آخر عند اليعقوبى أيضاً نقرأ أنه عندما عهد أبو بكر إلى خالد بن الوليد وغيره من غير الأنصار فى قيادة الجيوش التى خرجت لحروب المرتدين : « قام ثابت ابن قيس بن ثابت بن شماس فقال : يا معشر قريش ، أما كان فينا رجل يصلح لما تصلحون له ؟ أما ذلك والله ما نحن عمياً عما نرى ، ولا صماً عما نسمع ، ولكن أمرنا رسول الله بالصبر ، فنحن نصبر ، وقام حسان فقال :

يَا للرجَالِ لخلفَة الأطْوارِ ... وَلِمَا أرادَ القَومُ بالأنْصَار

لم يُدخِلُوا منَّا رئيساً وَاحِداً ... يا صَاحِ فى تقصى ولا أمرار

فعظم على أبى بكر هذا القول ، فجعل على الأنصار ثابت بن قيس ، وأنفذ خالداً على المهاجرين [2] وثابت بن قيس الشماس كان من رؤوس الأنصار فهو من بنى

---

(١) اليعقوبى ، تاريخ ٢/ ١٢٨ .
(٢) اليعقوبى ، تاريخ ٢/ ١٢٩ .

كعب من الخزرج ، وقد استشهد مع من استشهد فى يوم اليمامة ، يقول ابن حزم فى الجمهرة : إنه ممن شُهِد لهم بالجنة [1] .

وجدير بالملاحظة أن الأنصار نَفَسَ بعضهم على بعض عقب وفاة الرسول ﷺ فكَرِه الكثيرون من الأوسيين أن يترأس واحد من الخزرج ، وانضم أُسيد بن الحضير إلى أبى بكر ، أما بشير بن سعد الذى أيّد رياسة القرشيين فكان أول من بايع أبا بكر من الأنصار والسبب معروف فهو والد أم خارجة التى تزوجها أبو بكر ، وهى من بنى حارثة الخزرجيين ، وكان أبو بكر قد نزل فى منازلهم بالسُّنُح .

المهم أن الأنصار أُخْرِجوا من قيادة الأمة وانحصر الأمر فى قريش ، وهم عندما غضبوا لذلك تجمعوا حول على بن أبى طالب وكان أول الأمر معارضاً لخلافة أبى بكر ثم بايعه بعد ذلك ، وليس لدينا ما يدل على أن العلاقة كانت ودية بينه وبين عمر، وموقف عمر من الأنصار ورأسهم سعد بن عبادة معروف وهذا التعاطف بين على وآله والأنصار استمر يَقْوَى مع الزمن حتى أصبحت المدينة معقل العلويين ثم تبعتها مكة عندما غادرها رؤوس القرشيين - من غير بنى هاشم - لتولى القيادة وشيئاً فشيئاً أصبح الحجاز كله هاشمى الميول معارضاً لبنى أمية ثم لبنى العباس وفروع قريش الحاكمة بنو أمية أولاً ثم بنو العباس - أصبحت تنظر إلى الحجاز - خاصة مكة والمدينة - نظرتها إلى إقليم مُعَادٍ لهم مؤيد لخصومهم .

وإذا كان الأمويون قد رموا مكة بحجارة المنجنيق وأسهم النار حتى اشتعلت أستار الكعبة ، فإن الذى فعله بهم العباس كان أشد ، وإنه لمن عجائب تصاريف التاريخ أن قريشاً التى بدأ نجمها يصعد بفضل مكة أصبحت تكرهها وتهاجمها . والأنصار أحباء رسول الله انهزموا فى الصراع السياسى داخل أمة الإسلام فجعلوا يهاجرون إلى الأمصار ، وهناك لقوا من الكرامة وحب الناس ما لم يكونوا يجدونه فى وطنهم والمسئولية فى ذلك ترجع إلى هذا النهم إلى السلطان الذى استبد بقلوب غالبية القرشيين ، وقريش فى تشبثها بالسلطان قضت فى النهاية على قريش .

---

(١) الجمهرة : ٣٣٦ .

أبو بكر يَستدعى رؤساء مَكّة وَيسند إليهم الرياسَات :

لا يحب أهل التُّقَى من المسلمين الخوض فى حديث سقيفة بنى ساعدة وما جرى فيها ، وحسناً يفعلون فإن الذى حدث وما قيل يوم السقيفة حدث فى ظرف عصيب لا يُستبعد معه أن تصدر عن أحد من الناس بادرة يدفع إليها الدَّهَش أو الفزع أو عدم استيعاب الموقف . ثم إن رواة الأخبار عن هذا اليوم العصيب وأهمهم هنا سيف بن عمر وأبو مخنف ، لا يطمئن الخاطر إلى كل ما يقولون ، والذى يهمنا ونحمد الله عليه أن الأمر انتهى إلى أبى بكر ، وأبو بكر رزقه الله من إيمان دونه رواسى الجبال وجنان ثابت لا تنال منه الخطوب ، ثم خلق كريم جميل ومنطق بليغ يتنزل على القلوب وبهذا جمع الأمة إلى لوائه ورأب الصدع ووحَّد الصفوف ، فاندرج حديث السقيفة وأصبح ذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين .

ولكننا ونحن الآن بصدد التأريخ لقريش والإسلام لا نملك إلا أن نقول من واقع ما حدث : إن قريشاً انتفعت بما وقع فى السقيفة من حيث لا تحتسب ، حقاً إن أبا بكر لم يتصرف قط على أنه قرشى ، وإنما تصرف دائماً على أنه خليفة رسول الله ولزم غَرْز رسول الله وطريقه وما حدث لم يكن من صنعه وإنما هى طبيعة القرشيين وما جُبِلوا عليه من حب السيادة والرياسة ، وما انفردوا به من معرفة بشئون الحياة وسياسة الناس ، ربما نتيجة لاشتغالهم بالتجارة ، ونحن نعرف أن رسول الله ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى .

وقد بدأت بوادر الفتنة فى جزيرة العرب ، فقد كان ذو الخمار عيهلة بن كعب المشهور باسم الأسود العنسى قد ظهر فى قبيلة مذحج وانضمت إليه نجران فى اليمن، وتحرك طليحة بن خويلد الأسدى فى طيىء وأسد ومن لَفَّ لَفَّهم وقدموا فى جمعهم حتى بلغوا الربذة فى أحواز المدينة ، وأعانهم على ذلك أن منازل عبس وذبيان كانت تقع فى هذه المنطقة من عوالى نجد أى مداخلها ، ويصف لنا الطبرى الموقف فى عبارة موجزة عن السرى الوالبى وسيف بن عمر وهما من إسنادهما أكبر رواته عن هذه الأحداث فيقول :

١ - مات رسول الله ﷺ واجتمعت أسد وغطفان وطىء على طليحة بن خويلد الأسدى إلا من خواص أقوام فى القبائل الثلاث .

٢ - فاجتمعت أسد بشُحَيْراء فى عوالى نجد ، وفزارة ومن يليهم من غطفان بجنوب طيبة (المدينة) .

٣ - وطيء على حدود أرضهم بجبلى طيء ، وهما الجزء الشمالى مما يُعرف اليوم بجبل (شمر) .

٤ - واجتمعت ثعلبة بن سعد ومن يليهم من مرة وعبس بالأبرق من الربذة (جنوب شرقى المدينة) .

٥ - وتأشَّب إليهم ناس من كنانة .

٦ - فلم تحملهم البلاد وافترقوا فرقتين ، فأقامت فرق منهم بالأبرق وسارت الأخرى إلى ذى القصة (على نحو ستين كيلو مترًا شمال شرقى المدينة) .

٧ - فأمدهم طليحة بِحِبَال ، فكان حِبَالٌ على أهل ذى القَصَّةِ من بنى أسد ومن تأشَّب من ليث والدِّيل ومدلج .

٨ - وكان على مرة بالأبرق عوف بن فلان بن سنان .

٩ - وعلى ثعلبة وعبس الحارث بن فلان ، أحد بنى سَبِيع .

١٠ - وقد بعثوا وفوداً فقدموا المدينة ، فنزلوا على وجوه الناس فأنزلوهم ما خلا عياشاً (حرصاً على ماله ؟) فتحملوا بهم على أبى بكر على أن يقيموا الصلاة وعلى أن يؤتوا الزكاة فعزم الله لأبى بكر على الحق ، وقال : لو منعونى عقالاً لجالدتهم عليه وكانت عُقل الصدقة مع الصدقة (أى : أنه لا يتنازل حتى عن الحبل التى تُربط به إبل الصدقة ، وقد يكون المراد الإبل نفسها) .

١١ - فردَّهم ، فرجع وفد من بلى المدينة من المرتدة إليهم فأخبروا عشائرهم بقلة أهل المدينة ... »[١] .

وإنما أتيت بهذه العبارة على طولها لكى أبين للقارىء أن نطاق هذه الثورة (فيما عدا الأسود العنسى) كان حوالى نجد ابتداء من جبل شمر ويتصل القوس فيسير

---

(١) الطبرى ، تاريخ ٣/ ٢٤٤ - ٢٤٥ .

جنوبى المدينة حتى يصل بلاد ليث من كنانة ومدلج قرب ساحل البحر الأحمر .

وحدث ذلك كله وأسامة بن زيد وجيشه فى سريتهم إلى البلقاء جنوبى الشام فى صميم بلاد نصارى العرب .

والدارس لسيرة الرسول ﷺ يتبين أن هذه المناطق بالذات - وهى مناطق أعاريب نجد وأعراب الحجاز كانت دائماً مناطق قلق واضطراب على الإسلام وأهله. ونحو ثلث الغزوات والسرايا كان موجهاً إليها . هنا كانت قبائل كبار الأعراب من أسد وغطفان ومحارب والدِّيل وعَضَل والقارة من أهداب قيس عيلان والفروع الفقيرة من مضر بحكم فقر المواطن ، وهؤلاء هم الذين دعا رسول الله ﷺ عندما قال: اللهم على مُضَر ، والمراد أعاريب مضر من أبناء قيس عيلان ، أما عرب مضر فهم أبناء إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وهم فرع مضر الذى انحدرت منه كنانة وقريش ، وهؤلاء الأعاريب كلهم كانوا عالة على خيبر وفدك وتيماء والمدينة ومكة ، وعندما قامت أمة المدينة اتجهوا بمطالعهم نحوها . فهذا مركز مدنى عظيم قام غربى بلادهم واتسع حتى دخلت فيه خيبر ونطاق الواحات شمالى الحجاز .

وطوال الفترة المدنية من العصر النبوى عرف أهل المدينة بهدى محمد ﷺ وقيادته كيف يسوسون هؤلاء الأعراب ، ومعظم كبار المغازى والسرايا التى اتجهت إلى هذه النواحى قادها رجال المدينة ممن تربَّوا فى مدرسة محمد صلوات الله عليه التى قامت على الاتحاد والنظام والطاعة والصدق فى القتال ، هنا كانت مجالات أعاظم قواد الأنصار : سعد بن عبادة ، وأسيد بن الحضير ، والحباب بن المنذر بن الجموح ، وعبَّاد ابن بشر ، ومحمد بن مسلمة ، وأبو قتادة بن ربعى ، وسلمة بن الأكوع .

وكان من المنتظر أن يكون هؤلاء بالذات قادة الجيوش التى تذهب إلى هذه النواحى ، فقد داستها خيولهم ودوَّختها ، وكان لقادتهم فيها هيبة ، وفى قلوب أهلها خشية ، فكيف لا نجد فى قيادة الجيوش ، التى وُجِّهت لحرب أهل الردة واحداً من هؤلاء ؟

وعندما اقتربت جموع الأعراب من المدينة وأصبحت على أميال منها ، تحرك

أبو بكر بعد أن شدد فى حراسة المدينة خوف البيات : فعبّى الناس ثم خرج على تعبيته من أعجاز ليلته يمشى ، وعلى ميمنته النعمان بن مُقرّن ، وعلى ميسرته عبد الله بن مقرن وعلى الساقة سويد بن مقرن معه الركاب ، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو فى صعيد واحد ، فما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا فيهم السيوف ، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم ، فما ذَرّ قَرن الشمس حتى ولوهم الأدبار »[1] .

فأما أسلوب القتال ونظامه وطريقته فى مباغتة الأعداء فتلك كلها دروس تعلمها أهل المدينة أيام رسول الله ﷺ ولكن أين القواد ؟ وكيف نجد على القيادة بنى مقرن هؤلاء ؟ لقد كانوا من قدماء أهل الإسلام وهم مُزَنيون ، ولكن أحداً منهم لم يَلِ للرسول جيشاً وكيف يظل إجلاء قادة الأنصار وبعضهم كانوا فعلاً من أصحاب المواهب العسكرية النادرة ، مثل : محمد بن مسلمة ، والحباب بن المنذر ، وعباد بن بشر ، وبشير بن سعد ، وأسيد بن الحضير بعيداً عن القيادة ؟ هؤلاء لم يكونوا قط فى جيش أسامة بن زيد فلا ذِكْر لهم فيه وإنما كانوا فى المدينة . أما غيابهم عن القيادات فهو – استنتاجاً – صدى لما حدث فى السقيفة ، وتلك بداية قصة طويلة تحتاج إلى من يؤرخ لها ، قصة الأنصار بعد رسول الله ﷺ .

ثم يعبىء أبو بكر جيوش حرب الردة وهى أحد عشر جيشاً لا نجد فى قيادة أحدها أنصارياً واحداً ؛ بل نجد فيهم من القرشيين : خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن سعيد ، والعلاء الحضرمى . وعندما تنحى الأنصار أو نُحُّوا عن القيادات كانت تلك هى الفرصة التى أتيحت لقريش لكى يتولى رجالها القيادات .

وقد كان أبو بكر قد قال للأنصار فى خطابه الذى حسم به الموقف والنزاع يوم السقيفة : « وأنتم يا معشر الأنصار من لا يُنْكَرُ فضلهم فى الدين ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام . رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس من المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تُفتاتون بمشورة ، ولا تُقضى دونكم الأمور »[2] .

---

(١) الطبرى ، تاريخ ٣/ ٢٤٦ .
(٢) الطبرى ، تاريخ : ٣/ ٢٢٠ رواية أبى مخنف .

وهذا العهد لا ينقضه ما بدر عن سعد بن عبادة والحباب بن المنذر ، لأن كلام أبى بكر هذا كان بعد الاتفاق والتراضى ، ثم إن نفراً من الأنصار كانوا أول من دعوا إلى بيعة أبى بكر وأيّدوها يوم السقيفة وعلى رأسهم بشير بن سعد ، وأسيد بن الحضير وبقية الأنصار بايعوا دون اعتراض .

فلننظر كيف تم تطبيق ما قاله أبو بكر من أن الأنصار لا يُفتاتون بمشورة ولا تُقضى دونهم الأمور . لدينا هنا نصان انفرد بهما رجل من جملة المؤرخين الأُوَل الذين لم يلقوا من المؤرخين إلى اليوم ما هم جديرون به من تقدير ، ذلك هو محمد بن عبد الله الأزدى المتوفى سنة ٢٣١هـ / ٨٤٥ - ٨٤٦ م صاحب كتاب « فتوح الشام » وهو كتاب لم يتنبه إلى أهميته إلا القليلون ، لأنه نشر من نحو مائة وثلاثين سنة (١٨٤٥م) فى الهند نشرة ناقصة حافلة بالأخطاء على يد مستشرق يسمى وليم تاسوليس ، ثم أُعيد نشره فى القاهرة على مخطوطة جيدة بعناية دار سجل العرب سنة ١٩٧٠ ، وعليها اعتمد البحاثة المحقق أحمد عادل كمال فى كتابه القيم عن فتوح الشام [١] ، والأزدى مؤرخ فقط يميل بعض الميل إلى تعظيم شأن قومه الأزد ولكنه معتدل منصف فى جملته، ثم إن الموضوع الذى نحن بصدده بعيد عن الأزد كل البعد ، ومن ثم فإننا نعتبر روايته عن فتوح الشام وبداية الفتوح بوجه عام - وثيقة تكمل ما كتبه الطبرى والبلاذرى وغيرهما عن الفتوح .

وقبل أن نورد نص الأزدى الذى رد على سؤال طالما حيَّر أذهان الباحثين وهو : كيف عادت قريش إلى ولاية معظم الأمر فى تاريخ الإسلام ، بُعيد وفاة الرسول صلوات الله عليه بعد أن كانت هى بالذات قد رصدت نفسها للقضاء على الإسلام ؟ نقول : إن الرسول وكبار صحابته من المهاجرين كانوا قرشيين . ولكنه ﷺ سار فى توجيه أمور الأمة مساراً إسلامياً خالصاً ، لا فضل فيه إلا للإسلام والتقوى والإخلاص يستوى فى هذا القرشى وغير القرشى ، والعربى وغير العربى وجماعة النابهين من أصحاب الرأى والشفوف من الصحابة كانت تضم من الأنصار أكثر مما

(١) عنوانه : الطريق إلى دمشق (دار النفائس) وهو أحسن ما لدينا عن فتوح هذا البلد العزيز ، والأستاذ أحمد عادل كمال مؤرخ محقق ، وهو من أعاظم مؤرخى الفتوح الإسلامية فى عصرنا .

ضمت من المهاجرين، وكان فيها من غفار وأسلم وجهينة وليث وخزاعة نفر يعتز بهم تاريخ الإسلام .

وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى صارت الخلافة إلى أبى بكر لا لأنه قرشى بل لأنه كان أولى المسلمين إذ ذاك بمواصلة عمل الرسول ، ولم تكن معارضة بعض الأنصار إلا خوفاً من الضياع فى بحر العرب والإسلام الذى كان يتسع يوماً بعد يوم، وقد رأينا أن المعارضين من الأنصار اطمأنوا وسلَّموا عندما قال لهم أبو بكر إنهم يلون المهاجرين الأولين دون غيرهم من أهل الإسلام وأنهم الوزراء لا يُفتاتون بمشورة ولا تُقضى دونهم الأمور .

ولابد قبل أن نورد نص عبد الله الأزدى من بعض الملاحظات . لاحظنا أن الأمور لم تكد تستتب لأبى بكر حتى يختفى الأنصار من القيادات أو يكادون وجيوش حروب الردة كانت أحد عشر جيشاً لم يَقُدْ واحداً منها أنصارى ، بل قفز القرشيون فأصابوا منها خمس قيادات على الأقل . حقاً كان فى جيش خالد الذى توجه إلى بنى أسد وصاحبهم طليحة بن خويلد الأسدى ما بين أربعمائة وخمسمائة من الأنصار ، أميرهم ثابت بن قيس ويحمل رايتهم أبو لبابة بن عبد المنذر وهما صحابيان جليلان ، ولكن لم تسبق لأحد منهما قيادة سرية أو بعث ، ولابد أن الكتلة المقاتلة فى كل من الجيوش الأحد عشر كانت من الأنصار فقد كانوا إلى الآن صخرة الإسلام التى تتحطم عندها الأمواج ، ولكننا نجد فطاحلهم بعيدين عن القيادات .

هنا نورد نص الأزدى الذى يقدم تفاصيل مجلس عقده أبو بكر مع كبار أصحابه وأهل شوراه لكى يتخذ قراراً فى شأن مواصلة الفتوح خارج الجزيرة العربية وهى خطة حاسمة وخطيرة ، ولم يكن أبو بكر يستطيع أن يتخذ فيها قراراً دون مشورة طويلة . وخبر هذا المجلس يقول صراحة إن أبا بكر دعا إلى المجلس كبار أصحاب شوراه ، وهم كما يذكرهم الأزدى : عمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن أبى وقاص وأبو عبيدة عامر بن الجراح وعبد الله بن أبى أوفى الخزاعى » ووجوه المهاجرين والأنصار الذين شهدوا بدراً فاجتمعوا إليه ، وعبد الله ابن أبى أوفى الخزاعى هذا صحابى معروف ، اسمه كما يقول ابن حزم علقمة بن

خالد بن الحارث بن أسيد ، له صحبة آخر الصحابة موتاً بالكوفة »[1]. وهو راوى هذا الخبر وهو مُصدَّق فيه لأنه حضره بنفسه .

وأغلب الظن أنه حضر هذا المجلس لأنه خزاعى من أسلم ، وكانت أسلم ركناً هاماً من أركان جماعة الإسلام إذ ذاك حتى ليقال إن ثلث المسلمين الذين خرجوا لغزوة الحديبية كانوا من أسلم ، ويلاحظ أن أحداً من كبار الأنصار لم يُذكر بالاسم بين أهل الشورى هؤلاء إلا عبد الله بن أبى أوفى الخزاعى ، وقد تكلم فى هذا المجلس أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ، وأيَّدوا فكرة الغزو إلى الشام ، ثم تكلم طلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وأبو عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد بن نفيل ، ولم يتكلم علىٌّ إلا بعد أن لاحظ أبو بكر سكوته ودعاه إلى الكلام فتكلم مؤيِّداً . ولكن أحداً من كبار الأنصار لم يتكلم وقد جرت عادتهم فى مثل هذه المجالس أيام رسول الله أن يتكلموا ، والحباب بن المنذر بالذات كانت له كلمة فى كل مناسبة من مناسبات الحروب ، لأنه كان موهوباً فى الأمور العسكرية . ولم نسمع هنا عن محمد بن مسلمة وكان معظم الوقت على حرس رسول الله ، وبشير بن سعد وله دور فى كل غزاة من غزوات الرسول ، وهو ومحمد بن مسلمة قادا البعوث والسرايا ، فأين هما اليوم ؟

واقع الأمر يدل على أنهم لم يحضروا هذا الاجتماع ولم يُسمع لهم رأى ، وحتى أُسيد ابن الحضير وكان سيد الأوس وقد مال يوم السقيفة إلى أبى بكر دون سعد بن عبادة وكان حرياً أن يكون فى هذا المجلس . ولو حضر واحد من هؤلاء لما فات الأزدى أن يذكره فإنهم عُمُد الأنصار ، والأنصار كانوا إلى يوم السقيفة صخرةَ جيوش الإسلام . ويوم حنين يوم هرب القرشيون المكيون مع بنى سليم عند الصدمة الأولى مع هوازن كانت دعوة رسول الله إلى الأنصار دون غيرهم ، فما أن سمعوا صوته حتى ثابوا إلى رشدهم وعادوا إلى رسول الله (ﷺ) فصدموا هوازن صدمة دامية فتحطمت قواها

---

(1) ابن الأثير ، أُسْد الغابة : ٣/ ١٨٢ ، وهو يذكر هنا أن عبد الله بن أبى أوفى أقام فى المدينة حتى توفى رسول الله ﷺ فتحول إلى الكوفة ، وهذا غير معقول ، لأن الكوفة لم تكن قد أنشئت عند وفاة النبى . والأصح أن يقال : إنه توجه إلى الكوفة بعد تأسيسها .

وتم للإسلام نصر كامل ، فلم يفقد المسلمون فى هذه المعركة إلا أربعة نفر رغم الفرار الأول ، فكيف لا يوجد أولئك الأبطال اليوم وكيف يُغيَّبون ؟ فلا يكون لهم رأى ، ولا تكون لهم قيادة جيش واحد ، لا من جيوش الردة ، ولا من جيوش فتوح الشام ؟

ولم يأسف أبو بكر على غياب الأنصار ولا أسف عمر ، ولم يبلغنا فيما بين أيدينا من الأخبار أن أبا بكر حاول استرضاء الأنصار . ولم يَسْعَ الأنصار من ناحيتهم إلى استرضاء أبى بكر وبقية المهاجرين ، بل انصرفوا للجهاد دون أن تكون لهم قيادة من القيادات الكبيرة ، فخرج من أراد الخروج منهم فى جيوش حروب الردة ، ومات الكثيرون جداً منهم فى هذه الحروب ، وخاصة فى حرب مسيلمة الكذاب فى معارك اليمامة ، وكانت من أشد المعارك التى خاضها المسلمون ، لأن مسيلمة وأصحابه تحصنوا فى وادٍ ضيق داخل حديقة أى بستان له سور عالٍ ، وكان كبار الأنصار هم الذين اقتحموا ذلك الحصن المنيع ، ومات منهم فى تلك المعركة الشديدة نفر عظيم ، ومات بعضهم فى حروب الشام ، وبعضهم فى فتوح العراق .

ويبدو أنهم وقد خُذِلوا فى المعركة السياسية تماسك بعضهم ببعض وقد اتعظوا بما أصابهم يوم السقيفة نتيجة الاختلاف فيما بينهم ، فأصبحوا يخرجون فى حروب الردة جماعات متميزة بنفسها تطلب الشهادة ، ولدينا عن ذلك أخبار كثيرة تؤيد هذا الموقف ، نذكر منها خبر عباد بن بشر ، وكان من كبار بنى عبد الأشهل من الأوس ، فهذا الرجل حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان من أحب الناس إلى رسول الله وفى يوم السقيفة كان معتدلاً عاقلاً ، وهو الذى تكلم بعد سعد بن عبادة والحباب ابن المنذر وأبى بكر وأبى عبيدة فسأل قومه أن يتركوا الرياسة للمهاجرين ، فهم قوم النبى ﷺ وأحق بالأمر بعده وكان حقيقاً لهذا بأن يعرف له أبو بكر وعمر هـذا الفضل ، وأن يعهدا إليه فى شىء من القيادات ، أو أن يجعلوه من أهل شوراهما ، فلم يحدث ذلك ، فانظر إلى هذا الرجل يوم اليمامة ، وقد اشتاقت نفسه إلى الشهادة حتى رأى فى نومه رؤيا مبشرة بذلك .

قال أبو سعيد الخدرى - وقد شهد اليمامة - فى خبر رواه حفيده لمحمد بن واقد وهو الواقدى ورواه كاتبه محمد بن سعد فى الطبقات قال : « فأنظر إليه يوم اليمامة

وإنه ليصيح بالأنصار : اخْطموا جفون السيوف وتميزوا من الناس ! وجعل يقول : اخلصونا ، اخلصونا ! فأَخْلَصوا : أربعمائة رجل من الأنصار ما يخالطهم أحد يقدمهم عباد بن بشر وأبو دجانة والبراء بن مالك ، حتى انتهينا إلى باب الحديقة فقاتلوا أشد القتال ، وقُتِل عباد بن بشر رحمه الله ، فرأيت بوجهه ضرباً كثيراً ، ما عرفته إلا بعلامة كانت فى جسده »[1] .

ومن الأنصار من نجا من الموت فى حروب الردة واشترك فى الفتوح ثم فوجىء بفتنة عثمان فقرروا اعتزال الحياة السياسية جملة ، ومن هؤلاء محمد بن مسلمة فارس رسول الله وقائد حرسه وطليعة جيشه فى أكثر من مناسبة ، فهذا الفارس العظيم لم يحفل لاستبعاده من أهل شورى أبى بكر ومضى يجاهد حتى كانت الفتنة ، فاعتزل فى البيداء قريباً من المدينة ، وقد روى خبر اعتزاله ابن سعد عن ابن حصين الثعلبى عن ابن حذيفة بن اليمان وكان حذيفة صاحبه ومن المعتزلين معه ، قال : فخرجتُ فيمن خرج من الناس (من المدينة) فأتيت أهل ماء ، فإذا أنا بفسطاط مضروب مُتَنَحَّى تضربه الرياح ، فقلت : لمن هذا الفسطاط ؟ قالوا : لمحمد بن مسلمة ، فأتيته فإذا هو شيخ ، فقلت له : يرحمك الله ، أراك رجلاً من خيار المسلمين ، تركتَ بلدك ودارك وأهلك وجيرانك ، قال : تركته كراهية الشر ، ما فى نفسى أن تشتمل علىَّ مصر من أمصارهم حتى تنجلى عما انجلت . وظل فى معتزله هذا حتى مات ، ويُروى عنه حديث يقول : إن رسول الله ﷺ أعطاه سيفاً وقال له : « إذا رأيتَ من المسلمين فئتين تقتتلان فاضرب به الحجر حتى تكسره ، ثم كُفَّ لسانك ويدك حتى تأتيك منية قاضية ، أو يد خاطئة ، فلما قُتِل عثمان ، وكان من أمر الناس ما كان ، خرج إلى صخرة فى فنائه فضرب الصخرة بسيفه حتى كسره »[2] .

وقد حاول أبو بكر استرضاء بعض كبارهم ببعض صغار الأعمال دون كبارها فرفضوا ، ويصور لنا هذا الموقف أبو الهيثم بن التيهان ، وهو من طلائع المسلمين فى المدينة ، فهو من النفر الثمانية الذين أسلموا على يد الرسول قبل العقبة الأولى ، كان فى حياته كلها من أقرب صحابة رسول الله إليه ، وقد حضر معه المشاهد كلها ، « وبعثه

(١) ابن سعد ، الطبقات ، جـ٣ ، القسم الثانى ص١٧ .
(٢) ابن سعد ، الطبقات : جـ٣ قسم ٢ ص ٢٠ .

رسول الله ﷺ إلى خيبر خارصاً (أى : جامعاً لضريبة التمر والحبوب التى قررها الرسول ﷺ على أهل خيبر بعد استسلامهم) فلما توفى رسول الله عليه السلام بعثه أبو بكر (كذا والأصح بعث إليه) فأبى ، فقال : قد خَرَصتُ لرسول الله ، فقال : إنى كنت إذا خرصت لرسول الله فرجعت دعا الله لى ، قال : فتركه »[1] وفى هذه العبارة ما فيها .

ومن مظاهر أسف الأنصار على ما حدث فى السقيفة وما بعدها ، زهدهم فى الدنيا وإنفاقهم مالهم فى سبيل الله ، وقد طالما قرأنا عن المال الكثير الذى تحصَّل لعبد الرحمن ابن عوف وطلحة بن عبيد الله وغيرهم من المهاجرين من أموال المغانم والفيوء والأرزاق التى قُدِّرت لهم من بيت المال على أساس القاعدة العمرية وهى قاعدة السبق إلى الإسلام ، والمكان من رسول الله ﷺ . ففاز المهاجرون الأولون وأمهات المؤمنين بأنصبة كبيرة جداً ، وصغرت نتيجة لذلك بقية أنصبة الأنصار لأنهم أسلموا متأخرين عن هؤلاء ، ولم يشفع لهم فى ذلك ما كان من فضلهم العظيم على الإسلام وأهله ، فاقرأ كيف توفى أسيد بن الحضير فارس بنى عبد الأشهل الأوسيين الذى تفيض السيرة النبوية بذكر أعماله وبذله فى سبيل الإسلام ، بل كان هذا الرجل ذا فضل عظيم على أبى بكر ، فهو رأس الأنصار الذين قرروا تأييد أبى بكر يوم السقيفة وحسموا بإخلاصهم للإسلام الموقف لصالح المهاجرين :

« هلك أسيد بن الحضير وعليه أربعة آلاف درهم ديناً ، وكان ماله يغل كل عام ألفاً فأرادوا بيعه ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فبعث إلى غرمائه ، فقال : هل لكم أن تقبضوا كل عام ألفاً فتستوفونه فى أربع سنين ؟ قالوا : نعم يا أمير المؤمنين فأخروا ذلك فكانوا يقبضون فى كل عام ألفاً» وكانت وفاة أسيد فى شعبان سنة ٢٠هـ ، والفتوح فى عنفوانها وناس كثيرون من المهاجرين ممن يجيئون بعد أسيد بن الحضير بمراحل يتولون القيادات بل الولايات ويرتعون فى الأموال والسلطان ، أما أسيد بن الحضير الذى قال فيه الرسول ﷺ : « نِعْمَ الرجل أسيد بن الحضير » فيموت مديناً دون أن تُسند إليه قيادة واحدة .

---

(١) نفس المصدر ص٢٢ .

وكان الفقر وقلة المال نصيب الكثيرين من أكابر الأنصار رغم ما أصابوا من المغانم أيام رسول الله ﷺ . ومن الأمثلة البارزة فى ذلك سهل بن حنيف صاحب الموقف المشهور يوم أُحُد ، وقد حضر هذا الرجل المشاهد كلها مع رسول الله ، ولكن الرسول ﷺ استثناه يوم قسم غنائم بنى قريظة ، هو وأبو دجانة سماك بن خرشة فأعطاهما مع من أعطى من المهاجرين لأنهما كانا فقيرين [(١)] كما يقول ابن سعد ، ولم يجد سهل بن حنيف إنصافاً إلا فى خلافة على بن أبى طالب ، فأكرمه ورفع مقداره ، وكان سهل من كبار أصحابه ، وقد توفى فى صفين سنة ٣٨هـ ، وصلى عليه على ودُفِن فى الرحبة وكبَّر على عليه ستَّ تكبيرات لأنه بدرى [(٢)] .

ولن نشير هنا إلى موقف عمر من سعد بن عبادة سيد الخزرج يوم السقيفة ، فهذا الموقف معروف وهو معقول إلى حد ما بعد موقفه يوم السقيفة ولكنه لا يستحق ما لقى من المهانة على يد عمر ، بل كان هناك اتجاه إلى استعمال القوة معه لإرغامه على المبايعة لأبى بكر لولا تدخل بشير بن سعد ، ووصل به الأمر فى أول خلافة عمر إلى حد نفهم منه أنه أُخرج طريداً من المدينة إلى الشام ، حيث مات فى حوران على صورة أليمة ، فيما يرويه البلاذرى فى أنساب الأشراف [(٣)] .

أما الحباب بن المنذر صاحب الموقف المعروف يوم السقيفة فمن الطبيعى أن يختفى تماماً بعد بيعة أبى بكر ، وربما يصور لنا مصير الأنصار ومسلكهم بعد رسول الله ﷺ ما أُثِر عن أبى دجانة سماك بن خرشه ، وكان من أعاظم المحاربين وأهل البسالة والنجدة فى الأنصار ، فهذا الرجل الذى كان عَلَماً فى بدر وأُحُد والخندق وحنين لم ينل قيادة ولا رياسة ، واقرأ كيف انتهت حياته مجاهداً أيام أبى بكر .

قال ابن سعد بسنده : « دخل على أبى دجانة وهو مريض وكان وجهه يتهلل . فقيل له : ما لوجهك يتهلل ، فقال : ما من عملٍ شىء أوثق عندى من اثنتين : أما إحداهما فكنت لا أتكلم فيما لا يعنينى ، وأما الأخرى فكان قلبى للمسلمين سليماً . قال محمد بن عمر : وشهد أبو دجانة اليمامة ، وهو فيمن شرك فى قتل مسيلمة

(١) انظر طبقات ابن سعد جـ٣ ، قسم ٢ ص١٢٥ وما بعدها .
(٢) انظر طبقات ابن سعد جـ٣ ، قسم ٢ ، ص٤٠ .
(٣) انظر طبقات ابن سعد جـ٣ ، قسم ٢ ، ص١٤٥ وأنساب الأشراف للبلاذرى جـ١ / ص٢٥٠ .

الكذاب وقُتِل أبو دجانة يومئذ شهيداً سنة عشرة فى خلافة أبى بكر الصديق ، ولأبى دجانة عقب اليوم بالمدينة وبغداد »[1] .

أبو بكر يَدعو أشراف قريش مِن أهل مكّة ليَستعين بهم فى الفتوح :

غاب هؤلاء جميعاً ، أو قل أُخرِجوا فمن الذى تولى مكانهم ؟ القرشيون ! فأما من كان منهم موجوداً وله مكانة فى جماعة الإسلام من أمثال : أبى عبيدة ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، ومَنْ فى طبقتهم فقد أصبحوا فى مقدمة أهل الشورى والقيادة ولحق بهم من أسلم قبل فتح مكة بقليل ، مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ولم يلبث أن خطا المسالمة الذين أسلموا يوم فتح مكة أو بعده خطوة ، فقد تقدموا وحَلُّوا محل الأنصار وصار منهم مَنْ أربى على قدماء المهاجرين فى المكانة ومثلهم فى ذلك يزيد بن أبى سفيان وأخوه معاوية . ولم يأت هذا مصادفة ولا نحن نستنتجه استنتاجاً ، بل لدينا خبر ذو أهمية كبرى أورده عبد الله الأزدى فى فتوحه ، وقد رأيت أن آتى هنا بنصه كاملاً ، لأنه يرينا كيف دخل هؤلاء ومتى وكيف وصلوا إلى القيادات والرياسات .

والآن نورد نص الأزدى ، قال محمد بن عبد الله الأزدى : إنه (أبو بكر) لما تلقى كتاب أبى عبيدة قائد جيوش الفتح فى الشام يستمده حوالى ١٢ شوال سنة ١٢هـ/ ٢٩ ديسمبر ٦٣٣م اجتمع إليه أشراف المهاجرين والأنصار وأهل السابقة منهم فدعا أبو بكر بأشراف أهل مكة ، فقال له عمر بن الخطاب : لأىِّ شىء دعوت بأهل مكة مع المهاجرين والأنصار ؟ قال أبو بكر : لأستشيرهم فى هذا الأمر الذى كُتِب إلينا فيه فقال عمر : فأما المهاجرون والأنصار فأهل المشورة والاستنصاح ، وأما رجال أهل مكة الذين كنا نقاتلهم لتكون كلمة الله هى العليا ويقاتلون ليطفئوا نور الله بأفواههم جاهدين على قَتْلنا وذُلِّنا . إنا قلنا ليس مع الله آلهة أخرى ، وقالوا مع الله آلهة أخرى . فلما أعز الله دعوتنا وصدَّق أحدوثتنا ونصرنا عليهم تريد أن تقدمهم فى الأمور

---

(١) ابن سعد الطبقات جـ٣ القسم الثانى ص١٠١ - ١٠٢ .

وتستشيرهم فيها وتستنصحهم دون من هم خير منهم ، فما نَصَحْنا إذن بصلحائنا الذين كانوا يقاتلونهم فى الله حين تُقدِّمهم دونهم ، أفلا تراهم إذ وضعهم عندنا جهادهم إيانا وجهدهم علينا ، والله لا نفعل ذلك أبداً . فقال له أبو بكر : إنه قد حَسُن إسلامهم ولقد كنت أريد أن أدينهم وأنزلهم بالمنازل التى كانوا بها فى قومهم من الشرف ، فأما إذ ذكرت ما ذكرت فإن الرأى فى هذا رأيك » .

وبلغ هذا الكلام أشراف قريش فشق ذلك عليهم ، وقال الحارث بن هشام (بن المغيرة بن عمر بن مخزوم) : إنك يا عمر قد كنت فى شدتك علينا قبل الإسلام مصيباً ، فأما الآن فقد هدانا الله إلى الإسلام فلا نراك فى شدتك علينا إلا قاطعاً . وجثا سهيل بن عمرو على ركبتيه وقال : إياك يا عمر نخاطب وعليك نعتب . فأما خليفة رسول الله فبرىء عندنا من الضغن والحقد والقطيعة ، ألسنا إخوانكم فى الإسلام وبنى أبيكم فى النسب، فإنكم إن كان الله قدم لكم فى هذا الأمر قدماً صالحاً لم نؤت مثله لقاطعوا أرحامنا مستهينون بحقنا .

وقال عكرمة بن أبى جهل : إنكم وإن كنتم تجدون فى عداوتنا قبل اليوم مقالاً فلستم اليوم بأشد على من ترك هذا الدين وعادى المسلمين منا ، فقال لهم عمر : إنى والله ما قلت ما بلغكم إلا نصيحة لمن سبقكم بالإسلام وتحرياً للعدل فيما بينكم وبين من هو أفضل منكم من المسلمين . قال سهيل: فإن كنتم إنما فضلتمونا بالجهاد فى سبيل الله ، فوالله لنستكثرن منه ، وأشهدكم أنى حبيس فى سبيل الله . والله لأقفن مكان كل موقف وقفته على حرب رسول الله ﷺ موقفين على أعداء الله ، ولأنفقن مكان كل نفقة أنفقتها على حرب رسول الله ﷺ نفقتين فى سبيل الله ، قال عكرمة : أنا أشهدكم أنى حبيس فى سبيل الله . فقال أبو بكر: اللهم ابلغ بهم أفضل ما يأملون ، واجزهم بما كانوا يعملون . قد أصبتم فأرشدكم الله » [1] .

ولابد أن نلاحظ هنا أن هذا المجلس إذا كان قد حدث ، فلابد أنه كان فى بداية حروب الردة لا فى بداية فتوح الشام ، لأن عكرمة بن أبى جهل اشترك فى محاربة أهل الردة وكان قائداً لواحد من جيوش المسلمين . وهذا الخلط فى تاريخ المجلس لا يضعف أهميته ، لأن الخلط فى التواريخ كثير ومألوف عند مؤرخينا .

(١) محمد بن عبد الله الأزدى ، فتوح الشام ، ص ٤٥ .

وليس من الضرورى أن يكون هذا نص الكلام الذى دار فى هذا المجلس كلمة كلمة ، لأن المقصود هو المعنى ، والمعنى هنا حقيقة . فهؤلاء القرشيون أدركوا فى وقت متأخر حقيقة الإسلام والفضل فى ذلك يرجع إلى رسول الله ﷺ الذى أحسن استقبالهم وأكرمهم فأزال من نفوسهم الضغينة والحقد وأشعرهم بالندم على ما فات فثبتوا مكانهم ينتظرون فرصة مناسبة يدلون فيها على صدق إيمانهم واستعدادهم للبذل فى سبيل الإسلام . وليس معنى ذلك أننا نقول إنهم رأوا فرصة فانتهزوها ، فليس لدينا ما يدل على ذلك ، ولسنا كذلك نقول إنه لولا حدوث الفراغ بغياب سادات الأنصار عن القيادات لما دخل سادات قريش ، فإن كتابة التاريخ لا تقوم على فروض ، وليس من الصواب كذلك أن يقال هنا إن فلاناً أخطأ أو فلاناً أصاب ، فإننا لا نعرف فى مسار التاريخ فى موقف كهذا إن كان هناك محل للحكم بخطأ أو صواب، ثم أين هو المقياس الذى نقيس به أعمال رجال مثل أبى بكر وعمر ؟

أضف إلى ذلك أن حقائق القضية كلها ليست لدينا ، فمن يدرى فلعل الأنصار هم الذين اختاروا هذا الموقف من القيادة والسياسة ، لقد كانوا أسعد الخلق مع رسول الله ﷺ ، وقد دامت سعادتهم به ومعه ثلاث عشرة سنة من التوفيق والنصر والسمو الروحى ، وأى شيء يطلبه الإنسان فى هذه الدنيا بعد عشر سنوات يقضيها فى صحبة خير البشر يتمتع فيها بالعمل معه فى سبيل الإسلام والاقتباس من أنواره فى سبيل الخير والإسلام ؟

واقرأ تفاصيل غزوة الغابة التى كانت فى ربيع الثانى سنة ست للهجرة ، «أغسطس ٦٢٧م » لترى كيف كان الأنصار فى أقصى درجات السعادة وهم يجاهدون مع رسولهم الأكرم الأعز ، إنهم ليطيرون طيراناً كأنهم كلهم شباب فى مداخل العمر تسبح بهم الخيل سبحاً بين يدى الرسول ﷺ وإن أحدهم وهو سلمة ابن الأكوع ليسبق أسرع الهجن على قدميه فى طلب العدى وكل مأربه نظرة رضا أو دعوة يفوز بها من الرسول الأكرم [1] . فلما توفى الرسول وكان ما كان يوم السقيفة ورأوا تمسك المهاجرين بالرياسة انصرفت أنفسهم عنها وزهدوا فيها ، كما رأينا فى موقف بشير بن سعد .

---

(١) أحسن وصف لها وأكثره تفصيلاً نجده عند الواقدى (مغازى : ٢/ ٥٣٧ - ٥٤٩) وإنما اخترتها لأنها من صغار المغازى التى يتسع وقت الرسول فيها للحديث مع كل واحد من أفراد جماعته .

ومن الواضح أن الأنصار جملة لم يكونوا بأهل اهتمام بالرياسة فلم نلحظ فيهم شيئاً من ذلك أيام الرسول ﷺ ، حتى سعد بن عبادة ، ولم تكن العلاقات طيبة بينه وبين كبار المهاجرين لم تطمح نفسه إلى رياسة بعد السقيفة وإنما كان قُصارى أمله أن يرضى عنه رسول الله ﷺ ، فى حين أن أبا بكر وعمر كانا دائماً إلى جانب الرسول يشتركان معه فى المشورة وتبادل الرأى ويسارعان فى التنفيذ . وكان الأنصار - فيما يبدو - فى الواقع يرون أن صلتهم الأساسية التى تهمهم هى الصلة برسول الله ﷺ والإسلام . أما المهاجرون فكانوا يتصرفون بعد رسول الله وكأنهم رؤساء الجماعة ، وانظر مثلاً موقف عمر بن الخطاب من قيس بن سعد بن عبادة فى سرية الخَبْط حيث تطوع قيس بشراء جُزُر أى : جمال للمسلمين من رجل جهنى على أن يؤدى له الثمن تمراً فيما بعد ، فأنكر عمر ذلك عليه وقال : إنه لا يجوز له أن يشترى بمال أبيه دون أن يستأذنه وأصر على ذلك حتى مال إلى رأيه أبو عبيدة وكان أمير الجماعة ، وعندما عادت السرية استحسن سعد بن عبادة تصرُّف ابنه ووهبه حائطاً أى حديقة، كى يكون له مال ينفق منه دون الرجوع إلى أبيه ، وقد أيد الرسول ﷺ تصرُّف قيس بن سعد وأبيه وأثنى على سعد بن عبادة . وبصفة عامة نستطيع القول إن سعد بن عبادة لم يكن على علاقات طيبة مع عمر بن الخطاب وبعد توقف التآخى نلاحظ بصورة عامة أن العلاقات بين المهاجرين والأنصار لم تكن وثيقة بالشكل الذى نتصوره . وأبو بكر وحده ينفرد بعلاقات ممتازة مع الأنصار بسبب ما كان فى خُلُقه من لين ومحبة للناس .

والذى يعنينا هنا هو أن قريشاً عادت فأخذت مكاناً فى صدارة أمة الإسلام ، الذى حاربته وظنت أنه نهايتها ويشاء ربك أن يكون مولداً جديداً لها ، ولا مجال هنا لسوء الظن والقول بأن القرشيين دخلوا الدين وطلبوا الاشتراك فى الفتوح طمعاً ، فالحق أن معظم أولئك الرجال صدقوا فعلاً فيما قالوه لأبى بكر ، أما ما كان بعد ذلك من غلبة الطموح السياسى على فريق بنى أمية وأحلافهم أثناء خلافة عثمان فتلك قصة أخرى لها ظروفها وعواملها التى ظهرت خلال السنوات الأخيرة من خلافة عمر ، وتجلت طوال خلافة عثمان وما تلاها من فترة جددت الخصومة القديمة بين أبناء هاشم بن عبد مناف وأبناء أخيه عبد شمس ، واتجهت بتاريخ أمة الإسلام كله اتجاهاً أسيفاً .

واقرأ معى هذه الفقرة من كتاب « نسب قريش » لأبى عبد الله المصعب الزبيرى لترى مثالاً يؤكد لك صدق هؤلاء القرشيين عندما تكلموا بها تكلموا به مع أبى بكر وعمر فى المشهد الذى رويناه بنصه تقريباً ، والخبر هنا يتعلق بأولاد أبى أحيحة سعيد ابن العاص ، وبعضهم كان من ألدِّ خصوم الإسلام حتى فتح مكة ، قال: فولد أبو أحيحة سعيد بن العاص : أحيحة وبه كان يكنى ، والعاصى قتله على بن أبى طالب يوم بدر كافراً ، وعبد الله وكان اسمه الحكم فسماه رسول الله ﷺ عبد الله وأمره أن يُعلِّم الكتابة بالمدينة وكان كاتباً قُتِل يوم مؤتة شهيداً ، وسعيد بن سعيد قُتِل يوم الطائف شهيداً وعَمْراً قُتِل يوم أجنادين شهيداً ، وأمهم صفية بنت المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم وأبان بن سعيد قُتِل يوم أجنادين شهيداً ، وعبيدة قتله الزبير بن العوام يوم بدر كافراً ، وفاختة تزوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس فولدت له مريم ، فولدت مريمُ القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف فبقية عقب أبى العاصى بن الربيع من ولدها ، انقرض ولد أبى العاصى بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف من زينب بنت رسول الله ﷺ ، وأم بنى سعيد هؤلاء هند بنت المغيرة بن عبد الله بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . وخالد بن سعيد (بن العاصى) وهو أبو أحيحة ونحن بصدده قُتِل بمرج الصُّفَّر [1] وكان إسلام خالد بن سعيد متقدماً يقولون كان خامساً ، وأسلم أخوه عمرو وهاجروا جميعاً إلى أرض الحبشة وكان ممن قدم على رسول الله ﷺ فى السفينتين « من الحبشة » [2] . فهذه مصائر بيت واحد من بيوت أولئك الذين أسلموا عند الفتح وأتيحت لهم الفرصة للوصول إلى الاشتراك فى فتوح الإسلام ، فانظر كم شهيداً منهم جاد بنفسه فى سبيل الإسلام .

أما مصير سهيل بن عمرو وبيته فيقول فيه المصعب الزبيرى : « وخرج سهيل بجماعة أهله إلى الشام ، فجاهدوا حتى ماتوا كلهم هناك ، فلم يبق من ولده أحد إلا فاختة بنت عتبة بن سهيل . قدم بها على عمر (بن الخطاب) وكانت تسمى الشريدة ،

---

(١) كان ينبغى أن يضيف هنا : شهيداً لأنه استشهد فى فتوح الشام .
(٢) المصعب الزبيرى ، نسب قريش ، ص١٧٤ - ١٧٥ .

فزوجها عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة ، وكان أيضاً يقال له الشريد »[1].

وأما عكرمة بن أبى جهل ، فيقول عنه وعن أولاده المصعب الزبيرى « ولما ندب أبو بكر الناس لغزو الروم وقدم الناس فعسكروا بالجُرف على ميلين من المدينة ، خرج أبو بكر الصديق يطوف فى عسكرهم ويقوى الضعيف منهم ، فبصر بخباء عظيم حوله ترابط ثمانية أفراس ورماح وعدة ظاهرة ، فانتهى إلى الخباء ، فإذا خباء عكرمة فسلَّم عليه فجزاه أبو بكر خيراً وعرض عليه المعونة فقال : أنا غنى عنها ، معى ألف دينار فاصرف معونتك إلى غيرى ، فدعا له أبو بكر بخير ، ثم استشهد عكرمة يوم أجنـادين ولم يترك ولـداً وأمـه : أم مجالد إحـدى نساء بنى هـلال بن عامر »[2].

وهذا الإهمال لأمور السياسة من جانب الأنصار يبدو وكأنه نتيجة لما انتهت إليه الأمور يوم السقيفة ؛ فإن رؤساء الأنصار الذين كانت نفوسهم تطمح للرياسة خرجوا من السقيفة وهم يشعرون أنهم انهزموا وزهدوا نتيجة لهذا فى الاشتراك فى الإدارة والحرب ، ومن أمثلتهم : سعد بن عبادة بن دليم ، والحباب بن المنذر ، وبعضهم لم تطمح نفسه للرياسة لأنه لم يكن يهتم بها كما رأينا فى موقف بشير بن سعد والأحداث على أى حال سارت بسرعة كبيرة لم تسمح لأبى بكر وعمر بإعادة النظر ومحاولة استرضاء الغاضبين من زعماء الأنصار ، خاصة وقد وعد أبو بكر فى السقيفة أن يكون الأمر بين المهاجرين والأنصار قسمة عادلة بحق النصف ، وألا يُفتاتون بمشورة ولا تُقضى دونهم الأمور ، وكان يُرْجَى من أبى بكر أن يسعى إليهم ويترضاهم ويعطيهم نصيباً من القيادة ، ولكن ظروف حرب الردة لم تسمح بذلك فيما يبدو ، وما دمنا لا نملك تفاصيل يُعتمد عليها فى معرفة حقيقة ما جرى أثناء اختيار قيادات جيوش الردة ، فلنكتف بالقول بأن الأنصار تُركوا جانباً فلم يكن لهم نصيب من القيادات ، وإن كان لهم الحظ من الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله .

وربما كان الأفضل لأمة الإسلام لو أن الأمور جرت على ما قَبِله المهاجرون والأنصار معاً يوم السقيفة ، من أن يكون الأمر شورى بين رؤساء المسلمين من

(١) المصعب الزبيرى ، نفس المصدر ص ٤١٩ .
(٢) المصعب الزبيرى ، نسب قريش ص٣١١ .

مهاجرين وأنصار كما كان الأمر أيام رسول الله ﷺ ، فقد كان الرسول نبى الجماعة وهاديها ورأسها ولكنه لم يكن يفضل أحداً على أحد . والقيادة كانت جماعية تقوم على الشورى ولو ظلت قيادة الأمة جماعية يتولاها جماعة من الصحابة ، فلا تكون مهمة رئيسها إلا تنفيذ ما يستقر عليه أمر الجماعة ، لكان هذا أسلم لأمة الإسلام وأسلم لقريش كذلك ، فإن انفراد قريش بالأمر حمَّلها من الأمر جسيماً وفرض عليها مسئولية فرحت بها أول الأمر ، ولكنها لم تلبث أن ناءت بعبئها وكانت فيها نهايتها .



قُرَيش
تَفقد قيادَة أمّة الإسْلام

قُريش وَالرياسَة فى أمّة الإسلام :

هكذا عادت قريش إلى رياسة أمة العرب ودولتهم ، لقد روينا خبر بداية الاستيلاء على السلطان وبقية الخبر لا نجد صعوبة فى تتبعها خلال خلافة أبى بكر وعمر ، ولقد بدأت عملية سيطرة قريش على مصائر أمة الإسلام وكأنها مصادفة ، نتيجة لما كان من إهمال أُولى الأمر للأنصار ، ولقد أبدى أبو بكر يوم السقيفة ذكاء بعيداً وحُسْنَ تصور لمسيرة الأحداث بعد موت الرسول ﷺ ، ومن الواضح أن أبا بكر أنقذ الأمة من التفرق فى هذا الظرف العسير ، ثم دل بعد ذلك على حكمة بالغة فى مواجهته لحركة الردة وقضائه عليها بسرعة لا تكاد تصدق ، وما إن رأى أبو بكر حماس الناس فى الحجاز وما حوله للاشتراك فى الدفاع عن أمة الإسلام حتى أسرع فى تكوين الجيوش وإقامة القواد دون نظر إلى استرضاء غاضب أو استقدام عازف عن القيادة ، ولم تكد حروب الردة تنتهى ، حتى دفع أبو بكر العرب فى حروب فارس والروم .

وقد رأينا فى الفقرة السابقة حسن بلاء الأنصار فى حروب الردة ، فكيف لو كان لهم من القيادة النصيب الذى يستحقونه على أساس قول أبى بكر أن يكون الأمر قسمة بين المهاجرين والأنصار كشق الأُبْلُمَةِ[1] ولكن الأمور سارت فى طريقها المقدر ، ولقد كان أسامة فاتح باب الفتوح بالتوفيق الذى بلغه فى مسيره إلى أُبْنَى من بلاد بلقاء الشام كما أمره رسول الله ﷺ ، وقد كان حرص أبى بكر على إرسال بعث أسامة عظيماً ، وكانت فرحته عظيمة بعودته أيضاً ولكن يستوقف النظر أن أبا بكر لم يجعله على شيء من فتوح الشام ، بل كان أول من اختاره لقيادة بعث إلى الشام رجلاً صالحاً من أبناء أبى أحيحة سعيد بن العاص ، وهو خالد بن سعيد ، وهو من قدماء

---

(١) الأبلمة : هى الخُوصة . وذلك لأنها تؤخذ فتُشقُّ طولاً على السواء . أى : نحن وإياكم فى الحكم سواء .

المسلمين وصالحيهم ولكنه لم يشارك فى شيء من نشاط المغازى ولم يكن خالص النية فى بيعة أبى بكر إذ أنه تأخر عنها وقال كلاماً ساء أبا بكر وعمر خاصة ، ولكنه يتولى رغم ذلك البعث الأول الذى بعث به أبو بكر إلى الشام ، ولقد طلب إليه أبو بكر أن ينتظر بمن معه عند مؤتة ليكون رِدْءً للقوات التى سيبعث بها ، ولكن خالداً تسرَّع وأوغل فى بلاد الروم حتى بلغ مرج الصفَّر جنوب شرق دمشق وهناك دهمه الروم وهزموا جيشه وفرَّ هارباً بحشاشة نفسه ، ليشترك بعد ذلك فى جيش يزيد بن أبى سفيان ويستشهد فى معركة أجنادين .

وإنه لما يستوقف النظر أن يختار أبو بكر ستة قواد : اثنين منهم لفتح العراق هما خالد بن الوليد وعياض بن غنم ، وأربعة لفتح الشام هم : يزيد بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وشرحبيل بن حسنة ، فإذا فهمنا تفضيل أبى بكر للخمسة الأُوَل فأىّ فضل على أسامة بن زيد يكون لشرحبيل بن حسنة ، وهو صحابى فاضل ولا شك ، ولكن لم تكن له سابقة قيادة ولا دربة حرب وهو على عظيم فضله كان مولى حليفاً لبنى زهرة ، ولا ندرى كيف أخذه أبو بكر وترك أسامة فلم يظفر بقيادة إلى أن مات .

ولكن الأمور تتجه فى أمة الإسلام اتجاهاً ينتهى بالرياسة إلى بنى أمية ولن ندخل فى تفاصيل ذلك فهو معروف شائع فى الكتب جميعاً ، ولا حاجة بنا فى هذه الدراسة إلى الدخول فى تفاصيل فتنة عثمان وما تلاها من الأحداث الجسيمة ، التى ألقت بزمام الأمور فى النهاية فى يد بنى أمية بقيام الدولة الأموية فى دمشق فى عام الجماعة سنة ٤١هـ/ ٦٦١م . لا مفر لنا من الإيجاز الآن وإلا استطال البحث إلى ما لا نهاية ونحن هنا ندرس تاريخ قريش لا تاريخ الإسلام كله ، وحسبنا فى ذلك تعيين الاتجاهات العامة والمراحل الحاسمة فى تاريخ قريش بعد الإسلام .

ودون دخول فى التفاصيل نستطيع أن نقول إنه عندما توفى عمر بن الخطاب كان معاوية بن أبى سفيان أقوى رجال الدولة ، وأكثرهم مالاً وأعظمهم ولاية . والظاهرة معروفة من قديم الزمان ألَّف فيها المقريزى كتابه المسمى بـ « النزاع والتخاصم فيما

بين بنى أمية وبنى هاشم » ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن عمرو بن العاص عامل مصر حليف معاوية وصاحبه وسليل بنى سهم بن هصيص حلفاء بنى أمية فى حلف لعقة الدم أعداء حلف الفضول وأصحابه تبيَّنا أن جبهة معاوية وعمرو أى جبهة الشام ومصر كانت أقوى جبهة وأغنى فى دولة الإسلام عند موت عمر بن الخطاب ، ولقد زاد معاوية قوة فى الشام خلال خلافة عثمان ، وازداد جمعه بانضمام عمرو بن العاص إليه ، ومن الواضح أن تطور الأمور على هذا النحو يرجع إلى أن معاوية وبنى أمية وأحلافهم كانت تغلب عليهم من أول الأمر نزعة السياسة والاتجاه إلى القوة والرياسة ، وهذا ظاهر فى حالة عمرو بن العاص من أيام الرسول ﷺ ، وظاهر فى حالة معاوية بن أبى سفيان الذى لبس ثياب رجال الملوك واتخذ هيئتهم وزعم لعمر ابن الخطاب أن هذا مجرد مظهر وأنه يتخذه لتكون له هيبة فى قلوب المحكومين ورهبة عند الأعداء ، ومن بادىء الأمر أخذ معاوية يستدعى آله ويسند إليهم الأمور ويعطيهم الأموال ، واستشرى الأمر فى أيام عثمان عندما أخذ معاوية يغدق الأموال على الجند ورؤسائهم خاصة ، حتى اصطنعهم وصاروا رجاله .

أما بنو هاشم فقد حافظوا على الاتجاه الدينى الذى عرفوه فى أيام الرسول ﷺ وخليفتيه أبى بكر وعمر ورأسهم فى ذلك على بن أبى طالب ، وكان عمر قد اشتد مع الناس وحملهم على الجادة حتى تعبوا من حكمه واستطالوا أيامه - كما يقول المؤرخون - وفى أثناء اجتماع أهل الشورى رفض علىّ ما اشترط عليه عبد الرحمن بن عوف التزام طريق الشيخين ، فلم يوافق على ذلك ، لا لأنه كان لا يرى ذلك ، بل لأنه وهو من أكابر أصحاب رسول الله وأهل العلم والفقه فى الإسلام ، يريد أن يحتفظ بشخصيته المستقلة فتحوَّل عنه عبد الرحمن بن عوف إلى عثمان بن عفان ، وكان يعرف مقدماً أن عثمان سيقبل ، وكانت الغالبية لا تريد رجلاً يسير فيهم فى شدة عمر ، وأجس على بن أبى طالب بذلك ، ويُؤْثَر عنه أنه قال : إن قريشاً تكرهنى لا كرهاً فىّ ، وإنما رغبة فى أن يصيبوا شيئاً من غنى العيش الذى اجتمعت لهم أسبابه .

وكأنما كان علىٌّ يريد أن يمسك بِقَرْنى ثور ضجر من النِّير[١] وأحب أن ينطلق .

---

(١) النير : الخشبة التى تكون على عنق الثور بأداتها للحراثة . لسان العرب .

ولم يكن يستطيع بداهة أن يقف فى وجه التيار وحده . وخسر المعركة السياسية وإن لم يخسر العسكرية ، وكان من الممكن أن يفىء الناس إليه من جديد ، ولكن الموت الغادر عاجله فانفسح المجال أمام معاوية ، وخلا له الميدان وكانت الحرب قد طالت والفتنة قد ثقلت وطأتها على الناس ومالت بهم أنفسهم إلى المسالمة وخاف الصلحاء على مصير الأمة من استمرار الفتنة ، ثم إن مكاسب السياسة وسلطان الرياسة لم يكونا عندهم بشىء يُذْكَر ، إذا اقتضى الأمر الحفاظ على وحدة الأمة .

وكان صلحاء الناس قليلين ، أما الغالبية فتسارعت إلى طلب الدنيا وحازوها وأصبح فى استطاعة معاوية أن يعطيهم منها ، فاستقام له الأمر وأصبح صاحب السلطان المطلق فى دولة الإسلام ، وما دام معاوية ومن انضم إليه من طلاب السلطان قد ملكوا زمام القوة ، فلم تكن لهم القدرة على الوقوف عند الحد المأمون بعد أن ذاقوا طعم السلطان المطلق وأصبح عمادهم الوحيد على القوة ، ولم يَعُدْ لبنى أمية أنصارهم صبر على المخالفة ، فجرى القتل ظلماً على الناس وبعد مقتل حُجْر بن عدى وأصحابه قال القائل : لا زالت العرب تقتل بعد ذلك أبداً . ومن مصرع حُجْر إلى مصرع الحسين وآله رضى الله عنهم خطوة ، والسلطان غلاب ونشوته تطيش لها العقول وتضل البصائر ، وطريق الدم بلا نهاية فغرق بنو أمية - سفيانيون ومروانيون - فى الدماء وسالت دماء الخوارج وقُضى على كل معارض .

وبعد استشهاد الحسين تحرك الندم فى قلوب الكثيرين من المسلمين ، وبدأوا يتجمعون تحت راية الدعوة لآل على فاشتد حماس الناس للدعوة الهاشمية وصارت ناراً تحت الرماد ، وأصبحت الهاشمية لواء يستظل به كل راغب فى العدل وكاره للمُلْك العضوض ، وثاب نفر من الأنصار المنهزمين إلى رشدهم وتصدوا لبنى أمية فأكلتهم السيوف فى وقعة الحرة يوم الأربعاء ٢٨ ذو الحجة سنة ٦٣هـ ، وما كان حواراً بين فريقين من أسرة واحدة تحت سقيفة بنى ساعدة ، تحول إلى إقصاء عن السلطان للمغلوبين من الأنصار بعد فوز القرشيين ، ثم أصبح اليوم مذبحة .

ففى يوم الحرة كانت نهاية القوة السياسية للأنصار فى قلب الدولة ، فتفرقت بقيتهم فى الأمصار ووجدوا عند الناس كرامة ومحبة ، ففيهم الكثير من الصحابة

والتابعين ، وكانت من بينهم بيوت لها شأن ، فَعَلا شأنها فى الأمصار وخاصة فى مصر والمغرب والعراقين وخراسان ، وانضم إليهم فى خراسان حلفاء بيت على بن أبى طالب وأحلاف الرسول من خزاعة وأسلم ، وتجمعت تلك القوى كلها فى خراسان وفى ساحة السياسة كان الفوز للأمكر والأدهى ، أما فى ساحة الحرب فكان النصر للأقوى فآلت الخلافة إلى العباسيين بعد ثورة داخلية عربية فى مجموعها ، فقد كان الصراع بين عرب وعرب ، وما كان الموالى إلا مرجحين للكفة واختيار أبى مسلم لقيادة الجبهة العباسية كان حيلة ، وأبو مسلم كان مجرد راية لم تلبث أن تحطمت وخلص السلطان لبنى العباس ، فى حين بدأت الدعوة الشيعية تتحول إلى لواء يتجمع حوله الداعون إلى العدل والراغبون فى التفكير عما أصاب آل البيت بردِّ الأمر إليهم . وسرت دعوة آل البيت فى جماهير الناس ولقيت منهم قبولاً عاماً ، فالمعتدلون الذين وقفوا عند الميل العاطفى والبعد عن العنف صاروا هاشميين فى عواطفهم واتجاهاتهم، وأما المتحمسون والمتطرفون والمغامرون وطلاب السلطان ، فقد تخطوا نطاق العاطفة وطلبوا السياسة والقوة عن طريق تنظيمات مستورة ، لم تلبث أن تحولت إلى ما يسميه بعض المؤرخين أنه أكبر مؤامرة فى التاريخ يريدون بذلك الدعوة الفاطمية .

نهاية الوحدة القرشيّة :

فى غضون ذلك ماذا أصاب قريشاً ؟

الذى أصابها أنها انتهت كوحدة قبلية ومجتمع صغير متماسك بقوة العصبية ووضوح الهدف والغاية ، وقد ذهب ابن خلدون إلى أن القبيلة « أو حلف القبائل » إذا وصل إلى السلطان وتحول إلى دولة انحلت قوته وضعف بنيانه بضياع العصبية وغلبة الترف على رجالهم واستنامتهم إلى مهاد الدعة والترف ، وهذا كلام لا يَصْدُق إلا على الأحلاف القبلية الضخمة مثل حلف قبائل صنهاجة الجيل الأول الذى أقام دولتى بنى زيرى فى المغرب الأوسط فى النصف الثانى من القرن الهجرى الرابع ، وحلف صنهاجة الجيل الثانى أو صنهاجة الصحراء الذى أقام دولة المرابطين فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، وحلف قبائل مصمودة الذى أقام دولة

الموحدين فى القرن السادس الهجرى ، لأن هذه جماعات قبلية ضخمة جداً تقيم الدولة بسواعد رجالها وتبقى منها بعد ذلك جماعات ضخمة تتولى السلطان وتنتقل من البداوة إلى الحضارة وتتأثر طبائع أفرادها بهذا التحول ، ومثلها فى ذلك مثل قبائل الأتراك السلاجقة وقبائل الأتراك العثمانية ، فكلا هاتين القبيلتين أقام الدولة ، ثم تولى من بقى منهم وهم كثيرون أمورها واستمتع بثمراتها ، وأدى بهما هذا الاستمتاع إلى الضعف ثم التدهور والضياع .

ولكن قريشاً كانت قبيلة صغيرة جداً ، وهى لم تُقِم الدولة بنفسها ، بل أقام الدولة غيرها ، وهيأت لها الظروف سبيل الوصول إلى السلطان فى دولة الإسلام بفضل ما كان عليه قادتها من الميل إلى السياسة والسعى نحو القوة ، ولقد كان القرشيون فى الجاهلية تجاراً مهرة أو بارعين فاتسعت أذهانهم وعظمت أحلامهم وتدربت أو تعودت على معاملة الناس وسياستهم بتدبير شئون المال لهم ، وربطوا ذلك بالحج وشئون الديانة الوثنية ، فجعلوا مكة محجاً للعرب أجمعين ، واستفادوا من نظام الأسواق ليجعلوا أسواقهم فى الحجاز فى موسم الحج . ونهاية العام القمرى مجمع العرب ومصبّ أموالهم ، فنالوا بذلك رياسة فكرية دينية مالية ، ولكنهم لم يتجهوا فى الجاهلية إلى طلب الرياسة السياسية فى شبه الجزيرة ، لأن الرياسة السياسية فى تلك العصور ما كانت لتتم إلا بالقوة العسكرية ، وكانت قريش أقلَّ حجماً وأضعف قوة من الوصول إلى ذلك .

ثم وقفت قريش من الإسلام موقفها الذى فصّلناه ، وفى أثناء صراعها مع الإسلام انقسمت قسمين : صغير دخل فى الإسلام وكبير عاداه ، مما أضعف قواها ، واستطاع سادتها الوثنيون المحافظة على سيطرتهم على مكة ، وظلت كتلة القبيلة متماسكة فيها حتى فتح مكة ، فدخلت بقية قريش الإسلام دفعة واحدة عند الفتح كما رأينا .

وقد خسرت قريش فى صراعها مع المدينة رياستها الدينية ، وعلى الرغم من بقاء الكعبة محجّاً لمن استطاع الوصول إليها من العرب ، فإن الرياسة الدينية انتقلت إلى المدينة بفضل الإسلام ، وابتداء من عمرة القضاء أو عمرة القضية انتقلت الكعبة إلى

الإسلام ، وفقد القرشيون جاههم الدينى ، وتلاشى هذا السلطان الدينى عند فتح مكة ودخول الكعبة أمة الإسلام ، وتحول الحج من حج وثنى إلى حج الإسلام فتلاشى بذلك إلى غير رجعة عماد القوة الرئيسى الذى أقام عليه عبد المطلب جاه قريش . وفى أثناء الصراع مع أمة الإسلام فقدت قريش معظم أموالها ، وفقدت بذلك عماداً من أقوى عُمُد قوتها وجاهها .

وقد أعاد الرسول صلوات الله عليه وحدة قريش وأدخلها كلها فى الإسلام جملة . وبعد وفاة الرسول مباشرة ونتيجة لما وقع فى سقيفة بنى ساعدة حدث أول انكسار خطير وعميق فى وحدة قريش بعد الإسلام ، لأن الاتجاه إلى إبعاد على بن أبى طالب وبنى هاشم عن السلطان أحدث صدعاً خطيراً فى كيان قريش ، ولم يظهر ذلك الصدع فى صورته الخطرة أيام أبى بكر وعمر ، ولكنه ظهر فى خلافة عثمان .

فتنة عُثمان

ثورَة مِن جماعات كبيرة مِن العَرب عَلى رياسة قريش :

والذى ظهر فى خلافة عثمان يمكن اعتباره على وجه من الوجوه ثورة من العرب على قريش ، لأن أقواماً ضخمة من العرب خاضت معارك القتال فى حروب الردة وفى الفتوح ، واستشهد منهم ألوف ولكن الرياسة ظلت دائماً بيد قريش . ولنذكر الألوف الذين استشهدوا فى معارك فتح العراق ، ويكفى هنا أن نذكر معركة الجسر فى شعبان ١٣هـ/ ٢٢ أكتوبر ٦٣٤م التى استشهد فيها أربعة آلاف عربى جلُّهم من ثقيف وشيبان وتميم ، وفُقِد أربعة آلاف آخرون من نفس القبائل ، وكان من بين الشهداء رجل مثل أبى عبيد بن مسعود الثقفى الذى هجم وحده على الفيل وضرب خرطومه وبرك عليه الفيل فقتله ، وقد ظل عمر يبكى إلى آخر حياته كلما ذكر أبا عبيد .

وحتى فى معركة البويب (رمضان ١٣هـ/ نوفمبر٦٣٤م) التى أخذ المسلمون فيها بثأرهم وانتصروا على الفرس ، كانت ضريبة الدم التى دفعوها باهظة من القبائل التى ذكرناها مضافاً إليهم بجيلة وكنانة والأزد وتنوخ ، وهذه القبائل هى التى تحملت

معظم الخسائر – فى هذه المعركة – ولم تخسر قريش إلا أعداداً لا تُذكر . فقد كانت لها فى معظم الأحوال الرياسة والنصيب الأكبر من المغنم ، ويكفى أن نذكر ما أصاب المثنى بن حارثة الشيبانى ، فقد كان هذا الرجل – مهما قلنا فى كفايته العسكرية – قريباً جداً من المثل الأعلى الإسلامى إخلاصاً وصدقاً وتفانياً وإيثاراً ، ثم يُعزل ويحل محله قرشى ويُهمل دون أى تعويض .

ولكن قيادة قريش كانت مُوفَّقة رغم إنكار جماعات من العرب لرياستها فتمَّ فتح العراق وهزيمة الفرس وفتح الشام ، ولكن معظم الفضل يرجع إلى الجنود البواسل الذين خاضوا هذه المعارك وجادوا بدمهم دون تردد ، ولقد أشرنا إلى عظيم فداء الأنصار فى حروب الردة لكى يُكتب النصر كله لخالد بن الوليد ، ويكون منه بعد ذلك ما يكون .

ولم يكن العرب الذين خاضوا هذه المعارك لينفسوا على قريش مكانة ولا رياسة ولا مالاً ، ما دامت الفتوح الكبيرة فى طريقها ، والمشارك فيها يغنم بعد رضا اللّه وعظيم ثوابه مغانم وافرة ، فمن أدرك ثواب الآخرة فطوبى له ، ومن عاش وجد عنده مالاً وافراً ينفق منه عن سعة ، وقد قُدِّر دخل المقاتل العربى العادى خلال العصر العمرى بثلاثة آلاف دينار فى العام ، فتعوَّد هذا الجندى الإنفاق عن سعة ، وأحس أنه سيجد عوضاً طيباً من خيرات الدنيا إذا أنسأ اللّه فى أجله ، فأنفق على أهله عن سعة وأغناه ذلك عن النظر إلى السلطان أو السياسة ، فتركها لأهلها من قريش ومَنْ ارتضتهم قريش معها فى الرياسات وتدبير الأمور .

وكان أبو بكر الصديق قد ساوى بين الناس فى تقدير الأرزاق والأعطيات ، وقال قولته المشهورة : هذا معاش والتسوية فيه أحسن ، ثم جاء عمر وله نظرة أخرى ، فأعاد تقدير الأرزاق بحسب السابقة فى الإسلام والقرابة من رسول الله ﷺ ، فاختلفت حظوظ الناس ، وجاءت أرزاق من أسلموا عند الفتح وعام الوفود وما بعد ذلك قليلة ، فلا سابقةَ لهم فى إسلام ولا قرابة من رسوله . ولم ينتبه أحد إلى ذلك فى حينه ، فقد كانت الغنائم وافرة والوارد كثيراً وعرب تميم وشيبان وبكر والأزد وبقية

اليمن ومن إليهم لم يشعروا بالتفاوت فى الأرزاق ، لأنها مهما بلغت كانت قليلة جداً بالنسبة إلى مغانم المحاربين من الأسلاب والأخماس .

ولكن الأمر بدأ يتغير من منتصف خلافة عثمان ، فبعد معركة نهاوند لم تعد هناك مغانم ذات بال ، فقد انتهى العرب إلى آخر المدائن الغنية فى فتوحهم ، سواء فى الشرق أم الغرب . ففى الشرق وجدوا أنفسهم مشتبكين فى حروب مع جماعات قبلية من إيرانيين وأتراك وفى الغرب لم تكن هناك وراء إفريقية بلاد فيها ملوك أو قصور أو أموال ، إنما هى قبائل متأبدة فى الجبال وغاية ما يكون منها ماشية وسبى ، والماشية لا تجد من يشتريها . والسبى أين يباع ؟ ولم يكن العرب قد عزموا على فتح بلاد دولة الروم فى آسيا الصغرى ليجدوا مغانم ذات قيمة ، ومنذ السنوات الأولى لخلافة عثمان انحسرت موجة الغنائم الوافرة ، والعربى بطبيعته متلف للمال ، فهو لم يدخر شيئاً ، وفجأة وجد أن الفيض قد غاض ، وهنا بدأ يتنبه إلى قلة نصيبه من الأرزاق وهى المرتبات .

هذا هو الذى حرَّك الناس للفتنة على عثمان ، ولكن تلك الحركة ما كانت لتبلغ المبلغ الذى بلغته لولا ما أصاب قريشاً نفسها من تفكك ، ومع التفكك ضاعت الهيبة ، ومن هنا تجرأ الناس على قريش والخليفة القرشى . ولقد كانت قريش تحكم الناس وتجد عندهم الطاعة والتسليم إلى آخر أيام عمر بن الخطاب ، لأن القرشيين كانوا إلى ذلك الحين قوة معنوية كبرى تنحنى لها جباه أغنى العرب وغير العرب .

وقد روى الطبرى بإسناد مختلط خبراً من فتوح أرمينية يبدو لنا وكأنه رمز على ما نقول ، فقال بعد أن دخل عبد الرحمن بن ربيعة وسراقة بن عمرو بلاد أرمينية ، أن المسلمين اجتازوا الباب من هناك أى باب أرمينية فى جبال آذربيجان ، فتعرض لهم ملك الناحية وكان فارسياً يسمى شهر براز : وسأل قائدهم : ما تريد ؟ قال عبد الرحمن بن ربيعة : أريد بلنجر وهى عاصمة أرمينية ، قال شهر براز : إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب ، قال عبد الرحمن بن ربيعة : لكنَّا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم فى ديارهم ، وتالله إن معنا لأقواماً لو يأذن لنا أميرنا فى الإبعاد لبلغتُ بهم الروم قال : وما هم ؟ قال : أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا فى هذا الأمر ، بِنِيّة ،

كانوا أصحاب حياء وتكرم فى الجاهلية فازداد حياؤهم وتكرمهم ، فلا يزال هذا الأمر دائماً لهم ، ولا يزال النصر لهم حتى يغيرهم من يغلبهم ، وحتى يلفتوا عن حالهم بمن غيّرهم ، فغزا بلنجر غزاة فى زمن عمر لم تئم فيها امرأة ولم ييتم فيها صبى وبلغت خيله فى غزاتها « البيضاء » على رأس مائتى فرسخ من بلنجر . ثم غزا فسلم ، ثم غزا غزوات فى زمن عثمان ، وأصيب عثمان حين تبدل أهل الكوفة فى إمارة عثمان لاستعماله من كان ارتد استصلاحاً لهم[1] فلم يصلحهم ذلك ، وزادهم فساداً أن سادهم مَنْ طلب الدنيا وعضَلوا بعثمان حتى جعل يتمثل :

وكنت وعمراً كالمسمِّن كلبه فَخَدَشه أنيابه وأظافره »[2]

أما سر هذا السلطان المعنوى العظيم الذى كان لعمر فهو إخلاصه البالغ للإسلام والمسلمين ، وجمعه قريشاً تحت جناحه وأخذه بحجزها حتى لا تقع بين رجالها الفتنة فتضيع ، والأخبار فى هذا أكثر من أن تُحصى ولكِنْ ها هنا خبران أسوقهما مما فعل عمر وأبو عبيدة فى عام الرمادة وهو عام ١٨ للهجرة ، وقد أصابت أهل المدينة مجاعة وشدة . قال الطبرى بإسناده « أصابت الناس فى إمارة عمر رضى الله عنه سنة بالمدينة وما حولها فكانت تسفى إذا ريحت [3] تراباً كالرماد ، فسمى ذلك العام عام الرمادة فآلى عمر ألّا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيا الناس من أول الحيا « المطر » ، فكان بذلك حتى أحيا الناس من أول الحيا ، فقدمت السوق عُكة من سمن ووَطْب من لبن فاشتراها غلام لعمر بأربعين درهماً ثم أتى عمر فقال « يا أمير المؤمنين ، قد أبر للّه يمينك وعظم أجرك . قدم السوق وطب من لبن وعُكَّة من سمن فابتعتها بأربعين، فقال عمر : أغليت بهما فتصدق بهما فإنى أكره أن آكل إسرافاً ، وقال عمر . كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يُعنينى ما يمسهم ؟ »[4] .

وإليك الخبر الثانى الذى يعطيك مثالاً آخر بليغاً من علو طبقة القرشيين الذين تولوا أمر الناس بعد رسول الله ﷺ ، وعرفوا كيف يرتفعون بقريش ويؤكدون للناس

---

(١) يريد مروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن على شاكلته ممن أساءوا إلى عثمان وهبطوا بسمعة قريش .
(٢) الطبرى ، تاريخ ٤/ ١٥٨ .
(٣) أى : تهب عليها إذا هبت الريح .
(٤) الطبرى ، تاريخ ٤/ ٩٨ .

- بخلقهم لا بسلطانهم - أن قريشاً جديرة بقيادة العرب فى نور الإسلام ، وقد عرف رجالها كيف يتمثلون أخلاقيات الإسلام ويضربون المثل العظيم للقيادة الإسلامية الرشيدة ، وبهذا المثال قامت قريش بعد عثرتها وعرفت كيف تستعيد مركزها فى أعين العرب ، قال الطبرى بإسناده : « كتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم (فى عام الرمادة) فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة عامر بن الجراح فى أربعة آلاف راحلة من طعام ، فولاه قسمتها فيمن حول المدينة ، فلما فرغ ورجع إليه أمر له بأربعة آلاف درهم ، فقال : لا حاجة لى فيها يا أمير المؤمنين ، وإنما أردتُ الله فلا تُدْخِل علىَّ الدنيا ، فقال : خذها ، فلا بأس بذلك إذ لم تطلبه ، فأبى فقال : خذها فإنى قد وَلِيت لرسول الله ﷺ مثل هذا ، فقال لى مثل ما قلت لك ، فقلت له كما قلت لى ، فأعطانى ، فقبل أبو عبيدة ، وانصرف إلى عمله وتتابع الناس واستغنى أهل الحجاز وأُحيوا من أول الحيا »[1] .

بمثل هذا الخلق الرفيع والتهمم بشئون الناس أصبحت قريش إلى آخر خلافة عمر سيدة العرب وقائدة دولة الإسلام الناشئة ، وزاد فى جاه قريش أن معظم قادة الفتح كانوا منها ، فإلى جانب أسماء كبار الفاتحين الأُوَل ، أبى عبيدة عامر بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، ويزيد بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، وسعد بن أبى وقاص ، برزت أسماء عبد الله بن عامر بن كريز « من بنى عبد شمس » وعياض بن غنم بن زهير الفهرى ، وعبد الله بن سعد بن أبى السرح ، ونافع بن عبد القيس الفهرى ، ثم ابنه عقبة بن نافع وأضرابهم ممن أثبتوا دون مجال للشك أن قريشاً هى قاعدة العرب ومناط وحدتهم ورمز مجدهم .

وإلى هذه الفترة يرجع تميز قريش على غيرها من قبائل العرب فى القيادة والسياسة والحرب ، ولم يؤكد هذه المعانى أحد كما أكدها عمر بن الخطاب ، فإلى جانب مزاياه العديدة المعروفة للناس تميز عمر بشعور عربى غالب ، فكان يرى أن العرب أياً كانت قبائلهم أهل العز والشرف والسؤدد وقاعدة الإسلام ، وهو فى هذا الاتجاه يسوى بين العرب جميعاً ، فهو الذى أيد المثنى بن حارثة الشيبانى وأشاد به ، وهو الذى اختار أبا

---

(١) الطبرى ، نفس المصدر والجزء ص٩٨.

عبيد بن مسعود بن عمر الثقفى ، وسعد بن عبيد الأنصارى حليف بنى فزارة لقيادة بعض القوات الذاهبة إلى العراق ، بل جعل أبا عبيد بن مسعود بن عمرو قائداً للجيش .

وعندما خاطبه الناس فى ذلك وقالوا له : أَمِّر عليهم رجلاً من السابقين من المهاجرين والأنصار ، كان جواب عمر : « لا والله لا أفعل ، إن الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو ، فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء ، فأَوْلَى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع ، وأجاب إلى الدعاء ! والله لا أُؤمِّر عليهم إلا أولهم انتداباً ، ثم دعا أبا عبيد وسليط (بن قيس) وسعد (بن عبيد الأنصارى حليف بنى فزارة) فقال : أما إنكما لو سبقتماه لوليتكما ولأدركتما بها إلى ما لكما من القدمة . فأمَّر أبا عبيد على الجيش وقال لأبى عبيد : اسمع من أصحاب النبى ﷺ وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف »[1] وبمثل هذا الإنصاف والفهم وروح الأبوة والرياسة ساس عمر الناس ، وتأكدت بعد أبى بكر أهلية قريش للرياسة واستمر علو شأنها ، ولم يتطاول على منافستها أحد ، وكان عمر أيام الرسول شديد العصبية لقريش ، ولكنه عندما تولى الخلافة نسى عصبيته القرشية وانتقل بحماسة إلى العرب جميعاً .

ولكن قريشاً لم تستمر على هذه الخطة ، لأن استمرارها كان يتطلب رجالاً من طراز أبى بكر وعمر ، وكان رجل من هذا الطراز موجوداً وهو على بن أبى طالب ، ولكن التيارات داخل جماعة الشورى التى اختار رجالها عمر بن الخطاب انتهت بالخلافة إلى عثمان بن عفان ، وكان صحابياً جليلاً ومؤمناً عظيماً ، ولكنه لم يكن بطبعه مؤهلاً لقيادة الأمور فى الظروف الصعبة التى تولى فيها ، فالفتوح فى طريقها وقبائل العرب فى حركة دائمة داخل الدولة ، وكانت السيطرة على حركة الفتوح والهجرة الواسعة النطاق تحتاج إلى يقظة بالغة وإدراك دقيق لحقائق المناسبة التى كانت أمة الإسلام تعيشها إذ ذاك ، ولسنا هنا بسبيل نقد أعمال عثمان أو إبداء الرأى فى سياسته وطريقته فى اختيار رجاله وعماله والحكم على تصرفات أولئك الرجال ، ولكننا ننبه

---

(١) الطبرى ، تاريخ ٣/ ٤٤٥ .

إلى أثر ذلك كله فى ظهور الفتنة فى منتصف خلافته ، ثم اتساع مداها بعد ذلك حتى أدت إلى قتله فى ١٧ ذى الحجة سنة ٣٥هـ/ ١٦ يونيو ٦٥٦م ، وهو حادث بالغ الخطورة والأثر فى مسار تاريخ الإسلام وتاريخ قريش .

ولن ندخل هنا فى تفاصيل ما حدث ، فهذا يخرج عن نطاق هذا البحث من ناحية، ثم إنه يدخل بنا فى مناقشات ومتاهات لابد للتعرض لها من قراءة سليمة مستوفية للنصوص ، وهنا ليس موضع هذه الدراسة ، إنما سيكون موضعها كتابنا عن على بن أبى طالب إذا مدَّ الله فى العمر ويسَّر الأسباب .

والذى يعنينا هنا ونحن نؤرخ لقريش ، هو أن الذى حدث - أياً كان الرأى فيه - أضرَّ بقريش فى جملتها ضرراً بالغاً : أضر بالهاشميين وبالعبشميين كما أضر بالوحدة القرشية لأن قريشاً استمدت قوتها وهيبتها - وعليها قام سلطانها بعد الرسول ﷺ - من وحدتها وظهورها أمام العرب جبهة واحدة تملك القيادة وتسير بها فى الطريق السوى كما حدث أيام أبى بكر وعمر ، فالذى حدث الآن هو أن وحدة قريش تصدعت ، وبصرف النظر عمن كان على حق ومن لم يكن فى الحوادث التى سبقت مقتل عثمان، فإن أمر الخلاف بين عثمان ونفر من الصحابة ، وإنكار هذا النفر لمسلك عثمان أوجد الطريق للكارهين لسيادة قريش من العرب لكى يرفعوا رؤوسهم فى وجهها والجرأة عليها .

وقريش كانت رئيسة العرب بعد الإسلام وحتى لو كانت رياستها سليمة عادلة ومنصفة ، فإن الرياسة فى ذاتها تخلق الخصوم والأعداء وخاصة فى نفوس العرب ، وهم قوم أهل أنفة وكبرياء يعسر عليهم الانصياع بعضهم لبعض ، إذ إن طمع العربى يجعله يشعر أن وجود أية رياسة عليه عدوان على شخصيته وكرامته وهذا أمر شائع فى الجماعات القبلية جميعاً ، حيث تأبى الوحدات القبلية سيادة بعضها على بعض ويحس شيوخها أن مجرد قبولهم لأى صورة من صور رياسة واحد منهم على الباقين فيه عدوان عليهم مهما كان نوع هذه الرياسة ومهما بلغ من عدلها أو استقامتها. وقد أشـار ابن خلدون إلى ذلك فى مقدمته فى حديثه عن العرب أولاً ثم عن البربر ثانياً ،

ولسنا بحاجة إلى ذكر إشارة ابن خلدون فى هذا المقام ، فتلك الحقيقة الخاصة بطبيعة القبائل ورياستها حقيقة مُسلَّم بها فى علمى التاريخ والاجتماع .

وكانت أنظار العرب كلها متجهة لقريش متحفزة لإنكار رياستها إذا وجدت إلى ذلك سبيلاً والدولة بعد ذلك حديثة والنظام جديد واندراج العرب فى نظام سياسى واحد كان شيئاً لم يألفه العرب فى الجاهلية ، وكانت أيسر وجوه التصدع فى صفوف القيادة القرشية كافية لأن تفتح الطريق أمام الكارهين لقريش والمبغضين لرياستها لتحديها ، وكانت المناقشات التى دارت بين عثمان وعِلْية الصحابة ، وما وجهوه إليه من نقد تصل إلى الناس مع ما لا بد منه من تضخيم وتشويه وتحريف ، وإذا كان كبار الصحابة أنفسهم لم يسمحوا لأنفسهم بإطلاع الناس على ما يثور بين رجال القيادة القرشية من خلاف ، فإن رجالاً من كبار الصحابة من غير قريش لم يطيقوا الصبر على ما رأوه مما تصوروه أنه انحراف عن الجادة وتحدثوا به فى أوساط الناس .

ويكفى أن نشير هنا إلى عبد اللّه بن مسعود وعمار بن ياسر وأبى ذر الغفارى، وذلك إلى جانب الكثيرين من الأنصار الذين لم يكونوا راضين عن الوضع أصلاً وهؤلاء جميعاً كان لهم عند العرب قدر ومكانة فهم صحابة أجلاء وهم فى نظر العرب الذين أسلموا عام الوفود أو بعده ، أصحاب سابقة فى الإسلام ولا يَقِلُّون عن قريش مكانة ، فإذا تكلموا فى نقد قريش وسوء تصرف بعض رجالها وما كان من انحراف عثمان فى رأيهم عن الجـادة وتركه أهل بيته يتصرفون فى شئون الدولة وأموالها ، فإن الناس يصغون لهم ويرون معهم أن قريشاً لا حقَّ لها فى هذا الانفراد برياسة المسلمين ما دام الخليفة الثالث منهم قد انحرف عن سواء السبيل .

وأسوأ من ذلك بالنسبة لمصير قريش نقد كبار القرشيين بعضهم لبعض واجتهادهم فى إظهار معايب عثمان وأخطائه وخطورة انفراد بنى أمية بقيادة أمة الإسلام ، وهؤلاء النفر من الصحابة قرشيون وغير قرشيين ، والذين تكلموا فى عثمان وآل بيته كانوا فى الحقيقة يُضعفون من شأن قريش جملة ويغرون الناس بها ، ويؤكدون فى أذهانهم أن إمامة الأمة تكون فى الأصلح من المسلمين قرشياً أو غير

قرشى ، وهنا نظن أنه نشأت عبارة « الأئمة من قريش » التى تحولت إلى حديث نبوى نجده مروياً فى معظم الصحاح .

والعبارة فى ذاتها لا يمكن أن تكون حديثاً نبوياً لأن رسول الله ﷺ الذى عانى ما عانى من عناد القيادة القرشية وأنانيتها ، ورأى بنفسه أن غير القرشيين كانوا أسرع فهماً للإسلام وأعمق إيماناً به من القيادة القرشية فى مكة ، ما كان ليقول الأئمة من قريش ، لا على معنى أن الإمامة هى الإمامة الدينية ، أى إمامة الصلاة ، أو الإمامة السياسية . فأما الإمامة الدينية فقد أناب الرسول عن نفسه فى المدينة عند خروجه منها إماماً أنصارياً ، أو رجلاً ضريراً من المهاجرين هو عبد الله بن أم مكتوم، وأما الإمامة بمعنى الرياسة السياسية فقد كان هَمُّ الرسول متجهاً إلى بناء المسلمين أمة وأفراداً بناء داخلياً أى : إيقاظ الضمير والإحساس بفضيلة الأمة ، وفضيلة كل فرد من أفرادها عند كل مسلم ، والقرآن يقصد إلى ذلك فى المكان الأول بتوجيهه الكلام إلى الإنسان تارة وإلى جماعة المؤمنين تارة أخرى ، لأن الغاية الأساسية هى بناء المؤمن الصحيح ، وهو أساس أمة المؤمنين القوية المتماسكة بالإيمان القائمة على وحدة الإيمان المرتبطة بحبل الله المعتصمة به ، والله سبحانه يتكفل بهدايتها إلى الطريق السوى ويُمَكِّنها من اختيار قيادتها الصالحة.

وقد حدث هذا عندما توفى الرسول ﷺ ، فإن الأمة عرفت طريقها واستقر أمرها على قيادة جماعية يرأسها أبو بكر وهو أصلحها لتولى أمورها . وأبو بكر لم يتجه إلى حكم الناس بل اتجه إلى مواصلة السير بالجماعة فى طريق الرسول ﷺ دون نظر إلى رياسة أو مظهر رياسة ، وكان الرأى للأمة أثناء خلافته ، وعلى نفس الطريق وإنما بأسلوب آخر - سار عمر ، فإن عمر لم يكن يحكم الناس ، وإنما كان يضرب المثل ويمثل القدوة . ولم يكن عمر رغم عروبته الظاهرة يتحيز لقريش ، بل لما فيه صالح الأمة ، وقد رأينا مثلاً واحداً فى اختياره لعبيد بن مسعود الثقفى للقيادة وتفضيله على السابقين من المهاجرين والأنصار ؛ لأنه كان أسرع منهم انتداباً لنفسه للحرب ، وقد فصَّلنا موقف عمر فى تلك المناسبة .

التصدّع الخطر فى القيادة القرشية :

والذى حدث عند مجىء عثمان كان شيئاً جديداً لم تَرْضَ عنه الأمة ، فلم يعد الخليفة أو الإمام قدوة فى نظر الجميع ، بل أُطلقت شكوك كبيرة حول مَلَكاته وقدراته الإدارية وكان البادئون بالشك قدماء المهاجرين والأنصار ، وهم كانوا فى مجموعهم يمثلون قيادة الأمة على اعتبار أنهم أعرف الناس بطريق رسول الله ﷺ وأقدرهم على السير فيه . أى : أنهم كانوا ممن تستمع الأمة إلى ما يقولون . ولا يهم هنا عدد الذين لم يكونوا راضين عن عثمان وإدارته من هؤلاء ، لأن المهم هو أن القضية طرحت ، والشك فى قدرات القيادة القرشية تطرّق إلى القلوب وتلقته آذان صاغية من العرب ممن كانوا على شىء من المعرفة بشئون السياسة والحكم من أمثال أزد يمامة وعبد القيس وشيبان وبكر وتغلب وغسان ، وهؤلاء جميعاً دخلوا الإسلام متأخرين سنة تسع للهجرة وربما قبلها بقليل ، ولم يكن لقريش عليهم فضل ولم يكن يبرر طاعتهم لقريش إلا إذا استطاعت قريش أن تثبت لهم أنها أصلح الفئات لقيادة أمة الإسلام . أما الآن وقد تسرب الشك إلى النفوس وتسامع الناس بما يقال من أن الخليفة القرشى عثمان يدير شئون الدولة لصالح بيته ، فإن المناخ السياسى فى الدولة بدأ يتغير ، وسواء أصدقتْ تلك الشائعات أم لم تصدق ، فالمهم أنها أصبحت مطروحة بين الناس ، وأيّدها نفر من الصحابة ، واعين أم غير واعين .

واستمع إليهم الناس ووجدت عند الكثيرين منهم قبولاً ، والدولة وسياستها كانت أموراً جديدة جداً على العرب جميعاً بمن فيهم القرشيون ، ولم يعرف أهل القيادة والقدرة أن أى كلمة منهم كان لابد لها أن تحدث صدى خطيراً فى أذهان الناس . وعمرو بن العاص مثلاً عندما كان يوجه النقد الشديد لعثمان كان لا يعرف أنه بنقده هذا يمهد لقتل عثمان ، ويكفى أن نضرب هنا مثالاً بموقف خزاعة ، وخزاعة كانت قبيلاً هاماً جداً فى ذلك الحين ، لقد كانت خزاعة قبيلة يمنية الأصول وميولها من أول الأمر كانت يمنية ، وكانت نافرة من قريش ، لأن قريشاً أخرجتها من مكة ، بل أشاع القرشيون فى الجاهلية ما شاءوا من الأقوال للإزراء بخزاعة . وأقوالهم فى عمرو بن عامر بن لحى الخزاعى الذى قيل إنه أول من غيَّر دين إسماعيل ودعا

العرب إلى عبادة الأصنام وأحفاده من بنى قُمير بن حُبْشية بن سلول ، وابنه أبو غبشان حُلَيِّل بن حبشية بن سلول الذى يقال إنه باع مفتاح الكعبة من قصى بن كلاب بزِقِّ خمر . كل هذه الأقوال التى كانت تطلقها قريش فى مجالسها عن خزاعة كانت تُحدث شدوخاً عميقة فى نفوس الخزاعيين.

خزاعة هذه التى خاصمت قريشاً بسبب ما فعلته فيها أيام قصى بن كلاب ، كسبها عبد المطلب بن هاشم إلى جانبه وثبتت بعد ذلك مع الهاشميين وقيل : إن عبد المطلب عقد معهم حلفاً وكتب كتاباً ، ثم انضمت خزاعة إلى الإسلام وأخلصت لله ورسوله وانضم الفريق الأقوى منها ، فريق بريدة بن الحصيب الأسلمى إلى رسول الله وصار من علية أصحابه ، وكان الخزاعيون من بنى كعب بن عمرو « عيبة نصح » لرسول الله ، وهم الذين دخلوا فى حلف أمة الإسلام بعد صلح الحديبية فى حين انضم بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة إلى قريش ، وكان عدوان هؤلاء على بنى كعب الخزاعيين هو الذى حرَّك مسير رسول الله ﷺ لفتح مكة ، وفى مسيره إليها لقيه بنو كعب عند قديد ، وأظهروا ما عُرِفوا به من الولاء فاعتبرهم جميعاً مهاجرين أى من قومه سواء هاجروا إلى المدينة أم لزموا مواضعهم ، وبعد فتح مكة دخل فريق عدى ابن عمرو بن عامر بن لحى بزعامة بديل بن ورقاء فى الإسلام .

وطوال أيام الرسول ﷺ فى المدينة كان بريدة بن الحصيب الأسلمى من أقرب الناس إلى على بن أبى طالب الذى كان يمثل الفرع الهاشمى بين الصحابة ، وكان صاحب لوائه فى مسيرته إلى اليمن ، وعندما صارت الخلافة لعثمان خرج بريدة بن الحصيب وقومه إلى البصرة ، وكان لهم بعد ذلك دور عظيم فى تاريخ خراسان .

هؤلاء الخزاعيون لم يرضهم عثمان ولا سياسته ، وما شاع وذاع بين العرب من تحكيمه آل بيته من بنى أمية فى رقاب المسلمين وهم معذورون إذا صدَّقوا ما ترامى إليهم وساء ظنهم فى قيادة قريش الأموية ، وكان معظم أهل الأخماس من أهل البصرة تبعاً لرأى خزاعة وسيدها بريدة بن الحصيب ، وعندما رحل بريدة ومن معه إلى خراسان كانوا قد نفضوا أيديهم من قريش بنى أمية ، وإن ظل ولاؤهم لقريش بنى هاشم ، وسيكون لذلك أبعد الأثر فى قيام الدعوة الهاشمية التى تحولت إلى عباسية على ما هو معروف .

وهذا ما كان من شأن خزاعة - نتيجة لاستبداد بنى أمية - على عظيم صلتها بقريش ، فإن خزاعة مهما كان من أمرها هى حجازية ، فما بالنا بتميم وغطفان وهوازن وبقية فروع قيس عيلان بن مضر من عرب وأعاريب ، وكلهم كانوا منكرين لمكانة قريش بين العرب ثم سيادتها للعرب برسول الله ﷺ ، بل ما بالنا بموقف من لم يكونوا مُضَريين أصلاً مثل الأزد وبقية قبائل اليمن ممن ظلوا فى منازلهم فى اليمن ونواحى الجنوب أو هاجروا منها إلى الحجاز وباديتى الشام والعراق ونجد ؟

هؤلاء جميعاً - وعلى درجة متفاوتة - أحسوا بتصدع جبهة قريش ونزعوا ثقتهم منها ، والحقيقة هى أن جبهة قريش تصدعت أثناء خلافة عثمان ، وإذا كانت قريش هى قيادة العرب أو صفوتها القائدة فإن التصدع هنا تصدع فى القيادة والرأس وهو أخطر أشكال التصدع فى الرياسات والقيادات ، وتصدع بناء الدول بالتالى . وقد تحدثنا بتفصيل فى ذلك فى كتابنا الحضارة فى مجال عرضنا لآراء المؤرخ المعاصر أرنولد توينبى عندما تعرض فى دراسته المشهورة للتاريخ لموضوع تصدع الأمم والجماعات والدول وتدهورها [1] ، وهو الذى يسميه توينبى بتصدع الصفوة القائدة وتصدع جبهة قريش وهى الصفوة القائدة والذى أدى بالضرورة إلى تصدع جبهة العرب ، وهم كانوا الفئة القائدة فى أمة الإسلام ، وأعقب ذلك بدايات تصدع أمة الإسلام جملة . وفتنة عثمان كانت بداية الصدع الخطير فى بناء أمة الإسلام ، وهو تصدع لم يرأبه أحد قط بل تزايد مع الزمن ، وكانت أولى ضحاياه قريش نفسها : هى التى انشقت على نفسها ومهّدت الطريق بذلك لضياع أمرها جملة .

ونقف لحظة عند ما ذكرناه وما يسمى عادة بفتنة عثمان ، فإن دارس التاريخ الإسلامى يعرفها ويراها فيما كان من قيام الناس على عثمان وقتله ، ثم ما كان من الحروب الأهلية بين على ومعاوية ، التى انتهت بقيام الدولة الأموية . وقيامها كان صدعاً هائلاً فى جبهة قريش وشدخاً خطيراً فى بناء أمة العرب ، لأنه أعزَّ فريقاً من قريش والعرب ، وأذل فريقاً ، وإذا كانت أمة العرب إذ ذاك من القوة بحيث لم تشعر شعوراً عميقاً بالكسر الذى أصابها فإنها لم تلبث أن شعرت به عندما هدأ حماس

---

(١) انظر كتابنا : الحضارة ، الكويت ١٩٧٧ ص٢٥٢ وما يليها .

الفتوح وتناثر العرب فى نواحى دولة الإسلام الكبرى . هنا وبعد سقوط دولة بنى أمية لم يكن فى الحقيقة قد بقى لقريش إلا الاسم العظيم والجاه المنمق . أما قريش القائدة ، قريش الصفوة فقد تلاشت مع الأيام .

قُريش تهدم قُريشًا :

وفى الصراع السياسى المحتدم بين بنى أمية وخصومهم ، أساءت قريش إلى نفسها أضعاف ما أساء إليها غيرها ، فإن السياسة أعمت عيون بنى أمية تماماً وأنستهم قرشيتهم فكانوا شراً على قريش من ألدِّ أعدائها ، ولننظر مثلاً فيما فعله يزيد بن معاوية ورجاله للقضاء على عبد الله بن الزبير ، ومن انضم إليه من أهل الحجاز ومكة والمدينة ، وفيهم قرشيون كثيرون ، فقد أحب يزيد أن يبعث جيشاً على رأسه عمرو ابن سعيد بن العاص وكان عامله على الحجاز ثم عزله وأراد الآن أن يعيده فقال :

«قد كنت ضبطت لك البلاد ، وأحكمت لك الأمور ، فأما الآن إذ صارت إنما هى دماء قريش تهراق بالصعيد ، فلا أحب أن أكون أنا أتولى ذلك ، يتولاها منهم من هو أبعد منهم منى قال : فبعثنى (يزيد) بذلك الكتاب إلى مسلم بن عقبة المرى – وهو شيخ كبير ضعيف مريض – فدفعت إليه الكتاب فقرأه وسألنى عن الخبر فأخبرته ، فقال لى مثل مقالة يزيد : أما يكون بنو أمية ومواليهم وأنصارهم بالمدينة ألف رجل ! قال : قلت : بلى يكونون قال : فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار ! ليس هؤلاء بأهل أن يُنصروا حتى يجهدوا أنفسهم فى جهاد عدوهم وعز سلطانهم ، ثم جاء حتى دخل على يزيد فقال : يا أمير المؤمنين لا تنصر هؤلاء فهم الأذلاء ، دعهم يا أمير المؤمنين حتى يُجْهِدوا أنفسهم فى جهاد عدوهم وعز سلطانهم ، ويستبين لك من يقاتل منهم على طاعتك ويصبر عليها أو يستسلم . قال : ويحك إنه لا خير فى العيش بعدهم فاخرج فأنبئنى نبأك ، فخرج مناديه فنادى : سيروا إلى الحجاز على أخذ أعطياتكم كملاً ومعونة مائة دينار توضع فى يد الرجل من ساعته ، فانتدب لذلك اثنى عشر ألف رجل [١] .

---

(١) الطبرى ٥/ ٤٨٢ – ٤٨٣ وما بعدها .

ويزيد بن معاوية بن أبى سفيان القرشى يرسل هذا الجيش للقضاء على من خلع طاعته من أهل المدينة وعلى رأسهم عبد الله بن حنظلة الغسيل ، فحنظلة الغسيل هو ابن حنظلة بن عبد عمرو أبى عامر الفاسق ، وكان حنظلة الغسيل هذا من خيرة المسلمين على خلاف أبيه أبى عامر الفاسق من بنى عمرو بن عوف الأوسيين ، وقد استشهد حنظلة فى أُحُد وقيل : إن الملائكة غسَّلته فسُمى بحنظلة الغسيل ، وابنه عبد الله هذا قاد أهل المدينة فى وثوبهم على يزيد بن معاوية سنة ٦٣ هجرية ، فوثبوا على عثمان بن محمد بن أبى سفيان ومن معهم فى المدينة من بنى أمية ، فحاصرهم الناس فى دار مروان بن الحكم « حصاراً خفيفاً »

والآن يريد أن يعاقب أهل المدينة فلا يجد من يختاره ليقوم بذلك الآن إلا مسلم بن عقبة بن رباح وهو من بنى مرة بن سعد بن ذبيان ، وذبيان من أعاريب نجد من قيس عيلان بن مضر ، ويزيد لا يأنف أن يقول له هذا المرى الذبيانى أن المحاصرين من بنى أمية فى المدينة « هؤلاء هم الأذلاء » مع أن ذبيان كانت من أشد قبائل أعاريب نجد حسداً لقريش وعناداً للإسلام ، وهذا الرجل سار فى ناس كثيرين من أعاريب نجد من عبس وذبيان وغطفان ليفتكوا بأهل المدينة من الأنصار ومن انضم إليهم من القرشيين فى الثورة على يزيد ، ومسلم بن عقبة المرى بعد أن قتل عبدالله بن حنظلة وقطع رؤوس من معه من الأنصار دعا الناس للبيعة على أنهم خَوَلٌ ليزيد بن معاوية يحكم فى دمائهم وأموالهم ما شاء [1] يزيد ينسى هنا أنه يذل الأنصار ونفراً من قريش وهم قومه .

ومسلم بن عقبة المرى الذبيانى كان يحارب أهل المدينة ومكة وفى نفسه مرارة بالغة على قريش ، ومن المؤكد أنه كان يعبر عن حقد القبائل غير القرشية على قريش . ومن أوضح الدلائل على ذلك هذا الخبر الذى يرويه الطبرى عن عوانة بن عبد الحكم قال: وأما عوانة بن الحكم فذكر أن مسلم بن عقبة بعد أن انتصر على أهل المدينة «بعث عمرو بن محرز الأشجعى (من أشجع بن غطفان) فأتاه بمعقل بن سنان (القرشى) فقال له مسلم : مرحباً بأبى محمد : أراك عطشان قال : أجل . قال : شُوبوا له عسلاً

---

(١) الطبرى ٥/ ٤٩٥ .

بالثلج الذى حملتموه معنا – وكان له صديقاً قبل ذلك – فشابوه له فلما شرب معقل قال له : سقاك الله من شراب الجنة ، فقال له مسلم : أما والله لا تشرب بعدها شراباً أبداً حتى تشرب من شراب الحميم . قال : أُنشدك الله والرحم . فقال له مسلم : أنت الذى لقيتنى بطبرية ليلة خرجت من عند يزيد فقلت : سرنا شهراً ورجعنا من عند يزيد صفراً ! نرجع إلى المدينة فنخلع هذا الفاسق ، ونبايع لرجل من أبناء المهاجرين ! فيم غطفان وأشجع من الخلع والخلافة، إنِّى آليت بيمينى لا ألقاك فى حرب أقدر فيه على ضرب عنقك إلا فعلت ، ثم أمر فقُتِل »[1] .

فكأن مسلم بن عقبة المرى الذبيانى ، وهو من ذبيان من قبائل أعاريب نجد الحاقدة على قريش ، كان يشتد على قريش لأن بعض القرشيين كانوا يرون أن أعاريب غطفان وأشجع ومن إليها لا دخل لهم فى شئون السياسة وليس لهم أن يتدخلوا فى شئون تولية الخلفاء وعزلهم ، فهذا شأن قريش وحدها .

وإليك برهاناً على حقد مسلم بن عقبة المرى على قريش : قال هشام (بن السائب الكلبى) حدثنى عوانة (بن الحكم) قال : دعا الناس مسلم بن عقبة بقباء إلى البيعة (ليزيد) وطلب الأمان لرجلين فى قريش : ليزيد بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، ومحمد بن أبى الجهم بن حذيفة العدوى (من بنى عدى قوم عمر بن الخطاب) فقال : بايعا . فقال القرشيان : نبايعك على كتابِ الله وسنة نبيه ، فقال : لا والله لا أقيلكم هذا أبداً . فقدّمهما فضرب أعناقهما . فقال له مروان : سبحان الله أتقتل رجلين من قريش أتيا ليُؤَمَّنا فضربتَ أعناقهما . فنخس بالقضيب فى خاصرته ثم قال : وأنت والله لو قلت بمقالتهما ما رأيتَ السماء إلا برقة[2] . ومروان هذا هو مروان بن الحكم سيد بنى مروان وبنى أمية كلها ، يخاطبه هذا المرى الذبيانى بهذه الجرأة التى لا تخلو من احتقار .

بل هناك ما هو أدلُّ من ذلك على حقد ذلك الرجل على قريش طُراً ، وإليك هذا الخبر يرويه الطبرى : « قال هشام : وذكر عوانة أن فيمن خرج عمرو بن عثمان لم يكن

---

(١) الطبرى ٥/ ٤٩٢ – ٤٩٣ .

(٢) الطبرى ٥/ ٤٩١ – ٤٩٢ : يريد ما رأيتَ السماء إلا طرفة عين .

فيمن خرج من بنى أمية (للقاء مسلم فى المدينـة) وأنه أتى به يومئذ إلى مسلم بن عقبة ، فقال : يا أهل الشام تعرفون من هـذا ؟ قالوا : لا ، قال : هـذا الخبيث بن الطيب ، هذا عمرو بن عثمان بن عفان ابن أمير المؤمنين ، هيه يا عمرو ! إذا ظهر أهل المدينة قلتَ : أنا رجل منكم ، وإن ظهر أهل الشام قلت : أنا ابن أمير المؤمنين عثمان ابن عفان فأمر به فنُتِفت لحيته . ثم قال : يا أهل الشام ، إن أم هذا كانت تُدْخل الجُعل فى فِيهَا . ثم تقول : يا أمير المؤمنين حَاجَيْتُك ما فى فمى ؟ وفى فمها ما ساءها وناءها ، فخلى سبيلها ، وكانت أمه من دوس »[1] .

وبعد وقعة الحرة فى ٢٨ ذى الحجة ٦٣هـ واستسلام المدينة وإذلال أهلها أنصاراً ومهاجرين ، اتجه مسلم بن عقبة إلى مكة ليستولى عليها ويقضى على عبد الله بن الزبير الذى كان يسميه الكافر ، توفى فى المحرم سنة ٦٤هـ فدعا الحصين بن نمير السكونى (والسكون من كندة) « فقال له : يا ابن برذعة الحمار ، أما والله لو كان هذا الأمر إلىّ ما وليتُك هذا الجند ، ولكن أمير المؤمنين ولاك بعدى ، وليس لأمر أمير المؤمنين مردٌّ. خذ عنى أربعاً : أسرع السير ، وعَجِّل الوقاع ، وعمّ الأخبار ، ولا تُمكِّن قرشياً من أذنك ، ثم إنه مات فدُفِن بقفا المشلل »[2] .

وهنا يتجلى لنا سبب كراهة مسلم بن عقبة المرى وخليفته لأهل المدينة ومكة ، فهى فى لبابها عداوة لقريش ، إنها مظهر من مظاهر حقد أعاريب قبائل قيس عيلان ابن مضر على قريش سليلة الياس بن مضر ، وإذا أضفنا إلى ذلك أن معاوية بن أبى سفيان هو الذى أوصى ابنه يزيد باستخدام مسلم بن عقبة إذا عصاه أهل الحجاز تبيَّنا كيف أن جشع السياسة استولى على عقل معاوية بن أبى سفيان وجعله لا يحفل لمصير قريش ليحافظ على عرشه لنفسه ولابنه ، فلو قلنا هنا إن قريشاً هى التى هدمت قريشاً ما جاوزنا الحقيقة ، وإنه لمن العجيب أن تحافظ قريش الكافرة فى الجاهلية على وحدتها وتسير فى طريقها قوة واحدة مجتمعة ، ثم تجىء الخلافة بعد ذلك وما تعنيه من قوة سياسية ومال وجاه ، فتعمى عيون القرشيين ويتنابهم هذا السعار الذى رأينا بعض

---

(١) الطبرى ٥/ ٤٩٤ .
(٢) الطبرى ٥/ ٤٩٦ .

أطرافه . والأمر هنا لا يقتصر على بنى أمية وما فعلته ببنى هاشم ، بل إن الذى قاد الجيش الذى قتل الحسين بن على وآله كان يقوده عمر بن سعد بن أبى وقاص وهو قرشى ، والحسين وآله الذين استشهدوا فى يوم كربلاء كانوا قرشيين ، استشهدوا وماتوا على أيدى قرشيين بسبب السياسة ومطامعها .

وسنرى شبه ذلك فى تصرف إبراهيم الإمام بن على بن عبد الله بن عباس الذى دبَّر مع أبى مسلم أمر نقل الدعوة من بنى على إلى بنى العباس ، فقد أوصاه بأن يتحاشى المضريين جميعاً من أهل خراسان ، وأن يعتمد على الأزد والموالى ، وهنا أيضاً نرى كيف أن قريشاً هدمت قريشاً .

انتِقال وَلاء المسلمين إلَى قريش بَنى هَاشِم وَنهَاية قُريش بَنى عَبد شمس :

إذن : فإننا نستطيع أن نقول - وبدون دخول فى التفاصيل - : إن فتنة عثمان كانت بداية النهاية بالنسبة لسيادة قريش ، حقاً إن دولة بنى أمية قامت واستمرت معها سيادة قريش فى عالم الإسلام ، ولكن بنى أمية لم يكونوا كل قريش ، أما بقية قريش ومعها بقية أمة الإسلام فقد استبد بها الضيق ببنى أمية ، وما زال الضيق يتزايد حتى كانت الثورة العباسية ، وهى كانت من ناحية القيادة ثورة قرشية ، أما من حيث تكوين صفوفها وطبيعة الغالبية العظمى ممن حملوا لواءها فقد كانت ثورة على قريش كلها وحرباً على قيادتها لدولة الإسلام ، وليس بغريب والحالة هذه أن نجد موقف العرب والمسلمين من بنى أمية وسيادتهم يعود بذاكرة المسلمين وعواطفهم إلى موقف الجانب الفاضل من قريش - جانب حلف الفضول - من الجانب الطامح والطامع من قريش الذين كان يمثلهم بنو عبد شمس وبنو مخزوم وهم جماعة الأحلاف أو لعقة الدم ، فكأن الصِّدع القديم فى صفوف قريش الجاهلية قد عاد إلى الظهور فى قريش الإسلام، ولكن التصدع هنا كان عميقاً واسع الشُّقة لأن موضوع الخلاف بين الجانبين فى الجاهلية كان يسيراً هيناً وهو سيادة مكة ، أما الآن فإن موضوعه سيادة دولة الإسلام .

وإذا كانت أمة الإسلام فى هذا الصراع الجديد لم تقف وراء بنى هاشم وقوفاً واضحاً صريحاً أول الأمر حتى مقتل على بن أبى طالب ، فقد تجمعت القلوب كلها إلى جانب بيت على وبنى هاشم جملة بعد مصرعه الأثيم ، وهذه النهاية الحزينة هى التى جمعت القلوب حول أبناء على ، وبان بوضوح أن قريشاً تتصدع ، خاصة وأن مواقف بعض كبار الصحابة من القرشيين من أمثال الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله زعزعت فى أذهان الناس الصورة الجميلة التى نشأت عن سياسة أبى بكر وعمر ، ثم قتل الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله فى صراع سياسى صريح على السلطان وهما يقاتلان زعيماً صحابياً قرشياً ثالثاً هو على بن أبى طالب ، ثم استشهد على بن أبى طالب وبقى معاوية بن أبى سفيان سيد الموقف ، فالتقط الخلافة وكأنها هدية سِيقَتْ إليه .

وقد تسنم معاوية ذروة الخلافة غير واثق من نفسه أول الأمر وتركته الأمة يستقر ويثبت دعائم سلطانه لا تسليماً له ، بل رغبة فى المحافظة على وحدة الأمة التى تصدعت وهددتها الأخطار . فاستمرأ معاوية المرعى وتحول إلى حاكم مستبد وتعدى هو ورجاله على الأموال والأبشار وأخاف الأمة وظهر فى نظرها فى مظهر الطاغية المستبد ، وإذا كان معاوية قد مثَّل إذ ذاك زعامة قريش فقد خاب ظن الناس فى هذه الزعامة ، وكانت تلك هى أقوى ضربة أصابت زعامة قريش ، فقد نزع الناسُ ثقتهم منها وإن ظلت الآمال معلقة بالجانب المنهزم من قريش جانب الهاشميين .

ثم كانت واقعة كربلاء أيام يزيد واستشهد جماعة من أهل البيت على رأسهم الحسين بن على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء على يد رجال يزيد بن معاوية سليل بيت عبد شمس ، وقد كان بيت على بن أبى طالب قرشياً ولكنه كان شيئاً آخر أعظم من ذلك فى نظر الأمة ، إنهم آل البيت ، آل بيت رسول الله ﷺ ، وآل بيت كل مسلم ، فإن العدوان عليهم كان عدواناً على كل مسلم على حدة ، وهو عدوان على عترة الرسول ﷺ ، وهذا العدوان قد تم على يد الرياسة السياسية القرشية وتم على صورة لم تكن لتخطر قط ببال مسلم ، وقريش فى الجاهلية وفى عنفوان عدائها للإسلام لم تجرؤ على أن تمس رسول الله ﷺ بأذىً يُذكر ، ولكن بنى أمية القرشيين المسلمين

أقدموا على ما لم يُقْدم عليه أبو جهل الكافر ، فلا عجب إن تلاشت هيبة قريش من نفوس الناس وعادت إلى أذهان النابهين من أفراد الأمة ذكريات موقف الغالبية من الزعامة القرشية من على بن أبى طالب وقوله إن قريشاً تكرهنى ، فانفضَّت القلوب من حول الزعامة القرشية الأموية والتفت حول الهاشميين لا على أنهم من قريش ، بل على أنهم عترة الرسول وأهل بيته ورمز للمظلومين من رجال أمة الإسلام .

وقد ارتبطت بالزعامة القرشية الأموية مظالم وبشاعات أخرى زادت أمة الإسلام نفوراً منها ، فكان استشهاد الحسين رضى الله تعالى عنه فى العاشر من المحرم سنة ٦٣هـ وغزو المدينة على يد رجل من ذبيان كاره لقريش ورياستها ، وقد رأينا ماذا فعل هذا الرجل بالأنصار والقرشيين بما فيهم أمويون ، ثم حصار مكة على يد رجل من السَّكُون من كندة ، وكل هذا كان بأمر الخليفة الأموى القرشى وكانت موقعة الحرَّة ومصارع أجلاء الصحابة من الأنصار ونفر من المهاجرين ، واقتحم جند بنى أمية مدينة الرسول ﷺ وقتلوا وسَبَوْا واستهانوا بحرمة الكعبة ، فكأن قريشاً الوثنية أدركت فى ذلك اليوم من الإسلام ما لم تدركه من المدينة يوم أُحُد .

وتفاصيل هذه الأخبار كلها واردة عند الطبرى وغيره بتفاصيل كثيرة ، وليس إلى الشك سبيل فى أن هذه الأحداث أياً كانت الدوافع إليها كانت كلها بعيدة الأثر عميقة الشدوخ فى تاريخ الإسلام كله . فاستشهاد الحسين رضى الله عنه كان المولد الحقيقى لحركة الشيعة ، فما من حادث نزل بآل البيت كان أوجع للمسلمين من ذلك الخطب الجليل ، وما من مسلم إلا أصيب فى صميم نفسه فى ذلك اليوم فانعقدت على أثر هذه الجريمة عقدة الشيعة وأصبح لديها سبب واضح ملموس ، وكافٍ لجمع القلوب وكسب الأنصار ، لأن العدوان على الحسين وآله على النحو البشع الذى وقع به كان صرخة الثورة على الحكم الأموى ، لأن المسلمين إذا سكتوا على ذلك استشرى الشر وعَمَّ البلاء فلم يَنْجُ منه مسلم وارتبطت هذه الفعلة البشعة بأسماء قادة عرب من قريش، فإن الخليفة الذى تمت بأمره قرشى وعبيد الله بن زياد الذى قام بالتنفيذ منسوب إلى قريش وإلى بيت السفيانيين من بنى أمية ، وكان قائد الجيش الذى فتك بالحسين عمر بن سعد بن أبى وقاص قرشى وهو ابن واحد من أَجَلِّ الصحابة . كان

هؤلاء هم الذين مثّلوا السلطان القرشى إذ ذاك ، فقد حلت تبعة الجريمة كلها على قريش وكان المصابون فيها من قريش أيضاً .

ولن ندخل فى تفاصيل تلك الحادثات الشنيعات ، فكلها أياً كان نصيب الروايات التى أتتنا بخبرها من الصحة أو المبالغة فإنها كلها تشين قريشاً وتدل على أن قريشاً بالفعل لم تحسن قيادة العرب ، فقد انحرفت عن الطريق لأول محنة واختبار . والكلام هنا لا ينصب على بنى أمية بل على العرب جميعاً فى قيادة قريش لأن الأمور إذا كانت قد صارت إلى بنى أمية ثم إلى يزيد بن معاوية منهم ، فهذا كان نتيجة تصرف قريش ورأيها ، فمن قريش كان عثمان ، وقريش كانت تستطيع حماية عثمان لو أرادت ، وقريش هى التى أيّدت أول الأمر اختيار على بن أبى طالب ، وقريش هى التى اختلفت حوله والناس لها فى ذلك كله لقريش تبع ، وعندما كان رأسَ قريش أبو بكر رشدت ورشد الناس معها ، وعندما كان رأسها عمر رشدت وهُديت ، ولكن قريشاً فى جملتها كانت متجهة اتجاهاً ظاهراً نحو السلطان ، وتلك كانت تركة السقيفة .

فإذا كان أبو بكر وعمر قد استطاعا أن يُغلّبا الدين على الدنيا فى حكومتيهما فإن بعض أهل الشورى لم يكن منهم من قوة العزم والزهد فى الدنيا ما يُمكّنهم من أن يكونوا شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ، ولقد كانوا حقاً خيرة المسلمين من قريش وكان فيهم من يستطيع أن يسير فى الأمة بهدى الرسول ، ولكنهم مالوا إلى غير ذلك قصداً وهم يعلمون ، ونحن هنا لا نقول رأياً بل نحكم بالواقع والنتائج ، لأن الأمور إذا كانت قد سارت فى طريق الوبال ، فإن الذين اتخذوا القرار فى اجتماع الشورى كان يمكن أن يكونوا قد جانبهم الصواب عند اتخاذه ، وإلا فكيف سارت الأمور فى هذا الاتجاه الخطر إذا كانوا قد اتخذوا القرار عن تقدير سليم لمسئوليتهم، ونحن نكتب مثل هذا التاريخ لندلّ المسلمين على ما يمكن أن يكونوا قد وقعوا فيه من خطأ لعلهم ينتفعون بما يقرأون ، وإذا كنا نكتبه لمجرد التماس الأعذار لمن تقع عليهم المسئولية ، فإننا لن نرشد بعد ذلك أبداً . وليس من المعقول أن تقع الأمة كلها فى هذا الشر ثم لا يكون هناك مسئول إلا أن تكون لعنة من الله قد قُدِّرت علينا ، وحاشا لله أن يكون ذلك ، فنحن بعد أمة الإسلام وأمة الله وأَوْلَى الناس بالرحمة إذا كنا نستحقها .

وإذا أردت أن تستبين وجه الحق فيما نقول فإننى أضرب مثلاً واحداً من الواقع ، فإننا إذا كنا لا نعلم على وجه الحق ماذا دار فى اجتماع الستة ، فإن لدينا حادثاً نعرفه ويمكننا الاستفادة منه ، فقد كان سعد بن أبى وقاص أحد الستة ، وقد ألقى بصوته فى الناحية التى ارتضاها ، ثم كان ابنه عمر بن سعد بن أبى وقاص من قادة بنى أمية ، وعبيد الله بن زياد عندما أراد أن يُسيِّره لقتل الحسين وآله بدأ فأقامه عاملاً على الرِّى ، وهى ولاية واسعة غنية جنوبى بحر قزوين عُرِفت كذلك باسم طبرستان ، وفى مكان مدينة الرى تقوم اليوم طهران .

فلما صار عمر بن سعد بن أبى وقاص صاحب هذه الولاية وتعلق قلبه بها سيناله فيها من خير ورزق ، أمره عبيد الله بن زياد بأن يمضى بأربعة آلاف للقاء الحسين ومن كان معه من آل البيت وأنصارهم وهم لا يزيدون على مائة مقاتل ، وأراد عمر بن سعد بن أبى وقاص أن يعفيه عبيد الله بن زياد من محنة قتل الحسين ، فقال له عبيد الله: على أن ترد لنا عهدنا أى أن تتنازل عن ولاية الرى ، أى أنه خيَّره بين الولاية مع الجريمة أو تجنُّب الجريمة ولا ولاية . وهنا نجد هذا الرجل مُخيّراً بين الدين والدنيا ، وبين الضمير والكسب ، وأخيراً زلَّتْ به نفسه إلى الدنيا عندما رأى إصرار عبيد الله ابن زياد ، يقول الطبرى راوياً عن أبى مخنف : « فلما رآه قد لَجَّ قال : فإنى سائر قال : فأقبل فى أربعة آلاف حتى نزل بالحسين من الغد من يوم نزل الحسين نينوى »[1] غير بعيد من موضع كربلاء .

فهذه صورة من الواقع تُريكَ حقيقة مواقف بعض هؤلاء الرجال وتوزع أنفسهم بين الدين والدنيا ، وقد يكون شعورهم بهذا التوزع قليلاً لأنهم جميعاً كانوا يحسبون أنهم على بينة من أمرهم ، أو أنهم كانوا إلى جانب الحق وهم فى الحقيقة بعيدون عنه . ونادراً ما كانوا يدركون ذلك أو يعترفون به . وإن الإنسان ليدهش كيف كان القوم جميعاً يحسبون أنفسهم على الحق ويستعينون بالله فى أمورهم ، حتى الذين ذهبوا لقتل الحسين كانوا يتحدثون عن التقى والإيمان ويسألون الله التوفيق فيما هم بسبيله ، وهذه

---

(١) انظر : التفاصيل عند الطبرى : ٥ / ٤٠٩ وما بعدها .
أما نينوى فقد تكون حدودها كانت تصل حينئذ إلى كربلاء وإلا فنينوى فى الموصل وكربلاء فى النجف .

حالة من خداع النفس لا تكاد تصدق . ثم نجىء نحن بعد ثلاثة عشر قرناً من هذه الأحداث فنتعصب لجانب دون جانب ونقطع بأن الحق كله كان هنا ، وأن الباطل كله كان هناك ، وهو موقف فيه أيضاً الكثير من خداع النفس أو التماس السلامة ، ولكنه لا يحترم الحقيقة التاريخية ولا يعين القارىء على الرؤية الواضحة وبدون رؤية واضحة لا تاريخ جدير بأن يسمى تاريخاً .

والذى يستوقف النظر ويدعو إلى العجب أن قريشاً التى حسبت الإسلام سياسة أول الأمر ، فأحجمت عن الدخول فيه كما رأينا فى حالة أبى جهل وأصحابه . لم يعد موقفها هذا بعد دخوله . فقد جهد الرسول ﷺ طوال الفترة المكية فى إقناعهم بأنه ليس طالب مُلْك أو سلطان سياسى أو مال ، وإنما هو داع إلى هداية ، فأصروا على موقفهم وكان هذا فراق ما بينهم وبينه حتى هجرته ، فلما أنشأ الرسول الكريم أمته فى المدينة حرص على أن يجعلها بناءً دينياً أخلاقياً معنوياً ، جانب السياسة والكسب المادى فيه قليل ، وهو حتى بعد أن أدرك النصر المؤزر ، وتم له فتح مكة وأتته القبائل طائعة مسلمة لم يغير الأمر من دين إلى سياسة ، وفى كل تصرف من تصرفاته ظل دائماً الداعى إلى الله بإذنه ، البشير النذير والسراج المنير .

وانظر إليه فى مكة بعد فتحها تر فيه النبى المرسل ولا ترى فيه الرئيس الدنيوى قط ، وأصحابنا الذين يتحدثون عن محمد رئيس الدولة يُشبهون أولئك القرشيين فى تصورهم السياسى فى دعوة محمد ، ويستدل بعضهم على أن محمداً أقام دولة الإسلام بأنه كان له صلوات الله عليه « عمال » على مكة واليمن واليمامة والبحرين مثلاً ، ولفظ عامل هنا يؤخذ بمعناه الذى كان له بعد الرسول وهو الحاكم أو الوالى ، والحقيقة أن العامل أيام الرسول هو العامل على الصدقات أى المشرف على إخراج الناس إياها المتقبل لما يخص الله ورسوله والجماعة منها ، وكذلك ما يخص العاملين أو العمال من الصدقات وهو جد قليل ، فعمال محمد صلوات الله عليه لم يكونوا حكاماً .

وأوضح مثل لذلك هو عتاب بن أسيد الذى أقامه على مكة وهو ابن أبى العيص ابن أمية بن عبد شمس ولم يكن حاكماً على مكة وإنما مجرد عامل على صدقات أهلها

ولم يكن لديه أى تكليف سياسى حتى إنه عندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وارتجت مكة وتفاقمت حركة المتنبئين وأهل الردة لم يقم عتاب بأى دور سياسى إذ لم تكن له وظيفة سياسية ، وإنما قام بذلك رؤساء قريش وسادتها الحقيقيون بعد أن أسلموا وأعلنوا أنهم يقفون إلى جانب الأمة وأبى بكر ، ولم يحفل أحد منهم بعتاب أو يُقِمْ له وزناً ، بل لم يطالبه أبو بكر بأى دور سياسى ، وعندما توافد كبار القرشيين على أبى بكر ليشتركوا فى حروب أهل الردة لم يتحرك عتاب ولا ساءله أبو بكر فى ذلك ، بل تركه على عمل الصدقة حتى مات أبو بكر وعندما قام أهل الردة لم يَعْتَدِ أحد منهم على المصدقين أو العمال ، لأنهم لم يكونوا ولاة ولا حكاماً ، وأبو بكر نفسه لم يكتب إلى أحد منهم كتاباً يكلفه فيه بأى عمل سياسى أو عسكرى .

وذلك كله ناتج من أن الرسول فى إنشائه الأمة لم يجعلها قط دولة ، ولم يحولها من أمة الإيمان إلى دولة السلطان ، لأن مناط قوة الأمة فى إيمانها وتآخيها وتمسكها بحبل الله وعروته الوثقى التى لا انفصام لها ، فكل فرد من أفراد الأمة خادم لهذا المثل الأعلى ، ورسول الله كان يُؤَمِّر من يشاء من أصحابه على سراياه وبعوثه ، فإذا انتهت السرية انتهت معها الإمارة وعاد الأمير عضواً عادياً فى الأمة لا لقب يحمله ولا راتب يُفرض له ، والجماعة تسوس نفسها بالخير والبر ومراعاة المثل الأعلى وهو الله سبحانه ، والأسوة الحسنة فى ذلك هى الرسول صلوات الله عليه ، فهو المثل الأعلى فى صورة إنسان من البشر .

وعندما اتسع نطاق الأمة وشملت شبه الجزيرة كلها وأقبلت الوفود إلى رسول الله أتت لتعلن دخولها فى الدين والخضوع لشريعته ، ولم يطالب رسول الله وفداً من الوفود بأن يقر بطاعة سياسية لشخصه ، وأمامك كتبه التى أعطاها لمن طلب ذلك ممن وفدوا عليه لا تجد فيها أى معنى سياسى ، إنما هى تثبيت لقواعد الإسلام فى قلوب الناس وحضٌّ لهم على التمسك بتلك القواعد ، وتثبيت لحقوق كل قوم فى أرضهم التى كانت لهم وتأمين لهم فيها وتحريم العدوان عليهم ، إذ إن المفروض والمطلوب من المؤمنين أن يسوسوا أنفسهم بأنفسهم ، وأن تكون فيهم أمة أى جماعة منهم تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتواصل الجهاد فى سبيل الله ، فإذا كانت هناك قيادة فهى

قيادة جماعية وقيادة أبي بكر كانت جماعية وهو نفسه لم يتصور أنه صار رئيساً يأمر وينهى ، ولم يفكر فى أن يكون له راتب ، بل لم يخطر بباله أن ينقطع للإمامة ، وإنما كان الناس هم الذين طلبوا إليه ذلك طواعية دون أن يروا فيه حاكماً ومُعَيِّنًا ، ومضى يسوس جماعتهم سياسة جماعية ، يستشير فى كل حين ويأخذ بما يشير به الناس عليه .

وعمر أيضاً سار على مذهب القيادة الجماعية ، وهو لم يمارس سلطانَه على أنه رئيس بل مستحث للناس على المسارعة إلى القيام بالواجب ، وعندما دعا الناس إلى التطوع لفتوح فارس اختار من تقدم متطوعاً ، واختار أبا عبيد بن مسعود ، وعندما طلبوا إليه أن يُؤَمِّر عليهم واحداً من أهل السابقة إلى الإسلام أبى وقال كلمته التى سبق أن ذكرناها : لا والله ما أفعل ، إن الله رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو فإذا جبنتُم وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء ، والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً .

وبالفعل ولى أبا عبيد بن مسعود بن عمرو وهو من بنى غِيرَة بن عوف من ثقيف ، وليست لدينا حالة واحدة اعتسف فيها عمر بن الخطاب طريقه وتصرَّف برأيه دون استشارة ، وقد حدث مراراً أن استشار ولم يأخذ برأى من أشاروا عليه ولكنه كان يعرف ويعترف فى تلك الحالات بأنه يتصرف على مسئوليته ويتحمل هذه المسئولية ، وكان شعوره بالأمة ومسئوليته عنها وأمامها عظيماً عميقاً .

لقد روينا كيف اختار أبا عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفى لقيادة الحرب فى العراق مع المثنى بن حارثة ، ولكنه إذ بعثه أمره بأن يستشير قال : « اسمع من أصحاب النبى ﷺ وأشركهم فى الأمر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف »(١) . وعندما اختار عمر أبا عبيد بن مسعود اختاره على مسئوليته ، وأبو عبيد أعجبه اختيار عمر إياه فتفانى إلى النهاية وأخذ عن عمر درس الإخلاص للأمة والإحساس بأنه جزء منها لا تميزه

(١) الطبرى ، تاريخ ٣/ ٤٤٥ .
وتفسير هذه : لا تسرع إلى الحركة حتى تتبين طريقك ، لأن الحرب لا تنفع فيها السرعة الهوجاء وإنما يصلح لها الرجل الصبور الذى يروى أمره ويعرف متى ينتهز الفرصة ومتى يكف .

القيادة عن إخوانه المسلمين بشيء ، فقد حكى الطبرى بإسناده قال « لما هزم جالنوس (قائد الفرس) وأصحابه دخل أبو عبيد باروسما ونزل هو وأصحابه قرية من قراها ، فاشتملت عليهم ، فصُنع لأبى عبيد طعام فأُتى به ، فلما رآه قال : ما أنا بالذى آكل هذا دون المسلمين ! فقالوا له : كُلْ فإنه ليس من أصحابك أحد إلا وهو يؤتى فى منزله بمثل هذا أو أفضل ، فأكل فلما رجعوا إليه (أى أصحابه) سألهم عن طعامهم ، فأخبروه بما جاءهم من الطعام »[1] .

وهذه القدوة الحسنة أخذها الناس عن عمر وهذه أيضاً هى روح القيادة بمعناها الإسلامى الذى أخذه عمر عن رسول الله ﷺ وأخذه الناس عن عمر : فإذا كان رسول الله يوم فتح مكة قد أعفى قريشاً من كل مسئولية عن موقفها المعادى للإسلام قبل الفتح وترك لها الباب مفتوحاً لتدخل دين الله فدخلت ، فإن أبا بكر هو الذى أخذ بيد زعماء الكفر السابقين وعهد إليهم فى القيادات فبدأت قريش تستعيد رياستها للعرب ، وبفضل أبى بكر أهَّلَتْ قريش نفسها لتستحق هذه القيادة فى ظل الإسلام ثم جاء عمر فضرب ذلك المثل الرائع فى القيادة القرشية ، ومعظم ما تمتعت به قريش من جاه بين العرب والمسلمين راجع إلى المثل العظيم الذى ضربه أبو بكر وعمر .

وإليك مثل رائع عن اقتداء الناس بعمر فى خلقه وقيادته وإخلاصه للمسلمين الصادقين وتفانيه فى حبهم ، قال الطبرى فى حديثه عن معركة القرقس بين العرب والفرس وتسمى قس الناطف والجسر والمروحة أيضاً ، وهى معركة خسرها المسلمون ، ولكن تصرف المسلمين فيها كان أروع من كل نصر ، قال الطبرى : « فلما رأى أبو عبيد ما يصنع الفيل قال : هل لهذه الدابة من مقتل ، قالوا : نعم ، إذا قُطع مشفرها ماتت فشد على الفيل فضرب مشفره فقطعه ، وبرك عليه الفيل فقتله » . وقال أيضاً « فرجعت الفرس (أى : كرُّوا على المسلمين وحصروهم فى موضع ضيق يحيط به الماء وأصابوا منهم مقتلة كبيرة) ونزل المثنى بن حارثة أُلَيْس ، وتفرق الناس فلحقوا بالمدينة (أى : فروا حتى دخلوا المدينة) فكان أول من قدم المدينة بخبر الناس عبد الله بن زياد بن الحصين الخطمى ، فأخبر الناس » .

---

(١) الطبرى ، ٣/ ٤٥٢ .

ثم يقول الطبرى بعد إسناد آخر عن عائشة رضى الله عنها « سمعتُ عمر بن الخطاب عندما قدم عبد الله بن زيد فنادى : الخبر يا عبد الله بن زيد : قال : أتاك الخبر يا أمير المؤمنين ، فلما انتهى إليه أخبره خبر الناس . فما سمعت برجل حضر أمراً فحدث عنه كان أثبت خبراً منه فلما قدم فلُّ الناس (أى : فلول المنهزمين) ورأى عمر جزع المسلمين من المهاجرين والأنصار من الفرار ، قال : لا تجزعوا يا معشر المسلمين أنا فئتكم . إنما انحزتم إلىَّ » وفى خبر آخر «أن معاذاً القارىء أخا بنى النجار كان ضمن من شهدها ففر يومئذ فكان إذا قرأ هذه الآية ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [1] بكى ، فيقول له عمر : لا تبك يا معاذ ! وأنا فئتك وإنما انحزتَ إلىَّ » .

أبو بَكر كان يَعرف مَطامع القرشيّين وَيحذرهم مِنها :

وهذا التراث العظيم الذى خلفه عمر لقريش ، من خلق سَامٍ وإسلام شامل عميق وفهم وثيق لمعنى الرياسة والقيادة ومسئولياتها ، ضيَّعته قريش فى برهة زمان أو فى لا زمان « كما يقول الإنجليز » ، فإن عمر رضى الله تعالى عنه توفى طعيناً شهيداً فى ٢٩ ذى الحجة سنة ٣٥هـ/ ٦ نوفمبر ٦٤٤م . ويبدأ اجتماع أهل الشورى ، وخلال الأيام القليلة التى دامتها مشاورات أهل الشورى بدأ الصدع الخطير الذى لم يُرأب حتى اليوم ، لأن أهل الشورى فيما يبدو لم يقدروا خطورة الأمر الذى وُكِل إليهم : أمر اتخاذ القرار فيه ، ولا شك فى أن كلاً منهم كان يعرف أصحابه حق المعرفة ويعرف مَنْ أقدرهم على ولاية أمر الأمة وأن الهوى مال بهم عن هذه الغاية ، وما نقول هذا من عندنا ولكن سبقنا أبو بكر الصديق إلى قول مثله ، فقد خاطب أولئك القوم يحذرهم من الهوى وهو على فراش موته بعد أن وقع اختياره على عمر .

فقد روى الطبرى بسند يرجع إلى عبد الرحمن بن عوف : قال الطبرى إنه (أى عبد الرحمن بن عوف) «دخل على أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فى مرضه الذى توفى فيه فأصابه مهتماً ، فقال عبد الرحمن : أَصْبَحْتَ والحمد لله بارئاً ! فقال أبو بكر

---

(١) سورة الأنفال ٨/ ١٦ .

رضى الله عنه : أتراه ؟ قال : نعم ، قال : إنى ولَّيتُ أمركم خيركم فى نفسى ، فكلكم وَرِم أنفه من ذلك (يريد أن يكون الأمر له دونه) ، ورأيتم أن الدنيا أقبلت ولم تقبل وهى مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد (وسائد) الديباج وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذربى (فى أذربيجان) كما يألم أحدكم أن ينام على حسك ، والله لأن يقدم أحدكم فتُضرب عنقه فى غير حد خير له من أن يخوض فى غمرة الدنيا ، وأنتم أول ضال بالناس غداً فتصدونهم عن الطريق يميناً وشمالاً . يا هادى الطريق إنما هو الفَجَر أو البجر (الأمر العظيم) فقلت له (والمتكلم هنا عبد الرحمن بن عوف) : خَفض عليك رحمك الله ، فإن هذا يهيضك (يضعفك) فى أمرك . إنما الناس فى أمرك بين رجلين : إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك وصاحبك (يريد عمر) كما تحب ولا نعلمك أردتَ إلا خيراً ، ولم تـزل صالحاً مُصلحاً ، وأنك لا تأسى على شىء من الدنيا »[1] .

وكلام أبى بكر يدل دلالة واضحة على أنه يعرف ما كان يجرى فى أذهان أصحابه ، فكلهم كان يريدها لنفسه ، وكلام عبد الرحمن بن عوف ليس فيه تسليم بما أمر به أبو بكر من اختيار عمر . فإذا كانت هذه هى حقيقة الموقف بالنسبة لعمر فكيف والله يرشحون علياً أو أى رجل آخر كان من الممكن أن يحملهم على الطريق . ولسنا هنا فى موقف المفاضلة بين صحابى وصحابى فكلهم عندنا من أهل الرضا ، ولكن الذى وقع بالفعل أنهم رشحوا عثمان ، وهم يعرفون أن إمارة عثمان هى إمارة بنى أمية والرجل كان محاطاً بأهله دائماً قبل خلافته وبعدها ، فقد كانوا دائماً أهل رأى ومشورة ولم يكن هناك شك فى أنه سيستعين بهم ، وكانت فى الكثيرين منهم كفاية فى شئون الحرب والإدارة ، وكان فيهم تطلع للرياسة وهذه صفة قديمة معروفة فى بنى عبد شمس جميعاً . وأبو بكر وعمر اختارا منهم الكفاة لأعاظم المسئوليات ، ولكن أبا بكر وعمر كانا أقوى من أن يصرفهما عن الجـادة إنسان فلم يكن هناك ضير فى الانتفاع بهم ، وأما عثمان فكان بعيداً عن ذلك ثم إنه كان عليل الصحة ، عالى السن ولأسابيع فحسب من ولايته أحسَّ الذين اختاروه أنهم لم ينصفوا فى الاختيار .

---

(١) الطبرى ، تاريخ ٣/ ٤٢٩ – ٤٣٠ .

أجل ولم ينصفوا قريشاً بذلك وهذا هو الذى يعنينا فى هذا المقام ، لأن قريشاً استحوذت على الرياسة بفضل المثل العظيم الذى ضربه أبو بكر وعمر وكان لا بد لقريش أن تسير فى هذا الطريق إذا أرادت أن تدوم لها الرياسة ، أما وقد عجزت عن ذلك وقصرت فيه وأسلمت قيادة الأمة إلى بيت شديد العصبية القبلية ، شديد التهافت على الدنيا والسلطان والجاه فقد مهدت الطريق بذلك لضياع أمرها .

وقد ضربنا لذلك أمثلة ، أوضحها ما كان من أمر استشهاد الحسين بن على وآله فى كربلاء ، ومع أن الذين حسبوا أنفسهم المنتصرين فى تلك المأساة كانوا قرشيين ، إلا أنه غاب عنهم أن هيبة قريش انصدعت فى ذلك اليوم ، لأنها انقسمت على نفسها انقساماً خطراً واستعان بعضها على بعض بجند مرتزق من أجلاف الأعراب واستحل بعضهم دماءَ بعض فهانت دماؤهم جميعاً على الناس ، ولا يقال هنا : إن عرب الشام انتصروا على عرب العراق من أنصار على بن أبى طالب لأنهم كانوا أشجع أو أشد إيماناً بقضيتهم ، وإنما نقول : إن ذلك يرجع إلى أن جند الشام كان جنداً نظامياً مدرباً فى حين أن جند على بن أبى طالب كانوا رجالاً متطوعين من أهل الكوفة فى الغالب فهم يحاربون احتساباً ، حرب المتحمس غير المتمرن للحرب ، والحرب حرفة كغيرها ، يحسنها المتدرب عليها المجرب فيها .

وقد كان رسول الله ﷺ يعرف هذه الحقيقة ، فهو يوم استقر فى المدينة وبدأ ينشىء الأمة عرف أنها لابد أن تكون أمة مناضلة أى ما يسمى فى مصطلح اليوم بلفظ «مليتانت» وإلى هذا الإدراك البعيد يرجع اهتمامه الدائم بتدريبه رجال الأمة على القتال واختيار المؤهلين بطبعهم للقيادات ، وقبل معركة بدر كان المسلمون قد خاضوا ثمانى معارك وثامنتها وهى سرية نخلة كانت أبعدها مدى وأطولها نجعة فقد وصلت إلى حدود حرم مكة وكان فيها قتال وقَتْل مع قريش ، وبعدها مباشرة نزلت آية القتال . والثلاثمائة ونيف الذين ساروا للقتال فى بدر كانوا جيشاً نظامياً مدرباً على الحرب عارفاً بما ينبغى لها ، بل كان فيهم رجال عمليات عسكرية أو تكتيكيون كما نقول ذوو فهم لطبيعة الحرب وأساليب إدارة المعارك .

وخبر الحُباب بن المنذر بن الجموح فى وضع خطة المعركة معروف ، وكان هناك

بشير بن سعد وكان من الموهوبين فى قيادة الحروب ، وقد وصل به الرسول ﷺ إلى مستوى رفيع من المهارة العسكرية ، هذا إلى جانب الإيمان الذى لا غنى عنه ، أما القرشيون فكانوا سادات أهل فروسية ونخوة ولا زيادة ، ولهذا فإن المعركة لم تدم فى حقيقة الأمر إلا بعض ساعات وبقيتها إلى الظهر كانت معركة أبى جهل أى معركة القضاء عليه ، فقد أصر المسلمون على قتله واستأسد قومه للدفاع عنه وقتل منهم سبعة عشر رجلاً فى معركة الدفاع عنه وأخيراً سقط ، وعندما سقط سقطت معه الجاهلية .

مَسؤولية عَلى بن أبى طالب :

وقد تعودنا أن نلقى مسؤولية الفتنة كلها على بنى أمية ويفوتنا هنا أن نذكر أن على ابن أبى طالب عندما قامت الفتنة الحقيقية عقب مبايعته بالخلافة فى ١٧ ذى الحجة سنة ٣٥هـ كان ولى أمر هذه الأمـة ، ولابد أن يكون له جانب من المسؤولية عما حدث ، فإن بداية الفتنة عليه كانت إنكار طلحة والزبير وبعض أتباعهما للبيعة التى أعطوها إياه فى المدينة وقد فعلا ذلك بمجرد وصولهما إلى البصرة . ولحقت بهما عائشة رضى الله عنها . وعندما أصر علىٌّ على عزل ولاة عثمان تصدى له معاوية وتشجع بما فعل طلحة والزبير وعائشة . وقد تسرع على بن أبى طالب فخرج بمن معه إلى الكوفة ليقضى على فتنة طلحة والزبير فى البصرة . وقد غاب عنه أن مركز الفتنة الحقيقية كان فى دمشق ولم يضر علياً شىء مثل الذهاب إلى الكوفة ، ولو أنه تدبر أمره لبقى مكانه فى قاعدة خلافته وندب الناس لقتال معاوية ، بل ربما كان أحجى لو أنه دعا معاوية مثنى وثلاثاً وأطلق له بعض الوقت ليروى أمره ، وفى نفس الوقت كان يستطيع أن يستدعى الناس لنصرته ، ولم يكن موقف على فى المدينة إذ ذاك بأسوأ من موقف أبى بكر عند الردة ، ولكن أبا بكر ظل مكانه ودعا الناس فَلَبَّوْا دعوته فرتب الجيوش واختار القادة وبقى هو فى قاعدة خلافته ، لأن بقاء رئيس الأمة فى عاصمته أعون على النصر ، ولو تريث علىٌّ شيئاً وبعث يدعو الناس للبيعة فقد كانت المدينة لا زالت مركز كبار الصحابة ، وكان هناك الأنصار مستعدين لتأييده .

وفى مثل هذه المواقف لا ينفع الرئيس شىء مثل الروية والتدبر والثبات فى موضعه

ليتجمع حوله الناس ، وللمدينة هيبتها ومعظم العرب كانوا مستعدين لنصرته ، ولم يكن الناس فى كل مكان راضين على ولاة عثمان ، ولو بقى على فى المدينة لاحتفظ بوزنه لأنه بين قوم لهم فى الإسلام سابقة وفضل ، وكان معه من قريش عدد عظيم ، ومهما بلغ من أمر طلحة والزبير فما كانا فيما نظن بمهددين لعلى فى المدينة ، فلو أقام وتأهب وجمع إليه الناس لتكفلت هيبته وهيبة الخلافة ومكانة المدينة بكسب المعركة ، ومن المكاسب على أى حال أن جلة قريش كانوا فى الحجاز ، بل إن بعض بنى أمية وخاصة مروان بن الحكم وبقية آل بيته لم يكونوا راضين عن معاوية وما فعل ، ومن المعروف على أى حال أن صاحب السلطان إذا أقام فى عاصمته كان ذلك أضمن لقوته واستمرار هيبته ، وهيبة ولى الأمر هى أكبر عماد له فى تثبيت سلطانه .

أمّا وقد خرج من المدينة فقد ترك وراءه قاعدة خلافته وسلطانه وهيبة المدينة ومكة والأنصار وجِلَّة المهاجرين وذهب إلى جماعات من المقاتلة معظمهم من تميم وكندة والأعاريب لم يعرفوا رسول الله ﷺ ولا امتلأت قلوبهم بهيبة الصحابة وجلال المدينة، والحق أن علىّ بن أبى طالب عندما وصل ذا قار واستقر بها يستعد لدخول الكوفة نشعر أن الأمر خرج من يده . وكل يوم يرد عليه ناس لا يدرى حقيقة ما فى نفوسهم ونجده بعد أن ترك قاعدة سلطانه يحاول أن يقنع الناس ويجمعهم تحت رايته ليقضى على الفتنة ، ولكن أى ناس ، لقد كان عرب الكوفة إلى الأمس القريب ينظرون إلى قريش نظرتهم إلى القائد ، أما الآن وقد ترك علىٌّ قاعدته وألقى بنفسه بينهم فهم يتعللون ويتتايعون ثم يجرؤ ناس منهم عليه من أمثال : مسعر بن فَدَكىّ التميمى ، وزيد بن حصين الطائى ، وشبث بن رِبعى ، والأشعث بن قيس الكندى ويجترئون عليه بما لا يليق .

فعندما تبينت لعلى خدعة التحكيم نهى أصحابه هؤلاء عن الاستجابة لها ، فيقول له « مِسعر بن فَدَكىّ التميمى ، وزيد بن حصين الطائى ثم السنبسى ، فى عصابة معهما من القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك : يا على أجب إلى كتاب الله عز وجل إذ دعيت إليه وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان ، إنه علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عز وجل فقبلناه ، والله لتفعلنّها أو لنفعلنها بك . قال : فاحفظوا

عنى نهيى إياكم ، واحفظوا مقالتكم لى. أما أنا فإن تطيعونى تقاتلوا، وإن تعصونى فاصنعوا ما بدا لكم ! قالوا له : فابعث إلى الأشتر فليأتِك »[1] .

فهل كان يمكن أن يسمع على بن أبى طالب مثل هذا الكلام لو أنه بقى فى المدينة فى دار الهجرة وقاعدة الدولة وبين جِلَّة الصحابة والمهاجرين والأنصار الذين يعرفون قدره وإن اختلف بعضهم معه فى الرأى ، ولكنه الآن مع أولئك الأجلاف الذين خدعهم معاوية وأصحابه بمكيدة الاحتكام إلى كتاب الله ، وهل كان على منذ تولى الخلافة إلا على كتاب الله .

وكما قلنا إن طلائع العصيان الجاهل على علىٍّ بدأت بعد استقراره فى الكوفة ، بين ناس من العرب لا يعرفون قدره وليس لديهم أى تقدير لمركز الخلافة وصاحبها ، ومن هنا فقد جرؤوا عليه وتطاول بعضهم عليه منذ البداية وظن بعضهم أن الخليفة محتاج لعونهم معتمد عليهم ، وصدرت عن بعضهم أقوال مثل : قال قائل : « علام قتلنا الشيخ (يريد عثمان) إذ اليمن لعبيد الله بن عباس والحجاز لقثم (بن العباس) والبصرة لعبد الله (بن عباس) والكوفة لعلى »[2] وكلما طال به الأمر فى ذى قار ثم فى الكوفة اشتد النقد وتبيَّن على أنه دخل فيما يشبه المغامرة ، ويسيطر على الموقف من دونه رجال من أمثال مسعر بن فدكى الذى ذكرناه ثم يخرج عليه الخوارج ويبايعون من دونه عبد الله بن وهب الراسبى ، والأمر يزيد بعد ذلك سوءاً .

ونحن منذ خرج على من المدينة نرى قريشاً تقاتل قريشاً وجماعات العرب يلتفون حول هذا وذاك من رجالات قريش ، والقصة طويلة وردت إلينا فى روايات شتى والذى يعنينا من أمرها فى بحثنا هذا أن قريشاً فقدت هيبتها جملة ، ففى كل جانب من المتقاتلين من قريش جماعة من العرب يملكون زمام الأمر . ونضيف هنا أنه حتى عندما ينتصر معاوية لا يحسب هذا النصر لقريش . والنصوص كثيرة عن جرأة هؤلاء الأعراب على علىٍّ وتصورهم أنهم عماده بل هدده بعضهم بتسليمه إلى أعدائه ، وما كان شىء من ذلك ليحدث لو أن علياً قرَّ فى مكانه فى المدينة ، واستدعى الأنصار

---

(١) الطبرى : ٥/ ٤٩ .

(٢) الطبرى ، تاريخ ٤/ ٤٩٢ .

والناس ليؤيدوا خليفة المسلمين ، وهنا كان يستطيع أن يرسل رجلاً يختاره على رأس جيش ليقضى على معاوية فى الشام فتنتهى الفتنة ، أما ذلك الخروج من المدينة إلى الكوفة والاعتماد على جماعات من العرب ما كان لهم قط أن يكونوا أصحاب الرأى فى ذلك الموقف الحرج فقد أضر بقضية على وبمركز الخلافة ضرراً بليغاً .

ويبدو على الجملة أن السياسة لم تكن ميدان على بن أبى طالب إنما هو رجل فضيلة وفضل وعلم وبسالة فى القتال ، ولا شك فى أن علياً شعر بخطئه فى الخروج من المدينة إلى الكوفة عندما استقر هناك وسط أولئك الأعراب ، ولم يكن الكثيرون منهم مقاتلين ، وإنما هم كانوا راحلين من قلب الجزيرة إلى الكوفة ليتوجهوا منها إلى المهاجر حيث يلحقون بذويهم وأبناء قبائلهم فيها . فالموجودون منهم فى الكوفة اليوم قد لايكونون موجودين غداً . أما أهل الكوفة أنفسهم فلم يكونوا بمقاتلين ولا كانوا على استعداد ليقاتلوا فى سبيل على ، إنما هم أهل معايش ومتاجر وخدمة ، وهؤلاء لا شأن لهم بقتال وإذا كانت تصرفات بنى أمية وتهافتهم على السلطان قد كانت ذات أثر بعيد فى سقوط هيبة قريش وافتراق أمرها ، فلابدّ أن نضيف هنا أن علىّ بن أبى طالب لولا أنه خرج من مدينة الرسول ﷺ وترك هيبتها وراءه لما تيسر لهم ذلك .

بَنو أميّة

وَنصيبهم فى القَضاء عَلى هَيبَة قريش :

ونأتى هنا فى سياق هذا الكلام على خروج الأمر من يد قريش بلمحات من عدوان أعاريب نجد أعداء قريش على المدينة وأهلها ، واجترائهم على الكعبة المكرمة بأوامر من الخلافة الأموية ، لنرى كيف أن آل سفيان وآل مروان قد ضحوا بشرفهم جملة لكى يصلوا إلى ما اعتقد رجالهم أنه نصر لهم وفوز بالسلطان والرياسة ، وهو فى الحقيقة عين الهزيمة .

ذلك أن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ظن أنه عندما أرسل مسلمَ بن عقبة المرى ثم الحصين بن النِّمر الكندى لاقتحام المدينة وقتال الأنصار ثم انتهاك حرمة مكة فى ذى الحجة سنة ٦٣هـ ، ظن أنه يكسب كسباً سياسياً عظيماً أو عندما نفذ ذلك المرى

الكافر الجافى القلب ما أمر به يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، وقام بهذه الشناعة التى هى وصمة فى جبين المسلمين جميعاً . كان فى الحقيقة يحطم قريشاً بقريش ويشفى غليله بالعبث بالقرشيين ، فلننظر الآن موقف هذا الرجل من سادته بنى أمية ، ولنذكر هنا أن أهل المدينة الذين أنكروا بيعة يزيد بن معاوية لم يكونوا كلهم من الأنصار ، بل كان فيهم قرشيون ومهاجرون أيضاً ، والمعرة التى لحقت بأهل المدينة نتيجة لموقعة الحرة تلحق هؤلاء جميعاً .

وكان مروان بن الحكم وابنه عبد الملك بن مروان ونفر من بنى أمية فى المدينة فدعاهم مسلم بن عقبة المرى إلى خيانة أهل المدينة والانضمام إليه والإشارة عليه بما يعرفون من عورات المدينة ، فأما مروان بن الحكم فلم يرض ، وأما عبد الملك بن مروان فقد استجاب ودخل فى خدمة رجل مرة .قال الطبرى راوياً عن ابن مخنف وعبد الملك بن نوفل : « وقد كان أهل المدينة قد اتخذوا خندقاً فى جانب المدينة ونزله منهم جمع عظيم وكان عليهم عبد الرحمن بن زهير بن عبد عوف ابن عم عبد الرحمن ابن عوف المرى ، وكان عبد الله بن مطيع على ربع [1] آخر من جانب المدينة ، وكان معقل بن سنان الأشجعى على ربع آخر فى جانب المدينة ، وكان أمير جماعتهم عبد الله ابن حنظلة الغسيل الأنصارى [2] فى أعظم تلك الأرباع وأكثرها عدداً » .

قال هشام (بن السائب الكلبى) : « وأما عوانة بن الحكم الكلبى فيذكر أن عبد الله بن مطيع كان على قريش من أهل المدينة . وعبد الله بن حنظلة الغسيل على الأنصار ، ومعقل بن سنان على المهاجرين »[3] .

وقد انهزم أهل المدينة فى ذلك اليوم الأسود لأنهم كانوا مؤمنين متطوعين يقاتلون جنداً مرتزقاً مدرباً على الحرب مزوداً بالحراب والنَّبْل أضعاف ما كان عند أهل المدينة ، وقد أصاب القرشيين : أمويين وهاشميين من أهل المدينة فى ذلك اليوم قدر ما أصاب الأنصار ، واقرأ الخبر التالى « قال هشام : حدثنى عوانة قال : دعا النَّاسَ

(١) المراد بالربع هنا قسم من المدينة .
(٢) هو ابن حنظلة بن أبى عامر الراهب الذى يسميه المسلمون بالفاسق ، وقد قُتِل حنظلة هذا فى موقعة أحد وقيل : إن الملائكة غسَّلته فسمى بغسيل الملائكة .
(٣) الطبرى ، ٥/ ٤٨٧ .

مسلم بن عقبة المرى بقباء إلى البيعة ، وطلب الأمان لرجلين من قريش : ليزيد بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزيٰ ومحمد بن أبى الجهم بن حذيفة العدوى ولمعقل بن سنان الأشجعى ، فأتى بها [الصواب بهم] بعد الوقعة بيوم ، فقال بَايعا فقال القرشيان : نبايعك على كتاب الله وسنة نبيه ، فقال : لا والله لاأقيلكم هذا أبداً فقدمهما فضرب أعناقهما ، فقال له مروان (بن الحكم) : سبحان الله أتقتل رجلين من قريش أتيا ليؤمنا فضربت أعناقهما فنخس بالقضيب فى خاصرته، ثم قال : وأنت والله لو قلت بمقالتهما ما رأيت السماء إلا برقة »[1] .

بل حدث لقريش ما هو أسوأ من ذلك على يد هذا الرجل ، وجدير بالذكر هنا أن هذا المرى ينتسب إلى مُرة بن عوف بن سعد بن ذبيان من غطفان ، فهو إذن ابن عم عيينة بن حصن الفزارى ، وطالما لقيتْ فزارة ومرة الهوان على يد قريش قبل الإسلام وبعده ، فقد أتى بيزيد بن عبد الله بن زمعة (من بنى أسد بن عبد العزى) « فقال : بايع قال : أبايع على سُنة عمر ، قال : اقتلوه . قال : أنا أبايع ، قال : لا والله لا أقيلك . فكلّمه مروان بن الحكم لعهد كان بينهما ، فأمر بمروان فَوُجِئت عنقه ثم قال : بايعوا على أنكم خَوَلٌ ليزيد بن معاوية ثم أمر به فقُتِل »[2] .

وإذن : فهذا الرجل المرى الغطفانى يتغالى فى تشدده نكالاً بقريش ، فقد أهان مروان بن الحكم وقتل هذين القرشيين ، وواحد منهما أراد أن يبايع يزيداً فلم يأذن له وقتله ولم يرض إلا أن يبايع الناس قرشيين وغير قرشيين على أنهم عبيد ليزيد بن معاوية ، والغرض الحقيقى وراء هذا التشدد هو أنه أراد أن يذل القرشيين بنفسه ، وأن يحكم عليهم بأن يصيروا عبيداً . وما نقول هذا من عندنا ولكن ، إليك خبر يكشف عن هذه الحقيقة فقد كان واحد من الرجال الذين قتلهم مسلم بن عقبة المرى على هذه الصورة ، معقل بن سنان الأشجعى .

وكان معقل بن سنان هذا قد أنكر خلافة يزيد بن معاوية وقال كلمة مهينة فى حقه ، ثم أضاف إليها عبارة لم يغفرها له هذا المرى الغطفانى ، فقد روى الطبرى عن

---

(١) الطبرى ، ٥/ ٤٩١ - ٤٩٢ .
(٢) الطبرى :٥/ ٤٩٢ - ٤٩٣ .

هشام بن السائب الكلبى عن عوانة بن الحكم ، أن مسلم المرى عندما قدم معقل بن سنان للقتل قال له : « أنت الذى لقيتنى بطبرية ليلة خرجت من عند يزيد (بن معاوية) فقلت : سرنا شهراً ورجعنا من عند يزيد صفْراً نرجع إلى المدينة فنخلع هذا الفاسق ونبايع لرجل من أبناء المهاجرين : فيمَ غطفان وأشجع من الخَلْعِ (وفى رواية : من الخلق) والخلافة : إنى آليت بيمينى لا ألقاك فى حرب أقدر فيه على ضرب عنقك إلا فعلت : ثم أمر به فقُتِل » .

إذن : فهو ثأر مبيَّت عند أبناء هذه القبائل الحاقدة على قريش الناقمة عليها أدركته على يد قريش نفسها ، فتميم والأزد من ناحية تتشفى من قريش بقتل الحسين وآله ، وكندة وطىء من ناحية أخرى تتلذذ بالاستبداد بعلى بن أبى طالب ، وهذا هو المرى الغطفانى يتشفَّى من رجل لأنه قال : وما لغطفان وأشجع من الخلافة والخلع .

وكل ذلك فعلته قريش بنفسها !

وقد روى الطبرى عن الواقدى خبراً إن صح فهو بمثابة تقرير لما فعلته قريش بنفسها ، فقد روى أن عمرو بن العاص كان مختلفاً مع عثمان ناقماً عليه بسبب عزله إياه عن مصر ، فمضى يحرض على عثمان ، ثم اعتزل فى بيت له فى جنوبى فلسطين وظل يحرض على عثمان ، فلما بلغه خبر مقتل عثمان قال لرجل كان معه يسمى سلامة ابن روح الجذامى « أنا أبو عبد الله ، إذا حككت قرحة نكأتها إنى كنت لأحرض عليه حتى إنى لأحرض عليه الراعى فى غنمه فى رأس الجبل ، فقال له سلامة بن روح الجذامى : يا معشر قريش ، إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه . فما حملكم على ذلك ؟ فقال : أردنا أن نخرج الحق من حافرة الباطل ، وأن يكون الناس فى الحق شرعاً سواء» [١] .

والحقيقة أن قريشاً عندما استولت على الأمر وتورطت فى السياسة عجزت عن القيادة واختلف بعضها مع بعض واحتربت فيما بينها ، فجرؤ عليها الناس وضاع أمرها ، وقد روى الطبرى بإسناده فى أثناء القتال بين على ومعاوية فى صفين ، أن علياً

(١) الطبرى ، ٤/ ٣٥٦ .

كان يرجو أن يتوقف معاوية وأصحابه عن القتال ويسلموا له لتجتمع الكلمة ، فأقبل رجل من غير قريش يسمى كعب بن سُور فنصح علياً بأن يكر بمن معه على أعدائه فيفنيهم ، فقال له أصحاب على من القرشيين : « يا كعب ، إن هذا أمر بيننا وبين إخواننا وهو أمر ملتبس . لا والله ما أخذ أصحاب محمد ﷺ منذ بعث الله نبيه طريقاً إلا علموا أين مواقع أقدامهم حتى حدث هذا ، فإنهم لا يدرون أمقبلون هم أم مدبرون ! إن الشيءَ يَحْسُن عندنا اليوم ويقبح عند إخواننا ، فإذا كان من الغد قبح عندنا وحَسُن عندهم وإنَّا لنحتج عليهم بالحجة فلا يرونها حجة ، ثم يحتجون بها على أمثالها ، ونحن نرجو الصلح إن أجابوا إليه وتموا ، وإلا فإن آخر الدواء الكى »[1] .



---

(١) الطبرى ، ٤/ ٤٩٥ .

الأُمَويّونَ والعبَّاسيُّون
وَنَصيبهم فى القضَاء عَلى هَيبَة قُريش
وبقَاء الفَرع العَلَوى



بَنو أميّة وَمَسؤوليتهم فى إضعَاف قريش :

كان العصر الأُموى تجربة عسيرة جداً للعرب وقريش . لقد توقفنا فى عرضنا عند بداية الفترة المروانية بولاية مروان بن الحكم فى ٣ ذى الحجة سنة ٦٤هـ/ ٢٢ يوليو ٦٨٤م . لأن مسار الأحداث إلى الآن فى قيادة الفرع السفيانى انتهى إلى ما يشبه الطريق المسدود ، ومؤتمر بنى أمية فى الجابية لم يكن اجتماعاً عربياً ولا إسلامياً ، إنما هو اجتماع قبلى قاده شيخ مروانى ضعيف الانتماء والإيمان والأمر ، وقرر المصيرَ فيه شيخٌ من شيوخ القبائل البدوية التى أصبح رجالها نتيجة لفشل قريش فى إدارة الدولة أصحاب الأمر فى مصائر الخلافة ، وقد رأينا العوامل التى حركت هؤلاء الشيوخ البدويين الذين تحولوا إلى قادة سياسيين وعسكريين ، فى حين أن نفراً كبيراً من أهل عشيرتهم من رجال القبائل أصبحوا جنداً مرتزقة يخدم من يدفع وتراجع فى نفوسهم الوازع الدينى وانمحت من أذهانهم فكرة صالح الجماعة الإسلامية ، ومن حسن الحظ أن هؤلاء كانوا قلة بالنسبة لمجموع العرب ، أما البقية فقد واصلت الفتوح غير مكترثة للسياسة .

ولم نكن نتوقع من هذا الطراز من الرجال أن يكونوا قادة أمة أو ساسة دولة ، وإنما كان شأن هؤلاء فى أيام أبى بكر وعمر أن يُوَجهوا التوجيه الصحيح فيطيعوا ويصبحوا قادة وجنوداً بواسل تأتمر بأمر أصحاب الأمر فى دولة الإسلام ، وسَيُرَدُّ هؤلاء إلى هذا الوضع عندما يتولى خليفة قوى مثل عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، وستحقق القيادة القرشية المروانية على أيديهم فتوحاً عظيمة ، ولكن هؤلاء القادة والجند من العرب سواء أكانوا فى السياسة أو خارجها لم يعودوا قط إلى ما كانوا عليه

أيام أبى بكر وعمر : مجاهدين فى سبيل الأمة توجههم القيادة الحكيمة ، إنهم اليوم شركاء الخلفاء فى الحكم ولهم كلمة ودالة ونزوات لابد أن تتغاضى عنها القيادة المروانية القرشية ، فهى لم تعد السيدة المطلقة فى الدولة ، وخلفاء بنى مروان يجتهدون فى السيطرة على مسار الأمور بأساليب سيئة وخبيثة ، غريبة عن طبيعة الإسلام أما الأمة الإسلامية المؤمنة - عربها وغير عربها - فقد نفضت أيديها من السياسة والخلافة وأسلمت قيادها لأهل العلم والتُّقى والإيمان من أهل الورع والعلم والفقه.

ومن بداية خلافة معاوية بن أبى سفيان خلعت الأمة فى الواقع ودون الاسم والظاهر بيعة الخلفاء أو الولاء لهم ، ولم يعلن هذا الخلع إلا الخوارج على درجات وصور مختلفة بحسب مذاهبهم من حرورية ونجدات متطرفين ، إلى صفرية أنصاف متطرفين ، إلى إباضية معتدلين : خارجين على الدولة ولكنهم مهادنون للأمة غافرون لها طاعة الأئمة الجائرين إدراكاً منهم لصعوبة الخروج الصريح على الدولة والأمة معاً وحَمْل السلاح فى وجهها .

وفى جانب آخر مضى الهاشميون يرتبون أمورهم فى الخفاء لأن تجاربهم فى العصر السفيانى أقنعتهم بخطر المجابهة السافرة والتعرض لسيوف الجند العربى المرتزقة التى كانت تضرب فى غير رحمة ، وأحياناً بلا دين أو عقيدة .

وقد بدأ المروانيون بالقضاء على دعوة للإمامة قادها قرشى من بنى عبد العزى بن قصى هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد وأمه أسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين من بنى تيم بن مرة ، وعبد الله بن الزبير كان خليفة مناوئاً فى مكة والحجاز مدى ثلاثة عشر عاماً ، وأقام بالبيت متحصناً فيه فسمى بالعائذ ، وهو كان بطبعه بعيداً كل البعد عن خِلِال الخلافة ، وقد جاء حينٌ من الدهر طاعت له معظم ولايات الدولة . لا حباً فيه ولكن كراهة ببنى أمية جملة . وهو - عبد الله بن الزبير - السبب فيها أصاب البيت المعظم فى مكة على يد مسلم بن عقبة المرى والحصين بن نمير الكندى ، وهو أيضاً كان سبب هلاك الآلاف من المسلمين الذين وقفوا معه فى الحجاز أو مع أخيه مصعب فى العراق ، ومهما كان الرأى فى خلافة عبد الله بن الزبير

فهى محسوبة على قريش ، كما كان موقف أبيه الزبير بن العوام من على بن أبى طالب محسوباً عليها أيضاً ، وإذا كانت قيادة قريش قد تهدمت فإن المسئولين عن ذلك قرشيون فقد طاعت الأمة لقريش أيام الرسول وأيام أبى بكر وعمر ثم وقعت المنافسات على الخلافة بعد عمر وتزعزعت وحدة قريش واهتزت زعامتها على ما حكيناه .

انتهت دعوى ابن الزبير واستقر الأمر لمروان بن الحكم وبيت مروان ، ولكن نصر البيت المروانى كان هزيمة لقريش ، فلكى ينتصر مروان كان لابد من تحطيم قوة القيسيين الذين مالوا إلى تأييد ابن الزبير ، وقد تم ذلك فى موقعة مرج راهط التى انتصر فيها الكلبيون - وهم بنو كلب بن وبرة القضاعيون الذين انتسبوا بعد الإسلام فى اليمن - على الضحاك بن قيس الفهرى ومن معه من القيسية (المحرم سنة ٦٥هـ) وكان البيت السفيانى قد عرف من أيام ولاية يزيد بن أبى سفيان أخى معاوية الأكبر ، كيف يجمع عرب الشام جميعاً - كلبية وقيسية أو مُضَرية - حول رايته ، وتحويلهم إلى قوة عسكرية مرتزقة متحدة تحت رايته ، وبفضل هذه القوة انتصر معاوية ثم ابنه يزيد على كل من ناوأهم .

أما بعد معركة المرج فقد انكسرت وحدة القوة العربية التى شدت أزر بنى أمية . وثارت الفتنة فى طول الدولة وعرضها بين القيسية والكلبية ، أو بين مُضَر واليمن . وفى خراسان بالذات ، حيث تجمع أكبر عدد من مهاجرة العرب إلى الأمصار بلغت عداوة الجانبين أحدهما ضد الآخر مبلغاً كان له أسوأ الأثر على مصير العروبة فى خراسان وإيران كلها . وقد كان عرب خراسان وما حولها من ولايات سجستان وكرمان ومكران وطبرستان وجُرجان والجبال ، قد تكاثروا وغلبوا على أهل البلاد ، وأخذ الإيرانيون يتكلمون العربية أى يستعربون ، ولو أن الأمور استمرت على هذا المنوال لتعربت إيران كما تعرب العراق والشام ومصر ، ولما كانت هذه الظاهرة الإيرانية الخطرة التى كسرت وحدة أمة الإسلام ووقفت بالعروبة عند الخليج وشرقى العراق ، ولأصبح شرق العالم الإسلامى كله عربياً كما هو الحال بالنسبة لغربه .

وقد كانت خراسان وما يليها شرقاً من بلاد طخارستان ، وجنوباً من بلاد

سجستان وكرمان ، وشمالاً من بلاد ما وراء النهر ، هى الصخرة التى تحطمت عليها الدولة الأموية ، فهنا فى الجناح الشرقى لدولة الإسلام تجمعت جموع العرب الذين كانوا يشدون ظهر هذه الدولة ، أما عرب الشام فقد كانت الغالبية العظمى منهم من جذام ولخم وقضاعة وفروعها (وأهمها هنا كلب بن وبرة وتنوخ) وهؤلاء انضموا لتلك الدولة وأصبحوا مادة لجيوشها وعُرِفوا بعرب الشام أو الشامية . وفى مصر كانت أعداد غفيرة من قبائل قيسية انضمت إليها جماعات يمنية ، وكانت الحروب بينهم مستمرة ولكنها لم تشتد إلى الحد الذى يُعرِّض سلامة الدولة للخطر .

أما المغرب فقد نزلت به جماعات كثيرة من العرب معظمها من تميم . وفيما يلى نهر شلف (الخط الممتد جنوب مدينة الجزائر) ، لم يكن هناك إلا قليل من العرب ، ولم يكن للدولة عليهم سلطان كبير إلا أن دعوة الخوارج وصلت إليهم من وقت مبكر فأصبحوا فى عداد الخارجين عن سلطان الدولة الأموية ، وخاصة بعد الفتنة المغربية الكبرى التى انفجرت سنة ١٢٢هـ فى خلافة هشام بن عبد الملك ، وقضت فى النهاية على كل سلطان لدولة الخلافة شرقى نهر شلف ، وإن كانت الجماعات العربية التى استقرت هناك تحولت إلى عرب بلديين محليين كانت لهم الزعامة فى الكثير من القبائل البربرية ، وهؤلاء ذابوا مع الزمن فى كتلة السكان وأصبحوا عرباً مغاربة بلديين . أما الأندلس فقد اشتدت فيها الحروب الأهلية بين العرب طوال فترة الولاة من ٩٥ إلى ١٣٨هـ حتى دخل البلاد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل .

والناظر فى تاريخ الدولة الأمويـة يرى بوضوح أنها لم تكن لها سياسة عربية مستقرة ، وإذا كان عرب خراسان وفارس وما وراء النهر هم الذين استنفدوا أكبر جانب من قوة الدولة الأموية ، فقد كانت حروبهم ومنازعاتهم وعداواتهم ترجع مسئولية معظمها إلى سياسة خلفاء بنى أمية . وعلى الجملة فإننا نستطيع القول إن دولة بنى أمية هى المسئولة الأولى عن إضعاف العرب وتمهيد الطريق لحروبهم جملة من ميدان السياسة الإسلامية .

ذلك أن الذين هاجروا من العرب إلى العراق وبلاد المشرق ، كانوا كثيرين جداً

وكانت فيهم قوة وعزيمة وبسالة كانت كفيلة جداً بأن تجعل ذلك الجانب الشرقى لمملكة الإسلام قاعدة القوة لدولة الإسلام ومنطلقها لنشر الإسلام فى القارة الآسيوية ، ولكن الأمويين - والعباسيين بعدهم - كانوا مخطمين محزّبين لقوة العرب فى تلك الجبهة الشرقية الأساسية .

وعندما نقرأ تاريخ العصر الأموى يستوقف نظرنا سوء تدبير الخلافة الأموية لأمور العرب هناك ، وقد كانت جموع أولئك العرب كثيرة جداً ، وكان مركز تجمعهم الكبير الأول هى البصرة على أبواب المشرق ، ولم تكن البصرة - ومثلها الكوفة - أول الأمر مدينة بمعنى الكلمة بل كانت مركز تجمع العرب : يهاجرون من مواطنهم فى الجزيرة إلى البصرة أو الكوفة وهناك يستقرون حتى يعرفوا إلى أين يتجهون فى هجرتهم ، وكل قبيلة كانت تستعلم أين ينزل السابقون من أهلها لتلحق بهم . وكانت البصرة هى المركز الأول والأكبر ، لأن ولاية البصرة كان يتبعها كل فارس وخراسان وطخارستان وما وراء النهر ، أما الكوفة فلم يكن يتبعها إلا شمال العراق وبلاد طبرستان جنوبى بحر قزوين .

وكان ولاة البصرة قد قسموها إلى خمسة أخماس ، والخمس قطعة من البلد تسكنها جماعات عربية من قبائل معينة ، وأخماس البصرة كانت خمس أهل العالية ، وكانت تنزله القبائل المهاجرة من الحجاز وعوالى نجد أى الأراضى الممتدة من جبال السراة أى مرتفعات نجد ، والمراد بهم أعاريب نجد (هوازن وغطفان وعبس وذبيان وأسد ومحارب ومن إليهم) ، وكانت أعدادهم فى البصرة والشرق قليلة فضمهم رجال بنى أمية فى خمس واحد من أخماس البصرة ثم من أخماس خراسان ، وكانوا فى البصرة والمهاجر أحلاف بنى أمية ، ولهذا فقد كان الأمويون يفضلون اختيار ولاة خراسان منهم ، وخلال العصر الأموى كان حوالى ٧٠٪ من ولاة خراسان منهم ، وكان الذى رفع مكانتهم قتيبة بن مسلم الباهلى ، فكانوا « شعاره ودثاره » كما يقول الطبرى .

وكانت الكتلة الثانية من عرب خراسان هم الأزد ، فقد كثرت هجرة الأزد اليمنيين إلى خراسان أثناء ولاية المهلب بن أبى صفرة وكان بعد مقتل المهلب وتعيين

سليمان بن عبد الملك التميمى مكانه من أكبر الأسباب فى انصراف اليمنيين فى خراسان عن بنى أمية وميلهم إلى الدعوة العباسية .

وهناك خُمس تميم ، وكانت أعدادهم كثيرة جداً فى خراسان وكان لهم نصيب كبير فى الفتوح وخاصة أيام عبد الله بن عامر بن كريز ، لكن التميميين على كثرتهم كانوا مستضعفين يستعملهم الولاة لأنهم كانوا أقل مهاجرة عرب خراسان تحضراً ، وكان سليمان بن عبد الملك قد قرَّبهم إليه بعد نكبة قتيبة بن مسلم الباهلى ، وولّى واحداً منهم خراسان وهو وكيع بن أبى سود قاتل قتيبة ، ولكن خلفاء سليمان انقلبوا على التميميين وأساءوا إليهم ، وهذا كان سبب ميلهم إلى دعوة بنى العباس ، ومنهم كان الحارث بن سريج الذى انقلب على الدولة وانضم إلى الترك وحارب الأمويين ، وسببوا للعرب أذى كبيراً .

وهناك خمس بكر بن وائل وكانوا كثيرين فى خراسان وكان مركزهم هراة ، ولم يحسن ولاة بنى أمية معاملتهم .

ولو أنه كانت لبنى أمية سياسة عربية رشيدة لطال عمر دولتهم ، ولكن بنى أمية لم تكن لهم سياسة واضحة رشيدة فى أى أمر من أمور الدولة ، إنما كان الميزان عندهم هوى الخليفة وبغض بنى هاشم والاجتهاد فى القضاء عليهم ، وكل ذلك جعل جماعات عرب خراسان أكثر ميلاً إلى الدعوة الهاشمية التى تحولت إلى عباسية كما نعرف.

وعلى ذكر السياسة الرشيدة ينبغى أن نلاحظ أن خلفاء بنى أمية والعباسيين من بعدهم ، لم يكن لهم أى اهتمام بالمرافق العامة ، والمراد هنا الطرق ورعاية المدن والموانىء ومعاونة الفلاحين بشقّ القنوات وإقامة الجسور والعناية بها . وقد كانت للرومان عناية شديدة بهذه النواحى ، فقد أنشأ الرومان من الطرق المرصوفة آلاف الكيلو مترات لربط أجزاء الدولة بعضها ببعض ، ولتسهيل سير الجيوش والتجار . فأما دول العرب فلم يكن لها اهتمام بذلك ، وإن كان بعض الأمويين والعباسيين قد اهتموا بشقّ بعض الترع فى العراق ، ولكن هذه لم تكن جزءاً من سياسة عامة ، حتى

طرق الحج إلى الحجاز لم يعنوا بها عناية منتظمة ، وطريق زبيدة المشهورة عنيت به السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد من باب التُّقى لا من باب السياسة ، وكانت هناك عناية بشئون الحرمين ، ولكنها كانت قليلة وغير كافية .

ولا نجد فى نظم الدولة الأموية ثم العباسية بعدها إدارات للمدن والعناية بطرقها ومرافقها وتزويد أهلها بالمياه وحمايتهم من الحريق ، وكل هذه المرافق كانت موضع عناية الرومان ، ولها موظفون مسئولون عنها ، وكان لكل مدينة مجلس بلدى Municipo مسئولاً عنها . أما دولتا الأمويين والعباسيين فلم يوجد عندهم شىء من ذلك ، بل لم تكن لهم عناية بأسواق التجارة وطرقها أو الموانى ودور صناعاتها - فيما عدا - دور الصناعة الخاصة بالقوات البحرية للدولة ، أما موانى التجارة وسفنهم وحماية أموالهم فلا وجود لعناية بها على الحقيقة .

ويستوقف النظر أن رسول الله ﷺ كانت له عناية كبيرة بشئون المدينة وعمارتها وأسواقها والجسور على وديانها ، وهو الذى أنشأ الأحماء لإبل الصدقة وخَيْلها وماشيتها وهى جزء من بيت المال ، وقد اهتم أبو بكر وعمر بالأحماء فلما جاء عثمان وأراد الزيادة فيها احتج عليه الناس ، ولم يكن الدافع للاحتجاج الحرص على أموال الجماعة بقدر ما كان غضباً لبعض القبائل التى كان توسع الأحماء فى أراضيها ، وعلى أى حال فحتى هذه توقفت العناية بها بعد عثمان ، ولم تعد للدولة الأموية والعباسية بعدها أى عناية بالمرافق ، والمرافق هى مصالح الناس ، فلا غرابة فى أن يشعر الناس أن الدولة الأموية ثم العباسية من بعدها قد قامت لخدمة أصحابها فحسب ، وذلك كان من أكبر أسباب سقوط الدولة الأموية أولاً ثم انصراف الناس عن الدولة العباسية بعد ذلك .

ولكن أسوأ ما فعله الأمويون هو إذكاء العداوات والخصومات بين عرب خراسان والمشرق خاصة ، ظناً منهم أن ذلك يقوى دولتهم ، ولكنهم حطموا بذلك درع قوتهم وهم العرب وجعلوهم يميلون إلى دعاة الدعوة العباسية . فلما قامت ارتد معها إلى المشرق آلاف بعد آلاف من العرب ، فعادت النزعة اليمنية إلى الظهور واشتد

الصراع بين القيسية واليمنية فى نواحى الدولة كلها ، وخاصة فى إيران والمغرب والأندلس كما قلنا .

وقد استمر عرب إيران يتقاتلون حتى أفنى بعضهم بعضاً خلال معظم العصر الأموى ، وفى أثناء هذه الحرب الأهلية العربية المدمرة دخل دعاة بنى العباس واجتذبوا اليمنيين والخزاعيين الساخطين على مُضَر . وكان الانقلاب العباسى ، وقد ضمت جيوش المؤيدين للعباسيين الجانب الأكبر من بقايا عرب إيران وخراسان خاصة ، واتجهت ألوف منهم نحو العراق والمشرق تحت رايات العباسيين تاركة منازلها فى إيران خالية . وأصبحت أعداد العرب فى إيران ضئيلة جداً ، والعرب فى كل مكان خميرة التعريب وعصب السنة والجماعة . وبينما كانت اللغات الإيرانية والنزعة الإيرانية تحتضران فى أواخر أيام الوليد بن عبد الملك وأيام قتيبة بن مسلم عبقرى باهلة ومحمد بن القاسم فتى ثقيف انتعشتا فى أيام سليمان أخيه وخلفه ، ونفخ دعاة العباسيين فى نيران الفتنة وخاصة بعد مقتل يزيد بن المهلب وانكسار شوكة الأزد ، وكانوا بجموعهم الضخمة العمود الفقرى للعروبة فى الجناح الشرقى لدولة الإسلام.

وهذه النتيجة كلها ثمرة لعجز الفرع الأموى من قريش عن قيادة الجماعة الإسلامية جملة ، فبنو أمية العبشميون شقوا عصا العرب تمكيناً لسلطانهم واستمروا على سياستهم المدمرة للعرب إلى آخر أيامهم ، ثم جاء دعاة الهاشميين فأكملوا ظاهرة تصدع كلمة العرب وتضعضع قواهم وإضعاف دولة الإسلام نتيجة لذلك ، فإذا كان الأولون زلزالاً صدع بنيان أمة الإسلام المكين ، فإن الآخرين - دعاة الهاشميين - كانوا البركان الذى يأتى أحياناً بعد الزلزال ، فتقضى الحمم والنار على ما بقى قائماً .

ولقد قرأت ما كتبه شباب من مؤرخى العرب اليوم وشيوخهم عن طبيعة الدعوة العباسية وما يقولونه من أن الثورة العباسية لم تكن حركة موالٍ إيرانيين كما زعم فان فلوتن ، ودوزى ، ويوليوس فلهاوزن ، وإنما هى ثورة عربية قام بها عرب ضد عرب فى الجناح الشرقى لدولة الإسلام يحسبون أن ذلك كشف جديد يغير صورة التاريخ ،

وما هو بالكشف وإنما هو معروف من قديم الزمان ، وإذا كنا قد عثرنا على مؤيدات واضحة له عند ابن أعثم الكوفى والأزدى وفى كتاب أخبار العباس وولده ومؤلفه مجهول ، فإنه كان حقيقة معروفة عند الطبرى واليعقوبى والبلاذرى ، واقرأ قائمة نقباء الحركة العباسية وقادة الجيوش تَرَ أنهم عرب ليس فيهم من الموالى إلّا نزر يسير ، وهذا بديهى لأن الصراع فى حقيقته كان صراعاً بين بنى أمية ومن انضم إليهم من العرب ، وبنى هاشم ومن مال ميلهم من العرب أيضاً .

وقد كانت نهاية الثورة بانتصار الفرع الهاشمى ثم العباسى على الفرع الأموى وأنصاره راجعة إلى تأييد الأزد وثقيف وتميم وخزاعة خاصة ، وأما الموالى فكان دورهم صغيراً جداً ، وحلَّ بنو العباس محل بنى أمية ولكن الأمر الذى يستوقف النظر فى قيام الدولة العباسية هو أن قائد الجيوش العباسية وذراع الثورة وأداتها الكبرى لم يكن عربياً بل مولى ، هو أبو مسلم الخراسانى ، ثم إن القوات العربية التى سارت من مواقعها فى خراسان وبلاد الترك إلى العراق لتزيل ملك بنى أمية فى العراق ثم فى الشام لم تعد إلى المشرق بعد ذلك ، وخلا مكانها وعجزت بقية العرب – خميرة التعريب – عن تعريب العناصر الإيرانية فينبض عرق الإيرانية من جديد وخاصة عند أنصار النظام الساسانى الذى أزاله العرب ، فانطوت قلوبهم على كراهية العرب الذين أزالوا بيتهم المالك الذى كانوا يعتزون به ويستبدون بالناس باسمه ، وهذا هو المهم ولُباب الموضوع فنهضوا من جديد ونفخوا فى رماد المجد الإيرانى الذاهب ليبعثوا فيه الحياة من جديد ، وشجعهم على ذلك أن العرب الفاتحين تقبلوا إسلام الكثيرين من الفرس دون تحقق من سلامة صِدْقه أو العناية بتعليم أولادهم العربية وتنشئتهم على الإسلام .

ولنضف إلى ذلك أن العرب ارتكبوا أخطاء سياسية كبيرة أثناء الفتوح فأقروا بعض كبار رجال الأكاسرة من طبقة الأساورة فى رياساتهم وعهدوا إليهم فى الوظائف والأعمال الإدارية والمالية منخدعين بإسلام ظاهرى نطقوا به بشفاههم دون قلوبهم ، وأسوأ من ذلك إقرارهم حكام القرى والكور ممن دخل فى الإسلام فى وظائفهم ، وهؤلاء هم الأصبهبذون – واحدهم أصبهبذ – فمضوا يرهقون الناس

بالضرائب كما كان الحال قبلاً ، ولا يقدمون للدولة إلا ما ينص عليه الشرع ، وساعد فى ذلك بعض ولاة العرب ورجالهم فى خراسان وقد كان فيهم فساد كثير يصل إلى نهب الناس . فساءت صورة الحكم الإسلامى فى إيران أثناء العصر الأموى ، وكرهت الجماهير بنى أمية ورجالهم وتعلقت نفوسهم بخليفة عادل يطبق عليهم شرع الإسلام ، واجتمعت آمالهم حول على بن أبى طالب لأنه كان شخصية جليلة حقاً، ومثالاً للفارس المسلم المؤمن، فلما قتل اتجهت قلوبهم إلى ابنه الحسين فلما قتله الأمويون على الصورة البشعة المعروفة أصبح دم الحسين الشهيد هو صوت المعركة ولواؤها . ولهذا يعتبر العاشر من المحرم سنة ٦٣هـ . أشد أيام التاريخ الإسلامى حسماً ، فهو يوم تصدُّع وحدة العرب وبدء ظهور الإيرانيين على مسرح السياسة الإسلامية .

وموالى إيران هنا انتصروا دون أن يخوضوا حرباً مع العرب ، وأيدت الخلافة العباسية ذلك بالاستكثار بعد ذلك من جند الموالى ورجالهم والاعتماد عليهم ، واتخذوا قاعدتهم فى بغداد خارج النطاق العربى ثم اتجه العباسيون إلى إهمال ذكر الأنساب العربية ، فالرجل أصبح يُذكر منسوباً إلى بلده ، وينتهى الأمر بانهزام العرب وضعف جبهة العروبة فى مركز الدولة . لم يهزمهم الإيرانيون أو الفرس أو الموالى وإنما كانوا هم الذين هزموا أنفسهم ، وهى ظاهرة ما أكثر ما حدثت فى تاريخ العرب وصراع هاشم وعبد شمس ، وهو صراع كان محدوداً وغير خطر فى الجاهلية ، أخذ شكلاً خطراً بعد الإسلام وقيام الخلافة وقاضياً على قوة قريش فى النهاية ومُؤْذِناً بنهاية سيادة العرب فى دولة الإسلام ، وتلك هى النتيجة الفاصلة حقاً فى تاريخ المسلمين .

وسواء نظرنا إلى السياسة العربية للدولة الأموية أو للسياسة العربية للدولة العباسية فسنجد فى الصميم أنها كانت سياسة مدمرة للسيادة العربية عامة والقرشية خاصة ، وكلما مضينا مع التاريخ العباسى فإننا نجد السيادة القرشية تتراجع . حقاً إن الخليفة كان قرشياً ، ولكن قريشاً كانت تتراجع وتخرج من ميدان السيادة والقيادة ليتحول القرشيون فى النهاية إلى طبقة من الأشراف أو النبلاء إذا شئت لا شأن لها

بسياسة أو سيادة ، وإنما هم زينة فى المجتمع وعنوان شرف ولا زيادة ، وفى مكان سيد الدولة القرشى يظهر شيخ قريش فى بغداد وواسط والبصرة والكوفة والفسطاط ، وهو رجل من المياسير الأجلاء الذين يزينون المجتمع ويتقاضون رواتب من الدولة لأنهم ذوو القربى ولهم مال معلوم فى بيت مال المسلمين دون أن يكون لهم أى وزن سياسى . وفى سيرة الإمام الشافعى - وهو قرشى - نقرأ أن أمه خافت إن هى ظال مقامها بابنها فى منازل خزاعة فى طبرستان أن يفقد حقه فى بيت المال ، فسارعت به إلى بغداد .

أما فيما يتعلق بالدولة العباسية فإن الخليفة يتحول مع الزمن إلى شخصية غير عربية فى السياسة والروح ، وليس عبثاً أن تكون أم أبى جعفر المنصور كانت جارية مغربية لأن معظم أمهات الخلفاء سيصبحن من الآن فصاعداً غير عربيات ، وشيئاً فشيئاً تقِلّ حتى تتلاشى النسبة القرشية بل العربية فى دماء الخلفاء ، ولا يبقى من سمات القرشية والعروبة إلا الاسم واللسان وقريش بهذا تتحول إلى ذكرى ، وتحضرنى بهذه المناسبة حادثة صغيرة يرويها ادوارد جبيون فى تاريخه الممتع لتدهور الدولة الرومانية وسقوطها ، فهو يحكى أن شيخاً وقف فى مجلس الشيوخ أيام الامبراطور هادريان (١١٧ - ١٣٨ ق.م.) وقال : أيها الرومان فلم يرد عليه أحد ولا فهم كلامه أحد ، فلم يعد فى المجلس رومان يفهمون اللاتينية الفصيحة ، لأن كل الجالسين كانوا غير رومان يحملون أسماء رومانية ، وضعهم فى مجلس الشيوخ القادة المتنافسون على تاج الامبراطورية .

وقصة تدهور السلطان القرشى العباسى قصة طويلة محزنة . وأكثر ما يستوقف نظر المؤرخ فيها هو هذا الهوان الذليل الذى وصلت إليه القيادة القرشية العباسية ، وإن الإنسان ليأسى - دون أن يدهش - كيف انحدرت القيادة القرشية من الأوج الذى كانت فيه أيام أبى بكر وعمر وتهبط إلى الدرك الذى وصلت إليه ابتداء من أيام المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ - ٨٦١م) وهو الخليفة الذى يدخل التاريخ على أنه أول خليفة قرشى قتله ابنه ، ثم يجيء بعده ابنه المنتصر ، أول خليفة صعد إلى كرسى الخلافة على جثة أبيه وقتيله ، والمستعين الذى لم يكتف الأتراك بخلعه ونفيه بل أصروا

على قتله ، ثم المعتز الذى وصف لنا ابن الأثير مشهد مهانته وذله على يد جنده الأتـراك فى صورة مللناها لكثرة مـا قرأناها [1] فهذا الرجل الذى لابد أن يُعتبر - رسميـاً - شيخ قريش فى عصره ، ظل خليفـة لمدة ثـلاث سنوات (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ/ ٨٦٦ - ٨٦٩م) يُجَرُّ من رِجْله ويضرب بالدبابيس ويقطـع قميصه ويقام فى الشمس فى الدار فيمضى يرفع رِجْلاً ويضع أخرى لشدة الحر ، وعبد مملوك يلطمه فيتقى بيده، وفى النهاية يضعونه فى سرداب ويقفلون عليه ويختفى من صفحات تاريخ لم يدخله ، وهذا ما وصل إليه حفيد قصى المجَمِّع وعبد المطلب الجليل ، وهذا ما فعلته الخلافة بهذا الفرع من قريش : جروا وراءها وطلبوها ونسوا دينهم من أجلها وخاضوا بحار الدم فى سبيلها ليذلوا المسلمين بها ويذلوا هم أنفسهم بها أيضاً ، وأمة الإسلام التى سعوا إلى دوسها بأقدامهم ظلت بعيدة عنهم وأصبحت فقيرة منهوبة ولكنها مؤمنة ، مظلومة ولكنها عزيزة ، مجردة من حقها ولكنها كريمة رافعة الرأس بإيمانها وعلمائها وقرآنها وحديثها .

فلننظر الآن فى أمر البيت الثانى من بيوت قريش الذى اجتمعت على حبه أمة الإسلام حباً فى رسولها ﷺ : البيت الهاشمى العلوى الذى حكم عليه بيت عبد شمس بالموت ، وفشل الجلاد الأموى فى تنفيذ العقوبة ، فأراد الحظ أن تتكرر المحاولة الشريرة الغبية على يد الهاشميين العباسيين .

وثب العباسيون على الخلافة ونالوها بالدهاء والسيف ، وقد أسرفوا فى العنف والقتل والعدوان على الدماء والأموال حتى أخرجوا أنفسهم فى أحيان كثيرة عن الإسلام بواقع تصرفهم ، وإن ظلوا يحكمون معظم أمصاره بقوة السلاح والذكاء والجهد المبالغ فلم تجهد أسرة من أسر الخلافة فى المحافظة على ما صار إليها من دار الإسلام قدر ما جهد العباسيون ، وخاصة خلال العصر العباسى الأول ، حقاً إن الخلافة كانت دائماً شقاء لمن طلبها بعد أبى بكر وعمر ، ولكن الأمويين فى المشرق كانوا يعرفون أنهم خلفاء بالقوة لا بالحق ، وعمادهم الحقيقى كان على القادة العسكريين ورجال السياسة الذين أيّدوا دولتهم ، وكانوا واقعيين ، لهم فى المكان

---

(١) انظر ابن الأثير ، الكامل : ٧/ ٦٧ - ٦٨ .

الأول الثمرات الملموسة للخلافة من السيادة على الناس والتمتُّع بالأموال والخيرات ، ولا يعنيهم فى كثير رضى الناس أو عواطفهم ، بل لم تكن تعنيهم ناحية الشرعية .

وقد وصل إلى هذه الشرعية – أى تسليم الناس بأنهم خلفاء مرضيون – ثلاثة منهم : عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد ، ثم عمر بن عبد العزيز ، فأما الأولان فقد استحقا الشرعية وتأييد المسلمين ورضاهم بالفتوح وصرف الهمة فى الجهاد وتوسيع نطاق الإسلام وتعريب الدولة ، وأما الثالث فقد استحق الشرعية بالسلوك الإسلامى الخالص ، وهو عمر بن عبد العزيز الذى أثبت للناس أن أمة الإسلام أمة مؤمنة حكيمة وأنها مستعدة لإعطاء رضاها كله لمن يلتزم حدود الإسلام ويقوم بحقه ، وهذا المثل الذى ضربه عمر بن عبد العزيز فى خلافته القصيرة زاد فى زعزعة قواعد الملك الأموى لأنه كشف للناس أخطاء غيره من خلفاء بنى أمية كشفاً جلياً ، ولهذا فإن الناس استقبلوا خلفه وهو يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم استقبالاً سيئاً جداً ، وأيَّد هو سوء ظنهم بمسلكه الأموى البعيد عن خلق الإسلام ، وتدهور بعد ذلك الملك الأموى تدهوراً سريعاً انتهى بزواله . واستراحت أمة الإسلام كلها بسقوط هذا البيت العبشمى القرشى ، ورأوا فى ذلك عدلاً من الله سبحانه ورحمة بأمة الإسلام .

وفيما يتعلق بمصائر قريش رأينا أن الأمويين لم يُظْهِروا أى حرص للمحافظة على مكانة قريش ، فقد رأينا كيف أنهم لم يكونوا يهتمون إلا ببيتهم الأموى . وفى سبيل بيتهم سلطوا رجال أعاريب مضر على المدينة ومكة ومن فيها من القرشيين بل أُهين الخليفة عثمان بن عفان وهو شهيد بنى أمية على يد مسلم بن عقبة المرى ولم يعترض الخليفة يزيد على ذلك بكلمة . أما المروانيون فهم الذين استعانوا من أول الأمر فى حربهم مع عبد الله بن الزبير بالكلبيين القضاعيين المنتسبين فى اليمن بتوجيه من الخليفة معاوية بن أبى سفيان وهزيمة القيسية فى مرج راهط كانت فى الحقيقة ذات أثر بعيد فى توهين أمر قريش لأن القيسية كانت مضرية على أى حال وبعد انتصار مرج راهط وانتهاك حرمة المدينة ومكة أصبحت صلة البيت المروانى بالقيسية عامة واهية ، وفى أيام سليمان بن عبد الملك بدأ الانحراف عن اليمنية وموالاة القيسية .

ولم تطرب أمة الإسلام لقدوم بيت بنى العباس ، وهم بيت قرشى ثان دخل الميدان يعلن بصوت جهير وقلب جرىء أنه وحده صاحب الحق فى الولاية والوصاية على هذه الأمة ، فهم الورثة الشرعيون لملك رقبة أهل القبلة جميعاً . قال داوود بن على فى خطبة افتتاح ملك ابن أخيه أبى العباس السفاح من منبر الكوفة : « فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم...» وهى مقالة لم يرض عنها مسلم ، لأنه إذا كان ولابد أن يرد الأمر إلى بيت النبوة وآل محمد ﷺ فأين منها - والله - أولاد العباس ؟

أما آل على فقد كان قيام دولة بنى العباس إيذاناً بعذاب لهم شديد ، وإنه لمن غرائب ما يُذكر أن أحسن تاريخ لآل على بن أبى طالب وما جرى عليهم بسبب قرابتهم منه ، كتاب محزن يسمى « مقاتل الطالبيين » كتبه أبو الفرج الأصفهانى ، وهو تاريخ جنائزى يقص علينا كيف انكسر فى معارك ، هى فى الحقيقة مذابح ظَهْر البيت القرشى الأكبر الذى كان يحق له أن يحوز الخلافة إذا كان ولابد أن يحوز هذه الأمانة الكبرى بيتٌ واحد من بيوت المسلمين .

والحقيقة أن البيت العلوى كُتِب عليه منذ بيعة السقيفة أن يجاهد ليحتفظ برأسه فوق الماء وأيدى الظالمين تدفعه فيه ، وإذا كان بيت بنى أمية قد عرف كيف يفقد الناسَ الثقة فى بيتهم القرشى الكبير ، فإن بنى العباس أثبتوا لأمة الإسلام أن الهاشمية ليست فى ذاتها دليلَ تُقى وإيمان ، لأن المؤامرة التى دبرها محمد بن على بن عبد الله بن عباس ثم ابنه إبراهيم الإمام على أبناء على ليسرقوا الخلافة سرقة من يد أبى هاشم بن محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب ، مؤامرة ظاهرة الوضاعة تدل على تهالك مُخْزٍ على الدنيا . ورغم المقاتل والمذابح انجلى الأمر عن أن البيت الوحيد الذى بقى فى الميدان هو بيت على بن أبى طالب المنحدر من عترة رسول الله ﷺ .

وبعد خيبة الأمل المضاعفة فى القرشيين اتجه المسلمون بآمالهم إلى البيت العلوى ، وقد أصبحت الآن تجمعهم إلى بقية المسلمين أكثر من واشجة ، فهم مظلومون كبقية أمة الإسلام ، وهم مستضعفون مهضوم حقهم كبقية المسلمين ، وهم غير آمنين لا على النفس ولا على المال ، كبقية المسلمين وفيهم التقى والورع والخوف على مصير

الإسلام ، وهم آخر الأمر - أو أوله بتعبير أصح - بيت النبى وعترته ، وهو صلوات الله عليه عزاء كل مسلم عن متاعب هذه الدنيا .

العَلَويّون آل البَيْت :

وأول ما يستوقف النظر فى أمر العلويين هو أنهم تمسكوا بصورة أساسية بمبدأ الوراثة فى الخلافة ، فهم أصحابها فى اعتقادهم وهى تنتقل من الأب إلى الابن ، ولا ندرى إن كان على بن أبى طالب نفسه قد فكر فى أنه ستكون للمسلمين رياسة فردية بعد وفاة الرسول ، فيبدو أن هذه الفكرة نشأت عند أبى بكر وعمر وإن كانت القرائن تدل على أنهما كانا يريان أن القيادة لابد أن تكون جماعية شورية مع وجود الخليفة ، أما ما يقال من أن الأنصار اجتمعوا فى السقيفة لمبايعة سعد بن عبادة بن دليم الساعدى الخزرجى فأمر مشكوك فيه ، والواضح أمامنا أن الخزرج اجتمعوا للنظر فى أمر أنفسهم بعد وفاة الرسول . والرجل نفسه لم يقل إنه يرشح نفسه لخلافة رسول الله ﷺ فى قيادة أمة الإسلام ، وعندما سأله أبو بكر لأول دخوله السقيفة قال : « إنما أنا رجل من المسلمين » .

والأغلب أن عامة كبار المسلمين كان تفكيرهم أن تستمر قيادة الجماعة فى صورة جماعية ، وقد استمر ذلك بعد وفاته ، فكانت الأمور تُدرس بين شيوخ الجماعة ؛ والخليفة ينفذ ما تستقر عليه الأمور ، وتشاور المسلمين مع خليفتهم فى عظائم الأمور أيام أبى بكر وعمر معروف ، وكان من الممكن أن تستمر هذه السياسة ، ومن أسف أن المسلمين لم يناقشوا هذه المسائل الأساسية أيام الشيخين . وقد سبقت المسلمين فى ذلك أمم ، فإن اليونان والرومان سبقوا إلى هذه النظم والعصر الجمهورى فى تاريخ الرومان يبلغ فوق القرون الخمسة ، وهى فترة طويلة جداً بميقات العصور الماضية ، وهى تدل على صلاحية القيادة الجماعية .

وإذا نحن ذكرنا أن نظام الخلافة الشورية لم يستمر فى تجربتنا السياسية إلا نحو ثلاثين سنة بعد وفاة الرسول ﷺ ، تبينا أنه ربما كان الأوفق أن يُؤخذ برأى الحباب بن المنذر بن الجموح الذى قال : منا أمير ومنكم أمير ، مع بقاء وحدة الأمة ، لأن الأميرين هنا يمثلان البرايتورين Praetorii اللذين سُمِّيا فيما بعد بالقنصلين Consuli

عند الرومان وكانا يُنتخبان للحكم لمدة عام ، أما قاعدة الحكم الأساسية فهى الهيئة المئوية عند الرومان Comitia centuriata ثم الهيئة التنفيذيةComitia Curiata ولكنهما هيئة منتخبة أو هيئة تمثل البيوت الكبرى فى المجتمع الرومانى ، ثم أضيف إلى كل قنصل من القنصلين مساعد كبير لشئون المال يسمى الكويستور Quaestor ، ثم زِيدَ فى كبار الموظفين المنتخبين آخرون مع الزمن ، وكلهم يعملون لمدة عام أو عامين ، وقادة الحكم هما الهيئتان الرئيسيتان المئوية والتنفيذية .

وهذا الذى أقوله هنا مجرد تذكير بتجارب أخرى سابقة كان من الممكن أن يصنع المسلمون مثلها ، والقرآن الكريم يدعو إلى ذلك ولا يدعو أبداً إلى أن يرأس الأمة رئيس واحد منفرد بالأمر . فالأمة فى القرآن هى القاعدة وحاملة لواء الدين ، وآيات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تشير إلى ضرورة وجود هيئة ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران] أما القائم بالتنفيذ فقد تركه القرآن للمسلمين يرون رأيهم فيه ، وإذا قرأنا رسائل الرسول إلى رؤساء العرب الذين أتوا يدخلون الإسلام على يديه ، وجدنا أنه لا يمانع فى أن يستمر أصحاب الأمر فى كل قبيلة أو ناحية رؤساؤها الذين ترضى عنهم جماعاتهم ، ولا وجود لفكرة السلطة المركزية فى كتب الرسول ﷺ ، لأن أهم شىء عنده كانت وحدة الأمة والتفافها حول راية الإسلام واستمرارها فى إقامة شريعته مع الجهاد فى سبيل الله .

ولو أن المسلمين اتجهوا بفكرهم إلى القيادة الجماعية ، لكان هذا أسلم لأن هذه القيادة توزع السلطات بين عدد كبير من رؤساء المسلمين وترضى طموحات الكثيرين إلى السلطان ، وتؤجل إلى تاريخ متأخر صراع المطامح الفردية أى الانفراد بالحكم ، وما ضَرَّ أمة الإسلام شىءٌ مثل الاتجاه السريع إلى الحكم الفردى بعد سقيفة بنى ساعدة ، وأمة الإسلام كانت أيام الرسول ﷺ أمة صاحبة سلطان وسيادة ورسالة ، وكان لابد أن تستمر الأمة محتفظة بسلطانها وكل أفرادها كان ينبغى أن يظلوا سادة . هنا كان كل أصحاب القدرات والكفايات والطموحات يجدون مكاناً وفرصة للعمل وخدمة النفس والجماعة ، وقد كانوا هكذا أيام الرسول ﷺ : كانوا

جميعاً يعملون متكاتفين متآخين والأمة تفيد منهم جميعاً ، وكان الرسول يُسيِّر أمورهم بالهيبة والإخلاص والعدل والصدق فى تنفيذ أحكام الإسلام عبادة وشريعة والمحافظة على مكارم الأخلاق ، وهى كانت أساس العلاقات جميعاً فى أمة الإسلام ، سياسية واجتماعية واقتصادية .

ولكن اجتماع السقيفة انتهى بأن تكون قيادة الأمة لأبى بكر على أن يكون الأمر شورى بين المهاجرين والأنصار كشقِّ الأُبْلُمة ، ولكن الذى حدث ، هو أن الأنصار استُبعدوا فى واقع الأمر من القيادة وترك السلطان فى يد أبى بكر ، ولا معنى لامتداح هذا الواقع فى ذاته على أساس أن الذى وقع عليه الاختيار كان أبا بكر ومن بعده عمر ، وخلافتهما معاً لا تزيد مدتها على اثنتى عشرة سنة هجرية ، والحكم على أى نظام للحكم فى أى دولة من الدول لا يكون صواباً على أساس أنه سار سيراً طبيعياً لهذه الفترة القصيرة ، فإذا اضطرب أمره وساء أثره وتدهورت شئون الجماعة بعد ذلك بشكل خطير ، فهذا يدل على أن النظام فى ذاته لم يكن صالحاً ، وقد تولى عثمان الخلافة على نفس الأساس بناء على اختيار الستة ، والتزم هو بالسير على سياسة أبى بكر وعمر ، ورغم تُقاه فإنه انحرف أو بدَّل كما تقول المراجع .

فقد كانت هناك قاعدة أساسية فى هذا النظام تقول إن الخليفة المختار إذا انحرف ، كان للأمة أن تُقوِّمه ، ولكن معنى ذلك التقويم وطريقته وحدوده تُركت فى القضاء بلا تحديد ، والثائرون على عثمان لم يعرفوا كيف يُقَوِّمونه ، هو نفسه لم يُسلِّم قط بأنه « بدّل » أو انحرف وتشبث بالمنصب ، ثم إن أحداً لم يقدر مدة لهذه الولاية ، وعثمان عندما رأت الأمة أنه انحرف رفض أن ينصاع لما طلبت إليه الأمة على لسان الثائرين عليه وكبار الصحابة لأنه أخذ الولاية على أنها لمدى الحياة ورفض ولاية الأمة وأنكر حقها فى محاسبته ، وعندما أتت الأمة تطلب إليه أن يعتزل قال : « لا أخلع سربالاً سربلنيه الله » « ولا أنزع قميصاً قَمَّصنيه الله » ، ومعنى ذلك أنه بعد أن تولى بإرادة أهل الشورى المفوضين من الأمة ، أصبح يرى أنه مختار من الله ، وأن ثوب الخلافة أتاه من الله ، فهو إذن يحكم بحقٍّ إلهى .

وهذا يبدو أنه خطأ من عثمان ولكنه خطأ من النظام نفسه ، إذ أنه كان خالياً من

الضوابط والتحديدات ، وآل عثمان عندما تعصبوا له افترضوا أن عثمان والخلافة معه حق له ولآل بيته لأنهم كانوا قد تحولوا إلى أسرة حاكمة ، وقالوا إنهم ليسوا أولياء دم عثمان الرجل فحسب ، بل عثمان الخليفة أيضاً ، ولهذا رفضوا الطاعة للخليفة الجديد ومضوا يتهمون الخليفة المنتخب الجديد بأنه مشترك فى قتل قريبهم وهم يحاربونه على هذا الأساس فى الظاهر ، أما الباطن فهو أنهم رأوا أن الخلافة إذا كانت قد صارت إلى واحد منهم فقد أصبحت حقاً بينهم ، ومنطقهم هذا هو الذى انتصر فى النهاية ، وساعدهم على ذلك خذلان نفر من الصحابة لعلى بن أبى طالب ونزعهم بيعته وزعمهم أنهم بايعوا بالقوة وأحلوا لأنفسهم خلعه ، والنظام فى آخر الأمر أصبح مَلَكية وراثية فى بيت واحد .

وما دام الأمر قد أصبح مُلْكاً فى بيت واحد ، فقد تغير معنى الخلافة ورياسة الأمة تغيرات جوهرية أخرجته عن شورية الإسلام ، وما دام قد خرج عن شورية الإسلام فقد أصبح السؤال : أى بيت من بيوت المسلمين أحق بهذا الملك ؟

وكان من الطبيعى أن تجيب الأمة على هذا السؤال بانتخاب على بن أبى طالب ومبايعته ، فنهض بنو أمية ينازعونه هذا الحق ، وقالوا بالخلافة الوراثية فى بيتهم ، وكان من الطبيعى أن يرد آل على : نحن الأحق ، فنحن بيت الرسول ﷺ ورأسنا على ابن أبى طالب أقدم الصحابة صحبة ، وأكثرهم بذلاً فى سبيل الإسلام وأوسعهم به علماً ، وعلىّ كان أقضى الصحابة والقضاء أعلى الولايات . هذا هو الذى قالوه وتمسكوا به وطالبوا به ، وأصبحت المسألة فى الواقع نزاعاً بين آل على وآل أمية ، وما دام بيت أمية هو الذى انتصر فى الصراع السياسى والعسكرى واستبد بالخلافة والملك وحاز السلطان وحصل على البيعة بالصورة التى ارتآها وقدر عليها ، فقد أصبح كل طالب للخلافة من دونه خارجاً على النظام ، وأصبح من واجب أصحابه فى رأيهم ، محاربة المنافس والطامع والقضاء عليه .

وعندما انتقلت الخلافة بنفس طريقة الغصب والخداع إلى بيت بنى العباس ، وحازوا القوة وانتزعوا بها البيعة فقد أصبح العلويون المطالبون بالخلافة خارجين على القانون ، وأصبح من حق صاحب السلطة – فى رأيه – أن يقضى عليهم محافظة على

النظام الشرعى القائم من عدوان مدَّعين أنهم يهددون أمن البيت المالك ونظامه .

وهذا بوضوح ومنطقية تاريخية واقعية هو وضع البيت القرشى العلوى من ذلك الحين ، وأصبح نتيجة المطالبة بالخلافة بيتاً خارجاً على النظام وخارجاً على القانون ومحاربته حلال والقضاء عليه واجب لصالح الجماعة فى رأى أصحاب السلطان .

ولكن العلويين تمسكوا دائماً بأن الخلافة من حقهم وأن وثوب غيرهم عليهم عدوان ، ولما كان هذا هو رأى جانب كبير جداً من المسلمين ، وهم على حق فى ذلك ، لأنه ما دامت رياسة الجماعة تُوَلَّى إلى رجل وآل بيته فإن علياً وآل بيته أَوْلَى .

هنا تكمن مأساة ذلك البيت القرشى الجليل ، وهى مأساة فُرِضت عليه فرضاً بمنطق الاختيار فى السقيفة ، فقد تقرر مبدأ الخلافة فى شخص واحد ، ثم أصبح فى شخص وآل بيته ، ومن هنا نفهم كيف أن مذاهب الخوارج التى لم تعترف بمبدأ الوراثة فى بيت واحد ، نصت على ألا يكون الإمام المختار من قبيلة ذات عصبية كبيرة حتى يسهل عزله إذا انحرف ، ورفضوا مبدأ الوراثة فى الخلافة لئلا تتحول الولاية إلى مُلْك وراثى.

وبعد ما عانته الأمة من بنى أمية وبنى العباس أصبحت غالبية المسلمين تؤيد حق البيت العلوى ، وأصبح هناك فى اعتبار تلك الغالبية خليفتان ، خليفة ذو حق مشروع وهو الرضى من آل على ، وخليفة رسمى مفروض على الناس بالقوة وهو البيت القائم أُموياً أو عباسياً ، وتلك هى الأرضية التى وقف عليها بنو العباس عندما مكروا مكرهم وحازوا الخلافة على أن مرشحهم هو الرضى من أهل البيت . وإذا سرنا خطوة أخرى مع منطق السياسة الواقعية أو سياسة الأمر الواقع أو الريال بوليتيك Real politik قلنا : إن الذى وقع هو الأمر المحتوم أو imperative لأن الأمر ما دام قد أصبح سياسة ، فإن منطق السياسة هو الذى يسود ، ومنطق السياسة يقول إن الذى يحوز القوة - والحكم - هو الأقوى أو الأذكى أو الأوسع حيلة . والسياسة فى تلك العصور لا تعرف الحق ولا تعرف الأخلاق فى معظم الأحيان .

وإذن فمنذ قيام الحكم الأموى أصبح البيت العلوى خارجاً على القانون ، وحتى

لو أعلن ممثله أنه لا يريد الحكم ولا يشتغل بالسياسة كما كان الحال مع جعفر الصادق ابن محمد الباقر ، فقد كان طول حياته موضع شبهة وخوف من جانب العباسيين ، ويكفى أنه كان يُلقَّب علناً بالإمام أى رأس أمة الإسلام ، وهو فى هذه الحالة إمام محروم أو إمام محكوم عليه بالموت مع وقف التنفيذ ، وإذا كان قد مات فى فراشه فى المدينة سنة ١٤٨هـ/ ٧٥٦م ، فقد كان ذلك مصادفة .

ولكن بقية أئمة بيت على الذين كان من الممكن أن يطلبوا الخلافة قُتِلوا بالسيف أو السم .

وبعد مقتل محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب فى السنة التى ذكرناها ثم مصرع أخيه إبراهيم فى باخمرا فى نفس السنة تفرق إخوتهما من أبناء عبد الله بن الحسن وأبعدوا فى الرحلة ليكونوا بمنأى من أيدى العباسيين ، فذهب يحيى إلى طبرستان حيث أنشأ دولة ، وذهب أخوه إدريس إلى المغرب الأقصى حيث أقام الدولة الإدريسية ، ولحق به أخوه سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب إلى غرب المغرب الأوسط ، حيث أنشأ هو وأولاده دويلات صغيرة .

ولا أظن أن فى بيوت قريش بيتاً هو أكثر نسلاً من بيت على بن أبى طالب ، فأولاده كثيرون ، ومعظم أولاده ، صبيان وبنات ، ومن هؤلاء تفرع مئات انتشروا فى عالم الإسلام كله ، والقليلون منهم لم يعقبوا ، وأقل من هؤلاء هم العلويون الذين لم يطلبوا الخلافة ، وقد قُتِل منهم الكثيرون جداً فى هذا المطلب ، ونجح الكثيرون أيضاً فى إنشاء بيوت إمارة فى نواحى عالم الإسلام حتى تعد بيوتهم بالعشرات معظمها فى اليمن وعسير وبلاد الديلم وهى طبرستان والمغرب ، هذا إلى الفاطميين فى المغرب ومصر ، وسنتحدث عنهم .

وأهم ما نشير إليه هنا أن هذا البيت بشتى فروعه ظل مرشحاً من أمم الإسلام جميعاً للرياسة والإمارة أو الخلافة ، ومنهم من نشأت منه بيوت شرف وسرو مثل بنى طباطبا وهم من أبناء إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب .

ومعظم أفراد هذا البيت كانوا من أفاضل الناس ، ولكن كان منهم أيضاً الكثيرون ممن لم تُحمد سيرتهم . وباستثناء هؤلاء القليلين كان العلويون فى شتى بلاد الإسلام موضعَ تكريم الناس ومحبتهم ، ومن هؤلاء الهواشم العلويين كانت الدول الكثيرة التى ظلت تحمل اسم قريش على رؤوس الناس عبر القرون .

وإذا كانت محاولات قريش إنشاء دول كبرى تمثلت فى بنى أمية وبنى العباس والفاطميين ، لم تحقق رجاء الناس فى العدالة والحكم الإسلامى الصالح ، إلا أن العباسيين منهم حملوا اسم قريش على رؤوس الناس فى مشرق الدولة الإسلامية حتى منتصف القرن السادس الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، وإن لم تُحمد سيرة أكثرهم وخاصة بعد خلافة المتوكل على الله .

ولكن بيوتاً قرشية هاشمية علوية أخرى ، أنشأت دولاً عرفت كيف ترفع اسم قريش فى نواحى عالم الإسلام إلى يومنا هذا .

أما بنو عبد شمس من قريش ، فقد كانت لهم بعد زوال دولة بنى أمية فى المشرق ، دولة كبرى فى الأندلس ودويلات أخرى أو إمارات صغيرة قام معظمها فى أفريقية .

* * *

نهوض البيت العلوى وإحياؤه لقريش وَأهَمّ الدّول التى أنشأتها قريْش على طول التاريخ بعد الدّولتَين الأمَوية وَالعَبّاسيّة



تمهيد

دامت السيادة لقريش فى المشرق إلى سقوط بغداد فى أيدى المغول سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ، ولكنها كانت سيادة اسمية مثَّلها الخليفة العباسى الذى انتهى دوره فى قيادة دولة الإسلام فى أيام المتوكل على الله العباسى (٢٣٢ - ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ - ٨٦١م) . فقد كانت فى هذا الرجل بقية من نخوة عربية وميل إلى رَمِّ ما وَهَى من أمر البيت العباسى واتجاه إلى إعادة الثقة إلى العرب وإعادة القوة والجلالة إلى قريش كى يعتز بالعرب ، ولكن المتوكل كان أقل من أن ينهض بمثل هذا العمل الضخم ، فقد كان طائشاً أهوج سكيراً مقبلاً على لذاته ، وكان دافعه إلى التخلص من الأتراك والعودة إلى العرب صادراً عن خوف من الأتراك ورغبته فى تأمين ملكه منهم بعد أن استبدوا بالخلافة .

ثم إن تدبيره المؤامرة لإيقاع مذبحة بالقادة الأتراك كان تدبيراً صبيانياً مكشوفاً ، وكانت كراهيته لابنه المنتصر أمراً عجيباً ، فقد كان أحرص ما يكون على إهانة ابنه هذا والإساءة إليه ، فانضم المنتصر إلى الأتراك ودبر معهم قتل أبيه ، وتم ذلك وعاد السلطان للأتراك ، وكانت تلك آخر محاولة عباسية للتخلص من سلطان الأتراك ، وبعد ذلك تتدهور الخلافة العباسية إلى درك سحيق وتدخل فى دور النزع الطويل . وعلى أيدى القادة الأتراك مات قاتل أبيه ، واختار القواد أحمد بن محمد المعتصم بالله خليفة ، وتولى عرش الخلافة باسم المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢هـ/ ٨٦٢ - ٨٦٦م) .

ومن ذلك الحين إلى نهاية الدولة العباسية فى بغداد لم يَعُدْ لقريش من الخلافة إلا اسمها ، وخرج هذا البيت القرشى من نطاق القوة والرياسة الفعلية لدولة الإسلام فى

المشرق ، حتى احترام الناس وإجلالهم لهم فقدوه ، فإن الأخطاء والجرائم التى ارتكبها العباسيون للوصول إلى الحكم والجرائم الأخرى التى قارفوها للبقاء فيه ، كل هذه بَغَّضت البيت العباسى إلى الناس . أضف إلى ذلك ما كان منهم من ميل عن العرب ونفور منهم وتفضيلهم غير العرب عليهم ولجوئهم إلى العرب أحياناً للاستعانة بهم فى إصلاح أمر بيتهم أو تدعيم الخلافة لواحد منهم ولا زيادة ، كل هذا باعد بين العباسيين والناس بشتى أجناسهم وطوائفهم ، فلم يعد للناس أمل إلا فى العلويين - أهل بيت النبى - واتجه المسلمون إلى تأييد كل طالب للمُلْك ثائر على العباسيين من بيت على بن أبى طالب .

وشيئاً فشيئاً وبعد العصر البويهى ، وفى منتصف العصر السلجوقى يتحول الخليفة العباسى إلى أمير من جملة الأمراء المتنافسين على السلطان فى العراق ، فكانت له أرضه وإقطاعه وجباياته وإتاواته على الناس ، وقد يزور الناس الخليفة للتبرك وقد يشاهدونه فى شرفة قصره للفرجة كما نرى فى رحلة ابن جبير ولكنه لم يعد رمزاً لشىء جَدِّى . وهكذا عاش الخلفاء العباسيون إلى آخر أيامهم فى بغداد وليس لهم من جاه القرشية وجلال الهاشمية إلا ذكرى مجد قديم ذهب مع أمس الدابر .

أما الجلالة الهاشمية فقد انتقلت إلى بيوت الأشراف من الهواشم ، واستقرت بصفة خاصة فى فروعهم التى لم تتوقف عن المطالبة بحقها فى السلطان يوماً ، وغالبيتهم العظمى من العلويين من نسل على بن أبى طالب عن طريق ابنيه الحسن والحسين . ولكنهم بعد مذابح كثيرة نزلت بهم ، مالوا إلى الهدوء والبعد عن السياسة، وهؤلاء الأشراف نجدهم فى كل بلاد الإسلام من غرب الصين إلى المحيط الأطلسى، فلكل بلد من بلاد الإسلام أشرافه من أصحاب العمائم الخضر ، ولا يمكن التحقق من نسب بيت من هذه البيوت ، فإن دعوى الأنساب أسرار لا يعلم حقيقتها إلا الله سبحانه ، ولا نستطيع أن ننكر على بيت دعواه الهاشمية إلا إذا كانت لنا على ذلك حجة بالغة ، وفى حالات معينة معروفة تثبت دعوى الهاشمية ثبوتاً قاطعاً ، كما هو الحال فى أمر الأدارسة والأشراف السعديين والعلويين الفلاليين وبعض بيوت أشراف الحجاز . والتسليم بالدعوى فى كل هذه الحالات أسلم ما لم يَقُم دليل قاطع بالبطلان .

وبالنسبة لمؤرخ قريش يستوى صاحب الحق فى النسب ومدعيه بالباطل . فإذا صدق كان ذلك دليلاً على طول عمر قريش واستمرار القوة والسيادة فى بعض بيوتها ، أما إذا كذب كان ذلك دليلاً على استمرار جاه البيت وشرفه ، لأن الناس لا تنتسب لبيت إلا إذا كان هذا الانتساب يخلع على صاحبه جلالة وشرفاً ، ولم تعرف أمة الإسلام فى تاريخها جلالة هى أرفع من جلالة القرشية الهاشمية ، والانتسابات لبيوت قريش على طول التاريخ الإسلامى كثيرة جداً وإثبات دعواها بالغ العسر ، ولهذا كانت فى كل بلد من بلاد الإسلام نقابة أشراف ولها نقيب يُعتبر رأس أشراف أهل البلد وإن لم يكن له فى السياسة أى نصيب ، وهذه النقابات هى التى تتحرى عن الأصول والأنساب وتجيز الانضمام للنقابة لمن تتحقق من صحة نسبه ، والأشراف فى المفهوم العام هاشميون علويون ولكن يدخل معهم القرشيون من الهواشم جملة ، وأحياناً يسمى نقيب الأشراف شيخ قريش .

وقد تتجه همة بعض أولئك القرشيين لطلب السلطان وإذا ساعدت الظروف ووُجد فيهم من له ميل وأهلية لشئون الحكم والسياسة ، وهنا تقوم دولة قرشية هاشمية فى الغالب يطول عمرها أو يقصر ، ولكن الدول التى يقيمونها فى العادة تكون صغيرة لا تتميز عن غيرها بشىء ، لأن القرشية فقدت هذه الهالة التى أحيطت بها خلال العصر الراشدى ، ولم يبق منها فى قلوب المسلمين من الجاه إلا الحب العميق الذى يُكِنُّه المسلمون جميعاً لرسول الله ﷺ النبى القرشى الذى اصطفاه الله من بيت بنى هاشم ، وأمره أن يبلغ رسالته إلى الناس . لتشمل أهل الأرض أجمعين . وقد يُوفَّق طالب السلطان من بنى هاشم فى إنشاء دولة أو لا يُوفَّق .

ولدينا أمثلة كثيرة من هذه التوفيقات السياسية التى أدركها القرشيون فى عالم الإسلام على مدار العصور الماضية بل إلى يومنا هذا . وسأنفق بقية هذا البحث فى دراسة أهم الدول القرشية التى قامت خلال التاريخ ، وكلها هاشمية إلا دولة بنى أمية العبشميين ، وأسرة يقال إنها مروانية فى بلاد الفور فى جنوب غربى السودان النيلى.

وسأكتفى هنا بالدول القرشية الكبرى أو التى تميزت بطابع خاص ، أو قامت

بعمل عظيم ؛ لأن إحصاء الدول القرشية على طول التاريخ وعرضه عسير كل العسر، والتأريخ لها أعسر . والذى نريد أن نظهره للناس هى حيوية الأرومة القرشية والهاشمية خاصة . فهذه القبيلة تعتبر من أصغر القبائل المعروفة فى التاريخ حجماً ، ولكنها دون شك أعظمها كلها ، فقريش أنشأت لغة تعتبر من كبريات لغات البشر ، وحملت عبء نشر الإسلام وأقامت حضارته ، ومن بين أظهرها ظهر سيد الأنبياء وخاتم النبيين ﷺ ، ورغم ما أصابها على طول التاريخ فقد بقيت بيوت من قريش تحكم أمماً كثيرة من كبريات الأمم إلى يومنا هذا . وهذه ظاهرة فريدة فى بابها فى التاريخ وسندع دولتى الأمويين والعباسيين فقد تحدثنا عنهما بما فيه الكفاية فى تضاعيف هذا البحث .

الدّولة الأمويّة الأندلسيّة

وأقدم المحاولات القرشية بعد الأمويين المشارقة والعباسيين هى محاولة عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل ، وتمكُّنه من إنشاء الدولة الأموية الأندلسية فى سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٦م ، وهى من أعاظم دول الإسـلام ، وهى كذلك أنجح محاولة للحكم قام بها رجـل عبشمى من غير بنى هاشم ، لإنشاء دولة ذات كيان وشخصية ووظيفة وتاريخ بعد أن ماتت الدولة الأموية المشرقية .

ولا يرجع توفيق هذه الدولة إلى محبة كانت عند الناس لبنى أمية ، بل لأن عبد الرحمن بن معاوية كان من أعاظم الموهوبين فى شئون السياسة والحرب وقيادة الناس وقد أعانته بالفعل ظروف مواتية ، ولكن فضله يتجلى فى أنه استطاع الإفادة من الظروف التى وجدها إلى درجة باهرة ، وإذا نحن قسنا توفيق هذا الرجل فى الظروف التى قامت فيها دولته بمعاوية بن أبى سفيان أو مروان بن الحكم لوجدنا عبد الرحمن ابن معاوية يشف عليهما شفوفاً واضحاً ، لأن كلاً من معاوية ومروان أقام دولته وهو بين رجال بيته وتحت يده قوة عسكرية تؤيده ، ثم إن أهل المشرق كانوا بعد مقتل عثمان فى شوق إلى الخروج من الفتنة وجمع الكلمة ، وأمـة الإسـلام فى المشرق كانت لا زالت بخير ، وقد استطاعت الأمة أن تُغلِّب العقل على العاطفة وأيدت أقوى

طلاب الحكم وأصلحهم بعد استشهاد على بن أبى طالب ، فعلت ذلك محافظة على الوحدة ، لا تسليماً بحق معاوية .

أما عبد الرحمن بن معاوية الداخل فقد أقام دولته بيمينه فعلاً، وقد أعانه فى ذلك موالى بنى أمية وكانوا فى الحقيقة جماعة قوية تجمعها مصالح مشتركة إلى جانب الولاء للبيت الأموى ، ولكن إقامة الدول ليست أصعب خطوة فى تاريخها ، وإنما المهم هو الاستمرار وتدعيم البناء وتهيئة السبل والوسائل لاستمرار الدولة على حال القوة والسيادة والقيام بمطالب الحكم ومسئولياته على نحو يستأهل تأييد الناس ويؤدى بهم إلى الرضى والتسليم ، فقد طلب الخلافة مثلاً عبد الله بن الزبير فى المشرق ، قبل قيام دولة عبد الرحمن الداخل بما يقرب من نصف القرن ، وكان عبد الله بن الزبير صحابياً ابن صحابى ، وقد قام فى المدينة المنورة واعتصم بمكة ودخلت فى طاعته مصر والعراق وربما خراسان ، ولكن الرجل نفسه لم يكن مؤهلاً للرياسة أو السياسة ، وقد كان له عضد قوى فى أخيه مصعب بن الزبير وأيَّدته القيسية كلها ، ولكنه لم يفد من تلك الظروف بل جعلها - بِضَعْف تفكيره السياسى - موضع ضعف فى حركته .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن البيت الأموى تميز دائماً بوحدة عاطفية عصبية كانت من أكبر عناصر قوته فى صراعه السياسى مع منافسيه سواء قبل الإسلام أو بعده ، فلم تتفكك وحدة البيت المروانى فى المشرق إلا بعد ضربات عنيفة تلقاها البيت نتيجة لأخطاء بالغة وقع فيها بعض خلفاء بنى أبى سفيان بن حرب ، ثم بعض بنى مروان ابن الحكم ، وأخطر هذه الضربات هى الخلافات الحادة التى وقعت بين أفراد البيت المروانى ، وما استتبعته هذه الخلافات من إضعاف الرابطة التى كانت تربط البيت المروانى بالقبائل الشامية العربية الكبيرة ما بين قيسية ويمنية ، أى أن بنيان الدولة تصدع فى صفوته وقيادته ، ومثل هذه الصدوع تكون فى العادة مُؤْذِنة بانهيار النظام السياسى الذى تقوم عليه ، فهو صدع رأسى يصعب التئامه .

أما دولة بنى أمية الأندلسيين فقامت على وحدة البيت المروانى الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل فى الأندلس ، وقامت كذلك على تأييد جماعات موالى بنى أمية ،

وهى جماعات صغيرة من ناحية العدد ، ولكنها كانت أقلية قوية واعية إلى أن أساس قوتها هى قوة البيت المروانى وضرورة التفافها حوله لتستمر هيبته وسلطانه .

جماعة الموالى الأندلسيين هذه لم تكن كلها موالى خلفاء البيت الأموى ولا موالى البيت جملة ، بل يدخل فيها موالى قريش بمن فيهم موالى بنى هاشم ، وفيهم قلة من موالى رسول الله ﷺ .

وموالى بنى أمية الأندلسيون لم يكونوا كلهم من غير العرب بل كان فيهم عرب . والولاء هنا انتساب ، ففى جماعات الجند العربى الفاتح للمغرب والأندلس كانت فصائل من الجند العربى تدخل فى ولاء الخليفة القائم بالأمر ليكون هذا الولاء عنصراً من عناصر قوتها وضماناً لحسن معاملة أفرادها من جانب الحكام والولاة ، وبعضهم اكتسب هذا الولاء منذ كانوا فى المشرق وقبل اندراجهم فى جيوش الفتح ، وبعضهم كان من بربر المغرب ، فكان بعض شيوخ القبائل البربرية يدخلون فى ولاء الخلفاء أو عمالهم مثل : عقبة بن نافع ، وحسان بن النعمان ، وموسى بن نصير ، فتدخل القبيلة كلها فى هذا الولاء الذى يأخذ هنا معنى الحلف أو الأُخوة التى تترتب على هذا النوع من الأحلاف فيقال فى هذه الحالة : إن الرجل أخو بنى فلان .

وهذا الولاء كان يرفع أصحابه درجة على غيرهم من جماعات العرب والبربر المندرجة فى الجيش ، وقد تكونت فى المغرب والأندلس جماعات من أولئك الموالى ، أما موالى المغرب فقد تلاشوا أثناء الفتنة المغربية الأولى التى كانت فى المغرب الإسلامى كله احتجاجاً على تصرفات حكام العرب وخاصة القيسية منهم ، وكانت بداية هذه الفتنة سنة ١٢٢هـ/ ٧٤٠م فى خلافة هشام بن عبد الملك وولاية عبيد الله ابن الحبحاب على المغرب والأندلس ، وما دامت الفتنة المغربية قد قامت على بنى أمية فقد كان من الطبيعى أن يختفى أولياؤها ومواليها . أما فى الأندلس فقد ظلت البلاد تابعة لبنى أمية بالاسم رغم افتراق الكلمة والحروب الأهلية بين العرب بعضهم وبعض ، وبين العرب والبربر ، والفتنة هناك لم تأخذ صورة ثورة على بنى أمية وحكمها فحسب ، بل أخذت كذلك صورة نزاع على السلطان بين الكلبية والقيسية ، وكلاهما كان فى وقت أو آخر من صنائع بنى أمية ، أو بين العرب والبربر ، وهنا نجد

أن العرب جميعاً فى الأندلس يتمسكون بطاعة بنى أمية ، وتنتهي فتنة عصر الولاة فى الأندلس بنصر العرب وهزيمة البربر ، فأما العرب فقد التفُّوا حول راية الوالى الأموى ، وكان فى الغالب منتخباً من الجند المحليين ، وكان زعماؤهم فى ذلك موالى بنى أمية .

وعندما وصل عبد الرحمن الداخل إلى المغرب ونزل فى كنف قبيلة نفزة البربرية فى المغرب الأوسط ، أو فى ناحية طنجة ، وأرسل مولاه إلى الأندلس يستطلع له الأحوال فيه ، رحب به موالى بنى أمية من العرب والبربر جميعاً ، لأن رجال البربر توقعوا أن ينقذهم هذا التمسك بالولاء الأموى من الوهدة التى تردوا فيها من انتصار العرب عليهم فى وقعة أقوة برطورة ، وبهذا اتفق موالى بنى أمية جميعاً على تأييد عبد الرحمن وعاونوه بإخلاص على إقامة إمارته فى ١٤ مايو ٧٥٨م .

وقد تجلت موهبة عبد الرحمن الداخل السياسية فى أنه بعد انتصاره وإقامة دولته ، ظل يحتفظ بهؤلاء الموالى وظل يعتمد عليهم فى الإدارة والحرب . وهو لم يعاملهم بالطريقة غير المعقولة التى عامل بها أبو العباس عبد الله السفاح وأبو جعفر المنصور نقباء الدعوة العباسية ودعاتها ، فبينما اتجه العباسيان إلى القضاء على النقباء والدعاة أو إهمالهم ، والاعتماد على جند مرتزق مع الاعتزاز ببعض قادة العرب ونفر من الموالى نجد عبد الرحمن الداخل يحفظ لبيوت الموالى مكانتها ويجعل منها بيوتاً مساندة للحكم الأموى ، ومن هذه البيوت اختار رجال دولته . وكان معظم رؤساء بيوت الموالى هؤلاء رجالاً ممتازين ذوى مواهب وعقول ، فوضعوا أيديهم فى أيدى بعضهم بعضاً ، واجتهد كل بيت من بيوتهم فى بذل أقصى الجهد فى خدمة الأمير فى وظائف القيادة والحجابة والوزارة وولاية النواحى حكومة المدن وما إليها .

واجتهد كل بيت من بيوت هؤلاء الموالى الأندلسيين فى أن يكون له تخصص فى ناحية من نواحى خدمة الدولة دون إهمال النواحى الأخرى ، فاشتهر بيت بنى مُغِيث ومؤسسه عبد الكريم بن مغيث الرومى مولى عبد الرحمن الداخل فى القيادة العسكرية، وكذلك بيت بنى عَبْدَه (ومؤسسه حسان بن أبى عبده) وبيت بنى بُخت (مؤسسه يوسف بن بُخت) فى الإدارة والوزارة ، وبيت الزجالى فى الكتابة ، وهكذا

نجد الأمير المروانى مُحاطاً دائماً ببيوت موالية له مخلصة فى خدمته على رأسها رجال ذوو مواهبِ وملكات ، وفى كل بيت من الكهول والشباب المدربين المستعدين للخدمة العدد الوفير ، فيختار منهم الأمير من يشاء دون أن يخشى انقلاباً أو خيانة ، لأن هذه البيوت أصبح مثلها بيوت الأشراف التى كانت تحيط بالأسر المالكة فى الغرب ، وتساندها وتسد خللها وتجمع شملها وترأب صدوعها وتكسب لها ولاء الناس .

وإلى هذه البيوت من الموالى وسياسة بنى مروان معها نشأ نظام تعدد الوزارة فى الأندلس ، فإن الأمير كان يُرقِّى من يشاء من رجال هذه البيوت إلى مرتبة الوزارة ، فإذا غضب عليه وأراد إدالته بغيره أقاله فلزم بيته مع لقبه ونعمته ، وقد يعيده إلى الخدمة فيما بعد ، ومن النادر جداً فى تاريخ المروانيين الأندلسيين أن نسمع عن نكبة وزير ، فإن نظام الإقالة من الخدمة مع الإبقاء على النعمة أصبح نظاماً متبعاً فى الدولة الأموية الأندلسية .

وبفضل هذا النظام صلح أمر البيت القرشى المروانى فى الأندلس ، ورضى عنه الناس وطال عمره ، لأن الحكم لم يكن هناك استبدادياً فردياً قط ، بل كان شورياً فى جماعة صغيرة معينة انضم إليها فقهاء المالكية الذين أيدوا البيت المروانى فكافأهم الأمراء على ذلك بحصر القضاء والفتيا فيهم ، وقامت دولة المالكية إلى جانب دولة المروانية وشَدَّ الوزراء أَزْر البيت وسدوا خلل الحكم وقدم له الممتازون من أهل الفقه إلى جانب بيوت الموالى أو بيوت أهل الحكم أو بيوت الأسر الموازية خدمات لا تُحصى .

بفضل هذا النظام فى الحكم الفريد فى بابه فى تاريخ الدولة الإسلامية استطاع بنو أمية الأندلسيون أن يطيلوا عمر دولتهم على حال مشكورة من القوة والسيطرة على شبه جزيرة إيبريا ، وهى من أعسر بلاد الله على الحكم وأصعبها على التوحيد تحت نظام سياسى واحد ، ومن الواضح أن هذا النظام لم يكن السبب الوحيد فى نجاح رجال البيت الأموى الأندلسى ، لأن رجال البيت المروانى فى جملتهم تمتعوا بنصيب كبير من القوة والحزم والقدرة على سياسة الأمور .

ولكننا نستطيع القول بأن نظام الحكم الجماعى هذا كان من أقوى الأسباب فى اتصال سلسلة الأمراء الأكْفاء فى البيت المروانى ، فمن الثابت أن رجال هذه البيوت لهم فضل كبير فى سَدِّ خلل الحكم وتلافى أضرار شطحات الأمراء وميلهم إلى التعدى والاستهتار بالقانون وبالعرف والتقاليد ، وكثيراً ما تدخَّلوا فى اختيار الخليفة وأحسنوا الاختيار ، فقد كان الحكم بن هشام الملقب بالربضى مستبداً غاشماً أول حكمه ، ولو تُرِكَ على حاله لأصاب البيت الأموى بلاء شديد ؛ لأن أهل الأندلس كانوا شعباً عنيداً قوى الشكيمة شديد المراس عنيف المقاومة جريئاً على الدول والحكام .

وقد كاد أهل المربض (الضاحية الجنوبية) فى قرطبة يطيحون به فى ثورتهم الثانية عليه سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٧م . ولم يَنْجُ الأمير من الهلاك وقصرُه من الخراب إلا بفضل الحاجب القائد عيسى بن شهيد الذى لجأ إلى حيلة خسيسة ولكنها فعالة ، إذ أمر فِرَق الصقالبة من حرس الأمير بالهجوم على بيوت الثائرين وإلقاء النار فيها وفيها أسر الثائرين ونساءَهم وعيالهم ، فما راعهم إلا والنار مندلعة فى بيوتهم وهم يهاجمون القصر فتركوا ما كانوا فيه وارتدوا لإنقاذ ذويهم ، وهنا ركب خيالة الجند أقفيتهم وكادوا يُفْنونهم . وقد نجت الإمارة بهذه الفعلة ، ولكن ثمن النصر كان فادحاً فيما بعد ، لأن حقد أهل قرطبة والأندلس جميعاً على العسكر الأموى أصبح عميقاً وشاملاً ، واستمر عبر الأجيال حتى كان من أكبر أسباب ضياع أمر الخلافة القرطبية المروانية .

وقد تكررت أعمال النابهين من رجال هذه البيوت فى تلافى أخطاء الأمراء ، وتلافى نتائج الكثير من اتجاهاتهم إلى الظلم ، ولكن الأمراء أنفسهم ظلوا دائماً على مستويات طيبة من اليقظة والقدرة ، وإذا كان رجال مثل الحاجب القائد أبى العباس أحمد بن أبى عبدة قد أنقذ الإمارة القرطبية من الضياع تحت ضغط الثائرين والواثبين الذين غصَّت بهم الأندلس أثناء إمارة الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ - ٩١٢م) . فإن الأمير عبد الله نفسه كان من أفذاذ الأمراء . كان عاقلاً عنيداً حكيماً لا يميل إلى راحة ، أو يستنيم لكفاية وزير أو حاجب ، وقد ظل طوال سنين إمارته

الثلاثين ثابتاً لخصوم الإمارة - حتى فى الوقت الذى ضاق فيه نطاقها حتى اقتصرت على ولاية قرطبة - ظل هذا الرجل الصلب راسخاً كالطود حتى أعيا خصومه والخارجين عليه واستنفد قواهم ، فهلك بعضهم فى أيامه وتهيأ البقية للاستسلام حتى أمنت إلى أمير شريف مأمون الجانب سليم الذمة بعد وفاة الأمير عبد الله ، وكان هذا الأمير هو عبد الرحمن بن محمد حفيد عبد الله ، الذى أنهى مقاومة الثائرين وتلقى استئمانهم وبرَّ لهم بما وعد من الأمان ، فاستقر له الأمر وعاد مُلْك البيت المروانى يُظِلّ الأندلس الإسلامى كله .

ولهذا وجد عبد الرحمن أنه جدير بلقب الخلافة ، إذ رأى نفسه أحق بها من معاصريه العباسيين والفاطميين ، فنادى بنفسه خليفة فى ذى الحجة ٣١٦هـ/ أوائل ٩٢٩م . وبذلك عادت الخلافة إلى البيت المروانى بعد اختفائها ١٨٤ سنة قمرية ، وهذا فى ذاته حدث فريد فى بابه ، وهو من أنصع الأدلة على حيوية الفرع المروانى من آل أمية القرشيين ، ويزيد فى وضوح هذا المعنى أن الخليفة الأموى المشرقى الذى انتهت الخلافة الأموية المشرقية فى أيامه ، وهو مروان بن محمد لم يكن بالخليفة الضعيف أو العاجز أو القاعد ، بل كان نشيطاً عنيداً حتى سُمِّى بالحمار لعناده وإصراره ، وقد فقد الخلافة ، لأن زمان بنى مروان فى المشرق كان قد ولَّى ونخر فى عظام مُلْكهم سوس الفساد وانشقت عصا جندهم العربى ، ودأب مروان هذا على القضاء على اليمنية فأساء إلى نفسه وبيته بذلك أكبر إساءة ؛ لأن اليمنيين كانوا فى الواقع دعامة البناء العسكرى للبيت الأموى .

وهذا يفسر لنا اجتهاد العناصر اليمنية فى خراسان فى القضاء على دولة مروان بن محمد ، أما مروان بن محمد نفسه فقد ظل يناضل فى عناد حتى قُتِل فى صعيد مصر ، ولم يكن مقتله نهاية البيت المروانى فقد تجدد فى حديث أسطورى الطابع فى نواحى شرق السودان النيلى شمال شرق نيجيريا ، وتجددت الخلافة الأموية نفسها فى صورة تاريخية تدعو إلى الإعجاب على يد الأمير عبد الرحمن الداخل فى الأندلس ثم على يد حفيده عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، الذى أخذ يوم إعلانه خلافته لقب الناصر لدين الله ، وطريف من الأمر أن أبا حيان بن خلف

ابن حيان مؤرخ البيت الأموى الأندلسى لا يذكر عبد الرحمن الثالث إلا بلقبه الكامل : « الناصر لدين الله أمير المؤمنين » إعزازاً له وتقديراً . وبيت بنى مروان فى الأندلس كسب بفضل أمرائه وخلفائه ورجاله إجلال أهل الأندلس جميعاً ، فتعلقوا به وفاخروا به على نحو لم تظفر به دولة من دول الإسلام بعد الخلفاء الراشدين ، ومن أنصع الأدلة على ذلك حماس رجال مثل ابن حزم وابن حيان للبيت الأموى بعد زواله .

وبفضل تلك الجلالة التى كسبها البيت المروانى القرشى فى الأندلس ، عاد اسم قريش إلى العلو فى عالم الإسلام علواً كبيراً .

وكان أمراء بنى مروان الأندلسيين عرباً خالصين ، ولا نقصد هنا عروبة الدم ، فإن أمهات كل من تولى عرش قرطبة كُنَّ غير عربيات ، حتى أم عبد الرحمن الداخل كانت بربرية ، كلهم وُلِدوا لأمهات أولاد معظمهن جليقيات أى من إقليم جليقية شمالى غرب شبه الجزيرة ، أو بشكونسيات أو صقلبيات ، ولكننا نقصد ناحية القلب واللسان والعقل والثقافة والروح ، فقد كان بنو أمية الأندلسيون عرباً لساناً وفكراً وأسلوب حياة ، وقد اتبعوا فى ترتيب قصورهم وشئون إدارتهم تقليداً شرقياً يسمى بالتقليد الشامى ، يقوم على اللغة العربية والاعتماد على رجال عرب الشام وأبنائهم ، حتى موالى بنى أمية كان الشاميون منهم يُفضَّلون على مَنْ سواهم .

وقد حسب المستشرق الإسبانى الموهوب خُليان ريبيرا نسبة الدم العربى فى دماء عبد الرحمن الناصر ، فجاءت واحداً على ستة عشر ، ولكن الرجل كان عربياً فحلاً فصيحاً ظاهر القرشية رغم أن أمه كانت جارية جليقية تسمى مارية ، يحرفها بعض المؤرخين إلى ماوية ، وكذلك كان ابنه الحكم المستنصر ، وهو ابن جارية مشهورة تسمى مرجان أصلها بشكنسية الأصل ، وقد حكى ابن حيان فى الجزء الخامس من تاريخه «المقتبس » من أمرها عجباً ، وهذه هى صبح البشكنسية التى قامت بدور سىء فى تمكين الطاغية المستبد المخرِّب محمد بن أبى عامر من السلطان فى دولة بنى أمية .

وكانت لبنى مروان الأندلسيين نتيجة لروحهم العربى الإسلامى هذا عناية فائقة

بالعلوم والكتب ، ويندر أن نجد منهم واحداً غير شاعر ، ومنهم الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر ، وهو خليفة فقيه عالم توسع فى العناية بمكتبة القصر حتى صارت دار كتب تقع فهارسها فى ٤٤ كراسة فى كل كراسة منها خمسون ورقة ، والفهارس كما هو واضح لشتى العلوم والفنون ، فكأن فنون الكتب فى هذه المكتبة العامرة كانت ٤٤ فناً ، ومجموع كتب المكتبة قرابة المائة ألف كتاب على الأقل ، لأن كل فهرس كان فيه خمسون ورقة ومجموع الأوراق ٢٢٠٠ ورقة وهى ٤٤٠٠ صفحة ، ولم يكن فى هذه الصفحات إلا عناوين الكتب فحسب ، فإذا حسبنا أن كل صفحة ضمت عشرين عنواناً فهذه ٨٨٠٠٠ عنوان ، وهذه فى الحقيقة أضخم مكتبة واحدة سمعنا عنها فى التاريخ إلى العصر الحديث ، ولقد حدثونا عن ملايين الكتب فى مكتبات بغداد والقاهرة ، ولكنها كلها مبالغات لا تُصدق ، ولكن هنا رقماً حقيقياً لعدد الكتب فى مكتبة القصر بقرطبة ، وقد جمعها واهتم بها وأمر بتجليد كل كتبها خليفة مروانى قرشى هو الحكم المستنصر ابن عبد الرحمن الناصر لدين الله .

وهذا لا يمنع من القول بأن بنى أمية الأندلسيين كانوا إسباناً فى نفس الوقت ، كانوا أبناء الوطن الأيبيرى مع قرشيتهم . الأندلس كان وطنهم وهم كانوا المستولين ، وكان عليهم أن يخلصوا له ويدفعوا عن أهله ويطبقوا شرع الإسلام فيما خضع لهم من أرضه ، وهذه فضيلة من كبرى فضائلهم وسبب من أكبر أسباب طول عمر دولتهم . كانت القرشية والإسلام الرابطة الدينية والفكرية واللغوية والمعنوية ، أما الأيبيرية فكانت وطنهم الذى أحبوه وارتبطوا به ودافعوا عنه ، وكانت أمهاتهم ايبيريات وكذلك كان الكثير من خدمهم ، فنشأوا يتكلمون الإسبانية لغة ثانية يتكلمون بها بسيولة فى بيوتهم ومع نسائهم ومع أهل وطنهم ، ومن الثابت لدينا أنهم جميعاً ، ابتداء من هشام الرضى كانوا يتحدثون أىّ اللغتين شاءوا بنفس السيولة .

ولدينا أوصاف مشاهد من مجالس الأمراء والخلفاء والقضاة تؤيد ذلك وكانت لبعضهم ألقاب إسبانية ، فمن أحفاد هشام الرضى هذا كان عالم ومؤرخ اعتمد عليه أبو حيان يسمى معاوية الشبانسى أو ابن الشبانسية ، وهذا اللفظ تحريف للفظ إسبانى هو سابينتيا Sabientia أى المتبحر فى العلم ، ومن أحفاد الحكم الربضى رجل

يسمى عبد الله بن عبد العزيز تولى الوزارة ذات مرة وكان بخيلاً فلقَّبه أصحابه بالبطره شك وهما لفظان إسبانيان Piedra Seca أى : الحجر اليابس كما يقول ابن حزم .

وهذه العصبية الإسبانية هى التى مدت لذلك البيت خيوطاً فى الأندلس فاختلطوا بالناس وفهموهم وارتبطوا بالأرض والناس فازدادت دولتهم تمكُّناً ، وأصبحت دولة نابتة فى التربة الإسبانية ، واغلة عروقها فى الأرض الأندلسية ، ولم يكونوا كالكثيرين من أصحاب دول الإسلام فى مواضع أخرى : محتلين أجانب ، وكان لابد أن تعصف بهم الرياح كما تعصف بأى أجنبى مستبد .

كان بنو أمية الأندلسيون جميعاً ممثلين للعروبة والقرشية فى الأندلس ، كانوا يمثلون العروبة لساناً وفكراً وعصبية عربية إسلامية من طبقة عالية وبفضلهم وبفضل حرصهم الشديد على العروبة والإسلام أخذ الأندلس صورة بلد عربى وإن كان معظم سكانه غير عرب من ناحية الأصول ، ولكنهم استعربوا على دين ملوكهم وأصبحوا من أشد الناس اعتزازاً بالأندلس العربى والإسلام الأندلسى ، وكانت عصبيتهم الأندلسية هذه تستلفت الأنظار وتثير الخواطر عليهم حيثما حلوا .

وابن حزم نفسه عندما يتحدث عن نفسه وأهل بيته وتربيته فى كتابه المبدع « طوق الحمامة » يصور نفسه فيه فى صورة رجل عربى نشأ نشأة أندلسية ، فهو إلى سن العشرين كان لا يحسن الصلاة حتى لقد خجل من نفسه عندما دخل المسجد مرة ، فلم يعرف كيف يصلى صلاة الجنازة لأنه فى صباه عاش حياة أندلسية إسبانية بين نساء البيت وجواريه وكلهن إسبانيات . على أيديهن تربى ، كما يقول هو بنفسه ولكنه عندما أحس بجهله بالإسلام وبالثقافة العربية أكبَّ على الدراسة بذكاء العربى ومثابرة الإسبانى فبلغ من المعرفة بالعربية والإسلام والفقه وتاريخ العرب درجة عالية ، وأصبح بذلك من مفاخر التاريخ الفكرى العربى ومن مفاخر الفكر الإسبانى كذلك ، فهو عند الإسبان مفكر وفيلسوف إسبانى وعالم بشئون الأديان يكتب بالعربية ، وهو عندنا منارة العلم العربى الإسلامى الأندلسى ، وأحسن كتاب كُتِب عن ابن حزم كتبه عالم إسبانى معاصر هو ميجل آسين بلاثيوس . وابن حزم نفسه كان من أشد الناس تعلقاً بجانبه الإسبانى ، وهو القائل :

أيَا جَوْهَرِ الصِّينِ سُحْقاً ، فَقَدْ غَنِيتُ بياقُوتَـةِ الأنْـدَلُسِ

وكتابه « رسالة فى فضل الأندلس » خير شاهد على ذلك. وهو فى نفس الوقت من أشد المتحمسين للبيت المروانى الأندلسى لا يزال يلهج لسانه بالثناء عليه ، وهو يرى أن مجد الأندلس العربى الإسلامى كان معقوداً بلواء المروانيين ، فلما انكسر اللواء انكسر الجيش كله ، وحُقَّ له أن يقول ذلك ، فقد قاله أيضاً أحد ملوك النصرانية وهو سانشو الأول الكبير ملك نَبـرَّة ، فقد هاله تدهور الأندلس السريع بعد سقوط البيت المروانى سنة ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م . فقال ما معناه : إن الأندلسيين خيَّبوا ظنه لأن قوتهم كلها كانت فى ملوكهم.

والدور الذى قام به بنو مروان الأندلسيون فى تاريخ الإسلام عظيم ، ولكن دورهم فى تاريخ أوروبا أعظم ، فهم أسرة من الملوك والقادة القرشيين الأوروبيين . ولقد أقاموا دولتهم القرشية والأندلس قد مال ميزانه فعدلوه وحملوا لواء المجد والسؤدد والقوة ثلاثة قرون وتزيد : من ١٣٨هـ إلى ٤٢٣ هـ/ ٧٥٦ - ١٠٣١م . كلها - خلا ثلاثةً وعشرين عاماً هجرية - سنوات صعود وقوة وعزة وكرامة وعروبة وإسلام ، فقارن بذلك بنى أمية المشارقة الذين انتهى عصر قوتهم الحقيقى سنة ٩٦هـ/ ٧١٥م . بوفاة الوليد بن عبد الملك ، أى : أن عصر قوتهم لم يزد على ست وأربعين سنة هجرية (٤٥ سنة ميلادية) وانقطع الرجاء فيهم بوفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م . أى : بعد ٨٥ عاماً هجرية من قيام دولتهم ، فأين هؤلاء من بنى مروان الأندلسيين الذين ظلوا على حال القوة من ١٣٨هـ إلى ٤٢٣هـ أى ٢٨٥ سنة هجرية (٧٥٦-١٠٣١م) أى ٢٧٥ سنة ميلادية ؟ وأين منهم بنو العباس الذين قامت دولتهم سنة ١٣٢هـ ودخلت فى دور الضعف من بداية عهد المتوكل سنة ٢٣٢هـ أى قرن هجرى واحد ، وبقية تاريخهم نزع طويل طافح بالمآسى والمخازى .

ولنضف إلى هذا أن بنى أمية الأندلسيين شادوا مُلْكهم فى ثغر من ثغور الإسلام ، وأقاموا دولتهم بين فَكَّى الأسد فى قلب الغرب الأوروبى المسيحى ، وساسوا

أمورهم وشَقُّوا طريقهم بقوة وحزم وإصرار وإذا اعتبرناهم بيتاً مالكاً أوروبياً نجدهم أذكى وأقدر وأطول عمراً من معاصريهم الأوروبيين من الكارولنجيين خلفاء قارله وشارل مارتل ، والتيوتون الأوتونيين أباطرة الدولة الرومانية المقدسة ، ومن بيتى هيو كابيه ، ثم أنجو ملوك فرنسا .

وفى التاريخ العالمى تحتل قريش مكاناً صدراً برسول الله ﷺ وصحبه وبالراشدين بفضل فتوحهم العظيمة فى القارات الثلاث ، وبالأمويين المشرقيين بفضل فتوحهم أيضاً ، وبالعباسيين لأنهم أنشأوا دولة غير باهرة سياسياً وعسكرياً ولكنها باهرة ثقافياً وحضارياً ، ثم ببنى أمية الأندلسيين بصفة خاصة لأنهم أنشأوا دولة أوروبية عربية مسلمة باهرة سياسياً وفكرياً تضاهى عظيمات الدول فى الغرب الأوروبى .

دَولة الأدارسَة فى المغرب الأقصىَ وَالسّليمانيّين فى غرب المغرب المتوسّطِ :

من مأثور الإمام على بن أبى طالب قوله : السيف أنمى للعدد . يريد أن من يخوضون المعارك ويتعرضون للسيف وتصيبهم المقتلة بعد المقتلة يزداد عددهم ، وذلك صحيح تدل عليه زيادات السكان بعيد الحروب كما حدث بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية ، كأن الإنسان يشعر بغريزة المجموع أن جنسه أو قبيله يستشرى الموت فيه فيجتهد فى التعويض ، وهذا أيضاً ظاهر فى أجناس الحيوان التى يزداد إقبالها على التكاثر بعد الأوبئة والآفات .

ولا يَصْدق ذلك على قوم كما يَصْدق فى العلويين ، فإن على بن أبى طالب أنجب ما يزيد على الخمسة عشر من الذكور غير الإناث ، ولم ينجب منهم نسلاً ذكوراً إلا الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، وكان نسل هؤلاء الثلاثة قليلاً ، فلما استشهد على ابن أبى طالب وتنازل ابنه الحسن وبقى الحسين ومحمد بن الحنفية ، وبدأ الصراع الدموى الطويل بين بنى أمية وبنى على ، وخاض الأمويون فى دماء الهاشميين العلويين خوضاً ، وسقط من العلويين فى المذابح العشرات ، حتى لقد قُتِل مع الحسين فى كربلاء أربعة من إخوته دون من استشهد من بنيه وبنى إخوته ، ولم يكن الحسن قد

أنجب إلا ثلاثة من الذكور ، هو الحسن وزيد وجعفر ، فما هو إلا أن استعر القتل فى آل على حتى تفجر آل الحسن تفجراً فأنجب الرجال والنساء منهم العشرات حتى غدا الحسنيون وحدهم قبيلاً ضخماً كأنهم الشعب ، ثم لم يلبث أن جاراهم الحسينيون فزادوا عليهم ، ولم تقصر بقية فروع العلوية فى ذلك ، وكانت الوقائع بينهم وبين الأمويين أولاً ثم العباسيين بعد ذلك دافعاً بالأحفاد وأحفاد الأحفاد إلى التفرق فى فجاج الأرض ، فانتشر العلويون فى كل بقاع الدنيا حتى لم يخل من رجالهم ونسائهم قطر بل بلد . وقد انقرض الأمويون الذين تجردوا لإبادتهم بانقراض بيتهم الأموى الأندلسى ، وانحصر العباسيون فى بغداد والعراق وبعض الحجاز ، ثم انقرضوا بعد ذلك فلم يبق منهم من يُذكر إلاّ فى بيت خلفائهم فى مصر .

أما العلويون الذين تجرد هؤلاء للقضاء عليهم فقد كثروا كثرة غريبة ونبضت أعراقهم فى كل ناحية واختلطوا بالناس فى كل مكان وصاهروا الناس وأصبح الكثيرون منهم من صميم أهل النواحى وجمهورها ، فاستشرت بيوتهم وتعددت أسماء أسراتهم حتى أصبح من أعسر الأمور ضبط فروعهم وإحصاء أسراتهم ، وقد أنفقتُ من الوقت شيئاً لا يصدق فى عمل شجرات أنساب لكى أحصى بيوت القرشيين التى وصلت إلى السلطان فى نواحى دولة الإسلام شرقاً وغرباً ، فترامى بى الأمر ورأيت أننى أجاوز به القصد ، وأخرج عن طوق قوتى المقصود ، فاقتصرت وإلا ما فرغت أبداً ولقد قدَّرت أثناء هذا البحث أن الدول التى أنشأها القرشيون - العلويون خاصة - فى نواحى الأرض جميعاً كبيرة وصغيرة تبلغ دون المائة ، وانتهيت بها فى الإحصاء إلى ما بعد المائتين وما بقى علىّ كان أعظم ، ورأيت أن هذه نتيجة يتحقق بها دون حاجة إلى مزيد من الاستقصاء جانب من جوانب هذا البحث ، وهو أننا لا نعرف قبيلة من قبائل التاريخ مهما تضخم حجمها لم تنشىء من البيوت الحاكمة على مر العصور قدر ما أنشأ أبناء قريش .

والغالبية العظمى من أولئك القرشيين من بنى هاشم وأبناء على خاصة ما بين حسنيين وحسينيين وزيديين وجعفريين وعقيليين . فكأن الله زاد فى بركة المصطفى صلوات الله عليه بالزيادة فى أهل عترته حتى لم يُحرم منهم فج من فجاج أرض الله ،

ونحن لم نحص ما أنشأته قبائل من الجرمان والمغول والترك لكي نعقد المقارنة بينها وبين قريش على كبر الفرق فى الحجم واتساع البلاد وثروتها . ولكننا نقول غير مجازفين : إن قبيلاً مما خلق الله لم ينشىء من الدول قدر ما أنشأت قريش ، فلم يخل من دولهم عصر ولا مكان ، وإلى أيامنا هذه لا زال بيتان على الأقل من بيوت بنى هاشم حكاماً على شعبين من شعوب العرب المعاصرين ، هما بيت الهواشم أصحاب الأردن وبيت الشرفاء العلويين فى المغرب الأقصى .

وفى خلال النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى عندما وهن أمر الدولة العباسية وتزعزعت قواعد سلطانها بعدما كان من حرب الأمين والمأمون ، ووقوع النفور بين المأمون وأهل بغداد والعراق بعد أن ولّى المأمون الفضل بن سهل وهو فارسى أمر بغداد والعراق وأقام هو تخوفاً على نفسه فى خراسان ، فى هذه الظروف تتابع خروج العلويين على بنى العباس ، إحساساً منهم بأن ساعتهم قد حانت .

وقبل وفاة المأمون بثلاث سنوات أى سنة ١٩٩هـ/ ٨١٤م قام محمد بن إسماعيل ابن إبراهيم الملقب بطباطبا ، وقد أطلق عليه هذا الاسم للكنة كانت فى لسانه فى صغره وهو حفيد إبراهيم بن الحسن بن الحسن وأيَّد الناس حول البصرة إبراهيم طباطبا هذا وانضم إليه ثائر من المتشيعين هو أبو السرايا بن منصور كبير الشيبانيين فتمكن من الانتصار على الفضل بن سهل ولكنه توفى يوم انتصاره ويقال إن أبا السرايا قتله ، فاتجه أبو السرايا لتأييد داعية آخر هو علوى الحسن بن الحسن بن زيد ابن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، واشتدت الحرب بينه وبين قواد بنى العباس وخاصة هرثمة بن أعين .

وهنا نجد العلويين يثيرون ما يشبه الزلزال تحت أقدام العباسيين ، فقد نجم منهم ثائر فى كل بلد من أقصى خراسان إلى أقصى المغرب ولم تَنْجُ المدن المقدسة بالحجاز من هذه النار ، فقام فى مكة والمدينة ثلاثة من الثائرين العلويين فى آن واحد ، وريع المأمون لكثرة خروج العلويين وتأييد الناس إياهم رغم الخسائر التى وقعت فيهم فلجأ إلى التظاهر بالرغبة فى رد الأمر إلى آل على وأمَّن عليَّ الرضا بن الإمام جعفر الصادق وزعم أنه جعله ولى عهده ، وكانت مكيدة ظاهرة انتهت باغتيال على الرضا ، واستمرار بنى العباس فى الخلافة .

وقبيل ذلك ومنذ فشل ثورتى محمد وإبراهيم ابنى الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، تنبه العلويون إلى أن أى محاولة لطلب الخلافة فى الحجاز أو العراق لا أمل فيها ، واتجهت أبصارهم إلى نقل مركز الدعوة والثورة إلى الأطراف ، إلى طبرستان حيث الموالون للعباسيين قليلون ، وإلى اليمن حيث لم يكن لبنى العباس من السلطان إلا ظل زائل ، أو إلى المغرب الأوسط أو الأقصى وكانا خارجين عن أراضى الدولة العباسية ، وكان سلطانها على المغرب لايتعدى مجرى نهر شلف الذى يجرى فى مجراه الأعلى من الجوانب إلى الشمال جنوبى مدينة الجزائر الحالية على وجه التقريب .

فى هذه النواحى كلها ، حيث كان الناس يتعلقون بآل البيت تعلقاً شديداً ويرون فيهم الأمل الباقى لهم من الأمن والاستقرار والحكم الصالح أنشأ العلويون أعظم دويلاتهم وأبعدها أثراً أو شرفاً فى تاريخ الإسلام ، أما الدولة الفاطمية التى قامت فى إفريقية ثم انتقلت إلى مصر بعد ذلك فلها شأن خاص ، ولهذا فستنفرد التجربة الفاطمية بفقرة خاصة بها من ذلك البحث عن قريش .

وتعتبر الدول الثلاث الكبرى التى أنشأها العلويون فى المغرب الأقصى وبلاد الديلم ثم فى اليمن أنجح تجاربهم السياسية على الإطلاق ، وأدلها على طبيعة البيت العلوى فى جملته بعد الصدمات العنيفة التى واجهته فى تاريخه السياسى الأول ، ونقصد بذلك استشهاد على بن أبى طالب وما أحاط بخلافته قبل ذلك من ظروف سيئة وعسيرة على الفهم ، ثم تنازل الحسن واستشهاد الحسين بن على وآله فى كربلاء. فهذه النكسات الثلاث أفهمت العلويين أن ما يقوله الناس فى قلب الدولة من محبتهم وتحمسهم لهم لا يمكن التعويل عليه عندما يجد الجد وينهض المُطَالب العلوى لإقامة دولته ، هنا تبتعد عنه الغالبية ولا يبقى معه إلا القليلون .

وإلى هذا اليأس من الناس يرجع ما نلاحظه من سكون العلويين من أيام عبد الملك بن مروان إلى نهاية الدولة الأموية . وانصراف بعض كبرائهم عن السياسة وتوجُّه جهودهم نحو العلم كما نرى فى حالة جعفر الصادق الذى كان أصلح العلويين للمطالبة بالخلافة فى وجه بنى العباس ، بل هو تعمد أن يعرف الناس عنه عزوفه عن السياسة عندما أحرق كتاب أبى سلمة الخلال حفص بن سليمان وزير آل

محمد وكبير دعاة العباسيين حين عرض عليه الخلافة . بل هو لَامَ ابن عمه محمد النفس الزكية عندما ترامى إليه أنه يفكر فى القيام فى وجه بنى العباس وتنبأ له بالهزيمة والموت إذ لا شيعة له ولا دعوة منظمة . والعلويون الحسينيون على أى حال ظلوا ساكنين حتى بان ضعف العباسيين وكَثُر وثوب الحسنيين فتحركوا فيمن تحرك ، ولكنهم لم يغامروا بأنفسهم مغامرة الحسنيين واتجهوا إلى الاختفاء والتنظيم السرى ، وفى طى الخفاء دبروا أمر حركتهم وأمهل كبارهم أنفسهم إمهالاً طويلاً ، فلما ظهروا ظهروا فى هيئة بالغة التنظيم وأقاموا الدولة الفاطمية .

وأما الحسنيون فكانوا أنشط وأجرأ ، فمن صفوفهم خرجت معظم الحركات العلوية التى زلزلت الأرض تحت أقدام بنى العباس ، فمنهم عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وهو عبد الله المحض وهو والد محمد النفس الزكية الذى قام على المنصور وقُتِل بالمدينة ، وإبراهيم الذى قام بعده بقليل على أبى جعفر وقُتِل فى باخمرا ، وحديث عبد الله المحض مع أبى جعفر المنصور حديث طويل فَصَّلَه الطبرى فى الجزء السابع من تاريخه ونحن نقرأه فنحس وكأننا أمام ثعلبين كل منهم أشد مكراً من الآخر . وإننا لنتعجب كيف وصل أولئك القرشيون فى الدهاء هذا المبلغ البعيد ، وكلمة واحدة من عبد الله المحض هذا تدلنا على أغوار نفسه ، فقد ظل أبو جعفر المنصور يحاوره لِيُقِر له بمكان أبنائه المختفين وخاصة محمد النفس الزكية وإبراهيم ، وكان عبد الله يفضل العذاب على أن يدل على مكان ابنيه فتضيع عليهما فرصة الخروج على بنى العباس والوصول إلى الخلافة ، وضاق به أبو جعفر فحبسه وأخذ أمواله وجعل يبيعها شيئاً فشيئاً ، والرجل مصرٌّ على صمته ، فحدّث رجل يسمى الحارث ابن إسحاق بن حنين قال : « دخلت على عبد الله بن حسن وهو محبوس ، فقال : هل حدث اليوم من خبر ، قلت : نعم ! قد أُمِرَ ببيع متاعك ورقيقك ، ولا أرى أحداً يُقْدِم على شرائه ! فقال : ويحك يا أبا حنين ، والله لو خرج بى وبناتى مسترقين لاشترينا[1] ! » .

وسوء الظن هذا بالناس وبالحظ هو الذى يفسر لنا : لماذا أبعد الحسنيون فى الرحلة

---

(١) الطبرى : ٧/ ٥٢٥ .

واختاروا أبعد المواطن عن متناول بنى العباس ليجربوا حظهم ، وكان أحسنهم نصيباً فى ذلك إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، ربما لأنه اختار بلداً قصياً جداً عن بنى العباس ، ثم إن حركته قامت بين أقوام من البربر الذين طال شقاؤهم بالحروب والقلق منذ قيام الفتنة المغربية على بنى أمية ، وكانت نفوسهم تهوى إلى زعيم ذى إيمان وجاه تطمئن إليه نفوسهم ويخرجون به من متاهات السياسة ومضانك الزندقة ، فكان هذا الزعيم هو إدريس هذا ، ولم يكونوا ليجدوا له مثيلاً ، فهو من عترة رسول الله ﷺ ، وهو قد أتاهم صبياً صغيراً يحضنه ويرعاه مولى من جنسهم ويتكلم لغتهم ، وكانت دعوة هذا المولى واسمه راشد لهم أن يشاركوه فى رعاية هذا الصبى الكريم ويقوموا معه بأمره ، فعطفت عليه قلوبهم وتبنوه وأيدوا دعوته .

وكانت حاجتهم إليه مثل حاجته إليهم ، وكان هذا من أسعد اللقاءات التاريخية : لقاء طرفين كل منهما يحل للآخر مشكلته ويفتح أمامهما معاً أبواب العمل والحياة . ولو أن إدريس هذا وصل إلى المغرب فى جمع من قومه لما تيسر أمره على النحو الذى كان يسبب ما لا بد منه – بالنسبة للعرب – من اختلاف الكلمة والحسد كما حدث للقاسم الرسى بن إبراهيم طباطبا ، وهو من أحفاد إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب قتيل باخمرا سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م .

ولم يكن إدريس هو العلوى الوحيد الذى فر إلى المغرب ، فقد لحق به حسنيون آخرون فروا إلى المغرب الأقصى ، وأنشأوا فيه الدولة الإدريسية فتجمع فى هذا الصقع من بلاد الإسلام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وسليمان أخوه أو أبناء سليمان هذا ، ويقال : إن سليمان نفسه قُتِل فى معركة فخ مع من قُتِل من العلويين وأن الذين خرجوا كانوا أولاده ، ولكنهم لم يخرجوا إلى المغرب إلا بعد مقتل الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن أبى طالب ، الذى خرج على الخليفة الهادى العباسى فى ذى القعدة سنة ١٦٩هـ/ أبريل ٧٨٦م ، وقُتِل فى وادى فَخ على نحو ١٠ كيلو مترات شرقى مكة ، وكانت هذه الواقعة من أشد ما أصاب بنى هاشم وأعمقه وقعاً فى تاريخ الحركة الشيعية ، وهى التى قال فيها شاعر الشيعة :

فَـلَأَبْكِينَّ علَـى الحسَـيْنِ بِعَـوْلَـةٍ وعلَى الحسَـنِ
وعلَى ابْنِ عَاتِكة [1] الذِى وَارَوْه ليسَ بِـذِى كَفَـنِ
تُـرِكُـوا بفـخ غَـدْوةً فى غَيرِ مَنْزِلَـةِ الـوطَـنِ
كَانُـوا كِـرَامـاً هُيِّجُـوا لَا طَـائِشِـينَ ولا جُبُـن

وقد صدق الشاعر فى البيت الأخير من قصيدته ، فإن الحقيقة هى أن الحسين بن على هذا قد أُحـرِج إحراجاً شديداً ، بسبب ما كان رجـال بنى العباس يفعلونه ببنى على ، فقد تنافس الناس فى الإساءة إليهم بتأليب الخلفاء عليهم ، وكان والى المدينة إذ ذاك عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وكان قد جعل العلويين يضمن بعضهم بعضاً وفرض عليهم أن يعرضوا أنفسهم عليه كل يوم ليطمئن إلى حالهم ، كما تفعل مراكز البوليس اليوم مع المشبوهين والخارجين من السجون ، وكان أحدهم إذا غاب عن هذا العرض المشين ضمنه الحاضرون ، وكان الذى يلقاهم ليستوثق من أمرهم نائباً من نواب العامل يسمى خليفته ، وكان الحسين بن على بن الحسن الذى نحن بشأنه ويحيى بن عبد الله بن الحسن الذى سيفِرُّ إلى بلد الديلم كفيلين بالحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن ، فغاب هذا الأخير ثلاثة أيام ، فأصر الوالى عمر بن عبد العزيز على إحضاره وأغلظ لكفيليه ، فضاقت نفساهما ونفوس العلويين بهذا الهوان وقرروا الخروج بمنى أو بمكة فى الموسم ، وخرج العلويون بالفعل وخلعوا طاعة الهادى العباسى فى موسم الحج سنة ١٦٩هـ ، وسيَّر الخليفة لحربهم محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس ، وكان من أكبر قواد الدولة العباسية .

وكانت الوقيعة بفخ ولم تكن بمذبحة دامية مثل كربلاء أو باخمرا ، ولكن صداها كان بعيداً جداً ، لأن الناس أجمعين كانوا قد ضاقوا بهذا العدوان المستمر على آل البيت والإصرار على إنزال المهانة بهم ، وقد قُتِل فى المعركة الحسين بن على بن الحسن ابن الحسن بن الحسن ونفر من آل بيته ، وجرح فى المعركة يحيى بن عبد الله بن الحسن

(١) هو : الحسين بن على قتيل فخ الذى ذكرناه فى المتن .

الذى أنشأ دولة علوية فى بلاد الديلم ، وفيها قتل أخوه سليمان وفرَّ أبناؤه إلى المغرب الأوسط ، ويقال : إن أخاهما إدريس اشترك فى الوقعة ولكننا نستبعد ذلك لأنه كان إذ ذاك صغيراً جداً ، وقتل فيها رجل من العلويين شديد السواد هو الحسن بن عبد الله الأشتر - الذى قُتِل بكابل - بن محمد - قتيل المدينة سنة ١٤٥هـ - بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وكان يلقب بأبى الزفت لشدة سواده فهو شهيد بن شهيد بن شهيد ، وقد أحزن الناس جميعاً مقتله ، وقد حمل رأس الحسين الشهيد هذا إلى الهادى رجل من أتباعه يدعى يقطين بن موسى فنفر منه وغضب عليه وحزن على مصاب هذا المسكين [١] .

وقبل أن نمضى مع إدريس إلى مهربه نضيف ملاحظة لها أهميتها بالنسبة لما ندرسه من أمر قريش ، فإن الناس يحسبون أن ضعف بنى العباس واستبداد جندهم بهم لم يكن إلا بعد أيام المعتصم ، ولكن الحقيقة التى تتجلى للقارىء المتأمل فيما يقرأ ، هى أن تدهور الدولة العباسية ووقوع خلفائها تحت رحمة الجند يرجع إلى أواخر أيام المهدى والهادى ، وهما الثالث والرابع من خلفاء بنى العباس ، وإليك خبر يؤكد لك ما نقول.

فقد ذكر الطبرى نبأ وفاة الخليفة المهدى فى ذى الحجة سنة ١٦٩هـ ، فى ماسبذان من نواحى خراسان ، وكان معه ابنه الأصغر هارون (الرشيد فيما بعد) ، أما ولى عهده موسى الهادى فكان فى بغداد خليفة لأبيه فحار هارون فيما يفعل وخاف إن علم الجند بموت المهدى شغبوا ، ونصحه يحيى بن خالد وقال : « ولا آمن إذا علم الجند أن يتعلقوا بمحمله ويقولوا : لا نخليه حتى نُعطى (الرواتب) لثلاث سنين وأكثر ويتحكموا ويشتطوا ولكن أرى أن يوارى رحمه الله ها هنا ونوجه نُصَيْراً (أحد رجاله) إلى الهادى بالخاتم والقضيب والتعزية ... وأن تأمر لمن معك من الجند بجوائز: مائتين مائتين ، وتنادى فيهم بالقفول ، فإنهم إذا قبضوا الدراهم لم تكن لهم همة سوى أهاليهم وأوطانهم » .

وقد أراد يحيى بن خالد البرمكى أن يتخلص الخليفة من الجند فيسبقونه إلى

---

(١) الطبرى : ١٩٢/٨ وما بعدها .

بغداد ، فأعطاهم المال وأذن لهم فى القفول فتسارعوا إلى بغداد ، فلما وصلوا بغداد بلغهم خبر موت الخليفة المهدى وولاية الهادى ، فشغبوا على الربيع بن يونس الوزير « وأخرجوا من كان فى حبسه ، وأحرقوا أبواب دوره فى الميدان ، وحضر العباس بن محمد وعبد الملك بن صالح ومحرز بن إبراهيم ذلك ، فرأى العباس أن يرضوا وتطيب نفوسهم ، وتُفرق جماعتهم بإعطائهم أرزاقهم ، فبذل ذلك لهم فلم يرضوا ، ولم يثقوا لما ضمن لهم من ذلك حتى ضمنه محرز بن إبراهيم ، فقنعوا بضمانه وتفرقوا ، فوفى لهم بذلك ، وأُعطوا رزق ثمانية عشر شهراً ، وذلك قبل أن يقوم هارون »[1].

فانظر والله خوف رجال الدولة من الجند واستبداد الجند بهم فى أول عهد الهادى الذى نقول إنه عهد قوة البيت العباسى ، فكأننا لا نقول الحقيقة عندما نقول : إن ضعف خلفاء بنى العباس ووقوعهم تحت رحمة الجند بدأ فى أيام المتوكل ، لأن الدولة العباسية كانت ضعيفة البنيان واهية الأركان من يوم ولادتها ، وهى لم تكن دولة ذات قوة وسلطان إلا فى عهد أبى جعفر المنصور ، وبه بدأت قوتها وانتهت فى نفس الوقت ، فقارن بذلك قوة الدولة الأموية فى الأندلس وعِظَم سلطان خلفائها وقبضهم بيد حازمة على جندهم وهيبة الجند لهم . ومن هنا نستطيع القول بكثير من التحفظ إن الأمويين على الجملة كانوا أقوى على السياسة وضبط الأمور من الهاشميين جملة ، أياً كانت مواضع دولة هؤلاء وأولئك .

ونعود إلى إدريس بن عبد الله فنقول إنه هرب بعد معركة وادى فخ إلى مصر ثم المغرب متنكراً . وأبعد فى الهرب حتى وصل طنجة وكانت أبعد ما تكون من حدود دولة بنى العباس التى وقفت عند وادى شلف وكان معه مولاه راشد وكان من عظماء الموالى وأهل الصدق والإخلاص مع آل البيت ، وليس هناك ما يمنع من قبول ما يقال من أن أصله من أبناء سبى إفريقية وأنه كان يعرف لغة المصامدة وهم أعظم قبائل المغرب الأقصى .

وكانت الأحوال فى تلك الناحية من المغرب الأقصى مضطربة اضطراباً شديداً ، فإن ناحية طنجة وما حولها كانت على إسلام سنى صحيح لأنها كانت منذ الفتح

---

(١) الطبرى ، تاريخ ٨/ ١٨٧ - ١٨٨ .

الأول ثغر الغرب وباب الأندلس ، فكثر مرور العرب واستقرارهم بها ، ولكن لم يكن عليها سلطان لأى دولة إنما كان أصحاب السلطان فيها هم البربر ، ومعظمهم هنا من قبيلتى نفزة وأوربة ، وإلى جنوب سهل طنجة وسبتة كانت تقع جبال الريف وكانت تسكنها قبائل مصمودية برنسية كثيرة أقواها برغواطة وغمارة ، وبرغواطة كانت من القبائل التى أوعبت فى الفتنة المغربية وقامت على العرب وأخرجت مَنْ كان من العرب فى بلادها فى عنفوان الفتنة المغربية التى شارك فى صنعها دعاة الخارجية ما بين صفرية وأباضية .

وهؤلاء الخوارج الذين انهزموا فى قلب الدولة فطلبوا الأمان والنجاة فى أطرافها ، كانوا جميعاً أعداء لقريش ، وكانوا ينكرون ما يقوله القرشيون من أن الإمامة فيهم ، وكل زعمائهم الأُول كانوا متشددين فى إنكارهم إمامة قريش ومَثَلُهم الكبير المعروف لنا هو عبد الله بن وهب الراسبى الأزدى الملقب بذى الثّفنات ، وهو أول خليفة اختاره الخوارج أيام خروجهم على علىّ بن أبى طالب ، ومن أمثلتهم أبو راشد نافع ابن الأزرق الحنفى منشىء فرقة الخوارج المتشددة الذى أعلن الحرب على المسلمين جميعاً وأباح قتالهم بالسيف لأنهم خضعوا لسلطان الخلفاء الظلمة فأعانوهم بخضوعهم هذا على ظلمهم ، وفى رأيه أنهم كفرة حربهم حلال ، وعبد الله بن أباض التميمى منشىء فرقة الأباضية ، وزياد بن الأصفر التميمى منشىء فرقة الصفرية . هؤلاء جميعاً كانوا لا يعترفون برئاسة قريش ، وكانوا يقولون بإمامة الأصلح من المسلمين « ولو كان عبداً ذا زبيبة » ، وهذه الآراء تعجب غير العرب ممن أحرج صدورهم بنو أمية وعمالهم بسوء تصرفهم ، ولهذا فقد استجابوا لهذه الدعوات فهى تفتح لهم فى أمة الإسلام أبواباً واسعة من القوة والسلطان لا تسمح به لهم دولة الجماعة التى خضعت للسلطان الأموى والعباسى ، فأقبل على تلك المذاهب الخارجية الكثيرون منهم واعتقدوا أنها أقرب إلى روح الإسلام ، وكانت الظروف العامة فى أخريات الحكم الأموى تشجع على مثل هذا التفكير .

ولم يكن الإيمان قد استقر فى قلوب البربر على أصوله إلى ذلك الحين . فقد كانوا حديثى العهد بالإسلام ، إذ إنهم لم يدخلوا فيه إلا قبيل نهاية القرن الهجرى الأول ، ثم

جاءهم هؤلاء الدعاة بدعوة الخارجية وحق الجماعة فى أن تختار رئيسها عربياً كان أم غير عربى ، ونَجَم فى قبيلة مدغرة أو مطغرة ثائر يسمى ميسرة الفقير ، وكان طالب عالم ، ولكنه لم يُحصِّل إلا قليلاً ، وعندما قامت الفتنة المغربية تزعمها فى قومه وسار لحرب العرب ، ومات قبل أن يلقاهم ، فتولى أمرهم زعيم آخر يسمى خالد بن حميد الزناتى .

ومن مدغرة انتقلت الثورة على حكام العرب إلى برغواطة ، وكانت حلفاً بربرياً برنسياً ضخماً يسكن جبال الريف وساحل المحيط الأطلسى المعروف بتامسنا ويمتد حتى سلا وآزمور وأنفى (وهى اليوم الدار البيضاء) وآسفى ، فظهر فيهم رجل قليل العلم ذو طموح سياسى واسع ، وادعى النبوة وزعم أنه نبى مرسل يوحى إليه قرآن فى سور ، وكان اسمه صالحاً ، وقد ظهر آخر خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٧هـ ، وزعم أنه المهدى وأنه يظل فى قومه حتى مجىء عيسى عليه السلام ، وتبعه قومه فى نحلته هذه الغريبة التى هى من نتائج الجهل بالإسلام وما أدخله دعاة الخارجية فى عقول هؤلاء الناس من أفكار مضطربة أو مشوشة فسروها هم على هواهم ، وقد طالت رياسة صالح هذا سبعاً وأربعين سنة ، وزعم أنه صالح المؤمنين الوارد ذكره فى القرآن الكريم ، وعندما أراد أن يصير الأمر من بعده لابنه إلياس دون أن يناقشه أحد من قومه زعم أنه خارج إلى المشرق وأوصى لابنه إلياس ليحكمهم هو وأولاده حتى يعود هو إليهم فى حكم السابع من أهل بيته واختفى بالفعل وتولى أمرهم ابنه إلياس .

وصالح وإلياس هذان هما اللذان وضعا المذهب الذى عرف بزندقة برغواطة ، ويبدو أن أخبار زندقة برغواطة مبالغ فيها وأن أبناء صالح البرغواطى عدلوا عن مذهبهم واقتربوا من الإسلام الصحيح ، وإن ظلوا منحرفين ولو كانوا زنادقة تماماً حقاً لما حالفهم خلفاء بنى أمية الأندلسيون ، وقد كان بنو أمية من أكثر الدول تمسكاً بالإسلام السنى الحنيف على مذهب مالك إمام دار الهجرة . ومعلوماتنا عن البرغواطيين أتباع صالح هذا ترجع إلى تقرير عنهم وعن ديانتهم رفعه إلى الخليفة الحكم المستنصر الأموى وَافدٌ منهم على الحكم المستنصر يسمى زمور بن صالح بن هاشم بن وراد ، وقد أتانا بنص هذا التقرير أبو عبيد البكرى فى الجزء الخاص بالمغرب

من كتابه « المسالك والممالك » وأتانا به أيضاً ابن عذارى المراكشى فى البيان المغرب ؛ وابن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه [1] .

ويهمنا أن نذكر أن دعوى النبوة هذه كانت بغرض جمع صفوف البرغواطيين حول صالح هذا وإقامة كيان سياسى يحكم النواحى التى ذكرناها من جبال الريف ، ولهذا فقد كان تمسك البرغواطيين بآل صالح البرغواطى شديداً ، وبفضله استطاعوا أن يسودوا منطقة الريف وريف تامسنا وبلاد غمارة التى تقع جنوبى جبال الريف وتسمى بلاد الهبط أو هبط غمارة وتشمل المجرى الأعلى لنهر سبو وفروعه الكثيرة وقد نشر البرغواطيون سلطانهم وأرهبوا من حولهم من القبائل وسادوهم وعسفوهم .

تلك كانت الأحوال من ذلك الطرف القصى من غربى بلاد المغرب حين وصل إدريس بن عبد الله مع مولاه راشد .

وفى طنجة دعا له مولاه راشد ، ولكن طنجة كانت مَعْبراً إلى الأندلس ، وكانت متجراً وملتقى قبائل تروح وتجيء ، والدعوة تحتاج إلى قرار وأهل استقرار يسمعون ويستجيبون ويتجمعون ، فتركها راشد ومضى بإدريس إلى بلدة صغيرة عند ملتقى طرق وتؤدى إليها وديان بين جبال ، والبلدة كانت من قديم الزمان مركزاً تجارياً عُرِف عند الرومان باسم Volubulis ومنه جاء الاسم العربى وليلى ، وتلك البلدة كانت المركز المدنى لجزء كبير من قبيلة أَوْرَبة ، وهى إحدى القبائل البرنسية الكبيرة التى كان لها شأن كبير فى الفتح الإسلامى ، فقد قاد ملكها كَسِيلة المقاومة ضد الإسلام أول الأمر ثم أسلم وحالف الوالى دينار أبا المهاجر .

فلما عُزِل أبو المهاجر وجاء عقبة بن نافع أساء معاملته فانتفض عليه ، وألب عليه القبائل ، وخاض مع المسلمين معركة تهودة التى استشهد فيها عقبة سنة ٦٣هـ . ولكن المسلمين عادوا فقتلوا كسِيلة وانتصروا عليه بقيادة زهير بن قيس البلوى ، وعلى إثر هذه الوقيعة تحطمت قوة أَوْرَبة فى المغرب الأوسط وبقى لها فرع كبير حول

---

(١) انظر ابن خلدون : العبر ٦/ ٢٠٧ – ٢٠٨ .

وليلى فى جنوبى جبال الريف إلى جوار منازل قبيلة غمارة ، وكانت غمارة قبيلاً مصمودياً عظيماً يسكن جنوبى جبال الريف وينساح فى السهول جنوبها فيما يُعرف ببلاد الهبط أو هبط غمارة . وغمارة وأَوْرَبة هما اللتان حملتا عبء دولة الأدارسة . وفى غمارة تنبأ أنصار رجل يسمى حاميم بن عبد الله بن جر بن عمر بن زحفو بن آزروال سنة ٣١٣هـ / ٩٢٥م. وقد قضى على فتنته المرابطون ، وقد اشتهرت القبيلة بالسحر والساحرات .

لم يَطُلْ انتظار إدريس وراشد فى وليلى لأن رؤساء أَوْرَبة التفوا حول إدريس وتيمنوا بنسبه الشريف ، وقد علا شأن أَوْرَبة بهذا التأييد فسارعت غمارة وانضمت إليها ، وكان الغماريون أكثر عدداً من الأوربيين ، وقد اشتد بهم ساعد إدريس .

وإلى هنا نجد إدريس بن عبد الله بن الحسن هاشمياً منفرداً بين البربر ، فلا نسمع بانضمام عرب إليه ، حتى ابن عمه سليمان وأولاده الذين نزلوا ناحية تلمسان لم ينضموا إليه ، إلا حين غزا بلادهم وأقرهم على ما فى أيديهم .

كان لتلك البداية أثر بعيد فى مستقبل الدولة الإدريسية ، لأن إدريس وآله – بحكم الضرورة – كان لابد أن يعتمدوا على البربر ويصاهروهم ويندرجوا فيهم ، ويصبحوا وكأنهم منهم وإن كان الأدارسة رؤساءهم ، ونتيجة لذلك لم تصبح الدولة الإدريسية دولة عربية وسط البربر ، كما كانت دولة بنى أمية الأندلسيين دولة عربية فى محيط إيبيرى ، فارتبط البيت الإدريسى بالناس ، وصار لإدريس أولاد كثيرون من نساء بربريات من مختلف القبائل .

وقد أبدى إدريس نشاطاً عظيماً عندما أدرك سن الرشد وتولى الحكم بنفسه ، فتجرد لحرب الزنادقة ومن بقى على الكفر من نواحى شمالى المغرب الأقصى وإنشاء دولة كبيرة وأظهر براعة كبيرة فى الحروب كان الحكم فيها جماعياً ، أى : أن إدريس كان لابد أن يشاور الناس ويأخذ برأيهم ولا يخالف أقوالهم ، ولم يقع فى الخطأ الذى قصم ظهر معظم الدويلات المغربية وهو الاشتطاط فى جمع الضرائب ، وما دام كل رجال إدريس من البربر وكذلك جنوده فإنه لم يفكر فى أن يجبى منهم إلا الشرعى والمعقول من الجبايات ، فرضى الناس عن الحكم ونبتت فى قلوبهم محبته وعلا أمره ،

وقامت دولته فى شمال المغرب الأقصى عربية اللسان والرياسة ، بربرية البنيان ، وإلى هذا ترجع قوتها .

فهذه الدولة كانت دائماً دولة صغيرة المساحة نسبياً ، وكانت كذلك متواضعة مالياً ، ولكن رصيدها من محبة الناس كان عظيماً ، وزاد فى صلابة تكوينها ، أنها كانت دولة سُنية يُقضى فى بلادها بمذهب مالك ، وهذا طبيعى لأن العلويين أنفسهم لا يكونون شيعة بل الشيعة أنصارهم ، وهذه السنية كانت كذلك من عمد قوة دولة الأدارسة . وقد حكم إدريس الأول هذا فترة قصيرة : من ٤ رمضان سنة ١٧٢هـ إلى أول جُمادى الآخرة سنة ١٧٧هـ . ولكنه وضع أساس دولة قرشية هاشمية فريدة فى بابها ، فهى دولة عربية هاشمية لا نسمع عن أمرائها ظلماً أو تعدياً أو طمعاً فى مال أحد أو قتلاً غادراً لرجال دولتهم ، ثم هى كذلك جماعية فى رياستها ، وربما كانت دولة الأدارسة أقرب دولة إلى الإسلام « بعد الراشدين » إلى المثال الإسلامى الصحيح .

وقد مات إدريس فى ريعان شبابه ، مات فجأة وربما يكون قد مات بالسم على يد رجل دسيس عليه من العباسيين ، ولا يصح أن يقال إن هذا الدسيس كان مرسلاً من قِبَل إبراهيم بن الأغلب ، لأن ولاية إبراهيم بن الأغلب لم تبدأ إلا سنة ١٨٤هـ .

وليس أدل على تعلق الناس بهذا البيت الإدريسى من أن رجال دولته سعدوا عندما أبلغهم راشد أن إدريس ترك جارية من جواريه « وتسمى كنزة » حاملاً فاجتمع رأيهم على أن ينتظروا بالجارية حتى تلد ، فإن ولدت ذكراً بايعوه ، وبالفعل وضعت كنزة ذكراً فسموه إدريس بن إدريس ، وكل ذلك بإرشاد راشد الذى جمع رؤساء البربر حوله ، وعندما مات راشد سنة ١٨٦هـ ، ثبت القوم على ولائهم للصبى الهاشمى العلوى ، وتولى رعايته شيخ من شيوخهم يسمى أبا خالد بن يزيد ابن العباس العبدى ، وعندما بلغت من إدريس الحادية عشرة بايعوه البيعة الثانية وأعلنوه أميراً . وكان ذلك سنة ١٨٨هـ .

ومما يدل على جماعية الرياسة فى هذه الدولة قول ابن خلدون : «ولم يزل كذلك إلى

أن بايعوا لإدريس فقاموا بأمره وجددوا بأنفسهم رسوم الملك بتجديد طاعته وافتتحوا بلاد المغرب كلها واستوثق لهما الملك بها » [1]. وواضح هنا أن إدارة الدولة ورياستها كانت جماعية ، ولم يظهر الضعف فى هذه الدولة إلا إثر قدوم نفر من عرب الأندلس إلى وليلى ودخولهم فى خدمة إدريس وكانت قد أوفت سنة على إدارة راشد ، واستطاع أن يدبر أمر نفسه فاستوزر عربياً يسمى مصعب بن عيسى الأزدى ، ولم يلبث أبو خالد بن يزيد بن العباس العبدى الذى حمل عبء الدولة سنوات طويلة أن قُتِل وانفرد هذا الأزدى بالوزارة وتكاثر العرب فى حاشية إدريس ورجاله ، فاتخذ منهم بطانة برئاسة مصعب بن عيسى الأزدى الذى يُلقب بالملجوم (ولا زالت أسرة الملجوم باقية فى المغرب الأقصى إلى اليوم) .

وقد ساعد هؤلاء العرب على استكمال الطابع العربى لهذه الدولة، ومن حسن الحظ أن عددهم لم يزد على خمسمائة فبقى البربر على مراكزهم فى دولة إدريس واستمر تأييدهم لها ، وعلى الرغم مما يقوله ابن خلدون أن إدريس الثانى «اعتز بهؤلاء العرب واستفحل بهم سلطانه» [2] إلا أننا لا نجد لذلك صدى فى سير الأمور فى الدولة فيما عدا مقتل إسحاق بن إبراهيم رئيس أوربة ، وربما يكون للعرب دخل فيه ولكننا لا نستطيع تأييد ذلك فربما كان مقتله على يد الغماريين لأن غمارة ستفرض من ذلك الحين سلطانها على دولة بنى إدريس ، وابن خلدون نفسه يقول : إن دولة الأدارسة هى غُمارة .

على أى حال ، نجد إدريس الثانى هذا يواصل جهود أبيه فى حرب الزنادقة ومن لم يسلم من البربر حتى جعل شمالى المغرب الأقصى منطقة إسلام ، ثم اختط مدينة فاس فى سهل يسمى تكزاز - على نهير فاس المتفرع من سبو - وأقام هذه المدينة فى موضعها الراهن فى ذلك السهل بين جبلى زرهون وتلاغ بادئاً بعدوة الأندلس على إحدى ضفتى النهر سنة ١٩٢هـ . ثم بنى فيها مسجد الشرفاء ثم نشأت فى عصره عدوة القرويين وبنى فيها مسجد القرويين ، ومن العدوتين تكونت فاس تلك المدينة

---

(١) ابن خلدون ، العبر : ٤/ ١٣ .
(٢) نفس المصدر ٤/ ١٤ .

العظيمة التى أصبحت منذ إنشائها قاعدة من قواعد الحضارة العربية الإسلامية فى المغرب ، وهذه ثانى مدينة باقية ينشئها الهاشميون ، الأولى هى بغداد والثانية هى فاس، وقد قدِّر لفاس من طول العمر والازدهار ما قدر لبغداد : هذه فى المغرب وتلك فى المشرق ، والاثنتان إلى يومنا هذا من عظام مدن الدنيا .

والحق أن خريطة الدنيا لا تزال تحمل أعلام العمران القرشى فيما أنشأه القرشيون ما بين أُمويين وعباسيين من مدن الأندلس حيث نجد مرسية والمرية ومدينة سالم وبلد وليد وكلها منشآت نشأت فى ظلال حكم بنى أمية الأندلسيين ، إلى جانب ما عمروه من قديم المدن مثل قرطبة وإشبيلية وسرقسطة وبلنسية ، وفى المغرب نجد فاساً هذه ثم تيطاوين أو تطوان وحجر النسر ، وقبل ذلك القيروان وتونس وبعدها المهدية - من إنشاء الفاطميين - ثم الفسطاط ومنشئها عمرو بن العاص القرشى والقاهرة وعشرات المدائن غيرها ما بين مستحدث وجديد ، وإذا كنا نتكلم عن كبار الدول التى أنشأتها قريش فلابد أن نذكر المدن أيضاً ؛ لأن المدن مركز عمران وإشعاع حضارى ، وفى هذا المجال لا تزال فاس مدينة المولى إدريس تتألق إلى يومنا هذا واحدة من أجمل مدائن الدنيا وأحفلها بتاريخها العلمى والحضارى .

وقد سبق أن ذكرنا تعمير قريش لمكة على يد قصى بن كلاب ، وكيف أصبحت على يد القرشيين أعظم مركز عمرانى فى الجزيرة العربية ، وعندما هاجر رسول الله ﷺ النبى القرشى إلى المدينة وجدها سهلاً فسيحاً بين حرتين تتناثر فيها منازل القبائل مثل يثرب والسُّنْح وقباء ورابخ فأصبحت فى عصره المبارك مدينة واحدة تمدنت وعظمت وأصبحت قاعدة أمة الإسلام التى ملأت فيما بعد طباق الأرض إسلاماً ونوراً وعلماً ، ولا زالت مكة والمدينة إلى يومنا هذا من أعاظم بلاد الدنيا وهى أكرمها على الله وأحبها إليه وإلى الناس، والفاتحون من القرشيين هم الذين اختطوا البصرة والكوفة والفسطاط ، وبنو العباس بنوا الهاشمية[1] ، وواسط بُنِيت على يد الحجاج أيام بنى أمية ، فأى قبيلة هذه قريش التى قُدِّر لها أن تنشىء على وجه الأرض من

---

(١) الهاشمية : مدينة بناها أبو العباس السفاح بالقرب من الكوفة . ابن خلكان فى وفيات الأعيان فى ترجمة معن بن زائدة [المراجع] .

الدول ومراكز العمران ما لم تنشئه عظام الدول ، هذا إلى ما شَرفت قريش به من نزول القرآن الكريم بلسانها العربى المبين ، وكان لها من فضل فى النهوض بهذا اللسان العربى المبين قبل الإسلام وبعده ، وهى أيضاً التى طورت الكتابة العربية من الرسم السابق لها الذى نشأت به فى شمال الجزيرة إلى رسمها الذى كُتِب به القرآن الكريم .

وبعد أن أتم إدريس إنشاء فاس ومسجديها : الشرفاء ثم القرويين استمر فى جهاده لتوسيع رقعة الإسلام السنى الصحيح فى المغرب ، فحارب برغواطة وغزا بلادها وكسر ظهر زندقتها ، وردَّ الضالين من أهل برغواطة وغمارة إلى الإسلام ، ثم مضى إلى غربى المغرب الأوسط حيث كان أبناء عمومته أبناء سليمان بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب قد أنشأوا دويلات صغيرة فى إقليم تلمسان وما حولها ، فأدخل تلمسان ونواحيها فى دولته دون أن يمسَّ أصحابها من بنى عمومته بسوء ، فاشتد ساعدهم وقامت دولهم فى المغرب الأوسط ثم عاد إلى فاس ثم اتجه بغزواته إلى الجنوب وأوغل فى بلاد جنوبى المغرب الأقصى حاملاً لواء الإسلام والعروبة ، وعاد إلى تلمسان حيث بنى جامعها الباقى إلى اليوم ، وهو من أجمل مساجد الإسلام .

يقول ابن خلدون : « ثم خرج غازياً المصامدة سنة سبع وتسعين (ومائة) فافتتح بلادهم ودانوا بدعوته ، ثم غزا تلمسان ، جدّد بناء مسجدها وأصلح منبرها ، وأقام بها ثلاث سنين وانتظمت كلمة البرابرة وزناتة ومحا دعوة الخوارج منهم ، واقتطع المغربين عن دعوة العباسيين من لدن السوس الأقصى إلى شلف ، ودافع إبراهيم بن الأغلب عن حماه بعدما ضايقه بالمكادة ، واستقاد الأولياء واستمال بهلول بن عبد الواحد المطغرى بمن معه من قومه عن طاعة إدريس إلى طاعة هارون الرشيد ، ووفد عليه بالقيروان ، واستراب إدريس بالبربر فصالح إبراهيم بن الأغلب وسَكّن من غَرْبه ، وعجز الأغالبة من بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدارسة ودافعوا خلفاء بنى العباس بالمعاذير بالغضِّ من إدريس والقدح فى نسبه إلى أبيه إدريس بما هو أَوْهَى من خيوط العنكبوت ، وهلك إدريس سنة ثلاث عشرة ومائة ، وقام بالأمر من بعده ابنه

محمد[1].

وابنه محمد هذا تولى الإمامة فى ربيع الأول ٢١٣هـ وأقدم لأول ولايته على عمل سياسى لم يسبق إليه سابق قبله ، أو يلحق فيه لاحق بعده ، ويقول إنه عمله بنصيحة جدته كنزة : لقد قسم بلاد دولته بين إخوته إقطاعيات أو ولايات ، وكل أخ ينفرد بالسلطان فى ولايته ويتصرف فيها تصرف صاحب الملك فى ملكه باقياً على الولاء لأخيه الإمام صاحب فاس ، وهو مسؤول عن كل شىء فى ولايته ولا يلزم إلا بأداء جانب من الجبايات إلى أخيه ، ونحن لا نعرف شيئاً عن تفاصيل هذا التقسيم الذى اعتبره الناس فى أيامه مُضْعفاً للدولة ومفرقاً لأمرها ، وربما كان هذا صحيحاً ، ولكن أصح من ذلك أنه إذا كان قد أضعف سلطان الدولة المركزية فى وقت كانت الدول تعتمد فيه أولاً وآخراً على السلطان المركزى ، ولكنه فى واقع الأمر زاد ارتباط الناس بهذه الأسرة العلوية ، لأن الإمام محمد بن إدريس لم يكن له جيش مرتزق ، وكان اعتماده على جند البربر من أهل القبائل وكذلك كان إخوته الذين فرَّقهم ، فنزل كل منهم بين القبائل التى تولى أمر ناحيتها واعتمد عليهم وصاهرهم ، وأصبح هو وأهل بيته ومن لحق بهم عرباً قرشيين متبربرين محتفظين بعروبتهم ولغتهم وعاملين على تعريب النواحى التى نزلوا فيها ، وهذا كله مدَّ للبيت الإدريسى جذوراً طويلة فى كل نواحى المغرب الأقصى ، لأن الإخوة الذين فرَّقهم فى النواحى كانوا ثمانية ، ونواحيهم تشمل المغرب الأقصى كله من سبتة وطنجة إلى بلاد السُّوس الأقصى جنوبى المغرب الأقصى حتى تخوم الصحراء ، ومن المحيط الأطلسى إلى نهر المولوية ، وقد ترك أبناء عمه أولاد سليمان بن عبد الله على نواحيهم فى المغرب الأقصى فيما يلى بلاده شرقاً .

وقد رحبت كل ناحية ومن فيها من القبائل بمن وفد إليهم من أهل البيت ، فإن الولاة الجدد لم يذهبوا عمالاً معهم جند وحرس بل نزلوا فى القبائل وصاهروها واعتزوا بأهلها واعتز بهم أهلها ، وبدأت عملية اختلاط أو ميتامورفوزيس علوية بربرية فريدة فى بابها ، ونحن نستبين هذه النتيجة من وجود الأسر الكثيرة التى تنتمى

---

(١) ابن خلدون تاريخ ٤/ ١٤ .

إلى بيت بنى إدريس فى كل نواحى المغرب ، ونحن لا نسمع بأن أى قبيلة من القبائل رفضت العلوى الإدريسى الذاهب إليها ، بل قبلهم الناس طواعية ، ولم يكن الكثير من هذه النواحى داخلاً فى نطاق الدولة الإدريسية إلا بالاسم والطاعة المعلنة تبركاً بآل البيت ، فزادت هذه الطاعة ظهوراً وعمقاً ، فكل ناحية اعتبرت واليها أميرها وأخلصت له إلى درجة أن بعض الإخوة أحب أن ينفصل عن أخيه ويستقل نهائياً ، وأيَّدته قبائل الناحية فى ذلك .

ولكن كل هذه المحاولات فشلت وبقيت هذه الدولة العلوية وكأنها اتحاد إمارات علوية ، أو كأنها دولة إقطاعية واسعة إمامها علوى وأمراء الإقطاع فى النواحى علويون . ونظراً لكثرة محاولات الإخوة الانفصال عن فاس وامتناعهم عن إرسال جانب من جباياتهم إلى الحكومة المركزية ، فقد ظلت الدولة الإدريسية ضعيفة عسكرياً ومالياً فى عاصمتها ونواحيها ، ولكنها قوية من حيث التحام الحاكم بالمحكوم فى بلادها ، وتفرُّق السلطة بين الوالى أو الإمام العلوى ورؤساء القبائل فى كل ناحية .

وبين أيدينا الآن كتب كثيرة عن فروع البيت الإدريسى فى المغرب الأقصى وغربى المغرب الأوسط ، وهى لا تُحصى كثرة ولا بيت منها كان خميرة تعريب وإسلام سنى صحيح وتمسُّك بالعروبة واعتزاز بها ، وهذا توفيق من الله فى أداء الرسالة الإسلامية والعربية عظيم لم يوفق إليه بيت حاكم إسلامى ، وأذكر هنا كيف كان خلفاء العباسيين يستهلكون أنفسهم فى حرب إخوتهم وأعمامهم الخارجين عليهم ، الساعين فى القضاء عليهم وكل منهم يعتز على أخيه أو ابن عمه ويجند مرتزق ، ويكفينا أن نذكر هنا حالة الأمين والمأمون العباسيَّيْنِ التى أحدثت صدعاً لم يُرأب قط ، وانتهت آخر الأمر بأن جعلت السلطان فى دولة بنى العباس كلها للجند التركى المتغلب ، ومما يحزن النفس أن هذا تم على يد خليفة عربى عباسى هو المعتصم .

وفى دولة الأدارسة لا تسمع بمثل هذا التصدع وحروب الإخوة والأعمام إلا فيما ندر ، لأن هذا البيت الهاشمى العلوى عندما اعتز بمن نزل فيهم من قبائل البربر ،

وجد عندهم من المحبة والتأييد ما أغنى رجاله عن التناحر فيما بينهم على السلطان المركزى ، ولم يصابوا بآفة استخدام الجند المرتزقة فما كان لهم سبيل إليه بحكم اعتزازهم بالبربر وهم مسلمون أحرار لا يقاتلون مرتزقين ، قد يقاتلون عن عصبية ولكنهم لم يقاتلوا في العصور الإسلامية عن ارتزاق ، وكان اعتزاز البربر بهم مغنياً لهم عن طلب الترف المسرف الذى يؤدى إلى فساد النفوس .

وظل الأدارسة رغم علو المكانة يعيشون عيش من معهم وحولهم من البربر ، وكانت جماعية الحكم فى دولة الأدارسة وما تفرع منها حاميةً البيتَ من الفساد ، فما من رجل منهم مال إلى متاع الدنيا فى إسراف إلا عزلوه ، وأكبر مثال لذلك ما كان من أمر يحيى بن يحيى بن محمد بن محمد بن إدريس الذى تولى الإمامة حوالى سنة ٢٤٤هـ « فأساء السيرة وكثر عيبه فى الحرم وثارت به العامة لمركب شنيع أتاه . وتولى كِبْر الثورة عبد الرحمن بن أبى سهل الخزاعى وأخرجوه من عدوة القرويين إلى عدوة الأندلسيين ، فتوارى ليلتين ومات أسفاً لليلته ، وانقطع الملك من عقب محمد بن إدريس ، وبلغ الخبر فى شأن يحيى إلى ابن عمه على بن عمر صاحب الريف ، واستدعاه أهل الدولة من العرب والبربر والموالى فجاء إلى فاس ودخلها وبايعوه ، واستولى على المغرب » [ابن خلدون ، العبر ٤/ ١٥] .

ويلاحظ القارىء هنا كيف أن أهل البلد ثاروا على المفسد المنحرف وطردوه ، ثم إن أهل الدولة من العرب والبربر والموالى « هم الذين استدعوا ابن عمه على بن عمر ابن إدريس الثانى وولوه مكانه ، مما يدل على جماعية الحكم ، وقد انتقلت الإمامة الإدريسية بهذا من فرع إلى فرع دون طول لجاجة أو حرب أهلية» ، ونتابع روايتنا لعبارة ابن خلدون ، ففيها لمحات وإشارات تعيننا على مزيد من الفهم لطبيعة هذه الدولة الإدريسية ، قال بعد ذكر تولية على بن عمر « إلى أن ثار عليه عبد الرازق الخارجى . خرج بجبال مديونه ، وكان على رأى الصفرية فزحف إلى فاس وغلب عليها ففرَّ إلى أوْربة ، وملك عبد الرازق عدوة الأندلس ، وامتنعت منه عدوة القرويين وولوا على أنفسهم يحيى بن القاسم بن إدريس ، وكان يُعرف بالعدَّام» وهنا أيضاً نلاحظ أن الناس أنفسهم هم الذين استدعوا يحيى بن القاسم بن إدريس (وكان

يلى طنجة وسبتة وقلعة حجر النسر وتطوان من أيام أقطع جده محمد بن إدريس هذه الولاية لأخيه القاسم) .

« فجاءهم فى جموعه وكان بينه وبين الخارجى حروب ، ويقال إنه أخرجه من عدوة الأندلس واستعمل عليها ثعلبة بن محارب بن عبد الله / الأزدى / وكان من أهل الربض بقرطبة ، من ولد المهلب بن أبى صفرة ثم استعمل ابنه المعروف بعبود من بعده ، ثم ابنه محارب بن عبود ، بن ثعلبة ، إلى أن اغتاله الربيع بن سليمان سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وقام بالأمر مكانه يحيى بن إدريس بن عمر صاحب الريف . (وهكذا انتقلت الإمامة من بيت القاسم بن محمد بن إدريس واستقرت فى بيت عمر ابن إدريس دون حروب) ، وهو ابن أخى على بن عمر . فملك جميع أعمال الأدارسة وخُطِب له على سائر أعمال المغرب وكان أوسع بنى إدريس مُلكْاً وأعظمهم سلطاناً وكان فقيهاً عارفاً بالحديث ولم يبلغ أحدٌ من الأدارسة مبلغه فى السلطان والدولة»[1].

وهكذا ورغم تنقل الملك من فرع من فروع البيت الإدريسى إلى فرع ، نجد أن هذا البيت يزداد قوة وثباتاً ، لأنه فى الحقيقة يعتمد على الأمة المغربية ، فهى التى ترعى هذا الملك الإدريسى وتحافظ عليه لأن البيت الإدريسى احتفظ بعروبته ولكنه اختلط بالناس وصاهرهم واعتمد عليهم واعتز برأيهم ، فأصبح بيتاً محلياً قومياً ، وإلى هذا يرجع طول عمره وبُعْد تأثيره ، فما من بيت حاكم إسلامى حكم فى مصر من الأمصار وكان له الأثر البعيد فى التعريب ونشر الإسلام السنى ما كان لبيت الأدارسة هذا .

وفى أواخر القرن الهجرى الثالث «سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م » قامت الدولة الفاطمية فى إفريقية (وهى ما يُعرف اليوم بتونس وإقليم طرابلس من أقاليم ليبيا وإقليم الزاب وهو شرقى الجمهورية الجزائرية إلى نهر شلف مجتمعة فى وحدة سياسية واحدة تُعرف بإفريقية) ، والدولة الفاطمية دولة هاشمية قرشية أخرى ، ولكنها كانت تختلف عن الدولة الإدريسية اختلافاً تاماً كما سنرى ، وكان فى خلفائها طموح إلى ملك المغرب كله ، فاستعانوا بقبائل من صنهاجة المغرب الأوسط ، لكى يمدوا سلطانهم حتى بلغوا المغرب الأقصى ، وهنا بدأ الصراع بينهم وبين الأدارسة .

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، جـ ٤ ص ١٥ ، ١٦ .

وكانت بداية الصراع أن زحف رجل من صنائع الفاطميين يسمى مصالة بن حبوس كبير قبيلة مكناسة وصاحب تاهرت على المغرب الأقصى واقتحمه على يحى ابن إدريس بن عمر بن محمد اقتحاماً قبلياً عنيفاً سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٧م وهزم يحيى بن إدريس وانتهى الأمر بيحيى هذا إلى قبول الدخول فى طاعة عبيد الله المهدى ، وانتهى الأمر به بعد مكابدة أهوال إلى خروجه وبقية آل بيته إلى قلعة حجر النسر جنوبى بصرة المغرب فى جبال الريف سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م . وهنا ينتهى الدور الأول من تاريخ الأدارسة ، وهو دور طويل بدأ سنة ١٧٣هـ أى أنه استمر ١٤٤ سنة هجرية هى أطول من عمر الدولة الأموية المشرقية بكثير ، فإن هذه لم تَـدُمْ أكثر من ٩٢ عاماً هجرياً ، وهذه الفترة أيضاً أطول من عصر القوة فى عمر دولة بنى العباس ، وهو لا يزيد على مائة سنة .

الدّور الثّانى مِن تاريخ الأدارسَة :

ولكن الدولة الإدريسية عادت مرة أخرى إلى الظهور ، فإن مَنْ تجمعوا من الأدارسة فى قلعة حجر النسر بزعامة بيت مشهور منهم يُعرف ببيت بنى محمد تمكنوا من العودة إلى السلطان فى شمال المغرب الأقصى ، ودخلوا فى صراع طويل مع الفاطميين مرة ومع الأمويين الأندلسيين مرة أخرى ، حتى انتهى عمر دولتهم السياسية نهائياً على يد المنصور محمد بن أبى عامر المستبد بأمر الخليفة الأموى القرطبى فى نهاية القرن الرابع الهجرى ، وبذلك تكون الدولة الإدريسية قد عمرت فى المغرب حوالى ٢٢٠ سنة ، ولم تصل دولة مغربية إلى هذا العمر قبل العصر الحديث .

وإذا نحن ذكرنا أن دولة بنى أمية الأندلسيين كانت تحكم الأندلس ، فى حين أن دولة الشرفاء الأدارسة حكمت المغرب الأقصى ، وأنهما تعاصرتا ردحاً من الزمن طويلاً ، تبينا أن هاتين الدولتين القرشيتين : واحدة أموية عبشمية ، والثانية هاشمية علوية قد قدّمتا للإسلام والعروبة أجلّ الخدمات ، وقد تعاصرت الدولتان خلال النصف الثانى من القرن الهجرى الثانى ، ثم خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين فكان ذلك خيراً للإسلام وبركة ، لأن الدولتين جهدتا فى الدفاع عن الإسلام : واحدة منهما وقفت كالطود الشامخ أمام ضغط المسيحية ، والثانية أمام مذاهب الزندقة

والانحراف عن الإسلام فى المغرب ، وعند التأمل العميق يتبين لنا أن الأندلس الأموى القرشى أنفق حياته فى الذياد عن نفسه ، ولكنه فى نفس الوقت كان يذود عن الإسلام فى الأندلس ، ويحول بين طوفان النصرانية الغربية والتدفق على الأندلس .

أما دولة الأدارسة فقد استهلكت نفسها فى نشر الإسلام فى المغربين الأقصى والأوسط ، ووُفِّقت فى المحافظة على سنية الإسلام المغربى ، فلولا دولة الأدراسة لما كان هناك سنة وجماعة فى المغرب الأقصى بل فى المغرب كله ، لأن الإسلام السنى فى إفريقية تمكَّن من طرد المذهب الشيعى ودولته من بلاد إفريقية وإعادتها إلى السنة المالكية بعد أن انتقل الفاطميون إلى مصر ، وقد كانت عودة السنة والجماعة إلى إفريقية والمغرب الأوسط على يد بنى زيرى الصنهاجيين خلفاء الفاطميين فى المغرب أولاً ، ثم أعداؤهم فيه بعد ذلك عملاً فاصلاً فى تاريخ المغرب كله ؛ لأن ذراع السنة امتد من إفريقية حتى التقى بذراع السنة فى المغرب الأقصى ، والاثنان معاً أكملا عودة المغرب الأوسط إلى مذهب السنة .

وبذلك عادت وحدة الإسلام المغربى من بلاد ليبيا إلى ساحل المحيط ونازلاً فى الصحراء إلى بلاد إفريقية المدارية والاستوائية ، وهذه حقيقة من أعظم حقائق التاريخ الإسلامى ، لأن المغرب بهذا أصبح جناحاً قوياً للسنة والجماعة فى الغرب وخاصة بعد أن انتهى أمر الدولة الفاطمية فى مصر وعادت مصر إلى السنة ، فاستقام أمر السنة ووحدة الإسلام من حدود العراق إلى المحيط الأطلسى ، ومثل هذه النتيجة الباهرة لم يوفق إليها أهل الإسلام فى المشرق ، فظلت كتلة الشيعة الصماء فى إيران تقسم وحدة المشرق الإسلامى وتهدده بأشد المخاطر .

والإسلام المغربى بحربه مع الزندقة والانحراف ثم نشره الإسلام فى نواحى المغرب وخاصة فى قلب بلاد المصامدة فى جبال درن وبلاد السوس ، صان وحدة الإسلام كله ، والفضل فى ذلك لعمل هاتين الدولتين معاً « الأندلسية والإدريسية » وثبتت أقدام الإسلام فى الطرف المغربى القصى لدولة الإسلام ، وإذا كان الأندلس قد سقط فى المعركة فلأن أهله ألغوا الخلافة القرطبية بقرار أحمق اتخذه أهل قرطبة

برياسة شيخهم أبى الحزم ثم ابنه أبى الوليد بن جهور سنة ٤٢٣هـ / ١٠٣١م بإلغاء الخلافة وإخراج بقية الأمويين من بلادهم ، بدلاً من اختيار أموى صالح للرياسة وتأييده والوقوف معه لتنهض الدولة الأموية ، وهى رمز الوحدة والقوة من جديد ، ولكن هكذا كان ولا سبيل إلى ردِّ ما فات .

ومن يوم زوال الخلافة القرطبية القرشية لم تقم للأندلس قائمة ، كأنما انقصم ظهره ، وبالفعل كان الأمويون ظهر الأندلس الإسلامى وعموده الفقرى ، فلما انكسر لم يعد فى العودة إلى سابق القوة - بل البقاء - أمل ولكن الأندلس الإسلامى عندما زال واندثر كان قد قام بوظيفة كبرى للإسلام كله ، لقد حمى الإسلام المغربى حتى ثبت واستقر ولم يعد إلى زواله من سبيل ، وبعد سقوط الأندلس بدأت فعلاً معركة المغرب مع النصرانية ، ولكن إسلام المغرب كان قد استقر وقَوِى عوده فاستطاع أن يتحمل الصدمات النصرانية الغربية وحده ، وهكذا بتدبير خفى لطيف من الله سبحانه تعاون بنو أمية وبنو هاشم على صيانة الجناح الغربى لدولة الإسلام وحمايته من العدوان الغربى المسيحى ، وبالفعل لم تكد معركة الأندلس تقارب نهايتها بعد محاولات بنى مرين لإنقاذ غرناطة حتى بدأ الهجوم على المغرب ، وقد قادت ذلك الهجوم إسبانيا والبرتغال .

ونكتفى بهذا القدر عن دولة الأدارسة فليس هذا تاريخاً لها ، وقد رويته كاملاً فى إيجاز فى التاريخ العام للمغرب الإسلامى الذى أعان الله على الفراغ منه ، وأظن أننى بيَّنت - بما يتفق وحجم هذا الكتاب وغايته - الدور العظيم الذى كان لهذا البيت القرشى الإدريسى الهاشمى فى بناء الجناح الغربى لدولة الإسلام . وهو كما رأينا دور جليل يُعيننا على ما نحن بصدده من تقدير دور قريش فى التاريخ الإسلامى والتاريخ العالمى جميعاً ، وننتقل الآن إلى دور آخر لقريش .

الدّول العَلوية من بَنى سُليمان بن عَبد الله المحض فى المغْرب الأوسَط :

كان المظنون إلى حين قريب أن هجرة إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن

على بن أبى طالب إلى المغرب الأقصى كانت حدثاً فريداً منقطعاً بذاته وإن قيام الدولة الإدريسية فى المغرب الأقصى كان نتيجة لانتساب راشد مولاه إلى البربر فيقال : إنه هرب بإدريس إلى بلاد قومه ، ولكن قراءة ثانية لما بين أيدينا من النصوص تدل على أن المغربين الأوسط والأقصى كانا متّجه أبصار العلويين بعد معركة وادى فخ سنة ١٦٩هـ ، فهذان المغربان كانا خارجين عن دولة العباسيين التى وقفت عند حدود ولاية أفريقية كما ذكرنا ، فلا حرج على أىِّ طالب للسطان أن يجرب حظه فى أى موضع شاء وراء ذلك غرباً ، فهو لا يكون بهذا بمنزلة الخارج على سلطان الدولة العباسية أو مقتطعَ شيئاً من أرضها .

ففى نفس الوقت الذى لجأ فيه إدريس بن عبد الله المحض إلى المغرب الأقصى ظهر فى غربى المغرب الأوسط (وهران وما يليها غرباً) أخوه سليمان ، وربما كان اللاجئون إلى المغرب أولاد سليمان هذا ، لأن سليمان هلك فى معركة فخ مع من هلك من كبار العلوية فى الغالب ، وابن خلدون يقول ناقلاً عن ابن حزم دون تحقيق ، إن سليمان فر إلى تاهرت بعد موت أخيه إدريس الأول فيما بين سنتى ١٧٧ و٢١٣هـ/ ٧٩٣ و ٨٢٨م « فاستنكره البربر وطلبه ولاة الأغالبة فكان فى طلبهم (إياه) تصحيح نسبه .ولحق بتلمسان وملكها »[1] . وليس لدينا ما يُضعِّف هذا الخبر إلا قوله أن ولاة الأغالبة طلبوه ، فإن دولة الأغالبة قامت سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م فى القيروان على يد إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التميمى فى الفترة التى يقول ابن خلدون إن عمال الأغالبة طاردوا سليمان فى تاهرت ، وكانت دولة الأغالبة إذ ذاك فى دور التأسيس ، وكان إبراهيم بن الأغلب مشغولاً بأمر خصومه ومنافسيه فى إفريقية ، ثم إن منطقة تاهرت كانت أبعد ما تكون عن بلد الأغالبة ، فكيف يطلبونه أو يطلبه عمالهم؟

ولكن الذى يمكن قوله هو أن سليمان أو أبناءه لحقوا بتاهرت فلم يُكتب لهم فيها توفيق ، فانتقلوا إلى تلمسان ، وتلمسان كانت دار إسلام من زمن بعيد . وهى مدينة قديمة اسمها عند الرومان بوماريا Pomaria وكانت فى منطقة تسيطر عليها قبائل

(١) ابن خلدون ، التاريخ ٤/ ١٧.

زناتية مثل جراوة ونفوسة ، فلقيت دعوة سليمان أو بنيه بها قبولاً من بربر تلمسان وقد حفزهم النسب العلوى الهاشمى إلى التماس البركة فيه ، ويمكن القول أن صاحب الأمر منهم كان محمد بن سليمان بن عبد الله ، فتمهد له الأمر هناك ولم يتيسر له إنشاء دولة ، وإنما هو أقام فيها شيئاً يشبه الإمارة الصغيرة أو المشيخة ، فَسَادَ أهلها وتيمنوا به وصاهروه واستقرت قدمه وضربت جذوره ، وخلفه على تلمسان ابنه محمد بن محمد بن سليمان بن عبد الله المحض .

وغريب من ابن خلدون فى هذه المناسبة أنه يذكر أن سليمان عندما مات خلفه ابنه محمد على تلمسان على سنته ثم افترق بنوه على ثغور المغرب (الأوسط) فاقتسموا ممالكه ونواحيه ، فكانت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد بن القاسم بن أحمد بن محمد [1] فكيف يكون محمد بن محمد بن سليمان هو محمد بن أحمد بن القاسم بن أحمد ابن محمد ؟ وما هى هذه الأسماء كلها التى ترد فى النسب ؟ فهل المراد هنا محمد آخر من أحفاد سليمان بن محمد بن أحمد بن القاسم بن أحمد بن محمد ؟ وهذا على أى حال مستبعد لتعدد الأسماء فى هذا النسب مما يعنى تأخُّر المدة .

على أى الأحوال ، نستطيع القول إن أبناء سليمان أو ابنه محمد انتشروا فى المغرب الأوسط ، وكانت لهم فيه إمارات أو دويلات صغيرة كثيرة . يقول ابن خلدون « ثم افترق بنوه - بنو محمد - على ثغور المغرب الأوسط واقتسموا ممالكه ونواحيه ، فكانت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد بن القاسم بن محمد بن أحمد (وقد ناقشنا اسمه وشككنا فيه ، وأظن أن الذى يتكلم عنه ابن خلدون هنا - أقصد القاسم - هو الذى يدعى بنو الواد نسبه ، فإن هذا أشبه من القول بأن القاسم بن إدريس هو الذى قام بهذه الدعوى [2] وكانت أرْشكول [3] لعيسى بن محمد بن سليمان وكان منقطعاً إلى الشيعة (أى : إلى العبيديين الفاطميين فى إفريقية ثم فى مصر) وكانت جراوة لإدريس بن محمد بن سليمان ثم لابنه عيسى ، وكنيته أبو العيش ، ولم تزل إمارتها فى

---

(١) ابن خلدون ، تاريخ ٤/ ١٧.

(٢) أتيت بهذه العبارة لأستلفت النظر إلى أن بنى عبد الواد أو بنى يغمراس بن زيان الذين حكموا المغرب الأوسط فيما بعد يدعون لأنفسهم نسباً علوياً هاشمياً وهم فى الحقيقة من صميم البربر .

(٣) تكتب أيضاً أرشقول وهى إلى غرب وهران من موانىء المغرب الأوسط .

ولده ، ووليها بعده ابنه إبراهيم بن عيسى ثم ابنه يحيى بن إبراهيم ، ثم أخوه إدريس ابن إبراهيم ، وكان إدريس بن إبراهيم صاحب أرشقول منقطعاً إلى عبد الرحمن الناصر... وكانت تِنِس لإبراهيم بن محمد بن سليمان ثم لابنه محمد من بعده ... وكان من ولد إبراهيم هذا أحمد بن عيسى بن إبراهيم صاحب سوق إبراهيم ... قال ابن حزم : وهم فى المغرب كثير جداً ، وكان لهم منها ممالك وقد بطل جميعها ، ولم يبق منهم بها إلا رئيس بنواحى بجاية ... الخ »[1] .

فهذه الجماعة الإدريسية الحسنية انتشرت فى نواحى المغرب الأوسط الغربى وكان معظم سكانه زناتية ، فعرَّبتهم وصححت إسلامهم على طريق أهل السنة ، وكان للحسنيين هؤلاء أثر بعيد جداً فى تعريب هذه النواحى حتى تندوف فى داخل الصحراء الكبرى . وينبغى أن نحسب هنا حساب أبنائهم وأحفادهم وأصهارهم من البربر الذين استعربوا ، فكان هذا الفريق من قريش صاحب اليد الطولى فى تعريب هذا الجانب الكبير من العالم الإسلامى وهم فى مجموعهم نماذج للدويلات القرشية الصغيرة التى حفل بها العالم الإسلامى فى كل ناحية من نواحيه .

العَلَويّون الحسنيّون وإسلام بلاد الدّيلم وَدهستان وَجرجان :

وكما كانت فروع العلويين الحسنيين هم الذين وسَّعوا نطاق الإسلام وثبَّتوا دعائمه فى المغرب الأقصى وغرب المغرب الأوسط ، فقد قام حسنيون آخرون بدور يماثل هذا فى طبرستان جنوبى بحر الخزر وهو قزوين ، وما يلى بحر الخزر شرقاً وغرباً من بلاد جرجان ودهستان والدامغان وجيلان ، وقد كانت هذه البلاد الجبلية الوعرة قد تخلفت دون إسلام أثناء أعمال الفتوح الكبرى ، فإن طبرستان جنوبى بحر الخزر - وهى منطقة الرى التى تقوم فيها طهران حالياً - تضم بلاداً واسعة انصرف المسلمون عنها بخراسان وسجستان وما يليهما شرقاً ، لأنها كانت عند القسمة بين ولايتى البصرة والكوفة قد وقعت من نصيب الكوفة ، والكوفة كانت ولاية ضعيفة نسبياً إذا قورنت بولاية البصرة التى كانت تشمل معظم العراق وما يليه شرقاً بما فى ذلك بلاد

---

(١) ابن خلدون : ١٧/٤ .

ما وراء النهر ، فلم تستطع ولاية الكوفة أن تواصل أعمال الفتوح بنفس القوة التى سارت بها ولاية البصرة ، ثم إن الولايتين كان يحكمها رجل واحد فى معظم العصر الأموى وكانت أحداث خراسان الخطيرة قد استنفدت جهود الفاتحين والولاة ، وكذلك انصرفت الجهود إلى الفتوح فى بلاد التركستان وهى ما وراء النهر .

فلما قامت الدولة الطاهرية فى خراسان سنة ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م أيام المأمون هدأت أحوال المشرق ، واستطاع أبو الطيب طاهر بن الحسين أول الطاهريين أن يلتفت إلى بلاد طبرستان وشرقى بحر الخزر . وفى أيام محمد بن طاهر بن أبى العباس عبد الله بن طاهر ، وهو خامس الأمراء الطاهريين «٢٤٨ - ٢٥٩هـ/ ٨٦٢ - ٨٧٣م» صاحب خراسان كان يتولى أمور طبرستان ابن عم له يسمى سليمان بن عبد الله بن طاهر نائباً عنه ، ووقعت بينه وبين بيت من بيوت الطبريين يسمى بيت بنى رستم خصومة ، فبحث محمد وإبراهيم ابنا رستم عن شخصية عربية تقودهم فى صراعهم ضد ولاة الطاهريين العباسيين أصحاب خراسان ، واستقر رأيهم على الحسن بن زيد بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب ، وكان من بين العلويين الذين سالموا العباسيين ودخلوا فى خدمتهم فولوه المدينة ، وكان له فيها أثر غير محمود ، فقد أعان أبا جعفر المنصور على ابن عمه عبد الله المحض وبنيه وآله الذين ذكرنا بعض أخبارهم ، ثم انتقل الحسن بن زيد هذا إلى الرى وهناك استنجد به محمد وجعفر ابنا رستم على محمد ابن طاهر ، فأتاهم ورأسهم وتمكّن من الانتصار على نواب الطاهريين والاستقلال بطبرستان وجرجان .

وقد طالت الحرب بين أولئك الزيديين والطاهريين حتى نهاية الدولة الطاهرية فى حدود سنة ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م .

وكان الديلم وهم أهل طبرستان لا يزال معظمهم على الكفر فاستطاع أولئك الزيديون إدخالهم فى الإسلام وأكملوا إسلام جرجان ودهستان وما بين نهر سيحون وبحر قزوين من البلاد جنوبى خوارزم وتلك بلاد واسعة كانت غفلاً من الإسلام ، فدخلت فيه على أيدى أولئك العلويين الزيديين المجاهدين برئاسة شيخهم الحسن بن زيد الذى ظل أميراً على طبرستان حتى رجب سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م .

وقد لُقِّب بداعى طبرستان لاجتهاده فى نشر الإسلام وبَثِّ الدعوة الزيدية فى تلك البلاد .

وعندما اشتد ساعد يعقوب بن الليث الصفار فى سجستان تطلع إلى تلك البلاد ، بلاد طبرستان وكبار قواعدها من مثل الرى وآمد وقزوين ، فثبت له الحسن بن زيد هذا ثم ابنه ، واستمرت الحروب طويلاً بين الجانبين . وخلف الحسن بن زيد فى القيادة والإمامة أخوه محمد بن زيد بن الحسن بن الحسن الأطروش .

وعندما قُتِل محمد بن زيد دخل بلاد الديلم زعيم علوى آخر هو الحسن بن على ابن الحسين بن عمر بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، فكأن الزعامة هناك انتقلت من الحسنية إلى الحسينية ، والحسن هذا يلقب بالأطروش أو بداعى الطالقان وكان مذهب الشيعة الزيدية قد انتشر فى طبرستان وجرجان فدخل فى المذهب الحسن الأطروش رغم حسينيته . وقد طال أمر الزيديين فى طبرستان ومرت بهم صروف طويلة حتى انتهى أمرهم سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م ، ومما يستلفت النظر أن أحداً لم يكتب لنا تاريخ أولئك العلويين على نحو يستوفى أعمالهم ويُظهر عظيم غَنائهم فى نشر الإسلام وكان لهم أثر بعيد فى إكمال إسلام الناس من ناحية وتثبيت دعائم المذهب الزيدى من ناحية أخرى [١] .

وإنما وقفنا بهم هذه الوقفة القصيرة لأنهم بيت هاشمى قرشى كان له دور عظيم فى نشر الإسلام ، وتاريخهم يدل كذلك على حيوية البيت العلوى ما بين حسنية وحسينية ، وكأنما كان اجتهاد بنى أمية وبنى العباس فى استئصال آل البيت دافعاً إياهم إلى الاستمساك بالبقاء والاجتهاد فى إثبات حقهم فى الرياسة ، والحق أن الإنسان ليتعجب من حيوية الحسنيين خاصة الذين ظهروا فى كل مكان ، كأنهم موج متدفق لأول ما بدت دلائل الضعف على بنى العباس . وفى أيام المأمون كانت موجات العلويين فى كل نواحى الدولة الإسلامية أشبه بالطوفان ، وقد ذكرنا ذلك فيما سبق .

---

(١) انظر موجزاً لتاريخهم الحافل فى طبرستان وبلاد الديلم عن ابن خلدون ، تاريخ ٤/ ٢٢ - ٢٨ .

وقد أورد ابن خلدون فى تاريخه موجزاً بدول العلويين فى فصل جامع عنوانه : الخبر عن نسب الطالبيين وذكر المشاهير من أعقابهم [1] ، وهو فصل جامع أقامه ابن خلدون على أساس شجرة نسب على بن أبى طالب التى أوردها ابن حزم فى الجمهرة ، وأنت ترى فى هذا الفصل الذى اقتصر فيه ابن خلدون على دول المشاهير منهم ، أن هذه الدول تكاد تُعْجِز الباحث عن تتبع تواريخها ، فهى عشرات الدول فى كل بلاد مملكة الإسلام بما فى ذلك بلاد غانة أى إفريقية المدارية والاستوائية ، ولم يورد ابن خلدون - طبعاً - ما ظهر من دول العلوية بعد حتى أيامه فى بلاد السودان وآسيا وخاصة جنوبها وجنوبها الشرقى .

ويبدو أن الأمر لم يقتصر على تصدى العلويين للإمامة حيث وجدوا فرصة لذلك ، بل إن الناس أنفسهم كانوا إذا وجدوا بينهم علوياً يتوسمون فيه الخير يقدمونه ، وذلك لا يمنع من أن يقوموا عليه بعد ذلك، ولكن العلويين كانوا مُقدَّمين على غيرهم إذا كان الأمر أمر إمامة ، ولهذا تعددت دولهم وشملت العالم الإسلامى كله وعصوره كلها إلى يومنا هذا ، وإنه لعجيب أن ينجب على بن أبى طالب أولاداً كثيرين من نساء شتى ، فلا تكون الذرية الضخمة والإمامة بشتى صورها إلا فى أبناء ثلاثة منهم : اثنان من أولاد فاطمة هما الحسن والحسين ، وواحد من غيرها وهو محمد ابن الحنفية ، ومن أولئك الثلاثة جاء فيض يشبه السيل ، فهم - حرفياً - ألوف ، وذلك رغم من قُتِل منهم وهم كثيرون جداً . ولقد انقطع أو خفى نسل القرشيين جميعاً إلا من نسل رسول الله ﷺ من هؤلاء الثلاثة ، وقد جعل الله سبحانه من البركة فيهم ما لم يجعل فى أحد من بنى آدم ، وما بقى من قريش أحد يُعرف ويذكر على تحقيق إلا من عترة المصطفى صلوات الله عليه من بنت واحدة .

الزَيْديّون فى اليَمَن :

ومن هذه الدول القرشية لم نذكر إلى الآن إلا ثلاثة كباراً هم : بنو أمية فى الأندلس، وبنو إدريس فى المغرب الأقصى - ومعهم بنو أخيه سليمان فى المغرب الأوسط - ثم العلويون الحسنيون فى بلاد الديلم وطبرستان وجرجان ، والدولة

---

(١) ابن خلدون ، تاريخ ٤/ ١١٣ .

الأولى أموية ، وهى دولة جهاد وسياسة وعروبة ، قامت فى التاريخ العالمى بدور كبير ، لأنها قامت على أرض أوروبية . والثانية - الإدريسية - دولة علوية سنية ذات فضل عظيم فى تثبيت دعائم الإسلام على مذهب السنة والجماعة فى المغرب ، مع جهد عظيم فى التعريب ، والثالثة دولة الحسينيين فى بلاد الديلم وهى دولة نشر للإسلام فى نواح من مملكة الإسلام لم يكن قد انتشر الدين فيها فعرف أولئك الحسينيون كيف يُدخِلون أهلها جميعاً فى الدين .

والدولة الرابعة من دول قريش التى نذكرها هى دولة الزيدية فى اليمن وهى تتميز على غيرها من دول القرشيين بأنها قامت على العلم ، فإن الإمام الذى أقامها كان عالماً اشترط على نفسه عندما شرع فى إقامة إمامته أن يلتزم بعماد من الإسلام لم يلتفت إليه أحد من رجال دول الإسلام فى العصور الوسطى ، وهو احترام الأمة والتزام مبادىء الإسلام السمح فكراً وعملاً ، وذلك فى البداية على الأقل ، فإن المؤسس الحقيقى لتلك الدولة الزيدية كان إماماً عالماً مجاهداً نجداً ، هو الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين القاسم الرسى الذى بدأ إمامته فى اليمن سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م .

وقد قامت الدولة الزيدية فى اليمن على مذهب وضعه الإمام زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وكان عالماً مفكراً مجتهداً انصرف أول أمره إلى طلب العلم ، شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من أئمة العلويين من أبناء الحسين ابن على رضى الله عنه ، وقد اتفق زيد بن على زين العابدين مع غيره من العلوية فى أن أَوْلَى الناس بإمامة الأمة بعد رسول الله ﷺ هو الإمام على ، ولكنه لم ينكر إمامة الشيخين ولا هو رضى بالقدح فيهما ، ثم قال : إن الإمامة فى بيت على ولكنها ليست ميراثاً من أب لابن وليست سراً ينتقل فى الأصلاب بإرادة إلهية كما يقول الإمامية الإسماعيلية ، ولكن يتولاها أفضل الموجودين من بيت على رضى الله عنه علماً وفضلاً وإيماناً ، فجمع الرجل بذلك بين شىء ترضى عنه الشيعة وشىء ترضى عنه السنة .

لهذا ، فقد لقى المذهب الزيدى قبولاً حسناً عند عامة المسلمين ، ثم إن زيد بن على ابن الحسين وضع أسس مذهب فقهى ووضع كتباً قام عليها المذهب الزيدى ، وأكمل

عمله غيره ممن تولوا الإمامة أو الفقه على مذهب الزيدية ، ويستوقف النظر أن زيداً وهو من أبناء الحسين بن على وضع أساس المذهب الزيدى ، أما الذى أكثر التأليف فى المذهب وأقام إمامته ، فكان رجلاً حسنياً هو الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ابن القاسم الرسى ، فهو على هذا ، مذهب حسينى حسنى فى آن معاً .

والإمام زيد بن على زين العابدين مؤسس المذهب الزيدى وصاحب الفضل فى قيام دولة الزيدية فى اليمن كان من أبطال آل البيت فى صراعهم للوصول إلى السلطان ، وكان زيد مباعداً للسياسة منصرفاً إلى العلم شأنه فى ذلك شأن أخيه محمد الباقر بن على زين العابدين وبقية آل الحسين بن على حتى جعفر الصادق ، ولكن الخليفة هشام بن عبد الملك الأموى «١٠٥ - ١٢٥هـ/ ٧٢٣ - ٧٤٢م» آذاه وأحرجه ونال منه دون داع ، وكان هشام نفسه يحكم فى ظروف سيئة ، فإن الأرض كانت تميد تحت أقدام بنى أمية ، واتسع نطاق الثورات عليهم فى كل نواحى دولتهم ، وأدت الحروب والثورات - إلى جانب سوء تصرف الخلفاء السابقين عليه من بنى أمية - إلى هبوط خطر فى إيرادات الدولة ، وإصلاحات عمر بن عبد العزيز التى هزت المالية الأموية هزاً عنيفاً لم تجد الإدارى المالى الذى يعيد التوازن الاقتصادى للدولة ، ثم جاءت الفتن بين جند الدولة من قيسية ويمنية .

واضطرب الأمر فى يد هشام اضطراباً مخيفاً وانصب جانب كبير من غضب هذا الخليفة الأموى على زيد بن على زين العابدين هذا ، لأنه كان يتمتع بمكانة رفيعة ومهابة عظيمة فى قلوب الناس ، فتعمد هشام أن يهينه أمام الناس فلم يجد زيد بُدّاً من الرد على الخليفة المستهين بكرامات الناس ، فدعا للبيعة لنفسه ، وذهب إلى الكوفة حيث تجمع حوله ناس كثيرون وبايعوه ، وأغلب الظن أن زيداً كان يعلم أنه مقتول ، فقد كان أعلم الناس بقلة القيمة العملية للمبايعات التى كان يتلقاها بالألوف . وعندما سَيَّر والى العراق لهشام بن عبد الملك قواته للقاء قوات زيد انفضَّ الناس من حوله إلا ٢١٨ رجلاً فيما يقال ، وكان اللقاء قرب الكوفة ، وكان لقاء انتحار معروف النتيجة ، وكان استشهاد زيد بن على زين العابدين سنة ١٢٢هـ/ ٧٤٠[1] .

---

(١) انظر عن زيد بن على رسالة الأستاذ إبراهيم الوزير بيروت ١٩٧٠ ، واقرأ فى هذا الكتاب تأييد عدد عظيم من علماء المسلمين لدعوة زيد بن الحسين ، ومنهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت : ص١٢ - ١٣ .

وكان هذا الموت العنيف لزيد دافعاً للناس إلى مزيد من التعلق به وبآرائه ، وبالفعل كانت آراء زيد بن على زين العابدين السياسية أحسن ما وصل إليه الناس إلى أيامه من القول بحرية الناس فى اختيار الإمام من بيت على ، ولم يكن حصر الإمامة فى بيت على بقيد يُذكر على حرية الناس فى الاختيار ، فإن العلويين كانوا كثيرين جداً ولا يعدم الناس فيهم رجلاً صالحاً للإمامة ما دام الإمام زيد لا يشترط الوراثة ، وكان الإمام زيد يرى أن تكون المفاضلة بين المرشحين على أساس صالح الجماعة الإسلامية ، ونفى زيد القول بعصمة الأئمة وأباح للأمة الحق فى خلع الإمام إذا لم يحسن السياسة ، والمذهب الزيدى على هذا أقرب الآراء إلى مذهب أهل السنة الذين كانوا يرون أن الخلافة حق مطلق للأفضل بين المسلمين . ولا يؤمن الزيديون بالتقية أى بحق الإنسان فى إنكار مذهبه والظهور بغيره خوفاً على حياته ، ولا يرون ضرورة لاختفاء الأئمة ، وإنما الإمام عندهم يكون صريحاً معلناً فى مكان وظروف تضمن سلامته وسلامة جماعته ، وزيد بن على بن الحسين كما رأينا أعلن نفسه إماماً ودعا الناس إلى بيعته جهاراً دون أن يستتر أو يتوقى .

ولا غرابة إذن فى أن ينتشر المذهب الزيدى انتشاراً واسعاً ويُوجِد لنفسه أنصاراً فى كل بلاد المسلمين ، وقد لجأ الكثيرون من آل البيت إلى نواحٍ قصية من الدولة الإسلامية وأعلنوا عن أنفسهم فيها ، وبعضهم طلب الخلافة وبعضهم لم يطلبها . والأدارسة الذين مررنا بهم كانوا فى الحقيقة زيديين مذهبياً دون أن ينتبهوا لذلك ، لأن مذهب الزيدية استلزم وقتاً طويلاً لكى يعرفه الناس حق المعرفة وهو لم يظهر كمذهب قائم بذاته له فقهه ونظره إلى أمور المسلمين بما فيها التشريع إلا من أوائل القرن الهجرى الثالث .

وصاحب الفضل فى تثبيت قواعد هذا المذهب وإقامة إمامة على أساسه رجل من آل الحسن بن على بن أبى طالب هو يحيى بن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن القاسم الرَّسى (نسبة إلى الرس قرية صغيرة على الطريق بين مكة والكوفة إلى الشمال الغربى من مدينة الرياض الحالية) ، والقاسم الرَّسى هو ابن إبراهيم طباطبا الذى أشرنا إليه، وهو ابن إسماعيل بن على بن إبراهيم بن عبد الله المحض قتيل باخمرا قرب الكوفة سنة

١٤٥هـ/ ٧٦٢م ، وقد ذكرنا قيامه فى الكوفة بعد مقتل أخيه محمد النفس الزكية .

ويحيى بن الحسين هذا الذى نحن بصدده كان حنفياً ، ولكنه أخذ المذهب الزيدى عن أبيه الحسين وذهب إلى اليمن واستقر فى صعدة سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م . وتلقب بالإمام الهادى إلى الحق ، وفى خطاب إمامته الذى ألقاه فى ٦ صفر سنة ٢٨٤هـ أعلن أسس إمامته ، وهى إلى ذلك الحين أقرب أسس أعلنها إمام إلى روح الإسلام بعد الأسس التى قامت عليها خلافة الراشدين . وقد قال فيه : « أيها الناس ، إننى أشترط لكم أربعاً على نفسى : الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ . والأثرة لكم على نفسى فيما جعله بينى وبينكم ، وأوثركم فلا أُفَضَّلُ عليكم ، وأقدمكم عند العطاء قبلى ، وأتقدم عليكم عند لقاء عدوى وعدوكم . وأشترط لنفسى عليكم اثنتين : النصيحة لله سبحانه وتعالى فى السر والعلانية ، والطاعة لأمرى على كل حالاتكم ما أطعت الله . فإن خالفت فلا طاعة لى عليكم ، وإن مِلْتُ وحِدْتُ عن كتاب الله وسنة نبيه فلا حجة لى عليكم . فهذه هى سبيلى أدعو الله على بصيرة ، أنا ومن اتبعنى »[1] .

وهذا كلام رجل جاد يعنى ما يقول وهو لم يقل هذا الكلام سياسة منه أو استجلاباً لرضى الناس ، بل كان الرجل بالفعل إماماً فى العلم وله تآليف فقهية كثيرة وفتاوى مشهورة بين أهل اليمن إلى يومنا هذا ، وقد أحصى الأستاذ عبد الله محمد الحبشى من مؤلفاته سبعة وسبعين كتاباً ورسالة ، وترجم له وذكر مؤلفاته معاصره على بن محمد العباس من القرن الثالث الهجرى وقام بتحقيقه ونشره فى بيروت د. سهيل زكار سنة ١٩٧٢ ، ولم نسمع بمثل هذا البحر فى العلم والوفرة فى التأليف لرئيس آخر من رؤساء الإسلام .

ولم يذهب الإمام يحيى إلى اليمن طالباً للإمامة وإنما كان أهل صعدة فى اليمن ، هم الذين استدعوه ويقال إنه وصل صعدة سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م وكانت سنُّه إذ ذاك خمساً وثلاثين سنة ، إذ إنه وُلِد فى جبال الرس سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م ، وبدأ لأول وصوله فى تأسيس إمامته فى شمال اليمن ثم تمكن من دخول صنعاء ، ولكنه لم يلبث

(١) أورده الدكتور حسن سليمان محمود فى كتابه : تاريخ اليمن السياسى فى العصر الإسلامى ، بغداد سنة ١٩٦٩ ، ص٢٧٨ - ٢٧٩ .

أن ارتد عنها ، ولو أن هذا الإمام قام فى غير اليمن لكان له شأن أكبر مما كان له ، ولكن اليمن من أصعب بلاد الله على الحكم لأن أهلها من أشد الناس شكيمة واعتزازاً بأنفسهم حتى ليخيل لمن يقرأ تاريخ اليمن أن كل يمنى إمام فى نفسه ، ومن ثَمَّ فإن نفسه لا ترضى له البيعة لغيره ، وقد استطاع الإمام يحيى بن الحسين تثبيت مركزه فى شمال اليمن وقضى معظم أيامه فى حرب المنافسين له ، ومحاولة القضاء على دعوة القرامطة فى تلك البلاد ، واستمر عقبه يحكمون شمال اليمن ، واليمن كله فى فترات قصيرة إلى العصر الحديث . وقد تولى الأمر من أئمة هذا البيت فوق الخمسين إماماً ، ظلوا يحكمون فى صعدة ونجران خاصة حتى سنة ١٩٦٢ عندما قامت هناك الثورة العسكرية التى أنهت حكم الأئمة الزيديين بعدما حكمت فى اليمن ١٠٦٥ سنة ميلادية ، وهذا أطول عمر لدولة فى التاريخ ، بما فى ذلك دول الصين التى اشتهرت بطول العمر .

وابتداء من القرن العاشر الهجرى وفى حكم الإمام يحيى شرف الدين (٩١٢ - ٩٦٥هـ/ ١٥٢٥ - ١٥٧٨م) ، ونتيجة لغزو الأتراك العثمانيين لليمن اتسع سلطان الأئمة الزيود وامتد نفوذهم لأنهم هم الذين تولوا المقاومة للحكم العثمانى ، وبعد خروج الأتراك العثمانيين اتسع نفوذ الأئمة حتى شمل اليمن كلها ، وفى سنة ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م قامت عليهم ثورة إمامية أيضاً قادها الإمام المنصور محمد بن على الوزير ووقعت بلاد اليمن بعد ذلك فى فوضى شاملة استمرت مائة وعشر سنوات ميلادية .

وعندما انتهى الحكم العثمانى الثانى لليمن سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م ، تمكن الإمام المتوكل يحيى بن محمد حميد الدين (١٣٣٧ - ١٣٦٧هـ) من السيطرة على اليمن كلها شمالاً وجنوباً بمساعدة الإنجليز الذين احتلوا عدن سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م ، وهذا الاحتلال الإنجليزى لعدن هو بداية انقسام اليمن إلى شمالى وجنوبى ، والإمام المتوكل يحيى بن محمد حميد الدين من سلالة الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرَّسى ، وقد طال حكم هذا البيت وتقادم به العهد وجمد تماماً وربط نفسه ربطاً قوياً برؤساء القبائل ، فلم تفلح ثورة ١٩٤٨ التى قادها آل الوزير واستمرت

فترة قصيرة من الزمن ، عاد بعدها الإمام يحيى إلى السلطان فى البلاد حتى قضت عليها نهائياً ثورة عبد الله السلال بتأييد جمال عبد الناصر سنة ١٩٦٢م .

وهذه التجربة الهاشمية القرشية تستحق الدراسة ، وهى لم تدرس إلى الآن حق الدراسة نظراً لطول عمرها وتقلب الأحوال فيها خلال ذلك الحكم الطويل ، ولقد تعاقبت على وسط اليمن وجنوبه دول كثيرة مثل بنى زريع وهم بنو الكرم فى عدن ، ودولة بنى نجاح / وهم أحباش / والكُدَراء دولة بنى مهدى فى زيد . والصليحيين الشيعة فى صنعاء وهم حلفاء الفاطميين ، وبنى رسول فى زبيد وعدن وتعز وبقية بلاد الساحل ، وغيرهم كثيرون ، ويلاحظ بصورة عامة أن الأئمة الرسيين كانوا فى الغالب سادة صعدة وبلاد الداخل فى حين تعاقبت الدول على السهول الساحلية وعدن ، وحتى العثمانيون لم يمتد سلطانهم قط إلى الداخل ، وتاريخ اليمن على أى حال فى حاجة إلى من يكتبه ولو على وجه الاختصار ، لأنه بلد واحد فى نظر التقسيم العام لبلاد الإسلام ، ولكنه فى واقع التاريخ أَيَمَان كثيرة ، وقد أهمتنا الإشارة إلى دولة آل الرسى نظراً إلى أنها كانت إمامة قرشية قامت على أساس إسلامى سليم ، ولكن النُّظم تشيخ مع الزمن ويدخل عليها الفساد ولابد من تجديدها وإعادة النظر فيها بين الحين والحين .

الدّولة الفاطِميّة فى إفريقيّة وَمِصر وَالشّام :

كان ينبغى فى سياق هذه الدراسة أن نقف طويلاً عند الدولة الفاطمية ذات الصيت البعيد ، وهى دولة هاشمية قرشية ، إمامها عبيد الله المهدى الذى ينتسب إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق سادس الأئمة من ولد الحسين بن على بن أبى طالب ، وفى صحة انتسابه خلاف كثير ، ولكننا نبهنا فى هذه الدراسة على أننا لا نناقش الأنساب ، فما دام رجل يقول إنه هاشمى فلا مجال للمناقشة فى هذه الدعوى لأن صحة الأنساب لا يعلمها إلا الله سبحانه ، وقد يكون ادعاء الهاشمية والزعم بالانتساب إلى بنى هاشم وآل البيت أدل على صواب ما نقول به فى هذا البحث من جلال اسم بنى هاشم وقريش ، فإن دعوى هذا الانتساب ، هى التى هيأت للداعى سواء أكان صادقاً أم غير صادق التأييد الذى استند إليه فى إقامة دولته.

ويتضح لنا هذا بصورة خاصة فى قيام الدولة الفاطمية فى إفريقية سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م . فإن رجال قبيلة كتامة البرنسية من البربر الذين استمعوا إلى أبى عبد الله الداعى وصدقوه ، لم يناقشوا فى صحة نسب الإمام المستتر الذى دعاهم إلى الدخول فى طاعته عبد الله الداعى ، وحتى عندما نجح أبو عبد الله الداعى الشيعى فى القضاء على الدولة الأغلبية وأعلن الخلافة الفاطمية فى القيروان سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م. لم يكن الداعى يعرف الإمام عبيد الله المهدى شخصياً ولم يره عياناً ويتعرف عليه ، إلا عندما استنقذه من أسر بنى مدرار فى سجلماسة سنة ٢٩٧هـ/ ٩١٠م .

ولكننا لن نقف طويلاً عند الدولة الفاطمية فهى حقاً دولة طويلة التاريخ متسعة الرقعة ، ولكنها فى مجموعها لم تزد على أنها دولة سياسية هدفها الرئيسى هو تثبيت السلطان السياسى لأسرة علوية ومدّ رقعته دون أن يكون لها فى ذاتها محتوى حضارى أو رسالة تتصل بالعروبة والإسلام ، وقد رأينا أن دولة بنى أمية فى الأندلس كانت دولة جهاد ومثاغرة وعروبة وإسلام ، ودولة الأدارسة لها دور عظيم جداً فى تثبيت دولة السنة والجماعة فى المغرب ، ودولة العلويين فى طبرستان قامت بنشر الإسلام وتصحيح مذاهب الناس فى مساحة واسعة من بلاد الإسلام ، ودولة آل الرسى فى اليمن إمامة تميزت بسلامة الأسس التى قامت عليها وإن تفرقت بها السبل وصروف الأيام فيما بعد .

أما الدولة الفاطمية فلم يكن لها دور حقيقى فى تاريخ الإسلام العام ، فإن حال إفريقية بعدها أصبح أسوأ مما كان عليه قبلها من كل ناحية ، ثم إنها بحملاتها المتكررة على المغربين الأوسط والأقصى أثارت العصبية القبلية بين البربر ، وأضرَّت بالمغرب كله ضرراً بليغاً ، بل امتد أذاها إلى دولة الإسلام فى الأندلس ، لأن تطلعها إلى المغرب الأقصى وتدخلها فى شئونه اضطر الأمويين الأندلسيين من أيام الناصر لدين الله إلى الالتفات إلى الجنوب وتوجيه جانب كبير جداً من قواهم إلى المغرب مما أضعف جبهتهم الشمالية أمام النصارى .

أما فى بلاد الشام فلم يكن للفاطميين فيه دور متميز ، إنما هم دخلوا هناك فى زمرة

المتنازعين على السلطان فى بلاد لم تكن بحاجة إلى طامعين جدد يدخلون حلبة التطاحن.

فهى على هذا دولة قرشية كبيرة ولكنها ليست عظيمة ، ومذهبها الإسماعيلى نفسه كما يصوره كبار دعاتها مثل القاضى النعمان بن محمد متطرفون جداً فى الدعوة الإسماعيلية ذات الاتجاه البعيد عن صفاء الإسلام ، وهذا التعقيد الشديد فى المذهب الإسماعيلى الذى قامت عليه الدولة الفاطمية ، ودعا إليه دعاتها ، هو الذى باعد بين عامة المصريين ودعوى الشيعة جملة ، وقد نفر أهل إفريقية نفوراً شديداً من المذهب الإسماعيلى ووقف فقهاء المالكية من كل مذاهب الشيعة موقفاً حاسماً كان له أبعد الأثر فى مركز الدولة الفاطمية فى إفريقية وبقية المغرب ، لأن فقهاء المالكية المغاربة كانوا متشددين فى مذهبهم متمسكين بكل تفاصيله ، وكان فيهم إلى جانب ذلك علماء أجلاء متمكنين من مذاهب السنة استطاعوا الثبات لكل دعوات الإسماعيلية وأثبتوا بطلان ما عداها ، واجتهدوا فى نفس الوقت فى بث النفور والكراهة من كل انحراف عن المذهب السنى ، فلم تضرب مذاهب الإسماعيلية بجذورها فى التربة المغربية ، وما كادت الدولة الشيعية تنتقل إلى مصر حتى تلاشى المذهب من المغرب ، إلا فيما يتعلق ببعض شكليات أرغم على التظاهر بها نوابهم فى المغرب وهم بنو زيرى ابن ماد الصنهاجيون ، ثم تلاشى المذهب وكل ذكر له فى أفريقية والمغرب فى أيام المعز بن تميم الصنهاجى عندما قطع علاقاته بالفاطميين فى مصر سياسياً ودينياً .

وقد تناولت بالتفصيل الدور الذى كان للدولة الفاطمية فى المغرب (٢٩٧ - ٣٦٢هـ/ ٩٠٩ - ٩٧٣م) فى كتابى عن تاريخ المغرب من قبيل الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة السعدية ، وهو فى مجموعه دور سىء ، لأن أهل أفريقية نفروا من الدعوة الفاطمية نفوراً شديداً ، وقادهم فى ذلك شيوخهم المالكيون الذين اعتبروا المذاهب الشيعية كلها خارجة على الإسلام ، وخلال ما يزيد قليلاً على ستين سنة لم يوفق الفاطميون فى إقامة جسور تفاهم مع شعب أفريقية ، وفى أيام الخليفة الفاطمى الثانى وهو القائم أبو القاسم محمد بن عبد الله المهدى (٣٢٢ - ٣٣٤هـ/ ٩٣٤ - ٩٤٥م) قامت ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد الملقب بصاحب الحمار ، وكان معلم صبيان سنياً

من بنى يفرن من زناتة ، ولكن دعاة الشيعة زعموا فيما بعد أنه كان خارجياً صفرياً نكارياً يُكفِّر أهل الدين ويستبيح الأموال .

والحقيقة أن حركة أبى يزيد هذا تمثل استياء الناس فى أفريقية من الحكم الفاطمى، فإن الأمر لم يقتصر على النفور العام من المذهب الشيعى الإسماعيلى ، بل إن سياسة الفاطميين المالية كانت سياسة استغلال مالى بشع لم يعرفه أهل المغرب إلى ذلك الحين ، فلم يدعوا شيئاً لم يفرضوا عليه مالاً وابتكروا من الجبايات ما لم تعرفه دولة إسلامية أخرى إلى ذلك الحين ، وزاد الفاطميين نهماً إلى المال حاجتهم إلى الجند المرتزق وانصرافهم إلى الإنفاق فى شراء الصقالبة والعبيد السود ليكونوا جندهم وحرسهم الخاص ، ثم ما أنفقوه من أموال جسيمة فى إنشاء حصن خاص لهم خارج القيروان ، اتسع حتى صار مدينة عُرِفت بالمنصورية ، ولم تكفهم هذه فأنشأوا المهدية على ساحل البحر فى موضع منيع داخل فى الماء وحصَّنوه بالأسوار والأبراج المنيعة الباقية إلى اليوم ، وجعلوا عليها أبواباً هائلة من ناحية البر ، وقد قصروا السكنى فيها على أنفسهم وخدمهم وجندهم ، وجعلوا أهل الأسواق خارج الأسوار .

وعندما اشتدت ثورة أبى يزيد ولقيت التأييد من معظم قبائل البربر الزناتية وكثير من الصنهاجية ، لجأ الخليفة الفاطمى القائم بجنده إلى المهدية سنة ٣٣٣هـ/ ٩١٤م ، ولم تنج البقية من الفاطميين إلا بفضل أسوار المهدية ، فقد اجتمع كل أهل أفريقية إلى أبى يزيد فيما عدا قبيلة كتامة . ولكن أبا يزيد نفسه كان رجلاً مسناً غير قادر على ضبط أمور الجماعات الغفيرة التى انضمت إليه ، فخرج الكثيرون عليه وأثَّرت فيهم دعاية الفاطميين من أنه خارجى نكارى .

وعندما استوثق الخليفة الفاطمى الثالث أبو طاهر إسماعيل المنصور بن أبى القاسم محمد القائم (٣٣٤-٣٤١هـ/ ٩٤٥-٩٥٢) من انصراف معظم جماعة أبى يزيد عنه ، وأنه بقى فى جماعة مبعثرة من هوارة خرج بجنده وهاجمه وشتت جموعه ، فارتد إلى القيروان حيث خافه أهلها وأقفلوا أبوابها ، فارتد بمن معه إلى الجبال وكان ذلك سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م وقبض المنصور على أبى يزيد وقتله وانتهت ثورته ، ولكن ذلك لم يَعْنِ أن أهل أفريقية عادوا إلى طاعة الفاطميين ، بل ازدادوا نفوراً منهم ،

وتأكد الفاطميون من أن أفريقية والمغرب ليسا لهم موطناً ، فاشتد اهتمامهم بغزو مصر للانتقال إليها ، وأطمعهم فيها ضعف الإخشيديين واضطراب أمورهم بعد موت كافور الإخشيدى .

وعندما توفى المنصور وجاء أبو تميم معد المعز بالله رابع خلفاء الفاطميين وأقدرهم (٣٤١-٣٦٥هـ/ ٩٥٢-٩٧٥م) ، بدأ الاستعداد الفعلى لغزو مصر ، فضاعف نشاطه فى غزو المغرب الأقصى بغرض جمع الأموال لأنهم لم يستطيعوا إقرار سلطانهم فى المغرب الأوسط وعجز عن مغالبة الأدارسة فى المغرب الأوسط وتصدى له الأمويون الأندلسيون وحلفاؤهم من الأدارسة والزناتيين . وحتى بعد انتصار جنود الفاطميين على الأدارسة وأسرهم يحيى بن يحيى بن عمر بن محمد وخروج بقاياهم من فاس ولجوئهم إلى قلعة حجر النسر ، لم يطمئن الفاطميون إلى أمر المغرب الأقصى ، لأن المنصور محمد بن أبى عامر صاحب الأمر فى دولة بنى أمية الأندلسية (٣٦٦ - ٣٩٩هـ/ ٩٧٦-١٠٠٨م) تصدى لهم بكل عنف ووالى إرسال الجيوش إلى المغرب الأقصى . وهنا ، ومن أوائل ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م استقر رأى المعز على الانتقال إلى مصر فجمع كل ما استطاع من جند ومال ، وأرسل جوهر الصقلى إلى مصر فدخلها وقضى على بقايا الإخشيديين ودخل الفسطاط فى ١٦ شعبان فى ٣٥٨هـ يوليو ٩٦٩م. وأعطى المصريين أماناً شاملاً على أموالهم وأنفسهم وعقيدتهم وقال فى أمانه «وهى إقامتكم على مذهبكم ، وأن تُتركوا على ما كنتم عليه من أداء الفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأنصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتاواهم ، وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه ونصه ونبيه ﷺ فى سنته ، وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه »[1] .

وهذا التسليم للمصريين بما طلبوا من البقاء على السنة دون أن تتدخل الدولة فى شئون عقيدتهم يدل أولاً : على أن الفاطميين تعلموا درساً من تجربتهم فى أفريقية

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، بتحقيق د . جمال الدين الشيال ج ١ ص ٦٩ - ٧٠ .

والمغرب ، وما تبينوه من أن مذهب السنة والمال عند الفاطميين كانت مقدمة على المذهب ، حقاً أنهم أنشأوا نظاماً للدعاية للمذهب الإسماعيلي واتخذوا الجامع الأزهر مركزاً لها وأقاموا تنظيم الدعاة وعلى رأسه داعى الدعاة ، وكان فى الغالب رجلاً ذكياً واسع الاطلاع والمعرفة كما نجد عند القاضى النعمان بن محمد ، ولكنهم لم يجتهدوا فى نشر المذهب الفاطمى فى مصر اجتهاداً يثير مشاعر الناس ويؤثر فى السياسة والجباية ، فظل الخلفاء ورجالهم على مذهبهم واتبعهم ودخل فى نِحْلتهم من طلب أموالهم .

وبقيت كتلة الشعب المصرى سنية لم تمس ، وإذا كان المذهب الإسماعيلى قد لقى قبولاً وانتشاراً فى بلاد الشام إبان العصر الفاطمى ، فإن السبب فى ذلك لا يرجع إلى اجتهاد الفاطميين بل إلى استعداد كان فى بعض جماعات أهل الشام للدخول فى المذهب الإسماعيلى ، فلا شك فى أنه كانت هناك نواة إسماعيلية نمت وازدادت عدداً وقوة بتشجيع الفاطميين ، بل بلغ الأمر أن نشأ فى بلاد الشام مذهب الدروز المتفرع عن الشيعة الإسماعيلية ، وهو قد نشأ بلا شك حول نواة دينية غريبة عن الإسلام كانت هناك ، وعرف حمزة الدرزى كيف ينميها ويضبطها فى مذهب إسلامى على حرف ، والمذهب على أى حال أشبه برابطة عشائرية بين قبيل من أهل الشام .

والمال والحصول عليه هو مفتاح السياسة الفاطمية دون نظر إلى النتائج ، فهذا البلد الذى كان إلى ذلك الحين بلداً غنياً أو رخى الحال على الأقل كما تدل على ذلك صفحات كتاب سفر نامة الذى كتبه ناصرى خسرو ، الذى زار مصر أيام الخليفة المستنصر ، وإذا كنا لا نسلم بكل ما يقوله ناصرى خسرو ، لأنه كان إسماعيلياً بل هو داعية إسماعيلى ، فإننا نأخذ بجملة كلامه . وبما قاله المقريزى بعد ذلك من أن رخاء مصر تلاشى شيئاً فشيئاً خلال العصر الفاطمى الطويل ، فقد جعلوا دأبهم وَضْع أيديهم على مصادر الثروة وفرضوا على الصناع إتاوات ، وبلغ من عسف أحد وزرائهم – وهو ابن كلس – أن سياسته أدت إلى خراب صناعة النسيج فى مدن بحيرة المنزلة فى شمال الدلتا ، فقد أثقل عليها هذا الرجل بالمطالب حتى أفلس معظم المصانع ، وكانت هذه الناحية من أغنى نواحى مصر بما كانت تصنعه وتصدره من النسيج العظيم القدر والقيمة .

وباستمرار هذه السياسة المالية سنة بعد سنة أخذت أرض مصر تتلف وتبور ، لأن الزراعة لم تعد تفى بحاجات الفلاحين ، فنزح الكثيرون عن قراهم هرباً من الجبايات الثقيلة ، هذا مع عظيم نفقة الدولة على جندها الكثير، فقد أسرف الفاطميون فى شراء الجنود أو اصطناعهم ، وقد ذكر ناصرى خسرو من أصناف هذا الجند المرتزق نحو تسعة أصناف يبلغ مجموع رجالها - حسب تقديره - ٢١٠ آلاف رجل ، وهى مبالغة ولا شك ، ثم يضيف « ونفقة هذا الجيش كله من مال السلطان ، ولكل جندى منه مرتب شهرى على قدر درجته ، ولا يجبر على دفع دينار منها أحد من الرعايا أو العمال ، ولكن هؤلاء يسلمون للخزانة أموال ولايتهم سنة فسنة ، وتصرف أرزاق الجند من الخزانة فى وقت معين ، بحيث لا يرهق والٍ أو واحد من الرعية بمطالبة الجند» (١) .

ومعنى هذا أن الولاة والعمال كانوا يُسلِّمون أموال نواحيهم إلى الخليفة الفاطمى فى القاهرة ، وهو الذى يؤدى رواتب الجنود بخلاف ما كان متبعاً فى غير مصر من أن أمراء الدولة وولاتها كانوا يجمعون لحسابهم أموال نواحيهم ويدفعون منها أموال فرق الجند التابعة لهم(وكلهم جند السلطان) ويرسلون إلى الخليفة أو السلطان قدراً ويحتفظون بالباقى . وكلا السياستين كانت ضارة بالناس فى نهاية الأمر .. والمهم هنا أن الفاطميين كانوا يجمعون من مصر هذه الأموال الكثيرة ثم ينفقون منها على جندهم الكثير فى حروبهم فى بلاد الشام خاصة . ومعظم أموال الفاطميين ضاعت فى حروبهم مع العباسيين والقرامطة ورؤساء نواحى الشام دون أن يصلوا إلى نتيجة تُذكر ، فقد كان سلطانهم على بعض نواحى الشام دائماً ضعيفاً وحتى جنوب الشام وفلسطين خاصة - والمفروض أنها كانت من أملاك الفاطميين - لم يكن لهم هناك سلطان حقيقى .

وكذلك كان إنفاق الفاطميين على قصورهم وخدمهم وحشمهم كثيراً جداً ، فقد كان أهل بيتهم - وكلهم أمراء - كثيرين ، ولكل منهم قصر أو أكثر حافلة بالخدم والحشم والجوارى ، وكانوا جميعاً ينفقون عن بذخ ومن غير حساب . هذا مع إهمال

(١) ناصرى خسرو ، سفر نامة ٩٤-٩٥.

المرافق ، فالترع والقنوات أُهملت ، والطرق لم يعد يُعْنى بها أحد ، فاقتصرت العناية على المرافق البلدية أى التى كان يقوم بها أهل النواحى دون السلطانية ، وهى الجسور والترع الكبيرة التى تمر فى عمالات كثيرة .

ونتيجة لذلك كله أن مصر الغنية أفلست وانتهى رخاؤها التاريخى الذى استمر من أيام الفراعنة ، وفى حكم الخليفة الفاطمى المستنصر أبى تميم معد (٤٢٧ - ٤٨٧هـ/ ١٠٣٥ - ١٠٩٤م) نصل إلى القاع ، وهو ما يسمى بالشدة العظمى أى المجاعة الكبرى التى استمرت ثمانى سنوات ، وتفاصيلها معروفة شائعة ، وهى تُرد عادة إلى هبوط الفيضان سبع سنوات متوالية ، وهذا أمر مستبعد ، ولكن الحقيقة هى أن هذا الإفلاس كان نتيجة السياسة الفاطمية المالية والإدارية الفاسدة ، فإن عسف الناس ونهب أموالهم وسرقة الفلاحين مع إهمال المرافق ، كان لابد أن ينتهى إلى هذه النتيجة ، حتى طول حكم الخليفة المستنصر لا يرجع إلى استقرار الأمور ، بل يرجع إلى زهد الناس فى الخلافة ، فالخليفة كان مطالباً بأموال كثيرة جداً ، والعائد إليه قليل ، حتى أصبح - الخليفة المستنصر - كالمتسول .

وفى النهاية استعان الخليفة المستنصر ببدر الدين الجمالى حاكم عكا ، فأقبل إلى مصر سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م وتولى الوزارة ، وكان إدارياً حازماً عارفاً بشئون الإدارة والمال فتحسنت الأحوال وتوقف التدهور ، ولم يصل بدر الجمالى إلى تلك النتيجة إلا بعد أن تخلص من ناس كثيرين ، وأزهق أرواح المئات من الطفيليين الذين كانوا يحتكرون السلطان ويمتصون دماء الناس وثروة البلاد [١] .

وقد تحسن الحال بعض الشيء ، ولكن الدولة الفاطمية كان قد انتهى أمرها ودخلت فى دور النزاع الطويل والأخير ، ثم آل الأمر فيها إلى الفوضى الشاملة ووقوع الحروب بين الوزيرين شاور وضرغام وكلاهما من رؤساء البدو ، وفى عهد الخليفة الفاطمى الرابع عشر وهو أبو محمد عبد الله العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧هـ/ ١١٦٠ - ١١٧١م) كان أمر نور الدين محمود الأتابك قد اشتد ، ووصلت حركة النهوض والتجمع الإسلاميين إلى ذروتها بتوحيد الموصل والشام ، ثم تمكن نور

---

(١) انظر ابن ميسر ، تاريخ مصر ، تحقيق أيمن فؤاد سيد . القاهرة ١٩٨١ ص ٣٩ وما يليها .

الدين من ضم مصر إلى جبهة الكفاح ضد الصليبيين على يد قائده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وعلى يد صلاح الدين كانت نهاية الدولة الفاطمية وبداية الدولة الأيوبية.

وللمؤرخين القدامى والمحدثين آراء شتى فى الدولة الفاطمية معظمها لا يقوم على تحقيق للواقع، بل يعتمد على أقوال يصعب إثبات صحتها، ولكن حقيقة الدولة الفاطمية هى التى ذكرناها، وما ظهر من رخاء فى أيامها الأولى وما خلّفته من مبانٍ ومنشآت قليلة وفقيرة تؤيد ما ذكرناه، وهو أن الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر كانت تجربة سياسية غير موفقة وإن كانت طويلة المدى، ومعظم ما نسمعه خلاف ذلك يرجع إلى اهتمام الفاطميين بالوصاية لأنفسهم ومذهبهم، فكان تاريخهم على جملته كالطبل؛ دوى بعيد ومحصول قليل.

ونختتم هذا الكلام بأن الدولة الفاطمية التى قامت على أساس الدعوة الإسماعيلية الواسعة تجلت فى النهاية عن دولة شديدة الانحراف عن الطريق الإسلامى السوى، ولهذا فقد كان نجاحها الدينى قليلاً جداً، ونتيجة لذلك كان نجاحها السياسى واهياً أو وهمياً، والدولة الفاطمية كانت لهذا فى دورها المغربى شبحاً زائلاً، وفى دورها المصرى وهماً ضخماً لا يقوم على حقيقة.

وإذا كانت الدول الحسنية الهاشمية التى ذكرناها دولاً عربية جديرة بأن تكون قرشية من حيث طريقة مواجهة المشاكل بالصدق والبسالة كما رأينا فإن الدولة الفاطمية بأسلوب دعوتها المعوج، وطريقة خداع دعاتها للناس وجمعهم أموال الناس باسم الزكاة ثم اختفاء إمامهم فى مكان لا يعلمه إلا كبير الدعاة المسمى بالوصى ثم قيام الدولة فى أفريقية قياماً مفتعلاً، كل هذه كانت أساليب غير عربية ولا قرشية، أما دورها فى تاريخ مصر فدور سيء، وهى الدولة التى قضت على رخاء هذه البلاد، ولهذا فقد كانت الدولة الفاطمية دولة غير عربية أو قرشية فى روحها وتنظيمها وأساليب حكمها وعلاقاتها بالناس، وعلى الرغم من أننا نعرف عن الدولة الفاطمية أكثر مما نعرف عن غيرها لوفرة الكتابات عنها، فإنها لا زالت إلى الآن - وبحسب معلوماتنا - من أغرب الكيانات السياسية التى قامت فى عالم الإسلام وأبعدها عن روح الإسلام والعروبة وطبيعة القرشية.

دُوَل الشرفاء فى مكّة وَالمدينَة والحجَاز وَمَا تفرّع عَنها :

فى التنظيم الإدارى للدولة العباسية لأول قيامها كان الحجاز ولاية واحدة يليها رجل واحد مركزه المدينة وتتبعه مكة ، ولكن كان لكل من البلدين والٍ أو أمير . ولكن عندما ضعفت الدولة العباسية انقسمت ولاية الحجاز إلى إمارتين : إمارة مكة، وكانت تتبعها قرى الطائف وجدة وبطن نخله وعُسْفَان ومرّ الظَّهران ، وإمارة المدينة وكانت تتبعها قرى خيبر وفدك وينبع وناحية الفُرُع ووادى القرى ومدين وتيماء صاعداً إلى أيلة . وبصفة عامة تستطيع أن تقول إن الحجاز كان إمارتين : شمالية قاعدتها المدينة وتشمل الحجاز ، وجنوبية قاعدتها مكة وتشمل تهامة وتمتد حتى حدود عسير .

وولاية الحجاز كلها - بإمارتيها معاً - هى الولاية الإسلامية الوحيدة التى حكمها - باستثناءات قليلة - قرشيون خلال صدر الإسلام ، وأول والٍ على مكة كان عتاب بن أسيد من بنى أمية ، وكان العباسيون يولون على الحجاز رجالاً من بينهم ، وانتقل مركز الولاية إلى مكة . وإلى سنة ٢٧٩ كان الحجاز تابعاً لبغداد ، إذ فى هذه السنة فوض الخليفة المعتمد ، أبو العباس أحمد بن المنتصر (رجب ٢٥٦- رجب ٢٧٩هـ/ يونيو ٨٧٦- سبتمبر ٨٩٢م) أمر ولاية الحجاز إلى أحمد بن طولون والى مصر ، فبدأت تظهر فى التنظيم الإسلامى العام الوحدة السياسية التى عُرِفت بدولة مصر والشام ويدخل فيها الحجاز ، واستمر ذلك حتى سنة ٣٥٨هـ ٩٦٩م عندما انفرد بالسلطان فى إمارة مكة جعفر بن محمد بن الحسين أول شرفاء مكة الذين ظلوا يتعاقبون على حكم مكة حتى سنة ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م عندما دخلت مكة وبقية الحجاز قوات الملك عبد العزيز آل سعود ، وكان الحسن بن على آخر أشراف مكة قد وُلِّيَ فى ٦ شوال سنة ١٣٢٦هـ/ أكتوبر ١٩٠٨م من قِبَل السلطان عبد الحميد ، ثم استقل وأعلن نفسه ملكاً على الحجاز وخليفة على المسلمين - كما سنرى .

والحسين بن على هو آخر خط طويل من الشرفاء الذين كانت لهم الصدارة فى مكة حتى فى أيام العباسيين ، وهؤلاء الأشراف هم الموسويون ، وهم من سلائل موسى ابن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب . والغالب عليهم - حتى قيام الدولة

الأيوبية وامتداد سلطانها على الحجاز - المذهب الزيدى ، وهو أقرب المذاهب الشيعية إلى مذاهب أهل السنة .

أما إمارة المدينة فكانت أقل أهمية من الناحية الإدارية من إمارة مكة ، وأمراؤها كانوا حسينيين من أحفاد الحسين بن على بن أبى طالب ، والغالب على أمرهم - من بداية العصر الفاطمى على الأقل - المذهب الإسماعيلى ، ولهذا فقد كانت علاقاتهم بالفاطميين دقيقة ومعقدة أيضاً ، ومعظم أمرائها من آل المهنا من أحفاد الحسين بن على ، وساءت العلاقات بينهم وبين الحاكم بأمر الله الفاطمى ، مما جعل الحاكم بأمر الله الفاطمى يأمر أمير مكة الحسن بن جعفر السليمانى أن يُغير على المدينة ويضم إمارتها لإمارته ففعل سنة ٣٩٠هـ ، ولكنها عادت إلى آل مهنا بعد ذلك واستقلت عن مكة . وعندما ينتهى أمر الدولة الفاطمية وتجىء الدولة الأيوبية ينضم إليهم آل مهنا ، فيقوم الأيوبيون بتثبيتهم فى الإمارة ، وواحد من أمرائهم وهو أبو فليتة حضر مع صلاح الدين فتح أنطاكية سنة ٥٨٤هـ وخلفه عليها ابنه سالم ، ووقعت بينه وبين قتادة أمير مكة حرب ، انهزم فيها سالم بن أبى فليتة ، وانتصر فيها سالم عند ذى الحليفة سنة ٦٠١ هـ .

وقد توجه سالم هذا إلى مصر سنة ٦١٠ هـ ليشكو من عدوان قتادة على بلاده ، ومات فى طريق عودته إلى المدينة وخلفه ابنه شيحه الذى ظل على المدينة حتى قُتِل سنة ٦٤٧هـ وخلفه ابنه عيسى ، ولم تدم إمارته أكثر من سنتين . إذ قبض عليه أخوه جماز سنة ٦٤٩هـ وظل جماز يحكم حتى سنة ٧٠٤هـ . ومعظم أمراء المدينة من الأشراف من عقبه . ولم يكن لأمراء المدينة من الهيبة والاستقرار ما كان لأمراء مكة ، وواحد منهم وهو الحسن بن الزبير اعتدى فى يوم الثلاثاء السادس من ربيع الأول سنة ٩٠١هـ على الحرم النبوى ونهب ما فى الحجرة الشريفة من نفائس . وبعد ذلك بقليل سنة ٩٢٣هـ . تدخل الحجاز تحت حكم سلاطين الدولة العثمانية فيجعلون إمارة المدينة تابعة لإمارة مكة ، ويثبتون ولده الثانى محمد بن بركات الذى سنتحدث عنه ، ولم يختف ذكر آل مهنا من إمارة المدينة مع ذلك ، ولكن أمرهم خمل إلى جانب

الموسويين أصحاب مكة . وهم الذين يعنوننا فى هذه الدراسة ، لأن المُلك يتصل فى أعقابهم فى المملكة الأردنية الهاشمية إلى اليوم .

* * *

ونعود الآن إلى مكة لنتتبع خيط الموسويين فنجد أنهم بيوت متوالية فكلها ترجع إلى نسب حَسَنى واحد ولكنها دول متعاقبة ، وأول من يؤسس بيتاً قوياً طويل العمر منهم هو جعفر بن محمد بن الحسن الذى ينتهى نسبه إلى محمد بن موسى بن عبيد الله ابن الحسن بن على بن أبى طالب . وأجداد هذا كانوا فى اليمامة وقاعدتهم كانت الخضرمة من قرى اليمامة ، كما جاء فى معجم البلدان لياقوت . وقد ظلوا إلى أيام محمد وإبراهيم ويوسف وعبد الله أبناء الأخيضر محمد .

وقد بقى فرع منهم باليمامة وهم أولاد يوسف بن الأخيضر محمد . فأما عبد الله ابن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وهو أخو يوسف الذى ذكرناه ، فقد هاجر بعض أولاده إلى أذنة من بلاد الثغر بين دار الإسلام وبلاد الروم ، إلا ثلاثة من أبناء عبد الرحمن بن أبى الفاتك عبد الله بن داوود بن سليمان بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وهم : نعمة وعبد الحميد وعبد الحكم (أو عبد الحكيم) ، وقد سكنوا أَمَج قرب مكة ، ومنهم جعفر بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وجعفر هذا تغلَّب على مكة وتولى أمرها فى أيام محمد بن طغج الأخشيد والى مصر المستبد بها ، ثم ثبَّته فيها القائد جوهر والى المعز لدين الله الفاطمى بعد دخوله مصر واستقراره فيها سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م .

وجعفر بن محمد بن الحسن هذا هو أول من أنشأ أسرة ثابتة فى إمارة مكة من الأشراف الحسنيين ، وكل بيوتهم التى ستتوالى على حكم مكة - والحجاز كله أحياناً - من عقبه .

وبيوت أشراف مكة الحسنيين كثيرة ، وكذلك كانت الحروب بينهم والمحن التى مرت عليهم سواء من خلافات بعضهم مع بعض ، أو تدخُّل أصحاب مصر من

الفاطميين والأيوبيين والمماليك فى شؤونهم ، ولكن الإمارة ظلت فيهم من منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى / إلى أن استولى الملك عبد العزيز بن سعود على مكة وبقية الحجاز سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م .

وفى نفس الحركة استولى الملك عبد العزيز على عسير من الأدارسة وهم فرع من الأدارسة الحسنيين الذين قامت دولتهم التى ذكرناها فى المغرب الأقصى . فقد عاد رجل منهم إلى الجزيرة العربية ونزل عسير وفيها أقام دولة إدريسية . وفى إمارة أبى الفتوح الحسن بن عيسى بن جعفر بن محمد بن الحسن الذى تولى أمر مكة سنة ٣٨٤هـ وقع بينه وبين الفاطميين خلاف شديد ، إذ أرسل إليه الخليفة الحاكم بأمر الله سجلاً ليقرأه فى المسجد الحرام وفيه البراءة من أبى بكر وعمر وسب بعض الصحابة وبعض أزواج النبى ﷺ ، فأبى من ذلك وأعلن الخروج على طاعة الفاطميين ، ثم خطب بالخلافة لنفسه وتلقب بالراشد بالله ، وسار إلى مدينة الرملة بفلسطين ، فدخل فى طاعته صاحبها ثم انضم إليه حسان بن مفرج شيخ قبيلة طىء ، فخافه الحاكم بأمر الله ، وبعث إلى عماله وأنصاره فى فلسطين وشمال الجزيرة يحرضهم عليه ، وتخلى عن أبى الفتوح الكثير من أنصاره ، فوجد أبو الفتوح أن الحكمة تقضى بأن يكتفى بإمارة مكة ، وظل أميراً على مكة إلى سنة ٤٣٠هـ .

وخلفه شكر بن أبى الفتوح الذى تمكن من ضم المدينة إلى إمارته وظل يحكم إلى سنة ٤٥٣هـ ، وكان شكر بن أبى الفتوح هذا شاعراً وبطلاً مغامراً ،وهو صاحب الجازية بطلة إحدى حلقات ملاحم الهلالية ، والأسطورة تقص كيف عشق شكر بن أبى الفتوح الجازية وهى من بنى هلال وكيف احتال عليه بنو هلال ليفرقوا بينه وبين الجازية ، فهام على وجهه عشقاً ، وحاول دخول مكة فأبى صاحبها أن يفتح له الباب، وظل يقول الأشعار فى صاحبته حتى مات ، والجازية أيضاً لم تسعد بحياتها بعد تغريبها عن أهلها إلى مصر ثم إلى المغرب ، فقد زوَّجوها من رجل آخر رغماً عنها ، ولم تلبث هى الأخرى أن ماتت .

والحقيقة التاريخية هى أن شكر بن أبى الفتوح مات أميراً على مكة من غير عقب فتولى أمرها عبد له يسمى تاج المعالى ، فتغلب عليه وانتزعها من يده رجل يسمى

محمد بن أبى الفاتك ، وهو من أحفاد سليمان بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب .

وفى سنة ٤٥٥ هـ دخل مكة على بن محمد الصليحى وهو رأس أسرة الصليحيين من أنصار الفاطميين ، ولكن بنى جعفر استطاعوا العودة إلى إمارة مكة بصلح من الصليحيين فى نفس السنة ، وكان الذى تولاها منهم القاسم بن محمد من أبناء جعفر ابن محمد بن الحسن ، وقد حكم من سنة ٤٨٧ إلى سنة ٥١٨ هـ .

وابنه أبو فليته بن القاسم بن محمد تمكن من إنشاء بيت بنى فليته ، وهم أكبر بيوت أشراف مكة من أبناء جعفر بن محمد المذكور ، وقد تعرضت مكة فى أيام بنى فليته لمحن شتى من أشدها فتنة بين عيسى بن فليته وعمه القاسم بن هاشم بن فليته ، وفى ولاية عيسى بن القاسم بن فليته انقرضت دولة الفاطميين فى مصر وحلَّ محلها صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٧هـ منشىء الدولة الأيوبية ، وهو فاتح القدس ومعيد مذهب السنة إلى مصر ، ونتيجة لذلك قام الخليفة العباسى بتولية داوود بن عيسى بن فليته سنة ٥٧٠هـ .

وتعاقب على مكة ولاة من رجال العباسيين والأيوبيين حتى تمكن أبو قتادة وهو من أبناء جعفر بن محمد بن الحسن من تولِّى أمر مكة سنة ٥٩٧هـ ، وبعد منازعات طويلة مع رجال الأيوبيين استقر أمر مكة فى يد راجح بن قتادة سنة ٦٣٠هـ بصلح مع على بن رسول من أمراء أسرة بنى رسول السنيين فى اليمن وهم حلفاء الأيوبيين وأتباعهم ، وقد طالت الفتنة بين راجح بن قتادة وبنى رسول من ٦٣٠ إلى ٦٦٧هـ . حتى انقضاء أيام الأيوبيين ، وقد بذل غانم بن إدريس بن قتادة جهداً عظيماً فى المحافظة على إمارته ، ولكن أمره لم يستقر لأن جُماز بن شيحة صاحب المدينة ، تقرب من سلطان مصر المملوكى فولاه مكة إلى جانب المدينة ، وما زال أبو نُمى محمد الملقب بالأول حتى استرد إمارة مكة فى طاعة المماليك .

وفى سنة ٧٠١هـ . تنازل محمد أبو نمى الأول عن الإمارة لابنيه رُميثة وحميضة ، فنافسهما أخواهما عطيفة وأبو الغيث ووقعت الحرب بينهم . وأيد الظاهر بيبرس

عطيفة وأبا الغيث وأعطاهما حكم مكة وأخذ حميضة ورميثة معه إلى مصر سنة ٧٠١هـ . عندما حج إلى بيت الله . ولكن الفتنة لم تنته فعاد رميثة وحميضة إلى الحجاز ، وحاربا أخويهما ، وانتهى الأمر بانتصار رميثة بن أبى نمى محمد ٧٣٥هـ . وخلفه ابنه عجلان بن رميثة سنة ٧٤٥هـ .

وتستمر فترة الفوضى والاضطرابات والحروب الأهلية فى إمارة مكة حتى حصلت الإمارة سنة ٨٢٩ هـ لبركات بن الحسن بن عجلان بن رميثة فأنشأ بيت بركات .

وفى أواخر أيام قانصوه الغورى آخر سلاطين المماليك صار الأمر إلى أبى نمى محمد بن بركات الملقب بأبى نمى الثانى فأقره السلطان سليم الأول العثمانى بعد غزوه مصر سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م . وهنا تدخل إمارة مكة فى فترة طويلة من القلق والفوضى نتيجة للمنافسات الشديدة بين أمراء الحسنيين من ناحية وسوء سياسة العثمانيين من ناحية أخرى ، ولكن الأمر ظل فى معظم الأحيان لبنى جعفر بن محمد ابن الحسن .

وتولى مكة الأمير غالب بن مساعد بن سعيد بن سعد من أحفاد بركات بن الحسن ابن عجلان الذى ذكرناه . وقد تولى سنة ١٢٠٢هـ وفى أيامه ظهر أمر الحركة السلفية فى نجد ، وتطلع الإمام محمد بن سعود لضمِّ الحجاز إلى إمارة نجد ، وتمكن من ذلك ، فطلبت الدولة العثمانية من محمد على باشا والى مصر التوجه بحملة إلى الحجاز، لاسترداد الحرمين الشريفين من أيدى السعوديين السلفيين ، فأرسل محمد على أُولى حملاته المشهورة على الحجاز ثم توجه بنفسه سنة ١٢٢٨هـ ، ومنها أرسل ابنه إبراهيم إلى نجد ، ومن نجد وصل المصريون إلى الأحساء والقطيف ، وتولى أمر الحجاز ونجد خورشيد باشا سنة ١٨٣٠م ، واستمر إلى سنة ١٨٤٠ م. عندما انسحبت القوات المصرية من الجزيرة العربية .

ولم تنقطع إمارة بنى جعفر الحسنيين أثناء الحكم المصرى ، فقد رشح محمد على الشريف عون من أحفاد الشريف غالب لإمارة مكة وأيدته الدولة العثمانية ثم خلفه

حفيده محمد بن عبد المعين بن عون (١٢٧٢هـ) . وخلفه ابنه عبد الله باشا بن محمد ابن عبد المعين ، وهو أول شريف من أشراف مكة ، يحمل لقب الباشوية وخلفه فى سنة ١٢٩٤ ابنه حسين باشا بن محمد بن عبد المعين وهو الشهير بالشهيد .

ثم تولى الإمارة عبد المطلب بن غالب سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م ، ولكن الأمر عاد إلى بيت الشريف عون سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢ فتولاها عون الرفيق باشا بن محمد بن عبد المعين بن عون ، وخلفه فى سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م الشريف على باشا بن عون الرفيق ، وفى سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م خلفه ابنه الشريف حسين بن على آخر شرفاء مكة العلويين .

* * *

وإنما بذلتُ هذا الجهد الشاق فى تتبع تاريخ هذا البيت الحسنى العلوى الهاشمى القرشى وتصاريف الزمان به ، لأخرج ببضع حقائق تهمنا ونحن ندرس تاريخ قريش: الأولى هى حيوية ذلك البيت الحسنى ، فقد استطاع البقاء تلك القرون الطويلة وصمد لكل ما مر به من المحن دون أن يفنى أو يتلاشى ، فالتاريخ الذى أوجزت هنا حافل بالمتاعب مثقل بالمحن والدماء والموت ، ولكن حيوية البيت الحسنى العلوى كانت أقوى ، وكلما أهلك الدهرُ منهم بيتاً نشأت بيوت واتصل النسب ، ولا مدخل هنا لتزييف النسب ، فإن العلويين يحفظون تواريخ بعضهم البعض بغاية الحرص والدقة ، هناك وفى كل قطر عربى أو إسلامى نقابة العلويين التى تحفظ شجرات الأنساب وتبعد الدخلاء . وأفراد هذه النقابات يتصل بعضها ببعض ويعرف المتخصصون فيها بالمضاهاة والمقارنات حقيقة كل نسب يُدَّعَى .

هذا إلى جانب اعتقادنا فى القاعدة التى طالما ذكرناها هنا ، والتى تقول : إن التثبت العلمى الذى لا يداخله الشك فى صحة أى نسب أمر بالغ العسر ، وكما توجد دلائل كثيرة تؤكد صحة الأنساب فهناك شواهد أخرى تؤكد عدم صحتها ، والأسلم هنا هو التسليم بصحة النسب المدَّعى إذا لم يكن هناك دليل قاطع على كذبه ، وخاصة إذا أيد صحته شيوخ نقابات العلويين أو الأشراف ، إلى جانب ذلك لابد أن نذكر أن

العلويين لديهم الوسائل التى يحمون بها نسبهم من الدخلاء ، فكل خطوط الأنساب محفوظة متتبعة ، والمتخصصون يعرفون نقط الضعف كلها ، كما سنرى فى حالة الشرفاء السعديين الذين سيذهب منافسوهم الأشراف العلويون المناصرون لهم إلى تزييف نسبهم .

والحقيقة الثانية : هى كثرة الخلافات والمنازعات بين رجال البيت الواحد ، وقد رأينا أن أمر أحد من الشرفاء لا يكاد يستقر فى الإمارة ، حتى ينجم له المنافسون والأعداء من إخوته وبنى عمومته خاصة ، وهذا مع قلة المكافأة فى النهاية ، فإننا نفهم حرص آل الهايسبورج أو البوربون على الوصول إلى رئاسة البيت ، لأن الرياسة هنا تعنى أملاكاً وقصوراً وأموالاً وعروشاً كبيرة ذات جاه وسلطان ، ولا يقارن بشىء من هذا كله ما يحصل عليه صاحب الإمارة فى مكة ، ففى تلك العصور لم تكن هناك أموال كثيرة ولا ثروات طائلة ، ولا قصور ولا عروش ذات سلطان واسع وأراضٍ عظيمة ، والمتنافسون على العروش هناك يتنافسون حول مغانم تستحق العناء .

أما فى الحجاز فلا أراض ولا خيرات ولا مغانم ، إنما هو شرف ولاية الحجاز والاضطلاع بمسئولية أمان الحرم والحجاج ، وحتى هذا كان المتنافسون جميعاً أضعف من أن يقوموا به ، ولم يكن الحَرَمَان أشد تعرُّضاً للأذى مما كانا عليه فى تلك العصور ، خاصة وأن مكة كان لها أمير والمدينة لها أمير ، والحاج الذى كان يريد أن يزور الحرم النبوى بعد الحج كان لابد له من مغامرة ، لأنه ينتقل من ولاية أمير إلى ولاية أمير هو عدو له ، وقبائل الأعراب الجائعة تحوم حول الحرمين وبينهما باحثة عن فرص للطعام والمال ، لأنها فى تلك العصور كانت فى حالة جوع دائم . هذا كله إلى جانب تدخلات المصريين من أيوبيين ومماليك ثم الأتراك ، وكل ذلك كان يجعل الإمارة بلاء على صاحبها وعذاباً ، فما الذى جعل أولئك الناس يُستهلكون فى سبيل الإمارة مع تراكم الأخطار وترادفها مع قلة الجدوى فى النهاية ؟

والجواب على هذا السؤال عام ، ولا يمكن إلا أن يكون عاماً ، لأنه يتلخص فى حُمى الرياسة التى استولت على العرب جميعاً بعد الإسلام وظهور الخلافة والإمامة وهما مُلك فى النهاية . فقد كانت الرياسة عند العرب الجاهليين شرفاً وسؤدداً وحكماً

قبلياً جماعياً مع تحمل تكاليف الشرف والرياسة ، وكلها نفقات مالية أو عينية باهظة ، من طعام وماء وعطاء وتحمُّل ديات وما إلى ذلك ، وقد رأينا بعض رؤساء قريش منهم المطلب بن هاشم ، ينزل عن الرياسة لابن أخيه عبد المطلب دون تردد ، وأبو طالب فى رياسته كان أشبه بكبير المشيخة ولا سلطة فى يديه ولا حل ولا عقد ، لأن القبيلة كانت تعتمد فى قوتها العسكرية على أفرادها وهم أبناء أعمام ، ولا يمكن قهرهم على التقاتل فى سبيل هذا الشيخ أو ذاك .

أما بعد الإسلام فقد دخلنا فى طور الدول والأموال الكثيرة والعسكر المأجور ، وفى صراع الخلافة والإمارة تقطعت الأرحام وضعف العصب ، وبريق السلطان والغنيمة - وهو بريق كاذب فى معظم الأحيان - أعشى العيون وأمات القلوب ، فاندفع الطامعون فى الرياسة فى هذا السباق المحموم نحو الموت . وقرون بأسرها ضاعت فى هذا التسابق الأعمى نحو الهلاك والجرى وراء سراب القوة والسلطان. وفى كل هذه القصة الطويلة الحزينة لم يبق حياً فى أجسام المتقاتلين إلا عصب الهاشمية ، وما عدا ذلك فقد عصفت به رياح المطامع ، والحجاز لم يعرف الهدوء والاستقرار إلا بعد أن دخل الدولةَ السعودية الجامعة للشمل ، الضامنة للأمن والأمان ، والحامية للحرمين.

ونتابع قصة هواشم مكة إلى نهايتها . وسنتحدث هنا بتفصيل ، لأن التفاصيل بهذا الخصوص موجودة ، وهى مليئة بالعبر والدروس .

قلنا : إن الشريف حسين بن على آخر من تولى إمارة الحجاز من أسرة عون وهى آخر أسر شرفاء مكة الحسنيين. وكانت ولايته سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م. فى ظروف عسيرة كانت تتطلب من المعرفة بأحوال السياسة العالمية أكثر مما كان هو وأفراد بيته يملكون ، ففى تلك السنة كانت ثورة رجال الاتحاد والترقى على السلطان عبد الحميد وإرغامهم إياه على إعلان الدستور ، وكان على باشا والد الشريف من رجال السلطان عبد الحميد والعاملين معه فيما كان يدعو إلى عمله من العودة بالدولة العثمانية إلى نصابها الأول : دولة إسلامية عامة مجاهدة كما كانت قبل أن يستولى السلطان سليم

على مصر والشام والعراق وانتزاعه الخلافة الإسلامية لبيته ونقلها إلى استانبول وجعلها خلافة عثمانية .

كان الأتراك العثمانيون أنفسهم يفكرون فى اتجاه آخر ، هو اتجاه عصبية تركية طورانية تسخر كل شعوب الإسلام لخدمة الشعب التركى الطورانى وكان الشريف على قد حصل على الباشوية ورتبة الوزارة ودخل فى صراع السياسة العثمانية الذى أدى إلى قيام رجال جمعية الاتحاد والترقى بخلع السلطان عبد الحميد ، وتولية عبد المجيد مكانه . وإذا كان الشريف على قد فهم دهاليز السياسة العثمانية ، فإنه قطعاً لم تكن لديه فكرة عن تيه السياسة العالمية الذى كان إذ ذاك يمر بأكثر الحلقات تعقيداً فى تاريخه .

فقد كان ضعف الدولة العثمانية قد وصل إلى آخر دركاته ، وبدا بوضوح أن تفكك الدولة العثمانية على وشك الوقوع . وكانت أوروبا كلها تنتظر وقوع ذلك من أمد طويل ، وكانت روسيا تتحفز للانقضاض على الأستانة وما بقى للدولة العثمانية من أراض لافتراسها والقضاء عليها قضاء نهائياً . ولم يكن يحول بين روسيا وذلك إلا انجلترا وفرنسا اللتان وقفتا لها بالمرصاد . وكانت فرنسا قد اقتطعت من بلاد الدولة العثمانية ايالة الجزائر منذ ١٨٣٠م ، ثم تونس سنة ١٨٨١م ، وفى نفس الوقت كانت بريطانيا قد استولت على مصر فى سبتمبر ١٨٨٢ ، وبعد ذلك بسنوات نزلت قوات إيطاليا أراضى ايالة طرابلس الغرب ، وهى ما يعرف الآن بليبيا (عدا فزان) وبدأت تتوغل فيها رغم مقاومة سنوسية تركية شارك فيها بعض العرب والمصريين .

ولم يبق للدولة العثمانية فى الحقيقة إلا الأستانة والأناضول وبلاد الشام والعراق .

وكان واضحاً أن أوروبا مقبلة على حرب كبرى ، لأن اتجاه ألمانيا القيصرية كان يخيف انجلترا وفرنسا ، ولعب ادوارد السابع ملك بريطانيا دوراً سيئاً فى توجيه بلاده، نحو حلف فرنسا ومعاداة ألمانيا مدفوعاً فى ذلك بعوامل الحقد على ابن عمته القيصر ولهلم قيصر ألمانيا وبروسيا ، وكانت السياسة البريطانية تتخبط تخبطاً خطراً لأن انجلترا كانت تحمل على كاهلها عبء امبراطورية واسعة وتستغل بلاد هذه

الامبراطورية أسوأ استغلال ، وشعور العداء نحو الإنجليز كان عاماً فى الدنيا كلها بما فى ذلك الولايات المتحدة . ولا شك أن الاتفاق الودى الذى عُقِد بين انجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ ، وبمقتضاه أُطلقت يد انجلترا فى مصر ، وفرنسا فى المغرب الأقصى ، كان اتفاقاً خسيساً غير أخلاقى ، فقد كان فى الحقيقة اتفاقاً بين لِصَّين كبيرين هما فرنسا وبريطانيا اللتان كانتا تتحدثان - كلاماً - عن الحرية والعدالة .

وهذا الاتفاق بالذات كان من أكبر أسباب الحرب العالمية الأولى ، لأن ألمانيا التى كانت تطمع فى أن يكون لها نصيب من المغرب الأقصى تأكدت الآن أن فرنسا وانجلترا لن تسمحا لها قط بأن يكون لها أى نصيب فى البحر المتوسط . وهذا بدوره دفع ألمانيا إلى التقرب من تركيا ، ونتيجة ذلك انتعشت مشروعات سكة حديد الحجاز والاهتمام بالطرق والتفكير فى مد خط بغداد والبصرة ، وقد ظهرت هذه النزعة بصورة خاصة فى أيام السلطان عبد الحميد الذى كان يميل بعواطفه نحو ألمانيا ، ويشك الشك كله فى انجلترا وفرنسا .

وقد أعلن السلطان عبد الحميد الدستور العثمانى سنة ١٨٧٦ ، وهذا الدستور يجعل الدولة العثمانية دولة اتحادية بين الأجناس التى تتألف منها ، واعترف الدستور بحقوق هذه الأجناس ، وأكبرها وأهمها بالنسبة لعبد الحميد كانوا العرب .

من هنا جاء اهتمام الدولة العثمانية بالحجاز والعراق وبلاد الشام ، وأهم ناحية من بلاد العرب أهمية للدولة العثمانية كان الحجاز بسبب وجود الحرمين الشريفين فيه . لهذا اهتمت الدولة بأمير الحجاز الشريف على بن عون بن محمد بن عبد المعين فمنحته لقب الوزارة والباشوية .

وعندما خلف الحسين بن على والده سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م كان يقارب الستين ، وكان له أربعة أولاد : على وعبد الله وفيصل وزيد ، وعلى كان مريضاً بالسل فلم يكن له دخل بشئون الإمارة فأصبحت ولاية العهد لعبد الله الذى تعلم فى الآستانة ونشأ فى ظروف جديدة سادت الدولة العثمانية فى أيام السلطان عبد الحميد ، إذ أصبح للعرب مكانة ممتازة فى الدولة العثمانية ، ولم يكن ذلك صادرا عن تقدير حقيقى من

السلطان عبد الحميد للعرب ، فقد كان عبد الحميد رجلاً جامد العواطف ، مهتماً فى المقام الأول بشئون عرشه المزعزع ودولته المتهاوية ، وكان رجال الاتحاد والترقى على شاكلته فى ذلك .

وعبد الله كان دائماً القوة الحقيقية التى وجهت شئون إمارة مكة ، لأن الحسين والده كان رجلاً مسناً واسع المطامح ، ولكن لم تكن لديه الجرأة على عمل شىء كبير . أما ابنه عبد الله فقد وُلِد مغامراً ، وتعلم الكثير من اتصاله بالبلاط العثمانى مثله فى ذلك مثل صنوه نورى السعيد . ورجال السلطان رشحوا عبد الله لعضوية برلمان الدولة العثمانية الجديد وهو مجلس المبعوثان ، وهذا فتح لعبد الله آفاقاً واسعة ، فقد كان شديد المكر وكان لا يشك فى أن الدولة العثمانية تقترب من نهايتها ، فرشح والده فيما بينه وبين نفسه ليكون خليفة المسلمين الجديد عندما تسنح الظروف. وكان أبوه يسايره فى مطامعه بحذر ، ولهذا فقد اكتفى بإعلان نفسه ملكاً ، وتصور فعلاً أنه ملك له مكانة فى العالم الإسلامى ، ولكنه كما قلنا كان حذراً ، فلم يقطع صلاته بالدولة العثمانية . وقد ظهر فيما بعد أنه كان يتلقى إعانات مالية من أربع جهات أوروبية فى نفس الوقت : ألمانيا وبريطانيا وحكومة الهند وتركيا (وظل يتقاضى إعانة مالية من ألمانيا حتى منتصف ١٩١٥م).

وفى فبراير ١٩١٤ وقبيل قيام الحرب العالمية الأولى زار الأمير عبد الله القاهرة وهو فى طريقه إلى الآستانة لحضور مجلس المبعوثان ، ونزل ضيفاً على الخديوى عباس حلمى وكان مثله ثعلباً ماكراً . وزاره الفيلد مارشال كتشنر فى قصر الضيافة ، وفى اليوم التالى ذهب عبد الله لرد الزيارة . وكان يعرف خطورة ما هو مقدم عليه ، فقد قال هو فيما بعد إنه تعمد أن يرد الزيارة فى الثالثة من بعد ظهر اليوم التالى ، لأن القاهرة كانت حافلة بجواسيس الأتراك ، ولكن هؤلاء الجواسيس كانوا شديدى الحرص على نوم القيلولة ، فلا يستيقظون ويواصلون أعمالهم إلا مع المغرب . قال وزموند ستيوارت فى كتاب : تاريخ الشرق الأوسط الحديث [١] :

«جلس كتشنر مع ضيفه يتناولان الشاى على انفراد ، وفى أثناء ذلك أثار بأدب

(١) الترجمة العربية بقلم زهدى جاد الله ص ١٩٤ .

قضية الحجاز ، فقد كان المعروف أن حال الحجاز مضطرب لأن رجال تركيا الفتاة الذين كانت خطتهم تجديد الامبراطورية ، قرروا توسيع سكة حديد الحجاز بمدّها من المدينة إلى مكة ، ومدَّ فرعين لها من المدينة إلى ينبع ومن مكة إلى جدة وعيَّنوا حاكماً جديداً على الحجاز ليتعاون مع الأمير حسين . بيد أن الأمير حسين كان يكره هذا الحاكم ، ويعارض توسيع السكة الحديد لأنها تُقوِّى سيطرة الأتراك على مكة ، وقد أيده سكان الحجاز فى ذلك لأن السكة الحديدية تجعل الحج أسهل وأقلَّ كلفة ، وهم يريدون الإفادة من بقائه صعباً وباهظ التكاليف » .

انتهز عبد الله فرصة إثارة قضية الحجاز فوجَّه إلى كتشنر السؤال الصريح التالى : «ما هو موقف بريطانية من ثورة عربية ؟»

كان عبد الله يرتدى ثياب الأمير الابن الثانى لرئيس دينى ، ادعاءاته أكثر من قوته. أما كتشنر ، الأميرال والفيلد مارشال ، فقد كان أهم حاكم فى الشرق الأوسط ، ولا يستطيع أن يجيب عن سؤال صريح بصراحة ، ولذلك اكتفى بقوله «إن الصداقة التقليدية بين تركيا وبريطانيا تجعل من المستحيل على البريطانيين أن يتدخلوا فى شئونها الداخلية . والاضطراب فى الحجاز شأن داخلى » .

«بيد أن عبد الله فى رده على هذا الجواب الرسمى ذكَّر كتشنرَ بما قامت به حكومة الهند البريطانية من بسط حمايتها على الكويت وقال : ألم يكن ذلك تدخلاً فى الشئون العثمانية ؟ ابتسم الرجل الإنجليزى ابتسامة حذرة ، انتهت بها المقابلة دون أن يَعِدَ بشىء » .

« على أن كتشنر كان يعرف العالم الإسلامى. بدأ كضابط صغير بإلقاء نظرة إلى فلسطين ، وقاد الجيش المصرى بلقب سردار فاحتل السودان وعمل فى الهند حيث كان عدد من خير الفرق العسكرية مؤلفاً من المسلمين ، فرأى أن الانشقاق العربى قد يكون مفيداً لبريطانيا فى ظروف خاصة . لذلك أمر السكرتير الشرقى ، رونالد ستورس ، بتقديم يخت بريطانى لنقل عبد الله إلى تركيا ، وأن تستمر الاتصالات غير الرسمية بهذا المبعوث الصريح من مكة » .

« لم تكن مكة أبداً مركزاً للخلافة ، ولكنها احتفظت بمقام فريد بين المدن الإسلامية لأنها المكان الذى وُلِد فيه النبى ، وفيها الكعبة محج المسلمين وقبلتهم فى صلاتهم ، أى : أن مقامها دينى ، لا سياسى ولا ثقافى . أما عائلاتها المتزعمة التى تدعى التحدر من نسل الحسن بن الحسن بن على ، ويُعرف أفرادها بالهاشميين ، فقد أصبح بعض رجالها زعماء إقطاعيين يزداد نفوذهم كلما ضعفت السلطة الخارجية وبالعكس ».

« حاول السلطان عبد الحميد أن يخفف من أهمية الهاشميين لا أن يتملقهم ، ولكن الخمس عشرة سنة التى قضاها الأمير حسين فى القسطنطينية جعلت منه رئيس إقليم كبير المقام . كان العقل الذى وراء لسانه الطلق حاداً . قدَّر ذلك العقل ضعف الامبراطورية العثمانية إذ انفصلت عنها الشعوب البلقانية واحداً بعد الآخر ، وقدَّر قوة بريطانية التى أخذت مصر ، وازدهار الخديوى الذى يحميه البريطانيون ، ودرس العالم الذى يحكم من ساحة البرلمان . وبعد أن قدر ودرس سأل نفسه سؤالين: كيف يمكن أن يحافظ على وضعه ؟ وكيف يمكن أن يُحَسِّنَه ؟ لم يعامله عبد الحميد بخشونة، بل إن هذا السجان أظهر له الاحترام وجعله مستشاراً له . ولكن عبد الحميد الذى كان يود العرب قد انتهى . وأظهر رجال تركيا الفتاة شيئاً قريباً من العنصرية التركية حتى قبل أن يتسلموا الحكم ، فعاملهم العرب بالمثل » .

« هنا تناقض آخر :كما أن دعاة القومية التركية كانوا من أطراف الامبراطورية ، كذلك أصبحت القومية العربية - غير المعروفة فى صحراء العرب - عقيدة رجال من لبنان وسوريا . فقد أنشأ اللبنانيون الصحف ودور النشر الكبيرة فى مصر ، ومنهم من ألَّف المعاجم والموسوعات باللغة العربية ، وأعجب كثيرون منهم بما فعله لورد كرومر فى مصر فأرادوا توسيع الاستقلال الذى حصلوا عليه سنة ١٨٦٠ ولو عنى ذلك تحالفاً مع دولة غربية ضد الأتراك ، وكان تأكيدهم أنهم عرب لا عثمانيون قد سهَّل عليهم الانفصال عن امبراطورية لها ارتباط وثيق بالإسلام » .

« أمَّل الأمير حسين الطامح أن يستعمل الانشقاق والكبرياء العربيين فى تحقيق أحلامه ، وقد كانت مرنة تمتد من مشروع معتدل لمملكة مستقلة فى الحجاز إلى

تصورات خيالية ، هى فرض ضريبة على كل المسلمين فى العالم بصفته خليفة عربياً » .

وإذا كان العنصر الأساسى فى السياسة هو حسن التقدير ، تقدير مركزك وقواك ومراكز الآخرين وقواهم ، وتقدير الظروف العامة التى تحيط بك واحتمالات النجاح أو الفشل فى كل خطوة تخطوها ، فإن الحسين بن على لم يحسن تقدير أى شىء ، فقد تصوَّر نفسه فى وضع أكبر بكثير من حقيقتها ، فما كان فى الحقيقة إلا والياً صغيراً من الولاة الخاضعين للدولة العثمانية ، وإذا كان هو والى الحجاز ، فإنه لم يكن بحال راعى الحرمين ، لأن راعيهما كان خليفة آل عثمان ، وهو ممثله فحسب ، ثم إن أمور الحرمين كانت مضطربة جداً أثناء ولايته ، والعدوان على الحجاج كان مستمراً حتى قلَّ عدد الحجاج إلى درجة استوقفت الأنظار ، وكان الأعراب فى الحجاز فى حالة من الضنك والعَوَز جعلتهم يعتدون مرة بعد أخرى على الحجاج دون أن يستطيع الحسين بن على حيالهم شيئاً ، بل إن تفكيره لم يزد على تفكيرهم كثيراً .

وعندما أدخل العمال الأتراك خط سكة الحديد من القدس إلى مكة فالمدينة ، كان الحسين بن على يحرض الأعراب على تدمير القضبان والمحطات ، وقد رحبوا بذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن سكة الحديد ستسهل الحج على الحجاج وتوصلهم إلى مكة والمدينة آمنين ، فلا يستطيعون ابتزازهم وفرض الإتاوات عليهم ونهبهم ، ولم يكن تفكير الحسين بن على بأعلى من ذلك ، فقد كان يخشى أن سكة الحديد تسهل على الأتراك الوصول إلى الحجاز ومكة والمدينة ، وإنه لمما يدعو إلى التعجب ويثير الألم أن سكة حديد الحجاز التى أنشأها الأتراك قام بتدميرها الأعراب ، ومن ورائهم الشريف حسين .

وهذه أيضاً صورة من صور سوء التقدير ، فإن الحسين بن على كان فى حيرة دائمة من أمره لا يدرى إلى أى ناحية يميل ، مع أنه رسمياً موظف عثمانى صدر بتعيينه فرمان عثمانى بتاريخ أول نوفمبر ١٩٠٨ . وهو يتمنى أن يعلن استقلاله عن الدولة العثمانية ، ولكنه فى نفس الوقت يقود حملة على الإدريسيين أصحاب عسير ، ويخطب فى أبها مُذكِّراً الناس بأفضال العثمانيين عليهم .

وهنا نجد أن ابن سعود كان أوضح وأسلم نظراً من الشريف حسين ، فقد أدرك

بذكائه أن الأتراك لن يستطيعوا السيطرة على نجد أو مساعدة أهلها ، وأن الإنجليز لن يجرؤوا على دخول الجزيرة ، ولكنهم أقوياء وعندهم أموال وأسلحة ، فوقف على الحياد بين الأتراك والإنجليز طول الحرب ، بل إن الإدريسى صاحب عسير كان أسلم موقفاً من الشريف حسين ، فقد وقف على الحياد أيضاً ولكن فى المعسكر العثمانى . أما مبارك الكبير أمير الكويت فقد دفعه الخوف من العثمانيين من ناحية ومن ابن سعود من ناحية أخرى إلى طلب وضع بلاده تحت الحماية البريطانية ليضمن سلامة بلاده ، وقد رحبت بريطانيا بهذا الطلب وأدخلت الكويت تحت حمايتها لتستطيع مواجهة أى خطر ألمانى أو عثمانى على رأس الخليج .

وفى مثل تلك الحالة التى كان فيها الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية ، فإن أحسن ما كانت الوحدات السياسية الصغرى تستطيع عمله ، هو السكون والحذر والاجتهاد فى النجاة من الضوارى المتقاتلة ، فقد كان الصراع فعلاً صراع ضَوارٍ ، وانجلترا وفرنسا كانتا توَّاقتين إلى سحق ألمانيا والانقضاض على تركيا وتمزيقها وروسيا كانت فى حالة سيئة جداً ، وكل شىء كان يدل على أن ساعة القيصرية قد دنت ، وذلك لم يمنعها من التوغل فى بلاد ما وراء النهر والوصول إلى نهر جيحون .

وفى مثل هذه المعمعة ما عسى أن يستطيع الحسين بن على وأولاده ؟ ومع ذلك فقد ألقى الرجل وأولاده أنفسهم فى الميدان . وكان يدير المعركة ضد تركيا فى الشرق الأوسط السير هنرى مكماهون الذى أصبح مندوباً سامياً لبريطانيا فى مصر مكان كتشنر الذى عُيِّن قائداً عاماً للقوات البريطانية ، وانتدبوه فى مهمة للذهاب إلى روسيا التى انضمت إلى الحلفاء . وكان طريق بحر إيجة والمضايق التركية قد أقفل ، فذهب فى بارجة عن طريق بحر الشمال ، وهناك غرقت به البارجة فى نفس اليوم الذى أعلن فيه الحسين بن على الثورة على الأتراك .

وكانت انجلترا وفرنسا فى حالة سيئة جداً فى أوائل ١٩١٤ ، فإن الألمان على الجبهة الغربية كانوا فى عنفوان قوتهم ، أما على الجبهة الشرقية فكانت روسيا تتلقى هزيمة بعد هزيمة ، ولهذا فإن الشريف حسين بن على وابنه عبد الله لم يعرفا مقدار الفرصة التى أتاحاها لبريطانيا ، عندما عرضا فكرة ثورة عربية تكسر ظهر القوة التركية فى

الشرق الأوسط ، وتوقف خطر زحف الأتراك على مصر ، وكانت بريطانيا إلى جانب ذلك فى حاجة إلى أى نصر يرفع معنوياتها ومعنويات حلفائها . واللورد اسكويت رئيس الوزراء استقال ليحل محله جورج لويد السياسى الماكر ، وأخذ معه رجلاً ذا ميول يهودية هو آرثر جيمس بلفور وزيراً للخارجية .

وهنا كانت فداحة الخطأ الذى وقع فيه الشريف حسين وابنه عندما وافقا على إعلان الثورة على الأتراك ، وكانت فى الحقيقة ثورة هزيلة جداً لم يشترك فيها إلا أقل من ألفى جندى مسلحين بأسلحة بالية ، ومعظم هؤلاء كانوا سوريين وفلسطينيين ممن استهوتهم فكرة إقامة دولة عربية تشمل جزيرة العرب وبلاد الشام وربما العراق . وكان جمال باشا حاكم ولاية الشام ، ومن أكبر رجال حركة الاتحاد والترقى قد أحس خلال ١٩١٥ أن عرب الشام متمردون على العثمانيين ، فقبض على زعماء المتذمرين وشنقهم علناً فى دمشق فأثار ذلك ثائرة بقية أهل الشام ، وتشجع الملك حسين وابنه عندما تقاطر على مكة هؤلاء الغاضبون ومعظمهم كانوا فلسطينيين ، وهذا ما أثار غضب الأتراك ، لأن الدولة العثمانية لم تسىء قط إلى عرب فلسطين إلا بالقدر الذى كانت تسىء به إلى كل رعاياهم ومنهم الأتراك .

وهؤلاء الشوام - ومعظمهم فلسطينيون - هم الذين تحمسوا للثورة ، وأرسل الملك حسين ابنه فيصل ليكون مع أولئك الثوريين ، وهناك كوَّن لنفسه الحاشية التى ستقف إلى جانبه فى دمشق أولاً ، ثم فى بغداد .

وفى أثناء ذلك أدرك الجنرال هنرى مكماهون المغزى الذى يكمن وراء الثورة العربية على الأتراك ، ومنذ البداية وافق على مطالب القوميين العرب موافقة شكلية ، فلم يكن فى الحقيقة إلا استعمارياً بريطانياً ، وجد أمامه جماعة من المتحمسين والخياليين تملأ رؤوسهم - فى رأيه - خيالات وأوهام ، فوافقهم عليها حتى يُدْخِلهم الشَّرك ، وافق على تأييد قيام دولة عربية دون أن يلتزم بحدود ، بينما كان القوميون العرب يتمسكون بحدود واضحة لدولتهم : من أطنة ومرسين إلى جزيرة العرب ومن شرقى إيران إلى خط ممتد من رفح إلى العقبة . وقد أدرك العرب ما وراء تشجيع السير هنرى مكماهون لهم من خداع .

وهنا نعود إلى دزموند ستيوارت فنجده يقول - مصوِّراً الوضع فى الجانب العربى بالنسبة إلى فيصل بن الحسين والمترددين عليه : (ومن ضمنهم كثيرون من الضباط العرب فى الجيش العثمانى) « ومن هنا جاء التحول إلى الثورة فى سنة ١٩١٥ . ذلك بأن جمال باشا ، حاكم الشام العثمانى ، اكتشف خلايا انفصالية فى سوريا ولبنان ، فحاكم أعضاءها محاكمة سريعة وشنقهم فوراً وعلناً ، وأثارت جثث العرب المتدلية من المشانق العرب المترددين ، وجعلتهم يكفون عن اعتبار الأتراك إخوانهم فى الدين ، وما كان فكرة أصبح قضية تستحق أن يقاتلوا فى سبيلها ويموتوا » .

« لكن حتى حين ثارت العواطف من جهة ، وألحت الحاجة من جهة أخرى ، اشتدت المساومة بين العرب الذين وصفهم سترابو قبل ألفى سنة بأنهم تجار ، وبين البريطانيين الذين وُصِفوا مؤخراً بأنهم أصحاب متاجر ، وكانت المساومة تتعلق بالمنطقة التى على البريطانيين أن يعتبروها بعد الحرب دولة عربية مستقلة ، ويعترفوا بحدود هذه الدولة » .

قرر الشريف حسين أن يستثير العرب فى الشمال ، واتصل بأعضاء جمعيتين سريتين إحداهما مدنية والأخرى عسكرية ، تسعى كلتاهما للانفصال عن الأتراك . كان مبعوثه إلى دمشق ولده الثالث فيصل . أصر الشوام - والكلمة تشمل جميع أولئك الذين يعيشون فيما دُعِى فيما بعد سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن - وهذا الخطاب من رجل ، المفروض أنه محترم مثل الجنرال هنرى مكماهون يعطينا فكرة عن المستوى الأخلاقى الذى كان رجال الاستعمار مستعدين للهبوط إليه . فهذا كلام أفَّاق كذاب غشاش لا جنرال فى جيش وممثل دولة عظمى ، كتبه وهو يعرف أنه كذب خالص ليخدع به شيخاً جاهلاً بشؤون الدنيا ليخدعه ويُسخِّره لغاية حقيرة ، وهى خيانة أهل دينه وطَعْنهم فى الظهر أملاً فى سراب خادع . ونعود إلى دزموند ستيوارت ، فنقرأ كيف كان مكماهون يتصرف ، فقد قرر إرسال خطاب إليهم يشجعهم ويعدهم بإنشاء الدولة العربية التى كانوا يحلمون بها عن نية سيئة وخداع ، قال دزموند ستيوارت بهذا الخصوص :

« وافق القوميون العرب على قيدين لاستقلالهم : معاهدة دفاعية تربط الدولة العربية المقبلة ببريطانيا ، ومنح بريطانيا أفضلية فى هذه الدولة » .

« لم يكن ممثل بريطانيا فى القاهرة رجلاً قوياً متخفياً وراء « القنصل العام » الضعيف ، بل كان سير هنرى مكماهون المندوب السامى ، المسؤول عن محمية مصر الذى يمثل جيلاً يرى أن قيام الشعوب الملونة بحكم نفسها أمر لا يزال مستحيلاً ، ولذلك تردد مكماهون فى الموافقة على الأهداف الثورية البعيدة للقوميين العرب ، ولكن المأزق الحرج الذى كانت فيه بريطانيا ، جعل ما عُرِف « برسائل مكماهون » بين مكة والقاهرة شيئاً ممكناً ، تلك الرسائل التى منعت بريطانيا نشرها عشرات السنين . فى ذلك الوضع الحرج لجأ مكماهون فى مخاطبة الحسين إلى عبارات التبجيل كما يتضح من مقدمة أول رسالة بعث بها إليه :

« إلى السيد الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية ، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية ، السيد ابن السيد ، والشريف ابن الشريف ، السيد الجليل المبجل دولتلو الشريف حسين ، سيد الجميع ، أمير مكة المكرمة ، قبلة العالمين ، ومحطٌ رجال المؤمنين الطائعين عَمَّتْ بركته الناس أجمعين».

بيد أن الحسين الذى كان بائع سجاد بارعاً ، لم يَفُتْه إدراك المراوغة وراء هذا الحشو من الكلام . ذلك أن مكماهون ركز على حلم الحسين بالخلافة كى يتفادى مسألة الحدود . وقد عاتبه بقوله : « إن هدفنا ، أيها الوزير المحترم ، التأكد من أن الأحوال الضرورية لمستقبلنا يمكن ضمانها على أساس من الحقيقة لا العبارات والألقاب المنمقة » .

« فى ٢٤ أكتوبر ١٩١٥ أرسل مكماهون المذكرة التى حددت الشروط التى سيبدأ العرب بموجبها ثورتهم فى اللحظة الملائمة . أوضح المندوب السامى أولاً أن تردده الظاهر فى بحث مسألة الحدود (أشار إليها فى رسالة سابقة) « بالتفاصيل » إنما سببه شعوره بأن ذلك البحث لم يَحِنْ وقته ، لكن بما أن الحسين يعده أمراً جوهرياً ، فإنه مفوَّض من قِبَل حكومته البريطانية بإعطاء العرب بعض الضمانات » .

« تقول المذكرة : إن بريطانيا تتعهد بالاعتراف باستقلال العرب وبالدفاع عنه ، ضمن المنطقة التى حددها الشريف حسين مع بعض التحفظات التى يتعلق أهمها

بالأراضى فى آسيا الصغرى وسوريا وبالكويت ، الذى تربطه ببريطانيا معاهدة ، وحماية الأماكن المقدسة والاستعانة بالمستشارين البريطانيين ، ونوع خاص من الإدارة لمقاطعتى بغداد والبصرة » .

« حُدِّدت التحفظات الخاصة بآسيا الصغرى وسوريا فى الجملة المهمة التالية : إن مقاطعتى مرسين واسكندرونة ، وأقساماً من سوريا واقعة إلى الغرب من مقاطعات دمشق وحمص وحماه وحلب ، لا يمكن أن يقال إنها عربية صِرْفة ، ولذلك يجب أن تُستثنى من التخطيط المقترح » .

« كان سير مكماهون فى استثنائه مرسين واسكندرونة لا يفكر فى تركيا التى انتهت إليها هاتان المقاطعتان فيما بعد ، بل فى فرنسا حليفة بريطانيا ، التى كانت لديها خطط لهما . ثم إنه بتحديده الغامض لأقسام من سوريا غربى مقاطعات دمشق وحمص وحماه وحلب ، إنما كان يشير إلى المنطقة التى ليست لدى فرنسا خطط لها فحسب ، بل لها أيضاً ارتباطات قديمة بها منذ أيام لويس الرابع عشر ، وهو جبل لبنان الذى أكثرية سكانه من الموارنة المسيحيين الذين وإن كانوا يتكلمون العربية ليسوا من أصل عربى، الذين وإن كان الدين يربطهم بروما والتاريخ بفرنسا ، تمتع الموارنة فى متصرفيتهم ، بسبب تدخل الامبراطور نابليون الثالث باستقلال ذاتى ستين عاماً (قُضِى على هذا الاستقلال حين نشبت الحرب العالمية الأولى) . لم يذكر المندوب السامى فلسطين التى كان العرب تسعة أعشار سكانها ، ولو أنه أراد استثناءها من المنطقة العربية التى ستصبح مستقلة ، لأشار إليها باسمها التقليدى أو بوضعها العثمانى : النصف الشمالى جزء من ولاية بيروت ، والنصف الجنوبى متصرفية القدس».

« تم التوصل إلى اتفاق حول هذه الخطوط فى أوائل ١٩١٦ ، وبدأت الثورة فى يونيو . جاءت الثورة متأخرة . لو أن الانفصال العربى لقى تشجيعاً مبكراً ، وفى مناطق أكثر حساسية من الحجاز ، فى سوريا مثلاً الواقعة على حدود الأناضول الجنوبية ، لربما ألحق بالأتراك ضرراً أكبر . ذلك بأن معظم الجيش العثمانى الرابع فى دمشق كان من العرب ، وكان كثيرون من ضباطه فى الجمعية العسكرية السرية التى

كانت تعمل للانفصال عن تركيا . ولكن جمال باشا اكتشف فى سنة ١٩١٥ إلى أى حدٍّ كان الثوريون العرب يُضعفون معنويات رجاله ، فنقل الجنود العرب فوراً إلى غاليبولى حيث أحسنوا القتال ، وأحضر إلى سوريا مكانهم جنوداً يتكلمون اللغة التركية » .

« أما المنطقة الثانية فهى العراق - الذى كان مكتب القاهرة مهتماً به - وهو ولاية عثمانية أخرى أهم للأتراك من الحجاز . هنا ضُيِّعت الفرصة أيضاً . غزا العراقَ جيشٌ من الهند البريطانية ، وكان يُظَنُّ أن هذا الوادى الخاوى صالح للفائض من سكان الهند ، ولذلك كان قواد الجيش الغازى غير مضطرين إلى التسرع فى عرض الاستقلال على العراقيين ، كما كانوا ينتظرون أن يكون غزو العراق عن طريق البصرة نزهة ، أما الواقع فكان نشوب حرب طويلة ضارية وقف فيها العراقيون يراقبون » .

« كان ثمن الثورة بالنسبة إلى العرب غالياً فى المدى الطويل والقصير ، دفعوا جميعاً هذا الثمن ، مع أن أقل من عشرة بالمائة منهم اشتركوا فى الثورة . حتى فى الحجاز لم يكن الرأى العام وراء الحسين ، ولكن خروجه على الأتراك وما تبعه من فرار الضباط العرب وبعض الضباط الأكراد من الجيش العثمانى حطم ما تبقى من الفكرة العثمانية وفتح الطريق فى المدى البعيد إلى تركيا التركية . أما فى المدى القصير فإن جمال باشا قضى بقسوة على الذين شعر نحوهم بالازدراء الذى شعر به البريطانيون نحو الإيرلنديين الكاثوليك ، فعذب فى فلسطين العرب الذين افترض أنهم موالون لقضية الحلفاء وشنقهم ، وعَرّض لبنان الذى لا شك فى تعاطفه مع الغرب لمجاعة أودت (بناء على إحصاء قام به المبشرون الأميركيون) بنحو ربع سكانه أو ثلثهم » .

« كانت الثورة العربية ذات قيمة كبيرة للحلفاء ، ذلك بأن رَفْض أمير أقدس مدينة إسلامية للجهاد ، ساعد على منع حركة تمرد فى الجيش الهندى . ثم إن احتلال مكة وجدة اضطر الأتراك وحلفاءهم الألمان إلى إرسال الجنود والذخائر إلى الجنوب وإهمال خططهم الأخرى ضد قناة السويس . بدا عرب الحجاز فى نظر رونالد ستورس جبناء وغير منظمين . لا ريب أنهم كانوا يختلفون عن الجيوش الأوروبية ، ولا يعرفون شيئاً عن الفنون الحربية الغربية ، لأن خبرتهم كانت مقصورة على

الغارات البدوية التقليدية التى يزيد فيها الصراخ على القتل . يضاف إلى هذا أن المنازعات بين قبائلهم جعلت توحيدهم صعباً ، حتى إذا وُحِّدوا أصبح من الصعب قيادتهم وإبقاؤهم فى مكان واحد . ولكن قوتهم كأفراد واعتزازهم برجولتهم جعلاهم يبدعون فى نوع من القتال قام فيه الاندفاع والبراعة ، لا روح الفريق والانضباط ، بدور رئيسى . كانت قبائل الحجاز صورة لأبطال هذا القرن ، للمغاوير ورجال العصابات ، الذين ظهروا فيما بعد .

« كانت الثورة العربية ذات قيمة للحلفاء ، وخصوصاً لبريطانيا التى بالغت فى تقدير فتح جبهة جديدة فى بحر مجهول ، فجاءت الثورة مقوياً حين كانت المعنويات العامة منخفضة . إن نهوض أبناء الصحراء الشجعان لتأييد بريطانيا عوَّض من المذابح المستمرة فى الجبهة الغربية »[1] .

وليت الحسين بن على وأنصاره كسبوا فخر هذا العمل الذى قاموا به فى نظر الإنجليز والفرنسيين الذين قدموا إليهم - دون أن يتنبهوا - خدمة لا تقدر . « ذلك أن البطل الحقيقى لهذه المأساة كان - فى نظر الغرب - رجلاً إنجليزياً غريب الأطوار هو الكولونيل لورنس . كان مثله فى ذلك مثل الجنرال تشارلس جوردون الذى دفع حياته ثمناً لاستيلاء بريطانيا على السودان دون أن يكون هذا قصده . فإن الكولونيل لورنس نشأ ابن سِفاح من مربية إنجليزية عاشرت واحداً من كبار الملاك الإنجليز من أصل أيرلندى ، وبسببها هجر امرأته وبناته الأربع ، فخرج الولد إلى الدنيا دون مركز اجتماعى محترم ، وإن كان لدى أمه من المال ما أنفقت منه لتخريج ابنها ضابطاً . ثم ذهب إلى بلاد العرب مغامراً ، وهناك وجد مجالاً لولعه بالظهور بمظهر الشخصية العجيبة ، وقد زعم أنه معجب بالعرب والبدو وطريقتهم فى الحياة ، وما كان فى الحقيقة إلا استعمارياً كذاباً ، وقد تواترت أخباره إلى انجلترا ، وكذلك صوره فى ملابس عربية كان يتعمد أن تكون جميلة غالية الثمن ، كان قفطانه دائماً من الحرير الخالص ومن فوقه جبّة أنيقة من الصوف ويضع على رأسه عقالاً عربياً أحمر مذهباً ، وفى حزامه خنجر ذهبى . وكان ضابط مخابرات ، وكان رؤساؤه فى المخابرات

---

(١) دزموند ستيوارت ١٩٨ - ٢٠١ .

البريطانية يعطونه ما يريد ، وكان تأثير الذهب الذى كان يوزعه على فقراء البدو كبيراً ، أما كبار العرب فقد زعم لهم أنه مسلم مبغض للإنجليز ، وكان يتكلم عربية غير صحيحة ، ولكنه بدا على أى حال للأمير عبد الله بن الحسين وأخيه فيصل وسيلة جيدة للاتصال بالإنجليز » .

وإنما لجأتُ لنقل تلك الفقرة الطويلة من مؤلف غربى هو دزموند ستيوارت لأننى أردت أن أُقرِّب القارىء قدر المستطاع مما يمكن أن يكون حقيقة ما جرى . ونحن هنا نتتبع تصاريف الأمور مع أسرة عربية هاشمية ، ألقت بنفسها فى بحر لا تحسن السباحة فيه ، ولا هى قد رأت أعماقه ، فكانت النتيجة ما رأيت من العواقب الوخيمة التى يمكن أن تنتج عن قلة التدبر ، فإن حركة الحسين بن على وأولاده لم تأت الذين قاموا بها بجزء ولو ضئيل من الآمال التى علَّقوها عليها .

وإذا قلنا : إن الأمر انتهى آخر المطاف بتتويج فيصل ملكاً على العراق فى ٢٣ أغسطس ١٩٢١ بعد إخراجه من دمشق ، وإعلان عبد الله أميراً على ما عُرِف إذ ذاك بشرق الأردن ابتداء من أبريل ١٩٢١ بصورة مؤقتة ، ثم نهائية فى مايو ١٩٢٣م ، فإن نظرتنا إلى ما سُمِّى بالثورة العربية لا ينبغى أن تقف عند هذا الحد ، بل علينا أن نستطرد مع الأحداث لتكتمل لدينا صورة هذه الثورة وما أدت إليه ، ففى يوليو سنة ١٩٢٢ قرر مؤتمر الصلح الأوروبى فى سان ريمون وضع فلسطين والأردن تحت الانتداب البريطانى .

ومن ذلك الحين يبدأ فى الحقيقة إنشاء إسرائيل ، وقد أشرنا فيما سبق إلى أن بريطانيا كانت تتفاهم مع الصهيونية العالمية على جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود ، وفى النهاية أصبحت إسرائيل هى معضلة العرب الكبرى ، وهى نتيجة مباشرة لهذه الخطوة الخاطئة التى خطاها الحسين بن على ، لأن تركيا لم يكن قد انقطع الرجاء فيها ، والجنرال الألمانى ليمان فون ساندرز استطاع بالفعل أن يعد نواة جيش تركى تشترك فيه فرق عربية ، وفى معارك جاليبولى فى سنة ١٩١٥ تمكَّن قائد تركى تتلمذ على يد ليمان فون ساندرز من إحراز انتصار عظيم على الإنجليز والفرنسيين ، وهذا القائد هو مصطفى كمال الذى كان إلى ذلك الحين لا يسىء الظن بالعرب . وكان جمال باشا فى

بلاد الشام يستطيع على الأقل أن يهدد مركز الإنجليز فى مصر باستمرار. وكل شىء كان ممكناً أن ينزل بالإنجليز والفرنسيين قبل التدخل الأمريكى فى الحرب العالمية الأولى ، وروسيا كانت فى وضع سىء جداً أمام الألمان على الجبهة الشرقية .

وهنا ، فى ذلك الظرف قام الحسين بن على بحركته فهدم الجبهة التركية الشرقية هدماً ، وتبين الأتراك أن العرب هم سبب الهزيمة ، ورجل مثل مصطفى كمال نفض يده من العرب من ذلك الحين ، وكان لذلك نتائجه الوخيمة ، وترددت على ألسنة الأتراك عبارة « عرب خيانت » أى : خيانة العرب . وهكذا – وإرضاءً لمطامح حفنة من العرب وأوهام حفنة من الخطباء المتحمسين على منابر دمشق دفع العرب – كل العرب – ثمناً باهظاً ولا زالوا يدفعونه . و٥ يونيو ١٩١٦ كان دون شك يوماً مشؤوماً ، ففى ذلك اليوم غرق كتشنر ببارجته فى البحر الشمالى ، واجتمع ١٥٠٠ جندى من العربان وأطلقوا النار على الحامية التركية فى جدة ، وأعلن الحسين بن على الثورة على الأتراك، وهجمت قوة عربية على المبانى الحكومية فى جدة . وتقدمت قطع من الأسطول البريطانى وأطلقت القنابل على الميناء مساعدة للحلفاء العرب ، وتلك هى بداية ما سماه « أمين سعيد » بالثورة العربية الكبرى .

لقد تقاسمت فرنسا وانجلترا ميراث الدولة العثمانية فى البلاد العربية (عدا الجزيرة) ، وحوَّلتها إلى مستعمرات تحت أسماء شتى ، وتربع أحد أبناء الحسين بن على ملكاً على العراق ، وأصبح ابن ثانٍ هو عبد الله أميراً على شرق الأردن وكلاهما تابع لبريطانيا ، أما سوريا فقد أصبحت مستعمرة فرنسية وإن كان وضعها الرسمى أنها بلد تحت الانتداب ، أما لبنان فقد احتلته فرنسا تحت نفس الاسم ، وبدأت تُحدِث فيه تغييراً جوهرياً ، وهذا التغيير أصبح فيما بعد من أكبر مشاكل لبنان : تقديم الأقلية المارونية على بقية طوائف السكان واختصاصهم بالتعليم والعناية ، وإفهامهم أنهم ليسوا عرباً ، بل فينيقيون كاثوليك لا ينتمون إلى عالم العرب بل إلى عالم الغرب ، وظن الموارنة أن ذلك فيه خير كثير لهم ، ولم يفطنوا إلى أن ذلك سيجعلهم فى يوم ما فى وضع شاذ غير مقبول ، لا قومياً ولا عقلياً ، فإن الأمور تتجه دائماً بطبعها إلى التوازن، ولا يصح فى النهاية إلا الصحيح ، وإلى يومنا هذا يعانى لبنان من هذا الوضع غير الطبيعى الذى فرضته فرنسا ولا تزال تؤيده .

ومع ذلك ، وباستثناء ما فعلته فرنسا بلبنان - فقد تبين مع الزمن أن الاستعمار مرض قابل للشفاء ، أما البلية العضال فهى ما حدث لفلسطين ، فإن اليهود كانوا فى ذلك الحين ، أى أثناء الحرب العالمية الثانية قد أحسوا أن فرصة تحقيق حلم تيودور هيرتسل قد حانت ، فالإنجليز فى حالة يُرثى لها من الإفلاس والإرهاق ، وأى معاونة من الماليين اليهود كان لها تأثيرها ، وكانت البيوت المالية الصهيونية قد بلغت درجة خطيرة من القوة نتيجة للمتاجرة فى السلاح وإقراض المال لدول الحلفاء بأسعار عالية.

وتنبَّه إلى ذلك صهيونى واسع الذكاء هو حاييم وايزمان ، وهو روسى من مواليد مدينة مينسك ، وكان يتقن الروسية والألمانية والعبرانية والبديشية (إلى جانب الإنجليزية والفرنسية) ولكن ميله إلى الثقافة الألمانية كان عظيماً ، مثله فى ذلك مثل أفراد أكبر كتلة يهودية فى أوروبا ، هى كتلة يهود ألمانيا . وكان يهود روسيا أكثر عدداً ولكنهم كانوا فى وضع سيىء بسبب نفور الروس منهم واضطهادهم إياهم ، وقد تعلم حاييم وايزمان فى سويسرا ، واتصل أثناء تعليمه بكل الماليين اليهود فى أوروبا واتصل بصهيونى أمريكى خطر هو لويس براند آيس مستشار الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون .

وعندما أصبح لويس براند آيس رئيساً للمحكمة العليا فى الولايات المتحدة سنة ١٩١٦ ، وهى ثالث وظيفة كبرى فى الإدارة الأمريكية ، أصبح فى وضع يمكنه من التأثير بصورة مباشرة فى السياسة الأمريكية ، اتصل به حاييم وايزمان ، وبدأ الاثنان العمل مشتركين مع بقية يهود أوروبا فى تحقيق الحلم الذى كان تيودور هيرتسل قد مات دونه ، وهو إنشاء دولة إسرائيلية فى فلسطين ، وبإيعاز من حاييم وايزمان وافق اللورد بلفور على مسودة تصريحه المشؤوم فى ١٨ يوليو ١٩١٦ ، واشترك فى المؤامرة رجال بنوك : روتشيلد ، ولوسيان رولف ، وكلود مونتفيورى ، وسير ماتيو ناتان ، وصمويل مونتاجيو ، وكلهم من كبار الماليين ، وانجلترا باعت فلسطين لليهود لقاء المال .

وفى ٢ نوفمبر ١٩١٧ صدر تصريح بلفور ، وما كان من الممكن إصداره أبداً أيام

السلطان عبد الحميد الثانى ، لأن هذا الرجل الذى يحمل عليه العرب حملة ظالمة رفض أن يمنح اليهود أى حق فى فلسطين ، عندما عرض عليه ذلك تيودور هيرتسل عن طريق وسيط صهيونى يسمى نفلسكى فى سنة ١٨٨١ ، وكانت تركيا إذ ذاك غارقة فى الديون ، إذ قُدِّر دينها بمبلغ ١٠٦ ملايين من الجنيهات الذهبية ، وقد عرض مالى يهودى وهو صمويل موناجيو أن تتولى البنوك اليهودية معاونة تركيا للتخلص من ديونها فى مقابل أى تصريح من السلطان يعطى اليهود الحق فى الهجرة إلى فلسطين واستيطانها بجماعات كبيرة ، وكان حاييم وايزمان وأخوه صمويل متلهفين على ذلك لكى يُخلِّصوا يهود روسيا من الوضع الذى كانوا فيه .

ويقول وايزمان فى مذكراته : إن السلطان لو كان وافق لأطلقت روسيا فى السنة الأولى مليون مهاجر صهيونى إلى فلسطين ، ولكن السلطان رفض ، وجاء رفضه وثيقة كافية لرفع مقام هذا الرجل فى أعيننا ، قال لنفلسكى : إذا كان هيرتسل صديقك بقدر ما هو صديقى فانصحه ألاَّ يتقدم خطوة أخرى فى هذا الشأن . لا أستطيع أن أبيع قدماً واحدة من البلد ، لأنه ليس ملكى بل ملك شعبى ، لقد حاز شعبى هذه الدولة وغذاها بدمه ، وسنغطيها مرة أخرى بدمائنا قبل أن نسمح بتمزيقها . لقد قدَّمت فرقتان من مقاتلى سوريا وفلسطين تضحية كبرى وقاتلتا معنا دفاعاً عن بلفنا ، وهلك رجالهما إلى آخر رجل دون أن يتراجع واحد منهم أو يستسلم، بل ماتوا جميعاً دفاعاً عن دولتهم . إن الشعب التركى هو مالك هذه الدولة لا أنا . لا أستطيع التخلى عن جزء منها ، ويستطيع اليهود أن يوفروا أموالهم . حين نقسم الدولة قد يأخذون فلسطين مقابل لا شىء ، لكن الآن لن نقسم إلا جثتنا لأننى لن أسمح أبداً بتشريحنا أحياء » .

وهذه العبارة - التى تعين فى الحقيقة موقفاً - تنطق بأن سلالة أورخان وعثمان - مهما حدث لها كانت سلالة نبيلة ، وهى أقرب إلى الروح التركية التى نعرفها من كل مواقف مصطفى كمال ، لأن مصطفى كمال لم يحرر فى النهاية إلا أرض الأناضول من الاستعمار، وكل بلاد الدنيا - التى هى أقل من تركيا - تحررت مع الزمن من الاستعمار ، لأن الاستعمار كان مرضاً له ظروفه ، وعندما زالت الظروف زال . أما

الماضى التركى الجليل الذى ازدراه مصطفى كمال وألقى به إلى الأرض فى سبيل مظهر من التفرنج ، كانت له أهميته الكبرى للشعب التركى ، ويكفى أن اليونان - وهى دولة من أصغر بلاد أوروبا حجماً - تستقل عن تركيا ولا ترضى بأن يكون أتراك قبرص مثلاً فى وضع اليونان فيها ، مع أن قبرص أولاً وآخراً أرض تركية ، وإنْ سكنتها أعداد كبيرة من اليونانيين ، ومن فجر الإسلام إلى معاهدة برلين ١٨٧٨ لم تخرج قبرص إلا فى النادر عن أرض الإسلام .

الذى يهمنا هنا هو أن نذكر أن مأساة فلسطين - إلى حد بعيد - نتيجة لما سُمِّى بالثورة العربية الكبرى ، وهى فى جملتها مظهر من مظاهر انعدام التقدير الذى ذكرناه عند العرب أوائل القرن العشرين . وإننا لنقرأ الآن أخبار إقامة دولة فيصل فى سوريا وما أحيطت به من حماس ساذج ، ثم دولته فى العراق التى لم يحكمها فى الحقيقة منذ قيامها إلى زوالها فى يوليو ١٩٥٨ إلا رجل واحد كردى الأصل هو نورى السعيد درس العسكرية فى المدرسة الحربية فى الآستانة فيما بين سنتى ١٩٠٨ و١٩١٢ ، ثم درس فى كلية الأركان هناك حتى سنة ١٩١٥ ثم اشترك فى الحرب البلقانية ، وفى سنة ١٩١٦ انضم إلى فيصل بن الحسين فى دمشق ، ثم فى بغداد . نورى السعيد تسلم فيصل من الكولونيل لورنس الذى كانت أوروبا تسميه صانع الملوك . ولكن مغامرة إنجليزية أخرى تسمى جرترود بل زعمت أنها هى التى صنعته ، وكتبت مرة من بغداد إلى أحد أصدقائها فى لندن تقول إنها لن تشترك بعد ذلك فى صنع الملوك ؛ لأن ذلك عمل شاق . وهكذا أصبحنا مضغة فى فم هذه السيدة .

* * *

ومرة أخرى أقول : إننى وقفت هنا هذه الوقفة الطويلة لأن هذه هى المرة الأولى التى نعرف فيها إلى درجة لا بأس بها من الدقة ، مدى الأضرار التى ارتكبها بناة الدول فى تاريخنا لكى يحوزوا الملك على حساب خسائر فادحة للشعب العربى . وإذا كنتَ من الذين يتألمون بسبب وجود الكتلة الإيرانية وسط الجناح الشرقى لدولة الإسلام ، وما ترتب على ذلك من الأضرار للأمة العربية على طول تاريخها ، فاعلم أن المسؤولين عن ذلك ليسوا هم الإيرانيون بل العرب ، لأن الإيرانيين كانوا قد

استعربوا إلى حد بعيد قرب نهاية الدولة الأموية ، ولغتهم الإيرانية كانت فى طريق الاختفاء .

ولكن البيت العباسى عندما دبر مؤامرة الاستيلاء على الحكم من الأمويين ، اختار أن يبث دعايته فى عرب خراسان ، وعلى رأس الدعاة وضع رجلاً فارسياً مجهول النسب مبغضاً للعرب ، هو أبو مسلم الخرسانى ، وهذا الرجل ضرب العرب بعضهم ببعض بتوجيه من إبراهيم بن على بن عبد الله بن عباس المعروف بإبراهيم الإمام . وأبو مسلم سخر من العرب واستعان عليهم برجال من الفرس ، مثل خالد ابن برمك وآل سهل ، وفوق المائة ألف عربى – كانوا نواة التعريب فى إيران – غادروا مواقعهم فى خراسان وما وراء النهر واتجهوا إلى الشرق ليقيموا دولة بنى العباس . وإيران خلت من هذه الكتلة العربية الضخمة ، وهى خميرة التعريب فتوقفت العملية وبدأت إيران تعود إيرانية .

وأسطورة أبى مسلم والفرس الذين أقاموا الدولة العباسية رفعت معنويات الفرس ، وثقة بنى العباس فى وزرائهم الفرس واعتمادهم على الجند الفارسى ، ثم تصفيتهم لمن أبقى عليه سيف أبى مسلم من العرب أعطى الدولة العباسية طابعاً فارسياً . ونواة التشيع الصغيرة تمت فى إيران حتى أصبحت ورماً خبيثاً ، واللغة الإيرانية انتعشت بفضل العرب والإسلام وظهر شعراء الفرس يؤججون هذه النار ، واللغة الفارسية أصبحت اللغة الغالبة على الجناح الشرقى لدولة الإسلام ، حتى سلاطين مغول الهند كتبوا بالفارسية .

والدولة الإسلامية العربية التى كانت قوية متقدمة على ضفاف البحر المتوسط أصبحت دولة آسيوية يسودها آسيويون ، وكانت مهمة الدولة الإسلامية الأولى هى إزالة الدولة البيزنطية من الوجود ليفتح الطريق أمام الإسلام إلى أوروبا والعناصر الصقلية ، فتأخر ذلك إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى ، وتم على يد الأتراك بعد فوات الأوان ، فقد كانت الدولة البيزنطية قد قامت بمهمتها التاريخية الكبرى قبل أن تزول .. ونشرت الإسلام بين الروس الصقالبة وأهل شرق أوروبا ، وتحدد بذلك مصير دولة الأتراك العثمانيين قبل أن تقوم .

ولنذكر إلى جانب ذلك أن غرب الدولة الإسلامية كله ظل سنياً ، ثم لقد استعرب بفضل هجرات العرب وخاصة بنو هلال وبنو سليم بن منصور الذين قدّموا لأمة الإسلام خدمة لا تُقدَّر ، ولولاهم لما كان لدينا ذلك المغرب العربى الزاهر السنى الخالص .

وقبل أن نترك دولة شرفاء الحجاز وما تفرع منها لابد أن نضيف أن الله عوضنا عن أخطاء الشرفاء الأول ، باعتدال ميزان الدولة الهاشمية فى الأردن منذ ١٩٥٢ عندما صار عرش المملكة الأردنية الهاشمية إلى الملك حسين بن طلال بن عبد الله بن الحسين . فهناك قام ملك هاشمى واسع العلم والثقافة والأفق السياسى يسوس مملكته الهاشمية بحكمة ، ويقودها وسط بحر متلاطم من العواصف فى مواجهة مصاعب لا تُتصور . وهنا نجد صورة جميلة من الهاشمية القرشية التى وصلت إلى أواخر القرن العشرين بسلام ، بعد أن مرت بأزمات ومهالك ومضانك كما رأيت فيها قصصنا من تاريخ أشراف مكة . هنا شهادة صادقة بعبقرية قريش وقدرتها على مغالبة الأيام . وفى الفصل التالى عن دول الشرفاء فى المغرب الأقصى سنرى مصاديق أخرى على هذه العبقرية القرشية الهاشمية .

دُوَل الشرفاء فى المغرب الأقصىٰ ؛ السّعديّون وَالعَلوَيون :

تاريخ الشرفاء السعديين والعلويين الذين توالوا على حكم المغرب الأقصى وبعض المغرب الأوسط فى بداياته أشبه بالقصة أو الأسطورة فى بداياتها ، ولكنها أسطورة جميلة لا بأس بقبولها ، ومن الأسف أن مؤرخى المغرب فى نهايات القرون الوسطى ومطالع الأعصر الحديثة - فى جملتهم - مداحون متزلفون يصعب جداً أن نقبل كلامهم على علاته . وقد نشر فى السنوات الأخيرة نص « مناهل الصفا فى تاريخ الشرفا » للقشتالى ، فأعاننا كثيراً على تبيُّن خيط الحوادث ، واستطعنا أن نصحح به الكثير مما كان يحيرنا من كلام اليفرنى فى « نزهة الحادى » ولكن دليلنا الرئيسى هنا هو كتاب « الاستقصا فى معرفة دول المغرب الأقصى » لأحمد بن خالد بن حماد الناصرى السلاوى الذى يعتبر بحق من أكابر أعلام مؤرخى المغرب (٢٢ ذو الحجة ١٢٥٠ - جمادى الأول ١٣١٥هـ/ ٢٠ أبريل ١٨٣٥ - ١٣ أكتوبر ١٨٩٧م) . خاصة وهو يعتمد فيها كتب من تاريخ الشرفاء على مصدر إسبانى لا بأس به ، هو كتاب :

Manuel. P. Castellanos, Descripcion historia de Marruecos y breve resena de sus dinastras (Santiago 1878, Orihuela 1894, Tanger 1898)

ومانويل كاستيانو كان مندوباً إسبانياً يتردد فى السفارات على بلاد المغرب ، فأتقن العربية وعرف شئون المغرب الأقصى ، ووضع فيه هذا الكتاب الذى يقع فى ثلاثة مجلدات ، طُبع كل منها فى بلد من بلاد إسبانيا كما نرى فى بيان سنوات طبع أجزائه . والسلاوى هنا ربما كان من أوائل مؤرخينا الذين اعتمدوا فى مؤلفاتهم على مراجع غير عربية .

والذى يهمنا هنا هى بدايات السعديين والعلويين وأصلهم الشريف ، لأننا نؤرخ لقريش لا لهاتين الدولتين الكبيرتين فى جملته ، لأن تاريخهما حافل ، ومراجع ذلك التاريخ كثيرة جداً فى اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، لأن المغرب العربى جغرافياً - امتداد للغرب الأوروبى وواجهته الأطلسية ، ثم واجهته المتوسطية جعلت تاريخه دائماً متداخلاً فى تاريخ الغرب الأوروبى ، وذلك فى ذاته ميزة لطيفة من ميزات التاريخ المغربى عموماً .

والأسرتان السعدية والعلوية الفلالية أبناء عمومة فهما ترجعان إلى محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وأصلهما من أشراف الحجاز ، وكلاهما من بيت من الأشراف كان ينزل قرب ينبع .

ونسب الأسرتين طويل وواحد حتى نصل إلى محمد بن القاسم بن محمد الذى أنجب أولاداً كثيرين منهم اثنان ، أحمد بن محمد وقاسم بن محمد ، فأما أحمد فهو جد الشرفاء السعديين ، وأما قاسم بن محمد فهو جد الشرفاء العلويين . ويبدو أن البيت هاجر إلى المغرب فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) فى أعقاب هجرة العرب الهلالية واستقرار بطونهم فى المغرب كله بعد حروب ومغامرات وتصاريف طويلة ، ومن فروع بنى هلال التى استقرت فى جنوبى المغرب الأقصى بنو حسان وعرب المعقل من بنى هلال ، وهؤلاء الأخيرون استقروا فى حوض نهر درعة وأنشأوا لأنفسهم فيه وطناً ، وتوافد عليهم العرب من نواحى المغرب ومن جزيرة

العرب ، ومن المرجح أن هجرة الأشراف تمت من ينبع إلى بلاد عرب المعقل ، ربما فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى وظلوا فى موطن واحد لا نعرفه حتى افترقوا بعد وفاة محمد بن القاسم بن الحسن . فأما أحمد - وأولاده أجداد السعديين - فقد استقروا فى بلاد السوس عند تارودانت على وادى درعة ، وأما أبناء قاسم بن محمد فقد استقروا فى سجلماسة التى تُعرف أيضاً ببلاد تافلالت ، ولهذا يُلقَّبون بالفلاليين .

وكانت بلاد المغرب كله قد تعرضت للغزو البرتغالى والإسبانى ابتداء من القرن السادس عشر الميلادى بعد سقوط غرناطة كما سنرى . واحتل البرتغاليون مراكز على السواحل المغربية الأطلسية ، ومما احتلوه أغادير أو رأس غير ومن هناك هددوا مراكش ، وكان الوطاسيون قد عجزوا عن الدفاع عن جنوب المغرب ، فتجمعت قبائل جنوبى المغرب الأقصى تحت لواء واحد من أحفاد أحمد بن محمد بن القاسم ، وهو محمد بن محمد بن عبد الرحمن الذى نهض لمدافعة البرتغاليين واستطاع هو وحلفاؤه تحرير أرض المغرب من العدوان الأوروبى ، ولهذا سبقوا أبناء عمومتهم أحفاد قاسم بن محمد بن القاسم الذين استقروا فى سجلماسة حتى ساءت أحوال المغرب الأقصى خلال القرن السابع عشر الميلادى وتقاسم السلطان فيه رجال زاوية بو حسون السملالى ، وكانوا تنظيماً صوفياً سياسياً يسيطر على جنوبى المغرب الأقصى فى بلاد السوس وتافلات وما حولها ورجال زاوية الدلاء أو الديلة ، وكانوا أصحاب السلطان على منطقة وادى سبو ، فى حين أن بقايا الوطاسيين كانوا يحكمون منطقة مراكش .

وكان ظهور السعديين وتوليهم السلطان فى المغرب فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى ، وقد حكموا من سنة ١٥٥٣ إلى ١٦٥٤ ميلادية ثم أعقبهم العلويون الفلاليون الذين يحكمون المغرب إلى اليوم .

وقد تمتع آل البيت فى المغرب كله بجاه دينى واجتماعى عظيم ، وخاصة فى المغرب الأقصى منذ أيام الأدارسة . وقد أتمت دولة المرابطين الصنهاجية ثم دولة الموحدين المصمودية عمل الأدارسة فى القضاء على بقايا الزندقة والمذاهب المنحرفة عن السنة فى

المغرب الأقصى .. وفى أواخر أيام الموحدين دامت دولتهم من أوائل القرن السادس الهجرى إلى الربع الأخير من القرن السابع الهجرى (القرنان الثانى عشر والثالث عشر الميلاديان) كانت بلاد المغرب كلها قد تحولت إلى بلاد سنة وإيمان صحيح ، وقد انتهت دولة الموحدين سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م . عندما دخل أبو محمد عبد الحق بن أبى خالد محيو بن أبى بكر بن حمامة بن محمد الحرينى مدينة مراكش .

وجدير بالذكر أن اللَّذيْن أسسا دولة الموحدين وهما محمد بن تومرت الهرغى وعبد المؤمن بن على الكومى ادعيا نسباً شريفاً حسنياً ، ومع أن هذه النسبة ظاهرة الاختلاق ، فإن نسب كليهما فى المصامدة عريق ومعروف ، إلا أن ذلك الانتساب فى ذاته يدل على ما كان النسب الهاشمى القرشى يتمتع به من جاه عظيم فى ذلك الجانب من عالم الإسلام .

وكان بنو مرين الذين خلفوا الموحدين بربراً زناتيين مستعربة وقد حكموا المغرب، وحاولوا إنقاذ ما بقى من الأندلس بالمساهمة فى الجهاد فى الأندلس وإرسال قوة من الغزاة وفى أيامهم ونتيجة للصراع الطويل بين صنهاجة وزناتة ثم بين صنهاجة ومصمودَ من ناحية ، وزناتة من ناحية أخرى ، ثم مع العرب الهلالية الذين انتشروا فى المغرب كله على نطاق واسع ، وأنشأوا لأنفسهم فيه أوطاناً واسعة فى كل ناحية من نواحى المغرب تقريباً ، نتيجة لذلك كله ضعفت الروح القبلية البربرية فى المغرب ضعفاً زائداً ، وعجز بنو مرين عن بسط سلطانهم على المغرب الأوسط ، وفى نواحى السوس استبدت قبيلة هنتانة المصمودية بالسلطان المحلى ، وسيطر عرب المعقل على وادى أم الربيع ، فى حين سيطر بنو حسان من عرب المعقل من بنى هلال على وادى درعة ، وتكاثروا فيه وأصبحوا قوة يُحسب لها كل حساب .

وفى ذلك العصر اشتد هجوم البرتغاليين والإسبان على سواحل المغرب بعد سقوط غرناطة وتصفية الوجود السياسى الإسلامى فى الأندلس سنة ٩٧٨هـ/ ١٤٩٢م .

فأما الإسبان فقد ثبَّتوا أقدامهم فى طنجة وسبتة ومليلة والقصر الصغير أو قصر ماسة فى شمال المغرب الأقصى ، أما البرتغاليون فقد تزايد خطرهم على سواحل

المغرب الأطلسية ، وفى سنة ١٤٧١م استولوا على سبتة وبعد ذلك وفى نفس السنة استولوا على أصيلا والعرائش وأغاروا على القصر الكبير ، وقبل ذلك بسنتين استولوا على آنفا وهى الدار البيضاء . وفى سنة ١٥١٣م استولوا على آزمور ، وبعد ذلك بسنة استولوا على مازاغان ، وفى سنة ١٥١٩م استولوا على ثغر العجوز ، وكانوا قد استولوا على ثغر أغادير سنة ١٥٠٥م ، وعلى ثغر ماسة جنوبى المغرب الأقصى سنة ١٤٩٨م . وفى كل بلد من هذه البلاد أنشأوا قلعة تسمى الفرونتيرة fronteiras وضعوا فيها حامية وأنشأوا سوقاً ، ومن ثغر أغادير أخذوا يتوغلون فى الداخل حتى وصلت طلائعهم حوز مدينة مراكش .

وقد عجز المرينيون عن مدافعة أولئك الغزاة النصارى ، وكان العصب القبلى قد ضعف فى المغرب نتيجة للصراعات التى ذكرناها ، واحتاج أهل المغرب إلى روح معنوى جديد يرفع من قواهم ، وإلى لواء يجتمعون حوله ليدفعوا عن بلادهم هذا الخطر المتزايد .

فأما القوة المعنوية فقد وجدوها فى الطرق الصوفية وخاصة الشاذلية والقادرية وما تفرع منها مثل التيجانية والجزولية ، قد لقيت قبولاً عظيماً من الناس ، فتجمع أهل المغربين الأوسط والأقصى تحت لواء مشيخات الطرق الصوفية التى حلت محل العصبيات القبلية ، وفى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى انتشرت الزوايا الصوفية فى كل بلاد المغربين الأوسط والأقصى ، وقام على رأس كل زاوية مُقدَّم يتبعه عدد من الإخوان ، وكانوا فى نفس الوقت طلاباً وجنداً . وشعر سلاطين بنى مرين فى أواخر أيامهم بالخوف من الصوفية فدبروا مقتل الشيخ الجزولى ، فقتل ودُفِن فى شيشاوة بالمغرب الأقصى ، فأثار هذا الحادث شعور الصوفية بالعداء نحو المرينيين ومن ناحية أخرى تزايد الخطر البرتغالى ، وتبين أن بنى مرين من الوطاسيين عاجزون عن حماية دار الإسلام .

فى ذلك الحين كانت أسرة الأشراف الحسنيين التى انحدرت عن أحمد بن قاسم التى ذكرناها قد استقرت فى بلاد السوس وبدأت تجمع الأنصار ، وهذه هى أسرة الشرفاء السعديين الذين ينسبهم القشتالى مؤرخ البيت السعدى إلى رجل من شرفاء

الحجاز يسمى محمد بن سعد ، فى حين يذهب خصومهم إلى القول بأنهم يسمون السعديين نسبة إلى بنى سعد بن بكر ، لأنهم فيما قيل من أحفاد حليمة السعدية مرضعة الرسول ﷺ ، ولكننا نرجح أنهم شرفاء من ناحية ينبع كما قلنا ، وقد استقروا فى السوس وقضوا زماناً طويلاً قبل أن يظهر أمرهم .. وقد ذكرنا نسبهم فيما سلف ولا معنى لإنكار أصلهم الهاشمى الحسنى .

وكان عجز المرينيين قد تجلى للناس وسيطر عليهم بنو وطاس وخاصة يحيى بن أبى زكريا الوطاسى . وفى مايو ١٤٦٥ قُتل آخر سلاطين المرينيين وتولى الأمر أول الوطاسيين وهو محمد الشيخ ، ولكن سلطانه لم يتعد موقع فاس .

ولكن الوطاسيين أثبتوا أنهم ليسوا خيراً من المرينيين ، فقد تقدم البرتغاليون بجيش من ٣٠,٠٠٠ مقاتل جاؤوا على ظهر ٤٧٧ سفينة واحتلوا أصيلا فى مايو ١٤٧١م ، وعقد معهم محمد الشيخ صلحاً ، وفى ٢٩ أغسطس ١٤٧١ ، احتل البرتغاليون طنجة وأنشأوا فى أصيلا وطنجة القلاع المسماة فروتنيرات ، وأنشأوا فى دواخل البلاد وكالات Feitories يقيم فى كل منها وكيل feitar على رأس حامية ، وكانت الوكالة تغير على الأراضى المجاورة وتأسر الناس وتنهب أموالهم وترغمهم على بيع القمح والجلود والأصواف بأبخس الأسعار . وكانت الغارات البرتغالية تتوغل فى الداخل إلى عمق ٣٠ كيلو متراً ، ولم يلبث إقليم دكالة كله أن أصبح خاضعاً لهم ، وضوى إليهم بعض ضعاف الزراع والرعاة فوضعوهم تحت حمايتهم واستخدموهم وسموهم العرب المسالمة moros de la paz وكان البرتغاليون يستخدمون أسرى المسلمين فى بناء القلاع وحمل البضائع .

هذه المهانة الكبرى للإسلام وأهله أثارت عواطف الناس وزادتهم يأساً من المرينيين والوطاسيين وجعلتهم يتجهون بآمالهم نحو الصوفية وشيوخهم .

وفى السنة التى قُتِل فيها آخر المرينيين وهى ١٤٦٥م . حدث شىء يشبه الإرهاص باتجاه الحكم فى المغرب الأقصى إلى الشرفاء . ذلك أن الناس اكتشفوا فى وليلى مدفن المولى إدريس وهو إدريس الأول ، مؤسس بيت الأدارسة فأبقوه مكانه وأقاموا عليه

ضريحاً ، واستيقظت فى البلاد كلها دعوى الشرفاء وتفاءلوا بهم خيراً فى الظروف العصيبة التى كانت البلاد تمر بها ، ولكن أمير بنى وطاس تمكن من اقتحام فاس على الإمام الإدريسى .

فى ذلك الحين كان محمد بن سعد الملقب بالقائم بأمر الله أو بالمهدى قد كسب ثقة واحد من أكبر مشايخ الصوفية فى السوس وهو سيدى عبد الله المبارك ، فنادى به قائداً لحركة الجهاد فى منطقة السوس ، وتجمع الناس حوله فأنشأ قوة عسكرية كبيرة وسار إلى الشمال فترك إقليم حاحة وتجمع حوله أهله من العرب والبربر ، فوضع لهم نظاماً قبل أن يُتوفى سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م . فى بلدة أفغول . كانت دولة الشرفاء السعديين قد تأسست ، وخلفه ابناه أحمد الأعرج ومحمد الملقب أيضاً بالمهدى ، واتخذا مركز أعمالهما فى تارودانت عاصمة السوس وأعلنا الجهاد على البرتغاليين الذين كانوا يسيطرون على ميناء آنفا وهى الدار البيضاء وما يجاورها جنوباً من بلاد الساحل ، وتزايدت جموعهما ، فخالفهما صاحب مراكش ، ولم يلبث هذا الأمير أن قُتِل فقام رجال السعديين بإعلان أحمد الأعرج سلطاناً على مراكش وإقليمها .

وهكذا قامت دولة جديدة قرشية هاشمية هى دولة الشرفاء السعديين فى بلد له تاريخ قديم فى الولاء لآل البيت منذ أيام الأدارسة ، وقد قامت الدولة الجديدة على العصب الدينى وعلى حاجة الناس الماسة إلى زعيم سياسى دينى يستطيع قيادتهم فى تحرير بلادهم من الاحتلال البرتغالى الصليبى . وجدير بالذكر هنا أن البرتغاليين والإسبان كانوا قد تشجعوا على غزو بلاد المغرب بتأييد وتحريض من البابا ، الذى أباح لهم حرب أهل المغرب والاستيلاء على بلادهم وتحويلها إلى بلاد نصرانية ليتموا بذلك ما بدأوه فى الأندلس .

وبدأ السعديون فى مقاومة البرتغاليين وقائدهم نونيو ماسكارينياس Nunho Mascarenhas وقد حاول بقايا الوطاسيين منافسة السعديين ولكن سلطانهم الأخير محمد الملقب بالبرتقالى ، قُتِل سنة ١٥٢٥م فانتهت بذلك الدولة الوطاسية وخلا الميدان للسعديين .

وقد تعرضت دولة السعديين أول قيامها لمتاعب جمة ، فخاضت صراعاً طويلاً مع

بقايا الوطاسيين ، ثم تعرضت لصراع داخلى بين الأخوين أحمد الأعرج ومحمد المهدى، وقد انتصر أحمد الأعرج وتوفى سنة ١٥٥٧م وخلفه ابنه مولاى عبد الله الغالب بالله (١٥٥٧ - ١٥٧٤م) الذى حكم المغرب الأقصى كله رغم مطامع البرتغاليين من ناحية والأتراك العثمانيين أصحاب تلمسان والمغرب الأوسط من ناحية أخرى ، وقد جعل عبد الله الغالب مراكش عاصمته ، وبذلك عادت قاعدة القطر المغربى إلى مراكش بعد غيبة ثلاثة قرون .

ولكن أخاه عبد الملك الذى خلفه هو الذى كسب لأسرة الشرفاء السعديين أكبر نصر خلد ذكرها فى صفحات التاريخ ، هو نصر وادى المخازن الذى كسبه أبو مروان عبد الملك بن محمد المهدى بن عبد الله بن سعد ، وكان أميراً مغامراً ، هاجر إلى الترك طالباً نصرتهم على أخيه عبد الله ، فى حين هاجر أخوه الثانى محمد المتوكل إلى الإسبان ثم البرتغاليين طالباً عونهم للحصول على العرش ، وهكذا نرى كيف أن المُلْك والوصول إليه كانا دائماً الداء الأكبر الذى آذى دول المسلمين .

وقد تمكن محمد المتوكل من إقناع الملك سباستيان ملك البرتغال من أسرة آفيس بإرسال جيش معه لانتزاع العرش من يد أخيه أبى مروان عبد الملك ، فأعد هذا الملك جيشاً نصرانياً فيه سبعة آلاف مقاتل برتغالى وألفان من الإسبان وعدد من فرسان الإنجليز والإيطاليين ، ونزل ذلك الجيش فى ميناء القصر الكبير ، وتقدم للقائه عبد الملك السعدى مع قوات من الأتراك وجيش قوى من العبيد وهم القوة العسكرية التى أنشأها السلطان السعدى الغالب بالله واعتمد عليها ، لأن قوات المرابطين والصوفية تخلت عنه بسبب تحالفه المستمر مع الإسبان .

وفى ١٥٧٨م دارت معركة حاسمة من معارك تاريخ الإسلام فى واد قريب من نهر لوكوس يسمى وادى المخازن ، اشترك فيها سان سباستيان ملك البرتغال ومحمد المهدى المطالب بعرش المغرب ، والملك أبو مروان عبد الملك السعدى قائد جيوش المسلمين ، فأما ملك البرتغال فقد قُتِل ، وأما محمد المهدى فقد غرق ، وأما عبد الملك الذى كسب نصر معركة وادى المخازن فقد كان على فراش الموت ولم يمهله القدر حتى يسمع أنباء النصر الذى كسبه . وكانت تلك المعركة التى تسمى عند المسلمين

بمعركة وادى المخازن ، وعند البرتغاليين باسم معركة الملوك الثلاثة ، نهاية لكل مطامع البرتغاليين فى أرض المغرب والمسلمين .

وبذلك كانت نجاة ذلك القطر الإسلامى العظيم من شر الاحتلال النصرانى فى الربع الأخير من القرن السادس عشر الميلادى على يد سلطان قرشى هاشمى ، فى حين أن نجاة المغرب الأوسط (وهو جمهورية الجزائر الحالية) من شر الاحتلال الإسبانى فى نفس العصر ، قد تمت على أيدى الأتراك العثمانيين . وجنى ثمار النصر أحمد بن عبد الملك الذى لُقِّب بالمنصور الذهبى (١٥٧٨ - ١٦٠٣م) . وهو أبعد ملوك هذه الأسرة صيتاً وأشهرهم . وقد حصل من هذه المعركة على غنائم كبيرة ووقع فى يده أسرى كثيرون فداهم أهلهم البرتغاليون بذهب كثير ، ثم حاول أحمد المنصور الذهبى غزو مملكة صنغَى المدارية الإسلامية وكسب من ذلك ذهباً كثيراً أيضاً - ومن هنا فقد سُمِّى بالذهبى - ولكن المحاولة نفسها كانت سيئة النتائج للمغرب ولإفريقية المدارية الإسلامية .

وقد ارتفع صيت السعديين فى أوروبا عقب هذا النصر ولم تَعُدْ دول الغرب تفكر فى غزو المغرب ، وأرسلت السفراء إلى مراكش والقناصل لموانىء الغرب ، واشتهر أحمد المنصور بالغِنَى وكثرة الذهب فلُقِّب كذلك بالذهبى .

وقد بلغت دولة السعديين أَوْجَها فى عصر أحمد المنصور الذهبى (١٥٧٨ - ١٦٠٣م) الذى يعتبر من أعاظم ملوك المغرب ، وكان سلطاناً طموحاً فيه لمحات من العبقرية تذكرنا بالعظماء من ملوك قريش أمثال : معاوية بن أبى سفيان ، وعبد الملك ابن مروان ، والوليد بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك ، وعبد الرحمن الداخل ، وعبد الرحمن الناصر ، وأبى جعفر المنصور ، وهارون الرشيد ، وأبى عبد الله المأمون ، والمعز لدين الله الفاطمى ، فكان واسع الطموح متجدد النشاط ميالاً إلى الفخامة والولع بمظاهر العظمة الملوكية ، وقد كان يبهر سفراء الغرب الأوروبى بما يبدى من مظاهر بذخه وجلال عرشه واستقبالاته ، ولكنه يخيب رجاءنا فى نفس الوقت بسياسة العنف التى اتبعها مع أهل بلده ، وسوء رأيه فى بعضهم واتجاهه إلى استغلاب أهل الوديان ومن يستطيع التغلب عليهم من أهل ما سماه بلد المخزن ، أى البلاد التابعة

للحكومة واعتباره بقية بلاد المغرب من الجبال العالية وأهلها أهل خروج عن الطاعة، وتسميته بلادهم ببلاد السيبة وإعلانه الحرب عليها ، ويحيرنا فى أمره كذلك هذا الأسلوب العنيف القصير النظر الذى اتبعه فى غزو بلاد السودان وهى مملكة صُنْغَى .

عاش أحمد المنصور الذهبى فى القرن السادس عشر ، ولكنه حكم بلاده بأسوأ مما حكمها به أعراب زناتة وبنى يفرن ، فقد اكترى جيشاً رهيباً من المرتزقة واشترى ألوف العبيد وصنع منهم قوة إرهاب لا قوة حكم ، وتصرف فى أموال بلاده – وهى أموال الأمة – تصرُّف السفيه وخرب مملكة إسلامية لا ذنب لها وهى مملكة صُنْغَى لكى يحصل على تبر الذهب ، وحصل عليه ثم أنفقه فى شر الوجود ، وأرهب رعيته وسامها الخسف ، ورعيته هم شعب المغرب الأقصى ، وهم من أعز خلق الله حمية وعزة وكرامة ، وجبى الأموال فى غير رحمة حتى أصبحت تسمى بالنوائب والضريبة أصبحت تسمى نائبة ، وهذه كلها حقائق ينبغى أن أنبه إليها وأنا أعلم أن بعض المثقفين من أهل المغرب الأقصى لا يحبون هذا الكلام ، لأنهم لا زالوا يجهلون أن الحقائق وحدها هى التى تنفع ، ومع ذلك فأنا هنا أؤرخ لقريش لا للمغرب ، فأنا أكشف حقائق الحكم فى عصر ملك قرشى أتيحت له فرصة من ذهب فأحالها إلى تراب ، وبهر الدنيا بمنظره وذهبه ، وأتعس أمته بظلمه وغروره وسوء فهمه لطبيعة الإسلام ومذاهبه فى الحياة وأمور الناس .

على أى حال يمكن القول إن ظروفه كانت عسيرة ، ولم يحاول من جانبه أن يفهم طبيعة العالم الغربى الذى واجهه وحالف بعض بلاده وحارب بلاده الأخرى . ولو تنبه أحمد المنصور الذهبى إلى ركائز قوة الغرب من علوم وأسلحة وبحريات وسياسات دولية ووضع نظام بلاده على هذا الأساس ، فربما كان طليعة ملوك الإسلام فى مواجهة الغرب الأوروبى بأساليبه ، وفى هذه الحالة كان المغرب يكون فى طليعة بلاد الإسلام فى مواجهة الغرب والأخذ بأسباب القوة الحديثة ، فقد حكم المنصور فى عنفوان عصر النهضة الأوروبية ، وإسبانيا فى أيامه لم يكن لها من القوة ما تواجه به المغرب ، وفرنسا كانت غارقة فى الحروب الدينية . وانجلترا كانت مستعدة

لمحالفته وتبادل المنافع معه للاستعانة به على عدوتها فرنسا . أى : أنه لو تدبر أمره بعقل وحكمة لكان من أكابر رجالات الدنيا فى أيامه .

ولكن هكذا كان ، وضاعت الفرصة . وما أكثر الفرص التى ضيَّعها العرب والمسلمون فى تاريخهم . ولم يكد أحمد المنصور الذهبى يتوفى سنة ١٦٠٣م . حتى قامت الحرب بين أبنائه الثلاثة : مولاى زيدان الذى أعلن نفسه سلطاناً فى فاس ، وأبى فارس الذى أعلن نفسه فى مراكش ، والشيخ المأمون وهو فى الأصل كان ولى العهد ولكنه أحرج صدر أبيه بنزواته وثوراته فسجنه . وقد استمرت الحرب بين الإخوة سبع سنوات ، حتى خلص الأمر لمولاى زيدان فى مراكش وحدها وحكم من ١٦١٣ إلى ١٦٢٨م حكماً مضطرباً قلقاً حافلاً بالثورات والمآسى .

ولقد استولى الإسبان على العرائش سنة ١٦١٠م ، وأقاموا قلعة عند مصب نهر سبو لكى يمنعوا سفن المغرب من الخروج إلى عرض البحر للتعرض لسفن أهل الغرب وقد سمى الإسبان هذه القلعة باسم سان ميجيل دى أولترامار San Miguel de Ultramar وسماها أهل المغرب بالمعمورة ، وهى اليوم المهدية . وعلى أثر ذلك هبت الجماعات الصوفية فى كل مكان فى المغرب منادية بطرد المعتدين النصارى ، وبان لها كلها عجز البيت السعدى عن حماية البلاد ، وانتقلت القيادة إلى الجماعات الصوفية.

ففى إقليم تافلالت وعاصمته سجلماسة فى جنوب البلاد ظهر شيخ صوفى يسمى بامحلى تبعه صوفيون محاربون كثيرون ، واتخذ مركزه فى وادى سَوْرَة حوالى ١٦٩٣ وسار نحو سجلماسة واستولى عليها وعجز مولاى السلطان زيدان عن التصدى له ، وتقدم فعبر الجبال بجموعه ودخل مراكش ووجد مولاى زيدان نفسه عاجزاً عن الثبات أمامه ، فاستعان عليه بزعيم صوفى آخر يسمى يحيى بن عبد الله الحاص وتمكن هذا الأخير من اقتحام مراكش وقتل المحلى ، وظل الحاص فى مراكش حتى قام عليه سنة ١٦٢٧ شيخ صوفى أكبر وأقوى وأشهر وهو أبو الحسن السملالى المعروف بأبى حسون وأصله من ماسة . وقد أنشأ هذا الرجل فى بلاد السوس إمارة صوفية ومدَّ سلطانه على جنوب الأطلسى ، وظل سيداً لنواحى جنوبى المغرب حتى قيام دولة الشرفاء العلويين .

أما فى شمال المغرب فقد سادت الفوضى ، إذ تنازعت السلطان فيه ثلاث قوى : الأولى : هى بقايا قوة السعديين فى فاس وسلطانهم عبد الملك بن زيدان السعدى ، والثانية : جماعة مهاجرى الأندلس الذين نزلوا مصب نهر أبى الرقراق وأنشأوا فى حوضه دويلة قاعدتها رباط الفتح ، وهؤلاء المهاجرون كانوا من بين مسلمى الأندلس الذين طردهم ملك إسبانيا فيليب الثالث بين سنتى ١٦٠٩م و ١٦١٤م ، وكان أصل هذه الجماعة التى نزلت عند رباط الفتح ببلدة تسمى فى النصوص الإسبانية بأندلس سلا وإلى جوارهم كانت جماعة من غزاة الأسبان أصلهم من بلدة تسمى اورانشو Hornacho فى إقليم الجوف الأندلسى المعروف باسم استرامادورا Estramadura أى الناحية بالغة الجفاف ، ولذلك عُرِفوا باسم الأرناشيروس ويسمون فى النصوص باسم نصارى الجديك ، وقد رحب بهم مولاى زيدان وابنه عبد الملك من بعده ، حاسبين أنهما يجدان فيهم جنداً يستعينان بهم فى حروبهما ، ولكن أولئك الموريسكيين لم يكن لهم هَمٌّ إلا محاربة نصارى الجديك .

وعندما ألح عليهم مولاى زيدان فى ضرورة معاونته عسكرياً تمردوا عليه ووقعت الحرب بينه وبينهم ، وظهر من بين الصوفية زعيم قوى هو أبو عبد الله العياش ، تجمع إليه المجاهدون وساد فاس وسيطر عليها وتجرد هذا الرجل لحرب النصارى ، وتمكن من الاستيلاء على بعض قواعد الإسبان حتى قُتِل فى حربه للموريسكيين النازلين بسلا المعروفين بأندلس سلا . وكان هؤلاء قد استجاشوا بنفر آخر من الصوفية يسمون أهل زاوية الدلاء نسبة إلى موقع زاويتهم الأساسية « دلاء » فى إقليم تادلا شرقى فاس . وإقليم تادلا جبلى سكانه من البربر ، ولهذا يسمى أهل زاوية الدلاء ببربر الدلاء .

وبعد موت العياشى فى المحرم سنة ١٠٥١هـ ، أصبح السلطان فى فاس وتادلا وحوض نهر سبو لأهل زاوية الدلاء ، ومؤسس زاويتهم هو الشيخ أبو بكر بن محمد المعروف بحيى بن سعيد بن أحمد بن عمر بن يسرى المجاض ، ثم خلفه ابنه وكان من كبار أهل الطريق ، وقد شهد له بالكرامات أعلام الصوفية فى عصره مثل : الحافظ أبى العباس المقرى ، والحافظ أبى العباس بن يوسف الفاسى ، والإمام أبى محمد بن

عباس ، والفقيه العلامة أبى عبد الله محمد مياره . وقد عَظُم أمر أهل زاوية الدلاء وعجز عن محاربتهم السلطان محمد الشيخ بن زيدان السعدى حتى زال سلطانه تقريباً أمامهم .

ظهُور الشُرفاء العَلَويّين :

وبينما كان أمر السعديين فى هبوط وزوال بدأ صعود نجم جماعة جديدة من الأشراف العلويين الحسنيين ، هم الأشراف العلويون وأصلهم من أشراف الحجاز ومن مدينة ينبع كذلك . وقد ذكرنا أنهم أبناء عمومة السعديين ، ومن الممكن أن يكون أجدادهم قد وفدوا إلى المغرب الأقصى فى نفس الوقت الذى وفد فيه السعديون فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، وربما فى القرن الذى تلاه ، ونزلوا ناحية تافلالت خلال القرن الثانى عشر أو الثالث عشر الميلادى ، وظلوا يعيشون وسط قبائل العرب والمغاربة هناك غير ناظرين إلى مُلْك أو رياسة ، حتى دفعتهم ظروف تدهور السعديين إلى ذلك دفعاً . وكانوا طوال تاريخهم فى نواحى تافلالت يتمتعون بمكانة مرموقة ، فكانوا شرفاء يحترمهم الناس لنسبهم الشريف ، وكانوا أهل دين وعلم وعقل وحكمة ، فلا عجب أن كانوا رؤساء أهل سجلماسة وتافلالت علماً ومكانة وشرفاً .

وأول مَنْ يُذكر من كبار رؤسائهم فى النصوص المولى محمد بن الشريف السجلماسى . وقد قضوا زماناً طويلاً فى مهدهم الجديد فى تافلالت حتى كسبوا صيتاً بعيداً واشتهروا بالدين والشهامة والعلم وأصبحت لهم رياسة على إقليم تافلالت وتجمعت حولهم قوة عسكرية ، ودارت مكاتبات بين شيخهم محمد بن الشريف السجلماسى والسلطان محمد الشيخ بن زيدان السعدى ، وتمت بينه وبين شيوخ العلويين السجلماسيين مهادنة ، فالسعديون فى مراكش وما حولها إلى الساحل والفلاليون فى تافلالت ونواحيها ، أما حوض نهر سبو أى منطقة فاس وما يليها غرباً وشمالاً ، فكانت أولاً تحت سلطان أهل زاوية أبى عبد الله العياشى ثم صارت إلى أهل زاوية الدلاء ، أما السواحل فكان معظمها بيد الإسبان فى حين أن مناطق الجبال كلها تقريباً كانت بلاد سيبة ، أى : بلاد تنفرد بها قبائلها دون طاعة لسلطان .

ومعنى ذلك أن بلاد المغرب فقدت وحدتها السياسية واحتاج الأمر إلى من يجمع شملها ، وقد ضعفت دولة السعديين ضعفاً زائداً أيام السلطان أبى العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان . وقد قتله أخواله من عرب الشبانات من عرب المعقل ، وعلى أثر ذلك استولى على السلطان فى مراكش الرئيس عبد الكريم بن القائد أبى بكر الشباني ثم الحريزى رئيس عرب الشبانات المعروف بكرّوم الحاج لفترة قصيرة ، ثم عاد السلطان فى مراكش بعدها إلى السعديين .

وفى أثناء ذلك توفى المولى محمد بن الشريف العلوى الفلالى وخلفه ابنه محمد بن محمد ، وكان أهل زاوية الدلاء يبسطون سلطانهم على جزء من سجلماسة ، فجمع مولاى محمد بن محمد الشريف العلوى رجاله وأزاح رجال زاوية الدلاء عن سجلماسة سنة ١٦٣٨م ، ولم يستطع الامتداد شمالاً أو غرباً فاتجه برجاله شمالاً بشرق واستولى على وجدة وأخذ يغاور ناحية تلمسان ، ومن هناك حاول الاستيلاء على فاس ، وكان أهلها قد ضاقوا بأهل زاوية الدلاء ، ولكنهم لم يستطيعوا التغلب على الدلائيين سنة ١٦٤٩م واضطروا إلى العودة إلى تافلالت .

ولكن ابنه مولاى الرشيد كان أحسن حظاً ، فقد تجرد لحرب أهل زاوية الدلاء وتمكن فى يونيو ١٦٦٦م من دخول فاس حيث أعلن نفسه سلطاناً ، وبهذا قامت الدولة العلوية الشريفة معتمدة على قوة عسكرية منظمة ، وقد انضم الشرفاء الأدارسة إليه ، وتمكن من تخليص منطقة فاس من أهل زاوية الدلاء . وفى سنة ١٦٦٨م تمكن من الاستيلاء على زاويتهم الرئيسية وتدميرها ، ثم دخل مراكش فى السنة التالية ١٦٦٩م ، وقضى على قوة عرب الشبانات وأنهى دولة السعديين وتغلب كذلك على أهل زاوية السوس أتباع أبى الحسن السملالى ، وبذلك يكون السلطان الرشيد أول العلويين الفلاليين قد تمكن من إعادة توحيد الوطن المغربى فيما عدا منطقة الريف وما يليها شمالاً .

وفى هذه الفترة وأثناء صراع طويل بين الفرنسيين والإنجليز تمكن الإنجليز من الاستيلاء على صخرة جبل طارق سنة ١٦٦١م ، بعد زواج ملكهم شارل الثانى من الأميرة كاتارينا وريثة عرش البرتغال ، فصارت له صخرة جبل طارق وراثة ، وبهذا

يبدأ احتلال الإنجليز لها . وقد طال الصراع بين الرشيد والشيخ أعراس رئيس قبائل الريف وشمال المغرب الأقصى ، وتحالف الشيخ أعراس مع الفرنسيين ليستعين بهم على الشريف الرشيد وأعطاهم مركزاً تجارياً فى المزمة وهى الحسيمة ، وتسمى عند الفرنسيين باسم اليوزيم ، وتمكن السلطان رشيد من بسط سلطانه على الشمال وتوحيد المغرب الأقصى . وكان مقام السلطان رشيد مراكش وفيها مات على أثر سقوطه من على جواده سنة ١٦٧٢م ، وكانت سنه لا تجاوز الثانية والأربعين ولكنه تمكن من إقامة دولة الشرفاء العلويين الفلاليين الذين لا يزالون يحكمون المغرب إلى اليوم .

وقد قام أخوه وخليفته مولاى إسماعيل بتثبيت دعائم هذا الملك . وحكم مولاى إسماعيل طويلاً من سنة ١٦٧٢م إلى ١٧٢٧م ، واشتهر أمره سلطاناً قوياً نشيطاً جليل الهيئة ، وقد طار صيت مولاى الشريف العلوى فى أوروبا وفرنسا خاصة حتى قيل إنه كان على وشك أن يتزوج إحدى بنات ملك فرنسا . وقد أصبح السلطان إسماعيل أسطورة عند الغربيين ، فقد كان رجلاً ضخماً طوالاً عريض المنكبين تزيده ملابسه ضخامة هيئة ومنظر ، وكان سريعاً إلى الغضب والحركة ، ويقال إنه كان يقتنى ٥٠٠ امرأة من بينهن إنجليزية وفرنسية ، أنجب منهن فيما يقال ٧٠٠ ولد . لكنه على أى حال حمى حوزة بلاده وأنشأ قوة عسكرية عظيمة ، واستعاد من الإسبان كل المواقع التى كانوا يحتلونها على الساحل الغربى المغربى وخلَّص المغرب من الفوضى وقضى على سلطان أصحاب الزوايا .

وقد اعتمد مولاى إسماعيل على قوة مدربة من العبيد السود ، كان يستجلبهم من السودان الغربى ويحسن تدريبهم فى مركز كبير فى مشرع الرمل بين سلا ومكناس . وكان الواحد منهم إذا أتم تدريبه أقسم على البخارى بالإخلاص ولهذا فقد سُمُّوا البخاريين أو البواخر . وكان له منهم ١٥٠,٠٠٠ رجل، منهم ٧٥,٠٠٠ يقيمون بصفة دائمة فى مشروع الرمل و٢٥ ألفاً فى مكناس ، وكانت المقام المفضل لمولاى إسماعيل ، ويعتبر مولاى الشريف إسماعيل من أجلاء ملوك المسلمين ، وهو يقف على مستوى واحد مع أعاظم حكام المسلمين خلال العصر الأخير من عصور القوة

الإسلامية أى خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، من أمثال : السلطان أكبر، وإسماعيل الصفوى ، ومحمد الفاتح ، وسليم الأول ، وسليمان القانونى ، وقد واجه كل المصاعب التى أحاطت بالمملكة المغربية ببسالة وثبات وتصميم وتمكن من إخراج الإنجليز من طنجة واستعادة الشاطىء الأطلسى للمغرب ، وواجه الأتراك العثمانيين سادة الجزائر فى عصره وحمى حوزته ، وإن صعبت عليه استعادة سبتة ومليلة والحسيمة من الإسبان (على ساحل البحر المتوسط) ومازغان من البرتغاليين على شاطىء الأطلسى ، هذا إلى جانب توحيده الكامل لبلاده والقضاء على استقلال بلاد السيبة ، ووضع حداً لإفساد أهل الحرابة الذين كانوا يقطعون الطرق ويقلقون الأمن ويروعون الناس ويؤذونهم ، وقد قضى عمره متنقلاً بجيوشه من غرب بلاده إلى شرقها ، ومن شمالها إلى جنوبها . ونثر فيها الحصون والقلاع وشَكَّها بالمقاتلة ، فأمنت السبل واطمأن الناس ونعمت البلاد بالرخاء .

ولكن مولاى إسماعيل كان بالغ الغاية فى الاستبداد ، فهو لا يستشير ولا يُشار عليه ، والشىء يخطر بباله فينفذه فى الحال ، ويغضب فيجهل على الناس وقد يقطع الرقاب ، وهذه صفة نجدها - على درجات متفاوتة من الظهور - عند الكثيرين من أكابر ملوك القرشيين والمسلمين من أمثال : أبى جعفر المنصور ، وعبد الرحمن الناصر الأندلسى ، وظهير الدين باير ، وجلال الدين أكبر ، والسلطان سليم الأول العثمانى ، والظاهر ركن الدين بيبرس ، ويبدو أن كثرة المشاغل والأخطار وتوالى الأعداء تنزع من قلوبهم الرحمة والصبر وطول البال والإحساس بآلام الناس ، وأخبار مولاى إسماعيل فى ذلك كثيرة . وقد لاحظ عليه هذه الظاهرة الكثيرون من سفراء الفرنسيين الذين زاروه ، ولكنه على أى حال حمى حوزة بلاده ووحَّد دولته ورفع هيبة السلاطين فى المغرب بعد طول ضعف وتدهور واستخفاف ، والدول فى تلك العصور ربما كانت تحتاج إلى مثل هذه الصفات .

وهذا الملك القرشى الهاشمى الهمام كان معاصراً للويس الرابع عشر ، فقد حكم من سنة ١٦٧٢ إلى ١٧٢٧م . وحكم لويس الرابع عشر من سنة ١٦٣٨ إلى ١٧١٥م ، وتشابه الرجلان فى الاستبداد والاعتزاز بالملك واتساع النشاط ، ولكن مولاى

إسماعيل يفضُل لويس الرابع عشر فى كثير ، فإن كل حروب مولاى إسماعيل كانت دفاعاً عن بلاده وحوزتها ووحدتها ، بينما كانت كل حروب لويس الرابع عشر حروبَ غرور وعدوان وخيلاء ، وقد خسرت فرنسا والفرنسيون من جراء ذلك خسائر فادحة ، ومهما نقول فى اعتزاز مولاى إسماعيل بنفسه ومُلْكه وسلطانه فقد سَلِم من ذلك الغرور المقيت الذى ينفر الإنسان من لويس الرابع عشر، وبينما كان لويس الرابع عشر جامداً كالصخرة ، كانت فى مولاى إسماعيل رقة تبدو عليه إذا هادنته الأيام وصَفَتْ نفسه ، وقد أنشأ الكثير من المساجد والمدارس ، ومرجع ذلك كله إلى الإسلام والهاشمية .

وكما بدأ لويس الرابع عشر فى إنشاء قصور فرساى كان مولاى إسماعيل صاحب الفضل فى تعمير مكناس وإنشاء عمائرها البديعة وأسوارها السامقة وبواباتها التى تعتبر من مفاخر العمارة الإسلامية ، ولا زالت مكناس إلى يومنا هذا بموقعها ورياضها وحدائق زيتونها (مكناس الزيتون) تبهر أعيننا وتُذكِّرنا بمولاى إسماعيل . وهذه هى ثانى مدينة عظيمة يعمرها القرشيون الهاشميون فى المغرب الأقصى : الأولى : فاس الأدارسة ، والثانية : مكناس العلويين ، وكلتاهما من مفاخر حضارة الإسلام .

وإلى هذا الأساس المكين الذى وضعه مولاى إسماعيل لدولة الشرفاء العلويين ، يرجع الفضل فى بقاء هذه الدولة القرشية الهاشمية إلى يومنا هذا واحدة من أعاظم دول الإسلام ، وثانية الدولة الهاشمية التى لا زالت تمثل قريشاً فى عالمنا الراهن . ولقد طال عمر هذه الدولة - ويطول إن شاء الله - وتعاقبت عليها صروف الدهر وتقلبت عليها السنون بين سعود ونحوس ، ويكفيها أنها صمدت لمحنة الاحتلال الفرنسى وأخرجت منه القطر المغربى سالماً على يد ملك قرشى هاشمى وبطل من أبطال التحرير العربى الإسلامى هو مولاى محمد بن يوسف المعروف فى حوليات الإسلام المعاصر بمحمد الخامس . وفى سبيل حرية بلاده نُفِى إلى مدغشقر ثم عاد منتصراً لكى يجمع شتات شعبه ويستكمل استقلال بلاده ويفتح فى تاريخه عصراً جديداً زاهراً من التقدم والازدهار ، ويخلفه فى القيادة ابنه الحسن بن محمد بن يوسف وهو الحسن

الثانى ، وهو رمز من رموز وحدة شعبه ، وعَلَم من أعلام التقدم والنهوض فى عالم العرب .

وعلى ذكر هؤلاء الملوك الثلاثة القرشيين الهاشميين : الحسين بن طلال ملك الأردن ، ومحمد بن يوسف ، وابنه الحسن الثانى بن محمد مَلِكَىْ المغرب نقف بهذا البحث عن قريش فى التاريخ ، بدأناها وقريش قَبِيلٌ صغير منحدر من فلسطين فى ثنايا قبيلتها الأم كنانة من قبيل إلياس بن مضر قبل البعثة المحمدية ربما بسبعة قرون أو ثمانية ، فقد دخلت مُضَر كلها الجزيرة فيمن دخلها مع أولاد إسماعيل عليه السلام فى موجة العرب المستعربة ، وتتبعنا تاريخها منذ ظهورها على مسرح الأحداث من أيام فهر بن مالك بن النضر بن كنانة إلى عصرنا هذا خلال ما يزيد على ستة عشر قرناً ، ورأينا كيف استطاعت هذه القبيلة أن تغالب الأحداث : تعلو حيناً وتهبط حيناً آخر ، تطفو على سطح الماء حيناً وتغوص حيناً ، ولكنها لا تغرق قط بفضل الحيوية النابضة فى كيانها وقدرتها على مغالبة الفناء ، ونبهنا فى كل حين إلى أسباب الصعود وأسباب الهبوط .

وانتهينا إلى أيامنا هذه ، حتى وقفنا عند الدولتين الكبيرتين الباقيتين لقريش : دولة الهواشم الحسنيين فى الأردن ، ودولة الشرفاء العلويين فى المغرب الأقصى ، ووقفنا عند محمد الخامس والحسين بن طلال والحسن بن محمد ، وهم من عترة رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله ورحمته المهداة ، وعند ذكر أولئك الثلاثة من ملوك عصرنا نقف بهذا الحديث الذى طال ، قصصنا فيه قصة - قريش - أصغر قبيلة فى التاريخ ، التى جعلها الإسلام ورسوله ﷺ أعظم قبائل التاريخ .

هنا نقف بالحديث عند ذكر المصطفى - صلوات الله عليه - وحفيديه الحسن والحسين ، وهو أجمل ما نقف عنده ، فقد كتب الله لقريش البقاء على الأيام بفضل محمد صلوات الله عليه والحسن والحسين ، وهل هناك ختام مسك هو أجمل من ذكر المصطفى صلوات الله عليه وسبطيه الشهيدين ريحانتى أهل الجنة ؟

* * *

مصادر الكتاب

أولاً : مصادر عربية :

- ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى (ت ٦٥٨هـ) :

أ) اعتاب الكتاب ، بتحقيق صالح الأشتر ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م .

ب) الحلة السيراء ، بتحقيق د. حسين مؤنس .

- الأبشيهى ، شهاب الدين محمد بن حمد بن أبى الفتح (ت ٨٥٠هـ) :

المستطرف فى كل فن مستظرف - جزءان ، المطبعة التجارية الكبرى (بدون تاريخ طبع) .

- ابن الأثير ، أبو الحسن على بن أبى الكرم الجزرى (ت ٦٣٠هـ) :

أ) أُسْد الغابة فى معرفة الصحابة - ٧مجلدات ، كتاب الشعب - القاهرة ١٩٧٠م .

ب) الكامل فى التاريخ - ٩أجزاء ، المكتبة المنيرية بالقاهرة سنة ١٣٤٩هـ .

- الإدريسى ، أبو عبد الله محمد اللواتى الطنجى (ت ٥٦٠هـ) :

نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ١٥٠ جغرافيا).

- أرنولد ، توماس :

أ) الخلافة ، ترجمة جميل معلى ، دار اليقظة بدمشق ١٩٤٦م .

ب) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين ، مكتبة النهضة

المصرية - الطبعة الثانية سنة ١٩٤٧م .

- **الأزدى ، أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم (ت ٩٤٥هـ) :**

تاريخ الموصل ، تحقيق على حبيبة ، دار التحرير للطبع والنشر ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

- **الأزرقى ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٥٠هـ) :**

أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار - جزءان ، دار الأندلس (بدون تاريخ طبع) .

- **الإسفرائينى ، أبو المظفر (ت ٤٧١هـ) :**

التبصير فى الدين وتمييز الفرق الناجية عن الفرق الهالكين ، تحقيق : محمد زاهد بن الحسن الكوثرى ، مطبعة الأنوار ، الطبعة الأولى ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م .

- **إسماعيل ، محمود :**

الحركات السرية فى الإسلام ، مطبعة روز اليوسف ١٩٧٣م .

- **الأشرف ، أبو العباس إسماعيل :**

فاكهة الزمان ومفاكهة الآداب والفتن فى أخبار من ملك اليمن ، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ١٤٠٩ تاريخ) .

- **الأشعرى ، أبو الحسن على بن إسماعيل (ت ٣٢٤هـ) :**

مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين - جزءان ، تصحيح : هـ. ريتر ، مطبعة الدولة ، استانبول سنة ١٩٢٩م .

- **ابن الأصبغ ، عرام (ت فى القرن الثالث الهجرى) :**

أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من الحياة ، نوادر المخطوطات ، بتحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة البابى الحلبى، القاهرة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م .

- **الأصفهانى ، أبو الفرج على بن الحسين (ت ٣٦٥هـ) :**

أ) الأغانى - ٢٤ جزءاً ، الأجزاء ١ - ١٦ مطبعة دار الكتب سنة ١٩١٣م ثم ابتداء من الأجزاء ١٧ - ٢٤ بتحقيق على محمد البجاوى وعبد الكريم إبراهيم ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ، دار الكتاب العربى ١٣٨١هـ/ ١٩٧٠م .

ب) مقاتل الطالبيين ، بتحقيق السيد أحمد صقر ، مطبعة إحياء الكتب العربية سنة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م .

- **الأصمعى ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦هـ) :**

الأصمعيات ، بتحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٨م .

- **الأفغانى ، سعيد :**

أسواق العرب ، دار الفكر - دمشق (الطبعة الثانية) ١٩٦٠م .

- **الأكوع ، محمد بن على :**

الوثائق السياسية اليمنية ، دار الحرية - بغداد سنة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

- **الآلوسى ، محمود شكرى :**

تاريخ نجد ، بتحقيق محمود بهجة الأثرى ، بغداد سنة ١٣٤٧هـ .

- **أمين ، صالح محمد :**

النظام المالى والاقتصادى فى الإسلام ، مكتبة نهضة الشرق - القاهرة (الطبعة الأولى) سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

- **أنطوان ، نعمان :**

الطائر الغريد فى وصف البريد ، مطبعة المقتطف ، القاهرة ١٩٨٠هـ .

- **الأهدل ، الحسين بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٥٥هـ) :**

تحفة الزمن فى تاريخ سادات اليمن ، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ٧٧٥ تاريخ تيمور) .

- **البخارى ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ) :**

أ) الجامع الصحيح ، بريل - ليدن سنة ١٨٦٢م .

ب) كتاب التاريخ الكبير - ٥ أجزاء ، دار الكتب العلمية - بيروت (بدون تاريخ طبع) .

- **بخيت ، عبد الحميد :**

الخلافة الإسلامية (عصر الراشدين) ، دار العلم العربى - القاهرة ١٩٥٣م .

- **البرادى ، أبو القاسم إبراهيم (عاش فى القرن الثامن الهجرى) :**

الجواهر المنتقاة ، القاهرة سنة ١٨٨٤م .

- **بروكلمان ، كارل :**

تاريخ الشعوب الإسلامية (العرب والامبراطورية العربية) ، ترجمة : نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ، دار العلم للملايين ، بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨م.

- **البغدادى ، صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ) :**

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع - ٣ أجزاء تحقيق : على محمد البجاوى مطبعة دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤م - ١٣٧٣هـ .

- **البغدادى ، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣هـ) :**

خزانة الأدب ولُبّ لباب لسان العرب - ١١ جزءاً تحقيق : عبد السلام محمد هارون . مطبعة دار الكاتب العربى للطباعة والنشر سنة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

- **البغدادى ، عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت ١٠٣٧هـ) :**

الفَرْق بين الفِرَق ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد . مطبعة المدنى - القاهرة - بدون تاريخ طبع .

- **ابن بكار ، الزبير (ت ٢٥٦هـ) :**

جمهرة نسب قريش وأخبارها ، تحقيق : محمود محمد شاكر . مطبعة المدنى سنة ١٣٨١هـ .

- البكري ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ) :

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضِع - ٤ أجزاء - تحقيق : مصطفى السقا. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى سنة ١٩٤٥م .

- البكرى ، صلاح:

تاريخ حضر موت السياسى - جزءان ، المطبعة السلفية - الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤هـ .

- البلاذرى ، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) :

أ) أنساب الأشراف :

الجزء الأول ، بتحقيق : محمد حميد الله ، دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٥٥م .

الجزء الأول - القسم الثالث ، بتحقيق : عبد العزيز الدورى ، بيروت ١٩٧٨م .

الجزء الأول - القسم الرابع ، بتحقيق : إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٩م

الجزء الخامس ، مطبعة القدس ١٩٣٦م ، والمطبعة المصرية بالقاهرة ١٩٣٢م .

الجزء الحادى عشر ، مطبعة يولس أبل - غريغرولد ، سنة ١٨٨٣م .

الأجزاء : ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ٤٨٥٦ تاريخ) .

ب) فتوح البلدان ، المطبعة المصرية ، القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٥٠هـ .

- بليابيف ، ى. أ :

العرب والإسلام والخلافة العربية ، ترجمة : أنيس فريحة ، بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٩٧٣م .

- بندقجى ، حسين حمزة :

جغرافية المملكة العربية السعودية ، الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٧م .
- بيضون ، إبراهيم :
الحجاز والدولة الإسلامية ، بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣م .
- بيفوليفسكيا ، نينافكتورفنا :
العرب على حدود بيزنطة وإيران (من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادى)، ترجمة صلاح الدين عثمان ، الكويت ١٩٨٥م .
- ترسيس ، عدنان :
اليمن وحضارة العرب ، دار مكتبة الحياة - بيروت (بدون تاريخ طبع) .
- تزينى ، طيب :
مشروع رؤية جديدة للفكر العربى فى العصر الوسيط ، دمشق ١٩٧٥م .
- ابن تيمية ، تقى الدين :
السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ، دار الكاتب العربى ، مصر - الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٥م .
- الثعالبى ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت ٤٢٩هـ) :
لطائف المعارف ، تحقيق : إبراهيم الأبيارى ، وحسن كامل الصيرفى .
دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - سنة ١٩٦٠م .
- ثعلب ، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٢٩١هـ) :
مجالس ثعلب (قسمان) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون . دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٨م .
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) :
أ) البيان والتبيين ، تحقيق : فوزى عطوى . دار صعب - بيروت سنة ١٩٦٨م .

ب) الحيوان - سبعة أجزاء ، مكتبة الحلبى - الطبعة الأولى - سنة ١٣٥٩هـ مطبعة البابى - ١٩٤٠م .

ج) رسائل الجاحظ (جزءان) ، تحقيق : عبد السلام هارون . مطبعة الخانجى ، القاهرة ، سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .

- الجاسر ، حمد :

فى شمال غرب الجزيرة ، منشورات دار اليمامة ، الرياض - الطبعة الأولى ١٩٧٠م.

- جب ، هاملتون :

دراسات فى حضارة الإسلام ، ترجمة : إحسان عباس وآخرين ، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٤م .

- جمعة محمد محمود :

النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم الإسلامية ، القاهرة سنة ١٩٤٩م .

- الجهشيارى ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٣٠هـ) :

الوزراء والكُتّاب ، تحقيق : مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى ، مطبعة البابى الحلبى - الطبعة الأولى سنة ١٩٣٨م .

- جواد على :

المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام - ١٠ أجزاء ، دار العلم للملايين - بيروت ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٠م .

- الجوزى ، بندلى :

تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام ، الجزء الأول من تاريخ الحركات الاجتماعية، مطبعة بيت المقدس سنة ١٩٢٨م .

- ابن الجوزى ، أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد (ت ٥٩٧هـ) :

أ) سيرة عمر بن عبد العزيز ، نشر محب الدين الخطيب ، مطبعة المؤيد ، القاهرة ١٩٢١م .
ب) صفة الصفوة (٣ أجزاء) ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بمدينة حيدر آباد الدكن بالهند ، سنة ١٣٥٥هـ .
جـ) القُصَّاص والمذكِّرين ، تحقيق : مارلين سوارتز ، دار المشرق - بيروت ، (بدون تاريخ طبع) .

- الجوهرى ، يسرى عبد الرازق :
أ) الوطن العربى (دراسة فى الجغرافية التاريخية والإقليمية) ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة سنة ١٩٧٩م .
ب) جغرافية الشعوب الإسلامية ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ١٩٨١م .

- الحارثى ، سالم بن حمد بن سليمان :
العقود الفضية فى أصول الأباضية ، عمان ١٩٨٣م .

- ابن حبيب ، أبو جعفر محمد (ت ٢٤٥هـ) :
أ) كتاب المحبَّر ، تحقيق : ايلزة ليشتنشترن ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بمدينة حيدر أباد - الدكن بالهند ، سنة ١٩٤٢م .
ب) المنمَّق فى أخبار قريش ، بتحقيق خورشيد أحمد فاروق ، والكتابان مطبوعان بمطبعة الجامعة العثمانية بالهند ، سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م .

- حتى ، فيليب :
أ) تاريخ العرب (مطول) ، ٣ أجزاء ، الجزء الأول ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع - بيروت الطبعة الثالثة ١٩٥٨م .
ب) العرب (تاريخ موجز) ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٤٦م .

- ابن حجر ، أحمد بن على بن محمد (ت ٨٥٢هـ) :

الإصابة فى تمييز الصحابة (٤ أجزاء) ، دار الكتاب العربى (بدون تاريخ طبع) .

- الحداد ، محمد يحيى :

تاريخ اليمن السياسى ، الجزءان : الأول والثانى ، دار وهدان للطباعة والنشر ، القاهرة - الطبعة الأولى - ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م .

- ابن أبى الحديد ، عز الدين أبو حامد هبة الله (ت ٦٥٥هـ) :

شرح نهج البلاغة (٢٢ جزءاً) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٥م .

- الحربى (وُلِد سنة ١٩٨هـ) :

المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، تحقيق حمد الجاسر ، دار اليمامة - الرياض ، سنة ١٩٦٩م .

- ابن حزم ، أبو محمد على بن أحمد (ت ٤٥٦هـ) :

أ) جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف - القاهرة ١٩٨٢م .

ب) الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل (٥ أجزاء) ، المطبعة الأدبية بالقاهرة سنة ١٣٢١هـ .

- حسن ، حسن إبراهيم :

تاريخ الإسلام السياسى، (٤ أجزاء) طبعات كثيرة عن النهضة المصرية ، القاهرة.

- حسونة ، محمد أحمد :

أ) الجغرافية التاريخية الإسلامية ، مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٥٠م .

ب) دراسات فى العالم العربى ، النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٨م .

- الحسينى ، عبد المحسن :

الأقسام الجغرافية للجزيرة العربية ، مجلة المجمع العلمى العراقى ، بغداد ، المجلد الحادى عشر ١٩٦٤م .

- حسين ، مولوى س. أ. ق :

الإدارة العربية ، ترجمة : إبراهيم أحمد العدوى ، مطبعة الآداب ١٩٥٨م .

- حفنى ، عبد الحليم :

شعر الصعاليك (منهجه وخصائصه) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م .

- حلمى ، محمد :

الخلافة والدولة فى العصر الأموى ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٧٤م .

- حمدان ، جمال :

أ) أنماط من البيئات ، مطبعة لجنة البيان العربى - القاهرة (بدون تاريخ طبع) .

ب) العالم العربى ، القاهرة ١٩٧١م .

- ابن حميد السالمى ، نور الدين عبد الله :

تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، جزءان ، مطبعة الشباب ، القاهرة ١٣٥٠هـ .

- حميد الله ، محمد :

مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤١م ، وأُعِيد طبعه مراراً بعد ذلك .

- الحفنى ، قطب الدين (ت ٩٨٨هـ) :

تاريخ القرطبى المسمى كتاب الإعـلام بأعـلام بيت الله الحرام فى تاريخ مكة المشرفة ، شرح وتعليق : محمد ضاهر بن الكردى ، المكتبة العلمية بمكة المشرفة ١٩٧٠م .

- أبو حنيفة ، أحمد بن داوود الدينورى (ت ٢٨٢هـ) :

الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٠م .

- حورانى ، جورج فاضلو :

العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٥٨م .

- الحوفى ، أحمد محمد :

أدب السياسة فى العصر الأموى ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٠م .

- ابن حوقل ، أبو القاسم (من علماء القرن الرابع الهجرى) :

صورة الأرض - جزءان ، ليدن - الطبعة الثانية ١٩٣٨م .

- ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ) :

المسالك والممالك ، بريل - ليدن سنة ١٨٨٩م .

- الخصَّاف ، أبو بكر أحمد بن عمر بن مهير الشيبانى (ت ٢٦١هـ) :

أدب القاضى ، شرح الجصاص أبو بكر أحمد بن على الرازى ، تحقيق : فرحات زيادة ، قسم النشر بالجامعة الأمريكية ، القاهرة ١٩٧٩م .

- الخضرى ، محمد :

تاريخ الأمم الإسلامية - جزءان ، المكتبة التجارية - القاهرة .

- ابن خلدون ، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ) :

أ) العِبَر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، طبعة بولاق (٧ أجزاء) .

ب) المقدمة ، المطبعة الأزهرية - القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ .

- ابن خَلِّكان ، شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم (ت ٦٨١هـ) :

وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، (٦ أجزاء) ، بتحقيق محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٢ - ١٩٥٤م .

- خليف ، يوسف :

الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ، دار المعارف - القاهرة ١٩٥٩م .

- ابن خميس ، عبد الله بن محمد :

المجاز بين اليمامة والحجاز ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض (بدون تاريخ طبع) .

- الخوارزمى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب (ت ٣٨٧هـ) :

مفاتيح العلوم ، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة (الطبعة الثانية) ، سنة ١٩٨١م .

- ابن خياط ، خليفة (ت ٢٤٠هـ) :

أ) تاريخ خليفة بن خياط ، الجزء الأول ، تحقيق : أكرم ضياء العمرى ، مطبعة الآداب فى النجف الأشرف ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٧م .

ب) الطبقات ، تحقيق : سهيل زكار ، مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومى ، دمشق سنة ١٩٦٦م .

- دائرة المعارف الإسلامية :

جماعة من المستشرقين ، ترجمة عبد الحميد يونس وآخرين ، القاهرة ١٩٣١م ، والطبعة الثانية صدر منها إلى الآن خمسة أجزاء ، لم يُترجم منها شىء .

- دبور ، محمد على :

تاريخ المغرب الكبير (٣ أجزاء) ، إحياء الكتب العربية ، القاهرة (طبعة أولى) ، سنة ١٩٦٣م .

- الدرجين ، أبو العباس أحمد بن سعيد (ت ٦٧٠هـ) :

طبقات المشايخ بالمغرب (جزءان) ، تحقيق : إبراهيم طلاى ، طبع الجزائر سنة ١٩٧٤م .

- **ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد بن أيدمر (ت ٨٠٩هـ) :**

الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، المطبعة الكبرى - بولاق - القاهرة سنة ١٨٩٣م.

- **الدمشقى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى طالب الأنصارى (ت ٧١٧هـ):**

نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، مطبعة ليبزج سنة ١٩٢٣م .

- **الدورى ، عبد العزيز :**

مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام ، منشورات مكتبة المثنى بغداد - سنة ١٩٤٩م .

- **ابن الدَّيْبع الشيبانى ، عبد الرحمن بن على بن محمد (ت ٩٤٤هـ) :**

قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون ، مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ٢٢٤ تاريخ) .

- **الذهبى ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) :**

أ) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام - ٤ أجزاء مكتبة القدس - القاهرة سنة ١٣٦٧هـ .

ب) دول الإسلام - جزءان ، دائرة المعارف النظامية - حيدر آباد الدكن ، سنة ١٣٣٧هـ - الطبعة الأولى .

جـ) سير أعلام النبلاء : ٣ أجزاء ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٦٢م .

د) العِبَر فى خبر مَنْ غَبَر - جزءان ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، دائرة المطبوعات والنشر - الكويت - سنة ١٩٦٠م .

- **الرازى ، فخر الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ) :**

اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، مراجعة على سامى النشار ، مطبعة النهضة المصرية سنة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م .

- الرازى ، أحمد بن عبد الله (ت ٤٦٠هـ) :

تاريخ صنعاء اليمن ، مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ٥٣٧٨ تاريخ) .

- ابن رسته ، أبو على أحمد بن عمر (ت ٣٩٠هـ) :

الأعلاق النفيسة ، مطبعة بريل - ليدن سنة ١٨٩١م .

- الريس ، محمد ضياء الدين :

أ) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، مطبعة الأنجلو المصرية - الطبعة الثانية سنة ١٩٦١م .

ب) النظريات السياسية الإسلامية ، مكتبة دار التراث - القاهرة - الطبعة السادسة.

-زامباور :

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة - جزءان ، ترجمة زكى محمد حسن وآخرين ، جامعة فؤاد الأول - القاهرة سنة ١٩٥١م .

- زلهايم ، رودولف :

فتنة عبد الله بن الزبير ، ترجمة حسام الصغير ، مجلة مَجْمع اللغة العربية بدمشق ، جزء ٤ ، مجلد ٤٩ ، سنة ١٩٧٣م .

- زيدان ، جورجى :

أ) تاريخ التمدن الإسلامى ، مطبعة الهلال ، القاهرة. الطبعة الخامسة ، بإشراف د. حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٧م .

ب) العرب قبل الإسلام ، الجزء الأول .

- سالم ، السيد عبد العزيز :

أ) دراسات فى تاريخ العرب - جزءان ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧م .

ب) تاريخ الدولة العربية (تاريخ العرب منذ ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية) ، مطبعة مؤسسة الثقافة الجامعية ، القاهرة .

جـ) تاريخ العرب قبل الإسلام ، مطبعة مؤسسة الثقافة الجامعية ، القاهرة ١٩٧٣م.

- السجستانى ، أبو حاتم (ت ٢٥٠هـ) :

المعمرون والوصايا ، تحقيق : عبد المنعم عامر ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦١م .

- السخاوى ، شمس الدين (ت ٩٠٢هـ) :

التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٨م .

- السدوسى ، مُؤَرِّج بن عمرو (ت ١٩٥هـ) :

حَذْق من نسب قريش ، نشر صلاح الدين المنجد ، دار المدنى - مصر ١٩٦٠م.

- سرور ، محمد جمال الدين :

الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثانى بعد الهجرة ، القاهرة - دار الفكر العربى ١٩٦٠م .

- ابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠هـ) :

الطبقات الكبرى (٩ أجزاء) ، بتحقيق إدوار سخاو - يوليوس ليرث ، مطبعة بريل - ليدن سنة ١٣٣٥هـ ، وعلى أساسها عملت دار الشعب طبعتها فى ثمانية أجزاء ، وقد اعتمدنا عليها .

- سعداوى ، نظير حسان :

نظام البريد فى الدولة الإسلامية ، دار مصر للطباعة - القاهرة ١٩٥٣م .

- سليمان ، حسين محمود :

ثقيف من ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٢ (رقم ١٠٤٢) .

- ابن سلام الإباضى (ت ٢٧٣هـ) :

الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية ، تحقيق : ف. شفارتز وسالم بدر يعقوب ، دار إقرأ للنشر والتوزيع ، بيروت . الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

- ابن سلام الجمحى ، محمد (ت ٢٣١هـ) :

طبقات الشعراء ، بتحقيق الأستاذ الشيخ محمود محمد شاكر ، الطبعة الثانية فى جزأين ، القاهرة .

- ابن سلام ، أبو عبيد القاسم (ت ٢٢٤هـ) :

الأموال ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة ، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

- ابن سمرة الجعدى ، عمر بن على (عاش فى القرن السادس الهجرى) :

طبقات فقهاء اليمن وعيون من أخبار سادات رؤساء الزمن ، تحقيق فؤاد سيد ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ١٩٥٧م .

- السمهودى ، نور الدين على بن أحمد (ت ١٠١١هـ) :

وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ﷺ ، جزءان ، مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣٢٦هـ .

- السيابى ، سالم بن حمود :

أ) الزلة الوعثاء عن اتباع أبى الشعثاء ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ١٩٧٩م .

ب) الحقيقة والمجاز فى تاريخ الأباضية باليمن والحجاز ، مطابع سجل العرب بالقاهرة سنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

جـ) طلقات المعهد الرياضى فى حلقات المذهب الأباضى ، مطابع سجل العرب ، القاهرة سنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

- السيد ، رضوان :

الأمة والجماعة والسلطة ، دار إقرأ للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ١٩٨٤م

- ابن سيده ، أبو الحسن على بن إسماعيل (ت ٤٥٨هـ) :

المخصص (٥ مجلدات) ، مركز الموسوعات العالمية ، بيروت ١٩٧٥م .

- سيف بن عمر (ت ٢٠١هـ) :

الفتنة ووقعة الجمل ، جمع وتصنيف أحمد راتب عرموس ، دار النفائس ، بيروت سنة ١٩٧٢م .

- السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ) :

تاريخ الخلفاء ، المطبعة اليمنية ، القاهرة سنة ١٣٠٥هـ .

- الشافعى ، أبو عبد الله محمد بن إدريس (ت ٢٦٤هـ) :

الأم – سبعة أجزاء ، المطبعة الأميرية – القاهرة – الطبعة الأولى سنة ١٣٢١هـ .

- الشريف ، أحمد إبراهيم :

دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة فى القرنين الأول والثانى للهجرة ، دار الفكر العربى بالقاهرة – الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨م .

- الشماخى ، أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت ٧٩٢هـ) :

السِّير ، طبع حجر بالقاهرة (بدون تاريخ طبع) .

- الشهرستانى ، محمد بن عبد الكريم (ت ٤٥٨هـ) :

الملل والنحل – جزءان ، تحقيق : محمد بن فتح الله بدران ، مطبعة الأزهر – القاهرة – الطبعة الأولى سنة ١٩٥١م .

- صادق ، دولت أحمد :

جغرافية العالم (دراسة إقليمية) الجزء الأول (آسيا وأوربا) ، مكتبة الأنجلو – سنة ١٩٦٥م .

- صالح ، صبحى :

النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ، دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٥م .

- الصوافى ، صالح بن أحمد :

الإمام جابر بن زيد العمانى وآثاره فى الدعوة ، مطبعة الألوان الحديثة ، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

- الصولى ، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٦هـ) :

أدب الكتاب ، تصحيح محمد بهجة الأثرى . المطبعة السلفية - القاهرة سنة ١٣٤١هـ .

- ضرار ، صالح :

العرب من معين إلى الأمويين ، دار مكتبة الحياة - بيروت (بدون تاريخ طبع) .

- الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) :

أ) تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (١٠ أجزاء) ، دار المعارف - القاهرة - الطبعة الرابعة ١٩٧٩م .

ب) اختلاف الفقهاء ، نشر يوسف شاخت ، مطبعة بريل - ليدن سنة ١٩٣٣م .

- الطرطوشى ، أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد (ت ٥٢٠هـ) :

سراج الملوك ، المطبعة المحمدية التجارية ، القاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٩٣٥م .

- ابن الطقطقى ، محمد بن على بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ) :

الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، القاهرة سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.

- طلس ، محمد أسعد :

عصر الاتساق (تاريخ بنى أمية) ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان - الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨م .

- ابن طولون ، شمس الدين (ت ٩٥٣هـ) :

قضاة دمشق (الثغر البسَّام فى ذكر من وَلِى قضاء الشام) « مرفق به كتاب القضاة الشافعية لمحيى الدين النعيمى » . تحقيق صلاح الدين المنجد ، المجمع العلمى العربى - دمشق سنة ١٩٥٩م .

- ابن ظهيرة ، جمال الدين محمد جاد الله بن محمد نور الدين (القرن العاشر الهجرى):

الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف . مطبعة عيسى البابى الحلبى - الطبعة الثانية - سنة ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م .

- العباسى ، أحمد بن عبد الحميد (ت القرن العاشر الهجرى) :

شرح شواهد التلخيص (المسمى معاهد التنصيص) - جزءان - المطبعة البهية - القاهرة - سنة ١٣١٦هـ .

- ابن عبد البر ، (ت٤٦٣هـ) :

الاستيعاب فى أسماء الأصحاب « مرفق بكتاب الإصابة لابن حجر » - ٤ أجزاء . دار الكتاب العربى - بدون تاريخ طبع .

- ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢١٤هـ) :

أ) سيرة عمر بن عبد العزيز ، تعليق أحمد عيد ، مطبعة وهبة - بدون تاريخ طبع .

ب) فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، مطبعة لجنة البيان العربى سنة ١٩٦١م .

جـ) فتوح أفريقية والأندلس مع ترجمة فرنسية وتعليقات ، عمل ألبرت جاتو - مدينة الجزائر سنة ١٩٤٧م .

- عبد الحكيم ، محمد صبحى :

الوطن العربى - أرضه وسكانه وموارده ، الأنجلو بالقاهرة سنة ١٩٨٠م .

- ابن عبد ربه ، شهاب الدين أحمد (ت ٣٢٨هـ) :

العِقْد الفريد (٤ أجزاء) - المطبعة الأزهرية - القاهرة - الطبعة الثانية سنة ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م .

- عبد الله ، أمين محمود :

الجغرافية التاريخية لحوض البحر الأحمر ، المطبعة الحديثة - القاهرة ١٩٧١م .

- أبو عبيدة ، معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ) :

نقائض جرير والفرزدق - ٣ أجزاء ، تحقيق أنطونى بيفان ، ليدن ١٩٠٩م .

- العبيدى ، عبد الجبار :

تاريخ الطائف حتى الفتح الإسلامى .

- العجلانى ، منير :

عبقرية الإسلام فى أصول الحكم ، دار الكتاب الجديد - بيروت . الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥م .

- العدوى ، إبراهيم أحمد :

أ) الأُمويون والبيزنطيون (البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية) - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة .

ب) النظم الإسلامية (مقاومتها الفكرية ومؤسساتها التنفيذية فى صدر الإسلام والعصر الأُموى) . مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة سنة ١٩٧٢م .

- ابن عرنوس ، محمود بن محمد :

تاريخ القضاء فى الإسلام ، مطبعة الحلبى - مصر .

- عروة والسموأل : ديوانا عروة بن الورد بن زياد العبسى (ت ٥٩٦هـ) ، وغريض بن عادى الغسانى (ت ٥٦٠هـ) ، دار صادر - بيروت ١٩٦٤م .

- ابن عساكر ، أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ) :

تهذيب تاريخ دمشق الكبير - ٧ أجزاء - دار المسيرة ١٩٧٩م .

- العسكرى ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥هـ) :

كتاب الأوائل ، تحقيق : محمد السيد الوكيل ، المدينة المنورة ١٩٦٦م .

- العلوى ، هادى :

فى السياسة الإسلامية (الفكر والممارسة) . دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت سنة ١٩٧٤م .

- العلى ، صالح أحمد :

محاضرات فى تاريخ العرب - الجزء الأول . مطبعة المعارف - بغداد - العراق - سنة ١٩٥٥م .

- ابن العماد الحنبلى ، أبو الفلاح عبد الحى (ت ١٠٨٩هـ) :

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (٨ أجزاء) مكتبة القدس - القاهرة ١٣٥٠هـ.

- عمارة ، محمد :

الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية ، دار الهلال - سنة ١٩٨٣م .

- ابن العمرى ، شهاب الدين :

التعريف بالمصطلح الشريف مصر - ١٣١٢هـ .

- عوض ، إبراهيم نجيب محمد :

القضاء فى الإسلام (تاريخه ونظامه) . مطبعة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية سنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .

- غنيم ، أحمد محمد :

تطور الملكية الفردية ، الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة بدون تاريخ طبع .

- الفاسى ، أبو الطيب تقى الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ) :

أ) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (جزءان) ، دار إحياء الكتب العربية ، سنة ١٩٥٦م.

ب) العِقْد الثمين فى تاريخ البلد الأمين (٨ أجزاء) ، تحقيق فؤاد سيد ، مطبعة السنة المحمدية سنة ١٩٥٩م .

- الفاكهى :

المنتقى فى أخبار أم القرى

منتخبات من « تاريخ مكة » ومن « شفاء الغرام فى أخبار البلد الحرام » للفاسى ، ومن كتاب « الجامع اللطيف فى فضائل مكة وبناء البيت الشريف » لابن ظهيرة ، ليبزج سنة ١٨٥٩م .

- فانسينك ، أ. ى :

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ، بريل - ليدن سنة ١٩٦٣م .

- فخرى ، أحمد :

أ) اليمن (ماضيها وحاضرها) ، مطبعة الرسالة - القاهرة سنة ١٩٥٧م .

ب) دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، مطبعة الأنجلو المصرية بالقاهرة - الطبعة الثانية سنة ١٩٣٦م .

- أبو الفدا ، عماد الدين بن إسماعيل بن نور الدين (ت ٧٣٢هـ) :

أ) تقويم البلدان ، باريس سنة ١٨٤٠م .

ب) المختصر فى أخبار البشر ، (٣ أجزاء) المطبعة الحسينية (بدون تاريخ طبع) .

- ابن فرحون ، برهان الدين إبراهيم (ت ٧٩٩هـ) :

تبصرة الحكام فى أصول الأقضية ومناهج الأحكام ، جزءان ، المطبعة البهية ، القاهرة سنة ١٣٠٢هـ .

- فروخ ، عمر :

تاريخ الجاهلية ، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٤م .

- ابن الفقيه ، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى (من أهل القرن الثالث الهجرى) :

مختصر كتاب البلدان ، بريل - ليدن سنة ١٣٠٢هـ - ١٨٨٥م .

- **فلهوزن، يوليوس :**

أ) الخوارج والشيعة، وكالة المطبوعات - الكويت، الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٨م .

ب) تاريخ الدولة العربية، تعريب محمد عبد الهادى أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٨م .

- **الفيروز أبادى، مجد الدين (ت ٨١٦هـ) :**

القاموس المحيط (٤ أجزاء)، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة الخامسة سنة ١٩٥٤م .

- **ابن فهد، نجم الدين عمر بن الحافظ (ت ٨٨٥هـ) :**

اتحاف الورى بأخبار أم القرى « ثلاثة أجزاء » مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ٢٢٠٤ تاريخ تيمور) .

- **ابن القاسم، يحيى بن الحسين (ت ١١٠٥هـ) :**

أنباء الزمن فى تاريخ اليمن، مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ١٣٤٧ تاريخ) .

- **قاسم، عون الشريف :**

نشأة الدولة الإسلامية على عهد الرسول (ﷺ) (دراسة وثائق العهد النبوى) دار الكتاب اللبنانى - بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

- **ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) :**

أ) الإمامة والسياسة - جزءان، تحقيق طه محمد الزينى، مطابع سجل العرب ١٩٦٧م .

ب) الشعر والشعراء - جزءان، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف سنة ١٩٦٦م .

جـ) عيون الأخبار (٤ أجزاء)، طبعة دار الكتب سنة ١٩٦٣م .

د) المعارف، بتحقيق ثروت عكاشة، الطبعة الرابعة دار المعارف سنة ١٩٣٤م .

- ابن قدامة المقدسى ، موفق الدين عبد الله بن محمد (ت ٦٢٠هـ) :

التبيين فى أنساب القرشيين . مخطوط بدار الكتب المصرية :

الجزء الأول (برقم ٣٥٨٣٤ تاريخ - ميكروفيلم) .

الجزء الثانى (برقم ٤١٤٠١ تاريخ - ميكروفيلم) .

- قدامة ، أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت ٣٢٨هـ) :

الخراج وصناعة الكتابة ، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدى . دار الرشيد للنشر - العراق - سنة ١٩٨١م .

- القرافى ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس (ت ٦٨٤هـ) :

الإحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضى والإمام . مطبعة الأنوار - الطبعة الأولى سنة ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م .

- القرشى ، يحيى بن آدم (ت ٢٠٣هـ) :

الخراج ، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس . دار الشروق - القاهرة ١٩٨٧م .

- القرطبى ، أبو عبد الله محمد بن فرج المالكى (ت ٤٩٧هـ) :

أقضية رسول الله (ﷺ) . دار الوعى - حلب ، سوريا - الطبعة الأولى سنة ١٣٩٦هـ .

- القلقشندى ، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ) :

أ) صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب المصرية (١٠ أجزاء) - القاهرة سنة ١٩١٣م.

ب) نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، تحقيق : إبراهيم الأبيارى ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة . الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩م .

- الكاشف ، سيدة إسماعيل :

عُمان فى فجر الإسلام ، مطبعة سجل العرب ، القاهرة ١٩٨٢م .

- كاهن ، كلود :
تاريخ العرب والشعوب الإسلامية (منذ ظهور الإسلام حتى بداية الامبراطورية العثمانية) ، دار الحقيقة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٧م .
- الكتانى ، عبد الحى :
التراتيب الإدارية ، جزءان ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت .
- ابن كثير ، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) :
البداية والنهاية ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٩٣٢م .
- كحالة ، عمر رضا :
أ) جغرافية شبه الجزيرة العربية ، المطبعة الهاشمية - دمشق - سنة ١٩٤٤م .
ب) معجم القبائل العربية - دمشق ١٩٥٠م .
- كرد ، محمد :
الإدارة الإسلامية فى عز العرب ، مطبعة مصر - القاهرة - سنة ١٩٣٤م .
- ابن أبى كريمة ، أبو عبيدة مسلم (ت ١٣٥هـ) :
رسالة أبى كريمة فى الزكاة للإمام أبى الخطاب المعافرى ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ١٩٨٢م .
- الكندى ، أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠هـ) :
الولاة وكتاب القضاة ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨م .
-ماجد ، عبد المنعم :
تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى . مطبعة مكتبة الأنجلو - القاهرة - الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٨م .
- الماوردى ، أبو الحسن على محمد بن حبيب البصرى (ت ٤٥٠هـ) :

الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار التوفيقية للطباعة ، القاهرة ١٩٧٨م .
- المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر (ت ٢٨٥هـ) :
تهذيب الكامل ، تحقيق : السباعى بيومى ، مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٢٣م .
- متولى ، محمد موسى :
حوض الخليج العربى - ثلاثة أجزاء ، مطبعة دار الطباعة الحديثة - القاهرة .
- مدكور ، محمد سلام :
القضاء فى الإسلام ، دار النهضة العربية - سنة ١٩٦٥م .
-مدور ، جميل نخلة :
حضارة الإسلام فى دار السلام ، المطبعة الأميرية - القاهرة - سنة ١٩٣٦م .
- مراد ، ياسين محمد :
جغرافية العالم الإسلامى ، دار العلم للطباعة - القاهرة - سنة ١٩٧٩م .
- المراكشى ، ابن عذارى (ت أواخر القرن السابع الهجرى) :
البيان المغرب فى أخبار المغرب ، ليدن سنة ١٨٤٨م - وأعاد طبعه فى خمسة أجزاء إحسان عباس فى بيروت سنة ١٩٧٤م .
- المرزوقى ، أبو على أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١هـ) :
شرح ديوان الحماسة ، تحقيق : أحمد أمين ، وعبد السلام هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٧١هـ .
- مروة ، حسين :
النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية (جزءان) دار الفارابى - بيروت - الطبعة الرابعة - سنة ١٩٨١م .
- المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦هـ) :
مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤ أجزاء) ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ببيروت سنة ١٩٨٢م .

- مُشَرَّفة ، عطية مصطفى :

القضاء فى الإسلام ، مطبعة دار الغد - الطبعة الثانية - سنة ١٩٦٦م .

- المصعب الزبيرى ، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦هـ) :

نسب قريش ، تحقيق : ليفى بروفنسال ، دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٣م .

- مصلحة البريد :

تاريخ البريد ، المطبعة الأميرية - القاهرة - سنة ١٩٣٤م .

- المقدسى ، شمس الدين أبو عبد الله البشارى (ت ٣٥٥هـ) :

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، مطبعة بريل - ليدن سنة ١٩٠٩م .

- المقدسى ، مطهر بن طاهر (من علماء أواخر القرن الرابع الهجرى) :

البدء والتاريخ - ٦ أجزاء ، طبع باريس سنة ١٨٩٩م .

- المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ) :

أ) الخطط المقريزية ، مطبعة النيل ، سنة ١٣٢٤هـ .

ب) النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، بتحقيق د. حسين مؤنس . ذخائر العرب . القاهرة ١٩٨٧م .

- مليجى ، أحمد محمد :

النظام القضائى الإسلامى ، دار التوفيق النموذجية للطباعة ، القاهرة ١٩٨٤م .

- مؤلف مجهول :

تاريخ أهل عمان ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور - مطابع سجل العرب - القاهرة سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

- مؤلف مجهول :

خلافة الوليد بن عبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك . ليدن سنة ١٨٥٣م.

- مؤلف مجهول ، أحد علماء الأباضية :

كشف الغمة لأخبار الأمة . مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ١٢٩٦٨ح) .

- مؤلف مجهول :

نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدن والآفاق . مخطوط بدار الكتب المصرية (برقم ٢٦٥ جغرافيا) .

- مؤلف مجهول :

العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ، الجزء الثالث ليدن سنة ١٨٧١م ، ثم الجزء الرابع بتحقيق : نبيلة عبد المنعم داوود - بغداد سنة ١٩٧٢م .

- موسيل ، الويس :

شمال الحجاز ، مطابع رمسيس - القاهرة سنة ١٩٥٢م .

- موسى ، محمد يوسف :

نظام الحكم فى الإسلام - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر - القاهرة ، الطبعة الثانية - سنة ١٩٦٣م .

- مؤنس ، حسين :

دراسات فى السيرة النبوية ، الزهراء للإعلام العربى - القاهرة - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٥م .

- نافع ، محمد مبروك :

عصر ما قبل الإسلام ، مطبعة السعادة - القاهرة - الطبعة الثانية سنة ١٩٥٢م .

- ابن النجار ، محمد بن محمود (ت ٦٤٧هـ) :

الدرة الثمينة فى أخبار المدينة ، مرفق بكتاب شفاء الغرام ، القاهرة ١٩٥٦م .

- النجار ، حسين فوزى :

الإسلام والسياسة - مطابع دار الشعب - القاهرة - سنة ١٩٧٧م .

- النجم ، عبد الرحمن عبد الكريم :
البحرين فى صدر الإسلام وأثرها فى حركة الخوارج ، مطبعة الجمهورية - بغداد - سنة ١٩٧٣م .
- النجيرمى ، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن محمد (ت ٣٥٥هـ) :
أيمان العرب وطلاقتها ، مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ٣٦٢ لغة)
- نخبة من علماء الهند :
الفتاوى الهندية (المسماة العالمكرمة) ، المطبعة الأميرية - القاهرة - الطبعة الثانية سنة ١٣١٠هـ .
- النص ، إحسان :
العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الأموى ، رسالة دكتوراه - كلية آداب القاهرة - سنة ١٩٦٢- برقم ٢٦١ .
- النكَدى ، عارف (ت ١٩٧٥) :
القضاء فى الإسلام ، مطبعة الترقى - دمشق - سنة ١٩٢٢م .
- أبو نعيم الأصبهانى ، أحمد بن عبد الله (ت ٤٣٠هـ) :
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٣٢م .
- نيلسن ، ديتلف وآخرون :
التاريخ العربى القديم ، ترجمة فؤاد حسنين ، القاهرة ١٩٥٨م .
- النووى ، أبو زكريا محيى الدين بن شرف (ت ٦٧٦هـ) :
تهذيب الأسماء واللغات ، جزءان ، المطبعة المنيرية بالقاهرة (د. ط.)
- النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ) :
نهاية الأرب فى فنون الأدب من ١ إلى ٢٣ بتحقيق محققين مختلفين - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦م .

- هاشم ، (مهدى طالب) :

الحركة الأباضية فى المشرق العربى (نشأتها وتطورها حتى نهاية ق ٣هـ) - كلية الآداب - جامعة بغداد - ١٩٧٧م ، برقم ٩٥٣,٠٢ مكتبة آداب عين شمس.

- الهَجَرى ، أبو على :

أبحاث فى تحديد المواضع ، تحقيق : حمد الجاسر ، دار اليمامة الرياض ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م .

- ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك (ت ٢١٣هـ) :

السيرة النبوية ، تحقيق : مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى ، القاهرة ، دار مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٣٦ .

- هل ، ى :

الحضارة العربية ، ترجمة إبراهيم أحمد العدوى ، دار الهلال سنة ١٩٧٩م .

- الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤هـ) :

أ) الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حِمْيَر - الجزء الثانى ، تحقيق : محمد بن على الأكوع ، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة سنة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م .

ب) الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير - الجزء العاشر تحقيق : محب الدين الخطيب - الدار اليمنية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٧م .

جـ) صفة جزيرة العرب - بتحقيق : محمد بن على الأكوع اليمانى ، دار اليمامة بالرياض عن الطبعة الأولى : بريل - ليدن سنة ١٨٨٤م .

- هيكل ، محمد حسين :

حياة محمد ، دار الكتب المصرية (الطبعة الثالثة) ١٣٥٨هـ .

- وات ، مونتجمرى :

البدو ، ترجمة إبراهيم زكى خورشيد وآخرين ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٨١م .

- **الواسعى، عبد الواسع بن يحيى :**

تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزَن فى حوادث تاريخ اليمن، الدار اليمنية للنشر والتوزيع ١٩٨٢م .

- **وكيع، محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦هـ) :**

أخبار القضاة (٣ أجزاء)، عالم الكتب - بيروت (د. ط.) .

- **ولفنسون، إسرائيل :**

تاريخ اليهود فى بلاد العرب، مطبعة الاعتماد، القاهرة سنة ١٩٢٧م .

- **ولكنسون، ج. س :**

بنو الجلندى فى عمان، مطابع سجل العرب، القاهرة ١٩٨٢م .

- **وهبه، حافظ:**

جزيرة العرب فى القرن العشرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة - الطبعة الخامسة سنة ١٩٦٧م .

- **ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ) :**

معجم البلدان - طبعة الساسى ٦ أجزاء . القاهرة ١٩٠٦م .

- **اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٩٢هـ) :**

أ) البلدان - طبعة ليدن ١٨٩١م، (مرفق بكتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته) .

ب) تاريخ اليعقوبى - ٣ أجزاء، النجف - العراق سنة ١٣٥٨هـ .

- **أبو يعلى : محمد بن الحسين الفراء الحنبلى (ت ٤٥٨هـ) :**

الأحكام السلطانية، تصحيح : محمد حامد الفقى مطبعة البابى الحلبى - الطبعة الثانية سنة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م .

- **أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ) :**

الخراج، المطبعة السلفية - القاهرة، الطبعة الثانية سنة ١٣٥٢هـ .

الفهارس العامة

دار الرشاد

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهرس أمم - جماعات - قبائل

(ب)

(ت)

(خ)

(د)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهرس الأماكن والبلدان

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

ش

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

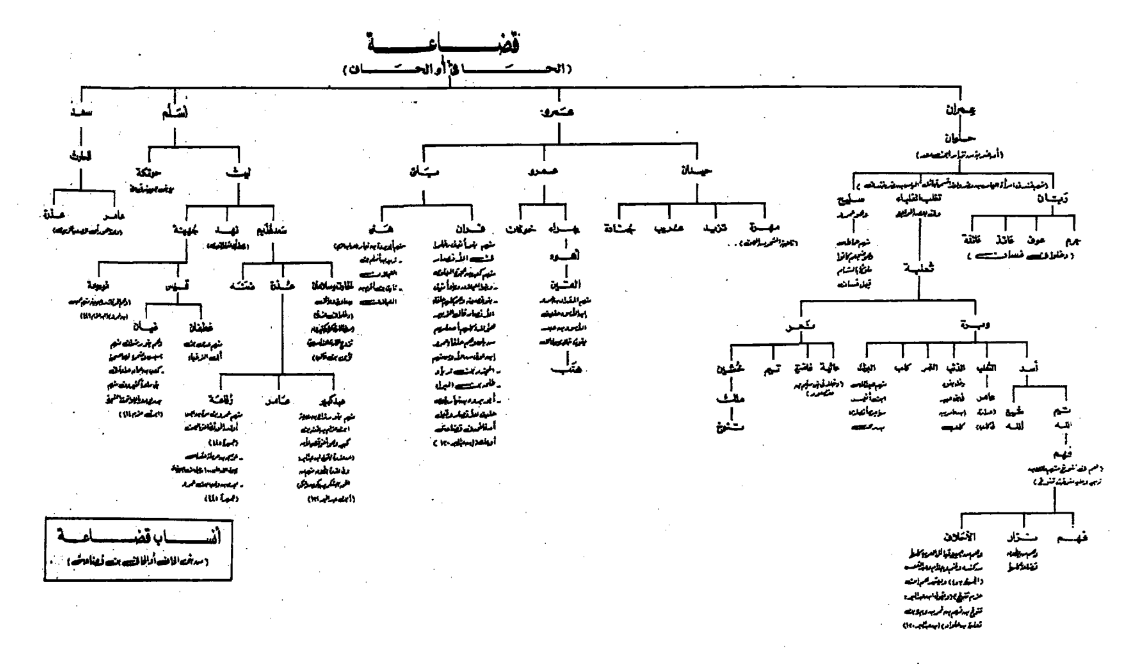
(و)

(ى)

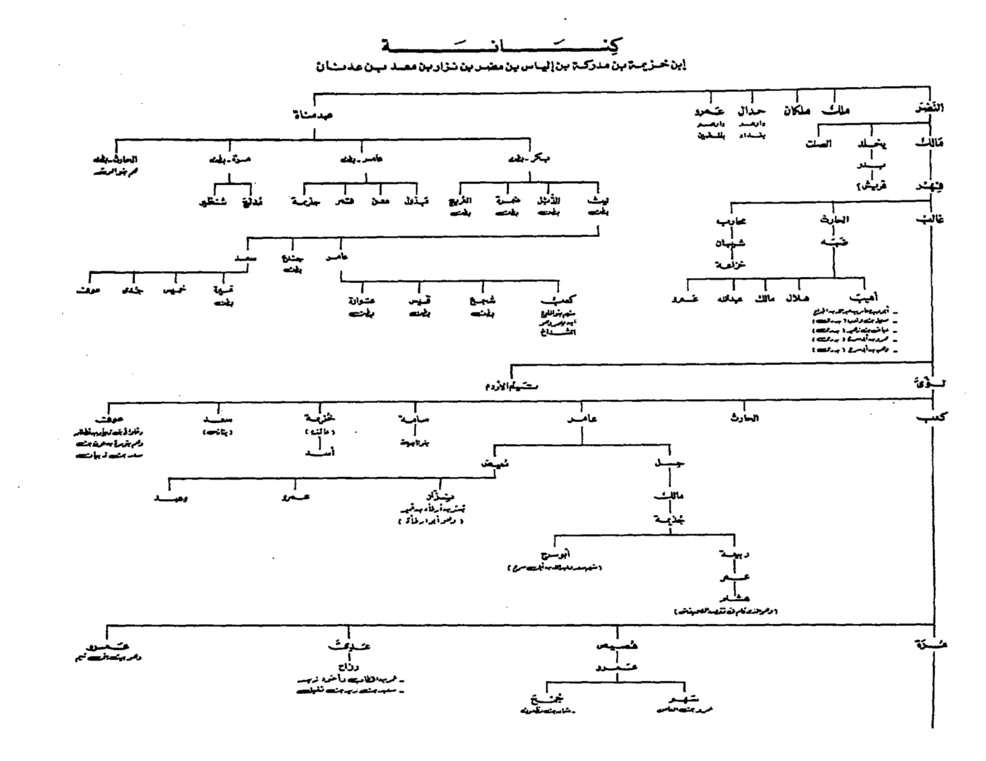
تاريخ قريش

أنساب قريش
شجرات الأنساب

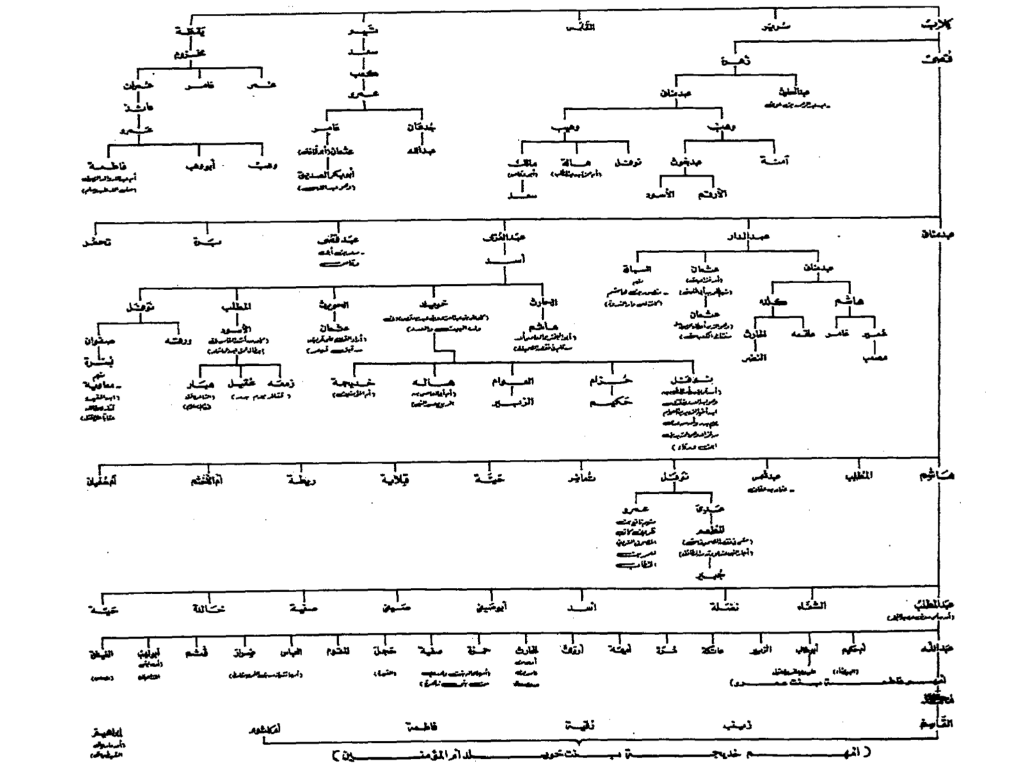
دار الرشاد



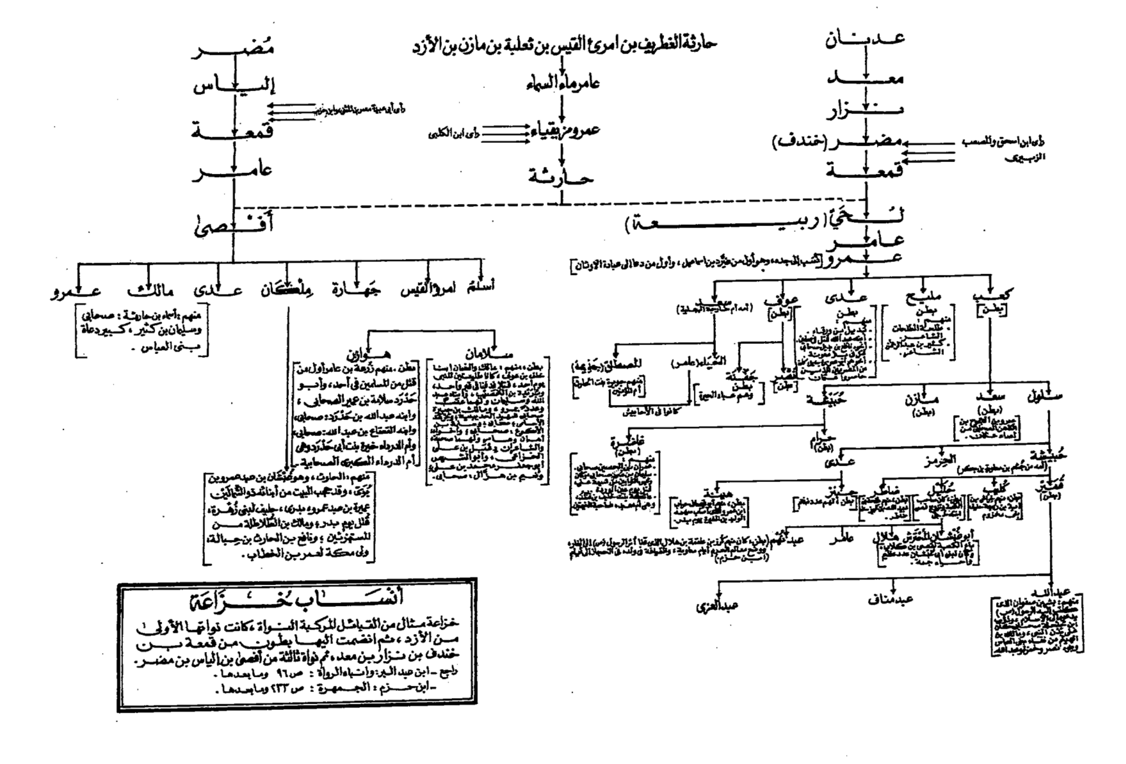
قضاعة
عمران
عمرو
أسلم
سعد
حلوان
تغلب الغلباء
سليح
جرم
عوف
ثعلبة
وبرة
أسد
الثعلب
الذئب
النمر
كلب
فهم
نزار
الأحلاف
حيدان
مهرة
تزيد
خولان
ليث
حوتكة
نهد
جهينة
عذرة
عامر
غطفان
الحارث
أنساب قضاعة

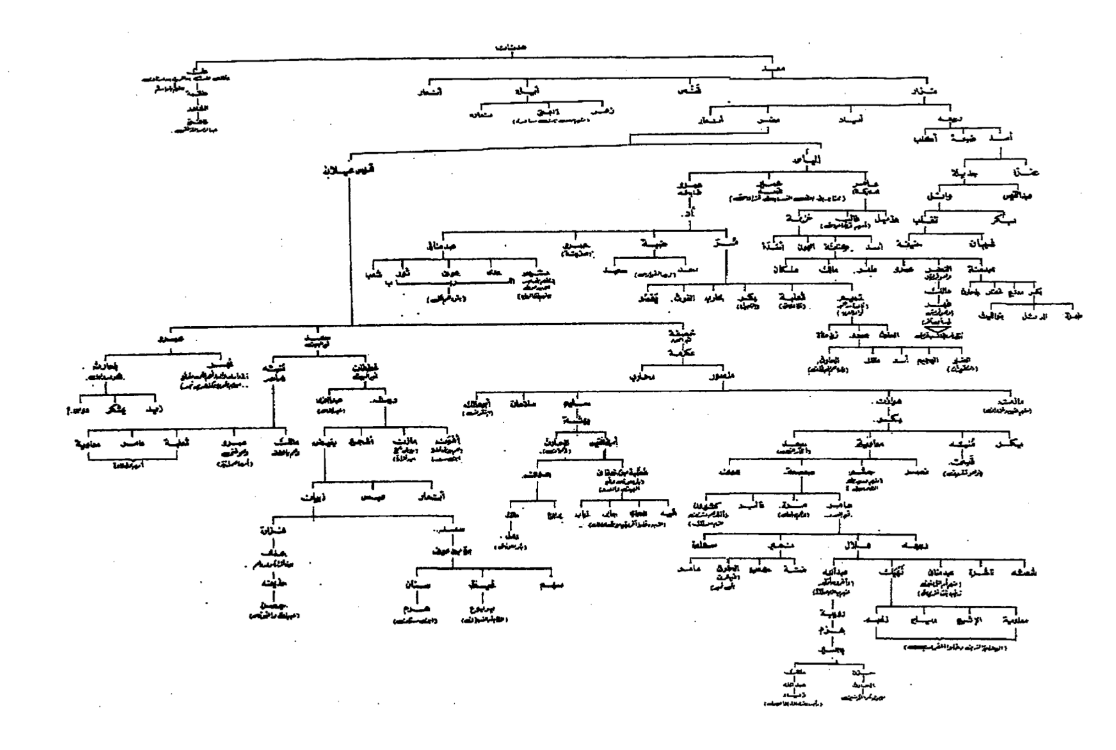


كنانة
إبن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان
النضر
ملك
ملكان
حدال
عمرو
عبد مناة
مالك
يخلد
الصلت
فهر
قريش؟
غالب
الحارث
محارب
شيبان
خزاعة
أهيب
هلال
مالك
عبدالله
عمرو
بكر - بطن
عامر - بطن
مرة - بطن
الحارث - بطن
ليث
بطن
الدئل
بطن
ضمرة
بطن
الدئل
بطن
هذيل
معن
فقيم
جذيمة
مدلج
شنظير
عامر
جندع
بطن
سعد
كعب
شجع
بطن
قيس
بطن
عتوارة
بطن
عبيدة
بطن
خويص
جندب
عوف
لؤي
تيم الأدرم
كعب
الحارث
عامر
سامة
خزيمة
سعد
عوف
أسد
جسل
مالك
جذيمة
معيص
عمرو
وهب
أبو سرح
ربيعة
عمر
هشام
مرة
هصيص
عمرو
عدي
رزاح
عمرو
سهم
جمح



كلاب
قصي
زهرة
عبدمناف
عبدالدار
عبدالعزى
عبد قصي
مرة
تحفر
سريد
يقظة
مخزوم
تيم
سعد
كعب
عمرو
عامر
جدعان
عبدالله
عثمان
أبوبكر الصديق
وهب
وهيب
آمنة
نوفل
هالة
مالك
سعد
عبدمناف
الأرقم
الأسود
عمر
فاطمة
أبووهب
أسد
الحارث
خويلد
الحويرث
المطلب
نوفل
صفوان
ورقة
الأسود
زمعة
عقيل
هبار
عثمان
خديجة
هالة
العوام
الزبير
حزام
حكيم
هاشم
السباق
هاشم
عبدمناف
المطلب
عبدشمس
نوفل
عدي
المطعم
جبير
عمرو
نضلة
تماضر
حية
قلابة
رقية
أم الحكم
أم سفيان
عبدالمطلب
الشفاء
نضلة
أسد
أبوصيفي
صيفي
صفية
خالدة
حية
عبدالله
أم حكيم
أبوطالب
الزبير
عاتكة
برة
أميمة
أروى
الحارث
حمزة
صفية
حجل
المقوم
العباس
ضرار
قثم
أبولهب
الغيداق
محمد
القاسم
زينب
رقية
فاطمة
أم كلثوم
إبراهيم
(أمهم خديجة بنت خويلد أم المؤمنين)


عدنان
معد
نزار
مضر (خندف)
رأى ابن إسحق والمصعب الزبيري
قمعة
لُحَيّ (ربيعة)
عامر
عمرو [نسب إلى جده، وهو أول من غيّر دين إسماعيل، وأول من دعا إلى عبادة الأوثان]
كعب
مليح
عدى
عوف
سعد
سلول
سعد
مازن
حبشية
حرام
عدى
الحرمز
حبشية
قمير
كليب
حليل
ضاطر
حبتر
هيشة
غاضرة
المصطلق (جذيمة)
الحيا (عامر)
جفنة
أبو غبشان المحترش هلال
عامر
عبد نهم
عبد الله
عبد مناف
عبد العزى
حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد
عامر ماء السماء
عمرو مزيقياء
رأى ابن الكلبي
حارثة
مضر
إلياس
رأى أبي عبيدة معمر بن المثنى وابن حزم
قمعة
عامر
أفصى
أسلم
امرؤ القيس
جهارة
ملكان
عدى
مالك
عمرو
منهم: أسماء بن حارثة: صحابي وسليمان بن كثير، كبير دعاة بني العباس.
سلامان
هوازن
بطن، منهم زرعة بن عامر أول من قتل من المسلمين في أحد، وأبو حَدْرَد سلامة بن عمير الصحابي، وابنه عبد الله بن حَدْرَد: صحابي، وابنه القعقاع بن عبد الله: صحابي، وأم الدرداء خيرة بنت أبي حَدْرَد وهي أم الدرداء الكبرى الصحابية.
منهم: الحارث، وهو ملكان بن عبد عمرو بن بُوَيّ، وقد حجب البيت من أبنائه ذو الشمالين عمير بن عبد عمرو، بدري، حليف لبني زُهرة، قتل يوم بدر، ومالك بن الطلاطلة من المستهزئين، ونافع بن الحارث بن حبالة ولي مكة لعمر بن الخطاب.
أنساب خزاعة
خزاعة مثال من القبائل المركبة النواة، كانت نواتها الأولى من الأزد، ثم انضمت إليها بطون من قمعة بن خندف بن نزار بن معد، ثم نواة ثالثة من أفصى بن إلياس بن مضر.
راجع - ابن عبد البر: وإنباه الرواة: ص ٩٦ وما بعدها.
- ابن حزم: الجمهرة: ص ٢٣٣ وما بعدها.



عدنان
معد
نزار
قنص
إياد
أنمار
ربيعة
مضر
الياس
قيس عيلان
عنزة
جديلة
عبدالقيس
وائل
بكر
تغلب
شيبان
حنيفة
خزيمة
هذيل
كنانة
أسد
عكرمة
منصور
هوازن
بكر
سليم
غطفان
معاوية
عامر
هلال
نهيك

فهرس الموضوعات

كتب للمؤلف ملك للدار

١ - معالم تاريخ المغرب والأندلس
٢ - تاريخ موجز للفكر العربى
٣ - المساجد فى العالم
٤ - الامبراطورية البيزنطية
٥ - الزفاف الدامى
٦ - أحاديث عن الإسلام
٧ - الشعر الأندلسى
٨ - تنقية أصول التاريخ الإسلامى
٩ - كتب وكتاب
١٠ - الطريق إلى الرسالة والنبوة
١١ - دراسات فى ثورة ١٩١٩
١٢ - النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم
١٣ - ابن بطوطة ورحلاته
١٤ - الحلة السيراء
١٥ - رحلة الأندلس
١٦ - فجر الأندلس
١٧ - تاريخ قريش
١٨ - تاريخ الدولة العربية
١٩ - موسوعة تاريخ المغرب العربى
٢٠ - ظلمات بعضهافوق بعض
٢١ - شيوخ العصر فى الأندلس
٢٢ - كيف نفهم اليهود ؟
٢٣ - التاريخ والمؤرخون
٢٤ - صور من البطولات العربية والأجنبية
٢٥ - عصر الفتوات
٢٦ - أحاديث منتصف الليل
٢٧ - دستور أمة الإسلام
٢٨ - الإسلام فى عشرين آية

عربية للطباعة والنشر
٧-١٠ شارع السلام أرض اللواء المهندسين - تليفون ٣٢٥٦٠٩٨٠-٣٢٥١٠٤١٢

• دراسة «تاريخ قريش» من أهم الدراسات التى تطرقت إلى تاريخ هذه القبيلة الصغيرة الضاربة فى الأعماق زماناً ومكاناً ، والتى كان لها شأن كبير بعد دخولها فى الإسلام . فسادتْ الدولُ التى أسسها القرشيون نواحيَ عدة من العالم فى الشام وخراسان وبلاد المغرب والأندلس .

• وليس هذا فحسب . بل إن تأثيرها ممتد إلى عصرنا الحديث ، فالأسرة الهاشمية حكمت بلاد العراق والأردن وكذلك حكام المغرب كلهم من قريش .

• هذا الكتاب يؤرخ ويحلل ويستنبط العبر والدروس من تاريخ هذه القبيلة صعوداً وهبوطاً، قوة وضعفاً ، إنجازاتهم وكذلك أخطاؤهم القاتلة من نحو وقوعهم فى براثن الإنجليز مما مهّد لسقوط الخلافة العثمانية واحتلالهم مع الفرنسيين كل البلاد العربية بعد ثورة الشريف حسين .

• يتعرض الكتاب لِبنْية قبيلة قريش سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ودينياً ، ودور كل هذا فى تحريك الأمور فى قريش ضد أو مع الإسلام ، حتى جاءت اللحظة التى دخلت فيها قريش بأجمعها فى الإسلام ، ومن هنا بدأت تنطلق لريادة العالم العربى والإسلامى بإنشائهم الدولتين الأموية والعباسية ثم إحياء العلويين لدور قريش فى دول متفرقة.

• ويسر «دار الرشاد» أن تقدم هذه الطبعة الجديدة والمنقحة لقرائها فى العالميْن العربى والإسلامى وهى مزيدة بشجرات أنساب لم تكن مُدْرجة فى الطبعة السابقة للكتاب، وفريدة فى فهارسها العامة.

دار الرشاد



ISBN: 977-364-060-4 900000
9 789773 640606

دار الرشاد